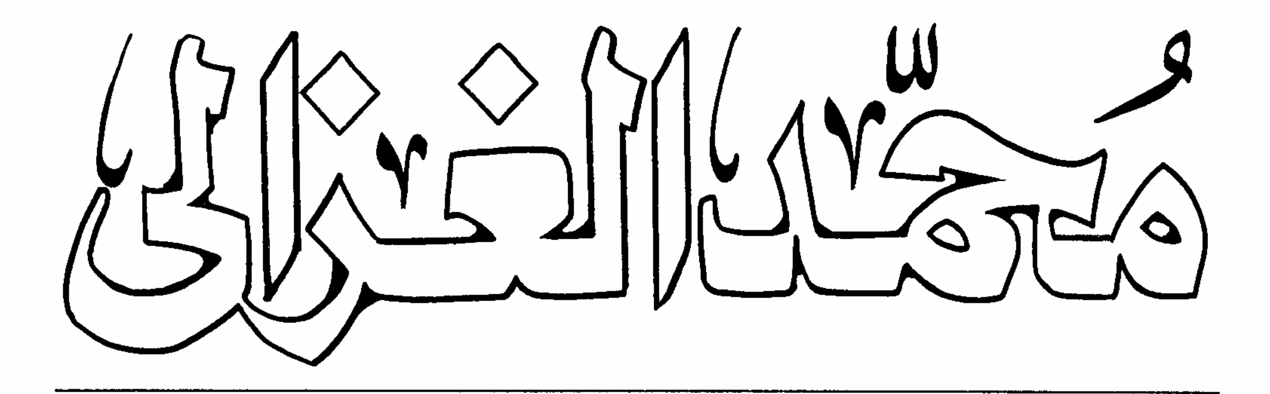


الحق المر

11

«الجزء الأول»



العنوان: الحق المر «الجزء الأول»
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالي .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة السابعة أكتوبر 2005م .
رقم الإيداع: 2003/ 8657
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2126-3

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



مقدمـــة

هذه كلمات وجيزة ، أو ومضات سريعة ، تتضمن أشتاتا من القضايا والأحكام .

قد يكون فيها تصويب خطأ شائع ، أو إحياء صواب مهجور ، أو تعليق على حدث تاريخى أو معاصر ، أو إثبات خاطرة نفيسة ، أو استثارة الهمم نحو هدف شريف . .

إن العقل المؤمن مرصد واعٍ يلتقط كل ما يمس الإسلام من قريب أو من بعيد . .

وكما أن هناك مقاييس لقوى الزلازل ، وأُخرى لدرجات الحرارة والرطوبة والتلوث مثلا ، فإن المهتمين بأمر الإسلام يرصدون ما يمسّ حقيقة رسالته ومسار دعوته وشئون أُمته ، وعوامل المدّ والجزر ، واليقظة والغفلة ، ثم يقدمون حساباً مضبوطاً لما رصدوه .

وهذا الحساب شعاع على الطريق ، وبيان لمن تتشابه عليهم الأمور . وقد يتطلب ذلك كتبا مبسوطة ، لكننا هنا اكتفينا بالإشارات العجلى معتمدين على ما تخلفه فى نفوس القارئين من حركة وانتباه . . .

ومعروف أن القارىء المعاصر قد يكتفى بالمقالات الخاطفة ، ويؤثرها على الاسترسال والإطالة ، والمهم أن ننتهز هذه الرغبة لنودع ما نكتب على عجل ، حقائق نفاذة ، وتوجيهات مجدية .

وقد تابعت ابن الجوزى فى هذا النهج ، فكتابه «صيد الخاطر» تضمن بحوثا فى سطور لكنها جليلة الفائدة ، بل لعلها أفضل من رسائل طويلة . .

إننى فى هذا الكتيّب أجمع ما تفرق تحت عنوان «الحق المرّ» الذى كانت تنشره لى مجلة «المسلمون» الصادرة فى «لندن» .

وذلك لأن جماهير كبيرة كانت لاتصلها الأعداد مع رغبتها فى قراءتها ، ثم إن من المصلحة الإسلامية حشد هذه المنثورات فى صعيد واحد .

إن الخاطر السريع قد يكون جديراً بالبقاء بقدر ما يمزق من حجب ، ويترك من صحو ، ويمحو من حيرة ، ويثبت من رشاد . .

والله من وراء القصد . . .

محمد الغزالى

هل أخطأنا الطريق ؟

قرأت أن رئيس الولايات المتحدة طلب من الباكستان ألا تمضى فى صنع القنبلة الذرية ، وأنه هدد بقطع المساعدات العسكرية عنها إن هى صنعت هذه القنبلة !

ومعلوم أن الهند سبقت إلى صنع القنبلة الذرية بعون روسى ، وأن أمريكا لم تقطع عوناً سابقاً ولا لاحقاً عن الهند لما تسلحت بهذا السلاح الهائل ! . .

وظاهر أن المراد من المسلك الأمريكى هو بقاء المسلمين أضعف فى أى صراع يمكن أن يقع ! . . .

وهو الخط ذاته الذى تسير عليه أمريكا فى الصراع العربى الإسرائيلى ، الخط الذى يجعل «دولة إسرائيل» وحدها قادرة على أن تهزم أكثر من عشرين دولة عربية مجتمعة ، وذلك بترجيح كفتها عسكرياً ومدنياً ، والتدخل المباشر إن اختلَّ الميزان .

إن البغضاء الكامنة ضد الإسلام وأمته لاتنتهى ، وأوروبا وأمريكا سواء فى هذه المشاعر المشبوبة .

وقد شعر الناس بالدهشة لأن وزير الجامعات فى فرنسا أصدر قراراً بوقف «جان كلود ريفيير» من منصبه الجامعى العالى ، وسحب شهادة الدكتوراه التى نالها الباحث «هنرى روك» .

والباحث المذكور أثبت فى أُطروحته العلمية أن إبادة اليهود فى ألمانيا النازية خرافة ، وأن الزعم بإحراق ستة ملايين يهودى فى أفران الغاز لا أساس له من الصحة ، وساق الرجل من الأدلة العلمية ما حمل الجامعة على منحه الدكتوراه ، فالسلطان فيها للعلم وحده .

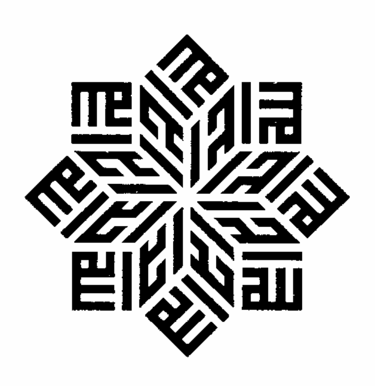
لكن المنظمات اليهودية غضبت ، ولما كان اليهود مُدَلَّلِين فى العالم الصليبى ، فلابد من إرضائهم ، والنزول على إرادتهم . .

وفى فرنسا وقع قبل ذلك ما يدعو للعجب ، فعندما أسلم «رجاء جارودى» قُدِّم للقضاء بتهمة محاربة السامية[1] ، واتفق الناشرون فى باريس على ألا يطبعوا له كتاباً ، وألا يتعاونوا مع من يتعامل معه ، وطاح مستقبل الرجل من الناحية المادية ، وإن كان قد ظل شامخاً مستنداً إلى الله وحده . .

إن هذه الأمثلة حصيلة ما قرأنا فى أيام معدودات ، أما ما تلْقاه الأمة الإسلامية من غمط وإساءة فسيل لاينقطع . . والمثير أنه يتم تحت عنوان «العلمانية» أو «الإنسانية» ولايتم تحت عناوين التعصب الدينى والأحقاد القديمة ! . .

وتغيير العنوان لأمر ما يذكرنا بحكاية البقال الذى كتب على علبة السكر : فلفل ! لماذا ؟ حتى يخطىء النمل الطريق !! فهل أخطأنا الطريق ؟ . .

* * *



(١) ومؤخرا قدم للمحاكمة بتهمة محاربة الصهيونية فى آخر مؤلفاته ومازال القضاء يحاكمه حتى الساعة ١٩٩٧٠٠ .

مطلوب جيش من الدعاة

كانت الشعوب التى سقطت فى براثن الروم والفرس يائسة كل اليأس من خلاص تظفر به يوماً . .

وأىّ أمل لمصر مثلاً - وقد ظلت خمسة قرون مستعمرة رومانية - أن تُحرر وتنجو ؟ لكان وضعها السيء أمسى قدراً لافكاك منه ! وكذلك كانت الحال على شواطئ البحر المتوسط الذى احتُلَّت أقطاره كلها أعصاراً متطاولة وتحوّل إلى بحيرة رومانية . .

بيد أن أصحاب محمد ﷺ وحدهم هم الذين كسروا أبواب السجن ، وقالوا للمسجونين المشدوهين : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

إن الذى وقع كان معجزة حقيقية ، ولم يكن يستطيعها إلا أصحاب محمد - عليه الصلاة والسلام - وحدهم ! ذلك لأنهم أسلموا لله وجوههم ، وتعرّوا من زخارف الحياة ومآرب الدنيا ، وتأثّروا بخطوات نبيهم وهو يعطى ولا يأخذ ، ويحيى ولا يميت ، وينشد الآخرة ويستعلى على العاجلة . .

وهذا النوع من الدعاة هو الذى يغيِّر وجه العالم ، وقد استشهد ربع الصحابة مع المدّ الإسلامى ! . .

ومن بقى منهم وقف حياته لنشر الإسلام بالخُلق والعبادة والتعليم والأسوة الحسنة . ! أى أن من مات مات لله ، ومن طال عمره عاش لله ، وكانت النتائج أمراً عجباً ، إن الأمم التى أسلمت لم تتخلَّ عن كفرها فقط ، بل تحولت خلْقاً آخر ! خلقاً يقول للفاتحين : إذا تراخيتم فسنتولّى نحن الدعوة ، ونرفع الشعلة ! .

إن هذا الخير الجمّ والأثر الواسع انبجس من فؤاد واحد ، فؤاد صاحب الرسالة الخاتمة ! .

وقد كان يعرف ما سوف يقع معرفة تامة ، تدبر ما رواه الشيخان عن النبى ﷺ : **«يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون : فيكم من صاحب رسول**

الله ؟ فيقولون : نعم ، فيُفتح لهم ! ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس ، فيقال : هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ؟ فيقولون : نعم ! فيفتح لهم ! . . ثم يأتى على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال : هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم » .

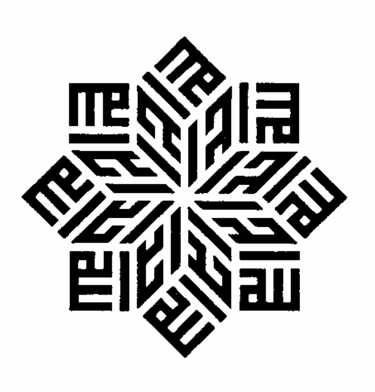
إن هذا الحوار لم يقع ، ولم يحكه تاريخ ، وإنما هو تصوير لعمل القلوب الكبيرة فى العالم ، وهو تصوير لأثر تلامذة محمد وحوارييه بين الناس ، وهو تصوير لاستجابة الشعوب لهم عن محبة ورضاء وإعجاب . .

كان أولئك الأصحاب مدارس إيمان ومنارات إرشاد .

وما أُنكر أنه جاء من بعدهم من سار على الدرب ، ومضى إلى الغاية نفسها ، ولكن الأمر كما وصف القرآن الكريم : « ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ »[1]

الذى ألحظه أن الظلام القديم عاد ، ولن يبدِّد غيومه إلا جيش كبير من الهداة الأوائل ، ممن يجددون سيرة السلف الفاتحين . . .

* * *



(١) سورة الواقعة : الآيتان ١٣ ، ١٤ .

أصحاب السلطة وحقوق الإسلام

كانت الدعوة إلى الإسلام فى دماء العرب يوم خرجوا من جزيرتهم مصابيح تكتسح الظلمة ، وموازين تبدِّد المظالم ، هكذا كان كتابهم ، وهكذا كان رسولهم .

وقد بدا ذلك جلياً فى قوله تعالى : « كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . . »[1] .

وكانت الأيام تمر بالعرب كما تمرّ السنون بالشاب المجتهد المتطلِّع ، فإذا هم على عجل طليعة الدنيا ثقافة وحضارة واقتداراً وازدهاراً . . !

فهل بقى العرب الأخلاف على ولائهم للدعوة ووفائهم بحقوقها ؟

إننى أذكر هاتين الواقعتين من تاريخنا وأقف متأملاً .

كتب الأستاذ «عبد الحليم الجندى» فى تأليفه القيم «**القرآن والمنهج العلمى المعاصر**» يقول : حسب القارىء بياناً لمدى الانتفاع بعلوم الأندلس فى عالم الظلمات الأوروبى خطاب صادر إلى الخليفة هشام الثالث (٤١٨ ـ ٤٢٢هـ) فى نصه غنى عن أى تفصيل جاء فيه :

«من جورج . . الثانى ملك إنجلترا وفرنسا والنرويج إلى الخليفة هشام الثالث .

بعد التعظيم والتوقير .

سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم فى بلادكم العامرة ، فأردنا لبلادنا اقتباس هذه الفضائل لنشر العلم فى بلادنا التى يحيطها الجهل من أركانها الأربعة .

وقد وضعنا ابنة شقيقتنا الأميرة «دوبانت» على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز . . .»

من خادمكم المطيع «جورج » .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية : ١ .

وفى بحث تاريخى للدكتور **عبد الهادى التازى** يعتب الباحث الذكىّ على « ابن خلدون » إهماله لوقائع جديرة بالتسجيل ، يقول : « **ولأذكر على سبيل المثال العرض الذى تقدم به «جوهان» ملك إنجلترا إلى الخليفة «الناصر» بواسطة السفارة التى بعث بها إلى البلاط الموحدى (٦٠٨هـ ١٢١٢م) .**

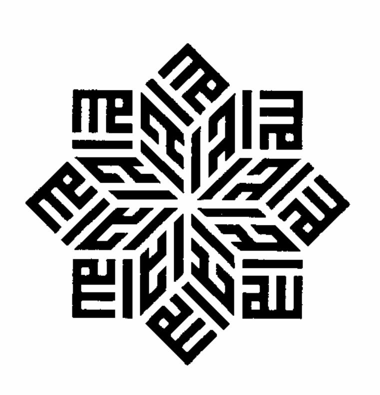
لقد جاء فى هذا العرض طلب مساعدة عسكرية من الموحدين ضد النبلاء ورجال الدين والأهالى ، ودليلاً على الامتنان عرض الملك «جوهان» ملك إنجلترا أن يعتنق الإسلام هو وسائر أفراد رعيته » . . . !!

يقول الدكتور التازى : «عبارة فى مثل هذه الأهمية رددتها المصادر الإنجليزية بإسهاب ، وذكرت أفرادها واحداً واحداً ، يسكت عنها ابن خلدون ؟ » ا . هـ .

وإذا كانت الناحية العلمية ظلمت بهذا الصمت ، أو هذا الإهمال كما يلاحظ الباحث ، فنحن نرى أن الدعوة الإسلامية قد ظلمت أكثر وأكثر فى المثالين اللذين سقناهما هنا . .

وظاهر أن أصحاب السلطة السياسية فاتهم الوفاء بحقوق الإسلام ، ولم يكترثوا كما يجب باستغلال تفوقهم الحضارى فى نشر الدعوة ، ولو عن طريق معاهدات ثقافية متكافئة ! فبم نصف ذلك ؟ ! .

* * *



مفهوم خطأ عن أبى ذر

قال لى : أنا مع اليسار الإسلامى ! فلبثت ملياً ثم قلت : الإسلام دين ليس له يسار وليس له يمين ، إنه نهج فذٌّ يخالف المغضوب عليهم كما يخالف الضالين . . .

قال : أعنى أننى مع رأى أبى ذر ﷺ . . .

فتفرست فيه ثم أجبته : إننى أعرف أنك شيوعى فهل أنت مع «أبى ذر» فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ؟

هل أنت مع الرجل الصالح فى أداء الفرائض من صلاة وصيام وترك المناكر من خنا وبغى ؟

هل أنت معه فى الإيثار والمرحمة فلا تبقى لديك فلساً لأنك أسرع الناس إلى البذل والمواساة وطلب الآخرة ؟ !

إن أبا ذر ﷺ عاش زاهداً مجاهداً لم يخذل الإسلام فى موطن ولانكص فى معركة ، بل كان أصرح الناس رأياً ، وأشدهم فى الله بأساً ، فما أنت و « أبو ذر » ؟ . .

قال : أنا أُتابعه على رأيه فى المال ، إنه يحرم ألا يستبقى أحد عنده فوق حاجته . . .

قلت ضاحكاً : أحسبك تكلف الآخرين بهذا الرأى ، أما أنت فما أحسبك تتنازل للفقراء عن قصر ملكته بطريقة ما ، أو مزرعة جاءتك ولو بطريق الميراث . .

لقد ظننتم « أبا ذر » شيوعياً ، والرجل بعيد عن هذه النزعة ، إنه مسلم صالح يتبع القرآن والسنة ولايعدل بهما شيئاً فى الأولين والآخرين . . .

والمسلمون كلهم يرون أنه فى الأزمات التى تهدِّد الإسلام وتهُزُّ أركانه يجب ألا يدخر أحد نفساً ولا مالاً ، وقد كان جمهور المؤمنين فى الأيام العصيبة ـ مثل غزوة العسرة ـ يتنافسون فى دعم الجهود الحربية ، فمنهم من يُخْرج من ماله كله ، ومنهم من يُخْرج من ماله نصفه ، ومنهم من يبذل القناطير المقنطرة . .

وكذلك كانوا يتباذلون فى أيام السلام ، فلا يَدَعون محروماً ولا يُضيعون ضعيفاً ، ونهضت تقاليد الكرم وخفتت نوازع الشح ، واستقرَّ بين الناس إنفاق ما زاد على الحاجة . . .

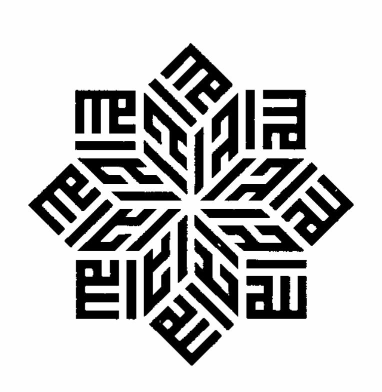
لكن شيئاً من ذلك لم يعطل آيات المواريث ، ولم يمنع أصحاب الفضول أن تكون لهم مدخرات تنفعهم فى غدهم ، وتنفع ذراريهم من بعدهم ، ولم يختف التفاوت بين الأغنياء والفقراء فى مقادير الثروات التى يحوزونها . . .

الذى اختفى هَو التضوُّر والبأساء ! ربما ظن « أبو ذر » أن النعماء التى شاعت أن أحداً لم يمسك شيئاً يزيد على حاجته ، وربما سبق إلى ذهنه أنه يحرم الادخار على المؤمن .

لقد اتفق أولو الرأى والعقل على أن ذلك خطأ . فهل يعنى ذلك اتهام الرجل الصالح بأنه من اليسار الإسلامى ؟ ! !

إن الشريعة فى البناء أخت العقيدة فى الأساس ، ومع الشريعة والعقيدة معاً نسير ، ونرفض أى تحريف . .





مغالطات العلمانيين

أحد الذين حضروا ندوة «الإسلام والعلمانية» سألنى : لماذا لم تجب عن تساؤل الدكتور **فؤاد زكريا** : ماذا يفعل الإسلام لحل مشكلة الديون المصرية ؟

قلت : وجدت السؤال ساذجاً ! ولو قال : ماذا يفعل الإسلام لعلاج أخطاء العلمانية الاقتصادية لسارعت بالجواب !

قال : وما هذه الأخطاء ؟ فرددت بسرعة : إن مصر بعد الحرب العالمية الثانية كانت دولة دائنة ، وكانت القيمة الذاتية للجنيه المصرى خمسة أضعاف الدولار الأمريكى ! فما الذى جعل الدولة الدائنة مدينة ؟ !

وما الذى جعل الجنيه يساوى فى الأسواق نصف دولار ؟ ! !

تلك آثار العلمانية الاقتصادية ، وعبقريتها فى التخريب المادى والأدبى !

والسخيف أنها تخفى هذا الفشل تحت ثوب من الترفُّع والتعالم ! !

ثم نقول للمسلمين : ماذا ستفعلون لحل المشكلة ؟ المشكلة التى وضعوا هم بذورها . .

قال : إن كثيرين يردِّدُون هذا السؤال معهم : فلننس ما كان ولنجب نحن !

قلت : لا بأس ، إننا ـ باسم الإسلام ـ نتحرك وأمامنا هذه الحقائق :

أولا : إذا كنا مدينين بستة وثلاثين ملياراً من الدولارات فهناك ضعف هذا المبلغ من الثروة المصرية موجود فى البنوك الخارجية ، وينبغى أن يعود كله أو جلّه . . .

ثانياً : الإنتاج العام عندنا ضعيف إلى حد مخيف ، ويكاد يوم العمل يهبط إلى ساعة واحدة بينما هو فى الدنيا ثمانى ساعات . إن المديرين والمنفذين يتحركون بغير حماس وبلا وعى ! ويجب أن يتغير هذا كله .

ثالثاً : آن الأوان لمحو تقاليد السرف والترف ، ومقاتلة المخدرات والمسكرات جميعاً ، وإرغام أصحاب الكروش على شد الأحزمة ، والعيش كسائر الناس .

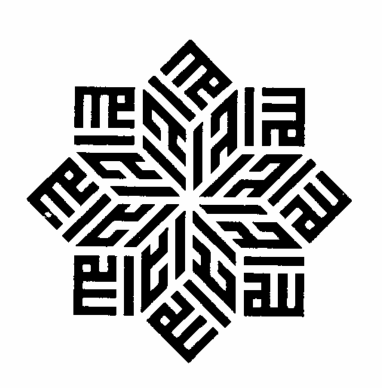
رابعاً : عند التأمل سنجد أن الدول الفقيرة سدَّت ما عليها ، ولكن ما دفعته ذهب فى الفوائد الربوية ، وفى رواتب الموظفين والخبراء الأجانب الذين يصحبون المشروعات الإنمائية أى أن الدول الغنية تقوم بأعمال سرقة ونهب وتغرير واحتيال ، ويجب فضح هذا المسلك .

قال صاحبى : اشرح لنا السياسة الإسلامية التى تنظر إلى هذه الحقائق . . !

قلت : إننى على استعداد ، لكن بعد أن أسمع من العلمانيين كيف جعلوا الأمة الدائنة مدينة ، وكيف جعلوا العملة النفيسة خسيسة . . .

إن هؤلاء البله يحسبون أن الإسلاميين سيقيمون حلقة ذكر لحل المشكلة ! . . .

* * *



العلاقة بين الأديان

كنت أتمنى أن تكون العلاقة بين الأديان المختلفة ـ خصوصاً السماوية ـ أفضل مما هى عليه الآن ، وألا تدحرجها الأطماع إلى المستوى الذى بلغته . . .

إن اليهود فى غارتهم على فلسطين يكشفون عن وجههم الدينى ، ويصرخون بأنهم يلبّون نداء التوراة والتلمود وأنهم يريدون تسلّم ميراث أبيهم إبراهيم . . !

وقد رأى العرب لأمر مّا ! إبعاد الطابع الدينى عن هذا النزاع الدائم النزيف ، وقرروا فى المحافل الدولية كلها أنهم يطالبون بالحقوق المجردة لعرب فلسطين ، الحقوق الإنسانية وحسب . ! !

ولايزال السيد : **ياسر عرفات** يقول باسم الفلسطينيين : إنه يريد إقامة دولة علمانية تسع الأديان كلها . .

وهناك عدد من الدول الصغرى ، والدول الأوروبية ذات المصالح الاقتصادية يساند هذا الاتجاه ، بعد أن اطمأن إلى أن الإسلام فى النظام المقترح سيكون شكلا واهن الموضوع !

بيد أن الأمور لاتزال تتدحرج من سيىء إلى أسوأ . . . فهاهو ذا مستر «نيكسون» زعيم الولايات المتحدة الأسبق يخرج من محنته ليهدد بحرب صليبية ، وكذلك فعل مستر «أدوارد لوتواك» مستشار الإدارة الأمريكية الحالية مما جعل المعلق فى إحدى الصحف الأردنية يتساءل ساخرًا : متى وقفت الحملات الصليبية ونحن نشهد باستمرار آثارها الاقتصادية والثقافية والسياسية ؟ ! . .

لكن الطين زاد بلة بعد زيارة بابا الفاتيكان للكنيس اليهودى فى روما ومشاركته فى حفل دينى أقامه الصهاينة ! إن هذه الزيارة لو كانت صامتة لكانت دلالتها ناطقة !

فكيف وقد حيّا المجتمعين وزكّى اليهود ، وقال لهم - وفق الترجمة التى قدمها لى الخبراء - : إنكم إخوتنا المفضلون ! .

مفضلون على مَنْ يارجل الدين الكبير ؟ ! ! على عرب فلسطين المحرومين ؟ ! . . .

وأُوثر أن أنقل عبارات بابا المسيحية الأكبر عن جريدتى «التحرير» و«الصباح» الفرنسيتين الصادرتين فى ١٤ أبريل سنة ١٩٨٦ .

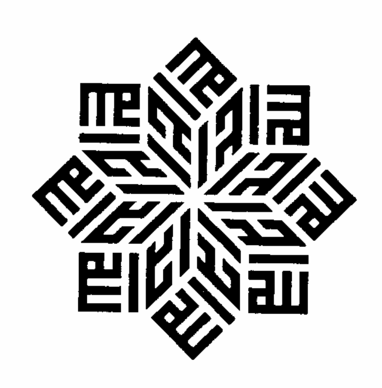
قال للحاخامات الذين استقبلوه : تربطنا بكم علاقات لاتربطنا بأى دين آخر ، أنتم إخوتنا المفضلون ، أو بتعبير آخر نستطيع أن نقول : أنتم إخوتنا الكبار !! .

وعندما يتحدث البابا عن المسيح يقول مخاطباً اليهود : يسوع الناصرى ابن شعبكم !

وقد علقت الجريدة الفرنسية على اللقاء السابق بأنه يتم وسط أحداث يبرز فيها إسلام متعصب متزمت ، يقابله تيقظ الضمير الدينى للحروب الصليبية ! !

لست أدرى ماذا يقول العرب ؟ وماذا سيفعلون ؟ ! . .

* * *



الجمعيات الإسلامية بالخارج

زرت مسجد «باريس» وألقيت به عدة محاضرات ، وتحدثت مع رواده ودرست بعض قضاياهم وكونت فكرة مجملة عن شئونهم المادية والأدبية .

وعندما نظرت إلى صفوف المصلين ، وأنا أخطب الجمعة أحسست أن سوادهم من هذا الصنف الذى إن حضر لم يُعرف وإن غاب لم يُفتقد ! إنه صورة نبيلة لجماهير المسلمين المحبين لدينهم الحريصين على إحياء شعائره وإسراج منائره . .

لكننى لما درست أحوال بعضهم مسّنى الضرُّ وشعرت بالقلق ! إنهم ينتمون إلى جمعيات شتى ، وينتشر بينهم خلاف وجدال طويلان . ! !

قال لى صديق : ليس فى كثرة الجمعيات ضرر ، قلت : ذاك لو كان التعدد نوعياً ، هذه لتعليم اللغة العربية ، وهذه لرعاية الشباب ، وهذه للرياضة البدنية ، وهذه لتيسير الزواج بين المغتربين والمغتربات ، وهذه للرحلات إلى الداخل والخارج ، وهذه لدراسة شبهات المبشرين والمستشرقين ، وهذه لزيارة الأحزاب والمؤسسات الفرنسية . . . إلخ .

أما انقسام هذه الطائفة الإسلامية المحدودة إلى سلف وخلف ، وحركيين وصوفيين ، ومالكيين وحنفيين ، وشيعة وسُنّة وأعراب وأعاجم . . . إلخ ، فهذا بلاءٌ مخوف العواقب ، إن كان محقور الشر اليوم فربما أودى بالجميع غداً . . .

لقد حذّرت وما زلت أُحذِّر من نقل العلل القديمة إلى هذا المجتمع الجديد .

أعرف أن الأوروبيين تشيع بينهم شهوات منكرة ، لكن هذه الشهوات ـ على دمامتها ـ أقل فتكاً بالأمم من حب الرياسة وطلب الظهور ، وتحوُّل الناس إلى شراذم يقودها أمكرها أو أضراها .

قال لى صديق : كان هناك خمسة أشخاص يريدون تكوين جمعية ، فقال أحدهم : أنا الرئيس العام ، وقال الثانى : أنا نائب الرئيس العام ، وقال الثالث : أنا الوكيل العام ، وقال الرابع ، أنا المراقب العام .

قلت : يجب أن يقول الخامس : وأنا العضو العام . !

إن فراغ النفس والعقل وراء التطلع إلى الصدارة ، واختلاق تشكيلات كثيرة لإشباع رغبة طفولية . .

إننى أنصح المسلمين فى كل بلد أوروبى يعيشون فيه أن يكونوا ـ شكلاً وموضوعاً ـ موضع إعجاب الأمة التى نزلوا بأرضها ، ولن ينالوا هذا الإعجاب إلا إذا كانوا آية باهرة فى تربيتهم وثقافتهم ومسالكهم ، هنالك فقط ينتظرون البقاء والنماء .

يكره الإسلام الأمراض النفسية كراهية شديدة ، ويراها أسوأ عقبى وأعم ضرراً من الأمراض البدنية ، والواقع أن عمى البصر أخف من عمى البصيرة ، ودمامة الوجه أهون من دمامة الروح .

وقد رأيت فى حديث نبوى واحد استعاذة من جملة علل نفسية تهبط بقيمة الإنسان وإنتاجه ، وتحول بين الشعوب وبين أية مكانة مرموقة .

والحديث كما صح فى المأثورات : **«اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال . »** !! .

ثمانية أدواء هى فروع من شجرة خبيثة تستحق القطع ، لأن واحداً منها يجلب الضرّ ، فكيف بها مجتمعة ؟ ! .

وننظر على عجل إلى كل واحد من هذه الثمانية !

أولها : الهمّ ، وهو انشغال القلب بما يثير الكآبة دون قدرة على ردّه ، والمهموم يواجه الحياة ببعض قواه ، لأن البعض الآخر مقيد أو مغلول .

والثانى : الحزن ، وهو انهزام النفس أمام ألم غالب ، واستقبال الحياة كأنها خريف دائم ، والمحزون سجين يأسه وقعيد مآسيه ، وقلما ينهض بعمل كبير .

والثالث ، والرابع : العجز والكسل ، وهما ـ فيما رأيت ـ من آفات العالم الثالث ، ترى الرجل يخرج العمل من بين أصابعه شائهاً مقبوحاً ، وكان يستطيع إتمامه وتحسينه ، وربما فكر فى صلاة الاستسقاء والماء إلى جواره على مدى سهم ! .

وقد رأيت من يجلس واضعاً قدما على أخرى قريباً من قمامة لايفكر فى إزالتها ، أو تتساقط المياه حوله من «حنفية » معطوبة فلا يفكر فى إصلاحها ! .

إنها بلادة تنشأ فى نفس الفرد ، ثم تنمو فى أرجاء البيئة ، فإذا أم فقيرة تعيش فوق أرض خصبة ، أو أم محجوبة الرؤية يطرق أبوابها الأجانب ليستخرجوا من تربتها أنواع المعادن السائلة والجامدة ! .

والخامس والسادس : الجبن والبخل ، وهما آفتان متلازمتان ، فالضنين بماله لايجود بروحه ، أو الجواد بنفسه لايبخل بماله . وكلا الرجلين لايذوق طعم الحياة الرفيعة ، وكيف يتأتى هذا المذاق لجبان يعتذر عن هروبه بهذا الكلام : لأن يقال : فر لعنه الله ، خير من أن يقال : مات رحمه الله ! أو لبخيل يحصِّن ثروته بإراقة حياته وابتذال نفسه ؟! .

والسابع والثامن : غلبة الدين وقهر الرجال . ونحب التنبيه إلى أن الاستدانة لأى رغبة عارضة ، مع العجز عن الوفاء لون من السرقة ، فإن السارق يتناسى حقوق الآخرين فى أموالهم ولايذكر إلا إشباع نهمته الخاصة ، وكذلك كل من يستدين لغير سبب معقول .

أما قهر الرجال ، فبلاء ينغص حياة الشرفاء ، ويرون الموت دونه ، ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بدٌّ .

صلوات الله على صاحب الرسالة الهادية الشافية ، واللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت . . .

* * *



الإيمان غنى بأدلته وحقائقه

يعرف المشتغلون بالثقافة الإسلامية أن شرائع الحدود والقصاص فرع من أصل قائم وركن جامع ، وأنها إذا انقطعت عن أصلها الذى انبثقت عنه أو ركنها الذى نهضت عليه أشبهت أطراف الجسم إذا انفصلت منه لسبب أو لآخر ، إنها لاتساوى شيئاً ! .

ولو أن دولة فى شرق أوروبا أو غربها تبنت العقوبات الإسلامية - لأمر ما - ما اعتنقت بذلك الإسلام ، ما دامت باقية على عقيدتها أو فلسفتها !

إن ارتباط الشريعة بالعقيدة لايمكن فكّه ولا التهوين منه ، ولذلك فإن إدارة أى حوار حول التشريعات الفرعية يكون ضرباً من اللغو إذا لم نجب بحسم عن الأسئلة الآتية :

هل الألوهية حق ؟

هل للّه وحى ملزم ؟

هل الإنسان حرّ فى تجاوز مراد اللّه ؟ .

إن الذى يجهل من أين جاء ، ولماذا خلق ، لا معنى للحديث معه فى صلاة أو صيام . . .

ومع ذلك فسأترك الحديث عن الإيمان وما يرتبط به من أنظمة خلقية خطيرة وتقاليد اجتماعية بعيدة الأثر ، وسأشارك فى أى حوار يُقترح حول القيمة الإنسانية لأى تشريع فرعى أو أى حكم فقهى ، يكون معلوما من الإسلام بالضرورة ، بيد أن من حق الباحث المسلم أن يتساءل : هل هذا الحوار حرّ حقاً ؟ !

هل سيكون ختاماً لسياسة العصا الغليظة التى استخدمت عشرات السنين ، وأصابت الفكر الإسلامى بعاهات مستديمة ؟

أننى مستعد للنسيان وبدء صفحة جديدة أساسها الإقناع الحرّ ، إننى أُومن بالحرية إلى أبعد مدى ، وعندما أعجز فى ظلها عن بلوغ هدفى أعلن انسحابى من الحياة العامة !

إن الإيمان ليس فقيراً فى أدلته وحقائقه حتى يخاف الحوار !

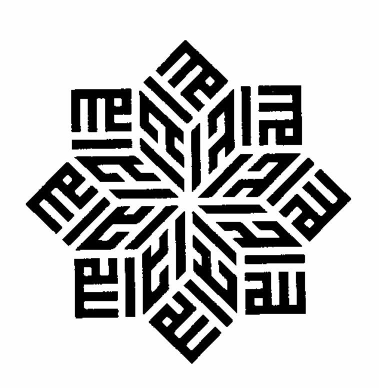
لكنى أوجّه سؤالا له ما بعده . .

هل الديمقراطية أن يحكم الشعب نفسه بنفسه إلا أن يكون مسلماً فإنه يجب أن يحكمه غيره بقوانينه وتعاليمه المستوردة ؟

وسؤال آخر يخرج من المنبع نفسه : هل القلة تنزل عن رأيها وتتبع الكثرة فى جميع البلاد الحرة إلا فى الأقطار العربية والإسلامية ، فإن للقلة أن تفرض نفسها بالقهر الإعلامى ، والسلطات المفروضة ؟ ثم تبلغ الجرأة حدّها الأقصى فيقال : إن ذلك تمّ باسم الشعب ؟ ! ! .

مرحبا بالحوار فى ظل الصدق ، والنزاهة ، وكرامة الأفراد والجماعات .





شهر الطعام، لا شهر الصيام

أعلم أن رمضان حق ، وأن صومه فرض ، وأن قيامه مستحب ، وأن أوقاته أزكى من سائر العام ، ومن ثم استثيرت لها الهمم ، فنادى مناد من قبل الحق : **يا باغى الشر أقصر ، ويا باغى الخير هلمّ !** وعلى المؤمنين أن يفوزوا فى هذا السباق . . .

ولكننى عندما يقبل رمضان أشعر بالوجل ، لا من العبادات المفروضة بل من العادات السائدة ! فقد أبى المسلمون إلا تعكير رونق الشهر المبارك بما استحدثوه من أمور لاتصح بها دنيا ولا يصلح بها دين . .

المعروف أن الليل سكن للأنفس ، وأن السهر فيه قد يكون من شرطى يحرس الأمن أو جندى يحمى الثغور أو طبيب يرعى المرضى أو عامل فى نوبته لمواصلة الإنتاج ! والسهر فى رمضان إنما هو تهجد لمناجاة اللّه وقراءة كتابه والتسبيح بحمده والإعداد للقائه !

فما معنى أن يسهر المسلمون فى رمضان للتسلية الفارغة واللغو الطويل ؟ !

وما معنى أن تعدّ لهم برامج خاصة كى يضحكوا ؟ ومن حقهم أن يبكوا أو يهدءوا ، ومن حقهم أن يشكوا ، ألا يحس المسلمون ضراوة العدو بهم ونيله الشديد منهم ؟ ! ! .

إن نصف الأُمة الإسلامية يترنح تحت وطأة الاستعمار الصليبى والشيوعى ، والنصف الآخر يرى دينه منكور التوجيه فى أكثر من ميدان ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً . ففيم المجون والضحك ؟ ! ! .

ومعروف أن استهلاك الأغذية يتضاعف تقريباً فى رمضان ، وأن الحكومات توفر مزيداً من السلع لاستقبال الشهر ، وكأنما هو شهر الطعام لاشهر الصيام . ويبدو أننا نجوع كثيرًا لنأكل كثيرًا ، وما شرع اللّه الصيام لهذا النوع من الفعل ورد الفعل ! إن شريعة الصيام تدريب على جهاد النفس والتحكم فى مطالبها ورغائبها وإخضاعها لضوابط الأمر

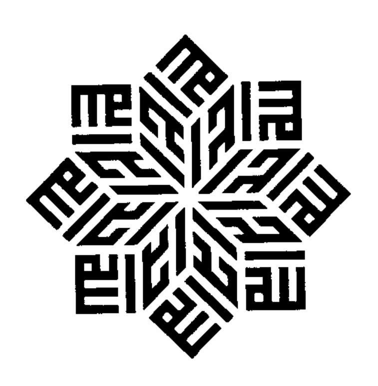
والنهى ، وإشعار الإنسان أنه روح قبل أن يكون جسماً ، وعقل قبل أن يكون هوى وغرائز . . .

والحضارة المعاصرة نسيت هذه الحقائق كل النسيان ، وبنت سلوكها على إجابة النداء الحيوانى للأجهزة الدنيا فى البدن ، وعلى اعتبار الكبت ـ مهما شرف سببه ـ ضاراً بالإنسان ! !

ترى ما الفرق بين البشر وغيرهم من الحيوانات إذا كان الإنسان يفعل ما يحلو له دون أى اعتراض ؟

أرجو أن يقدم المسلمون سلوكاً فى رمضان يشرف هذه العبادة الرفيعة وتنتعش به الروحانية الذابلة فى عالمنا . . .

❋ ❋ ❋



كيف ندعو إلى الإسلام ؟

دخلت مكتبى فتاة لم يعجبنى زيُّها أول ما رأيتها ، غير أنى لمحت فى عينها حزناً وحيرة يستدعيان الرفق بها ، وجلست تبثنى شكواها وهمومها متوقعة عندى الخير ! .

واستمعت طويلاً ، وعرفت أنها فتاة عربية تلقت تعليمها فى فرنسا ، لا تكاد تعرف عن الإسلام شيئاً ، فشرعت أشرح حقائق ، وأرد شبهات ، وأجيب عن أسئلة ، وأُفنِّد أكاذيب المبشرين والمستشرقين حتى بلغتُ مرادى أو كدت ! .

ولم يفتنى فى أثناء الحديث أن أصف الحضارة الحديثة بأنها تعرض المرأة لحماً يغرى العيون الجائعة ، وأنها لاتعرف ما فى جو الأسرة من عفاف وجمال وسكينة . . .

واستأذنتْ الفتاة طالبة أن آذن لها بالعودة ، فأذنتُ . . .

ودخل بعدها شاب عليه سمات التدين يقول بشدة : ما جاء بهذه الخبيثة إلى هنا ؟ فأجبت : الطبيب يستقبل المرضى قبل الأصحاء ، ذلك عمله ! !

قال : طبعاً نصحتها بالحجاب !

قلت : الأمر أكبر من ذلك ، هناك المهاد الذى لابد منه ، هناك الإيمان بالله واليوم الآخر والسمع والطاعة لما تنزل به الوحى فى الكتاب والسُّنّة ، والأركان التى لايوجد الإسلام إلا بها فى مجالات العبادات والأخلاق . . .

فقاطعنى قائلا : ذلك كله لايمنع أمرها بالحجاب . .

قلت فى هدوء : ما يسرنى أن تجيىء فى ملابس راهبة ، وفؤادها خال من الله الواحد ، وحياتها لاتعرف الركوع والسجود ، إننى علمتها الأسس التى تجعلها من تلقاء نفسها تؤثر الاحتشام على التبرج .

فحاول مقاطعتى مرة أخرى فقلت له بصرامة : أنا لا أحسن جَرَّ الإسلام من ذيله كما تفعلون ، إننى أشد القواعد وأبدأ البناء بعدئذ . وأبلغ ما أريد بالحكمة . . .

---

(١) سورة الرعد : الآية : ٣١ .

وجاءتنى الفتاة بعد أسبوعين فى ملابس أفضل ، وكانت تغطى رأسها بخمار خفيف ، واستأنفتْ أسئلتها . واستأنفتُ شروحى ، ثم قلت لها : لماذا لاتذهبين إلى أقرب مسجد من بيتكم ؟ .

وشعرت بندم بعد هذا السؤال . لأنى تذكرت أن المساجد محظورة على النساء ! لكن الفتاة قالت : إنها تكره رجال الدين ، وما تحب سماعهم !

قلت : لماذا ؟

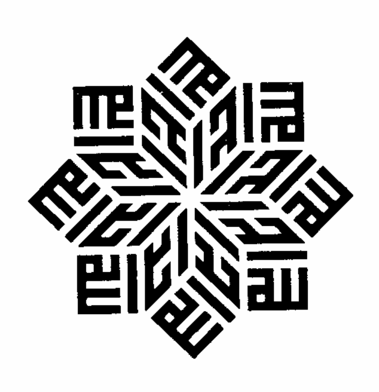
قالت : قساة القلوب غلاظ الأكباد ! ! إنهم يعاملوننا بصلف واحتقار . . !

ولا أدرى لماذا تذكرتُ « هند امرأة أبى سفيان » التى أكلت كبد حمزة رضي الله عنه ونالت من الإسلام ما نالت ، إنها كانت لاتعرف رسول الله ، فلما عرفته واقتربت منه وآمنت به قالت له هذه الكلمات : « **يارسول الله : والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب أن يذلُّوا من أهل خبائك !! وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباءٍ أحبَّ إلىّ أن يَعِزُّوا من أهل خبائك** » .

* * *

إن نبع المودّة الدافق من قلب الرسول الكريم بدل القلوب من حال إلى حال ، فهل يتعلم الدعاة ذلك من نبيهم فيؤلفوا بدلا من أن يفرقوا . ويبشروا بدلا من أن ينفروا ؟ ؟ . . .





متى نستفيد بأخطاء أعدائنا

درست الهزائم الكبيرة التى أصابت أعداء الإسلام فى بدر ، وعند مكة عام الفتح ، وحزنت أن المشركين هم صانعو هذه الهزائم ، وملحقوها بأنفسهم !

قلت : ما كان أغنى هؤلاء عن القتال فى بدر بعد ما نجت قافلتهم وفقدت الحرب سببها ! لكن الزهو والغرور لعبا بقادة الكفر فمضوا فى طريق البطر والرياء يقولون : لابد أن يسمع بنا العرب ، وأن نقوم باستعراض للقوى يذل جانب الإيمان ويكسر أفئدة الداخلين فيه . فنشبت الحرب لغير ضرورة ، وكانت الكبرياء التى دفعت إليها هى القطرة التى فاض بها الإناء أو القشة التى قصمت ظهر البعير كما يقولون ، فإذا القوم يكسو وجوههم الخزى بعد ما غلت مراجل الغضب الإلهى وأنزلت بهم ضربة لايمحوها اختلاف الليل والنهار ! .

إن أخطاء المبطلين لاتتبدد ، وإنما تتراكم فى سجل دقيق حتى إذا بلغت حداً معينا أحاط بهم أولها وآخرها ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١)

وما حدث فى بدر حدث مثله فى غزوة الفتح ، فإن معاهدة « الحديبية » تفرض على الناس هدنة مدتها عشر سنين ، تستطيع دولة الوثنية خلالها أن تبقى كما شاءت . !

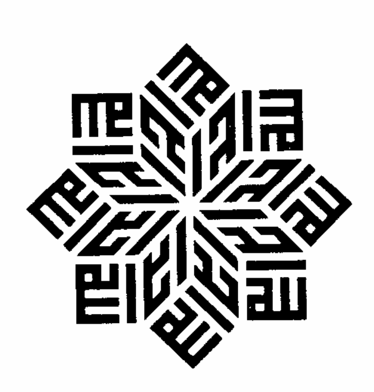
لكن الفكر المتمرد على الله له سوْرات ينتحر بها وهو يحسب أنه ينتصر ، فقد أبى قادة الوثنية إلا إلغاء نص واضح فى شروط الهدنة ، وهاجموا فى الأشهر الحرم قبيلة كانت موالية للمسلمين ، فاستباحوها واستباحوا الحرم نفسه ، وعرفوا بعد فوات الأوان أنهم أخطئوا ، وهيهات أن يفروا من دفع الثمن ، لقد دفعوه بالإجهاز على دولتهم بعد عامين فقط من السنوات العشر التى ارتضوها هدنة عامة . .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١٣ .

إن أخطاء أعداء الله كثيرة ، بيد أن السؤال الخالد : من الذى يستطيع استغلال هذه الأخطاء وتحويلها لمصلحة الحق ؟ ! يستطيع ذلك مؤمنون ترشحهم خلالهم لوراثة الأرض والإمساك بزمامها على نحو أقرب للشرف والعدل وخشية الله ، وكفار زماننا لايقلون شراً عن أندادهم الأولين . ويظهر أن زمام الدنيا قد يبقى فى أيديهم زمنا أطول ! لماذا ؟ فى رأيى لانعدام الورثة الذين يصرفون شئون الناس بمواريث الوحى الأعلى ، إننا نحن المسلمين لم نستكمل بعد خلال القيادة الروحية والفكرية لجماهير البشر ، وسنن الله الكونية والاجتماعية لاتعرف المحاباة .

* * *



رقابة الله أساس المسئولية

قال المدير العام لجمهور الموظفين : إننا بتوجيهات السيد وكيل الوزارة قد نفذنا القرار الصادر فى مدة وجيزة ، وبتكاليف قليلة . . .

وقال وكيل الوزارة فى اجتماع كبار الموظفين : إننا قد استلهمنا من روح الوزير الساهر على المصلحة العامة ما جعلنا نحقق الخطة الموضوعة فى زمن قياسى ، وبطريقة حكيمة . . .

وقال الوزير المختص فى تصريح لرجال الصحافة : إن وزارتنا قامت بأعمال لا نطيل فى الحديث عنها . فسوف تكشف الأيام عن عظمتها ، وقد تم ذلك كله بفضل السيد رئيس الوزراء ، ويقظته التامة فى حماية حقوق الأمة . . .

وقال رئيس الوزراء : إننا وراء القيادة الحكيمة للسيد الرئيس وانطلاقاً من نصائحه الغالية قد حققنا لشعبنا العظيم ما ينشده من رخاء واستقرار .

وقال السيد الرئيس لرجال الإعلام الذين احتشدوا من حوله : إن الجماهير الواعية هى التى أمدتنا بالحماس والقدرة ، وإن شعبنا الطموح قد علّمنَا أن نثابر وأن نضاعف الإنتاج ، فالفضل للشعب أولا وآخرا . .

وذهبت للشعب أسأله بماذا أوحيت ؟ وأمليت ؟ فأجاب : لا أدرى شيئاً ! .

قلت : لقد تبَيّن من هذه الإجابة أنك أنت المسئول عن كل ما يحدث !

قال : كيف وأنا لا أدرى شيئاً ؟ . قلت : لأن كل المقررات الصادرة تقوم على عدم الدراية ، فجهلك هو السبب الرئيسى فى هذه السلسلة من ألوان الملق والكذب ، إن عدم درايتك هو الذى أتاح الظروف لكل هذه التصريحات الخاوية ، إنه الوالد الأول والأخير لها ، ولو كنت تدرى ما وقع شىء منها . . ! !

لماذا لاتقوم الأعمال فى أرجاء الأمة الإسلامية على رقابة الله وحده فى استقلال الشخصية ، وتحمّل كل امرىء مسئوليته بشجاعة واعتزاز ؟ إن العمل لاسترضاء الغير وتأسيس مكانة عنده هو لون من الشرك ، ألم يقل رسولنا : « **الرياء شرك** » ؟

الغريب أننى راقبت العمل فى ميادين أخرى ، وبين جماهير غير جماهيرنا . فوجدت كل امرىء يؤدى واجبه فى صمت ، ويستند إلى عمله وحده فى تقرير حقه وتثبيت كرامته ، دون تعويل على زلفى ، أو ذوبان فى رئيس ! . .

* * *

خطورة الخلافات الفرعية

شهدت نزاعاً محتدماً بين فريقين من الناس ، أحدهما يرى الإسرار بالتأمين وراء الإمام والآخر يرى الجهر به ! واقترح بعضهم الاحتكام إلىّ كى أضع حداً لهذا النزاع . . .

قلت : التأمين دعاء . والمهم فيه الضراعة والرجاء ، فإذا اشتد النبض فى الدعاء فَعَلا ، أو غلب التذلل فَخَفَت ، فالأمر سواء . . !!

قال أحد السامعين وعيناه تبرقان : ما فهمنا شيئاً !

قلت له : نعم وأنتم أهل ذلك ، فأنتم تريدون إجابة ترضى شيطان العناد الذى ينفخ فى هذا الجدال الحادّ ، ويجعل منكم أعداء متدابرين ، وإذا لم يكن بد من إجابة فقهية فاعلموا أن الإسرار مذهب ، والجهر مذهب ، وكلاهما وارد ومأجور إن شاء الله .

وانصرف عنى الفريقان ضائقين ، وشعرت بالراحة لابتعاد أنفاسهم عنى . . بل شعرت بفقر أولئك الناس إلى المربّى الطويل البال ينقلهم إلى مستوى أرفع مما هم فيه من جلافة تعزلهم عن روح العبادة وأدب الصلاة . . .

إن ذلك الخلاف الفقهى نموذج لعشرات من أمثاله تشغل الدهماء ، وتوقد الفتن وتوهى الأخلاق وتقطع ما أمر الله به أن يوصل . . .

ويخيَّل إلىّ أن هذه الخلافات الفرعية تشبه صور الجراثيم التى تعرض علينا فى كتب الصحة ويقال تحتها : « **ميكروب** » مرض كذا مكبرٌ ألف مرة ! ! .

وتكبير هذه الرسوم لمعرفتها مفهوم ، لكن ما معنى تكبير الفروق بين أفهام أو آراء لبعض العلماء ، حتى لتبدو وكأنها حقائق لملل متباعدة ؟ إن نتائج ذلك كانت وخيمة على مجتمعنا الدينى ، فإن هذا التضخم المفتعل غطّى مساحات واسعة كان يجب أن تشغلها الأخلاق التى لاتنهض الأمم إلا بها ، فبدل أن تشغل الجماهير بتكوين فضائل الصدق والأمانة والوفاء والحياء . . . إلخ ، شغلت بما تظنه أكثر أجراً وأعظم ذخراً .

وذلك وهم بعيد ، فإن فقدان الأخلاق يعنى امتداد النفاق ، وانتشار الفساد ، وضياع الأمم . . .

وعندى أن إشعال التعصب المذهبى كان خطة ماكرة لصرف العامة عن النقد السياسي ومتابعة الأخطاء التى أودت بالدولة الإسلامية قديماً ! ويبدو أن الخطة لاتزال تُنفَّذُ إلى الآن . . . ! !

* * *

كيف ننقذ اقتصادنا

للأمم المتخلفة أنماط من الترف تقبل عليها بنهم وتنفق فيها الكثير ، ويعرف المستعمرون ذلك منها فيأمرون مصانعهم أن تزيد فى إنتاجها حتى يشتد الإقبال ويتضاعف الكسب .

والواقع أن المسلمين عامة والعرب خاصة أخذوا من المدنية الحديثة جانبها البراق ، وكانوا معها مستهلكين لا منتجين ، بل لقد صُنعت لهم سيارات خاصة ، وأدوات من الزينة ، أو أنواع من الأجهزة لايستخدمها صانعوها أنفسهم لأنهم يرون ما دونها يغنى عنها .

أما نحن فنظن الارتقاء أو العظمة فى اقتناء هذه السلع ! وللطفولة العقلية منطق يستحق الزراية والتخويف ، وقد آن الأوان للمناداة «باقتصاد حرب» يوقف هذا السيل من النفقات ، ويستغنى بصرامة عن هذه الفضول كلها ، ويلزم الكبار والصغار بأسلوب من العيش تقلّ فيه المرفهات ، ونستغنى عن استيراد الكماليات ، ونحيا فى نطاق ما ننتج فى بلادنا ، ونتحرر من إسار الحاجة ، ويعلم الناس أننا لسنا عبيد مآرب تافهة أو عادات سخيفة ! .

إنَّ نصْفَ ما نشتريه من الخارج يمكن الاستغناء عنه فوراً ! ونصف الباقى يمكن الاستغناء عنه فى أمد قريب ، وإذا لم نتعلم من ديننا ضبط شهواتنا فماذا نتعلم ؟ .

إن خصومنا شرعوا يتنكرون لنا ويضنُّون علينا ، بل إن بنى إسرائيل بنوا دولتهم بين ظهرانينا على أساس أنهم ينتجون ونحن نستهلك ! كأننا أطفال نحب اللُّعب الجميلة وندفع ثمنها لمن يصنع به السلاح الذى يقتلنا به . .

وقد لفت نظرى أن النساء فى الشرق العربى يتحلين بالجنيه الذهبى «جورج» ، وأن النساء فى المغرب العربى يتحلين بالجنيه الذهبى «لويس» ، والغريب أن النساء فى إنجلترا وفرنسا لايتحلين بهذه القطع الذهبية ! إنها تصنع لنا وحدنا ! .

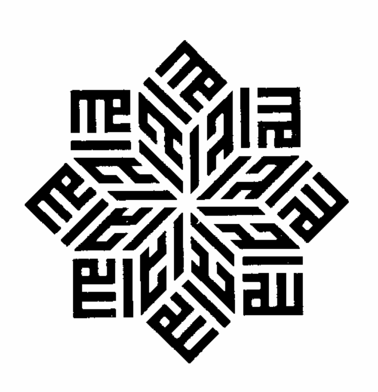
ربما كانت للمسلمين أيام «هارون الرشيد» تقاليد سرف يخفف من شرورها أن الخليفة كان يقول للسحاب : أمطر حيث شئت فسوف يأتينا الخراج ! .

فما معنى بقاء هذه التقاليد والأمة الإسلامية فى أيام عجاف تسرُّ العدو وتحزن الصديق ؟

يجب أن تتكاتف الجهود للعودة بالعرب والمسلمين إلى «اقتصاد حرب» يفرض عليهم الاكتفاء الذاتى ، فقد تداعت عليهم الأمم ، وإن لم يتماسكوا هلكوا . . !

إننى أرى السكارى والمدخنين فأشعر بغصّة أو أرى الأفواج المسافرة إلى الخارج للنزهة والمتعة فأحس الهزيمة ! وأرى الذين يتطلعون إلى الحطام الزائل بشوق ورغبة فأقول : إن حاجتنا ماسة إلى تربية صحيحة لنستنقذ ديننا ودنيانا . . .

* * *



باسم الإسلام يزينون الباطل

اجتمع رهط من الناس أطلقوا على أنفسهم - أو أطلقتْ الصحف على كل واحد منهم - : «مفكر إسلامى كبير»! مهمة هذا الرهط تدمير الإسلام من الداخل وتقرير أحكام ما أنزل الله بها من سلطان . ! .

وكان اللقاء هذه المرة عاصفاً ، لأنه للرد على متطرفين يطلبون من السلطة تحريم الخمر وإغلاق الحانات ! وهذا طلب يراه المفكرون الكبار جهلاً بالإسلام ! ! .

قال كبيرهم : ألا يعلم أولئك المتطرفون ضرورة استقدام السائحين والحصول منهم على العملة الصعبة لتمويل المشروعات الكبرى؟ إن الخمر ليست متعة شخصية فقط ، بل هى مصلحة قومية إذا اعترضتْ النصّ وقفته عن العمل ! وتعطيل النص للمصلحة مبدأ فقهى مقرر ! .

وقال مفكر آخر : إن الخمر المحرّمة هى المغشوشة بغاز «الإسبرتو» المسموم ، وهى التى قتلت جملة من السكارى المساكين ! أما الخمر النقية فلا حرج فيها ولا يجوز منعها . . !

وقال مفكر واسع الاطلاع : ليس هناك نصٌّ على تحريم الخمر ، الناس مُخيَّرون فى شربها أو فى تركها ! والقرآن بعد أن دعا لاجتنابها قال : « فهل أنتم منتهون »[1] ؟ فلم يقطع بالمنع . . !

وقال مفكر إسلامى آخر : التحقيق عندى أن المنع والإباحة يرتبطان بنسبة «الكحول» فى المشروب ، فإن كانت قليلة كالبيرة الوطنية جاز شربها ! أما «الفودكا» الروسية و«الويسكى» الأسكتلندى فهى أشربة ينبغى الابتعاد عنها . ! !

ومضى المفكرون الكبار يتحدثون عن التطرف الدينى وخطره على الجيل الصاعد ، وقالوا : نحن أصدق إيماناً وأعزُّ نَفَرًا ، وعلى استعداد لفتح الحوار مع من شاء لتعرية هؤلاء المتطرفين ! .

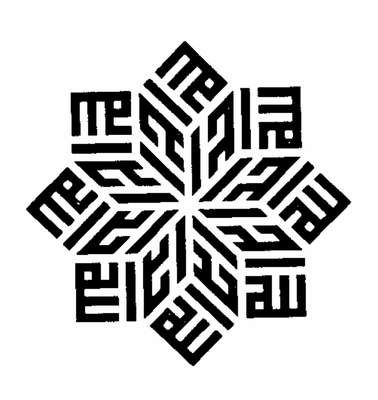
(١) سورة المائدة : ٩١ .

وفوجئ الناس بكُتَّابٍ ما صلَّوْا لله ركعة ، ولا أدَّوْا له حقاً يتحدثون عن الحلال والحرام وتطبيق الحدود أو وقفها . . . !

وقال أولو الألباب : أين علماء الدين يصدُّون هذا الإفك ؟ ويقررون الفتوى من أصولها المتفق عليها ؟ ويطلبون بحزم تحريم الخمور والمخدرات على سواء ؟ ولم نسمع جواباً ! .

إن الجُراءَ على قول الباطل ما اكتسبوا جراءَتهم تلك إلا لما لاحظوه على أهل الحق من خور وتهيّب ، نعم لاقيام للباطل إلا فى غفلة الحق . . .

* * *



إفريقيا مهددة بالتنصير

بابا روما يقود أكبر تجمُّع بشرى فى عالم النصرانية ، إذ أن أتباع الكنيسة الكاثوليكية أضعاف الكنائس الإنجيلية والأرثوذكسية ، وجهازهم التبشيرى شديد الدقة واسع الدائرة . . .

ومن بضع سنين أعلن بابا الفاتيكان عزمه على تنصير أفريقية كلها مع نهاية القرن العشرين ، أو بتعبير أضبط جعل النصرانية هى الدين الأول فى القارة القديمة ، والمعروف أن الإسلام هو الدين الأول فى هذه القارة ، تليه الوثنية ، تليها المسيحية بشتى طوائفها . .

وتبذل الطوائف المسيحية جهداً جباراً لبلوغ هذا الهدف ، وهو جهد تدعمه الدول الناطقة بالفرنسية والإنكليزية ، وتنظر إليه الدول الأخرى على أنه شئ طبيعى ، وهى إن لم ترحب به فلن تضع عائقاً فى طريقه . .

وبابا الفاتيكان الحالى من أنشط رجال التبشير وأوسعهم حيلة وألينهم مقالا وأذكاهم خطة ، ومع شيخوخته فهو ينطلق من معقله شرقاً وغرباً ليشرف بنفسه على تحقيق أهدافه ، ويلقى التقدير العميق حيث حلّ ، وقد راقبت زياراته المتكررة لقارة أفريقية وأدركت دون عناء أن الرجل يريد الاطمئنان إلى مستقبل الخطة التى وضعها ، وفى سبيل ذلك يتنقل ويخطب فى المسلمين والنصارى وغيرهم ، وهو لطيف العبارة ذكى الإشارة ، يتخلص من المشكلات بلباقة ، ويؤدى واجبه فى خدمة التبشير المسيحى بمهارة ملحوظة . . .

قلت لنفسى : ماذا لدينا بإزاءِ هذا الموقف ؟ وأعترف بأننا ـ فى خير أحوالنا ـ أصحاب ردود أفعال ، ولسنا أصحاب أفعال إيجابية . أى أننا قد نتحرك إذا تحرك غيرنا وشممنا رائحة الخطر ، وقد نتبلد حتى تقع الكارثة !! .

ماذا أعددنا وديننا مهدد بالانقراض أو الانحسار فى قارة كبيرة ؟ ! .

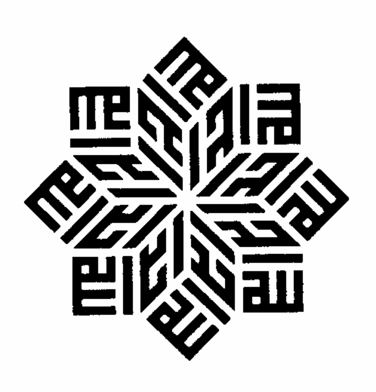
الأمة التى قيل لها : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . . ﴾[1] ليس لها جهاز عالمى للدعوة إلى الخير ، وإذا صنعت على الورق أجهزة لم يوجد الرجال الذين ينفخون فيها من قلوبهم روح الحياة والانطلاق !

لماذا ؟ هل نضب معين الإسلام ؟ كلاً ما نضب ولن ينضب . .

إن الأخدود الغائر بين رجالات الدعوة ورجالات السلطة يجب ردمه على عجل حتى يوجد الرجال الذين يملئون الفراغ المخيف .

كانت الخلافة العظمى مسئولة عن مستقبل الإسلام والمسلمين حيث كانوا ، وظاهر أن دفن هذه المسئولية جزءٌ من مخطط إسقاط الخلافة ، وترك المسلمين دون انتماء ولا حماية ولاتناصر ، على حين يحظى غيرهم بالانتماء والحماية والتناصر . .

* * *



(١) سورة آل عمران : الآية : ١٠٤ .

الحاقدون على الشريعة

أكره المغالاة والتطرف فى شئون الدنيا والدين على سواء ، وليس ذلك خليقة خاصة لى ! ولكنه مسلك يلزمنى به الإسلام ، وقد أحمل نفسى عليه حملاً إذا رأيتها تنزع إلى أقصى اليمين أو أقصى اليسار . .

ومع ذلك فإنى أحب الاعتدال ، وأطلبه من غيرى تجاوباً مع دينى !

لذلك شعرت بالاستنكار عندما قرأت كلمات لبعض الكاتبين ظاهرها الحملة على التطرف وباطنها الحملة على الإسلام نفسه ، والدعوة إلى وأْد أحكامه وتجريد الحياة العامة من سماته ! .

قد يرفض البعض أن تسير مظاهرة تدعو إلى تحكيم الإسلام ، لأن المسيرات الغاضبة وسائل غير مأمونة ، ولأن العمل للإسلام يتطلب طرقاً أحكم وأجدى ، ولأن البناء الجاد للعقائد والأخلاق والشرائع يتم فى صمت وأناة ! لا حرج من الاعتراض على هذه الوسيلة أو تلك ! فهل الاعتراض الجائز ذريعة لشتم الإسلاميين والزعم بأن العودة إلى الإسلام نكسة حضارية ونزعة همجية ؟ ؟ .

أعرف أُناساً ما عرفوا طريقاً إلى المسجد يوماً ، ولا غضوا أبصارهم عن الدنس لحظة ، انتهزوا الفرصة العارضة وشرعوا يهاجمون الإسلام نفسه بدعوى مهاجمة التطرف ، أى أن تحريم الخمر والخنا وقطع دابر اللصوصية والفوضى أمور هى من التطرف المعيب وليست من أركان التقوى ومعالم الوحى الحق ! ! .

والذى جرّأ هؤلاء على الإسلام وكشف عن ضغائنهم ما شاع من أن القوى الكبرى المعادية للإسلام قررت مخاصمة العودة إلى التشريع الإسلامى ، وهددت من يفعل ذلك ! وتلك إشارة البدء بالهجوم على الإسلام كله واقتلاعه من جذوره ! .

قلت : التاريخ يعيد نفسه ، ففى صدر الإسلام تابع المنافقون أعداء الأمة فى كراهية

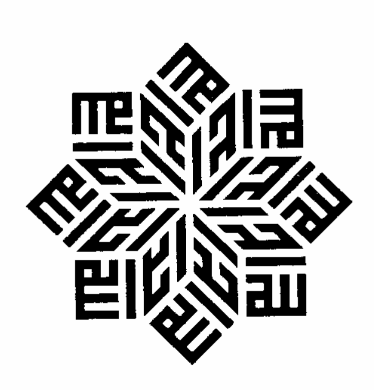
الوحى ورفض أَحكامه فنزل فيهم قوله تعالى : «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » [١] .

وقوله جل شأْنه : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ »[٢] .

لقد خرجت الأفاعى من جحورها تتحدث عن الإسلام بحقد غريب ! ولما كانت الدساتير الموضوعة تقرر أن الإسلام دين الدولة والمصْدر الرئيسى لتشريعها فلا مناص من دفع أولئك الحاقدين بأنهم يريدون نقض البناء الاجتماعى لحساب قوى خارجية ، وأنهم يقترفون جريمة الخيانة العظمى ، أو بتعبير الإسلام الحنيف : يرتكبون جريمة الارتداد !

إن محاربة التطرف لن تكون أبداً سبيلا لمحاربة الإسلام نفسه ، ولن ندع هؤلاء يمضون فى عبثهم الشائن . .

* * *



(١) سورة محمد : الآية ٩ .

(٢) سورة محمد : الآية ٢٨ .

كيف نحتفى بمن يهددنا بالموت ؟ !!

أَكَّد «حاييم وايزمان» فى المذكرات التى نشرها أن وعد إنجلترا بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين لم يكن عملاً سياسياً مجرداً ، بل كان توكيداً لعاطفة دينية عميقة ، وأن «لورد بالفور» الذى أصدر هذا الوعد كان يترجم عن إيمانه بالعهد القديم ، ويباشر تحقيق النبوءات التى وردت به . .

وهذا كلام صحيح يسجله أول رئيس لإسرائيل ، وقد كان تعليق العرب عليه : أن من لايملك أعطى من لايستحق ! .

واكتفوا بهذا التعليق دون أن يتعرفوا أو يستكشفوا المشاعر الدينية التى تكمن وراءه ! وليس هذا أول تقصير للعرب فى دراسة خصومهم وأصدقائهم .

وقد مضت عشرات السنين على القرار الصادر بتهويد فلسطين ، أُبيدت فيها قرى عربية ، وحُصدت آلاف الأرواح سراً وجهراً ، ومُحيت معالم تاريخ ، وحلّ لقب العربىّ التائه مكان اليهودى التائه ، وتعاون ذهول العرب مع ضغائن الدول الكبرى على إحقاق الباطل وإبطال الحق ، وتشريد المواطن وتوطين المشرّد . !

وقال ساسة الدول الكبرى : خلقت إسرائيل لتبقى ، وليذهب العرب إلى الجحيم . .

ومع ذلك كله أبى العرب أن يقولوا : إن التعصب الدينى وراء هذه السياسة ، وإن الغارة الجديدة استئناف للحروب الصليبية الأولى .

لا أدرى أهذا جهل أم تجاهل ؟ أهو غباءٌ أم تغابٍ ؟ !! .

ولكن هل يصحُّ أن يبقى شىء من هذا بعد ما قاله الرئيس الأسبق للولايات المتحدة كاشفاً عن نيته نحو العرب والمسلمين ؟ ! .

كتب الأستاذ أنيس منصور : « **يحتفل العالم بمرور أربعين عاماً على استخدام**

القنبلة الذرية ضد اليابان ، وفى هذه المناسبة الحزينة طلع علينا الرئيس «نيكسون» يقول : إنه كان سيلقى قنبلة ذرية على السويس أو بورسعيد أو القاهرة بعد انتصارات حرب أكتوبر لأن هزيمة إسرائيل أمام مصر تعادل هزيمة أمريكا أمام اليابان ، وأمريكا لاتسمح بشىء من ذلك . . ! !

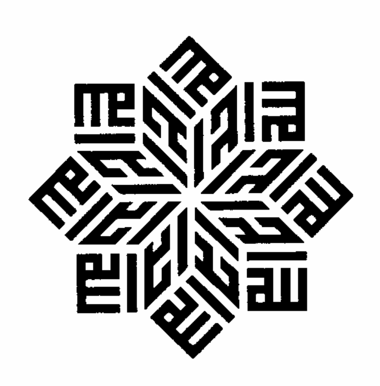
هذا السفاح الأمريكى نيسكون هو الذى لقى فى مصر أعظم استقبال لرئيس أجنبى . . .

إن الجماهير الطيبة التى خرجت لاستقباله هى التى كان يريد القضاء عليها بقنبلة ذرية .

أنا لم أستغرب كثافة الشر فى نفس « نيكسون » أو غيره من رؤساء العالم الشيوعى أو الصليبى ، إنه وليد ضغائن تتنامى من ألف عام تستنكر علينا نحن المسلمين حق الحياة ، وتريد أن تذيقنا ألوان الحتوف . .

الذى أستغربه : بلاهة من استقبلوا نيكسون بحفاوة ، ومن نظموا له هذا الاستقبال . . .





إهانة الإسلام فى الصحف الأجنبية

أطلعنى بعض الشباب وهو غاضب على صور مستغربة فى مجلة فرنسية ، وقال لى : يجب أن تردوا على هؤلاء المجرمين ! فهدّأت من هياجه وقلت له : ما هذه الصور ؟ فأخذ يشرح لى وأنا أعجب ، هذه صورة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى سمت تخيله رسام سكران . وهذه صور أصحابه الأقربين . . . وإلى جوارهم ركام متناثر من الجثث إشارة إلى انتشار الإسلام بالسيف ! وتلك صورة أخرى تمثل النبى الكريم وهو يخطب فى حجة الوداع وتحتها منظر يمثل جنون التديّن ! ورأيت صورة لباب الكعبة وفى أسفله صورة لشهادة بأن امرأة حجت وطافت وسعت . . . إلخ ، فى إطار يذكّر الناظر بصكوك الغفران التى يصورها قديماً بابوات روما . .

وقد أخذت لنفسى بعض هذه الصور ، وكنت ضائق الصدر بالإسفاف الذى كتب معها ، وشعرت بأن حقد الأوروبيين على محمد ودينه يتفجر من منبع لايغيض أبداً . .

قال الشاب : جزاء سيئة سيئة مثلها ، ردوا على هؤلاء المعتدين ! وفكرت ماذا أفعل ؟ . إننا معشر المسلمين نكن احتراماً عميقاً لموسى وعيسى ومريم وسائر أنبياء الله ! ! وحتى لو كان خصومنا يعبدون الأصنام والأبقار فنحن منهيون عن سب آلهتهم ـ مهما كان بطلانها ـ « ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ » [1] .

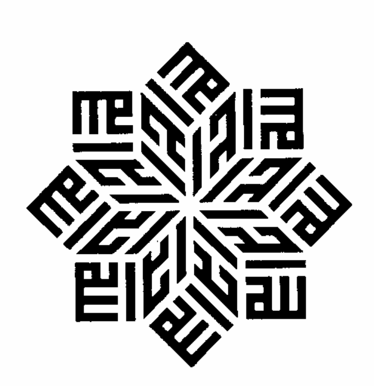
لكن إصرار أعداء الإسلام على النيل منه بأسلوب الرعاع يزيد ولاينتقص ، وقد أخذوا يطلقون أسماء مقدساتنا على بعض مباذلهم . . . ! وما نعجز عن قمع هؤلاء وتمريغهم فى القذى ! نعم نستطيع دون أن نكذب تصوير مايشيعون ـ أعنى ما يتلون ـ من تهم هابطة لنوح ولوط وداود وسليمان . . الله يعلم أنهم فيها كذبة ، وأن أنبياءه منها

---

(١) سورة الأنعام : الآية : ١٠٨ .

أبرياء . ويستطيع الغاضبون عندنا أن يطلقوا أسماء معينة على أماكن تخدش الحياء . . . بيد أننا نكره التدلىّ إلى هذا المنحدر ونحب من رجال الدين فى أوروبا أن يتراجعوا عن خططهم فى إهانة الإسلام ونبيِّه . فالبغى مرتعه وخيم ، وتصوير محمد فى زى رعاة البقر من الهنود الحمر لن يغض من أمجاده فى الأولين والآخرين ، وأعرف أن ملاحدة شرعوا يكتبون أسماءً موقرة على سلع مهينة ، وعقبى هذا الطيش مروعة «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] .

* * *



(١) سورة النور : ٦٣ .

لماذا نلوم أعداءنا ولا نلوم أنفسنا؟

من عشرين سنة تقريباً أرسل «عيدى أمين» الرئيس الأسبق لأوغندا إلى الشيخ الجليل الدكتور « **عبد الحليم محمود** » يطلب منه المعاونة فى تكوين مجلس أعلى للشئون الإسلامية بأوغندا ، واستجاب شيخ الأزهر لهذه الرغبة فأرسل وفداً يتكوّن من الدكتور محمد بيصار وكيل الأزهر ومنى أنا وكنت مسئولا عن الإدارة العامة للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف ! .

كنت أظن أوغندا بلداً شديد الحرّ لأنها على خط الاستواء ، وعرة الأرض صعبة المسالك ! ثم أدركت أنى كنت شديد الخطأ ، لقد تأملت ـ وأنا فى الجو ـ ماتحتى ، فما وجدت بقعة جرداء ، كانت الخضرة الجميلة تكسو كل شىء ، فلما نزلنا أحسسنا نسائم الربيع تهب علينا ، وبين الحين والحين يتساقط مطر خفيف يغسل كل شىء ، وتذكرت قول الشاعر :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى !

ثم تجاوزت هذا الاعتناء بالمكان إلى الاهتمام بالسكان ، فذاك ماجئنا من أجله .

المسلمون والنصارى هنا سواء فى العدد ، ولكنهم ليسوا سواء فى الكيف ، فالعلم والتقدم والغنى تكاد تكون السمة البارزة للمسيحيين ، والفريقان معاً يكونان خمسى السكان ، أما الكثرة الباقية فهى من القبائل الوثنية . . .

وكان وجود « عيدى أمين » نذير شؤم للتبشير ، كما كان وقفاً لسياسة تأخير المسلمين ، وتعريضهم للجهل والفقر والمرض ! .

وكان الرجل صارماً فى مطاردة قطاع الطريق ، ومثيرى القلق هنا وهناك ، ولم يكن مع إسلامه الشخصى متعصباً ضد أحد من الكاثوليك أو البروتستانت ، بل كان واضح الإنصاف ، يعطى كل ذى حق حقه ! .

العيب الأول فى الرجل أنه كان مسلماً ، وكان رياضياً يتصف بالشجاعة والصراحة ، وقد تجاهله الساسة العرب ذوو الخبرة . وتركوه لمؤامرات الاستعمار العالمى التى أفلست فى تقليب الأُمور عليه من الداخل ، فساقت إليه جيوشاً من الخارج أودت به ! .

فماذا حدث بعد ذهابه ، والإتيان بسلفه ؟ !

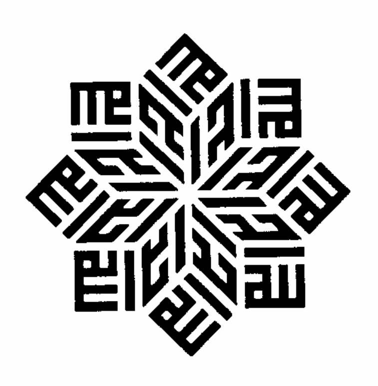
سمعت الرئيس الأوغندى الحالى يقول : إن أوغندا فقدت نصف مليون قتيل فى الاضطرابات الأخيرة ! .

نقول : وذاك عدا مئات الأُلوف من اللاجئين الهاربين إلى السودان وغيره من حرب الإبادة التى شنت عليهم فى صمت ، وسكتت عنها أجهزة الإعلام الأجنبى ، كما سكتت عنها أجهزة الإعلام العربىّ !! .

كان الخطأ الذى يرتكبه « عيدى أمين » ينقل مضاعفاً ، وتضم إليه افتراءات لاحصرّ لها ، حتى ظن الظانون أن الزعيم المسلم من مصاصى الدماء . .

ثم جاء من بعده من أزهق الأرواح بغزارة ، وملأ الأرجاء بالفوضى والأثرة والتعصب دون أن ينبس أحد ببنت شفة ! من نلوم ؟ أنلوم أعداءنا ؟ أم نلوم أنفسنا ؟ ! .

* * *



تزوير التاريخ

أحياناً أرى بعينى وأسمع بأذنى كيف يزوَّر التاريخ وتستخفى الحقيقة ويُخدع الناس ! فأقول : إن الأجيال المقبلة معذورة عندما تضل السبيل وتتبع الأباطيل ! .

ألا يطول عجب الإنسان عندما يسمع ساسة الغرب الكبار يقولون للعالم أجمع : نحن نرفض الإرهاب الدولى وسوف نقاومه بكل سلاح . .

يقولون ذلك للفدائيين الذين يدافعون عن أرضهم وعرضهم ! والذين يقاومون بالسلاح التافه أفتك أسلحة العالم ، والذين تلتف بهم مؤامرات الثعالب والذئاب وخيانات الأقارب والأباعد فلا يلتقطون أنفاسهم إلا بشقّ النفس ، هؤلاء العرب المحروبون يوصفون بأنهم إرهابيون !

ومن يصفهم بذلك ؟ ساسة أوروبا وأمريكا الذين صنعوا المأساة كلها ولايزالون يصنعونها ، والذين استقدموا اليهود إلى فلسطين لينبذوا أهلها بالعراء ويحتلوا هم البيوت التى أقفرت من أصحابها ، والذين يصرون على إمداد اليهود المغيرين بالسلاح حتى يكونوا أقوى من الدول العربية كلها ، ولو صارحوا بطواياهم لقالوا : حتى يكونوا أقوى من مسلمى العالم أجمع . . .

هؤلاء المدحورون المحرجون إرهابيون ! أما قتلتهم ومغتصبو أرضهم ودورهم فهم مساكين يحتاجون إلى ضمانات مجلس الأمن ، وحماية الدول الكبرى . . .

لا أزال أذكر قصة الطائرة الأمريكية المختطفة ، أصل القصة معروف . فإن اليهود عندما انسحبوا من لبنان اختطفوا نحو سبعمائة شاب من مسلمى البلد الممزق ، وحبسوهم فى سجن «عتليت» ، وصرخ الأهل والأصدقاء يطلبون ترك المخطوفين ، فما رقّ لصراخهم أحد ، إنهم سيقضون بقية أعمارهم فى ظلام السجون . . .

وغضب نفر من أولى النجدة والحمية ، واختطفوا الطائرة الأمريكية وأعلنوا أنهم لن يدعوا مَنْ فيها حتى يتحرر الأسارى من سجن «عتليت» ، وراقبت ما يقع لأدرس

أحوال الناس ، كانت الشتائم تنهال على رءوس الإرهابيين الخاطفين وتنعتهم بأقبح الأوصاف ، وكان غضب الولايات المتحدة يغلى ويفور ، والرئيس «ريجان» يرغى ويزبد . . .

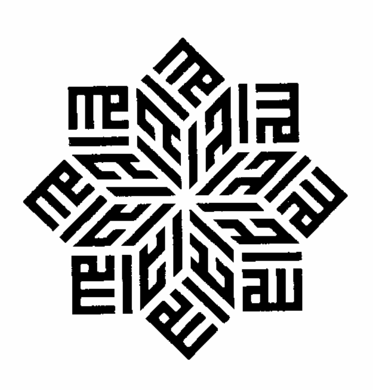
وقال الخاطفون : أفرجوا عن إخواننا نفرج عن إخوانكم . . وإلا . . .

وتراجع الجبناء ، وسكت الخطباء ، وخرج من سجن « عتليت » الأحرار الذين تكسَّرت قيودهم ، وعادت الطائرة إلى أصحابها . . ! ! .

الشيء الذى يدعو للتأمل أن أحداً لم يلُم اليهود على استرقاق المئات ، ولم يعتب على الولايات المتحدة سكوتها المهين على تلك الجريمة وعشرات أمثالها ؛ لأنه لا كرامة للعرب خافوا أم أمنوا ؟ رضوا أم سخطوا ؟ .

الصيحات التى تدوى كالرعد هنا وهناك هى : قاوموا الإباء العربى الرافض للضياع ، إنه إرهاب كريه ، إنه إرهاب دولى ! إن الضحية التى تقاوم الجزارين يجب أن تتكاتف ضدها سكاكين المعتدين . . .

* * *



نحن وحدنا المرضى بالسماحة

عندما طعن عمر بن الخطاب وهو يتأهب لصلاة الفجر علم وعلم الناس معه أنه ميت لا محالة . فإن الطعنات كانت نافذة مزقت الأمعاء ، فإذا تناول شراباً خرج من البطن ! .

ورأى أمير المؤمنين قبل أن يودّع الحياة أن يوصى الخليفة بعده بأمور ذات بال ! إنه لايعرف مَنْ سيختار المسلمون ! ولكنه يعرف ما يجب أن يفعله الرجل الذين يليه فى حكم الأُمة ! .

فذكر طوائف من المسلمين لها منزلتها ، ثم قال للخليفة المرتقب : « . . . وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله - يعنى ما يسمَّى فى عصرنا بالأقليات الدينية - أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولايكلفوا إلا طاقتهم » !! .

تريثت طويلاً وأنا أقرأ هذه الوصية ! خليفة نبىٍّ كريم يوصى وهو يموت بمخالفيه فى الدين ومعارضيه فى المعتقد ، فيصفهم أولا بأنهم ذمة الله وذمة رسوله متناسياً الخلاف القائم فى أصل الإيمان ، ثم يطلب من الحاكم المقبل ثلاثة أمور محددة :

(١) الوفاء بعهودهم .

(٢) إقامة سياج يمنع كل عدوان عليهم ، وفى سبيل ذلك يقاتل دونهم أو كما جاء فى النص : «يقاتل من ورائهم » .

(٣) لايكلفون إلا بما يطيقون .

هل وعى تاريخ العالم إلى يوم الناس هذا أشرف من هذه المعاملة ؟ .

وهنا أطرح سؤالا : بماذا قوبل هذا المسلك النبيل؟

فتحت التليفزيون الجزائرى فإذا أمامى صور متتابعة لمقبرة جماعية احتوت على هياكل عظمية لأكثر من مائة شهيد ، قال المذيع : هذا الهيكل مُشوَّه من التعذيب ،

وهذا قطعت يده قبل الموت ، وهذا الهيكل الكبير المنحنى على آخر صغير هو لأم تحتضن ابنها ! والجميع عرايا ، لا ملابس ولا أكفان ، وأدوات التعذيب مبعثرة هنا وهناك .

إن هذه المقبرة أصغر من سابقتها التى تحدثت عنها من قبل ، والتى ضمت ألفين من المسلمين .

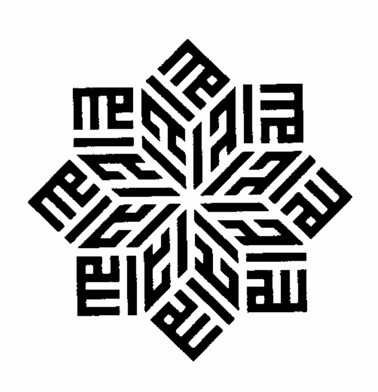
وعندما أشحت بوجهى عن المنظر الكئيب لم ألبث طويلاً حتى سمعت أخبار لبنان ، وكيف يتعاون الانعزاليون ـ كما سمَّوْهم ـ مع المغيرين فى إفناء اللاجئين ، وإخلاء الأرض منهم . . .

إن أعداء الإسلام يتنادون من قريب ومن بعيد : الويل للمغلوب ! خيِّل إلىّ أننى أسمع نداء وحوش فى البرارى تطلب دمنا . . !

قلت لصاحبى : يظهر أننا وحدنا المرضى بالسماحة ، إننا وحدنا الذين نحسب الخلاف الدينى لا صلة له بالأحقاد ! .

ترى هل أيقظتنا الأحداث ؟ أما يجب أن نحذر الأفاعى وأولاد الأفاعى ؟ ؟ .

* * *



عظماؤنا ظُلِموا، أحياءً وأمواتاً

القارىء المسلم فقير إلى مراجع قريبة تعطيه فكرة حسنة عن تاريخ آسيا الوسطى وانتشار الإسلام فيها ، وندرة هذه المراجع تكشف عن تقصيرنا المعيب نحن العرب فى الثناء على من خدموا الثقافة الإسلامية وأسدوا إليها يداً طولى ، بل فى الإشادة بأقوام هرعوا لنجدتنا فى الأيام العصيبة من تاريخنا ، وكانوا قاعدة انتصارنا على الصليبيين والتتار ، وغسل عارهم عنا . . .

لذلك أقبلت على قراءة العرض الأمين الذى قدمه الأستاذ « نادر خالد نصره » ، للكتاب الذى ألفه فى هذا الموضوع الكاتب الروسى «يورى الاسكيروف» . ومنه عرفت أن « الإسكندر المقدونى » كان أول فاتح كبير لهذه البلاد ، وأنه دمر مدناً بأسرها ، وأباد أجناساً كانت تفرّ من أمامه فلم ينقذها الفرار من الهلاك الشامل على يد القائد الوارث لفلسفة الإغريق .

وكان آخر الفاتحين ـ قبل الغزو الروسى - «تيمورلنك» ، الذى أحرق عواصم شتى فى اندفاعته المشهورة نحو الشام ومصر .

أما القائد الإسلامى العظيم « قتيبة بن مسلم الباهلى » فإنه كان أضوأ عبقرية وأرشد سياسة ، وأحكمهم خططاً ، وأشد الفاتحين اقتصاداً فى سفك الدم ، يقول عنه الكاتب الروسى : **«إن المحتلين العرب استخدموا سياسة فرق تسد ، واستغلوا التناقضات بين الفلاحين والقبائل التركية الرحالة فخضعت لهم المناطق واحدة تلو أخرى»** .

ويقول الأستاذ المعلق : **«إن أراضى ما وراء النهر فتحت دون إهدار للدماء ؛ باعتناق السكان للإسلام ، وقد وقعت بعض الاشتباكات والانتفاضات استطاع القائد المحنك والسياسى البارع « قتيبة » أن يقضى عليها »** . .

ومع ذلك فإن الكاتب الروسى نوه بعظمة « الإسكندر اليونانى » ، وتجاوز بطشه الوحشى ، كما تجاوز قسوة « تيمور لنك » ، وصبّ جام حقده على القائد المسلم « قتيبة » فوصفه : « بأنه خبيث وقاس وفاسد » .

إن هذا التعليق الماركسى أثار أشجانى ، وهو نابع من ضغائن متوارثة ضد الإسلام لاينساها الأوروبيون أبدًا ! .

أما الشجن الذى ثار فى نفسى فهو لمصرع « قتيبة » نفسه بعد بلائه الطويل فى خدمة دينه ، أحاط به كمين غادر ، وظل يناوشه وحيداً حتى أثبتته جراحه فمات شجاعاً ، واجتز رأسه ليرسل إلى « سليمان بن عبد الملك » .

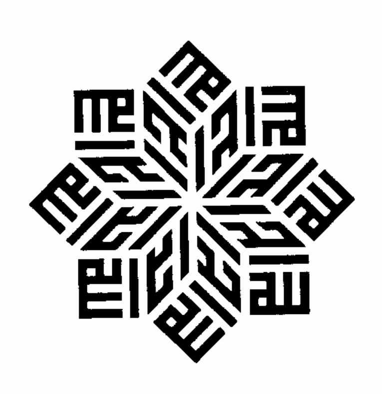
قال المسلمون من أهل ما وراء النهر حين قتل قتيبة : يامعشر العرب كيف فعلتم هذا ؟ والله لو كان « قتيبة » منا ثم مات لجعلنا جسده فى تابوت فكنا نستفتح به فى قتالنا لعدونا . . .

لكن البطل العظيم قتل مظلوماً فى العصرِ الأول ، وشُتم بريئاً فى العصر الأخير ، وما أكثر المهانين من رجالنا الذين ظلموا أحياءً وأمواتاً !

أكذلك نجازى عظماءَنا ؟

إلى الله المشتكى . .





تراثنا وكيف نستفيد منه ؟

سمعت محاضراً شيوعياً يقول بخبث : إن الإسلام أنصف الجماهير لكن علماءه - بَدْءاً من الغزالى[1] - مالئوا الحكام وأغضوا الطرف عن مظالمهم .

وشاء الله أن أكون حديث عهد بقراءة رسائل الغزالى إلى ملك خراسان وما وراء النهر ، يوصيه بالعدل ويخوفه من الله وعقابه ، فقلت للمحاضر : اسمع هذه العبارات لأبى حامد وقل لنا رأيك :

« . . . ياملك إن آباءك : « ألب أرسلان » ، «وطغرل» ، «وسلطان ماكشا » . يقولون لك من تحت الثرى : إياك إياك ! لو تعلم ما حلّ بنا ، وأىّ الأهوال رأينا لن تنام ليلة شبعان وفى رعيتك جائع ، ولن تلبس برغبتك ثوباً وفى رعيتك عريان ! ! وما تبقى لك من مال يعرض عليك وتسأل عنه يوم القيامة وفق نصيحة القرآن « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[2] وسترى جميع أعمالك ذرة ذرة . . »

ويقول للملك « . . . عندما توقف للسؤال موقف المؤاخذة ويسألك رب العزة : ماذا فعلت بعباده الذاكرين لكلمة لا إله إلا الله ، الذين جعلناهم رعيتك ؟ لقد اهتممت بمواشيك ، وغفلت عن عبادنا ، وحرمة المؤمن عندنا أعظم من حرمة الكعبة ! . .» ثم يقول الغزالى لملك الإسلام على عهده : «فما عندك من الجواب على هذا السؤال؟ » . .

ثم يقوله له : « إن أهل طوس فى أزمة شديدة ، قد أهلكهم الجفاف واستأْصل كل الأشجار المثمرة ، ارحمهم يرحمك الله ، فقد انحنت أعناقهم من البلاء والجوع ، ماذا يكون إذا خفَّفْتَ من ثقل أطواق الذهب فى أعناق مواشيك ، وأنفقت على أولئك المساكين . . ؟» . . ويقول الغزالى بعد ذلك عن نفسه : « ليست لى حاجة خاصة ، إننى أعرضت عن الخلق ، وجلست فى زاويتى اثنتى عشرة سنة ، وقد ألزمنى «فخر الملك» بالمجيىء إلى نيسابور ، وأنا أريد العودة إلى زاويتى الآمنة . . إلخ » .

سألت المحاضر الشيوعى : أكان من رجال الدين فى روسيا أو فى أوروبا كلها من

(١) أبو حامد الغزالى ت ٥٠٥ هجرية .

(٢) سورة الزلزلة : الأيتان : ٧ ، ٨ .

وجّه لملوكها هذا النصح العارى الموجع ؟ إن الشعوب الإسلامية ما اعترفت بالإمامة فى الدين لرجل أعرض عن قول الحق ونُصْح أصحاب السلطة .

وتاريخ علماء الإسلام الكبار شاهد صدق على ما نقول .

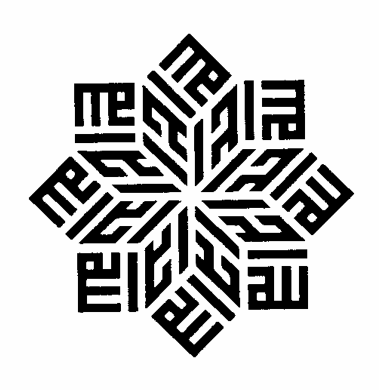
قال لى أحد السامعين : كنت أكره « أبا حامد » قبل الآن حتى سمعت هذه النقول !

قلت : لماذا تكرهه ؟

قال : لأنه من أهل التأْويل !

فأجبت : نحن نجمِّد من تراثنا مايجب تحريكه ، ونحرِّك ما يجب تجميده ، ونجنح إلى ما يثير الخلاف ، وعصرنا يتطلب منا موقفاً أرشد فى خدمة رسالتنا المضطهدة ! ! . . .

* * *



تصور مكذوب على الإسلام

بعض الآيات يحتاج إلى تدبر وأناة حتى يتضح المعني ، لاسيما إذا كان الخطأ كبير الضرر فى الحياة الاجتماعية ! يقول الله سبحانه : « ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً »[1] .

إن هذه المقارنة ليست بين نقيضين متقابلين ، فرب محروم من المال والبنين لا آخرة له ، ورب مستمتع بالمال والبنين له عند الله الدرجات العلى . . ! .

والعامة تتصور أن من أُوتى المال والبنون لا مكان له عند الله ، أو أن مكانته هابطة بقدر ما أُوتى فى الدنيا من خير ، كأن الصعلكة شرط لدخول الجنة ، والظفر بالعاقبة الحسنة ! .

وهذا تصور مكذوب على الإسلام ، وقد شاع فى بعض الأجيال فهبط بمكانة الأمة والدولة ، وأضاع الدين والدنيا جميعًا . . .

الذى يرفضه الإسلام هو الجشع ، وشدة النَّهْمَة إلى الحياة ، والذهول عما وراءها ، وعدم الإعداد له ! أما إذا رزق المرء مالا ممدوداً ، وثراء عريضاً فدعّم بغناه مكانة أُمته فى عالم الاقتصاد ، وأَفْضَلَ على مَنْ دونه فسدّ ثغرات وستر عورات ، فإن حوله وطوله يحسب من الباقيات الصالحات .

ومثل هذا الرجل قدوة تحتذى ، بل أمل منشود ، ومنزلة ترجى ، وهو يُحسد على مكانته تلك ، كما جاء فى السُنّة الصحيحة . .

وليت للمسلمين أعداداً ضخمة من هؤلاء الأغنياء الموفقين ، الذين تحتمى بهم الدعوات ، وتستند إلى بذلهم ومواساتهم ! .

إن هذا الصنف العالى شىءٌ آخر غير الصنف الذى جاءت فيه الآية : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ

---

(١) سورة الكهف : ٤٦ .

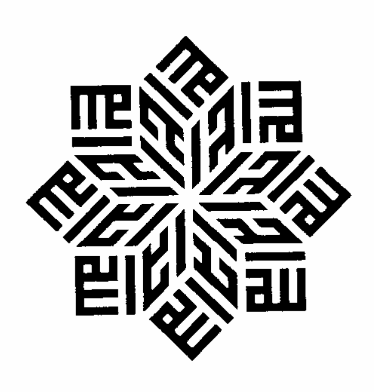
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (١)

فهذا القبيل من الناس نسى الله ، ولقاءه ، وغرق فى المتاع الفانى ، فما ادَّخر لغده شيئاً ، وربما نظر إليه فقير مؤمن فانخدع ببشاشة النعمة عنده ، وتبرم بضيق ذات يده ! فنُهى عن هذا النظر القاصر ، وزُجر عن تلك الخدعة التافهة . .

وقد رأيت بعض الجهال الذين لايجوز لهم الكلام فى الإسلام يرجمون المجتمعات بآثار ما فهموها ، وما يدرون شيئًا عن ملابساتها ودلالاتها ، يقول للناس : إن الأغنياء أكثر أهل النار ، وإن النساء أكثر أهل النار ، يَعْنون أن الغنى جريمة ، وأن الأنوثة جريمة ! ! .

وهذا لغو مقبوح الفهم والآثار ، وقد آن للأمة أن تبرأ منه ، وأن تنصح قائليه بالصمت والتوبة .

* * *



(١) سورة طه : ١٣١ .

منزلة المرأة فى الإسلام

شكت لى سيدة فضلى أنها سمعت خطيب الجمعة يقول : رحم الله عصراً كانت المرأة لاتخرج أبداً إلا ثلاث مرات ، من بطن أمها إلى الدنيا ، ومن دار أبيها إلى الزوج ، ومن دار زوجها إلى القبر ! ! !

قالت : أذلك ما يصنعه لنا الإسلام ؟ فأجبت بأن الخطيب وقع تحت ضغط الفساد الذى وفدت به الحضارة الحديثة . فقال ما قال ، وكان غير موفق ، فإن الانحراف لا يداوى بالانحراف . .

إن للمرأة أن تخرج للصلوات الجامعة خمس مرات فى اليوم ، ولها أن تخرج إلى حوائجها فى الأسواق والمحال التجارية ، ولها أن تخرج مع الجيش إذا كانت لديها مهارة عسكرية أو طبية أو هندسية ، والعصر الذى نترحم عليه أو نقتبس منه هو عصر النبوة ، فهو خير القرون يقيناً ، أما عصور الانحراف أو الجهالة فلا يقاس عليها ولا يُتَأسى بها . . .

والخطيب المذكور رأى انهيار الأسرة فى الغرب ، وضيعة الأولاد ، وانتشار الدنايا فقال ما قال . . .

وخير من مقولته أن ينقل بأمانة وضع المرأة المسلمة كما رسمه القرآن ، وأوضحته السنة الشريفة .

كتب الزعيم السلفى العظيم « **عبد الحميد بن باديس** [1]» عن « **الربيِّع بنت معوِّذ** » فقال : إنها حضرت بيعة الرضوان وكانت ممن يغزون مع النبى ﷺ مع نساءٍ أخريات يخدمن الجيش ويسقين الماء ويداوين الجرحى ويحملنهم إلى المدينة . .

(١) أحد علماء المسلمين البارزين فى الجزائر ورئيس جماعة علماء الجزائر سنة ١٩٢٦ . . التى قاومت المستعمر الفرنسى وأبلت فى ذلك بلاء حسنًا . . و الشيخ « عبد الحميد » كان من أصحاب اليد الطولى فى مقاومة الغزو الثقافى الفرنسى .

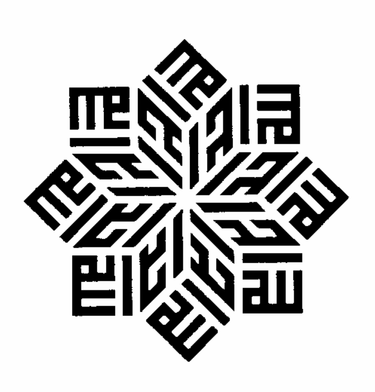
ثم قال « ابن باديس » بعد ما شرح موقف الدين من المرأة : إنه لابد من مراعاة ما يفرضه عليهن الإسلام من تصوّن ، وعدم تبرج ، وعدم اختلاط ! ولن تكمل حياة الأمة إلا بحياة شطريها ، الذكر والأنثى . . . وكشف الرجل عن قيمة ما رواه الطبرانى عن عائشة مرفوعاً ـ فى شأن النساءَ : « **لاتنزلوهن الغرف** ـ يعنى لايسكنّ فى الأعالى- ولاتعلموهن الكتابة ، وعلموهن الغزل وسورة النور» فبين أنه حديث مكذوب . . .

وقد أَعلنَّا نحن أسانا من أن هذا الحديث الموضوع يحكم المجتمع الإسلامى من قرون !

أما السنن المتواترة والصحيحة والحسنة فقد تم تجميدها بطريقة غريبة ، وبذلك أخذ المسلمون يتدحرجون إلى العالم الثالث ، ويتزاحمون فى ذيل القافلة البشرية لفقدان التربية الصحيحة ، ولاتربية مع جهالة المرأة ، وعزلها عن العلم والعبادة ، ودعوات الخير ، وشئون المسلمين ! ! .

وإيضاح أخير ، إن الرجل قد يقول عن نفسه : أنا لا أذهب إلى المقاهى والأندية ، حياتى بين عملى وبيتى ! إن دلالة هذا القول معروفة ، وهى لاتعنى أبدا أنه لايذهب إلى المساجد ، أو لايتردد على الأسواق . كذلك الأمر بقرار المرأة فى البيت ! إنه لفتٌ إلى وظيفتها العتيدة من حيث هى ربة بيت وقيِّمةٌ على أسرة ، ولايعنى أبداً أنها سجينة لاتخرج إلا إلى القبر . . . أو الزوج ! ! .





الدعوة ليست طريقها العنف

كانت الأمصار الإسلامية فى العهد الأول تضم طوائف من أهل الكتاب والمشركين بقيت على عقائدها وتقاليدها ، وقد ضاق بهذا الوضع بعض الناس ، لاسيما إذا ترك آثاره على الآداب العامة ، وتساءل : ما يصنع بإزائه ؟ .

روى البخارى فى كتاب الاستئذان ـ من صحيحه ـ قال سعيد بن أبى الحسن للحسن : إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورءوسهن ! قال : اصرف بصرك « قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ »[1] .

وقد تململ بعض الشباب وأنا أنقل عن البخارى هذا القول وصاح : ليس هذا ما تعلمناه ! ما تعلمناه أن المرأة المتعرية أو المتبرجة فى الشارع تسحر الناس بجمالها ، وقد قال الفقهاء : إن الساحرة تقتل ، فهذه أيضاً تقتل ! بل إن المستعلنة بالفاحشة يجوز قتلها دون إذن الإمام . . !! .

قلت : هذا كلام ما سمعته طوال حياتى ، وما قرأت لفقيه فى المتقدمين أو المتأخرين فتوى أو قياساً من هذا النوع ، هذا رأى فوضوى وليس اجتهاداً فقهياً . . . !! .

قال : أيسرك أن تكون الشوارع معرض فتنة تزلزل العفاف على النحو الذى نشهد ؟ .

قلت : ما يسرّ هذا مؤمناً ، ولكن علاج هذا الخلل ما يكون بإرخاص الدماء على الطريقة التى ذكرتها ، أين التعليم ؟ والتربية ؟ والأسوة الحسنة ؟ والحكمة فى فطام الناس عما ألفوا ؟ وشرح صدورهم بالحق حتى يعتنقوه عن رضا ومحبة ؟ .

إنكم تجهلون طبائع الشعوب وأثر البيئات فى مسالك الأفراد وتحاولون فتح القفل بغير مفتاحه ولو انكسر وفسد الأمر كله ! .

---

(١) سورة النور : الآية : ٣٠ .

قال : كيف هذا ؟ إننا نريد محو الفجور . .

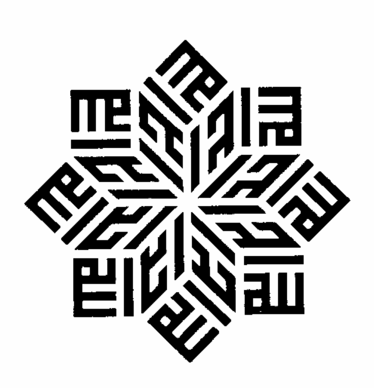
قلت : المرأة فى الهند تتوارث لباساً يكشف عن خصرها ، والمرأة فى أوروبا تتوارث لباساً يكشف عن رأسها ، وأحياناً عن أطرافها . . وليست كل واحدة مشت مع هذه المواريث تريد الرذيلة أو تبغى الفتنة ، ربما كانت خالية البال ، وربما كانت سيئة .

والعمل الصحيح هو نشر العقيدة أولا ثم بناء الخلق والسلوك على دعائمها . . والعقيدة لاتنشر بفتاوى القتل ، واستباحة الناس ! .

قال : نحن نعالج مجتمعنا الذى تحلل من قيوده !

قلت : تعنى أن نرخص دماء المنتسبين إلى الإسلام ، ونصون غيرهم ؟ إذا كنتم لاتحسنون الدعوة إلى الله ، فدعوا ذلك لمن يحسنه . إن منطق قطاع الطريق لايسمَّى فقهاً ، والحرص على اتهام الآخرين بالإثم ليس غيرة على الدين .

* * *



المرتزقة يرثون الثورات

ربما قامت أعذار تخفِّف المؤاخذة عن المخطىء ، وتطلب له الرحمة ! وهذا حسن ، فالبشر كلهم فقراء إلى عفو الله ، وجدير بنا أن نتواصى بالمرحمة . . . لكن هذا لايمنع من التعرف على الخطأ وتحديد مداه وضبط موقعه . . ويجدر بنا التنبيه إلى أن الخطأ هو الخطأ لاينقص منه ولايزيد فيه أن يكون انحرافاً ناحية اليمين أو انحرافا ناحية اليسار . فالزائغ عن الصراط المستقيم لايخفف عنه أنه أوغل يميناً ، ولايغلظ له لأنه انحرف يسارا ، إنه مخطىء على أية حال ، ومن قال : إن خمسة وخمسة تساوى سبعة كمن قال : خمسة وخمسة تساوى ثلاثة عشر ، ولا قيمة للزيادة أو النقص فى حساب الأخطاء .

والناس قد يتغاضون عن الخطأ لأنه أدبى ، ويجسِّمونه لأنه مادى . فمن سرق سلعة فهو لص يجب قمعه ! أما من سرق فكرة علمية أو أدبية أو سرق منصباً من آخر أجدر منه ، فإن الاتهام يتجه إليه خفيفاً أولا يتجه إليه ابتداءً . .!! والواقع أن هذا تفريق بين متماثلات ، فالجريمة واحدة ، وأحسب أن مقترفيها يحشرون سواسية فى الدار الآخرة ، وإن تفاوتت منازلهم فى هذه الدار . .

والناس فى عصرنا يتندرون بالحق الإلهى للملوك الذى عرفته الكنيسة فى العصور الوسطى ، ويردون إليه طغيان عدد من الحكام ، بيد أنه باسم الشعوب ظهر حكام أيديهم مطلقة فى كل شىء لهم من السطوة باسم الجماهير ما ليس لأسلافهم من ورثة الحق الإلهى . . . إن العناوين والملابسات لاتغير الحقائق ، وإذا انطلت على الناس فما تجوز على عالم الغيب والشهادة . . . .

سمعت قائلا يردد فى ألم : نحن متفرقون على حقنا ، وهم مجتمعون على باطلهم ! فقلت له : ما أحسب المتفرقين على حقهم أصحاب حق ، فطبيعة الحق أن يجمّع أهله !

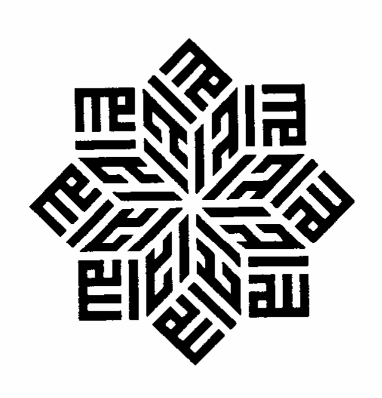
إن أعداداً كبيرة من السائرين تحت لواء الحق تكمن فى بواطنهم أباطيل كثيرة ، فهم

يحتشدون بأجسامهم فقط تحت رايته ، ويبدو أن المآرب الكثيرة ، والأغراض المختلفة ، تجعل لكل منهم وجهة هو موليها ، وذاك فى نظرى ما جعل ثورات عديدة تسرق من أصحابها ويسير بها الشطار إلى غاية أخرى ! حتى قيل : الثورات يرسمها المثاليون وينفذها الفدائيون ويرثها المرتزقة !!

ترى لو كان المثاليون والفدائيون على قلب رجل واحد فى الإيثار والتجدد أكان يبقى للمرتزقة موضع قدم ؟ .

إن أخطاء خفية ، نستخف بها عادة ، هى التى تنتهى بذلك المصير ! .

* * *



الحملات المسعورة على ديننا

يحب اليهود أن ينتموا إلى نبىّ الله يعقوب ـ الملقب بإسرائيل ـ كما يحب النصارى أن ينتموا إلى نبى الله عيسى بن مريم - الملقب بالمسيح - . والانتساب إلى العظماء طبيعة بشرية شريطة ألا يكون ذلك تغطية لنقص أو مخادعة عن سوء .

ويعقوب نبى من أولى الأيدى والأبصار ، امتحن فنجح ! وبقى أغلب عمره شديد التعلُّق بربه شديد الثقة فيه ، ومع فقدانه لبصره لم يضعف فى الله رجاؤه حتى جمع الله شمله ، وملأ بالرضا فؤاده . . .

فهل اليهود كذلك ؟ أم هم نماذج لنسيان الله وعبادة المال وقساوة القلب ؟ . . .

والمسيح كان إنساناً نبيل السيرة مديد الرحمة ، يبعثر مشاعر الحب فى طريقه حيث سار ويناشد مَنْ حوله أن يكونوا روحانيين سمحاء ، فهل النصارى كذلك ؟ إنهم اخترعوا من آلات الفتك ما أهلك الألوف المؤلفة ، وكانوا مع مخالفيهم فى الرأى وحوشاً . ومع معترضى نزواتهم ذئاباً كاسرة ! .

والتفجيرات التى أبادت (هيروشيما) و(ناجازاكى) زادت كماً وكيفاً ، وهى الآن مخزونة لأيام سود يشقى بها العالم أجمع ! .

فما معنى أن ينتسب القتلة إلى الحمل الوديع ويقولوا : نحن مسيحيون ؟ أو ينتسب الغادرون الأنانيون إلى مثال الصبر والرضا ويقولوا : نحن إسرائيليون ؟ الحق أن ذلك كله افتراء وتزوير . . .

والغريب أن القوم على ما بينهم من فجوات جعلهم الحقد على الإسلام ونبيه وأمته جبهة واحدة ، إنهم نسوا ما بينهم من خلاف شديد ، وتعاونوا على أمر واحد هو كيف يمزقون أتباع محمد ويصرفونهم عن دينه ؟ والأوربيون والأمريكيون يتوارثون جيلاً عن جيل تقاليد السخط على الإسلام والكيد له فى كل ميدان ، ومع ما أصاب الدين كله

من تصدع وذوبان أمام تيارات الإلحاد ، وفلسفات المادية المعاصرة ، فإن اليهود والنصارى لايزالون يعدون الإسلام عدوهم الأول ! !

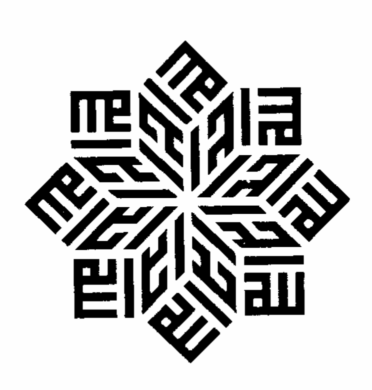
وقد سرح بى الخيال بعيداً وأنا أقرأ فى إحدى الصحف التى وصفت مذبحة «صابرا وشاتيلا» وكيف أن ضابطاً قاتلاً أخذ يتواثب فوق جسد صبى فلسطينى حتى أزهق روحه ، واطمأن إلى أنه لن يعود إلى الحياة ! ! لماذا هذا الغلّ الأسود ؟ ! ! لماذا هذه الوحشية القذرة ؟ ! .

هؤلاءِ بداهة لا دين لهم مهما انتسبوا إلى رسل الله . .

والحق أنه لن يكفّ أذاهم إلا جيل يفهم هذه الآيات « . . وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »[1] . . .

ترى متى يتكون هذا الجيل . . . ؟

* * *



(١) سورة الأنفال : الآيتان : ٧ ، ٨ .

يرحبون باللقطاء ويرفضون الأبناء الشرعيين

قرأت هذا العنوان فى إحدى الصحف : يتفقان على الطلاق وترفضه المحكمة ! شعرت للفور أن الزوجين ليسا بمسلمين ، ومع ذلك فقد أحببت أن أعرف القصة .

إن الرجل أحسّ بعد عام من الزواج بالفشل فى اختياره ، وأخذ يسهر بعيدًا عن بيته ، وكذلك أحست الزوجة ، ثم رأت أن تعود إلى أهلها ! وطالت الفرقة سنة بعد سنة ولم يغير أحدهما رأيه . . .

وأخيرا اتفقا على الطلاق لعلّ كليهما يجد رفيقاً أصلح لحياته !

ما معنى أن تكون الأسرة على الورق ، ولا ظل لها فى الواقع ؟ ولِمَ يشتغل الطرفان بالتسوُّل الجنسى ويحرمان العيش فى بيت آخر ؟ .

إن الإسلام يقول : «وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا »[1] . . لكن «بابا روما» يقول : إن الطلاق لايجوز لأنه ضد الإنسانية ، وهو فى سياحته الأولى والثانية بأقطار أفريقية يكرر حملته على « مبدأ » الطلاق ، أى على الشريعة الإسلامية نفسها .

إن الطلاق عندنا أبغض الحلال إلى الله ، وعندما فكر « أبو أيوب الأنصارى » فى تطليق امرأته قال الرسول الرحيم : « **إن طلاق أم أيوب لحوبٌ** » أى إثم ، لكن ما العمل إذا تنافر الودّ وعزَّ اللقاء واستحكمت القطيعة ؟ لابد مما ليس منه بد ! والطلاق أفضل من الخيانة والخنا والبهتان .

الغريب أن « بابا روما » ـ هداه الله ـ يَصْدر عنه ما يستحق التدبر العميق ، فهو لم ينبس بكلمة عندما أقر مجلس العموم ومجلس اللوردات اللواط ، كان شغله الشاغل الحديث اللاذع عن تعدد الزوجات ! أما انحراف الشهوة وشذوذها ووضاعتها فالخطب سهل ! !

---

(١) سورة النساء : الآية : ١٣٠ .

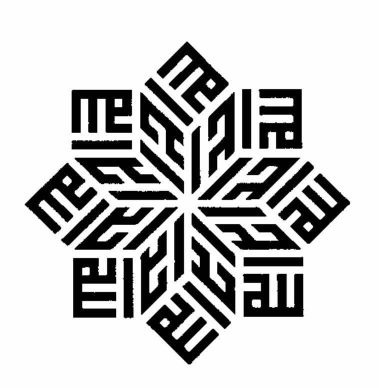
وقرأ « البابا » ـ هداه الله ـ أن البكارة تكاد تختفى فى العقد الثانى من أعمار الفتيات ، وأن الأعراض تكاد تكون كلأً مباحا ، وأن اتصال الرجل بعشرات النساء حقيقة كالحة ! ليكن ذلك كله ، فهو عند الله أهون من تعدد الزوجات الذى نظمه الإسلام ، وكان فى الأديان الأخرى لا حدود له ! ألم يذكر العهد القديم أنه كان لسليمان ألف امرأة ؟ ! !

إن التحامل على الإسلام وتحريك الأحقاد ضده جعل البابا العظيم يؤثر الخلائل على الحلائل! وجعله يستقبل اللقطاء ببشاشة ، ويرفض أن يكون للرجل أولاد شرعيون من صلبه إذا كانوا من زوجة أخرى ! !

والأغرب من ذلك التخليط المعيب أن البابا ـ هداه الله ـ يتحدث إلى شعوب ، المسلمون فيها كثرة مسحوقة ، والنصارى فيها قلة حاكمة غالبة ، والوثنيون ينظرون دهشين إلى العلاقات المتردية بين أتباع الأديان السماوية كما يقال .

وتزيد دهشتهم عندما يسمعون البابا يقول بدهاء : إنه يريد تقريب المسافة بين المسيحية والإسلام . .





من نبوءات الرسول

وضع علماء السُنّة معايير دقيقة لضبط الحديث النبوى وقبول ما صحت نسبته ، وقد لاحظ بعض العلماء أن هناك أحاديث صدقتها الأيام ، وكشفت الغيوب أنها كلام من لاينطق عن الهوى ، فجاء الواقع العملى ظهيراً للدليل العلمى نوراً على نور .

ولست أُحصى هنا هذه الأحاديث ، وإنما أسوق مثالاً واحداً لها أرى فى تسجيله عبرة ، لاسيما بعد الضجيج الهائل الذى أحدثته صحف أوروبا وأمريكا عن مرض «الإيدز» ! . .

هذا مرض لم يكن معروفاً ، ويبدو أن جرثومته تخلَّقَتْ فى أكوام القذارات الجنسية التى انتشرت مع الحضارة الحديثة . وقد قال العلماء : إنه يجرد الجسد البشرىّ من أسباب المقاومة لأية علة ، ويتركه صريع ضعف متصل حتى يذوق الحتوف . .

والحديث الذى أسوقه يشير إلى هذا المرض كما يكشف إلى سرّ فشوّه وتأَذِّى الناس به ، وقد رواه المنذرى بسند قوىّ عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إن ابتليتم بهن ونزلن بكم ، أَعوذ بالله أَن تدركوهن . . (١) لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشت فيهم الأَوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ! (٢) ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان (٣) ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماءِ ولولا البهائم لم يمطروا (٤) ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّطَ عليهم عدواً من غيرهم فيأخذ بعض ما فى أَيديهم (٥) ومالم تحكم أَئمتهم بكتاب الله إِلا جعل بأسهم بينهم » .

هل هذه نبوءات حققها المستقبل ؟ أم هى سنن حضارية تحكم سير الجماعة الإنسانية عامة ، والأمة الإسلامية خاصة . . . ؟

عندما أنظر فى الخصلة الرابعة من هذه الخصال الخمس ألمس أسباب الاحتلال

الأجنبى أو الاستعمار العالمى ، الذى تألب على الشعوب الضعيفة فأكلها وأذلها ، والذى أغار على المسلمين فجرّد أيديهم مما تملك ، وما أكثر ما كانت تملك ! .

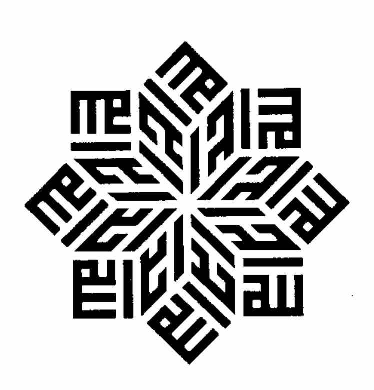
السبب هو النقض المتصل لعهود الله ، والعبث الدائم بمطالب الحق ، وقد كان الاستعمار قديماً يعالن بعدوانه . أما اليوم فهو يعمل من وراء ستار ، بل يعمل وهو يشعر ضحاياه بأنه صديق مخلص ! . .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ » [1] .

وفى الخصلة الخامسة ترى سرّ الفرقة الضاربة فى الكيان الإسلامى ، وكيف وقع بأس المسلمين بينهم ، وانقسموا أحزاباً متفانية ، إنهم لم يحكموا بما أنزل الله ، فبعثرهم الباطل فى جبهات كثيرة ، وأقام بينهم فجوات عميقة ! .

إن الزائغين عن الصراط المستقيم لابد أن يعانوا متاعب التشرد والهيمان .

* * *



(١) سورة محمد : الآية : ٢٣ .

كيف ينتصر من أرخص الإسلام

فى العالم دول كثيرة لاتدين بالإسلام ، ونحن لانُكرِهُ غيرنا على اعتناق ديننا ، ولانتطوع بكره الآخرين لأنهم يعرفون غير ما نعرف ويعتقدون غير ما نعتقد . .

نحن نؤمن بقوله تعالى « . . وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » ويسرنا أن تقوم بين الناس كلهم علاقات حسنة ، وأن تختفى الحواجز التى تحجب المبادىء والأفكار ! .

وثقتنا بما لدينا أساسها الاقتناع لا التقليد ، واحترام الحق ، لا الانسياق مع الباطل ، ولذلك عقد النبىُّ ﷺ معاهدات مع عبدة الأصنام ومع أهل الكتاب ، ووفّى بما عاهد عليه وفاءً كاملا ، فكان الغدر من خصومه لا منه ، إنه عليه الصلاة والسلام أشرف نفساً وأصدق قيلا . .

وفى هذا العصر لا بأس علينا أن نصادق فى الميدان الدولى من نرى المصلحة فى مصادقته ، وأن نعقد معه العهود التى تحدد ما علينا وعليه ! لكن الفرق بعيد بعد المشرقين بين معاهدتنا لدولة ما وارتضائنا لمبادئها ونقلها إلى أرضنا وتغيير المجتمع وفق توجيهاتها . . . .

إن لنا عقائدنا وشرائعنا ، وكل انتقاص لهذه العقائد والشرائع مزلقة إلى الكفر . . !

وقد لاحظت على بعض الدول العربية التى تعاهدت مع روسيا أنها لم تتعاهد مع الدولة ، تعاهدت مع الشيوعية ذاتها ، وشرعت تنقلها كلاً وجزءاً ، وأمست قبلتها « موسكو » لا مكة ، واهتداؤها « بماركس » لا « بمحمد » ! وحلَّ محلَّ القرآن والسنة ولاءٌ آخر لتعاليم « لينين » وغيره من سماسرة الإلحاد الذين يصيحون بكل قواهم : «لا إله ! والحياة مادة » ! !

---

(١) سورة الحجرات : الآية : ١٣ .

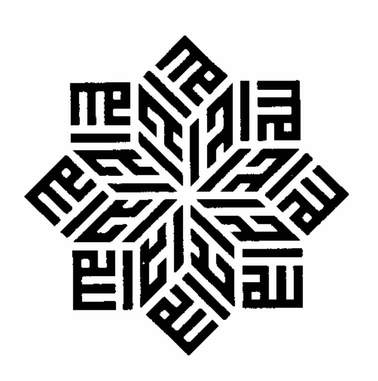
وهؤلاء العرب الذين غيروا انتماءهم صنوف ! منهم من اكتفى بتأييد الشيوعية فى الميدان السياسى ، وأعلن أنه لايعارض الروس فى اعتدائهم على أفغانستان مثلاً ، ولايمنح المجاهدين ذرة من تأييد ! لقد نسى الأُخوة الإسلامية لأنه نسى الإسلام نفسه!

ومنهم من أقام أحزاباً ماركسية صريحة العنوان والحقيقة ، تعمل سراً وجهراً على استبدال إيمان بإيمان ومنهج بمنهج ، وهو يبسط لسانه بالمنكر ضد الدين كله ، والإسلام خاصة ! !

إننى أتساءل : كيف يمدّ العرب أيديهم إلى هؤلاء ؟ وكيف يستبقون صداقتهم ويحرصون على زمالتهم فى الجامعة العربية ؟ إذا لم يكن ما صنعه هؤلاء العرب ارتداداً فما هو الارتداد ؟ ! !

ثم يجيىء سؤالنا الأخير : إذا أرخص العرب الإسلام فما مسوِّغات بقائهم فى هذه الدنيا ، وما انتظارهم لنصر الله ؟ ؟ .

* * *



الويل لأمة تفقد ذاكرتها

اتفق المسلمون ما شذَّ منهم أحد على أن الهجرة بداية التاريخ الإسلامى ، وتمّ هذا الاتفاق فى خلافة . . « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ، والسببُ واضح ، فإن الهجرة كانت فاصلاً بين عهدين مختلفين ، كان المسلمون قبلها أفراداً مطاردين لايُعترف لهم بكيان مادىّ ولا أدبىّ ! فلما انتقلوا إلى المدينة قام لهم مجتمع بيّن الملامح ونهضت لهم دولة تملك كل السلطات التشريعية والتنفيذية .

وظل التاريخ الهجرى الضابط الأوحد للأحداث الخاصة والعامة حتى دهم المسلمين الاستعمار العالمىّ الأخير ، وبدأ خطته فى محو شخصيتهم وتشويه معالمهم ، فإذا التاريخ الأوروبى يطارد التاريخ العربى ويحاول القضاء عليه . .

ومن الغرائب أن اجتياز قناة السويس وتحطيم خط «بارليف» وانتصار العرب على اليهود فى معركة خارقة تمّ وفق خطة تحمل اسم «بدر» وتقع فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هجرية .

وقد تنوسى هذا التاريخ الهجرىّ وذكر اليوم الموافق له من التاريخ الأوروبى ، وأمسى الاحتفال به فى السادس من أكتوبر كل عام . . . !

ذكرّنى ذلك بقصة تولِّى الملك « فاروق » عرش مصر وانتهاء مجلس الوصاية الذى تكوّن لأن الملك لم يكن قد بلغ بعد سن الرشد ،لقد حُسب عمره بالتقويم الهجرى لأن ثمانى عشرة سنة قمرية توفِّر بضعة شهور وتعجل بتسلم السلطة ! حتى إذا تولاها طبق التاريخ الهجرىّ اعتبر التاريخ الميلادى الموافق هو اليوم الرسمى لاحتفال الميلاد الملكى وتنوسى التاريخ الهجرى تناسياً تاماً ! !

ومنذ أيام كنت أسمع إجابة علمية عن « صلاح الدين الأيوبى » فإذا المتحدث يذكره على أنه من رجال القرن الثانى عشر ، يعنى الميلادى بداهة . . .

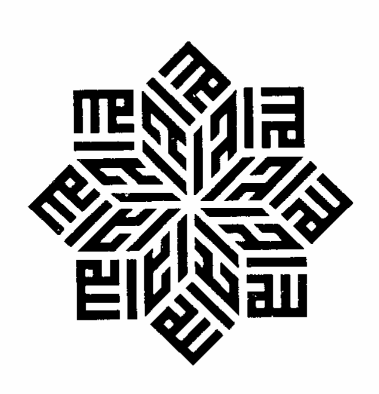
إننى أرفض كما يرفض كل مسلم أن يتدحرج التاريخ الهجرى على هذا النحو

الشائن ، وأن يستمكن الغزو الثقافى من إهانتنا على هذا النحو ! قد أَقبلُ أن تُضبط الوقائع بالتاريخين العربى والفرنجى على شرط أن يتقدم التاريخ الهجرى ، أو ينفرد فى أغلب الأحيان . .

ولنعلم أن التقويم القمرى يرتبط بعقائدنا وعباداتنا السنوية ، وأنه بعد تحديد الهجرة رمزاً لدولتنا ودعوتنا أصبح تجاهل هذه الحقائق تهديداً للإسلام واستطالة على رسالته ومسيرته بل فصلاً للحاضر عن الماضى .

والويل لأمة تفقد ذاكرتها ، وتعيش بلا وعى ! .





نظرية دارون وعبث الملحدين

قرأت فى رسالة علمية لطيفة هذه العبارة : « إن نظرية دارون التى فسرت خطأ قضية النشوء والارتقاء أمست محفوظة فى رفوف المتاحف ، أو أمست ذكرى فى تاريخ العلوم ، وهى لاتدرس الآن فى مدارس الأُمم المتقدمة تقنياً » . .

قلت : لكن هذه النظرية التى أُعلنت وفاتها فى المحافل العلمية الجادة لاتزال تدرس فى العالم العربى على أنها حقيقة مؤكدة ، كما تدرس معها فى علم الكيمياء قضية أن المادة لاتفنى ولاتستحدث ! !

وبقاء هذه الدراسة إلى الآن ليس عن غفلة أو اقتناع خاص ، وإنما يراد به إشعار الأجيال الناشئة أن الإنسان حيوان خسيس النسب ، وليس نفخة من روح الله ، وأن الكون كله لم يصدر عن خالق عظيم ، وإنما عثر عليه مصادفة فى طريق الوجود ، دون أن يعرف له صاحب ! ! وبذلك يتم التطويح بالدين كله فى هدوء . . .

والرسالة التى أشرنا إليها صدر هذا الحديث للدكتور « بشير التركى » الذى كان رئيساً للوكالة الدولية للطاقة الذرية بالنمسا سنة ١٩٦٩ ، والذى يعمل الآن مستشاراً علمياً لجامعة تونس ، وقد فهمت من قراءتى لها أمرين :

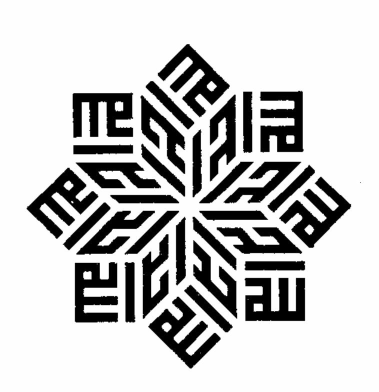
أولهما استحالة أن يكون الإنسان متخلقاً عن قرد ، فإن حاملات الوراثة فى الكيان الحىّ تتفاوت كماً وكيفاً فى مختلف الأنواع ابتداء من الـ « أميبا » فما فوق ، ودراسة هذه الخصائص الوراثية تقطع باستحالة هذه السلالم الموهومة فى الترقى الحيوانى . .

والأمر الثانى ـ وهو خطير ـ يقول فيه الدكتور بشير : « إن القانون العام للتطور فى العلم الحديث ينص على أن نظاماً ما للتطور لايكون إلا من نظام منسق دقيق إلى آخر أقل اتساقاً ودقة . . . ثم إلى الفوضى ، ثم إلى الهلاك آخر الأمر ! ! » أى أن التطور الملحوظ إلى أدنى لا إلى أعلى ، وأن الكون المادى صائر إلى التلاشى لا إلى الزيادة !

وقد ذكرنى هذا الكلام بنظرية « آنشتين » فى التمدد الكونى الذى سينتهى بالانشقاق كما تنشق الكرة إذا ظللت تنفخ فيها بلا انقطاع .

ولا أُحب أن أدخل فى ميدان أنا فيه متفرج وحسب ! وإنما أحب أن أسائل المؤمنين بأن المادة لاتفنى قائلا : هل إذا تفجر المخزون الذرى من القنابل كله أو بعضه ، ودخل العالم أجمع فى الشتاء الذرى ، وذهبت الحياة الدنيا مع أمس الدابر ، وأصبحت كأنها فكرة مرت بذهن مكدود ثم نسيت ! هل المخلفات الباقية بعد هذا الفناء تشهد بأن المادة لاتزال ؟؟ إن الذين يتصورون العالم بغير خالق ينفثون أفكارهم من خلال دخان الحشيش لا التبغ ! وإنها لسماجة مرفوضة أن يسمى ذلك علماً . .

* * *



وسط إفريقيا وجنوبها حقل صليبى

نشرت صحيفة «الهيرالد تريبيون» فى ٢٥ / ٨ / ١٩٨٥ مقالاً تحت عنوان : «البابا يرجو الحدّ من انتشار الإسلام مع بداية زيارته الثالثة لأفريقية» .

ومعروف أن هذه هى رحلته الثالثة خلال خمس سنوات ، ويقول كاتب المقال : إن البابا يأمل فى تقوية الكنيسة الرومانية الكاثوليكية حتى تواجه الصحوة الإسلامية المعاصرة وتستطيع صدّها . فإن الفاتيكان يرى «أفريقية» من أنجح الميادين التى يعمل فيها النشاط الكنسىّ ، كما يرى أن التوسع الذى تم ضاعف المتنصرين عشرات المرات .

ففى سنة ١٩٠١ كان مدد الكاثوليك نحو مليون فقط ويبلغ عددهم الآن ٦٥ مليون كاثوليكى ومطلوب أن يصل العدد فى السنين القادمة إلى مائة مليون . . !

والرحلة التى تمت هى السابعة والعشرون منذ تولى البابا منصبه سنة ١٩٧٨ وتجواله فى العالم كله والرجل ناشط فى خدمة عقيدته ونشر مذهبه ، وما يلومه على ذلك أحد ! فلنفسه أو لدينه بغى الخير ! .

أما الذى عجبت له فهو مسارعة رجال من زعماء المسلمين إلى استقباله والاحتفاء به وحشد جماهير من الشباب لسماعه ! ، لقد خيِّل إلى أن هؤلاء الرجال فقدوا رشدهم ، أو نسوا كل النسيان دينهم . .

وقد رفض زعماء السودان استقبال البابا للظروف الدقيقة التى يمرّ بها وللصراع الطائفى الدامى بين الشمال والجنوب وكان البابا يريد أن يجعل السودان الدولة الثامنة التى يتحدث فيها فى هذه الرحلة .

ترى ما هذا الحديث ، يقول كاتب المقال : إنه من المتوقع أن يحث البابا الأساقفة الأفارقة والقساوسة ، وكل أتباعه على مضاعفة الجهود التبشيرية لمواجهة أو بتعبير أدق لمقاومة انتشار الإسلام فى اندفاعه الجديد من شمال القارة إلى جنوبها ! ! .

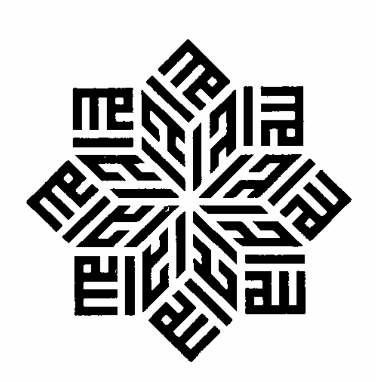
وقد راقبت هذه الرحلة فى شتى الصحف والإذاعات ، ومع التحفظ الدبلوماسى

الذى سايرها ، فإن الإسلام تنوول بعبارات لاذعة فى بعض تعاليمه ، وذلك فى الخطب العامة ، أما فى المجالس والتعليمات الخاصة فحدث ولا حرج !! .

والذى استوقفنى هذا الحديث عن دفعة إسلامية هابطة من شمال القارة إلى جنوبها ! مَنْ صنع هذه الدفعة ! وأين هى ؟ إن النشاط الإسلامى فى الشمال الأفريقى كله من الأطلسى إلى البحر الأحمر يبذل جهوداً مستميتة ليبرز من القاع إلى السطح ! فأنّى له التسلل إلى وسط القارة وما تحته ؟

إنه يُمنح حق الحياة المجردة بمشقة ! أما دول وسط أفريقية وجنوبها ، فقلما تفتح فيها مدرسة إسلامية ، وقلما تسند وظيفة إدارية إلى مسلم ، وقلما يتاح لمسلم كيان اقتصادى ، إن الاستعمار الصليبى احتكر العمل فى أرض فيحاء يجوبها طولاً وعرضاً دون عائق ، وها هو ذا يشق طريقه إلى الأمام . . .

* * *



الاستعلاء على رغبات النفس

القدرة على الامتناع عظمة نفسية لايبلغها إلا قليل من الناس ، ولا ريب أنها بعض الآثار المنشودة من فريضة الصيام ، ونحن هذه القدرة يقول الرجل الصالح : إذا غلا شيء أرخصته بالترك ! فيكون أرخص ما يكون إذا غلا . . .

لكن من يستطيع هذا الترك ؟ إن النفوس تتطلع ، وتزعج المرء كى يجيبها إلى ما تبغى ، وتلحُّ عليه إذا حاول كبحها ، وما ينتصر على هواه إلا امرؤ قوىّ الإرادة واثق العزم معان من الله . . ! .

وعند التأمل نجد النفوس فى كثير من الأحيان تتعلق بكماليات يمكن الاستغناء عنها ، أو بمطالب لايعنى فقدها شيئاً ذا بال ، وأغلب البيوت تزدحم بأدوات وسلع وأوان وفُرش لو فقدت ما وقف تيار الحياة ، ولا تغضّن وجهها ! .

وأبو الطيب المتنبى لم يكن من الزهاد ، ولا عرف عنه ازدراء الدنيا ، ومع ذلك فقد قرر هذه الحقيقة القريبة فى بيت من الشعر تضمن ثلاث جمل أو ثلاث حكم بليغة . .

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ... ما فاته ، وفضول العيش أشغال !

وقد رأيت أمتنا تنظر إلى السلع البراقة التى تقدِّمها المدنية الحديثة بطفولة مضحكة وتتنافس فى اقتنائها مهما غلا ثمنها ، وعندما ارتفع سعر النفط ضاعف الأوروبيون سعرها ، وعندما هبط بقى السعر على حاله ، وبقى المشترون على رغبتهم وتطلعهم !! .

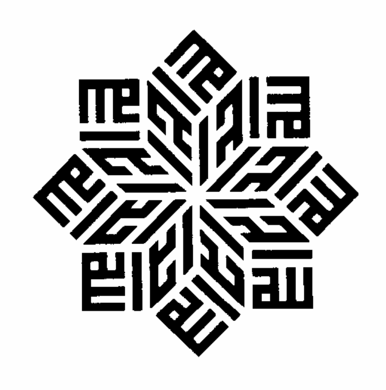
إن الاستعمار يعرف عجزنا عن «الامتناع» فيستغل هذا الضعف كى يملى إرادته ويثبت غناه وفقرنا ، أو تقدمه وتخلفنا . .

ولو أننا على قدر من الاستعفاف والاستعلاء على رغبات النفوس لكان لنا معه شأن آخر ، ولعلمناه كيف يحترمنا . . ! .

هل يستفيد المسلمون هذا الخلق من شريعة الصيام ؟ كلا ، إن المسلم يأكل فى رمضان أكثر مما يأكل فى سائر شهور العام ، وهو يؤدى هذا النسك بأسلوب يبطل حكمته ويقتل ثمرته ! والأمم عندما تهزل تهبط بمستوى العبادة بدل أن ترتفع هى إليها . .

ولست أدرى - والاستعمار العالمى يتربص بنا - أنبقى عبيد أهوائنا ، أم ننجح فى كبح جماحها ، ومن ثَم ننتصر على عدونا ؟

***



فوضى الشهوات الجنسية فى أوروبا

فى غياب الوحى ، أو فى جراءة الناس عليه ، تقع آلام وأحزان كان ينبغى أن تكون مثار عبرة ومبعث توبة ، ولكن يظهر أن الناس يكرهون الرشد . وإلا فبم تفسر هذه المتناقضات التى قرأتها أخيرًا ؟

قرأت أن ديون العالم الثالث تتضاعف ، وأن الحلقة تضيق حول عنقه ، وأن عرقه المتصبّب فى الوفاء بما عليه لايكاد يسدّ الفوائد الربوية على قروضه ، بل إن بعض الدول تقترض لمجرد سداد الفائدة المستحقة !

إذا اقترضت دولة فقيرة مائة مليون دولار وكان عليها أن تدفع عشر هذا المبلغ على الأقل رباً ، وتبلغ هذه المائة مائتين خلال بضع سنين إذا عجزت عن الوفاء ! والعالم الأول الذكىّ المتحضر مسرور فخور بموقفه المستعلى ، وقدرته العظيمة على امتصاص الدم ، والويل للفقراء . . . .

ومع ذلك كله فالربا حق ، لايجادل فيه إلا متدينون متخلفون !

وقرأت أن روسيا قررت مضاعفة العقوبات على السكارى بعد ما فقدت الآلاف من الرجال فى حوادث المرور وآلافاً أكثر فى أعطال الآلات وخراب المصانع ، وآلافاً أكثر من ضحايا الإدمان الذين غصت بهم المصحات والمستشفيات ، وسمعت صيحة التحذير التى أطلقها رئيس أكاديمية العلوم هناك أن الشعب الروسى فى خطر وأن مستقبله مظلم بسبب الخمور والإغراق فى تناولها . .

ومع ذلك فالخمر حلال ، وشربها جائز ، والقول بحرمتها تفكير إسلامى ردىء يجب أن تعترضه الشيوعية والصليبية على سواء . . .

وقرأت إحصاء يفيد أن الأملاك الفردية الخاصة فى روسيا تبلغ مساحتها الزراعية ٣٪ وأن هذه المساحة الضيقة تنتج ٣٠٪ من المحاصيل . أما الـ٩٧٪ من المزارع الجماعية الباقية فلا تزيد غلتها على ثلثى الإنتاج العام . . .

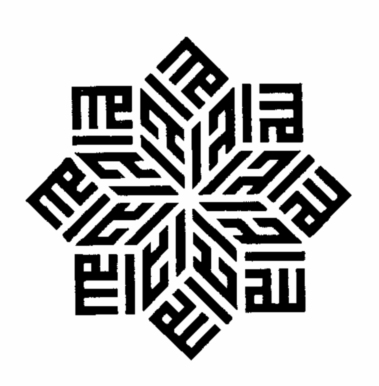
ومع ذلك فالملكية الفردية جريمة ، والمناداة بها ارتداد يختصر العمر . أو رجعية تستحق الازراء . . .

وقرأت أن بابا الفاتيكان خطب فى قطر أفريقى مسلم ! يندد بتعدد الزوجات ويصفه بأقبح الأوصاف ، وتساءلت : ماذا قال عن فوضى الشهوات الجنسية فى أوروبا ، وعن قدرة شخص واحد على الفتك بعشرات الأعراض ؟ فلم أسمعه قال شيئاً !! .

إن البعد عن الدين الحق لم يثمر إلا البلاء ، ومع ذلك فالعالم فى محنة عقلية تذكرنا بقول الشاعر :

يُقضى على المرءِ فى أَيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن !

* * *



عندما نفقد أخوتنا

لم أجد قومية أشأم على أصحابها ولا أسوأ عقبى من القومية العربية بعد تجريدها من الإسلام وإلحاقها بركب « العلمانية » ! ربما أرجأ القدر العقاب على بعض الانحرافات الخلقية والاجتماعية . بيد أن الغدر التاريخى والعقوق المستعلن الصارخ لا يمران بسهولة ولا يفلتان من قبضة القدر الصاحى ، وذاك سر النزيف الدائم الذى يتعرض له الكيان العربى ويوشك به على التلاشى ، ولا عجب ، فالجنس العربى ينتحر عندما يترك الإسلام ! ويفقد القدرة على البقاء داخل سياج سياسى محترم ! وهل أحس العالم كله من أزل الدنيا إلى أبدها وجوداً دولياً محترما للأمة العربية إلا بعد ما اعتنقت الإسلام وحملت رسالته واصطبغت ظاهراً وباطناً بتعاليمه ؟؟ .

إن الحقد والعناد والعتوّ كانت رذائل تفصل بين القبيلة والقبيلة ، بل بين الفرد والفرد حتى جاء الإسلام فمحا هذه الفواصل ، وفى ذلك يقول الله تعالى لنبيه «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ . . . » إن الله وحده بهذه الرسالة الخاتمة ، وذلك الدين العظيم هو الذى أقام من العرب دولة تتماسك بالإخاء الإسلامى ، ويشد بعضها بعضاً فى صف مرصوص ، أو بنيان صلب ، وتلقى الأعداء فى المشارق والمغارب ، فلا تنكس لها راية ولا يسودُّ لها وجه !! .

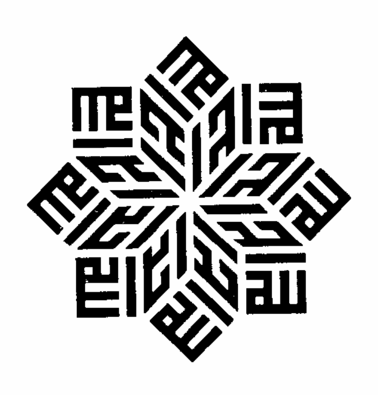
أما اليوم ، بعد ما زهد العرب فى الإسلام ، وردموا منابع الطاقة التى يتحركون بها فى الداخل والخارج فقد استبيحت بيضتهم ولطمهم الحر والعبد ، وليتهم ينتحرون بشرف ! إنهم قبل أن يهلكوا يتعرون من الخصائص التى تجمع الأمم فى الأزمان ، ويتشبث بها الأحياءُ طلباً للنجاة . . عندما كانت جماعة أمل الشيعية مدعومة بجيش

---

(١) سورة الأنفال : الآية : ٦٣ .

لبنان المارونى تهاجم المخيمات الفلسطينية التعيسة سمعت المذيع يقول : إن لجنة ذهبت لوقف سفك الدم بين الأشقاء ! ! لقد صحت بأسف : أشقاء ؟ ماذا تقول أيها المذيع ؟ إن النسب الذى يجمع هؤلاء وأولئك قد تقطع وزال . إن الدين الذى أصلح قديما ذات بينهم ، ووحد كلمتهم استبعد عن عمد وعقوق ، ولم يبق إلا أن تقع النتائج التى ذكرتها الآية الكريمة : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ »[1]

***



(١) سورة محمد : الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

لماذا يكرهون الدولة المسلمة

لم أكن أظن الكارهين لما أنزل الله بهذه الكثرة ، ولا أن قلوبهم يغشاها كل هذا السواد !

بيد أن الاستعمار الثقافى كان أنجح من الاستعمار العسكرى . فإن الجيوش التى احتلت أرضنا حيناً من الدهر عادت من حيث أتت . أما الأفكار التى احتلت عقولنا فقد بقيت تفعل الكثير . . . ! .

قلت لرجل يزعم أنه «ديمقراطى» : ما تعريف الديمقراطية ؟

قال : حكم الشعب بالشعب ، فالأمة مصدر السلطة !

قلت : يبدو أن للتعريف بقية لاتذكرونها . .

قال : ما هذه البقية ؟

قلت : إلا أن يكون الشعب مسلماً ، فيجب ألا يحكم نفسه بنفسه وألا يكون مصدر السلطات التى تدبر شئونه ! ! .

إن أىّ شعب مسلم يريد أن يحكمه الإسلام ، ولكن إرادته هذه تكبت بكل سلاح ، وحنين المسلمين إلى عقائدهم وشرائعهم لاينقطع ، ولكنكم تسكنون هذا الحنين بأساليب لا حصر لها : تزوير الانتخابات ، تزوير الإعلام ، تزوير المقالات ، تزوير الفتاوى ، فإذا لم يغن هذا التزوير جاء دور السيف فكمم الأفواه وأنشأ المنافى . . ! والرجال الأحرار لاتستقر لهم دار ولا يهدأ لهم بال . .

قال : إن الحكم الدينى هو الذى يفعل ما تقول ، أما الحكم المدنى فلا . . !

قلت له : إن استقرار الشيوعية حيث استقرت كلَّف الأُمم ملايين القتلى ، وحمامات من الدم لا يدركها جفاف ، وحديث خرافة عن حقوق الإنسان ، فهل هذه هى الديمقراطية الشعبية ؟

وهذه الأقطار التى تحررت من الصليبية الغربية إنها تكافح لتستعيد تراثها الروحى والفقهى وشخصيتها المادية والأدبية ، ولا تخرج من محنة إلا لتدخل أُخرى . إنكم تريدون لها حرية الإسفاف والنزوات ، أو حرية الفسوق والعصيان ، فإذا أرادت التمسك بكتاب ربها وسُنّة نبيها ونهج سلفها سُمع هنا وهناك عويل على الحريات المهددة ! والغد المحفوف بالأخطار ! وسُمع ممن لايملك ذرة من رصيد شعبى أنه ـ باسم الشعب ـ يرفض العودة إلى الإسلام ! .

قلت لرجل كثير الحديث عن الجماهير وحقوقها : إن الإسلام يقدم لها كل هذا الذى تقول ! فكسا وجهه تجهُّمٌ وضيق وقال : لا أظن ! ونظرت إليه ملياً ثم قلت : تحب أن أُصارحك ؟ إنك تكره شيئاً آخر يضمه الإسلام إلى هذه الحقوق المقررة ، إنه يضم إليها الصلاة والاستغفار والإعداد للآخرة ، والارتباط الدائم بالله ، وهذه معان تنكرون ما قد يرتبط بها من عدالة اجتماعية أو عدالة سياسية ! .

إذا كان الإسلام ديناً ودولة ، فأنتم تكرهون الدولة المسلمة ، لأنكم تكرهون الدين نفسه .





معركة خاسرة يا دعاة التنصير

كانت مشاعر الغضب والحقد والعناد بادية فى مؤتمر التنصير «التبشير» الذى انعقد فى شوال سنة ١٣٤٦هـ بالقدس أيام الانتداب البريطانى ، إذ وقف شيخ من دعاة النصرانية يقول : لقد صرفنا من الوقت شيئاً كثيراً ، وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة ، وألفنا كتباً ، وألقينا خطباً ، ومع ذلك فلم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقاً بنى دينه الجديد على أساس الهوى ، أو نصاباً سافلاً لم يكن داخلاً فى دينه من قبل حتى نعدّه قد خرج منه ! ومع ذلك فالذين تنصروا أو بيعوا بالمزاد لا يساوون ثمن أحذيتهم ! .

فما الحل بعد هذا الفشل ؟ يقول الداعية المجرب : يجب علينا قبل أن نبنى النصرانية فى قلوب المسلمين أن نهدم الإسلام فى نفوسهم ! حتى إذا وهت صلتهم بدينهم سهل علينا ـ أو على من يأتى بعدنا ـ أن يتم رسالتنا ، وأن ينشر النصرانية بين الضائعين التائهين عن دينهم ! .

وظاهر أن هذا الاقتراح هو الذى استقر عليه أمر المجتمعين ، واتخذت الخطط لتنفيذه ، ورأينا آثاره فيما استقبل الإسلام والمسلمون من سنوات عجاف . .

وهدم الإسلام فى نفوس أتباعه قد يعنى هدم الإيمان كله ، ومجافاة الأديان كلها ، اى تشجيع الإلحاد والانحلال بين المسلمين ونقلهم إلى الشيوعية مثلاً . . . ! .

ليكن ! المهم أن يترك المسلم عقيدة التوحيد ، واتباع محمد ، وليذهب إلى المجوسية أو اليهودية أو الوثنية أو إلى أى نحلة مغموصة فى هذه الأرض ، ليذهب حيث شاء ! المهم أن يترك الإسلام ، فإذا تخلى عنه أمكننا بعد أن نجتره إلى النصرانية . . !

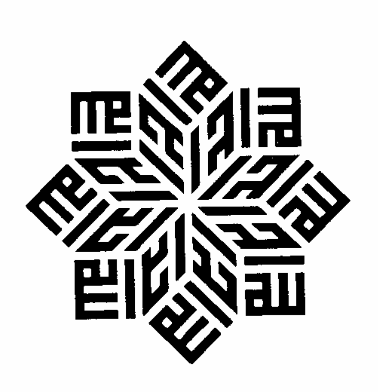
ونتيجة هذه المقررات أخذت أجهزة إعلام شتى تخدم البهائية والقاديانية والوجودية والفرويدية والدارونية . . . إلخ . وظهر مسلمون ! يستخفُّون بالسكر والرقص ، ويتندرون

بشعائر الحدود والقصاص ، ويتأولون النصوص بمجون وجراءة ، ويتضاحكون من المؤمنين وهم يرمقون الآخرة ويتقون الله !! .

إننى أقرأ مقالات كثيرة فى هذه الأيام لم يضع المنصِّرون «المبشرون» إمضاءهم عليها ،لكنهم فى الواقع هم الذين أملوها ، وتابعوها حتى ظهرت فى الصحف ، وحُسبت كلاماً عادياً ، أو رأياً شاذاً ، وماهى إلا تنفيذ لمخطط قديم ضد هذا الدين . .

إن المشتغلين بالتبشير أو التنصير واهمون حين يديرون المعركة على هذا المحور ، فإفلاسهم فى مواجهة التقدم الحضارى والرقى العلمى يجعل أملهم فى إرث الإسلام سراباً . والفاشل لايفيده أن يقتل غيره . . .

* * *



متى نبرأ من هذه العلل

من أمارات العظمة أن تخالف امرءاً فى تفكيره ، أو تعارضه فى أحكامه ، ومع ذلك تطوى فؤادك على محبته وتأبى كل الإباء أن تجرحه . أحسست ذلك وأنا أقرأ رسالة لأبى حامد الغزالى وجهها إلى السلطان « سنجر » ملك المسلمين فى عصره على العراق وإيران وأفغانستان ، وكان الغزالى قد اتهم بأنه نال من الإمام أبى حنيفة ، وللإمام الكبير مكانته فى هذه الأرجاء ، بل له مكانته السامقة فى الفقه الإسلامى كله . قال أبو حامد للملك « . . وأما ما قيل من طَعْنى فى الإمام أبى حنيفة ـ رحمة الله عليه ـ فلا أتحمله بالله الطالب الغالب المدرك المهلك الحىّ الذى لا إله إلا هو بأن اعتقادى فى أبى حنيفة – رحمة الله عليه – بأنه كان أكثر غوصاً من أُمة المصطفى ﷺ ـ فى حقائق المعانى والفقه ـ فكل من حكى شيئاً غير هذا من عقيدتى أو خطتى أو لفظى فهو كاذب » . .

وختم رسالته برجاء إلى الملك أن يدعه يعبد الله فى زاويته وأن يعفيه من التدريس لعلماء عصره . .

والذى استوقفنى فى كلام الغزالى حرارة القسم الذى تبرأ به من ذم أبى حنيفة ، وثناؤه الجمّ على أحد الأئمة الأربعة المتبوعين ! وذلك مع أن الغزالى[1] شافعى المذهب فى فقه الفروع ، وهو فى علم أصول الفقه يخالف الأحناف فى بعض طرائق الاستنباط ! بيد أن ذلك الخلاف العلمىّ القائم لم يتجاوز دائرة النظر وحرية البحث . ولكل وجهة هو موليها . وليس يغض هذا من تقدير الرجال والاعتراف لهم بالفضل .

الواقع أن الخلاف العلمى لايثير الحفائظ إلا لدى الرعاع ! ولعله يكون متنفساً لمآرب وأهواء عند من لايتقون الله . أما العلماءُ الكبار فلهم شأن آخر . ألا ترى مالكا رضي الله عنه

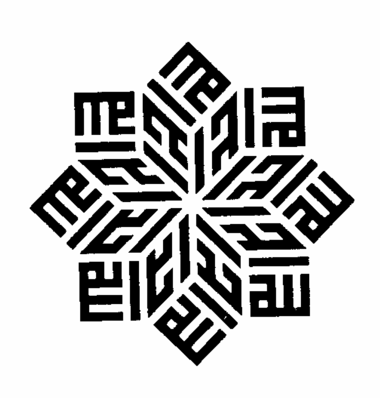
(١) أبو حامد الغزالى ت ٥٠٥ هـ .

يرفض عرض الخليفة أن يجمع الناس على كتابه «الموطأ» ؟ . لماذا ؟ لأن لدى الناس علما آخر قد يؤثرونه على موطئه ، فلا يجوز حملهم بالقسر ! .

لو كان رجل آخر دون مالك لفرح بتجميع الناس على رأيه أو على روايته ، ولكن مالكاً هو مالك . . .

فى هذه الأيام العجاف رأيت حرائق تندلع إثر خلافات مستصغرة ، ورأيت دين الله يتسع لوجهات نظر لها وزنها المتقارب ، ولكن دنيا الناس تضيق بما وسعه دين الله ، إن الفقه مظلوم عندما نحمله اشتجار الأراء واحتدام العصبيات وتجريح الرجال ، لعل المسئول قلة الفقه . أو لعل المسئول ضعف التربية الخلقية والآداب النفسية ، فمتى نبرأ من هذه العلل ؟ !





الحكمة من الحج

ذكر القرآن الكريم بعض الحكمة من لقاء الحجيج فى موسمهم الحاشد فقال :
« لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ »(1) . فما هذه المنافع المشهودة ؟ من التأمل والبحث نجدها منافع مادية وأدبية وسياسية وعسكرية ، وإن كان المسلمون قليلى الدراية بما شرع لهم ، ولننظر إلى أول حجة فى الإسلام لندرك هذه الحقيقة . .

وقعت هذه الحجة فى السنة التاسعة بعد عام واحد من فتح مكة ، ولعل كثيرين يحسبون أن الوثنية قد تلاشت من جزيرة العرب بهذا الفتح ، وخمدت أنفاسها ، وهذا خطأ ، فإن أُلوفاً ضخمة من الدهماء ظلت على خصامها للتوحيد ، وولائها للأصنام ، وتربصها بالمؤمنين ! .

إن الصحابة رضى الله عنهم قد يجاوزون المائة ألف ، وقد استطاعوا وراء نبيهم العظيم أن يدكُّوا معالم الكفر ، لكن قوى الكفر بقيت متشبثة بمواقع شتى ترقب الغد لتتحرك !! وهذا ما عالجته الحجة الأولى ، ونزلت سورة براءة لتطاردهم ، وتدبر قوله تعالى لأُولئك الأعداء المتربصين : « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ . . . » (2) .

السياق كما ترى يدل على أن أعداء الإسلام كانوا طامعين فى معاودة الكرة عليه والنيل منه ، بل إن المسلمين مع النصر الذى أحرزوه من قبل كانوا يشعرون بالقلق من أُولئك الكفرة الفجرة حتى قال الله لهم : « أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »(3) .

---

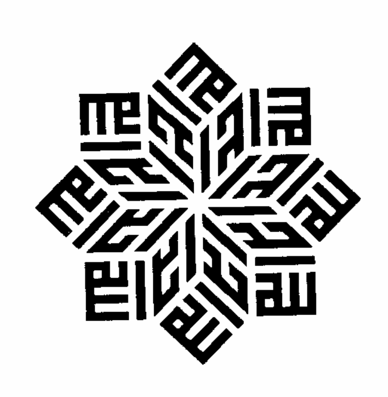
(1) سورة الحج : الآية : ٢٨ .
(٢) سورة التوبة : الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة التوبة : الآية : ١٣ .

فى هذه الحجة الأُولى ، وفى ذلك الموسم الجامع وبين حشود المؤمنين والكافرين على سواءٍ ، تنزَّلَ الوحى وكأنه صواعق غضب يطارد فلول الظلام ويطالب المؤمنين أن يملكوا ناصيةَ الموقف ! وأن يثقوا فى الغد القريب والبعيد ، وأن يتحركوا بمنطق الإيمان المقدام الجرىء غير مكترثين بشىء .

قلت لنفسى : أما تتجدد « براءة » أخرى ؟ إن المسلمين ربع سكان الأرض والهوان ينزل بهم من كل ناحية ! أما تتكرر الروح التى سادت أول حجة فى الإسلام ؟ أما تتحول الكثرة العددية للمسلمين إلى كثرة روحية ؟ أما يحج المسلمون هذه السنة ليشهدوا منافع لهم تمحو فرقتهم ، وتسود صفَّهم ، وتردُّ مهابتهم إِلى قلوب أعدائهم ؟ . .

يا قومنا إن الحج ليس لقاء أجساد ، ولا شراء هدايا ، ولا حمل ألقاب ! اجعلوا الموسم الجامع فرصة إعداد ، وموطن دراسة علمية وعملية ورسم خطة لإنقاذ أنفسكم من طوفان مقبل . . .

* * *



تدبر القرآن

القراءة دون وعى علة أُصيب بها المسلمون من قديم جعلت صلتهم بالوحى الإلهى سطحية عقيمة ، فهم يكتفون بتلاوة الآيات أو بسماعها ، وقد تومض فى أذهانهم بعض الهدايات ، ثم تنطفئ على عجل أو مهل قبل أن تملأ النفس بسناها العميم ! .

والعامة تحسب أن التلاوة الحرفية لها سر مُغيَّب قد يغنى عن التدبر والتأمل ! وقد لفت نظرى أن السورة التى شاع أن تُقرأ على الموتى ، أو على المحتضرين تضمنت هذا النص : « إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1]

كما أن الله سبحانه وصف عباده الذين يشرفون بالانتماء إليه فقال بعد عدة أوصاف رفيعة : « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا »[2]

إن السماع دون فهم ، والنظر دون رويَّة ، أمراض تمحق المواهب البشرية ، وتجعل المرء شبحا لا روحا ، والأشباح لاتصنع شيئا فى دنيا الناس ، ولايرتقى بها شعب من العالم الثالث إلى العالم الثانى بل الأول . .

وقد تتبعت كلمة التلاوة فى آيات قرآنية كثيرة ، فوجدتها تعنى عرض الرسالة الخاتمة ، وبيان معالمها العامة ، وإعطاء صورة مجملة للقضايا والأهداف ، أى ما يسمَّى فى عصرنا بدليل الحركة أو منهاج العمل ! ثم تكون بعد ذلك الدراسة ، والتدبر ، والتعليم .

قال تعالى : « كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . . »[3]

وقال على لسان نبيه : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ . . . »[4] .

---

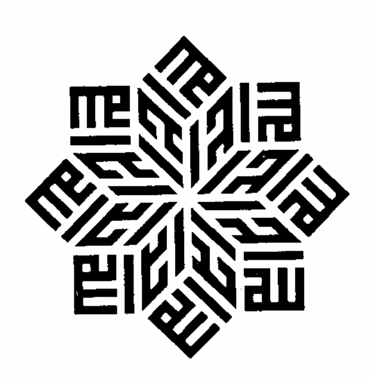
(١) سورة يس : الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة الفرقان : الآية : ٧٣ .
(٣) سورة الرعد : الآية : ٣٠ .
(٤) سورة النمل : الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

والآيات كثيرة فى أن التلاوة مفتاح الاطلاع على ما أودع الله كتابه من حق ونور ، فكيف تتحول إلى ترانيم وترديد ألفاظ مع قصور إدراك ؟ .

صحيح أن لألفاظ القرآن قداستها ، ذلك لأن الله سبحانه أراد أن يحصِّن القرآن ضد ما أصاب الصحف الأولى ، فإن الاستهانة بالألفاظ من خلال الرواية بالمعنى ، والنقل بالترجمة أضاع الحقيقة ذاتها شكلاً وموضوعاً ، ولم يبق من تراث النبيِّين الأولين ما يصدق عليه عنوان الوحى .

من أجل ذلك كان الحرص الشديد على ألفاظ القرآن ، وجعل تردادها طاعة مأجورة ! لكن ذلك لايقلب الأوضاع . فإن الجواهر النفيسة توضع فى علب فاخرة ، ويعتنى بالعلبة اعتناء خاصًا . فهل تساوى العلبة شيئا طائلا إذا سرقت الجوهرة منها ؟ وهل تنتفع بالقرآن إذا جودت أحرفه ونسيت معناه ؛ لأن الشيطان سرق عقلك وأنت تتلو . . . ؟ « أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » [1]؟

* * *



(١) سورة محمد : الآية : ٢٤ .

التأدب مع العلماء

من الفواقر ـ كما جاء فى الأثر ـ : «**جار سوء إن رأى خيراً دفنه ، وإن رأى شراً أذاعه** » . ومن الفواقر كذلك قارئ سوء يطالع سير الرجال فى التاريخ فلا يستوقفه إلا ما ينسب إليهم من هنات أو ما يواقعون من أخطاء ! أما ما أفاء الله عليهم من محامد ، وما قدموا للناس من خيرات فلا اكتراث به . . .

المؤسف أن هذه العلة النفسية تفشو بيننا نحن العرب ، لقد أُلِّف فى «نابليون» نحو مائة كتاب . فكم أُلف فى « **خالد بن الوليد** » أو فى « **صلاح الدين** » ؟ ! ونابليون رجل حرب وحسب ! يغدر ويظلم ويسفّ فى أَحيان كثيرة ، وهو من الناحية الخلقية والعسكرية دون خالد بمراحل .

ومع ذلك فإن قومه جسّموا ميزاته وأهالوا التراب على رذائله . فما يذكر إلا بأنه العبقريّ المهيب ! . إن تاريخنا ملىء بالعظماء فى كل ميدان . غير أننا موكلون بطىّ محاسنهم ، ولولا أن هؤلاء العظماء تركوا من المواريث الحية ما بدد أكوام التراب التى أهيلت عليهم لجرّ عليهم النسيان أذياله من زمن بعيد !

أقول ذلك لأنى نظرت إلى الرجولات السامقة التى ظهرت خلال القرن الأخير فوجدت المطاعن تناوشها من كل جانب ، والتهم تترى . والمدافعين ذاهلين !! ووجدت المعجبين بأحد المصلحين يحسبون أن الأفق لايتسع إلا لهالته وحدها ، سبحان الله ! إن الأُفق رحب فلم نحاول إطفاء الآخرين ؟

قلت لأحد أصحابى : إننى تتلمذت ومازلت على أئمة مختلفين ، أقرأ لأبى حنيفة إمام أهل الرأى ، ولابن حنبل إمام أهل الأثر ، ولابن تيمية ، ولأبى حامد الغزالى ، ولابن سينا وابن الجوزى ، وهذا فيلسوف وذاك واعظ ، وأقرأ لابن عطاء الله ولابن عبد البر .

وأقرأ فى الأدب لأبى الطيب وأبى العتاهية ، وللعقاد والرافعى ـ على ما بينهما من

جفوة ـ إن الله سبحانه وزع جمال الفكر والأداء والخلق والسلوك على كثيرين ، وينبغى أن أستفيد من مواهب الله عند خلقه .

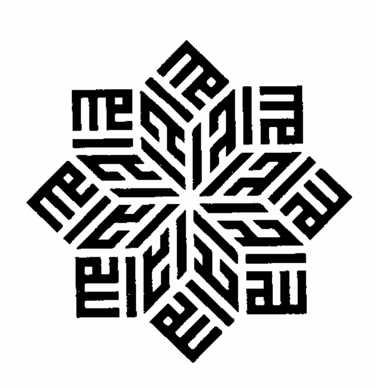
أما التماس الأخطاء للتشهير بها وانتقاص أصحابها فإنه لايجدى علىّ شيئاً ، ولا يرفع خسيستى أو يقيم عوجى .

سمعت شابا حدثاً يتعرض لأحد الأئمة الأربعة بالنقد الحاد ، فنظرت إليه مستغرباً ، فقال : هم رجال ونحن رجال !

فقلت له : إننى لا آمنك على قراءة جريدة يومية قراءة صحيحة ، فأنّى لك هذه الرجولة المزعومة ؟ يابنىّ أدب الإسلام - كما قال - : رسوله « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » ! ! .

فلنتأدب مع عظمائنا . . ! !

* * *



استشهاد إسماعيل الفاروقى

عرفت الدكتور « إسماعيل الفاروقى » من بضع وثلاثين سنة ، كان من أبرز الدارسين للفلسفة الإسلامية ، وكان يقدم الإسلام للعقل الغربى المستنير نظريات فى المعرفة والعدالة تثير الإعجاب والمحبة ، وإلى جانب علمه الواسع كان دميث الأخلاق ، مطمئن النفس ، منصفا للخصوم والأصدقاء على سواء .

وقد خامرنى فزع شديد عندما قرأت مصرعه ، ومصرع زوجته ، فى بيتهما ، ونقل ولدهما بين الحياة والموت !! واقشعر بدنى وأنا أقرأ أن «اللصوص» أجهزوا على ضحاياهم بالسكاكين ! .

وشرعت أبحث عن أسباب الجريمة ؟ قالوا : إن اللصوص غضبوا لما وجدوا البيت خاليا من المال الذى يبتغون ، ونفّسوا عن غضبهم بهذه المذبحة ؟ .

وبديهى أن أى عاقل يرفض هذا السبب ! ومضيت أستقصى الأنباء فعرفت أن الجريمة لم يرتكبها لصوص مال ، وإنما ارتكبها لصوص عقائد !

إن النشاط العلمى الإسلامى الذى يقوم الدكتور « الفاروقى » به هو الذى أحلّ دمه وأغرى بقتله !! .

وقد ارتكب المجرمون «المتطرفون» ـ كما وصفوا ـ هذه المأساة ، وانصرفوا فى هدوء ، ثم خيم الصمت على القضية كلها ، ومتروك للزمن أن يسحب عليها ذيل النسيان .

إن فى أوروبا وأمريكا أشخاصا كثيرين يقتفون آثار « بطرس الناسك »[1] فى التأليب على الإسلام ، وافتراس العاملين له جهرة واغتيالاً . . .

---

(١) بطرس الناسك أول من حمل لواء الحرب الصليبية ضد الإسلام فى أوروبا ودار يحرض الشعوب الأوروبية ضد المسلمين فى الشرق بأسباب متنوعة واهية وقاد الحملة الصليبية الشعبية ضد المسلمين .

ومع الاسترسال والذهول اللذين يسودان أُمتنا سنفقد الكثير من رجالنا وعلمائنا دون أى قصاص ! .

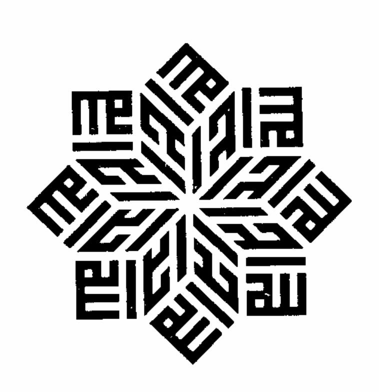
إن جنديا أمريكيا مع عشيقة له قتلا فى إحدى الحانات ، فى ليلة حمراء أو سوداء ، فتحركت الأساطيل ومئات الطائرات ترجم من يظن أنهم أوعزوا بالقتل ، أما نحن فإن واحداً من علمائنا يقتل مع زوجته فى بيتهما الطاهر المليىء بالبحوث والمقالات ثم . . ينشر النعى ويقبل العزاء وتطوى القصة ! .

ما أرخص دماءنا نحن المسلمين ! .

فى الريف المصرى يصفون بعض الناس بأن « هرُّهُم جَمَلٌ » ! إنهم يصنعون ضجة كبيرة إذا أصيبت لهم هرة ! .

وهناك ناس ـ فيما يبدو ـ يُعقر جملهم فلا يرثى لهم أحد ! رحم الله الدكتور إسماعيل الفاروقى وزوجته ، وإلى الله المشتكى ! .





أوائل الشهور العربية

اختلاف المسلمين حول أهلة الشهور العربية أمسى مهزلة أو كاد ! فعيد الفطر الماضى كان يوم السبت عند بعض الشعوب ، وكان يوم الأحد ، أو يوم الاثنين عند بعض آخر .

والتذبذب فى إثبات الهلال على مدى يومين أو ثلاثة أمر صارخ الدلالة ، وأثره على الوحدة الإسلامية لايمكن إنكاره ! وتجاهل ذلك كله شىء لايطاق . .

قرأت لجمع من علماء الفلك أن الهلال سيولد علمياً يوم كذا ، ساعة كذا ، وأن رؤيته قبل ذلك مستحيلة ! وماهى إلا فترة وجيزة حتى قرأت أن شهود عيان قد رأوا الهلال المرتقب ! ! .

قلت : أحد أمرين ، إما أن الشهود واهمون ، وإما أن الفلكيين مخطئون ، وليس هناك احتمال ثالث !

إن القمر يسير فى مداره بسرعة مضبوطة لاتزيد ولاتنقص ، إنه لايحث الخطى أحيانا ليقابل منتظريه ، ولايتمهل ليزدادوا شوقا إلى لقائه !! الأمر كما قال ربنا ﴿ هو الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ . . . ﴾[1] .

والجملة الأخيرة حاسمة فى أن سير القمر يتم بالحق لا بالفوضى ، وأن هذا السير إذا تم اكتشافه بطريق يقينى فلا مجال بعد ذلك لعبث ! .

تقول : وأنى لنا اليقين ؟ وأجيب : إننى أطلب لجنة لاستجلاء الحقائق ، تتصل بالمراصد فى واشنطن وموسكو ولندن وباريس ، وتتعرف منها عن الوقت الذى يتم فيه الاقتران بين القمر والأرض والشمس ، وتتلقى إجابة قاطعة عن إمكان الرؤية عند الاقتران ، فإذا كانت مستحيلة رفضنا كل شاهد يزعم الرؤية ، مؤكدين أنه شخص تخيل فخال ! .

---

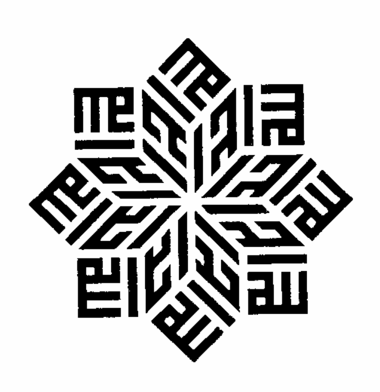
(١) سورة يونس : ٥ .

إن اليقين العلمى لابد من احترامه ، ومن استبعاد كل مايخالفه . .

والواقع أنى أشعر بالحيرة عندما أطالع فى الصحف كلاماً لفلكيين يجزمون باستحالة رؤية الهلال ، ثم أسمع بعد ذلك أن الهلال رؤى فى كذا وكذا من البلاد !!

إننى أطالب بتحقيق علمى وعالمى فى هذه المأساة ! فإما غيرنا مراصدنا وعلماءنا لثبوت قصورهم ، وإما عاقبنا شهوداً رأت عيونهم مالم يولد فى أُفق ، ولم يثبت له وجود ! إن الصمت على هذا التناقض لايجوز .

* * *



حاجتنا إلى التعاون والتواد

شكا لى خطيب فى أحد المساجد أن رؤساءه نالوا منه !

قلت : لماذا ؟

قال : لأنى فى خطبة عيد الفطر أفتيت بأن قيمة الزكاة لاتجزئ عن الزكاة نفسها ، ونددت بأبى حنيفة ورأيه فى هذا الموضوع ! .

قلت له : ولم فعلت ذلك ؟

قال غاضباً : قررت مذهب السلف ، أفى ذلك جريمة ؟ !

أجبت فى هدوء : إنك لست أعرف بمذهب السلف من شيخ الإسلام ابن تيمية الذى ربط الحكم بمصلحة الفقير ، ورأى جواز إخراج القيمة إذا كانت القيمة أجدى عليه وأحب إليه ! هل قرأت ما ذكره صاحب فتح البارى[1] فى هذه المسألة ؟ ! .

وخيل إلىّ أن الخطيب المفتى لم يكن خبيراً بأقوال العلماء فى الموضوع ، ومع ذلك فقد مضى فى تنديده بالمذهب الحنفى وصاحبه ! .

قلت له : فى كتاب «فقه الزكاة» للقرضاوى تلخيص للأقوال المروية عن علمائنا الكبار فى الزكاة وقيمة الزكاة وأيهما يخرج ؟ .

ولعلك تدرى أن الزكاة شُرِّعت لمصلحة الفقراء ، لا لإعناتهم ، وأن عمر بن عبد العزيز الذى أخرج القيمة هو خامس الراشدين ، وأن شتمه منكر ! وأنه وأبا حنيفة لم يفتحا فى الدين ثغرة عندما فعلا ذلك .

ثم إن المنبر لذكر الله ، والحفاظ على شريعته وليس لنصر مذهب فقهى على مذهب فقهىٍّ آخر ، فما الذى أغراك بعرض أبى حنيفة تلغ فيه ؟ .

(١) ابن حجر العسقلانى .

إن زميلا لك فى القاهرة قال : إن الشافعى هو الذى أفسد القاهرة ! وآخر فى الجزائر قال : إن مالكاً أخطأ السنة ، ولم يحسن الاتباع . . .

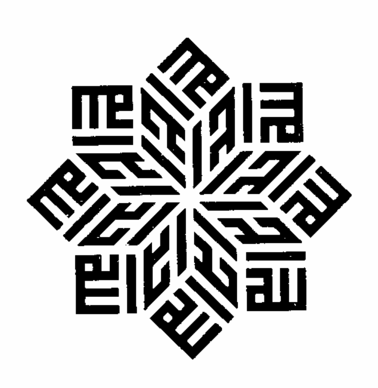
والفقهاء الأربعة الكبار هم من قمم السلف وأعلام الدين . فلماذا تنسون الأدب فى ذكرهم ، وتلتزمونه مع من دونهم ؟ ! .

إن كثيراً من المتعلمين يسىء إلى السلفية تحت عباءة السلفية ، وإنى لأُحذِّر من أولئك المتفيهقين الضعاف . .

كان أوْلى بهذا المتحدث أن يدرس الوافدين على المسجد ، وأن يتعرف الفقراء الذين أُحصروا فى سبيل الله لا يسألون الناس إلحافاً ، وأن يلفت إليهم أصحاب المروءات من أولى الفضل والسعة ، فإذا أعطوا عسجداً بدل الشعير لم يُبطل سعيهم أو يعكر صفوهم ! .

إننا حصدنا الفرقة والخصومة من أصحاب الألسنة العمياء . ولا أعرف أياماً المسلمون فيها فقراء إلى التعاون والتواد أَشدّ من هذه الأيام النكدة ! فليتق الله خطباء يضرّون أكثر مما ينفعون ، وليقرءوا كثيراً ، فقد سمعنا قديماً أن العلم نور .





المطالبون بالعلمانية آثمون

بعض العرب يتركون دينهم ، لأن شعوبا أخرى تركت أديانها ، أو شاع عنها أنها تركت أديانها .

ويقع ذلك دون تساؤل عن الأديان التى تركت : لم تركت ؟ وما الذى زهّد أصحابها فيها وصرفهم عنها ؟ نعم ، ويقع ذلك مع تغافل عما أسداه الإسلام للعرب قديماً عندما كانوا قبائل لا ثقافة لها ولا حضارة ، ثم أضحوا بالإسلام وحده أُمة خفاقة الرايات فى المشارق والمغارب ، ممدودة السلطان فى البر والبحر . .

وتحت عنوان العلمانية أُهمل كتاب لاريب فيه ، وتنوسيت سنة مضيئة النهج ، وقُدِّمتْ بين يدى الله ورسوله أوهام وأهواء غاض منها الجد والشرف ، ولم نجن منها إلا الصاب والعلقم ! .

إننى أعرف أن العلمانية انتشرت فى أُمم شتى ، وعلى أنقاض أديان بعضها وثنى والآخر سماوى ، ومع ذلك فإن هذه الأديان بقيت وبقى الانتماءُ إليها والتعصب لها . .

وتفسير ما حدث سهل ، فقد استغنى القوم عن الأجزاء المعطوبة والمكذوبة من مواريثهم ، واستحدثوا «قطع غيار» جديدة تحل محلها ، وصالحوا بهذا الترقيع بين ماضيهم وحاضرهم ، وظهر ذلك فى كثير من دول أوروبا التى يحكمها الديمقراطيون المسيحيون ، بل إن الولايات المتحدة نفسها جددت الدعوة إلى إدخال الصلوات الكنسية فى مراحل التعليم ، واستنكر رئيسها الحالى قصة فصل الدين عن الدولة .

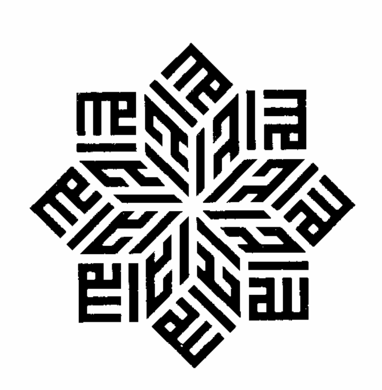
إن العلمانية فى كثير من الأقطار غطاء دقيق للعقائد الأولى مع بعض التغيير والتحوير !

والغريب أن اليهود رفضوا العنوان العلمانى لدولتهم الدينية ، واستحبوا اسم إسرائيل ليكون رمز الولاء والانتماء والتشبث والوفاء ! ! على حين طولب المسلمون

باستدبار قرآنهم ونبوتهم ، واستجلبت العلمانية ليتم تحت شعارها تغيير الفقه والتشريع وتغيير الأدب والتربية ، وتغيير العلاقة بالله ومنع الاستمداد من وحيه ! المطلوب ارتداد يتم بطريق التدرج أو الطفرة حسب الظروف والأحوال !

إن سيل الخسائر لاينقطع من وراء هذا الفسوق ، والهزائم المادية والأدبية تترى ، وإذا كان غيرنا معذورا فى نبذ مواريث له ناقضت العقل ، وخاصمت العلم ، وأشقت الجماهير ، فما عذر الذين يطلبون منا أن ننسى ديناً قام على العقل والعلم وجعل شرع الله حيث تتحقق مصالح الجماهير ؟ .

* * *



أرفض الغناء

عندما أُلقى محاضرة أَعزم على المستمعين أن تكون أسئلتهم فى موضوعها حتى لايتشعب بنا الحديث إلى غير وجهة ! ومع ذلك فبعد محاضرة ألقيتها عن معالم الرسالة الخاتمة اتجه إلى سؤال جهيرٌ مُلحٌّ يطلب منى حكم الإسلام فى الغناء ؟ وأكرهتنى الملابسات على الإجابة فقلت : الغناء كلام ، حسنه حسن وقبيحه قبيح ، إننى أسمع أُغنية «أخى جاوز الظالمون المدى» كلمات الشاعر على محمود طه ، ولحن محمد عبد الوهاب فتشجينى وأتجاوب معها ، ثم أسمع للشاعر نفسه والمغنى نفسه قصيدة «كليوباتره» فأُغلق الراديو وألعن الكلمات وملحنها ومذيعها . .

ثم استتليت : كان الصحابة ـ وفيهم رسول الله عليه الصلاة والسلام – يطوون مراحل الطريق إلى كفاح أعداء الله وهم يسمعون من يَشْدو : « والله لولا الله ما اهتدينا . . ولاتصدقنا ولاصلينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا » . فيكون هذا النشيد إلهاباً لمشاعرهم وتخفيفاً من معاناتهم .

ثم قلت : إن الصوت الجميل يحرك الجمال فتُسرع . أفلا يحرِّك الرجال ؟ المهم هو المعنى النبيل والأداءُ الجيّد ! أما المجون واللحن الخليع والصوت الخنث فتلك كلها آثام . . ! ! . .

وانصرفت من المحاضرة المهمة التى بذلت فيها جهداً مضنياً ، وقلت : عسى أن ينفع الله بها . .

وبعد أيام جاءنى أحد الناس وهو دهش يسائلنى بلهفة : هل خطبت فى إباحة الغناء ؟

قلت : ماذا تقصد ؟

قال : إننى جئت لفورى من ندوة دينية تحذِّر الناس من حكمك فى إباحة الغناء ، وتثير عليك السخط ! .

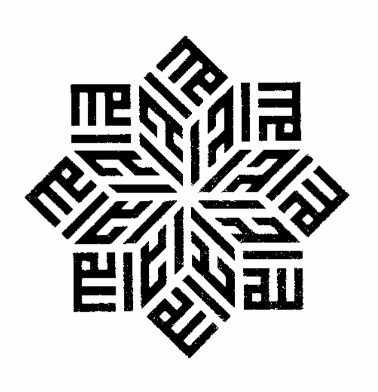
ولم أشأ الرد السريع ، فقد سرح فكرى فى أحوال بعض المتحدثين الإسلاميين . وفوضاهم الفكرية والنفسية ، ثم أجبت شارحاً ما وقع فى أعقاب المحاضرة التى تنوسيت وأهمل ما فيها من خير كثير ، قلت : ياصديقى ، هذا المتحدث ضدى تنقصه أمانة النقل ، أو شرف القصد . فحكمه إلى الله ! إن من حقه أن يعارضنى ، ولكن بعد أن يذكر بدقة وجهة نظره . نعم ، له أن يقول : أنا أرفض الغناء كله : حسنه وقبيحه ، فلا تصدقوا غير هذا .

أما أن يعطى تصويراً مبهماً لرأيى ويوقع فى روع الناس أنى أُشجع الطبل والزمر فى أرجاء المجتمع فهذا عيب !! .

قال محدثى : سأردّ عليه !

قلت : لاتفعل ، إن هذا ما ينشده بعض الناس ، يشغلون الجماهير بقضايا فرعية ، ويريدون باللجاجة المفتعلة أن يصلوا بها إلى مجلس الأمن ، وذلك حتى لايبقى وقت للقضايا المصيرية ، ولا تجد لها متسعاً فى أذهانهم .

* * *



التعصب أساسه الجهل

التعصب الكريه أن يجمد المرء على فكرة وصلت إليه بطريقة ما فلا يقبل لها مناقشة ، ويرفض أن ينظر فى أىّ رأى أخر يُعرض عليه ، بل إنه قد يعجز عن استبانة الرأى الآخر وما قد يكون فيه من صواب أو خطأ ، لأن عقله استغلق . فلا يتحمل جديداً ولامزيداً .

وكثير من الناس مصاب بهذا البلاء ، وقد وصف الله به المشركين الأقدمين عندما يسمعون القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[1]

نعم إن حالتهم الفكرية طوحت بهم بعيداً جداً فلا يكادون يعون خطاباً لبعد المسافة النفسية .

والمرء قد يتعصب لمواريث فكرية آلت إليه دون اكتراث بما فيها من صواب أو خطأ ، يكفى أنها تراث الأوائل فكيف يتركها ؟ ! ! .

﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[2]

وهذا التعصب على دمامته تمكن معالجته ، لأن أساسه الجهل ، ومع كثرة التعريف والتوضيح ، يمكن أن يلين الجامح ! لكن هناك نوعاً آخر من التعصب يعز علاجه ، لأن أساسه الجحود والاستكبار .

لقد طلب موسى من فرعون شيئاً محدداً : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾[3] !

---

(١) سورة فصلت : الآية : ٤٤ . (٢) سورة الزخرف : الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ . (٣) سورة طه : الآية : ٤٧ .

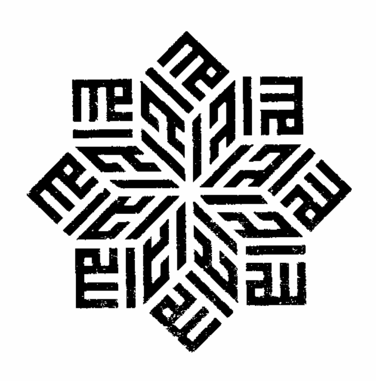
فكان جواب فرعون : ﴿ أجئتنا لتُخرجَنا منْ أرْضنا بسحْرك ... ﴾[1] ؟

إن فرعون اتَّهم موسى بما لم يفكر فيه ، وتغافل عامداً عما طلبه منه ، وحوّل القضية إلى وضع انقلب فيه البرىء متهماً والمتهم بريئاً ، وبدل أن يقول : لن أطلق سراح المعذبين ، ولن أُرسلهم معك قال : ﴿ أَجئْتَنا لتلْفتَنا عمَّا وجدْنا عليْه آباءَنا وتكُون لكُما الْكبْرياءُ في الأَرْض ﴾ ! ![2]

والغريب أن بنى إسرائيل اليوم يتبعون المنطق الفرعونى فى معاملة العرب ، فبعدما أُخرجوا من أرضهم بالإرهاب المحلِّى والدولى أخذوا يصفون العرب الذين يجاهدون للعودة إلى أرضهم بأنهم إرهابيون ! .

هذا المسلك القائم على تعصب الجحود والاستعلاء لا أمل فيه ولا جدوى من مجادلته ، وفيه يقول الحق : ﴿ سأَصْرفُ عنْ آياتي الَّذين يتكبَّرُون في الأَرْض بغيْر الْحقّ وإن يروْا كُلَّ آيةٍ لاَّ يؤْمنُوا بها وإن يروْا سبيل الرُّشْد لا يتَّخذُوهُ سبيلاً وإن يروْا سبيل الْغيّ يتَّخذُوهُ سبيلاً ذلك بأَنَّهمْ كذَّبُوا بآياتنا وكانُوا عنْها غافلين ﴾[3] .

* * *



(1) سورة طه : الآية : ٥٧ . (2) سورة يونس : الآية : ٧٨ . (3) سورة الأعراف : الآية ١٤٦ .

هواة الجدل وتمزيق الصفوف

كنت قد تطرقت فى أحد دروسى إلى الإسرائيليات فى ثقافتنا القديمة ، وضربت مثلاً لما شاع منها بيننا ، فقلت : يرى أهل الكتاب أن الطوفان عالمىّ عمَّ الأرض ، والتحقيق أنه محلىّ لايعدو ديار نوح .

فصاح البعض : هذا غريب ، ما دليل أولئك المحققين ؟

قلت : أَسرد عليكم ثلاثة مواضع من القرآن الكريم يتضح منها رأى القائلين بأن الطوفان ليس عالمياً : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾[1] .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً . . . ﴾[2] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾[3] .

قلت : وكانت أرض نوح شمالىّ العراق على عهد الدولة السومرية ، أيام الأسر الحاكمة الأولى من الفراعنة ، والطوفان لم يجئ وادى النيل ، ولم يبلغ الهند ، وأوغل فى البعد أن يصل الأمريكتين . . إلخ .

فردَّ أحد السامعين : هذا كلام لم نسمع به !

وقال آخر : هذا خروج على الإجماع ! وأخذت الردود تتدحرج حتى كاد البعض يصمنى ويصم المحققين بالكفر !! . .

ورأيت ألا أمضى فى الموضوع ، وأن أنتقل إلى صفحة أخرى من الحديث ، ولكنى قررت أن أُهذِّب أولئك الهمج ، وأن أقمع تطاولهم ! .

(١) سورة نوح : الآية : ٢٥ . (٢) سورة الفرقان : الآية : ٣٧ .
(٣) سورة العنكبوت : الآية : ١٤ .

قلت : لتكن الآراءُ ما تكون فى هذه القضية . فهى لاتتصل بعقيدة ولا عبادة ، ولا يرتبط بها خلق ولا سلوك ، إنها تفسير لفصل من فصول التاريخ يعتمد على فهم سَطْحى أو متعمق لبعض الآيات ! .

ومع ترجيحى لأن الطوفان محلىّ فإنى أستغرب ربط ذلك بالإيمان والكفران ، والشذوذ والإجماع ، والغضب والرضا ، والمخاصمة والمصالحة . . لماذا تحيصون هذه الحيصة وتريدون أن تخرجوا من مجلس علم أحزاباً متفرقة لا إخوة متحابين وأصدقاء متعاونين متضاحكين ؟

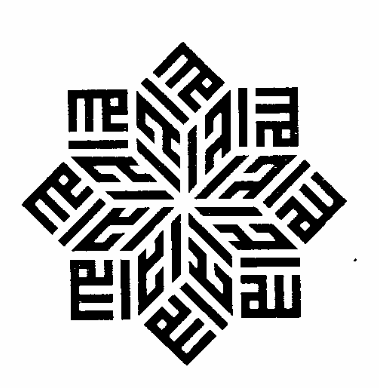
ما هذا الغرام بتمزيق الصفوف وتقطيع الكيان ؟ ! ! .

قال لى أحدهم : هذا كلام ما سمعناه !

قلت : ومن قال إنكم سمعتم العلم كلّه ؟ وليكن جديداً على آذانكم وضقتم به ، فلم الاتهام الطائش ؟ وما عليكم لو طلبتم مزيداً من الأدلة لكلا الفريقين وعالجتم الموضوع ببرود ؟ .

آفة بعض الناس أنه لايعقل إلا ما سبق إلى ذهنه ، وأنه يجعل من الحبة قبة . .

* * *



طيور لبنان ومذابح البشر

هناك خطر على الطير السارح فى جوّ لبنان ! فإن الصيادين أسرفوا فى اقتناصه حتى لأوشك على الفناء . . ولست أدرى أكان الصائدون طلاب لهو أم طلاب طعام ! كلا الأمرين جائز ، فإن كانوا يبغون الأكل لأنهم جياع فليس عليهم من حرج ! وإن كانوا ينشدون التسلية والمتعة فهم جديرون بالتوبيخ الذى استمعوا إليه من أقطار شتى ، فإن إزهاق روح زاحفة أو طائرة دون سبب مشروع إثم لا ريب فيه . !! .

لكننى أحسست بالدهشة عندما سمعت الصراخ الطويل الذى أرسلته أوروبا وأمريكا وراء هذا المسلك ، فإن المستعمرين البيض فى جنوب أفريقيا قتلوا ومازالوا يقتلون آلاف الزنوج دون سخط مسموع ، والمستعمرون اليهود فى أرض فلسطين يمحون آثار العرب ، ويشنون عليهم حرب إبادة ، دون نكير ، بل إن الدول العظمى ترى ذلك حقاً ، وترى المقاومة الفلسطينية إرهابا . .

يبدو أن حقوق الطير فى البقاء أرجح من حقوق بعض البشر ! فليقرأ العقلاء معى هذا الكلام :كتبت مجلة ألمانية مقالاً طويلا عن الجرائم التى تقترف ضد طيور لبنان ، واستصرخت العالم كى يضع حداً لها بعد ما وصلت إلى حدود لا معقولة .

وفى « فنلندا » استنكر رئيس الرابطة الفنلندية للمحافظة على البيئة هذه المذابح ، وقال : إن الوقوف فى وجهها مسئولية العالم كله ! .

وفى لندن يواصل أصحاب الاختصاص توجيه النداء إلى الحكومة اللبنانية كى تبعث مندوبها لحضور مؤتمر يناقش هذه القضية الحساسة ، ويواجه خطورتها . .

قال الراوى : والأهم من ذلك أن الممثلة «بريجيت باردو» صعقت ، وأصابها الانهيار العصبى والنفسى ، وبقيت عدة أيام بدون طعام ، وألغت كل لقاءاتها «التربوية» مع قططها وكلابها بسبب الصدمة التى اعترتها عندما بلغتها أنباء المذبحة التى وقعت لطيور لبنان !!

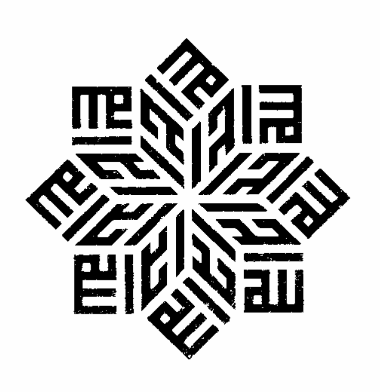
وسؤالنا البديهى : أما تستحق دماء العرب والزنوج شيئاً من الاكتراث ؟ ! !

إن حقوق المستضعفين من البشر استبيحت على نحو شائن ، ومع مغيب الشمس كل يوم تغيب أرواح وهى تلهث وراء حق الحياة وحق الإيمان ، وتهلك شعوب وهى تذاد بجبروت عن مطالبها المشروعة فى الكرامة والحرية ! .

لماذا تُصمُّ الآذان دون هذا الصراخ النبيل ، ويعلن استنفار عام للدفاع عن بعض الدواب والهوام والحشرات والزواحف ؟ .

ترى : ما الذى يحتاج إلى التصحيح : الضمير البشرى ، أم العقل البشرى ؟

* * *



العيد الحقيقى

لا أزال ألحّ على المسلمين أن يقتصدوا فى أفراحهم ، وأن يتركوا تقاليد السرف التى ألفوها فى أعيادهم بل فى أحفالهم كلها ، ما يسرّ وما يسوء ! .

إن لنا عادات ربما ورثناها من عصور الازدهار والانتصار يوم كنا سادة الدنيا بيد أن بقاء هذه العادات الآن فى أعراسنا وفى أحزاننا وفى المناسبات العارضة أمسى شيئاً لا مساغ له .

فأوضاع المسلمين الآن تبعث على الأسى ، والآفاق ملأى بالغيوم . .

عندما مات « أنور خوجة » زعيم ألبانيا الإسلامية ـ سابقا ـ لم أشعر بأمل فى عودة الحرية الدينية إلى شعب ظل يرسف فى الأغلال أربعين سنة كى ينسى دينه ، إن الخلف والسلف سواء فى كره الإسلام والعمل على محوه ، والعرب ذاهلون عن قضايا هذا البلد لأنهم قد أهمتهم أنفسهم ، وغير العرب لايدرى ، وسيقول المؤرخون : لقد وجدنا جثة شعب مسلم قد ألقى بها اليم ، ولاتُعرف ظروف الغرق . .

وما فعلته الشيوعية بألبانيا غربا فعلت مثله فى الجناح الأيمن للعالم الإسلامى ، وهى تستأنف اقتراف الجريمة نفسها فى أفغانستان التى يستقتل أبناؤها فى الدفاع عنها ، والمسلمون كأنهم مجموعات من النظارة فى ملعب كرة !! .

وبين الحين والحين يرسل إلى مجاهدو الفلبين بأنباء قتالهم مع السلطات الصليبية ، ويصفون ما يكابدون من أهوال ! .

والنشرة التى تأتينى من « جبهة تحرير مورو الإسلامية » أقرأ عليها عنوانا دائماً « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ »[1]

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٣ .

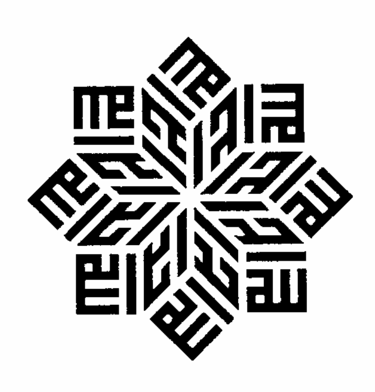
ويبدو أن الهجوم لاينتهى لا فى «مورو» ولا فى سائر أقطار أفريقية وآسيا ، فما موضع الفرح وسط هذه الآلام النازلة بأُمتنا عن يمين وشمال ؟ .

إن نبينا يدعو على طلاب اللذة وناشدى الراحة والخيلاء فى ملابسهم ومساكنهم فيقول : «**تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش** » - يعنى إذا أُصيب فلا جبر - فإلى متى نهتم بالملابس والمفارش والمظاهر الزائفة ، والأمر كما شكا الشاعر :

لك الحمد ، أما ما نحب فلا نرى ونبصر مالانشتهى فلك الحمد!

العيد الحقيقى يوم ندحر الغارات المتوالية على ديننا وتراثنا ووجودنا كله ، أما قبل ذلك فلا .

* * *



وقاحة المتهجمين على السلف

هناك قوم لم تمنحهم الأقدار سعة الأفق ، ولا سعة الخلق ، فهم يطلقون فى دروب الحياة قذائف موجَّهة لايسيطر عليها إلا فكر ضيق ، وطبع نزق ، وإحساس بالذات ، وانتقاص للآخرين . . .

السمة الأولى لهؤلاء أن الرأى رأيهم ، وأن لا مكان لغيرهم ، وإذا كان صدام فالحياة حقهم وحدهم ، والسوءى لخصومهم ، وقد يتزينون ببعض القراءات والطاعات لتعينهم على تحقير الكبار ، وتكبير الصغار ! .

وهل قتل عمر بن الخطاب - أعدل حاكم فى التاريخ - إلا علج من هؤلاء ؟ .

روى ابن مردويه عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : نظر رجل من الخوارج إلى أبى «سعد بن أبى وقاص» رضي الله عنه فقال : هذا من أئمة الكفر ! فقال سعد : كذبت ! أنا قاتلت أئمة الكفر ! فقال له آخر منهم : هذا من الأخسرين أعمالاً ! فقال سعد : كذبت ! .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . . . »[1] .

الواقع أن الحزن خامرنى وأنا أرى التافهين يخاطبون السابقين الأولين بهذا الأسلوب الفاجر ، وإذا كان القادة الفاتحون يعاملون بهذا التجهُّم والاستهانة فهل يبقى للأمم تاريخ ؟ . .

هل حكى الفرنسيون أن كناساً لقى نابليون فى إحدى الطرق واستطال عليه هذه الاستطالة ؟ لعمرى أن سعداً وأشباهه من قادتنا أرجح كفة فى موازين البطولات من قادة أوروبا وأمريكا الذين تلمع أسماؤهم ، وتحذف من السجلات هناتُهم أو تتجاوز على

(١) سورة الكهف : الآية : ١٠٥ .

عجل ، وتضخّمُ أعمالهم ويُشادُ بها كى تكون نماذج للأجيال المقبلة .

إن نبينا - صلوات الله عليه وسلامه - استبعد من جماعة المسلمين مَنْ فقد الأدب الواجب مع الكبار وتعمد خدش أقدارهم فقال : « **ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه** » .

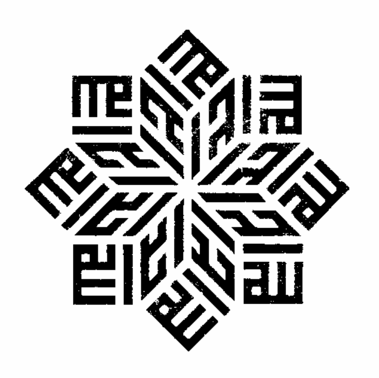
ما أنبله شعوراً أن تثنى على عظيم ، وتكشف جوانب فضله ، وتستغفر الله لما قد يخطئ فيه . .

وما أرذله شعوراً ألا تؤتى ذا الفضل ، وأن تضاعف الأقاويل ضده ! .

إننى أقول ذلك لأنى لاحظت نابتة من الغوغاء تَتَتبَّعُ الأعلام من رجالنا ، بدءاً من العصر الأول إلى هذا العصر ، فلا ترى سنى إلا ردمته ، ولا غلطة إلا كبرتها ألف مرة ! .

لمصلحة مَنْ يتم هذا الجور ؟ لحساب من تبدو أمتنا هزيلة فى عالم يحاول فيه النحاف أن يسمنوا ؟ ! .

* * *



صمود الدعاة

سمعته يقول : سأعتزل الناس ، وأحيا بعيداً عنهم كى أُريح وأَستريح ! إن لغط الناس وسعيهم وأملهم ولغوبهم يثير الضجر والمقت ! بل إنه يضع حجاباً على بصرى وبصيرتى فلا أكاد أرى وجه ربِّى ! ولا أكاد أشعر بلذة المناجاة والتأمل . .

قلت له : أما أنك ستريح وتستريح فهذا حق ، ولكنك ستريح الشيطان وتستريح من مقاومته ، وتتركه يؤدى رسالته دون وجل !

وأما لذة المناجاة التى تنشدها فهى لذة الشاعر الذى يصوغ قصيدة رائعة يهيج بها المشاعر ضد الأعداء ، أو يثير بها الحنين لاسترجاع المجد المفقود ، ثم تبقى عنده قصيدته ؛ لأنه لم يجدْ لها ناشراً ! .

أخشى ياصاحبى أن يكون فرارك من المجتمع فراراً من الزحف ، ونكوصاً عن الجهاد . . . ! .

إن العبادة الحقيقية لله أن تحرس الفطرة الإنسانية ، وأن تشتبك فى حرب دائمة مع البيئة التى تريد تشويهها أو تغييرها ! أنت تعرف أن كل مولود يولد على الفطرة ، أى على حقائق الإسلام ، وأن التقاليد الفاسدة والعقائد الزائفة هى التى تتلقَّف الأجيال الناشئة وتنحرف بها يمنة ويسرة بعيداً عن الصراط المستقيم . . فكيف تترك المجتمعات يستقر فيها الباطل ؟ ويتلاشى منها الحق ؟ ويحل الخنا محل الطهر ! والكفر مكان الإيمان ، والجور بدل العدالة ؟

ما يجوز أبداً الانسحاب من الميدان فيخلو الجو للشيطان .

قال : طالما زرعنا ، فإما أغار الجراد على الحرث فالتهمه ، وإما أغار عليه اللصوص بعد نضجه فانتهبوه ! ماذا نصنع ؟ ! .

وخلال الحديث اقتربنا من سيارة تخرج من محطتها لامعة الإطارات والهيكل . فقلت لصاحبى ضاحكاً : « ما أشبه حياتنا بهذه السيارة ! إن وظيفتها الركض الدائم بين المدن والقرى ، والتعرض للغبار والأوحال ، والاصطدام أحياناً ! إنها تعود إلى

البيت للتنظيف والاستراحة القليلة أو الطويلة ثم تعاود الخروج لاستئناف الركض فى دروب الأرض ! وإلا فقدت وظيفتها . . ! .

إن عبارة القرآن الكريم فى وصف حياتنا توحى بهذا العناء :

« يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ »[1] . . .

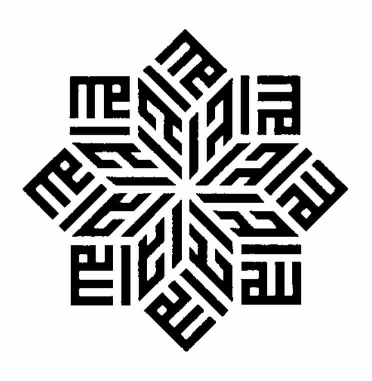
ويعجبنى قول شوقى :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً   إن الحياة عقيدة وجهاد

وكذلك قول مهلهل :

ولست بخالع درعى وسيفى   إلى أن يخلع الليل النهار . . !

* * *



(١) سورة الانشقاق : الآية : ٦ .

الماركسية قمة الالحاد

مازلت أؤكد أن الإلحاد ظلمة نفسية لا استنارة عقلية ، وأنه كنود طبع لا حدة ذكاء ! .

وقد كان الإلحاد فيما مضى مرضاً فردياً لا وباء جماعياً ، وكان صاحبه يُذَمُّ به ويُحذر منه ، وإن كان فى عصرنا هذا قد تحول إلى شىء آخر . .

على أنى أرفض الاتهام بالإلحاد الذى وُجِّه إلى كثير من الرجال المرموقين ، وأُسىء الظن بأصحاب هذه الاتهامات ! .

قالوا : إن أبا العلاء ملحد ! ونسبوا إليه شعراً مكذوباً ينضح بالريبة فى الأديان كلها ، والرجل برىء ، فإن أروع قصائده قيلت فى رثاء فقيه حنفى المذهب ، وقد جاء فيها :

خلق الناس للبقاء فضلَّت أُمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمال إلى دار شقوة أو رشاد !

فكيف بعد ذلك يكون ملحداً ؟ واتهم ابن المقفع بالإلحاد ! ونسب إليه شعر يحنُّ فيه إلى عبادة النار ! ولا أدرى كيف يكون صاحب الأدب الكبير وكليلة ودمنة ملحداً ؟ والذى أراه أن دوافع سياسية أو شخصية من وراء هذه التهم .

وشغف بعض الناس بترويج تلك التهم كان من وراء تأليف الغزالى لكتابه « فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة » .

وندع ماضينا الأول ، وننظر إلى عصرنا الحاضر ، إننا واجدون مروقاً لايمكن إنكاره ، وزيغاً لايلتمس له عذر ! ربما ضلّ من ضلّ قديماً وهو يستخفى بأوزاره ويشعر بعاره . أما اليوم فإن ناساً لايرون حرجاً من إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، ومنهم من يأمر بترك الصلاة وفطر رمضان ، ومنهم من يرفض الحدود والقصاص ، وسمعت بغيّاً تقول : إن تعدُّد الزوجات زنًا مقنّع ! ! .

وقد نجح الاستعمار الثقافى فى تجهيل كثير من الناس بدينهم وتجريئهم على حدوده وحقوقه .

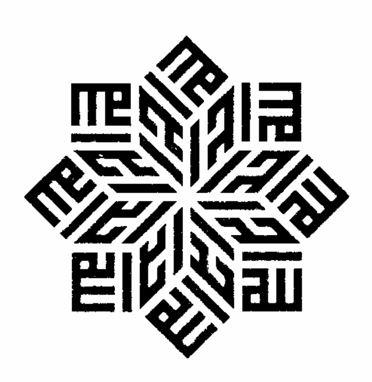
وقمة الإلحاد فيما أراه أن تتألف أحزاب ماركسية علانية ، وأن تصل إلى الحكم لتفرض على الجماهير مبدأ : « لا إله والحياة مادة » .

إن هذا ارتداد صراح وقاح ، وإنى لمنزعج من تأليف حكومات عربية على هذا الأساس ! .

وقد راقبت النزاع الدامى بين مراكسة اليمن للانفراد بالحكم ، فما رثيت لقتيل ولا حزنت لدمار ، وإنما أسفت لشعوب غلبت على أمرها ، واسْتَخْذَتْ أمام سطوة الإلحاد أيّاً كان لونه ، وعجبت كيف يستفحل الشر على هذا النحو وتكون لأحزابه رؤساء وحقوق ترعى دولياً ! .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[1]

* * *



(١) سورة الحج : الآيتان : ٨ ، ٩ .

المؤمنون وحدهم يفهمون معنى الحج

تبدأ أشهر الحج من شوال ، غير أن انطلاق قوافله ينمو رويداً رويدًا ثم يتحول إلى سباق ناشط دءوب مع إقبال ذى الحجة .

وفى العشر الأوائل من هذا الشهر يبلغ النشاط قمته ويوفى على مداه . فإذا أفواج كثيفة من المؤمنين تزحم البر والبحر والجو مقبلة من المشارق والمغارب إلى البيت العتيق .

وتشهد السموات والأرضون منظراً عجيباً . . طائرات تعلو السحاب ملأى بالمؤمنين الهاتفين لله تكاد أصواتهم تغطى ضجيج المحركات . وبواخر تشق عباب الموج مولية شطر البيت العتيق ، لها بالتلبية جؤار موصول ، أما قوافل البر فقد تلاحقت يطير بها الحنين ، وإن كانت تجرى على الثرى . . .

وفى هذه المظاهرة التى استوعبت البر والبحر والجو ، لاتسمع فيها هتافاً إلا باسم الله وحده ، يأبى الكون المسبّح بحمد ربِّه إلا أن يشارك هو الآخر فى التلبية التى يتجاوب صداها هنا وهناك كما جاء فى الحديث : « **ما من ملبٍّ يلبِّى إلا لبَّى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هنا وههنا عن يمينه وشماله** » .

إنه أمر جميل أن تبعث الشعوب الإسلامية وفودها إلى بيت الله لتشارك فى هذا الاستعراض الخاشع المنيب . .

ولأمر ما كانت العشر الأوائل من ذى الحجة أحب الأيام إلى الله . . .

رأيت رجلاً قليل الاكتراث بشعائر الله التى تبرق فى هذه الأيام ، وكأنه يتساءل عن سرّ هذه الزحوف المنسابة إلى مكة ، قلت له : نداء الإيمان يتجدد على مر الزمان ،

فمن عشرات القرون أوحى الله لإبراهيم : ﴿ ... وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾[1] .

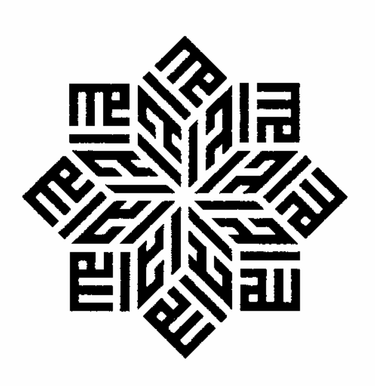
إن اختلاف النهار والليل ينسى ، لكن صوت الوحى ما نسى ولا ضاع صداه ، بل ظل واضح النبرات لاتزيده الأيام إلا حدَّة !! .

قال : وما الغاية من وراء هذا الكدِّ والضنى ؟

قلت : إن الإنسانية واحدة من آدم إلى إبراهيم إلى محمد ، شرفُها فى معرفتها لله وولائها له وحده ، وجَهْدُ الشيطان تعكير هذه المعرفة وتقطيع ذلك الولاء ، وقد كان إبراهيم نموذجاً للنبوات الأولى فى حرب الأوثان ومطاردةالشيطان ، وقد بنى فى مكة هذا البيت الخالد شعاراً للتوحيد ، ومناراً للعبادة المجردة ، ثم جاء خاتم المرسلين فأرسى القواعد لألوف مؤلفة من المساجد التى تتبعه فى الوسيلة والهدف ، فلا غرابة إذا ارتبطت به وجاء أهلوها فى كل عام يجدِّدون العهود ! .

وهزَّ الرجل رأسه ، فشعرت أن الإيمان لم يدخل نفسه ، ومن هنا لايعرف معنى الحج .

* * *



(١) سورة الحج : الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

امرأة مترجلة تضيق بالاسلام

كانت ذات منصب ونفوذ استغلتهما فى تشويه الإسلام ، ومحاربة رجاله ، وتنصير قوانين الأسرة ، ومساعدة الاستعمار الثقافى جهد الطاقة ! ثم شاء الله أن يذهب ذلك كله ، ولكن بقى الكره فى نفسها لشرائع الإسلام وشعائره . .

وذهبت فى سياحة طويلة ثم عادت فوجدت الطالبات محجبات ، وجمهرة كبيرة من النساء يملن إلى الاحتشام ويكرهن التكشف والتبرج ، فإذا هى تعلن سخطها ، وتقول : إن الرجعية عادت ! وإن الأمة مهددة بانتكاسة ، وإن ما بذل من جهود للنهوض بالمرأة ضاع أو موشك على الضياع . . !

ولم أعجب لما قرأت ، فلم أكن أتوقع منها ولا من أمثالها توبة نصوحاً !

أما الذى عجبت له فما حكاه صاحبى لى بعد ذلك ، قال : إنها طلبت مع بعض النسوة الكبيرات المقام أن يزرن بابا الفاتيكان ، وقيل لهن : لا مانع ، ومراسم الزيارة معروفة ، إن البابا لايستقبل إلا نسوة مؤدبات محجبات ، يبدون فى أزياء الراهبات لايظهر منهن إلا الوجه واليدان .

وقلن فى رضا واقتناع : لا حرج ! .

ودخلت السيدة التى ازدرت الفتيات المسلمات المستعفات فى ملابس كاملة وزىٍّ تام الحشمة ! وخرجت من المقابلة قريرة العين ، شاعرة بالزهو . . .

لقد فكرت طويلاً فى هذا السلوك ، إن فتياتنا الشاعرات برقابة الله الساعيات إلى رضائه ارتدين الملابس التى قضت بها آداب الإسلام ، فكن موضع غضب هذه المرأة وأشباهها ! فلماذا لبست هى لباس التقوى عندما سعت إلى مقابلة رئيس دينى آخر يطلب ذلك ؟ ! ! .

وعرفت الجواب المحزن ، إن بيننا رجالا ونساءً يبسطون ألسنتهم فى الإسلام دون

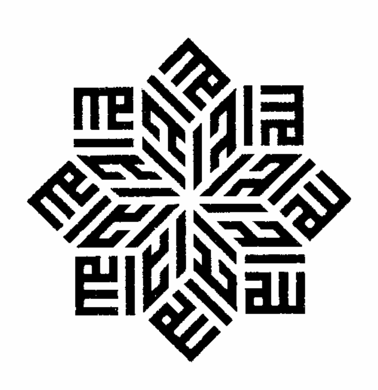
وجل ، وينتقصون رجاله دون حياء . . فإذا كانوا خارج أرضه التزموا الحدود المقررة وتقيدوا بالآداب المرعية ، بل لو رحلوا إلى بلد يعبد العجول لسارعوا إلى حمل حزم من الحشائش يتقربون بها إلى الإله المصنوع ! !

هؤلاء الرجال والنساء هم حصيلة سنين طويلة من الاستعمار الثقافى والعسكرى ، أفرغ أفئدتهم من الإيمان كله ، ومنحهم قدرة خارقة على إضاعة الصلوات ، واتباع الشهوات ، وتعريف المنكر ، وإنكار المعروف .

الإسلام وحده هو الذى به يضيقون ، ودعائمه وحدها هى التى يهدمون . .

وأحقر ما رأيت ، منظر امرأة مترجلة تمتطى أحد الساسة لتبلغ على ظهره ما تريد . . !

* * *



توجيه الشباب المتدين

بحثت عن دوافع معقولة وراء اعتراف إسبانيا بدولة إسرائيل فلم أجد ، بل وجدت موانع اقتصادية تعوق ذلك الاعتراف ، وتجعله لونا من المجازفة أو التضحية ! .

فهناك استثمارات عربية حجمها ثمانية آلاف مليون دولار تنعش الأوضاع المالية والاجتماعية داخل إسبانيا ، وهناك تجارة خارجية مزدهرة بين العرب والإسبان ، وهناك علاقات صداقة وتعاون أجدت على إسبانيا كثيراً خلال السنين الماضية ، فى مجال السياحة والسياسة على سواء . .

ومع ذلك كله فقد قررت الحكومة الاعتراف بدولة إسرائيل ، وليكن ما يكون ! إن انضمامها إلى الأسرة الأوروبية يفرض عليها روحياً وفكرياً ألا تشذ عن مثيلاتها . . .

ثم ما الذى سيقع ؟ إن المال العربى سيبقى فى أسواقها يعزز رخاءها ، والتجارة الخارجية لن تنكمش بعد هذا الاعتراف ! وأفواج السائحين لن تنقطع ، فإن المتع المبذولة فى مصايف «الأندلس القديمة» تغرى طلاب اللذة بالقدوم ، وما أكثر طلاب اللذة بين أثريائنا ! . .

لقد نجح الاستعمار الثقافى فى خلق حال من التبلد وقبول الواقع المهين ، لو بقيت فلا بقاء معها لعروبة ولا إسلام ، ذلك أن اليهود يطوون المراحل إلى غايتهم دون كلال ، وهم الآن يضاعفون ضغوطهم على المسجد الإبراهيمى ، وقد زارت لجنة من النواب المسجد الأقصى مرتين خلال أسبوع ، وهى تفكر بداهة فى إقامة الهيكل على أنقاضه . .

إن الشعور الدينى يزداد وهجة هناك ، بينما يسكب عليه الماء البارد عندنا ، وهذا التفاوت أفضل جوّ لتحقيق الأمانى اليهودية جملة وتفصيلاً ، وحَسْب العرب والمسلمين أن توضع قضاياهم فى «ثلاجة» هيئة الأُمم ، ريثما ترمى فى المخلفات التاريخية بعد حين . . .

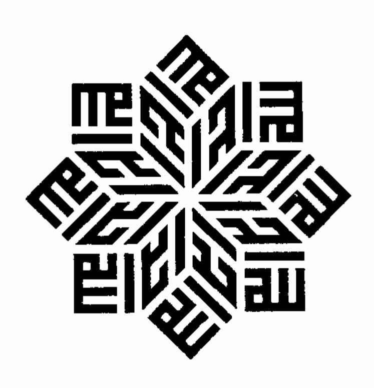
إننا نحن الذين نصنع هزائمنا ونخذل قضايانا ، وظاهر أن الروح الدينية تختنق فى

كثير من البلاد ، لأن الأسلوب الذى رسم لمحاربة التطرف الدينى ـ كما يسمَّى ـ قضى على المتطرفين والمعتدلين جميعاً . .

بين اليهود شيوخ وشباب متطرفون لايحسنون ضبط عواطفهم كما يفعل غيرهم من لايقلون عنهم تعصباً ، وقد عالج المسئولون هذا النزق بحكمة ودهاء ، ونفَّسوا عن هذا الحماس بما زاد الدولة نجاحاً ورسوخاً ، فلماذا لانضع سياسة ذكية لتوجيه الشباب المتدين ، والإفادة من حرارة إيمانه وعمق إخلاصه ؟ إن المشاعر الدينية بين اليهود والمواريث التاريخية بين الأوروبيين والأمريكيين تتلاقى للإجهاز على جيل واهن الإيمان سقيم الوجدان . . .

ولا نجاة إلا بإحياء الروح الإسلامية الشجاعة الفدائية ! من الذى يواجه الشباب اليهودى الذى رفع راية إسرائيل أخيرا داخل المسجد الأقصى ؟ .

* * *



لماذا نتخلف ونحن مسلمون

ما قيمة الإنسان العربىّ يوم ينسلخ عن الإسلام ، ويستعصى على توجيهه ، ويمضى وفق هواه ؟ كم يساوى محلياً ودولياً من الناحيتين المادية والأدبية ؟ لقد نظرت إلى العرب فى تاريخهم الحديث فوجدت الجواب فاجعا ! وجدت أن ألف أسير عربى تم تبادلهم مع ثلاثة من الإسرائيليين ، وكانت الصفقة فى نظر اليهود رابحة بل مرضية . . ! .

لماذا ؟ خيِّل إلىّ أن الإسلام بالنسبة إلى العرب كتيار الكهرباء بالنسبة إلى المصابيح التى تعتمد عليه وتضىء به وحده ، فإذا انقطع التيار أمست زجاجات فارغة لاتوقد بزيت ولايشعلها عود ثقاب !! .

إن الأجناس الأخرى قد تتحرك بفلسفات شتى ، وقد تعلو وتهبط بتيارات أخرى . أما العرب فما يمسك خصائصهم العليا إلا دين ، فإذا فقدوه عادوا قبائل متفانية ، بل عادوا سقط متاع ، أو أصفاراً فى عالم الأرقام . فلا عجب إذا عودل ثلاثة يهود بألف منهم . . .

ورجعت البصر فى الأحداث الكثيرة التى تلدها الليالى المثقلة ، فرأيت ما يضحك ويبكى ! ألوف من العرب يزحمون السجون فلا يعتبر حبسهم إرهاباً ، ولاتقييدهم إذلالاً ، أما أشخاص يعدون على الأصابع من أمة أخرى فإن اعتراض طريقهم ، أو أشخاص يعدون على الأصابع من أمة أخرى فإن اعتراض طريقهم ، أو تهديد أمنهم جريمة كبرى ، وأزمة عالمية ، ولغط الأندية ، وشغل المحافل العالمية . . ! .

ما أرخص الإنسان العربى فى دنيا الناس ، وما أهون دمه وعرضه ، وما أضيع حقه . . لكنه هو الذى فعل بنفسه ذلك كله ، إن المنتحر لايتُهم أحد بقتله ، فهو قاتل نفسه . . .

إن الله شرف العرب يوم ابتعث منهم محمداً ، واصطفاهم لتبليغ رسالته ، فإذا أنكروا هذا النسب ونسوا تلك الرسالة ، فما يكون شرفهم بين الناس ؟ ؟ . .

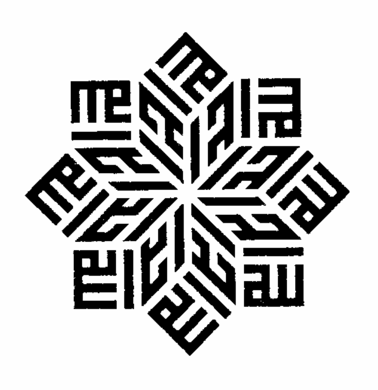
قالوا : لنا رسالة أخرى ، وولاءٌ آخر ! ترى ما تلك الرسالة إذا لم تكن الإسلام ؟ ! وما هذا الولاء إذا لم يكن للوحى الأعلى ؟ .

والعجب العجاب أن العرب يبتعدون عن القرآن والسُنّة فى الوقت الذى يهرع فيه الآخرون إلى مواريثهم يتشبثون بها ويستمدون منها .

قرأت عنوانا على مساحة ثلاثة أعمدة فى صحيفة كويتية يقول : «ريجان يلجأ إلى آيات إنجيلية للدفاع عن النفقات العسكرية » وقرأت لحكام إسرائيل ماهو أدهى وأمرّ . . .

أما نحن العرب العظماء فلا نقر هذه الرجعية ، ولانحب أن نلجأ إلى نصوص القرآن والسنة لإعزاز أنفسنا ، إننا أبناء هانيبال وامرىء القيس ، وحسبنا هذا من شرف أو من « قرف » . . ! ! .

* * *



حقب مجهولة من تاريخنا

هناك عصور فى تاريخنا الإسلامى تكتنفها غيوم غامضة لا أعرف لها سبباً ، ولامعنى لبقاء هذه الغيوم تحجب الرؤية وتخلق الأوهام ! .

كان للمسلمين وجود حقيقى فى جنوب فرنسا ، وجنوب إيطاليا ، وفى جزيرة صقلية ، وجزر أخرى فى البحر الوسيط ، وقد امتد هذا الوجود قريبا من قرن ونصف ، وكانت له آثار علمية واجتماعية بعيدة الآماد ، بل كانت هذه الأراضى المعمورة بالإسلام أرقى حضارة وأرحب ثقافة من شمال فرنسا وإيطاليا وأقطار أخرى وسط أوروبا كانت غارقة فى الظلام . .

والغريب أن هذه الحقبة من تاريخنا لاتدرس إلا لماما ، وقد يكون الدارسون أصحاب غرض فيزوِّرون الوقائع عن عمد . .

وفى دراساتى الأخيرة تبين لى أن طوائف من الفرنسيين [illegible] جنوب فرنسا الإسلامى عاونوا المسلمين فى حربهم ضد الشمال ، لأنهم رأوه[illegible] حكماً أو أكثر تسامحاً . . ! .

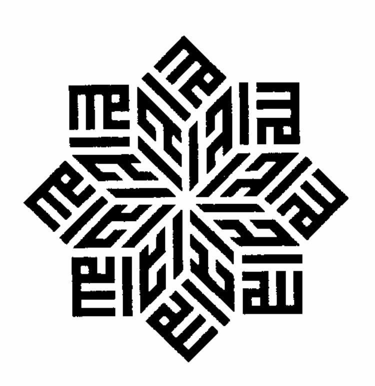
كما تبين لى أننى - وغيرى من القارئين - كنا على خطأ حين حسبنا معركة «بواتيه» هى التى وقفت الامتداد الإسلامى نحو الشمال ، فهذه المعركة كانت مناوشة محدودة ، بقى الوجود الإسلامى بعدها عشرات السنين .

ولكن أوهاماً جريئة أضفت على هذ الوقعة آثاراً خيالية ، والصحيح أن توقف الزحف الإسلامى جاء من أن مركز الدفع قد ضعف ، وأن قوة الموجة قد تبددت ، وذلك كله لعوامل داخلية فى الأُمة الإسلامية ، لا لأن المقاومة الأوروبية كانت صلبة ، أو أنها كانت جديرة بالنصر . . .

أما صقلية ، فإن الفقيه المالكى أسد بن الفرات رَحِمَهُ اللَّهُ فتحها فى أثناء شيخوخته ، وقام المجاهدون بعزم شديد ، ويظهر أنه بعد هذا الأسد اشتغل الفقهاء بقضايا أخرى ، فانحسر المدُّ العارم من تلقاء نفسه ، ولم يزعم الزاعمون أن هناك « **شارل مارتل** » آخر هزم المسلمين ! ! كما تيسّر ذلك فى قصة بلاط الشهداء . .

أريد من دارسينا أن يتعمقوا البحث فى تاريخنا السياسى والثقافى على سواء ، فإننى أحس أننا نكرر أخطاءنا القديمة دون وعى ، إن هزائمنا تجىء من داخلنا ، نحن الذين نصنعها لا غيرنا : ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾[1] .

* * *



(١) سورة الأعراف : الآية : ١٠٠ .

فساد الإدارة فى غياب الدين

قلت يوماً : إن الدين قد يضمن لنا آخرة حسنة عندما نلقى الله - جل وعزَّ - ، بيد أن ثمرة التدين لا تتأخر إلى ما بعد الموت ، أو إلى ما بعد انقضاء هذه الدنيا ، إن الإسلام ضمان يومنا العاجل ، وحياتنا الأولى ، إنه مجدنا هنا قبل أن يكون سعدنا هناك . . ! .

والذين نهكوا قوى الإيمان ، ونكسوا فى بلادهم راية الدين بدءوا يتجرعون الآثار المرة لذلك الانحلال ، لأنهم خلقوا مجتمعات منحلة كسولاً ، وأنشئوا أجيالاً ظالمة مظلمة لاتحسن صنعاً ولاتبلغ هدفاً . .

والشكوى الآن عالية من ضعف الإنتاج وسوء الإدارة ، وهما مرضان يورثان التخلُّف السياسى والفشل الاقتصادى ، بل هما من وراء التخلف الإنسانى الذى يوصم به العالم الثالث ، ويحرمه كل تقدير !

وما ضعف الإنتاج وسوء الإدارة إلا نتائج ضعف اليقين ، وغياب العزم ، وسيادة الهوى ، وإظلام العقل .

كان العامل ـ أيام الرجعية - كما يقولون ـ يحسن ما بين يديه ، ويخرجه متقنا أو أقرب إلى الإتقان ، ويحمد الله على التوفيق ، ويتناول أجره فينفقه فى مواضعه المشروعة ، ويلحقه من بركات الله ما يمنحه الرضا .

ثم تغيرت الأحوال ، وامتدت العين إلى مزيد من المتاع ، وجمحت الشهوات ، فمع الطعام غناء ومع الغناء نساء ، ومع النساء خمر ، ومع الخمر مخدرات ، وأمسى الأمر فرطاً ، ووقف العامل أمام آلته أو فى إدارته ، يطلب حقوقاً ولا يؤدى واجبات ، ويكثر اللغو ولايحسن العمل . .

وتعلم من حداة الركب ألا يسمع حديثاً عن الله ، وألا يتعود التردد على المسجد ، وألا يتعلق بالدار الآخرة ! .

وتراكضت النتائج المفزعة ، فإذا الدول ترهقها الديون ، وكانت من قبل خالية البال ، وإذا الدول الغنية يتفلت ثراؤها من بين أصابعها ، ويلوح أمامها شبح الضياع . . .

وكأن الأرض كفت عن الإثمار ، وكان من قبل عطاء مدرارا . .

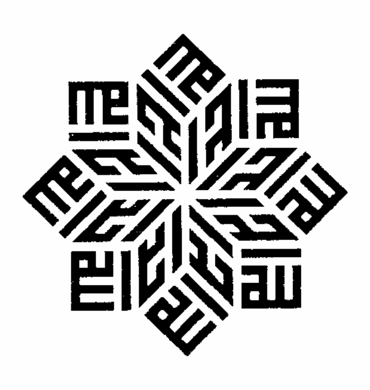
وأرسلت عينى إلى أجهزة الإدارة فرأيت العجب ! هذا طلب لإنسان يشكو ضُراً نزل به ، لقد تحولت الورقة الواحدة إلى ملف كبير ، وما انكشف ضر ولا تحققت مصلحة ! .

ولم أدهش عندما قرأت أن أصحاب فرن استخدموا سبعة عشر حدثاً مختطفين فى تشغيل فرنهم لمدة سنين ، وما انكشف لهم جرم ، مع أن هناك تفتيشاً يومياً عليهم ! .

إنه تفتيش على الورق ، إن العمل صورىٌّ لا صلة له بالواقع ، ومثل هذا السلوك لاجدوى منه أبداً . .

إن الذى يتحرك فى موضعه لايقطع مرحلة ولايحقق هدفاً ، وتلك حالنا فى غياب الدين ، وضعف اليقين ، وانقطاع حبلنا مع الله .

* * *



السكوت على الظلم

أصدرت محكمة فرنسية حكماً بالسجن المؤبد على مجرمين قاتلين ، وبالسجن أربعة عشر عاماً على شريك لهما عاونهما فى الإجهاز على الضحيّة . .

والقتيل فى هذه القضية شاب جزائرى مسلم كان يركب القطار فى فرنسا لشأن له ، ورآه فى رحلته المشئومة بعض المجنَّدين الفرنسيين فقرروا قتله بإلقائه من القطار ، وهو منطلق بأقصى سرعته ! .

وتشبث الشاب بأذيال الحياة ، وقاوم القتلة بكل ما فى كيانه من قوة ، وكلما اقتربوا به من النافذة ليرموه أفلت منهم ، وبقى على قيد الحياة ، فانتضوا سكاكينهم ، وأخذوا يطعنونه ، حتى إذا خارت قواه ، ونزف دمه ، وعجز عن المقاومة ، تعاون الأنذال الثلاثة على حمله وإلقائه من القطار لتجهز عجلاته على ما بقى من حياة فى بدنه . . .

وكان فى القطار ثمانون مسافراً يشهدون فى صمت ! هذه المأساة ، لم يفكر أحدهم فى التدخل لإنقاذ الشاب البائس ، ذلك لأنه جزائرى مسلم ، وتلك جريمته ! .

ووصفت المحكمة الجريمة بأنها تدل على عنصرية بغيضة ، ولذلك لم ترأف بالمتهمين ! ! .

والقضاءُ الفرنسى قد ألغى عقوبة الإعدام ، ولايؤمن بشريعة القصاص التى أتى بها العهد القديم . . وليس ذلك ما أقف عنده ، وإنما أتوقف عند المشاعر الخسيسة التى حملت ثمانين مسافراً على السكوت ، وهم يرون ظلماً هائلا يقع على إنسان برىء ، واعتداء فاضحاً على رجل لاذنب له إلا أنه جزائرى مسلم . . .

إن الصفة التى استحق بها أهل الكتاب القدماء أن يلعنهم الأنبياء هى التواطؤ على المنكر ، والاجتماع على الإثم : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1] . !

---

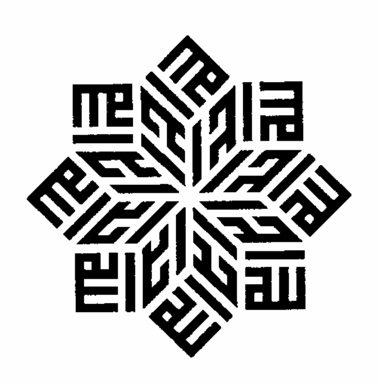
(١) سورة المائدة : الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

ثمانون مسافرًا يشاهدون قتلاً عمدًا ولا يتحركون ، ولا يصيحون ، ولا يشفعون ! هل قُدَّتْ قلوبهم من حجارة ؟ .

إننى أعرف المجرم الحقيقى وراء هذه المشاعر المتبلِّدة ! أعرف من شحن القلوب بالضغائن ، وحملها على أن تستبيح المسلمين وتتسلَّى بمصارعهم ! إنهم رجال دين ينسبون إلى المسيحية ، والمسيح منهم برىءٌ ، إنهم عبيد أنفسهم وشهواتهم وليسوا عبيداً لله . .

وتحت العنوان الجميل : « **الله محبة** » يقترفون البهتان ، ويزينون للاستعمار التهام الحقوق ، وانتهاب الثروات ، وإذلال المستضعفين ، وقدرتهم على المداهنة باسم الدين فائقة ! ولو قدروا لغلَّفوا قنابل هيروشيما وناجازاكى بعبارة : « **الله محبة** » ليتم إفناء الأبرياء باسم الله . .

* * *



مؤامرات المتاجرين بالدين

التعصب الأعمى بعيد عن مسالك المسلمين عامة والعرب خاصة ، ولم يُؤثر فى تاريخنا الطويل ما يسمَّى بالحروب الدينية أو المذابح الطائفية ، ولم يتحول الخلاف العقائدى إلى ضغائن متوارثة تستبيح الدماء والأموال على النحو الذى عرفته أوروبا وشقيت به شعوبها قرونًا مديدة ! ثم شقينا نحن به عندما وقعنا تحت سيطرتها وضاعت منا حرياتنا ! .

والمسلمون ينظرون إلى مخالطيهم من أهل الأديان الأخرى نظرة بر ووفاء و إقساط ، متعبِّدين لله بهذه النظرة ، غير مدفوعين إليها برغبة أو رهبة . . .

ومايعرف فى هذا العصر بالأقليات الدينية ، وما يقع عليها أحيانا حيفٌ لا وجود له فى دار الإسلام منذ بدأ الإسلام ، بل يمكن القول بأن هذه الأقليات هى أسعد الأقليات فى العالم أجمع . .

ويوجد الآن بين ظهرانى العرب المسلمين قرابة ثمانية ملايين مسيحى موزعين على هذا النحو : أقل من ثلاثة ملايين قبطى فى مصر ، وذلك وفق آخر إحصاء قام به الجهاز المركزى المختص من بضع سنين ، مع إضافة ما زاد بعد ذلك حتى اليوم .

كما توجد ثلاثة ملايين أخرى فى هذه الأقطار مجتمعة : سورية ولبنان والعراق والأردن وفلسطين ، ونستطيع ضم مليون نصرانى فى جنوب السودان ، ومليون آخر فى بقية أقطار المغرب ، وسائر أنحاء العالم العربى . .

إن هذه الأقليات تحيا موفورة الكرامة مصونة الشعائر بين مائة وأربعين مليونا من المسلمين العرب دون تكلف ولاتعسف . . .

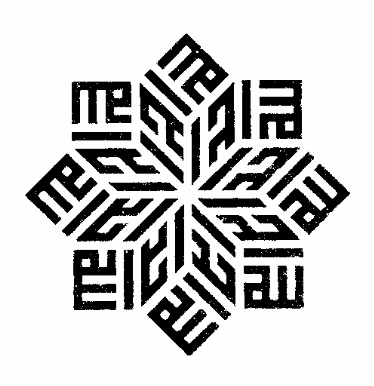
بيد أن الاستعمار العالمى ضائق بهذا الوضع الكريم ، وهو يفرض نظرته السياسية وأحقاده التاريخية على العلاقات العربية ، والمشاعر الدينية لينحرف بها عن الطريق السوىِّ . .

وقد رفض من نصف قرن إجراء أى إحصاء سكانى فى لبنان ، وراغم الواقع مراغمة صفيقة عندما جعل الموارنة أكثر من نصف السكان ! ومنحهم حقوق أكثرية مطلقة ، وطلب من الكثرة المسلمة أن ترضى بما دون الكفاف فى شئون الحكم والمال والتعليم وصبغة المجتمع !! .

والدم الذى ينزف فى لبنان من أحد عشر عاماً يرجع إلى هذا الغل المستديم ، والإذاعات العالمية تميل إلى تصوير النزاع على أنه تطلُّع إسلامى رجعى !! ثم هى تحاول نقل جراثيم الفتنة اللبنانية إلى أقطار أخرى ، وتلقى فى روع شتى الأقليات أنها أضعاف عددها المسجل من أيام الاحتلال البريطانى لوادى النيل وغيره ! .

إن السياسات الاستعمارية تتاجر بالدين ، وهى آخر من يتحدث عن الضمير الدينى والوحى الإلهى ، وعلينا أن نتيقظ لمؤامرات القوم ، ونمزق النقاب عن وجهها الكالح وطلعتها المشئومة ، فإن هذه السياسات لن تعقب إلا الخراب والشقاق .

* * *



تطاول الخونة على الشرفاء

الكارهون لله ورسوله ترتفع أصواتهم بين الحين والحين كلما لاحت فرصة تُنَفّس عن غليانهم المكتوم ، وما أكثر الفرص مع تعاقب الليل والنهار ، ومع تعرُّض العالم الإسلامى لضغوط المغيرين على تراثه من شرق وغرب .

هناك تقاليد إسلامية ذابت مع امتداد الغزو الثقافى إلى أعماق المجتمع ، وهناك خرافات وبدع بقيت ـ مع استنكار الإسلاميين لها ـ لأن استبقاء ما يشين الإسلام مطلوب ! .

ولكنى لم أر أصوات الكارهين أعلى ، ولاضجيجهم أشد إلا عندما طلبت الجماهير العودة إلى شريعة الله . . !

لقد نطق الأخرس ، وهاجم من لايستطيع الدفاع عن نفسه ، وأمسى ذا رأى من لا رأى له ، ووسَّعت الصحف صدرها للتافهين والثرثارين فكتبوا وكتبوا .

وطوت وريقاتها عن الناصحين الجادِّين ، فبدت الساحة وكأن أنصار الإسلام ماتوا . . .

وإذا نشر شىءٌ لنصرة الدين المحرج فكلمات مقتضبة ضعيفة ، ربما كان كتمانها أجدى على الإسلام . .

شعرت بالضيق ولم أشعر بالخوف ، فقد عرفت من كتاب ربى عقبى الحاقدين على الحق مهما أرخى لهم الحبل ، إنهم سيُجَرُّون به إلى مصارعهم يوماً :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة محمد : الآيتان : ٨ ، ٩ .

لكن غضبى اشتد عندما قرأت كلمات لبعض «الدكاترة» ، كانت أدنى إلى النباح منها إلى القول المرسل على عواهنه ، يقول هؤلاء : إن المسلمين كانوا يحيون ساكتين لايطلبون الحكم بما أنزل الله ، فما الذى حركهم بغتة وأثار ثائرتهم ؟ إن هذا التحريك أتى من الخارج ! أى أن الشباب المسلم الحرّ المؤمن بربه ونبيه يعمل بإيحاء من وراء الحدود ، أى يعمل ضد مصلحة وطنه !! .

وهكذا تبلغ الجرأة بالمرتدين الخونة أن يتطاولوا على المخلصين الشرفاء ، أو تبلغ الجرأة بسماسرة الاستعمار الثقافى أن يتهموا الأوفياء لأصالتهم وعقائدهم .

وعندما ينزلق المهاجمون على الإسلام إلى هذا المستوى فلابد من إعادة النظر فى الأوضاع كلها ، وفى إعادة وزن هؤلاء الكاتبين ، والمآرب التى استُخْدموا فيها . . .

نحن فى عصر تتحرك فيها أوروبا وأمريكا بدوافع صليبية وصهيونية ، وقضايانا المصيرية تتدحرج تحت أقدام اليهود ، فكل تهوين من شأن الإسلام إنما يقع لحساب المغيرين ! وكل تمزيق لأنصاره مَدَدٌ لأعداء الله ، وكل تحقير لشرائعه وشعائره إنما يتم لحساب المتربصين به :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [1] .

* * *

---

(١) سورة النور : الآية : ٦٣ .

آفة زواج المسلمين بأجنبيات

أضحت الهجرة ـ مؤقتة أو دائمة ـ فريضة على كثير من المسلمين الذين يسعون لطلب الرزق أو لطلب العلم ، وصار مألوفا فى عواصم أوروبا وأمريكا أن نرى الألوف من العرب والهنود والأتراك وغيرهم يزحمون بعض الأحياء ، وينشغلون بما جاءوا من أجله . .

والضرب فى أرجاء الأرض خلق إسلامىّ حسن ! أما التقوقع فرذيلة تضير الدين والدنيا معاً ، ونحن نرفض قول الشاعر الكسول :

يقيم الرجال المكثرون بأرضهم ... وترمى النوى بالمقترين المراميا !!

إلا أننى درست ظروف المهاجرين ، طوراً عن خبرة ، وطوراً عن أخبار وثيقة ، فشعرت بالقلق ! وخيّل إلىَّ أن خسائرنا تربو على أرباحنا ، وأن جماعات المغتربين والسائحين لم تجد من يعنى بها العناية الصحيحة ، والسبب واضح ، فإن هناك سكرة عامة أبعدتنا عن قضايانا المهمة ، وشغلتنا بما لاغناء فيه . .

إن الحصول على العملة الصعبة قد يكون الباعث الأكبر على العناية بالمغتربين وتتبع أخبارهم . . أما أوضاعهم الروحية والاجتماعية حيث يحلُّون فشأن آخر ! .

وأنبه هنا إلى أن كثيرين من المهاجرين يعودون إلى أوطانهم بوجه آخر غير الذى ذهبوا به ، هذا إن عادوا ! أما الذين تبتلعهم الحياة الجديدة فجمهور فوق الحصر . . !

هناك رجال يتزوجون بأجنبيات ، وتسيطر عليهم عقدة النقص فيتركون ذرياتهم لدين غير الدين ولغة غير اللغة .

ومن الدول من يمنح جنسيته لكل طفل يولد على أرضه ، أو لكل من تضعه أنثى من مواطنيها . .

وهناك بيوت للشباب تحظى برعاية الكنائس المختلفة ، وتقدم المأوى لكل وافد . .

وهناك مسلمات «تزوجن» بأشخاص آخرين ، وفقدن هويتهن إلى الأبد ، وخرج أولادهن إلى الحياة يحملون نسباً غير النسب وديناً غير الدين . .

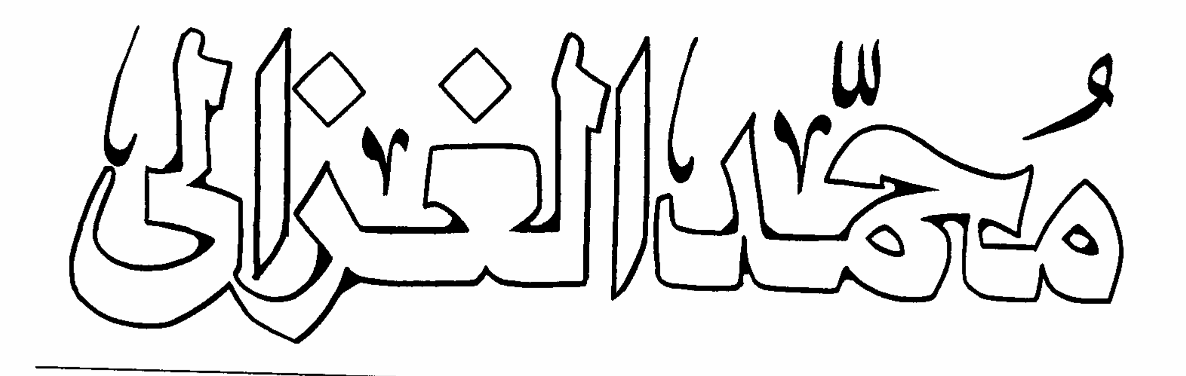
وتيار الحضارة الغربية عاصف ، والقادمون من الشرق الإسلامى لم يدرَّبوا على سباحة ، ولم يزوَّدوا بالحصانات الواقية ، فما ينجو إلا من عصم الله . .

ولقد استبنت بعد ملاحظات فاحصة أننا نخسر الألوف فى صمت ، وقد نشعر بالرضا لأن نَفَراً من الفلاسفة والمفكرين أعلن دخوله فى الإسلام ! فهل فى هذا عوض عما فقدناه ؟ !

إنه لابد من إعادة النظر فى مجتمعات المهاجرين والمغتربين ، ورسم سياسة تُعرِّف الواقع الذى يواجهه هؤلاء ، وتقدم عوناً حقيقياً يمكنهم من الوقوف على أقدامهم ، والنجاة بعقائدهم وأخلاقهم . .

وعلى علماء الدين المشغولين بالمجادلات الفقهية والكلامية أن يصحوا لمواجهة الموقف ، وإلا هلكوا وأهلكوا .

محتويات الكتاب



جرعات جديدة من

الحق المر



«الجزء الثانى»



اسـم الكتـاب: جرعات جديدة من الحق المر «الجزء الثانى».

المـؤلـف: الشيخ/ محـمـد الغـزالـى.

إشـراف عـام: داليـا محمـد إبراهيـم.

تاريـخ النشـر: الطبعـة الأولـى.. مايـو 2005م.

رقـم الإيـداع: 2004 / 8684

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-3043-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس: 3462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) ـ فـاكـس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامـل صدقـى ـ الفجـالـة ـ القـاهـرة ـ ص. ب : 96 الفجـالـة ـ القـاهـرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فـاكـس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـدى)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السـلام عـارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيـع على الإنترنت: www.enahda.com



مقدمة الناشر

هذه مقالات قيمة كتبها الشيخ محمد الغزالى من سلسلة مقالات «الحق المر» على امتداد فترة زمنية ليست بالقصيرة، هبَّ فيها للدفاع عن الإسلام والمسلمين والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبأسلوبه الذى يتميز بالعمق والبساطة فى آنٍ واحد.

هذه صفحات جهاد ونضال كتبها الشيخ الغزالى لمواجهة عدو من أشد أعداء الأمة العربية والإسلامية، والذى استطاع أن يغزو هذه الأمة فى عقر دارها، وأن يستلب منها أرضًا غالية هى أرض فلسطين. إن الاستعمار الغربى الصليبى والصهيونية زحفا إلى ديار الإسلام منذ بداية القرن العشرين وأقاما دولة إسرائيل فوق الأرض العربية المقدسة.

إن من يقرأ هذه الصفحات يشعر بأنها قد كتبت لتوها ويتقبلها القارئ ويتفاعل معها، والسبب صحتها وصدقها الشديد، إن كل يوم يمر يؤكد صحة ما كتبه الشيخ محمد الغزالى عن اليهود ودولتهم العنصرية إسرائيل، وعن الغرب الصليبى الحقود على الإسلام والمسلمين، بل لا يخامرنا شك فى أن الأجيال القادمة التى سوف تقرؤها ستستشعر صدقها وصحتها كما فعلت الأجيال التى سبقتها! والسبب أن الرجل قدم للناس حقائق عن اليهود تعلمها من كتاب الله وسنة رسوله ونظرة ثاقبة للتاريخ ووقائع الأحداث القريبة والبعيدة، مع تحليل صحيح لها.

لم يكن يبغى إلا وجه الله وحده - لا نوال شكر أو إرضاء بشر.

الناشر

الجـــهــــاد

فى أواسط القرن الرابع عشر الهجرى تحركت اليهودية وتذكرت بغتة أن لها صلة بفلسطين، وبدأ الهجوم الصهيونى على مراحل وفرض على العرب أن يستسلموا، فإذا وجدت رصاصة فى البيت نسفت جدرانه وسوى بالركام، كم يبلغ قتلانا فى فلسطين منذ بدأ غزوها؟ ألوف وألوف!

ومطلوب من المسلمين الآن أن ينسوا ويستكينوا! إن الذين قاتلوا الإسلام من قديم لاتزال قلوبهم مغلقة بالضغائن، ولايزالون يبيتون الشر لمحمد، وتراثه.

والغريب بعد ذلك كله أن يتهموا الإسلام بالعدوان، وهم الذين اسودت قلوبهم وصحائفهم بالمنكر من الأقوال والأفعال، هل يترك هذا الطغيان يحق الباطل ويبطل الحق؟ هل يترك ليذل العزيز ويعز الذليل؟ لقد أمر المسلمون أن يعتمدوا على الله، ويقاوموا هذا العنف، وقيل لهم: لا تقبلوا الضيم، ولا ترخصوا الحق:

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾.

إن السلام هنا يعنى الضياع المادى والضياع الأدبى، ولا يتقبلهما إلا جبان خاسر الدين والدنيا.. وهذا سر عشرات ومئات الأحاديث والآيات التى أوصت بالجهاد، وهو جهاد - كما علمت - فى سبيل الله لا إشباعًا لغرور، ولا تمشيًا مع طمع، ولا جريًا وراء جاه، ولا عصبية لجنس، ولا دعمًا لباطل فى هذه الحياة، إنه منع للشرك أن يقهر التوحيد، ومنع للظلم أن يجتاح الحقوق ومنع للقوة أن تمحو العدل!

فى جو من التوقير والتهيب نرمق رجالاً صنعهم محمد المحب لربه، الراضى عنه، الفانى فيه، نفخ فيهم من روحه فإذا هم ليوث بالنهار، رهبان بالليل، يؤثرون الله على أنفسهم، وينشدون قبوله بالنفس والنفيس.

هم مجاهدون أتقياء، أشداء على الكفار رحماء بينهم، من قتل منهم مات شهيدًا فى سبيل الله، ومن عاش منهم بقى حارسًا يقظًا لكلمات الله.

كان الواحد منهم ينزع نفسه من أحضان عروسه؛ ليلقى - فى سبيل الله -

حتفه، وهو سعيد، كان الواحد منهم يزهد عن الأهل والعشيرة - فى مجتمع قوامه العصبية للأهل والعشيرة - ويتغرب بعقيدته مستبدلاً أهلاً بأهل، وعشيرة بعشيرة. وعندما أنظر إلى دنيا الناس الآن أرى العجب، لقد رأيت كثيرين باعوا دينهم بعرض من الدنيا، وقالوا كلمات الكفر؛ حرصًا على منصب أو تطلعًا إلى آخر، أو تركوا الحق يموت مستوحشًا؛ لأن إيناسه يغضب بعض الكبراء!

أين هؤلاء الصغار من الرجال الذين رباهم محمد فاستقر بهم التوحيد وكان مطاردًا، وعرفت الآخرة فى سيرتهم وكانت مجهولة؟

فى المجتمع العالمى الآن يقال: إن خطتنا بناء دار لكل شاب، وتمليك سيارة لكل أسرة وتمكين أفراد العائلة من كذا وكذا من وسائل الرفاهية، ثم ماذا؟ لاشىء، الحديث عن الله والآخرة شىء مضحك.

أما محمد الوافد الغريب على أنصاره بالمدينة فيتوجه أول ما يتوجه إلى بناء المسجد منشدًا مع البناة المتطوعين من صحبه: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة!

قد بدأ يبنى جيش الحق بكلمات من نور، أو من نار، يقول: «**لغدوة فى سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»، وفى رواية: «**عدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس**».

«**ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عين حرست فى سبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفت عن محارم الله**».

«**رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها**».

«**رباط شهر خير من صيام دهر**».

«**من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير؛ فقد غزا**».

«**ما خالط قلب امرئ رهج - فزع وقلق - فى سبيل الله إلا حرم عليه النار**».

«**من بلغ العدو بسهم رفع الله له درجة، ما بين الدرجتين مائة عام**».

«**مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل عند الله من عبادة الرجل ستين سنة**».

«**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يضمن الله لمن خرج في سبيله - لا يخرجه إلا في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي - فهو ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر، أو غنيمة.**

والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين: ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني.

والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

هذه الكلمات إلى جانب آيات الكتاب العزيز، إلى الجانب التطبيقي العملي لرسول ظل نحو ربع قرن - هو أمد الرسالة - دءوبًا منتظمًا في نصرة ربه كأنه كوكب دوار، لا توقف ولا شرود، ذلك كله صنع الجيل الذي ثبّت أركان الحق، وأرسى قواعده إلى آخر الدهر.

هل سيعود العرب إلى الإسلام؟

لم يصور العهد القديم شيئًا من الفضائل والمثل. إن الأسفار الخمسة التى تمثل التوراة، وهى دستور الحكم فى إسرائيل، أو دستور القيم الموجود الآن دوليًّا ومحليًّا لبنى إسرائيل، إن هذه الأسفار الخمسة ليس فيها شىء يعنى الإنسانية ويشبع جوعها الروحى، كل ما فى الأسفار الخمسة أن هناك شعبًا مختارًا مقدسًا أوذى ويجب أن يملك وأن يحكم العالم بامتيازه الشخصى، بقداسته الذاتية، بكبريائه العنصرية.

هذا شىء غريب، ليس هناك فى أسفار التوراة ما يحكم العالم حكمًا راشدًا، إن حاجة العالم إلى القرآن، والقرآن كتاب شرف الله العرب فأنزله بلغتهم، وجعلهم لهذا الميراث السماوى قادرين على أن ينقلوا هداية الله إلى الناس، هل يعرف العرب أن شرفهم بالإسلام؟ وأن كرامتهم بالقرآن؟ وأن عظمتهم فى الانضواء تحت لواء النبى العربى محمد ﷺ؟ يوم يعرف العرب فى هذه المنطقة - فى مصر وسورية والأردن والجزيرة وكل من ينطق باللغة العربية - يوم يعرف العرب أن فخرهم وتاريخهم ويومهم وغدهم فى الإسلام، ويوم يقررون بجد أن يعودوا للإسلام، قوانين وتقاليد، وتعليمًا وتربية، موضوعًا وعنوانًا، تاريخًا قديمًا وحضارة معاصرة، يوم يعرف العرب هذا، ثم يديرون المعركة مع اليهود ومن وراءهم - لو قررنا هذا مساء اليوم - فإن صبيحة الغد ستشهد يوم النصر.

الأمر كله فى النزاع القائم بين إسرائيل والعرب مرتبط بجواب واحد: هل سيعود العرب إلى الإسلام؟ هل ستكون قضية فلسطين إسلامية؟ هل سيركل العرب بأقدامهم التشريع الوافد - القانون الاستعمارى - ويجيئون بدله بقوانين الإسلام وتعاليم الإسلام؟ هل سيحترمون لغتهم العربية ويجعلونها لغة التخاطب، ولغة العلم، ولغة الكتابة، ولغة التأليف، ولغة عالمية؛ لأنها لغة رسالة عالمية؟ هل سيعرف العرب أن قدرهم ليس من عروبتهم، العروبة وحدها لا تنشئ شرفًا، ولا تكون جاهًا، ولا تحبو أصحابها قدرًا، بل على العكس ستهبط بهم أسفل سافلين، إذا لم يعد العرب إلى الإسلام، ويبدأ نزاعهم مع إسرائيل بأخذ هذا الطابع الدينى المقابل للطابع الدينى الإسرائيلى، فإن المعركة لن تكون لنا.

إن الله عز وجل قد تفضل على العرب بالإسلام هدية اجتباهم بها واختارهم لها، فإن رفضوا الهدية عوقبوا وذلوا، وإن قبلوا الهدية استراحوا وأراحوا.

لما تحدثت سورة الجمعة عن الرسالة الخاتمة: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤]. بعد هذا بينت السورة أن قيادة العالم لا تملك بالادعاء، إن أي سيارة تفقد الوقود لابد أن تقف في الطريق؛ لأنها ما تسير إلا بوقودها، والأمم إنما تسير بقوى تمدها بالطاقة والحماسة، وتغريها بالانطلاق واجتياح العقبات، والأمة التي تفقد مؤهلات الزعامة تنحى ـ يقينًا ـ عن الزعامة، لأن الله قال ـ مبينًا لِمَ نحّى بني إسرائيل ـ:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾
[الجمعة ٥]

والقوم ـ أعني بني إسرائيل ـ الذين لم يهذبوا أنفسهم لا يؤتمنون على تهذيب الناس، الذين لم يرتفع مستواهم لا يكلفون برفع مستوى الخلق، الذين قيل فيهم: إنهم لم يفقهوا التوراة، ولم يحسنوا الأخذ بها، بل هم قد أصبحوا كالدواب الناقلة للكتب، والدواب الناقلة للكتب لا تتغير طبائعها؛ لأنها حملت كتبًا، إن الكتب تغير طباع الناس يوم يقرءونها، ويدرسونها، ويقفون أنفسهم بها، ويحسنون أخلاقهم بآدابها، ويحكمون غرائزهم بقيودها، هذه طبيعة الكتب عندما تنشئ حضارة وتجعل أمة ما قديرة على القيادة.

فليسأل العرب أنفسهم: هل زكوا أنفسهم بالقرآن؟ هل شرفوا سريرتهم وعلانيتهم بآداب الإسلام؟ هل نقوا بيوتهم وشرائعهم بتقاليد الوحي وقوانين السماء؟ لا.. إذن يوم يتقهقرون فالعيب عيبهم، والذنب ذنبهم: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء ٧]، ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام ١٠٤].

إننا يجب أن نصحوا من نومنا، لايزال هناك نفر - هم فى نظرى - تماثيل للغباوة، هذا النفر تمتلئ به وسائل الإعلام، لا تنقصه الجهالة ولا الحماقة، هؤلاء لا يعرفون عن الصراع العربى اليهودى شيئًا؛ لأنهم فارغون، كل امرئ يقول لكم: إن الصهيونية شىء واليهودية شىء، اعلموا أنه شخص جهول، ما قرأ العهد القديم، ولا قرأ كتب القوم ولا آمالهم، ويريد أن يفرض جهله علينا.

فلسطين قضية دينية

إن الكوارث العسكرية التى أصابتنا خلال معظم معاركنا مع اليهود مزقت الملاءة المسدلة على جسم ممدد معتل، تسرح الجراثيم القاتلة فى أوصاله طولاً وعرضًا، وأظنه ظهر لكل ذى عينين أن الأمة الرائعة، الفارعة، التى طوفت بالإسلام فى المشارق والمغارب، قد استحالت أمة واهية الخلق، معوجة السلوك، ضعيفة الأخذ لربها ولنفسها، يفكر شبابها فى الملذات العاجلة، ويتسابق نساؤها وراء الزينات الفاضحة، ويذهب حكامها عن شرائع الله وحدوده المقررة، وتتقطع علاقاتهم الروحية والاجتماعية به، فما يصطفون له فى الصلوات الجامعة والعبادة الخاشعة.

أفهذه مؤهلات النصر المرتقب، ومستنزلات التأييد الأعلى من المعز المذل؟ وزاد الطين بلة أن الأمة التى استرخت قبضتها على تعاليم السماء عجزت كذلك أن تمسك بأسباب النجاح الدنيوى المعتاد، فظلال فشلها الدينى امتدت إلى شئونها السياسية والاقتصادية والفنية والإدارية، فأصبح العمل الإنسانى الميسور للآخرين يخرج من بين يديها كما يخرج السقط من بطن الأم لا تُعرف له ملامح، ولا يُرجى له بقاء.

وقد تذكرت ببصر دامع وقلب مكلوم هزيمة ١٩٦٧، كان قائد الأعداء واسع الخبرة والحيلة، وصل إلى منصب القيادة بعدما دمى بدنه، وهو يصعد من السفح إلى القمة، وكان كما ظهر من سيرته محدود الشهوة، ممدود الفكرة، خدومًا لعقيدته، معتزًا بدينه وكتابه، يقود جيشًا على غراره إيمانًا ونظامًا.

أما نحن فقد اجتمعت فى قياداتنا نقائص كل الصفات التى توفرت لدى عدونا، فهل كان الحكيم الخبير يُلغى سننه الكونية وقوانينه الأزلية الأبدية، فيجعل الفوضى تهزم النظام، والهوى يغلب العقيدة؟

لقد انتهى العرب إلى النتيجة التى صنعوا مقدماتها، دينًا ودنيا، وسيبقون على خط الهزيمة ما بقيت تلك المقدمات موطدة لديهم.

ولقد كشفت هذه الهزائم - خلال السنوات التى مضت على قيام إسرائيل، بل منذ وعد بلفور ١٩١٧ - أن الأدوية التى وصفها الزعماء السياسيون للأمة المريضة لم



تكن أدوية شافية، بل كانت سمومًا كاوية، فإن أغلب هؤلاء الزعماء تشابهت قلوبهم فى مخاصمة الدين ونبذ شرائعه وفضائله، ثم اختلفوا، فمنهم من أعلن كفره بالإسلام عقيدة وشريعة وعبادة وتقاليد وأخلاقًا، ومنهم من طوى هذا الكفر فى صدره، من باب السياسة والكياسة وخداع الجماهير ثم مضى فى طريقه يبعد الأمة عن دينها عمليًّا، فلا يرى نورًا للإسلام إلا أطفأه ولا نشاطًا إلا عوقه، وخلال هذه المدة المتطاولة من ١٩١٧ إلى الآن استطاع اليهود - باسم الدين - أن يحولوا وعدًا خياليًّا إلى حقيقة واقعة.

أما نحن الذين أبعدنا الإسلام عن المعركة، فقد ظللنا نتدحرج حتى بلغنا الوهدة التى سقطنا فيها، وها نحن أولاء نحاول جاهدين أن نخلص منها، وأن نقف على أقدامنا مرة أخرى، ومن العجز أن نولول فى آثار نكبة لحقتنا، إلا أنه من العقل أن نحول دون تكرار هذه النكبات، ومن العقل أن ننصح المخطئين، وأن نصدهم عن المضى فى طريق الخطأ القديم، وإذا كانوا لا يحسنون إلا السير فى هذا الطريق؛ فليذهبوا إلى حيث ألقت، وليتركوا الأمة لتعود إلى دينها، وتعالج قضاياها بمنطق العقيدة والجهاد، ألا فليعلموا أنه عُرض على اليهود وطن قومى لهم في أوغندة، وفى مهاجر أخرى، فأبوا إلا فلسطين! لماذا؟ قالوا: هناك نداء الإيمان والذكريات والتاريخ الأول، وانقاد الاستعمار لهم، ومنحهم أرضنا.

فلنتدبر هذا المنطق اليهودى، ولنقس به مقررات أحد المؤتمرات العربية التى انعقدت من بضع سنين ورأت أن قضية فلسطين قضية عربية بحتة، وقالت للمسلمين فى كل مكان: لا شأن لكم بها، أى لغو وأى إفك؟! إن قضية فلسطين طول أدوار التاريخ قضية دينية، الغزاة الجدد هجموا - كما زعموا - ملبين نداء الدين، فلحساب من توصف قضية فلسطين بأنها عربية من شأن العرب؟

إن الذين فعلوا ذلك لم يحرفوا مفهوم القضية فقط، ولم يحرموها تأييد جماهير المسلمين فقط، بل فعلوا ذلك ليمسخوا معناها الحقيقى عند العرب أنفسهم، ولينفسوا عن حقد ضد الإسلام تعلموه من زبانية الغزو الثقافى المسيطرين على تيارات الفكر فى بلادنا، إن عاطفة التدين تشد زناد النشاط الإنسانى بقوة، وتبلغ به أبعد الآماد.

وعندما يفقد المسلمون هذه العاطفة بتأثير الاستعمار الثقافى، وهم يقاتلون إسرائيل؛ فإنه يساوى حصول إسرائيل على الانتصار الكامل علينا.

على أننا لانطالب بالعودة إلى الإسلام لتكون هذه العودة إنقاذًا لسمعة العرب السياسية والعسكرية، واستردادًا لخسائر لم ينقطع إلى اليوم سيلها.

لا، إن هذه النتيجة المحققة سوف تجيء من تلقاء نفسها.

ولكننا نطلب العودة إلى الإسلام؛ لأن الإسلام حياتنا ورسالتنا، ومعاشنا ومعادنا، واختيار الله لنا، وتشريفه لماضينا ومستقبلنا.

كيـــف النجـاة؟

يجب أن يعلم اليهود أن ما يدَّعون من حق فى أرض فلسطين لا يقوم على سند دينى محترم، فهم لم يغيروا شيئًا من خلائقهم التى أحلت بهم سخط الله فى الدنيا والآخرة.

هم يعلمون أن لعنة الله تبعتهم وهم يفرون من بلد إلى بلد، فماذا صنعوا للخلاص منها؟

لاشىء، إنهم وراء جميع الأزمات الروحية والمادية التى تدوخ الجنس البشرى، وتميل به عن الصراط المستقيم.

والذين يختبئون وراء إسرائيل يعلمون أن الوجه الدينى لربيبتهم يخفى وراءه نيات سوداء للبشرية جمعاء.

والحق أن إسرائيل تجسيد لكل الأحقاد التى طفحت ضد العروبة والإسلام، وأن الأساس الوحيد لقيامها لا يُلتمس فى المشارق والمغارب، وإنما يُلتمس فى منطقة الشرق الأوسط هذه، أعنى قلب الأمة العربية.

إن تفريط العرب فى الإسلام، ونسيانهم لرسالتهم العظمى، وتحولهم إلى شعوب متعطلة متبلدة هو الذى خلق هذه المأساة.

إننا لم نخف الله فخوفنا الله بذباب الأرض.

وجعل الأقربين والأبعدين ينظرون بشماتة وازدراء إلى جراحاتنا التى لا ينقطع لها نزيف.

إن عشرات الدول الكبرى والصغرى نظرت إلى اللص يسطو على البيت، فانضمت إليه ضد رب البيت الذى شرع يدافع بدهشة ولهفة عن مسكنه.

إنه يدافع منتظرًا أى عون إنسانى من أولئك المتفرجين على المعركة.. وهيهات.

ولو تسللت إلى ضمائر هؤلاء المشاركين فى الهيئة الدولية؛ لوجدتهم يقولون: هذا اللص أولى من هذا المتخلف الذى يقطن الدار، إنها داره ولكنه لا يستحقها.

تلك هى سريرة عدد كبير من الدول التى تسخر من ضعفنا، وبالتالى تحكم علينا لا لنا.

والسبب؟

السبب نحن لا غيرنا، وذاك أرفق عقاب ينزله الله بأمة تخلت عن دينه، وأدارت ظهرها لتعاليمه.

وسوف يبقى الوضع كذلك حتى نذَّكَّر أننا مسلمون.

وأن الإسلام يفرض علينا تشكيل أوضاعنا السياسية والاقتصادية والخلقية والفكرية والاجتماعية والتشريعية على نحو آخر.

إننا نطلب العودة إلى الإسلام؛ لأن الإسلام حياتنا ورسالتنا، ومعاشنا ومعادنا، واختيار الله لنا، وتشريفه لماضينا ومستقبلنا.

فكيف نرتد على أعقابنا وننسى الرسالة العظمى التى آثر الله بها جنسنا ولغتنا، ورفع بها قدرنا وتاريخنا؟

ثم ماذا أفدنا من جحد الإسلام؟

الهزائم التى تسود بها الوجوه، والتى جعلت البغاث يستنسر بأرضنا، والتى حقرتنا عند أنفسنا وعند الناس.

ألا إنه لا يعترض العودة إلى الإسلام إلا أحد رجلين:

مرتد يكره هذا الدين، ويميل بهواه مع أعدائه الكثيرين فى الشرق والغرب.

أو جاهل يظن التمسك بالإسلام رجعية توصم بالتعصب، ويرى فى القومية المجردة طريقًا لبناء الدولة الحديثة بعيدًا عن الطائفية وشتى التهم.

فها نحن أولاء، ندور فى عاصفة تريد اقتلاع جذورنا، ومحو أوطاننا، فماذا كسبنا من هذه القومية الكافرة؟

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، لا نجاة للعرب إلا إذا ألقوا أنفسهم فى أحضان الإسلام.

عندئذ تطلع الشمس وتختفى الأشباح.

مخططون.. وغافلون

كان اليهود ومَن وراءهم يرون أن تكون قوة إسرائيل معادلة لقوى العرب أجمعين، أى قوى عشرين دولة أخرى، وذلك لضمان بقائها على تغير الأحداث، ولكن هذا التفوق الساحق أخذ طابعًا أقسى عندما تقرر أن تكون إسرائيل وحدها هى المالكة للقنبلة الذرية فى المنطقة كلها، إن ذلك لا يعنى التقدم اليهودى فقط، بل يعنى فرض صغار أبدى على العرب، يجعل أرضهم ورسالتهم ومستقبلهم تحت أقدام الصهيونية العالمية، ويجعل إسرائيل الكبرى قضاء مبرمًا لا فرار منه.

يقول «موشى ديان» أمام الغرفة التجارية الإسرائيلية ـ الأمريكية: على إسرائيل أن تؤمن نفسها بامتلاك السلاح النووى، وأن تنتج وحدها صواريخ أرض ـ أرض بعيدة المدى، إننا نملك الآن القدرة على تفجير الذرة، وذاك لابد منه لدولة صغيرة، ولنعلم أن الولايات المتحدة ليست شرطى العالم الذى يُستَنجد به، فلنعتمد على أنفسنا وحدها.

وقال أيضًا: على إسرائيل امتلاك الخيار الذرى حتى يعرف العرب أننا نستطيع تدميرهم إذا نشأ وضع أحسسنا معه أن دولتنا معرضة للخطر.

وفى لقاء لشارون مع الشيخ الأمريكى جون جلين والسفير الأمريكى صموئيل لويس سنة ١٩٨٢ قال شارون: إذا أقيم مفاعل نووى جديد فى العراق فسوف نهاجمه وندمره، ولن نسمح بوجود سلاح ذرى لدى جيراننا العرب، ولن ننتظر هذه المرة حتى يصبح المفاعل النووى العربى فى وضعه الساخن، ثم قال: لقد رسمت إسرائيل خطا أحمر للأسلحة التى تسمح للعرب بحيازتها، هذا أمننا، ولن نسمح لأى بلد عربى أن يعكره بامتلاك القنبلة الذرية.

إن اليهود ـ انبعاثًا من عقيدة توراتية راسخة ـ ماضون فى إقامة إسرائيل الكبرى بالسلاح الذى يفنى العرب كلهم إذا اقتضى الأمر، ولست متجافيًا عن الحق إذا قلت: إننى وسائر المسلمين نؤثر الموت المجهز على ترك إسرائيل تفعل ذلك، ونحن نرفض هذا المصير، وليكن ما يكون.

لقد نجح العراق فى بناء مفاعل نووى من عشر سنين، ثم استطاعت إسرائيل تحطيمه فى غارة جوية ضحك العالم بعد وقوعها، ولم يصنع شيئًا، وكان بين

العراق وبين صنع قنبلة جديدة عام ونصف كما يقول المحققون، ولكن حرب الخليج أجهزت على هذا السلاح قبل اكتماله.

ولست آسى على شيء كما آسى لما يصنع العرب بأنفسهم، إنهم ينتحرون قبل أن يشتبك العدو معهم، من قال من أهل الأرض: إن اليمن هى الطريق إلى القدس حتى يرسل الجيش المصرى إليها ليفقد خيرة قواته، فإذا وقعت حرب سنة ١٩٦٧ انهزمنا فى ست ساعات، وضاعفنا مساحة إسرائيل ثلاث مرات؟!

ومن قال: إن الكويت هى الطريق إلى القدس حتى يُستَدرج الجيش العراقى إلى غزوها والفناء فيها، ثم ترك تقدمه الذرى نهبًا فى أيدى الحلفاء؟!

إن مؤتمر السلام الحالى هو معالجة يائسة لآثار هذه الهزيمة المخزية.. إننى أتحدث وقلبى ينفطر، وعلى لسانى قول الشاعر القديم:

كفى حزنًا ألا أزال أرى القنا

تمج نجيعًا من ذراعى ومن عضدى

وإنى وإن عاديتهم.. وجفوتهم

لتألم مما عض أكبادهم كبدى

إن العرب يستطيعون أن يفعلوا الكثير، وأن يمحوا الغرور اليهودى، وأن يؤمِّنوا المسجد الأقصى، وأن يغيثوا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين أكلهم الذل داخل سجون إسرائيل، إنهم يستطيعون ذلك يوم يغيرون خططهم القديمة، ويفتحون صدورهم لمبادئ الإسلام وتوجيهاته، ويستهدون بالله فى حربهم وسلامهم.

ماذا يصنع العرب الآن؟ يقولون لليهود: نترك لكم ما أخذتم سنة ١٩٤٨ وتردون لنا ما أخذتم سنة ١٩٦٧، ويجيب اليهود: لا لن نترك من «أرضنا» شيئًا!

إن تفاوضنا حين يدور مع اليهود على هذا المحور، إن دل على شيء فعلى أن العرب منهزمون نفسيًا، وأنهم يجهلون طبيعة المعركة القائمة، وأنهم لاينبعثون عن صلة بالله الذى اصطفاهم لرسالته، واختار لهم الإسلام دينًا.

هم بنو إسرائيل، فبنو مَن نحن؟

أصغيت بانتباه إلى إذاعات عربية كثيرة شاركت فى الاحتفال بـ«يوم الأرض» وهو يوم حزين يخرج فيه عرب فلسطين المحتلة ليحيوا ذكرى شهدائهم الذين قاوموا الاغتصاب اليهودى لترابهم الوطنى، هذا الاغتصاب الذى تحول إلى اجتياح مسعور بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م، وشعرت بالسخط وأنا أسمع ما قيل من شعر ونثر، إذ كان المتحدثون يؤكدون عروبة فلسطين؛ لأن الكنعانيين هم أصحابها الأوائل، والكنعانيون والعدنانيون والقحطانيون جميعًا عرب، أما بنو إسرائيل فهم طارئون غرباء، وحاولت أن أتسمع معنى آخر يربطنا بأرضنا فلم أرجع بطائل، ما تحدث أحد عن الله ورسوله ﷺ، ما تحدث أحد عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وتسلمه الأرض من النصارى لا من اليهود، ما تحدث أحد عن أصلنا الدينى وتاريخنا الإسلامى، ما تحدث أحد عن انتهاء الدور الروحى والحضارى لليهود وبزوغ رسالة أخرى بعيدة عن الأثرة والحقد، ما تحدث أحد عن أن وظيفة الهيكل وكونه مسكنًا للرب قد ألغيت وأن الوظيفة الجديدة هى لمسجد يصيح فى أرجاء العالمين: الله أكبر.. كان التنادى بالعودة إلى الأرض وحق أبناء كنعان فى وراثتها، إن دوران المعركة على هذا المحور هدف استعمارى انزلق إليه العرب فى محنتهم النفسية والعسكرية، ولن ينالوا من ورائه خيرًا، فاليهود يديرون المعركة على أساس دينى بحت، ويستقدمون أتباع التوراة من المشرق والمغرب قائلين: تعالوا إلى أرض الميعاد، تعالوا إلى الأرض التى كتبها الله لأبيكم إبراهيم كما أكد العهد القديم.

فى تقرير لـ «فرانس برس» نشرته صحيفة «الراية القطرية» ١٩٨٢/٥/٢م تحت عنوان «مستوطنون باسم التوراة» التقى الكاتب بنفر من اليهود فى المستعمرات التى أنشأوها، وتحدث معهم ليستكشف سرائرهم وأسباب مجيئهم، ومدى حرصهم على البقاء مع المقاومة العربية المتصلة، قال «هارون» الذى يقيم فى مستعمرة «أوفرا» من خمس سنين: «إننى أمتلك ما لدى باسم التوراة، واعتراضات العرب لاوزن لها» ويبلغ هارون من العمر ٤٠ سنة، وهو يضع مسدسًا فى حزامه، ويوالى حركة «جوش أمونيم» كتلة الإيمان الدينية المتطرفة،

والواقع أن الاتجاه الذى يمثله هو الغالب على جمهور المستوطنين الإسرائيليين، وفى «كريات أربع» وهى مستعمرة بجوار مدينة الخليل يؤكد «شالوم» - عمره ٣٣ عامًا - ما ينتويه فيقول: «إن اهتمامى الرئيسى منصب على عودة الشعب اليهودى للإقامة بأرضه، وإذا كان العرب يرون أن نصوص التوراة ليست سببًا كافيًا لحق الملكية فليست هذه مشكلتى»، وتقول «مريم لوينجر» وهى قرينة حاخام يهودى مشهور: «إن علينا أن نطيع أوامر الله الذى طلب منا العودة إلى الأرض المقدسة، وهى تقيم مع أحد عشر ابنًا لها وسط مدينة الخليل العربية على أنقاض معبد قديم». ويقول هارون وشالوم ومريم جميعًا: «إن أمام العرب الفلسطينيين متسعًا فى الدول العربية المجاورة، فليهاجروا إليها»، ويقول كاتب التقرير: «إن حدود إسرائيل - كما يرسمها هؤلاء - أبعد من الحدود الحالية، فإسرائيل المذكورة فى التوراة تشمل جانبًا كبيرًا من لبنان، ودولة الأردن كلها، وشبه جزيرة سيناء حتى قناة السويس.. والمستوطنون مسلحون جميعًا بالمسدسات أو المدافع الرشاشة، ولهم فرق حراسة تدور حول المستعمرات ليلاً ونهارًا».. وختم الكاتب تقريره بهذه العبارات على لسان «هارون»: «لقد صاح وهو يطل من النافذة ويشير إلى مزارع الفاكهة: هذا البلد ملك لنا، عندما وصلنا هنا لم تكن توجد إلا تلال وحجارة، لقد خضرنا الصحراء، ولقد ساعدنا الله منذ ألفى عام ولن يمتنع عن ذلك فجأة، بل سوف يساعدنا على حل مشكلاتنا مع العرب».

أرأيت أيها الأخ فلسفة القادمين الجدد، وأحاديثهم السرية والعلنية؟ الله ومواعيده لشعبه المختار، التوراة والحدود التى رسمتها، حق التملك للأرض باسم الدين اليهودى، وجهود البناء والتعمير، ليكن العرب أبناء كنعان أو قحطان، فليعيشوا بعيدًا عنا، وما يقوله رجل الشارع العادى هو ما يردده رئيس الوزراء المسئول، فكيف برب الأرض والسماء يصرخ القوم بانتمائهم وننسلخ نحن من هذا الانتماء مؤثرين عليه انتماء عرق لايقدم ولا يؤخر؟! وعندما يتكلم السياسى اليهودى رافعًا بيمينه كتابه المقدس، فهل يسكته سياسى عربى يستحى من كتابه، ولا يذكره فى محراب ولا فى ميدان؟!

الزحف اليهودى لايوقفه إلا الإسلام

نريد أن نلقى الضوء على بنى إسرائيل أو اليهود، والحديث عن بنى إسرائيل له مصادر كثيرة، ولكن المصدر الذى نأنس إليه، ونعتمد عليه، ونعتقد أنه تضمن جملة الحقائق الأولى والأخيرة فى هذا الموضوع هو القرآن الكريم، فإن هذا القرآن حكى عن ماضى بنى إسرائيل ومستقبلهم ما يكفى ويغنى، وفى هذا يقول الله جل شأنه:

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

والنزاع بين العرب والمسلمين وبين اليهود قد يطول سنين عددًا لا نعرف مداها، ولاندرك بالضبط متى تنتهى الحرب بيننا وبينهم، لكننا ندرك عن يقين جازم أن هذه الحرب تتوقف بقدر ما يثوب المسلمون إلى رشدهم ويعودون إلى دينهم، فإذا رجع المسلمون مساء اليوم إلى دينهم؛ فإن هذه الحرب تنطفئ صباح الغد، وإذا رفض المسلمون اعتبار قضية فلسطين إسلامية، وإذا خجلوا من الانتساب إلى الدين، وإذا بعدت الشقة بينهم وبين الإسلام، وإذا استمرأ الشيطان إنامتهم والضحك منهم؛ فإن هذه الحرب لن تنتهى، بل ربما قامت لإسرائيل إمبراطورية من الفرات إلى النيل كما يأملون، والسر أن الحرب الدائرة الآن يديرها الطرفان بعقلية تستحق الدراسة والتأمل، فأما عقلية اليهود فى إدارة هذه الحرب فواضحة، هم يعتقدون أن الكون والشمس والقمر خلق من أجل الأرض، وأن الأرض خلقت من أجل بنى آدم، وأن بنى آدم خلقوا من أجل اليهود، وأن اليهود هم الجنس المقدس، والشعب المختار، والأمة السيدة الموهوبة التى ينبغى أن يحنو الناس لها، وأن يخضعوا لسلطانها، وبناء على هذا الفكر فإنهم يعتبرون عودتهم إلى فلسطين وصلاً للماضى الذى انقطع، وإحياء للتاريخ الذى تجمد أو توقف، وهم يريدون أن يقيموا ـ كما يقولون ـ «مملكة يهوه» التى يحكمون بها الناس لحساب رب إسرائيل وبنى إسرائيل. فالحرب فى همهم وعزمهم وحركاتهم وسكناتهم حرب دينية تمدها أفكار واضحة فى أدمغة القوم، ومشاعر مرتبة فى أنفسهم وأفئدتهم، وهم ماضون فى هذا الطريق إلى نهايته، بداهة استطاعوا بما

يعطيه الدين من تعصب، وما يعطيه من رغبة فى النفقة، ورغبة فى البذل، وقدرة على التحمل، استطاعوا بهذا كله أن يكسبوا كل المعارك التى خاضوها ضدنا، وبديهى أن ينضم إليهم الحاقدون على الإسلام من المستعمرين الذين هاجموا الأمة الإسلامية فى الحروب الصليبية الأولى، انضموا إليهم أخيرًا وتشابكت أذرع الجميع فى كيل اللطمات لنا ونيل ما يبتغون منا.

العقلية التى أدارت الحرب ضدنا هذا وصفها، أما نحن فإن عددًا كبيرًا من الناس رفض رفضًا باتًا أن يصف الهجوم اليهودى على أرضنا بأنه هجوم دينى، وقال: إنه هجوم سياسى، وهذا الكلام كلام غريب؛ لأنه يعتمد على جهل مطلق، هؤلاء الذين أقاموا بعض القيادات الفكرية فى بلادنا صوروا الحرب - عن عمد - أنها حرب سياسية، وأن الدين لا دخل له فى هذه الحرب، فإذا سألتهم: أتعرفون شيئًا عن اليهودية؟ قالوا: نعم نعرف، درستم العهد القديم وقرأتم فيه كيف وضعت خريطة إسرائيل الممتدة من الفرات إلى النيل، وكيف قيل لبنى إسرائيل: إن هذه أرضكم ويجب أن تأخذوها؟ درستم هذا؟ لا. قرأتم بعد العهد القديم التلمود؟ لا.. قرأتم تاريخ اليهود أولاً فى العهود القديمة، ثم فى العهود الوسيطة؟! لا. فإذا كنتم جهالاً فما الذى يجعلكم تفرضون على الناس جهلكم؟.. تصور رجلاً يقول لك: أنا عالم بالإسلام، فإذا قلت له: تعرف القرآن؟ قال: لا. تعرف السنة؟ قال: لا. تعرف الفقه الإسلامى؟ قال: لا.. فما علمك بالإسلام؟.. لكن القيادات الفكرية الغبية فى العالم العربى فرضت نفسها وأقنعت ولاتزال تقنع العرب أن الحرب التى يواجهونها حرب سياسية أو استعمارية أو ما إلى ذلك من عناوين مكذوبة، وهم قد عرفوا الآن كيف كانوا أغبياء، وأدركوا - وأرجو ألا يفوت الوقت ليدركوا - أن الحرب الدينية التى أدارها أعداؤنا بروح دينية يجب أن يقف بإزائها الإسلام يحتل الجبهة المقابلة ويبدأ يقاوم ويفرض نفسه.

شىء آخر قاله بعض الصغار من المرتزقة فى ميدان الإعلام، قالوا: إن إسرائيل ألعوبة فى أيدى الاستعمار؛ ليضرب النظم التقدمية فى العالم العربى، وهذا أسخف، فإن إسرائيل قسمت المملكة الأردنية وأخذت نصفها، كما أخذت سيناء، وهى ضعف مساحة الوجه البحرى، وأخذت مرتفعات الجولان، وكان النسر يتعب لكى يصل إلى هذه المرتفعات، أخذ اليهود كل هذا دون مقاومة تذكر، ودون بذل أو تضحية تسند المدافعين وتعلى شأنهم.

إن النظم العلمانية يوم تُطَلِّق الإسلام وترفض مبادئ العلم والإيمان؛ فإن هذه النظم فى الحقيقة تكون عميلة لإسرائيل، بل إن إسرائيل إنما أقامها «وعد بلفور» وبعض الزعماء العرب الذين كرهوا الإسلام هم الذين شاركوا فى إقامة ملك إسرائيل العريض الآن.

لابد أن تعرف الأمور.

هـــدف العـــدوان اليهـــودى

إن النصرانية تؤيد قيام إسرائيل، وترى عودة اليهود إلى فلسطين معجزة للكتاب المقدس وآية تشهد بصدقه، وقد نبه «وايزمان» فى مذكراته إلى هذا، وقال: «إن لورد بلفور وغيره من الوزراء الإنجليز كانوا يعبدون الله حين أصدروا إعلان الوطن القوى، وكانوا يمثلون الإيمان المسيحى».

هل أقول: إن العرب لا يقرأون، وإنهم يجهلون ذلك حقًّا؟ ما أظن.. الواقع أن العرب فتنهم الغزو الثقافى وحسبوا أن الوطنيات أو القوميات الحديثة تخلت عن عقائدها الأولى، فتزحزحوا عن قواعدهم، وفرطوا فى دينهم، على حين بقى خصومهم بمشاعر القرون الأولى، ولو حدث بالفعل أن غيرنا نسى دينه أو تناساه، فهل ذلك عذر للكفر والفسوق والعصيان؟ إن قضية فلسطين خاصة يستحيل تجريدها من طابعها الدينى، والقول بأنه يجب طرد المستعمرين اليهود من بلادنا، كما يجب طرد المستعمرين البيض من جنوب إفريقيا، وأن كلا النظامين يقوم على نزعة عنصرية، هذا الكلام تغطية سخيفة لحقائق مرة.

إن العدوان اليهودى المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة هى: إبادة أمة وإزالة دين، هى الإجهاز على الأمة العربية التى حملت الإسلام أربعة عشر قرنًا، وتريد أن تظل عليه شكلاً إن تركته موضوعًا، والذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين يشاركون فى تحقيق هذه الغاية؛ لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامى زائلة، والعرب من بعدها زائلون، والمسلمون بعد زوال العرب منتهون، وهذه هى الخطة.

إن ذهاب العرب بأنفسهم وشموخهم بجنسهم وحديثهم عن حضارة كنعان وقحطان وعدنان - إن كانت لهم حضارة - إن ذلك يطعن الأخوة الإسلامية طعنة نافذة، فإذا انضم إلى هذا الغرور نسيان لفضل الإسلام وبعض لنشاط عصرى جديد يقود العروبة فيه الشيوعيون والنصارى والمسلمون، فذاك هو الارتداد الذى ينتهى بالعرب إلى مصارعهم، ويحولهم أجمعين لاجئين لا وطن ولا دين.

إننى مسلم عربى تخيلت أن واحدًا من إخوتنا التركستانيين جاء يعاتبنى

قائلاً: يا أخا العرب لقد نجدناكم فى محنتكم باسم الإسلام وحده، تدرى متى وقع ذلك؟ عندما سقطت بغداد تحت أقدام التتار، وقتلت الخلافة والخليفة معًا، وأطبق الظلام على كل أفق، وانطلق التتار وأمامهم إشاعة أن جيشهم لايقهر.. عندئذ تحرك رجلنا «قطز» ووقّف الفارين وثبَّت المذعورين، وتحت صيحاته المخلصة الجريئة «وا إسلاماه» دحر التتار فى «عين جالوت»، وظل يطاردهم حتى بدد جموعهم، فلم تقم لهم بعد قائمة.. ألا تذكر ذلك؟

قلت: أذكر ذلك ولا أنساه.

قال: لا أحدثك عن خدماتنا الثقافية للكتاب والسنة، إن أئمة الحديث منا، وعلى قمتهم أميرهم أبوعبدالله البخارى، وأئمة المفسرين منا وفى طليعتهم الرازى والزمخشرى.

قلت: ما ننكر فضلكم على العلوم الإسلامية.

قال: بل نسيتمونا كل النسيان، وتركتمونا وحدنا نقاتل روسيا القيصرية حتى احتل الصليبيون أرضنا، وعندما نجحنا فى الخلاص من القياصرة تركتمونا نقاتل روسيا الشيوعية حتى قهرتنا، وكسرت شوكتنا، واعتبرت أرضنا جزءًا لايتجزأ من الاتحاد السوفيتى، ما بكيتم قتلانا، وما أيدتم مجاهدينا، ولا تحدثتم عن قضايانا، وأظلكم صمت عجيب، لم هذا العقوق؟ لم هذا الكنود؟ ماذا أقول؟ وبم أجيب؟ إن احتباس العرب فى نطاق مآربهم الخاصة رذيلة منكورة، واهتمامهم بقضاياهم وحدها أنانية مرذولة. فى الحرب العالمية الأولى انضمت الثورة العربية الكبرى إلى الإنجليز، وقاتلت الأتراك، وتسببت فى هزيمتهم، فماذا جنى العرب؟ أعطى الإنجليز فلسطين وطنًا لليهود، وسقطت الخلافة التى رفضت أيام عبدالحميد بيع فلسطين بالقناطير المقنطرة من الذهب، ووقعت وحشة هائلة بين الترك والعرب انتهت بارتداد الحكم التركى عن الإسلام، أما نتقى الله فى ديننا ورسالتنا بعد هذه النتائج الرهيبة ونستمسك بالإسلام الذى شرفنا الله به، ونجعل الولاء له بعد ما تبين شؤم ما عداه؟

فى حمى اعتزاز العرب بقوميتهم وقع تزوير مثير فى دراسة التاريخ فسمى البطل الكردى المسلم «صلاح الدين الأيوبى» بحامى القومية العربية، والرجل الضخم لم يكن يعرف قومية لا عربية ولا كردية، كان مسلمًا فقط، وفى حفل تم منذ فترة وقعت مشادة بينى وبين أحد السفراء العرب لأنه يريد جعل

«صلاح الدين» بطلاً عربيًا.. ولولا تدخل العقلاء لوقع مالا نحمد عقباه، ومن ربع قرن اعتلى شيخ كبير منبر المسجد الأقصى، وخطب الناس قائلا: أيها العرب.

وغضب المصلون لهذا النداء، فما كانوا يرتقبون إلا النداء التقليدى العظيم: أيها المسلمون.

إن إبعاد العرب عن الإسلام خيانة وطنية، إلى جانب أنها ردة دينية، والذين يمضون فى هذا الطريق يخدمون الصهيونية والصليبية والشيوعية:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

مهزلة الفصل بين العروبة والإسلام

إن اليهود يعرفون كما نعرف أن فلسطين لم تكن خالية من سكانها يوم دخلوها فاتحين باسم التوراة، كان الكنعانيون يحيون فى هذه الربوع التى فاضت عليهم سمنًا وعسلاً، وكانوا أصحاب تفوق مدنى وعسكرى أغراهم بالترف والعبث والجبروت، وكانوا مرهوبين يخشى الناس بطشهم، أو التعرض لهم.

فلما خرج موسى - عليه السلام - وقومه من مصر واحتوتهم سيناء، قيل لهم: ادخلوا فلسطين فسيناء معبر إليها، ففزع اليهود من هذا التكليف وخشوا مقاتلة أهلها يومئذ، وقالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾ [المائدة ٢٢]، وهذا الرد يقطر جبنًا، فإن الكلاب والقطط تدخل بلدًا خرج منه أهله، أى شجاعة فى هذا الموقف؟

وحاول موسى وبعض الصالحين تشجيع بنى إسرائيل على الهجوم، فقالوا فى إصرار: ﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة ٢٤].

وغمت الأقدار على بنى إسرائيل أرض سيناء، فظلوا يتيهون فيها أربعين سنة، هلكت خلالها الأجيال الجبانة، ونبت جيل أنظف، ولكن بعدما مات موسى، وقاد القوم يوشع الذى دخل فلسطين بعد قتال شديد مع جبابرتها الأولين، وتحكى الكتب القديمة أن يوشع فى إحدى معاركه طلب من الله أن يتم له النصر قبل غروب الشمس فأخر الله الغروب، وكانت الشمس أذنت به حتى تم له ما أراد.

ودخل اليهود فلسطين، وأقاموا لهم دولة مكثت قرابة قرنين، فماذا فعلوا؟ أضحوا شرًا من سلفهم الذاهب، وملأوا الأرجاء خبثًا وسفكًا وفتكًا، وقتلوا الأنبياء المختارين، والأئمة المقسطين، فحكم الله عليهم بالطرد والذل، وتوارث الأقوياء نبذهم وتشريدهم.

فلما دخل المسلمون بيت المقدس فى الشروق الإسلامى الأول كانت العاصمة العتيقة فى أيدى الرومان، وكان دخولها محرمًا على اليهود، وأقبل أمير المؤمنين

عمر ـ رضى الله عنه ـ من جوف الصحراء يتألق جبينه شعاع الوحى الخاتم، وتمشى فى خطاه معالم التوحيد الحق.

قال التاريخ: كان التواضع المذهل يكسو موكبه البسيط، وكان الرجل الذى قوض صرح الدولتين العظيمتين فى العالم يتحرك مطرق الطرف خاشعًا لله فوق رحل رث وبين حاشية مستكينة، يقول بصوت رهيف: كنا نحن العرب أذل الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العز فى غيره أذلنا الله، ولم يقل عمر ـ رضى الله عنه ـ : الويل للمغلوب.. بل أمّن النصارى على كنيستهم، وقرر حرية العبادة، ثم شرع يرسى قواعد الدولة الجديدة على التقوى والعدالة والمرحمة. شرف العروبة فى هذه الدولة ذوبانها فى إعلاء كلمة الله، حتى جاءت هذه الأيام النحسات، فإذا ناس من العرب ينسون عمر والإسلام، والتاريخ كله، ويقولون: نحن أبناء كنعان، مسحورين بالاستعمار العالمى الذى ألغى الدين وجعل مكانه الوطنية أو القومية، وبقى أن يقول بعض العرب: نحن أبناء عاد، وأن يقول بعضهم: ونحن أبناء ثمود، وفى الوقت الذى يتعرى العرب فيه عن دينهم ويحيون مكشوفى السوأة يتسربل اليهود بعقيدتهم ويصرخون بحماس هائل: نحن أبناء التوراة وأولاد الأنبياء، نحن بنو إسرائيل.

هل نعى الدرس؟

القرآن الكريم يوضح بجلاء دعاوى اليهود وموقف المسلمين منهم، إن اليهود ادعوا أنهم شعب مختار وأنهم جنس مقدس، الله جل شأنه خلق الناس قاطبة، ولم ينشئ علاقة خاصة بينه وبين جنس من الأجناس.. «كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب» فإذا كان قد شرف شعبًا فى بعض العصور أو رفع قدر أمة فى بعض الأزمنة، فإن ذلك لما تمثل من حقائق الإيمان، ولما تبذل فى الدفاع عن العقائد الصحيحة والفضائل الواجبة.

إذا كان القرآن قد حمد لبنى إسرائيل - قديمًا - بعض مواقف الخير وقال فيهم: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فإنهم اختيروا أو فضلوا على عالم زمانهم، والسبب: أنهم دعوا إلى التوحيد فى دنيا مليئة بالوثنية، وتحملوا فى سبيل ذلك تضحيات شتى.. ولكنهم لما جحدوا رسالتهم، وفجرت مسالكهم، وفشا عدوانهم سقطوا من عين الله ووقع لهم ما وقع، وهذا كلام يحتاج إلى تفصيل.

عندما كانوا قديمًا فى هذا الوادى ووقع عليهم من العذاب ما وقع يحكى القرآن الكريم هذا الحوار: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ ماذا كان رد بنى إسرائيل على موسى - عليه السلام - لما قال لهم هذه الكلمة: ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾؟ كان الرد هكذا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ فكان جواب موسى: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾، فإذا أهلك الله عدوًا واستخلف بعده من شاء من الشعوب فإنه لا يستخلف هذه الشعوب لتفعل ما تريد، لا بل لينظر ما تفعل، فإن كان خيرًا باركها، وإن كان شرًا لعنها.

هذا الكلام يقال لبنى إسرائيل فى وضوح كما يحكيه القرآن الكريم - أوثق الصحائف التى امتلأت بالوحى الإلهى وظلت معصومة من الانحراف والخطأ حتى هذا القرن وما بين السماوات والأرض، ولم يوجد كتاب فى القارات الخمس يمكن أن تقول وأنت واثق موقن: إن هذا وحى الله إلا هذا القرآن - هذا الكلام منصف: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

هذا الكلام الذى حكاه رب العالمين فى صدد بنى إسرائيل تسمع نظيرًا له بالنسبة إلى الأمة الإسلامية، فإن الله يقول للمسلمين: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ نفس الكلام الذى قيل لبنى إسرائيل قيل للمسلمين، إن الله لا يحابى ولا يظلم، وهو ينظر للشعوب ماذا تصنع؟ ثم يصنع بها ما تستحق: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

ماذا فعل بنو إسرائيل؟.. نذكر نماذج قليلة مما فعلوا، لنرى على ضوء هذه النماذج ماذا فعلنا نحن؟ ثم ندرك أبعاد النزاع القائم بيننا وبين غيرنا، إن الله يحب لعباده أن يعيشوا آمنين مكفولى الحرية، مصونى الدماء والأعراض والأموال، حقوقهم فى ضمانات موثقة لا يجرؤ أحد على العدوان عليها.. تستوى فى هذا جميع الأمم. عندما أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل - رضى الله عنه - حاكمًا قال له: «**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»، قال العلماء: والمظلوم هنا ناس ليسوا بمسلمين.. فدعوة المظلوم ولو كان كافرًا يستمع الله لها، فكيف إذا كان المظلوم مؤمنًا؟ لذلك فإن الله جل شأنه أخذ المواثيق على الأمم القديمة والحديثة ألا تظلم، ألا تسجن أحدًا دون سبب، ألا تخرج أحدًا من داره وتنتزعه من بين أهله دون علة واضحة، يقول الله بالنسبة إلى بنى إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

هذه المواثيق أخذت على من قبلنا وتؤخذ علينا؛ لأن الله يقول لنا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

لكن بنى إسرائيل فى تاريخهم أكل بعضهم بعضًا، ظلم بعضهم بعضًا، اعتقل بعضهم بعضًا، أسر بعضهم بعضًا، سجن بعضهم بعضًا، فعوقبوا، والأمة العربية تعاقب الآن؛ لأنها خرجت على مواثيق السماء، وابتعدت عن هدايات الله، عوقبت بمثل ما عوقب به بنو إسرائيل، فهل نعى الدرس ونثوب إلى رشدنا ونعود إلى ديننا قبل فوات الأوان؟

لا عروبة بدون إسلام

لابد أن ندرك أن الله لا يحابى شعبًا، هذه حقيقة، وعندما قال اليهود والنصارى: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ رفض القرآن هذا: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ ونحن المسلمين بشر ممن خلق، إن ظلمنا عوقبنا، إن أسأنا ابتعد الإحسان عنا، يجب أن نعقل: الأمة اليهودية أخذ عليها أنها ظنت أنها شعب مختار، لماذا؟ لا اختيار هنالك، الاختيار أن ترشحك مواهبك لعمل، فإن قمت به كنت أهلاً للتكريم والتبجيل، وإن سقطت عنه كنت أهلاً للطرد والإبعاد، هذه سنة الله، فعندما ظن اليهود أنهم أولاد يعقوب، وأن هذا النسب فخر ذاتى، رفض الله هذا منهم.

وعجب من فعلهم عندما قال لنا نحن المسلمين وهو يحكى ما فعل هؤلاء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، رفضوا أن يحكم الله فى خلقه! رفضوا أن يحكم الوحى فى شئون الناس، رفضوا أن تكون شرائع السماء أساسًا لإصلاح الأرض! ماذا تريدون؟!

نختلق نحن أحكامًا، نبتدع نحن قوانين، نشرع من عندنا قضاء، أما ما فعل الله وشرع فإن هذا لا خير فيه، لا أثر له، هذا شيء رجعى ينبغى الخلاص منه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، هل هذا صحيح؟ إن هذا الذى قاله اليهود قال مثله المسلمون، فهم يعتقدون أن أمة محمد بخير، وأن أمة محمد لا تعذب، وأن أمة محمد من حقها أن تهمل قرآن محمد وسنة محمد ﷺ، ثم تنال الجنة؟ لماذا؟ وبأى حق؟!

هذا غير صحيح: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

كلمة «نفس» تعنى البشر عرايا من كل نسبة، عرايا من كل زعم ولون، الناس يعودون إلى ربهم بشرًا، نفوسًا، وبقدر ما زكى الإنسان نفسه بالتقوى ينجو، وبقدر ما أهانها يكبو، لكن الشعب المختار الذى ظن أن انتسابه للأنبياء يعطيه حقًا سقط من عين الله ولعِن، وجاء بعده الآن من يقولون: نحن عرب، ويملأ فمه بكلمة «عرب» و«نحن دعاة القومية العربية».

فمن أنتم؟ إن كنتم مسلمين فذا كتاب الله وتلك سنة رسوله ﷺ، وكما قال القائل:

أبـــــى الإســــــلام لا أب لى ســــــواه

إذا افــــتـــخـــــروا بـــقـــيس أو تميـــم

ما معنى أن أنتسب لعروبة ترفض الإسلام، وتكره الإيمان، وتحقد على رسول الله محمد ﷺ وتأبى العودة إلى سنته، وتأبى التشرف برسالته؟ بداهة هذا الذى صنعه بعض الناس بيننا فى الأمة العربية الكبرى هو الذى صنعه اليهود عندما غضب الله عليهم وقال فيهم ما قال.. ماذا قال؟.. قال: إن هناك أذكياء أو علماء تغلبهم الشهوات والأهواء ويتدلون فى طلبها، فهم بالنسبة إلى الأقذار التى يرعونها، والمآرب الخسيسة التى يحتبسون فى إطارها أشبه بالخنازير التى تحيا على القمامة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾.

إن اليهود عادوا إلى فلسطين، الحقيقة أنهم لم يعودوا بقواهم الذاتية قدر ما عادوا؛ لأن المسلمين شحبت وجوههم، وغاضت منابع الإيمان فى تربتهم، وانقطع تيار الإيمان الذى يمدهم بالقوة، فلما جاء اليهود وانتصروا، لم يكن انتصارهم فخرًا لهم بقدر ما كان هذا الانتصار خزيًا لنا.

إن اليهود فى كتابهم الذى يدرسونه الآن - وهو العهد القديم - لايمثلون شيئًا إطلاقًا مما تشتاق إليه الإنسانية، ما الذى تشتاق إليه الإنسانية؟

تشتاق الإنسانية إلى محراب واسع تلتقى فيه ألوان البشر أمام رب واحد تسبح بحمده، وتهتف بمجده، وتركع وتسجد فى ساحته، وتستمد الهدى منه، ويعلم كل إنسان أن الله هو الذى يدينه يوم الدين، وأن البر لايبلى، وأن الذنب لا ينسى، وأن الديان لا يموت.

نظـــرة جـديـــدة

هناك عظماء كثيرون، يقرأ الناس قصص حياتهم؛ ليتأملوا عناصر النبوغ فيها، وليتابعوا بإعجاب مسالكهم فى الحياة، ومواقفهم إزاء ما يعرض لهم من مشكلات وصعاب، وقد تكون هذه القراءة المجردة هى الرباط الفذ بين أولئك العظماء ومن يتعرف عليهم، وربما تطورت فأصبحت دراسة عميقة أو صلة إنسانية وثيقة، وأبادر إلى القول بأنى أنظر إلى صاحب الرسالة العظمى محمد بن عبدالله، صلوات الله وسلامه عليه، وفى نفسى هذا المعنى المحدود، فأنا رجل مسلم عن علم، أعرف لماذا آمنت بالله رب العالمين، ولماذا صدقت بنبوة محمد ﷺ، ولماذا تبعت الكتاب الذى جاء به، بل لماذا أدعو الآخرين إلى الإيمان بما سكنت إليه نفسى من هذا كله، وقد سبق لى أن كتبت فى السيرة فصولاً منوعة، وهل ابتعدت عنها فى شىء مما كتبته؟ إن الرسائل التى عالجت فيها بحوث العقيدة والخلق والمعاملة والحكم اعتمدت على سيرة النبى الكريم فى كيانها وسياقها.

إن المسلمين الآن يعرفون عن السيرة قشورًا خفيفة، لا تحرك القلوب ولا تستثير الهمم، وهم يعظمون النبى وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان، أو بما قلت مؤونته من عمل، ومعرفة السيرة على هذا النحو التافه تساوى الجهل بها، إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة، ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض فى أكفان الموتى، إن حياة محمد ﷺ ليست بالنسبة للمسلم مسلاة شخص فارغ أو دراسة ناقد محايد، كلا كلا، إنها مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفيها، ومنبع الشريعة العظيمة التى يدين بها، فأى حيف فى عرض هذه السيرة، وأى خلط فى سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه، ومحمد ﷺ ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن. ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان، ولا إكنان حبه يكون بتأليف مدائح له أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون، فرباط المسلم برسوله الكريم ﷺ أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين، وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير

فى الإبانة عن تعلقهم به إلا يوم أن تركوا اللباب الملىء وأعياهم حمله، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال، ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام، فقد افتتنوا فى اختلاق صور أخرى، ولا عليهم، فهى لم تكفهم جهدًا ينكصون عنه، إن الجهد الذى يتطلب العزمات هو فى الاستمساك باللباب المهجور، والعودة إلى جوهر الدين ذاته، فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم، ينهض المرء إلى تقويم نفسه وإصلاح شأنه، حتى يكون قريبًا من سنن محمد ﷺ فى معاشه ومعاده، وحربه وسلمه، وعلمه وعمله وعاداته وعباداته، إن المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره، ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره، لا يغنى عنه أبدًا أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة، وأريد هنا أن أنوه إلى ضرورة الفصل بين الجد والهزل فى حياتنا، ولا بأس أن نجعل للهو واللعب وقتًا لا يعدوه، وللجد والإنتاج وقتًا لا يقصر عنه، أما تحويل الإسلام إلى غناء، فيصبح القرآن ألحانًا عذبة، وتصبح السيرة قصائد وتواشيح، فهذا ما لا مساغ له وما لا يقبله إلا الصغار الغافلون، وقد تم هذا التحويل على حساب الإسلام، فانسحب الدين من ميدان السلوك، والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب، وحق فيمن فعلوا ذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ وتحول القرآن إلى تلاوة منغومة فحسب، يستمع إليها عشاق الطرب، هو الذى جعل اليهود والنصارى يذيعونه فى الآفاق وهم واثقون أنه لن يحيى موتًا، وتحول السيرة إلى قصص وقصائد غزل! وصلوات مبهمة جعل الاستماع إليها كذلك ضربًا من الخلل النفسى الناشئ - فى نظرى - من اضطراب الغرائز وفساد المجتمع، وخير من هذا كله أن يستمع طلاب الغناء إلى اللهو المجرد والألحان الطروب، فإذا ابتغوا العمل الجاد المهيب طلبوه من مصادره المصفاة، قرآنًا يأمر وينهى، ليفعل أمره ويترك نهيه، وسنة تفصل وتوضح، ليسار فى هديها وينتفع من حكمتها، وسيرة تنفح روادها بالأدب الزكى، والقواعد الحصيفة، والسياسة الراشدة، وذلك هو الإسلام.

إن أعداء الإسلام تمكنوا فى غفلة أهله أن يصدعوا بناءه ويجعلوه أنقاضًا، فكيف يترك تراث محمد نهبًا للعوادى، وكيف يمهد للجاهلية الأولى أن تعود، وكيف يقع هذا التبدل الخطير فى سكون، بل فى مظهر من الحب لرسول الله ﷺ؟ ليفقه المسلمون سيرة رسولهم، وهيهات أن يتم ذلك إلا بالفقه فى الرسالة نفسها، والإدراك الحق لحياة صاحبها، والالتزام الدقيق لما جاء به، ألا ما أرخص الحب

إذا كان كلامًا، وأغلاه عندما يكون قدوة وزمامًا، والظلام الذى ران على الأفئدة والعقول فى غيبة أنوار التوحيد طوى فى سواده أيضًا تقاليد الجماعة، وأنظمة الحكم، فكانت الأرض مذأبة يسودها الفتك والاغتيال، ويفقد فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة، وأى خير يرجى فى أحضان وثنية كفرت بالعقل، ونسيت الله، ولانت فى أيدى الدجالين، لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء فى الحديث: «إن **الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»، هذه البقايا هى التى ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذى طم البقاع والتلاع، لقد عمت الدنيا قبل بعثة محمد ﷺ حيرة وبؤس، ناءت بهما الكواهل.

أتيتَ والناسُ فَوْضَى لا تمرُّ بِهِمْ
إلا علَى صنمٍ قد هام فى صنمِ
فعاهلُ الروم يَطْغَى فى رعيّتِه
وعاهلُ الفُرسِ مِن كِبْرٍ أصمُّ عَمِي

حتى تأذّن الله ليَحُسَّنَّ هذه الآثام، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام، فأرسل إلى الأمة محمدًا عليه الصلاة والسلام.

الوثنيـــة تســـود الحضـــارات

إن تاريخ الحياة مؤسف.. منذ هبط آدم - عليه السلام - وبنوه إلى الأرض، ثم بعد أن شب بهم الزمن، واطرد العمران، وتشعبت الحضارات، وأدبرت أجيال وأقبلت على أنقاضها أخرى، منذ ذلك الحين السحيق والناس أخلاط متنافرون، لا تستقيم بهم السبل يومًا إلا شردت أيامًا، ولا يشيمون بوارق الحق حينًا إلا أطبقت عليهم ظلمات الباطل أحيانًا.

ولو تقصينا تاريخ البشر - على ضوء الإيمان بالله والاستعداد للقائه - لوجدنا العالم أشبه بمخمور تربو فترات سكره على فترات صحوه، أو بمحموم غاب عنه رشده فهو يهذى ولا يدرى.

وقد كان فى تجارب الناس مع أنفسهم ودنياهم مزدجر يزع عن الشر ويرد إلى الخير، بيد أن الهوى الغالب لا تجدى معه معرفة.

كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد ﷺ؟ لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علمًا كثيرًا، ووعت تجارب خطيرة، ونمت آداب وفنون، وشاعت فلسفات وأفكار.

ومع ذلك فقد غلب الطيش، واستحكم، وسقطت أمم شتى دون المكانة المنشودة لها، فماذا كان مصير الحضارات فى مصر واليونان، وفى الهند والصين، وفى فارس وروما؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم، بل من ناحية العاطفة والعقل.

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها، وفرضت عليها السقوط فى هذه الوهدة الزرية، فأمسى الإنسان الذى استخلفه الله ليكون ملكًا فى السماوات والأرض أمسى عبدًا مسخرًا لأدنى شىء فى السماوات والأرض، وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار، وتعبد الأخشاب والأحجار وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة؟

إن الوثنية هوان يأتى من داخل النفس لا من خارج الحياة، فكما يفرض المحزون كآبته على من حوله، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحًا



جاثمة، كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التى يحيا فيها، فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء.

ويوم ينفسح القلب الضيق ويشرق الفكر الخامد، وتثوب إلى الإنسان معانيه الرفيعة، فإن هذه الانعكاسات الوثنية، تنزاح من تلقاء نفسها.

ومن ثم كان العمل الأول للدين داخل الإنسان نفسه، فلو ذبحت العجول المقدسة، ونكست الأصنام المرموقة، وبقيت النفس على ظلامها القديم، ما أجدى ذلك شيئًا فى حرب الوثنية، سيبحث العباد المفجوعون عن آلهة أخرى غير ما فقدوا، يفدون إليها من جديد، وما أكثر الوثنيين فى الدنيا وإن لم يلتفوا حول نصب! وما أسرع الناس إلى تجاهل الوجود الحق، وربه الأعلى، والجرى وراء وَهْمٍ بعيد.

والخرافة لا تأخذ مجراها فى الحياة وهى تعلن عن باطلها أو تكشف عن هرائها، كلا، إنها تدارى مجونها بثوب الجد، وتستعير من الحق لبوسه المقبول، وقد تأخذ بعض مقدماته وبعض نتائجه، ثم تتزين بعد ذلك للمخدوعين.. وكذلك فعلت الوثنية، لقد أغارت على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة، لا كما يغير النحل على أزهار الربيع، بل كما تغير الديدان وأسراب الجراد على الحدائق الغناء، فتحيلها قاعًا بلقعًا.. وهى إذ أفسدت ما تركت لم تصلح ما أخذت، ولئن كان ما أخذته خيرًا قبل أن تتصل به، لقد أصبح شرًّا بعدما تحول فى جوفها إلى سموم، وهذا هو السر فى أن الوثنية التى لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغى مرضاته.. جزء من الحق، فى أجزاء من الباطل فى سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله، ويبعدهم عن ساحته.

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ما أصاب شريعة عيسى بن مريم عليه السلام من تبدل مروع رد نهارها ليلاً، وسلامها ويلاً، وجعل الوحدة شركة، وانتكس بالإنسان، فعلق همته بالقرابين، وفكره بالألغاز المعماة.

إن خرافة الثالوث والفداء تجددت حياتها بعدما أفلحت الوثنية الأولى فى إقحامها إقحامًا على النصرانية الجديدة، وبذلك انتصرت الوثنية مرتين، الأولى فى تدعيم نفسها، والأخرى فى تضليل غيرها، فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى - عليه السلام - كانت منارات الهدى قد انطفأت فى مشارق الأرض ومغاربها، وكذلك الشيطان يذرع الأقطار الفسيحة، فيرى ما غرس من أشواك قد

نما وامتد.. فالمجوسية فى فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشى فى الهند والصين، وبلاد العرب وسائل المجاهيل.. والنصرانية التى تناوئ هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهند والمصريين القدامى، فهى تجعل لله صاحبة وولدًا، وتغرى أتباعها فى روما ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألف عباد النيران وعباد الأوثان.

شرك مشوب بتوحيد يحارب شركًا محضًا.. ولكن ما قيمة هذه النقائض التى جمعت النصرانية بين شتاتها: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هى التى حملت هذه الأحزاب على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم على عبادة الواحد الحق، وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام، ومن أهل الكتاب فى آن، ووصاها أن تتذرع بالصبر أمام هذا التحامل:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ صدق الله العظيم.

يهــوديـــــة وصهيــونيـــة

سمعته يقول: اليهودية شيء والصهيونية شيء آخر، اليهودية دين سماوى كالنصرانية والإسلام، أما الصهيونية فنزعة سياسية متطرفة استغلها الاستعمار الغربى لبلوغ مآربه.

اليهودية دين قديم له مصادره المقدسة، أما الصهيونية فحركة حديثة ولدت فى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، وغذتها ونمتها ظروف عنصرية ودولية طارئة.

قلت له: تعنى أن اليهودية لا أطماع لها فى فلسطين، وأنها لم تبيت عدوانًا على العرب الآمنين، وأن التوراة والتلمود وسائر الأسفار المقدسة بريئة مما تفعله دولة إسرائيل، وأن الحرب المعلنة علينا من خمسين سنة ليست دينية؟

قال: نعم هذا بدقة ما أريد أن أذكره.

قلت: أو لو قرأت عليك من نصوص الكتب المقدسة ما يدحض هذه الأوهام؟

قال: كيف؟ يستحيل أن تتضمن هذه الكتب استباحة أرضنا وجنسنا، والاستهانة بحقوقنا المؤكدة؟

قلت: بل سأقرأ عليك من الكتب المقدسة المتداولة بين أيدى القوم ما يزيح هذه الغشاوة عن الأعين، وما يشرح أن فلسطين كانت ملكًا لبنى إسرائيل خاصًا بهم، وأنهم أخذوا عنها عقابًا إلهيًا للآثام التى ارتكبوها، وأن الإله الذى عاقبهم تجاوز بَعْدُ عن سيئاتهم، وقرر إعادتهم إلى أرضهم الأولى؛ كى تفيض عليهم سمنًا وعسلاً وخمرًا، وأن هذا الإله ندم على ما فعل بشعبه المختار، ورد إليه مجده، ووطنه؛ كى تتوطد سلطته وسيادته على أنقاض غيره من الأمم.

هكذا تقول صحائف التوراة والتلمود وإصحاحات العهد القديم التى يتعبد اليهود فى المشرق والمغرب بتلاوتها، والتى يستوحون منها سياستهم فى القديم والحديث على سواء.

وعلى ضوء هذه السطور المقدسة، بل على نارها المحرقة أكلت حقوق العرب، وتواصى الأوروبيون والأمريكيون باجتياحها.

ثم جاء اليهود فى الوقت المناسب ليتسلموا أرض الميعاد التى حدثتهم كتبهم عنها، وباشروا حرب الإبادة التى لابد منها ليسود جنسهم، وتقوم مملكتهم.

وقد كانوا فى إقبالهم من شتى القارات إلى فلسطين معبئين بشعور دينى عارم تعمل من ورائه هذه النصوص، كما أنهم فى بنائهم دولة إسرائيل ومقاتلتهم العرب أصحاب الأرض، كانوا مفعمين بهذه العاطفة الدينية المرتكزة على كلمات التوراة والتلمود وإصحاحات العهد القديم.

قال الرجل: أين هى تلك النصوص التى تشير إليها؟

نحن نجزم بأن الله لعن بنى إسرائيل لعصيانهم وعدوانهم، ونستفيد هذه الحقيقة من كتابنا الوثيق قبل استفادتها من أى شىء آخر، فهل تغير من خلائق اليهود ما استحقوا من أجله اللعنة؟ لقد مرت آلاف السنين على هذا الشعب المطارد، قاتل الأنبياء، المتمرد على وحى السماء، وبعث الله عيسى ـ عليه السلام ـ إليهم فكذبوه وحاولوا قتله، وبعث إليهم محمدًا ﷺ من بعده فكذبوه وحاولوا قتله، وتتابعت الأعصار وهم حيث حلوا فى أرض الله نماذج للأثرة والقسوة وأكل الربا وإشاعة الخنا.

بيد أن كاتب العهد القديم وعد اليهود بأنهم سيعودون إلى فلسطين التى نفوا منها، وتوارث القوم هذا الأمل، وأحسوا كأن هذا القطر إرث لابد أن يؤول إليهم، وأن غيرهم طارئ عليه يجب أن يزول، وعلى هذا الأساس عومل العرب، وعولج وجودهم التاريخى والدينى.

ولنقرأ هذه الكلمات من العهد القديم: «برائحة سروركم أرضى عنكم، حين أخرجكم من بين الشعوب، وأجمعكم من الأراضى التى تفرقتم فيها، وأتقدس فيكم أمام عيون الأمم، فتعلمون أنى أنا الرب حين آتى بكم أرض فلسطين، إلى الأرض التى رفعت يدى لأعطى آباءكم إياها» (٤١ ـ ٤٢ من الإصحاح العشرين، حزقيال).

أى نشوة دينية عارمة تغمر اليهود وهم قادمون من كل فج وصوب إلى أرض فلسطين؟ وهذا النص الدينى يسوقهم!

إن اليهود لم يحدثوا توبة يستحقون بها الرحمة العليا، فهم تائهون عن الحق فى مجال الاعتقاد والعمل، وهم وراء أزمات الإيمان والأخلاق التى تزلزل الكيان البشرى، وتهددهم بالدمار الشامل.

وعودتهم الجزئية إلى فلسطين ترجع أولاً إلى طبيعة الجبهة المناوئة لهم، أو إلى أصول الأمة التى ورثت الدعوة من بعدهم.

إن العرب تخلوا عن قيادة الدعوة العالمية للإسلام.

بل تجردوا من جملة فضائله وعزائمه.

بل تسلمت السلطة فى بعض أقطارهم حكومات ترفض الإسلام دولة وتكرهه نظامًا.

فى هذا الليل المعتكر من الفتن المتلاحقة قد يأذن الله لليهود بعودة لا قرار لها، لأن اليهود لا يحملون بذور رسالة إنسانية صالحة، ولأن حملة الرسالة الإسلامية الباقية سوف يستفيقون من غفلتهم أو يتغلبون على هزائمهم، ويستأنفون مقاتلة اليهود حتى يجهزوا عليهم.

أليس من تعاجيب الليالى أن تتخلى الأمة العربية عن الإسلام؟! عن الحق الذى رفع الله به قدرها؟! وتزعم وسائل الإعلام فيها أن قضية فلسطين ليست إسلامية، وذلك فى الوقت الذى يتشبث اليهود فيه بتوراتهم ويعدون فيه فلسطين قسمة إلهية لهم؟!

بـــل حـــربًا دينيـــة

حاخامات اليهود مزجوا فى حياة المجتمع اليهودى بين أمرين متناقضين: أولهما: الحرص على مخاصمة الرسالات السماوية الصادقة، ومجافاة أهدافها الإنسانية الرفيعة، والآخر: التشبث بالانتساب إلى أسرة الدعوة الإلهية، والزعم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، ويتبع ذلك بداهة أملهم فى عودة مجدهم القديم ومملكتهم الأولى.

والحاخامات الذين كتبوا العهد القديم من عند أنفسهم نضحت آمالهم على ما دونوا، فكانت هذه البشائر التى تسلى بها اليهود دهرًا، ثم حولوها فى هذا العصر إلى أمر واقع، ونحن لا نستغرب الانتصار المبدئى الذى أحرزه اليهود، ولكنا نقول: إنه لم يتم لخير فيهم بل لشر فى غيرهم.

إن رجالهم ونساءهم وشيبهم وشبابهم جاءوا رافعين عقائرهم بنداء التوراة، ملتفين حول إيمان زائف، على حين كان العرب المثقفون يستحون من الانتساب للقرآن، وينسحبون من مواطن التدين الحقيقى، فترادفت النكبات والنكسات وكان ما ندى له جبين الحر!

وضاعف من هزائم العرب أن الحقد الصليبى الذى لم تخب جذوته يومًا كان يشد أزر المعتدى، ويعينه إذا ضعف، ويسدد رميته إذا طاشت.

ولو أن اليهود وحدهم كانوا فى المعركة لكانت فلول العرب على ما بها من تمزق مادى ومعنوى قديرة على كسر إخوان القردة، إلا أن العرب ووجهوا بالعبء مضاعفًا، لقدر شاءه الله، فكان ما كان، وما دمنا فى سياق البشارات الدينية والوعود الإلهية، فإن لدينا فى كتاب الله وسنة رسوله ما يكمل آمال اليهود فى أرض الميعاد.

إنهم سيعودون فعلاً، ولكن ليفنوا لا ليحيوا، ولتنتهى رسالتهم فى هذه الدنيا لا لتتجدد، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين واليهود، فيقتل المسلمون اليهود، حتى إذا اختفى اليهودى خلف حجر نادى الحجر: يا مسلم، هذا يهودى تعال فاقتله.

أجل.. إن اليهود سيتجمعون بعد شتات، ولكن ليتحقق فيهم قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

على أن ما يبيته القدر لبنى إسرائيل من بلاء ماحق لن يوقعه بهم العرب - من حيث هم عرب - ولكن يوقعه بهم العرب بعدما يعودون إلى الإسلام ظاهرًا وباطنًا، ويُعرفون به حكومات وشعوبًا، ويكون النداء المعهود المتداول: يا مسلم هذا يهودى تعال فاقتله.

نعم، يا مسلم، لا أى نداء آخر.

إن حرب الإبادة قد وضعت خطتها لإفناء الجنس العربى وإحلال بنى إسرائيل مكانه، والحقيقة أن الإسلام بالنسبة للعرب ليس فقط الهداية العليا لعباد الله، ولكنه طوق النجاة العاصم من الغرق بالنسبة إلى هؤلاء العرب، والخيط الباقى ليظلوا على قيد الحياة إن أرادوا الحياة.

فهم - رضوا أم سخطوا - يواجهون حربًا دينية تشنها مشاعر مخلوطة بشغاف القلوب، وليس كما يحكى لهم الكذبة يواجهون حربًا استعمارية عادية.

وأريد - بوصفى إنسانًا مسلمًا - أن أذكر رأيى فى الحروب الدينية، إنها صورة بشعة أن يقتل امرؤ آخر ليجعل من دمه طريقًا إلى الجنة، إنها صورة بشعة أن أقول لآخر: اعتقد ما أقول، وإلا افترستك وأنا أشعر بلذة الولوغ فى دمك!

إن الإسلام عدو مبين لهذا النوع من الحروب، بل إن رسالة محمد كانت القاضية على كل قتال من هذا اللون القاسى.

فهل كذلك فكر واضعو هذا العهد القديم؟ يستطيع أى قارئ أن يطالع فى الأسفار المقدسة (أوامر الله) باستئصال الأعداء رجالاً ونساءً وأطفالاً، واستئصال ما يملكون من حيوان ونبات، ونشر الخراب فوق كل شبر من أرض لأعداء إسرائيل.

وعندما كنت أقرأ أخبار القرى العربية التى اختفت من الوجود، والبيوت التى دمرت بعدما فر أصحابها مروعين، كنت أعلم أن اليهود إنما نفذوا أحكام التوراة فيما يزعمون.

وأن واضعى هذه الأسفار كانوا جزارين فى ثياب متدينين، وكان ضحاياهم فى هذا العصر الأشأم من العرب المسلمين.

وقد قام اليهود بمذبحة «دير ياسين» وغيرها من المجازر استجابة دينية حرفية للتعاليم التى يتدارسونها ويتوارثونها.

وهى تعاليم - فيما نرى نحن المسلمين - مبتوتة الصلة بأنبياء الله، وإن زعمها هؤلاء وحيًا من السماء.

صلـــح مـع اللـــه

إن سخط الله على بنى إسرائيل لم تنقص أسبابه، ولعلها لن تنقضى أبدًا ماداموا على طبائع الملعونين من أسلافهم: قسوة فؤاد، وشره نفس، وأكل سحت، وفساد معتقد، وبغيًا فى الأرض، واستطالة على الخلق.. وإذا كان الله قد ضرب بهم بعض الشعوب التى فرطت فى جنبه؛ فليس ذلك رضى، ولا تقريبًا بعد إبعاد، فإن الهيكل الأول هدمه الوثنيون، وقد تسلط على بنى إسرائيل قديمًا من هم شر منهم، ومسلمو اليوم يتعرضون لبلاء طويل بغير شك، ومن يدرى؟ قد يكون ذلك باعثًا لهم على صلح مع الله وعودة إلى الإسلام الذى هجروه، وعندئذ تكون هذه المحنة منحة، وتكون الضارة النافعة، ومهما ساءت الأمور؛ فإن حلم إسرائيل بحكم العالم من أورشليم لن يتحقق، فإن الحجب بدأت تتمزق عن آثار اليهود الرهيبة فى أرجاء الأرض، خصوصًا وسط العالم المسيحى.

إن سلطة الكنائس المسيحية على الضمير والسلوك فى أوربا وأمريكا اسمية للأسف، وقد تمكن بنو إسرائيل بوسائلهم الجلية والخفية من نشر الفتن الجنسية والعنصرية والفلسفات المادية والإلحادية فى جنبات القارتين الكبيرتين، فهل هذه رسالة السماء التى حملها أنبياء بنى إسرائيل قديمًا ويريد ذراريهم بها أن يكونوا شعب الله المختار؟!

فى محاضرة للدكتور أحمد خليفة وزير الأوقاف الأسبق سمعت منه أن اليهود يسيطرون على الولايات المتحدة سيطرة كاملة وعلى أوروبا الغربية سيطرة شبه كاملة، وأن الميادين التى أحكموا قبضتهم عليها هى: المصارف المالية والجامعات الكبرى ووسائل الإعلام، ومن يضع قبضته على هذه الثلاث ضمن أن يصوغ الفكر كما شاء، وأن ينشر ما يرضيه ويحجب ما يرفضه، وأن يبسط يديه حيث تجدى النفقة، ويمسك متى أراد.

قال: ومن يتابع تاريخ الفكر البشرى ويتعرف دور اليهود فيه يتبين أنهم يصطنعون الفلسفات التى تحطم كل المقدسات، وتحطم احترام الإنسان لنفسه، وتحرمه من الإيمان وسكينة النفس، واليهودية العالمية تعلم أن الشباب هو مستقبل الأمم وعتادها وذخرها، إذن لابد أن يفسد الشباب، وتختل أمامه الموازين،

وتضطرب القيم، ومن هنا سيطروا على أسواق الخمر والقمار والمخدرات، كما أن باعهم طويل فى عالم الخلاعة والتهتك، والذى يزور السجون والإصلاحيات فى الولايات المتحدة يجد نزلاءها الملونين المسيحيين، ولا يجد بها يهوديًا!

إنهم يقودون حملة التخريب والإفساد مع الاحتفاظ بكيانهم وتماسكهم.

قال المحاضر: إنك فى أمريكا تقرأ ما يريد اليهود لك أن تقرأه، وتفتح الراديو لتسمع ما يريد اليهود أن يذاع، وتفتح التليفزيون لترى ما يريد اليهود أن ترى، ويذهب الأبناء إلى الجامعة لتعبأ عقولهم بما يريد اليهود أن يتعلموه، وفى كل أسبوع تقبض المرتبات من خزائن اليهود، هذا هو الأخطبوط الذى يسيطر على الغرب، هذه هى الطفيليات التى تمتص دماء العالم.

نقول: وهذه هى وظيفة شعب الله المختار التى يبلغ بها رسالة السماء إلى الأرض، ويعلم البشر الصلاة والزكاة والتقوى والأدب، ويذكرهم بيوم الحساب وما وراءه من خلود طويل، إن اليهودى ذكى كالشيطان، وله أن يزعم ما يشاء إلا أنه صاحب دين يهدى إلى البر والرشد، ويستحق من أجله ميراث الأقطار والأجناس، ومن هنا فإن مصير اليهودية العالمية إلى بوار، لكن متى؟ عندما يثوب المسلمون إلى رشدهم، ويعودون إلى رسالتهم، ويتركون الترهات التى لعبت بزمامهم وأضلت سعيهم، وذلك يحتاج منا إلى همسات وصرخات، والمؤسف أن وسائل الإعلام فى الأمة العربية حريصة أشد الحرص على أن تفرق بين اليهودية والصهيونية، وعلى أن تجعل القارئ أو المستمع العربى يقصى الدين إقصاءً عن الصراع الدائر اليوم على اغتصاب فلسطين وما حولها، وقد رأيت ـ من النصوص التى سقناها ـ ضلال هذا المسلك، وبعده عن التاريخ والواقع، وتخيله لوسائل الدفاع التى ينبغى توفيرها فى وجه هجوم دينى حاقد.

إن الصهيونية ليست وليدة بحث اليهود عن وطن لهم بعدما أحسوا وحشة الغربة فى أرض الله الواسعة، كلا، فقد وسعتهم بلدان شتى، وعاشوا فيها جزءًا من أبنائها الأصلاء، ووصلوا إلى درجة فاحشة من الثراء، ومناصب كبيرة فى الحكم، ولكنهم رجحوا نداء دينهم على علاقاتهم بأوطانهم، وآثروا التجاوب مع توراتهم وتلمودهم على الذوبان فى الوطنية الأمريكية أو الألمانية أو الروسية أو المصرية أو العراقية.

سيرتهم فى مختلف القارات واحدة، ونزوعهم إلى خدمة عنصرهم، وحسبهم ديدنهم فى كل مكان وزمان.

إقصـــاء متـعـمـد

عندما يبحث عاقل عن سر هزائم العرب من اليهود فى العصر الحاضر يجد الإجابة فى هذا التفاوت الهائل فى الروح المحركة لكلا الفريقين، إن نصوص التوراة لم يكتبها «موشى ديان» فى هذا القرن، ولم يكتبها «هرتزل» فى القرن الماضى، ولم تتمخض عنها مؤتمرات الصهيونية المنعقدة فى سويسرا أو فى فرنسا، إنها - عند ذويها - آيات وحى يتلى، ومعالم دين يتبع، وليس اليهود وحدهم الذين يؤمنون بهذه الوعود السماوية لبنى إسرائيل، بل كثير من النصارى الذين يجعلون إصحاحات العهد القديم أجزاء من الكتاب المقدس، خصوصًا الكنائس الإنجيلية «البروتستانت» الذين يمثلون أكثر شعوب إنجلترا والولايات المتحدة، ولكن عصابة من الكتاب العرب أخذت على عاتقها تغطية هذه الحقائق الدينية، والزعم بأن «إسرائيل» تمثل الصهيونية ولا تمثل اليهودية، وأن الدين لا علاقة له بهذه الحرب الناشبة لإبادة العرب وتهويد فلسطين، أهو الجهل الأعمى؟ ربما، ومن البلاء أن يكون الرأى لمن يملكه لا لمن يبصره، أهو الإقصاء المتعمد لدور الإسلام فى المعركة؟ ذلكم أغلب الظن، بل هو جملة اليقين، وعمل أولئك الكتاب هو تسميم الفكر العربى حتى يدخل العرب معركتهم الحاسمة بلا روح، أى بلا إيمان دينى واضح دافع.

ونعود إلى كلمات العهد القديم التى دونا بعضها هنا، فنقرأ عن أرض الميعاد لا كما يتحدث كتاب الصهيونية، بل كما يتحدث العهد القديم نفسه، لنقرأ هذا النص الطويل:

«لذلك فقل لبيت إسرائيل - هكذا قال السيد الرب - ليس لأجلكم أنا صانع يا بيت إسرائيل، بل لأجل اسمى القدوس الذى نجستموه فى الأمم حيث جئتم، فأقدس اسمى العظيم المنجس فى الأمم والذى نجستموه فى وسطهم، فتعلم الأمم أنى أنا الرب.

يقول السيد الرب: حين أتقدس فيكم قدام أعينهم، وآخذكم من بين الأمم، وأجمعكم من جميع الأراضى، وآتى بكم إلى أرضكم، وأرش عليكم ماء طاهرًا فتطهرون من كل نجاساتكم، من كل أصنامكم، أطهركم، وأعطيكم قلبًا جديدًا،

وأجعل روحًا جديدة فى داخلكم، وأنزع قلب الحجر من لحمكم، وأعطيكم قلب لحم، وأجعل روحى فى داخلكم، وأجعلكم تسلكون فى فرائضى وتحفظون أحكامى وتعملون بها، وتسكنون الأرض التى أعطيت آباءكم إياها، وتكونون لى شعبًا، وأنا أكون لكم إلهًا، وأخلصكم من كل نجاساتكم.

وأدعو الحنطة وأُكْثِرُها ولا أضع عليكم جوعًا، وأُكْثِر ثمر الشجر وغلة الحقل لكيلا تنالوا بعد عار الجوع بين الأمم، فتذكرون طرقكم الرديئة وأعمالكم غير الصالحة، وتمقتون أنفسكم أمام وجوهكم من أجل آثامكم وعلى رجاساتكم، لا من أجلكم أنا صانع - يقول السيد الرب - فليكن معلومًا لكم، فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا بيت إسرائيل - هكذا يقول السيد الرب».

(٢٢ - ٣٨ الإصحاح السادس والثلاثون، حزقيال)

ونختم بهذا النص:

هكذا قال رب الجنود: هـأنذا أخلص شعبى من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس، وآتى بهم فيسكنون فى وسط أورشليم، ويكونون له شعبًا وأنا أكون لهم إلهًا بالحق والبر» (الأصحاح الثامن، زكريا).

إن موسى - عليه السلام - لا صلة له بهذه الوعود، وتوراته لم تتضمن إشارة ولا عبارة عن عودة اليهود إلى فلسطين، ثم إن احتلال أى بقعة من الأرض لا يعطى المحتل الحق الأبدى فى امتلاكها، وبنو إسرائيل دخلوا فلسطين محتلين، ومكثوا بها أقل مدة مكثها جنس آخر عمر هذه الأرض، فوجودهم التاريخى بها لا يمنحهم أى حق للبقاء فيها أو العودة إليها، نعم، نحن نؤمن أن أسرة يعقوب حملت راية الدعوة إلى الله، وتنقلت بها بين وادى النيل وربوع فلسطين، لكن أولاد يعقوب نكّسوا هذه الراية فيما بعد، وتنكبت كثرتهم سبيل الحق، وجارت على الوحى ورسله، فعزلهم الله إلى الأبد عن هذا المنصب، وآثر به أمة أخرى كانت فيها الرسالة الخاتمة، تلك أمة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

العمـــــل الحقيقــى

أفلح الاستعمار فى خلق جيل يستحى من الانتماء لدينه، ويرفض العمل تحت لوائه، وهذا الجيل الذى صنعه الغزو الثقافى هو الطابور الأول لا الطابور الخامس الذى ألحق بنا الهزائم، ونكس رءوسنا فى كل ميدان.

وأعرف أن هناك من يعترض تفكيرى هذا ويستنكره، إنه الصنف المسكين الذى تخرج وفق البرامج الدراسية التى خلفها الاستعمار فى بلادنا.

قال لى أحد هؤلاء: تريد حربًا دينية؟ إن هذا اللون من الحرب انتهى مع العصور الوسطى، سيروا مع الزمن واطلبوا حربًا تحريرية معقولة.

وقلت لمحدثى: إننى لا أطلب حربًا دينية، إنه قد فرضت علىّ حرب دينية أتسمع؟ إن الدولة التى تسمت باسم نبى قديم وألغت كل القوميات الحديثة، وصهرت يهود اليمن مع يهود نيويورك فى أخوة دينية شاملة، وألهبت المشاعر الدينية عند النصارى المؤمنين بالعهد القديم، وحركت ذكرياتهم الصليبية الدفينة؛ ليهجموا على المسلمين معها، هذه الدولة تعلن علينا أى نوع من الحروب أيها الإنسان الذكى؟ حرب أكل وشرب؟ حرب رياضة وتسلية؟ حرب مجد شخصى لملك مغرور؟ إنها حرب دينية فرضت علينا وما بد من أن نواجهها راضين أو كارهين، وإقصاء الدين - وهو فى جبهتنا الإسلام - معناه هلاك الأبد.

فقال لى: لكن الحرب الدينية عنوان مثير، وهو يجر علينا متاعب لا نستطيعها.

فقلت له: إن الحرب الدينية عنوان كريه بالمفهوم الذى تعارف عليه الغربيون؛ لأن هذه الحرب فى تفكيرهم وفى تاريخهم كانت تشن لفتنة ناس عن معتقداتهم بقوة السلاح، أو لتغليب مذهب على آخر وإدخال الناس فيه كرهًا، وهذا المفهوم السيئ للحروب الدينية لانعرفه فى ماضينا ولا فى حاضرنا، ومع هذا كله فلماذا يوصف دفاعنا عن ديننا وأرضنا وتاريخنا ومقدساتنا بأنه حرب دينية رجعية؟ ولماذا سكتت أبواق الدعاية الغربية والشرقية عن هجوم إسرائيل علينا، ووجهها الدينى ليس موضع جدال؟ هل يباح لليهودية أن تعلن حربًا دينية علينا، ولا يباح للإسلام ذلك؟ وهو يدافع وهى تهجم؟ أم أن القضاء على الإسلام هدف مشروع؟ وصياح أهله وهم يدفعون عنه عمل مستهجن؟

ومن هنا يبدأ العمل الحقيقى للدعاة المسلمين، من هذا الخط تبدأ الجهود المضنية لإنقاذ أمة أمكن أعداؤها أن يوجهوها ضد نفسها ورسالتها، من هذا الخط ينبغى أن تبدأ حركة إحياء مستوعبة مستغرقة تصل حاضرنا بماضينا، وتعرفنا من نحن؟ وما وظيفتنا فى الدنيا؟ وماذا يراد بنا؟ وماذا يراد منا؟ إن العمل بالإسلام ليس كفالة لآخرتنا فقط، بل هو ضمانة حياتنا الآن، وإنها لحماقة كبرى أن نجهل رسالتنا التى اصطفانا الله لأدائها، فنفقد مكانتنا الأدبية والمادية، ونخسر الأولى والآخرة جميعًا، ماذا يعنى قيام إسرائيل على أنقاضنا؟ يقول المؤرخ الإنجليزى «ويلز»: إن اليهود اتخذوا الرب كنزًا وادخروه لجنسهم.

واليهود الذين فعلوا ذلك من عشرات القرون لم يتغير فسادهم النفسى ولا غرورهم الجنسى، لقد كذبوا عيسى ومحمدًا - ومازالوا يكذبونهما - لأنهما حاولا إصلاح هذا الفساد وقمع ذلك الغرور.

واستئناف اليهود أداء رسالتهم الأولى يعنى توطيد أركان الربا، والخنا، والتفرقة العنصرية، واستغلال الشعب، كما يعنى تقطيع حبال الإنسانية مع الله، ونسيان اليوم الآخر، وإهمال الجوانب الروحية.

وذلك بداهة غير الإتيان على الرسالة الإسلامية من القواعد وتمزيق الشعب العربى كل ممزق.

ونحن - شئنا أم أبينا - سندخل مع اليهود فى حرب بقاء أو فناء، فإما انتصرنا عليهم وإما أتم أبناؤنا ما عجزنا عنه.

فإن نجح أبناؤنا فبها ونعمت، وإلا فعلى الأحفاد استئناف النضال إلى آخر الدهر.

ومع استعار هذه الحرب إلى ما شاء الله نريد أن نقول للمسلمين كلامًا طويلاً منه حقيقة رسالتهم، وسر نكبتهم.

وهو كلام يعيدهم إلى الصراط المستقيم، ويقربهم من يوم النصر، ويشرح لهم سنن الله التى تنطبق عليهم وعلى غيرهم.

فإنه من المستحيل أن يرعانا الله إذا استبطنّا نحن المسلمين خلائق اليهود الأقدمين الذين مسخهم الله بمعاصيهم قردة وخنازير.

يستحيل أن يفعل الله هذا، والذى سيقع أن يلتقى اليهود بأشباههم ثم تعمل القوانين الطبيعية عملها، فينتصر الأذكى على الأغبى، والأدهى على الأجهل، وذاك ما كان.

صـــراع بـين رسـالتـين

كان بنو إسرائيل أول أمرهم ممثلين لعقيدة التوحيد وسط شعوب قلما تعرف حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر.

والانفراد بعقيدة صحيحة بين أمم ضالة يتطلب غير قليل من العناء والمصابرة، فقد يسأم الإنسان تكاليف الغربة الروحية، وقد يبتلى بمن يضيق به وبعقيدته ويحاول فتنته عنها.

ومن هنا رأينا يعقوب يجمع أبناءه قبيل موته، ويريد أن يطمئن على مسيرتهم بعد أن يغادر الحياة، ترى أيظلون على الإيمان الذى شرفوا به، أم يتبعون غيرهم على الشرك والفساد؟

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

وكلمة الإسلام قديمًا وحديثًا هى العنوان الفذ للدين الأثير عند الله، بما يتضمنه هذا الدين من توحيد للخالق، واستقامة على أمره، وإنفاذ لوصاياه وإقامة لأحكامه.

وقد كان يوسف الصديق - عليه السلام - أشرف رجال هذه الأسرة، وأصلح أولاد يعقوب - عليه السلام - وأرعاهم لتعاليم أبيه فى حياته وبعد مماته.

وكان يقدر نعمة الاختيار الإلهى لبيت يعقوب كى يحرس التوحيد ويرفع لواءه.

ولذلك رأيناه فى السجن ينتهز الفرص فيدعو المسجونين إلى الله، وينفرهم من الوثنية، ويشرح لهم معالم الإيمان الحق.

وكان السجناء قد لحظوا قدرته على استنباط الغيوب من خلال تعبير الرؤيا، فقال لهم يوسف - عليه السلام - : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨ ﴾.

ويوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات ينوء بمكانة أسرته، ووظيفتها الرفيعة فى قيادة الناس إلى الله الواحد، ونبذ الوثنية السائدة على عهده.

ولذلك يتابع نصحه لرفقاء السجن قائلاً: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾.

ومن الإنصاف أن نقول: إن أبناء يعقوب فى تاريخهم المتقدم وفوا بعهدهم لأبيهم، وقاوموا أمواج الوثنية التى حاولت أن تجرفهم، ولعلهم تحملوا فى ذلك آلامًا رهيبة.

وأى آلام أبشع من تذبيح الأبناء واستحياء النساء؟! لكنهم مع تلك المحن لم يفقدوا شخصيتهم، ولم يذوبوا فى غيرهم، ولم ينسوا أصل رسالتهم.

وفى ذلك يقول الله فى القرآن الكريم عنهم: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾.

لكن بنى إسرائيل مع سير الزمان واختلاف الليل والنهار أخذوا يبددون أمجادهم، ويغاضبون ربهم، ويتنكرون لمواريثهم، ولم ينشأ هذا الانحراف من غلبة عدو عليهم وتأثيره فيهم، بل نشأ من اغترارهم بالله، وجرأتهم عليه، وابتذالهم لنعمه، وأضحوا كالولد المدلل لا ينتظر منه أدب، ولا تثمر فى تقويمه عظة.

وتطرق هذا العوج إلى المبادئ التى اختيروا لإعلاء منارها وتمهيد سبلها؛ فإذا هم يخلطون التوحيد بالشرك، ويذهلون ذهولاً مطلقًا عن اليوم الآخر، ويرتكبون المعاصى دون حذر، وينسون قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وينطلقون على ظهر الأرض ما تسيرهم إلا غرائزهم الدنيا مقترنة بدعاوى عريضة ومزاعم مكذوبة.

فكانوا بهذا المسلك الجديد شرًا من الأمم التى كلفوا قديمًا بتعليمها وتأديبها وفضلوا تفضيلاً عليها!

حقـــد يهـــودى صليبـــى

اليهود الذين كذبوا عيسى - عليه السلام - منذ عشرين قرنًا، وكذبوا بعده محمدًا ﷺ مضوا فى الطريق التى اختطوها لأنفسهم، وعاشوا فى حدود ما لديهم من تعاليم وما توارثوا من تقاليد، وتحملوا غضب الله عليهم بجلادة تثير الدهشة، إنهم على امتداد الزمان والمكان لم يتخلوا عن رأيهم فى أنفسهم أنهم شعب الله المختار، ولقد تقاذفتهم الأقطار والفلوات، فما نسى بعضهم بعضًا، ولا تلاشوا فى الأمم التى ضاقت بهم ونظرت إليهم شزرًا، ولما كان النصارى يعتقدون أن اليهود قتلة عيسى - عليه السلام - وسبب بلائه، فإن الأمم النصرانية تقربت إلى الله بإذلال اليهود حيث كانوا، واستباحة دمائهم لأتفه التهم، حتى قيل: لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية من على ظهر الأرض! ولم يتورع شعب مسيحى فى طول أوروبا وعرضها عن إلحاق الأذى باليهود جهد ما يستطيع.

ومع هذا كله فإن اليهود شقوا مستقبلهم وسط هذه الصعاب، موقنين أنهم شعب الله المختار، ومؤملين فى مستقبل أفضل، مستقبل يفرضون فيه مشيئتهم على العالم، وتتوج السلطة العليا فيه رأس إسرائيل.

واستطاع علماء اليهود وأغنياؤهم أن يملأوا ثغرات واسعة فى علاقة المسيحية بأتباعها، وأن يكملوا قصورها فى تغطية حاجات الخاصة والعامة الأدبية والمادية على السواء، فما كاد يقبل عصر النهضة مع القرن السادس عشر الميلادى حتى شرع اليهود يبنون لجنسهم دعائم مكينة، وواصلوا البناء فى صمت ومكر حتى أمكنهم خلال القرن العشرين أن يُكَوِّنوا فى مختلف القوميات الأوروبية والأمريكية طائفة ظاهرة اليسار والارتقاء، وهنا شرع اليهود يلبون دواعى الحنين فى دمهم لبناء دولتهم الدينية وتحقيق حلمهم القديم فى حكم العالم.

وسنحت الفرصة بسقوط الخلافة الإسلامية، وغيبوبة العرب عن رشدهم، وذهولهم الهائل عن رسالتهم، فضرب اليهود ضربتهم، واحتلوا فلسطين، وبديهى أن اليهود وحدهم ما كانوا ليقدروا على ما فعلوا، إن الحقد المشترك على الإسلام وأمته وجد فى العدوان اليهودى أداة ترضيه، وتنفذ ما يبتغيه، ولذلك رحب به وأعانه - ولايزال - على بلوغ أهدافه.

أول أولئك الحاقدين: الصليبيون الجدد، فإن بعض الساسة الأمريكيين والأوروبيين المبغضين للإسلام وأمته يرون فى إقامة دولة لليهود على هذه البقعة من أرضنا خطوة لها بُعدها فى زلزلة الكيان الإسلامى كله، ومن ثم حرصوا على خذلاننا فى كل ميدان، وتخييب آمالنا فى كل سعى، ولم نر من خمسين سنة ـ أى مذ بدأ احتلال اليهود لفلسطين ـ سياسيًا مسيحيًا كبيرًا يعارض اليهود أو يرثى للعرب المنكوبين! حتى الجنرال ديجول رئيس حكومة فرنسا الذى يشاع أنه نصير للحق العربى، لم يفكر قط فى أن فلسطين للعرب وأن اليهود مغتصبون لها، غاية ما صنع أنه ـ لأمر ما ـ وقف ضد التوسع اليهودى الحالى، وأيد ما يسمى: «محو آثار العدوان».

أما بقاء إسرائيل فى موقعها المرسوم المحدود فليس موضع جدل فى العالم الغربى.

وإلى جانب الصهيونية والصليبية عملت الشيوعية العالمية عملها فى إقامة إسرائيل، وساندتها فى المجال الدولى مساندة مكشوفة، ولا ريب أن الشيوعيين يسرهم أن ينقسم العرب قسمين واهيين إثر قيام إسرائيل فى مكانها الموجع الذى تحتله الآن، فإن ضعف الإسلام ـ بضعف العرب ـ يساعد على نشر الشيوعية وإزاحة سدود ضخمة من أمامها، وموقفها الحالى من التوسع اليهودى تمليه ظروف سياسية معقدة.

وسط هذه الفتن والمحن أقبلت اليهودية العالمية تريد استعادة نشاطها الأول، معتقدة أن الإسلام أكذوبة يجب أن تنتهى، وأن أمته خرافة آن أن تزول، أى أن الهدف المخطط هو إزالة دين، ومحو أمة!

وإسرائيل الكبرى تمتد شرقًا وغربًا من الفرات إلى النيل، وتهبط جنوبًا حتى تشمل الحجاز، وتستوعب مكة والمدينة! وحجتهم أنه فى هذه البقاع تجول أسلافهم وانتشروا، وأن الظروف التى شردتهم قد انتهت، وأن العرب الذين يستوطنون هذه الأرض ليسوا أهلاً للبقاء فيها، وأن المقدسات الإسلامية إنما تستمد مكانتها الروحية من تعلق أصحابها بها وقدرتهم على حمايتها، ولكن «محمدًا مات وترك بنات»!!

هكذا كانت مظاهرات اليهودية تجأر بالهتاف فى مدينة القدس حيث المسجد الأقصى، وقد رأيت بعينى صور الجنود اليهود يحملون التوراة فى اليد اليمنى

والمسدسات فى اليد اليسرى وهم على صهوات دباباتهم المنطلقة بهم فى ربوعنا المقفرة وأرضنا الذليلة الموحشة.

إن الأمانى التى دفنت فى تراب الذل نحو ثلاثين قرنًا انتفضت بالحياة بغتة، وجرت معها عداء الصليبية لرسالة التوحيد، وعداء المادية لرسالات السماء، ولوحى الله جملة وتفصيلاً، ثم هجمت على العرب المنقسمين على أنفسهم، الزائغين عن رسالتهم، واستطاعت أن تكسو وجوههم بالقار، وأن تملأ ديارهم بالعار.

صــراع المطـرودين والتائهــين

صاحب القلب القاسى لا يجدر به أن يحمل عناصر الرحمة لغيره، وصاحب الذهن المغلق ليس أهلاً لتوعية الآخرين، وفاقد الشيء لا يعطيه، وحامل الكتب الذى لا يدرى ما فيها لايصلح تلميذًا، فكيف يكون أستاذًا؟

لهذا صرف الله رسالته عن اليهود إلى العرب؛ لعل الآخرين يحسنون الوصاية عليها والسير بها.

وإن كان اليهود بعد ما رأوا هذا التحول المباغت فى ابتعاث الأنبياء قد استماتوا فى تكذيب الرسالة الجديدة والعدوان على صاحبها، فقال الله جل شأنه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾ صدق الله العظيم.

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم سجلت هذه المقارنة بين اليهود والعرب تسجيلاً يحمل فى أطوائه مسالك يجب أن تدرس وفرائض يجب أن تعرف، لأنها تعرفنا بما وقع من غيرنا، وما ينبغى أن يقع منا.

فى سورة آل عمران وصفنا الله بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ لماذا؟ أهو امتياز عنصرى أو تفضيل جغرافى؟ كلا، لا هذا ولا ذاك، إنما هو لخصائص خلقية وفكرية تنفع الإنسانية جمعاء بعدما تنفع أصحابها أولاً، هذه الخصائص هى قوله: ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾.

وهذه الخصائص هى التى فقدها أصحاب الرسالة السابقة فعزلوا عن منصب القيادة العامة للنـاس، لذلك قال مباشــرة: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾.

والأمم تؤاخذ بما يسود كثرتها الكبرى من عوج ورذيلة، ووجود قلة صالحة لا يغنى عنها ولا يجنبها المصير المحتوم.

وظاهر من تعبير القرآن الكريم أن قدر الأمة مرتبط بمدى إيمانها، وأن سبقها لغيرها، وترجيحها عليها، منوطان بحرصها على فضائلها.

وإلا فسوف يصيبها ما أصاب غيرها.

ومن أخطاء أهل الكتاب الأولين أنهم ظنوا أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وأنهم قادرون على فضله يمنحونه من شاءوا، وقادرون على مغفرته يبيعونها صكوكًا لمن يدفع الثمن، وهذا كله تطاول بالباطل، فإن الأفراد والأمم تعلو إذا قدرت على التحليق، وتهبط إذا فترت منها الهمم، وغلب عليها الكسل.

وليس لأحد قط أن يتدخل فى هذه القوانين الصارمة: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

ولذلك عندما رسم القرآن الكريم الطريق أمام الأمة الجديدة بين أن الله يختار من يشاء من خلقه؛ ليحمله ما يشاء من أمره، فقال جل جلاله: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

ثم شرح بعد ذلك الرسالة التى آذن العرب بحملها، والأعباء الشريفة التى تقترن بها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ۩ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

وظاهر من هذا السرد التاريخى أنه كان هناك شعب مختار فَسَدَ فَعُزِل. وأن هناك شعبًا آخر وقع عليه الاختيار، ليبلغ رسالات الله ويضىء الطريق أمام الأحياء.

نعم هناك شعب آخر مكلف أن يتصدر الركب الإنسانى المنطلق يحدوه باسم الله، ويعطيه الأسوة الحسنة من تمسكه بهداه، شعب يتعلم من محمد ثم يعلم

الآخرين، ويطبق تعاليمه على نفسه ثم يجعل منها نماذج لغيره: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

تلك هى الحقيقة التى تاه عنها جمهور كثيف من العرب، فتخطفته زبانية الأرض، ثم هوت به فى مكان سحيق!

والصراع الدائر الآن هو بين المطرودين من أصحاب الرسالة الأولى، وبين التائهين من أصحاب الرسالة الخاتمة.

انتقـــال حـــاســم

من رحمة الله بعباده أنه يقيل عثراتهم، ويغفر زلاتهم، ولا يؤاخذهم لأول ما يفرط منهم، وقد أمهل بنى إسرائيل طويلاً كيما يتوبوا لرشدهم، ويعتذروا عن أخطائهم، وبعث فيهم أنبياء كثيرين يذكرونهم بالله ويخوفونهم نقمته، لكن القوم لم يرعووا ويدعوا ماهم فيه، بل تأدت بهم الشراسة الجامحة أن يعتدوا على أنبياء الله فيقتلوا من ضاقوا بنصحه منهم: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١ ﴾، وكان آخر اختبار سقطوا فيه موقفهم من عيسى ـ عليه السلام ـ فقد جاءهم هذا الإنسان الصالح يبغى ترقيق قلوبهم، وتهذيب طباعهم، وإلزامهم حدود الله وتعاليم الوحى الأعلى، واعتناق حقيقة الدين بدل الاستمساك بقشوره والخروج على جوهره، ولكنهم سخروا منه أقبح سخرية، ورموه وأمه بأغلظ الإفك، ثم ابتغوا قتله كشأنهم مع من سبقه، بيد أن الله نجاه منهم ووقاه شرهم، وكان هذا كما قلنا آخر اختبار لبنى إسرائيل، فقد كانت النبوات وقفًا عليهم، وهدايات السماء تنبعث من أرضهم.

وطالما سطعت أشعة الوحى فى ساحات المسجد الأقصى على أيدى رسل كرام، غير أن هذه الأشعة ضاعت بين غيوم كثيفة من الشهوات، ومحا أثرها شعب عز على العلاج بعد أن تغلغل الفساد الخلقى والاجتماعى فى أعماقه، وقررت العناية العليا أن تنقل قيادة الإنسانية من جنس إلى جنس، أو من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل أو من اليهود إلى العرب، كان عيسى ـ عليه السلام ـ آخر إسرائيلى يرسل إلى قومه، وكان تكذيبهم له آخر جرم يختم به

تاريخهم الدينى، ثم يجىء دور العرب بعدئذ ليفتتحوا صفحة جديدة فى الحياة، بعدما ملأ اليهود الصفحات السابقة بمخازيهم ومآسيهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

وفى تسويغ هذا الانتقال الحاسم، وسرد أسبابه وملابساته، وفى تعريف العرب بمكانتهم الإنسانية الجديدة، ودورهم القيادى الخطير، وفى تقرير الواجبات الثقيلة التى تفرضها هذه الرسالة العظمى على العرب، فى هذا كله نزلت آيات شتى نريد أن نتدبرها ونتدارس دلالاتها وأبعادها: يقول الله لنا ـ نحن العرب ـ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ويقول للنبى الخاتم ﷺ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾، ويقول عن منازل الناس فى خدمة هذه الرسالة والوفاء لها:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم بين الله للعرب لماذا ملكهم زمام الوحى بعد أن انتزعه من اليهود، وكيف يتقاضاهم ذلك الإخلاص لله وحراسة رسالته والسهر على أدائها، فلننظر إلى سورة الجمعة، وكان يوم الجمعة فى الجاهلية يسمى يوم العروبة، حتى غلبت التسمية الشرعية نظرًا للصلاة الجامعة التى تحشد الناس فيه، بدأت هذه السورة بتسبيح الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم شرعت تتحدث عن العرب، وكيف اختار الله منهم نبيًا يربيهم ليربى بهم العالم ويعلمهم ليعلم بهم الآخرين:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾،

نعم كان العرب قبل الإسلام فى جاهلية طامسة وتأخر ظاهر، ثم أحيا الإسلام

مواتهم، وأعلى ذكرهم، ونقلهم بتعاليمه من السفوح إلى القمم، ومن ذيل القافلة البشرية إلى طليعتها: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، ثم يذكر الله جل شأنه فى هذه السورة لماذا آثر العرب بهذه المنزلة بعد أن كانت قديمًا لغيرهم، فيقول:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وهذه الآية واضحة فى أن اليهود فقدوا صلاحيتهم لحمل رسالات السماء فقدانًا أبديًّا لأنهم فقدوا القدرة على الانتفاع بالوحى الإلهى ولم يستطيعوا تهذيب أنفسهم به، فكيف يقدرون على تهذيب غيرهم؟

ظهر خطئى

ظننت لأول وهلة أن حديث القرآن الكريم على بنى إسرائيل إنما كثر واستفاض بعد الهجرة النبوية، أى بعد أن جمع اليهود والمسلمين وطن مشترك وجوار قريب.

ثم تبينت خطئى بعد أن تدبرت الوحى النازل فى مكة، فقد ظهر لى أنه تكرر ذكر بنى إسرائيل فى القرآن المكى تكرارًا يشمل أغلب السور.

ولا عجب، فقد ذكر اسم موسى - عليه السلام - فى القرآن نحو مائة وعشرين مرة، فما ذكر اسم نبى ولا ملك بهذه الكثرة، ولاتحدث الوحى عن أمة من الأمم الأولى كما تحدث عن اليهود.

لقد جاء ذكرهم فى الأنعام والأعراف والإسراء وطه ويونس وجميع الحواميم والطواسين وسور أخرى كثيرة.

والسور التى أحصيناها هنا مكية كلها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ آية من سورة النمل المكية.

وعجيب أن اليهود فى مكة نفر لا يؤبه لهم أن يعنى القرآن بقصصهم كل هذه العناية!

ولقد ساءلت نفسى: ما السبب فى هذا السرد المفصل لتاريخ بنى إسرائيل فى مكة قبل المدينة؟

أهو تعريف المسلمين بحقيقة القوم الذين سيخالطونهم فيما بعد؟

إن هذه إجابة غير مقنعة.

وبعد تأمل غير قليل وجدت أن هذا التاريخ يحوى فى طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم، واستقلالها بأمورها، وازدهار حضارتها، كما يحوى العناصر الحقيقية لانهيار الأمم، وذهاب ريحها، واضمحلال أمرها.

والقصص القرآنية من أبرز الوسائل لتربية الأفراد والجماعات، وقد كان المسلمون المستضعفون فى مكة بحاجة إلى أن يعرفوا كيف تحول اليهود الأوائل من ذل هائل إلى تحرر وتمكين، وما هى الفضائل التى لابد من استجماعها كى تبلغ الأمم هذه الغاية الكريمة، وقد تولت السور المكية هذا الشرح، ورأت القلة

المستضعفة كيف تحول شعب تذبح صبيته، وتستحيا نسوته، إلى شعب مكين فى الأرض سيد على ظهرها!

وقد سئل ابن القيم: أَيُمكَّن للرجل أولاً ثم يبتلى، أم يبتلى ثم يُمَكَّن له؟ فقال: يبتلى أولاً ثم يمكن له، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

والآية من سورة السجدة المكية، وهى تنبه إلى أن الصبر واليقين أسس الكفاح الطويل الذى يصل بالأمم المناضلة إلى هدفها.

وقد أكد القرآن هذه الحقيقة الاجتماعية فى سورة الأعراف:

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾.

وهكذا تفاوتت مصاير أقوام كانت بداية أمرهم متفاوتة أبعد التفاوت، فالفراعنة يصدرون الأوامر بالقتل والسبى، وحملة التوحيد يمضون فى الطريق المضرجة بالدماء والأحزان.

فأما الأولون فقد جنوا عاقبة جبروتهم صغارًا وانهيارًا:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أما الآخرون المعتصمون بحبل الله، المستمسكون بعروة الإيمان والتقوى، فقد ظفروا وعمروا: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾.

إلا أن البشر كثيرًا ما ينجحون فى امتحانات البأساء والضراء، حتى إذا وسع الله عليهم وغمرتهم نعماؤه لم يحسنوا اجتياز الاختبار الجديد.

وما أكثر الذين حولتهم السلطة إلى جبابرة متسلطين وحولتهم الثروة إلى طغاة مستكبرين.

أسبــاب ونتــائــج

اشتبك العرب مع اليهود أربع مرات: سنة ١٩٤٨، سنة ١٩٥٦، سنة ١٩٦٧، سنة ١٩٧٣، وانهزمت دولهم فى أغلب هذه المعارك هزائم شائنة، وطالما بقيت الروح الدينية والأساليب الخلقية لدى العرب على المستوى المعهود فى معاركهم السابقة، فلن يكسبوا معركة أبدًا، بل سيخسرون وجودهم كله، ويذهبون فى خبر كان.

إن اليهود يقاتلون بدافع من إيمان، ويعملون كما شرحنا آنفًا لتحقيق رسالة دينية ومدنية معًا، أما العرب فإن ساستهم خلال خمسين سنة كانوا ينفذون مخططًا استعماريًا لإبعاد الدين عن آفاق الحياة الخاصة والعامة! ويوم يلتقى رجل ملتهب المشاعر بعقيدة ما، مع رجل لم يستنر فؤاده بحقيقة دينه، بل لا يدرى من حقائق هذا الدين قليلاً ولا كثيرًا، فماذا تكون النتيجة؟ إنها الهزائم التى ذقناها، إنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقف أمام معتدين باسم الدين إلا مدافعون باسم الدين، إن اليهودى يأبى أن يأكل لحم الخنزير مثلاً، لأنه يحترم دينه، ولديه ضمير دينى يمنعه من هذا الطعام بقوة، أما المسلم الذى أمامه فهو يشرب الخمر المحرمة فى دينه دون ضمير رادع! ولست أتهم كل أحد بهذا الاتهام، ولكن عددًا من القادة والضباط يشربون الخمر جهرة فى شتى الجيوش العربية، واليهودى يتعبد يوم السبت، ويصوم الأيام المقررة عنده.

وعندنا لفيف ضخم من الرجال لا يصلون الجمعة، ولا يصومون رمضان، بل إن الصلاة متروكة فى بعض الجيوش فى كل الأوقات.

فإذا طوينا هذه الصفحة من المخالفات لأمر الله، فلنلفت النظر قبل طيها إلى أننا لا نبكى لمعاصٍ فردية تقع من هذا أو ذاك، أو أننا نرد نتائج ضخمة إلى سيئات محدودة، كلا، كلا، إننا نميط اللثام عن حقيقة مخيفة، وهى أن الدين أُبعِد إبعادًا متعمدًا عن ميادين الحرب والسلام جميعًا، وأنه حظر على صوت الإسلام أن يخترق الآذان بالتوجيه الواجب، بينما كانت اليهودية تعمل عملها فى جبهة القتال ووراء الجبهة، فهل نلام إذا تصورنا أن إبعاد الإسلام عن هذه الميادين ليس إلا عملاً لحساب إسرائيل، أو لحساب القوى التى تساندها كليًا أو جزئيًا؟ كل الدلائل تشير إلى صدق هذا الاتهام، والغريب أن العرب فى تفلتهم من قيود الدين وآدابه ظهرت عليهم

أعراض طفولة عقلية ونفسية مزرية، فلم يتصرفوا مع عدو أو صديق تصرف الرجولة الناضجة والسيرة الواثقة الجادة، بل على العكس، كانت خططهم الحربية هزيلة وكانت مع هزالها مفضوحة، وكانت خطبهم ذات رنين عالٍ ولهجة مفزعة، فلما التقى الجمعان تكشف اللقاء عن مهزلة، بل إننا انهزمنا من غير قتال، وانتحرنا دون أن نلحق بخصومنا ضرًا يذكر، والمرتقب من كل عاقل أن يدرس هزيمته، ويحدد عللها؛ حتى يتجنبها مستقبلاً، فهل فعلت الدول العربية ذلك؟ وهل رسمت سياستها التربوية والدعائية والعسكرية على ضوء ما مسها من كروب؟ لم يقع شيء من هذا، وأذكر أنى كنت أتحدث مع مقاتل شهد معركة الصبحة فى الخمسينات، فقال لى: والله لقد قاتلنا بشدة وعزم، فقلت له: لكن اليهود استولوا على الموقعٍ! فقال: إننا والله كبدناهم خسائر جسيمة، غير أننا ما كنا نحصد منهم صفًا بمدافعنا حتى ينبت مكانه صف آخر وهو يرتل الأناشيد الدينية، وهززت رأسى عجبًا وأنا أسمع هذا الكلام، ثم تساءلت بينى وبين نفسى: كم نشيدًا دينيًا يحفظه شبابنا؟ كم آية قرآنية تغرى بالاستشهاد، أو حكمة نبوية توحى بالثبات والتحمل يعيها ضباطنا وجنودنا، ويرددونها فى ساعات الهول؟ إذا كانت الحاجة أم الاختراع فالإيمان أبو الاختراع وأمه، إن المؤمن يؤرقه طلب النصر، ويفتق له وجوه الحيل، ويبصره بأنواع الخدع، ويبعثه على التنقيب فى فجاج الأرض وآفاق السماء، راصدًا العدو، مستعدًا لمواجهته، أفذلك ما فعله العرب؟ لا، لأن بناءهم النفسى والاجتماعى لم ينهض على قواعد الإسلام، ثم اعترتهم الطفولة الفكرية والخلقية التى ذكرناها، فإذا هم ينكرون هزائمهم ويزعمون أنها انتصارات، وقد قرأت مقالات شتى تريد لتقنعنا بأن الهزيمة ليست فقدان الأرض، وضياع المعدات، وخسارة الرجال!! لا، إن الهزيمة عند هؤلاء شيء آخر لا تعرفه قواميس اللغة ولا مفاهيم الناس، وهكذا.

يقضى على المرء فى أيام محنته
حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسن

وأحقر ما سمعته فى أعقاب هذه الهزائم تعليل الهزيمة بأى شيء إلا ضعف العقيدة والخلق، وما ينشأ عن ضعف العقيدة والخلق من فوضى فى وضع الخطط، وترتيب الرجال، ونسيان الله، والحرمان من توفيقه وتأييده، ويوم يقع قياد العرب فى أيدى ساسة من هذا الطراز، فهيهات أن ينجح لهم قصد، أو تعلو لهم راية، ولله فى خلقه شئون!

صــورة غــير صحيحــة

نحَّى الله أبناء إسرائيل عن المنصب الذى لم يقدروه قدره، واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية، حيث عجز أبناء عمومتهم، كان من المنتظر من بنى إسرائيل أن يستغلوا تمكين الله لهم فى نصرة دينه وإسعاد عباده، إلا أنهم سرعان ما فتكت بهم جراثيم السطوة والثروة؛ فلم يفلتوا من الجزاء المعد لأمثالهم:

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وقد بين الله للمسلمين مراحل هذا التبديل لنعمة الله، وأوضح مظاهره فى أخلاق القوم ومسالكهم، وما فعل جل شأنه ذلك إلا ليتجنب المسلمون المزالق التى هوت بغيرهم، فإن الأمم لا تنكب جزافًا، ولا تساق إليها المصائب خبط عشواء، ولكنها قوانين الله التى يخضع لها الأولون والآخرون، ولا تقبل فيها شفاعة، ولا يقف حكمها استثناء. والغريب أن التوجيه الذى قيل لهؤلاء قيل لأولئك على تباعد الزمان بين الفريقين. ففى لذعة من لذعات الألم صرخ بنو إسرائيل بنبيهم موسى قائلين: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

ترى! إذا تحررتم وسدتم تحسنون وتعدلون؟ أم ترتكبون الآثام وتستحلون المحارم؟ وبعد أعصار طوال جيء بالأمة الإسلامية بعد إقصاء بنى إسرائيل الذين أساءوا وظلموا، فماذا قال الله للأمة الجديدة؟ قال:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ذات القول الذى قيل لبنى إسرائيل من قرون سحيقة! فلنقارن بين تاريخ

وتاريخ، وعوج وعوج؛ لنعرف ما لنا وما علينا. وهل وفينا أم غدرنا؟ وهل ما أصابنا كان جور الليالى علينا؟ أم هو صنع أيدينا وحصاد ما غرسنا؟ إذا كلف الله أمة برسالة ما فيجب أن تكون أحوالها الظاهرة والباطنة، ومعاملاتها الداخلية والخارجية صورة دقيقة لهذه الرسالة، صورة تجذب الآخرين لها، وتغريهم باعتناقها. أما أن ينفر الدعاة غيرهم من قبول الدعوة، فهذه هى الخيانة الكبرى. وحملة الدعوة المخلصون يخشون أن يقع لهم أو يقع منهم ما يكون حجابًا للآخرين أو عائقًا عن تصديق دعوتهم.

وبهذا فسر العلماء قول المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وكيف يكون المؤمنون فتنة للذين كفروا؟

قال المفسرون: تصيبهم هزائم بسبب تقصيرهم، فينظر الكفار إلى هذه الهزائم ويقولون: لو كانوا على حق ما مستهم تلك المصائب. إن الدعاة الصادقين يخشون أشد الخشية أن يكونوا عبئًا على رسالتهم أو سببًا للتحول عنها. ولعل هذا سر قول النبى ﷺ: «**من آذى ذميًا كنت خصمه**». لماذا؟ لأن إيذاء الذمى ليس ظلمًا عاديًا لواحد من الناس، كلا، إن الذمى المظلوم سوف يعتقد أن مصدر متاعبه هو دين المؤذى لا شخصه. وبذلك يكره الدين وصاحبه وينصرف عن الدخول فيه، فتكون مساءة فردية سببًا فى كفر أفراد وجماعات.

واليهود عاملوا الأمم الأخرى بأسلوب حافل بالدناءة والشر، وتواضعوا على أكل أموالهم، واستباحة حقوقهم، وافتروا على الله تعاليم يزعمون فيها أنه ليس عليهم من حرج فى هذا اللون من السلب والاختطاف:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

ولن تنكب أمة رسالتها بأسوأ من صرف الناس عنها بهذه الطريقة الخسيسة. ومن المؤسف أن المسلمين أثاروا فى أفق الدعوة الإسلامية ضبابًا لا آخر له بقولهم وعملهم على سواء. فتخلفهم العلمى مزعج، وهبوطهم الخلقى شديد، وهذا

وذاك صدود عن سبيل الله وفتنة كبرى! وربما كان المسلمون فى معاملاتهم للأجانب عن دينهم وبلادهم أدنى إلى الشرف والكرم، بل ربما كانوا هم المغبونين المرجوحين. بيد أن المسلمين ـ بيقين ـ لا يعطون صورة صحيحة ولا مقاربة للإسلام. والشعوب المتطلعة إلى التفوق العلمى، والكرامة السياسية، والرفاهية الاجتماعية، والإنتاج الواسع، وغير ذلك من مظاهر الارتقاء الأدبى والمادى، فى قنوط تام من أن يكون المسلمون نماذج لهذا أو لشىء منه. وهذه الشعوب المتطلعة ترد الأمية الشاملة بين جماهير المسلمين إلى الدين الذى توارثوه لا غير. فإذا كانت تعاليم الإسلام فى الأوج وكانت حال المسلمين فى الحضيض، فإن هذا التناقض سيظل أبدًا مثار ارتداد عن الإسلام، أو اتهام له.

ألقاب

كتب السلطان سليمان القانونى ـ خليفة المسلمين فى عهده ـ إلى ملك فرنسا الرسالة الآتية، وكان الملك الفرنسى قد أرسل يستنجد به لهزائم أصابته فى حروبه، ونحن نورد مقتطفات من نص الرسالة، ثم نعقب عليها ببيان وجهة نظر الدين فيما جاء فيها، لنطهر الدين من لوثات بعض من حكموا باسمه، فإن الشرق ـ وأغلب نهضاته على الدين ـ بحاجة إلى دروس متتابعة فى فقه الحكم وإلزام الحكام حدودهم المشروعة، وهذا بعض ما جاء فى هذه الرسالة:

«سلطان السلاطين، وملك الملوك، ومانح الأكاليل لملوك العالم، ظل الله على الأرض، باشاده سلطان البحر الأبيض والأسود، وبلاد الرومللى والأناضول وقرصان وأرزوم وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم ودمشق وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وسائر بلاد العرب واليمن وإيالات شتى، فتحها سلفاؤنا العظام وأجدادنا الفخام بقواتهم الظافرة، وكثير من البلاد التى أخضعتها عظمتى الملوكية بسيفى الساطع، أنا ابن السلطان سليم بن السلطان بايزيد شاه، السلطان سليمان خان أكتب إليك يا فرنسيس حاكم بلاد فرنسا: إن الكتاب الذى طرحته أمام سدتى الملوكية ملجأ الملوك على يد فرنكيان المستحق لثقتك، والألفاظ الشفاهية التى حملها إلىَّ قد علمت منها أن العدو مستحكم من مملكتك حتى صرت له أسيرًا، وتطلب إنقاذك، فجميع ما قلته عرض على أعتاب كرسى عظمتى التى هى ملجأ العالم وقد فهمت شرحه وأحاط علمى الشريف به... إلخ».

هذا مطلع الرسالة التى نريد التعليق عليها، أرأيت إلى ما تضمنته من ألقاب الجلال والرفعة والتسامى، إنه هو الذى سنقف عنده لنقول حكم الله فيه، فإننا إذا أبصرنا مواضع الخطأ فى الماضى عرفنا كيف نتجنب الانزلاق إليها فى المستقبل. هذه الرسالة لم تملها روح الإسلام، بل سطرت حروفها مظاهر الجبروت التى أحاطت بالحكام فى القرون الأولى، وبذل الإسلام جهود الجبابرة ليجرد أدوات الحكم منها، ويعلم الأمم كيف تتمرد بين الحين والحين عليها.

وليس للسلطان سليمان ولا لغيره من الحكام أن يضيفوا إلى أسمائهم هذه

المجموعة الفريدة من الألقاب المفتعلة والأوصاف التى أخذ أكثرها من الصفات الإلهية المقدسة، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنه لما بلغته ألقاب كسرى ملك فارس وصف صاحبها بأنه أخنع رجل عند الله، وعندما كانت سلطة الحق الإلهى المزعوم تسند الحكام شرقًا وغربًا، كان أبو بكر رضى الله عنه ـ الخليفة الأول للإسلام ـ يقول: «أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتم خيرًا فأعينونى، وإن رأيتم شرًّا فقومونى». هذه الديموقراطية الواضحة جعلت عمر رضى الله عنه ـ مقوض الإمبراطوريات الشامخة ـ يسمى نفسه أمير المؤمنين فقط ويرغب عن كل إضافة أخرى تعطى اسمه فضل جبروت على الناس، وهذا التجرد من ألقاب القداسة ومظاهر الأبهة قصد به الإسلام أن يجعل من الحاكم رجلاً يؤخذ منه ويرد عليه، وتنقد تصرفاته كلها فما كان منها صوابًا أقر، وما كان منها خطأ رد عليه ولا كرامة، أما وصف أى إنسان من البشر بأنه «ظل الله فى أرضه» فوصف عجيب حقًا، إن كان يراد به تمثيل العدالة الإلهية فى الأرض، فإن الرجل فى أسرته والعمدة فى قريته، والمأمور فى مركزه، والمدير فى مدينته كلهم ظلال الله فى الأرض، وفى هذا التعبير ضرب من الشعر والخيال مقصود، أما إن كان ظل الله فى الأرض رجلاً يمثل الألوهية بين الناس، فهو يفعل ما يشاء، ويستعبد من يشاء، ويتخذ الحكم ذريعة لهذه السيادة السقيمة، فإن هذا الظل يجب أن يتقلص، فليس الناس عبيدًا إلا لرب واحد: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وقد تلقب سلاطين الأتراك بما شاءوا من أمارات الجاه وشارات المجد ولم يخجلوا من الاتصاف بأنهم ظلال الله فى الأرض ـ كما ترى فى هذه الرسالة ـ مع أن تاريخ الاستبداد السياسى يحفظ فى طياته صورًا مخزية لهذه الظلال المريبة، ويوحى بأن هذه الظلال كانت لمردة وشياطين، إن صلة الحاكم بالله لا تزيد على صلته جل وعلا بأى عبد من عباده، وقد روى أن رجلاً جاء إلى أبى بكر رضى الله عنه يناديه: يا خليفة الله، فغضب أبو بكر ولم ير نفسه أهلاً لهذه الإضافة الخطيرة، مع أن الخلافة عن الله أقرب إلى الحقيقة الإنسانية العامة من «ظل الله» التى ينحلها الحكام المستبدون لأنفسهم، إذ إن البشر جميعًا استخلفهم الله لعمارة الأرض وتنظيم شئونها.

وقد استكثر أبو بكر رضى الله عنه على نفسه هذه الصفة خشية أن ترمز إلى معنى من معانى القداسة المكذوبة، وهو أعرف الناس بأن الحاكم رجل من

الشعب، اختاره عن رضا ليتولى أمره، وأنه إذا شاء أبقاه وإذا شاء أقصاه، وأن الشعب يملك عليه كل شيء ولا يملك هو للشعب أى شيء.

أما نظرية العصور المظلمة فى فهم الحكم والحكام فقد رفضها الدين رفضًا حاسمًا، ولكن هذا لم يمنع بعض السلاطين أن يعيدوا خرافة الحكم الفردى، وأن ينعتوا أنفسهم بما قرأت من نعوت لا يقرها دين.

ضريبة الدم والمال

الرجل الذي يعيش لنفسه فقط. لا ينتفع به وطن، ولا تعتز به عقيدة ولا ينتصر به دين لا قيمة له، ولا قيمة لإنسان يكرس حياته لإشباع شهواته وقضاء لباناته فإذا فرغ منها لم يهتم لشيء ولم يبال بعدها بمفقود أو موجود.

مثل هذا المخلوق لا يساوى فى ميزان الإسلام شيئًا، ولا يستحق فى الدنيا نصرًا ولا فى الآخرة أجرًا.

لا قيمة للإنسان إلا إذا آمن بربه ودينه، ولا قيمة لهذا الإيمان إلا إذا أرخص الإنسان فى سبيله النفس والمال، وقد بين لنا القرآن الكريم أن الرجل قد يحب أن يعيش آمنًا فى سربه، وادعًا بين ذويه وأهله، سعيدًا فى تجارته، أو مطمئنًا فى وظيفته، مستقرًا فى بيته، ومستريحًا بين أولاده وزوجته. بيد أنه إذا دعا الداعى إلى الحرب وقرعت الآذان صيحات الجهاد؛ فيجب أن ينسى الإنسان هذا كله، وأن يذهل عنه فلا يفكر إلا فى نصرة ربه وحماية دينه وإنقاذ آله ووطنه. وإلا فإن الإسلام منه برىء.

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

والأمة التى تستثقل أعباء الكفاح وتتضايق من مطالب الجهاد إنما تحفر لنفسها قبرها وتكتب على بنيها ذلاً لا ينتهى آخر الدهر.

وما ساد المسلمون إلا يوم أن قهروا نوازع الخوف، وقتلوا بواعث القعود، وعرفتهم ميادين الموت أبطالاً يردون الغمرات ويركبون الصعاب.

وما طمع الطامعون فيهم إلا يوم أن أخلدوا إلى الأرض، وأحبوا معيشة السلم، كرهوا أن يدفعوا ضرائب الدم والمنال، وهى ضرائب لابد منها لحماية الحق وصيانة الشرف، ولابد منها لمنع الحرب وتأييد السلام.

إن كثيرًا من المسلمين يحبون أن يعيشوا معيشة الراحة والهدوء والاستكانة



برغم ما يهدد بلادهم من أخطار، وما يكتنف مستقبلهم من ظلمات، وحسبهم من الدنيا أن يبحثوا عن الطعام والكسوة، فإذا وجدوا من ذلك ما يسد المعدة ويوارى السوأة فقد وجدوا أصول الحياة واستغنوا عن فضولها.

وتلك لعمرى أحقر حياة وأذلها، وما يليق ذلك بأمة كريمة على نفسها، بله أمة كريمة على الله أورثها كتابه وكلفها أن تعمل به وأن تدعو الناس إليه.

ألم يسمع هؤلاء أنباء الحروب العظيمة التى دارت رحاها فى الغرب؟

ألم يروا ضرب البسالة وألوان التضحية التى كان يبذلها كل فريق؟

ألم يروا كيف أن جنودًا تنتحر ولا تستسلم للأسر، وأن فرقًا من الفدائيين كانت تقف حياتها على المهمات القاتلة، فهم يدفعون أرواحهم ثمنًا لها، فى غير وجل أو تردد؟

فأى حياة ترجوها الشعوب الخوارة والكسول إلى جانب هؤلاء؟ وأى نصر يطلبه أهل الحق إذا أغلوا حياتهم، على حين يرخص أهل الباطل أنفسهم فى سبيل ما يطلبون؟

وإذا ضننا على الله بضريبة الدم والمال. فما طمعنا فى نصرته أو أملنا فى جنته. وهو القائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾؟!

إن الإسلام دين فداء ودين استشهاد. عرفه كذلك أسلافنا الأمجاد، فأحرقوا أعصابهم وعظامهم فى سبيل الله، لا يبالون بالموت، كيف وهو الذى يطلبون، وفيه يرغبون؟

فكان هذا الشعور المغامر هو الدعامة المكينة التى بنوا عليها تاريخهم، وسجلوا فيه صحائف خلودهم، فعاش من عاش سعيدًا ومات من مات شهيدًا.

بالنفس والنفيس

يخرج الجندى من وطنه، حيث يعيش هادئًا آمنًا، إلى ساحة الميدان حيث يحمل من الأعباء ويتحمل من المخاطر ما يحتاج إلى بأس شديد وعزم حديد.

وقد قدر الإسلام هذه المشقات حق قدرها، وتكفل الله عز وجل لها بأضعاف أجرها.

فى الميدان الرحيب، تهب الرياح السافية، وتهيج العواصف العاتية، وتمتلئ صدور المجاهدين بالغبار، وتتراكم على ملامحهم وملابسهم وأقدامهم سحب التراب. هذا كله يحفظه الله للمجاهد المخلص الصبور.

فقد جاء عن النبى ﷺ: **«لا يجتمعان فى جوف عبد: غبار فى سبيل الله ودخان جهنم»**، **«ما من رجل يغبر وجهه فى سبيل الله إلا آمنه دخان النار يوم القيامة، وما من رجل تغبر قدماه فى سبيل الله إلا آمن الله قدميه من النار يوم القيامة»**.

وعندما يلقى الليل على الكون أستاره، وينتدب من الجند من يقوم بحراسة المعسكر، ومراقبة الأعداء. فإن يقظة الجندى الساهر على حياة إخوانه، والتفاته لكل حركة، واكتشافه لكل ريبة، إنما هو ضرب من العبادة والتهجد يزيد على الصوم والصلاة.

وتلك أيضًا حسنة تدخر للمؤمن عند الله: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله».

والجندى فى الميدان يتعرض للقتل، كما يعرض أعداء الله له، ويقع فى مآزق ضيقة، ويواجه أزمات معنتة، وتهيج فى نفسه مشاعر القلق، ويخاف تارة على نفسه، وتارة على من معه.

والذى يواجه الموت فى كل ساعة لا يستغرب منه أن تتوتر أعصابه وأن يقشعر إهابه، لكن حساب هذه العاطفة المتوجسة لا يضيع عند الله أبدًا، كما جاء على لسان رسوله ﷺ: **«ما خالط قلب امرئ رهج - وجل - فى سبيل الله إلا حرم الله عليه النار»**.

وليست حياة المجاهد فى ميادين القتال هى الحياة الرتيبة التى ألفناها، ولا معيشته هى المعيشة السهلة المريحة التى عرفناها، فإن التعب عنصر مشترك فى كل ساعة من ساعاته.

أما الرجل الذى ينصرف إلى الدنيا ويترك دينه ينهزم فى كل ميدان؛ فلن ينال خير الدنيا، ولن يذوق حلاوة الإيمان، وقد قال النبى ﷺ: «**لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين**».

عن شداد بن الهاد: أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فآمن به ثم قال له: أهاجر معك؟ - وكان من الأعراب البدو - فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه وضمه إلى جنده.

فكانت غزوة انتصر فيها المسلمون وغنم النبى ﷺ فيها شيئًا، فقسمه على من معه وأرسل إلى الأعرابى نصيبه، فلما وصل إلى الأعرابى قال: ما هذا؟

قال ﷺ: **حظك من الغنيمة قسمته لك.**

قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى بسهم ههنا - وأشار إلى حلقه بيده - فأموت، فأدخل الجنة.

فقال له الرسول ﷺ: **إن تصدق الله يصدقك.**

ثم نهضوا فى قتال العدو.. وما لبثوا إلا قليلاً حتى جىء بالأعرابى محمولاً، وقد أصابه سهم فى حلقه حيث أشار بيده.

قال النبى ﷺ: **أهو هو؟**

قالوا: نعم.

قال ﷺ: **صدق الله، فصدقه.**

ثم كفن فى جبة النبى ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه.

فكان مما ظهر من صلاته على الأعرابى القتيل: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا فى سبيلك. فقتل شهيدًا. وأنا على ذلك شهيد**».

ثمـن واحــــد.. لبضائــع مختلفــة

إن الشجاعة قد تكلف صاحبها فقدان حياته، فهل الجبن يقى صاحبه شر المهالك؟

كلا. فالذين يموتون فى ميادين الحياة وهم يولون الأدبار أضعاف الذين يموتون وهم يقتحمون الأخطار..؟

وللمجد ثمنه الغالى الذى يتطوع الإنسان بدفعه، ولكن الهوان لا يعفى صاحبه من ضريبة يدفعها وهو كاره حقير. ومن ثم فالأمة التى تضن ببنيها فى ساحة الجهاد تفقدهم أيام السلم، والتى لا تقدم للحرية أبطالاً يقتلون وهم سادة كرام، تقدم للعبودية رجالاً يشنقون وهم سفلة لئام.

هكذا من لم يسهر نفسه للتعليم أيامًا، أسهره الجهل أعوامًا، ولو حسبنا ما فقده الشرق تحت وطأة الجهل والفقر والمرض؛ لوجدناه أضعاف ما فقده الغرب وهو يبحث عن العلم والغنى والصحة..

ومادام الشيء وضده يكلفان الكثير، فلماذا نرضى بالحقير ولا نطمع فى الخطير؟

ألا ما أجمل قول الشاعر:

إذا غَـــامَـــرْتَ فـــى شــرفٍ مَـــرُومِ
فـــلا تَـــقْـــنَـــعْ بما دونَ الـــنُّـــجـــومِ
فـــطـــعـــمُ الموتِ فـــى أمـــرٍ حـــقيرٍ
كـــطـــعـــمِ الموتِ فـــى أمـــرٍ عـــظـــيـــمِ

والذين يحسبون البذل فى سبيل الله مغرمًا يستحق الرثاء، والموت فى سبيل الله تضحية تستحق العزاء، هم قوم ليسوا من الدين فى شيء، ولا من الدنيا فى شيء، وحق على هؤلاء أن يدفنوا وهم أحياء، وأن يرقدوا فى مهاد الذل، لا ليستريحوا، ولكن لتستجاب فيهم دعوة خالد بن الوليد:

«لا نامت أعين الجبناء».

إن اللصوص عندما يقومون بمغامراتهم الجريئة للسلب والنهب لا يأخذون من الموت أمانًا، ولا ينالون من الحظ ضمانًا، بل يقدمون وهم يعرفون أن القتل

والعذاب لهم بالمرصاد، ومع ذلك لا يهابون، فكيف الحال إذا تشجع اللصوص وخاف أصحاب الحقوق المهددة وساورتهم الهواجس على أموالهم وأولادهم؟

كيف الحال إذا أقبلت الدول الضاربة الغاصبة، وأدبرت الدول المضروبة المغصوبة؟

كيف الحال إذا ضحى أصحاب العدوان ونكص أصحاب الإيمان؟

إن القرآن يخاطب المؤمنين فى صراحة مبينًا لهم أن المغارم قسمة عادلة بين المؤمنين والكافرين جميعًا فى ميادين الكفاح والبقاء.

أيما امرئ نكص على عقبيه مهزومًا فقد سقط من عين الله..

يقول القرآن لأصحاب الحق: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾.

ويقول: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾، فهل يفر من الألم والجرح والتعب، والكدح فى سبيل الله إلا مجرم دنىء.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

إن المسلمين ينفقون مئات الملايين من الجنيهات على الدخان. تلك الحماقة التى تحرق بين الأصابع والشفاه، على غير فائدة، فهل كلفنا ميدان الشرف نصف ما كلفنا ميدان الترف؟ كلا.

ذاك فى المال. أما فى الرجال فكم تقدم من الشهداء الأبرار فداء لعقيدتنا وكرامتنا؟ إن ضحايا هذا الجهاد النبيل - إن صحت تسميتهم ضحايا - لم يبلغوا أبدًا نصف ما قدمته هذه البلاد للأوبئة والأمراض الفتاكة، وشتان بين موت وموت..

فلنحمل مواثيق الكرامة بعزة وشمم، ولنأخذ سبيلنا الفذة فى طليعة الأمم.

ولندفع الثمن فى سبيل الله طوعًا وإلا دفعناه فى سبيل الشيطان على رغمنا، ثم لا أجر لنا.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

والعيب فينا

هل تحسب أن الله يكرم أمة من الأمم بدين عظيم فتأبى هى الكرامة، ثم تعكس هوانها على دينها، وبعد ذلك تفلت من العقاب الأعلى؟ كلا.. ومن هنا تتابعت السياط الكاوية على الأمة المفرطة، وتناولتها اللطمات من كل جانب. وبلغ من إيجاع القدر للمفرطين أن اليهود كانوا هم الأداة التى ضربوا بها، كأن المسلمين لن يضربوا بعصا حين أخطئوا، لقد ضربوا هذه المرة بإخوان القردة ونعال الأرض. وما من منكر ارتكبه أبناء إسرائيل قديمًا واستحقوا به غضب الله إلا فعل المسلمون فى العصور الأخيرة مثله. وكتابنا شاهد علينا، فلننظر: ما الذى نسب إلى هؤلاء؟ ولنقارن بين ما وقع منا، وما نسب إليهم، أخذت المواثيق على بنى إسرائيل ألا يسفكوا الدماء، وألا يروعوا الآمنين، وألا يشردوا رجلاً من بيته، ويخرجوه من أهله. ففعلوا ذلك كله، وفعلنا نحن مثله.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. وهذا الميثاق يتضمن ـ بلغة عصرنا ـ ضمانات لحقن الدماء، وحفظ الحريات، وإشاعة الطمأنينة.

والواقع أن القيمة العليا، أو الميزة العظمى للمجتمع المتدين أن يكون الإيمان مصدر أمان لكل فرد فيه، وأن يكون الإسلام مبعث سلامة وعافية ورضى. أما أن يحيا الضعيف قلقًا على حرمانه، وأن يمشى فى البلاد خائفًا يترقب، أما أن ينتفخ القوى ويبسط يده بالأذى دون رادع، أما أن يستطيع ملاك السلطة اختطاف الناس من بيوتهم أو بتعبير القرآن الكريم إخراجهم من ديارهم، فهذا وضع لا يستقر معه إيمان.

ومن جوامع الكلم للنبى ﷺ: «**الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن**» أى أن الإيمان يغل اليد عن العدوان ويحجز عن الأذى.

وقد أخذ الله على بنى إسرائيل ـ قديمًا ـ أنه لما قامت لهم دولة، وملك بعضهم السلطة، هانت عليه أخوة الدين، فبغى، وأفسد، وقاتل وأسر.

وقد نظرت إلى تاريخ المسلمين - خصوصًا هذه الأعصار - فوجدته نسخة أخرى من خلال اليهود الذين قبح الشارع صنعهم، وأوهى بناءهم، حتى لقد خُيِّل إليَّ أن الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط دون غيرها - من شعوب الأرض - أقل استمتاعًا بالحقوق الطبيعية للإنسان.

ولقد رأيت بعض المعارضين يفرون من وجه الحكام إلى أوروبا، فإذا وراءهم من يقتلهم حيث لجأوا.

فماذا يقول الأوروبيون الذين لا يدينون ديننا فى مثل هذه التصرفات؟ وكيف يكون رأيهم فى الإسلام وأهله؟

أذكر أنى منذ ربع قرن كتبت خاطرة بعنوان «حرب الحزازات وحرب العصابات» قارنت فيها بين ضحايانا من القتلى فى الخصومات العائلية، وبين ضحايا الشعوب التى تقاتل من أجل حرياتها، فوجدت ضحايانا أكثر فى هذا الشقاق العائلى أو هذا النزاع الداخلى بين المسلمين.

كأن فينا نزل قوله تعالى: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ﴾، والأمة التى يعتدى بعضها على بعض، تحرم عناية الله وبركاته فى الأولى والآخرة، وقد عرفنا كيف كرم الله بنى آدم، وكيف نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة ثم قال: « **ما أطيبك وأطيب رائحتك.. وما أعظمك وأعظم حرمتك. والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، حرمة دمه وعرضه وماله** ». إن هذه مقدسات، ومع ذلك فإن الجور استباحها. لما كان الإسلام كلاًّ لا يتجزأ؛ فإن الله عدّ استباحة بعض محارمه إضاعة لها كلها، كما عد الكفر ببعض أنبيائه كفرًا بهم جميعًا: ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

والتلويح بعدم النصر إشارة إلى أن وسائل القسوة والبطش لا تكسب ذويها عزًّا فى الدنيا، كما لا تكسبهم كرامة فى الدار الآخرة. ومن خيانة الأمة لرسالتها أن تبرد عاطفتها تجاه حقوق الله، وأن تجعل حبها وبغضها مرتبطًا بمصالحها

لا بمبادئها. ولو أنك رأيت امرأ ينظر إلى علم بلاده وهو يُمزِّق مثلاً ثم لا يبالى، ما ترددت فى الحكم عليه بأنه خائن، كذلك عندما ترى تابعًا لدين ما يستهين بشعائر دينه فما يعنيه حلالها ولا حرامها، فإنك ما تتردد فى اتهام عقيدته. ويوجد ناس ما يسوؤهم أبدًا أن تعطل الصلاة، ولا أن تذبح الأعراض. أهؤلاء بينهم وبين الله علاقة حسنة؟ مستحيل. فإذا رأيتهم يصادقون تاركى الفرائض، وفاعلى المناكر، فهل يحسبون مع ذلك فى عداد المؤمنين؟ كلا.

عندما تحلل اليهود من دينهم على هذا النحو قال فيهم: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

صدق الله العظيم.

شـــروط أولـــى

من الظاهر أن تقاليد الخير تذبل وتتلاشى مع ضعف الحماس لها، وأن تقاليد الشر تنمو وترسو مع ضعف النكير عليها.

من أجل ذلك كانتْ الخصائص الأولى للأمة التى تحمل رسالة الإسلام: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكانت الشروط الأولى لانتصارها أن يكون هذا النصر طريقًا لتكوين بيئة تزدهر فيها العبادة، ويسودها التراحم، وتستحكم فيها الرقابة على السلوك العام، وتظهر العلامات الحمراء والخضراء باستمرار فى طريق المبادئ والأخلاق، فما كان معروفًا سمح له بالمرور، وإلا وقف فى مكانه وأغلقت فى وجهه كل الطرق، ذلك معنى قوله جل جلاله فى سرد مؤهلات النصر: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.

فهل أرض الإسلام الآن على هذا المستوى الشريف الغيور اليقظ؟ أم أن العلل الخلقية والاجتماعية استوطنت بلادنا، وغفا الحراس عنها أو غطوا فى نوم عميق؟

فى اليهود الذين وبخهم الوحى الإلهى، وورد لعنهم على لسان المرسلين تقرأ قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

فهل هذا الوصف للمجتمع اليهودى اللعين وحده؟ أم تراه صادقًا على مجتمعات شتى فى العواصم الإسلامية الصاخبة بالعصيان ودواعيه، الطافحة بجراءة الفساق، وجبن العلماء؟ أيحسب عاقل أن هذه أسباب النصر والتحرر؟

إن فى بلادنا من يدافع عن حرية الإلحاد، والسكر، والزنى، بلسان طلق، فإذا حدث عن حرية الإيمان والعفاف واليقظة الفكرية والأدبية امتعض واشمأز، فهل يجر الهزيمة والعار إلا مثل هؤلاء؟ والله عز وجل ما أكرم أحدًا قط لصورة اللحم

والدم، إنما أكرم من عباده من زكت شمائلهم، وطهرت سرائرهم، وصلحت علانيتهم، وساروا فى أرضه دعاة له، يمجدون اسمه، وينفذون حكمه، ويرفعون علمه.

من استجمع هذه الخلال فهو سيد، وإن كان من الجنس الأبيض أو الأصفر أو الأسود، فما للون ولا للنسب وزن عند الله.

وقد ذكرنا أن بنى إسرائيل كرموا ونعموا يوم حملوا رسالة التوحيد، وتحملوا فى سبيلها العنت.

ثم زعموا بعد ذلك أن تكريمهم وتنعيمهم ليس لهذه الأسباب، إنما هو لأنه بينهم وبين الله صلة خاصة، جعلت جنسهم ممتازا على الخلق كافة.

بم هذا الامتياز؟ لقد قال الله لهم ولمن زعم زعمهم: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾.

والغريب أنه فى هذا العصر الأعجف فعل العرب مثل ما فعل اليهود الأقدمون، فقالوا: نحن عرب، عظمتنا ليست من رسالة الإسلام التى درسناها وطبقناها، لقد كنا أمة عريقة قبل أن يجىء الإسلام، ويمكن أن نكون أمة عريقة بعيدًا عن تعاليم الإسلام.

ومن ثم قامت فى بلاد العرب نهضات تؤخر الدين وتقدم الجنس.

وهذا كلام من أبطل الباطل، فالعرب قبل الإسلام كانوا أمة نكرة، وبغير الإسلام سيكونون ذيلاً للبشرية.

إن نبذ الوحى الإلهى والافتخار بمكانة مفتعلة عند الله أو عند الناس أمر عابه على بنى إسرائيل، ويعيبه على العرب أبناء إسماعيل.

وفى هؤلاء وأولئك يمكن أن يساق قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾.

ومما يندى له جبين المسلم المخلص فى هذه الأيام السود أن اليهودى الأمريكى طرح جنسيته وجاء فلسطين باسم الدين.

أما العرب فيقال لهم: انسوا الدين واعتصموا بجنسيتكم العربية وحدها.

فماذا كانت النتيجة؟

أضاعت القومية العربية فلسطين، وظفر بها اليهود وأقاموا بها إسرائيل.

حيـــاة المجـاهـد

ليست حياة المجاهد فى ميادين القتال هى الحياة الرتيبة التى ألفناها، ولا معيشته هى المعيشة السهلة المريحة التى عرفناها، فإن التعب عنصر مشترك فى كل ساعة من ساعاته.

عليه أن ينتظر تخلف ضروراته عن موعدها، وأن يتحمل فراغ البطن، وجفاف الحلق، وطول السهر، وكثرة السفر، وحدوث المفاجآت، ووقوع المضايقات.

غير أن شيئًا من هذا لا يجوز أن يخذل مؤمنًا عن الجهاد، ولا أن يؤخره عن أداء الواجب المكتوب عليه لنصرة الله ورسوله ﷺ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

والمغارم والمصارع والجروح الخفيفة أو الغائرة، أمور معتادة فى الحرب، فلا يجوز أن نجزع لها أو نتراجع تحت وطأتها. وما يصيبنا من هذه الأحداث هو شهادة نلقى الله بها، ووجوهنا نضرة، ونفوسنا مستبشرة.

من جرح جرحًا فى سبيل الله، أو نكب نكبة، فإنها تجىء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك.

وفى الوقت الذى تشهد فيه على الفجار جوارحهم بما اقترفوا من آثام تكون جروح المجاهدين دلائل ناطقة بما تحملوا فى ذات الله وما بذلوا فى سبيل الله.

إن الإسلام لا ينشئ الحرب إنشاء، إنما يلجأ إليها إلجاء، والمحرج يدفع عن نفسه كيف يشاء، ويثير الحفائظ، ويستصرخ الهمم، ويحشد الجهود، ويستنفد آخر ما لدى المؤمنين من طاقة وحول؛ ليمهد لنفسه ويزيح العقبات من طريقه.

ولذلك يقول الله لنبيه: ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾.

فلا غرو أن يجعل الله فترة الجهاد كلها سلسلة حسنات لصاحبها؛ حتى يتعلم المسلمون الاستقتال فى رفع رايتهم وتدعيم مكانتهم؛ وحتى تكون حياتهم إعدادًا واستعدادًا، لا ينتهيان حتى ينتهى الليل والنهار، فلا يضن أحد بنفقة، أو يبخل بجهد، أو ينكل عن تضحية، وكل غال فى سبيل إعلاء الحق يهون.

ساروا مع رسول الله ﷺ ليلة ساهرة يوم حنين، فأطنبوا فى السير حتى كان عشية، فحضرت صلاة الظهر فجاء فارس، وقال: **يا رسول الله.. إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت فوق بعض الجبال، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم ـ بظعنهم ونسائهم ونعمهم ـ اجتمعوا إلى حنين.** فتبسم الرسول ﷺ قائلاً: **تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله، ثم قال ﷺ: من يحرسنا الليلة؟** فقال أحد الفرسان: أنا يا رسول الله. **قال ﷺ: اركب، فركب فرسه وجاء إلى الرسول مستعدًا.**

فقال له الرسول ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه، ولا تغرن من قبلك الليلة ـ أى لا يخدعك أحد من العدو ـ فلما أصبحنا خرج الرسول ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ثم قال: هل أحسستم بفارسكم؟ قالوا: لا، ما شعرنا به.. فثوب بالصلاة، فجعل الرسول ﷺ يصلى وهو يتلفت إلى الشعب حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا. فقد جاء فارسكم، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر فى الشعب الكثيف، فإذا به قد جاء حتى وقف بجوار الرسول ﷺ، فقال: إنى انطلقت حتى كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرتنى يا رسول الله، فلما أصبحت استكشفت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحدًا.

فقال له الرسول ﷺ: هل نزلت الليلة؟ قال: لا.. إلا مصليًا أو قاضى حاجة، فقال له الرسول ﷺ: لقد أوجبت ـ أى لنفسك الجنة ـ فلا عليك ألا تعمل عملاً بعدها.

زعـــم بــاطــل

كان إسرائيل رجلاً صالحًا يحيا مع أولاده فى بادية الشام، كان رب أسرة كبيرة من هذه الأسر التى تنتظر رزق الله فى أرضه الواسعة. لم يكن صاحب إقطاعيات ضخمة، ولا سلطة معروفة، وما يزيد عن غيره من البدو إلا بدعوة التوحيد التى حرص عليها. وكان أولاده ـ حاشا يوسف الصديق عليه السلام ـ أصحاب خلق ردىء، وغيرة ذميمة، وعندما أجدبت البادية، وتعرض سكانها للمجاعة، استضاف يوسف أباه وإخوته؛ ليجدوا فى مصر كهفًا يأوون إليه ويطعمون من خيره. وشكرًا لهذه النعمة، وتنويهًا بحقها، وتوديعًا للماضى المؤسف جاء على لسان يوسف لأبويه وإخوته: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾، وقولــه كذلـك: ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾.

فهل إذا استضافت مصر أسرة محرجة كان ذلك صك عبودية لمصر؟ أى ضيافة فى الدنيا تتبعها هذه المزاعم؟ ما كان إسرائيل صاحب حقوق فى بادية الشام، ولا كان صاحب حقوق فى وادى النيل. ثم نمت العائلة الضيفة ووقعت بينها وبين المصريين جفوة لم تتبين أسبابها بجلاء، هل ترجع إلى أن أفرادها كرهوا الاندماج فى الشعب المصرى؟ أو ترجع إلى أن أفرادها لم يشتركوا فى مقاومة الغزاة الذين هاجموا مصر؟ أم كلا الأمرين؟ إلا أن هذه الجفوة حوَّلها فرعون إلى حرب إبادة لا عدل فيها ولا رحمة. وقضت حكمة الله ألا يتجاور الشعبان فى أرض واحدة، فبعث موسى عليه السلام بطلب معقول، هو السماح لبنى إسرائيل بمغادرة البلاد، فناشد موسى فرعون أن يقبل ذلك:

﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾.

إلا أن جنون العظمة استبد بفرعون، وأبى الأحمق إلا أن يدخل فى عناد مع القدر انتهى آخر الأمر بمصرعه. ونجا بنو إسرائيل من العذاب المهين، وأراد

موسى عليه السلام أن يدخل بهم فلسطين؛ ليجدوا فيها الأمن الذى ينشدون، وكانت فلسطين عصرئذ مسكونة بنفر من الجبابرة العتاة، ما كاد نبأهم يقرع مسامع بنى إسرائيل؛ حتى ضجوا من الفزع، وأبوا إباءً تامًا أن يجيبوا موسى إلى طلبه. ومنذ ترك موسى وقومه مصر أخذت المخازى النفسية لليهود تتكشف، ويظهر أن هذه المخازى كانت مطوية تحت ثياب الذل والمسكنة، فلما شعروا بالتحرر؛ أخذوا يجمحون يمنة ويسرة دون ضابط، وكان موسى عليه السلام أول من تعرض لأذى قومه، وسوء عشرتهم، واستجابتهم وتقديرهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾. وقضت حكمة الله أن يؤدب بنى إسرائيل، فأتاهم فى صحراء سيناء أربعين سنة مات خلالها هذا النبى الكريم وهو ضائق بقومه، وهلكت فى التيه الأجيال التى لا تصلح للحياة والجهاد، ونبت جيل آخر كتب الله له أن يدخل فلسطين. نعم دخلها لينفذ سنة كونية لم يمض كبير وقت بعدها؛ حتى تطبق عليه نفسه هذه السنة الصارمة، فتنفذ فيه كما نفذت فيمن سبق. إن الجبابرة السابقين احتلت أرضهم وغلبوا على أمرهم، ثم جاء بنو إسرائيل من بعدهم؛ ليقيموا حكمًا دينيًا صالحًا يوفر لهم ولغيرهم الأمان والإيمان. وكانت التوراة بين أصحابها دينًا ودولة، وكان لهم فيها هدى ونور. فهل أقام بنو إسرائيل ذلك المجتمع المنشود، وأخلصوا لله فيه؟ إنهم سرعان ما فسقوا عن أمر الله واستشرت فيهم العلل التى أومأنا إليها آنفًا. فإذا بختنصر وقومه يهجمون على المتدينين الكذبة، ويدمرون هيكلهم، ويسوقون الألوف المؤلفة من شبابهم أسرى إلى (بابل)، وانهارت إسرائيل ولما يمض على تكوينها زمن يذكر. ومنح الله بنى إسرائيل فرصة ثانية، فتحرروا من الأسر البابلى واستردوا قواهم الضائعة، وأقاموا الهيكل، واستأنفوا تاريخهم، بيد أن العلل الكامنة فى دمائهم لم تفارقهم، وتفاقمت شرورهم بالعدوان على رسل الله، واستباحة دمائهم. وقد أنهى الرومان الحكم الإسرائيلى الثانى، واحتلوا فلسطين كلها. فكم تظن مدة الحكمين اليهوديين لفلسطين؟ قرابة مئة وثلاثين سنة.. ولم يكن هذا الانهيار السياسى ختام الوجود الدينى لليهود، بل كان ختام وجودهم الدينى كما ذكرنا تكذيبهم لرسالة عيسى بن مريم عليه السلام، فإن الله جل وعز نقل النبوة بعدها إلى العرب، وبذلك انتهى دور بنى إسرائيل فى توجيه الضمير البشرى.

هل حكم بنى إسرائيل لبقعة ما فى الشرق الأوسط قرنًا أو قرنين يعطيهم فيها حقوقًا أبدية؟ اللهم، لا.. إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما تسلم القدس من بطريقها المسيحى اشترط عليه هذا البطريق الناصح ألا يدخل اليهود القدس، وليتنا تذكرنا هذا الشرط، ولكننا ننسى، وقد عرف المؤرخون أن تسامحنا الدينى الطويل تحول إلى غفلة دفعنا ثمنها فادحًا.

سلام اليهود فى الماضى والحاضر

عندما جاء الإسلام إلى المدينة المنورة وهو دين الإنصاف عرض على اليهود معاهدة للسلام قال لهم: نقر حرية التدين، نعترف بحرية العقل والضمير، لكل إنسان أن يعتنق الدين الذى يحب، وأن يبقى عليه ما يشاء،وبيننا وبينكم فى المدينة جوار، فلنرع حق الجوار، ولنتعاون فى دفع أى عدو يفكر فى الهجوم على المدينة بوصف أن لنا مصالح مشتركة فيها، فهى وطننا الذى يضمنا والبلد الذى يؤوينا!! ولم يجد اليهود بدًا من أن يقبلوا المعاهدة؛ لأن فيها الإنصاف والعدالة، ولا معنى لاعتراض هذا الكلام، قبلوا المعاهدة على مضض، أمضوها برضا ظاهر، ولكن ضيقهم النفسى بها بدأ يظهر على مر الأيام، امتد شطط اليهود فى معاملاتهم وعلاقاتهم بالإسلام، كان ينبغى أن يكونوا محترمين للمعاهدة التى أُبرمت بينهم وبين المسلمين، ولكن كيدهم للإسلام أخذ يتزايد، ووضعوا خطة فيها شىء من المكر والدهاء، قالوا لا بأس أن ننفى عن أنفسنا تهمة التعصب، وأن يدخل بعض منا فى الإسلام على أساس أنه يتوسم فيه الخير، ويظن به الحق، ثم بعد قليل يرجع عنه ويرتد ويقول: ظهر لنا أنه دين لا يصلح، لقد كنا غير متعصبين، ودخلنا فيه، فلما انكشف لنا أنه باطل وضلال تركناه!!

هذه هى الخطة التى وضعوها، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾. وصبر المسلمون على هذا التحدى، وهذا المكر، وتلك المؤامرات، ولكن اليهود مضوا فى طريقهم، طريق العداوة، يقولون: ما لهذا الرجل يتبع قبلتنا ولا يدين بديننا؟

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى مكة يرى أن الأصنام المحيطة بالكعبة تمنع من اتخاذها قبلة، فكان يتجه إلى بيت المقدس إشعارًا بأنه نبى له كتاب،

وأنه موحد، وأنه يرفض الوثنية، ولما انتقل إلى المدينة المنورة مهاجرًا هو وأصحابه بقى الأمر على ذلك، فكان اليهود يضيقون، ويقولون مبكتين أو منكتين: ما لهذا الرجل يتبع قبلتنا ولا يدين بديننا؟ فتمنى الرسول ﷺ ودعا دعاءً حارًا أن يصرفه عن هذه القبلة وأن يعزم له على قبلة أخرى، وكان ينظر إلى الأفق متشوقًا إلى خبر يجيء من السماء يأذن له بالاتجاه إلى القبلة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.
ولما تسافه اليهود، وكثر لغطهم، وتحدثوا عن تغيير القبلة حديثًا فيه شيء من العدوان والتحدى، قال لهم القرآن الكريم: إن التعلق بالشكليات هو عمل التافهين من الناس، وإن الأمر عند الله ليس أمر شرق أو غرب، أو شمال أو جنوب، إن الأمر عند الله أكبر من ذلك، إن الله يقرب الإنسان إليه يوم يكون الإنسان صادق اليقين، شريف الأخلاق، حسن التعاون مع الناس، صبورًا على البأساء والضراء، مؤديًا لحقوق ربه، يصلى له ويصوم، ويزكى من أجله وينفق، يوم يكون الإنسان كذلك يكون عبدًا صالحًا، أما الشكليات فلا قيمة لها، ما التعلق بقبلة هنا أو هناك؟

إنها أمور رمزية فقط، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾.
وحكى سبحانه ستة عناصر يتكون البر منها:

﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

ومضى اليهود فى تحديهم، كان الكلام فى تغيير القبلة فى شهر شعبان، كان الكلام والجدل الطويل حول بيت المقدس والمسجد الحرام، فى شهر شعبان، فى رمضان وقعت معركة (بدر) وقال اليهود بعد أن رأوا النصر الحاسم الذى أحرزه المسلمون، قالوا للمسلمين: لا تغتروا إن وجدتم ناسًا لا يحسنون الحرب فهزمتموهم، لئن التقينا بكم لتعلمن أنا نحن الناس!

هذا النوع من التحدى غريب، وانضم إليه أن شعراء اليهود أخذوا يرثون قتلى قريش فى معركة بدر! وهذا تصرف منكر، فإن المعاهدة المبرمة تحولت بعد ذلك كله إلى حبر على ورق! وإذا كان اليهود فى المدينة يعاملون المسلمين على هذا الأساس، فإن الوفاء بالمعاهدة من جانب واحد يصبح نوعًا من الضعف! ومع ذلك فإن النبى الحليم الكريم ﷺ والصحابة رضى الله عنهم من حوله، كانوا يصابرون الأيام حتى يقع ما لابد من وقوعه وخان اليهود المسلمين ونقضوا المعاهدة تلو المعاهدة كشأنهم دائمًا؛ فاستحقوا الطرد من المدينة المنورة ثم من الجزيرة العربية بكاملها.

طبيعة الرسالة الخاتمة

تمتاز بعثة محمد ﷺ بأنها عامة ودائمة، والله عز وجل يستطيع أن يبعث فى كل قرية نذيرًا، ولكل عصر مرشدًا، وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين، فلم استعيض عن ذلك كله برجل فذ؟ الحق أن هذا الاكتفاء أشبه بالإعجاز الذى يحصل المعنى الكثير فى اللفظ اليسير، وبعثة محمد ﷺ كانت عوضًا كاملاً عن إرسال جيش من النبيين يتوزع على الأعصار والأمصار، بل إنها سدت مسد إرسال ملك كريم إلى كل إنسان تدب على الأرض قدماه، ما بقيت على الأرض حياة، وما تطلعت عين إلى الهدى والنجاة، ولكن كيف ذلك؟ فى المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين: أغمض عينيك واتبعنى، أو: لا تسلنى عن شىء يستثيرك! وربما تكون السلامة فى طاعته، فأنت تمشى وراءه حتى تبلغ مأمنك، إنه فى هذه الحال رائدك المعين، الذى يفكر لك، وينظر لك، ويأخذ بيدك، فلو هلك هلكت معه. أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير، وحذرك مواطن الخطر، وشرح لك فى إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون المتاعب، وسار معك قليلاً ليدربك على العمل بما علمت، فأنت فى هذه الحال رائد نفسك، تستطيع الاستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك. إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسذج أما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأى من الناس، والله عز وجل عندما بعث محمدًا عليه الصلاة والسلام لهداية العالم، ضمن رسالته الأصول التى تفتق للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون، والقرآن الذى أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حى، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشد. لم يكن محمد ﷺ إمامًا لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه، فلما انتهى ذهبوا معه فى خبر كان، بل كان قوة من قوى الخير، لها فى عالم المعانى ما لاكتشاف البخار والكهرباء فى عالم المادة، وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور فى الوجود الإنسانى، كان البشر قبلها فى وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه، ثم شب الطفل عن الطوق ورشح لاحتمال الأعباء وحده، وجاء الخطاب الإلهى إليه عن طريق محمد ﷺ يشرح له كيف يعيش فى الأرض، وكيف يعود إلى السماء فإذا بقى محمد ﷺ أو ذهب؛ فلن ينقض ذلك من جوهر رسالته، إن رسالته تفتيح الأعين والآذان، وتجلية البصائر والأذهان وذلك

مودع فى تراثه الضخم من كتاب وسنة. إنه لم يبعث ليجمع حول اسمه أناسًا قلوا أو كثروا، إنما بعث صلة بين الخلق والحق الذى يصح به وجودهم، والنور الذى يبصرون به غايتهم. فمن عرف فى حياته الحق، وكان له نور يمشى به فى الناس، فقد عرف محمدًا ﷺ، واستظل بلوائه، وإن لم يره ولم يعش معه، فأمامه الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ، ويتشبث بثيابه وهو حى، أو يتعلق برفاته وهو ميت، فاعلم أنه طفل غرير، ليس أهلاً لأن يخاطب بتعاليم الرسالة بله أن يستقيم على نهجها. فى مسجد النبى ﷺ بالمدينة رأيت حشدًا من الناس يتلمس جوار الروضة الشريفة ويود أن يقضى العمر بجانبها، ولو خرج النبى حيًا على هؤلاء لأنكر مرآهم وكره جوارهم، إن رثاثة هيئتهم وقلة فقههم، وفراغ أيديهم، وضياع أوقاتهم وطول غفلتهم تجعل علاقتهم بنبى الإسلام ﷺ أوْهَى من خيط العنكبوت. قلت لهم: ما تفيدون من جوار النبى ﷺ، وما يفيد هو نفسه منكم؟ إن الذين يفقهون رسالته ويحبونها من وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقة محمد ﷺ منكم. إن القرابة الروحية والعقلية هى الرباط الوحيد بين محمد ﷺ ومن يمتون إليه، فأنى للأرواح المريضة والعقول الكليلة أن تتصل بمن جاء ليودع فى الأرواح والعقول عافية الدين والدنيا.. أهذا الجوار آية حب ووسيلة مغفرة؟

إنك لن تحب الله إلا إذا عرفت أولاً الله الذى تحب من أجله، فالترتيب الطبيعى أن تعرف قبل كل شىء: من ربك، وما دينك، فإذا عرفت ذلك بعقل نظيف وزنت بقلب شاكر جميل من بلغك عن الله وتحمل العنت من أجلك، وذاك معنى الأثر «**أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة وأحبونى بحب الله**»، ومعنى الآية:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم إن نبى الإسلام ﷺ لم ينصب نفسه «بابا» يهب المغفرة للبشر ويمنح

البركات، إنه لم يفعل ذلك يومًا ما، لأنه لم يشتغل بالدجل قط، إنه يقول لك: تعال معى أو اذهب مع غيرك من الناس لنقف جميعًا فى ساحة رب العالمين نناجيه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾. فإذا رضى عنك هذا النبى؛ دعا الله لك.. وإذا رضيت أنت عنه ووقر فى نفسك جلال عمله وكبير فضله؛ فادع الله كذلك له، فإنك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

وليس عمل محمد ﷺ أن يجرك بحبل إلى الجنة، وإنما عمله أن يقذف فى ضميرك البصر الذى ترى به الحق، ووسيلته إلى ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ميسر للذكر، محفوظ من الزيغ وذاك سر الخلود فى رسالته.

اليهود في المدينة المنورة

استوطن اليهود فى الجاهلية التى سبقت الإسلام جزيرة العرب، كانوا يكونون لأنفسهم مستعمرات قوية حصينة فى المدينة المنورة، وشمال المدينة إلى خيبر، وأكثر المؤرخين يرى أن اليهود قدموا إلى هذه البقاع فرارًا من الاضطهاد الذى كان الرومان يوقعونه بهم، وأنهم فى جوف الصحراء وبعيدًا عن بطش الرومانية، استطاعوا أن يحيوا فى هذه البقاع على ما يشتهون، كانوا فلاحين مهرة، وكانوا كذلك تجارًا مهرة، وعاشوا يتاجرون ويزرعون، ويستغلون القبائل العربية استغلالاً للمصلحة اليهودية وحدها، فهم يبيعونهم السلاح، وهم يعاملونهم بالربا، وهم حريصون على إشعال نار الفرقة بين العرب، فإنهم ماداموا مختلفين يكون استقرار اليهود فى المدينة أبقى وأدوم، وهذه طبيعة اليهود!

هل فكر اليهود أن ينشروا دينهم فى الجزيرة العربية؟ لا؛ لأن اليهود ليسوا دعاة إلى دين، اليهود يعتقدون أنهم أسرة مفضلة، أو شعب مختار، وأن من حقهم أن يسودوا العالم وأن يستغلوه!

وكما نسوا الدعوة إلى التوحيد فإنهم استباحوا الربا، وكذلك عطلوا حد الزنا واستهانوا بالجريمة نفسها، وخلائق اليهود فى الاستهانة بالعقيدة وما ينبنى عليها من فضائل وما تورثه من ضمير يعاف الرذيلة وينفر منها، هذه الخلائق اليهودية لاتزال مع اليهود إلى الآن.

فلو أن اليهود ـ فرضًا ـ سادوا العالم وملكوه؛ فهل سيقدمون لدين الله خيرًا؟ وهل سيرفعون بتعاليم السماء رأسًا؟ أو يزكون بها نفسًا؟ لا، هذا شىء لا يخطر ببالهم! إن فكرتهم عن الله أنه اختارهم، وعن أنفسهم أنهم ينبغى أن يملكوا الأرض ومن عليها وما عليها!.. هكذا عاشوا، وهكذا يعيشون.

وعندما ظهر الإسلام وانتقل تحت الضغط والاضطهاد من مكة إلى المدينة، وجد اليهود ـ على النحو الذى وصفناه لكم الآن ـ ناسًا يسكنون بقاعًا خصبة، غنية، قوية، محصنة لهم فيها تاريخهم الجديد، وآمالهم العراض، وهم يعيشون مستغلين فرقة العرب ووثنيتهم؛ كى يحيوا هم، ويمتدوا وتنمو ثروتهم وتكثر.

فلما جاء الإسلام ـ والإسلام دين إنصاف ـ عرض على اليهود ما لا معدى لهم

عن قبوله، قال لهم: نقر حرية التدين، نعترف بحرية العقل والضمير، لكل إنسان أن يعتنق الدين الذى يحب، وأن يبقى عليه ما يشاء، وبيننا وبينكم فى المدينة جوار، فلنرع حق الجوار، ولنتعاون فى دفع أى عدو يفكر فى الهجوم على المدينة بوصف أن لنا مصالح مشتركة فيها، فهى وطننا الذى يضمنا والبلد الذى يؤوينا!

ولم يجد اليهود بدًا من أن يقبلوا المعاهدة، لأن فيها الإنصاف والعدالة، ولا معنى لاعتراض هذا الكلام. قبلوا المعاهدة على مضض، أمضوها برضا ظاهر، ولكن ضيقهم النفسى بها بدأ يظهر على مر الأيام، كيف ظهر؟ يتحدث القرآن الكريم عن تاريخ العلاقة بين اليهود والمسلمين على نحو نحب أن نتدبره.

فهو أولاً يذكر: أن اليهود كرهوا الإسلام، وضاقت به صدورهم، وهذا تصرف غريب، فإن الإسلام دين توحيد، والذين يخاصمونه عباد أصنام، ولو أن اليهود يخلصون لله ولأنفسهم، ولو أن عندهم احترامًا للتعاليم التى ورثوها بينهم لقالوا: الإسلام أقرب إلينا من الوثنية، وعبادة الله أقرب إلى ديننا من عبادة الأصنام، ولذلك كان ينبغى أن يهشوا للمسلمين، أو على الأقل يدعوا المسلمين وشأنهم، لا حب ولا بغض، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن المشاعر النفسية لهم نحو الإسلام ونبيه فيقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾.. ولماذا يودون ويتمنون أن يرجع الموحدون كفارًا يعبدون الأصنام؟ قال جل شأنه: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾.. فماذا نصنع معهم؟ قال: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]. ووقع شىء آخر حكاه القرآن، فقد ذهب وفد من اليهود إلى مشركى العرب فى مكة يحرضهم على محمد ﷺ ومن معه! فسألهم زعماء مكة من عبدة الأصنام وقالوا لهم: حدثونا أنتم أهل الكتاب، وخبراء بما نحن عليه وبما يدعو إليه محمد، نحن أفضل منه أو هو أفضل منا؟ فقال زعماء اليهود: بل أنتم خير منه وأفضل!

وقص القرآن السؤال والإجابة عليه، وهى إجابة فاجرة، حتى أن بعض مؤرخى اليهود حزنوا لهذه الإجابة، وقالوا: ما كان ينبغى أن يكون رد اليهود بهذا الأسلوب المزعج، لأن تفضيل الوثنية على التوحيد جريمة منكرة!

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

صدق الله العظيم.

اليـــهـــــود والمعــاهـــدات

تحولت المعاهدة المبرمة بين المسلمين واليهود فى المدينة المنورة إلى حبر على ورق بسبب تصرفات اليهود المعهودة ونقضهم المواثيق والعهود؛ حتى أصبح الوفاء بالمعاهدة من جانب واحد هو جانب المسلمين، وأصبح هذا الوفاء يمثل نوعًا من الضعف.

ومع ذلك فإن النبى ﷺ الحليم الكريم والصحابة رضى الله عنهم من حوله، كانوا يصابرون الأيام حتى يقع ما لابد من معاقبته، وذهبت امرأة مسلمة إلى سوق (بنى قينقـ ع) تشترى حلية لها، فسخر اليهود بائعو الذهب منها وعلقوا شوكة بذيلها، فلما قامت تعرت وانكشف جسدها، فصرخت، فقام أحد المسلمين ورأى الوضع فقتل اليهودى الذى صنع هذا، فتمالأ اليهود عليه وقتلوه، وبلغ الأمر النبى ﷺ فحشد جنده وهجم بهم على سوق بنى قينقاع، وعلى القبيلة كلها وهى قبيلة يهودية ماجنة، وحاصرها حتى أكرهها على ترك المدينة.

هل فى تصرف المسلمين بعد هذا كله ما يشتم منه رائحة عدوان؟ لا، لقد صبر المسلمون حتى وقع ما لا يمكن السكوت عليه، فعاقبوا تلك القبيلة اليهودية، وكانت الضربة مفاجئة وسريعة بحيث سقط فى أيدى القبائل اليهودية الأخرى فعجزت أن تصنع شيئًا. والمعروف فى تاريخ البطولات والقيادات أن محمد بن عبدالله ﷺ كان يتمتع ـ بفضل الله وتوفيقه ـ بعبقرية عسكرية فريدة لا نظير لها فى دنيا الناس، فضرب ضربته وكل الحيثيات معه، ووقف عند هذا الحد.

لكن اليهود أبوا أن يتعلموا درسًا من هذا الذى حدث، وفكر يهود (بنى النضير) فى أن يقتلوا النبى ﷺ وانتهزوا فرصة ذهابه إليهم ليطالبهم ببعض الالتزامات التى تفرضها المعاهدة المبرمة، وقال بعضهم لبعض: فرصة تاحت ما نرى فرصة مثلها، لقد جاءنا خاليًا، وأوعزوا إلى أحدهم أن يصعد إلى سطح بيت كى يلقى منه حجر رحى على رأس النبى ﷺ وهو مسترسل لا يدرى ما يبيت له، فينتهوا منه.

لكن النبى ﷺ استبان من حركات اليهود وتصرفاتهم ما رابه، فانطلق مسرعًا وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا له: نهضت ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما

همت به يهود، وجرد عليهم جيشه، وحاصر بنى النضير حتى كسر حصونها وحرق زروعها، وأنزلها على حكم الله، وتركها تخرج من المدينة لاحقة ببنى قينقاع.

كان ينبغى ليهود (بنى قريظة) وهم بقية اليهود فى المدينة أن يستفيدوا من ذلك، والحقيقة أن رئيسهم تعلم من الدروس التى مرت كيف يكون وفيًّا؟ فلما دخل عليه في حصنه (حُيَيّ بن أخطب) سيد بنى النضير، وزعيم المتآمرين ضد الإسلام، قال له (كعب) زعيم (بنى قريظة): يا حيى اذهب عنى أنت رجل مشئوم، إنكم غدرتم بمحمد فأصابكم ما أصابكم، وأنا لم أر من الرجل إلا وفاءً وبرًّا، فدعنى منك، وأبى أن يفتح له بابه، ولكن اليهودى ظل يقرع الباب، ويرسل الكلام، ويقول له: يا مغفل جئتك بعز الدنيا، جئتك بعرب الجزيرة كلهم، قد حاصروا المدينة، ولن ينصرفوا حتى يجهزوا على محمد ومن معه، وأخذ يراوده فإذا الرجل السيئ المنكوب يتبع ما قيل له، وينسى الوفاء والبر اللذين لم ير غيرهما من محمد ﷺ وينضم إلى أعداء الإسلام الذين حصروا الإسلام والمسلمين داخل المدينة فى معركة كاد الإسلام فيها يزهق.

قال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

فى هذا الوقت العصيب انضم اليهود إلى المهاجمين، فلما نصر الله المسلمين فى هذه المعركة، وهو نصر ما كان مرتقبًا أبدًا، وما كان متوقعًا على الإطلاق، فلما انتصر المسلمون كان من الطبيعى أن ينتهوا من قريش والأعراب الذين حالفوها؛ ليتجهوا توًّا إلى بنى قريظة يؤدبونهم على غدرهم والخيانة العظمى التى ارتكبوها معهم، وانتهى الأمر بضرب رقاب بنى قريظة وهم بذلك جديرون.

ثم انتهى اليهود من المدينة بانتهاء بنى قريظة، فلما فر من فر، وبدأت المؤامرات تنبعث من (خيبر) اتجه المسلمون إليها، وأنهوا الوجود العسكرى اليهودى تمامًا فى هذه البقاع.

أربع معارك متتابعة مع قبائل اليهود المسلحة المحصنة المستعدة المعبأة، انتهت جميعًا بهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم.

غفلة المسلمين

إننا نلفت النظر إلى أن قوى الشر فى العالم تعمل ضد الإسلام بضراوة وقساوة، وهى تنظر إلى غير المسلمين فى العالم الإسلامى إلى أنه يصلح أن يكون عميلاً للاستعمار أو الصهيونية، وتحاول أن تجعل منه رمحًا فى ظهرنا، وحربة تشق أضلعنا، وعلى المسلمين ألا يكونوا مستغفلين، عليهم أن ينظروا إلى غير المسلمين نظرة فيها ذكاء، وفيها استبانة لما هنالك، فإننا نعامل بشرف من يطوى ضميره على الشرف، أما من باع ضميره للصهيونية والاستعمار، ويريد انتهاز الفرص للنيل منا؛ فليعلم أنه بين قوم أيقاظ، فإن نبى الإسلام ﷺ يقول: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**». ألا فليترك المسلمون استرسالهم وغفلتهم وسذاجتهم، ولينظروا إلى الغيوم المقبلة مع الأفق. إن مستقبل الإسلام خطير، تآمر عليه اليهود والنصارى فى أوروبا وأمريكا، تآمر الكل عليه لينالوا منه، فإذا لم نكن صاحين أيقاظًا فإن غير المسلمين ربما عبث بنا أو نال منا.

واتباعًا لتعاليم نبينا واستفادة من التجارب التى مرت بنا بدأت أنظر إلى التاريخ نظرة أتعلم منها، وأعتبر بها، فإن من لم يعتبر بماضيه، لم ينتفع بحاضره، ولم يضمن مستقبله، نظرت فوجدت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعدل حاكم ظهر فى القارات الخمس، يقتله كلب مجوسى متهمًا له بالظلم!! سبحان الله.. ما هذا؟ ويتبين من دراسة التاريخ أن مصرع عمر رضى الله عنه لم يكن قتلاً فرديًا من إنسان ظن كذبًا أو صدقًا أنه ظُلِم، لا، بل كان مؤامرة لليهود فيها ضلع، فإن رجلاً جاء إلى عمر رضى الله عنه وقال له: رأيت فى التوراة أنك ستقتل بعد ثلاث ليال، ما دخل التوراة فى مقتل عمر؟ ما هذا الكلام؟ والقاتل يهودى.. لقد كان اليهود يعلمون.

وقُتِلَ الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو يتلو القرآن الكريم، وعلم أن عبدالله بن سبأ - وهو يهودى - كان من وراء قتله.

وقُتل علىٌّ بن أبى طالب - كرم الله وجهه - والأمر كذلك.

الخلفاء الراشدون الأربعة أعظم حكام الإسلام يقتل ثلاثة منهم، ما السبب؟ لقد ظهر لى أن التاريخ الإسلامى ينبغى أن يدرس بعناية، وأن المؤامرات التى تحاك

الآن ضد المسلمين كثيرة، وأن الشغل فى الظلام، والمؤامرات فى الخفاء ونيات الشر التى تعمل فى جنح الليل، هذه هى التى تعمل الآن ضد الإسلام.

تسمعون فى المؤتمرات الدولية كلامًا معسولاً، وقرارات حلوة، ولكن العمل فى الظلام هو الذى ينفذ، والحقد على الإسلام هو الذى يملى إرادته، وبدأ هذا الحقد على فلتات الألسنة، وفى تصريحات الساسة بدأ يظهر.

إن الروح المتعصبة الخسيسة التى كانت تعمل فى جوانح البعض عندما حرض أوروبا على العرب والمسلمين، هذه الروح لاتزال هى هى فى قلب زعماء أوروبا من يهود ونصارى.

لكن أنا لا أُحَمِّل هؤلاء التبعة، إنما أحمل التبعة حكام المسلمين وعلماءهم، لماذا؟ لأن مؤتمرًا كمؤتمر «بال» يعقد فى نهاية القرن التاسع عشر، ويبدأ عمله فورًا فى أوائل القرن العشرين، كأن العرب والمسلمين لا يدرون عنه شيئًا، أو ينظرون إلى مقرراته ببلاهة، أو لعلهم هنا أوزاع، ربما عارك أحدهم الآخر على أنه صلى ورأسه عارٍ، وتحولت التوافه إلى كبائر، واشتغل المسلمون بهذه الصغائر واستباحوا فيها الدماء والأعراض، حتى جاء أعداؤهم فوجدوهم مشتغلين على هذا النحو فسحقوهم، أين كنا يوم كانت هذه المؤامرات تقرر مصيرنا وتخطط لمستقبلها على أنقاضنا؟

يجب أن نبحث نحن المسلمين عن آثار العداوة ضدنا، إنها فى صمت، ودون ضجيج، بل ووراء ابتسامات صفراء تعمل قوى كثيرة بين ظهرانينا لتغتال الإسلام، لتمحق قوانينه وتقاليده، لتهين كرامته، لترمى بالعمامة البيضاء وحدها فى الأقذار، أما غيرها ولو كانت تاجًا على رأس خادم البقر فلها كرامة.

لعابد البقر، لسادن العجول كرامة من كرامة الدين المنتصر، أما الإسلام المهزوم فإن شاراته وشعاراته تداس، أريد من المسلمين أن يتركوا هذه الغفلة وألا ينظروا إلى التاريخ بهذه البلاهة، وأن يفكروا فى مستقبلهم تفكيرًا لا سذاجة فيه ولا غفلة.

الأمر جد، إن مستقبلهم ومستقبل أولادهم فى مهب الريح إن ظلوا بهذه المثابة.

لقد عاملنا الآخرين بشرف، ولكن الأمر كما قال الله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ

﴿الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

والله لقد رأيت وجوهًا فى ١٩٦٧ ـ عام الخزى والعار ـ متهللة فى هذا البلد تصطبغ بالبهجة، وتخرج من معابدها مبتهجة، وكأن شيئًا لم يقع، لماذا؟!

أريد أن نخدم ديننا لا بالصياح الفارغ، ولا بالخطب الجوفاء، ولكن كما يخدم أهل الجد أهدافهم، وكما يبلغ أهل الجد أغراضهم.

اليهــــود فـــى ميــزان القــرآن

من الملاحظ أن التغير الذى حدث فى شمائل بنى إسرائيل أو التحول الذى وقع فى أخلاقهم كان جذريًا، بمعنى أنه إلى الآن لا يعرف فى شمائل اليهود أنهم يقودون إلى تقوى، أو يعرفون الناس بحق الله، أو يذكرون أحدًا بالدار الآخرة.

وقد تناول القرآن الكريم بنى إسرائيل فى أماكن كثيرة، حتى قيل: إن أحدًا لم يذكر فى كتاب الله لا من الأنبياء المرسلين، ولا من الملائكة المقربين، كما ذكر موسى عليه السلام فى كتاب الله، فقد ذكر نحو مائة وثلاثين مرة.

كما أن قصة بنى إسرائيل تكررت فى القرآن الكريم كما لم تتكرر قصة أخرى عن الأمم الأولى، عن الأقوام الذين تلقوا الوحى واستمعوا إليه، إما استماع طاعة وإما استماع معصية.

لابد أن يكون لهذا التكرار سبب، ولابد أن يكون لهذا التناول المستمر من حكمة قصد إليها الشارع الحكيم.

وقد اجتهدنا فى معرفة هذه الحكمة وتلمسها من مظانها الكثيرة، فوجدنا أن القرآن الكريم تحدث عن بنى إسرائيل فى مراحل من تاريخهم، فمرة تناولهم بالمدح وإعلاء الشأن والتنويه بالمكانة.

ففى سورة الدخان مثلاً يقول رب العزة: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والعبارة واضحة فى أنهم كانوا يومًا ما الشعب المختار، وأن اختيارهم لم يكن عن مجازفة أو عن إيثار فيه محاباة، بل اخترناهم على علم.

وفى سورة الجاثية يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

فبين فى هذه السورة أن الله أكرمهم ومنحهم ورجحهم بميزات أدبية ومادية كثيرة والسورتان مكيتان.

فى القرآن المدنى نقرأ قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفى سورة البقرة: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فى القرآن المكى وفى القرآن المدنى وجدنا هذا الحديث الذى ينوه بمكانة بنى إسرائيل ويعلى شأنهم.. ما السبب؟

السبب أنهم فعلاً بدأوا تاريخهم بداية حسنة، فقد احتضنوا عقيدة التوحيد، ودافعوا عنها، وتحملوا البلاء فى سبيلها، وبذلوا جهودًا كثيرة؛ ليبقوا عليها وليعرضوها على الناس.

إذن كان بنو إسرائيل فى صدر تاريخهم من المراحل الأولى من حياتهم، كانوا أمناء على دعوة التوحيد، تحملوا فى سبيلها المتاعب، فلما صبروا على المتاعب التى فرضت عليهم ـ أو اختبروا بها ـ مكَّنهم الله وجعل أقدامهم راسخة فى العالم، وذكر هذا فى كتابه عندما قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾، أى جمعوا بين الصبر واليقين فى علاقتهم بالناس وحراستهم للدعوة.

وفى سورة الأعراف يقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾.

كان الصبر والتحمل، كان اليقين والإخلاص، كان الصدق فى معاملة الله، كان كل ذلك سببًا فى أنهم مُكِّنوا.

وبنو إسرائيل لما بلغوا مكانتهم التى بلغوها بالصبر واليقين، كان يجب عليهم أن يستصحبوا هذه الأخلاق؛ حتى يبقى لهم تفضيل الله الذى تنزل عليهم، لكنهم لم يبقوا على هذه الأخلاق، سرعان ما أخذوا يتحولون.

لكى يبقى الإنسان عائمًا فى البحر أو سابحًا فى الأمواج يجب أن تضرب أذرعه بقوة إلى الأمام، حتى لو عاكسه التيار، فسيبقى عائمًا، لكن إذا انكسرت أذرعه أو توقف سبحه فسيسقط فى القاع.

تغيروا إذن، بعد أن كانوا يؤمنون بالله الواحد، وبعد أن كانوا يصدقون باليوم الآخر ويستعدون للقائه، وبعد أن كانوا يحاربون الأصنام ويخاصمون أهلها، وبعد أن كانوا يتحملون بصبر وجلد الأذى فى سبيل الله، تبخرت هذه الصفات بينهم، فأصبحوا شعبًا غليظ الرقبة، قاسى القلب، زاهدًا فى الآخرة، مقبلاً على الدنيا.

ثــم حــدث التغــير

حدث أن بنى إسرائيل تغيروا تغيرًا عجيبًا، فلما تغيروا؛ تغيرت الأوصاف التى كانت لهم، وتناولهم القرآن بشكل آخر، ففى سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ۝ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

أخذ القرآن يصف التغير الذى وقع عليهم، بعد أن كان هناك إيمان بالآخرة، وصفهم القرآن فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾. حب الآخرة يستدعى فى أحيان كثيرة أن تنزل عن ثروتك لله؛ لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وهؤلاء يعبدون المال، وعرف هذا فى مسالكهم، حتى أن الأدب الإنجليزى على لسان أديب الإنجليزية الكبير «شكسبير» عندما كتب روايته «تاجر البندقية» كان يقدم اليهودى التاجر على أنه مرابٍ مصاص للدم، لا يرحم محتاجًا، ويقرض لا ابتغاء آخرة ولكن طلبًا لدنيا يحرص عليها إلى حد الاستماتة. يمكن أن يكونوا عباقرة فى شئون المال، يمكن أن يكونوا عباقرة فى شئون السياسة، يمكن أن يكونوا عباقرة فى دغدغة الغرائز والإثارات الجنسية وعمل مباريات فى عالم الجمال أو عالم الرياضة، وتجعل الشعوب تتيه عن رشدها، وتفقد وعيها، وتنطلق كالحيوانات المجنونة لا يربطها هدف ولا تشدها غاية نبيلة، يمكن أن ينجح اليهود فى هذا كله، لكن فى ميدان الدين والخلق والعفة والروحانية والشمائل الرفيعة والخلق الرقيق أصبحوا لا مكانة لهم، فكانت النتيجة أن لُعِنوا على لسان داود وعيسى بن مريم، عليهم السلام، وكانت النتيجة أن قال الله الذى منحهم المآثر الأولى ومدحهم بما قال، كانت النتيجة أن

عاقبهم على التغير الذى وقع جذريًا فى سيرهم وأحوالهم فقال:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ومن الغباء أن يحسب أهل جيل أن العلو سيدوم، وأن من ارتفع اليوم ستبقى رفعته له غدًا. ومن الغباء أن يظن الناس كتاب التاريخ صفحة واحدة تبقى ماثلة أمام الأعين. إن التاريخ صفحات متتابعة، يطوى منها اليوم ما يطوى، وينشر منها غدًا ما ينشر، هنا لابد من أن نفهم العبرة، العبرة أن الله جل شأنه يختبر بالرفعة والوضاعة، يختبر بالزلزلة والتمكين، يختبر بالخوف والأمن، يختبر بالثروة يعطيها وبالفقر يرسله، يختبر بالضحك والبكاء، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾، يختبر بالأمرين، وعندما يختبر هو عالم بخلقه، ولكن القاضى لا يحكم بعلمه، إنما يحكم بين العباد بما يظهر من أمرهم حتى تنقطع الأعذار، وتخرس الألسنة التى مرنت على الجدل، فإن ناسًا سوف يبعثون يوم القيامة وهم مشركون، ويقولون له: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾. فلابد من إقامة الدليل على الناس من علمهم هم. يعطى المال ويقول لصاحبه: أعطيتك المال لا لأنك عبقرى ـ لأن العباقرة يمكن أن يموتوا جوعًا ـ لكنى أعطيتك المال أختبرك. نجد اقتصاديًا كبيرًا مثل (قارون) يقال له: إن الله موَّلك ومنحك، اعرف حق الله فيما آتاك، اتق الله فيما بسط عليك من رزق، اطلب الآخرة بما أوتيت فى الدنيا، لا تنس الله. يضيق الرجل بالله، وذكر الله، ورقابة الله، وتقوى الله، ويقول لهم: ما هذا بعطاء الله، هذه عبقريتى أنا: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾. هذا المال لم يأتنى منحة من السماء، ذكائى وعبقريتى وتجربتى وخبرتى بشئون الأسواق والمال هى التى جعلتنى كذلك، فكان هذا الشعور بداية الدمار الذى طواه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾. هذا اختبار سقط فيه رجل من بنى إسرائيل. اختبار آخر لرجل من بنى إسرائيل هو سليمان عليه السلام، اختبار بالسلطة. فإن سليمان وهو فى فلسطين طلب أن يجاء له بعرش بلقيس، وجىء له بعرش بلقيس،

ونظر الرجل العظيم فوجد أن سلطانه واسع، وأنه أوتى بسطة فى القوة غير عادية، فهل اغتر؟ لا، تواضع لله، وقال:

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾. الحقيقة أنه بالنسبة للأفراد أو بالنسبة للجماعات كلنا يختبر، وثق أيها الإنسان أن حظك من أقدار الله كبير، وأن مالك من جهد محدود، وأنك إذا كنت حسن الصوت؛ فلأن الله زودك بأوتار لم يزود بها غيرك، وإذا كنت واسع الذكاء؛ فلأنه زودك بكذا فى تلافيف المخ لم يزود به غيرك، وإذا كنت، وإذا كنت... ما من شىء تتميز به فى حقيقتك إلا وهو عطاء أعلى لا دخل لك فيه. ثم تختبر بعد ذلك فى هذا الذى أُعطيتَه اختبارًا دقيقًا، ترى أترد الفضل لصاحبه وتعرف الحق لله، وتقف موقف العبد الذى يستحى ممن منحه أن يبذل نعمه فى معصيته؟ أم ماذا تكون؟

مراجعة القلب والعقل

إن الله سبحانه وتعالى حكى لنا تاريخ اليهود فى أحوالهم؛ لكى نتعلم أن أمتنا عزها الله فى الإسلام، وفى إرضاء الله، وفى أداء حقه سبحانه وتعالى، فإذا تنكرت لكتابها وسنة نبيها ﷺ وعاشت لشهواتها وأهوائها؛ فلن تحصد من وراء ذلك كله إلا الضياع.

وأريد أن ألفت النظر إلى أمر لا يجوز أن ينسى: هذا العصر عصر الأديان، هذا العصر الذى نعيش فيه، عصر تمسك أصحاب الأديان بأديانهم، بل أكاد أقول: إنه العصر الذهبى للأديان كلها ما عدا الإسلام، فإن اليهودية من ثلاثين قرنًا، من ثلاثة آلاف عام ما كان يمكن أن تكون لها دولة أصبحت لها دولة، هذا عصر ذهبى لها، حتى الهندوسية التى تقدس الأبقار وتحترم القردة هى فى عصرها الذهبى الآن.

كل صاحب دين يذكر دينه ويملأ فمه به، لكن وجدت أن مؤامرة عالمية إعلامية تتواصى بأن ينسى العرب الإسلام، العرب بالذات.

فمثلاً أسمع إذاعات أجنبية تقول: إن الخط الفاصل بين الشطر المسيحى لبيروت، والشطر الإسلامى لبيروت حصل فيه كذا وكذا.. فهى تذكر المسيحية.

أما الإذاعات العربية فتتكلم عن المسيحيين بوصف أنهم يمينيون، انعزاليون، وكيت وكيت.

أما الوصف الذى يظهرون به ويعتزون به، ويعرفون به فلا يراد إظهاره، لماذا؟ يجب أن يعرف هذا.

تذكر قصة إيرلندا الشمالية وإنجلترا بطريقة مغشوشة. المعروف أن السجين الذى مات منتحرًا بعد أن ظل جائعًا ستة أسابيع أو تسعة أسابيع وهو يرفض أن يتناول طعامًا إلا ما يغذى به عن طريق الحقن، هذا كاثوليكى.. والكاثوليك هم الذين يقومون بالثورة ضد إنجلترا، وأنا أسمع اليوم أن البروتستانت فى إنجلترا أقاموا قداسًا فى كنيستهم الكبرى، وذكروا فيه القتلى الذين سفك دمهم الجيش الجمهورى الإيرلندى الكاثوليكى.

حرب دينية بين البروتستانت الحاكم والكاثوليك الذين يريدون الحكم، لكن يطوى هذا حتى لا يفهم المسلمون أن الناس تتمسك بأديانهم.

مناحم بيجن وهو رجل بولندى كذاب، جاء إلى الأمة التى لا وارث لها والأرض التى لا صاحب لها وأخذ فلسطين، يريد أن يقول: إن تحالفًا بين اليهود والنصارى هو الذى يبقى النصرانية فى لبنان.. والرجل كاذب بداهة.

النصرانية فى لبنان قائمة منذ أربعة عشر قرنًا ما أهلكها أحد، وكان المسلمون يستطيعون إهلاكها، ولكن أبوا تكرمًا، لماذا لا يذكر هذا؟

والنتيجة أن الأمة الإسلامية يراد أن تنسى ولاءها لدينها، بينما عابد البقر يتعصب لدينه، وتابع كل دين أرضى أو سماوى يتمسك بدينه، وبطريقة ما يراد أن ينسى المسلمون دينهم أو عنوانه أو تاريخه، لماذا؟

إن أمتنا يجب أن تكون أكثر يقظة وأكبر صحوة.

الواقع أنى أنظر إلى أحوال المسلمين فى عواصم كثيرة، فأرى شيئًا غريبًا.. فلسفة الرجل، أو فلسفة كرة القدم، فلسفة سفيهة، أية فلسفة فى كرة القدم؟

ومع هذا فإن من الكويت والخليج إلى القاهرة عشرات الألوف تنطلق هنا وهناك بجنون.

هذا لهو ولعب، فكيف تضيع صلاة الجمعة وصلاة العصر، وصلاة المغرب من أجل مئة ألف يتفرجون على ملعب كرة؟ هذا أمر عجيب!

اليهود يرفضون ـ لأنهم يقدسون السبت ـ أن تنتهك شرائع السبت، بينما الأمة الإسلامية ببساطة تنتهك شرائع الجمعة وشعائرها؛ لأنها تريد أن تلعب!

أخذنا ضمانًا من القدر بأن سننه الكونية لا تتأثر من اللاهين واللاعبين؟ هذا مستحيل، وفى الحديث: «**إن الله عز وجل يملى للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

على المسلمين أن يصحوا؛ حتى يدركوا أن فهمهم لدينهم على هذا النحو المتجاهل لا يقدمهم إلا إلى الذبح، وإلا ليكونوا علفًا لمدافع الأقوياء.

وعندما أنظر إلى أمتنا وهى تائهة فى هذا المجال، أسمع كلامًا غريبًا، يأتى إلىَّ سائل: آزر أبو إبراهيم أم عمه؟ كان أهل الكهف من إنجلترا؟ سماع القرآن من الإذاعة حلال أم حرام؟

هذا يعنى أن الأمة الإسلامية تشغل نفسها بأمور تحتاج إلى أن تراجع فيها قلبها وعقلها، فإنها إذا مضت فى هذا الطريق؛ فإنما تمضى إلى قبرها لا إلى نصرها.

إننى أنبه المسلمين أن يجدّوا فإن الأيام لا تلعب.

قصـــور فـــى الفـــهـــم

ظلت الثقافة الإسلامية طوال ألف عام أو يزيد، توفر للأمة عناصر الوحدة وتجعلها أمام عدوها جبهة واحدة.

لا الفقه المذهبى، ولا هوامش العقيدة، ولا الأخطاء السياسية الفاحشة، أفلحت فى تقطيع الأمة الإسلامية، وتمكين أعدائها منها، حتى ظهرت بدعة القوميات فى العصور الحديثة، وانتقلت جرثومتها إلى أرضنا، فإذا هى بلاء يهدد الحاضر والمستقبل، وكان ظهور (القومية الطورانية) فى تركيا أول الغدر بأمتنا الكبيرة وأول زلزال يصدع بناء الخلافة المعتلة.

واليهود نقلوا هذه الجرثومة إلى تركيا؛ انتقامًا من السلطان عبدالحميد الذى رفض باسم الإسلام أن يستوطنوا فلسطين، ومع أنهم أغروه بالمال - وكان إليه محتاجًا - فقد أبى، ومع أن أوروبا كانت تظاهرهم؛ فقد شعر الرجل المؤمن بأن تسلل اليهود إلى فلسطين، تمهيد لضرب الإسلام نفسه فى أوطانه كلها..

فماذا يفعل اليهود؟ لجأوا إلى الغزو الثقافى، واستعانوا بقوى خفية وأخرى جلية على إنشاء (جمعية الاتحاد والترقى) ونشروا مبادئها القومية بين ضباط الجيش، فقامت ثورة أودت بالخليفة، وكان رد الفعل نشوء القومية العربية التى ظاهرت الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى حتى انتصروا، وتمخضت هذه الفتن الهائلة عن سقوط الخلافة الإسلامية فى العالم، وتتابع الانهيار حتى قامت ثورات مشابهة للثورة الكمالية، استغنت بالقومية عن العقيدة، وجعلت الإيمان - إلى حين - ضيفًا ثقيلاً ينتظر منه الرحيل.

إن جماهير المسلمين لا تتنازل عن دينها، ولا تعدل بجامعته شيئًا، والذى حدث أن الاستعمار العالمى أول ما نزل ببلادنا ألغى الشريعة، واستبدل أحكامه الوضعية بأحكامها السماوية، ثم وضع خططًا بعيدة المدى للإجهاز على بقايا الإسلام من أخلاق وعبادات وتقاليد، واستعان على بلوغ أغراضه بنفر من الطامعين والمنحلين، وهو يتربص بنا الدوائر وينتظر مع مرور الزمن أن يمحو الإسلام كله من على ظهر الأرض، والحرب بيننا وبينه سجال، وهى حرب رحبة الميادين، وأسلحتها لا حصر لها.. لقد استطاع أبو بكر رضى الله عنه أن يهزم

أعداء الله فى أول قتال مع المرتدين، فهل يستطيع رجالات الإسلام فى القرن الخامس عشر للهجرة أن يستعيدوا شرائع الإسلام التى عطلت؟ وأن يحموا العبادات المهددة بالزوال، وأن يستبقوا المعروف معروفًا؟ والمنكر منكرًا؟ إذا انهزمنا فى هذه المعركة؛ فلن يبقى على ظهر الأرض مؤمن.

شبكات التنوير فى تعاليم الإسلام، ترسل أشعتها على جبهات عريضة ومسافات بعيدة، لأن الوحى النازل على محمد ﷺ، جامع مانع كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وعندما يكون الدواء مركبًا من سبعين عنصرًا، فإنه لا يحصل الشفاء الكامل، إذا نقصت منه بضعة عناصر، بل قد يوصف الدواء ـ والحالة هذه ـ بأنه مغشوش، ولعل ذلك ما بينه الرسول الكريم ﷺ فى قوله: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**». إن هذه الشعب تتناول شئون الحياة جميعًا، فالإسلام ينظم شئون البيت، والشارع، والمدرسة، والديوان، وعلاقات المرء مع نفسه، والآخرين وواجباته فى الحرب والسلم، وضوابط المعاملات الاقتصادية الرحبة، وهو يعتبر الإنسانية رحم عامة توصل بالتعارف والخلق، كما توصل الرحم الخاصة بالتزاور والعطاء، وفى الكتاب المبين والسنن الشارحة ما يوضح جوهر هذه الرسالة العالمية الخاتمة. والمفروض أن يعرف المسلمون رسالتهم، كما نزلت إليهم، وأن يبينوا للناس كافة، وأن يكونوا فى حياتهم الداخلية صورة حسنة لها، وإذا وقع قصور فى الفهم، أو تقصير فى البلاغ، فهم مسئولون عن ذلك فى الدنيا والآخرة.

مساواة مرفوضة

جاءت ضربات الاستعمار السياسى والثقافى، وعلى قدر السعة فى ثقافتنا الإسلامية، ولست هنا أسائل نفسى وقومى عما كان منا وما نزل بنا فى هذه الأيام النحسات، فإن أيام المد ذهبت، وأعقبها جزر مزعج، وعلى قدر الجبهة التى عمل الإسلام فيها، كان الغزو العلمى والمدنى الذى تعرضنا له، وكان اقتحام أخلاقنا يتم فى وقت واحد، مع اقتحام حدودنا.

وإنى لأدرس المسرحيات التى تعرض من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فأشعر أنها تبدل ثيابنا الداخلية والخارجية، كما تبدل فى الوقت نفسه أحكامنا على الأمور، وتصورنا للحاضر والمستقبل.

وإن سقوط بغداد وقرطبة أقل فى نظرى من سقوط أحكام العبادات والمعاملات، ورضا العامة والخاصة بتعطيل النصوص، وتحقير المثل الإسلامية أبشع فى نظرى، من نهب خيراتنا وتحقير أوضاعنا.

ومن هنا فإن إحياء الثقافة الإسلامية الصحيحة، وتكوين جيش شجاع للمحافظة عليها فى الداخل والحديث عنها فى الخارج، أهم ألف مرة من تحقيق الاستقلال السياسى لبلد ما، فى إحدى القارات.

ما قيمة هذا الاستقلال إذا فقدنا فيه علاقتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا؟

مسالك أهل الكتاب من قبلنا كانت السبب الأول فى المعركة بين العلم والدين.

وقيام عصر الإحياء فى أوروبا بعيدًا عن الوحى كله، ويبدو أن القوم لم يتغيروا فقد وقعت أخيرًا معركة فى الكنيست الإسرائيلى بين وزير الخارجية وبعض الحاخامات، سببها أن الوزير قال: وليس كل ما فعله الملك داود جدير بالإعجاب.

يشير إلى ما نسب إلى داود فى العهد القديم، من اقتراف جريمتى الزنى والقتل، قالوا: زنى بزوجة «أوريا» الحثى ثم أوصى بقتله فى الميدان؛ حتى لا يعود ولا يسترد المرأة من عشيقها الملك.

لقد غضب الحاخامات من هذا التعريض. وقالت إذاعة لندن إنهم سيحرجون الحكومة كلها فى أول اجتماع.

ونترك بنى إسرائيل لنرمق تاريخ الكنيسة القريب والمعاصر.

لقد جاءتنا من أوربا إلى إفريقيا، لتبشر بالمسيح حامل الألم عن هذا الورى ـ كما يقول شوقى ـ فماذا فعلت؟ تركت فى وسط إفريقيا عشرة ملايين إصابة بالإيدز، وهى تنشر الدين.

لقد حكمت بالموت على من قال: إن الأرض كرة تدور حول الشمس، أما اقتراف الزنى؛ فحسب من فعله أن يعترف، ويحيا آمنًا.

إن تزوير الدين على هذا النحو أزرى به،وزهد فيه، وأعطى الحكم العلمانى ألف سبب، ليحل محل الدين، ويبتعد عن الوحى كله..

ونحن دعاة المسلمين، نلقى العنت، حين نقدم القرآن للناس؛ لأن سيرة المسلمين مع دينهم، لاتشرف، ولأن المعجبين بالحضارة الحديثة يرونها أقرب إلى الفطرة والرشد.

ولا بأس أن أحكى ما وقع لى.. جاءتنى رسالة من الأمين العام لمؤسسة كبرى، تعمل على دعم الفضائل والقيم بين الناس، عقدت مؤتمرها الأول فى شيكاغو وتستعد لعقد مؤتمرها الثانى لمناسبة مرور ٥٠ عامًا على تأسيس هيئة الأمم المتحدة. وقيل لى بعد اختيارى عضوًا: إن مؤسستنا عالمية تضم رجالاً من كل دين سماوى أو أرضى، بل تضم أعضاء لا يؤمنون بأى دين.

المهم بالنسبة لى أنهم يدعمون الأخلاق الفاضلة، ويحترمون المثل العليا التى يجب أن تحكم العالم، وأنا رجل شرفى الأول والأخير، أنى أقول وراء محمد ﷺ: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾.

أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذى وضع اللقمة فى فمى، وحين أفكر بأن الله هو الذى أسرج مصباح عقلى، إنه يستحيل أن أكفر أو أسوى بين مؤمن وكافر أو أشترك مع عابد عجل أو عابد نفسه وحدها فى عمل ما؛ لرفع مستوى البشر.

الصهيونية عقيدة دينية

هل المسلمون الآن أضعف من اليهود يوم حملوا حملتهم علينا؟

لقد بدأت معركتهم ضدنا دعاية وتخطيطًا فى السنتين الأخيرتين من القرن التاسع عشر فى مؤتمر بال فى سويسرا، وبدأت عمليًا عندما صدر وعد بلفور فى نوفمبر ١٩١٧م، فهل كان اليهود يومئذ أقوى من المسلمين الآن؟ الجواب: لا.. كان اليهود يومئذ أضعف من المسلمين الآن؛ لأن اليهود لم تكن لهم دولة لا فى الشرق ولا فى الغرب، ولم تكن دول العالم تنظر إليهم إلا على أنهم جنس جرَّ على نفسه الخصومات بسبب العزلة التى فرضها على نفسه، والمسلك الاقتصادى والاجتماعى الذى آثره على امتداد التاريخ.

إلى جانب الأحقاد الدينية التى كانوا يبوءون بها؛ لأنهم عند كل نصارى العالم مسئولون عن قتل عيسى بن مريم عليه السلام، مسئولون أمام النصارى عن الوشاية به وحمل الدولة الرومانية على قتله كما يقولون، فكان اليهود شعبًا ممزعًا، وكانت آماله تشبه أحلام السكارى لا يصدقها أحد، ومع ذلك فإنهم استطاعوا أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن، وما وصلوا إليه الآن خطير، فقد حازوا فلسطين إلا بقايا لا وزن لها، واستطاعوا أن يضموا إلى أرض فلسطين أرض الجولان وأرض سيناء، وأنكى من هذا وأقسى أنهم فى موقف المتحدى الذى يملى شروطه، الجرىء الذى ينظر إلى عدوه شزرًا، صاحب الحق - بحكم الأمر الواقع - الذى ينظر إلى أصحاب الحقوق الأصلاء وكأنهم أدعياء، أو متسولون يطلبون ما لا يصح لهم ولا ينبغى منهم.

ما الذى وصل بالأمر فى هذا الصراع الغريب إلى هذه النهاية المحزنة؟ أريد أن أكون واقعيًا فى استعراضى للأمور، لأننى أكره الكذب والصورية فى تناول القضايا. هؤلاء الأعداء كانوا من ستين سنة صفرًا فى ميزان القوى العالمية، فما الذى جعلهم الآن يستطيعون أن يقولوا للمؤتمرات العالمية: قولى ما تقولين فليس لما تقولين وزن؟ السبب فى نفس الطريقة التى مشوا بها، فهؤلاء عرفوا دور العقيدة فى تكوين النهضات، فقرروا أن يجعلوا هذه العقيدة طاقة يتحملون بها المتاعب، ويستهينون فى سبيلها بالتضحيات الجسيمة، حوَّل اليهود العقيدة إلى

طاقة تجعل الغنى يعطى بالملايين، فأحد اليهود الأغنياء عندما بدأت الصهيونية تتحرك تنازل عن خمسة ملايين من الجنيهات من ماله، وبدافع العقيدة يذهب جامعو التبرعات إلى يهود فرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها ويأخذون مئات الملايين من الدولارات، هذه بالنسبة إلى بذل المال، أما بذل الدم، فإن اليهود تركوا الجبن التقليدى الذى عرفوا به وبدءوا بدافع العقائد يصنعون العجائب، ينزل الواحد منهم عن شهواته فى معيشة المدينة حيث الأنوار والليل البهيج والراحة والترف ويجىء إلى صحراء فلسطين، يجىء إلى بلاد أقرب إلى البداوة، ثم يبدأ العمل لبناء الوطن القومى لليهود، عندما كانت سلطات الانتداب البريطانى تجىء باليهود أعدادًا كان اليهود يطلبون إلى النساء الحُبالى أن يذهبن على أن المرأة شخص واحد، ثم بعد شهور ستكون شخصين، العقيدة جعلتهم يحرقون فى أفران هتلر، ومع ذلك فإن الآلام لم تجعلهم ينكصون إلى الخلف، بل حملتهم على الاندفاع إلى الأمام. وأحب - هنا - أن أقرر أن الصهيونية عقيدة دينية، وأن كلمة اليهودية والصهيونية كلمتان مترادفتان. ومن شك فى هذا؛ فليرجع إلى العهد القديم؛ كى يقرأ بعينيه هذه الحقائق، فالصهيونية دعوة دينية مائة فى المائة، وما لحق بها من أطماع استعمارية، أو ما التصق بها من أهواء سياسية إنما هو شىء كاللفافات التى توضع على السلعة، أما السلعة الحقيقية فَتَدَيُّن محض. ما تقولون - أيها الإخوة - فى إنسان يجىء فيقول: إن مكانة مكة فى الدين الإسلامى مكانة سياسية أو اقتصادية وارتباطها بالعقيدة أو العبادة ارتباط شكلى؟ ماذا تقولون فى إنسان يزعم هذا الزعم؟ لاشك سيقال: إنه كذاب، لأن مكة قبلة المسلمين فى صلواتهم، ما رأيكم فى أن فلسطين بالنسبة لليهودية أهم من مكة بالنسبة للمسلمين؟!

لقد استمعنا طويلاً إلى ناس - إما جهلاء أو عملاء - يقولون: إن الصهيونية نزعة سياسية وليست عقيدة دينية، وأنا بلوت هؤلاء ورأيتهم وعاصرت بعض قادة الدول العربية سنة ١٩٦٧، ١٩٦٨، ١٩٦٩م، وهم يشيعون هذه الأكاذيب فى الأمة، ويسممون الفكر العربى والإسلامى، ويشيعون أكبر خدعة فى التاريخ العالمى وهى أن الصهيونية شىء واليهودية شىء آخر.

هـــدف واضـــح

عاش اليهود ملوكًا بيننا نحن المصريين فى أواسط هذا القرن، فلِمَ تركوا مصر إلى إسرائيل؟ هل فرارًا من اضطهاد؟ إنه نداء الدين وحده. وهم الآن يحيون ملوكًا فى أمريكا وأوروبا الغربية، ولكنهم عرضوا مصالح الأوطان التى وسعتهم للبوار. فى سبيل ماذا؟ فى سبيل إسرائيل، فى سبيل دولة دينية تجمعهم، فى سبيل الملك الذى تهفو إليه ضمائرهم، ويتلون آياته فى صحف العهد القديم على أنه وعد الله الذى لا يتخلف لهم ولذراريهم من بعدهم.

إن الصهيونية نزعة سياسية تولدت عن الاضطهاد النازى فى ألمانيا، ولكن اليهود قبل هذا الاضطهاد بسنين أو بقرون ـ كما رأيت ـ كانوا يحلمون بامتلاك فلسطين وطرد أهلها منها أو إبادتهم فيها.

ونحن لا نقر فى العالم أجمع أى تفرقة جنسية، ولكن مسلك اليهود فى ألمانيا كان هو أحد أسباب إهاجة الألمان عليهم وإيقاع المذابح الشائنة بهم. لقد ظهر أن ولاء اليهود لأوطانهم الرسمية مزيف، وأن ولاءهم الأول هو لجنسهم وتاريخهم وأمانيهم الحرام فى حقوق الآخرين، وربما تعرض اليهود فى أمريكا بعد سنين معدودة لمثل ما تعرض له أسلافهم فى ألمانيا النازية، عندما يصحو الأمريكيون فيجدون أن مصالحهم فى العالم العربى والإسلامى قد تلاشت؛ لأن يهود أمريكا قد باعوا هذه المصالح فى سبيل قضاياهم الخاصة، والمهم ونحن نواجه معركة الحاضر والمستقبل أن نحذر من الببغاوات التى تردد بغباء كلمات لا تفهمها، وتريد بجهلها الغالب إبعاد اليهودية والإسلام عن المعركة، مع أن المعركة لا تعنى إلا القضاء على الإسلام لحساب القوى المعادية له:

ـ لا تبعدوا اليهودية والإسلام عن المعركة.

ـ التنادى بالإسلام هو صيحة النجاة.

إننا لقينا العنت من أولئك الشامخين بجهلهم، سواء أكانوا فى الصحف، أو الإذاعات، أو المسارح، وظاهر أنهم ثمار الاستعمار الثقافى لبلادنا، ذلك الاستعمار الناقم على الإسلام وحده، الحريص على تربية أجيال تكره شرائعه وفضائله، وترفض مناسكه وشعائره، وتنسى ماضيه وحاضره، تلك هى الأجيال

التى وقفت فى ميدان السياسة تصف الغزو اليهودى لفلسطين بأنه حركة عنصرية، أو عدوان محلى، أو تعاون بين الإمبريالية والصهيونية، أو تآمر رأسمالى على حركات التحرر الحديث، أو غير ذلك من الترهات التى أتقنها الجهل المستكبر الفاشى هنا وهناك، ولو أن واحدًا من هؤلاء ذهب إلى أقرب مكتبة، ودفع قروشًا قليلة أو كثيرة، واشترى العهد القديم وحده، أو الكتاب المقدس كله، ثم كلف خاطره القراءة فيه؛ لوجد التخطيط الدينى لإسرائيل الكبرى واضحًا فى صحائفه، ولوجد الكفن الذى يلف رفات العرب منسوجًا من كلماته، ولوجد حرب الإبادة التى تعرض لها قومه ناضحة بين سطوره، إن مؤامرة الاستعمار فى القرون الأخيرة خلعُ العرب من دينهم فى الوقت الذى يتحمس فيه كل ذى دين لدينه، إن صحف العهد القديم لم تكتف بحداء بنى إسرائيل كى يجيئوا من كل مكان إلى فلسطين، بل صورت لهم البقاع التى ينزلون بها، والحدود التى تفصل كل سبط عن أخيه، ووزعت عليهم دمشق وحماة وبيروت وعشرات من البلاد الواقعة قرب البحر المتوسط.

اقرأ هذه السطور من سفر حزقيال فى الإصحاح السابع والأربعين:

هكذا قال السيد الرب: «هذا هو التخم الذى به تمتلكون الأرض بحسب أسباط إسرائيل الاثنى عشر:

- يوسف قسمان: وتمتلكونهما، أحدكم كصاحبه على الهيئة التى رفعت يدى لأعطى آباءكم إياها، وهذه الأرض تقع لكم نصيبًا.
- وهذا تخم الأرض: نحو الشمال من البحر الكبير طريق حثلون إلى المجىء إلى صدد.
- حماة وبيروتة، وسترائيم التى بين تخم دمشق وتخم حماة، وحصر الوسطى التى على تخم حوران.
- ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالاً، وتخم حماة وهذا جانب الشمال.
- وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرض إسرائيل الأردن من التخم إلى البحر الشرقى نفيسون، وهذا جانب المشرق.
- وجانب الجنوب يمينًا من ثامار إلى مياه مريبوث قادش النهر إلى البحر الكبير، وهذا جانب اليمين جنوبًا.

- وجانب الغرب: البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة، وهذا جانب الغرب فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل.

هكذا وضع أنبياء بنى إسرائيل الأقدمون خطة تمزيق العرب، وتقسيم تراثهم على أسباط إسرائيل.

وقد نقلت هذه السطور من العهد القديم، وإن كنت لم أفهم أغلب الأسماء التى تحدد تخوم الأرض، أو توضح اتجاهات الزحف اليهودى كما أوصى به كاتبو ذلك العهد. ويظهر أن اليهود لخصوا المراد فى الجملة المشهورة: «أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل».

وهم أدرى بما فى كتبهم المقدسة، وأدرى بما يعنيه «حزقيال» متلقى هذه الخريطة عن الوحى الإلهى كما يدينون.

مفهـــوم أرحــــب

أحب أن أقول باسم الإسلام المستوحش المكتئب كلمة حاسمة.

كلمة سوف تبدو غريبة على الآذان التى طمسها الهوان والإذلال أمدًا طويلاً، والتى مرنت على سماع الزور والباطل وحده:

إن الدين قد انتقل انتقالة واسعة عن المفهوم البدائى الضيق الذى ألفه الإسرائيليون، مفهوم الهيكل، ومملكة الرب، والشعب المختار، وحكم العالم باسم رب الجنود عن طريق حكماء صهيون أو بيت إسرائيل. إن هذه الكلمات المصورة لمعنى الدين أليق بالعهد البدائى الذى كانت قبائل إسرائيل فيه تغدو وتروح بقيادة رعاة محليين، يؤدون واجبهم حينًا، أو ينتقلون قبل هذا الأداء المفروض. لقد أصبح للدين مفهوم أرحب، ليس فيه هيكل مقدس، ولا شعب مختار، ولا أدب محتكر. حقيقة هذا الدين أن الله رب العالمين أجمعين على سواء، وأن التقدم عنده ليس بالنسب ولا بالادعاء، بل بالخلق الزكى والتقوى المهيمنة، لا كهانة هناك ولا تهاويل ولا هياكل، شيئان فقط هما أساس العلاقة بين الله الأحد، وبين كل إنسان يمشى على قدميه فى القارات الخمس: الإيمان، والعمل الصالح.

إن محاولة بنى إسرائيل مسخ مفهوم الدين على النحو الذى جمدوا عليه من عشرات القرون جريمة فاحشة لا يمكن قبولها.

لقد جاء عيسى بن مريم عليه السلام؛ ليكسر القيود الصلبة التى أراد بنو إسرائيل حبس الدين داخلها، وكان مجيئه تمهيدًا للرسالة الخاتمة التى مزجت الدين بكل أشواق الإنسانية الرفيعة من الإيمان المهدى والأخوة العامة، حيث لا مكان للتسامى إلا بالقلب السليم والفكر السليم، نعم بعث الله محمدًا ﷺ مسويًا بين أجناس البشر فى الولاء للحى القيوم، مسقطًا كل سلطان مفتعل فى ميدان الروح أو فى ميدان المال، فإذا أراد اليهود أن يلحقوا بقافلة الإنسانية الحرة المتآخية، فلابد أن يؤمنوا بعيسى ومحمد، وإذا كانوا حريصين على استعادة مجدهم القديم فطريق الخلاص مفتوحة أمامهم، ولكى يعرفوها جيدًا قال الله لهم:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ ﴾. إن اليهود يحلمون أن يحكموا العالم من هيكلهم، وهم مصرون على تصديق ما لديهم وحده، وتكذيب كل ما جاء به عيسى ومحمد، وما لديهم مزيج من وحى الله وهوى الأنفس، ولو افترضنا جدلاً أنه حق لا ريب فيه، فإن الوقوف عنده وحده، ونبذ ما أوحى الله بعده، مسلك لا تصلح به الدنيا ولا يسعد به عباد الله، ومن هنا اشترط الإسلام أن يكون الإيمان بكتب الله كلها، ورفض ما سوى ذلك من إيمان مبتور، فقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾. وعلى لسان موسى عليه السلام ـ كبير أنبياء بنى إسرائيل ـ ذكر ربنا جل جلاله أن أبواب رحمته مفتوحة لعباده، وأن الصلحاء الأتقياء يستطيعون دخولها متى شاءوا، فعندما دعا موسى عليه السلام: ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ ﴾ كان الجواب الإلهى له: ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾.

إن قيادة العالم باسم الله ليست مهمة سهلة يستطيعها اليهود بمهارتهم المالية وألاعيبهم الشيطانية، وتسخيرهم للشعوب المفرطة، وانتهازهم للفرص المتاحة، وقد نبأ القرآن الكريم أن التاريخ اليهودى سيتفاوت بين مد وجزر، ومعصية وطاعة، وهزيمة ونصر. وقال لهم بعد هدم هيكلهم الأثير: ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ ﴾، وقال لهم أيضًا: ﴿ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ ﴾، أى إن عدتم للفساد عدنا للانتقام، وقد عاد اليهود إلى فلسطين ـ لأسباب شتى ـ فكيف عادوا؟ وما هى مثلهم العليا، وما مواقفهم من وصايا الله للنبى الخاتم والنبى الذى

سبقه وبشر به؟ لقد عادوا متشبثين بما لديهم وحده، مكذبين لكل ما جدّ بعد. وكسبوا نصرًا بعد نصر.. على من؟ على أوزاع من العرب جهلوا رسالتهم، ونسوا تاريخهم، وعاشوا فى دنيا الناس أذنابًا، وعن كتاب الله وهدى نبيه غرباء، إن مجموعة الشعوب الإسلامية تشعر بجزع مر لا للحروب التى جرت بين العرب واليهود، ولكن للطريقة التى جرت بها هذه الحروب، ولمظاهر الانحلال والفسق عن أمر الله التى ملأت جوها.

كان العرب أزهد الناس فى كتابهم، كان اليهود ألصق الناس بتوراتهم، كان اللص متحمسًا فى الهجوم، وكان رب البيت باردًا فى الدفاع، وبلغ نجاح الغزو الثقافى لبلادنا أن الحرب تعلن علينا لفرض دين، واجتياح أمة، ومع ذلك تتبارى وسائل الإعلام فى تضليل الفكر العربى، وتصف هذه الحرب بأى شىء إلا أنها تتصل بالدين، ولم ذلك؟ حتى لا يستيقظ الوعى الإسلامى العارم، وتتجاوب الأصداء بضرورة العودة العامة الجادة إلى الإسلام لوقف هذا الفناء القادم، لكن آمالنا أن غرائز الأمم تصحو لملاقاة الخطر الداهم، وأن التنادى بالإسلام سوف يكون صيحة النجاة.

الصهيونية ميراث يهودى تلمودى

تعتبر الصهيونية فى بعدها السياسى والدينى والتاريخى مذهبًا سياسيًا عنصريًا مدمرًا، اتخذ من الدين سبيلاً للتأثير على العقول، وامتلاك النفوس، ومن دعوى الاضطهاد والدموع سراديب يسلكها إلى العطف العالمى، شأن المذاهب الخبيثة التى تخالف ما بين وسائلها وغاياتها، تعطف إليها القلوب بأساليب تبدو طاهرة بريئة، ثم تنفلت فى صمت إلى أغراضها المدمرة، وأهدافها الرهيبة.

تلك هى الصهيونية التى أرسى «التلمود» قواعدها، ومهد لها السبيل؛ لتنطلق فى جنبات العالم الفسيح، وقد ارتكزت أول نشأتها على إثارة عواطف اليهود، وهيج الحنين فيها إلى «صهيون» ـ أحد التلال التى تقوم عليها القدس، حيث أقام سليمان هيكله ـ فمضوا مع القرون، وصحبوا الأجيال فى التماس حلمهم الذى ظلوا فى طلبه على مثل لهفة المرتقب، وحيرة الضال، فقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية: «الصهيونية هى التى خلقت مباشرة شعور الارتباط بصهيون، ذلك الشعور الذى قاد سبايا بابل إلى بيت المقدس، فأعادوا تشييده، فالحركة الصهيونية اليوم هى أعظم بل وأشهر حركة يعرفها التاريخ اليهودى منذ أقدم الأزمنة» (لوسيان وولف عام ١٩١٠م).

وهكذا ظل الحنين ماثلاً فى خواطرهم يزين لهم الجريمة للعودة إلى صهيون، ويناديهم بالعنف للسيطرة على فلسطين، وهذا نشيدهم المسمى: «على ضفاف نهر الأردن» يجهر بما هو أعمق مما ذكرت: «مثل قصف الرعد يشق لهيب السحب نصفين ـ يدوى فى آذاننا صوت صادر من صهيون وينادى قائلاً: يجب أن تظل نفوسكم تواقة إلى الأبد لأرض آبائكم وأجدادكم؛ حتى ننقذ من يد الأعداء نهرنا المقدس، ونعود إلى ضفاف الأردن، فى ذلك المكان الذى يجرى فيه الغدير هادئًا، ويهمس خرير الماء كالحلم اللذيذ، هناك سنحط رحالنا، ويكون شعارنا: حسام أرضنا وإلهنا، وعند ضفاف الأردن سنحط رحالنا، ألا فاطمئنى أيتها الأرض المحبوبة، إننا لن نعرف الهوادة، بل سننهض وننفض عنا الكسل، فقسمًا باسمك المقدس لن نتنصل من القتال، إذا ما دقت طبول الجهاد، وقسمًا بالسماء وآمالنا فيها سنكسر قيودك، ونرفع لواءك عاليًا، وسنواجه العالم بأسره، اعتزازًا بكرامة

قومنا، وإذا ما قرع نفيرنا ورفرف علمنا عندئذ سنحط رحالنا، وسيكون شعارنا: حسام أرضنا وإلهنا، وعند ضفاف الأردن سنحط رحالنا. إذن فليقرع النفير، وليرفرف العلم حتى نحط رحالنا».

بهذا الأمل ظلوا يتخطون السنين، وكلما طال عليهم الأمد زادهم الحنين تصميمًا على بلوغ الغاية، فما أن شعروا بفضل من قوة؛ حتى توسعوا فى معنى الصهيونية، فبعد أن كانت ترمى إلى «حشد شعب الله المختار فى مملكة إسرائيل» أصبحت تهدف كذلك إلى «احتلال العالم اقتصاديًّا» ليقع فى قبضتها، ويخر جاثيًا أمام جبروتها، وإذن فقد احتضنت وليدًا جديدًا صار منه أمرها إلى تعديل فى الوسائل وتوسع فى الغايات، وبذلك شملت أغراضًا ثلاثة: الإيمان بالعنصرية، والعمل على إنشاء دولة إسرائيل، والهيمنة على رأس المال فى العالم أجمع.

وهكذا حورت الصهيونية مطامعها حين واتتها الفرصة فى أواخر القرن التاسع عشر، فقد تولى قيادتها حينذاك الصحفى النمساوى اليهودى «تيودور هرتزل» الذى يعتبر بحق أبًا للصهيونية الحديثة ومؤسسها، فقد أصدر عام ١٨٩٥م كتاب «الدولة اليهودية» ودعا فيه إلى إنشاء دولة يهودية، لتكون نقطة الارتكاز التى يثب منها الشعب اليهودى إلى تحقيق غاياته جميعًا، كما دعا إلى مؤتمر يهودى عام يضم أقطابهم وأحبارهم؛ ليتخذوا قرارًا أخيرًا بشأن هذا الوطن المرجو، وقد كان هرتزل مُعِدًّا لهذا المؤتمر عدته، فانعقد فى مدينة «بازل» بسويسرا عام ١٨٩٧م تحت رئاسته وتوجيهه، ولقد كان أبرز حادث فى هذا المؤتمر أن رسم للصهيونية الحديثة طريقًا عمليًّا للتجمع فى فلسطين بالذات لا فى الأرجنتين أو أوغندا كما كان مقترحًا من قبل؛ اعتمادًا على أن الشعور الصهيونى مهيأ للانطلاق نحو صهيون فى حرارة وإيمان، ولهذا فإن تيودور صاح فى نهاية المؤتمر: «الآن أنشأنا الدولة اليهودية».

على أن هذا الاختيار لم يكن من قبيل الرجم بالغيب أو التنبؤ بالمستقبل، فإن الأحداث العالمية حينذاك قد جعلت من فلسطين صيدًا ثمينًا للصهيونية، فإنها كانت فى منطقة نفوذ «الرجل المريض» تركيا، وكان الاستعمار ـ الإنجليزى الفرنسى ـ ينتظر الفرصة؛ ليثب على الرجل المريض فيزهق روحه وينعم بالميراث، ولم تعدم الصهيونية حيلة فى دفع الاستعمار إلى الحرب بما لها من بأس ونفوذ مالى مخيف، ولتكتمل فصول مأساة فلسطين رويدًا رويدًا.

السلاح الأول

يتضح لنا من الإصحاحات والأسفار والصحائف المقدسة عند اليهود ما يجعل العودة لفلسطين دينًا، وما يجعل التشبث بها عقيدة، وما يجعل القتال من أجلها عبادة وجهادًا وتضحية؟

يقولون: أهذا فى العهد القديم؟.. نعم فى العهد القديم، جاءنى بعض الناس بالعهد القديم وقرأت منه صفحات من سفر حزقيال وسطورًا من سفر أشعياء، واكتفيت بهذا، ولم أقرأ ما ورد فى هذا الموضوع فى أسفار ميخا وزكريا وغيرها، لقد بلغ من التوسع فى المكانة الدينية لفلسطين أن حزقيال يجىء بقصبة ويقول لليهود: يبنى الهيكل على النحو الآتى، ثلاث قصبات وتبنى بناء، سبع قصبات وتبنى مذبحًا، وهكذا فى صفحتين وضع التصميم الهندسى للهيكل، وبداهة يقوم الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

وبلغ من الترف أن سفر أشعياء قال: لبنان ستصدر اللبان لنساء إسرائيل عندما تقام، والعالم كله سيرسل ذهبه وفضته لمملكة «يهوه» التى يحكم بنو إسرائيل العالم منها، وقال لهم: إذا كانت الأم تترك رضيعها؛ فإن الرب لا يترك إسرائيل، غضب عليكم قليلاً لكنه سيعيدكم إليه إلى أرض إسرائيل، هذا كلام يتلى على أنه وحى، هذه عقيدة دينية تثير النشوة فى العروق، تثير الحماس فى الأعصاب، تثير التضحية باسم الرب، وكتب «وايزمان» فى مذكراته السياسية يقول: «إن اللورد بلفور ولويد جورج وغيرهم من قادة إنجلترا أعطونى الوعد بمشاعر دينية». فالقول بأن إسرائيل دولة علمانية أو دولة إمبريالية قول ساقط، والحقيقة الكبرى أن إسرائيل دولة دينية، والأساس عندها أن اليهودية وحدها هى الدين، وأن اليهود هم شعب الله المختار وأحق الناس بحكم العالم.

وعلى هذا أخذ الدين فى البناء اليهودى المعنوى والمادى مجالات شتى، فهناك حاخامات مسئولون عن تربية الأطفال، كما أن الجيش الإسرائيلى يقوم على جعل رجال الدين جزءًا من الأسلحة، فكما أن هناك جنرالات للدفاع الجوى أو المدفعية فهناك جنرالات حاخامات، فالتنظيم العسكرى وضع الدين سلاحًا، بل الدين هو السلاح الأول، والذى يصدر الأمر بالقتال الحاخام الأكبر، بوصف أن

الدولة دينية والحرب دينية، هذا المعنى، وهذا البناء، وهذا الأساس، وجد فى الصف المقابل لى، وفى الجانب المناوئ لى، هذا المعنى وجد عند اليهود، أما الصف العربى فعن طريق العمالة أو عن طريق الجهالة قرر سحب الإسلام بعيدًا عن القضية، المجتمع العربى من خمسين سنة والجهل فيه يتقدم والعلم يتأخر، وكما قلت فى مناسبة أخرى: إذا مشى مهرج فى الشارع احتفى الجمهور به، وإذا مشى أستاذ الهندسة الحاصل على جائزة الدولة التقديرية أنكره الناس، من يعرفه؟ لا أحد يعرفه، فى دولة عربية وقعت اشتباكات، وكان السبب أن الحاكم قدم دستورًا لم يجعل الإسلام فيه دينًا للدولة، وكان تعليق الكُتَّاب عندنا أن نزعات رجعية تحركت ضد الدستور التقدمى، هل التقدم أن تطلق الدين وأن تبتعد عنه؟ اليهود لم يطلقوا الدين، و«جولدا مائير» قالت سنة ١٩٦٧م: لقد نصرنا السبت فنصرنا السبت، تقصد أن أجدادهم لم يحترموا شعائر دينهم، وكما قال الله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾. فالعدوان فى السبت جريمة، وقد قرروا ألا يعتدوا فى السبت، دينهم يقول: العمل يوم السبت لا يجوز، وإيقاد النار يوم السبت لا يجوز، ولذلك لما ذهب «ابن غوريون» ومعه رئيس الدولة لتشييع جنازة «تشرشل» وافق ذلك يوم السبت، وكانت المسافة بين البيت والمقبرة آلاف الأمتار، فقرر المشيعون ركوب السيارات، أما «ابن غوريون» ورئيس الدولة فقررا المشى على الأقدام، لماذا؟ لأن إيقاد النار لا يجوز، وتحريك السيارة إيقاد للنار، هكذا يحترمون دينهم فيمشون هذه المسافة وهم بين السبعين والثمانين من العمر، لو أن إقامة شعيرة دينية تكلف بعض الزعماء العرب أن يمشوا مسافة نصف الكيلو؛ فلن تقام هذه الشعيرة.

لم انتصر اليهود علينا؟ نشرت مجلة «الوعى الإسلامى» تصريحًا لـ «ابن غوريون» يقول: إن أنبياءنا قالوا لنا: لابد من مضاعفة الاستعداد؛ لأننا قلة وأعداءنا كثرة، ويجب أن نصعد إلى مستواهم العددى بمضاعفة إنتاجنا حتى يصل إلى إنتاجهم، الرجل يقول: أنبياؤنا قالوا لنا، بينما كثير من قادة العرب لا تجرى على لسانه كلمة «قال النبى كذا».

التقدمية أن يقول: قال فلان كذا، أما أن يقول: قال النبى، أو قال أبو هريرة، أو قال ابن حزم، فهذه رجعية ثم حدث ما حدث وتوالت هزائمنا..

عــــودة العقيــدة

لابد من إعادة العقيدة إلى المقاتل العربى، ولو أن الإسلام دخل المعركة من أول قتال دار بيننا فى سنة ١٩٤٨م ما وصلت إسرائيل إلى امتدادها الحالى أبدًا.

فى معركة الجزائر مع الفرنسيين كان الثوار الجزائريون يسمون صحيفتهم «الجهاد» وكان رائد الجهاد الشيخ عبدالحميد بن باديس، الذى قال:

شـــعبُ الجزائـــرِ مُـــسْـــلِـــمٌ

وإلى الـــعـــروبـــةِ يَـــنْـــتَـــسِـــب

نشأ عن العقيدة اليهودية الوحدة اليهودية، فإن اليهود فى العالم اتفقوا جميعًا، اليهودى الروسى فى نظام شيوعى اتفق مع اليهودى الأمريكى فى نظام رأسمالى، مع اليهودى الفرنسى، مع اليهودى اليمنى، مع اليهودى المصرى، اتفقوا جميعًا على أن يقيموا دولة إسرائيل بالدم والمال والعرق والجهد.

لقد رويت للبعض قصة مدير تعليم من القاهرة انتدب فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات إلى فلسطين مسئولاً عن التعليم هناك، قال لى: «كنت حريصًا على ألا أركب سيارة إلا إذا كانت عربية، فخدعت يومًا وركبت سيارة، ومضت بى فى الطريق من خان يونس إلى مدينة القدس، ونظرت إلى السائق فى الطريق وبدأت أتأمله وشعرت أنى خدعت، لكنى سكت، ونظرت إليه بكبرياء، وكأن السائق أحس بأنى أنظر إليه بكبرياء، فأدار بصره إلىَّ وقال لى: من أنت؟ فقلت له: أنا رجل عربى، فقال: يبدو أنك مثقف، قلت: نعم، أنا حاصل على إجازة كذا من سويسرا، فلعبت أصابعه فى الدرج الذى أمامه وأخرج نفس الإجازة العلمية وأرانى إياها، فقلت له: أنت حاصل على هذه الإجازة؟ قال: نعم، قلت: فما الذى جعلك تشتغل سائق سيارة؟ قال: أنا أشتغل سباكًا أو نجارًا أو حمالاً أو سائقًا من أجل إقامة إسرائيل!» مدير التعليم الذى روى لى هذا قال: كان هذا الحديث يرن فى أذنى وله صدى فى نفسى مشوب بالأسى؛ لأنى وجدت بعض أبناء العرب الذين كانوا يتعلمون كانوا يرفضون أن يعملوا إلا رؤساء، يريد الواحد منهم أن يحصل على شهادة عالية أو متوسطة ويجلس على مكتب يصدر أوامره، أما أن يتعرض للغبار والمتاعب فهذا ما لا يخطر بباله، لقد جمعت الوحدة الدينية صفوف اليهود

وجعلتهم يتحملون المتاعب، أما العرب فقد أبعدوا الدين، وإبعاد الدين جعل الوحدة العربية مظهرًا لا جوهرًا، شيئًا آخر: فى كل جنس عناصر بشرية نفيسة، فإذا أراد الله خيرًا بأمة وفقها إلى أن تجعل العناصر النفيسة هى التى تقودها، وإذا أراد الله شرًّا بأمة جعل عناصرها التافهة هى التى تقودها. ويقول النبى ﷺ: «**من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**». القيادة تكون فى الأيدى المدربة اللبقة، كان أعداؤنا ينتفعون بالقيادات المدربة الماهرة، بينما كنا نحن نرمى بالكفاءات.. رجل كعبدالمنعم رياض سئل - فيما أعلم - عن إسرائيل فقال: حاملة طيران ثابتة، فكان هذا الجواب سببًا فى الغضب عليه، لماذا؟ هل مهمتى أن أقول كلامًا يرضيك؟ هذا بحث علمى، لكن جنون العظمة يريد شيئًا آخر، الأمة اليهودية بحثت عن الرجال فيها وأسلمتهم القيادة، رجل كموشى ديان حمل أعباء المعركة شرقًا وغربًا، ومشى مع الجنرال الإنجليزى فى حرب «العلمين» ومشى إلى تونس والجزائر وعاد مرة أخرى وذهب إلى كوريا تعلم الحرب الحديثة، يعنى الرجل تخرج فى الميادين، ومع هذا فلو دخل الكشف الطبى عندنا لسقط، العالم العربى عالم غريب الأطوار، أنا لم أر «فلان» لكن يوم أن أخذ رتبة مشير أو مارشال استغربت وقلت: أيزنهاور كسب الحرب العالمية الثانية ومات وهو جنرال، وديجول مات وهو جنرال، لو جئت بكاتب عمومى وجعلته رئيس محكمة النقض فماذا تكون النتيجة؟ تكون خرابًا ودمارًا، ولذلك يوم أن دخلنا حرب سنة ١٩٦٧م لم تكن لدينا خطط قادة، كانت الخطط خطط عيال، ونكبنا فى سنة ١٩٦٧م.. إننا لم نحارب وإنما انتحرنا. إننى أقول وبكل قوة: عزل العقيدة عن المعركة جريمة، محاولة تجميع العرب بعيدًا عن الطابع الدينى مهزلة، فالأمة عندما تتعرض للمخاطر والأهوال لا يعزيها عندما ترى الهول، ولا يشجعها عندما نكلف باقتحام الصعاب إلا الإيمان بالله. لقد فعل أعداؤنا هذا، استعانوا بالدين، استعانوا بالتجمع، استعانوا بالكفايات، فلِمَ نبعد هذا؟ إننى أشعر بأن الحرب قد اقتربت، وستفرض علينا طوعًا أو كرهًا، وإذا عدنا إلى ديننا بهذا الوصف وبهذا التفصيل؛ فإن النصر سيكون لنا، إذا عدنا فى الصباح فإن النصر سيكون فى المساء أو صبيحة الغد إن تأخر ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾.

اعــتراض العــدالة

نحن المسلمين نحب أن نتعرف على الناس، وأن يتعرف علينا الناس، هكذا علمنا ربنا، فإن الله لم يخلق الأرض لنتهارش عليها ونسفك الدماء، بل خلقها لنرتفق خيره ونشكره عليه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾، ونحن نعتب على اليهود والنصارى أنهم لم يبادلوا المسلمين المعاملة نفسها.

قرأت أن يهوديًا فى مدينة الخليل، استولى على بيت عربى،، ثم قال لرب البيت: هذا البيت ملكى من بضعة آلاف عام، وقد عاد إلىّ، ولست أطلب منك أجرة سكناه طوال هذه القرون، لقد تنازلت عنها، فاذهب إلى أى مكان، وأقم به أو اسكن فى العراء إن شئت ولا تعد هنا وإلا...

السياسة الاستعمارية التى سيرت العالم، فى العصور الأخيرة كان هذا المنطق يكمن وراءها، فإن الجريمة التى ارتكبها الإسلام ـ كما يرى البعض ـ أنه دحر الإمبراطورية الرومانية التى كانت تحتل الأناضول وشرق البحر المتوسط ووادى النيل، وشمال إفريقيا، وأقطارًا كثيرة أخرجها الإسلام منها وردها إلى أهلها الأولين الذين اعتنقوا الإسلام بداهة، وورثة الرومان ينظرون إلى مستعمراتهم القديمة كأنها أملاكهم الضائعة يجب أن يستعيدوها، وإلى ملايين المسلمين كأنهم عبيدهم الأقدمون.

ولاشك أن قيام هيئة الأمم المتحدة على أسس إنسانية مجردة، فتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم، وكفكف من غلواء الاستعمار السابق، ولكن هل المنتصرون الذين بنوا هذه الهيئة النبيلة برئوا من ثورات الحقد القديم، وحاربوا التعصب والجشع؟

لعل إنشاء جهاز أخلاقى عالمى، يساند الخصائص الإنسانية العليا، وينشط الجهود المبذولة لدعمها، ويصل بالهيئة إلى ما نريد، ويقى العالم شرور الانقسام والخصام.

عن أبى ذر رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال:

«**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»، وفى الحديث أيضًا: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

والواقع أن من له دين يجب أن يكون شريفًا فى رضاه وفى غضبه، فلا يستبيح خصمًا ولا يجور على ضعيف، بل يقف عند الحق، ويستريح للعدل، ويعلم أن النزق والجور من صفات السباع لا من خلائق الإنسان.

ويؤسفنى أن الإنسانية فى تاريخها الطويل، احتالت على ارتكاب المظالم، ورأت فى اختلاف البشر قوة وضعفًا، وغنى وفقرًا، وإيمانًا وكفرًا، ثغرة تنفذ منها إلى اقتراف ما تريد.

وقد رفض القرآن الكريم أن يعترض العدالة شىء، ماديًا كان أو أدبيًا: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾. وفى آية أخرى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لقد وهم الناس أن اختلاف الدين يبيح التظالم ويترك المجال رحبًا للمشاعر المنحرفة والأهواء الجامحة، وهذا كذب على رب الدين وباعث المرسلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

وأذكر ثلاثة أحاديث مروية عن محمد عليه الصلاة والسلام ترد هذه الفرية وتبرئ الإسلام من هذه التهمة.

■■ **الحديث الأول**: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا، ففجوره على نفسه**».

■■ **الحديث الثانى**: «**دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ـ ليس دونها حجاب**».

■■ **الحديث الثالث: عن أبى ذر قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال ﷺ: «كانت أمثالاً كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فإنى لا أردها، وإن كانت من كافر»**.

ومن دواعى الدهشة، أن يموت نبى الإسلام، ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهله، ما أثر اختلاف الدين هنا؟ إن اليهودى التائه عاش قرير العين موفور الدم والعرض والمال فى عاصمة الإسلام، هل كانت غربته سببًا

فى أن يجور عليه أحد؟ لقد حصن الحكم الإسلامى حقوقه فعاش ومات لا يشكو شيئًا.

إننا نحترم الرأى والرأى الآخر، وإذا كنا - نحن المسلمين - نشكو شيئًا؛ فمواريث الضغائن التى نعامل بها فى ميادين شتى، ونرجو أن تزول مع استقرار حقوق الإنسان.

التلمـود دسـتور الصهيونـيـة

الحقيقة أن الصهيونية ـ فى قديم أمرها وحديثه ـ لا سند لها من دين موسى، وإنما هى أطماع سياسية عنصرية صنعت لها دستورًا من مسخ التوراة وخيالات «التلمود» وأحلام الأحبار والحكماء من فلاسفة اليهود، إن تحولهم عن موسى إلى الصهيونية له سببان رئيسيان: **الأول**: أن بختنصر قد عصف بدولتهم التى أقامها داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام. **الثانى**: كانت وطأة البابليين عليهم فى السبى عنيفة مروعة، وقد أحس اليهود إحساسًا عميقًا بذهاب آمالهم فى الدولة، وشعروا كذلك أن كيانهم الجماعى كأمة قد صدعته الذلة فى جحيم «بابل» فدفعهم هذا الشعور وذلك الإحساس إلى أن يفزعوا إلى أحبارهم وحكمائهم يلتمسون لديهم شيئًا من العزاء الذى قد يخفف عنهم وقع ما يجدون، فوجد هؤلاء وأولئك ألا مندوحة لهم من أن يقولوا للمفجوعين الأذلاء شيئًا، أى شىء، فنظروا فى تحريف التوراة فلم يجدوا فيه ريًّا لنفوس تلهث ظمأ، ولا مقنعًا لأفئدة كاد يقتلها اليأس، فوضعوا لهم قصصًا، فى بعضها وعد من عند الله بإقامة دولة، وفى بعضها الآخر أنهم شعب الله المختار، وأنهم لا محالة سيحكمون العالم، وأن من عداهم من الناس خنازير وحشرات خلقوا لخدمتهم، وأن الدنيا كلها خلقت لهم وحدهم دون من سواهم من البشر، وهكذا طفق الأحبار يتخيلون لهم أحلامًا يهدهدون بها السذج والدهماء، حتى استقر فى مخيلة هؤلاء بعد حين أن ذلك حقيقة لا ريب فيها، ووعد من الله لن يتخلف، وهكذا تحولت اليهودية إلى صهيونية بتدبير سياسى خطير، وتبييت عنصرى خبيث، وصدق الله إذ توعدهم بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

إنهم حرفوا التوراة تحريفًا يتلاقى وآمالهم التى فى صدورهم، حتى استقام لهم بعد ألف عام تقريبًا كتاب سموه «التلمود» أو كما يجب أن يسمى «دستور

الصهيونية» يفضلونه على التوراة نفسها، ولدعم ذلك أسوق نصين من نصوص كثيرة تدور حول هذا المعنى من كتاب «فى الفكر اليهودى» الذى جمعه الدكتور ج. هـ هرتش، الحاخام الأكبر لليهود فى بريطانيا، وصدر له «حايم ناحوم» الحاخام بمصر:

النص الأول ـ لعمانويل دوتش ١٨٦٨م ـ: «التلمود هو المؤلف الذى يتضمن القانون المدنى والدينى للشعب اليهودى، فهو عبارة عن ملحق لأسفار التوراة الخمسة الأولى، وقد استغرق هذا الملحق ألف سنة، وقد تضمن حكايات مجازية، وقصصًا وأساطير عن الجن، وأقصوصات خرافية».

النص الثانى ـ أ. مارى روبنصن ١٨٩٢م ـ: «التلمود ذلك الكتاب الذى أحله اليهود المسجونون فى أحيائهم المركز الثانى فى حياتهم، لم يكن مجرد كتاب فلسفة وتقوى، بل كان منهل الحياة القومية، والمرآة الصادقة لحضارة بابل واليهود، كما ترددت فيه أيضًا الأحلام المخيفة والخرافات والأساطير وما إليها من أشباح سحرية وشذرات علمية اختلط فيها الخطأ بالصواب، وتأملات ونظريات جزئية اكتشفها التائه فى أسفاره التى لا محط لرحالها، فالتوراة ذاتها لم تبلغ ما بلغه التلمود».

والصهيونية تحارب كل فضيلة وتقضى بأساليبها على كل من يدعو إلى التوحيد والمحبة والسلام؛ لأن ذلك كله يقف دون غاياتها ويهجن من وسائلها وهى تريد أن تمضى ولا تتوقف.

فالأنبياء ـ من بنى إسرائيل ـ كذبوا من الصهيونية تكذيبًا كله عناد ومخالفة، ومنهم من قتلته غيلة وغدرًا؛ لأنهم يدعون اليهود إلى غير أطماعها، وهى لا تريدهم إلا أشرارًا حاقدين. والسلام يعارض العنصرية التى يدينون بها، وهذا «بولس الرسول» يقول فى رسالة له لأهل «رومية» (إصحاح ١٠): «لأن الكتاب يقول: كل من يؤمن به يجزى؛ لأنه لا فرق بين اليهودى واليونانى؛ لأن ربًا واحدًا للجميع، غنيًا لجميع الذين يدعون به»، ثم يمضى فيخاطب اليهود: «يا قساة القلوب، يا غير المطهرين بالقلوب والآذان، أنتم تعادون الروح فى كل حين». والسيد المسيح عليه السلام يعنيهم حين يخاطب «أورشليم» بقوله: «يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدى».

أما محمد ﷺ فإن مواقف الصهيونية منه بلقاء مشهورة، سجلتها كتب السيرة بما لا يدع لنا مجالاً لعرضها، فمن نقض للعهد، إلى انحياز لجانب المشركين، مع أنها تزعم الاعتقاد بالوحدانية، وكثيرًا ما حاكت حوله المؤامرات وهمت بقتله، ولم تدع سبيلاً لإطفاء الإسلام إلا سلكته، فقد راعها من التنزيل أن ينفذ فى تصويره إلى خَفِىِّ أمرها، فيفضح ما استتر منه بمثل قوله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾، وقوله:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

صدق الله العظيم.

قـــرارات بنـــى صهيـــون

قرارات حكماء إسرائيل جاءت مفصلة، ولست بمستطيع أن أسوق نصها للقارئ فذلك يخرج بنا عن الإيجاز والاختصار، ولكنى أقدمها إليه فى خلاصة أمينة قد تفى بالغرض الذى نهدف إليه:

- القانون هو الذى يكبح جماح النفوس البشرية، وما القانون إلا القوة، ومن هنا نستنتج أن الحق كائن فى القوة، وما دام الذهب فى عصرنا هذا أعظم نفوذًا مما للحكومة الديموقراطية، ومادام الذهب فى حوزتنا - نحن اليهود - ففى استطاعتنا أن نشترى به كل ما نشاء، ونسيطر به على ما نريد.. شعارنا: «القوة والرياء» وفى سبيل هذه السيطرة لا ينبغى أن نحجم عن اللجوء إلى الرشوة والخداع والخيانة فى سبيل بلوغ مآربنا.

- من مصلحة اليهود إشعال الحروب بين الدول؛ حتى يتيسر نقل الحرب إلى الميدان الاقتصادى، مما يضطر الفريقين المتحاربين إلى وقوعهما فى قبضتنا لتفوقنا فى هذا المضمار.

- خلق الضائقة المالية للحكومات لتنمية روح الكراهية فى العمال للحاكمين، لنهيمن على الجهاز الحكومى، وذلك لأن فى أيدينا الصحافة وفى قبضتنا البرلمان.

- سيحكم حينئذ الغوغاء، وسيقضى حكمهم إلى الفوضى التى تديرها من وراء ستار قوة وكلائنا الذين يتخذون المحافل الماسونية أوكارًا لهم، بحيث ننقل الأفكار إلى الميدان التجارى والصناعى، وهنا يجب أن نجعل من (المضاربات) قاعدة للتعامل، وحينئذ ستتسرب جميع الثروات إلى فوهة مضارباتنا فتبتلعها خزائننا.

- سيكون الجهاز الحكومى فى شتى الدول فى قبضتنا؛ لأنه يتوقف على الذهب الذى نملكه، ولضمان أن يستمر ذلك ينبغى أن نتذرع بكل الوسائل وفى مقدمتها جر الشعوب إلى الحرب، وتلهيتها فى السلم بفيض غامر من الأفكار المتعارضة وبموجات الانحلال مع تجريدها من كل أسلحتها، وينبغى القضاء على المتفوقين والممتازين والعمل على انعدام الثقة، وبذر الخلافات، وتشجيع

كل محاولة ترمى إلى الهدم والتحطيم، وفى هذا الجو نبشر بفكرة التعاون الدولى بقصد إنشاء مؤسسة تهيمن على العالم وسيعهد لا محالة بإدارتها إلينا.

- السيطرة على ثروة العالم عن طريق إنشاء الاحتكارات العالمية، والعمل على تقوية القوة البوليسية التى تخضع لنا داخل الحكومات، ودعم الصحافة ووسائل النشر التى نسيطر عليها، وبهذين الجهازين الخَطِرَيْن نعلن حكم الإرهاب على كل من يقف فى طريق أهدافنا، وبهما نهدد كيان الحكم بإثارة الفتن والقلاقل متى شئنا.

- العمل على رفع ضعاف الأخلاق إلى مناصب الحكم؛ ليستجيبوا فى يسر إلى رغباتنا.

- إذا كان غير اليهود هم الذين يملكون أمر الحكم فى الشعوب؛ فإننا نلى فيها أمر المال، وبهذا سيكون النضال المذهبى أو السياسى فى أى اتجاه وفى أية دولة يسير وفق مصالحنا وأهدافنا، وعلينا أن ننفخ فى (اضطهاد اليهود) فإنه السبيل لتجميع اليهود وربطهم بقيادتنا.

- التزام السرية التامة فى كل نشاط سياسى لنا؛ لأن المبدأ الذى لا يذاع علنًا يترك لنا حرية العمل من غير رقيب، وينبغى أن نعمل على تركيز السلطات الثلاث فى الدول فى أقل عدد من المرتشين.

- يجب أن نقبض أيدينا على وكالات الأنباء العالمية؛ لأن الصحافة والنشر هما أداة السيطرة على الفكر العالمى، وبهما لن يرى الناس أى خبر أو مقال إلا من الجانب الذى نريد.

- زعزعة الإيمان والعقائد فى القلوب؛ حتى لا يبقى على الأرض سوى اليهودية.

- حتى لا نفاجأ بمؤامرة تهدد كياننا؛ يجب أن ننتشر فى كل المنظمات السرية فى شتى أطراف العالم.

- تكليف وكلائنا من أصحاب المراكز المهمة بتلويث غيرهم، وتشجيع ذلك الغير على الانحلال والرشوة، وإساءة استعمال السلطة، فإن هذه هى الحبال التى تشدهم إلينا وتربطهم بنا.

- تشجيع الاغتيالات الفردية، وذلك بأن نلقى فى روع المغتال أنه شهيد وبطل.

- التزيين للدول بالاستدانة منا لنفلسها حينما نريد والاعتماد على البورصة وألاعيبها.

- بعد كل هذا لن يبقى أمامنا سوى أن نخطو الخطوة الأخيرة نحو عرش صهيون وهو بحاجة إلى العنف.

- وسيجلس ملكنا المحبوب على عرش سليمان ليحكم العالم، وستحف به نخبة من حكماء صهيون من نسل داود تعاونه فى مهمته (الصمدانية)، وسيكون حكمهم حازمًا وعنيفًا لخير الإنسانية، أما الملك فسيكون مثال العزة والمهابة والجبروت، إنه المسيح المنتظر من سبط يهوذا ونسل داود.

وهذه القرارات بما شرعت من وسائل إنما تسير لتحقيق مطامعها فى اتجاه مضاد تمامًا لتلك الاتجاهات التى رسمتها الإنسانية وقررتها الأخلاق وتنزلت بها الأديان، فهى فى كل أمرها من وضع نفوس قد تجردت من الخير وترسمت خطا الشيطان.

الصهيونية لا سند لها من دين موسى عليه السلام

كان الزعيم الصهيونى هرتزل عمليًا حقًا، حينما ذهب إلى السلطان عبدالحميد ليساومه على شراء فلسطين بالمال؛ كسبًا للوقت، وليتفرغ النشاط اليهودى الرهيب إلى استخدام القوى المستعمرة فى تحقيق هدف صهيونى آخر، ولكنه باء بالفشل، إذ رفض السلطان التركى العرض اليهودى فى تصميم وإصرار.

لم يحزن تيودور لهذا الرفض، فقد كان على يقين بأن الصهيونية بنفوذها القوى قادرة على توجيه الاستعمار بإشارة من أصبعها، وهو الآن يتحفز للوثبة على الدول التى تخضع للحكم التركى، وما دام المال فى حوزة الصهيونية فإن الاستعمار واقع فى قبضتها لا محالة، لأن الإنفاق على حرب استعمارية كهذه ستجعل الذهب اليهودى السيد الآمر.

فلو أن الصهيونية طلبت فلسطين ثمنًا لذهبها لاستجاب الاستعمار فى رضا وقبول، وهذا هو ما حققته الأيام، وقد أكد هذا المعنى الفيلسوف اليهودى «كارل ماركس» حين يقول:

«فاليهودى الذى لا يحسب له حساب فى ڤيينا هو الذى يقرر بقوته المالية مصير النمسا كلها، واليهودى الذى قد يكون فى أصغر الدول الألمانية محرومًا من الحقوق هو الذى يقرر مصير أوربا بأجمعها».

وكذلك حين يقول: «المال إله إسرائيل الجشع، وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش، إن المال يخفض جميع آلهة البشر ويحولها إلى سلعة».

وليس أبلغ فى إقناع القارئ أيًا كانت عقيدته الدينية من أن يصغى إلى الصهيونية وهى تقدم إليه نفسها، وتفضح له بأقلام زعمائها عن مطامعها الرهيبة، وجناياتها التى تقطر دمًا فى كل مكان.

وعليه حين يقضى فى أمرها أن ينصب من نفسه قاضيًا عدلاً، لا يجور فى الحكم، أو يميل مع الهوى، وحسبه فى ذلك أن يأخذ بما يستقيم له من دليل، وما يستقر فى قلبه من حجة، ليكون قضاؤه أدنى إلى الحق، وأخلق بالرضا والقبول.

كان مؤتمر بال بعثًا للصهيونية الحديثة، وتجديدًا خطيرًا فى وسائلها



وغاياتها، الأمر الذى ضاعف من قوتها، وكفل لها الذيوع والانتشار، ذلك أنه أيد فى اجتماعه القرارات المعروفة بـ «قرارات مشيخة إسرائيل»، تلك القرارات التى ظلت سرًّا دفينًا فى صدور الصهيونيين، حتى عثرت سيدة مسيحية على نسخة منها عام ١٩٠٢م فقام بترجمتها إلى اللغة الروسية الكاتب الروسى «سرجيوس نيلوس»، ثم ترجمت فيما بعد إلى اللغات الأخرى.

وقد أدرك العالم حينئذ خطر تغلغل الصهيونية فى شتى الدول تغلغلاً أثار فيه القلق والاهتمام، ومما هو جدير بالملاحظة أن النسخ المترجمة إلى أية لغة من لغات العالم كانت تختفى بعد ظهورها بأيام، وبديهى ألا مصلحة لأحد فى إبادتها سوى اليهود وحدهم.

وهذه القرارات بما شرعت من وسائل إنما تسير لتحقيق مطامعها فى اتجاه مضاد تمامًا لتلك الاتجاهات التى رسمتها الإنسانية وقررتها الأخلاق وتنزلت بها الأديان، فهى فى كل أمرها من وضع نفوس قد تجردت من الخير وترسمت خطا الشيطان.

ويحسن هنا أن نشير إلى أنه ليس بين الصهيونية وبين دين موسى عليه السلام أية صلة أو أدنى نسب، لأن الأخير نحلة مقدسة تنزلت من السماء، والسماء فيما تنزل من وحى لا تفرق بين الناس، ولا تدعو إلى العنصرية الحاقدة المستعلية، وهى إذ تفضل طائفة على أخرى لا تتخذ من اللون أو الجنس سبيلاً إلى التفضيل، وإنما سبيلها فى ذلك إيمان بوحدة الخالق، وحب الخير للبشرية جميعًا.

ورسالة موسى عليه السلام كان من أغراضها نصرة المظلوم والثورة على الظالم، فهى بهذا المعنى ردت إلى النفس اليهودية الثقة التى كان قد أوهنها فرعون فاستعادت كيانها وشعرت بوجودها. وليس من المنطق فى شىء أن يجمع دين سماوى أشلاء من نفوس مبعثرة لينفخ فيها البغضاء للعالم كله، أو ليغرس فيها الحقد المرير على البشرية جميعًا، إنما حسب الدين فى ذلك أن يأسو من جراحاتها، ويعيد خلقها من جديد، لتؤمن بالخير، وتعمر بالمحبة والإخاء، وتطرح الشحناء والبغض جانبًا.

دعـــوة للتحـاور

شعرت بأن أهل الأديان تلاحقهم تهمة خطيرة، أنهم لا يهتمون بتزكية الروح، وأنهم قد يدفعون المظالم عن أنفسهم، لكنهم لا يدفعونها عن غيرهم، وأن طقوس العبادات أرجح لديهم من حقوق الإنسان، فكتبت رسالة مطولة أشرح فيها دينى، جاء فيها ما يلى:

شعرت بالرضا وأنا أقرأ عن إنشاء جهاز عالمى لدعم الأخلاق، والتسامى بالبشر، وقلت: إن الفطرة الإنسانية لاتزال طيبة، تعشق الكمال، وتسعى إليه، وتقاوم السعار المادى الذى يربط المرء بنفسه ومآربه وشهواته.

ومعروف أن العالم تقاربت أقطاره، واختصرت أبعاده، ونشأت فيه لأول مرة من تاريخه المديد هيئة لأممه كلها، أى أن أبناء آدم أمسوا أسرة تستطيع التقارب والتحاور ودراسة ما يثور من مشكلات والتعاون على حلها، لكنها ستعجز عن بلوغ أهدافها إلا فى ظل الاكتمال الخلقى، وكبت غرائز الأثرة والكبرياء، فهل نقصر فى توفير الوسائل المنشودة لتحقيق ما نصبو إليه؟

إن نبى الإسلام ﷺ يقول: **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**، ويقول ﷺ لعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه: «**ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**».

ويقول ﷺ لأصحابه: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال ﷺ: إصلاح ذات البين فى فساد ذات أنس هى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».

إننا نحن المسلمين يسعدنا تأليف هيئة أخلاقية تساند هيئة الأمم، وتسدد خطاها وتحصنها من المحاباة والهوى.

لكننى - ولأكن صريحًا - شعرت بحرج شديد عندما علمت أن البرلمان الأخلاقى، فتح الباب للمؤمن والكافر، للموحد والمشرك، لمن يعتقد خلود الروح ولمن يرى انتهاء الوجود بالموت.

قد تقول: هذه هى الدنيا وهؤلاء أبناؤها، وقد تكونت الأمم المتحدة من ملل

متناقضة، وتجاورت فى مقاعدها لتدريس قضاياها المختلفة وما تستطيع هيئة أخلاقية إلا أن تفعل ذلك.

ولى على هذه الإجابة تعليق: إن النظر إلى الإيمان بالله على أنه قضية ثانوية أو قضية لا صلة لها بالأخلاق، أمر مستنكر عندنا نحن المسلمين، أو هو أمر يثير الاشمئزاز، لماذا يخلق الله ويُعبَد غيره؟ ولماذا يعطى ويُشكرُ سواه؟

هل العقوق رذيلة إلا فى معاملة الله؟

إننى لو أجزلت العطاء لأحد، ثم رأيته يجحدنى؛ لاشتد سخطى عليه، واحتقارى له،فكيف أرضى وجود أفراد أو جماعات تطعم من خير الله صباحًا ومساءً ثم تتجرأ عليه، وتنكر وجوده، وحقوقه؟ أعتقد أن منكرى الألوهية لا ينبغى أن نعترف بهم، وإذا اضطررنا إلى مجالستهم، فلنرسم لذلك سياسة خاصة توفق بين عقائدنا وحقهم فى الحياة، من يدرى؟ قد يهتدون إلى الصواب إذا حاسبناهم، من دواعى سرورنا نحن المسلمين أن نلتقى بأتباع الديانات السماوية التى سبقتنا فى مؤتمر جمع لتحسين الحسن، وتقبيح القبيح، وتقوية الفضائل، ومحاربة الرذائل، إن لدينا الكثير الذى نود أن نقوله، والتراث الذى تركه لنا محمد ﷺ لم يترك خطوة إلى الكمال إلا دعمها، ولا رغبة فى التسامى إلا زكاها وشجع عليها.

إنه تراث ضخم تضمن مئات الصفحات الحافلة بمكارم الأخلاق، ولا أعرف رسولاً سماويًا ولا فيلسوفًا أرضيًا خلف مثل هذه التركة.

أهــو اتفــاق ضـدنـا؟

عندما قرر اليهود اغتصاب فلسطين من العرب والمسلمين كانوا مطمئنين إلى ثلاثة أمور:

(أ) أن الأمة التى شنوا غارتهم عليها كانت مبعثرة الصف مفرقة الكلمة ذاهبة الريح.

(ب) وأن الاستعمار الصليبى - بشقيه الثقافى والسياسى - أمسى راجح الكفة، بعيد النفوذ، فإذا لم تكن له جيوش تحتل الأرض فله جيوش تحتل الفكر والفؤاد والسلوك.

(جـ) وأن مواريثهم الدينية المتحدثة عن أرض الميعاد توشك أن تتحقق، ونبوءات العهد القديم التى طال عليها المدى قد جاء أوانها.

وعلى هذه الأسس هجموا، لا مهابة لأتباع محمد ﷺ، فقد هتفوا يوم دخلوا القدس: «محمد مات وترك بنات».

والتفاهم مع الاستعمار الصليبى سهل، بل يمكن التفاهم معه على مصالح مشتركة، ومقدسات مشتركة، وعلى الكيد للإسلام خصم الفريقين.

ويحدثنا التاريخ أن «هرتزل» الزعيم الصهيونى الكبير طاف بملوك أوروبا وعظمائها؛ كى يعاونوه على بلوغ هدفه، وكان آخر من قابلهم ليستميلهم إلى خطته البابا بيوس العاشر سنة ١٩٠٣م.

ونحن ننقل ما دار بينه وبين الفاتيكان أول هذا القرن الميلادى الكالح، ليتدبره المسلمون، وليوازنوا بين التصرفات الكاثوليكية أول هذا القرن وآخره.

قال «كريستوفر سايكو» فى كتابه:

«المقابلة لم تكن منسجمة، فبعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة بدأ هرتزل الكلام واصفًا مخططه الذى يرمى إلى أن تمنح الأماكن المقدسة وضعًا خاصًّا فوق العادة، هذا الوضع يؤلف جانبًا من مخطط صهيونى أوسع وأشمل يراد به التخفيف من بلاء اليهود.

قال هرتزل ما قال دون أن يعرج بشىء على المصالح المسيحية، وقد استمع إليه البابا ببرود، ثم أجابه: هناك احتمالان اثنان: فإما أن اليهود يحتفظون

بمعتقدهم القديم، ويظلون ينتظرون مجيء المسيح، المسيح الذى نعتقد نحن أنه قد جاء، وفى هذه الحال يكون اليهود منكرين للاهوت يسوع المسيح، فلا يكون بوسعنا أن نمد إليهم يد المساعدة، وإما أنهم يريدون الذهاب إلى فلسطين ولا دين لهم على الإطلاق، وهذا أدعى أن نكون أقل عطفًا عليهم.

اليهودية أساس ديننا، غير أن اليهودية قد حلت محلها المسيحية، ولهذا السبب لا يمكننا اليوم أن نساعد اليهود أكثر مما منحناهم من قبل، لقد كان المنتظر أن يكون اليهود أول المستجيبين لدعوة المسيح، بيد أنهم لم يفعلوا هذا حتى اليوم».

ذاك جزء من رد البابا بيوس العاشر على الزعيم الصهيونى من مائة سنة، نقف عنده لنقرأ ما حدث من البابا يوحنا بولس الثانى، تاركين للدنيا كلها أن توازن وتتأمل.

قالت الصحف الفرنسية وفى مقدمتها التحرير والصباح فى ١٤ من أبريل ١٩٨٦م: «أمس ذهب البابا إلى كنيس روما الكبير فى أول تقارب تاريخى يضع حدًّا للعداء التقليدى بين اليهودية والكثلكة».

ومن الكلمات التى خاطب بها البابا حاخامات اليهود: «إن العلاقات التى تربطنا بكم لا تربطنا بأى دين آخر، أنتم إخواننا المفضلون أو بتعبير آخر نستطيع أن نقول: أنتم إخواننا الكبار».

وعندما يتحدث عن المسيح عليه السلام يقول:يسوع الناصرى ابن شعبكم.

قالت الصحف: إنه بعد أن تمنى «إسرائيل ليبال» رئيس مكتب وزارة الشئون الدينية أن تضع الزيارة البابوية حدًّا للعلاقات المريرة بين اليهود والمسيحيين، استطاع البابا أن يجد للفور الكلمات اللازمة للرد، وشكر مستقبليه على حسن الضيافة باللغة العبرية بين تصفيقات المؤمنين الذين رحبوا بتسفيهه للكراهية والاضطهاد اللذين تعرض لهما اليهود.

ثم تبادل الفريقان الهدايا: قدم البابا للحاخام الأكبر صورة لأوراق أثرية من الكتاب المقدس يوجد لها أصل محفوظ بمتحف الفاتيكان، وأهدى الحاخام للبابا شمعدانًا من تسع شعب مع مصنف لنصوص التوراة.

قالت الصحف: كان هذا العمل نفسه يتم فى روما خلال القرون الوسطى، يقدم الحاخامات التوراة، فيردها البابا باحتقار، أما هذه المرة فإن البابا يوحنا بول يقبل الهدية مبتسمًا ويرد التحية بأحسن منها.

ماذا حدث؟ هل تغير اليهود، أم تغير النصارى؟ أم اتفقوا ضدنا؟

حقيقـة نـوايـاهـم

حين نتناول الصهيونية وأغراضها التى تعتمد فى جوهرها على العنصرية الجادة، والطموح إلى إرساء حكم عالمى من شأنه أن يسخر العالم قاطبة لشعب الله المختار، لن نضطر فى هذا المقام إلى الاعتماد على القرآن والإنجيل كمرجعين مهمين، وإنما ندع المصادر المقدسة لدى اليهود تتولى هذا الأمر فى وضوح وجلاء. «فالتلمود» يؤكد أنهم هم الناس، وأن من سواهم من البشر «خنازير وحشرات وأنعام» وسأكتفى بذكر فقرات منه:

- «إنه لولا اليهود؛ لارتفعت البركة من الأرض ولاحتجبت السماء، وامتنع المطر».
- «إن اليهود أبناء الله وأحباؤه، أما باقى المخلوقات فهى بذور حشرات وسائمة كالأنعام».
- «اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه، فمن يصفع اليهود كمن يصفع الله».
- «إذا ضرب أممى - أى غير يهودى - يهوديًا فالأممى يستحق الموت».
- «... والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو مقدار الفرق بين اليهود وباقى الأمميين».
- «إن النطفة المخلوق منها باقى الشعوب الخارجين على الديانة اليهودية هى نطفة (حصان)».

وهكذا، ويمثل هذه الفقرات الناقمة وضع التلمود دستور الصهيونية، على أنه لم يفته أن يوثقه برباط مقدس يصل ما بينها وبين الله سبحانه، ليتقرر فى أذهان اليهود أن السماء إلى جانبهم، وليوقنوا أنهم شعب الله المختار، وقد غرس التلمود كذلك فى النفس اليهودية معانى شتى هى على تنافرها واضطرابها مزيج من الحقد والغرور، أما الحقد فلأن العنصر (الأفضل) لم يتح له أن يسخر العالم لإرادته، وأما الغرور فلأن مواهبهم - فيما زعموا - من صنع السماء، ولهذا وقر فى قلوبهم أنهم سادة الدنيا وكبراؤها.

وأطرف تصوير لهذا ما سجله الحاخام (إربل) بقوله: «إن الخارجين عن دين اليهود خنازير، وإذا كان الأجنبى - غير اليهودى - قد خلق على هيئة الإنسان، فما ذلك إلا ليكون لائقًا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم». ثم يسترسل ليضرب هذا المثل: «إن مثل بنى إسرائيل كمثل سيدة فى منزلها، يستحضر لها زوجها النقود فتأخذها بدون أن تشترك معه فى الشغل والتعب». ومادامت

الصهيونية قد أرادت لليهود أن يصبحوا سادة مخدومين وسيدات مدللات، فعليها إذن أن تعدهم بوطن يعصمهم من التشرد والنجعة فى آفاق الأرض، لتشد من عزائمهم، وتدفعهم إلى العمل، وقد تولى ذلك (سفر التكوين) فهو يحدد الوطن الذى وعدوا به بأنه «من نهر مصر إلى النهر الكبير (نهر الفرات)» وقد أكد أمر هذا الوطن زعماء الصهيونية المحدثون بما فاضت به كتبهم وخطبهم، فها هو ذا (حاييم وايزمان) الزعيم الصهيونى المعروف يذكر فى كتابه «التجربة والخطأ» المحاورة التالية:«كنت أتحدث مع الدكتور بارنيس، فكان الرجل رغم يهوديته يدعو إلى امتزاج اليهود فى الأمم التى يعيشون فيها، وقد سألنى مرة عن جنسيتى، فقلت له: أنا يهودى، فتعجب لإجابتى، وحاول إقناعى بأن اليهودية دين لا جنسية، فأفهمته: أن اليهودية جنسية وقومية». ويقول فى موضع آخر من كتابه هذا: «وفى سويسرا عرفت لينين وتروتسكى وبلنوكوف وكانوا يهودًا، لكنهم كانوا يحتقروننا نحن دعاة الصهيونية، ويقولون لنا: إن اليهودى يجب أن يصلح وطنه أولاً، لا أن يهرب منه ويدعو نفسه يهوديًا، فكنت أبادلهم احتقارًا باحتقار، وكرهًا بكره».

وإن ابن غوريون رئيس وزراء إسرائيل قد أماط اللثام عن رسالة الصهيونية، وأفصح بجلاء عن مطامعها حين قال فى خطبة له: «تتميز دولتنا بأنها الوحيدة التى لا تعتبر غاية فى ذاتها، بل هى وسيلة فقط لتحقيق رسالة الصهيونية، وجمع اليهود المشتتين، فهى ليست دولة الذين يستوطنونها وحدهم، بل هى دولة الشعب اليهودى كله». وقال فى اجتماع حربى عام ١٩٥٢م: «ألا فليفهم الجميع أن إسرائيل قد قامت بالحرب، وأنها لن تقنع بما بلغته حدودها حتى الآن، إن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات».

وإن (بيرنتشتين) الوزير الإسرائيلى السابق للتجارة والصناعة كان واضحًا فى رسم أهداف الصهيونية حين خاطب اليهود بقوله: «على الشعب أن يقلل من استهلاكه، ويتكتل وراء زعمائه؛ استعدادًا للساعة الفاصلة التى نمحو فيها الدول العربية من الوجود».

والنص الأخير صريح فى أن الصهيونية تهدف إلى محو العنصر العربى من مملكة «سفر التكوين»، وهذا يفسر للعالم طريقة «الإبادة» التى نهجتها إسرائيل فى معالجة الأسرى ومن إليهم ممن يقع فى قبضتهم من العرب، على أن إخراج اللاجئين من ديارهم، واغتصاب أموالهم وتشريدهم بغير حق، يعتبر ـ ولا ريب ـ ضربًا رهيبًا من ضروب الإبادة البطيئة التى برعت فيها إسرائيل.

مــا أشـبه اليــوم بالبارحــة

اتخذت الصهيونية فى طورها الحديث موقفًا إيجابيًا يدنيها إلى هدفها ويكفل الهيمنة والسلطان، فقد ربطت نفسها فى عجلة أى استعمار، لا لتكون فى خدمته وإنما لتتخذ منه عملاقًا آليًا تسيره بإرادتها، وتسخره فى أطماعها، وبدأ هذه السياسة الاستعمار الإنجليزى الذى فزع من الصهيونية وإنما حينما كانت إنجلترا سيدة البحار، وآمرة العالم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، فمنحها وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م، وإذا كان قاموس اللصوصية ينكر من مفرداته كلمة «الوعد» فأخلق بالصهيونية أن ترتاب فى وعد بلفور، حتى ولو كان صادرًا من حليفها الاستعمار، ولهذا فقد تعمدت أن تسمعه اللغة التى كان يفهمها. ففى المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى فرنسا سنة ١٩٢٣م وقف الصهيونى فلاديمير جابونيسكى يقول: «إذا رفضت بريطانيا أن تسلمنا فلسطين، فإن اليهود على استعداد لتحريك القوى التى تقضى على بريطانيا» وحينئذ استجاب صاغرًا لرغبتها وقدم لها فلسطين.

وإذن فهناك حقيقة تؤكدها الأحداث الجارية فى العالم قديمه وحديثه، هى أن الاستعمار ظِلٌ الصهيونية يتبعها أينما سارت، ويحل حيثما حلت، ومن الخطأ أن نفهم أنها تسير فى ركابه، أو تخدم غرضًا من أغراضه. نعم، قد ترتضى الصهيونية ـ فى بعض الظروف ـ أن تكون مخلب القط للاستعمار، ولكن مخلب القط هذا لا يلبث أن يتحول فى النهاية بسحر صهيونى إلى مخلب أسد فاتك ليستولى على حظه الأوفى من الفريسة، وهكذا فإن أمر الاستعمار معها كله عجب: إن هو خرج فى إهاب المنتصر فهى إلى كسب واستعلاء، وإن جُلِّل بالسواد والإخفاق فهى إلى دعة وطمأنينة، لأنها لم تتعود أن تخف إلى نجدة الصديق إذا نبا به الزمن، أو طرقته الحادثات.

إن مثلها حين تخدم الاستعمار كمثل المروض الماهر للأسد الجائع، يلوح له من بعيد بقطع اللحم الشهى ليثير فيه غريزة الافتراس؛ حتى يزأر ويهيج. والصهيونية فى كل أطوارها تزيد فى ضراوة الاستعمار لتطلقه على الشعب الذى

تختار، لأن أحقادها المستعرة على البشرية لا ينقع غلتها إلا الدم، ولأن طموحها للسيطرة لا يعرف طريقه إلا على الأشلاء.

وستعلم الدول الغربية ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ أن احتطابها فى حبل إسرائيل سيحرمها الأمن والاستقرار وأن كوارث كثيرة وشيكة الوقوع، وأن هيئة الأمم المتحدة قد صنعت لإسرائيل الخير الكثير، إن إسرائيل تحاول أن تخلق فى العالم جوًّا من التوتر والقلق، الأمر الذى سيصرف الأنظار عن مشرطها الذى يعمل فى شرايين الشعوب، لتمتص الدم الذى يهب لها الدفء والحياة من فرائسها،إن الشرق الأوسط أمة عربية واحدة، تطلب الحرية وتلتمس السلام يرفرف على ربوعها، وإن بقاء إسرائيل فى هذه البلاد ـ تلك الدولة التى تحترف الحرب وتجنى على السلام ـ لَمِمَّا يفرق وحدة هذا الشرق، ويعكر عليه صفو السلام. إنه لجدير بالعالم أن يفتح عينيه جيدًا على حقيقة لا مراء فيها، وهى: أن للدول الكبرى مصالح حيوية مع الدول العربية تلك التى يسمونها «منطقة الشرق الأوسط». وقد شاء الاستعمار أن يقحم فيها إسرائيل، وهى ـ كما رسمت نفسها ـ تواقة إلى التوسع والاستعمار، وسيكون ذلك لا محالة فى نطاق الدول العربية.، وقد وجدت الصهيونية مستعمرًا آخر يعمل من أجل أهدافها، كما وجدته فى «إنجلترا وفرنسا» من قبل، إنها الولايات المتحدة ضالتها المثالية، لقد وجدته فى أمريكا التى تحنو عليها حنو الأم على طفلها المدلل، حتى ولو أدى الأمر فى النهاية إلى كارثة. وستغرى إسرائيل والصهيونية العالمية من خلفها الولايات المتحدة كذلك بالاعتداء على الدول العربية كما أغرت هذين من قبل وحينئذ لن تقف الدول ذات المصالح الحيوية موقف المتفرج؛ فتندلع ألسنة الحروب، لتأكل الأخضر واليابس.

وأخيرًا فليس للعالم إلا أن يختار: فإما صهيونية تطلق حربًا مجنونة من عقالها، وإما تطهيرًا شاملاً للمجتمع من منابتها الخبيثة، حتى يرفرف على الأرض السلام، وتسود المحبة بين الناس.

إثـــــم وعـــدوان

وسعت أرض السلام اليهود قديمًا، وجدوا فيها المأمن والملاذ يوم نبا بهم المقام فى أوروبا، واستحر فيهم القتل.

ومعلوم أن الأوروبيين شعبًا تعودوا اضطهاد اليهود، والنيل منهم، وقد قيل: لولا الإسلام لفنى اليهود.

بل إن الإذلال انتقل إلى أمريكا، فكانت هناك أندية تضع لافتات تمنع دخول اليهود والكلاب.

وقد كان اليهود يستطيعون ـ فرادى وطوائف ـ أن يفروا إلى دار الإسلام من بطش النازى ومذابحه، وكانوا يقينًا سيجدون المأوى والطمأنينة، وكانوا سيقيمون شعائرهم الدينية كما أقامها أسلافهم السابقون وإخوانهم الموجودون.

إن أرض الإسلام من قرون طوال لا تعرف التعصب الأعمى، بل لقد وجد فيها غير المسلمين شيئًا من المحاباة أحيانًا.

بيد أن اليهود فى هذا العصر جاءوا يلطمون العرب؛ لأن الأوروبيين لطموهم.

ومادام هتلر قد أوقد لهم الأفران، فعلى العرب أن يدفعوا الثمن، يدفعونه من دورهم وتاريخهم ووجودهم المادى والأدبى.

ظاهر أن مصاب العرب فادح، والظلم النازل بهم بين، ومع ذلك فالعرب إرهابيون، والإسلام دين عدوان، وعلى البابا ورؤساء الكنائس الأخرى أن يوقفوه عند حده.

بقى أن نسأل اليهود:

إنكم تشكون من ظلم الناس لكم قديمًا وحديثًا، وتجعلون هذه الشكاة أساس مطالبتكم بدولة لكم، هلا بحثتم عن أسباب ضيق العالم بكم واضطهاده لكم؟

هلا فكرتم فى أن سلوككم أنتم هو مبعث هذا الاضطهاد الذى تضاعف على نحو منكر؟

تدبرت بعثة موسى عليه الصلاة والسلام، وخطابه إلى فرعون يناشده شيئًا

محددًا: تَرْك بنى إسرائيل يغادرون مصر معه، ففى سورة الأعراف: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

وفى سورة طه: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧].

وفى سورة الدخان: ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الدخان: ١٨]...إلخ.

كان موسى عليه السلام يائسًا من أن يعيش الشعبان المصرى والإسرائيلى فى وطن واحد، كانت الفجوة بينهما لا يمكن ردمها.

لماذا؟

إن الشعب المصرى وحكامه استقبلوا يعقوب وأبناءه أحسن استقبال، وقيل لهم: ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩].

لكن اليهود تقوقعوا داخل أنفسهم، وشرعوا يعملون لجنسهم وحده، ويخدمون أطماعهم وأثرتهم، حتى ضاقت الأمة المضيفة بهم.

ونحن لا نعتذر عن فرعون، فلعنة الله على الطغاة أجمعين. وإنما نكشف عن جانب من مأساة تكررت فى أوروبا جيلاً بعد جيل، وكان هتلر آخر من عالجها بالحديد والنار.

وإذا كان الظلمة جديرين بما نزل بهم من عقاب الله، فإن اليهود يجب أن يحذروا المصير نفسه، إنه المصير الذى خوفهم موسى منه عندما قال لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنهم الآن مع الصليبية الجديدة يتظاهرون علينا بالإثم والعدوان، ويتجاهرون بضرورة الإجهاز على الإسلام وأمته، لكن هذا الحلف الآثم سيتلاشى، والضعف الذى ألم بنا سيزول.

وليست هذه هى المرة الأولى التى نفقد فيها بيت المقدس، لقد استعدنا المسجد الأقصى بعد أن غلبنا عليه، وسقط قتلانا حوله ألوفًا ألوفًا، وسنستعيده مرة أخرى مهما غلت التضحيات، وسيكون مصير الفراعنة الجدد مصير هتلر ورمسيس.

ونعود إلى كلمات البابا بيوس العاشر، وهى كما رأينا أحكم وأرشد من كلمات

البابا الحالى، ونقف عند قوله لهرتزل: «لا يمكننا أن نعطى اليهود من المساعدة أكثر مما أعطيناهم من قبل».

ونتساءل: ما هذه المساعدات التى سلفت؟

يجيب المؤلف كريستوفر سايكو على ذلك بقوله:

«إن المساعدة المعنية هى التى كانت فى زمن (كليكتوس) الثانى، و(غريغورى) التاسع، و(أينوست) الرابع، و(غريغورى) العاشر، و(مارتن) الرابع، و(بولس) الثالث، وتتعلق كلها بسرقة الدم، وجرائم الخطف والقتل لاستعمال دم الضحية فى الطقوس الدينية اليهودية».

وقد قرأت كتابًا عنوانه «صراخ البرىء» يشرح إحدى هذه الجرائم التى اقترفها اليهود تقربًا إلى الله، ولا أدرى أتاب القوم أم لم يتوبوا عن أشباه هذه الجرائم؟

لكن الذى أدريه كل الدراية أن فكرتهم عن عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ مظلمة، وأن نظرتهم إلى أنفسهم تعميهم عن كل شىء.

تحـــول مبـــاغـــت

أقبل اليهود على فلسطين بعقائدهم الأولى، ما حسنت ظنونهم ولا مقالاتهم فى عيسى بن مريم.

والوطن الذى يريدون إقامته يرتكز على الهيكل الذى سيسكنه الرب ويحكم من خلاله العالم بوساطة شعبه المختار، ومسيحهم المنتظر هو المسيح الحق، أما المسيح الذى سبقه فزنيم أثيم.

وما وصفهم به البابا بيوس العاشر، وأسلافه من البابوات صحيح فى جملته.

أما قادة النصرانية فقد بدلوا سياستهم بإزاء اليهود لسبب أو لآخر، وأول من تحرك فى الاتجاه المضاد البابا بيوس الثانى عشر.

كان الرجل رئيس الكنيسة الكاثوليكية أيام النازى، ورأى المذابح الرهيبة التى أوقعها الألمان باليهود، ولم ينبس بكلمة احتجاج.

أكان ضميره الدينى نائمًا؟ ربما، أكان يرى ما نزل بهم عدلاً؟ ربما، على أية حال لزم الرجل الصمت حتى انهزم هتلر، واضطر الكاهن الكبير أن يواجه عواقب صمته.

بيد أن مفاجأة حدثت لاندرى ما سرها، فإن صلحًا تم بينه وبين اليهود، تولى بعده البابوية، وشرع يدعو إلى تبرئة اليهود من دم المسيح، ومحا من الصلوات الكنسية الأدعية التى تلعنهم، والتى كان النصارى يبتهلون بها خلال عشرين قرنًا.

على أن ذلك فى رأينا ليس سر التحول المباغت، والواقع أن النصارى فى شتى الأقطار ومن أتباع كل الكنائس يكرهون اليهود، ولكن كراهيتهم للمسلمين أشد، وهم فى حملتهم الصليبية الأخيرة على أرض الإسلام يكبتون مشاعرهم ويرسمون بسمة مفتعلة على شفاهم، ويرقبون الصراع اليهودى ـ العربى أو الإسلامى على ضوء مصالحهم السياسية والاقتصادية والدينية جميعًا.

وقد كانوا أول مراحل الصراع يرقبون المعارك بحذر، ويتعرفون مدى المقاومة التى يواجهها اليهود، ويجرى فى حسابهم أن العرب قد يردون اليهود

على أعقابهم مهما كانت الأمداد الصليبية لهم، فلما رأوا العرب سادرين فى غفلتهم، ورأوا كلمتهم مفرقة وصفوفهم ممزقة وشهواتهم جامحة وفوضاهم طافحة عرفوا أن إسرائيل كسبت المعركة، ولو ضد هذا الجيل التائه عن أسباب النصر.

ومن ثم عالن ساسة الغرب بمشاعرهم، وبارزوا العرب بالعدوان، وانطلق رؤساء الكنائس يكسبون عطف اليهود، ويخطبون ودهم بالكلمات والهدايا والمعونات والثروة، وأسرع بعض العرب للمشاركة فى هذه المظاهرة، والاعتراف بإسرائيل.

وشرحت الأيام قوله تعالى فى الصهاينة والصليبيين وحلفائهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وقامت إسرائيل على أنقاض فلسطين، وكان قيامها يمثل أمرين غريبين:

الأول: أن هذه الدولة قمة الحضارة الغربية فى تفوقها الصناعى، وعلماؤها يشاركون علماء الولايات المتحدة فى عسكرة الفضاء.

الثانى: أنها تمثل التعصب الدينى المطلق، فهى تمحو دينًا وتثبت آخر، وتمحو جنسًا وتثبت آخر.

والمفروض أن تكون اليهودية الصورة والحقيقة والشكل والموضوع، وأن تتسع حتى تبلغ الحدود التى رسمها العهد القديم، وقد يسمح بإقامة آخرين فيها لأداء واجب الخدمة وحسب.

جهد الاستعمار الثقافى والسياسى أن يمهد الأرض الإسلامية كلها لقبول هذا الواقع.

الحق أن مستقبل الإسلام كله فى مهب الرياح مع هذا البلاء الوافد.

عـــبرة للتعــلم

هل قص الله علينا قصص بنى إسرائيل فى القرآن الكريم لتسلية المسلمين؟ لا، إنما هو توعية للمسلمين، كأنه سبحانه وتعالى يقول للمسلمين: هذا تاريخ من سبق، يقرأ عليكم وحيًا معصومًا، وتتلونه فى الصلوات وفى مجالس الرحمة قرآنًا يذكر الناسين، ويوقظ الغافلين، لكى تتعلموا. فهل تعلمت الأمة الإسلامية من تاريخ بنى إسرائيل أن تستبقى أسباب المدح وأن تستبعد وسائل القدح؟ وفى محنة من محن بنى إسرائيل تألم اليهود وقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. هذا كلام خطير، كأن موسى عليه السلام يقول لقومه: قد تستخلفون، وعندما تستخلفون وتتمكنون ينظر الله ماذا تعملون؟ هل هذا الكلام قيل لبنى إسرائيل وحدهم؟ لا، نجد فى سورة يونس أن الله سبحانه وتعالى يقول للمسلمين:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. الكلام واحد للفئتين، الكلام واحد للجنسين، الكلام الذى قيل للجنس اليهودى من ثلاثين أو أربعين قرنًا قيل للجنس الإسلامى أو للجنس العربى من أربعة عشر قرنًا.

وإننا نتساءل: كيف هوى اليهود؟ هووا بحب الحياة، هووا بالحرص على المال، هووا من شاهق؛ لأنهم لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، هووا من شاهق لأن الشخصية الدينية التى تميزوا بها وكُرِّموا من أجلها تلاشت فى خلالهم وانمحت من خصالهم، وظن الحمقى أن صلة أخرى تربطهم بالله هى صلة النسب للأنبياء، فهم كما يقولون: أبناء الأنبياء وأبناء الأسباط، ولا شىء

من هذا له قيمة عند الله، ننظر إلى المسلمين فنجد فعلاً أن الأمة الإسلامية فى عصرنا هذا تخالف العصر الأول.

فى العصر الأول لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، سارع جمهور الناس إلى توقيع العقد، بل قالوا: نعمت الصفقة.. نفوس هو خالقها وأموال هو رازقها، يأخذ هذا منا؛ ليعطينا عليه الجنة، نعمت الصفقة.. هو المتفضل أولاً والمتفضل آخرًا.. ننظر إلى المسلمين الآن، فماذا نجد؟ نجد شيئًا آخر، نجد حبًّا غريبًا للحياة، حبًّا دنيئًا للحياة، حرصًا غريبًا على المتع، ذهولاً عن الإسلاميات التى شرف بها الأولون، العرب الأولون ما كانوا يشرفون إلا بالإسلام، أما الآن: فإن اسم الإسلام لا يظهر كما يجب، والأمة تحب المال والمتع، وعرف هذا فى تصرفاتهم على نحو غريب. كيف؟ يقول أعداء الإسلام لأنفسهم: ما نجد الأمة الإسلامية فى وضع أبعد لها عن الله، وأنأى عن تعاليم دينها منها فى هذا العصر، ويقول علماء القانون: إن القانون لا يحمى المغفل. حدث يوم كانت القدس فى سلطة الأردن أن صدرت أوامر للمسيحيين فى القدس أن يشتروا الأرض من المسلمين، كيف؟ قيل لهم اشتروا بأى سعر، إذا كان المتر بمئة جنيه فادفعوا ألفًا، وهذا شىء يوفر الكثير على العالم الصليبى، إن العالم الصليبى ظل مئتى سنة فى العصور الوسطى يحارب من أجل الاستيلاء على القدس، وبذل فى هذا عشرات الألوف من القتلى، وبذل فى هذا قناطير مقنطرة من الذهب، فإذا وجد المسلمين قطعانًا بلهاء تعيش فى القدس؛ يمكن أن يشترى من أى مسلم أرضًا، يرى المسلم أن بيته الذى ورثه يساوى ألف جنيه، يعرضون عليه مئة ألف، فيبيعه، وجد العلماء أن الأرض الإسلامية تتحول إلى أرض صليبية بثمن بخس، دراهم معدودة، فأصدر علماء المسلمين الفتوى هناك بأن من باع أرضه لصليبى فهو مرتد عن الإسلام، القدس التى حاول هؤلاء الاستيلاء عليها فى قتال ظل مئتى سنة يراد الآن أن تؤخذ بغير قطرة دم، لماذا؟ أمة تحب المال، وأنا أعلم أن شراء الأرض فى فلسطين مر بأدوار: هناك أفنديات ورثت إقطاعات

ضخمة ما رأتها، باعت الأرض لليهود فحولوها إلى مستعمرات عسكرية، وهناك من باع أرضه طلبًا للمال وحده، وهناك مؤمن أعطشت أرضه حتى بارت وهو حريص على ألا يبيعها. الناس مختلفون، الذى حدث عندما دخل اليهود فإن الثمن الذى دفعوه للأرض أخذوه من اللاجئين والمهاجرين، أخذوا كل سوار من ذهب، وكل حلية تحملها امرأة، أو رجل، واستردوا المال الذى دفعوه للأرض، القانون لا يحمى المغفلين.

وإذا كانت الأمة الإسلامية فى أماكن كثيرة يقال لبعض الصليبيين فيها: اشتروا الأرض فى مكان كذا، فإن هذا مقصود منه تحويل دار الإسلام إلى دار كفر أو أرض الإسلام إلى أرض كافرة، وهذا نوع من حب الدنيا الذى قال فيه نبينا ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال ﷺ: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ: حب الدنيا وكراهية الموت**».

حب الدنيا.. ناس تبيع أرضها لأجل مال، رأيت أموالاً كثيرة تحولت إلى أطعمة فى بطون الآكلين، ثم تحولت إلى فضلات المجارى، ثم مات أصحابها ودفنوا فى مزبلة التاريخ، ثم تنتظر جهنم، أولئك جميعًا إلى النار وبئس القرار.

صلة جديدة فى ذكراه

لاحظت أن هناك عقولاً تأوى إليها الخرافة وتسكنها الأباطيل، ما صلتها بالإسلام إذا كان كتاب محمد مبنيًا على الحقائق، معنيًا بها وحدها؟

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

هناك نفوس لا ترى إلا مدى شهوتها، ولا تقف إلا عند حدود أثرتها.

فإذا كان اتباع الهوى ـ كما أنبأنا الله ـ يفسد السماوات والأرض فكيف تفسد بالأهواء المطاعة شئون قبيل من الناس قلوا أو كثروا؟

إن الذين يفقدون أنوار العلم والفضيلة والحق والعدل والإيمان ليسوا من محمد فى قليل ولا كثير،ولا تغنى عنهم مزاعمهم فى هذا الصدد شيئًا.

سمعت أحد الناس يذكر ما روى عن الرسول الكريم ﷺ: «**تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة**»، فقلت: وددت والله لو كنا أهلاً لهذه المباهاة.

إن ظلمات الفوضى والمذلة والجهالة التى تلف جماهير المسلمين اليوم تجعل نبيهم ينظر إليهم فيأسى، أليس نبى النور؟ فما للنور، وأهل القبور؟

والله ما يبالى بكم محمد، وما يتوانى عن البراءة منكم، إلا تكونوا كما عنت الآية الكريمة:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

فإذا عاد المسلمون إلى الحياة الصحيحة، وانطلقوا على الأرض تحف بهم أنوار الهدى والسداد، كانوا أهلاً لأن تباهى بهم الأمم.

إن محمدًا ﷺ يحب النور، ويسأل الله فى أحواله كلها مزيدًا منه، وهو يكره الظلام وينأى بقلبه ولبه عنه، لا ظلام الليل ولكن ظلام الجاهلية، ظلام النفاق، ظلام الانقطاع عن الله، ظلام الرسوب مع الأثرة الجياشة الطافحة.

وهو لذلك يدعو الله أن يغمره من جهاته جميعًا بالنور، حتى لا تعمى عليه

سبيل، وحتى لا يطمئن به نزوع، أو يلتوى به هدف، إنه يدعو الله أن يشع من حوله هالة لا تنطفئ أبدًا، بل إنه يدعو أن يغلغل هذا النور كيانه حتى يمتزج بجلده وعصبه.

عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج إلى الصلاة وهو يقول: «**اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى بصرى نورًا، وفى سمعى نورًا، وعن يمينى نورًا، وخلفى نورًا، وفى عصبى نورًا، وفى دمى نورًا، وفى شعرى نورًا، وفى بشرى نورًا**».

وفى رواية أخرى: «**اللهم اجعل فى قلبى نورًا، وفى لسانى نورًا، واجعل فى سمعى نورًا، وفى بصرى نورًا، واجعل من خلفى نورًا، ومن أمامى نورًا، واجعل من فوقى نورًا، ومن تحتى نورًا، اللهم اعطنى نورًا**».

يا من يريد الإسلام لله رب العالمين، التمس شعاعًا من المعرفة يضىء عقلك ويصلك بحقائق الكون، وشعاعًا من الفضيلة ينير قلبك، ويصلك بما وراء الكون، فإذا فقدت هذا الشعاع الهادى، فازعم كل شىء إلا الإسلام.

إن الحجب المركبة، والغشاوات المضاعفة، هى طبقات عازلة تمنع التيار من المرور، وإذا انقطع التيار واحتبست قواه المحركة والمبصرة؛ فلن يكون ثم إلا الظلام والموت، ولذلك وصف القرآن شئون الكافرين بقوله:

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

أيها المسلمون، أجلوا الظلام الذى حط بنفوسكم وبلادكم، تنشئوا صلة جديدة بنبى النور.

أجيبوا .. إن كنتم صادقين

لابد أن نعترف بأن موقف الحياد السياسى بين شتى القوى الأجنبية أمر لا محيص عنه، بل هو فى هذه الأيام مقتضى الإيمان.

وقد حدث فى أخريات الدولة الفاطمية أن جنح بعض الحكام إلى الصليبيين يستعين بهم على دعم سلطانه وإعزاز شأنه، فكان جنوحه إلى هذه القوى الغازية الخائنة جناية على الدين وأهله وخيانة للمسلمين ومصالحهم.

فماذا جنى من هذه السياسة؟

أن دمر عليه وعلى من معه، وكانت الخيانة التى لجأ إليها هى التى خطت مصرعه. ثم أنقذ الله البلاد من عواقب هذه السياسة المعوجة، وانتصر أهلها المخلصون، وطردوا الأجانب أجمعين وذهب من والاهم أدراج الرياح.

إن نفوسنا تغزوها الحسرات عندما نسمع نفرًا من ساسة العرب يبنون مستقبل بلادهم وذراريهم على محالفة الغرب. وعندما نسمعهم يستنكرون أى موقف حيادى مستقل ويقرون فى حرارة ورغبة أن تكون مواطنهم مسرحًا للغرب وأمريكا وإسرائيل.

والحقيقة أن القوم نضبت خلال العزة والشرف من بين جوانحهم، أما عواطف الإيمان بالله والغيرة على دينه وعباده؛ فقد انقضت من زمن سحيق، إن أمريكا ورئيسها ما يفتأ يؤكد فى إسراف منكر أن إسرائيل خُلقِت لتبقى، وأن وجودها فى ضمانه وضمان بلاده التى تملك أعظم قوة فى العالم.

إننا ننادى بهذه السياسة لا لشىء إلا لعجزنا عن الثأر لما نزل من لطمات مخزيات، فهل بلغ من رضا البعض بالنية أن يُركل بالقدم، ثم هو يتمسح بأذيال راكليه؟ ويريد الانضمام لمعسكرهم، والعمل فى صفهم؟

ألا فلنعلم علم اليقين أن أمريكا والغرب إن قبلا اليوم بعض الدول العربية حليفًا لهما، فإلى حين قريب، وسوف يأبيان عليهم حق الحياة ولو خدموا.

إن الغرب وأمريكا يكرهون الإسلام ويمقتون أهله ويضعون لهم الشر حالاً، وينوون لهم ما هو أقسى وأنكى مستقبلاً، ذلك إلى جانب أن تاريخ الاستعمار

القديم والحديث هو تاريخ السلب والنهب والقرصنة وسفك الدماء وقتل الأبرياء مضافًا إليها قدرًا وفيرًا من التبجح وقلة الحياء.

اقرأوا معى ـ على سبيل المثال ـ هذه الفقرة من خطاب قائد الأسطول البرتغالى الذى استولى على مقاطعة «جوا» الهندية، قبل أربعة قرون وهو «البو كيرك» الذى كتب إلى ملك البرتغال يقول:

وبعد ذلك أحرقت المدينة ـ أى جوا ـ وأعملت السيف فى كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أيامًا عديدة... وحيثما وجدنا المسلمين لم نوفر معهم نفسًا، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيهم النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت.

وقد كان ذلك يا سيدى عملاً عظيمًا رائعًا أجدنا بدايته وأحسنا نهايته.

عمل عظيم رائع...

أكانت هذه الوقائع فى رأس جون فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا حينما وقف فى أحد مؤتمراته الصحفية ينتصر للبرتغال فى قضية «جوا» البرتغالية؟

ولنا فى التاريخ عبرة أليس كذلك يا أصدقاء الغرب وأمريكا ومحترفى الدعاية لهما والتحالف معهما والسير فى ظلهما؟

أليس كذلك يا ساسة العرب؟ أجيبوا، إن كنتم صادقين.

حــول قيــام إســرائيــل

أكاد أجزم بأن الأمة العربية والإسلامية فى مطالع هذا القرن لم تكن تدرى شيئًا عن الخطة الهائلة الموضوعة لتمزيقها والتهامها. فى سنة ١٨٩٧م انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى؛ لإقامة وطن قومى لليهود على أرضنا طبعًا.. فأين للرد عليه مقالات الأدباء وقصائد الشعراء وتحذيرات الساسة، وتكاتف المجاهدين، وتراص القوى المؤمنة لمواجهة هذا العدوان؟! لقد اجتمع هذا المؤتمر وانفض والأمة المقصودة به لا تعى من نبئه إلا القليل؛ قد يقال: كان حديث اليهود يومئذ أحلام طامع سفيه لا يؤبه له. ونقول: كيف والاستعمار الغربى كان فى هذه الأثناء يجثم على صدر وادى النيل، ويطوى أرجاء المغرب الكبير، ويجعل من قناة السويس طريقًا إلى ممتلكاته فى الهند وجنوب آسيا وأكناف الجزيرة العربية؟! أكان كثيرًا على الاستعمار الذى أحرز كل هاتيك المغانم أن يقتطع فلسطين ويقيم فيها اليهود؟ كلا. إنها غفوة دفع العرب والمسلمون ثمنها من دمائهم وكرامتهم والغريب أنه فى أثناء الحرب العالمية الأولى صدر وعد بلفور. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها فى أرجاء الدنيا البعيدة اشتعلت داخل البلد المكروب ـ فلسطين ـ حرب أخرى لتنفيذ الوعد الخسيس، ولنقل القطر العربى من أبنائه إلى أعدائه، ومع ذلك فإن ساسة العرب فى الحرب العالمية الثانية قاتلوا إلى جانب جزاريهم، وكانوا حلفاء للغرب الذى قرر ذبحهم، وقبضوا المكافأة على هذا الهوان قيام إسرائيل ركيزة ضخمة للاستعمار الخئون ودوله الطامعة الجائعة.. وعلى كل حال فقد انكشف المخبوء واتضحت الخطة بعد تنفيذها. واستبان أن هناك حلفًا غير شريف ضدنا، طرفاه الاستعمار والصهيونية، وأن النجاة من هذا العدوان المبين تستدعى تغيرًا كبيرًا فى فهمنا للأمور، أى تستدعى مواجهة الخطر بكل ما لدينا من قوة ووحدة، وبكل ما فى رسالتنا من حق وجهاد.

إن خطة الاستعمار قامت على أساس بين هو تمزيق الرقعة العربية والإسلامية، وجعل كل مزقة كيانًا ماديًا ومعنويًا لا صلة له بالآخر فى ميدان السياسة الداخلية أو الخارجية، ولما كانت روابط الدين واللغة والتاريخ والمصلحة توحى بالتجمع ذيادًا عن الحياة الصحيحة لأمتنا، فإن الاستعمار

أوهن هذه الروابط جميعًا واجتهد إما فى إماتتها أو تأخير مرتبتها. ونشأ عن هذا المسلك أن العربى فى فلسطين أصبحت له جنسية خاصة، تجعله غريبًا عن أخيه فى مصر الذى أصبح هو الآخر له جنسية خاصة. ومع أن العرب رفضوا هذا التوزيع الطارئ على حياتهم الاجتماعية والسياسية، إلا أن هذا التوزيع الخبيث فرض نفسه، فكان تهويد فلسطين يتم تلقائيًا ويتغلب على المقاومة الباسلة التى يبديها عرب الإقليم المحصور داخل حدوده الجديدة.

إن القوميات الضيقة التى اخترعها الاستعمار كانت نكبة على الإسلام والعروبة معًا. والفرق كبير بين أن تكون (يافا) مثلاً جزءًا من سورية أو مصر، وبين أن تكون بلدًا فى قطر عربى آخر تربطنا به صلات الجوار والقربى، وقد استبقى الاستعمار هذا التمزيق لأمتنا الكبرى حتى حقق مآربه من إقامة إسرائيل.

ماذا كان يحدث فى منطقة الشرق الأوسط لو أن الوحدة العربية حقيقة واقعة لا مجرد أمل يتردد فى نفوس المصلحين؟ وإن الإسلام روح هذه الوحدة لا النزعات الجنسية والدعوات المنحرفة؟ أو بعبارة أخرى: ماذا كان يحدث لو أن عصابات صهيون عندما هاجمت فلسطين وجدت دولة عربية واحدة لا سبع دول، وجيشًا عربيًا واحدًا لا سبعة جيوش؟

الذى كان يحدث، أن هذه العصابات ـ لو وجدت من نفسها الجرأة على الهجوم ـ كانت ستدفع ـ حياتها ثمنًا لمغامراتها، فإما التهمتهم أسماك البحر، أو أكلتهم سباع البر وطيور الجو.

ولما أمكنهم أن يضعوا أقدامهم على شبر من تراب الأرض المقدسة. كون جزء معزول عن أخيه، هو ما جعل لفلسطين قضية خاصة بها. ثم هو ما جعل الأقاليم المحيطة بها تنكب بحكام يتاجرون بقضيتها المحزنة ويودون التوسع على حسابها.

ثم هو ما جعل إنجلترا ـ أم الخبائث فى ميدان الاستعمار ـ تبذر بذور الخيانة بين الدول السبع والجيوش السبعة، فإذا الحرب التى وقعت سنة ١٩٤٨م تتمخض عن مهزلة شائنة وإذا عملاء إنجلترا يخوضون هذه الحرب لا ليحموا فلسطين، بل ليخلقوا من العدم إسرائيل.



مواريثنا الثقافية

طوت الأمة الإسلامية قرونًا عديدة، وجازت عقبات كئودًا، وهى مشدودة الأواصر بهذه المواريث الروحية والفكرية، محكمة النسج بتلك الروابط المادية والأدبية.

يصعد الجد بها ويكبو، وتمر بها أيام سعد ونحس.

حتى تعرضت منذ قرن لأخبث استعمار عرفته منذ وجدت.

فإذا هذا الاستعمار يصوب قذائفه بمهارة ودأب نحو مواريثنا الثقافية، ويبذل آخر ما لديه من دهاء وعنف لجعل الأمة برمتها فى ناحية، وجعل تعليمها وتشريعها وخلقها وأمانيها فى ناحية أخرى غير ما تؤمن به وتحن إليه.

إنه يحول بين المرء ونفسه.

إنه يحول بين الأمة، وروحها، وضميرها وتاريخها ورسالتها. وهو بهذه الحيلولة يحكم عليها بالموت البطىء أو السريع، على قدر ما يلقى من نجاح فى كيد!!

أجل، إن القضاء على ميراثنا الروحى والفكرى، ـ نحن المسلمين ـ هو التمهيد الحاسم للقضاء علينا إلى الأبد.

ولكن باسم «التطور» ظهر فى جملة أقطار إسلامية أناس يكرهون الإسلام، ويضيقون بذكره أشد الضيق، وهم يحاولون عبثًا أن يقيموا إصلاحات، أو ينشئوا يقظات، لا تمت إلى الإسلام بنسب، ولا صلة!!

وقد استطاع بعضهم الإغارة على الحكم، وتسخير سلطاته فى التدمير على الدين، ونبذ شرائعه، وإقصاء دراساته، وإماتة أهدافه.

إن الحريات المكفولة أعدى عدو لهؤلاء الحكام الكفرة، ذلك أنهم كى يقيموا الأنظمة التى يريدون، يجب أن يزيلوا المخلفات القديمة ـ كما يسمونها ـ وأن يغيروا بيئات أمضى الزمان فى بنائها الروحى أربعة عشر قرنًا، كما حدث فى تركيا.

ودون صعوبات هائلة، وعراك طويل.

ولن تنتهى هذه المحاولات أبدًا بخير يعود على الأمة أو يصون غدها.

وإلى متى تظل الأمة الإسلامية المترامية الأطراف صريعة حيرة وبلبلة لا آخر لهما؟

وإلى متى يحتدم الجدال النظرى أو الدموى، حول القيم التى تنبعث عنها، والمثل التى تهفو إليها؟

أمسموح لليهود أن يعالنوا بدينهم فى إسرائيل، ويتجمعوا من أطراف الأرض القصية حول مواريثه الموهومة؟ ومحظور مثل ذلك على المسلمين وحدهم؟

أمسموح للنصارى أن يرسموا صلبانهم حول ألوف الأعلام، وأن يملأوا أفواههم بنسبهم الروحى فى كل قطر، ومحظور ذلك على المسلمين وحدهم؟

أحرام على بلابله الدوح

حلال للطير من كل جنس

ثقوا أيها السادة أن كل جيل ينشأ مزعزع العقيدة، غامض الأهداف هيهات أن يفلح.

فكيف يضيق المجال أمام المواريث الثقافية لئلا تأخذ امتدادها الحق، ثم ترتقب أمة صالحة؟ أو نهضة ناجحة؟

إن كل عمل يقوم على إقصاء الإسلام، واستبعاد وحيه والتجهم لهديه يستحيل أن يكلل إلا بالعار.

ومن ثم، فلن تنجح أبدًا فى بلاد الإسلام ثورة تدوس عقائده وشرائعه، وتهمل أوامره ونواهيه!!

إن انتشار الإلحاد فى بعض البلدان لا يدهشنى!

وإنما يدهشنى بقاء الإسلام إلى اليوم مع الحروب المتصلة المبيدة، الجلى منها والخفى، التى تعرض لها هذا الدين.

هذه الحروب التى سخرت كل أداة للنيل منه والتزهيد فيه، والشغب عليه!!

إن الأمر اليوم جدّ لا يتحمل الهزل، وحق لا يستسيغ الباطل!

وكانـت ليلـة الإســراء

نـهض الإسـلام بـالعرب نـهضـة رائـعـة، وجعل مـنـهم حـمـلـة حـضـارة زاهـيـة، وفوجئ العالم بالأمة التى لم تعرف إلا رعى الغنم ونقل السلع، تتلو من كتابها أصلح العقائد وأحكم الشرائع وأشرف التقاليد.

كان دريد بن الصمة يصف نفسه وقومه وعلاقة العرب بعضهم ببعض فيقول:

يـغـار عـلـيـنـا واتـريـن فـيشـتـفـى
بـنـا إن أصـبـنـا، أو نـغير عـلـى وتـر!
قسـمـنـا بـذاك الـدهـر شـطـريـن بـيـنـنـا
فـمـا يـنـقضـى إلا ونـحـن عـلـى شطر!

وها هم العرب بالإسلام يعلمون الناس السماحة والأخوة والتعاون على البر والتقوى، حتى قال «جوستاف لوبون»: إن العالم لم يعرف فاتحًا أرحم من العرب!. وكان دخول المسلمين بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه آية من آيات التواضع لله والبر بالناس، ثم كان دخولهم بيت المقدس أيام صلاح الدين آية من آيات السماحة والعفو والرحمة.

أما الأمة العبرية فقد خطت لنفسها طريقًا آخر، لقد هبت على اليهود عاصفة غضب بعثرتهم فى أرجاء الأرض، فتوزعتهم المدائن والقرى فى المشارق والمغارب، بيد أنهم حيث ذهبوا كان لهم فكر واحد ونهج ملحوظ، يزعمون أنهم شعب الله المختار، ومع هذا الزعم فإنهم نسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله، ونسبوا إلى رسله ما لا يليق بشرفهم، واستباحوا لأنفسهم الربا وأكل مال الناس بالباطل، وتقوقعوا فى حاراتهم يحلمون بالعودة إلى الأرض التى طردوا منها بسوء خلقهم مع الله والناس، والغريب أنهم جعلوا آمالهم هذه وحيًا يتلى، وأودعوها صحائف كتبهم وكأن الله هو الذى أنزلها عليهم! وقد تضايق النصارى من مزاعمهم وأعمالهم لاسيما أنهم هم الذين سعوا فى قتل عيسى عليه السلام، وإذا كنا على عكس النصارى نعتقد أن عيسى عليه السلام نجا من مؤامرتهم فالقوم على أية حال قتلة بضمائرهم، ومن ثم شرع النصارى ـ حكامًا وشعوبًا ـ فى اضطهادهم

وإرخاص دمائهم، وعرضت لهم مآسٍ فى أنحاء أوروبا كادت تنتهى بإبادتهم حتى قال نفر من المؤرخين:لولا ظهور الإسلام لفنى اليهود! إنهم وجدوا فى أرضه الفسيحة وسماحته الممتدة ما أبقى حياتهم! ومن المؤرخين من يرى اليهود مسئولين عما نزل بهم من آلام، فأثرتهم الشديدة، وشرههم فى حب المال، وقلة اكتراثهم بقضايا الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها، كل ذلك جعل القلوب تنطوى على بغضهم، وقد كان «هتلر» الحلقة الأخيرة فى سلسلة طويلة من الحكام الذين أذلوهم فى طول أوروبا وعرضها.

ومرت السنون ثقيلة طويلة، وظهرت الخلائق المستورة، أو نبتت ونضجت البذور الكامنة! كان المسلمون يغطون فى نوم عميق، وكانت الدنيا من حولهم تتحرك بحقد مشبوب وتطالب بثارات قديمة. كان يحلو للمسلمين أن يتحدثوا عن الرحلة الجوية بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، أو عن الرحلة الفلكية بين المسجد الأقصى وسدرة المنتهى، ولا بأس أن يقولوا شعرًا ونثرًا، أما الدرس الواعى للأمم التى توارثت فلسطين، وأسرار ازدهارها واندثارها فقلما يفكرون فى ذلك، وربما لا يخطر لهم ببال أن هذه الأمم تفكر فى العودة، وتحسن استغلال الفرص. فلما جاء العصر الحديث انكشف الغطاء عن مفارقات مذهلة، انكشف عن تعصب يهودى شديد النبض، وعن تأييد حار له من رجال الكنيسة وأغلب الساسة، أما العرب فقد قيل لهم: احلموا بإنسانية عامة متجردة عن الهوى، تؤازركم فى المحافل الدولية، وتعدل بينكم وبين خصومكم! واستكان النوام للأحلام، فما صحوا إلا على المذابح تحصدهم رجالاً ونساءً، والتسميم يجتاح الطلاب والطالبات، والغيوم تسد الآفاق كلها أمام مستقبل معقول، ما الذى حدث؟ ندع الجواب لغيرنا! ندعه لخصومنا ونتدبر ما يقولون..

كتب «حاييم وايزمان» فى مذكراته يقول لقومه: «تحسبون أن لورد «بلفور» كان يحابينا عندما منحنا الوعد بإنشاء وطن قومى لنا فى فلسطين؟ كلا، إن الرجل كان يستجيب لعاطفة دينية يتجاوب بها مع تعاليم العهد القديم». وندع «وايزمان» و«بلفور» ونتدبر تصريحات مستر «كارتر» ومن بعده. إنهم جميعًا يتحدثون مع «بيجين» عن أرض الميعاد، وعن نبوءات التوراة والحدود التى رسمتها. إن المشاعر الدينية الغائرة فى العقل الباطن والظاهر هى التى جعلت جنرال «جيرو» يقول فى دمشق أمام قبر صلاح الدين: ها نحن قد عدنا

يا صلاح الدين! وهى نفسها التى جعلت مارشال «اللنبى» يدخل القدس فى الحرب العالمية الأولى ويقول: الآن انتهت الحروب الصليبية.

يظهر أن العالم كله شديد الإحساس بعقائده وآماله الدينية إلا قومنا وحدهم، فإنهم يتذاكرون بينهم أن الدين رجعية!

من وحى الإسراء والمعراج

ليس من قبيل المصادفات العارضة أن تروى آية فذة قصة الإسراء، ثم ينتقل السياق بغتة إلى تاريخ بنى إسرائيل،وليس من قبيل المصادفات العارضة أن تسمى سورة الإسراء فى بعض المصاحف سورة «بنى إسرائيل»!

بل أقول: إنه ليس من المصادفات العارضة أن يدخل صلاح الدين «بيت المقدس» ويسترده من الصليبيين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣هـ بعد أن لبث فى أيديهم قرابة قرن! كأن الأقدار جعلت عودة المسجد الأقصى إلى المسلمين فى ذكرى احتفالهم بالإسراء؛ إشارة إلى أن المسجد الذى ورثه الإسلام يجب أن يبقى له، وأن العلاقة بين أولى القبلتين وأخراها لا تنفصم، وأنه لا الصليبية قديمًا ولا الصهيونية حديثًا ستغيران سنن الله فى مصائر الأمم، وإن نجحت كلتاهما إلى حين فى إلحاق هزيمة بالمسلمين!

ونعود إلى ما بدأنا به كلامنا، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. وعقب هذه الآيـة مباشـرة نقرأ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾. ما العلاقة بين الإسراء، وإنزال التوراة وتاريخ اليهود، ثم حكاية مفاسدهم، والتعليق عليها، وتبصير المسلمين بعواقبها؟ إن الإسراء كان من مكة إلى القدس، ولليهود فى هذه البقاع تاريخ! صحيح أنه لم يكن لهم وجود فى فلسطين يوم وقع الإسراء، بل كان وجودهم فى فلسطين محظورًا، لكن وجودهم السابق لا ريب فيه. وانتهاء هذا الوجود ثم حظره يحتاج إلى تفسير، وهو ما أشارت إليه الآية وما بعدها فى صدر سورة الإسراء، وهو ما نريد الآن متابعته من الناحية التاريخية!

كان الكنعانيون يسكنون فلسطين قديمًا وهم سلالات عربية كإخوانهم

العدنانيين والقحطانيين، ويظهر أنهم تجبروا، وأثاروا الرعب حيث يعيشون، وأراد الله تأديبهم على مفاسدهم، فسلط عليهم بنى إسرائيل، وقد وجل الإسرائيليون أيام موسى من التعرض للكنعانيين، وغلبهم الجبن، ورفضوا الزحف إلى فلسطين قائلين لموسى: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ فلما ألح عليهم قالوا مرة أخرى: ﴿ لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ﴾. وعوقب الإسرائيليون على جبنهم بالتيه فى سيناء أربعين سنة، مات خلالها موسى عليه السلام ثم خلفه يوشع الذى قاد بنى إسرائيل إلى فلسطين منتصرًا على الكنعانيين، وبانيًا حكمًا دينيًّا باسم التوراة بعد هزيمة العرب! بيد أن اليهود لم يلبثوا طويلاً حتى نجمت بينهم علل خلقية واجتماعية بالغة السوء، زادوا بها شرًّا على من كان قبلهم، وقد حكوا عن أنفسهم، وحكى القرآن عنهم ما يستحق التأمل، فقد اقترفوا رذائل جعلت القدر يحكم بطردهم من فلسطين شر طردة، وبما أن السلطة فى يدهم تعين على الافتراء والاعتداء إلى حد بعيد، فليسوا لها بأهل..! ينبغى تجريدهم منها، وكانت فلسطين - حتى بعد قدوم اليهود - مليئة بأجناس أخرى، وكان المسلك المستحب لبنى إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب! فقد زعموا أن «البنعميين» من أصل لا يمكن أبدًا أن يرتفع، كيف؟ قالوا: إنهم سلالة «لوط» لما سكر وزنى بابنته!! وكتبوا ذلك فى سفر التكوين!

ثم جاءوا إلى الكنعانيين العرب ووصفوهم بأنهم كلاب! وقد امتد هذا الوصف حتى ذكر فى العهد الجديد! فقد لقيت امرأة كنعانية عيسى عليه السلام وهو يدعو فى بيت المقدس، وصاحت به: يا سيد يابن داود، بنتى مريضة جدًّا. وطلبت منه شفاءها! فقال لها: اذهبى يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب، «يعنى بالبنين: بنى إسرائيل، وبالكلاب: الكنعانيين».

فقالت المحزونة: والكلاب أيضًا تأكل تحت أقدام السادة!، فشفى لها ابنتها بعد



هذه الضراعة الذليلة، ونحن نجزم بأن الإنسان الرقيق الرحيم عيسى بن مريم عليه السلام يستحيل أن يسلك هذا المسلك، أو يرسل هذه الشتائم، لكنهم اليهود الذين تخصصوا فى تجريح الأنبياء وإهانة الشعوب، ومن ثم نفهم قول القرآن فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾. صدق الله العظيم.

غـرور أصحــاب الأديــان

أفسد شيء للأديان غرور أصحابها، يحسب أحدهم أن انتماءه المجرد لدين ما قد ملكه مفاتيح السماء، وجعله الوارث الأوحد للجنة! لماذا؟

هـل كبح أهواءه؟ هـل أمات جشعه؟ هـل جند ملكاته للتسبيح بحمد الله والاهتمام بآلام الناس؟ لم يفعل شيئًا من ذلك، كل ما يملأ أقطار نفسه أن له بالله علاقة مزعومة، لا يُعرف لها وزن.

ومن ثم فإن صاحب هذا التدين يتوصل إلى أغراضه بما يتاح له من أسباب، بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية، وقد كان بنو إسرائيل قديمًا مهرة فى ارتياد هذه المسالك المعوجة.

ولكى يسيغوها لأنفسهم زعموا أن نبى الله يعقوب عليه السلام اختطف منصب النبوة من أخيه عيصو! ولجأ إلى المخادعة والغش وأشياء أخرى!

كيف؟ إنه فى رأى نفسه أولى، فلا حرج من الشطارة ليبلغ ما يريد، ولا حرج على أبنائه أن يقلدوا أباهم فيما حكوه عنه، أو فيما نسبوه إليه!

وزعم بنو إسرائيل أن إبراهيم عليه السلام طلب النجاة بنفسه عن طريق تعريض زوجته لأحد الفُتّاك من جبابرة الأرض، وساورته الرغبة فى بعض المغانم، التى ظفر بها أخيرًا.

والواقع أن المجتمع اليهودى ـ قبل بعثة المسيح عليه السلام ـ طفح بالآثام، وأن بيت المقدس شهد مآسى للشرف ومصارع للشرفاء على أيام السيادة اليهودية الأولى.

وفى جبل الزيتون الواقع شرقى بيت المقدس وقف السيد المسيح عليه السلام يبعث صيحاته الواحدة تلو الأخرى، منذرًا جموع اليهود بقوله: «يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا.. هو ذا بيتكم يترك لكم خرابًا...».

ونقرأ هذا الحوار فى إنجيل يوحنا: «قال اليهود للمسيح: أبونا هو إبراهيم، قال



لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.. ولكنكم تطلبون قتلى! وهذا ليس عمل إبراهيم! أنتم من أب آخر هو إبليس».

وفى موقف آخر كشف المسيح عن طبيعة التدين الكاذب لدى القوم فقال لهم مصارحًا: لقد جعلتم بيت الله مغارة لصوص؟!

إن الدين، كما نزل من عند الله، وكما تجسد فى سير الدعاة، أعمال صالحة وأخلاق زاكية وأحكام عادلة، ورعاة يتقون الله فى الشعوب، وشعوب تتواصى بالصبر والمرحمة، وتقيم تقاليدها على البر والمواساة.

والغريب أن القرآن الكريم حذر أهل الكتاب جميعًا، المسلمين والنصارى واليهود من تجاهل فحوى الدين والتعلق بمراسمه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

فهل يعى ذلك الأحبار الكبار والكرادلة الذين يظاهرون اليهود على عرب فلسطين البائسين؟

وهل يعى ذلك مسلمون تائهون عموا عن رسالتهم، فلم ينصفوها فى فقه ولا فى خلق؟

وهل ننتظر حتى يتحول اليهودى التائه إلى العربى التائه؟

معنى الحرية الحقيقية

يؤسفنا أن نقول: إن تاريخنا العلمى والاجتماعى والسياسى كان ينزل خلال القرون الأخيرة من مزالق إلى منحدرات، ومن منحدرات إلى هاويات، لأن أزمة النشاط المادى والأدبى كانت فى أيدى أفراد يكرهون النقد، ولا يحبونه من أحد، ولا يسمحون بجو يوجده وينعشه.

والغريب أن هؤلاء الرجال ـ عندما يوزنون بحساب النبوغ والقدرة ـ لا ترجح بهم كفة، فكيف يصلح بهم وضع، أو نبنى بهم نهضة، أو تنشط بهم قوة البناء والإنتاج؟ حاجة المسلمين إلى الحريات البناءة ـ فى تاريخهم الأخير ـ أزرت بهم، وحطت مكانتهم، على حين نعمت أجناس أخرى بتلك الحريات، فتحركت بقوة، ثم اطرد سيرها فى كل مجال، فإذا هى تبلغ من الرفعة أوجًا يرد الطرف وهو حسير.

وزاد الطين بلة شىء آخر، إننا عندما اتصلنا بالغرب فى أثناء القرنين الماضيين، وشعرنا بضرورة الاقتباس منه والنقل عنه، كانت أفهامنا من الصغار ـ ولا أقول من الغفلة ـ بحيث لم تلتفت إلا للتوافه والمادات، فالحرية التى تشبثنا بها،ليست هى حرية العقل فى أن يفكر ويجد ويكتشف، بل حرية الغريزة فى أن تطيش، وتنزوى، وتضطرم، وسرعان ما احتلت الملابس الأوروبية أجسامنا، والأثاث الأوروبى بيوتنا، والعادات الأوروبية ـ فى الأكل والنوم ـ أحوالنا، أما تألق الذهن، وجودة التفكير، وإطلاق القوى البشرية من مرقدها تسعى وتربح، فذلك شأن آخر، ومن السهل على القردة أن تقلد حركات إنسان ما، أتظنها بهذا التقليد السخيف تتحول بشرًا! ولقد رأينا المسنين من الرجال، والأحداث من العيال، يأخذون عن أوروبا الكثير من مظاهر المدنية الحديثة، وهى مظاهر نبتت خلال حضارة الغرب كما تنبت «الدنيبة» خلال حقول الأرز، إنها شىء آخر غير حضارة الغرب التى ارتفع بها واستفاد منها، فهل هذا الأخذ الغبى رفع خسيستهم، أو دعم مكانتهم؟ كلا، إنهم مازادوا به إلا خبالاً، اليابان نهضت نهضة كبرى فى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، والصين نهضت نهضة أشمل وأخطر فى منتصف القرن العشرين، وكلتا الأمتين حرصت على تقاليدها الخاصة فى اللباس والطعام وما إليهما، وعبت من مناهل المعرفة الحقيقية ما غير حالتها

تغييرًا تامًا، أما نحن فقد هجرنا الموضوع إلى الشكل، بل تخبطنا فيما ندع وننقل على حساب ديننا وتاريخنا، فلم نصنع شيئًا، الحرية التى نريدها ليست فى استطاعة إنسان يلغو كيف شاء، فما قيمة صحافة تملأ أوراقها بهراء لا يصلح فاسدًا، ولا يقيم عوجًا؟

الحرية التى نريدها ليست فى قدرة شاب على العبث متى أراد، فما قيمة أمة تصرف طاقات الأفراد فى تيسير الخنا وإباحة الزنا؟

الحرية التى يحتاج إليها العالم الإسلامى تعنى إزالة العوائق المفتعلة من أمام الفطرة الإنسانية، عندما تطلب حقوقها فى الحياة الآمنة العادلة الكريمة، الحياة التى تتكافأ فيها الدماء وتتساوى الفرص وتكفل الحقوق، وينتفى منها البغى، ويمهد فيها طريق التنافس والسبق أمام الطامحين والأقوياء.

الاستبداد يشل القوى

الحكم الذى ساد بلاد الإسلام من بضعة قرون كان طرازًا منكرًا من الاستبداد والفوضى، انكمشت فيه الحريات الطبيعية، وخارت القوى المادية والأدبية، وسيطر على موازين الحياة العامة نفر من الجبابرة أمكنتهم الأيام العجاف أن يقلبوا الأمور رأسًا على عقب، وأن ينشروا الفزع فى القلوب، والقصر فى الآمال، والوهن فى العزائم. والحكم الاستبدادى تهديم للدين وتخريب للدنيا، فهو بلاء يصيب الإيمان والعمران جميعًا، وهو دخان مشئوم الظل تختنق الأرواح والأجسام فى نطاقه حيث امتد، فلا سوق الفضائل والآداب تنشط، ولا سوق الزراعة والصناعة تروج.

ومن هنا حكمنا بأن الوثنية السياسية حرب على الله وحرب على الناس، وأن الخلاص منها شىء لا مفر منه لصلاح الدنيا والآخرة، وقد أصيب الإسلام فى مقاتله من استبداد الحاكمين باسمه، بل لقد ارتدت بعض القبائل، ولحقت بالروم فرارًا من الجور.

إن المستبدين ينبتون فى مناصبهم نبتًا شيطانيًا لا توضع له بذور، ولا تحف به رغبة، ولا تشرف عليه موازنة أو مشورة، وعندما يوضع رأس فارغ على كيان كبير، فلابد أن يفرض عليه تفاهته، وأثرته، وفراغه.

ومن هنا تطرق الخلل إلى شئون الأمة كلها، فوقعت فى براثن الاستعمار الأخير لأن أغلب الحكام كانوا فى واقع أمرهم حربًا على الأمة الإسلامية، أو كانوا فى أحسن أحوالهم ترابًا على نارها، وقتامًا على نورها، فلو خلوها وشأنها لاستطاعت الدفاع عن نفسها، متخففة من أعباء هؤلاء الحكام، ومن جنون العظمة الذى استولى عليهم، ثم إن الإسلام ينكر أساليب العسف التى يلجأ إليها أولئك المستبدون فى استدامة حكمهم واستتباب الأمر لهم.

إنه يحرم أن يضرب إنسان ظلمًا، أو أن يسفك دمه ظلمًا، فما تساوى الحياة كلها شيئًا إذا استرخصت فيها حياة فرد.

قال رسول الله ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**». فأشد الجرائم نكرًا، أن يقتل امرؤ من الناس توطيدًا لعزة ملك أوسيطرة حاكم.

وفى حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يجىء المقتول يوم القيامة آخذًا قاتله، وأوداجه تشخب دمًا - عند ذى العزة جل شأنه - فيقول: يارب، سل هذا، فيم قتلنى؟ فيقول المولى عز وجل: فيم قتلته؟ قال: قتلته لتكون العزة لفلان. قيل: هى لله**».

وفى التعذيب دون القتل، وهو ما ينتشر فى سجون الظلمة، يروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من جلد ظهر مسلم بغير حق؛ لقى الله وهو عليه غضبان**». ويقول ﷺ أيضًا: «**ظَهْرُ المُسْلِمِ حمى، إلا بحقه**». يعنى أن المسلم لا يجوز أن يمس بسوء أبدًا، إلا أن يرتكب ذنبًا أو يصيب حدًّا، فعندئذ يؤخذ منه الحق الثابت فى دين الله.

إن الجو الممتلئ بما يصون الكرامات، ويقدس الدماء والأموال والأعراض هو الجو الذى يصنعه الإسلام للناس كافة، وهو بداهة الجو الذى يحسنون فيه العمل والإنتاج.

فحيث تسود الطمأنينة، ويختفى الرعب، ينصرف العامة إلى تثمير أموالهم وتكثير ثرواتهم، لأنهم واثقون أن حصاد ما يغرسون لهم ولذراريهم، فهم غير مدخرين وسعًا فى العمل والإنتاج.

ما جدوى العويل؟

ما جدوى العويل، وامتلاك وسائل النشر والطى، والإعلان والكتمان أمران خطيران فى صناعة التاريخ، وتوجيه أحداثه، وصياغة الأفكار صياغة خاصة فى فهمها وذوقها؟ وأوربا وأمريكا تملكان الآن أدق الآلات لتحريف التاريخ الإنسانى، ومحو ما تريدان محوه، وإثبات ما تريدان إثباته، فإذا استقرت إحدى الحقائق على الرغم منهما، عملا على حصرها فى أضيق دائرة، إلى أن تتاح الفرصة لإزالتها من الأذهان، ونحن الآن فى سباق مع الطواغيت لإذاعة بعض ما انكشف من فضائح الاستعمار ومآسى التعصب، قبل أن يستطيعوا إخفاء ذلك كله عن الناس، ثم الظهور بينهم وكأنهم مُثُل عليا للنزاهة ونظافة الأيدى، وقد اصطلحت اليوم الصهيونية العالمية مع الاستعمار الصليبى، اصطلحا على قتل المسلمين فى فلسطين، وانتهاب مدائنهم وقراهم، واتفقت إنجلترا وفرنسا وأمريكا على إقامة دولة لليهود، بعد أن يطرد المسلمون العرب من أرضهم بالسيف أو بالمكر، والصلح بين الفريقين ليس صلحًا بين دينين، فإن أديان الله لا تتواطأ على السرقة وسفك الدماء، لكنه صلح بين عصابات من النخاسة على اقتسام الأسلاب، ونسيان كل مروءة وشرف.

وها قد تحركت غرائز الفتك فى اليهود، والقربان الذى يتقرب أتقياء اليهود بذبحه ليس رجلاً نصرانيًا واحدًا، بل رجال مسلمون كثير، رجال ونساء وأطفال، هم زهرة الشباب العربى المسلم.

ودور الاستعمار الصليبى فى هذه المجزرة الجديدة أنه يضع السكين فى أيدى المتقربين إلى الله بدماء خصومهم، يضع فى أيديهم أدوات الهلاك كلها ثم يقول لهم: اصنعوا ما تحبون، فإذا قاومت الضحايا البريئة، واستعصت على الموت، شد عليها هو الآخر، ليجهز عليها، وليفرغ بسرعة لغيرها.

أرأيت؟ فإذا تمت الفجيعة، أسكتت صحف أوربا وأمريكا إسكاتًا مطلقًا، وسكنت أسلاك البرق فما تهتز بنبأ، وخرست الإذاعات فلم تنطق بكلمة، بل على العكس، تترأس الولايات المتحدة حملة جديدة؛ كى تجمع الإعانات لإسرائيل، بوصفها الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تستحق الحياة، إن اللصوص إذا

قتلوا أى موظفين أو رعايا أمريكيين فى أية دولة عربية أو إسلامية قامت الدنيا وقعدت، ولم ولن تهدأ الولايات المتحدة حتى تسقط الوزارات والأنظمة إذا اقتضى الأمر، إن الدم الأمريكى غال ثمنه، أما الدم الإسلامى فهو وحده الذى يراق على الثرى، كما تراق زجاجات الحبر الأحمر، بل هو وحده الذى تجمع الإعانات إغراء بإراقته، وإغراء على سفك المزيد منه، كذلك يفعل بنا المستعمرون من أوربيين وأمريكيين.

رجعت بى الذاكرة إلى عام ١٩٥٦م، وأنا فى القاهرة أستمع إلى فظائع اليهود يوم كانوا يحتلون قطاع غزة، ما أرجو من قوم مسخوا وحوشًا، ثم جعلوا وحشيتهم عقيدة؟، لقد كنت أطالع الأخبار عن خنادق الموت التى عثروا عليها، ثم أستشعر الهم الثقيل، ما هذا؟ هذه حفرة فيها قرابة سبعين جثة مذبوحة للشباب المختطفين من أهل غزة! وعاد بى الخيال إلى القضية التى وقعت من قرن وربع، ترى هل جثم رهبان اليهود وعبادهم على صدور هؤلاء الشباب وذبحوهم قربى إلى الله، أم أن الجنود تحولوا كلهم أتقياء يتقربون إلى ربهم بذبح الأسرى؟ إن حفرًا كثيرة وجدت ممتلئة بجثث أخرى، وكان الآباء والأمهات يجهشون بالبكاء وهم يتعرفون على ذوى قرابتهم.

ابكوا أو لا تبكوا، ما جدوى العويل؟ من لم يتذأّب أكلته الذئاب، وضحكت فى ألم مُمِضّ وأنا أقرأ حماقة بعض الحكام فى القطاع البائس وهم يطلبون من ضباط الهدنة التابعين لهيئة الأمم المتحدة أن يشرعوا فى تحقيق هذه الجرائم.

تحقيق.. ألا تزالون تعتنقون الخرافات، وتظنون الخير فى صنّاع الآثام؟.. إن موظفى هيئة الأمم المتحدة اشتُرُوا من زمان طويل بالمال أو بالنساء، أو دفعهم الحقد إلى التطوع من دون رشوة؛ لمحق الإسلام والمسلمين فى هذه الديار.

إنها حرب دينية أيها الغافلون، استبحتم فيها واستبيح فيها كل شىء يتصل بكم، ولن تنتظروا إلا شيئًا واحدًا، أن يكافأ قتلتكم بمزيد من السلطان والتوسع والتمكين، إن الاستعمار الصليبى يسارع فى هوى حليفته، هوى شريكته المدللة إسرائيل التى تعاونه على تحطيم الكيان الإسلامى فى هذه البقعة الحساسة من العالم.

وسيلة لا غاية

ابتلى المسلمون منذ عصور طويلة، بمرض شديد فتاك يأكل الأفكار والمشاعر، هو التبلد العقلى، والموات العاطفى.

ولو أن المرء التافه فى قلبه ولبّه يلقى عواقب عجزه فى خاصة نفسه، لهان على الدنيا أمره.

هب أن رجلاً دخل ميدان التجارة وهو لا يعرف عن طبيعة السوق شيئًا، أو دخل وهو ينوى اتباع وسائل اللصوص فى الكسب والغش، إنه لا يلبث طويلاً حتى ينسحب من السوق وقد أضاع ماله، وخرج صفر اليدين، ولن تعدو القصة أن رجلاً جاهلاً فتح دكانًا، ثم أقفله وانتهى الأمر.

لكن النكبة أن يدخل فرد، أو تدخل جماعة ميدان الجهاد الرحب، فإذا جئت تبحث عن هذا المجاهد ووسائل نجاحه التى أعدها، وَجَفَ قلبك من تفاهة ما ترى.

قلب تغلفه نزغات الحمأ المسنون، ففيه من شهوات الدنيا نتن، وعقل تثبت فيه الأشياء مقلوبة، فلا تكاد ترى له حكمًا صائبًا على شىء أبدًا.

فى هذا الميدان يخسر الدين كل شىء، لأنه لا يملك من أسباب الغلب شيئًا، ورجاله كما ترى.

فإذا ظفرت الدعوات الأخرى برجال كبار القلوب والعقول، فإن المستقبل يتمحض لها وحدها.

والدين قد ينفرد بالعبادات التى يلزم بها المرء من صلاة وصيام مثلاً، لكنه فى ميدان الإصلاح العام يُزاحَمُ ببرامج شتى، فإن حارب الفقر، أو الاستبداد بمناهج معينة، فإن هناك مبادئ وفلسفات أخرى تحارب الفقر والاستبداد كذلك ببرامج معروفة.

ولن ترجح كفة الدين على غيره، وتنطبع الحياة بتعاليمه إلا إذا كان العلاج الذى يتقدم به رجاله أسرع وأقطع، وأصرح وأوضح، وإلا فلابد أن يتقهقر الدين وتتقدم هذه البرامج.



خذ مثلاً مشكلة الاستبداد السياسى وما تتركه فى جسم الأمة من علل سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية، فالحكام المستبدون والنظم التى يقومون عليها جرثومة هذا الفساد العريض.

فإذا رأيت أهل الدين ضعفاء الإحساس بهذه المشكلة، خافتى الصوت باستنكارها، على حين يصرخ غيرهم بلعن الاستبداد والمستبدين، فهل يضار من ذلك إلا الدين نفسه؟

كان الرسول معلمًا ومربيًا؛ لأن الإسلام يقوم على الأمرين جميعًا.

التعليم يتجه إلى العقل فيملؤه بأشتات من المعارف الصحيحة عن الحياة ورب الحياة.

والتربية تتجه إلى النفس، فتتعهد غرائزها بالتقويم والتعذيب، فما كان من خير أبقته ونمته، وما كان من شر بترته أو حكمته.

ولم تكن وظيفة الرسول ﷺ أن يتلو على الناس كتابه فحسب، فإن رسالته يستحيل أن تتم بجملة من الأحكام والعلوم يشحن بها عقول السامعين، كما أن البشر لا يبلغون كمالهم بالمعرفة المجردة، بل لابد من تعهد الأجيال بالتمحيص والتجارب والابتلاء؛ حتى يتربوا وينتجوا ويطيبوا، وذاك معنى التزكية التى قرن الله بها التلاوة فى قوله:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

والرسالات الكبرى إذا تطلعت إلى الحكم وسلطانه فلكى تضمن تنشئة الجماهير على ما تقر من مبادئ، ومن ثم فالحكم فى الإسلام وسيلة لا غاية.

إنه وسيلة إلى إقرار الفضائل وإقصاء الرذائل، وتربية النفوس على الحق والخير، والنظر إلى الأفراد والشعوب على ضوء هذه الحقيقة وحدها، وليس يتصور فى دعوة الله ورسوله أن تفصل بين العلم والتربية فى منهاجها، ولا أن تتخلى عن هذا الميزان الحساس فى تقديرها لأصناف الناس.

تغـــيير حــاســم

القرآن الكريم يحكي ولا يذكر التواريخ والأمكنة، إنما يعنيه فى المرتبة الأولى العبرة، والعبرة التى ذُكرت فى سورة الإسراء أن الأمم تحكمها سنة كونية واحدة، وقد قلت من قبل: إن الحاكم الذى يذل شعبه يوطئ ظهورهم ليكونوا قنطرة يعبر عليها الإذلال الخارجي، سماها المفكر الإسلامى مالك بن نبى: «قابلية الأمم للاستعمار».

فإن للاستعمار قابلية تصنعها ظروف معينة، لخصت فى كلمة سريعة فى قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾..

وفعلاً احتلت الأرض المقدسة، وسيق بنو إسرائيل أسرى إلى السجن البابلى وضرب عليهم ذل غريب، ثم عفا الله عنهم، ورجعوا إلى فلسطين مرة أخرى، فماذا صنعوا؟.

يقول القرآن: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾..

فكانت الإفسادة الثانية أن انساح الرومان فى الأرض المقدسة ودمروا الهيكل مرة أخرى وشتتوا اليهود، بل الصحيح تاريخيًا أنهم منعوا بقاءهم فى فلسطين، خصوصًا بعد أن اعتنق بعض اليهود النصرانية.

ونمضى مع التاريخ قليلاً؛ للنظر كيف تمضى الأيام، أصبح بيت المقدس فى أيدى الرومان، لكن جاءت البعثة المحمدية تشير إلى أمر لابد أن يعرف، وهو أن بعثة محمد ﷺ تغيير حاسم للقيادة الروحية للأرض، كانت هذه القيادة لبنى إسرائيل قديمًا، لكن الرسول ﷺ عندما جاء؛ أُسْرى به إلى بيت المقدس، لماذا؟

إشعارًا بالنقلة التى حدثت فى القيادة العالمية لوحى الله سبحانه وتعالى، هذه القيادة جعلت الدين من نصيب العرب لا من نصيب اليهود، فانتقل الوحى من أولاد إسرائيل إلى أولاد إسماعيل، وانتقلت القيادة من بيت إلى بيت، ومن عاصمة إلى عاصمة، ومن حركة إلى حركة.

شيء جديد، لأنه لا يمكن أن يؤمن اليهود على التربية الإنسانية أبدًا، فاختير هذا العنصر الجديد؛ حتى يكون الأمان للبشرية.

والذين يقرأون سورة الإسراء، ويعلمون أن السورة تسمى فى كثير من المصاحف سورة بنى إسرائيل، ولا تذكر الإسراء إلا فى آية وحيدة، هل سألوا أنفسهم لماذا؟

تقول السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

ثم ماذا؟ ثم عودة إلى التاريخ الذى مضى، لقد جىء بك هنا؛ لتلحق هذا المسجد بالمسجدين الكبيرين فى جزيرة العرب، ولكى تصلى بالنبيين كلهم، فأنت إمامهم وأنت خاتمهم، وقد انتقل إرشاد السماء بعيدًا عن هؤلاء القوم وأصبحت أنت وقومك المسئولين عن هذا، والسبب أن القوم فسدوا ولم يصلحوا: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾..

لو كنا أهل تدبر فى القرآن، لوقفنا طويلاً أمام هذه الآيات، ما هذه الوثبة من تاريخ الإسراء إلى تاريخ بنى إسرائيل؟ إنما كانت هذه الوثبة للمعنى الذى ذكرت، كان بيت المقدس فى أيدى الرومان، أى فى أيدى الصليبيين، وقد أكدنا ـ فيما كتبنا ـ أن الرومان عندما دخلوا النصرانية لم يدخلوها فعلاً، وهناك سؤال قاله علماء الملل والنحل عندنا: هل تَنَصَّر الرومان أم ترومت النصرانية؟ والواقع أن النصرانية ترومت ولم يتنصر الرومان، بل فرضوا على النصرانية تقاليدهم وعقائدهم وكثيرًا من أخلاقهم، المهم خضع بيت المقدس للصليبية، ثم جاء الفتح العمرى أيام عمر بن الخطاب، لينتهى فصل آخر من حلقات الصراع المتصلة على مر التاريخ.

رجال ورجال (١)

عندما دخل عمر إلى بيت المقدس، هل دخل فى موكب فاتحين؟ والجواب لا.. ما خطر بباله هذا، بل الذى يقوله التاريخ، ويضعه علماء السنة فى باب التواضع، ولو أنصف الذين يفهرسون كتب السنة لجعلوا للقضية عنوانًا آخر، لكن الذى حدث هو هذا.

المهم يحكى التاريخ أن بِركة اعترضت ناقة عمر رضى الله عنه، فنزل الخليفة وحمل نعليه إلى عنقه ومضى بناقته يخوضان البركة، فقال أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه: ما يسرنى أن أهل المدينة يستشرفونك على هذا النحو. فقال له عمر: ويحك يا أبا عبيدة، لو غيرك قالها لجعلته نكالاً لأمة محمد.. لقد كنا ـ معشر العرب ـ أذل الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله تعالى.

ودخل عمر إلى بيت المقدس، وقابل الأساقفة وأمضى معهم المعاهدة ونودى بصلاة الظهر فخرج عمر ليصلى، فقال له البطريق: صل مكانك..

قال له: لا.. لو صليت فى مكانى لوثب المسلمون على المكان من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر. وأخذوا منكم الكنيسة.

كأن عمر يريد أن يستبقى حرية التدين، وأن يحفظ للمعاهدين حقهم فى إقامة شعائرهم، وأن يعطى مثلاً للتاريخ الإسلامى من مسلك رجل من أصحاب محمد ﷺ.

وأتجاوز أربعة قرون سريعًا لأنظر إلى فتح ثانٍ لبيت المقدس، فإن المسلمين تبعوا اليهود فى أخلاقهم وأحوالهم، المهم فى يوم ما وثبت الصليبية العالمية تجرى فى أفئدتها عواطف مشبوبة من حقد لا آخر له، وذهبت مخترقة جنوب أوربا وشمال آسيا وجاءت إلى فلسطين فى أيام تشبه أيامنا هذه.

قال التاريخ: لو أن المسلمين تحرك لهم جيش يحمل الحجارة، لو أن النساء ألفت جيشًا لهزمت الصليبيين؛ لأنهم كانوا قد أكلوا الجيف من عجزهم وجوعهم، لكن قال التاريخ: سقط بيت المقدس، ما تحركت القاهرة، ما تحركت بغداد، ما تحركت دمشق، ما تحرك أحد.



هذه طبيعة العرب إذا نسوا الإسلام.

وذبح سبعون ألف مسلم فى بيت المقدس، وكانت نكبة هائلة، لا أقول: صنعها الصليبيون بنا، ولكن أقول: صنعناها نحن بأنفسنا.

وجاء صلاح الدين الأيوبى، والناس تتصور أن صلاح الدين كان فى نزهة عندما حرر بيت المقدس، جاء صلاح الدين، فماذا صنع؟ طلب من العلماء أن يعلموا الجماهير العقائد الدينية، وأن ينشروا بينهم الأخلاق، وأن يبتعدوا عن البدع والمخالفات، وكان الفاطميون قد نشروا بدعًا كثيرة فى الأرض الإسلامية.

كان صلاح الدين لا ينتهى له سعى إلى الصلوات، حافظ دائمًا على الصلاة فى المسجد إلا فى الثلاثة الأيام الأخيرة من حياته والتى مرض فيها مرض الموت..وكان محافظًا على الجهاد فى سبيل الله. وكان عادلاً، اشتكت له امرأة من ابن أخيه ـ وكان يحب أقاربه ـ فنصر المرأة وأهان ابن أخيه، وكان رجلاً معروفًا بأنه يحمل هموم المسلمين، ويبذل جهوده كلها لاستنقاذ الأرض التى لوثها الصليبيون بأقدامهم.

وفى معركة حطين وقف على فرسه يصدر أوامره ويتابع المعركة، يقول ابنه عن المعركة: رأيت فرسان المسلمين تتساقط عند أقدام أبى، ويوشك الصليبيون أن ينزلوا بنا هزيمة ماحقة، فيصرخ أبى يقول: كذب الشيطان. فيرجع المسلمون مرة أخرى، وأقول: انتصرنا، فيقول لى: اسكت ما ننتصر حتى تسقط هذه الراية وتطوى تلك الخيمة.

وما كاد ينتهى حتى كانت خيمة قائد الصليبيين قد انفضت والراية قد سقطت واجتاح جيش التوحيد الميدان كله.

يقول ابن صلاح الدين: ورأيت أبى يهوى من فوق فرسه ساجدًا لله على الأرض، الرجل يشكر الله طبعًا، الرجل كان مؤمنًا، صنع هذا لله، ولم يكن ينتظر أن يرجع إلى القاهرة ليقال له: بالروح بالدم نفديك يا صلاح.

أبدًا.. الرجل كان يعمل لله ويريد أن يقول:بالروح بالدم أفديك يا دين الله. هذا هو الرجل وهذا هو الإسلام، وما انتصر صلاح الدين إلا بهذا، وما ننتصر إلا بهذا.

رجال ورجال (٢)

الله عز وجل لا ينصر الحق بوضوح أدلته واستقامة طريقته، ولا يخذل الباطل بعوج دعوته وسوء خاتمته، وإنما يبلو أصحاب الحق بأصحاب الباطل، وعلى قدر ما يبذل كلا الفريقين من جهود وتضحيات تكون النهاية الحاسمة: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾. ويؤلمنى أن أقرر هذه الحقيقة المرة وهى أن الرجال الذين ساندوا قضية إسرائيل فى غضون قرنين، وخاصة فى أثناء الحرب العالمية الأولى كانوا أصحاب عقيدة وجلد وبذل، أما الأمراء الذين وقعت أَزِمّة المسلمين فى أيديهم فقد كانوا دون ذلك، والأمر كما قيل:

إذا جُعِلتْ أذنابُنا رءوسًا لنا
غَدَونا بحكمِ الطَّبعِ نمشى إلى الورا

ولندع أحداث التاريخ تتكلم، قال إسرائيل كوهين: سافر (وايزمان) إلى العقبة لمقابلة الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة، وكان الأمير قد أعلن الثورة فى وجه الأتراك بعد أن اتصل بـ (مكماهون) المندوب السامى البريطانى فى القاهرة، وبعد أن وعده هذا المندوب بأن حكومته تمنح الاستقلال للعرب الذين يقدمون مساعدات فعالة للحلفاء (كذا)، قال إسرائيل كوهين: وأدرك فيصل أن فلسطين لا تدخل ضمن الأراضى التى ستضم للدولة العربية الهاشمية، عندما زار لندن ووقع بصفته مندوبًا عن الدولة العربية اتفاقًا مع (وايزمان) بوصفه ممثلاً للفلسطينيين! قال: وفى ٦ فبراير (شباط) ١٩١٩م أشار الأمير فيصل رئيس وفد الحجاز فى مؤتمر الصلح إشارة رسمية إلى فلسطين، حينما ذكر أن تترك مسألتها ذات الطابع الدولى ليتولى دراستها أصحاب الشأن، وفيما عدا ذلك طالب باستقلال المناطق العربية الواردة فى مذكرة وفد الحجاز! انظر كيف يبنى زعماء إسرائيل وطنًا لقومهم، وكيف يبنى أمراؤنا مُلكًا لأنفسهم؟!

إن الفتنة المحيرة أن يتصدى لخدمة الإسلام أناس تجردوا من فضائل الإيمان ومن فضائل الرجولة جميعًا، على حين يتصدى لخدمة النزعات الأخرى

قوم لهم عقول لمّاحة وهمم سبّاقة، وما يكون مصير عراك تفاوتت أركانه وأنصاره على هذا النحو؟ حق تنصره الشهوة وباطل يشده الإيثار؟ دين عطل من أولى الأيدى والأبصار، وإلحاد يعينه العباقرة والعمالقة؟ إن النتيجة المخزية لا محيص منها!.

فى ١٣ فبراير سنة ١٩١٩م وقف رشدى غانم رئيس الوفد السورى فى مؤتمر الصلح يطالب بإنشاء دولة ديموقراطية مستقلة فى سورية. أما عن فلسطين فقد صرح بأنها تعد الجزء الجنوبى من سورية، إلا أن الصهيونيين يطالبون بها، ولما كان السوريون قد قاسوا من الآلام مثلما قاسى اليهود؛ فإنهم يتركون لهم أبواب فلسطين مفتوحة على مصاريعها، وليأت كل من عانى الاضطهاد وذاق العذاب، ولتمنح استقلالاً ذاتيًا على أن تنضم لسورية فى صورة اتحاد (فيدرالى)! قد يكون من حق العرب أن ينقموا على الترك لبطشهم بهم، ولكن ليس من حق العرب أن يتذرعوا بذلك إلى إهدار الوطن الإسلامى العام ووحدة المسلمين الكبرى. إن للجنسين العربى والتركى خصائص بعضها عظيم وبعضها تافه. وقد حكم العرب باسم الإسلام وحكم الترك باسم الإسلام؛ فلم يخل كلا الحكمين من أعمال تسربت إليها النزعات الصغيرة، وربما كان الأتراك أشد أثرة وأقسى قلوبًا، غير أننا لا ننسى أن استبداد سلاطينهم قد أساء إليهم مثلما أساء إلى غيرهم. وعندى أن فظاظة الترك فى معاملة العرب جريمة ما كان قصاصها أن ينضم العرب للإنجليز فى حربهم للترك، إن هذه الخيانة المظلمة أخذت ـ فى ظاهرها ـ طابع الثأر من دولة الخلافة الجائرة، بيد أنها فى باطنها لا تعدو أن تكون مطامع أفراد، إن تصوير هذه الخيانة بأنها ثورات شعوب مضطهدة واتتها فرصة التحرر فتشبثت بها، أمر بعيد عن الحقيقة.

لقد أفلحت سلطة الاحتلال فى مصر فى أن تجند نحو مليون ونصف المليون عامل كانوا سندها فى إبادة الجيش التركى فى المعارك التى دارت بصحراء سيناء وجنوب فلسطين، ووثب الأعراب المشايعون للشريف حسين على الحاميات التركية فى الحرمين وأنحاء الجزيرة وأمكنهم أن يفنوها فى مجازر رهيبة! وأكمل اليهود هذه السلسلة من الهزائم الشائنة، فعندما دخل اللنبى مدينة «أورشليم» تألفت منهم عدة فرق اشتركت فى مطاردة الفلول العثمانية المثخنة بجراح الغدر والوقيعة. قال إسرائيل كوهين: فلم تمض سنة حتى كانت

فلسطين مطهرة من العناصر الأجنبية، وهكذا انقضى عهد الأتراك بعد أن دام أربعة قرون! وأتم مصطفى كمال أتاتورك فصول المأساة فأعلن كفر الدولة بالإسلام والعرب، ووفى اليهود لدينهم وتاريخهم وحالفوا إنجلترا فاحتضنت قضيتهم.

ترى أى الفريقين كان أبصر بمواقع قدميه وأحفظ ليومه وأمسه وغده؟!

طبيعة شعب

الملاحظ للتاريخ يرى أنه عندما سقط بيت المقدس مرة أخرى فى حرب صليبية جديدة قال مارشال (اللنبى) الإنجليزى وهو يدخل بيت المقدس: الآن انتهت الحروب الصليبية.. وقال جنرال (غورو) الفرنسى وهو يقف أمام قبر صلاح الدين فى دمشق: ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين.

والقصة ـ كما قلت ـ قصة تاريخ: كان العرب هنا قديمًا ثم طردوا، لماذا؟ لأنهم نسوا الله، ودخلوا فلسطين بالإسلام، ثم لما خانوا الإسلام أخذت منهم فلسطين، ثم تابوا إلى الله، وجاء رجل كردى ـ صلاح الدين ـ واستطاع بالإسلام أن يستنقذ فلسطين، وأحب أن أشير إلى طبيعة الشعب المصرى، الشعب المصرى له طباع فيها تناقضات، إذا فجَر فيهم ذو سلطة قال: (أنا ربكم الأعلى) وإذا آمن أحد منهم كان إيمانه فى القمة، فسحرة فرعون كانوا كفرة فجرة، عاشوا طلاب مال، طلاب دنيا، فلما شرح الله بالإيمان صدورهم قالوا لفرعون بعد أن هددهم:

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

هذه هى طبيعة الشعب المصرى، أنكر ذاته، وسلم مقاليد الحكم للمماليك؛ لأنهم مؤمنون، ولم يفكر الشعب فى عنصرية ولم يسعَ لها.

وهل المماليك خانوا هذا الشعب؟ لا والله فـ «قطز» المملوك كان أشرف من معظم خلفاء بنى العباس القرشيين، لماذا؟ لأنه فى وقت المحنة وهو يواجه التتر فى زحف رهيب ـ التتر الذين داسوا بغداد وضربوا الخليفة بالنعل ـ اهتز «قطز» وصاح: وإسلاماه، فاجتمع الناس وألحقوا بالتتر هزيمة نكراء، ودخلوا بعدها الإسلام.

هذه طبيعة الشعب المصرى، مفتاح شخصيته الإيمان، وكل من حاول غير هذا فهو فاشل، نحن أمة مؤمنة.

أين قضية فلسطين؟ متى كانت قضية عنصرية أو إمبريالية؟ هذا كلام فارغ، الذى حدث أن القضية كانت إسلامية، وكانت عمامة (أمين الحسينى) هى التى تمثل الإسلام.

إننى أؤكد أن قضية فلسطين لاتزال بعيدة عن الحل، لماذا؟ لأن المسئولين عنها رفعوا شعار العلمانية، وهو شعار الهزيمة، والعلمانية شعار الهزيمة لكل شعب مسلم فضلاً عن الشعب الفلسطينى، لقد حاول ناس أن يضللوا الصحوة الفلسطينية، ولكن جذوة الإيمان عصفت بما فوقها من تراب، وتحرك الإسلام فى قلوب الشباب.

ومنذ مدة والمعركة الإسلامية مشتعلة، وحاول العلمانيون أن يلتحقوا بالركب، وحاول كثيرون أن يقولوا: إن الحركة غير إسلامية، وهو نوع من الكذب.

لكن الله شاء أن نعرف الوقائع كلها، وبدأ المسلمون يشعرون بصحوة إخوانهم فى فلسطين باسم الإسلام.

الذى أريد أن أقول: إن اليهود لهم فكرة وحيدة لا تتغير وهى: أنهم الشعب المختار، وأنهم سادة العالم، وأن ما فى العالم من مال هو لهم يجب أن يستردوه، وأنهم يجب أن يهدموا المسجد الأقصى؛ ليبنوا على أنقاضه هيكل سليمان، وسوف ينزل الرب ليحل فى الهيكل، ويحكم العالم عن طريق شعبه المختار، شعب بنى إسرائيل.

هذا ليس قضاء على الإيمان العام، بل هو قضاء على الإسلام وحده، وسكوت المسلمين فى أى بلد على هذا المخطط يعنى ارتدادًا عن الإسلام.

وبعد: فهذه حقائق، لكن طبيعة أمتنا كما قال شوقى:

نسيت روعته فى بلد

كل شىء فيه ينسى بعد حين

وأرجو ألا ننسى..

نتيجة الاختلال

قضية فلسطين من بدء التاريخ إلى اليوم قضية دينية، قد تسمعون كلامًا لبعض الناس يصورها قضية عنصرية أو قضية إمبريالية أو عنوانًا من هذه العناوين التى يتيه الناس فى فهمها وينسون الحقيقة التى لا تنفصل أبدًا عن هذه الحقيقة وهى أنها قضية دينية.

وأنا أؤكد أن حل مشكلة فلسطين لا يمكن أن يتم مع تجاهل التاريخ الذى مضى، ومع عدم معرفة طبيعة القضية وما حل بها من هبوط أحيانًا، أو صعود أحيانًا أخرى، إذا لم نعرف طبيعة القضية فى مراحل التاريخ، فلن نحل مشكلتها - المعاصرة - أبدًا.

لقد كان سكان فلسطين من أربعين قرنًا - تقريبًا - عربًا يسمّون الكنعانيين، وكنعان وعدنان وقحطان أسماء عربية لقبائل انتشرت فى الجزيرة وفوقها وتحتها. المهم أن هذه القبائل فى تاريخها المبكر استعصت على أمر الله، وأساءت إلى نفسها، ولقى الأنبياء العرب تكذيبًا متتابعًا من قومهم، كُذِّب هود فى عاد، وكُذِّب صالح فى ثمود، وكُذِّب شعيب فى مدين، وكُذِّب لوط فى قرى المؤتفكة.

فكانت النتيجة أن دمر الله على هذه القبائل كلها وجعلها خبرًا كان، وكذلك أصاب الكنعانيين فى فلسطين، فعندما تجبّروا فى أرضهم ونسوا ربهم سلط عليهم من كان أحق منهم يومئذ بأن يسكن الأرض، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم على لسان موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾.

لقد كان اليهود جبناء على عهد موسى وأقل وأذل من أن يدخلوا على العرب أرضهم، فقد كانوا جبابرة، على نحو ما حكى القرآن عن عاد التى قالت: ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾.

ومات موسى، ومات هارون، وشاء الله أن يدخل يوشع ـ فتى موسى ـ الأرض المقدسة وأن يدخل اليهود معه فى هذه الأرض، فهل كان اليهود بعدما سكنوا الأرض عبادًا صالحين لله؟ أم سرت إليهم عدوى المجرمين من قبل وتحولوا أيضًا إلى جبابرة؟

يقول التاريخ: إنهم سرعان ما تحولوا إلى جبابرة، أكثروا فى الأرض الفساد، وبدا منهم ما لا يليق، وأغضبوا رب العالمين!

لقد كان سيدنا موسى عليه السلام، يشعر بأن قومه فيهم عوج غالب، وأنهم ـ كما قال عيسى فيهم ـ قوم غلاظ الرقبة، وعندما قالوا لموسى وهم فى مصر: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

وفى الكلمة رنين اتهام غامض، كأن موسى يشعر بأن قومه عندما يلون الأمر سيكونون فراعنة، سيكونون أخبث من غيرهم.

ولقد كان المسلك المستحب لبنى إسرائيل تحقير هذه الأجناس والنيل منها بأسلوب غريب، فقد وصفوا الكنعانيين العرب بأنهم كلاب، وكان عيسى ـ عليه السلام ـ مشهورًا بأن يشفى المرضى، وجاءته امرأة كنعانية ـ كما يقول إنجيل متى ـ وقالت له: يا سيد يا بن داود، بنتى مريضة جدًّا. وطلبت منه شفاءها، فقال لها: «اذهبى يا امرأة فإن طعام البنين لا يرمى للكلاب».

يعنى بالبنين: بنى إسرائيل، والكلاب: الكنعانيين!، ومع أن عيسى عليه السلام إنسان نبيل وأستبعد كل البعد أن تجرى على لسانه هذه الكلمة، إلا أن هذا ما ورد فى الأناجيل، والويل للمغلوب كما يقول الأوربيون. لقد تحول الشعب الذى كان جبارًا إلى شعب يوصف بأنه كلاب، ونعود إلى الرواية السابقة: تقول المرأة ـ وهى حريصة على شفاء ابنتها ـ: والكلاب أيضًا تأكل من تحت أقدام السادة.. فيقول لها: «عظيم إيمانك يا امرأة». ويشفى لها ابنتها.

أيًّا ما كان الأمر، فإن اليهود بقوا ما بقوا فى فلسطين، ثم ازداد فسادهم، وازداد ظلمهم، وكثر بلاؤهم، فشاء الله سبحانه وتعالى أن يسلط عليهم من يجتث ملكهم ويدمر هيكلهم، ويسوقهم أمامه أسرى وهو «بختنصر».

إن القرآن الكريم عندما يحكى لا يذكر التواريخ والأمكنة، إنما يعنيه العبرة، والعبرة التى ذكرت فى صدر سورة الإسراء أن الأمم تحكمها سنة كونية واحدة، هى: «أنها إذا اختل أمرها احتل الغرباء أرضها، إن الاختلال الداخلى يسبب الاستعمار الخارجى».

نســـوا اللـــه

مضى العرب فى طريقهم يحملون أمانات الوحى، ويبلغون رسالات الله. ولكن الطبيعة العربية بدأت تغالب تعاليم الإسلام. دعنا من ميدان العلم، فإن ميدان العلم بقى نظيفًا، وجلس الإمام البخارى رحمه الله إلى جانب غيره من القرشيين يعلمهم، وجلس الحسن البصرى رحمه الله يعلمهم.. فى ميدان العلم كانت تعاليم الإسلام سائدة، أما فى ميدان الحكم فإن تقاليد بعض الجماعات العربية المدعية للنبل وللرياسة وللجاه غلبت، وغلبت معها طبائع جنس، وطبائع جاهلية قديمة، وراح العرب يتبعون دينهم، وأبناءهم، وتاريخهم، ورسالتهم، وإذا هم ينشغلون بالشهوات والملذات، والاختلاف على المناصب والرياسات.

وكانت النتيجة أن هجم الصليبيون فى مطالع القرن الخامس الهجرى، هجموا على بيت المقدس ودخلوه، والذى ينبغى أن يعرف ـ ولا أدرى لماذا لا يدرس بإلحاح ـ أن الصليبيين فى أولى حملاتهم على الإسلام ما كانوا أهلاً لانتصار، ولا كان الانتصار ميسرًا لهم، لقد أكلوا الجيف من الجوع، وأدركهم الإعياء وهم يلهثون بعد مراحل طويلة قطعوا فيها من «فيينا» و«برلين» إلى «القسطنطينية» إلى «الأناضول» إلى «الشام» إلى «بيت المقدس»، قطعوا مراحل استهلكوا فيها، ولو أن أى جيش اشتبك معهم لهزمهم، ولكن التاريخ قال: سكتت دمشق، سكتت القاهرة، سكتت بغداد، سكتت مكة، سكتت المدينة، سكت العرب، وتركوا هؤلاء ينفردون ببيت المقدس ليذبحوا فيه سبعين ألف مسلم، وليؤسسوا فيه إمارة لاتينية ظلت تسعين سنة يعين «باروناتها» من «باريس» ويبارك هذا التعيين «بابا الفاتيكان».

ثم جاء رجل مسلم ليس بعربى، وهو «صلاح الدين الأيوبى»، وشعر بأسباب الهزيمة، أى دارس للتاريخ العربى يعلم أن العرب ينتصرون حين يؤوبون إلى ربهم، ويثوبون إلى دينهم، ويتمسكون بشرائعهم، ويعتزون بنسبهم السماوى، لا يحتاج الأمر إلى عبقرية، إن الحزام الذى يشد العرب بقوة ويمنع تفككهم هو الدين، فإذا انقطع هذا الحزام تفرقوا ولم يبق أحد إلى جانب أحد، فبدأ صلاح الدين بعملية إحياء كبيرة، قال المؤرخون: جند العلماء لتدريس العقائد بين الجماهير، ولجمع العوام على معاقد الأخلاق، ومكارم الشيم، وهل تنتصر أمة دون عقيدة؟!

وهل يقوم مجتمع دون أخلاق؟! إن الرجل بدأ البناء من الداخل، وفعلاً جمع الناس على الإسلام، ثم خرج بهم ليناوش عدوه، وكانت مناوشة رهيبة.

إننا نقرأ فى التاريخ أن بيت المقدس أعيد، بسهولة أو فى سطرين نقرؤهما على عجل، لكن الواقع أن المسلمين ضحوا كثيرًا، وأن القائد الإسلامى صلاح الدين كان على فرسه وهو يقود المسلمين، لكن قلبه كان يدق خشوعًا لله عز وجل، واستمدادًا منه، وخوفًا من غضبه، ورجاء فى عفوه.. وكلما رأى الصليبيين يهجمون ويتقدمون وتنداح دوائر المسلمين أمامهم يصرخ: (كذب الشيطان). ويعود المسلمون مرة أخرى إلى الهجوم، فلما طويت أعلامهم وانكشفت خيمة ملكهم هوى صلاح الدين من على ظهر فرسه إلى الأرض ساجدًا لله، رجل ما كان مستكبرًا، ولا كذابًا ولا مدعيًا، إنما كان كأنه وهو يقود المسلمين فى القتال إمام فى محرابه، تدمع عينه، وتخشع جوارحه، وينتظر من رب الأرض والسماء أن يعينه، لذلك جاءت المعونة، وجاء النصر، وعاد بيت المقدس إلى المسلمين.

لقد هجم الأوربيون هجمتهم، كيف هجموا؟ كيف تسللوا؟ يقول التاريخ: ما تسللوا إلا فى الفراغات الموجودة بين الشعوب الإسلامية، ظلم الترك العرب، وخان العرب الترك، وانقسمت الشعوب الإسلامية انقسامات مرة، فى هذا الفراغ تسلل الإنجليز والفرنسيون، وعادوا مرة أخرى إلى بيت المقدس.. عادوا ليقول الجنرال الفرنسى «غورو» وهو يقف إلى جوار قبر صلاح الدين: «يا صلاح الدين.. ها نحن قد عدنا»، ويقول الجنرال «اللنبى»: «الآن انتهت الحروب الصليبية».

ما انتهت الحروب الصليبية، وإنما هى الأيام مد وجزر، عاد هؤلاء ليسلموا الأرض مرة أخرى إلى اليهود، واليهود شعب ما كذبت السماء عندما وصفتهم الوصف الجدير بهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

إن الغدر اليهودى ميراث أجيال وحقيقة لا يمكن إنكارها، ولا التغاضى عنها، واليهود يعلمون من أنفسهم هذا، وهم يؤكدون أنهم إذا كانوا قد ضربوا «مفاعلاً نوويًا للعراق» فهم مستعدون أن يضربوا أى بلد عربى له قاعدة يخشونها، أو له قوة يرهبونها، هذه طبيعتهم، ولست ألومهم، لكنى ألوم الصف المختل، ألوم العين النائمة وسط العيون الخائنة، ألوم العرب الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

طلائــع الهجــرة

إن نجاح الإسلام فى تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى «يثرب» فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونًا عامًّا على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن.

وأصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم فى بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده فى تحصينه، ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة ـ بعد الهجرة إليها ـ نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله، فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها. وفى عصرنا هذا، أعجب اليهود بأنفسهم وعانق بعضهم بعضًا مهنئًا، لأنهم استطاعوا تأسيس وطن قومى لهم، بعد أن عاشوا مشردين قرونًا طوالاً ونحن لا ننكر جهد اليهود فى إقامة هذا الوطن ولا حماس المهاجرين من كل فج للعيش به، ومحاولة إحيائه وإعلائه.

ولكن ما أبعد البون بين ما صنع اليهود اليوم ـ أو بتعبير أدق: ما صنع لليهود اليوم ـ وبين ما صنع الإسلام وبنوه لأنفسهم، يوم هاجروا إلى «يثرب» نجاة بدعوتهم، وإقامة لدولتهم.

إن اليهود جاءوا على حين فرقة من العرب وغفلة وضعف، وحاكوا مؤامراتهم فى ميدان السياسة الغربية الناقمة على الإسلام وأهله، فإذا بالعالم كله يهجم على فلسطين بالمال والسلاح والنساء والدهاء، فلم يستطع مليون عربى حصرتهم الخيانات فى مآزق ضيقة أن يصنعوا شيئًا، فهاموا على وجوههم فى الأرض، نتيجة اتفاق أمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا وبعض العرب على خذلان أولئك العرب التعساء، وبذلك قام الوطن القومى لليهود، وبثت الدعاية لتشجيع الهجرة إليه، وإسداء العون له من دهاقين السياسة والمال فى أنحاء الدنيا.

أين هذا الحضيض من رجال أخلصوا لله طواياهم وترفعت عن المآرب هممهم، وذهلوا عن المتاع المبذول والأمان المتاح واستهوتهم المثل العليا وحدها فى عالم يعج بالصم والبكم، ربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التى اعتنقوها،

وتبعوا صاحبها المكافح، وهو لا ينى يقول: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

إن المدينة الفاضلة التى عشقها الفلاسفة، وتخيلوا فيها الكمال جاءت فى سطور الكتب، دون ما صنع المهاجرون الأولون، وأثبتوا به أن الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة.

إن المسلمين ـ بإذن رسول الله ﷺ ـ هرعوا من مكة وغيرها إلى يثرب يحدوهم اليقين وترفع رءوسهم الثقة، ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناءٍ، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخبة.

إنها إكراه رجل آمن فى سربه، ممتد الجذور فى مكانه، على إهدار مصالحه وتضحيته بأمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره ـ وهو يصفى مركزه ـ بأنه مستباح منهوب، قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طياش. فكيف وهو ينطلق فى طول البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟ وكيف وهو بذلك رَضِىّ الضمير، وضَّاء الوجه؟

إنه الإيمان الذى يزن الجبال ولا يطيش، وإيمان بمن؟ بالله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير، هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن، أما الهياب الخوار القلق، فما يستطيع شيئًا من ذلك، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾.

أما الرجال الذين التقوا بمحمد ﷺ فى «مكة» وقبسوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحق والصبر، فإنهم نفروا ـ خفافًا ـ ساعة قيل لهم: هاجروا إلى حيث تعزون الإسلام وتؤمِّنون مستقبله. وهكذا أخذ المهاجرون يتركون مكة زرافات ووحدانًا، حتى كادت مكة تخلو من المسلمين، وشعرت قريش بأن الإسلام أضحت له دار يأرز إليها وحصن يحتمى به، وتوجست خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة فى دعوة محمد وهاجت فى دمائها غرائز السبع المفترس حين يخاف على حياته.

حين عزم رسول الله ﷺ على ترك مكة إلى المدينة، ألقى الوحى الكريم فى قلبه وعلى لسانه هذا الدعاء الجميل: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

ولا نعرف بشرًا أحق بنصر الله وأجدر بتأييده مثل هذا الرسول ﷺ الذى لاقى فى جنب الله ما لاقى، ومع ذلك فإن استحقاق التأييد الأعلى لا يعنى التفريط قيد أنملة فى استجماع أسبابه وتوفير وسائله.

ومن ثم فإن رسول الله ﷺ أحكم خطة هجرته، وأعد لكل فرض عدته، ولم يدع فى حسبانه مكانًا للحظوظ العمياء، وشأن المؤمن مع الأسباب المعتادة أن يقوم بها كأنها كل شىء فى النجاح، ثم يتوكل ـ بعد ذلك ـ على الله، لأن كل شىء لا قيام له إلا بالله.

فإذا استفرغ المرء جهوده فى أداء واجبه فأخفق بعد ذلك، فإن الله لا يلومه على هزيمة بُلِى بها، وقلما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر يُعذر المرء فيه.

وكثيرًا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتيبًا حسنًا، ثم يجىء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمار، كالسفينة التى يشق عباب الماء بها ربان ماهر، فإذا التيار يساعدها والريح تهب إلى وجهتها، فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهى إلى غايتها فى أقصر من وقتها المقرر.

إنه مع استجماع الأسباب وتوفير الوسائل يأتى عون الله ونصره حتمًا.

أمــــراض متشــابهــة

أمراض المسلمين على اختلاف أقطارهم متشابهة، قد تفلح المسكنات في علاجها هنا، على حين تتحول فى أقطار أخرى إلى أوبئة جائحة، ولنأخذ مثلاً الهند كمثال لذلك.

لم أر فى القارة الهندية علة غير معروفة لدينا، لكن هذه العلل هناك استفحل شرها، وطالت آثارها، وتوطنت جراثيمها، فالمسلمون منقسمون إلى سنة وشيعة، والشيعة ألوان، فهناك الإمامية الاثنا عشرية، وهم ينتظرون الإمام الغائب؛ ليملأ الدنيا عدلاً بعدما ملئت جورًا، وهناك الشيعة البُهْرَة، الذين يصلون ويسلمون على المعز لدين الله والحاكم بأمر الله، وهناك الإسماعيلية الباطنية، الذين يقدسون أغاخان مما يجعل جسده يوزن بالنفائس.

أما أهل السنة، فالانقسامات بينهم لا تقل خطورة: السلفيون يكرهون المتصوفة، ويعلنون عليهم حربًا شعواء، وهم مع أهل الحديث يكرهون أتباع المذاهب الأخرى، ويرون الاستنباط المباشر من السنن، وهناك حرب أخرى بينهم وبين الأشاعرة، والأحناف مع جمهرة المسلمين الأعاجم يلتفون حول مذهب أبى حنيفة، ويؤثرونه على غيره. ويوجد رجال الدعوة المشتغلون بالتبليغ، ويوجد إصلاحيون يقومون بنشاط عام يشبه نشاط الإخوان المسلمين فى الشرق العربى، ويوجد قوميون، ومنحلون وغوغاء يطلبون العيش على أى نحو، وهناك فرق مرقت عن الإسلام، وظَاهَرها الاستعمار بقوة لتنال منه، كالقاديانية والبهائية، والآفة الجديرة بالتأمل أن كل تلك الفرق تعيش على هامش الحياة، وتحيا صريعة الفقر الشديد، والتخلف الحضارى المحزن.

وقد رأينا أن العالم المعاصر لم ير حرجًا فى إيصال الذرة إلى الهند، ففجرت قنبلتها من بضع سنين، على حين حاصر باكستان وحاول منعها من اقتفاء أثر الهند، لكنه فشل، ونجحت باكستان فى اللحاق بالهند، والواقع أن الهنود يتلقون دعمًا كبيرًا فى كل ميدان، حتى قيل: ليس فى الهند بقعة لم تزرع، وإنه ـ خلال سنين ـ ستكون الهند أمة صناعية مرموقة.

وأرى أن الأوضاع الإسلامية فى الهند تحتاج إلى علاجات من المنبع، وأن

ترك الفرقة المذهبية، والاضطرابات الاجتماعية تفتك بالجماهير، معناه ضياع الحاضر والمستقبل.

ويمكن أن يقوم الأزهر بتوضيح العقائد والأركان والأخلاق التى يجتمع المسلمون عليها، وأن يتناول بحكمة أسباب الفرقة مهونًا من شأنها، ومنذرًا بعواقبها إن بقيت.

وحبذا لو تألفت لجنة للتقريب بين المذاهب السنية أولاً، بوصف أهل السنة هم كتلة الإسلام الكبرى، ثم تقوم هذه اللجنة بجهد آخر فى التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة.

من النصائح الحسنة: لا تجعل شمس اليوم تختفى وراء غيوم من المستقبل ينسجها الوهم والواقع، إن غيومًا من الماضى تنبعث بين الحين والحين، فتحجب الرؤية أمام المسلمين المعاصرين.

فى أول نصر للمسلمين قال الله لهم: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾. لما تسلل إلى النفوس تطلُّع تافه إلى متاع الدنيا.. ثم قيل لهم فى توكيد أسباب النصر: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾.

والواقع أن الخلافات العلمية لن تكون سبب وقيعة بين الشعوب، إذا صلحت السرائر، وزكت الضمائر، والأمر يحتاج إلى يقظة علمية وخلقية، فإن أعداء الإسلام أحدقوا به، وتحدثهم نفوسهم بأنهم موشكون على القضاء عليه.

وبقاؤنا متفرقين هو ذريعة الفتك بنا وبرسالتنا، فلنسارع إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة، والإفادة من المدنية الحديثة بالقدر الذى يمحو التأخر الشائع فى كل مكان.

عـــودة إلــى الأخــلاق

بم ينتصر العرب؟ أرجع مرة أخرى إلى تاريخنا، إن آباءنا فى عاد وثمود ـ العرب العاربة ـ هل مكن الله لهم؟ دفنهم فى أنقاض مخازيهم ومآسيهم إلى حيث ألقت!

ما تعمل الإنسانية بأجناس تعيش للكبر والرفاهية والشذوذ وسوء الخلق؟ وماذا تكسب الحضارة الإنسانية من عرب إذا ملكوا المال استغلوه فى خراب الذمم، وشراء الشهوات، واقتناص الملذات، وتحقير المآثر، ودفن آيات الوحى؟

ما يفعل الله بهم؟ لابد أن يدفنهم فى أنقاضهم، إن العرب بطريقتهم التى يعيشون بها الآن لن يضربهم اليهود وحدهم، بل تضربهم كلاب الأرض. العرب بالطريقة التى يعيشون بها لا يستحقون نصرًا، لكى يستحق العرب النصر يجب أن يسألوا أنفسهم، أو لكى يدخلوا بيت المقدس مرة أخرى يجب أن يسألوا أنفسهم: هل سنكون بأخلاق الجبابرة الذين سكنوا بيت المقدس قديمًا، فبعث الله إليهم «يوشع بن نون» فدمر عليهم، واستوقف الشمس فلم تغرب حتى ألحق بهم الهزيمة؟ إذا كان العرب بأخلاق الجبابرة الأقدمين فليأخذوا مصير الجبابرة الأقدمين.

أظن أن العرب يدخلون بيت المقدس مرة أخرى يوم يدرسون أخلاق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يكن الرجل عارض أزياء، ولم يكن داخلاً فى موكب الخيلاء، بل كان الرجل يخوض بناقته بركة، ويرى أن يعرض مبادئ تواضع الإسلام.

متى يدخل العرب فلسطين وبيت المقدس؟ يوم يرون رجلاً كصلاح الدين. قالوا: جمع الغبار من معاركه وأوصى أن يكون وسادة له فى قبره، حتى إذا حوسب قال للملائكة: هذا الغبار كان فى سبيل الله.

أين أخلاق صلاح الدين؟ أين أخلاق عمر؟

إن العرب لكى ينتصروا مرة أخرى ويعودوا إلى فلسطين يجب أن يعودوا بدينهم، وليعلم الجيل الحالى والجيل الذى يليه أن راية الإسلام وحدها هى التى

تجمع الشمل، وأن أية راية غيرها لا تنطلق بنا إلا وراء سراب خادع وأمل كاذب مع التفريط فى دين الله.. كل هذا لا ينتهى بأصحابه إلا إلى الضياع والدمار.

إننى أريد مرة أخرى أن أكذب شائعة سرت بين الناس، هذه الشائعة أن العصر الحاضر عصر العلمانية واطراح الأديان ظهريًّا، وعصر الانطلاق وراء المقررات الإنسانية المجردة، إلى غير هذا الكلام. هذا كلام مكذوب، هذا العصر هو العصر الذهبى للأديان كلها ما عدا الإسلام.

اليهودى التائه الذى كان يبحث عن حارة له فى روما أو باريس أو القاهرة أصبح يملك دولة، ما كان هذا له من أربعين قرنًا. (بيجين) البولندى الأفاق الذى جاء من «بولندا» ماذا يملك؟ جاء إلى أرضنا ليطرد العمد من قراهم وليقول: هذه أرضى أنا، وليخرج منها أى مسلم أو أى عربى.

باسم اليهودية يملأ فمه فخرًا، أولئك الذين يريدون ألا نفخر بالإسلام ويتركون هذا الإنسان يفخر باليهودية، ألا تحشى أفواههم بالنعال، والله ما يستحقون إلا هذا، تسكتون عندما يفخر الناس بيهوديتهم، فإذا تحدثنا عن الإسلام تنمرتم وقلتم: رجعية أو تعصب. كيف هذا؟

لقد كان الأوربيون يحتقرون الكنيسة ويحملونها أوزار التخلف ألف سنة؛ لأن العصور الوسطى كانت عصور الموت الأدبى فى أوربا، وعندما بدأ عصر الإحياء من مواريثنا نحن المسلمين سمى عصر الإحياء، لأن الجيف بدأت تتحرك، بدأ الأموات ينشطون من مواريثنا، وحمل المفكرون الكنيسة وخرافاتها وسقامها العقلى، حملوها وزر ظلمة أوربا فى ألف سنة أو يزيد.

الآن استطاعت أن تجند دول العالم الصليبى وغير الصليبى؛ لكى تخدم أغراضها، وما أغراضها؟ إنها تنسى الإلحاد والدعارة فى كل شبر فى الغرب، وتتذكر شيئًا واحدًا هو أن دين محمد ﷺ يجب أن يزول.

هذا ما تذكره، وهذا ما تعمل له سياسات الغرب التى تظاهر إسرائيل ضدنا حتى الآن.

طبيعة خاصة

يقول ابن خلدون وهو أدق الرجال وصفًا للجنس العربى: «إنهم جنس لا يصلح إلا بنبوة، ولا يقوم إلا بدين، ولا ترقى مواهبه إلا بشرع السماء». فإذا ترك العرب النبوة والدين وشرائع السماء، تحولوا إلى قطعان تعبد الشهوة وتطلب المال لتبعثره ذات اليمين وذات الشمال تنفيسًا عن شهواتها.

جاءت النبوة الخاتمة لكى تجعل من العرب جنسًا آخر، ومضى تاريخهم، لكن قبل أن نتحدث عن تاريخ العرب بعد أن شرفهم الله بالإسلام، نريد أن نتحدث عن تاريخ غيرهم، عن تاريخ اليهود، فإن هذا الشعب ـ وهو ابن عم العرب ـ شعب غليظ الرقبة، بادى القسوة، شديد العناد، وعندما نزلت بهم لعنات الفراعنة، وصرخوا بموسى عليه السلام يقولون له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾. نظر إليهم موسى عليه السلام نظرة ريبة وكأنه يقول لهم: ترى ماذا سيقع منكم يوم تنكسر عنكم القيود، ويوم تملكون حريتكم؟ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. كلمة ناضحة بأن الرجل متشائم منهم، وبأنه يدرى أنهم يوم يملكون القوة فسيكونون ألعن من الفراعنة.

وملك بنو إسرائيل القوة بعد لأىٍ، حاول موسى عليه السلام بمنطق الإيمان أن يزحف بهم على فلسطين، يوم كان العرب الجبابرة يسكنونها؛ فغلبهم الجبن، وقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾. أى كرامة لكم يوم تدخلون فلسطين وليس فيها أحد من العرب؟ ولذا قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

تاهوا فى سيناء أربعين عامًا حتى هلكت الأجيال الجبانة الخوارة، ونبت جيل آخر قاده نبى الله يوشع عليه السلام، ودخل فلسطين وقهر الجبابرة وأقاموا دولة لهم.

وما مضت إلا فترة محدودة حتى أخذت قشرة التدين تتقلص، وحتى أخذت الطبيعة الرديئة تبرز، وغرائز السوء تطفح، وإذا اليهود يفسدون فى الأرض، ويسفكون الدم، ويملأون أقطار دولتهم مظالم، فماذا يفعل الله بهم؟ سلط عليهم «بختنصر» فهزم دولتهم، وهدم هيكلهم، وساق عشرات الألوف من الشباب اليهودى أسرى أمامه إلى بابل، وفى السجن البابلى أذيقوا أشد العذاب.

ثم عفا الله عنهم، ويسر لهم حاكمًا ردهم مرة أخرى إلى بلادهم، فهل عادوا ليرعووا، ويعدلوا، ويصلحوا؟ لا.. سرعان ما عادت إليهم طباعهم السوء، فما هى إلا جولة وأخرى حتى انقض عليهم الرومان، وأمر القائد الرومانى «تيتوس» بتدمير الهيكل، فدمر الهيكل مرة أخرى، وبدا أن الشعب الإسرائيلى بعد عدة مئات من السنين لا يصلح للحكم، وأن أداة الحكم فى يده تجعله مفتاح شر، وتجعل أصابعه الطائشة تطلق قذائف من الدمار والفساد على أهل الأرض، فما ينجو أحد من بلائهم.

حاولوا قتل عيسى عليه السلام وفشلوا، وحاولوا قتل محمد ﷺ وفشلوا، وإن كانوا قد نجحوا فى قتل أنبياء آخرين.

ثم كان من فضل الله عز وجل أن هيأ للإنسانية مستقبلاً آخر، ونقلت قيادة الوحى من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل، ونقلت لغة الوحى من العبرية إلى العربية، ونقلت عاصمة الوحى من بيت المقدس إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتولى أمر التربية محمد ﷺ من سموه، ومن سناء روحه، وارتقاء ضميره، ورسوخ تقواه، سكب فى أولئك العرب ما حولهم خلقًا آخر، فإذا هم يخرجون على الدنيا وكأنهم ملائكة، تحول الجبروت الجاهلى إلى سناء واهتداء وافتداء فى سبيل الله.

درس من الماضى

إن أمتنا من أزمنة قديمة كانت تبتلى بكثرة الأعداء، وطالما امتحنت بالحروب الطاحنة، تسعر ضدها فى أكثر من جبهة، ويشعل نارها خصوم أشداء الوطأة، ومع ذلك ما أثر عنها قط أنها وهنت أو استكانت، وفى زمن النبوة شغل المسلمون بقتال أحزاب الوثنية، وعصابات بنى إسرائيل، وفى زمن الصحابة شغلنا بقتال فارس والروم، ثم مشى تاريخنا إلى الأمام ثابت الخطو، فإذا هو يصطدم بزحفين همجيين ما كان يظن لليلهما نهار، زحف التتار من الشرق، وزحف أوربا من الغرب، وبعد جلاد مر المذاق، خرجنا من هذه الغمة منصورين موقرين، ورددنا الفوضى المقبلة من هنا ومن هناك.

وقد تنادى الأعداء علينا مرة أخرى، وتضافرت قوى الاستعمار مع اليهود لتقضى على بلادنا وإيماننا ومثلنا ومقدساتنا، وها نحن أولاء نخوض المعركة التى فرضتها الأحقاد والأطماع، وعلينا أن نؤدى الواجب كاملاً، لنخرج منها مثلما خرجنا من معاركنا التاريخية القديمة.. علينا أن نقوى صلتنا بديننا، ونوثق أواصرنا بربنا، وننمى إخلاصنا لما بين أيدينا من هدايات غالية، فإن الإيمان الراسخ ليس قوة نفسية فقط، بل هو حصانة جماعية تعتصم بها الأمة والدولة ضد المتربصين والخائنين، ثم علينا أن نعبئ مواردنا المادية والأدبية كلها، وأن نبذل كل ما أوتينا من طاقة لدعم حاضرنا وتأمين مستقبلنا.

والإسلام فى جهاده للطغاة والبغاة يستثمر كل مورد، ويحشد كل جهد، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

وعن أبى ذر رضى الله عنه: قلت يا رسول الله: أى الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: **«الإيمان بالله والجهاد فى سبيله»**. وقال ﷺ: **«أفضل الأعمال عند الله إيمان لاشك فيه، وغزو لا غلول فيه»**.

وروى الحاكم عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: «**مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل عند الله من عبادة ستين سنة**».

إنه ما من حاكم صالح ولى أمور هذه الأمة إلا اعتمد فى سياسته على استثارة خصائص الخير فيها وإحياء قواها الكامنة، خصوصًا إذا هاجت الدنيا بمطامع الأقوياء، واضطرمت الحياة بفتنتهم ومآربهم.

وأتذكر عندما أحاط بمصر فى خريف سنة ١٩٥٦م جيوش ثلاث دول، تضرب أرضها من البر والبحر والجو..

تحركت عصابات اليهود لتحتل غزة، والتقت على موعد بثمانٍ وثلاثين سفينة حربية إنجليزية وفرنسية، شرعت ترجم المدينة بقذائفها، لتكرهها على الاستسلام لليهود، وفى الوقت نفسه ظهرت ثلاث بوارج أمريكية لتنقل رعايا الولايات المتحدة، ومراقبى الهدنة، وموظفى وكالة إعانة اللاجئين، وذلك لتدور المجزرة بين المسلمين وحدهم!

إن أمريكا دولة حريصة على دماء بنيها ومن على ملتهم، ومن والاهم، وما أن طلع الصباح الأخير؛ حتى كان الجيش الإنجليزى يحتل غزة، ثم انقضت فترة الظهيرة، وأقبلت بعدها عدة سيارات تحمل اليهود الذين قيل عنهم: إنهم هزموا العرب، ودخلوا المدينة ظافرين.

أما فى خان يونس فإن المناضلين المسلمين ردوا اليهود مرة بعد أخرى، وألحقوا بهم خسائر فادحة حتى تدخل الإنجليز واستولوا على القرية الجريحة بعد أن استشهد فيها نحو ألف بطل.

وكذلك الحال فى رفح، وفى شبه جزيرة سيناء، كانت القوات الفرنسية والإنجليزية تمهد السبيل أمام اليهود، وتستطيع بتفوقها الهائل أن تفتح لهم المغاليق، وتزيح العوائق، ثم ينطلق اليهود بعد ذلك ليضعوا أيديهم على البلاد وأهلها.

وتنطلق ألوف الإذاعات فى الوقت نفسه تنوه بانكسار العرب، وذوبان مقاومتهم أمام حماس اليهود، ونظامهم، ورجحان كفتهم!

كل ما تغير بعد القرون الطوال أن اليهود يشرعون أسلحتهم فى وجوهنا مستندة إلى أمريكا والغرب، بل إن هذا الحليف الجديد لا يكتفى بمساندتهم، بل

يقويهم إذا ضعفوا، وينصرهم إذا انهزموا، ويغنيهم إذا افتقروا، ويؤيدهم فى كل مجال بما يطلبونه من ذخيرة أو سلاح أو رجال.

وقد كان فى قدرتنا أن نكسر صولة اليهود لو أنهم هاجمونا وحدهم، غير أن عبء الكفاح تضاعف علينا، بعد سيل المساعدات الاقتصادية والعسكرية التى زود الاستعمار الغربى بها اليهود، هذا العبء الثقيل لا يرتاع له مؤمن، ولا تتوجس منه أمة تعتمد على الله الكبير.

تسـامح هنـا وتعصب هنـاك

فى اعتقادى أن عمل النبى الخاتم ﷺ هو المعجزة التى لم يعرف العالم لها نظيرًا من بدء الخلق إلى الآن، كيف أمكن ترويض هذا الجنس وحشد قواه ليتحول إلى زلازل تدمر الإمبراطوريات التى شمخت جدرانها على الطغيان قرونًا، ما استطاع أحد أن يهدها حتى جاء المسلمون فغيروا الدنيا.

كانت هناك إرهاصات روحية، أو بدايات معنوية فى ليلة الإسراء والمعراج عندما انتقل النبى ﷺ إلى بيت المقدس وصلى بالنبيين الأسبقين، ثم تحققت هذه الإرهاصات فيما حدث بعد ذلك، فإن بيت المقدس الذى دمره البابليون مرة، ثم أعيد بناؤه، ودمره الرومانيون مرة أخرى، عاد إليه العرب فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد الإرهاصات الروحية التى كانت ليلة الإسراء والمعراج، وذهب عمر رضى الله عنه بالعرب، ونظر الناس فاستغربوا، كان القائد المحلى أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يرى أن يدخل عمر رضى الله عنه بيت المقدس فى موكب الفاتحين، وفى أبهة المنتصرين، وذلك أنه كان يرى أن أولئك بقايا الاستعمار الرومانى، وأن المناظر الهائلة قد تترك فى نفوسهم انطباعات معينة، لكنه فوجئ بما أذهله، فإن الخليفة الراشد عمر رضى الله عنه جاء على ناقته من المدينة، وأبى أن يكون فى موكب.

ويحكى التاريخ أن مخاضة ماء اعترضت ناقة عمر رضى الله عنه، فنزل الخليفة، وحمل نعليه إلى عنقه، ومضى بناقته يخوضان الماء، فقال أبو عبيدة رضى الله عنه: ما يسرنى أن أهل المدينة يستشرفونك على هذا النحو. فقال له عمر رضى الله عنه: ويحك يا أبا عبيدة، لو غيرك قالها جعلته نكالاً لأمة محمد، لقد كنا أذل الناس حتى أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله.

عمر لا يدخل بيت المقدس عارض أزياء، عمر لا يدخل بيت المقدس فى موكب فاتحين، عمر لا يدخل بيت المقدس وهو يحمل شارات العمالقة، لا، لا ثياب مارشال، ولا ثياب جنرال، دخل عمر رضى الله عنه بيت المقدس تابعًا من أتباع محمد ﷺ، دخل رجل دين وبر وتقوى، دخل متواضعًا لربه ليتسلم بيت المقدس. ورأى الناس من الفاتح الذى تسلم بيت المقدس، رأوا منه العجب، كان اليهود

ممنوعين أن يدخلوا القدس، وطلب النصارى من عمر رضى الله عنه ألا يسمح لليهود بدخول فلسطين أو القدس، هذه واحدة، وكان الرومانيون الذين يسلمون القدس يرون أن أندادهم من النصارى ـ المصريين والشوام ـ ليسوا أهلاً لأن يكونوا عبادًا معهم فى كنيسة، وعندما دخل المسلمون مصر كان البطريرك مسجونًا، وكان أخوه قد أُحرق ورُميت جثته فى البحر الأبيض، لكن الفاتح الجديد نقل إلى العالم «بدعة» التسامح الدينى.

نحن العرب، نحن المسلمين، الذين أخرجنا للناس «بدعة» التسامح الدينى، ما يعرف هذا التسامح تاريخ إلا تاريخنا نحن، «بدعة» التسامح الدينى هى التى جعلت عمر رضى الله عنه وقد قال له بطريرك بيت المقدس عندما أدركته الصلاة: «صل حيث أنت». قال: «لا..لو صليت هنا لوثب المسلمون على المكان وقالوا: هنا صلى عمر. وأخذوا الكنيسة منكم». وذهب فصلى بعيدًا. لو كان فاتحًا ممن يحتقرون وجهات النظر الأخرى، ويدمرون على غيرهم لصلى فى المكان واغتصبه.. لكنه لم يفعل شيئًا من هذا، والغريب أن أبشع مشاعر الجحود تتدارس الآن بين يهود العالم ونصاراه تريد اتهام المسلمين بالتعصب، وهم الذين علموا هؤلاء وأجدادهم ما التسامح، ولو أراد المسلمون ألا يبقى غيرهم فى الشرق الأوسط ما بقى أحد، ولكنهم أبقوهم اتباعًا للإسلام، لأن الإسلام لا يعرف الإكراه، ولا يعرف الغصب والجبروت.

لم يجئ الخليفة ليملى شروطه، بل جاء الخليفة ليتسلم العاصمة القديمة للوحى، ويجعلها من الناحية العملية حرمًا ثالثًا للحرمين الشريفين..

هذا هو الإسلام.

تبــدل الحــال

كيف يشعر الإنسان بالحاجة الملحة إلى إمام حكيم يؤنسه بالله، ويعده للقائه إعدادًا حسنًا، ويلقى على روحه رواء طهورًا يجعله فى هذه الدنيا ملكًا يفكر فى الخير وحده ويهفو إليه أبدًا. إنك تربح نصف الطريق إلى الحق يوم توفق إلى الهادى المدرب اللبيب، وفى طريق الدعوة إلى الله يوجد علماء وخطباء وقادة وساسة وعباد ونقدة ومجتهدون ومقلدون، وفى الطريق كذلك يوجد الأغرار والمهرة والأتقياء والفجرة والمتحدثون والمجاذيب، ترى كم من الجهد يوفر والعناء يقتصد، يوم يقع المرء على قائد استدرج النبوة بين جنبيه، ففى فمه شعاع ينطق بالحكمة وفى ضميره روح يلهم الصواب؟ إن صحبة الأنبياء والاستماع إليهم والاهتداء بهم مجد تالد، وقد غمر الله شعب إسرائيل بهذه الأمجاد، إلا أن كل مبذول مملول، وكل مرتخص مهمل. ألف اليهود مئات الرسل يغدون بينهم ويروحون، فما أكبروا لهم قدرًا ولا اقتبسوا منهم خيرًا، بل لقد تجرءوا عليهم، وغمطوا حقهم، فإذا وقف نبى أمام هوى جامح ليرده ويحمى الأمة شره لم يجد الأشقياء حرجًا من التخلص منه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كأنه كاد يبطئ بها، فقال له عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم بها، وإما أن آمرهم أنا بها، فقال يحيى: أخشى إن سبقتنى بها أن يُخسف بى أو أُعذب.. فجمع الناس فى بيت المقدس،**

فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن: أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله، بذهب أو وَرِق، وقال: هذا دارى وهذا عملى، فاعمل وأد إلى، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله تعالى أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك مثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك كلهم يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا، حتى أتى على حصن فأحرز نفسه منهم، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى». أتدرى ما كانت نهاية الرجل الذى أسدى لقومه هذا النصح؟ إن صدودهم عن الحق وقلة انتفاعهم بالتذكير جعلاه يبطئ ـ أو كاد ـ فى تبليغهم، فلما ثابر على دعوتهم، وكافح الفساد الشائع فيهم أهدروا دمه، وقتلوه، وتبدلت حال الأمة الكبيرة، فبعد أن كانت تحمد فى العالمين، وتعد أفضل أهل الأرض، تَنَزَّل السخط عليها فى الآفاق، وسارت بذمها الركبان، فإذا هى ملعونة حيث حلت وحيث ارتحلت، وعلى لسان من طعنت هذه الأمة؟ إن الحملة عليهم لم يقدها صحافيون مرتزقة، ولم تتوسع فيها دعايات مغرضة، كلا، إن أنبياء الله أنفسهم هم الذين تولوا قمع هذه الأمة، وإذلال كبريائها وفضح خبايـاهـا: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾. ثم غرست هذه اللعنة فى أرض إسرائيل لتثمر الغضب والنقمة على كر الدهور، ولتنتقل من الأجداد عدوى الغدر إلى الأحفاد، ولتنتشر الكراهية فى

أنحاء الدنيا للذرارى النابتة بعد الأجيال المنقرضة، وكلما تجمعت مشاعر المقت فى أحد العصور ثار مغامر جبار فقاتل اليهود واستباحهم استجابة للّعنة الخالدة، وتمشيًا مع قول الحق فى كتابه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. إنه على قدر عظمة النعمة تكون بشاعة الجحود، وتكون صرامة العقاب، وليس ذلك قانونًا خاصًا بجنس، إنه عدل الله فى أهل الأرض طرًّا، فما يؤثر الله أمة إلا بمقدار ما تنطوى عليه من خير، وما يهين أخرى إلا بمقدار ما تسلف من إثم: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

ومدخل الشر إلى نفوس الأفراد والجماعات هو سوء الظن بالله، أعنى الظن بأن الله يخفض ويرفع دون حكمة باعثة على الخفض والرفع، وهذا ضلال كبير.

عــراك بــين أمتــين

ليس لبنى النضير، ولا لبنى قريظة عرق قديم فى جزيرة العرب، بل إن القبائل اليهودية التى انتشرت شمالى الحجاز بدءًا من المدينة، حتى خيبر كانت طارئة على البقاع التى نزلت بها، ويتجه جمهور المؤرخين إلى عدهم لاجئين بأنفسهم وأموالهم فرارًا من سطوة الرومان، لاسيما بعد اعتناقهم النصرانية، فإن رأى اليهود فى المسيح بالغ الشناعة، وهيهات أن يقر لهم قرار مع القول به، ولا يعاب اليهود على هربهم بعقائدهم من وجه الاضطهاد النازل بهم، وإنما يعاب عليهم أنهم حيث نزلوا يحسبون أنفسهم شعب الله المختار، وسلالة أنبيائه الكرام، ولو صحت هذه الدعوة لكلفتهم أن يعيشوا ربانيين بررة يفعلون الخير ويأمرون به، ولكنهم جعلوا مزاعمهم وسيلة إلى الرفعة بأنفسهم والاستهانة بغيرهم، واقتناص المال من كل سبيل، وبناء كيانهم على أنقاض سائر الناس، وبدا ذلك جليًا مع بعثة خاتم الرسل ﷺ، فإن القوم ناصبوه العداء، وساندوا الوثنية ضده، وتألموا لهزائم المشركين، ورثوا قتلاهم وصادقوا المنافقين المختبئين داخل المدينة، وشدوا أزرهم..

ومع أن النبى الكريم ﷺ عقد معهم معاهدة حسن جوار إلا أنهم ما وجدوا فرصة لنقضها إلا فعلوا، وكان من أفحش مظاهر الغدر أن النبى ﷺ ذهب إلى دورهم آمنًا مسترسلاً؛ ليطلب إليهم تنفيذ بعض ما تنص عليه هذه المعاهدة، فإذا هم يستدرجونه ليحاولوا قتله، وأحس النبى ﷺ اليقظ بمكرهم السيئ؛ فانسحب على عجل، وقرر إعلان الحرب عليهم ومحاصرتهم حتى الجلاء، إنهم ما أحسنوا الجوار، ولا احترموا الذمة، فلا حق لهم فى بقاء، وليذهبوا من حيث جاءوا. وفى سورة الحشر ـ وتسمى سورة بنى النضير ـ شرح للأخلاق التى استجمعها اليهود فحق عليهم الطرد، والشمائل التى تحلى بها المسلمون فاستحقوا بها النصر، والقرآن الكريم يؤرخ للأحوال النفسية التى تبت فى مصاير الأمم ويجب أن تتناقلها العصور لترعوى وتستقيم.

بدأ السورة بتسبيح الله، والتسبيح حق الله فى كل وقت وكل وضع، فهو المنزه عن كل نقص والمبرأ من كل عيب، لكن للتسبيح هنا ملابسة خاصة، فإن الناس

إذا أحاطت بهم الكوارث ولم يبد لليلها صبح اضطربت أفئدتهم وبدأت الظنون المزعجة تساورهم، وتدبر قوله تعالى فى غزوة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾.

وقد علا شأن اليهود فى الجزيرة، فما علا بهم إيمان ولا خلق، وإنما انتشر الربا والخنا، وشاعت عبادة الهوى والتصق الناس بأطماع الأرض، إن الجاهلية الأولى زادت ولم تنقص مع الوجود اليهودى، كأن أهل الكتاب رأوا فى ظلام الوثنية فرصة للصيد والكيد، ولما ظهر الإسلام حسب اليهود أنهم قادرون على إطفاء نوره واستمدوا من حصونهم جرأة على إيذاء أهله وهم آمنون، وخيل للناس أن هذا بلاء ليس منه شفاء، وأن الأقدار لن تتدخل لحسمه، حتى ضرب الإسلام ضربته فإذا القلاع الحصينة تدك، وإذا المتشبثون بها يستسلمون، وإذا الباطل العاتى يترنح، ونزل الوحى يبدد كل تهمة، ويؤكد سنن الله فى إحقاق الحق وإبطال الباطل:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ ﴾.

والضربة التى نزلت باليهود تناولتهم مع حلفائهم من منافقى المدينة واليهود فهم لا يحاربون وحدهم، وإنما يعتمدون على ظهير يشد أزرهم، فهل أجداهم ذلك شيئًا؟ إن المسلمين الذين ظُنَّ بهم الضعف أملوا كلمتهم بقوة، وأكدوا أن أحدًا لن يستطيع حماية المجرمين، ماذا يصنع المنافقون لهم؟ :

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

إن القدر قد يطاول العصاة، بيد أنه لا يمهلهم.

ويلفت نظرنا هذا التعبير الدقيق: ﴿ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ ماذا يعنى؟ ونرى أنه إيماء إلى حشر آخر، سوف يتعرض له القوم فى تاريخهم المديد المتقلب، حشر يخرجهم

مرة أخرى من قرى بنوها وحصون شادوها، وهنا ينتقل بنا الحديث إلى لب المعركة، إن إخراج اليهود من مستعمراتهم فى صدر الإسلام لم يتم إثر نزاع طويل أو قصير بين القومية العربية والقومية اليهودية.

إن العراك كان بين أمتين: إحداهما أسلمت لله وجهها وأخلصت دينها، والأخرى عتت عن أمر ربها ورسله، فكان حسابها شديدًا وعذابها نكرًا.

المعركة كانت بين أخلاق وأخلاق، وأجدر الفريقين بالبقاء من كانت صلته بالله أشرف ونفعه للناس أقرب.

فلسـطين.. الدولـة المغتصبة

الحديث عن (فلسطين والقدس) حديث ذو شجون؛ لأننا سنعود القهقرى إلى تاريخ طويل مضى وغارت جذوره فى الأرض، لكن ما هناك بد من البحث فى هذا التاريخ خصوصًا أن اليهود جاءوا إلى الأرض المقدسة فى هذا القرن وهم يستصحبون ذكريات مضت، وينبشون التاريخ عن رفات توارى طويلاً فى الثرى، وما هناك بد من أن نذكر هذا التاريخ؛ لأننا نحن العرب كثيرو النسيان، ويجب لكى نحسن العمل فى حاضرنا، ولكى نحسن العمل لمستقبلنا أن نعرف ماضينا جيدًا، وماضى الأمة العربية الغائر فى التاريخ جدير بالدراسات والاعتبار؛ لأن هذه الأمة كشفت تجارب الماضى والحاضر - على سواء - عن أنها ما تحيا إلا بدين؛ إذا كان السمك يحتاج إلى الماء ليحيا، وإذا كان البشر يحتاجون إلى الهواء ليحيوا، فإن الجنس العربى يوم يفقد دينه يفقد أسباب حياته، ويستحيل أن يبقى له على ظهر الأرض وسم ولا رسم، لابد أن نعرف طبيعة جنسنا، وعندما نذكر هذه الطبيعة فيجب أن ننبش فى التاريخ الماضى، إن اليهود جاءوا ليقولوا: نحن أصحاب فلسطين، لقد كانوا أصحاب فلسطين يومًا، ولكن قبل أن يكونوا أصحابها كانت هذه الأرض ملكًا للعرب، وكان العرب ينتشرون فى جنوب الجزيرة ووسطها وشمالها، وفوق الشمال، ولكنهم كما قلت اختبروا اختبارًا مرًّا؛ كى يكون لهم دين يحيون به، فلما تمردوا على هذا الدين عصف بهم، وحصدت خضراؤهم، وحل بهم من عقوبات السماء ما سود وجوههم وأنزلهم حضيضًا لا يخرجون فوقه أبدًا. ما يسمى بـ (أورشليم) هو فى الحقيقة (أورسليم)، اللغة العبرية تنطق السين شينًا، يقولون: (موشى) وهو (موسى)، (أورسليم) بلد سليم أو محلة سليم، كان هناك مكان للعرب، كان للعرب وجود فى فلسطين، كيف كانوا هم الجبابرة الذين يسكنون هذه الأرض؟ هؤلاء الجبابرة امتداد لإخوانهم فى جنوبى جزيرة العرب، فى جنوب الجزيرة كانت توجد ديار الأحقاف، وفيها: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾، وفيها سبأ وجنَّاتها النضرة التى أغرقت لما كفرت.. وندع الجنوب إلى الشمال فنجد «ثمود» ومدائن صالح،

والخراب الذى حل بهذه القبائل لما كفرت بنبى الله صالح عليه السلام بعد أن كفر إخوانهم فى الجنوب بنبى الله هود عليه السلام، ثم نصعد فنجد مدين التى كفرت بشعيب عليه السلام، ونصعد فنجد قرى المؤتفكة ـ فى الأردن الآن ـ التى كفرت بنبى الله لوط عليه السلام، ونصعد فنجد فلسطين والجبابرة الذين سكنوها من الكنعانيين العرب، ونصعد فنجد الفينيقيين ـ وهم جيل سامٍ ـ امتداد الجنس العربى.

هؤلاء العرب الأقدمون دمر الله عليهم، وبعد أن ذكر الأنبياء العرب الذين حاولوا أن يرتفعوا بمستوى الجزيرة وأن يصلوها بالسماء، وأن يجعلوا حضارتهم تشرب الروحانية بدل القسوة، والتواضع بدل الكبر، والعدالة بدل المظالم والإنصاف الاقتصادى بدل الغش والاحتكار ـ لما أبى العرب هذا دمر كل ما بنوا، قال جل شأنه فى سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

كان العرب الكنعانيون فى فلسطين وكانوا جبابرة، وكما قلت: الجنس العربى جنس فى غرائزه قوة، وفى طباعه صلابة، وفى مواهبه امتداد، إذ سخر للخير ارتفع بمواكب الحق إلى الأوج، وإذ سخر للشر ركبته شهواته، ومضى به إبليس يمنة ويسرة فأسف وفعل المناكر، هذا هو الجنس العربى، وكما قال ابن خلدون ـ وهو من أدق الرجال وصفًا للجنس العربى: إنهم جنس لا يصلح إلا بنبوة، ولا يقوم إلا بدين، ولا ترقى مواهبه إلا بشرع السماء، فإذا ترك العرب النبوة والدين وشرائع السماء تحولوا إلى قطعان تعبد الشهوة، وتطلب المال لتبعثره ذات اليمين وذات الشمال تنفيسًا عن شهواتها..

العرب من غير دين شعوب يأكل بعضها بعضًا ومن أجل ناقة ظلت حرب البسوس أربعين سنة، ومن أجل خيل مضت فى السباق ـ داحس والغبراء ـ انطلقت الحروب عشرات السنين..

إنه جنس يدمر يومه وغده ما لم يربطه دين، وما لم تعصمه آيات الوحى، وما لم تلجم غرائزه بهدايات السماء.

هؤلاء هم العرب.. أين عاد؟ أين ثمود؟ أين مدين؟ أين قرى المؤتفكة؟ أين غيرهم؟ دمر عليهم.

ثم جاءت النبوة الخاتمة؛ لكى تجعل من العرب جنسًا آخر بعد أن شرفهم الله بالإسلام.

صدقــك وهــو كـــذوب

يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾. جاء هذا النداء بتقوى الله والتأهب للقائه فى الغد المحتوم، ثم جاء بعد ذلك نهى عن الغفلة الشائنة التى أذهلت اليهود عن الحق، فهم المعنيون بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. ويبدو أن كاتب أسفار موسى الخمسة فى أول العهد القديم - وهى التوراة عند القوم - شغله التأريخ لجنسه عما عداه، فلم يورد لفظ «جنة» إلا عند الحديث عن مهد آدم، وكيف أخرج منها، وهذا الحديث المبتور جعل اليهود يتصورون جنتهم ونارهم على ظهر هذه الأرض، وجعلهم أحرص الناس على حياة: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ ﴾. على أن اليهود جاءهم بعد ذلك أنبياء ذكروهم بالدار الآخرة، وخوفوهم من عذاب النار، غير أنك عندما تطالع العهد القديم على طوله لا ترى قضية البعث والجزاء لافتة للأنظار، وما تستغرق إذا ذكرت إلا سطورًا قلائل، وما تورث قارئها رغبة أو رهبة. ولعل ذلك ما جعل بنى إسرائيل مشدودين إلى هذه الدنيا وحدها، فإذا خوفهم ناصح بعذاب الله قالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ ﴾. أما المسلمون فهم مؤمنون باليوم والغد، بيوم التكليف ويوم الحساب، ولذلك قال الله موضحًا حال الفريقين: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾. والتصور اليهودى للدين أفسد الفكر والخلق والسلوك، فماركس بموارثه التاريخية فى عقله الظاهر والباطن أبعد الناس عن الله وأنكر وجوده ولقاءه، وفرويد جعل السلوك الفردى والجماعى مقيدًا بالشهوة الجنسية، وفلسفته من وراء السعار الحيوانى الذى يملأ القارات.

ولما كان العهد القديم ركيزة للعهد الجديد وكان النصارى ملزمين به على

الإجمال، فإن تجسد الإله أمسى شيئًا مألوفًا، وإسفاف الأنبياء أمسى خُلقًا شائعًا، ومن ثم مضت الحضارة الحديثة دون حادٍ أمين، تستهين بالملونين وتسرق حقوقهم وتزرى بمكانتهم، ومن أجل ذلك وعظ الله المسلمين أن يبتعدوا عن سيرة من سبقهم من أهل الكتاب، وأن يقيموا حضارة ربانية تنزه الله وترتبط به وتأتمر بأمره وتنتهى بنهيه، القرآن رسالة عالمية وليس هناك شعب مختار، ومحمد ﷺ عبدالله ورسوله، ومبلغو الوحى الإلهى معلمون وحسب، رب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وميدان السباق ممهد للبشر كلهم يتقدم فيه الأتقى لا الأوجه أو الآصل، والولاء كله والهتاف كله لله وحده: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾. هذه معالم الحضارة الربانية التى رسمها الوحى الأعلى بعد انتصار المسلمين على عدوهم وطردهم من ديارهم فى أول حشر لبنى إسرائيل. قد تقول: ومتى يقع الحشر الآخر؟ وأكتفى فى الإجابة على هذا السؤال بذكر القصة التالية ـ سمعتها عندما كنت فى الأرض المحتلة من فلسطين الجريحة:

قال الراوى: طلب موشى ديان من أحد أعيان العرب أن يتناول الغداء معه فى بيته، فذهب العربى إلى أسرته يخبرها الخبر، ويستعد الغداء المفروض عليه، وكان للرجل ابن متحمس عميق الإيمان، خاصم أباه، وأعلن سخطه على مجىء ديان إلى بيتهم، ولكن الأب أعلن ألا مفر، ولابد من قبول الأمر الواقع، وقال لابنه: اترك البيت حتى يتم الغداء، وخرج الولد مقهورًا ولكنه مكث قليلاً بعيدًا عن بيته، ثم عاد ليقول لموشى ديان: جنرال، لا يغرنك النصر الذى أحرزته، إنه نصر موقوت، وقد عرفنا نبينا أننا سنقاتلكم وننتصر عليكم، حتى يقول الحجر: يا مسلم ورائى يهودى تعال فاقتله. فضحك ديان وقال للشاب المتحمس: يستحيل أن يقع هذا مادمنا نحن نحن، وأنتم أنتم!

أقول ـ والعهدة على الراوى: إن موشى ديان ينطبق عليه القول المأثور:

صدقك وهو كذوب.. إننا لم نستكمل بعد أسباب النصر، فإن طائفة من أخلاق الهزيمة التى خذلت اليهود قديمًا تسللت إلى صفوفنا واستنزفت قوانا، ولو صدقنا الله لصدقنا الله، إننا ابتعدنا عن أصالتنا السماوية وأخلدنا إلى الأرض، فكان ما كان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ صدق الله العظيم.

أخلاق النصر وأخلاق الهزيمة

الذين يتخذون الدين نسبًا يفخرون به وحسب، ثم يمضون فى الحياة وفق مآربهم وغرائزهم الدنيا، ناسين أو متناسين حق الله عليهم، هؤلاء لن يدركوا نصرًا، لذلك قال الله فى طرد يهود بنى النضير من مستعمراتهم:

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

واطرد السياق القرآنى يشرح هذه المشاقة التى أغضبت الله سبحانه، إن المؤمنين حقًا يوجلون من الله ويسارعون فى مرضاته، ويخشونه ولا يخشون أحدًا غيره، ولا يخافون فى الله لومة لائم. فهل كان اليهود كذلك؟ كلا، لقد جاء فى وصفهم: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾. إنهم يخافون كل شىء إلا الله! وجاء فى وصفهم أنهم حراص على الحياة تفرقهم مطالبها وتتوزعهم مطامعها، قال تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾.

هذه أخلاق الهزيمة، أما أخلاق المسلمين يومئذ فقد عرفوا بأنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار، يطلبون الآخرة كما يطلب غيرهم الدنيا، يقاتلون فى سبيل الله كأنهم صف مرصوص.

ترى عند تبادل المواقف، وتبادل الأخلاق والمسالك أتتغير النتائج؟ كلا.. كلا، إن الذين يستجمعون أخلاق النصر سوف ينتصرون، والذين يستجمعون أخلاق الهزيمة سوف ينهزمون، ومن ظن أن الله يحابى أمة ما، فيرفعها وهى تسف؛ فسوف يدفع ضريبة هذا الخطأ من دمه ومكانته، ووحى الله وتاريخ الناس شهود على ذلك.

قديمًا وحديثًا ظهرت نزعات عنصرية تجحد الدين فى سريرتها وتستخدمه فى علانيتها، وما ينطلى ذلك على الله. ظهرت الفاشية تريد جعل البحر المتوسط بحيرة رومانية وإعادة مجد روما القديم، وسيرت كتائبها تذبح مسلمى ليبيا وتتأهب لاقتحام وادى النيل، وظهرت النازية بصليبها المعقوف تنادى بسيطرة الجنس الآرى وتحتقر السامية، وشهرت الصهيونية تحت علم التوراة تبغى حكم العالم بعد بناء هيكل الرب على أنقاض المسجد الأقصى.

إن العروبة التى تعد محمدًا ﷺ بطلاً قوميًا وتستبعده رسولاً عالميًا، وتقدم العلمانية على شريعته المنزلة، هذه العروبة لا تعدو أن تكون نزعة عنصرية كالنازية والفاشية والصهيونية، ولو وصفنا محمدًا بكل أمجاد الأرض وجحدنا رسالته التى اختاره الله لها، فما نقص كفرنا ذرة، وما نؤمن بمحمد ﷺ إلا يوم تكون تعاليمه أساس الفرد والمجتمع والدولة، والذين طاردوا بنى إسرائيل قديمًا وانتصروا عليهم انتصارًا مبينًا كانوا ـ كما وصفت سورة الحشر ـ صنفين من الناس: مهاجرين زهدوا فى المقام بأرضهم إعلاء لعقيدتهم، وأنصارًا فتحوا قلوبهم وبيوتهم لإخوان العقيدة، وقد اشترك هؤلاء وأولئك فى بناء دولة تستمد وجودها من الوحى الأعلى وترفض ضروب العصبيات التى تشد أصحابها بعيدًا عن هدايات الله، ووجهه الأعلى، قال تبارك اسمه: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾. وقال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾. وكل من اعتنق الإسلام بعد هؤلاء إلى قيام الساعة فهو فى آثارهم يسير، وبأخلاقهم يقتدى، وصوته ينضم إلى أصواتهم فى استهداء الله واستغفاره وجعل الحياة له والموت فى سبيله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾.

أين مكان الاعتزاز بالجنس والإهمال للوحى بين هؤلاء الأسلاف الكرام؟

عندما يترك الناس ربهم، ويأبون إرشاده؛ فسيكلهم فى الدنيا إلى خصائصهم المادية والأدبية، وسيتهارشون تهارش الوحوش فى الغاب، قد يقتل النمر الذئب أو يقتله الذئب، وقد يقتل الثعلب الكلب أو يقتله الكلب، ثم.. إلى الله المصير.. وفى هذه السورة نداء فريد، لا نداء غيره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾.

الأمر بالتقوى والإعداد ليوم الحساب شائع فى القرآن الكريم، فَلِمَ نقف عنده هنا؟ الواقع أن هذا الأمر تذكير بما أعرض عنه اليهود وتناسوه عامدين، فالمطالع لأسفار موسى الخمسة فى أول العهد القديم ـ وهى التوراة عند القوم ـ لا يجد فيها أى حديث عن الآخرة، لا يجد فيها ترغيبًا فى جنة ولا ترهيبًا من نار.

وعجيب أن يخلو كتاب دين عن ذكر الروح وخلودها والدنيا وفنائها والحياة الآخرة، وضرورة التعلق بها..

أى دين يكون هذا الدين؟ما أشبهه بفلسفة ماركس وسارتر وغيرهما من عبيد الأرض وجاحدى الألوهية!

وثنية جديدة

الإنسان السليم لا تغتاله الأعراض الطارئة مهما اشتدت وطأتها، قد يسقط فى الطريق فينكسر عظمه، ثم لا يلبث أن ينجبر، وقد يصاب بجرح نافذ، ثم لا يلبث أن يندمل.

ذلك أن قوة المقاومة فى بدنه، ووفرة الحياة المذخورة عنده تجعلانه يتحمل الطعنات والصدمات، فإن استكان لها حينًا لم تمر عليه أيام حتى ينتفض من وعكتها، ويستفيق من شدتها، ثم يستأنف سيره فى الحياة كأن لم يمسسه سوء.

وهناك جسم كمن فيه الداء، واستشرت فيه العلة، يمشى على ظهر الأرض وهو يكاد يتهالك وحده، إنه يوشك أن يخر صريعًا قبل أن تنوشه ضربة، أو تلقاه صدمة، فكيف إذا اعترضه خصم لدود يبغى له الأذى؟

إن الأمم كالأفراد فى هذه الأحوال، وقدرتها على تحمل الهزائم المرة والآلام المبرحة ترجع قبل كل شىء إلى ما يستكن فى أعصابها من طاقة، وما يتدافع فى كيانها من حياة.

عندما انهزم المسلمون فى معركة أحد لم تكن هزيمتهم ختام رسالة ومصرع إيمان، بل اعتبرت الهزيمة جرحًا عارضًا يجب أن يتحمله الأقوياء فى غيرما ضجة. ونزل قول الله:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

وما لنا نطلع المسلمين اليوم على تاريخهم القديم؟ فلينظروا إلى ألمانيا فى الغرب، واليابان فى الشرق، كلتا الدولتين تلقت فى الحرب الأخيرة ضربة هائلة، وتحملت فى الأنفس والأموال خسائر طاحنة.

ومع ذلك لم تمض أعوام قلائل حتى بدأ العمالقة يخرجون من خلال الأنقاض، وعلى شفاهم ابتسامة الرجولة والمصابرة، وعادوا يديرون مصانعهم ومدارسهم ويمدون حضارة العالم، بإنتاج كثيف، جعل الأعداء قبل الأصدقاء يخطبون ودهم ويقدرون صلحهم.

لكن أمتنا الإسلامية أصيبت منذ قرن بسلسلة من الانكسارات العسكرية دوختها، وهدت قواها، ولاتزال حتى الآن تضطرب فى عقابيلها، وتترنح مكانها.

ذلك أن الداهية لم تأتها من انهزام حربى طارئ، بل من داء متغلغل سرت جراثيمه فى دمها سرياناً خبيثاً، فلو لم تسقط أمام خصومها الذين يناوشونها لسقطت وحدها مغشيًا عليها، كما يسقط المنهوك أو المحموم.

كانت الوثنيات السياسية والاجتماعية والعقدية تنخر فى عظامها، وتنشر ضباب الخرافة فى آفاقها وتعزلها عن قافلة العالم المائج بالاكتشافات الباهرة وتستهلك آخر ما تبقى لديها من مواريث الحضارة التى آلت إليها عن الأسلاف الصالحين.

كانت الخلافة الإسلامية فى ملكها العريض تسمى حكومة الرجل المريض، وكانت أوربا تعد الساعات القلائل الباقية فى أجل المحتضر الهالك، لتقتسم تركته، وتتوزع بينها ثروته.

لم تكن مصائبنا إذن من اندحار عسكرى مفاجئ، بل من مرض متغلغل قديم، ومن هنا هب المصلحون فى بقاع شتى من الوطن الإسلامى الكبير يعالجون العلة الدفينة ويستنقذون عقيدة التوحيد من ضروب الوثنيات التى أوشكت على إتلافها - سياسية كانت أو مادية - ويحاولون بناء الحضارة الإسلامية على أصولها الأولى، من حرية العقل والضمير.

وقد كان محمد بن عبدالوهاب، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وحسن البنا كان هؤلاء الأئمة الأبطال يحترقون دأبًا فى تعريف الجماهير الغافلة بالله وحده ويمسحون عن قلوبها الذليلة أرجاس العبودية للأوهام والأسماء، بيد أن الوثنية السياسية لاحقتهم بأذاها فقتل محمد على باشا دعوة ابن عبدالوهاب وقدم رجالها قرابين لسيده فى الأستانة، وقتل فاروق - حفيد محمد على - دعوة حسن البنا، واغتال الرجل الكبير بعدما أرسل وزراءه إليه يستدرجونه إلى مصرعه.

وأمل الوثنية السياسية من وراء هذه المذابح أن تبقى على تألهها وسط قطعان من الخدم والسدنة والعبيد، لولا أن الله لم يخيب جهود المصلحين من عباده، فإن الزعماء القتلى لم يتركوا الحياة حتى خلفوا من ورائهم من يحمل اللواء، ومن يعاهد الله على تحطيم الأصنام ما بقى حيًا.

العرب ينتحرون بترك الإسلام

ماذا تنتظر عندما يخرج الإسلام من الميدان، ويبقى فيه المنادون بالتوراة، وحدود التوراة، وآمال التوراة، فإن اليهود لا يقاتلون عربًا ولا مسلمين، فقد اختفى هؤلاء وأولئك باختفاء الإسلام، وبقيت شخوص لها أسماء عربية ولا عروبة، وأسماء إسلامية ولا إسلام. ومن ثم فإن حربى سنة ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، كانت إعلانًا عن انتحار جماعى لمن ينتمون زورًا إلى العروبة والإسلام، وكانتا فرصة من ذهب لتوكيد خرافة الجيش الذى لا يُقهر، والحق أن القادة الذين أخرجوا الإسلام من المعركة أسدوا يدًا طولى لليهود، وأكسبوهم نصرًا تجاوز الأحلام، وظاهر أن اليهود أحرزوا غنائم باردة، وانتصروا من غير قتال، ومشوا فى أرض خلت جنباتها من الحراس، وأدركت جماهير المسلمين حقيقة ما حدث، فلم يكن الإسلام الغائب بداهة مسئولاً عن هذا الخزى العظيم، المسئول عنه نفر معروفون من الناس، وأنظمة أكرهت الشعوب على الخضوع لها بالحديد والنار.

ولعل أغرب ما يروى فى هذه الهزائم أن المسئولين عنها قالوا فى تغاضب: ماذا حدث؟ إن خسارة الأرض والناس والسمعة والمكانة لا تعنى شيئًا، لقد كان المطلوب الذهاب بنا نحن وبأنظمتنا التقدمية، وذلك ما لم يتم، لقد بقينا وهذا وحده نصر.

الحق أن تاريخ الصفاقة لم يشهد مثل هذه الوجوه، ولن يشهد أبدًا، وقال كل من له لُبّ: إن اليهود يدفعون مليار دولار لكى تبقى هذه التقدمية تحكم العرب، وتعين عليهم، وتبعث على الضحك منهم، وغاص المسلمون داخل أنفسهم يتميزون غيظًا، ويبكون أسفًا، وعلموا أنه لا عاصم لهم من الهلاك إلا الإسلام، فجهروا بالحنين إليه وخاصموا التنكر له والخروج عليه، وقد كنت واحدًا من عشرات الدعاة الذين انطلقوا فى ضفاف قناة السويس وأطراف الصحراء الشرقية يتحدثون عن الإسلام بحرقة، ويحدثون الجنود بصراحة.

كانت الآلام النفسية والبدنية تعصر الرجال الذين اتهموا بما هم منه براء، وحملوا أوزارًا اقترفها غيرهم، وكانت وجوههم ترمق السماء بأمل، وتنتظر لقاء لابد منه مع اليهود الذين أسكرهم نصر صنعه لهم الخونة. وجاء العاشر من

رمضان ١٣٩٣هـ وكلف الرجال بعبور القناة، وتدمير خط (بارليف) الذى صنعته العبقرية العسكرية (الصهيونية ـ الصليبية). لقد صدر الأمر فى ظروف صالحة كل الصلاحية، فإن الإنسان المسلم ثابت إليه خصائصه الرفيعة من عمق فى الإيمان، وصدق فى التوكل، ورضًا بالقدر، وترحيب بلقاء الله، كان الرجال الصائمون يستعدون ليكون إفطارهم فى الجنة، وغلبت صيحات التكبير دوى المدافع، وتملك المقاتلين شعور بأنهم أبناء الصحابة الذين أدبوا الجبابرة وقمعوا الباطل، فإذا الجبهة الطويلة تسير عليها روح وصلت خواتيم القرن الرابع عشر بأوائل القرن الهجرى، وما هى إلا أيام حتى كانت الحصون المستبدة تنهار تحت عزمات الرجال، وتصبح أثرًا بعد عين، وما هى إلا أيام أخرى حتى كانت العساكر المشاة تمزق فرق المدرعات اليهودية الرابضة خلف الحصون، وتبعثرها شذر مذر، وجاءنى خبر استشهاد الأخ المهندس أحمد حمدى وهو يشرف على إقامة الجسور فوق القناة لتستطيع الأسلحة الثقيلة العبور، إننى عرفت أحمد حمدى فى مسجد الجمعية الشرعية بالمعادى، وكنا نصلى الجمعة معًا، وما كنت أدرى أنه سيكون طليعة الشهداء الذين تنفتح لهم أبواب الجنان فى هذه الأيام.

إن المقاتلين المسلمين فى هذه المعركة مضوا على طبيعتهم التاريخية، ونسوا كل شىء إلا أنهم مجاهدون فى سبيل الله، نعم نسوا أنهم استحلفوا يمينًا على أن يكون قتالهم من أجل حماية المكاسب الاشتراكية، كما شاء ذلك من كلف بإبعاد الإسلام عن المعركة، لا، إنهم يقاتلون اليوم ابتغاء وجه الله، وانتظار رضوانه الأعلى، وإحقاقًا للحق وإبطالاً للباطل، ودفاعًا عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وقد شرعوا بعد نجاحهم فى العبور ينطلقون شرقًا لا تثنيهم عقبة، فإن الجيش اليهودى الذى زعموه لا يقهر بدا على حقيقته العارية وجدوه جبانًا، طالب حياة، مستكينًا بعدما فقد الجدار الذى يحارب وراءه.

لكن القيادة (العربية) كانت من الناحية الروحية دون الإيمان المنشود بمراحل كبيرة، ومن الناحية الفنية دون العمل بمشورة أهل الخبرة، والانصياع لآرائهم، فتوقفت جامدة فى مكانها لا تصنع شيئًا، فماذا حدث؟ إن اليهود كانوا قد تلاشوا، فليس لهم أثر، ولكن (الحبل من الناس) الذى حزمهم من قبل تحرك على عجل كى يستبقى الخرافة التى صنعها، خرافة الجيش الذى لا يقهر، وقامت جسور جوية تحمل الدبابات العملاقة والقاذفات الثقيلة، وتنقل أحدث ما أنتجته

المصانع العالمية من ذخائر وأسلحة، وخرج اليهود من جحورهم فى حماية الأقمار الصناعية، وصاحت الفئران الهاربة تقول: نحن أسود.

قلت لصديقى وأنا أنظر بعيدًا: لو بقى وحى العقيدة، وظهر إخلاص القادة، ما تغيرت نتيجة المعركة، فإن هذه النجدات المجلوبة انهزمت فى فيتنام، والرجال المسلمون أجرأ وأشجع من ثوار فيتنام، إن العقيدة الإسلامية التى يملكونها أقوى من القنبلة النووية.

يا صديقى، إن إخراج الإسلام من المعركة بين العرب واليهود هو طريق العار والنار.

الجيش الذى لا يقهر أكذوبة لها تاريخ

هناك جهود كبيرة تبذل سرًا وعلنًا ليستقر فى الأذهان أن الجندى الإسرائيلى مقاتل ذو بأس، وأن الجيش الإسرائيلى - كما يزعم الخرافيون - قوة لا تقهر، وقد فحصت الشائعات التى تطلقها مؤسسات شتى، ورجعت البصر فيما تكتبه وتذيعه دور شرقية وغربية، واستمعت إلى تصريحات بعض الساسة وتعليقات بعض المراقبين، فوجدت هؤلاء وأولئك يتواصون بالكذب، ويريدون إقناع العرب والمسلمين أنهم يقاتلون فى معركة ميئوس منها، لماذا؟ لأن الإسرائيليين فى التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه كانوا رجالاً أولى فداء وبلاء، وأن انتصاراتهم فى المعارك التى خاضوها فى الشرق والغرب طبقت الآفاق، مطلوب من العرب والمسلمين أن يصدقوا هذه الفرية، وأن يقبلوا شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، مطلوب منهم أن يقبلوا الدولة الإسرائيلية على ترابهم، وأن يؤمنوا بأن الشعب الذى غاضب الله فغضب عليه الله، وكتب عليه الذلة والمسكنة هو شعب شجاع لا يقهر، صلب لا يلين.

ومن سبعة قرون ونيف انطلقت هذه الشائعة بين أيدى التتار الذين أغاروا على العالم الإسلامى، وأسقطوا الخلافة العباسية، ودمروا المدائن والقرى، ووقر فى نفوس الناس أن الجيش التتارى لا يهزم، وأن جحافله إذا انطلقت لا ترد، وللشائعات سلطان على الدهماء، وقد يكون لها فى ضعاف القلوب موقع، وقد ظهر ذلك عندما التقى التتار والمسلمون فى (عين جالوت).

كانت الرهبة من الجيش (الذى لا يقهر) تخامر النفوس، وهذه الرهبة وحدها سلاح قاتل كاد ينال من الجيش الإسلامى لولا الصيحة الهائلة التى قصفت كالرعد فوق رءوس الناس، صيحة القائد المظفر قطز يقول: «وإسلاماه..» فإذا اليقين يعمر الأفئدة، والحماس يلهب الأنفاس، وانطلق من بين المسلمين إعصار يطلب الآخرة ويدمر ما أمامه، فما هى إلا جولة تتبعها أخرى حتى كان التتار بين مقتول وهارب، وسقطت فى الوحل قصة الجيش الذى لا يقهر، وأخذ الوجود التتارى يتقلص مع الأيام حتى اختفى إلى الأبد.

إن التاريخ يعيد نفسه اليوم، والمحاولات ماضية فى إلحاح لإشعارنا أن الإسرائيليين اليوم هم تتار الأمس الذين سفكوا وأهلكوا ولم يوقفهم أحد.

والواقع أنهم أقل وأذل من أن ينهضوا بهذا الدور، وأن مؤامرات القوى الكبرى هى التى تريد توكيد هذه الخرافة، وهى تتدخل سافرة لترجيح كفتهم إذا انهاروا حتى يظلوا شبحًا مرعبًا فى المنطقة التى نكبت بهم، إنهم شبح يهول فى ظلمات الخداع، وغيوم الفوضى التى تزحم الأجواء.

أما العنصر الفذ الفعال فى نصرة المسلمين فهو موقفهم من دينهم لا موقف غيرهم منهم، وهو عنصر لا تنال منه شائعات موهومة ولا حقائق معلومة. فقد المسلمون هذا العنصر أواخر الخلافة العباسية التى استهلكها الترف، وأخملتها المآرب الدنيا، فكانت العقبى أن تمكّن منهم الأعداء، ومزقوهم شر ممزق.

كانت ريح الدعوة راكدة، وسوق التقوى كاسدة، وكانت الخلافة الداخلية توهى الكيان الكبير، وتنشر فى جنباته الفتوق، وكما تقوم شجيرات طفيلية إلى جوار الجذع الباسق فتعطل نموه، بل تسلبه الحياة، قامت ممالك كثيرة فرضت وصايتها على الخلافة العظمى، وجعلتها شاخصًا لا روح فيه، وأخذت تتصرف وحدها تصرفات آذت العالم الإسلامى كله.

وقد سجل ابن كثير فى موسوعته التاريخية (البداية والنهاية) كيف أن أحد الملوك المسلمين فى ذلك العهد الغابر استفز جنكيز خان، وظلم بعض رعاياه، فكان سببًا فى الدواهى العظام التى حلت بالإسلام وأمته.

وقد دخل التتار بقيادة قائدهم الطاغية بغداد عاصمة الخلافة وأهلكوا الحرث والنسل، وعاثوا فى الأرض فسادًا، وقد دخل التتار فى الإسلام بعد ذلك، وأحسب أنهم لو وجدوا من يعرض الإسلام عليهم قبل غارتهم الشعواء لدخلوا فيه وأخلصوا له، وأنى يجدون الدعاة الواعين الصادقين مع انشغال المسلمين بأنفسهم عن ربهم، وبدنياهم عن آخرتهم؟

وقد دفعنا الثمن قديمًا، ويبدو أننا ندفعه الآن مرة أخرى، ترى هل نتدبر قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

إن اعتصامنا بالله وحرصنا على رضاه هو اللواء الوحيد الذى نقاتل تحته



ليقودنا إلى النصر، والصراع بين العرب واليهـود خضـع قديمًا لهذه الآية: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾.

وقد حرم الله عليهم النصر تحريمًا قاطعًا فى كل حرب خاضوها مع سلفنا الأوائل، ثم شرح مستقبلهم آخر الزمان فبين أنهم لا يقومون وحدهم أبدًا، فإما اصطلحوا مع الله وتركوا ما هم فيه، وإما حملهم بعض الناس ليستخدموهم فى الإفساد والإضرار: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾.

فأما حبلهم مع الله فمقطوع، وبقى الحبل الآخر... ولا أريد الحديث عنه، فالحديث ذو شجون.

صناعة أكذوبة

لاحظ معى أن هناك أمرًا فى غاية الغرابة موجود على الساحة الدولية فاليهود يأخذون من الغرب الصليبى ونحن نعطى، واليهود يسبون عيسى وأمه ونحن نوقرهما، ومع ذلك فالغرب الصليبى هو الذى يقول: خُلقت إسرائيل لتبقى، وهو الذى يقول: يجب أن ترجح قوتها قوة العرب كلهم، مهما كثرت دولهم، وهو الذى يسارع إلى إنهاضها إذا كبت، ولم تغن عنها كل الضمانات، وهو الذى يؤكد الأكذوبة التى اختلقها هو: أن الجيش اليهودى لا يقهر.. لم كل هذا؟ لأن بغضاءه لمحمد عليه الصلاة والسلام لاتزال تستعر فى دواخله، لا تنطفئ جذوتها آخر الدهر. وقد وضعت الدول العظمى خطتها على أساس محو أمة وإثبات أمة أخرى، محو تاريخ ورسالة وإثبات تاريخ آخر ورسالة أخرى، والتوسل بكل شىء لإدراك هذه الغاية، ونريد أن ننظر إلى ما وقع ويقع لنتبين أن هذه الدول العظمى كانت ومازالت تصنع (دولة إسرائيل) وترسل الشائعات الكاذبة حول عظمتها وشجاعتها. ولو قدرت على جعلها مؤسسة لهيئة الأمم لفعلت، ولمنحتها حق (الاعتراض) المقرر للدول الخمس المؤسسة للهيئة الموقرة، كانت هناك خطة معقولة سهلة يقدر بها العرب على هزيمة اليهود، ومنع قيام دولة لهم، هى تشجيع المجاهدين الفلسطينيين، وإمدادهم بالسلاح، وإمدادهم بآلاف المتطوعين الراغبين فى الشهادة، وجعل فلسطين كلها جبهة أمامية، والعالم الإسلامى كله قاعدة خلفية للكر والفر، وهذه الخطة هى التى تبعها الجزائريون فسحقوا فرنسا، وهى أعتى وأدهى من اليهود.

وكان القادة الفلسطينيون الأصلاء لا يرجون إلا دعم إخوانهم لهم بالسلاح والرجال، وقد استطاعوا وحدهم أن يهزموا اليهود أو يوقفوا تقدمهم عشرات السنين، بيد أن الاستعمار العالمى كان يريد شيئًا آخر، كان يريد إلحاق هزيمة مزدوجة بالأمة الإسلامية لا بالعرب وحدهم، إحداهما عسكرية، والأخرى نفسية، فدفع بدول الجامعة إلى حرب رسمية أعد مكانها وزمانها بمهارة، وارتقب نتائجها بثقة، ولم لا؟ وأهم هذه الدول لاتزال محتلة بجيوشه، وتعتبر مدنيًا وعسكريًا فى مجاله الحيوى، وقادتها دمى بين أصابعه؟ وعندما تسجل الهزيمة

على الدول العربية ـ والحالة هذه ـ فسيكون ميلاد (إسرائيل) دوليًّا لا ريب فيه، ألم تنهزم أمامها حكومات العرب؟ فكيف ينكر وجودها؟ لكن هذه الخطة الماكرة اعترضها ما كاد يودى بها، فإن بقايا الإسلام فى دماء الجماهير، ورجولة البدو فى حماية الذمار، واستبسال الجماعات الإسلامية فى طلب الشهادة، كل أولئك شد سواعد المجاهدين وأعانهم على تشتيت شمل اليهود، وفتح ثغرات واسعة فى صفوفهم، وفوجئت أوربا بالعرب على بعد أميال من (تل أبيب) عاصمة الدولة المزعومة، وأن أيامًا قلائل ثم يتم الإجهاز عليها، وهنا تدخلت هيئة الأمم الموقرة لتفرض هدنة إجبارية على المقاتلين جميعًا، وخلال عشرة أيام من إعلان الهدنة كانت سيول من السلاح والرجال تجىء إلى العصابات اللاهثة، ثم صدرت أوامر لبعض الجيوش العربية بالانسحاب، ثم اصطنعت هزيمة للعرب كلهم أمام اليهود، ويومئذ ولدت خرافة أن الجيش اليهودى لا يقهر، وأوعز الاستعمار إلى سماسرته بتضخيم الأكذوبة ونشرها على نطاق واسع لكى تتم هزيمة العرب نفسيًّا، فلا يفكرون فى حرب أخرى، على أن الصهيونية والصليبية أحستا أن خطر الإسلام على مطامعهما لايزال كبيراً، وأن صيحة «الله أكبر» لو سمعها العاصى أفاق من سكرته، وانطلق إلى ميادين الفداء لا يلوى على شىء، فلابد إذن من إخراج الإسلام من المعركة الدائرة، واستبقاء اليهودية يتنادى بها الشعب المختار، وتسعفه فى إفناء العرب المرتدين، ونجح الاستعمار فى إنشاء أنظمة عربية تتنكر لكتاب الله وسنة رسوله، وترفع شعارات أخرى: إما صريحة فى رفض الإسلام، وإما خرساء لا تذكره فى مواطن، ولا تعتمد عليه فى تربية، ولا تستمد منه فى تشريع، ولا توثق به رباطًا، ولا تبعث به على تضحية، وبدل صيحة «الله أكبر» قبل خوض الغمرات سمعت صيحات غليظة تمثل الوحش عندما يلقى فى الغاب عدوه.

وقد استمعت أنا إلى هذا الحوار النابى وأثره المحقور، وتساءلت: أهذا هو البديل المختار لكلمة التوحيد؟ هذا والله هو المسخ والضياع.

والعرب عندما يطرحون الإسلام وراء ظهورهم يطرحون سعدهم ومجدهم ورفدهم، ويفقدون الطاقة الروحية والمادية التى يتماسكون بها أمام عدوهم.

ليس اضطهادًا بل سيطرة

على الرغم من كل الجرائم التى ترتكبها الصهيونية تحت سمع العالم وبصره، فإن فريقًا مخدوعًا من الناس لايزال يصدق تلك الأكذوبة التى أطلقوها وهى أن اليهود مضطهدون فى الأرض ومحاربون فى كل مكان، ولهذا وغيره فإن بعض الدول تحبوهم عطفًا خاصًا مما ستدرك خطره عما قريب.

والصهيونيون فى كل شعب الأرض هم مصدر نكبته، واختلاط أمره، لأنهم يعملون فيه على الكسب الحرام ويتجرون فى أقواته وأرزاقه، حتى إذا امتلأت خزائنهم بالذهب سول لهم حقدهم أن ينزلوه من مثله العليا إلى الدنس.

إننا لم نر على تعاقب القرون أن الصهاينة قد اعترفوا بالفضل لأحد، أو شكروا معروفًا أسدى إليهم، فالأمة التى تبسط عليهم جناح رحمتها وتلتقطهم من مفازات التشرد لا يطيلون أمد انتظارها لتجد فيهم معاول هدمها وعناصر فنائها.

والتاريخ يشهد أنهم النغمة النشاز فى لحن البشر المتجانس، ولهذا فإن الدول تضيق بهم كما يضيق المريض بدائه.

إن الصهيونية قد أعدت عدتها فى القرن التاسع عشر لتحقق الغاية الكبرى من نضالها الطويل، فقد حشدت قوتها وعبأت جهودها لتسيطر على التجارة والصناعة فى العالم حتى تهيمن عليه اقتصاديًا وتتحكم فى «رأس المال الدولى» ولم يعد خافيًا على أحد أنها أصابت فى ذلك حتى الآن نجاحًا ما كانت هى نفسها تحلم به، وما ظنك بطائفة لايزيد تعدادها فى العالم كله على (١٣) مليونًا تملك ما يقرب من نصف رأس المال العالمى؟

وهذه النتيجة الرهيبة لم تصل إليها الصهيونية مصادفة، أو نالتها ثمنًا للذكاء والسعى الشريف، وإنما سلكت إليها سبلاً كلها تبييت وسرقة واستغلال، ذلك أنه إذا اعتكر الجو العالمى وماج بالفتنة فيها شره المال تحتكر الأسواق لتختان الأرزاق والأقوات معتصرة فى هذا بكلتا يديها الغالب والمغلوب جميعًا.

إن الصهاينة فى أمريكا وفرنسا وإنجلترا ملوك غير متوجين، فإن نفوذهم



الاقتصادى جعل منهم حكامًا حقيقيين فى واشنطن ولندن وباريس، وبيوتهم المالية هناك تتضاءل إلى جانبها خزائن بعض تلك الدول، وهذه عوائل الصهيونية تملك مصارف كبرى فى: لندن وفيينا ونيويورك وباريس وبرلين.

إن الصهيونية بعد أن نجحت فى استعمارها الاقتصادى لدول الغرب بدأت تفرض نفسها هناك، وتدس أنفها فى شئون الحكم.

ولقد أصابت الصهيونية هذا النجاح لأنها اعتمدت على وسائل هى فى جل أمرها ترجع إلى ما برعوا فيه من إثارة الحروب، والفرقة بين الشعوب، وتسخير الحكام الضعفاء، وإشاعة التحلل الدينى والوطنى وكان سبيلهم إلى ذلك الجمعيات السرية ذات الطابع الإنسانى ظاهريًا.

تلك كانت سريرتهم فى الماضى والحاضر فهل نعى الدرس فى مستقبل الأيام؟

رجـــال الحـــق

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾.

فى هذه الآية دلالة على أن الله عز وجل اختص نفوسًا معينة بمعرفة الحق على وجه كامل مثمر، فهى لا تضاء به من داخل فحسب بل تبسط أشعته أمام الناس عامة ليسيروا على هداه ويطمئنوا إلى سناه.

وهم كذلك يحكمون بالحق، فإذا اختلطت الأمور، وخيفت المظالم، قضوا بين الناس بالعدل، فجاء قضاؤهم العادل نورًا يمحو الظلم والظلام، أولئك هم المصطفون الأخيار من عباد الله، وأولئك هم أمل الدعوات الكبرى والنهضات العظمى حين تبدأ مسيرها فى الأرض فتعترضها السدود والهضاب وتردها العوائق والصعاب.

كنت أعجب أول أمرى لماذا وصف الحق بالمرارة، وغصت به حلوق كثيرة؟ حتى سرت فى مركز الدعوة إلى الله، ورأيت أن قول الحق جهاد ثقيل الأعباء شاق التكاليف، جهاد قد يكلف المرء دق عنقه إذا اصطدم بفرعون جبار.

وربما كان أيسر البذل أن يتقهقر المرء فى مجتمع يتصدره المهرجون والكذبة، والذين يهدون بالحق فى هذه الأحوال يجب أن يكون لهم من اليقين ما يجعلهم يزدرون الجاه الذى حصل عليه المبطلون، وما يحقر أمام أعينهم البقاء فى الدنيا، إذا لم يقدروا على قول الحق والهداية به.

ما أجمل الحق وما أجل رجاله، بنفسى أولئك الأبطال الذين داسوا وساوس الضعف، وكبروا على فنون الإغراء، وتألقوا بين ركام العوام، وتنكروا للحاضر الذى يكرهونه، وتفانوا فى الغد الذى يتمثلونه، ومضوا قدمًا إلى غايتهم فإما نجحوا وإما فشلوا.

إن النجاح والفشل لا يحكم على النيات، ولا ينقص الأجور، «فحمزة» الصريع المهزوم فى «أحد» ليس دون «خالد» القائد المنتصر فى عشرات المعارك بل ربما كان خيرًا منه.

وكم فى عصرنا هذا من نهضات كبت أن تبلغ هدفها، وطوى تاريخها طيًا محزنًا، ذلك أن التاريخ يكتبه غالبًا المنتصرون وما أكثر ما يأفكون ويزورون.

لكننا ـ ونحن أصحاب المبادئ ورجال المثل ـ نريد أن نهتك هذا الزور، وأن نحيى أصحاب الحق سواء قتلوا فى الطريق أم وصلوا إلى القمة.

أجل إننا نريد رجالاً يعشقون الحق، ويعيشون به وله، صرحاء ولو غضب لصراحتهم ألف ملك ووزير، حنفاء ولو أطبق الجهال على تمجيد الأوثان وحرق البخور بين يديها، أعزة بأنفسهم لا يبالون أن تصدر الأوامر «العليا» بإقصائهم من المحافل الرسمية ولا المناصب الضخمة، غاضبين لله عنادًا وإصرارًا وحاقدين على الباطل مع ترفع واحتقار.

نريد رجال الحق فى عالم عز فيه نصراء الحق، فى بلاد سخر فيها الدين كما سخرت الدنيا لحراسة الجور وتمجيد الفسقة لأن السلطان فى أيديهم وتحت أقدامهم.

نريد رجالاً لا يدوسون المثل العليا باسم المرونة السياسية ولا يأمنون أولاً على أنفسهم وأموالهم وأنصارهم ثم يعلنون بعد ذلك الجهاد لنصرة الإسلام، كأن نصرة الإسلام سمن وعسل.

إن ترك الباطل يمر دون نكير ـ أمر خطير جد خطير، وليس المهم أن تكسر شوكته بحولك فقد تكون ضعيف الحول، ولكن المهم إذا رأيت المبطلين سادرين فى جرائمهم متجاهرين بمناكرهم أن تقول ـ عند ظهور عجزك واستحالة مقاومتك ـ مقالة العبد الصالح لوط لقومه لما ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

أما الذهاب إلى فاعل المنكر وإبداء الاحترام فلا.

أما مشاركة الكذبة فى الهتاف للمجرم فلا. وما أكثر الذين أسرفوا وهتفوا للمجرمين!

والأمم التى يخرس صوت الحق بين كبارها وصغارها، والتى تتوارث هذا الصمت المعيب، تمشى حثيثًا فى طريق الانقراض.

ومن حق الحياة النظيفة أن تخلو منها.

مـــلام وكـــــلام

«نشكرك اللهم، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك».

هذه كلمات يتلوها المصلون فى قنوتهم، ويتوجهون بها إلى الله عز وجل، قد يناجون ربهم فى صلاة الصبح ليستقبلوا النهار بعهد موثق، أن يخلعوا الفجار وأن ينبذوا السفلة، وقد يناجون ربهم فى صلاة الوتر، ليختموا المطاف بعد جهاد اليوم الطويل، مؤكدين العهد أن يخلعوا الفجار وأن ينبذوا السفلة.

وسواء قالوها أول النهار أو آخره، فإن العهد مأخوذ على كل موحد أن يضاد المجرمين، وأن يوهن كيدهم، وأن يجعل عواطفه وأفكاره حربًا عليهم.

أجل يجب أن تبغض الظالم من أعماق قلبك إن كنت لله موحدًا، وأن تؤيد المصلح كذلك وتمنحه محض ودك.

روى الحاكم عن عائشة، رضى الله عنها، قال رسول الله ﷺ: **«الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شىء من الجور، أو تبغض على شىء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض؟ قال الله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»**.

هل الدين إلا الحب والبغض؟ إن الدين هو هذه العاطفة المشبوبة بمحبة الخير، وكراهة الشر وأحزابه، وهو هذه العاطفة الدافقة المنسابة كالفيضان الموار، لا تجد مستقرها إلا حيث تبلغ أهدافها، لا يهمها أن تغمر سفحًا أو تطوق قمة.

إن الدين هو هذه العاطفة الحرة اليسيرة التى قد تتمثل فى اشمئزاز من مسالك الفسقة، يقبض يدك عن مصافحتهم، ويجعل جمرة الغضب تصبغ وجهك لجرأتهم على ربهم وحينها قد تتمنى أن تُخسف الأرض من تحتهم، أو تقيم الدنيا وتقعدها من حولهم، وإلا فإن أقعدك العجز سكنت سكون المقهور على ما يلسعه من عار، لا سكون البليد على ما وصل إليه من قرار.

أعرف قومًا فقدوا هذه العواطف الملتهبة، أى فقدوا الخصائص الأولى لدينهم، فهم أكوام من التراب البارد، أولئك قوم ليسوا من الله فى شىء.

وأعرف آخرين أرهبم جبروت الفساق، وسلطان الظلمة فلاذوا بأضعف الإيمان ورأوا أن يغيروا المنكر بقلوبهم فحسب.

ونحن لا نخرج الجبناء من حظيرة المؤمنين، ولكننا نستغرب ثم نستغرب أن يكون عمل الكثير من المشتغلين بالدعوة إلى الله هو هذا الإنكار القلبى، فما بقاؤهم فى ميدان الدعوة؟ وما تقدمهم فيه؟ وبأى حق حملوا هذا الوصف العالى وسموا أنفسهم دعاة؟

لقد علم الغبى والذكى، والقاصى والدانى، أن بلاد الإسلام سقطت فريسة وثنيات سياسية مدمرة، وأن الإسلام نفسه ضاع فى حريق الشهوات التى تتطلبها هذه الوثنيات المجنونة، وأن مراكب الحضارة التى تتراكض وثبًا إلى الأمام فى سائر الدنيا تتراجع متقهقرة فى بلادنا وحدها، وإن جماهير العمال تضرب فى «أمريكا» والعالم الحر طالبة المزيد من فنون الراحة والدعة، على حين تكلف الجماهير الفقيرة عندنا بأن تجوع وتعرى لإبطار فرد سادر فى غلوائه، فرد مستطار الشر خبيث الشره.

إن هذه الوثنيات المسعورة لم يبق معها دين ولا سلمت دنيا.

فماذا صنع المشتغلون فى ميدان الدعوة إلى الله لمكافحتها؟ وأعنى بالمشتغلين الهواة والمحترفين جميعًا، وأين جهودهم لإنقاذ البلاد والعباد من ويلاتها؟

إن هذا النفر من الرجال الذين يعيشون على تملق الظلمة، وستر مساوئهم واختلاق المحامد لهم وإرسال الدعاء الحار بحفظهم وتأييدهم - ليس دخيلاً على ميدان الدعوة الإسلامية فقط، بل هو وصمة فى وجه الإسلام نفسه وليس له هدف إلا تدعيم هذه الوثنيات الطائشة وإقرار بطشها وفسقها.

حـــدود الشـــرف والوفـــاء

نشبت أربع معارك متتابعة بين اليهود والمسلمين فى صدر الإسلام بدأت مع بنى قينقاع ثم بنى النضير ثم بنى قريظة ثم المعركة الأخيرة معهم فى خيبر، أربع معارك متتابعة مع قبائل اليهود المسلحة المحصنة المستعدة المعبأة انتهت جميعًا بهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم.

إن الإسلام ما كان عليه من بأس أن يبقى اليهود إلى جواره يعيشون بدينهم أبدًا، دون أن يخرجوا ودون أن يرهبوا لو أنهم لزموا حدود الشرف والوفاء، ولكنهم لما تبجحوا بقواهم العسكرية، وظنوا أنهم بهذه القوى يستطيعون سحق الإسلام، اشتبك الإسلام معهم فى حروب على النحو الذى مر، فلما قلم أظافرهم وانتزع أنيابهم وجردهم من الأسلحة التى استعملوها فى الغدر والخيانة ـ قَبِل أن يبقوا فى جزيرة العرب مواطنين يهودًا يتبعون دينهم ويعاملهم المسلمون معاملة حسنة.

يروى البخارى فى الأدب المفرد، عن عبدالله بن عمرو أنه ذبحت له شاة فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودى؟ أهديت لجارنا اليهودى؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

جار يهودى.. رأى تلميذ رسول الله أن يكرمه وفق تعاليم رسول الله ﷺ.

إن هذه الأقليات يوم تكون مجردة من القوة، يوم تكون بعيدة عن الإيذاء والشر، يوم تكون بريئة فلا تشتغل عميلة لأحد، يوم تحب أن تبقى على دينها فقط فإن الإسلام يقبلها ويحسن إليها.

إن الإسلام يكره الغش والخديعة والتآمر. لعل التاريخ لا يعرف إنسانًا مخالفًا فى الدين يعيش فى بلد كثرته مسلمة، سلطته مسلمة، حكومته مسلمة، ثم يقول لرئيس الدولة ورجلها الأول وقد جاء يشترى منه شيئًا: لا أعطيك إلا بالثمن أو برهن.

يهودى فى المدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بمدة بسيطة جاء الرسول ﷺ يطلب منه بضاعة والرسول ﷺ يومئذ سيد الجزيرة العربية، كانت جيوش الإسلام قد هزمت الرومان وخوفت الفرس وكسرت العسكرية اليهودية ومرغتها فى الوحل، وكسرت ظهر الوثنية عابدة الأصنام، وجعلتها تلقى السلم.



الرجل الأول الذى يملك كل هذه السطوة وكل هذه القوة يعطى مخالفيه فى الدين الحق فى كل شىء، فيشعر اليهودى فى المدينة المنورة، عاصمة هذه الدولة، بأنه آمن على نفسه، وعلى عرضه، وعلى ماله، وعلى أولاده، وعلى حرياته، وعلى كل شىء له، وأنه يجد من نفسه الجرأة ليقول لمحمد: لا أعطيك حتى تأتى برهن. فيعطيه ﷺ درعه رهنًا.

إنما كان هذا ليعلِّم الناس طبيعة الأمة الإسلامية، وأن الإسلام يرعى القلة بشرط ألا تجحد الصنيع، ألا تبيت الشر، ألا تكون عميلة لأعداء الإسلام، وقنطرة لانتقال العدوان إليه.

إن الإسلام دين شرف يحب الشرف، ودين حر يمنح الحرية، وقد دلل الأقليات فى أرضه الواسعة حتى بطرت معيشتها.

إذن لم تكن الحرب التى ضاع اليهود فيها حرب إكراه لليهود على دخول الإسلام، فإن الإسلام لم يكره أحدًا على الدخول فيه، ولكن الحرب كانت لمنع الذئاب من أن تتخذ من أنيابها الحادة وسيلة لعض الآمنين، وترويع الذين يريدون أن يعيشوا هنا أو هناك بدينهم وضمائرهم وأفكارهم دون حرج.

لكن اليهود ظلوا على خلالهم السيئة، لقد استبقاهم الرسول ﷺ فى (خيبر) على جزء من زراعتها، وذهب إليهم الجابى كى يأخذ حق المسلمين من الأرض، فإذا هم يحاولون رشوته، ويريدون أن يشتروا ذمته، وينظر الرجل المسلم إليهم، ويقول لهم: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلى، وما ذاك يحملنى أن أحيف عليكم. فلما رأى اليهود أمانة الرجل قالوا له: هذا هو العدل به قامت السماوات والأرض.

إذا كان العدل به قامت السماوات والأرض فلم لا تعدلون؟

فاضطر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد محاولات مختلفة من هذا النوع أن يجلى اليهود من جزيرة العرب نهائيًا، وكان ذلك، وعاش اليهود بعدئذ قلة فى العالم الإسلامى، ما أساء إليهم أحد، لكنهم هم الذين أساءوا إلى ثقافتنا وإلى مجتمعنا وإلى أحوالنا.

وليس الملوم أولئك اليهود، إنما الملوم مَن ظَنَّ السماحة تعنى الفوضى، ومن ظن الحرية للأديان تعنى أن يعرض الإسلام - مانح هذه الحريات - لشتى المؤامرات الخسيسة.



بـــأى أرض نمــوت ؟!

المسلم عبد للإله الواحد، الذى خلقه ورزقه، وجعل له الأرض فراشًا والسماء بناءً، ورسم له غايته من محياه، وعقباه بعد مماته، ثم قال له ولإخوانه المؤمنين: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾. وليست بقعة فى الأرض أحق من أخرى برسالة المسلم؟ ولن يكون المسلم عبدًا فى مكان ما فى هذه الدنيا يعلق بترابه ويرتبط بأسبابه، إنما هو ابن رسالته الكبرى، وهذه الرسالة الكبرى تربط فؤاده بالناس ورب الناس، وتوسع أفقه حتى يتسع للعالمين ورب العالمين، إنه يحب وطنه الذى ولد فيه، واستمتع بخيره وعاش قطعة من تاريخه، وهو يؤدى حقوق هذا الوطن ويستشعرها أكثر مما يستشعرها غلاة المتعصبين للنزعات القومية المحدودة. لكنه ـ مع ذلك ـ يخدم حقيقة أكبر من أقطار الأرض وآفاق السماء، لأنه يصل قلبه ولبه برب الأرض والسماء، ومن ثم انداحت الدائرة التى يعمل فيها، وذابت الحدود التى تحصرها، وقد عرف سلفنا الأولون هذه الحقيقة وبنوا عليها سلوكهم الاجتماعى والسياسى، فكان علم «الجغرافيا» يسمى فى مصطلحهم علم «تقويم البلدان»، كأن الغاية من دراسته هى الغاية التى تقصدها من مطالعة «دليل» تشتريه من محطة السكة الحديد لمعرفة المحطات المختلفة، ومواعيد وقوف القطار بها، وكان المسافر ينزع من المغرب ليصل إلى الصين فلا يحمل معه «جواز سفر» ولا يلقى أمامه «حرس حدود»، وكان نصف الدنيا مفتوحًا له ينتقل فى مشارقه ومغاربه كيف شاء، وكانت نظرته للعالم تجرئه على التسرى فى مجاهيله والتغلل فى أعماقه فإذا اطمأن به المقام فى ناحية حط بها رحاله وفى نفسه قول الشاعر:

وكلُّ امرئٍ يُولِى الجميلَ مُحبَّبٌ

وكلُّ مكانٍ يُنبِتُ العِزَّ طيِّبُ

ولاشك أن هذه الحياة المتحركة كانت استجابة لتعاليم الإسلام وفهمًا لسنة رسوله الكريم. روى عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: «**مات رجل بالمدينة، وكان قد ولد بها، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: يا ليته مات بغير مولده، قالوا: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال ﷺ: إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس بين مولده إلى منقطع أثره في الجنة**». فانظر إلى هذا التحريض على الهجرة والضرب فى الأرض، من الذى استجاب له واستمسك به؟ أنحن الذين صنعنا ذلك؟ كلا إن طلاب الحياة وصناع المجد، هم الذين طوفوا فى البلاد، وتركوا طابعهم عليها، أما القاعدون خلف أسوار بلادهم فقد استكانوا للدعة والخمول، ومرت عليهم القرون متهالكة مريضة، ثم استيقظوا فجأة فإذا هم أسارى فى أيدى الأقوياء، الذين تركوا بلادهم إلى بلادنا مستعمرين ينشدون الثروة والجاه. نظرت لبنى وطنى فى هذه الأيام، فهززت رأسى أسفًا: ما دهاهم حتى قبعوا فى أماكنهم لا يفكرون فى هجرة ولا رحلة؟ بل يحسبون الانتقال من بلد إلى بلد غربة يستحب البكاء معها، وتجاوز الأمر إلى أن المواطن أصبح يحب أن يبقى مواطنه إلى جواره حيًّا، فإذا مات أحب أن ينقل رفاته إلى جانبه، لأنه يعز بعاده ولو صار من الهالكين، إن وحشتكم لرحيل المجاهدين وحسرتكم لوفاتهم وتلهفكم على استرجاع ما بقى من عظامهم إن دل على شىء فعلى قصور الهمة وهوان التفكير، وإن إبداء هذه المشاعر الضعيفة عمل شنيع يكشف عن قلوب هواء، وإيمان هباء، وإنه لمن الموجع أن أقول: إن هذا الجزع لم تنفعل به قلوب الكافرين وإن هذا لطلب لم يجر له على ألسنتهم ذكر قط. فى الطريق إلى مشارف غزة مقبرة تضم جثث الجنود الإنجليز الذين قتلوا فى الحرب العالمية الأولى، عندما اشتبك الغزاة الصليبيون بالجيش التركى المدافع عن مواقعه فى فلسطين، رأيت المقبرة تحتل مساحة فسيحة من الأرض، وترتفع فوقها الصلبان، ويلفها سور من الأشجار النامية ويتعهدها حارس وظفته الحكومة الإنجليزية وقتها للعناية بأبنائها الذين ذهبوا فداء الإمبراطورية الضخمة. وما لنا نذهب إلى غزة؟ إن مقابر الجنود الإنجليز بشواهدها ودلائلها لاتزال فى أماكنها العتيدة من أرضنا فى التل الكبير وفى القاهرة وفى الخرطوم، ما ذكرت أم ولا طالَبَ أبٌ بمفاتحة الحكومة الإنجليزية فى لندن أن تجمع عظام الغرباء المبعثرة فى شتى البلاد لكى يحج إلى مزارها القريب أب محزون أو أم ثكلى، تعلموا منطق الإيمان فى مجابهة الشدائد وأعدوا أنفسكم لدنيا لا تهدأ ميادينها ولا تنقطع مغارمها وربوا الأجيال الجديدة على روعة الفداء.

رســـول الرحمــة

كان الرسول الكريم محمد ﷺ معين لا ينضب من الرحمة المطبوعة والبر العميق بالناس، هو الذى جعل الرسول موطأ الأكناف لصنوف من الأتباع تتباين أمزجتهم وخلائقهم، وتتفاوت طباعهم ومسالكهم، فهو يهش لحاضرهم، ويتفقد غائبهم ويفرح لسرورهم، ويبكى لأحزانهم، ويعيش مع كل امرئ منهم، وكأنه له صديق العمر، وهذه الدعامة المكينة لابد منها فى بناء كل عظمة إنسانية صحيحة.

ولذلك يقول الله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.. وعنصر الرحمة الغالبة لا يعنى أن صاحب الرسالة لا يغضب ويقاتل.. كلا، فإن أحوال الدنيا وأغلاط الناس توجب على الإنسان أن يقف أحيانًا مواقف لابد منها لحماية مثله وفضائله:

ولا خيرَ فـــى حِــلْــمٍ إذا لم تَــكُــنْ لــه
بـــوادرُ تحمـــى صَـــفْـــوَه أنْ يُـــكَـــدَّرا

والرحيم حين يقسو كالمحب حين يغضب، فغيرته على عاطفته وتوجسه ممن يريدون مصادرته ومصادرتها ذاك هو الذى يجعله يتوجس ويهتاج، وفارق كبير بين هذه النفوس الخيرة، وبين ذوى الطبائع الشرسة الحقودة التى تسعى وراء الشر، وتتوق إلى حوك المكايد، وتأجيج العداوات، وترى لذاذتها فى الدم المسفوح، والعبرات المراقة، والوجوه الساهمة.

وكم فى الدنيا من مساعر حروب، ومشاعل فتنة، ولكن رسل الله أجمعين وحوارييهم الأمناء، أبعد الناس عن هذه الميادين الخسيسة، إنهم إذا أبغضوا لله ولدينهم فهم يكرهون الجريمة فى المجرم، والكفر فى الكافر، وما يقاتلون هذا وذاك إلا باعتبارهم ممثلين للجريمة والكفر، فليست كراهة شخصية.

وهذا هو الفارق بين الحرب التى يوقدها المسلمون لله وبين الحرب التى يشنها غيرهم جهالة وعمى، لا لشىء إلا لأنهم: ﴿خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

والشدة على الكفر مصدرها حينئذ الغيرة على الإيمان والسعى لصيانته من العابثين والملحدين، ولذلك وصف الله النبى وصحابته بالوصفين معًا فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾.. وقال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾..

فعلى المدافعين عن الإسلام فى هذا العصر أن يشيدوا أخلاقهم أول الأمر على الرحمة الشاملة.. فإذا ألجأتهم سيئات الناس إلى النفير فآخر الدواء الكى:

ولى فرسٌ للحِلم بالحِلم مُلْجَمٌ

ولى فرسٌ للجهل بالجهل مُسْرَجُ

فمَن شاء تقويمى فإنى مُقَوَّمٌ

ومَن شاء تَعويجى فإنى مُعَوَّجَ

وكان رسول الله ﷺ يقول: «**لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتم فاثبتوا**».

صدق الرسول الكريم ﷺ، رحمة فى موضعها ودفاع عن الحق والمثل والدين الحنيف إلى النهاية إذا دعا الداعى حتى يظهر الحق.

مــــــن أخـــلاق النبـــوة

من الناس من يظهر على صفحة الحياة، ثم يختفى كالرغوة التى تصنعها الأمواج فى عراكها الدائم مع الرياح ومنهم من يزود بقوى أكبر، ومواهب أبرز، فيمر بالدنيا ثم ينسلخ عنها وقد ترك آثارًا تدل عليه وتحمل طابعه، تبقى بعده حينًا، ثم تدركها طبيعة الفناء بعد أيام أو أعوام أو أجيال، فتتلاشى وتبيد.

تَـتَـخـلَّـفُ الآثَـارُ عـن أصـحـابِـهـا

حـيـنًـا ويُـدركـهـا الـفَـنَـاءُ فَـتَـتْـبَـعُ

وهناك طائفة أخرى من الناس طرقت أبواب الوجود، وانسابت مع تيار الحياة المتجدد، ولا حقت موكب الزمن المنطلق فبقيت على حين فنى غيرها.

ومازالت بعد قرون متطاولة على موتها المادى تعيش بيننا، توجه الأحياء إلى الخير، وترسم للحائرين المنهج، وكأن فكرها الثاقب، وقلبها الخافق، وصوتها الجهير، لم يعد عليه البلى، وتطوه جنادل القبور.

أحق الناس بالذكر من هؤلاء رسل الله الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، وأحق أولئك جميعًا بأن تدرس حياته وتترسم خطاه وتتعلم عنه وتتبع هداه، صاحب المجد وجماع عرى المجد محمد ابن عبدالله ﷺ.

إن هذا الاسم الكريم «محمدًا» لم يصبح علمًا على شخص ولد فى سنة معينة ودرج فى بلد معين، بل أصبح حقيقة من حقائق الخير السارية فى الأزمنة على تواليها، والأمكنة على تغايرها فما يختص به عصر دون عصر، وما تنفرد به عاصمة دون عاصمة. لقد أصبح عنوانًا على المثل التى تصنعها الخيالات، ويستهدفها كل سائر إلى الكمال.

ولئن كان علماء الأخلاق يرون «المثل الأعلى» الذى يجرى الإنسان نحوه وهو يبتغى العلو.. وهمًا، فنحن ندعو صانعى الأوهام لأنفسهم أن يرمقوا سيرة هذا الإنسان محمد بن عبدالله ﷺ ليروا كيف تجمعت المثل العليا للشجاعة، والكرم، والبر، والأخلاق، والصبر، والكفاح..

كيف تجمعت هذه المثل فى مثال واحد، نفخ الله فيه من روحه، فجعله بشرًا سويًا، ورسولاً نبيًا؟!

ويوم تتعلق العيون بهذا المثل، وتحاول التأسى به، والنسج على منواله فإنا موقنون بأن العالم يكون قد اكتشف فى عالم الأخلاق قوة أفعل وأزكى أثرًا من قوة الكهرباء فى عالم الطبيعة.

وعندى أن العنصر الأصيل فى عظمة محمد ﷺ هو الرحمة، الرحمة التى تجعل الإنسان يرق للناس أجمعين، بل يرق لكل ذى كبد رطبة، والتى تجعله يتصل بالحياة وفى نفسه عواطف غامرة من الشوق والرغبة والسلام.

فهو لين الجانب لمن حوله، سليم الصدر لمن خاصمه، يتمنى عودته وأوبته أكثر مما يرجو تأنيبه وعقوبته، وقد مضت سنة العظمة خلال الكرام على هذا النسق السمح، وقديمًا قال عنترة:

لا يَحملُ الحِقدَ مَنْ تعلو به الرُّتَبُ
ولا يَنالُ العلا مَنْ طبعُه الغضبُ

وقد كان محمد رسول الله ﷺ جياش الفؤاد بهذه الرحمة السامية النبيلة، فكان إذا عرض الهداية على رجل فرفضها، ثم تجهم لصاحبها وأدبر معرضًا عنها، كان النبى الكريم ﷺ ينظر إلى هذا الشقى الفارّ عن الخير، نظرة الوالد الرفيق إلى ابنه العاق، الذى آثر العوج على الاستقامة، أى أن أساه لغباوة ابنه أكثر من غضبه لصدوده عن الحق.

وقد طالت أحزان الرسول ﷺ لجهالات الناس حتى خشى منها على نفسه وعلى رقة فؤاده، وإرهاف حسه فقال الله له: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾.

ومع أن القرآن تهدد هؤلاء الأجلاف العاقين لأبر الناس بهم: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾. لكن هذا التهديد لما أوشك أن يتحول إلى لعنة ماحقة بعدما آذى المشركون نبيهم، واستباحوا دمه، وقتلوا أصحابه فى غزوة

أحد، وعرض على النبى ﷺ أن ينتقم منهم، قال: «**اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون**».

وقد أشاد القرآن بهذا الخلق العظيم فى شمائل صاحب الرسالة، فأبان للناس كيف أن عنتهم يعز عليه، وكيف أنه متشبث بهم، حريص عليهم، بالمؤمنين رءوف رحيم.

لغـــة القـــرآن

يقول دريد بن الصمة فى رثائه لمن مات من أحبائه:

فــوالــلــه لا أنســى قــتــيــلاً رُزئــتــه

بــجــانب قــوســى مــا مشيت عـلــى الأرض

ثم تراجع الرجل واعترف بأن الحياة ليست كذلك، فقال معتذرًا:

عــلــى أنــهــا تشــفــى الــكــلــوم وإنما

تــوكــل بــالأدنــى، وإن جــل مــا يمضــى

وقد ترد كلمة «ذو» بمعنى الذى، وهى لغة طيئ، وفى ذلك يقول الشاعر متحدثًا عن عفته، إذ ألجأته الظروف فكان ضيفًا على بعض الناس:

ولستُ بــهــاجٍ فــى الــقــرى أهــلَ مــنــزلٍ

عــلــى زادِهــم أبــكِــى، وأُبــكــى الــبَــوَاكــيَــا

فــإمّــا كِــرامٌ مــوسِــرُون أتــيــتُــهــم

فــحَــسْــبِــىَ مِــن «ذو» عــنــدِهــم مــا كَــفَــانــيَــا

وإمــا كِــرامٌ مُــعسِــرُون عــذَرتُــهــم

وإمــا لــئــامٌ فــادّكَــرتُ حَــيَــائِــيَــا

ومن أدلة العطف على اسم بالرفع قبل تمام الخبر، قول الشاعر عن نفسه وحصانه، واسم الحصان قيار:

فــمَــن يَــكُ أمسَــى بــالمديــنــةِ رَحْــلُــه

فــإنِّــى و«قــيــارٌ» بــهــا لَــغَــرِيبُ

وبعض الجهلة يحسب ذلك خطأ، ويتهجم على القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

إن هذا ميدان لو مضيت فيه لم أنته منه، وإنما أبحث لنفسى وارتضيت للقارئ ما فعلت، لأنى أريد شرح الطريقة التى تعلمنا بها العربية من ستين سنة.

كل قاعدة يرى المؤلف نفسه مطالبًا بالاستدلال عليها من التراث الأدبى فى اللغة.

والسؤال: هل سيظل الاستدلال على القواعد مطلوبًا إلى قيام الساعة؟!

إن اللغة تدرس كى نحسن الكلام فى الحاضر والمستقبل، ويبدو أن أساتذتنا لم يلتفتوا لذلك كما ينبغى.. وخلت دروس النحو والصرف والبلاغة إجمالاً من التطبيقات والأمثلة التى لابد من أن تكون كثيرة وفيرة، فكان ذلك طعنة نافذة إلى اللغة وتداولها.

ثم جاءت مدرسة الجارم ومَن بعده، فعالجت هذا الموضوع علاجًا جيدًا، وكان لها جهد مقدور فى ترقية الأداء العربى وتقويته.. ولكن هذه المدرسة اضمحلت مع ضغط الاستعمار الثقافى، وانتصار التفاهات فى شتى الساحات.

لقد لاحظت أن قاعدتى النحت والاشتقاق تكادان تكونان معطلتين فى مواجهة الحضارة الحديثة الزاحفة علينا ماديًا وأدبيًا، كما لاحظت أن هناك خلطًا قبيحًا بين تعليم اللغة العربية للعرب وللأعاجم مسلمين أو غير مسلمين.

وهناك فوضى فى تعليم جموع التكسير وضبط المصادر القياسية والسماعية واشتقاق الأفعال بين المضارع والماضى.

إن عناية الإنجليز باللغة بضبط لغتهم ونشرها أمر معروف، وما فى لغتهم إلا ما يكسب المهارة فى بعض العلوم الحديثة، ولا أدرى ماذا أعمى العرب عن عشرات الدروب ينشرون فيها لغة القرآن، ويبصرون الدنيا بمعالم الوحى الأعلى؟ إن تعلم العربية فريضة على أمة رسالتها عالمية، وتفريطها فى ذلك خيانة فاضحة، ويوجد فى هذه الأيام المهزولة المهتزة قادة للعرب إذا تكلموا كانوا أطفالاً لا رجالاً، وكانوا نماذج للهزل لا للجد.

إننا نقترف خيانة فاجرة عندما نترك العربية تموت بين أيدينا، وعندما نعد تعلمها حرفة لبعض الشيوخ المغموضين.. هذا كفر أو دونه الكفر.

الإســلام والعربيــة

تعلمت الإسلام والعربية فى الأزهر الشريف، قضيت شرخ الشباب فى مراحل الدراسة المختلفة، وعندما أخط هذه السطور أمزج بين العلم والأدب والمجتمع، وأضم أشتاتًا من الذكريات التى استنبطنا فيها القواعد من الشواهد.

نعم إن الأسلوب الذى تعلمنا به اللغة العربية يقوم على شرح القاعدة وسوق الدليل عليها من الكتاب أو السنة أو التراث الجاهلى والمخضرم وأوائل التاريخ الإسلامى.

وأشعر صادقًا بأن الشواهد التى قابلناها، أو الأدلة التى عايناها كانت زادًا فكريًّا وعاطفيًّا عامرًا بأنواع العواطف والأمزجة وصور الحس والأداء العالى.

وأريد من القارئ أن يسترجع معى جملة من الأمثلة ليس بينها رابط، وأن يعيش فى جوها كما عشنا، وأن يستفيد منها معلومات نحوية لا بأس بها ولا تخضع فى سياقها لترتيب معين، يقول الشاعر:

وفتيانِ صدقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضِهِمْ
علـى سرِّ بعضٍ غيرَ أنِّى جِماعُها

ويقول آخر:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخَى سُدُولَه
علىَّ بأنواعِ الهمومِ لِيَبْتلِى

البيت الأول يصف أمانة الكلمة واحترام الأسرار، والبيت الثانى يصف ليل المهموم، وحرف الواو فى أولهما يسمى «واو رب» يجر الاسم بعده وجوبًا، ويعرب جملة اسمية، مع خبر المبتدأ.

ويقول الشاعر:

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين هُمُ
سمُّ العداةِ وآفةُ الجُزْرِ
النَّازلين بكُلِّ مُعْتَرَكٍ
والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ

يصف الرجل قومه بالشجاعة التى تخيف منهم عدوهم، وبالكرم الذى يستهلك الأموال، وبالجراءة التى تقحمهم فى كل معركة، وبالعفاف الذى يعصمهم من ارتكاب الفواحش.

والشاهد هنا فى «النازلين» التى نصبت على الاختصاص ثم عطف عليها نعت مرفوع.. وهذا مأنوس فى الأداء العربى، وإن جهله الجاهلون وحسبوا فى الكلام لحنًا.

وتقول عاتكة بنت زيد لما مات زوجها عبدالله بن أبى بكر.. وقد أصيب بسهم قاتل فى حصار الطائف:

آلَيْتُ لا تَنفكُّ عَيْنِى حزينةً
عليك ولا ينفكُّ جِلْدِىَ أَغْبَرا
فلله عينا مَن رأى مثلَه فتًى
أكرَّ وأحمى فى الهياجِ وأَصْبَرا
إذا أشرعتْ فيه الأسنةُ خاضَها
إلى الموتِ، حتى يتركَ الموتَ أحمرا

وعاتكة تبلغ القمة فى وصف زوجها الراحل وشجاعته وجلادته، يقول عنها شارح الحماسة: كانت صحابية شاعرة فصيحة لها جمال وكمال، وتمام فى عقلها ومنظرها وجزالة فى رأيها، تزوجت بعبدالله بن أبى بكر الصديق، فلما مات عنها كما حكينا، تزوجها عمر بن الخطاب، فلما قتل تزوجها الزبير بن العوام، فلما قتل بوادى السباع تزوجها الحسين بن على فلما قتل بكربلاء كانت أول من رفع خده عن التراب ثم تأيمت بعده.

ومن الطرائف أن عبدالله بن عمر كان يقول ـ فى شأنها: من أراد الشهادة فى سبيل الله فليتزوج عاتكة.

وأحسب أن هذه السيدة لو كانت فى عصرنا لتشاءم منها الناس.. إن الأولين كانوا على فطرة سليمة، وتجاوب شريف مع الطبيعة البشرية، أما نحن فتقوم تقاليدنا على المراءاة والاستهانة بالمرأة والرغبة فى تنقصها.

فقـــراء إلـــى الأخـــلاق

إن الخلاف الفقهى فى ديننا - إذا استوفى شرائطه العلمية والخلقية - لا يسمى معصية أبدًا، بل كل مجتهد مأجور بإجماع الأمة.

والذين يتذرعون بالخلاف فى الفروع للغمز واللمز، والتمزيق والتفريق جديرون بالتأديب.

ولا أصدق أن رجلاً مؤمنًا استجمع الأخلاق الربانية يسف إلى هذا المستوى.

ونتحدث الآن عن الأخلاق الإنسانية كالصدق والأمانة والوفاء والشرف... إلخ وإنما سميتها كذلك لأنها عامة تشمل المسلمين وغيرهم.

وأضداد هذه الأخلاق هى أركان النفاق، قال رسول الله ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**».

والغريب أن الفجور فى الخصومة، والعبث بالعقود والعهود، والاستهانة بالكلمة، والإضاعة للأمانات، كلها تكاد تكون عادات مألوفة بين الكثيرين، وإن المسلمين لا يلتزمون بما ورثوا من دين فى ميادين الأخلاق عامة إلا من عصم الله.

على حين نجد أتباع ملل أخرى يتحرون فى معاملاتهم ومسالكهم مكارم الأخلاق، ويترفعون عن الفوضى والإسفاف والتسيب.

وقد قلت: إننى نظرت فى تراث العظماء، فلم أجد أغنى ولا أزكى ولا أوسع ولا أرفع مما تركه محمد ﷺ فى ميدان الأخلاق، فما الذى باعد الأمة عن تراثها وزحزحها عن قواعدها؟

إن الخلق العظيم لأمة ما نتاج جملة من العناصر المتماسكة المتكاملة، تلتقى فيها العقائد والعبادات والأحوال الاقتصادية والسياسية.

ثم إن الخلق ليس قراءة ورقة ولا سماع درس، إنه صناعة شاقة، وتجارب متكررة، وتكلف مستمر ينتهى بأن يكون ملكة قائمة وصبغة ثابتة.

وقد لاحظت أن جهودًا شيطانية بذلت ليكون الإيمان عقيمًا بالتأويل والتعطيل المتعمدين.

فقد يكون الإيمان عند البعض كلمة فقط لا عمل معها، وقد يكون العمل نافلة يزدان بها وقد يستغنى عنها، وصور العبادات تؤلف أسفار فى ضبطها، أما جوهرها الباطن فقلما يكترث به.

وقد نشأت عن ذلك مفارقات رجحت كفة المجتمعات الكافرة، وهوت بكفة المجتمعات المؤمنة، فقول الزور فى ديننا يعادل الشرك: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾.

وقول الزور كبيرة فى قضية صغيرة بين رجلين أو امرأتين، ولكننا فى العالم العربى مثلاً نصنع انتخابات مزورة بجهاز يشترك فيه عشرات الألوف من الناس، وتتواصى الأطراف المعنية بقبول نتائجه وتسكت الجماهير الغفيرة مغضبة أو عاجزة، وهذا الوضع لا تعرفه أمم علمانية، تحتقر الزور وتحترم الحق، وتنظر إلى الكلمة المنطوقة على أنها رباط خطير، وكأنها هى التى نفذت قول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾. إننا فقراء إلى الأخلاق الربانية والأخلاق الإنسانية على سواء.

وقد أدرت ظهرى لمتدينين قصروا ثيابهم وتمنوا الموت الزؤام لمن يخالفهم فى أن لحم الجزور ينقض الوضوء، وأن شهادة المرأة لا تقبل فى الحدود والقصاص... إلخ.

من الأخلاق الربانية والإنسانية بنيت الأمة الإسلامية، والبناء باقٍ ما بقيت هذه الأخلاق، فإذا وهت تصدع الصرح كله، وتعرض للضياع.

إن العقائد هى التى تصنع المثل العليا والمثل العليا هى التى تهيمن على السلوك وتوجهه والعقائد طور للنفس الإنسانية ينقلها من الميوعة إلى الثبات والصلابة، والأخلاق هى القوالب التى تصاغ فيها حركات المرء وسكناته ويستحيل أن يتوفر الاحترام لأمة لم تستقر عقائدها وأخلاقها.

عناصر التربية

إن التربية ليست وضع البذور فى أرض على رجا مطر يجىء أو لا يجىء ولا جهد وراء ذلك، كلا، إنها بذر وسقى وتعهد ومطاردة للحشرات والأوبئة، ومتابعة دائبة حتى أوان النضج.

والمربون هم البيت ـ وأساسه المرأة ـ والمدرسة والمسجد، والشارع والدولة بما ملكته فى العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية وإعلامية.

والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة جعلت منهم الجيل الذى حول الحضارة الإنسانية من حال إلى حال.

وأشعر اليوم بشىء من الأسى واليأس لأننا لا نجمع من عناصر التربية ما يجعل أمتنا تنبت فى مغارسها وتجدى على رسالتها، ذاك فى وقت تعربد فيه شياطين الإنس والجن، ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم أجمع.

لا بأس أن أقسم الأخلاق إلى قسمين: أخلاق ربانية وأخلاق إنسانية، ولأرجئ الحديث الآن فى القسم الثانى، مع أن كليهما ضرورى لصدق الإيمان واكتماله.

المؤمن الناضج الاعتقاد يتجاوب مع قول الرجل الصالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. فمن نضب فؤاده من التفويض إلى الله فقد الأخلاق الربانية.

والمؤمن الناضج الاعتقاد يتبع هودًا وهو يقول لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾. فمن خلا قلبه من هذا التوكل فقدْ فَقَدَ دعامة من معالم الربانية، وانطلق فى الحياة محصورًا داخل نفسه.

والمؤمن الناضج الاعتقاد يقتنع بقول الله له: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فمن حسب أن أحدًا يكشف ضره بعيدًا عن الله، أو ذا سلطان يسوق إليه الخير بعيدًا عن الله، فقد تجرد من الأخلاق الربانية.

والمؤمن يكتفى بنظر الله إليه، ورقابتـــه عليه، ويعى بعمق قول اللـــه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. فمـن رمق وجـهًـا آخر، وأمل الخير عنده فقد عرى عمله عن الإخلاص، وفقد الأخلاق الربانية.

وعلمـاء القلوب شحنوا كتبهم بهذه المعانى، لأنهم موقنون بأن معاصى القلوب أخطر من معاصى الجوارح، فهذه المعاصى القلبية سرطان يأتى على الإيمان من القواعد.

وقد لاحظت ـ وأستغفر ربى وأستعيذ به ـ أن عددًا من قادة الثقافة ورجال السياسة مبتلون بهذا السرطان، وأن عبادة الذات والتقوقع فى مطامعها يسيطران عليهم.

ويشاركهم هذا البلاء أذناب يطنون حول مآربهم ومجالسهم طنين الذباب.

أمراض القلوب لا الخلاف الفقهى أخطر شىء على الدنيا والدين.

ما الخلاف الفقهى؟ إنه كالخلاف بين المحافظين والعمال فى إنجلترا أو كالخلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين فى أمريكا، هؤلاء الناس متفقون على الأصول الرئيسية والأهداف العامة، وربما تفاوتت أنظارهم فى الترتيبات الداخلية لنظام البيت.

أما فى أمتنا فقد رأيت الرعاع يبنون العلالى على هذا الخلاف، ويخرجون منه بنتائج مدمرة.

لنفرض أن رجلاً يتبع أبا حنيفة ولا يتبع ابن حزم أو بالعكس، ما علاقة هذا بالقرب من الله أو البعد عنه؟ وما صلة هذا بالفسوق أو التقوى؟ هذا خلاف يحكم فيه بالخطأ أو الصواب، إنه خلاف عقلى فى نطاق محدد، ومن السفه ربطه بحقيقة الدين أو وحدة الأمة.

فلو تصورت أن مخالفًا لابن حزم ـ أيام سلطانه ـ وشى به إلى الصليبيين كى يبطشوا به، فأنا أعد الواشى مرتدًا، أو هو من سلالة أبى لؤلؤة أو ابن ملجم.

ومثله فى الزيغ من يفضلون أن تحكم أفغانستان الشيوعية ولا يحكمها أبو حنيفة أو من يسوون بين الشيوعيين والأحناف.

ويوجد متدينون فى عصرنا ينحدرون إلى هذا الدرك من الغباء أو الحقد، وقد آذوا الله ورسوله بهذا الفكر الوضيع وذاك سر حملتى عليهم وضيقى بهم.

طريـــق واضـــح

إن انتشار الفساد السياسى والاقتصادى وتكاثر جراثيمه وتنامى نتائجه واستشراء الترف الاجتماعى وانشغال علماء المسلمين بقضايا جزئية ومسائل جدلية ـ هذا البلاء تصاعد حتى قضى التتار على الخلافة المعتلة، ثم قضى الصليبيون من بعد على الدويلات الإسلامية فى الأندلس، والتى كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثروة.

صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة، واستطاعوا فى زحف باهر أن يخترقوا شرق أوربا حتى النمسا، لكن الأتراك كانوا قوة عسكرية، ولم يكونوا فجرًا ثقافيًا جديدًا، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم والبلاغ المبين؛ لكان لهم فى الأقطار المفتوحة شأن آخر.

إنهم رفضوا أن يتعربوا كما رفض العرب أن يؤثروا على أنفسهم، وأن يتركوا السلطان لغيرهم، فكان التوسع الإسلامى خاليًا من بذور الحضارة الأولى، ومن أسباب الحياة الصحيحة، فسرعان ما انهار، وانهار العالم الإسلامى بعده، وأصبح أثرًا بعد عين.

أما الأوربيون، فبعيدًا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية، ووضعوا «الماجناكارتا» بعد قتل الملك المستبد، حدث ذلك فى إنجلترا.

واشتعلت الثورة الفرنسية وكانت هى الأخرى كافرة بالدين،ووضعت لأصحابها نظامًا آخر، وكانت ثورة تتسم بالبطش وتسرف فى الفتك.

ثم جاءت الثورة الحمراء مصحوبة بسيول من الدماء،وألوان من الوحشية، وقد هدمت الكنائس بعدما فرغت من أهلها، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها، ومصاب الإسلام فى الاتحاد السوفيتى، يحتاج إلى دراسات واسعة.

المهم بعد هذه النظرة الخاطفة أن حضارة الغرب قامت من قرون على الكفر بالله، وإن كانت قد انتفعت ببعض الأفكار الإسلامية والإنسانية فى نهوضها.

بيد أن شيئًا مثيرًا قد حدث مع بدايات القرن الأخير، فإن الصليبية لعقت جراحها، وأخذت تقترب من المنتصر، تتودد إليه، وتعرض عونها عليه، وكذلك

فعلت الصهيونية، واصطلح الجميع على إحراج الرسالة الخاتمة، والاستيلاء على ميراثها الضخم، وقد بدا لكل عين أنه ميراث لا صاحب له أو بتعبير آخر لا حارس له، وشعر أتباع محمد بحرب الإبادة تقترب منهم، ونيات الغدر والفتك تلفح كيانهم.

واستيقظت نوازع الحياة فى الأمة المنكوبة، وشرع المدافعون فى ميادين العلم والتربية، والاقتصاد والعمران، يتنادون لإنقاذ الرسالة التى أحدق بها العدو من كل ناحية.

إن البلاء شديد، ولكن طريق الخلاص منه واضح ـ وبقدر ما نثوب إلى رشدنا ونستمسك بكتابنا ونقف على أساس من التربية الصالحة على نحو ما فعل سلفنا الأولون ـ تقوى الحصون ويتراجع العادون.

معاصى القلوب

التربية عمل يستغرق العمر كله، منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل، ومن الخطأ تصور أنها بناء يتطلب بضعة شهور أو بضع سنين يعقبها استجمام واسترخاء، المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظًا طول الطريق، وإلا فقد يهلك فى ساعة إغفاء.

وقد ألفنا فى حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل، وأن نمنح الدارسين إجازات أو شهادات تدل على ما نالوا منه.. فهل التربية كذلك؟ لا، إن الأقساط التى ننالها من الاكتمال النفسى لم توضع لها سلالم واضحة ولم ترصد لها علامات، يبدو لأن علم ذلك عند الله وحده أولاً، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة، يقاس تحصيلنا فيها حينًا بعد حين.

إن المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال، سائرًا إلى ربه بثبات، والسائر إلى الله يترضاه بفعل ما أمر وترك ما نهى، ولايزال سائرًا يطوى مراحل حياته حتى إذا قارب النهايـة قيل فيه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لقد طابت نفسه طيب الثمر على أغصانه، ثم يجىء الحصاد فى إبانه، فإذا نفس تهيأت لسماع النداء الأخير: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

وتتناول التربية الإنسان من عدة نواح: الأولى شعوره بنفسه ـ أعنى عبادة الذات ـ فالشعور الإيجابى بالذات يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس، وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور، وطلب الثناء والانسياق مع مطالب الرياء، وهو مصدر الحقد والحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنة.

والواقع أن الإنسان عندما يدور حول نفسه وحدها، لا يصلح لشىء ولا يصلح به شىء، ولعل ذلك سر اتفاق العلماء على أن أعمال القلوب أهم من أعمال الجوارح، وأن معاصى القلوب أخطر من أنواع العوج الأخرى.

ولـن يـنـجـو المرء مـن هـذا الـداء إلا إذا وثـق روابـطـه بـالـلـه، وصـفـى نـيـتـه معه،وحرص على ابتغاء وجهه وانتظار ما عنده، وجعل هضم النفس، واحتقار العاجلة أغلب على سيرته، وأوضح فى شتى معاملاته.

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافًا واسعًا. نعم، إنهم متفقون على إجابة غرائزهم البدنية، بيد أنى لاحظت أن هناك من يحب الطعام، وهناك من يحب النساء، وهناك من يحب المال، وهناك من يحب الشهوة، وقد يضحى بشهوة فى سبيل أخرى آثر لديه.

والتربية الصحيحة تستبقى من الشهوات القدر الذى تقوم به الحياة، وتراقب بحذر ما فوق ذلك، وفى تراثنا الدينى معالم مشرقة بهذا المنهاج الذى ينشئ النفوس إنشاء على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

وقد تأملت فى التراث الإنسانى الخصب الجامع بين الدين والفلسفة والأدب، فلم أجد أغنى ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التى تركها محمد عليه الصلاة والسلام.

هناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة، وهناك معالم سيرة إنسانية طهورة، تسبح فى فلك لا يسف أبدًا، قد يهوى النجم ولكن محمدًا يستحيل أن يهوى.

وطريق الاكتمال والتسامى هو التزام هذه الأسوة، والاستمداد الدائم منها، ويتطلب ذلك نوعًا من المعاناة والمجاهدة يعجز عنها إلا من عصم الله.

محاسبة نفسية

درسنا فلسفة اليونان، وآداب الفرس والهند والصين، ودرسنا سير الملوك الذين حكموا، والقادة الذين فتحوا، ووازنا بين تراث وتراث، وآثار وآثار، فما وجدنا بعد التمحيص والتدقيق إلا ما يُفْرِد رسالة محمد بالصدق وقدره بالشرف.

أنا لست من المسحورين بقادتهم، ولا المفتونين بتراثهم، وفى عقلى نافذة مفتوحة أبدًا لتلقى الشبه والأسئلة والاعتراضات والوقوف قليلاً أو طويلاً بإزائها، ومع ذلك فعلى طول تلاوتى للقرآن لم أزدد إلا يقينًا، وعلى طول تفرسى فى سيرة نبيه لم أزدد إلا إعجابًا. وأحتقر من يثير الشكوك ليقال إنه ذكى، ومن يكتم إعجابه ليظهر بأنه مستقل لا تابع.

ومعاذ الله أن أفقد الإنصاف مع من يتحدثون عنى بانحراف، أو أستهين بالمواريث الأدبية والمادية التى جعلت أكثر البشر لا يعرفون الإسلام ولا يدينون به، وربما حقدوا على أهله وظنوا بهم الظنون.

سأبقى إلى الممات وفيًا لمواثيق الفطرة التى أخذها الله علىَّ، ومقتفيًا آثار النبيين الذين ربطوا حياتهم بواهب الحياة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

غير أنى أمقت الخداع والمن، وقد سمعت رجلاً من شيوخ إنجلترا أو أمريكا يقول لحكومته: لا يجوز أن نرسل أولادنا ليموتوا فى معركة الخليج لتحرير الكويت فى سبيل بعض دول النفط.

إن هذا القائل يعلم أن الجيوش التى جاءت من أوربا وأمريكا إنما جاءت لتحمى موارد النفط - الذى هو شريان الحياة الصناعية - وتستبقى ضخَّها لمصالح شتى، آخرها مصلحة الذين يتحدث عنهم هذا القائل، وفى الحياة يكثر أن يختلط النفع والضر، والإثم والبر، وعلى أولى الألباب أن يتريثوا طويلاً فى معالجتهم لبعض المشكلات.

إن للنفط العربى قصة تبعث على الأسى والسخط، فإن مناجم هذا المعدن

كثرت فى بلادنا، بيد أننا كنا مشغولين عنها بشئون أخرى جعلتنا نسرح بقطعان الضأن والمعز فوق هذه المناجم،دون فكر فى استثارتها أو ارتفاقها.

إن الذى كشف هذه المعادن هم الخواجات، أما نحن فكنا نتنازع: هل حديث التوسل صحيح أم ضعيف؟ هل كرامات الأولياء حق أم وهم، هل الحكم لبنى هاشم أم لأسر أخرى؟

إن أهل القرآن خانوه خيانة فاجرة، واتخذوه مهجورًا، فى الوقت الذى أنسوا فيه بباطل من القول، وسخف من الجدل وغرقوا فى غيبوبة عجيبة من المباحث التى ما عرفها السلف الأول، ولو عرفها ما أفلح أبدًا، ولا افتتح قطرًا، ولا أنشأ حضارة.

وعندما قام الأوربيون بتصنيع النفط وتلوين مشتقاته، ثم صنعوا الناقلات العملاقة فحملته إلى أرضهم، أعطونا ثمن السلعة التى ابتدعوها، فماذا صنعنا بهذا الثمن؟

ذهب أقله فى خيرنا، وذهب أكثره فى ضرنا.

ولن أتحدث عن مخزاة السرف فى مواطن الشهوات، ولا المجازفات المجنونة بمال الله فى إرضاء الشيطان، ولا الأرصدة التى تعمر بنوك أوربا وأمريكا، وتجمدها كلما حلا لها، ولا.. ولا.. فالحديث مهين لأمتنا كلها.

إنما السؤال عن سر هذه المحنة من الجذور؟ ما الذى جرنا إلى هذا القاع السحيق؟ فجعلنا نأخذ ولا نعطى؟ وجعلنا نتحرك فى موضعنا أو إلى الخلف؟ وجعل بيننا وبين كتابنا بعد المشرقين؟

إن هذه الكلمات «محاسبة نفسية» لمواقفنا فى الحاضر والماضى، ولن يصلح لنا مستقبل إلا إذا دققنا فى هذا الحساب، ووضعنا أيدينا على أسباب العوج.

وكل محاولة لاقتحام المستقبل بفكر عصور الانحطاط لن تزيدنا إلا خبالاً.

زوايا متواضعة

كنت أقرأ أسماء الأسلحة الحديثة فأشعر بهول ما بلغه القوم من قوة، هذه صواريخ جو جو، وجو أرض، وأرض جو، وأرض أرض، وهذه طائرات قاذفة وتلك مقاتلة، وهذه سمتية، وهذه مزودة بمدافع للهجوم، وهذه تفلت من شبكة الرادار، أما المقذوفات من شتى الأسلحة ففنون وجنون، هذه فخاخ ألغام، وهذه.. إلخ، قلت: ما أكثر ما أعد هؤلاء لنصرة معتقداتهم وقيمهم، فهل أعد المسلمون شيئًا من هذا فى بلادهم بتفوقهم الصناعى ومهاراتهم الخاصة؟ كلا اللهم إلا ما نشتريه منهم فيبيعون لنا ما يستغنون عنه، ثم يمدوننا بذخائره بين الحين والحين، ما أعرف فشلاً فى نصرة الدين والشرف، والأرض والعرض أقبح من هذا الفشل، بم شغلنا عن مثل هذا الإنتاج؟ بالجدل المحموم فى غيبيات نهينا عن التقعر فيها، بتجسيم الخلاف الفقهى - وإيقاد الشرر منه، مع علمنا القاطع بأن وجهات النظر كلها مأجورة من الله سبحانه ولا لوم على مخطئ إن عُرِف خطؤه - بالانصراف عن شئون الدنيا مع نسيان حقيقى لخالق الدنيا والآخرة، إنه انصراف بلادة وغباء، وليس تجردًا لتقوى، ولا ترفعًا عن شهوة، هل يشعر المسلمون بأن لهم رسالة كبرى تزحم البر والبحر وتشغل الإنس والجن؟ ما أخالهم يشعرون، إنهم يعيشون فى زوايا متواضعة متقاصرة من الأرض، ينظرون إلى التقدم الحضارى بعيون ناعسة، وينظر العالم كله إليهم نظرة استهانة، ربما أعطاهم شيئًا من العود المادى الذى يسألون، وربما تصدق عليهم بشىء من العون الأدبى الذى إليه يرنون، إننى أجزم بأن فلسفة الكون فى القرآن الكريم بعيدة جدًا عن أفهام قرائه، وأن جمهرة المسلمين لا تسمع من هدير الآيات شيئًا طائلاً، فهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.

قرأت قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ ثم قلت: إن ضمير الجمع للمخاطب تكرر خمس مرات فى هذه الكلمات، كأن الله يقول للسامعين: هذا كله لكم، لكم أنتم،

لكم وحدكم، ومن السامعون؟ أبناء آدم جميعًا، أهل الأرض كلهم، كما قال فى موضع آخر ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، ومع هذا كله فقد سألت نفسى: هل العرب والمسلمون من بين جمهور المخاطبين، هل الكلام يتناولهم مع سائر الناس؟ أم هم مستثنون من الناس؟ إنهم غرباء بين الأرض والسماء، حتى الفلاحة وهى حرفة بدائية أجادها غيرهم، وأكثر ثمارها، وهم يحرزون أرغفتهم بشق الأنفس، وقد صور غيرهم الخيرات فى باطن الأرض وشرع يستخرج السائل والجامد من معادنها، ونحن ننظر دهشين، وبعض شطارنا يفتى بأن التصوير حرام. وسالت فوق ثبج البحار بوارج ومدمرات، وشقت أعماقها غواصات تحمل الردى، وناقلات نفط عملاقة وغير عملاقة، ما صنع شىء من هذا كله فى موانينا الجميلة، إننا نرمقها معجبين بعد أن يتم غيرنا صنعها، تساءلت: أين نحن من دنيا الناس؟ وتساءلت مرة أخرى: أين نحن من ديننا؟ وهل ننصفه أو نشرفه بهذا التخلف السحيق؟ بل هل نستطيع حمايته يوم تسكر القوة أصحابها، وما أكثر سكراتها، فيتحركون للنيل منا والإجهاز على بقيتنا؟ إن المسلمين أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة وقد تهز بعضهم غرائز الدنيا فيصيح ويسعى، لكنه لا يفعل شيئًا ولا يبلغ هدفًا؛ لأنه ما استفاد من النعمة التى يسرها الله له، أعنى أنه ما استفاد من الوحى الذى مهد له سبيل الكمال وعلمه كيف يؤدى حق الله، وكيف يحتفظ بحق نفسه.

هذا الكتاب لا غير تلقفه آباؤنا الأقدمون فصححوا به مسار الحياة، وأبدعوا حضارة أرقى وأزكى مما عرف السابقون، فما بالنا نقرؤه دون وعى ونخر على آياته صمًّا وعميانًا؟

تزكيــة النفــس الإنســانية

هل حدة الذكاء وسعة العلم تغنيان عن طيب النفس وشرف الخلق؟ كلا، إننا نمقت الذكى الشرير ونوجل من معاملته ونعتقد أن النفس الصغيرة لا تزيدها المعرفة الكبيرة إلا قدرة على الأذى، وطاقة على الإساءة.

ومن الخطأ أن نحسب الدين معرفة نظرية أو قراءة طويلة، إذا لم يكن الدين كبحًا للهوى، وامتلاكًا للطبع فلا خير فيه ولا جدوى منه.

وقد أكد القرآن الكريم أن تزكية النفس الإنسانية هى الغاية من شتى التكاليف، والتزكية المنشودة هى التربية الصحيحة، هى تصفية المعدن الإنسانى من شوائبه وجعل الغرائز كلها تحت رقابة العقل المؤمن فلا تطغى ولا تجمح.

والناظر فى الحضارة الحديثة يراها ارتقت كثيرًا فى ميادين الكشوف الكونية، واستغلت المطابع فى نشر ألوف الألوف من الكتب والصحف، واستغلت الكهرباء فى إنشاء دور الإذاعة المختلفة، وفى تسخير الأقمار الصناعية لمزيد من الاطلاع والتعليم، فهل كان ذلك تقدمًا إنسانيًا حقًا؟

إن الأثرة الفردية والجماعية ضريت مع هذا التقدم وتفاحشت الشهوات والمظالم، وظهر الفساد فى البر والبحر، واتسعت دائرة الإلحاد والتدين الجاهل، مما يجعلنا نقرأ الآية الكريمة: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

إنه لابد من عمل يقوم به المرء داخل نفسه حتى تصلح، عمل مرهق جاد يكسر الرغبة الجامحة، ويخضع الإنسان لوصايا الرحمن : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾.

وأشكال العبادات لا تصنع ذلك التغيير الحاسم إذا لم تمح الصلوات الحسد والحقد من نفسك، فلا صلاة لك، السجود الحقيقى ليس انطواء الجسم أمام الله

بل هو انقياد القلب لهداياته ووصاياه، الخيط المعقد لا ينحل ويسترسل إلا بفك عقده عقدة عقدة، ولا تفيد فى ذلك تغطية ولا تحلية، النفس المعقدة لا تعود لفطرتها ولا تستقيم مع سجيتها إلا بعد ذهاب عللها، وعودة العافية إليها.

فإذا كانت العبادات استعانة بالله على بلوغ هذا الهدف، وإذا قبلها الله، وأعان الضارع فى ساحته فأصلح نفسه، وأقام عوجه فالعبادة صحيحة مقبولة وإلا فالوضع لم يتغير.

إننى أراقب نفسى وأراقب من حولى فأرى أن بيننا وبين الصلاح الحق بعدًا سببه أننا قد نعرف الدواء ولا نحسن التداوى ولا نصبر على مطالبه.

وهناك من يجهل أنه مريض، ويقاوم من يطلبون له الشفاء بل قد يزعم أنه هو الطبيب الخبير بكل شىء.

فلنعد مرارًا إلى فهم الآيات الكريمة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾.

لا أستطيع الفصل بين تقوى الله وحسن الخلق، ربما عاملنى شخص ما بلطف، ونظر إلىّ بوجه طليق، وهذا شىء أحمده له، لكن ما العمل إذا كان هذا الشخص لا يذكر لله عهدًا، ولا يشكر له نعمة، ولا يدين له بولاء؟

هل أعد هذا الشخص فاضلاً لأنه أحسن معاملتى فى حين أساء معاملة ربه؟

أعرف أن الحضارة الحديثة أغفلت الجانب الإلهى وأسقطته من كل حساب لكن هذا المسلك من أوزارها لا من مناقبها.

الإنسان الخير لا ينقسم على نفسه فيكون طيبًا هنا وخبيثًا هناك بل تسود خلاله صبغة واحدة ووجهة ثابتة.

نحن نعد أعداء المجتمع البشرى مجرمين؛ لأنهم يعتدون وينحرفون والقرآن الكريم يثبت الصفة نفسها على من يخاصم الله ويلحد فى دينه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾. صدق الله العظيم.

أسباب ونتائج

من أهم ما كتب الدكتور أحمد صبحى منصور: هذا الفصل النفسى فى النقد الذاتى للتاريخ الإسلامى، ننقله عنه مقدرين الفكر الذكى الذى أملاه، من بين عشرات السفاحين الذين أهلكوا الحرث والنسل يتمتع «هولاكو» بمكانة خاصة فى تاريخنا الإسلامى والعربى، فهو السفاح الذى أطاح بالدولة العباسية والذى قتل فى بغداد سنة ٦٥٦هـ ما يقرب من ٢ مليون نسمة، إنه سجل دموى يستحق عليه هولاكو - بلا شك - كراهيتنا واحتقارنا، ولكن المسئولية لا يتحملها هولاكو وحده! اللوم ينبغى أن يوجه أولاً إلى أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسى الذى حمل أمانة المسلمين ففرط فيها، والذى مازال بعضنا يذرف الدموع حزنًا عليه وعلى الخلافة العباسية التى تمثل حتى الآن حلمًا من أحلام اليقظة لدى بعض الناس فى عصرنا، وقد وصفه المؤرخ ابن طباطبا بقوله: «كان مستضعف الرأى ضعيف البطش، قليل الخبرة بالمملكة مطموعًا فيه، وكان زمانه ينقضى فى سماع الأغانى والتفرج على المساخر، وكان أصحابه مسئولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام». وقد يقال: إن المؤرخ ابن طباطبا كان شيعى المذهب يتحامل على الخليفة المستعصم المشهور بتعصبه لأهل السنة، إلا أن مؤرخًا سنيًا موثوقًا فيه مثل ابن كثير يتفق مع ابن طباطبا فى رأيه يقول عنه: «كان محبًا لجمع المال، ومن ذلك أنه استحل الوديعة التى استودعها إياه الناصر داود بن المعظم، وكانت قيمتها نحوًا من مائة ألف دينار، فاستقبح هذا من مثل الخليفة، وأدى نهم الخليفة بالمال وحرصه عليه إلى أن عرض الخلافة للخطر حين هددها المغول، إذ إنه قطع عن الجنود أرزاقهم فى وقت هو أحوج ما يكون إليهم فيه، يقول ابن كثير إنه: «صرف الجيوش ومنع عنهم أرزاقهم حتى كانوا يتسولون على أبواب المساجد وفى الأسواق، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله». على أن شح الخليفة المستعصم بالأموال على الجند فى وقت حاجته لهم يقابله فى الناحية الأخرى إسرافه الشديد فى الإنفاق على خدمه وأتباعه من الظلمة الذين يأكلون أموال الناس، وكان أولئك الخدم من الجهال وأراذل العامة والمماليك الذين صعد بهم الزمن الردىء فى عصر انحلال الدولة العباسية فاحتكروا الثروة بينما عاش العلماء والأشراف يتضورون جوعًا،

ولنضرب أمثلة تاريخية على ما جرى فى أواخر الدولة العباسية حين أغدقت الأموال على الخدم فأصبحوا أعجوبة فى الثراء ومنهم:

١ ـ علاء الدين الطبرسى الظاهرى، كان دخله من أملاكه نحو ٣٠٠ ألف دينار، وكانت له دار لم يكن ببغداد مثلها وحين تزوج دفع صداقًا قدره ٢٠ ألف دينار.. ووهب له الخليفة المستنصر ليلة زفافه ١٠٠ ألف دينار، وألحقه بأكابر الدولة ومنحه ضيعة كانت تدر له دخلاً يزيد على ٢٠٠ ألف دينار سنويًا.

٢ ـ مجاهد الدويدار، قيل عن أملاكه: إنها كانت «مما يتعذر ضبطه على الحساب» وفى ليلة زفافه حصل على هدايا من الجواهر والذهب ما يزيد على ٣٠٠ ألف دينار، وفى صباح زواجه أنعم عليه الخليفة المستعصم بـ٣٠٠ ألف دينار، وكان إيراده السنوى من مزارعه وأملاكه أكثر من ٥٠٠ ألف دينار.

٣ ـ عبدالغنى بن فاخر، شيخ الفراشين فى قصر الخلافة كانت داره تشمل عدة حجرات وفى كل حجرة جارية وخادمة وخادم، ثم رتب لكل جارية عملاً، فواحدة لطعامه وأخرى لشرابه، وأخرى لفراشه، وأخرى غسالة، وأخرى طباخة.

وفى المقابل كان أعظم العلماء وقتها لا يتقاضى أحدهم أكثر من ١٢ دينارًا شهريًا فحسب!! وذلك هو المرتب الذى كان يأخذه علماء المدرسة المستنصرية! وابن القوطى وابن الساعى أشهر مؤرخى ذلك العصر كان كلاهما يأخذ راتبًا شهريًا قدره عشرة دنانير، فأين أولئك من شيخ الفراشين فى قصر الخليفة؟! وفى ذلك الوضع المقلوب لابد أن تكتمل الصورة المقيتة لأى إمبراطورية على وشك السقوط بغض النظر عن اللافتة التى ترفعها، سواء كانت إمبراطورية فارسية أو بيزنطية أو رومانية أو عباسية، لابد أن تتفشى الرشوة وتكثر مصادرة الأموال وتتفاقم الاضطرابات الداخلية مع الانحلال الخلقى والانشغال بالتوافه عن الخطر الذى يدق الأبواب، يقول الغسانى صاحب كتاب «العسجد المسبوك» يصف السلطة العباسية فى أواخر أيامها: «واهتموا بالإقطاعات والمكاسب وأهملوا النظر فى المصالح الكلية، واشتغلوا بما لايجوز من الأمور الدنيوية، واشتد ظلم العمال ـ أى الحكام ـ واشتغلوا بتحصيل الأموال، والملك قد يدوم مع الكفر ولكن لايدوم مع الظلم»، صدقت يا غسانى «إن الملك قد يدوم مع الكفر ولكن لايدوم مع الظلم».

لا تلعنوا هولاكو وحده

القاعدة الإلهية تقول: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ولايمكن أن يحل التدمير إلا إذا استشرى الظلم: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

ويذكر فى التاريخ أن أمير المؤمنين المستعصم العباسى لم يستوعب الدرس ولم يعرف أن عقوبة الفساد مستمرة وإن تنوعت أساليبها، وقد رأى الخليفة المستعصم بنفسه طرفًا من ذلك قبل أن يقتله المغول رفسًا بالأقدام!

يقول الهمذانى فى كتابه «جامع التواريخ»: إن هولاكو بعد أن اقتحم بغداد دخل قصر الخلافة وأشار بإحضار الخليفة المستعصم وقال له: «أنت مضيف ونحن الضيوف.. فهيا أحضر ما يليق بنا» فأحضر الخليفة وهو يرتعد من الخوف صناديق المجوهرات والنفائس، فلم يلتفت إليها هولاكو ومنحها للحاضرين، وقال للخليفة: «إن الأموال التى تملكها على وجه الأرض ظاهرة، وهى ملك عبيدنا، لكن اذكر ما تملكه من الدفائن ما هى وأين توجد؟» فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر فحفروا الأرض حتى وجدوه وكان مليئًا بالذهب الأحمر، وكان كله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال.

واستحق الخليفة احتقار هولاكو السفاح الدموى، إذ تعجب هولاكو، كيف يكون للخليفة كل هذه الكنوز ثم يبخل على الجنود بأرزاقهم؟

ولم ينس هولاكو أن يذكر ذلك فى منشوره الذى أرسله إلى حاكم دمشق ينذره بالتسليم ويخوفه من مصير الخليفة العباسى وما حدث لبغداد، ويقول فيه عن الخليفة المستعصم: «واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة وكانت نفسه خسيسة فجمع المال ولم يعبأ بالرجال».

وقد أورد المقريزى خطاب هولاكو بالتفصيل.

ونعود إلى الهمذانى وهو يروى ذلك اللقاء بين هولاكو والخليفة فى قصر



الخلافة فيقول: إن هولاكو أمر بإحصاء نساء الخليفة فكانوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة! وتضرع له الخليفة قائلاً: «من على بأهل حرمى اللائى لم تطلع عليهن الشمس والقمر».

يقول الهمذانى: «وقصارى القول: إن كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل».

وبسبب ذلك الكم الهائل من الكنوز التى ورثها هولاكو من الخليفة العباسى فإنه صهرها جميعا فى سبائك وأقام لها قلعة محكمة فى أذربيجان.

لقد كان هولاكو، ذلك الهمجى السفاح يعى تمامًا أنه عقاب إلهى للخلافة العباسية والحكام الظلمة فى المنطقة، وحرص على إبراز هذا المعنى فى رسائله إلى الحكام؛ يقول فى رسالته إلى حاكم دمشق: «إنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها»، ويقول فى رسالته إلى السلطان قطز فى مصر: «يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها.. إنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه.. فإنكم أكلتم الحرام ولا تعفون عن كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة».

وربما استفاد السلطان قطز من هذه الرسالة فكف المماليك عن الظلم، واستعاد شعوره الدينى.

وفى غمرة عين جالوت حين أوشك جنوده على الفرار صرخ: «واإسلاماه» وألقى بخوذته ونزل للمعركة بنفسه فكان الانتصار.

هكذا تقوم الدول وتنهار، وأساس الانهيار يبدأ من الداخل، وقد يأتى تدخل خارجى ليعجل بالسقوط، ولكن يظل الانهيار الداخلى هو بداية النهاية وعاملها الأكبر، ويأتى الانهيار الداخلى حين تتكون طبقة مترفة تتحكم فى الثروة وفى الجماهير فتنشر الظلم والانحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة، وتتضاءل فيه الفوارق بين الحياة والموت.

والقرآن الكريم يضع العلاج فى تشريعاته الاقتصادية التى تمنع تركز المال فى يد فئة واحدة، ويأمر فى الوقت نفسه بالزكاة والإنفاق فى سبيل الله، بل يأتى

الأمر أحيانًا فى صورة التهديد كقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ومعناه أنه إذا لم يكن هناك إنفاق فى سبيل الله فالتهلكة هى المقابل، وإذا كان هناك إنفاق فى سبيل الله فلا مجال إذن لتركز المال فى طبقة قليلة العدد يتحول ثراؤها إلى ترف.

ويقول تعالى مهددًا المسلمين فى عصر الرسول ﷺ: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾.

لقد أساء المستعصم فى تعامله مع خدمه وأتباعه فأغدق عليهم فى المناسبات مئات الألوف من الدنانير فى الوقت الذى كان يتضور فيه العلماء والشرفاء جوعًا.

أبعد هذا نظل نلعن هولاكو وحده؟؟؟!!!

طفولة فجة

شرائع الأنبياء التى آلت إلينا، واتضحت معالمها فى رسالتنا، وانتفى عنها كل خطأ وعوج، تقوم على أمرين جليلين: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وإقامة الدين تعنى دعم قواعده، وتوسعة سرادقه، مع إحصاء لشعب الإيمان كلها، وتنشئة الأجيال الحاضرة واللاحقة عليها.

أما النهى عن التفرق فيه، فإن الكيان الحى لا ينقسم على نفسه، بل ينتشر الحس فى جميع أعضائه وأجزائه فإذا اتجه إلى غرض اتجه كله بعزم واحد، لم ينشط البعض ويتخلف أو يفتر البعض الآخر.

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ كيان واحد يلتف حول سياج واحد! ولم ذلك؟ لأن الأعداء متربصون به، هم به ضائقون ومنه نافرون، وله كائدون، إنهم يكرهون عقيدة التوحيد وما انبنى عليها، ويشمئزون منها، ويتجهمون لأصحابها ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾.

من أجل ذلك لخص القرآن الكريم واجبات حكمة الحق فى هاتين الجملتين ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.

ما أيسر النطق بهما، وما أصعب الحفاظ عليهما.. وقد نظرت إلى أمتى الإسلامية، واستشعرت عجبًا من مواقفها!

أنا وصاحبى نؤمن بجملة العقائد المطلوبة، وأنا وهو مشغولان بما يستنفد العمر وفاء بأعباء الحق وتكاليفه، ومع ذلك نهدر الكثير المتفق عليه، ونحتفى بالقليل الذى يظن فيه خلاف! أنا وهو مثلاً نؤمن بأن الله حق، وأنه واحد، وأنه لا شريك له، وأنه لا يشبه المخلوقات: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وتبعات هذا الإيمان المجمع عليه كثيرة فى ميادين الأخلاق والأعمال والدعوة والجهاد، وشئون الحياة كلها.

ومع ذلك فقد يرد فى دين الله مثلاً أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فى ثلث الليل الأخير، فيغفر للمستغفرين ويجيب السائلين.. إلخ.

فنقول جميعًا: يستحيل أن يكون النزول على حقيقته المادية، يخلو منه المكان الذى تركه، ويشغل به المكان الذى قصده، ونتفق على أنه على كل شىء شهيد ومهيمن ومقتدر.. إلخ، ثم يقول بعضنا: المقصود بالنزول التجلى، ويقول الآخر: هو نزول يخالف ما نألف، ولا ندرى كنهه.

هل هذا التفاوت فى الفهم أو التعبير، فى هذه القضية وأشباهها يجعل الأمة أحزابًا متباغضة، وأقسامًا متنافرة، وفرقًا يضرب بعضها بعضًا، كى يهى صفنا كله أمام الكافرين بالله، الكارهين لوحدانيته وجلاله؟

لقد تدبرت هذه الحال ونتائجها، وتذكرت قول رسولنا: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل**».

بل لقد ساءلت نفسى: هؤلاء المولعون بقضايا الخلاف صغراها وكبراها، والذين يحشدون أفكارهم ومشاعرهم وأوقاتهم للانتصار فيها، والفرح بخذلان مخالفهم، هل هم مخلصون للقضايا المتفق عليها؟ لماذا ننسى القواعد التى تجمعنا ونهش للدروب التى نتفرق فيها؟

الحق أن هذا الاهتمام بالأمور الخلافية لون من الطفولة الفجة، والزيغ الضار بأهله من ميدان الحق؛ لأنه كثير التكاليف، إلى ميدان آخر لا مشقة فيه ولا تزحمه واجبات ثقال.

المســـلك الــراقــى

أتألم وأنا أنظر إلى الماضى وذكرياته المؤذية.

وإلى الحاضر المحرج للأمة الإسلامية، وهى خمس العالم من ناحية التعداد.

تبحث عنها..

فى حقول المعرفة.. فلا تجدها..

فى ساحات الإنتاج.. فلا تحسها.

فى نماذج الخلق الزاكى، والتعاون المؤثر، والحريات المصونة، والعدالة اليانعة.. فتعود صفر اليدين!

بماذا أشغلت نفسها؟

بمباحث نظرية شاحبة، وقضايا جزئية محقورة، وانقسامات ظاهرها الدين وباطنها الهوى.

واستغرقها هذا كله، فلم تعط عزائم الدين شيئا من جهدها الحار، وشعورها الصادق.

فكانت الثمرات المرة أن صرنا حضاريًا وخلقيًا واجتماعيًا آخر أهل الأرض فى سلم الارتقاء البشرى!

حكومات فرعونية إقطاعية، وجماهير تبحث عن الطعام، وفن يدور حول اللذة وطرقها، ومتدينون مشتغلون بالقمامات الفكرية وحدها كأنما تخصصوا فى التفاهات.

أما العالم المتقدم فهو يعبد نفسه، ويسعى لجعل الشعوب المتخلفة ـ وأولها المسلمون ـ عبيدًا له، وأرضهم مصادر للخامات التى يحتاج إليها، أو الأتباع الذين يستهلكون ما يصنع.

ثم.. هناك بعيدًا عن الأعين بنو إسرائيل يمكرون ليقيموا الهيكل، كى يحل الله فيه ويحكم بهم العالم، أو جماعة الكرادلة والكهان الذين يعملون لإقامة مملكة الرب، تمهيدًا لنزول المسيح ـ عليه السلام ـ له المجد!

وأنا رجل مسلم امتَنَّ عليَّ الحق فعرفت دينى بعد دراسة نقية للوحى الأعلى ولا بأس أن أذكر بعض ما أعتمد عليه وأنا أتحرك هنا وهناك أشعر أحيانا بفخر وأنا أقول لنفسى: إننى مع الملائكة أشهد لله بالوحدانية والعدالة.

أليس يقول الله تبارك اسمه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ صدق الله العظيم.

إننى مع كل ذى معرفة شريفة نشارك الملأ الأعلى فى إعظام الله وإجلاله، والانسياق مع أسمائه الحسنى.

العلم عندنا يستحيل أن يخاصم الدين أو يخاصمه الدين، وقضية النزاع الموهوم بين العلم والدين لا صلة لها بالدين الصحيح، قد يقع النزاع بين العلم وبين البوذية أو البرهمية أو عقائد اقتبست منهما، أو متدينين انتسبوا إلى الله وظنوا أنهم يسيرون على طريقه المرسوم، فغضب عليهم لما كذبوا عليه .

أما العقل السليم فهو الأداة الوحيدة لفهم الوحى، والكون على سواء.

ومن ثم فمادمت مستقيمًا مع عقلى، فأنا متشبث بدينى، سائر على الفطرة، بعيد عن الانحراف!

وأمر آخر لا غنى عنه، أشعر بالفخر وأنا أستحضره!

أقول لنفسى: إننى وراء محمد ﷺ - الإنسان الكامل - عندما يقول الله له: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

نعم أنا من أتباع محمد ﷺ فى الدعوة على بصيرة.

وقد شاء الله أن يجرد سيرة نبيه الخاتم ﷺ من كل شائبة للكهانة، وتجاوز للإنسانية المجردة.

فإذا عربى من أعماق الجزيرة المعزولة عن التاريخ يخرج على الناس بكتاب مبين، ومسلك فى بناء النفس والجماعة لم يعرف التاريخ ولن يعرف أزكى منه ولا أرقى.

سلاح العدو وسلاحنا فى هذه المعركة الطويلة

فى هذا الجزء المنكود المنتزع من وطننا الكبير يحاول اليهود ترسيخ أقدامهم ومضاعفة قواهم، وإنهم ليقبعون وراء الحدود الموهومة التى أحاطوا بها دولتهم لا ينقصهم جد ولا عبوس يتأهبون ليوم آخر قد تنكمش فيه هذه الحدود التى تتلاشى، وقد تتسع حتى ترضى أمانى المغيرين، وطالب الملك لايأسى على مغرم ولا ينكص عن تضحية، وكما قال امرؤ القيس قديمًا لصاحبه :

فــقــلــتُ لــه: لا تــبكِ عــيــنُــك إنما
نــحــاولُ مُــلــكًــا أو نموتَ فــنُــعــذَرا

وعلى أطراف الأراضى التى اقتطعها اليهود والتى لاتزال الدماء تقطر من حز السيف فى تمزيقها، على هذه الأطراف المحزونة يسكن العرب اللاجئون، أصحاب البلاد المطرودون، وقد بلوا بأشياء كثيرة من الجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات، إننى عشت معهم ليالى وأيامًا، عرفت فيها نفوسهم عن قرب، وسمعت أزيز البكاء الذى يغلى فى أجوافهم لغدر الأقارب والأباعد بهم، وخشونة الحياة التى سحقت كرامتهم وأكرهتهم أن يتسولوا الإعانات من قاتليهم، وكانوا قبلاً أهل جاه ومنعة.

فــبــيــنــا نســوسُ الأمــرَ والأمــرُ أمــرُنــا
إذا نــحــن فــيــهــم سُــوقــةٌ نــتــنصّــفُ
فَــأُفٍّ لــدنــيــا لايــدوم نــعــيــمُــهــا
تــقــلَّــب تــاراتٍ بــنــا وتُــصــرَّفُ

كنت بعيدًا عن أسرتى، فكلما أقبل ولد من بعيد تفرست فيه ملامح أولادى، وكلما انتحب طفل على ذراع أمه التى أنحفها الفقر وَجَفَ فؤادى، إن أولئك اللاجئين محبوسين فى مخيماتهم لا يدرون ما يأتى به الغد، فرب رجل جثا بعد مهابة، وأم تبذلت بعد احتشام، أما الأجيال النابتة فى هذا التيه المائج فإن الخطة المرسومة لها أن تنمو وليس لها صلة بأرض ولا ثقة بأهل، ولا رضا فى حاضر، ولا أمل فى مستقبل، وهل يدع سعار الحرمان فسحة فى قلب أو فسحة من

وقت لشىء من هذا، إننى لا أعجب لشىء عجبى لأن اللاجئين بقوا إلى اليوم أحياء مع أن الاستعمار الغربى هيأ كل شىء للإجهاز عليهم وإسلامهم لموت محقق.

وما عقبى التحسر وما جدواه؟ وإن اليهود ماضون فى إعدادهم الرتيب القوى للجولة المرتقبة، وسوف يدفعون فرقهم يومًا ما لتنازلنا فى موقف حاسم، وليس أمامنا إلا أن نلقاهم، فإما كشفنا السواد الذى صبغ وجوهنا بالعار، وإلا فبطن الأرض خير لنا من ظهرها، والدول العربية التى تحدق بإسرائيل لن يعجزها أن تحمى ذمارها، وأن ترد الغزو الصهيونى من حيث جاء.

إن اليهود فى البقعة التى احتلوها لن يزيدوا عن عدة ملايين، فهم لا يضاهون أقل دولة عربية من حيث العدد، إلا إذا اعترفنا فى صراحة أن الجنس الإنسانى قد تحدر فى دمائنا وخصائصنا، إلى هاوية لا تغنى معها كثرة العدد واتساع الرقعة، وقرب الوسائل، وإمكان النجاح.

ومن الصدف العجيبة أن يقع فى يدى مقال رائع صادق كتبه الاستاذ «أحمد رمزى» قبل معارك فلسطين الأولى، وشرح فيه سياسة «الصهيونية» فى كفاحها ضد العرب، وأسباب الغلب التى استجمعتها قبل أن تسدد إلينا ضربتها.

إن اليهود لم يربحوا الجولة الأولى ضد أمة العروبة مجتمعة لأن ملائكة السماء نزلت تعينهم، أو لأن الخوارق القاهرة صنعت من أجلهم، فقد علمت أن انتصارهم جاء وفق سنن مطردة، وأن الوسائل التى رجحت كفتهم عادية بحتة، وأننا يوم نعمل مثلما يعملون ونجهد مثلما يجهدون فلن يقر لهم قرار.

والحرب فى هذه الأعصار نضال شامل تحشد فى سبيله طاقات الشعوب كلها مادية ومعنوية، ونظرة عجلى إلى ما لدى الصهيونيين من عناصر القوة ترينا ما ينقصنا قبل أن نتعرض لجولة أخرى، وما ينقصنا الآن يتصل بكياننا الاقتصادى، وإنتاجنا الصناعى ونهوضنا النفسى والعلمى.

وأجدنى منساقًا مع الكاتب الصادق إلى ترديد العبارات والمعانى التى هتف بها بضع سنين ولم تجد وعيًا صحيحًا يتلقفها ويجعل منها نبراسًا.

الفجوة السحيقة بيننا وبين اليهود في الإعداد والتخطيط

لم تكن غلبة اليهود علينا صدفة عارضة أو معجزة خارقة أو قدرًا قاهرًا، كلا، بل جاءت نتيجة متسقة مع مقدماتها كما يجيء حاصل الجمع أو باقى الطرح صحيحًا فى حساب الأرقام.

كان العكس - لو وقع - هو الأمر الذى يستحق التساؤل ويحتاج إلى ألف تفسير، وصحيح أن جمهور المسلمين خاض المعركة وهو واثق من كسبها، إنه فى طوفان الخطب الرنانة والمقالات الحالمة لم يحسن تقدير شيء مما عند خصومه، بيد أن قوانين الكون لا تلين مع من يجهلها، هب قرية فى الريف تركت الحقول من غير غرس وسقى، ثم اجتمعت في المسجد تبتهل إلى الله أن يمنحها ثمرًا طيبًا! أو هب جماعة من العزاب ترهبوا وانقطعوا فى صوامعهم وطلبوا من الله أن يرزقهم البنين والبنات!

إن هؤلاء وأولئك ستنشق حناجرهم بالدعاء ثم تعود أيديهم صفرًا! ولقد أحسست - بعد بلاء طويل - أن ما فاتنا فى مضمار الخلق الشخصى والتعاون الجماعى، يشبه ما فاتنا فى ميدان العلم المادى ووسائل الكشف والاختراع والصناعات والإنتاج.

ولندع علماء الحياة فى بلادنا يلهثون وراء أساتذتهم فى الغرب يقتبسون منهم ويتلقون عنهم، ويحاولون جاهدين أن يرقوا بأوطانهم فى نواحى المعرفة وآفاق الحضارة، لندع علماءنا هؤلاء فى جهادهم الحميد، ولنرقب يومًا تشاد فيه المصانع الخفيفة والثقيلة لتمدنا بحاجاتنا الماسة إلى ما يدعم جانبنا فى السلم والحرب على السواء، ولتغنى فقرنا الفاضح فى شئون العمران كله، ولتضع نهاية قول الشاعر:

إن الذين بنى «المسلةَ» جدُّهم
لا يُحسنون لإبرةٍ تشكيلا

نعم، لندع هؤلاء فى جهادهم، ولنتجه - نحن المربين - إلى ميدان آخر لانزال



نتعثر فى مقدمته أو مؤخرته، بينما ملك غيرنا الطليعة ومضى فى سباقه لا يلوى على شىء، يجب أن نصارح أمتنا بأن حصيلتها من أخلاق الحياة الصحيحة وتقاليد الجماعات الموفقة أتفه من حصيلتها من علوم الذرة.

وما بنا من عشق للإزراء على أمة نحن منها، يزيننا ما يزينها، ويشيننا ما يشينها، إنما هى رغبتنا فى الإصلاح، وفى علاج الأدواء الدفينة، تجعلنا نصبح محذرين أو نلكز النيام موقظين، خصوصًا إذا كان العليل مخدوعًا فى نفسه لا يجهل علته فحسب، بل يحسبها بعض ما أوتى من قوى، وقديمًا رأى العلماء أن الجهل المركب أغلظ من الجهل البسيط، وأن الأدعياء ـ من كل لون ـ لا يرجى لهم خير، إن الأمثال تضرب لفساد «الروتين» الحكومى عندنا، وهذه الكلمة غطاء لقصور أو تقصير جمهور الموظفين وتراخيهم المحزن فى أداء واجبهم، وذهولهم التام عما حملوا من أمانات، وجروا من تبعات، ومسلك كثير من الموظفين يُظْهِر تقطُّعَ الأواصر بين الأفراد والأمة التى نبتت فيها والدولة التى تشرف عليها، وقد تنقلت فى إدارات ومصالح شتى فوجدت العيب الأول فى الموظف نفسه، لا فى النظام المرسوم له مهما كان معقدًا، فهو يوم يريد إنجاز أمر بعينه، يوطئ له الطريق وييسره بسرعة البرق، وإلا أداره فى حلقة مفرغة لا يخرج منها أبدًا، أى أن المشكلة فى «الخُلق» و«الضمير» قبل كل شىء، ولما كانت أمعاء الدولة داخل هذه الدواوين الراكدة، بين أصابع مديرين وكتبة من هذا الطراز، فلا عجب إذا أزمن فيها «المغص» وتعفنت فيها حاجات الناس، ونعدو الأداة الحكومية إلى غيرها من نواحى مجتمعنا الأخرى، فيروعك فى القرية وفى المدينة جميعًا أن المسلمين صرعى تقاليد بالية وأفكار مريضة، فالغباوة فى فهم القدر كسرت الهمم وأقعدت الآمال، والغباوة فى فهم التوكل أشاعت الفوضى وأغرت بالكسل، ولما كانت الغرائز الدنيا أقوى من أن تكفها الأخطاء السائدة فى فهم الحياة، فقد انطلقت تخط لنفسها مجالاً بدائيًا يسر ارتكاب الجرائم واقتراف الدنايا حتى بلغ

عدد الجنايات عندنا حدًا مروعًا، وإنك - للنظرة الأولى - تلمح الانهيار والتفكك الغالبين على النفوس، مع أن ذلك - فى حكم القرآن - من أمارات الكفران والبعد عن الله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

وقد اضطررت - وأنا أعظ الناس أحيانًا - إلى أن أنفى القدر الذى يرادف فى أذهانهم الجبر، وأن أنفى التوكل الذى يعنى فى أفهامهم السكون، وأن أنفى الرجاء الذى يجعلهم يتوقعون رحمة الله بغير عمل، ونصره بغير جهاد.

إن تأخرنا الاجتماعى يجب أن ينتهى على عجل، وليقارن العقلاء بين أحوال اليهود وأحوالنا ليعرفوا سر انتصارهم وخذلاننا.

عصابـــات وحكومـــات

أسوق قصة حدثت لى ذات يوم فى أثناء تجوالى فى جنوب فلسطين قبل حدوث المحنة الكبرى للعرب والمسلمين فى فلسطين وليقارن العقلاء بين أحوال اليهود وأحوالنا، وليعرفوا سر انتصارهم وخذلاننا.

قال لى أحد رؤساء العشائر وقتها: خرب الدولاب الذى يستخرج الماء من البئر فى حقلنا، فذهبت إلى الإخصائى اليهودى فى المستعمرة القريبة كيما يأتى لإصلاحه.

وبكرت إليه أتعجله، فإذا هو يقوم بأعمال موكولة إليه فى المستعمرة فوقفت أحادثه وأتبسط معه وناولته (سيجارة) فأخذها ووضعها على أذنه ثم قال: إن الوقت إلى الساعة الثانية بعد الظهيرة من حق المستعمرة فلا أحب أن أشغله بشىء.

وعندما أنتهى منه أذهب إليك مساء.

وحسم الموقف ليستأنف خدمة أمته ورعاية شئونها.

ونزح يهودى من ألمانيا إلى فلسطين أثناء اضطهاد (هتلر) لقومه، وكان الرجل ذا ثروة كبيرة، تركها خلفه وهو هارب، فلما تغيرت حكومة ألمانيا، وعوض اليهود عما فقدوا، أرسلت لليهودى النازح أمواله، وكان آنئذ فقيرًا يشتغل خفيرًا فى إحدى المستعمرات.

فقال له عربى يعرفه: إن الثراء هبط عليك فجأة، فهل ستشترى المستعمرة كلها لتصبح مالكًا لها. فقال اليهودى الخفير: ما أفعل بالمال لنفسى، إن أولادى يتعلمون بالمجان فى المدرسة، وقد كبرت سنى، فسأهب هذا المال كله لشئون المستعمرة العامة، ولن أطلب من المسئولين إلا أن يغيروا الكلب الذى يساعدنى فى الحراسة فقد ضعف بصره.

أرأيت إلى ما تحلى به هؤلاء الناس من إيثار وإخلاص؟ ثم أرأيت إلى ما تخلينا نحن عنه من فضائل الكفاح وأدواته؟

من أجل أى شىء ينصر الله الجهل على العلم، والفوضى على النظام؟

لقد كان بعض المجاهدين أحسن من تصدى لقتال اليهود والدفاع عن الأرض المقدسة، ومع ذلك فلن أنسى أبدًا تفاصيل أول معركة دارت بين شبابهم ومستعمرات (ديروم)، وهى المعركة التى فقدوا فيها اثنى عشر شهيدًا من خيرة أهل الأرض إيمانًا وشجاعة، ولم تفقد فيها المستعمرة الصهيونية إلا الرصاصات القاتلة، ولم؟

لقد رسم خطة الهجوم طفل كبير، لا يدرى من فنون القتال إلا قراءة الأوراد وإطلاق المسدسات فكان ما كان.

يا عجبًا، تعوزنا أخلاق البذل والإقدام، فإن وجدناها فقدنا مواهب القيادة الصحيحة.

لقد أسمينا مقاتلى اليهود رجال العصابات، وكلمة عصابة تعنى نفرًا من اللصوص يشتغلون بالسلب والنهب، يسطون على الآمنين، ويتحينون الفرص للغدر والفرار، فهى على النقيض من كلمة (حكومة) التى ترمز إلى رياسة محترمة، وإدارة نابهة، ونظام واضح.

وعندما اشتبكت عصابات اليهود مع دول الجامعة العربية السبع لم يتوقع المسلمون إلا أن هذه الحكومات المهيبة ستؤدب العصابات الثائرة وتسترد منهم الأرضين والأموال التى أغاروا عليها وأخذوها.

فلما التقى الجمعان علم المخدوعون أن العناوين المزورة لا تغنى عن الحقائق الكريهة.

إن باعة البصل ينادون عليه فى أسواقه بالرمان، وباعة الترمس يصيحون عليه: يا لوز، وهيهات أن ينطلى هذا الدلال على أحد.

الوكالة اليهودية كانت حكومة مزودة بأذكى الخبراء وأقوى الجيوش وأعتى الساسة، فلو سألت الجهة المختصة فيها عن شبر من صحراء النقب: عن طبيعته وقيمته ومدى قربه أو بعده عن الماء، لاستخرجت لك مصورات جغرافية وجيولوجية تشرح كل شىء فيه، أما رؤساء اليهود فهم رسامو العقائد الصهيونية، وجامعو الشمل الممزق فى المشارق والمغارب.

وأما اليهود أنفسهم فقد جمعت بينهم أساليب حياة وصهرتهم خلقًا جديدًا. كانوا شعبًا فتيًا يطلب الحياة ويبنى مستقبله.. أما نحن فلا.



رذائلهم أخلاقنا

عندما قامت حرب فلسطين اشتركت بعض دول المسلمين فى القتال بقوى رمزية لأنها.. لا قوة لها، وقنع البعض الآخر بالدفاع عن حدوده وحسبه أن ينجو بجلده، والبعض الآخر كانت قيادته فى أيدى أعدائه المحتلين، أما مصر - كبيرة دول الجامعة العربية وقطب هذه الحرب - فقد كانت تحكمها عصابة تشتغل بالسلب والنهب والاغتيال. ففى ظل دستور لم تحترم منه مادة، يجعل الشعب سيد نفسه سلبت جميع السلطات ووضعت فى يد غلام عابث يسمى صاحب الجلالة الملك! ووصلت الألوف المؤلفة لتحرير فلسطين، فسرق شطرها وشرى بالشطر الآخر أسلحة لا جدوى منها. ودارت الحرب، فرسم خطتها رجال لو التحقوا بالجيوش الأخرى لجردوا من أوسمة القيادة؛ لأنهم لا يحسنون شيئًا أبدًا، ووقع ما لم يكن منه بد. طارت القشور التى صنعها الخداع، فإذا عصابات إسرائيل جيش محذور الفتك، وإذا كثير من حكوماتنا عصابات سطت على الحكم فسلبته وغررت بالأمة الحائرة فأهانتها وأذلتها، كيف تبارك السماء هذه المهازل؟ إن المسلمين أحوج أهل الأرض طُرًّا إلى أن تشخص لهم عيوبهم كى ينأوا عنها، فإن الذين يتجاهلون الحقائق ربما دفعوا ثمن هذا التجاهل اجتياح بقيتهم واستئصال شأفتهم، إذا كانت بضاعتنا الوهن والخلط والنكوص، وبضاعة أعدائنا الجرأة والأمل والحكمة، فأيان نربح؟ إن القرآن عاب اليهود قديمًا بأمور معينة، وصف تخوفهم من الناس وحذرهم من الخلق - مع جرأتهم على الله بالمعصية - فقال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. ووصف تقطع أواصرهم بالهوى واختلاف قلوبهم بالضغائن فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾. ووصف طمعهم فى أموال الناس وحرصهم

على أكلها سحتًا، فلا يردونها إليهم إلا عن إلحاح ويقظة، فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾. ووصف غرورهم بالانتساب إلى الله، وأمل عامتهم فى نيل النعيم المقيم دون عمل خطير وبذل جسيم، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾. ووصف تحاسد العلماء وغمطهم لصاحب الكفاية وتحقيرهم لما آتاه الله فقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾. ووصف تحجر طبائعهم ونضوب الرحمة من قلوبهم ولعبهم بالنصوص التى نزلت لهدايتهم فقال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾. استقص هذه الرذائل التى أسقطت غيرنا، ثم سل نفسك: أليست لها نظائر بيننا؟ نظائر..؟ إنها هى بعينها! فر اليهود الأخلاف منها وتهاوينا نحن فيها! فإذا التقينا بهم فى صدام عنيف فكيف يديل الله لنا منهم؟ والغريب أننا لا نعترف بعللنا ونبدأ فى التخلص من شؤمها.. وقف خطيب يقول للمسلمين: إن الشرق والغرب يأخذان نظام الحياة منا ويقتبسان الدقة من أعمالنا، وحملق أحد العقلاء فى صاحبه كأنه يسأله عن عقبى هذا الهراء.. إن المسلمين يعدون جبهة مغايرة لكلتا الجبهتين المتخاصمتين فى الشرق والغرب، ذلك بلا ريب ما تقتضيه تعاليم الإسلام، وما توجبه آيات الكتاب والحكمة، فافرض جدلاً أن زمام العالم أفلت من يدى الروس والأمريكان لتتسلمه هذه الجبهة الثالثة، ترى ما يحدث ـ والحالة هذه ـ؟ إن حركة العلم والصناعة سيعروها توقف مباغت، والدنيا المائجة بفنون لا حصر لها من المشاعر النابضة والأفكار اليقظة ستشل! قد تقول: لكن الربانية والفضائل والطاعات ستنتعش وتشيع، وهنا لا أملك نفسى من الضحك، إن مسلمى بلادنا أمثلة حسنة ولا ريب لهذه المعانى، وإنى لأتخيل هذه الأقطار فى وضعها

الراهن، تحتل أماكن الصدارة فى العالم، فتأخذنى حيرة مظلمة! إن فاقد الشىء لا يعطيه، والذين عجزوا عن تحكيم الإسلام فى نفوسهم وبيوتهم وصفوفهم لهم أعجز من تحكيمه فى حدود دولة صغيرة بله حدود العالم الكبير، ألا فلنعرف أنفسنا، ولنصلح شئوننا، يغير الله ما بنا، وإلا فالأمر كما قال الله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾.

التـــربيـــة

التربية عمل يستغرق العمر كله منذ بدء التكليف إلى انتهاء الأجل. ومن الخطأ تصور التربية بناء يتطلب بضعة أشهر أو بضع سنين ثم يعقبه استجمام واسترخاء، المؤمن مع نفسه كقائد السيارة يظل يقظًا طول الطريق، وإلا فقد يهلك فى ساعة إغفاء.

وقد ألفنا فى حياتنا أن نجعل طلب العلم مراحل، وأن نمنح الدارسين إجازات أو شهادات تدل على ما نالوا منه، فهل التربية كذلك؟ لا، إن الأقساط التى ننالها من الاكتمال النفسى لم توضع لها سلالم واضحة، ولم ترصد لها علامات، لأن علم ذلك عند الله وحده أولاً، ولأن التربية ليست مناهج موقوتة، يقاس تحصيلنا فيها حينًا بعد حين.

إن المرء يجاهد نفسه بالغدو والآصال، سائرًا إلى ربه بثبات، والسائر إلى الله يترضاه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ولا يزال سائرًا يطوى مراحل حياته حتى إذا قارب النهاية قيل فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

لقد طابت نفسه كما يطيب الثمر على أغصانه، ثم يجىء الحصاد فى إبانه، فإذا نفس تهيأت لسماع النداء الأخير: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾.

وتتناول التربية الإنسان من عدة نواحٍ، الأولى: شعوره بنفسه فالشعور الإيجابى بالذات - أعنى عبادة الذات - يكاد يكون حجر الزاوية عند بعض الناس وهو أساس الفخر والكبر وحب الظهور وطلب الثناء والانسياق مع مطالب الرياء، وهو مصدر الحسد والعداوات الممتدة ظاهرة وباطنة.

والواقع أن الإنسان عندما يدور حول نفسه وحدها، لا يصلح لشىء ولا يصلح به شىء، ولعل ذلك سر اتفاق العلماء على أن أعمال القلوب أهم من أعمال

الجوارح، وأن معاصى القلوب أخطر من أنواع العوج الأخرى، ولن ينجو المرء من هذا الداء إلا إذا وثق روابطه بالله وصفى نيته معه، وحرص على ابتغاء وجهه وانتظار ما عنده، وجعل هضم النفس واحتقار العاجلة أغلب على سيرته وأوضح فى شتى معاملاته.

ويختلف حب الناس للشهوات اختلافًا واسعًا، نعم إنهم متفقون على إجابة غرائزهم البدنية، بيد أنى لاحظت أن هناك من يحب الطعام، وهناك من يحب النساء، وهناك من يحب المال، وهناك من يحب الشهرة، وقد يضحى بشهوة فى سبيل أخرى آثر لديه!

والتربية الصحيحة تستبقى من الشهوات القدر الذى تقوم به الحياة، وتراقب بحذر ما فوق ذلك، وفى تراثنا الدينى معالم مشرقة لهذا المنهاج الذى ينشئ النفوس إنشاء على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم.

وقد تأملت فى التراث الإنسانى الخصب، الجامع بين الدين والفلسفة والأدب، فلم أجد أغنى ولا أدق ولا أرق من الثروة التربوية التى تركها النبى محمد عليه الصلاة والسلام.

هناك عدة آلاف من الأحاديث المقبولة، وهناك معالم سيرة إنسانية طهور، تسبح فى فلك لا يقف أبدًا، إن التربية ليست وضع البذور فى أرض على رجاء مطر يجىء أو لا يجىء، ولا جهد وراء ذلك، كلا، إنها بذر وسقى وتعهد، ومطاردة للحشرات والأوبئة ومتابعة صاحية حتى أوان النضج، والمربون هم البيت ـ وأساسه المرأة ـ والمدرسة والمسجد والشارع والدولة، بما ملكته فى العصور الأخيرة من قدرات اقتصادية وثقافية وإعلامية.

والحق أن الصحابة والتابعين كانوا نتاج تربية نبوية مباشرة، جعلت منهم الجيل الذى حول الحضارة الإنسانية من حال إلى حال.

وأشعر اليوم بشىء من الأسى واليأس لأننا لا نجمع من عناصر التربية ما يجعل أمتنا تنبت فى مغارسها، ذاك فى وقت تعربد فيه شياطين الإنس والجن ويكاد الهوى ينفرد بزمام العالم أجمع.

واصطلــح الجميــع

يستحيل أن تقوم حضارة إسلامية تخاصم الكون وتجهل مفاتيحه، أو تخاصم الإنسان وتجافى فطرته، لأن القرآن الكريم يبنى الإيمان على فهم الكون ودراسة الإنسان، ورجال محمد عندما بنوا لكتابهم دولة، كانوا يسبحون فى بحر الحياة ويتعاملون بذكاء مع تياراته ومده وجزره، أو بتعبير الدكتور «لويس عوض» كانوا علمانيين خبراء بالمادة والمجتمع وشئون الحياة كلها.

سئل الدكتور لويس: هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة؟ فأجاب: كلا، وإذا كان الإسلام قديمًا قد استطاع التغلب على بيزنطة فلأنه كان دينًا علمانيًّا أكثر من الدين المسيحى فى القرن السابع، كان دينًا معنيًّا بأمور الحياة كما كان معنيًّا بالغيبيات والروحانيات، على حين كان نظام بيزنطة روحانيًّا مغرقًا فى الغيبيات، ثم قال الدكتور: «ويبدو أن ما تحلم به الجماعات الإسلامية هو الإسلام البيزنطى»، ولست بصدد التعليق الموسع على كلام لويس عوض، وإنما تهمنى الإشارة إلى أن التربية الإسلامية الصحيحة تقوم على فقه واسع فى الحياة والأحياء، فى الأرض والسماء، فى كل ما يؤثر فينا ونؤثر فيه، حتى لكأن ذلك كله ديننا ودنيانا وأولانا وأخرانا، ثم تسخير ما بلغناه بعد ذلك لإرضاء ربنا وكسب آخرتنا وفق الآية المعروفة: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، يستحيل أن يكون الجهل بالحياة دينًا أو أن يكون الفشل فيها تقوى، املك الدنيا بذكاء واقتدار ثم وجهها لإعلاء كلمة الله وإعزاز الإيمان ورفع رايته، إن من يملك صفرًا فى شئون الدنيا لن يكون إلا صفرًا فى شئون الآخرة، وقد رأيت أقوامًا لا قدم لهم فى آفاق المعرفة يريدون الحديث عن الله ودينه فاستغربت جرأتهم وقلت: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ كيف يعرف الله أو يعرف الناس به جاهل بالعالم وما فيه، وبالتاريخ ومباهجه ومآسيه. إن القرآن كتاب لا يرتفع إلى مستواه رجل عادى، ومحمد لا يستطيع

التأسى به إلا إنسان فى عقله نور، وفى قلبه نور، لا يمكن بناء قاعدة للتربية حتى نحدد أولاً موقفنا من الدنيا، أنعيش لها أم للدار التى بعدها؟ أم للاثنتين معًا؟ إن الحضارة الحديثة انطلقت من قاعدة مهدها عصر الإحياء من خمسة قرون قاعدة بشرية عقلانية تدرس السموات والأرض وما بينهما، وتستكشف أسرار المادة، ثم تجعل ثمرات الدرس والكشف لخدمة الإنسان! هل للدين موضع فى هذه الدراسات الجادة الدءوبة؟ كلا، لقد وقعت عداوة دامية خسيسة بين العلم والكنيسة، جعلت العلماء يعتقدون أن الدين مرادف للجهالة والجمود، وأن رجاله أوثان حية رديئة ينبغى الخلاص منها، فأين الإسلام عندئذ؟ لقد انتحر المسلمون فى الأندلس، وقضى عليهم العفن السياسى والترف الاجتماعى، وانشغال العلماء بقضايا جزئية ومسائل جدلية، لم يكن الأندلسيون فى النصف الثانى من تاريخهم نماذج مقبولة للإسلام، بل كانوا ينفرون منه، وهذا البلاء انتقل من المشرق الإسلامى إلى المغرب، فإن فساد السياسة والاقتصاد والعمران تكاثرت جراثيمه، وتنامت نتائجه حتى قضى التتار على الخلافة المعتلة ثم قضى الصليبيون من بعد على الدويلات الإسلامية فى الأندلس التى كان شغلها الشاغل التنازع على السلطة والثروة، صحيح أن الأتراك رفعوا راية الخلافة، واستطاعوا فى زحف باهر أن يخترقوا شرق أوروبا حتى النمسا، لكن الأتراك كانوا قوة عسكرية ولم يكونوا فجرًا ثقافيًا جديدًا، ولو صحبهم جهاز للتربية والتعليم والبلاغ المبين لكان لهم فى الأقطار المفتوحة شأن آخر، إنهم رفضوا أن يتعربوا، كما رفض العرب أن يؤثروا على أنفسهم وأن يتركوا السلطات لغيرهم، فكان التوسع الإسلامى خاليًا من بذور الحضارة الأولى، ومن أسباب الحياة الصحيحة، فسرعان ما انهار، وانهار العالم الإسلامى بعده، وأصبح أثرًا بعد عين! أما الأوروبيون، فبعيدًا عن الدين قرروا حرياتهم السياسية، ووضعوا «الماجناكارتا» بعد قتل الملك المستبد. حدث ذلك فى إنجلترا، واشتعلت الثورة الفرنسية، وكانت هى الأخرى كافرة بالدين، ووضعت لأصحابها نظامًا آخر، وكانت ثورة تتسم

بالبطش وتسرف فى الفتك.. ثم جاءت الثورة الحمراء مصحوبة بسيول من الدماء، وألوان من الوحشية وقد هدمت الكنائس بعدما فرغت من أهلها، أما المساجد فقد دفنت أهلها فيها، ومصاب الإسلام فى الاتحاد السوفيتى يحتاج إلى دراسات واسعة! المهم بعد هذه النظرة الخاطفة أن حضارة الغرب قامت من قرون على الكفر بالله، وإن كانت قد انتفعت ببعض المخلفات الإسلامية والإنسانية فى نهوضها، بيد أن شيئًا مثيرًا قد حدث مع بدايات القرن الأخير، فإن الصليبية لعقت جراحها، وأخذت تقترب من المنتصر، تتودد إليه، وتعرض عونها عليه، وكذلك فعلت الصهيونية، واصطلح الجميع على إخراج الرسالة الخاتمة والاستيلاء على ميراثها الضخم، وقد بدا لكل عين أنه ميراث لا صاحب له، أو بتعبير آخر لا حارس له! وشعر أتباع محمد بحرب الإبادة تقترب منهم، ونيات الغدر والفتك تلفح كيانهم.. واستيقظت نوازع الحياة فى الأمة المنكوبة، وشرع المدافعون فى ميادين العلم والتربية والاقتصاد والعمران، يتنادون لإنقاذ الرسالة التى أحدق بها العدو من كل ناحية، إن البلاء شديد، ولكن طريق الخلاص منه واضح، وبقدر ما نثوب إلى رشدنا ونستمسك بكتابنا تقوى الحصون، ويتراجع العادون.

أزمــــة اللغــــة العربيـــــة

عرف الناس خصائص الاستعمار الصليبى الذى أغار على أرضهم خلال الإعصار الأخير، كان غرضه الأهم والأوضح أن يمحو الشخصية الدينية لأمتنا، وأن يقطع حبالها على مر الأيام باللغة العربية، والمرء بعد فقدانه الإيمان واللسان، أو بعد فقدانه أصوله الروحية واللغوية، يمكن حسبانه مؤقتًا فى عداد المفقودين. بيد أن الاستعمار لا ينتهى به إلى هذه النتيجة ثم يتوقف.. كلا، إنه يعده سمادًا لجيل آخر، له عقيدة أخرى، ورطانة أخرى، كما تتحول الفضلات الحيوانية إلى تربة جديدة لكيان آخر مقطوع الصلات بالماضى القريب والبعيد معًا.

والسياسة التى اختطها هذا الاستعمار المكار تبعث على العجب، فالإنجليزى «سبنكس باشا» يعين قائدًا للجيش المصرى، والإنجليزى «رسل باشا» يقود شرطة القاهرة، والإنجليزى «دنلوب» يقود سياسة التعليم! ولا بأس فى طريق القضاء على اللغة العربية أن يستعان بأوربيين يعينون فى مؤسساتنا الثقافية، مثل المستشرق الألمانى «ولهلم سبيتا» الذى وظف بدار الكتب المصرية، وكان أول من دعا إلى نبذ اللغة العربية، وألف كتابًا عن قواعد اللهجة العامية فى مصر! وتبع هذا الموظف فى محاربة العربية موظف ألمانى آخر هو «كارل فولرس» الذى عين أمينًا للمكتبة الخديوية بالقاهرة!

وجاء بعدهما إنجليزى موغل فى التعصب، كان يشرف على مدرسة الهندسة العليا ـ كلية الهندسة الآن ـ اسمه «وليم ولكوكس» الذى منحته إنجلترا فيما بعد لقب «سير»، وتبنى أفكار الجميع عدد من اللبنانيين والمصريين الحاقدين على الإسلام، وكانت صيحاتهم لهدم المواريث الأولى لا ينقطع صداها. فتدبر ما قاله «سلامة موسى» فى كتابه اليوم والغد: «الرابطة الشرقية سخافة، والرابطة الدينية وقاحة، والرابطة الحقيقية هى رابطتنا بأوربا».

والذوبان المنشود فى أوربا يعنى بداهة طرح الإسلام والعربية، وإيجاد نبتة مهجنة تستخف بتكاليف الإيمان وأواصر الفصحى، وقد اتسعت هذه الدائرة، ووجد الداخلون فيها كل تشجيع مادى وأدبى، وأزيحت من أمامها العوائق، بل



كثرت من ورائها الدوافع، حتى كادت تستولى على مقاليد الأمة فى كل ميدان، لولا أن الصحوة الإسلامية التى تتجدد بها أمتنا على امتداد القرون تيقظت للخطر الداهم، وردمت منابعه ما استطاعت.

ولاتزال المعركة سجالاً بين الإيمان والإلحاد، وبين العامية والفصحى، مع ملاحظة أن ذلك الصراع أخذ مسارات شتى، بين التقليد والتجديد، أو الرجعية والتقدم، أو الأصالة والمعاصرة، ثم رأى الماكرون بالإسلام أن يتركوا هذه الموازنة ليكون العنوان الأوحد: القومية، أو الاشتراكية، أو العلمانية، ولعل السر أن المسلم مهما بلغ عصيانه يعود إلى دينه فجأة، إذا خير بينه وبين غيره من مذاهب، ومن هنا حلت النزعة الواحدة الجديدة محل الموازنات المقلقة، على زعم أن هذه النزعة لا تخاصم الدين!

والحق أن الإسلام لحقت به خسائر جمة، عندما ارتفعت راية القومية، عربية كانت أو غير عربية، وعندما ارتفعت راية الاشتراكية، شيوعية أو غير شيوعية، ثم جاءت العلمانية أخيرًا فكانت ثالثة الأثافى؛ ففى ظلها هان الإيمان، وسقطت قيم خطيرة، كما أن فى ظلها هبط الأدب العربى، وانتصرت الكلمات الأعجمية، ولوحظ فى المسرح والإذاعة والجامعة والصحف، أن الأمة تنحدر إلى هاوية ليس لها قرار.. وحديثنا الآن عن الأدب العربى واللغة العربية بعامة.

يرى الأستاذ الكبير أحمد موسى سالم أن الضعف العام بدأ من عصر مبكر، وأن فساد الحكم من ورائه، فيقول: «لكن هذه اللغة مع بداية استرخاء الحكام العرب فى القصور، ومع غيبة المجاهدين المرابطين فى الثغور، ومع ما أصاب عامة العرب من زوار المدن أو المقيمين بأطرافها، من فتنة بالمعروض الشهى من المتاع، أو المبذول الطبع من الغواية.. بدأت تطرأ على تراكيب اللغة وعلى وظيفتها وأهدافها تغيرات تعكس ما وقع للناطقين بها، بعد أن فكوا أحزمة التشدد وبعد أن طافوا طويلاً باللمم، وبعد أن ساقهم اللمم إلى ألوان من الذنوب ما عرفها آباؤهم، فإذا هم قعود وعلى ألسنتهم كلمات جديدة معربة ـ أو غير معربة ـ فى مجالس الغناء واللهو والخمر والشذوذ والانحلال. بهذا الاسترخاء، والإقبال على المتع، تراجعت القدوة التى كان الأعاجم يجدونها فى العرب، ولم يعد العرب قادرين على استهواء غيرهم لينصر الدين واللغة! ومع أن الحكومات العربية أساءت إلى اللغة ولم تحسن نصرتها، وقعدت بالأدب العالى فلم تمنح رجاله ما يستحقون من

صدارة، إلا أنى أحسب أن المعاهد المتخصصة فى الدراسات اللغوية والبلاغية تحمل وزرًا أشد فى هذا المضمار.. وأن جمودها وفتورها وقصورها من أهم الأسباب فيما اعترى اللغة العربية فى هذا العصر من ضعف وانزواء.

وإنى لأحس غضبًا شديدًا عندما أرى علماء دين لا يحسنون ضبط الإعراب، أو عندما أرى رجال سياسة يخبطون خبط عشواء، ويقعون من دون حياء فى شر أنواع اللحن.

ماذا فعلت المعاهد العتيقة والمجامع الجديدة لخدمة العربية فى عصر نرى فيه الإنجليزية مثلاً تبتدع عشرات الأساليب للانتشار والسيطرة؟ ذلك بحث ينبغى - من دون حرج - أن نخوضه، لنعرف مدى تقصيرنا فى لغة الوحى، ولنستقبل الأيام القادمة بعمل نافع وجهد مثمر.

تضحية هناك وتخاذل هنا

لم يبخل اليهود بالمال لإنجاح قضيتهم، بل عرفوا كيف يكسبونه كثيرًا وفيرًا، وينفقونه كثيرًا وفيرًا كذلك لبلوغ مآربهم وتحقيق آمالهم، فعندما نهض زعيم الصهيونية الكبير (هرتزل) لينشر دعايته فى ربوع العالم، التقى بالبارون (دى هيرش) الذى أسس جمعية الاستعمار اليهودى، وغرضها إسكان مشردى إسرائيل فى بعض أقطار أمريكا، وكان قد رصد لذلك عشرة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص! رجل واحد ينخلع عن هذه القناطير المقنطرة كلها فى سبيل عشيرته، فى الوقت الذى يضن فيه أصحاب الثراء الواسع عندنا عن بذل عشر معشار ذلك فى سبيل ربهم وأمتهم! والعاطفة التى بعثت اليهود على أن يجودوا بأموالهم، جعلتهم يمتلكون الأرض عن طريق الشراء السهل، قبل أن يمتلكوها عن طريق الغصب المسلح، إنهم على البعد شرعوا يصوغون قصائد الغزل فى أرض فلسطين، ويقدسون خصبها وجدبها ويعلقون الأفئدة بحبها والفناء فيها، وانظر إلى أغانيهم فى عشق الوطن المفقود: «إن للحمامة البيضاء عشًّا صغيرًا، وللثعلب وكرًا، ولكل إنسان وطنه، إلا اليهود فلهم قبور»! وجاء على لسان البطل فى إحدى الروايات: «تسألينني عن أعز أمنية عندى؟ وجوابى هى أرض الميعاد، وتسألينني عما يداعب أحلامى؟ فأقول: أورشليم، وتسألينني عما يستهوى فؤادى؟ فأقول: إنه الكنيس، أجل، أريد كل ما فقدناه فى سالف الزمان، وما تهفو إليه نفوسنا، وما جاهد آباؤنا وأجدادنا فى سبيل استرجاعه.. بلادنا الجميلة، وعقيدتنا القدسية، وعاداتنا البسيطة، وتقاليدنا القديمة». هذه هى الحرارة التى نشأ عليها اليهود قبل هجومهم علينا، أين غابت عنا؟ وكيف يقاس بها الشعور البارد الميت الذى جعل أناسًا من العرب يفقدون إعزازهم للأرض التى عاشوا عليها دهورًا، فيتركونها لخصومهم بثمن بخس؟ عرفت أن الشيخ أمين الحسينى مفتى فلسطين ورجال الفقه، أصدروا أحكامًا مشددة بارتداد من يبيع أرضه. بيد أن تكوين الأمم لا يجىء عن طريق الفتاوى المخوِّفة. إن الأمم قبل كل شىء قلوب تهزها العواطف الجياشة، وعقول تقودها الأفكار السليمة، ويوم تجمد القلوب فلا تنبض بعاطفة، ويوم تقف العقول فلا تتحرك بفكرة، فما تراه موضع الفتوى منها؟ إن المسلمين فى تخلفهم الهائل عن قافلة العالم كانوا لا يدرون شيئًا عما يقع فى أقطار الدنيا

القريبة منهم، فكيف بالبعيدة عنهم؟ أكانوا يتابعون أنباء المؤتمرات التى يعقدها اليهود بين الحين والحين؟ والتى كانت مطامعهم تثب فيها إلى الأمام وثبًا؟ كم كنت أضحك محزونًا وأنا شاب أقرأ أن العمال العرب كانوا أحظى عند المزارعين اليهود من غيرهم، لرخص أجورهم! وفى صدر إحدى الصحف «الجنود المراكشيون يتمردون على ضباطهم الفرنسيين»، فصحت مرة أخرى أسفًا، إن هذا الخبر لا يدل على ميلاد الحرية فى شعب مسلم مستضعف قدر ما يدل - فى نظرى - على الهاوية التى انحدرنا إليها. إن هؤلاء المسلمين المسخرين فى بلادهم للأجانب الطارئين، والذين استؤنسوا فصاروا عمالاً لليهود، أو جنودًا للفرنسيين هم أشبه ما يكون بقطار من الجمال البلهاء يقودها طفل. لقد مرحوا فى بلادهم دهرًا وهم آمنون من مكر الله، ثم صحوا وقيود الهوان تغل أيديهم وأرجلهم، أما عن كثير من حكام المسلمين فى هذه الأعصر الكئيبة، فحدث ولا حرج، حدث عن قردة وخنازير، لا عن رجال أمناء مسئولين، وقبل أن نذكر ذلك المثل من قضية فلسطين نفسها، نذكر الحوار الذى دار بين زعيم إسرائيل ومندوب حكومة إنجلترا حين كان الزعيم اليهودى يسعى لإيجاد وطن لقومه وفى سبيل ذلك أسدى لإنجلترا خدمات جليلة تستحق المكافأة، فقال له لويد جورج: إنك أديت للدولة خدمات عظيمة، وأود أن أطلب إلى رئيس الحكومة أن يوصى بك عند صاحب الجلالة فينعم عليك بوسام رفيع. فأجابه قائلاً: إنى لا أريد شيئًا لنفسى. قال: ألا نستطيع أن نقدم لك شيئًا عرفانًا بجميلك وما قدمت يداك لهذا البلد؟ قال: بلى، أريد أن تعملوا شيئًا من أجل الشعب الذى أنا واحد من بنيه. كان هذا الحوار هو اللبنة الأولى فى إعطاء فلسطين لليهود، وبعد أن حدث بنيف وثلاثين سنة اجتمع برلمان إسرائيل فى أرض الميعاد ليختار (حاييم وايزمان) رئيسًا للدولة اليهودية الأولى بعد ألفى عام، والرجل لا ريب أهل لهذه المنزلة فى قومه. وليت حكامنا - نحن المسلمين - فى مثل هذا الإخلاص للأمم التى يرأسونها، إن الجبهة الإسلامية يوم استصدار (وايزمان) تصريح (بلفور) كانت تعسة سقيمة.

خاف الترك على العرب، وغدر العرب بالترك، وغدر الإنجليز والفرنسيون بالجميع لصالحهم ولصالح اليهود، وتحركت الدول العربية النزاعة للسيادة تحاول إقامة ملك عربى لها، ثم كان ما كان.

كانـــوا أنفســـهم يظلمـــون

عندما يتوهم الطائر أنه يحلق من ذاته لا من جناحيه، فيخلعهما عنه، فسوف يبقى فى مكانه لا يريم، ولن يرتفع عن الأرض قيد أنملة.

وقد حدث الله عن موسى عليه السلام فأبان أنه وهبه الحكم والعلم بعدما اكتملت قواه ونضجت ملكاته: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. فكان إحسان موسى هو الذى رشحه لهذا الإكرام الأعلى، أفتراه ينال شيئًا من ذلك لو بدا عجزه وظهرت فجاجته؟ وقال الله عز وجل مبينًا سنته فى قيادة الأرض ووراثته خيرها: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾. فهل يعنى ذلك أن وراثة الأرض هى من حظوظ الصالحين وحدهم، وأن الذين فسدت عقولهم بالجهل وفسدت قلوبهم بالهوى لن يمكن لهم أدنى تمكين فى شبر ضيق من أقطار العالمين؟

والمحزن فى تاريخ الأفراد والجماعات أن العصاميين يظلون معتزين بفضائل الكفاح والعمل، صاعدين إلى القمة بأساليب التقدير الصادق والتفكير السليم، حتى إذا استقروا، تغير المنطق القديم، فإذا هم يكرمون المناصب والأنساب ولو كانت إلى جانب الصم البكم الذين لا يعقلون.

ولقد نسى اليهود نشأتهم الأولى والأحوال التى نالوا بها رضوان الله، وحسبوا أنهم لو تغيروا فلن يغير الله ما بهم، فكان من عقابهم ما رأيت.

وكان رسول الله ﷺ خبيرًا بطبائع الأمم وأسرار المجتمعات يوم اخترق أسداف الغيب، ثم تصور أن أمته قد يعتريها ما اعترى غيرها فقال منفرًا محذرًا: «**ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فيهم من يصنع ذلك**».

وقال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**».

فهل درنا فى الدوامة التى أغرقت الأولين؟ إن تمثال الخلافة الإسلامية فى الأستانة سقط، أما الأمة نفسها فهى ـ من قبل ومن بعد ـ قد قطعت أممًا يتنادى اللئام على أكلها، فإذا فتحت عينيك على مصير المسلمين الكالح لم تلبث أن تغمضهما على القذى، فكيف كان ذلك؟

هل يدرى المخمور ما يصنع عندما يفقد وعيه وتترنح خطاه ذات اليمين وذات الشمال؟ لا.. إن صوابه الضائع يخيل إليه الأمور معكوسة، فقد يغنى ويضحك حيث يجب أن يبكى ويحزن.

ولكن الذين يرقبون عن قرب أو بعدٍ ما يقع منه، ويبنون أحكامًا على مسلكه أدنى إلى الحق من أحكام هذا السكران على نفسه، ومن تصوره لما يفعل ويترك.

وحال المسلمين ـ من قرون ـ قريبة الشبه من حال هذا المخبول الذى دارت العُقَارُ برأسه؛ فقد انطفأت مصابيح الإسلام بأيديهم، وأمسوا يسيرون بلا خطة، ويحكمون بلا شرعة، ويفكرون بلا عقل، فلو قست مسافة ما بينهم وبين الرسالة التى آلت إليهم لكانت بُعْدَ ما بين المشرقين!

كانوا فى عالمهم الحالم لا يدركون ما انتهوا إليه من ضعف فى أفكارهم، وفى أعمالهم، وفى وسائلهم، وفى معايشهم!

ولكن أعداءهم الأيقاظ لم يغفلوا عن هذا المصير، فوقفوا يتربصون بهم، ومعهم المعاول التى يحفرون بها قبره.

وهل غفل أعداء الإسلام يومًا عن الكيد له؟! إن الغزو الصليبى الأول ظل طيلة قرنين عنيدًا فى محاولاته اليائسة يبغى أن يجتث أصوله، فلما ارتد مدحورًا عاد أدراجه ليتأهب لا ليستريح. فلما كر بعد إعداد طويل لم يكن فى المرة الأخيرة وحده، بل كانت معه الصهيونية الحانقة، وقد حشدت اليهود معها.. نعم! اليهود!

قد تقول: ومن أين جىء بهم بعدما مزقوا شر ممزق، وحاقت بهم لعنة الله فنبت بهم البلاد، وأوغرت عليهم صدور العباد؟!

والجواب أن اليهود لم يفكروا منذ كسر الصحابة شوكتهم فى القرن الأول، أن يدخلوا مع المسلمين فى حرب ما، ومر أحد عشر قرنًا من تاريخ الإسلام، واليهود لا يخطر بأنفسهم ـ ولو مع الأمانى الطائشة ـ أن يدخلوا مع المسلمين فى حرب أبدًا، وكيف وحسبهم النجاء حيث كانوا؟ حتى رأوا بأعينهم الأمة المرهوبة

تضمحل، وتذوى فضائلها، ويذل جانبها، وتهز الفتن الماحقة كيانها، فعلموا أن أمرها أدبر، وأن غضب السماء إذا كان قد نزل بهم مرة، فقد نزل بعدوهم مرة ومرة.

ومن ثم تحرشوا بالمسلمين، ومازالوا يناوشونهم حتى اغتصبوا منهم فلسطين، ثم تمادى الغرور بهم حتى صاروا يزعمون أن أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل!

أرأيت كيف كنا وإلى أين انتهينا؟ فهل ظلمنا ربك؟ كلا. ولكنه أنزلنا على سننه الخالدة، كما أنزل غيرنا من الأمم.

إن الله لم يكره من اليهود أنهم دم معين، وإنما كره منهم أخلاقًا إذا تحولت إلى غيرهم تحولت معها الكراهية إليهم.

لقد انتصر السابقون الأولون من المسلمين لأخذهم بأسباب النصر المادية والأدبية، أما نحن فقد هزمنا لتركنا هذه الأسباب.

فقر فى العقيدة والأخلاق والأعمال

يظن الكثيرون أن العالم الإسلامى أصابه فى العصر الحاضر ما أصابه من ضعف وتقهقر لأنه فقير إلى بأس الحديد وحشد الجنود، ولأن أعداءه أكثر منه مالاً وأعز نفرًا، وذلك خطأ فإن المسلمين قد هانوا حقًا، ولكن لأنهم فقراء إلى العقيدة والأخلاق والأعمال، وأعداؤهم قد عزوا حقًا، ولكن لأنهم - ولا نفتات عليهم - لا يقلون غنى فى قواهم المعنوية عن غناهم المفرط فى قواهم المادية القاهرة، فإن إيمان هؤلاء الناس بما عرفوا من أوهام كان أرسخ من إيماننا نحن بما اعتنقنا من إسلام، وتضحياتهم لما اطمأنوا إليه من باطل أعظم من تضحياتنا فى سبيل ما ورثنا نحن من حق، ومتى التقى الحق الضعيف بالباطل القوى فى ميادين الكفاح الإنسانى فإن النتيجة المحتومة لا تتغير، وسنة الله فى خلقه لا تجعل الإيمان الضعيف - وإن كان حقًا - يغلب الإيمان القوى وإن كان باطلاً، وإن أقوامًا اتحدت أهواؤهم على الضلال لا يغلبهم أقوام تفرقت آراؤهم ولم يزدهم الانتساب إلى الهدى إلا تشتتًا:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾.

ولقد كانت الكتلة الكبرى من عامة المسلمين إلى أمد قريب سليمة القلوب قويمة الإيمان، حتى جاءت النهضة الأخيرة منذ نصف قرن فمالت بالناس إلى حيث لا يعرفون ولا يألفون، ولم تبال وهى تهدم الأوضاع القويمة أن تسلط معاولها على الخبيث والطيب منها ثم هى فى ثورتها على تأخر العقول أتت على ما وقر فى القلوب من إيمان طيب، فلما أرادت البناء تركت الأفئدة خرابًا وشحنت العقول بما لا يجدى من المعارف الفارغة وما دامت العقيدة القوية قد فقدت أو مرضت فإن آثارها من الأعمال العظيمة والأخلاق الكريمة لن يتحقق لها

وجود أو هكذا تصبح الأمة فقيرة لا إلى غيرها من الأمم ولكن إلى العقيدة الدافعة والأعمال الكبيرة والأخلاق النبيلة، فقيرة إلى الله لأنها بحاجة إلى دينه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾. على حين تجد الأجانب عندما فقدوا هيمنة دين صحيح على نفوسهم اتخذوا من المبادئ التى اصطنعوها أديانًا وجعلوا من الإخلاص لها رقابة على تصرفاتهم كلها فأصبح القيام بالواجب وإحسان العمل وإرضاء الضمير أمرًا مفروغًا منه فى حسابهم، وبذلك استقامت أحوالهم أكثر مما تستقيم فى ظلال الحق عندنا؛ لأننا لا نعرف من الحق إلا اسمه! وفى ديننا ثروة من الأخلاق طائلة، ولكنها حبيسة فى الأوراق لا يكاد المجتمع يسمع عنها إلا العنوان البعيد عن حسه، الغريب عن سلوكه، بينما تفرض المبادئ القومية على أصحابها ضروبًا من الأخلاق تعجب وتروع، إن المدنية فى أوربا ترجم بأثقال من المهلكات وتذر فيها الغارات من ألوان الفواجع ما يملأ النفوس كآبة وظلامًا، ولكن الابتسام لهذه الكوارث لا يفارق الشفاه، والصبر على تحملها يستحق كل إعجاب، فلو أن كل جنازة صحبها ما نألفه نحن من ولولة النساء وحفلات القراء وذكريات الخميس والأربعين والعام وطول التفجع والأسى على حوادث الأيام لكان لحروب هؤلاء الناس شأن آخر، ولكنهم يعرفون أكثر مما نعرف معنى القول الحق: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾. والنشاط فى هذه الحياة والحركة المستمرة بين أرجائها أخلاق نحن أفقر ما نكون إليها، يروى أن رجلاً ممن ولدوا بالمدينة مات فيها فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**يا ليته مات بغير مولده**». قالوا: ولم ذاك؟ **قال** ﷺ: «**إن العبد إذا مات بغير مولده قيس بين مولده وبين منقطع أثره فى الجنة**». فأى الفريقين من الناس عمل بهذه الوصاة العظيمة: نحن الذين قبعنا فى بلادنا حتى طرقنا غيرنا فى دورنا أم أولئك الشياطين ممن جابوا الأرض شرقًا وغربًا حتى كشفوا مجاهلها؟ إن المسلمين قد يكونون فى أزمات مالية شديدة وفى ضوائق مادية عنيفة، ولكن الشىء الذى لا مراء فى صدقه أنهم

يعانون أزمة مستحكمة الحلقات فى القلوب لا فى الجيوب، وفى الأرواح لا فى الأجسام، إننا نعانى ضيقًا فى العقائد والأخلاق لا فى الأموال والأرزاق، وما كان لمؤمن أن يضعف فى هذه الدنيا وإن قل نصيبه منها أو يتراجع أمام شدائدها لضآلة حظه فيها ورسول الله ﷺ يعلمه أن: «**من أصبح آمنًا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فإنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**». ومن ثم وجب عليه أن يكون سابقًا فى كل ميدان، نوّالاً لكل خير، جريئًا فى كل عمل، موقنًا بأن عدة النجاح ليست فى المال المذخور والجاه الموفور، بل فى العظمة النفسية الكامنة والطاقة على مواجهة الحياة: «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**». إننا فقراء إلى العقائد التى تعمر صدورنا باليقين، وإلى الأعمال التى تدل على بعد الهمة ومضاء العزم، وإلى الأخلاق التى تدل على أن المعانى العظيمة أصبحت لنا عادةً ودأبًا، وتاريخ سلفنا الصالح حافل بالأمثلة التى تنبئ عن ثراء عريض فى هذا كله جعلهم ملوك الحياة وسادة الأرض: إن عدة النصر قريبة ولكن أنى لنا بها إذا لم ننتصر على أنفسنا! إن الذئاب لا تأكل أمثالها جرأة وافتراسًا، ولكنها تهاجم القطعان الوديعة فقط، وهؤلاء الذين انسابوا من بلادهم بدوافع من الاستغلال الدنىء لن يجدوا الفرصة سانحة لهم أبدًا فى أمة غنية بالعقيدة والأخلاق والأعمال وإن كانت مقترة فى المال والذخيرة والسلاح.

التضحية بين الشباب والشيوخ

قالوا: إن فترة الشباب أخصب مراحل العمر، وأجدرها بحسن الإفادة وعظم الإجادة، فهى القوة الظاهرة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة.. وقد قرر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

ومن ثم كان على المرء أن يقدم حسابًا عامًا عن حياته كلها، وحسابًا خاصًا عن طور الشباب وحده، فهو طور له خطره وأثره.. «**لاتزول قدما عبد حتى يسأل: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟**».

والحق أن أمجاد المتفوقين، وأشواط الصاعدين إنما تستمد حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب، واستغلالهم عرامة إقدامه فى السبق والانطلاق، على أن الشباب وإن اكتنفته من طرفيه المتباعدين الطفولة والشيخوخة إلا أنه يصعب وضع حدود زمنية لعهده السعيد، فهناك رجال تظل وقدة الشباب حارة فى دمهم وإن أنافوا على الستين، لا تنطفئ لهم بشاشة ولا يكبو لهم أمل، ولا تفتر لهم همة.

وهناك شباب يحبون حبوًا على أوائل الطريق لا ترى فى عيونهم بريقًا ولا فى خطاهم عزمًا، شاخت أفئدتهم فى مقتبل العمر، وعاشوا فى ربيع الحياة لا زهر ولا ثمر.

ومن الأخطاء تصور الشباب قدرة جسد وفناء غريزة، إن الشباب توثب روح، واستنارة فكر، وطفرة أمل، وصلابة عزيمة.

فترة الشباب فى حياة الإنسان هى أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة، والعواطف الفائرة، لكنها ليست عهد العافية المكتملة فى البدن الناضج فقط، بل إنها ـ كذلك ـ عهد النزعات النفسية الجياشة، يمدها الخيال الخصب، والرجاء البعيد.

والأمم تستغل فى شبانها هذه القوى المذخورة، وتجندها فى ميادين الحرب والسلم، لتذلل بها الصعب، وتقرب البعيد.



ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم.

وقد راقبنا الثورات التى اشتعلت فى أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام، فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها، وحملوا عبئها، واندفعوا بحماستهم الملتهبة، وإقدامهم الرائع يخطون مصارع الأعداء، ويرسمون لأمتهم صور التضحية والفداء.

ولايزال الشباب من طلاب وعمال وقود الحركات الحرة، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد، وجهة المربين والمرشدين، والزعماء الذين ينشدون مستقبلاً أزكى. ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوى عليه من دلائل الإيثار والتفانى ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء ما رميت به من أحداث جسام، وما فقدت من أمجاد عظام، فلا ينتهى هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبى الذى أخزانا فى ديننا ودنيانا.

بيد أن هناك رجالاً تأخرت بهم السن، وذهبت عنهم صورة الشباب، وتكاثرت الصلات التى تربطهم بالدنيا، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد فى قلوبهم تمسك بالشباب عن جلودهم وعظامهم، وتبقيه، بل تضاعفه، فى قلوب تنبض بالحق وتدفعه فى العروق مع الدم، فإذا أنت ترى منها بأس الحديد وجرأة الأسود، وترى رجالاً تستهويهم المغامرة، ويطيرون إلى التضحية فى سبيل الله أخف من الشباب الغض.. قد يقبل الشباب على المخاطر وسبل البذل أمامه ميسرة، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها، وإن قتل لم تبكه امرأة أيم ولا ولد يتيم!!

وخفة حمله من هذه الناحية تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب، أو تزيح العوائق من أمامه إذا ثارت فى دمه نوازع النجدة.

أما البطولة الفارعة فهى أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب فى مناكب الأرض لرعايتها، ويسير فى الحياة وهو موقر بأثقالها، غير أنه - وهو الزوج المحب والأب الرحيم، والراعى المسئول - مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله، مخلص للدين الذى اعتنقه، مقدر للحقوق التى ارتبطت به، فإذا أحس للإسلام طلبًا سارع إليه ولباه بروحه وماله ولم تشغله أعباء الحياة التى يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التى آمن بها.

لـكــــل دوافـعـه

تحدث المؤرخ الإنجليزى «ويلز» عن الإسلام فى كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» فقال: «كان مليئًا بروح الرفق والسماحة والأخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم، كان غريزة مجسدة تحوى عواطف الفروسية فى الصحراء، وكان يستهوى الغرائز الغالية فى تركيب الرجال المعتادين، وقد وقفت ضده اليهودية - وهى التى اتخذت من الرب كنزًا تدخره لجنسها - ثم المسيحية، وهى تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثاليث والمبادئ والهرطقات التى لم يكن ليستطيع أى رجل عادى أن يميز فيها الرأس من الذَّنَبِ، لم يكن الناس الذين جاءتهم دعوة الإسلام يهتمون إلا بشىء واحد، هو أن ذلك الرب الذى يبشر به الرسول كان - بشهادة ضمائرهم - رب صلاح وبر، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته، يفتح الباب على مصراعيه على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة، وسط عالم ملىء بالتقلقل والخيانة والانقسامات الناضبة من التسامح، وقد أوصل محمد هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية دون أى رمزية مبهمة، ودون أى تعتيم للهياكل، ولا ترتيل للقساوسة».

وفى حديثه عن الفاتحين يقول:

«التقوا بجيوش كبيرة منظمة، ولكنها جيوش جوفاء لا روح فيها ولم يحدث فى أى مكان ما يسمى بالمقاومة الشعبية، فإن سكان الأراضى الآهلة لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أن يدفعوا الضرائب إلى «بيزنطة» أو «برسيبوليس» أو «المدينة»، فإذا فاضل الناس بين البلاط الفارسى والعرب - يعنى السلف الأول - كان العرب أنظف الطرفين وأطهرهما، كانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة، وقد انضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة، وكذلك اليهود، وكما كان الحال فى الغرب - يعنى جبهة الروم - كان كذلك فى الشرق، إذ تحول الغزو إلى ثورة اجتماعية، ولكنها كانت هنا ثورة دينية لها «حيوية ذهنية جديدة متميزة».

ثم عدت الليالى على الإسلام، فانكمش بعد امتداد، وأمسى أهله قليلى الفقه فيه، ضعفاء الأخذ به، فتراجعوا عن مراكز التوجيه التى احتلوها آنفًا، وفقدوا المزايا التى رجحت كفتهم على غيرهم من الدول الكبرى، والصلاحية لقياد

الأرض لا تنال بزعم ولا وهم، فهى - قبل كل شىء - قدرة ذاتية على السبق تدعمها ميزات فريدة عقلية وعاطفية. ولقد انتقلت هذه الصلاحية عن المسلمين منذ فترت علائقهم بدينهم، وبعد أن كانت الحياة تندفق من بلادهم فتهب العافية للمرضى، أصبحوا هم أنفسهم فقراء إلى من يأخذ بأيديهم نحو القوة والعلم والثراء! وامتلك الغرب الزمام المهمل، وتهيأت له الأسباب، فبسط سيطرته على العالم ووقع المسلمون بقضهم وقضيضهم - كما وقع سائر أقطار الدنيا - فى براثن الاستعمار الغربى الجديد، وهناك ظاهرتان بارزتان فى صلة هذا الاستعمار بالأمم التى دانت له: أولاهما: أن دواعى الفتح والإخضاع والاستكشاف كانت مادية بحتة، لا مكان فيها إلا للنفع الشخصى أو الدولى، أما الباعث المثالى الذى اقترن به الفتح الإسلامى الأول فلا أثر له البتة فى هذا الغزو الحديث. البحث عن الثروة، أو الأمجاد الخاصة، أو بسط النفوذ المجرد على أوسع مساحة من الممتلكات، والعمل على تحويل البلاد المفتوحة أو المكتشفة إلى مزارع غاصة بالعبيد المسخرين لتصدير المواد الخام، تلك كلها طابع الفتح الأوربى الذى نجح فى إخضاع العالم له، نجح فى التهام خيراته، ونجح فى تحويل الجهد البشرى المبعثر فى القارات الكبرى إلى أداة تصدر له المغانم وهو هادئ ناعم، وقد تطاحن الفاتحون فيما بينهم على الاستئثار بهذه الأسلاب، ثم تهادنوا على اقتسامها، ثم هاجت بينهم المطامع فعاودوا الحرب.

ولاتزال دوافع الشر تثير الحروب العالمية بين المستعمرين، ما إن تهدأ حتى تندلع، وسرها ما علمت، هو عراك الوحوش على أشلاء الفريسة! والظاهرة الثانية فى الفتح الأوربى: أنه إذا دخل بلدًا ما فوجد فيه شعبًا مظلومًا، ونظامًا فاسدًا، وطبقة حاكمة باغية، دعم جانب البغاة وأبقى أسباب الفساد، وأوصد الأبواب على الجماهير المضطهدة، على عكس السيرة التى انتهجها الفتح الإسلامى الذى كان يقصى الطغاة أول ما يدخل، ويزيح العوائق أمام الشعوب لتتحرك وتتنفس وتنتعش، ويضع الخطة ليكون الفاتح أخًا فى الحقوق والواجبات مع صنوه الرومى أو الفارسى، والنزاع العنيف القائم بين البلاد المحتلة والمستعمرين الأجانب يرجع إلى نزعات الأثرة الفاحشة التى يصدر عنها أولئك المستعمرون.

فالشعوب تريد أن تصلح شأنها وتستعيد حرياتها، وتنتفع من خيراتها، إنها تتلوى وتتأبى على القيود التى كبلت بها، وتحاول بشق الأنفس أن تنال قسطًا

أكبر من الكرامة والهناءة التى حرمتها. بيد أن الفاتحين الأوربيين حرصوا كل الحرص على تأخير البلاد، وتحقير أهلها وإبقائها أبدًا فى منزلة التابع الذليل المحتاج من سيده المعتز بقوته، المُدِلٍّ بجاهه ومعرفته، ولو ألقينا نظرة عجلى على الأحوال التى تسود العالم اليوم لرأينا الدول الكبرى والدول الضالعة معها تحارب التقدم والتحرر فى كل مكان، وتتضافر على إبقاء نصف العالم أو أكثر فى منزلة مهينة.

تــاريـــخ مــلـــوث

حرب الأفيون شنتها إنجلترا لاستعمار الصين، واستطاعت بتفوقها العسكرى أن تقهر هذه الأمة الكثيفة، وأن ترغمها على فتح بلادها لاستقبال الأفيون الإنجليزى، ينقله القراصنة إلى المستضعفين المنكوبين من أهل تلك البلاد.. قالوا:

«وقد أتاح امتلاك جزيرة «هونج كونج» للبريطانيين مركزًا ملائمًا لجمع الأفيون وتهريبه تحت الراية الإنجليزية، وبذلت جهود فى الوقت نفسه لكى توافق حكومة الصين على أن يكون استيراد الأفيون عملاً تجاريًا مشروعًا، فكتب «لورد بالمرستون» إلى المندوب البريطانى فى الصين يأمره بالسعى إلى عقد اتفاق مع السلطات الصينية تسمح بدخول الأفيون إلى البلاد كسلعة من السلع التجارية، وعرض هذا الاقتراح فعلاً على الإمبراطور وطلب منه ـ على سبيل الإغراء ـ أن يفرض رسومًا جمركية عالية على الأفيون المستورد.

فرد الإمبراطور بقوله: «لقد أكون عاجزًا عن منع هذه السموم أن تدخل بلادى بالرغم منى، لأن فى الناس من تدفعهم شهواتهم وحبهم للمال الحرام إلى عصيان أمرى، ولكن ليس فى العالم قوة تستطيع أن تغرينى بأن أستمد للدولة إيرادًا من تسميم شعبى ونشر الرذيلة فيه».

هذا هو الرد النبيل الحاسم الذى أدلى به إمبراطور الصين، وما على القارئ إلا أن يقارن بين كلمات «لورد بالمرستون» الوزير المسيحى المتمدن وبين كلمات الحاكم الصينى المتأخر عن ركب الحضارة، لكى يدرك إلى أى درك ينزل الاستعمار بالنفوس التى تدعى النبل والصلاح.

ولماذا نذهب إلى تاريخ قديم ننبش فى رماده عن مآسى إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول التى بطرت فى الأرض من طول ما تشبعت وتوسعت؟

إن الصحائف التى سودها الماضى الغابر لايزال الحاضر القابض يشيع فى جوانبها الحداد والمآتم.

بيد أن المزاعم الموغلة فى الافتراء هى التى تستثيرنا، أو ليس مما يحملك على

أن تقلب يديك عجبًا أن تسمع مع هذا التاريخ الملوث أن أوربا تنشئ الحريات وتنشرها حيث ذهبت؟

ذلكم ما يثرثر به الساسة الإنجليز والفرنسيون، ثم يجيء دور الغزو العلمي بعد الغزو الحربي، فلا يكتفي بنشر هذه الخرافة، بل يعمد إلى تاريخنا نحن المسلمين يبغي أن ينال منه.

عندما ذهب «سعد بن أبي وقاص» ليقود المسلمين وهم يغزون بلاد كسرى أوصاه «عمر بن الخطاب» أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال: «يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله وصاحبه! فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بعث إلى أن فارقنا عليه فالزمه، فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين».

ولما اشتبك سعد بجحافل الفرس وتكالبوا عليه وخشي بطشهم أرسل إليه عمر رضي الله عنه يقول: «لا يَهُولنَّك كثرة عددهم وعدتهم فإنهم قوم خدعة مكرة، وإن أنتم صبرتم وأحسنتم وأدّيتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم، ثم لم يجتمع لهم شملهم أبدًا.. إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم».

فالأمر ليس أمر جيش يريد نشر الأفيون ليمرض به أمة، فيتمكن من احتلال أرضها ومالها، بل إنه أمر قبيل من الناس لهم حظ من الخلق الرفيع لن ينزلوا عنه أبدًا، همّهم الأول والأخير أن يؤسسوا حضارة تحفظ بها الأمانات، تكفل الحقوق وتتكافأ الدماء والألوان، فلا يفضل أحد أحدًا إلا بالتقوى، ولو كان الفاضل زنجيًا والمفضول أمس الناس رحمًا بصاحب الرسالة نفسه.

ويفسر هذا ما روي من أن قائد الفرس بعث إلى «سعد» يطلب منه رجلاً عاقلاً ليفاوضه في مطالب العرب، فبعث إليه «المغيرة بن شعبة»، فلما قدم عليه قال رستم: «إنكم جيراننا، وكنا نحسن إليكم، ونكف الأذى عنكم، فارجعوا إلى بلادكم ولا نمنع تجارتكم من الدخول في بلادنا».

فقال المغيرة: «إنا ليس طلبنا الدنيا، وإنما همّنا وطلبنا الآخرة، وقد بعث الله



إلينا رسولاً قال له: إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم لهم منهم، واجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به إلا عز». فقال له رستم: «فما هو؟».

فقال المغيرة: «أما عموده الذى لا يصلح شىء منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله».

فقال: «ما أحسن هذا.. وأى شىء أيضًا».

قال: «وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله؟».

قال: «وحسن أيضًا، وأى شىء بعد؟».

قال: «والناس بنو آدم فهم إخوة لأب وأم».

قال: «وحسن أيضًا» ثم استأنف رستم: «أرأيت إن دخلنا فى دينكم أترجعون عن بلادنا؟».

قال: «أى والله، ثم لا نقرب بلادكم إلا فى تجارة أو حاجة».

قال: «وحسن أيضًا».

ويبدو أن الإسلام ومبادئه الجميلة وجدت قبولاً من نفس القائد الفارسى إلا أن رؤساء الدولة أنفوا من متابعة هذه الدعوة وهم الملوك المترفون والسادة المرموقون، وكانت الأخرى، وكتب الله النصر للمؤمنين والحرية للمستضعفين والخزى على الجبارين.

سَلْ ملوكَ الأرضِ عن دنيا الغُرورْ
فى الملاهى خلفَ أستارِ الحريرْ!
زَلْزَلَتْهمْ بينَ أبراجِ القُصورْ
ضربةٌ من سهمِ عريانٍ فقيرْ!

أين هذه الصحائف المشرقة بالمبادئ، والتجرد والإخلاص لله، مما صنع ويصنع المستعمرون الغربيون وأمريكا!

سياسة التدليس والنفاق

إن الحضارة الأوربية فى ميدان الكشوف المادية، والبحوث العقلية، وصلت إلى حد لا يتجاهل خطره، ولا يغمط قدره، وهى من هذه الناحية تعتبر ارتقاء إنسانيًا كبيرًا، ويجب أن نسجل لها هذا التقدم الذى بزت به القرون الأولى قاطبة. لكن أتراها بلغت عشر هذه المنزلة فى صلاح الضمير ونصاعة الخلق؟ كلا كلا.. إن الوحشية والقساوة التى اقتربت بزحف التتار والرومان لم تفارق الاستعمار الغربى الجديد، غاية ما تبدل أن الغزاة المحدثين نظموا وسائل السطو وزينوها وخدروا مواضع الألم بقدر كبير من المباذل والشهوات الوضيعة، ولم يعرف العالم فتحًا أنظف يدًا وأنبل سلوكًا، وأسلم عقبى، من الفتح الإسلامى القديم، إن الاستعمار الحديث بدأ سطوًا واسع النطاق على بلادنا، واللص الصغير إذا ضبط متلبسًا بجريمته لم يجد بدًا من الاعتراف بها، والانتظار - فى خزى - للعقوبة المترتبة عليها، أما دول الغرب التى دفعت بعصاباتها لاحتلال أرضنا، واستلاب حقنا، فهى تجد من القحة ما يجعلها تمارى فيما اقترفت من نكر، بل إنها قد تبرر فعلتها بما يقلب الأخذ عطاء، والباطل حقًا، ولا عجب فكلمة الاستعمار نفسها لا تعنى إلا التخريب والدمار، وإن كان بناء الكلمة على نقيض مدلولها الذى نكبت به أقطار شتى، وقد نشأ عن ذلك أن الدول الغالبة بنت سياستها على التدليس والنفاق، وأقامت علائقها - بين بعضها والبعض الآخر، ثم بينها جميعًا وبيننا نحن المكافحين ضد العدوان - أقامتها على أسلوب طويل من التصنع والتمويه والدجل يريد ليلبس مخالب الوحش قفازًا من الحرير الناعم! ثم سخرت لبلوغ هذه المآرب جيشًا من المستشرقين والمبشرين ورجال القلم واللسان، مكن للغزو العسكرى بالغزو العلمى، ومن ثم استطاع الغرب القاهر أن يحتل البلاد والأجساد والأفكار. والغزو العلمى أخطر من الغزو العسكرى، فإن الغزو العسكرى يقيد جسمك وأنت ساخط تحتال للخلاص! أما الغزو العلمى فهو يملك البدن، ويجتاح الروح، ويجعل المهزوم عبدًا ودودًا للمنتصر الماكر، إنه يخلعه عن الإعجاب ببلاده ودينها وتقاليدها، إلى الإعجاب بالفاتح ودينه وتقاليده، إنه يزلزل الثقة فى حاضر الوطن ومستقبله، ويغرى بالركون إلى الغاصبين والارتباط بهم فى حاضرهم ومستقبلهم، ودول الغرب دائبة على هذا الغزو اللئيم تبريرًا لآثامها

وتمكينًا لأقدامها، وقد أغراها النجاح الذى استحوذت به على بعض الهمل، فمضت فى خطتها تحاول أن تجعل من وجودها فى بلادنا أمرًا مألوفًا، وكأنها بهذه اللجاجة تظن أن جرائمها الفاحشة نسيت أو يمكن أن تنسى. وينبغى أن نضع أمام أعيننا صورًا كئيبة دامية للطريقة القذرة التى سار عليها الغرب وأمريكا وغيرهم فى استعمار نصف العالم أو يزيد، وكيف يصرون إلى هذه الساعة على استئناف ما بدأوا به من سلب ونهب. ذكر الدكتور محمد عوض فى كتابه «الاستعمار» كلمة للكاتب الفرنسى الشهير «مونتسكيو» جاء فيها: «إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدًا فإنى أقول إن شعوب «أوربا» بعد أن أفنت سكان «أمريكا» الأصليين لم ترَ بدًّا من أن تستعبد شعوب «إفريقيا» لكى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة كلها. والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطسًا شنيعًا، ويكاد يكون من المستحيل أن ترثى لها فإنه لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى، وهو ذو الحكمة السامية، قد وضع روحًا أو على الأخص روحًا طيبة داخل جسم حالك السواد»! ثم يقول الدكتور: «ومن المفيد ألا نمر بعبارة «مونتسكيو» هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على السخرية المجردة، فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها كانت مظهرًا من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده، ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات، بل لقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل، وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين مناعة منها، ومن أهمها مرض الحصباء، فكانوا يوصون بأن يمكن الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغطية التى كان يستعملها المرضى بهذه الحمى، ويرون هذا الإجراء متفقًا كل الاتفاق مع الدين». ولا ريب أن عيسى بن مريم وأمه بريئان من هذا العمل الدنىء، وأن الله لم ينزل فى دين من الأديان وصاة بإهلاك الحيوان بل الإنسان على هذا النحو السافل، ولكن «أوربا» تستغل دينها ورجاله فى محاربة الشعوب وتجريعها الغصص.

تـاريــخ قــريــب

إن هنـاك تقدمًا كبيرًا فى أقطار الغرب ما يستطيع عاقل نكرانه، وهو تقدم أحرزته هذه الأقطار رويدًا رويدًا، لم تبلغه طفرة، بل لم تكسبه إلا ثمرة جهد شاق، وقد بدأت كفاحها لتحصيله منذ خمسة قرون تقريبًا، ومهما عبنا الحضارة التى أثمرها عصر النهضة الحديثة فى بلاد الغرب ـ لأن ما أصابنا من شرها سبق ما لنا من خيرها ـ فإننا لن ننكر الأصول العقلية الجليلة التى مهدت لهذه الحضارة، ومشت معها شوطًا بعد شوط، وقد تكون حضارة الغرب فقدت فى هذه الأيام عناصر كثيرة من أسباب نموها وازدهارها، إلا أنها ـ والحق يقال ـ لاتزال سيدة الموقف، لا لشىء إلا لأنه لم يوجد بعد من ينافسها على قيادة العالم، ومن يثبت جدارته على أخذ الزمام منها، والسير بالقافلة فى سبيل أقوم، وإلى غاية أسلم، ويوم يوجد هذا العوض الطيب، فإن الحياة سوف تتحول إليه طوعًا أو كرهًا، أما قبل ذلك، فإن الطامحين إلى القيادة دون حمل مؤهلاتها لن يجدوا مكانهم إلا فى المؤخرة. إننا ـ نحن مسلمى هذا العصر ـ قد برزنا إلى الوجود لنجد أمامنا تركة مثقلة. طويت راية الدولة الكبرى، وقسم ميراث الرجل المريض بعد موته على الغزاة، فأمست أمة الإسلام مزقًا مفرقة، يتشبع كل فاتح من استغلال نصيبه فيها. فلما حز الألم فى نفوس المأكولين، ورأوا أن يتخلصوا من هذا الموت البطىء المقنط، إما بموت مجهز، أو حياة صحيحة، شبت ثورات التحرر فى أنحاء الشرق المهزوم، وكانت ثورات شجاعة محنقة لا ترهب قوى العدو، ولا يردها عن التمرد الدائم ما تعلمه عن نفسها من ضعف الجانب، وقلة الناصر، وتفاهة السلاح، وشاء القدر أن يكافئ هذه الشعوب الساعية لكسر قيودها، فأعانها على تحقيق آمالها، والفكاك من قيده، وظلت تلك الشعوب تلعن العبودية، وتطوى الجوانح على غلٍّ مكين للغرب الذى قدر فقهر، وملك فسفك. أما عمل الإيمان الصحيح وراء المقاومة المستميتة ضد عدوان الغرب المسلح، فأمر لا مرية فيه، هى ثورات قومية فى عنوانها، وطنية بحتة فى شكلها البارز، لكن الحقيقة أن بقايا ضخمة من مواريث الإسلام فى العزة والإباء والتضحية والفداء، هى التى ساقت الجماهير الغفيرة إلى مقاتلة المحتلين الغاصبين وزودت بطاقات هائلة من المصابرة والثبات كانت وحدها مناط الأمل، وطريق النصر، وثورات التحرر التى أشعلها الشعب التركى

واستغلها مصطفى كمال استغلالاً سيئًا، أو التى أشعلها الشعب المصرى فى ذلك الحين واتجه بها سعد زغلول اتجاهه المعروف، هذه الثورات كان الإسلام مهادها وبناءها، بيد أنه حُرِم ثمارها حرمانًا مؤسفًا، ولعلنا نقرر الواقع الأليم حين نذكر أنها استحالت بلاء عليه. وقد تتساءل: ما سر هذا الانقلاب؟ والجواب أن الصورة التى ارتسمت فى أذهان بعض القادة عن الإسلام وتعاليمه، وعن الحضارة الغربية وأساليبها الجديدة خيلت لهم أن نبذ الماضى بما يحمل فى أطوائه أجدى عليهم، وأن تقليد الحضارة الجديدة والأخذ عنها جملة وتفصيلاً هو النهج الفذ للرقى والنجاح، وهم ضحايا خدعة مظلمة ظالمة، فقد قلنا: إن النهضة الحديثة فى الغرب بدأت سيرها من خمسة قرون كان الشرق الإسلامى إبانها يتدحرج هابطًا من مكانة إلى أخرى دونها حتى كأنه ينزلق من درج سلم، فلما كانت مطالع هذا القرن، بلغت حركات الصعود والنزول مداها، واستوى الغرب فى القمة، واستقر الشرق فى السفوح وأنشب الغالب أظافره فى عنق المغلوب، يريد إما أن يفترسه، وإما أن يهبه حياة الرقيق الذليل، إلا أن عناصر الشر فى دم الغالب أخذت تنزل به عن القمة التى بلغها، وعناصر الخير فى دم المغلوب أخذت ترفعه من وهدته قليلاً قليلاً، وليس بمستغرب أن يشرد قوم فى أثناء محنتهم فيطلبوا النجاة من مواطن العطب.

يُقضَى على المرءِ فى أيامِ مِحْنَتِهِ

حتى يَرَى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ

وذاك شأن نفر من القادة، هرعوا إلى الغرب يلتمسون من ربوعه الخير والبركة، وليت الأيام صدقت ظنونهم، فنحن نحب النفع من أيسر سبله.

إن الغرب يأخذ كثيرًا ويعطى قليلاً، يأخذ راغبًا ويعطى كارهًا، وعطاؤه الممنون ممزوج بالسم، قلما يفيد منه إلا رجل حاذق يمسك ما يجديه ويدع ما يضيره.

رجـــــال ملهـمــون

الحضارة التى تسود العالم اليوم اعتمدت فى منطقها العلمى على الخُلاصات الصحيحة من الفكر الإسلامى الناضج، وهو فكر انفرد بزمام العالم دهرًا طويلاً كما تنفرد حضارة أوربا اليوم بتوجيه الناس، والعلم لا وطن له ولا جنس، وهو يتنقل بين الأوطان والأجناس تنقلاً مطردًا، وهيهات أن يخلد فى بقعة من الأرض، أو يحتكره قبيل من الناس.

وربما استغلت النصرانية غَلَب أوربا، فاندفعت وراء جيوشها الغازية، وربما أوهمت أن هذا التفوق صنع يدها، وقطاف غرسها، غير أن شيئًا من هذا لا ينطلى على أحد، فإن أقطار الغرب لم تحسن المسير فى مضمار الحضارة حتى فصلت العلم والاقتصاد والحكم عن الكنيسة، ولو بقيت مرتبطة بها لظلت أوربا على أحوالها القديمة التى لازمتها خمسة عشر قرنًا، وهى أحوال لا يحمدها ذو حجا، ولا يطلب العودة إليها أحد.

وأشهد أن العقل الغربى أنظف جدًّا من الضمير الغربى، لقد اقتبس فأحسن، وقلد فأجاد، ثم أنمى وابتكر، واستكشف فبهر، وفتوحه فى استخدام قوى الكون لا تقل عنها براعته فى تنظيم شئون العمران.

والمشدوهون لهذا التفوق لا ينتظر منهم غير التسليم لنتائجه، فلا جرم أنهم مولعون باتباعها مُغْرَوْنَ بالانقياد لها، وكما يمدون قضبان السكك الحديدية ويركبون عرباتها من مصانع الغرب، ينقلون مناهج السياسة وأنظمة المجتمع وطرائق الحكم من تفكير الغرب أيضًا.

وأعان على ذلك، القصور الشائن الذى ران على الجبهة الإسلامية، فإن الرجال المتحدثين عن الإسلام فى القرن الماضى، وحين اندلاع ثورات التحرر من أربعين عامًا لم يكونوا على فهم يذكر بالكتاب والسنة، أهملوا خدمة الشريعة فهزمتها القوانين الموضوعة، وظل الإسلام يتقهقر فى ميدان الحياة العامة، حتى كاد يقضى عليه بالموت.

ولولا رجال قلائل من الملهمين الأحرار لدرست معالم الدين، نذكر منهم جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعبدالرحمن الكواكبى، وحسن البنا.

وقد أسائل نفسى: لو أن «جمال الدين» عاصر مصطفى كمال فى تركيا، أكانت نهضة القائد المنتصر تميل عن الإسلام هذا الميل؟ أو لو كان «محمد عبده» العالم الثائر أو «حسن البنا» المربى النابه، لو أن أحدهما صاحب الثورة الكبرى سنة ١٩١٩، أكانت تأخذ اتجاهها المدنى المحض مبتوتة الصلة بآلام الإسلام وآماله؟

إن القصور الشنيع فى أفكار علماء الدين ورؤساء الجماعات الإسلامية يومئذ جر على الإسلام هزائم متلاحقة، وجعل بضاعته أمام الأبصار المتطلعة مزهودة كاسدة.

ولم تقف الحياة حتى يستخلص الكسالى من تعاليم الإسلام تشريعًا جنائيًّا، أو تجاريًّا، ونظامًا اجتماعيًّا أو سياسيًّا، كلا.

لقد تطلعت إلى المورد المتاح حين عز عليها المورد الأصيل، ومن ثم تأخر الإسلام وتقدمت قوانين وتقاليد وأنظمة أخرى.

وظهر حسن البنا يقود بعثًا إسلاميًّا ناجحًا، واستطاع الرجل الكبير أن يسد مسد جيش من الدعاة الأذكياء والمربين المخلصين الأوفياء، وقد أفلح فى تبديد الغيوم الكثيفة التى تراكمت حول صلاحية الدين لقيادة الحياة، وكون جيلاً من الرجال الذين يؤمنون بهذه الحقيقة.

وقد قتل الرجل وهو - إلى الرمق الأخير - ينفخ فى المسلمين روح الحياة ويجدد فى نفوسهم عنوان الأمل والكفاح.

وإنى أعترف - رادًّا الفضل لأهله - بأنى واحد من التلامذة الذين جلسوا إلى حسن البنا، وانتصحوا بأدبه، واستقاموا بتوجيهه، واستفادوا من يقظاته ولمحاته.

ولكنى - وهذه طبيعتى - كنت آخذ منه وأدع، وأتبعه وأجادله، ويرى منى الرضا والنقد، على أنى يوم قتل كنت أعنف الناس غضبًا لمصرعه، حملة على خصومه، وسعيًا وراء القَوَد الواجب.

إن الذباب الذى يطن حول العظماء كثير، أما الرجال الذين يقدرون رسالاتهم نفسها فما تراهم إلا على ندرة.

وتهمة القصور التى رمى بها الإسلام احترقت فى حرارة الجهاد الذى تجشمه هؤلاء القادة وهم يكتبونِ ويخطبون ويعلمون ويؤدبون، ثم وقر فى الأذهان أن الإسلام ليس فقط صالحًا كغيره لقيادة الحياة، بل إنه أصلح وأحق من سائر المذاهب والفلسفات الأخرى.

مــوت الأبطـال فــى الطريــق

مما رمتنا به عصور الطراوة والانحلال، هذه الفكرة السخيفة عن طرائق الموت، فالميتة بين جدران البيت وأحضان الأهل، من دلائل ستر الله، والميتة على قارعة الطريق أو فى حادثة دامية، من مظاهر سخط الله.

ومن أيام، قتل عالم كبير تحت عجلات قطار، فسمعت رجلاً من الدهماء يقول: الله يرحمه كان شيخًا صالحًا، وما كان أهلاً لهذا المصير المحزن.

فنظرت إلى القائل - فى استنكار - وأسفت لأن هذه السوأة الخلقية والعقلية تشيع فى زماننا هذا، وتنطق بأننا أجهل الناس فى فقه الرجولة، وفقه الإيمان معًا، ولو درينا لعلمنا أن مصرع المؤمن من أى صدام، مع الأشخاص أو مع الأشياء من آيات القبول وأمارات الصلاح.

وإن سلفنا الصالحين كانوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن تثوى جثثهم ممزقة فى حواصل الطير وأجواف الوحوش، وهم هلكى، لا بين أحضان الأهل الباكين والأحباب المواسين، ولكن فى وحشة الصحراء ورحاب الميادين، أو فى أى أفق مبهم من أغمار الدنيا.

هكذا مضت سنة الإيمان منذ أُبرم عَقْدُ الجنة ووصف الله من وقَّعوا عليه بأنهم يَقتلون ويُقتلون.

وهكذا مضت سنة الرجولة من قديم الزمان، فاعتبرت موت الرجل بين أهله معرة.

الأحرار، وحملة العقائد وأصحاب المثل وسدنة الشرف والمكرمات مصارعهم تحمر بها صحائف التاريخ، ويلبس الشفق القانى ثوبه الأرجوانى منها، وبذلك المعنى هتف الشاعر القديم:

وإنّــا لَـقَــومٌ مــا نَــرَى الـقــتـلَ سُـبَّـةً
إذا مـــا رأتـــه عـــامـــرٌ وسَــلُــولُ

ومــا مــات مِــنّــا سَـيِّـدٌ حـتـفَ أنـفِـهِ
ولا طُـلَّ مــنـــا حــيثُ كــان قَــتــيــلُ

أجل هذه شارات السيادة؛ لا يموت الرجل حتف أنفه، ولكن يموت فى عرصات الوغى.

لما قتل الأمويون مصعب بن الزبير، قام أخوه عبدالله فخطب الناس فكانت خطبته تعبيرًا لبنى أمية أنهم يموتون على فرشهم أما آل الزبير فقد كفنوا فى دمائهم بطلاً من بعد بطل.

وخطب أبو حمزة الخارجى يصف رجاله، وكيف جندلتهم المنايا واستهلكهم صدق الجهاد، فكان من كلامه فى لقائهم الحتوف: استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدمًا حتى اختلف رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء.

فكم من عين فى مناقير طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله.

وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله.

فانظر مصاير أولئك الشباب كيف خطها القدر؟

وكيف تذكر فى سياق الدلالة على حب الله والتفانى فيه؟

إن أولئك الشهداء المستميتين فى محاربة البغى، الذين رضوا أن تدق أعناقهم قبل أن تدق على أبواب الإسلام يد آثمة، وأن تمزق أعضاؤهم قبل أن يتمكن من الكيد لدين الله كافر سافر أو منافق خناس.

إن أولئك الشباب الهلكى، المبعثرة أحشاؤهم ومشاعرهم هنا وهناك، سوف تجمعهم القدرة العليا بكلمة واحدة، فإذا الجبين المشجوج ناصع مشرق، وإذا العين المفقوءة حوراء مبصرة، وإذا الجثة الممزعة بشر سوى.

وفى الجاهلية ـ قبل الإسلام ـ كان «دريد بن الصمة» يفخر بأن لحم أسرته طعام السيوف، وأن القتل استهدفهم لأنهم استهدفوه، وتلك شيمة العظماء.

أرأيت سيماء الرجولة كيف برزت ملامحها المصقولة فى عهود الجاهلية؟ ثم كيف هيمن الإسلام على هذه الخلال القوية فجعل العقيدة سنادها، والإخلاص شعارها حتى استحالت تحت لوائه قذائف تنطلق من مكامنها لتنفجر فى مستقرها، فإذا هى تهد ما تعالى من حصون الكفر والطغيان وتقر ما طورد من عناصر الحق والإيمان؟

غيبـــة وبهتـــان

التحريش بين المسلمين، وتعميق الجراح فى الجسم المثخن، عمل تقوم به الآن فئات كثيرة، وتسخر له أقلام شتى بأسلوب ماكر.

هناك من يقول: الفلسطينيون خونة .ومن يقول: أهل العراق أهل النفاق والشقاق. أو من يقول: الكويتيون خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. ومن يقول: المصريون فراعنة إذا قدروا، وعبيد إذا عجزوا. ومن ومن... إلخ.

وتلك كلها كلمات ماجنة، أحسب أن مروجيها مأجورون لجهات أجنبية تكيد لأمتنا وتود لها العنت، وسواء ألقيت كلمات عابرة أو نكات ساخرة فأثرها القريب والبعيد خطير على وحدتنا، وتماسكنا فى هذه الأيام العصيبة.

لقد حرم الإسلام البهتان والغيبة، وعدّ كليهما من الكبائر، والبهتان اختلاق العيوب ورمى الأبرياء بها، أما الغيبة فهى التحدث بعيب موجود مادى أو أدبى، على سبيل التنقُّص والفضيحة.

وعند التأمل فى نصوص الشريعة نجد التحريم يتناول ما يجرى على ألسنة الأفراد من إثم يراد به إساءة امرئ فى نفسه أو أسرته، لكن الذى يقع الآن يمكن تسميته غيبة جماعية أو افتراءً جماعيًّا، الغاية منه إهانة شعوب كبيرة وتوهين أواصر الوحدة الكبرى التى تلمها، وإعادة العرب إلى الجاهلية التى ردم الإسلام مآثرها ورفض منافراتها.

أى إنها غيبة مركبة، أو رذيلة مضاعفة، ونتائجها إيغار الصدور، وتقطيع الصفوف، وإظلام المستقبل.

ولن يستفيد من هذا العمل إلا أعداء الإسلام والحريصين على تمزيق أمته وإضاعة جماعته.

إن هذا السفه المنكر غيّر تاريخ الأمة العربية على نحو هائل مزعج، واليوم يراد أن يتحول الخصام الحكومى إلى عداوات شعبية، تضيع فيها قضية فلسطين، وينهار فيها البيت العربى الكبير، وترث أجيال كراهية أجيال، وتذهب وصايا الله

فى جمع الكلمة هباء «**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**».

عندما أصف واقعًا سيئًا لإنسان أو لجماعة على نحو طائش، فليس يغنى عنى أنى أقول الحق، ففضح البشر ليس كلأً مباحًا، نعم عندما أذكر أحدًا بما يكره، فلا يقبل عذرًا لى أن أقول: لقد قررت الحق.

ولا بأس أن أذكر هنا قصة ماعز الصحابى الذى قتل لارتكابه جريمة الزنى، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء ماعز الأسلمى إلى رسول الله ﷺ، فشهد على نفسه بالزنى أربع شهادات يقول: أتيت امرأة حرامًا. وفى كل ذلك يعرض عنه رسول الله ﷺ. فذكر الحديث إلى أن قال الراوى: قال رسول الله لماعز: «**فما تريد بهذا القول؟**». قال: أريد أن تطهرنى. فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم، فرجم، فسمع رسول الله ﷺ رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصاحبه: انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه، فلم يدع نفسه حتى رجم رجم الكلب.

قال الراوى: فسكت رسول الله ﷺ ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار، فقال: «**أين فلان وفلان؟**» فقالا: نحن ذا يا رسول الله. فقال لهما: «**كُلا من جيفة هذا الحمار**». فقالا: يا رسول الله، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، من يأكل من هذا؟

فقال رسول الله ﷺ: «**ما نلتما من عرض هذا الرجل آنفًا أشد من أكل هذه الجيفة، فوالذى نفسى بيده إنه الآن فى أنهار الجنة**».

يقول الله تعالى فيمن يختلقون المعايب ويرمون بها الناس: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

وأشعر أحيانًا أن الغيبة قد تكون أنكى من البهتان، فإن المفترى يمكن كشف كذبه وجره إلى القضاء ليلقى عقابه، أما الذى يعيب شخصًا أو قومًا بسيئة هى فيهم ليسقط مكانتهم فهذا هو الذى يخاف شره، ويتقى ضره.

والمطلوب من أهل الإيمان أن يستروا الزلل لا أن يشيعوه، وأن يعينوا العاثر ليقوم، بدل أن يزيدوا هاويته عمقًا لتبتلعه.

نعم الله الكبرى على اليهود

قد تكون نعمة الله على أمة ما بالتمكين والنصر، كفاء ما حملت من عناء وأبدت من صبر، وعندئذ تبقى هذه النعم ما بقيت الأعمال التى أهلت لها والأحوال التى قادت إليها، إن الرجل إذا حصل على منصب كبير بمواهب عرفت له وكفايات قدرت فيه فهو مقيم فى هذا المنصب ما ظل مطيقًا لأعبائه، قائمًا على حقوقه، موصول الماضى والمستقبل بالجد والإخلاص، أما إذا وصل المرء إلى القمة ثم فقد القدرة على الصعود فإنه سوف ينحدر عنها حتمًا ليعود من حيث أتى. إن المحافظة على المجد ليست أيسر من بلوغه، بل قد تكون استدامة النعمة أصعب من تحصيلها، ألا ترى الثمرة قبل بدوها تحتاج إلى جهود متلاحقة فى غرسها وسقيها وتعهدها، حتى إذا نضجت احتاجت إلى جهود أخرى فى المحافظة عليها من آفات العفن وأسباب التلف، وشر ما يعترى النعم بعد اكتمالها أن يحسب أصحابها أنها جاءتهم اتفاقًا من غير مبررات أكسبتها ولا مقدمات ساقتها، أو يحسبوا أنهم نالوها بمحاباة من الأقدار أو اختصاص مبهم أو بدعوى العظمة الكاذبة والاستحقاق الباطل، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.. هذا كله يجتث أصول الخير ويستعجل نقمة الملك الأعلى، لقد ذكر القرآن بنى إسرائيل فى آيات شتى فأبان أنهم بلغوا من منازل الفضل ومعارج الارتقاء ما سبقوا به أهل الأرض قاطبة، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.. أى إن الله اصطفاهم لا محاباة، بل عن عدالة وحكمة، فلولا أن الشعوب الأخرى فى زمانهم كانت أبخس حظًا فى المعرفة والقدرة ما حملهم القدر رسالة ولا آتاهم من الآيات ما آتاهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾.. وإن الإنسان لينظر إلى اليهود أيام محنتهم فيرى بقايا الاختيار القديم لائحة فى سيطرتهم - وهم قلة - على أموال العالم، واستمرار عنصرهم يغالب الحياة، ويتشبث بها برغم سياسة الاستئصال المنظم التى اتبعها العالم حيالهم، إن القرآن الكريم ليذكّر هؤلاء اليهود بأمجادهم الأولى، ويذكّرهم بإمكان العودة إليها لو اطرحوا الغدرات والأباطيل فيقول: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾. ثم يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. ما الذى جعل أمور هذه الأمة تنقلب رأسًا على عقب؟ ما الذى جعلها بعد أن كانت النبوات تزحم ديارها وأنوار السماء تخط طريقها وبركات الله تنهمر فوقها وتحتها، تتحول إلى أمة أخرى تحذرها شعوب الأرض وتتربص بها الدوائر وتتواصى بالنيل منها والكيد لها؟ ذلك أن بنى إسرائيل ظنوا أن إكرام الله حق مكتسب لهم بحكم الجنس فهو مقرون بهم لا محالة مهما صنعوا، أجل لقد ظنوا إيثار الله لهم ضربة لازب كما يؤثر الرجل بنيه عن غريزة غالبة وعاطفة دافعة، ثم أدى بهم هذا الظن إلى التفريط والتكاسل، بل إلى الحيف والتحامل، فأمسوا يتفاسدون، ويتجاهلون، وهم مع ذلك موقنون بأن كفتهم على سائر الناس أرجح ودرجتهم عند الله أعلى وأغلى، والغريب أن هذا الوهم سرى من بعدهم ممن ورثهم، فنعى الله عليهم جميعًا هذا الغرور بالمعاصى وهذا الانتماء إليه بالزور: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾.. ورب العالمين يختبر عباده بالعسر واليسر ويبعث بالرخاء بعد الشدة لا ليخرج المروعون من اللجج المخوفة ويسيروا على شاطئ الأمان مرحين معربدين، كلا بل ليعتبروا بماضيهم ومستقبلهم معًا، وإلا فالأمر كما ذكر الله فى كتابه: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ

﴿أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾.. وربما ظن الناس أن أجل نعماء الله على بنى إسرائيل هذا الإغداق السمح الذى يسر لهم أطعمتهم من السماء موائد حافلة بالمن والسلوى، كلا. إن تأمين أمة على أرزاقها شىء عظيم حقًا، فكم تذل الأمم بالسنين العجاف، ولكن اليهود ظفروا بمكاسب روحية كبيرة إلى جانب ما نالوا من إشباع وتأمين، فإن الله تعهدهم بالأنبياء يعلمونهم بالوحى ويقودونهم بتوجيه السماء، وكان وعاظهم ومدرسوهم رجالاً معصومين يدعون إلى الله على بصيرة ويستعلون على أهواء الدنيا عن عصمة.

لقد نسى اليهود نشأتهم الأولى والأحوال التى نالوا بها رضوان الله، وحسبوا أنهم لو تغيروا فلن يغير الله ما بهم، فكان بقدر جحودهم ما استوجب من عقاب الله لهم.

بيت المقدس قضية دينية لا قومية

هل يكفى ـ عقابًا لبنى إسرائيل ـ أن يطردوا من فلسطين؟ لا، إن الله عزلهم نهائيًّا عن القيادة الدينية التى كانت لهم، وحرمهم من الوحى وشرف إبلاغه، واصطفى الأمة العربية لتقوم بهذه الأمانة. وكانت ليلة الإسراء والمعراج التصديق الحاسم لهذا التحول، فقد انتقلت الرسالة من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل، وأصبحت الأمة العربية ـ لا العبرية ـ هى الوارثة لهدايات السماء.

إن قضية بيت المقدس وفلسطين منذ فجر التاريخ إلى قيام الساعة قضية دينية عند أصحاب الرسالات السماوية جميعًا، فكيف يتجرأ البعض على جعلها قضية قومية أو اقتصادية؟

المسلمون يرون المسجد الأقصى يذكر فى سياق واحد مع المسجد الحرام والمسجد النبوى، ويرون الدفاع عنه جزءًا من الإيمان، ويعترضون باسم الله ورسوله ﷺ جهود اليهود لهدمه وإقامة الهيكل فوقه، ويعدون هذه الجهود جريمة ضد الإسلام والألف مليون مسلم الذين يعتنقونه، فكيف يتجاهل هذا؟

والنصارى يرون بيت المقدس قبلتهم، وبه قبر المسيح عليه السلام، وقد جعلوا مفاتيح كنيسة القيامة بأيدى المسلمين لأنهم أمناء عليها، وحماة لها، ولرفع التنازع الطائفى بينهم على حيازتها. واليهود يرون أن هذه الأرض منحها الله إبراهيم الخليل عليه السلام وذريته من بعده وزعموا أنهم هم الذرية المعنية! وأن طردهم منها لعصيانهم وقتلهم الأنبياء لا يمنع من العودة إليها وطرد العرب منها!

فإذا كان الدين وراء كل دعوى، فكيف جاء من أسموا أنفسهم العروبيين، وجردوا العرب من ولائهم الإسلامى، وأغروهم بجعل القضية صراعًا جنسيًّا أو نزاعًا «إمبرياليًّا» وغير ذلك من الأوصاف المكذوبة؟

وعندما يفقد صاحب البيت عاطفته الدينية ويهجم اللص بهذه العاطفة المهتاجة فماذا تكون النتيجة؟

إن اليهود اغتصبوا نصف مسجد الخليل، ويتآمرون على اغتصاب بقيته،

والأخبار تترى ـ وأنا أكتب هذه السطور ـ أن مساجد شتى فى يافا وعكا نسفت، وأن ترويع الطلاب العرب فى مدارسهم بمحاولات التسميم مستمر حتى يترك العرب الضفة الغربية، وقطاع غزة، أو كما يعبر اليهود «يهوذا أو السامرة»؛ إحياء لعناوين التوراة.

إننى أتساءل: ماذا وراء تجريد فلسطين من صبغتها الإسلامية إلا الضياع؟

نحن نحتفى بالبقعة التى انتهى إليها الإسراء، وبدأ منها المعراج، ونريد أن يسأل العرب أنفسهم: لماذا لم يكن المعراج من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟ إن الإجابة تعرف من الآيات التى أعقبت قصة الإسراء فى سورتها المباركة، كما تعرف من دراسة التاريخ القديم والوسيط والحديث.

فى هذه الأرض قامت رسالات وانتهت، وفيها نهضت دول وتلاشت، ثم ورث المسلمون بيت المقدس باسم الله، ولو أنك قرأت أحوال أمتنا أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين لظننت أنك تقرأ أحوال المسلمين فى هذه الأيام العجاف!

إن الصليبيين القدامى تقدموا فى فراغ!

كانت الفرقة بين العرب والمنافسة على السلطة هى الأسلحة التى هزمنا بها أعداؤنا، ولو اشتبك المسلمون مع الهاجمين فى أية معركة جادة ما سقطت فلسطين.

وكأن التاريخ يعيد نفسه، إن الصهيونيين تقدموا فى الفراغ نفسه.

أعانتهم الفرقة، والشهوات المطاعة، والعقائد المنحلة، والأنانية الطاغية، فكسبوا معركتهم بأيدينا.

أريد ـ عندما نتذكر الإسراء ـ أن نتجاوز الهامش إلى الصميم.

أن نترك السرد السطحى للقصة.

أن نعمق النظر فى الأسباب التى من أجلها كان الإسراء، ولأجلها قامت للعرب دولة تحمل الرسالة الإسلامية، وتضع الموازين القسط بين الناس.

زبانيـــة الغــزو الثقــافــى

من الغريب أن الوساوس التى هجست فى أفئدة الجاهلين الأقدمين لا تزال تتردد فى بعض الأفئدة الشاكة، وتسطرها دون حياء أقلام ارتدت عن الإسلام وكفرت بشرائعه.

وماذا يبغى هؤلاء؟ إنهم يريدون أن يخلع العرب لباس التقوى، ويرفضوا البقاء على الدين الذى أتم الله به النعمة وكفل حرية النصر والمنعة. وتدبر قول أحدهم فى عرض تعليقه على سيرة المجاهد الإسلامى الكبير جمال الدين الأفغانى: كانت دعوة جمال الدين لإحياء دولة الخلافة دعوة ساذجة بعيدة عن إدراك سير التاريخ! وكان إصراره على إقامة دولة إسلامية دعوة عاطفية ممعنة فى الخطأ والضلال (كذا) وإدراك مغزى الثورات الكبرى وأمانى الحياة الإنسانية(!) فالدولة الدينية ـ هكذا يقول الكاتب ـ أين ومتى كانت لا يمكن أن يقول بها إنسان عنده إدراك وسداد وفهم وحرية وضمير! ـ الله الله ـ ولسنا بذلك نعيب جمال الدين. إننا نزن آراءه وأعماله ونقومها التقويم العلمى والتاريخى!.. لكن لماذا أمعن جمال الدين فى الخطأ والضلال حسب تعبير الكاتب العظيم؟

يقول حضرته: مرد هذه الأخطاء فى إحياء الخلافة الإسلامية، هو عمق إيمانه بالإسلام وحرصه على أمجاد الخلافة العريقة.

هذا هو الدافع لاقتراف ذلكم المنكر الكبير! إن عمق الإيمان بالإسلام جرم شنيع!

والأشد غرابة أن كل معلول فى فكره، مختل فى وزنه للأمور وحكمه على الأشياء لا يجد مسرحًا لعلله وخلله إلا الإسلام ينال منه كيف شاء.

ولو كان هذا الكلام والعرب فى إقبال من أمرهم وانتصار على عدوهم لقلنا فى صاحبه: مفتون فاته التأديب. أما والعرب فى معركة بقاء أو فناء وخصومهم يستظهرون بأديانهم فى كسر شوكتنا وضرب أمتنا، فإن تلك الأفكار قرة عين لأعدائنا الذين يستهدفون محق رسالتنا ووجودنا وتاريخنا الماضى والآتى على حد سواء.

إن العرب لا يستغنون عن آية واحدة من كتاب ربهم، وهم فى الآونة العصيبة

التى يجتازونها أحوج أهل الأرض لمن يربطهم بكل دقيق جليل من رسالتهم، وإنى ـ إذ أسمع طنين الباطل هنا وهناك ـ أهيب بكل مسلم أن يعد هذا الأمر الإلهى خطابًا خاصًا به، وهو قوله جل جلاله: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

لقد كان جمال الدين الأفغانى وتيودور هرتزل متعاصرين، فأما الأول فجاهد ليدعم بتعاليم الإسلام الصحيح دولة مريضة رأى ذئاب الأرض تتهيأ لنهش لحمها وابتلاع كيانها، وأما الآخر فقد رأى الفرصة سانحة ليخلق من العدم دولة، ومن الوهم كيانًا، وكانت اليهودية ورؤى العهد القديم هى الدعائم التى بنى عليها أمله الهائل.

فأما جمال الدين فقد قتل دون غرضه، وأما هرتزل فنحن اليوم نعانى المر من غرسه.

والسبب فى فشل جمال الدين وعجزه عن بلوغ غايته أن الاستعمار الفكرى استطاع خلق عدد كبير من أمثال هذا الكاتب يكره الإسلام، ويرى عمق الإيمان به تهمة تشين صاحبها!

ولو كان جمال الدين من دعاة اليهودية أو النصرانية ما جرؤ أحد على تناوله بهذا الأسلوب!

ولكنه من دعاة الإسلام المهيض الجناح، الذى يستنسر بأرضه البغاث!

ولقد وصف لنا القرآن الكريم أعداء الحق وصفًا يستحق التدبر، فهنالك أناس يسخطون على الله، ويمقتون وحيه، ويأبون رؤيته نافذًا على الأرض: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وهناك أذناب لهؤلاء أو أبواق تردد دعاواهم وتصدق إفكهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وزبانية الغزو الثقافى من وراء الحدود وسماسرته الصغار بين ظهرانى العرب، هم أول من ينطبق عليهم هذا الهدى القرآنى المبين!

وآثام الفراغ الروحى والضياع الخلقى اللذين يشكو منهما المصلحون هما النتيجة الحتمية لهذا الغزو الخبيث، وهما كذلك العلة الأولى لما أصاب العرب من هزائم متتابعة، ومن هنا كانت نقمتنا على الأقلام التى توهن علاقتنا بالإسلام، وتهاجمه عقيدة تارة وشريعة تارة أخرى.

ومن هنا انبعثت صيحاتنا تنبه المؤمنين إلى ما يبيت لهم.

إذا احتوت قبضتك على شىء نفيس فحاول اللصوص انتزاعه منك قسرًا ثم أصخت إلى صوت الحارس المؤنس يهتف بك: استمسك بما معك. فمعنى ذلك: شدد قبضتك، وركز قوتك، وقاوم عداتك، وإياك أن تتراخى أو تفرط. وكذلك تنطلق آيات الله إلى أفئدة عباده، ففى ضمير كل مؤمن هاتف يصرخ فى أعماقه، كلما تكاثرت الفتن وحيكت المؤامرات وانتشر لصوص العقائد وسراقو المبادئ يقول: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

نعم. نحن على الصراط المستقيم، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى.. والعرب الذين يحملون رسالة الإسلام، وتتعلق بها جمهرتهم العظمى، لا يحملون خرافات ولا أوهامًا كما يزعم الأفاكون، وإنما يحملون من فىء لغتهم خلاصات الوحى الإلهى من الأزل إلى الأبد. فإذا ضاع هذا التراث بقى العالم كيانًا فاقد الرشد ضائع الخير، وسارت الإنسانية وهى قطعان عاوية جافية مهما تقدمت معارفها وتطورت علومها! ومهما بذل العملاء لتسوىء سمعة الإسلام وتجريح حقائقه فلن ينالوا خيرًا، ولن يدركوا هدفًا، والله غالب على أمره.

التفريط والهزيمة

المسلم امرؤ يحيا وفق تعاليم دين، وهو ينتصر لدينه بالطرق التى يقرها وحدها وينأى عما عداها. إن طبيعة الطير أن تسبح فى الجو وأن تطوى المسافات صافة أجنحتها، وطبيعة الثعبان أن يزحف على الثرى وتتداعى أجزاؤه فوق التراب لكى ينتقل من مكان إلى مكان.

والإيمان نقلة هائلة من طبع إلى طبع ومن سلوك إلى سلوك وهو يكلف صاحبه أن يترفع لا أن يسف، وأن يشق طريقه محلقًا فى الجو لا مخلدًا إلى الأرض، والمشكلة أن بعض الناس يتصور أنه باسم الإيمان يستطيع أن يتحرك بخطى الثعبان.. وهيهات!

تأملت فى وصف القرآن لأولى الألباب فوجدتنى أمام مجموعتين من الخلال الزاكية تكمل إحداهما الأخرى، المجموعة الأولى فى سورة آل عمران والثانية فى سورة الرعد.

فأما التى فى سورة الرعد فقد أحصت الآثار العملية فى الأخلاق والسير وعدّتها الامتداد الطبيعى للعقل المؤمن: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾... الآية.

وأما التى فى سورة آل عمران، فقد تعرضت إلى منابع الإيمان من ذكر وفكر ودعاء، ولضوابطه من جهاد وهجرة وتضحية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. إلى أن قال:

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾... الآية.



والآيات الكريمة فى كلتا السورتين تصف ناسًا معينين، إنما تختلف الأوصاف باختلاف المواقف والمناسبات، وما يستغنى مؤمن فى حياته الخاصة والعامة عن كل ما ذكر الله جل شأنه هنا وهناك.

قد تقول: لكن هذا الالتزام الدقيق سيجعل أصحابه غرباء مستوحشين، بل قد يجعلهم ضعفاء مغلوبين!، فإن القافلة البشرية تسير تحت رايات وشارات غير ما تقرر هنا، وإذا لم يتهاون أهل الإيمان فى بعض مواريثهم هانوا وتنكرت لهم الدنيا!

وأقول: هذا هو الهراء الذى لا يثمر إلا خزى الحياتين والذى أنطق المفرّط القديم بهذا البيت النادم:

بعت دينى لهم بدنياى حتى

سلبونى دنياى من بعد دينى!

وإنى أحذر العرب والمسلمين فى كل قطر من مثل هذا المنطق الكفور الضعيف، إنهم يجب أن يتشبثوا بأرضهم شبرًا شبرًا وبدينهم حكمًا حكمًا، وليعلموا أن نية التفريط أولى بوادر الهزيمة، وأن النزول عن جزء من الحق إيذان بضياع الحق كله.

لقد بدأ الإسلام غريبًا مستضعفًا فلما ثبت عليه أهله أصبح قطب الوجود ومنارة الدهور، وما كلفهم ذلك إلا شيمًا واحدًا هو صدق الإيمان، وإن خفق القلب واضطرب القدم وقل الناصر وفجر الباغى وعمت الأفق الغيوم!

يقول سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا ﴾... الآية.

والشرط الفذ الذى نوه به القرآن ليتحقق هذا الرجاء هو قوله سبحانه: ﴿ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا ﴾... الآية.

وبعد أن ألمع إلى أركان هذه العبادة المفروضة أومأ إلى قوى المبطلين بازدراء،



وبيّن أنها ستذوب فى حرارة الإيمان المنتصر آخر الأمر: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

إن النصر حليف دائم للإيمان الحق، لا يمكن أن يتخلف عنه أبدًا، ولقد ذاق المسلمون فى تاريخهم المديد حلاوة النصر وآلام الهزيمة، فهل كانت انكساراتهم لتخلف فى مواعيد الله؟ كلا.. إنهم هم الذين أوهنوا علاقتهم بالله، فلما ارتابت قلوبهم وضعف إيمانهم تخلت عنهم العناية العليا.

قرأت هذا التعليق على جهاد نور الدين زنكى ضد الصليبيين القدامى أنقله بحروفه لعل فيه عبرة: «كان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة وكانوا أعداد الرمال تمدهم أوربا كلها بما يشد أزرهم ويضمن غلبهم، وحسب الناس أن هذه الغمة لن تزول، وما هو إلا أن ظهر الرجل الذى نشر راية القرآن وضرب بسيف محمد حتى عاد النصر يمشى فى ركاب المسلمين وعاد أمرهم إلى الزيادة وأمر الصليبيين إلى النقص وبذلك يكون لنا كلما شئنا النصر».

إن راية القرآن لم تهزم قط، ومن هزم من أمراء المسلمين فى هذا التاريخ الطويل إنما هزموا لأنهم كانوا يستظلون برايات المطامع والأهواء والعصيان والأحقاد وما استظلوا براية محمد.

وكانوا يضربون بسيف البغى والإثم والعدوان، وما ضربوا بسيف محمد، إنه ما ضرب أحد بسيف محمد ونبا فى يده سيف محمد، وهذا حق سجلته القرون وشهدت به الأرض والسماء، وعندما ينتضد العرب هذا السيف فستكون من ورائه قوة الله التى تدك العدوان وتؤدب المجرمين؛ إسرائيل ومن وراء إسرائيل.

المهم أن نوفى لله فيوفى الله لنا، وأن نذكره فيذكرنا، وأن نلوذ به فيكمل جهدنا ويسدد خطونا.

الفهرس





محمد الغزالي



13

الجزء الثالث



العنوان: الحق المر «الجزء الثالث».
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الرابعة أكتوبر 2005م .
رقم الإيداع: 2000/ 7029
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-1262-0

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



مقدمـــة

ربما اعتمدتْ وسائل الإعلام الحديث على الصورة الساخرة ، أو الخبر الموجَّه ، أو التعليق السريع . . فإن القارىء المعاصر يشغله عن الإسهاب ما هجمت به الحياة على الناس من تعقيدات وهموم . .

ولما كنت واحدا من الذين يحملون أعلام الدعوة ويرابطون على ثغور الإسلام فإنى أخذت أرمق كل حركة مريبة تصدر عن خصومنا ـ وما أنشطهم فى هذه الأيام ـ لأنبه خطوط الدفاع المترامية ، وأدفعها إلى اتخاذ الأهبة ولزوم اليقظة . .

وأعـداؤنا لهم باع طويل فى المكر السىء ، والإسـاءة إلى الرسـالة الخـاتمـة ، وتاريخهم امتداد لماض مليىء بالغارات ، وهم فى هذه الأيام يضمّون إلى الحروب الساخنة غزوا ثقافيا كثير الشُّعب ، مخوف العواقب !

ومن هنا كانت كلماتنا ذات موضوعات شتى ، تستمد سطورها من الواقع ، وتعتمد على إثارة الوعى الكامن فى أفئدة المؤمنين ، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذى يكشف الظلام ، ويوضح الطريق . .

إنها كلمات قصار لكنها فواتح لمعان جمّة عند أولى الغيرة على دينهم وأمتهم ، أحيانا تتناول العقيدة ، والأخلاق ، والتاريخ ، والفقه وأحيانا تغوص فى واقعنا الحىّ لتشدّ أزر المجاهدين فى سبيل الله ، وتحق الحق وتبطل الباطل .

وجماهير المسلمين ـ فى يومهم الحاضر ـ بحاجة إلى هذه اللفتات ، فإن مناسباتها إن مضت تكررت على مر الأيام ، حتى لتحسب أن مايتمخض عنه الغد صورة لما كان بالأمس ، وتدبر قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١)

وستظل كلماتنا ـ بتوفيق الله ـ وميضا يبرُق بالإيمان ، ويحامى عن الحق .

محمد الغزالى

---

(١) البقرة : ١١٨ .

نظرة ذكية فى أحاديث الفتن...

فى حديث لأبى ذر أن الفتن سوف تنتشر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهيج الغرائز القديمة نحو القتال ، وهى غرائز كامنة فى البشر عامة والعرب خاصة ! ولابد أن تستفز النفوس بحجة المحافظةعلى المبادىء !

قال أبو ذر : يا رسول الله أفلا آخذ سيفى وأضعه على عاتقى ؟

قال رسول الله له : شاركت القوم إذن !

قلت : فما تأمرنى ؟

قال : تلزم بيتك !

قال : فإن دخل علىَّ بيتى ؟

قال : إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك ، يبوء بإثمك وإثمه ! وفى رواية « **فإن دُخل على أحد منكم فليكن كخيرا بنى آدم** » أى ليكن القتيل ولايكن القاتل !

جلست مع صديق لى نتذاكر هذا الحديث ونتعرف مغزاه ! كان أول ما خطر بالبال كيف نقبل العدوان ؟ من اقتحم بيتى يريد قتلى قتلته ولا كرامة . والآية تقول : « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ »[1] وفى الحديث الآخر «**من قتل دون نفسه فهو شهيد**»[2] لابد من مقاومة مستميتة لجالبى الشر ومهدِّدى الحرمات ! ! لا هدنة هنا !

قال لى الصديق : هنا معنى آخر يتراءى لى من بعد وَوَدِدْتُ لو تدارسناه ! إن القصاص لايحل المشكلات الداخلية ، والقطيعة بين ذوى الأرحام تنمو على العقاب وتضمر مع العفو ، وعندما تتعقد الأمور بدوافع سياسية فمفتاحها الحل السياسى لا سفك دماء الأفراد . .

(١) سورة الشورى: ٣٩ . (٢) انظر باب بيان الشهداء - فى صحيح مسلم - بشرح النووى . وما أخرجه أبو داود ، والترمذى عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . . « . . من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد .» . . حديث حسن صحيح .

قلت لصاحبى : لا أفهم ما تعنى !

قال : عندما يجد الأب أن الشجار بين الإخوة أودى بحياة أحدهم فإنه لايصيح بطلب القصاص فقد ينتهى ذلك بفناء الأسرة كلها ، إنه سيحاول تهدئة الأمور ثم يبدأ النظر فى إصلاح ما وقع . .

الحل السياسى هو وحده الذى يمكن اللجوء إليه ولعل ذلك هو ما عناه النبىُّ عليه الصلاة والسلام عندما أوصى بموقف سلبىّ فى مقابلة الفتن إلى أن يَفُضَّ أولو النهى المعركة بردم منبع الشرِّ .

قلت : كأنك تذكر قول الشاعر فى وقف الحروب بين الأهل والأقربين :

كــــفى حــــزنا أن لا أزال أرى القنا

تَمُجُّ نجيعا من ذراعى ومن عضدى

وإنى وإن عــــاديتــــهم وجــــفــــوتهم

لتـألم مـمـا عض أكـبـادهم كـبـدى !

فــــإن أبى عن الحــــفــــاظ أبوهم

وخــالهم خــالى وجــدهم جــدِّى !

قال : كأن الوصية النبوية تؤكد هذا المعنى ، وتكفكف النار المستعرة عندما تقول عن الفتنة « القاعد فيها خير من القائم ، والماشى فيها خير من الساعى » .

وعندما أتأمل فيما بين المسلمين اليوم من محن أقول : ما أحوج الأمة إلى رجال لهم حلم وأناة ، لهم إخلاص وتجرد يبتعدون عن أسباب النزاع ويرفضون صيحات الجاهلية ويتحرون وحدة الكلمة ، ويشدون الفرقاء المتخاصمين إلى الخلف ريثما يتم إصلاح ذات البين بحلٍّ تتغلب فيه المصلحة العامة ويبتلع البعض غيظه لوجه الله ووحدة الكلمة .

* * *

غمط متعمد.. وراءه سر!!

لماذا تحسب تضحياتنا صغيرة مهما كبرت ، وتحسب تضحيات غيرنا كبيرة ويزاد فيها كما وكيفا ؟ !

لقد عدت بذاكرتى إلى المغارم التى يتحملها شعب فلسطين خلال نصف القرن الأخير فوجدت صفحة مجللة بالسواد ، مفعمة بالمآسى . .

عند محاولة الاستعمار البريطانى إقامة إسرائيل وبعد نجاح هذه المحاولة كانت أرواح العرب تزهق بالآلاف ، وأرضهم تغصب ، وبيوتهم تنسف ، والهوان البشرى يلاحقهم فى المدن والقرى ! ومع ذلك كله لم ييأسوا من روح الله ولم تضعف مقاومتهم للغزاة . ولكن أمواجا من النسيان تذهب بجهادهم وتسدل عليه أستارا من الغمط والجحود . .!!

وعلى عكس ما وقع ويقع على أرض فلسطين . . رأيت اليهود فى ألمانيا النازية ينزل بهم ضيم أقل مما نزل بالعرب ، ويحبسهم « هتلر » فى المعتقلات ويعدهم مسئولين عن هزيمة قومه فى الحرب العالمية الأولى . . .

وينهزم الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، فإذا طبول الدعاية تدق بصوت مزعج ، تروى للناس أن عدة ملايين من اليهود أحرقوا فى الأفران وأن ملايين أخرى فرت مذعورة إلى الشرق والغرب لا تجد مأمنا ولا مأوى !

وما ننكر نحن أن اليهود عذَّبَهم الألمان ، ولكننا ننكر المبالغات الهائلة التى لجأ إليها بنو إسرائيل فى تصوير نكبتهم ، كى يستدروا العطف العالمى ، وتترك لهم فلسطين ، ويقصى عنها أهلها . .

واليوم يلقى عرب فلسطين من الحكم اليهودى شرا مما لقيه اليهود فى ألمانيا النازية !

لماذا ؟ وبأى شريعة ؟ ! !

قرأت أن المجاهدين العرب يوضعون فى علب حديدية قاعدتها نصف متر مربع ، وفوق رءوسهم أكياس من الرمل يزن الكيس ٢٠ كيلوجرام لمدة ساعات طويلة ، وأنهم يغطسون فى حمام من الماء المثلج ، وأنهم يجبرون على شرب بولهم ، ويضربون على خصيهم ، وأن اليهود يبصقون فى أفواههم ويجبرونهم على الإنحناء لجنودهم ومناداتهم بأنتم سادتنا . . ! !

إن اليهود لم يلقوا فى ألمانيا النازية هذا العذاب ! وقد أثبت البحث العلمى إن حرق ملايين اليهود هناك أسطورة لا أساس لها ، ولو فرضنا أنهم نزل بهم أشد العذاب ، فما ذنب العرب ؟ ولم يقتص منهم ؟ ! !

الحق أن للعرب ذنبا آخر قد يكون أشد من كل الذنوب !

لقد وهت علاقتهم بالله ، وتقطع ما بينهم من أخوة ، بل إن بعض العرب حاصر مخيمات اللاجئين قبل أن تحاصرها شراذم اليهود ! وظل هذا الحصار بضع سنين حافلا بالمآسى حتى ألفت طبيبة انجليزية كتابا عن آلام أطفال الحصار ! فلنلم أنفسنا قبل أن نلوم غيرنا .

* * *

أيُّنا الإرهابى ؟!

فى أقطار كثيرة تهدد حقوق المسلمين وترخص دماؤهم ، فإذا أبدوا مقاومة واهنة ضد المغيرين عليهم ودفعوا بالراح أفتك أنواع السلاح ، ارتفعت صيحات معروفة : المسلمون معتدون !

المسلمون إرهابيون !

المسلمون يعودون إلى همجيتهم الأولى . . !

وأعطيت الإشارة للدبابات أن تصب حممها على الصبية الذين يقذفون المغيرين بالحجارة !

ويبدو أن حبل هذا الإفك لاينقطع . . ! ، وقد وزعت أدوار هذه الأكذوبة الكبرى على أطراف شتى تجمع بين مبشرين ، وصحافيين ، وممثلين ، وتجار كتب وتجار سلاح ، وباعة «كاسيتات» وأشرطة «فيديو» ، وساسة خبثاء ، وأتباع حمقى . . .

والإصرار على اتهام الإسلام بأنه دين إرهابى هو ـ كما يقول علماء النفس ـ نوع من الإسقاط الذى يدفع المرء إلى اتهام غيره بما فى نفسه هو من شر ، وبما كسبت يداه من إثم . . !

وأكتفى بتسجيل عبارات رواها « لوقا » فى إنجيله عن المسيح ـ عليه السلام ـ وهى عبارات يدور عليها التاريخ الصليبى كله ، ومع أننا نحن المسلمين نستبعد صدورها عن عيسى بن مريم إلا أن القوم صدقوها ونفذوها وعاشوا ومايزالون فى جوها .

يقول إنجيل « لوقا » على لسان المسيح[1] : « **ولقد جئت لألقى على الأرض نارا! فماذا أريد إلا أن تكون قد اضطرمت ؟ ولى معمودية لأصطبغ بها ، وما أشد**

---

(١) لوقا « ١٢ : ٤٩ - ٥٣ » .

ما أعانى حتى تتم ! أتظنون أنى جئت لألقى على الأرض سلاما ؟ أقول لكم : كلا(!) بل انقساما . . . فإنه منذ الآن سيكون خمسة فى بيت واحد منقسمين ، ثلاثة ضد اثنين ، واثنان ضد ثلاثة ، فيعادى الأب ابنه والأبن أباه ! وتعادى الأم ابنتها والابنة أمها ، والحماة زوجة ابنها ، وزوجة الإبن حماتها » .

ولم ينفرد لوقا بهذا المعنى ، بل أيده متى[1] ويوحنا[2] .

وإذا كان الانقسام فى بيت واحد غاية دينية فكيف إذا تعلقت الرغبة السيئة بمستقبل قطر كبير ؟

لقد كان الشام قطرا واحدا فإذا هو الآن أربع دول ، سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، والخطة مطردة لجعل فلسطين دولتين وجعل لبنان دولتين ! إن الانقسام والتقسيم مشيئة إلهية كما ترى الصليبية . . .

ووسيلة ذلك القتل والختل واتهام الإسلام بأنه دين إرهاب ! واتهام المسلمين المقيمين فى أرجاء الأرض بأنهم ضد السلام ، وأنهم مشعلوا الحرب !!

* * *

(١) متى « ١٠ - ٣٥ » .

(٢) يوحنا « ٧ : ٤٣ ، ٩ - ١٦ ، ١٠ ، ١٩ » .

قانونىٌّ جاهل يفترى على الإسلام...

هذا مقال مشحون بالأخطاء الجريئة ، بعضها من صنع الكاتب لم يسبقه إليها أحد ! وبعضها مشى الكاتب فيه وراء غيره مقتنعا بشبهات ليس لها من وزن !

ونبدأ بالرد على السيء ، ثم نثنى بالأسوأ لحكمة رأيناها . .

يقول المستشار **محمد سعيد العشماوى** : « قياس تحريم المخدرات على الخمر قياس فاسد ، لأن الخمر فى القرآن مأمور باجتنابها وليست محرمة ، فالمحرم على سبيل القطع من الأطعمة والأشربة ورد فى الآية الكريمة ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾[1] والإجتناب فى رأى بعض الفقهاء أشد من التحريم ، ولكنه فى الحقيقة أمر يتصل بالشخص المخاطب . .» .

نقول : والآية التى ذكرها الكاتب إحدى آيات أربع ، نزلت اثنتان منهن بمكة ، والأخريان بالمدينة ، وهن جميعا فى المحرم من الأنعام ، ولا صلة لهذه الآيات بالخمر من قريب ولا من بعيد .

ويظهر أن الكاتب لايدرى معنى كلمة طاعم ، فقد حسبها تتناول المشروبات إلى جانب المأكولات . . . ولم يقل ذلك عالم باللغة ولا بالتفسير . .

وربما وردت كلمة طعم بمعنى تذوّق ، وتستعمل عندئذ فى الروائح والسوائل ، ومن ذلك قول شوقى :

وماضرّ الورود وما عليها

إذا المزكوم لم يطعم شذاها !

ومنه ما جاء بالقرآن الكريم « وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي »[2] أى الماء .

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٩ .

والزعم بأن آية الأنعام تبيح شرب الخمر لم يخطر ببال مسلم فى الأولين والآخرين !، ولو صح فهم المستشار العشماوى لها لوجبت إباحة المخدرات فهى نباتات وأزهار تطعم - بالتعبير اللغوى - ولا بأس على المدمنين ولا على السكارى من اتباع مذهب المستشار المجتهد ، وهنيئا للسكارى والحشاشين !

أما كلمة «اجتنبوه» فقد استعملها القرآن فى تحريم الاشراك والتزوير قال تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[1] وقال فى وصف المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾[2] فهل الكلمة التى استخدمت لتحريم جرائم الشرك والزور وشتى الآثام والمناكر تترك للشخص المخاطب بترك الخمر كى يكون له الخيار فى السُكرِ أو الصحو ؟ !

ولماذا يكون التخيير فى تناول الخمر وحدها ؟ ! لماذا لايكون فى سائر الجرائم الأخرى . . ؟ ! !

إن تحريم الخمر قد انعقد عليه إجماع المسلمين من سلف وخلف إلى يوم الناس هذا . . ولا أشك فى أن المستشار محمد سعيد العشماوى لم يكون فى وعيه عندما قال : إن الخمر ليست محرمة فى القرآن !

ولكن هذا الخطأ على فداحته أهون من الخطيئة التى بنى عليها مقاله ، وهى أن سلطة الله فى التشريع قد انتهت بوفاة الرسول الكريم ، وانتقلت إلى الشعب ! فلنتابع هذا المستشار فى هجسه لنعرف ماذا يعنى ؟ ! ومن وراءه ؟

يقول المستشار عشماوى : « بعد وفاة النبى ﷺ انتهى التنزيل ووقف الحديث الصحيح وسكتت بذلك السلطة التشريعية التى آمن بها المؤمنون وكانت أساس خضوعهم لأحكامها ، وكان يجب على الخلفاء والفقهاء إدراك أن الشريعة انتقلت إلى الأمة أى الجماعة الإسلامية ، فأصبحت الأمة أساس الشرعية فى الخلافة والوزارة والتشريع والأوامر والأحكام . . »

ويشرح المستشار ما يريد فيقول : « إنه مع إنعدام الوحى ، وبعد فترة النبوة لايكون الحديث عن عمل الله وأمر الله وخلافة الله إلا ضربا من التعابث والتخابث والتحايل . . الخ . » .

---

(١) سورة الحج : ٣٠ . (٢) سورة الشورى : ٣٧ .

ونتساءل : ما معنى إنعدام الوحى وقد نزل منه مصحف كامل ؟ ! وما معنى توقف الحديث وقد ضبطت الأمة آلاف السنن الصحيحة ؟

يرى فقيه مجلس الدولة أن السلطة الجديدة للشعب أمسى لها حق النظر الحر فى هذه المخلفات التى تركتها السلطة السابقة ، فما قبلته بقى ، وما رأت أنه يخالف المصلحة ألغته ولا كرامة . . !!

ولكى يصل إلى غايته من ترك الكتاب والسنة أرسل هذه الكلمة العوراء « القرآن ليس كتاب تشريع ولكنه فى الأساس كتاب دين و إيمان وهو فى ذلك عكس التوراة » ! !

التوراة كتاب تشريع أما القرآن الذى قال منزله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1] والذى قال ـ بعد ذكره التوراة والانجيل ـ ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[2] هذا الكتاب ليس كتاب تشريع بل هو دون التوراة عند المستشار عشماوى . . ! !

ومضى الرجل التائه المسكين يحاول إثبات أن عمر ألغى أحكاما قرآنية بوصفه ممثل الشعب ، والشعب هو السلطة الجديدة الحاكمة بأمرها عند هذا المفكر المخبول . .

وعمر ما كان له . . بل يستحيل عليه أن يعترض نصا قرآنيا ، لقد أبطل تطبيقا خطأ لمبدأ صحيح ثابت إلى آخر الدهر . . فقد ضبط بدويا يأخذ صدقة من سهم المؤلفة قلوبهم ، وذلك بعد ما انتصر الإسلام على الروم والفرس وعجب عمر أن يتصور هذا الأحمق أن الإسلام لايزال يتألفه كما كان أيام ضعفه القديم فحجب عنه الصدقة وطرده ! هل هذا إلغاء للنص ؟ ! أم منْع لخطاف يريد الاختباء خلفه ؟ !

وقد تعرضنا لهذه الشبهات فى مكان آخر ، لكن المستشار العشماوى يريد إلغاء الكتاب والسُنَّة بأسلوب يجعل الجامعة العبرية ترشحه لجائزة نوبل . . ما أيسر ذلك !

ونعود للمقال الذى نشرته له مجلة أكتوبر عن انتهاء سلطة الكتاب والسُنَّة وبدء سلطة الشعب ! لنقول : إن هذه الكلمة مظلومة !

إن الشعب مسلم وفىٌّ لدينه مخلص لكتاب ربه وسنَّة نبيه ، والقصة كلها محاولة

(١) سورة النحل : ٨٩ .
(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

طائشة لحفنة من سماسرة الغزو الثقافى تؤدى بين ظهرانينا دور المستشرقين والمبشرين ، وسنكون لهم كالشرطة مع اللصوص .

يظهر أن الإلحاد أخصر طريق للشهرة ، فإن وغدا مغموصا كسلمان رشدى أمسى بين عشية وضحاها من ألمع الأسماء لأنه ولغ فى سيرة أشرف الرسل ! ، ولكن ما قيمة الشهرة ؟ ! !

إن إبليس هو أشهر مخلوق ! ولعل أشرف منه وأسعد عصفورة ولدت فى خفاء وماتت فى عماء لم يشك من شرها أحد . !

والطاعنون فى الإسلام من العرب المعاصرين يجدون مع الشهرة حظوة لدى إحدى الجبهتين المغيرتين على تراثنا ، وتكبر هذه الحظوة بقدر ما يثيرون من شكوك ويوقظون من شهوات .

من أجل ذلكم أشعر بأن جرائم هؤلاء المهاجمين الخبثاء على الإسلام تدخل فى دائرة الخيانة العظمى !

ومن أيام نشرت مجلة ماجنة مقالا مسموما تحت عنوان : الإسلام ليس دولة ! فقلت : قديمة ! ونكتة سخيفة ، والواقع أن الكاتب ما يرى الإسلام دينا ولا دولة ، ولكن المطلوب إثارة اللغط حول الإسلام حتى يفقد ما بقى له من مكانة !

وأوصيت من حولى أن يدفنوا الموضوع مكانه فذاك أفضل . .

من هذا القبيل قول المستشار العشماوى كان بعض الفقهاء يجاهر بوضع الأحاديث ، ويتفاخر بهذا الوضع ويقول : نحن نكذب للنبى لا عليه .

وهذا الكلام لون من الإفك ، فلم يضع فقيه حديثا ، ربما ضبط بعض الأغرار يضع حديثا فى فضائل القرآن لإغراء الناس بقراءته ، وما وقع هذا السفه من فقيه ، وقد كشف المجرم وأحيط به .

ولكن المستشار يريد تلويث سمعة الفقهاء فيهرف بما لايعرف ، وهو لاقدم له فى فقه أو حديث .

ومن جراءته البالغة زعمه أن آيات التشريع فى القرآن الكريم تبلغ مائتين ، ألغى منها بالنسخ ١٢٠ آية أى ثلاثة أخماس الآيات التشريعية ولم تبق إلا ثمانون آية .

وظاهر أن العشماوى لا قراءة له فى هذه القضايا ، ولو تناول كتابا كالتشريع الإسلامى للخضرى[1] لعلم أنه لم تلغ آية واحدة ، وأن الكلام يدور بين الإجمال والتفصيل والعموم والخصوص والتقييد والإطلاق والرخصة والعزيمة والتدرج فى التشريع ، وأن ما مِنْ آية قيل بنسخها إلا وقيل بإحكامها !

ولكنه مسكين يجهل الحقائق ويتكبر على السؤال وطلب المعرفة !

لا بل هو يسعى إلى شىء آخر ! يريد أن يقول : إذا كان أغلب آيات التشريع ألغى فى ربع قرن - مدة نزول الوحى - فلماذا لا يلغى الباقى على امتداد القرن واختلاف المصالح ؟ ! !

وبذلك يستطيع الشعب - وهو السلطة التى خلفت الله فى الحكم - أن يحل ما يشاء وأن يحكم ما يريد ، بل هذا المستشار يرى واضعى الحديث أخطئوا الطريق ، كان عليهم بدل الوضع أن يتصلوا بالشعب ، وعن طريق الدستورية يضعون ما يشاءون من أحكام لها سندها ووجاهتها . .

إن الإنجليز أباحو اللواط بحكم من مجلس العموم ! والشعوب تملك ماتريد وعند فقيه مجلس الدولة - بعد ما أباح الخمر - بلاء كثير .

* * *

---

(١) الشيخ / محمد الخضرى . . تاريخ التشريع الإسلامى .

محاباة جديرة بالدراسة..

يظهر أنه مطلوب من المسلمين أن يساءوا فلا يتألموا ، وأن يضاموا فلا يتظلموا ! بل مطلوب منهم ما هو أشد وأنكى ، أن يلتمسوا لضاربهم العذر ، وأن يبحثوا عن حل إذا تعقدت المشكلات أمام من يجور عليهم ويجتاح حقوقهم !

أقول هذا وأنا أقرأ مطالبة الفاتيكان لمسلمى العالم أن يجتهدوا فى إقرار السلام بلبنان ، كأن المسلمين هم صانعوا المأساة التى أشعلت الحرب بضعة عشر عاما فى هذه البلاد المسكينة !

إن قلة من سكان لبنان تريد فرض سيطرتها المادية والروحية والسياسية على الكثرة المستميتة فى رفض هذا البغى ، فلمن تكون المناشدة بالإعتدال واحترام العدالة ؟ لماذا تطارد الطائفية فى بقاع كثيرة وتصان وتحمى فى لبنان وحده ؟ ! !

إن بعض رجال الدين من الموارنة وقف موقفا سيئا فى الصراع العربى اليهودى ، وطلب من الرعية أن تنحاز إلى إسرائيل !

فعل ذلك المطران مبارك لولا أن الشيخ بشارة الخورى ـ وهو رجل مدنى ـ استغاث بالبابا الأسبق فاستدعى المطران الشاذ ، واستبقاه فى روما حتى هدأ الموقف ، وقد شكرنا لرجل الفاتيكان الواعى ما فعله ، وكان حرياً بالبابا الحالى أن يحذو حذو سلفه ، ويترك لبنان عربيا وفيا لجيرانه ، محترما مشاعر أربعة أخماس سكانه !

لكن الزمام تُرك للحاقدين على العروبة والإسلام ، فوقعت ولاتزال تقع أمور لايجوز السكوت عليها ! كيف نشأ جيش لبنان الجنوبى ليحرس ظهر إسرائيل ، ويضرب المجاهدين على أرض لبنان نفسه ؟ ! !

لماذا تنامت الأحقاد فى قلوب بعض الموارنة المتفرنسين ، فدخلوا مخيمات صبرا وشاتيلا بإيعاز من بنى إسرائيل فأهلكوا الحرث والنسل ، وارتكبوا مجازر تقشعر منها الأبدان ؟ !

إن اللغة العربية تختفى من بيوت كثيرة لتحل محلها اللغة الفرنسية ، والخطة موضوعة لمحو العروبة والإسلام فى بلاد يسكنها ثمانون فى المائة من العرب المسلمين .

وقد ذكرت فى بعض كتبى أن الهوس بلغ ببعض الرؤساء الدينيين أن يتحدى فى تصريح طائش الفهم الإسلامى للعقائد ، وكأنه يقول : هل من مبارز ؟ !

إن علاج الأوضاع فى لبنان لن يتم أبدا فى ظل النفاق والجبن ، ولن يتم أبدا وفق مبدأ هضم الكثرة المسحوقة ونسيان حقها فى الحكم والسيادة والعيش بدينها ولسانها وتراثها وتاريخها .

إن الجامعة العربية تتلطف فى حل «معضلات» من صنع الدول الكبرى ، وتحاور وتداور كى تصل بشعب لبنان إلى موقف وسط يأخذ فيه المظلوم جزءاً أو جزيئا من حقه ، ويترك النصيب الأكبر للظالم الذى وضع يده على الكثير !!

ومع ذلك فإن القلة المتفرنسة فى لبنان تأبى بكبر أن تتنازل عن شىء ! ثم نسمع وسط هذا الإصرار نداء يناشد فيه الفاتيكان المسلمين فى العالم أن يبذلوا جهودهم لإقرار السلام . . !!

لعل الحل الأمثل أن يترك السنيون والشيعة والدروز والروم الأرثوذكس والأرمن الأرض كلها لدولة تكمل أطماع إسرائيل فى محو التراث والدين والدنيا عن هذه البقعة الغالية التى ورثتها أمتنا المحروبة المنكوبة . . . . ! !

* * *

من تمام التوبة النصوح...!

من فضل الله علينا وعلى الدكتور مصطفى محمود أنه أصبح من معالم الفكر المؤمن ، وأنه ببصيرته الثاقبة يعرض من آيات الله فى الأنفس والآفاق ما يدعم الحق وما يدفع الباطل . .

لقد أمحى ماضيه الذى كان مشوبا بالشك ، وحل مكانه حاضر مديد ملىء باليقين !

لماذا قلت هذا الكلام ؟ لأنى قرأت فى صحيفة الأخبار هذا العنوان السار : «نجيب محفوظ : بعد فترة شك قاسية ورحلة عقلية شاقة يفخر بإيمانه وإنتمائه إلى الإسلام » لقد دعوت للرجل ، وقلت : زاده الله هدى .

ولنسمع إليه يحكى طرفا من سيرته : يقول : « لقد أخذت الإسلام أولا من البيئة التى نشأت فيها ، كان إسلاما مختلطا بكثير من الخرافات والسلبيات ، وعندما شببت عن الطوق ، وعرضت ما تلقيته على عقلى ، كان لابد أن أرفضه ، بيد أنى وقعت فى خطأ عقلى كبير ، إذ ظننت أن الخرافات التى أنكرتها جزء من الدين ، وأنى بالابتعاد عنها أبتعد عن صميم الدين . .

ثم استبانت لى الأمور ، فعرفت ما هو من حقائق الوحى الإلهى ، وما هو من إضافات الوهم البشرى ! . . »

ثم يقول : « أنا الآن فخور بإيمانى وانتسابى للإسلام ، لقد دخلته بعد مرحلة شك ، وتعرفت عليه بإقتناع ، وبعد دراسة واسعة لمختلف المذاهب والأفكار والعقائد . . »

ويؤكد الكاتب الكبير أن الإسلام فيه كل المقومات التى تنجح بها النهضات وتعلو الأمم ، إنه دين العمل والأمانة والطهارة وباعث الحريات التى تعترض الطغاة والمنافقين والمفسدين .

ويأسف أخيرا للتدين المهتم بالشكليات ، الغافل عن اللباب ، بل يرى أن المتدينين من هذا الصنف لايقلون خطرا عمن يدعون إلى ترك الدين . .

إننى طبت نفسا بهذا البيان ، ودعوت للكاتب الآيب ، ولكن لى تعليقا أذكره بعد سوق هذه الحكاية السريعة . .

عرفت الشيخ **عبد الرازق** فى أواخر أيامه ، كان يصلى الجمعة معى فى الأزهر الشريف ، ويبكر لسماع الخطبة ، ويعاتبنى أحيانا عندما أطيل ـ لمرض أصابه ـ ونشأ بيننا ما يشبه الود !

كنت أكرهه أولا لكتابه : « الإسلام وأصول الحكم » فقد خلط فيه خلطا منكورا بين آيات نشر الدعوة وآيات إقامة الدولة ، ووقع هذا الخلط فى حين أسود ، سقطت فيه دولة الخلافة وأطبق الاستعمار العالمى علينا من كل جانب ، فكان الكتاب خطأ عقليا وخطيئة خلقية . .

وهاهو ذا الرجل قد رجع إلى الله ، وعرفت أنه أبى إعادة طبع الكتاب ! وأهال التراب على هذه الذكرى . .

إنها توبة سلبية ! كان الأستاذ **خالد محمد خالد** أشجع منه وأتقى لله عندما وقع فى مثل خطئه ثم ألف كتابا آخر أثبت فيه أن الإسلام دولة ودين !

ونتج عن سلبية الشيخ عبد الرازق أن الكتاب الذى رجع عنه ينشره الآن نفر من أعداء الإسلام وكارهى دولته . .

من أجل ذلك أتوجه ـ مع جمهور المؤمنين ـ بهذا الرجاء إلى كاتبنا الكبير نجيب محفوظ أن يضيف إلى كل طبعة جديدة من كتبه التى تحتاج إلى استدراك صفحة واحدة يؤكد فيها أن العلم والإيمان قرينان ، بل شىء واحد فى الحقيقة ! وأنه ليس هناك يقين دينى يناقض يقينا علميا ، وأن كلمات الله فى وحيه ترديد لكلماته فى صحائف الكون والحياة ، وفى قيام السماوات والأرض .

* * *

أهؤلاء على دين ؟؟

أكره أصحاب الغلظة والشراسة ، لو كان أحدهم تاجرا واحتجت إلى سلعة عنده ما ذهبت إلى دكانه ولو كان موظفا ولى عنده مصلحة ما ذهبت إلى ديوانه ، لكن البلية العظمى أن يكون إمام صلاة أو خطيب جمعة أو مشتغلا بالدعوة ، إنه يكون فتنة متحركة متجددة يصعب فيها العزاء .

إذا لم يكن الدين خلقا دميثا ووجها طليقا وروحا سمحة وجوارا رحبا وسيرة جذابة فما يكون ؟ !

وقبل ذلك ، إذا لم يكن الدين افتقارا إلى الله ، وانكسارا فى حضوره الدائم ، ورجاء فى رحمته الواسعة ، وتطلعا إلى أن يعم خيره البلاد والعباد فما يكون ؟ !

بعض المصلين تحركه لينتظم فى الصف فكأنما تحرك جبلا ! وبعض الوعاظ يتكلم فكأنه وحده المعصوم والناس من دونه هم الخطاءون ! وهذا شاب حدث يحسب نفسه مبعوث العناية الإلهية لإصلاح البشرية فهو ينظر إلى الكبار والصغار نظرة مقتحمة جريئة . .

إن القلب القاسى والغرور الغالب هما أدل شىء على غضب الله ، والبعد عن صراطه المستقيم . . . ومن السهل أن يرتدى الإنسان لباس الطاعات الظاهرة على كيان ملوث وباطن معيب .

لو أن إنسانا عرف معايبى فسترها عن الناس وقصد إلىّ ليكشف لى أخطائى ، ويرجع بى إلى ربى لشكرته ودعوت له !

أنه أسدى إلىّ جميلا ، ورحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى . .

إننى أخاف على نفسى وعلى الناس صياحا فضّاحا سفّاحا يرتقب الغلطة ليثب على صاحبها وثبة الذئب على الشاه ، فهو فى ظاهره غيور على الحق وفى باطنه وحش لم تقلم التقوى أظافره ، ولم يغسل الإيمان عاره ولا أوضاره .

قديما كان الخوارج يسلكون هذه المسالك : قال التاريخ : غزا « عمارة بن قرض » غزوة مكث فيها ما شاء الله ، ثم رجع حتى إذا كان قريبا من الأهواز - فى فارس - سمع الأذان ، فحنّ إلى إقامة الصلاة مع الجماعة ، واتجه ناحية الصوت ، فإذا هو بالإزارقة ، وهم فرقة من الخوارج ترى الأمويين كفارا ومن يجاهد مع الكفار فى ظل دولتهم فهو منهم ! ، فلما رأوا القائد الكبير مقبلا عليهم قالوا : ما جاء بك ياعدوا الله ؟

فقال : ما أنتم بإخوانى ؟

قالوا : أنت أخ الشيطان ، لنقتلك !

قال لهم : أما ترضون منى بما رضى به رسول الله ؟

قالوا : أى شىء رضى به منك ؟

قال : أتيته وأنا كافر ، فشهدت أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، فخلى عنى . . ! !

ولكن الخوارج أخذوه وقتلوه . . !

إنه تحت شعار الإسلام يوجد ناس ليس لهم فقه وليست لديهم تربية ، يغترون بقراءات وشقشقات واعتراضات على بعض الأوضاع ، ويرون أن الدين كله لديهم وأن الكفر كله عند معارضيهم ، فيستبيحون دماءهم وأموالهم وكراماتهم .

ما هذا بإسلام وما يخدم بهذا الإسلوب دين من الأديان .

* * *

بديع السموات والأرض...!!

كانت الطائرة تنطلق بى من الجزائر إلى القاهرة ، كنا نطير فوق السحب المبعثرة فى الآفاق ! ومررنا بمنطقة كثيفة السحاب ، ورمقت عن بعد قمة سحابة شامخة الذروة ، استوقفنى منظرها فثبت بصرى عليها وشرعت أتساءل : ترى من أين تكونت هذه السحابة ؟ هل تجمعت أبخرتها من البحر المتوسط تحتنا ؟ أم من المحيط الأطلسى إلى جوارنا ؟ لا أدرى ، الذى يعلم هذا مرسل الرياح تلتقط الأبخرة من فوق الأمواج ، ثم تصعد بها إلى أعلى ، ثم تنبسط فى السماء كيف شاء الله ، ثم تسير مسخرة إلى حيث يريد !

ونبت فى ذهنى سؤال آخر : هذا الجبل المائى الذى يسير الهوينى لابد له من مستقر ! ترى أين يهبط ؟ هل سيسير أنهارا على سطح الأرض ؟ أم عيونا سائلة ، أم آبارا يستقى منها بالدلاء ، أم نشربه من الصنابير التى أعددناها لاستقباله ؟

أم لعله يتحول إلى حبوب وفواكه وموالح فأشرب من هذه السحابة كأسا من عصير البرتقال ؟

قلت : الله وحده يعلم أين ستهمى هذه الدِّيم ، وماذا سيفعل عباده بها ؟

لكن ذهنى كان ملحاحا فى أسئلته ، فهو يقول : هل هذه هى المرة الأولى لحركة السحاب المتراكم الذى تراه ، فهو لأول مرة يستثار ، ولأول مرة يشرب ؟ وكان الجواب : ما أظن ، إن قطرات ملأت بطونا وبطونا ، وارتوى منها ألوف وألوف ، ثم عادت الفضلات إلى البحر لتثار مرة أخرى سحبا تتهادى فى الآفاق ، ويرتقبها الناس بالشوق والأمل .

لعل الجبل المائى الذى أراه الآن يكرر رحلته المليون أو المليار التى وصفها القرآن

الكريم : ﴿ اللَّهُ الَّذي يُرْسلُ الرِّيَاحَ فَتُثيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ في السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ منْ خلاله فَإِذَا أَصَابَ به مَن يَشَاءُ منْ عبَاده إِذَا هُمْ يَسْتَبْشرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا من قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مّن قَبْله لَمُبْلسين ﴾[1]

إن عصورا متطاولة تمر على هذه الرحلات المتتابعة ، ونحن البشر فى دائرة حاجاتنا المتجددة نشرب ونروى أرضنا ، ونحسب بالساعات المحدودة حاجتنا إلى الشراب ، ونحسب بالأيام المعدودة حاجة أراضينا إلى الرى والمشرف الأعلى على السحاب المسخر بين السماء والأرض يرسل الغيث ويهيىء دوراته وفق ما قال لـ « يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ »[2] !

ومع ذلك فإن الحضارة الحديثة كوَّنَتْ إنسانا غريب الأطوار ، يرتوى ويتجشأ ولايدرى من أطعمه ولا من سقاه قد يقول : لا إله والحياة مادة ! وقد يقول : أسرة الآلهة غادرت جبل الأولمب إلى مسكن آخر يجرى البحث عنه ! ! « إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً »[3]

إن يكون هؤلاء ملومين فأحقُّ باللوم من أوتى القرآن ثم نام فى ضحاه فهو لايدرى إيمانا من إلحاد ، ولا صلاحا من فساد .

* * *

(١) سورة الروم : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) سورة الرحمن : ٢٩ .
(٣) سورة الفرقان : ٤٤ .

العلم يهدى إلى الله...

عندما أتتبع آيات الله فى الأنفس والآفاق أرتبط بالواقع وأنأى عن الخيال ، وفى هذا الارتباط يستوى عندى الضخم والضئيل ! فللكبير جدا عظمته ، وللصغير جدا دقته !

الواحد الذى على يمينه عشرون صفرا يمثل عددا هائلا فى الضخامة فإذا كان هذا الواحد ذو الأصفار العشرين يمثل كسرا عشريا أو كسرا اعتياديا كما يقال فى علم الحساب فالأمر بالغ الضآلة . .

ومن هنا فأنا أتعرف على آيات الله فى عالم الكواكب ، كما أتعرف عليها فى عالم الجراثيم ، وهذه ترى بمنظار مكبر وتلك ترى بمنظار مقرب . .

وربما تخيلت ما أراه من آيات بعد مرورى بها ، كنت فى الجزائر فشاهدت جبلا يشبه حرف الألف ، كان صخرة شاهقة يرتد الطرف عن قمتها ، وتوهمت كأنه يريد أن ينقض ! !

وبعد ساعة من البعد عنه عادت صورته إلى خيالى فقلت : أما يزال يريد أن ينقض ؟ لا ، سيبقى كذلك حتى يأذن الله ، ويتحقق قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[1]

وكما سبح بى الخيال هنا يسبح بى الخيال وأنا أتصور الألوف المؤلفة من الشموس والنجوم الدوارة فى الفضاء البعيد ، إنها كشمسنا المألوفة تشرق وتغرب ونحن أيقاظ أو رقود ، قد تبلغ مليارات من الكواكب تجرى غير متوقفة ، ولا متعثرة ، هى كما وصفها الله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾[2] .

إنها مسخرة بأمر ربِّها ، دوَّارة بإذنه وحده ، ويوشك أن يأذن لها بالتوقف والانطفاء ، متى ؟ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾[3] .

---

(١) سورة طه : ١٠٥ : ١٠٧ . (٢) سورة النازعات : ١ : ٥ . (٣) سورة النازعات : ٦ : ٧ .

إن أمجاد الألوهية تذهل العقل ، ويزداد الذهول عندما أعلم أن المشرف على هذه السماوات الوسيعة مشرف فى الوقت نفسه على حيوانات جرثومية تجتمع المليارات منها فى سنتيمتر ، ومشرف على مليارات الخلايا فى مخ واحد ، بين خمسة مليارات مخ بشرى تسكن الأرض !

ذلك عدا كائنات أخرى يقول فيها جل شأنه : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1]

إن القوانين التى تنتظم الكون من الذرة إلى المجرة واحدة .

فى النهر الذى أتخيله من الشرايين الممتدة ، فى كل جسم بشرى لاتند قطرة واحدة من الدم السارى فى العروق ، لاتند عن علم الخالق ومشيئته وقدرته وحكمته .

فإذا تركت المادة إلى الفكر ، تكررت العبرة نفسها .

إن تيار الشعور الذى يهتز فى بدنى إدراكا ووجدانا ونزوعا ـ كما يعبر علم النفس ـ ليس حكرا علىَّ وحدى ، إنه ينتظم الخلائق طرا . . فكل خاطر يساور نفس بشر ، وكل علم يحصله ، كتبه أو قرأه ، سجله أو لم يسجله ، ذكره أو نسيه ، كل ذلك ينتظم صفحة واحدة أمام رب العالمين ، جامعا بين شتى اللغات وشتى الأزمنة « وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ »[2] ستحيل أن يغيب عنه ، أو يتم بعيدا عن سمعه وبصره واحاطته ! !

أريد أن أقول للمسلمين : إن قرآنكم هو المصدر الأول للاعتقاد الحق ، وإن علوم الكون والحياة هى الشارح الجدير بالتأمل والمتابعة . . و إن العظمة الإلهية تزداد تألقا فى عصر العلم و إن التقدم العلمى صديق للإيمان ، وخصم للإلحاد . .

وأريد أن أحذر المسلمين من منتسبين إلى العلم لا قدم لهم فيه ، فليس « فرويد » أو « دوركايم » من العلماء ، إنهم مفكرون مرضى ضلوا السبيل ، وليس « ماركس » وأتباعه علماء ، إنهم كُهَّان جدد ، استبدت بهم علل نفسية ، وما كانوا يستطيعون السير لولا الفراغ الذى أتيح لهم من قصور المتدينين ، وتفريطهم فى جنب الله .

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .　　(٢) سورة القمر : ٥٣ .

هل يفهم العرب ؟

أريد أن أهمس فى آذان العرب بشىء ! لقد قال اليهود وكرروا القول : إن فلسطين لن يعيش فيها إلا شعب واحد ! نحن أو أنتم أيها العرب ، أحد الجنسين يجب أن يختفى من على وجه الأرض ، وقد قررنا البقاء ، فاستعدوا أنتم للموت ! !

ولست أقول لأى عربى أذهب واشتر أكفانك واستعد للموت الذى سينزل بك ليلا أو نهارا . . إننى أذكره بقولة أبى الطيب العامرة بالحكمة :

وإذا لـم يكـن مـن المـوت بـد * فـمن العـجـز أن تكون جـبـانا

مادام لابد من الجلاء أو الفناء فلا يسوغ أن أترك عدوىّ دون صراع يمرغه فى العار قبل أن يقذف فى النار ! لايسوغ أن أدع له الأرض غنيمة باردة بل يجب أن تكون مقبرة لى وله وليرث الأرض بعد ذلك من يرثها ، وفق سنن الله فى هذه الحياة . . .

أريد أن أهمس فى آذان السادسة العرب ! لماذا لايكون ولاؤكم للإسلام صريحا فصيحا ، وانتماؤكم إليه باديا غاليا إذا كان بنو إسرائيل يقدسون السبت ويرفعون التلمود ويشقون حناجرهم بمواريث التوراة ، وبناء دولة دينية من الفرات إلى النيل ، وبناء هيكل الرب على أنقاض المسجد الأقصى لتعود مملكة سليمان فى هذا العصر الأسود تحكم المشارق والمغارب .

إن بعضكم أيها الساسة الأكابر يعتنق العلمانية أو القومية أو أى شىء تستخفى فيه معالم الإسلام ، فلا تظهر فيه عقيدة ولا شريعة ، ولا تلمح فيه أخوة الإيمان ولا مواريث حضارة قامت باسم الله بضعة عشر قرنا . !

إن أوروبا التى قلدتموها أخذت تتوحد وفق مواريثها وتوشك أن تقوم فيها دولة كبرى تذوب فيها اللغات والجنسيات ، وتسودها منافع مادية وأدبية مشتركة ! ولست أدرى : لماذا يرتبط الناس بأديانهم ؟ وتزهدون أنتم فى دينكم ؟!أليس فيكم رجل رشيد ؟

أريد أن أقول للعرب : إذا كان عدوكم يتدرع بالدين وهو يعتدى ! ! فلماذا لاتتدرعون بالدين وأنتم تدافعون ؟ !

إننى أسمع القائد الزنجى «جارانج» يصرح بأنه إذا دخل السودان فيجب أن يخرج الإسلام ، تتبعه العروبة مقهورة مدحورة !

وأسمع الرئيس اليهودى « شامير » يقول للعالمين : ليست للعرب ذرة من حق فى فلسطين ! لا مكان لهم على شبر من الأرض ! هذا ميراثنا كما سجلته التوراة لنا وحدنا ! !

أما الرؤساء العرب ، فلا تجرى على ألسنتهم كلمة القرآن ، ويظهر أنهم لايدرون شيئا عن رسالته ولا حضارته ، بل يظهر أنهم لايعرفون حقيقة مايجرى حولهم فى دهاليز السياسة العالمية ومبلغ تأثير هذه السياسة بالصهيونية والاستعمار .. ! !

إن فى أمريكا رجالا يؤخرون مصلحتها ويقدمون عليها مصلحة إسرائيل ، وقد ذهب خطيب أمريكى إلى إسرائيل ليقول لليهود لاتختلفوا على قضية «أرض مقابل السلام»! إن العهد القديم فصل فى هذه القضية وجعل الأرض كلها لكم !

يبدو أن ساستنا فى واد ، والدين والدنيا فى واد آخر ! .

* * *

ذكر أم أنثى..؟؟

أثبت علماء الأجنة أن السائل المنوى يحمل حيوانات مذكرة وأخرى مؤنثة ، وأن أى هذه الحيوانات سبق إلى اختراق جدار البويضة حدد نوع المولود ذكرا كان أو أنثى !

وتتفق هذه الحقيقة العلمية مع ظاهر القرآن الكريم فى سورتى النجم والقيامة ، ففى الأولى يقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[1] وفى الثانية يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾[2] .

وقد كنت وقفت عند هذه المقولة المؤيدة بالكشوف العلمية وتجاوزت المرويات الأخرى ، ثم زاد اطلاعى على شروح علماء الأجنة لتخلق الإنسان فوجدت ما يستدعى إعادة النظر وزيادة البيان !

يقول هؤلاء العلماء : إن للرحم إفرازات تتدخل فى مسار الحيوانات المنوية ، وقد تعرقل نشاط الحيوانات المذكرة وتقف تقدمها فتتيح الفرصة للحيوانات المؤنثة أن تسبق إلى اختراق جدار البويضة ، ومن ثم يجيىء المولود أنثى !

وقد تقل هذه الإفرازات ، ولا يجد الحيوان المذكر ما يغلب نشاطه فيجيىء المولود ذكرا . . !

هل أحد الزوجين مسئول عن هذه الإفرازات القليلة أو الكثيرة ؟ كلا ! المسئول عنها هو القائل ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾[3] .

والحيوان المنوى لايجرى على خشب أو حجر ، إنه يسبح فى الماء ، ولا علاقة لهذا الماء بحقيبة الوراثة التى يحملها فى كيانه الدقيق ، مادية كانت أو أدبية ، جسمية أو عقلية ، وكذلك الأمر مع بويضة الأنثى التى تحمل نفس الخصائص .

(١) سورة النجم : ٤٥ : ٤٦ .   (٢) سورة القيامة : ٣٧ : ٣٩ .   (٣) سورة الشورى : ٤٩ .

ويسمى العلماء هذه وتلك «بالكروزومات» فهى حاملة الصفات الوراثية التى يكمن بعضها ويبرز بعضها فى الأولاد والأحفاد وفق مشيئة من قال : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١) .

وقد جاء فى الحديث « أن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها » .

وأرى أن التعبير كما يقول علماء البلاغة من قبيل المجاز المرسل علاقته الحالّية والمحلّية ! فمصدر الوراثة الحيوان المنوى نفسه عند الرجل ، والبويضة وحدها عند المرأة وما الماء إلا حامل وحسب للمصدرين العتيدين !

وعناصر الوراثة معقدة ، فقد يحمل المرء خلقة أمه وخلق أبيه ، أو جده وجدته وقد ينزعه عرق إلى أبعد من ذلك : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢) .

إننى بهذه الكلمات أحاول التوفيق بين حقائق علمية وأخرى دينية ، ولست أدرى حظى من التوفيق ، وأيا ما كان الأمر فأنا متشبث بحبل الله المتين ، فلا أعدل بالقرآن الكريم شيئا ، مع رغبة صادقة فى ربط شتى الأحاديث به ما استطعت ، ويسرنى أن أسمع من عنده مزيد من العلم .

* * *

---

(١) سورة آل عمران : ٦ .   (٢) سورة القصص : ٦٨ .

من حقوق العقيدة..!

الذى يعرف ربه ويخلص له يستحيل أن يمنح مودته لملحد ينكر الألوهية وينشر الجحود .

والذى يتبع تقاليد الشرق ويلتزم بمبادىء الطهارة والتقوى يستحيل أن يختار أصدقاءه من الشطار[1] والعهار .

ولذلك جاء فى السُنَّة أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ! فلا يجوز أن نصافى جائرا ، كما لايجوز أن نخاصم طيبا ! ! حق الطيب أن نقترب منه ونشعره بحبنا ، وحق الخبيث أن نبتعد عنه ونشعره ببغضنا . .

وقد عُرفت هذه المعانى فى ديننا «**بالولاء والبراء**» وليس هناك خلاف عليها ، ألا أنه عند التطبيق تقع أمور جديرة بالنظر أقرت فى كتاب الله وسنة رسوله ، نومىء إليها بإيجاز ، فإن المقاتل قد يتقهقر ليتقدم ! وقد يدور حول عقبة كأداء حتى لا يفقد قوته فى تحطيمها وهو ماض إلى غرضه ! وقد يقسم الحق إلى أجزاء ليحصله جزءا جزءا بدل أن يفقده كله ، وقد ينزل على أوضاع ألفها ذوو المروءات فيقرها وينتفع بها ، وما ينسيه ذلك دينه وهدفه .

ويشرح الأخ الدكتور **عبد الله عزام** ذلك على ضوء تجاربه الهائلة فى ميدان الجهاد الأفغانى فيقول :

وأما **البراء والولاء** فليث شعرى هل فهمَ الإخوةُ التطبيق العملى لهذه العقيدة ؟ كأنهم يجهلون أو يتناسون أن رسول الله ﷺ أرسل أصحابه إلى الحبشة معللاً ذلك أن فيها ملكا نصرانيا لايظلم الناس عنده ، وقد ثبت فى الحديث الحسن أن النجاشى قد خرج عليه رجل آخر يقاتله فقام المسلمون يدعون للنجاشى بالنصر ، وأرسلوا الزبير ليرى نتيجة المعركة فرجع يلوح بثوبه مؤذنا بانتصار النجاشى .

ولعل هؤلاء الشباب – الذين لايشك فى إخلاص الكثيرين منهم ـ يجهلون أن كثيرا من الصحابة دخلوا فى جوار الكفار فى مكة ، فدخل **عثمان بن مظعون** فى

---

(١) « الشاطر » الذى أعيا أهله خبثا « مختار الصحاح » .

جوار الوليد بن المغيرة ، وأبو بكر فى جوار ابن الدغنة ، ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم فى جوار المطعم بن عدى لدى عودته من الطائف إلى مكة .

وأوى فى الطائف إلى بستان لشيبة وعتبة ابنى ربيعة هاربا من السفهاء والغلمان الذين يتابعونه بالحجارة ، وكذلك فإنهم يجهلون أن قبيلة خزاعة كانت عيبة (خزانة) نُصْح لرسول الله ﷺ مسلمهم وكافرهم .

أما بالنسبة لأخذ المساعدات فقد اتفق الفقهاء الأربعة على جواز أخذ المساعدة عند الضرورة من الكفار على أن لايكون هنالك شروط ، وقد سئل أحمد بن حنبل عن رجل جائع امتنع عن أكل ميتة حتى مات فقال أحمد : إنه مات آثما .

هناك قضايا لم يساوم عليها الأفغان خاصة الأصوليين الملتزمين بالكتاب والسنة ، وهى أن اللافتة يجب أن تكون إسلامية ! يجب أن تكون واضحة ! الهدف محدد لاتقاعس عنه ، وهو لتكون «كلمة الله هى العليا» ، الحكومة يجب أن تكون إسلامية ليست ائتلافية ولا محايدة ولن يدخلها الشيوعيون .

قال الدكتور عبد الله عزام : إن المجاهدين رفضوا قبول المساعدات من أمريكا وقالوا معتذرين نحن نقبل مساعدات من باكستان والسعودية والشعوب الإسلامية أما أمريكا فلا ـ حتى لاتملى علينا إرادتها ـ أما بالنسبة للشباب فنقول لهم : إنما دواء العى السؤال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » إنما الأمر كما قال سيدنا على ـ رضى الله عنه : « قصم ظهرى رجلان : عالم فاجر وعابد جاهل » فكثير من هؤلاء الشباب عابد جاهل .

وإنما أفسد الدين أنصاف المتعلمين فلا هم جهلة حتى يسألوا ، ولا هم علماء حتى يفقهوا ويدركوا .

ولذا لايسأل عن القضايا الإسلامية من لم يسبر غورها ، ومن لم يخض غمارها ، ومن لم يدرك أسرارها ، ولايسأل القاعدون الذين لايدركون طبيعة هذا الدين ، لأنهم لايتحركون من أجل إقراره فى الأرض ولايضحون لنصرته فى الحياة .

وليت شعرى كيف ينصر دين الله شاب لايستطيع أن يواصل مع المجاهدين عاما ! فأين الصلابة التى تجرى فى عروقك حتى تنقلها إلى الآخرين ؟

وأين هو من القاعدة الصلبة حتى يبنى بنفسه القاعدة الصلبة ؟

الدكتور عبد الله عزام سدد الله خطاه ، وآتاه تقواه ، يتكلم عن إيمان وتجربة . ونحن فى ميدان الدعوة الرحب ـ لانعانى من علل المرضى قدر مانعانى من أدعياء الطب ، وأدويتهم المغشوشة ومن الدهماء المخدوعين بهم . . !!

سياسات خسيسة لدول كبيرة..

الجريمة فى الميدان الدولى كالجرائم التى تقع بين الأفراد ، قد تكون زلّة قدم أو كبوة جواد ، وقد تكون عن خطة مدروسة ونية مُبَيَّتَة !

وما يقع بين الدول يغلب أن يكون من الصنف الأخير ، ومن ثَم فإن الإقلاع عنه يكون صعبا أو متراخيا .

وقد توقعت أن انجلترا وأمريكا بعد ما مهَّدَتا لإقامة إسرائيل وسرقة فلسطين من أهلها أن تتوبا من خطيئتهما وتستشعرا الخزى على ما اقترفتا من إثم ، وتقف كلتاهما ممن جنت عليهّم موقفا رقيقا ! .

لكن القوم على ما يبدو مات ضميرهم السياسى والخلقى ، وظلوا على عدائهم التقليدى لشعب فلسطين البائس الشريد . .

إن هذا الشعب الذى يقاوم الغزاه منذ وطئوا أرضه بكل مايملك ، انتفض منذ عشرين شهرا انتفاضة واسعة . خسر فيها أكثر من ألفى قتيل و٣٠٠٠ جريح ، وآلافا من المسجونين والمطرودين ، ودمارا شديدا فى أرجاء حياته كلها . .

إنه شعب بلا أرض يملكها ، وبلا دولة تحميه ، الأرض تدَّعيها إسرائيل ، والدولة بين يديها . . هذا الشعب اضطر بعد عشرات السنين من الكفاح البائس أن يقبل قسمة الأرض بين صاحبها الأصيل والمغير عليها ، وأن ينزل على المثل السائر « بعض الشر أهون من بعض » ، وأن يقبل وجود إسرائيل على ترابه القديم ، فى مقابل أن يكون له وجود رسمى إلى جوارها !!

فماذا صنعت انجلترا وأمريكا ؟ قالتا : هذه خطورة متواضعة ! هذا إقرار غامض ! إنكم أيها العرب لم تنبذوا الإرهاب الذى تمارسونه ! إنكم لم تعترفوا صراحة بحق إسرائيل فى الوطن الآمن المستقل !!

لقد رضى القتيل ولم يرض القاتل ! لقد سكت المغصوب وظل الغاصب يتبجَّح !
إن الانجليز فى محنتهم أثناء الحرب العالمية الأولى باعوا فلسطين مرتين ، باعوها لليهود عندما أصدروا وعد بلفور المشئوم ، وباعوها للشريف حسين عندما ناشدوه أن ينضم العرب إليهم فى محاربة دولة الخلافة ! !

والقانون العادى يحاكم من يبيع مسكنا لرجلين فى وقت واحد ، ويعدُّه لصا ، ويحاكم من تتزوج اثنين فى وقت واحد ، ويعدها بَغِيًّا .

ولكن القانون الدولى لم يرتق إلى هذه المنزلة من العدالة والشرف ، ومن هنا مرت انجلترا بجريمتها السياسية دون عقاب !

وكل ما فعله العرب أهل البلاغة أنهم قالوا : إن من لايملك أعطى من لايستحق ! كفى ! !

فلا عجب إذا وقفت انجلترا فى هيئة الأمم المتحدة مظاهرة لأمريكا ومؤيدة لليهود على نحو يتسم بالدهاء ، ولكنه - عند أولى الألباب - لايثير إلا الازدراء !

ومرة أخرى لا ألوم العدو الموغل فى عدوانه ، وإنما ألوم العرب الذين تقطعت حبالهم مع الله ، وآثروا الهوى على الهدى ! إنهم سيبيدون إذا لم تتوحد كلمتهم . .

* * *

لاتكذبوا عليّ...!

عندما جودلت فى كتابى الأخير[1] لم أغضب لقلة الدراية أو لنقصان المعرفة ، وإنما غضبت من تلمّس العيوب للبراء ، والإنتشاء من تهم ليس لها أساس .

فى المقدمة قلت : سنحشوا بالتراب أفواه من يتغنى بالإثم والمجون ، ومع ذلك قيل عنى : إننى أدعو إلى الغناء ، هكذا بإطلاق ! أهذا صدق ؟ !

وكتبت أن شوارع باريس أنظف من شوارع القاهرة ، بل قلت : إن العامل الأوروبى ينتج أضعاف ما ينتجه العامل العربى ! فإذا جرىء يصفنى بأننى أدافع عن الإستعمار العالمى ، وأثنى على الحضارة الحديثة ! !

أنا الذى كتبت «قذائف الحق» و «ظلام من الغرب» ، و «الاستعمار أحقاد وأطماع» وعلّمت هؤلاء الهاجمين مالم يعْلموا من أحقاد الصليبية الحديثة !

أهذا صدق ؟

ورددت رواية نافع عن عبد الله بن عمر فى جواز إتيان المرأة من الخلف ، وأنصفت الكتاب والسُنَّة ، وقد قُدِّم رجل للقضاة فى مصر ، ووصلت قضيته محكمة النقض والإبرام ، الزوجة تشكو ما نزل بها ، ومحامى الزوج يتشبث بكلام نافع ويطلب البراءة ! فهل نترك الإسلام لهذا الخلط ؟ وهل أُتهم بالهجوم على التابعين ! لأنى قلت : إن نافعا تائه ؟ !

لقد تُرِكَتْ الكلمة التى قالها سالم بن عبد الله بن عمر عندما سمع اتهام أبيه ! قال : كذَب العبد ! إنما أراد عبد الله الإتيان من حيث أمر الله .

ومع ذلك فقد استمرأ البعض عرضى وزعم أنى أنال من الصحابة والتابعين !

أهذا صدق ؟

---

(١) السُنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث .

وفى هذه الأيام التى صفرت فيها أيدى المسلمين من سلاح يدفعون به عن حماهم وحرياتهم ، يحلو لبعض الذاهلين أن يصوِّر الإسلام دين غارات تأخذ الناس على غرة ، فإذا جئت تشرح كيف قام الإسلام على الإقناع ، وكيف رفض الإكراه ، وأنه لايضع السنان مكان البرهان ، قيل لك : هذا رجل منهزم أثَّرت فيه مقالات المستشرقين ، وهو لذلك ينكر قيام الإسلام على السيف ! !

أهذا صدق ؟

إن الخلاف فى الفروع الفقهية لايغالى به ولايضخم شأنه إلا صغار العقول والهمم ! إذا هذا مُصَلٍّ يضع يده على بطنه ، أو على صدره ، أو تحت عنقه فهل نذهب بالخلاف إلى محكمة العدل الدولية لتبتَّ فيه ؟ ! .

وإذا كان جمهور الفقهاء يرى أن الوجه ليس بعورة ، ويرى غيرهم أنه عورة فهل نذهب بالقضية إلى مجلس الأمن خوفا على السلام العالمى ؟ ! .. لم هذا الضجيج الهائل وهذا الغضب الجارف ؟ ؟ .

القصة فيما أرى ليست تفاوت معرفة ، أو اختلاف وجهات نظر ! إن شيئا فى القلوب يجب تصحيحه ، إن خللا فى المسالك ينبغى أن يزول !

فى خلق صاحب الرسالة الخاتمة ـ وهو سيد الناس كافة ـ أنه كان يأسى لخطأ الخاطئين لطول ما يودّ هدايتهم ، حتى لَيُبَرِّح الحزن به وينال منه ، إن الوالد يكره رسوب أولاده ويفرح أشد منهم لنجاحهم .

وأنا اليوم أتفرّس فى وجوه من يجادلوننى فأرى من يحاول بناء نفسه على هدمى ، ومن يختبىء وراء عنوان السلف فيرسل القول شرودا حقودا ، لا هو سلف ولا هو خلف ! .

ماذا لو طلبنا الحق لوجه الله ؟ واعتمدنا على الإنصاف والتلطف ؟ إننى أفتح قلبى وفكرى لهؤلاء .

* * *

اتهام باطل..!

كانت الجزائر مشرفة على الغرق بعد وفاة رئيسها «هوارى بومدين» فقد أدت الثورة الزراعية التى نقلها عن روسيا إلى بوار المحاصيل وفقر الأمة كلها لا الفلاحين وحدهم !

كما أدى إلغاء التعليم الدينى إلى فوضى ثقافية واجتماعية واسعة ، ونشأة جيل مزعزع لايعتمد على قاعدة ولايرتبط بقيم ، وخلو البلاد من فقهاء ودعاة ، بل إن التراث الأدبى بدأ يذوى مع التراث الدينى الذائب ، وكاد يخلو الميدان للغة الفرنسية ، وما يقترن بها من أخلاق ومسالك وفلسفات . .

ولما جاء « الشاذلى بن جديد » شرع يعالج التركة المثقلة بما جُبل عليه من إيمان وتؤدة ! ولا علاقة لى بما فعل فى ميدان السياسة والاقتصاد ، إن الذى أثبته فى هذه العجلة ما فعله فى ميدان التعليم ، كان الرجل يتابع ملتقيات الفكر الإسلامى ، ويستمع إلى كلمات المتحدثين ، وعرّفه الشيخ « عبد الرحمن الشيبان » وزير الشئون الدينية يومئذ بأسماء لفيف منا يمكن التعويل عليهم . .

وشاء الله أن ألقى الرجل المؤمن وأن أستمع إلى رغبته فى إنشاء جامعة إسلامية بالجزائر تشبه الأزهر الشريف فى رعاية علوم الدين واللغة .

وهو بعد أن اطلع على جهودى فى القاهرة ومكة وقطر يختارنى للإسهام فى حمل هذا العبء مع علماء الجزائر ، وكان الحديث مباغتا لى ، وشعرت بأن التكليف شاق ، ولم أدْر بماذا أجيب ؟ لكنى طويت ترددى عندما سمعته يقول : قد نؤخر إنشاء الجامعة إذا لم تشارك معنا . .

اعتمدت على الله ، وتركت عملى فى قطر إلى العمل فى «قسنطينة» حيث انشئت جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، وكأنما كان بى مسٌّ من النشاط الدءوب ، والنجاح فى مقاومة اللغوب ووصل الليل بالنهار لتنمية الجامعة الوليدة و إشعال

العاطفة الإسلامية فى أفئدة الطلاب ودفع الأساتذة إلى البذل والتحمُّل ، وإطفاء المؤامرات التى لاحصر لها لتعكير الصفو وإظلام المستقبل .

وضممتُ إلى ذلك نشاطا إعلاميا فى التلفاز ، وتنقلا بين ولايات الجزائر الكثيرة وبعد سنين خرجت الجامعة أول أفواجها من شتى المعاهد التى قامت فيها ، وسقطت أنا بين براثن مرض كاد يقضى علىّ ، مازالت أقاومه ويعاودنى . .

إن الجزائر حكومة وشعبا أخجلتنى من كثرة ما كرمتنى وقدرتنى .

ولذلك عرانى ذهول عندما قرأت أن وزير الداخلية فى القاهرة يتهمنى بأنى أخذت أموالا كثيرة من إحدى الدول العربية الكبيرة ! لقد عملت فى الجزائر خمس سنين أخذت فيها المرتبات التى يأخذها أمثالى من الأساتذة ، فما الذى يعيبه علىّ وزير داخليتنا ! .

وقرأت أنه عُرِض علىّ مثل ما أخذ من الخارج حتى لا أذهب ! وهذا أيضا خبر مدهش ، فإن أحداً لايملك منعى من أداء واجبى ، ولحساب مَنْ يحال بينى وبين الإسهام فى إنشاء جامعة إسلامية ؟ ! .

وأعترف بأن أحدا من الناس لم يحاول منعى من الذهاب إلى الجزائر . .

إن ما نشرته مجلة « الحقيقة » من إتهامات وزير الداخلية لى أمر مؤسف ، أنا لا أحب أن أحمد بما لم أفْعل ، ولا أن أذم بما لم أفعل ، إن مرضى يمنعنى من أغلب الأنشطة التى كنت أقوم بها فى خدمة دينى ، وأريد أن أذكر بحديث شريف جاء فيه أن أبغض الناس إلى رسول الله الذين يتلمسون للبراء العيب ، فلا تتهمونى يا عباد الله بما أنا منه برىء ، ودعونى وشأنى . .

* * *

تصرف مرفوض فى ميدان التعليم

كنت مع مسئول عن التعليم فى أحد الأقطار العربية ، فقال لى : إننى نويت أن أجعل المدرسة الثانوية مختلطة فى بلدنا !

فقلت له : لاتفعل ! هذا مسلك وخيم العاقبة ! إن جمع الفتيان والفتيات فى هذه السنّ يقدح الشرر ، بل يوقد الشر .

قال : حسبتك توافقنى وقد بلغنى أنك قبلت اختلاط البنين والبنات فى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية !

فأجبته : فى هذه الجامعة كان نحو ثلث الطلاب من البنات المحتشمات ، لم أر فيهن طالبة غير محجبة ، إلاّثنتين أصرتا على وضع النقاب ، وقد جعلنا للمدرج بابا خاصا بهن يدخلن منه ويخرجن ، وقسمنا المدرج نفسه قسمين أحدهما تجلس فيه البنات والآخر يجلس فيه البنون ، فلا يقع تجاور ولا التصاق .

فإذا سمع أذان الظهر أو العصر كان الجميع فى المسجد الذكور فى الصفوف المقدمة والإناث فى الصفوف المؤخرة ، وكان الطابع الدينى يسود أرجاء الجامعة ويملؤها بالخشية والأدب والحياء .

أما ما تقترحه فى المدرسة الثانوية فشأن آخر ، لقد رأيت ثلاثة أرباع الطالبات كأنهن فى معرض أزياء ، وربما رأيت من تلبس السروال الأمريكى «جينز» بضيقه الفاضح ، أو من تلبس فستانا قصيرا ، قد يغطى الركبتين فى القيام ، وتنحسر عنهما فى القعود ! .

وسوف تكون الطالبة بين طالبين أو الفتى بين فتاتين ، ولابد من ذكر طبيعة هذه السن فى الشباب الباكر ، وخفّة الأحلام ، وطيش الخيالات ، إن وازع الدين والخلق سوف يخفت فى هذه الأحوال ، وأعتقد أن الدراسة نفسها ستكون فاشلة . .

فردّ على المدير المسئول عن التعليم قائلا : إننى أريد إزالة الوحشة أو ردم الفجوة القائمة بين الجنسين فى بلادنا ، وربما كانت هناك ضحايا أول التجربة ، لكن المستقبل الاجتماعى خير لأمتنا .

قلت له اسمع ما يقوله علماء الصحة النفسية والجنسية عن الشباب بين الثالثة عشر والسابعة عشر إنهم يتطلعون إلى الأخريات برغبة متفاوتة القوة ، ويحاولون إشباع ميولهم بأساليب شتى . .

تقول منظمة الصحة العالمية : « . . يشكل هذا ورطة كبيرة لدى المجتمعات المعاصرة ، تتجلى فى صعوبة الضبط والتحكم فى تصرفات المراهقين الذين يبحثون عن إرواء رغباتهم الجنسية ، تلك الرغبات التى تتأثر - إلى حد كبير - بالتغيرات الهرمونية والتشريحية المرافقة لمراحل النضج الجسمانى وتشتد هذه الرغبات ، وتزداد ثورتها تحت وطأة العوامل المحيطة » .

أفيجوز مع تأجّج هذه المشاعر إذكاؤها بحشر الأجساد ، وتقريب الأنفاس وإهاجة الكوامن ؟ !

قال : إن أوروبا تفعل ذلك !

قلت : ولذلك اختفت البكارة عند الفتيات قبل انتهاء مرحلة المراهقة ! أفلا نقلد أوروبا إلا فى مباذلها ؟ !

إن التشبث بتعاليم الإسلام ضمان للنجاة وعصمة من الآثام .

ووددت لو توحد زى الطالبات فى جميع مراحل التعليم ، وفرضت كل وسائل التصوّن وحوربت كل أسباب التبذل .

* * *

بين العروبة والاسلام
(١)

إخواننا من النصارى العرب كثيرون فى مصر والشام ، وتبلغ نسبتهم إلى جماهير المسلمين العرب حوالى ٧٪ ولكن ظروفا سياسية وثقافية تجعل آثارهم أكبر من أعدادهم .

ونشاطهم فى ميدان العروبة واسع ينضم إليهم فيه الشيوعيون والعلمانيون والبعثيون ، ومرتدون عن الإسلام يخفون ردتهم لأسباب شتى .

والقاعدة التى أنطلق منها فى أسئلتى : هل هؤلاء وأولئك عرب يخدمون جنسهم ولسانهم ؟

من السهل أن ترى أغلب قادة العروبة يجيدون اللغات الأجنبية أكثر مما يجيدون لغتهم العربية ! !

لماذا لاتدرسون قواعد اللغة وآدابها وأنتم تتحدثون وتخطبون ؟

لماذا لم تعملوا على تعريب العلوم الكثيرة من طب وصيدلة وهندسة وكيمياء . . الخ . . بدل أن تدربوا أولادكم على تعلم اللغات الأخرى ، كى يلحقوا بموكب الحضارة ؟ ! ما الذى استفدناه من تعريب « شرلوك هولمز » ، « واسكندر ديماس » وغيرهما . . ؟ ! !

لماذا لم تصوغوا كلمات عربية لما استجد من مخترعات فى ميادين الحياة كلها ، ولديكم وسائل الاشتقاق والنحت ، بدل أن تجعلوا الألفاظ الأجنبية تحتل العقول والألسنة ؟ !

إن الأحياء الوطنية فى كثير من العواصم العربية كادت تغلب عليها الكلمات والمصطلحات المستوردة ؛ وذلك كله فى ظل العروبة الجديدة ! !

هل درستم التراث العربى فى العلوم والآداب لتبنوا عليه الطريق الذى تنشدونه ؟ إن الأوروبيين يتعصبون لتراث يونان ورومان ، وهم مانهضوا إلا بعد ما تركوه ! فلماذا انفلتُّم وراءهم من التراث العربى ، واحتفلتم بفلسفة اليونان وقوانين الرومان ؟

هل أنتم عرب حقا ؟ هل فتحتم مدرسة عربية للمهاجرين العرب فى أوروبا وأمريكا ؟ أو هل فتحتم مدرسة عربية لمن شاء من الأعاجم أن يدرس لغتنا وتراثنا ؟

إن هناك روابط دولية لمن يتكلمون الإنجليزية ، ولمن يتكلمون الفرنسية ، فهل فكرتم فى مثل هذه الرابطة لتضم العرب والمستعربين ؟ !

سئلت يوما عن هويتى؟ فقلت : مصرى عربنى الإسلام ! إن الدائرة الوطنية ضمن الدائرة العربية ، وكلتاهما ضمن الدائرة الإسلامية ، لاتناقض هنالك ولاتزاحم !

ولاشك أن الإسلام ولىّ نعمة العرب فقد أحيا مواتهم ، والحضارة التى تريد الإسلام أن تهبَّ ريحها رخاء على العالم كله ، وتقيم دولة تحسن فهم الإسلام والدعوة إليه ، أساسها البَيِّن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. ﴾[1] .

إن التعارف ينشأ من اللطف لا من العنف ، ومن الإقناع لا من الإرهاب ، ومن إثارة الإعجاب لا من إثارة التوجس ، ولايعنى هذا أبدا انتفاء القصاص والعقوبات ، وقمع العدوان ، ورد الفوضى . .

المهم توزيع النصوص على محالّها وعدم تحريف الكلم عن مواضعه ! فهل يعى ذلك إسلاميون يضعون السيف موضع الندى ، والندى موضع السيف ، ولايحسنون الفهم ولا التطبيق ؟

هذه أسئلة توجهت إلى الإسلاميين لا للتعجيز ولكن ليتعرفوا مواضع الأقدام وأبعاد الآمال ! !

فما هى الأسئلة التى نوجهها بدورنا إلى العروبيين ؟ ؟

نسردها ونحن نشرح الأمر الثانى ، وهى أسئلة لاتقل صراحة وقسوة . .

* * *

(١) سورة الحجرات:١٣ .

بين العروبة والإسلام
(٢)

فى ندوة العروبيين والإسلاميين تكشف لى أمران يحتاجان إلى الإيضاح ! .

الأمر الأول : أن الإسلاميين متهمون بغموض الفكرة ، والعجز عن تقديم مناهج جامعة مانعة للقيم التى يدافعون عنها ، وعن تقديم حلول كافية شافية للمشكلات العالمية والمحلية التى يشكو الناس منها . .

وهذا سر الأسئلة التى وجهها « يوسف خليل » للإسلاميين عندما يعرضون دينهم ، إنه يقول لهم : « هل سيكون الإسلام عامل أصالة وتقدم ـ كما يريد أهله ـ أم سيكون عامل إغتراب وجمود ؟ هل سيكون عامل توحيد أم عامل تجزئة ؟ هل سيكون عامل انفتاح على متغيرات الدنيا أم عامل انغلاق على الدنيا الماضوية ؟ هل سيكون عامل حرية وتحرير أم عامل تقييد وعبودية ؟ هل سيكون عامل إسهام فى الحضارة الإنسانية أم عامل تقوقع واستيحاش ؟ هل سيكون إسهامه وقفا على بعض الناس دون سواهم أم سيتناول باسعاده الناس كلهم ؟ ليبددنّ من آفاقهم الكآبة والحرمان ؟ هل ما يريده الإسلام وما يستطيعه هو السعى إلى خلاص قسم من البشر هم أتباعه وحدهم ؟ أم هو يسعى إلى خلاص البشرية جمعاء » .

قال لى بعض من سمع هذه الأسئلة : ماذا يعنى ؟ قلت : أشرح لكم المراد !

الشورى ركيزة الحكم الصالح ، والمسلمون أحوج أهل الأرض إلى أن يعيشوا فى ظلها ، فهل وضعتم القواعد التى تكفلها وتحميها من طغيان النظام الفردىّ ؟ أم سيظل اللغو الذى يقول : إن الشورى معلمة لاملزمة ، ومن حق الحاكم أن يتجاوز أهل الحل والعقد ؟

فلماذا سمُّو أهل الحل والعقد إذا كان وجودهم نافلة ! وزينة مجالس ؟

والعدالة الاجتماعية إطار لإنتاج غزير وتوزيع منصف ، فكيف تسدون الطريق أمام الاشتراكية التى تَعدُ الجماهير بالمنّ والسّلوى ، وتحشد كل القوى لتكثير الخير ؟

إن الجوع الكافر والكسل الشائن سوف يقضيان على الدين إذا لم يسارع الدين إلى القضاء عليهما ، فهل وفرتم من الدين ضمانات هذه العدالة ؟

قصة النقاب والجلباب والقبقاب ! أما زلتم تفكرون فيها ، بعدما غزت المرأة الفضاء وصارت ملكة ورئيسة جمهورية ورئيسة وزراء . . الخ ؟

إن تصوُّركم الفردىَ للعبادات أنساكم أن الإسلام حضارة عامة ، وارتقاء إنسانى بالرجال والنساء على سواء ! وجعلنى أنا المصرى البعيد عنهم أتعصب للغة الوحى الأعلى .

وبذلك أنداحت دائرة العروبة وتجدد دمها ، وتحت راية الإسلام ازدهرت العلوم الدينية والإنسانية ، وأسهم فى دعم بنيانها أناس من كل جنس ، بعد أن ذابوا فى بوتقة العروبة ـ لأن العروبة لسانٌ لا دمٌ ـ فأصبح المسلمون العرب ـ بلغتهم لا بنسبهم ـ هم دماغ الإسلام وقلبه ، وفكره وعاطفته . .

الذى ظهر لى أن الذين رفعوا راية العروبة المجردة ، لاهم عرب ولاهم عجم ! ! إنهم جنس مُهجَّن التفكير والشعور ، من ترك منهم الإسلام ووالى خصومه فهو ناكص على عقبه ، زائغ عن غايته ، خائن لرايته . .

أما إخواننا من النصارى العرب فنحن نذكّرهم بالمواطنة المشتركة ، والعهود القديمة ، والمصالح الجامعة ، فإن الاستعمار الغربى والشرقى سواء فى الغدر والعدوان ، وأولو الألباب لاينخدعون به ، ولا يغترّون بهبوب الريح معه .

* * *

ما الكبت المرفوض؟!

(١)

فى غياب الوحى ، ومع رغبة البعض عنه ، يأخذ الفكر خطاً مائلا يجعل المرء أدنى إلى الحيوان منه إلى الإنسان !

فإذا كان صاحب هذا الفكر بارزا فى ناحية ما من المعرفة كانت فتنته أشد ! قال لى بعض الناس : إن فرويد ألمع رجل فى ميدان التحليل النفسى ، قلت لفورى : ولكنه أوضع رجل فى ميدان الإغراء الجنسى ! إننى لا أخشى فلتات الألسن ، وكبوات الطباع ، فما أيسر علاج هذه وتلك .

هناك السُنّةُ الحسنة والسُنّة السيئة ، هناك الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة هناك النهج الذى يمهد للآخرين فيسيرون فيه وهم لايدرون ! بماذا تصف هذه الجملة المحقورة «لفرويد» : إن الإنسان لايحقق ذاته بغير الإشباع الجنسى ، وكل قيد من دين أو أخلاق أو مجتمع أو تقاليد هو قيد باطل ومدمر لطاقة الإنسان ، وهو كبت غير مشروع . . ! !

هذا فكر مسعور ، وهو من وراء حريق الفضائل الذى شب فى أرجاء أوروبا ولم ينطفىء إلى اليوم ، بل أخذ شرره يتطاير إلى بلادنا . .

لو كان الرجل يحارب الرهبنة المطلقة لقلنا : نعم فالفطرة البشرية تأبى حياة الرهبانية ، وجمهرة المرسلين عاشت بعيدا عنها : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[1] .

والمرء السوىّ يهش للمرأة ، ويسعد بالزواج منها والالتقاء باسم الله معها ، وما أحسب الرجل الذى يكره النساء سليم المواهب والغرائز . . وفى الحديث الشريف «حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

---

(١) سورة الرعد ٣٨ .

أما أن يقالّ لا مكان للكبت فى السلوك البشرى ، وهو تصرف غير مشروع فهذا هو المجون والفوضى . .

والواقع أن كل إنسان محتاج إلى الكبت منذ يعقل إلى أن يموت ، فتطلع النفس إلى ما ليس من حقها المادى أو الأدبى لاينتهى ، والنفس أمارة بالسوء ، ولو أننا نفذنا كل ما تشتهيه لأختفت الحدود والمعالم وأمست الدنيا غابة ملأى بالوحوش . .

إن هناك أمورا يجب أن نصوم عنها إلى آخر الدهور ، وهناك محرمات يجب أن يداس تحت الأقدام كل جنوح إليها أو اشتهاء لها وفى هنا يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[1] .

ربما كان فرويد رجلا ذكيا ، ولكنى تأملت فى كلماته وفى العلة التى أصيب بها آخر حياته ، فخيل إلىّ أن هذا الشخص مات « بالإيدز » ! وليس يستبعد على من يرفض كبت أى نزوة تعرض له أن ينتهى بهذا المصير الكالح . .

إننا نحذر الفتيان والفتيات من سماع هذا اللغو ، وخير لهم أن ينتصحوا بهدايات الله وحكم المرسلين .

* * *

---

(١) سورة النازعات : ٣٧ : ٤١ .

ما الكبت المرفوض؟
(٢)

إن وسطية الإسلام تبدو جلية فى موقفه من الغريزة الجنسية ، فقد كره تسيُّبها الأعمى واضطرابها هنا وهناك كما كره قتلها واعتبارها رجسا من عمل الشيطان . . .

للإنسان أن يتملك ما يشاء ، لكن بغير طريق السرقة والإكراه والغش ! والمعضلة التى واجهت الغرب وأثرت فى عقول مفكريه نظرة النصارى إلى الرهبانية على أنها النموذج الأعلى للإنسان الراقى ، وأنه يبلغ من الروحانية والتسامى بقدر ما يبتعد عن المرأة ويميت كل ميل إليها . .

وهذا تدين باطل ! وقد صحبه إحساس دائم بأن المرء لن يخرج من سجن الإثم أبدا مادام هذا الميل يتحرك فى دمه ، وإنتزاع هذا الميل من الطبع البشرى مستحيل ، وإلا لانمحت الحياة الإنسانية على الأرض . .

وقد نشأ عن هذا العوج الفكرى يأس من التسامى ، ثم انطلاق مع الدنايا على أنها ضرورة ماسة أو قدر غالب !

ولعل ذلك ما يقصده «فرويد» عندما قال : « إن الكبت ليس هو الإمتناع عن العمل الغريزى ، فذلك مجرد تعليق للعمل أو إرجاء موقوت ، لكن الكبت هو استقذار الدافع الغريزى والشعور بأنه دنس لاينبغى للإنسان أن يفكر فيه ، فيكبته فى عقله الباطن وهذا الكبت ـ بمعنى الاستقذار ـ يظل دائما فى النفس ولو أتى المرء الفعل الغريزى فى اليوم عشرين مرة ، فلا علاقة له بالممارسة ، إنما علاقته بالشعور » .

تقول منظمة الصحة العالمية ـ شرق البحر المتوسط ـ أما الإسلام فيقول خلافا لفرويد : إن الدافع الجنسى لايستقذر لذاته ! إنه يستقذر إذا كان وراء إنحراف أو

عدوان ، ولنتدبر الحديث الشريف : « فى بضع أحدكم صدقة ! ! » أو « إن فى بضع أحدكم لأجرا !! قالوا : يا رسول الله : إن أحدنا ليأتى شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟ ! قال : أرأيتم إن وضعها فى حرام أليس عليها فيها وزر ؟ فإذا وضعها فى حلال فله عليها أجرا » ! !

ثم تقول المنظمة : إنه فى الإسلام يمارس الجنس باسم الله ، خير الأسماء ويكون مع هذا الاتصال دعاء الله بالإنجاب الصالح . .

والزواج فى الإسلام نصف الدين وليس التفكير فيه جريمة ولاشبه جريمة ! وصدق الله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾[1] .

بيد أن الأمة الإسلامية لم ترتفع إلى مستوى دينها لافقهاً ولاتطبيقاً ولا دعوة ، فكان أن ظهر دجالون كثيرون يعملون باسم العلم فى مجالات لايعرف العلم الحق طريقا إليها . . .

* * *

(١) سورة الروم : ٣٠ .

ضوء على فتوى...

أصحاب الأحوال المتوسطة عندنا يعجزون عن تثمير أموالهم إذا كانت لديهم مدخرات قليلة أو كثيرة ، كان أحدهم - قديما - يستطيع بناء بيت يسكن بعضه ويؤجر بعضه ، أو يشترى أرضا يستأجرها منه بعض الفلاحين ، يرجون جميعا فضل الله مع الحصاد المرتقب . . لكن القوانين التى صدرت «لتنظيم» العلاقة بين المالك والمستأجر جعلت ذلك صعبا أو مستحيلا !

وصدرت فى ميدان التجارة قوانين للتصدير والاستيراد وللتجارة الداخلية والخارجية وللقطاع العام والقطاع الخاص أحسّ الكثيرون معها أنهم لا أمل لهم فى هذا الميدان ، فابتعدوا عنه . .

وعرف هذه الأوضاع رجال لهم خبرات ومواهب فأقاموا شركات توظيف الأموال التى وجدت إقبالا شديدا من الناس ، لأنها تعتمد فى تعاملها على الكسب الحلال - أى على رفض الربا - ولأنها وفرت لمن أسهم فيها نسبة رفيعة من الربح الطيب . .

وقد عرفت أنه منذ عامين كان ما بين مليونين أو ثلاثة ملايين من الجنيهات تصب فى الشارع المصرى كل صباح وتجعل الجمهور فى يسر وسعة .

ولكن قرارا سياسيا صدر - أحسب أن وراءه صندوق النقد الدولى - اختصر المساحة الرحبة التى كانت تعمل فيها هذه الشركات ، ووضع أمامها عراقيل شديدة ، وما أدرى بعد ذلك كله كيف ستستطيع الحياة ؟

ومن الحظوظ السيئة أن يصحب ذلك فشل محزن للمصرف الإسلامى الدولى أساسه فيما بلغنى الفوضى الإدارية والخلقية بين مسئولية الكبار ، مما كان سببا فى ابتعاد هذا المصرف عن الأسس التى قام عليها .

وحاول الزبانية أن ينالوا من بنك فيصل الإسلامى ، ولكن البنك كان أمنع وأعز .

فى هذا الأفق الملبد بالغيوم ، ومع حاجة أصحاب الدخول الضيقة إلى مصادر لحياة معقولة ، وبعدا عما تكتنفه الريبة من وسائل الارتزاق ، أبحنا أرباح صندوق التوفير وشهادات الاستثمار على أنها عطاء من الدولة لمن يدعمون بأموالهم جهود التنمية ، ولا صلة لهذه الأرباح بأعمال البنوك ، واقترحت مع غيرى تسمية المصرف منحة !

إن الملابسات الاجتماعية هى التى جعلتنى أرجع إلى قانون الضرورة ، ولو أن الحرية الاقتصادية توفرت لجمعيات توظيف الأموال ولغيرها من المؤسسات لكان لنا رأى آخر ، وهذا هو السبب فى أن فتواى كانت غامضة نوعا ما ! !

لقد علمت أن بنك فيصل يستطيع زراعة ألف ألف فدان فى الصحراء ، وأن « الشريف » يستطيع بناء مصانع لإطارات السيارات وللأسمنت ، وأن « الريان » كان يستطيع عمل الخوارق ، ولكن الإسلام ثقيل الظل عند صندوق النقد الدولى .

أرجو أن أضع هذا بين يدى الأخ الأستاذ « وحيد غازى » ، إجابة للفتته الذكية فى جريدة الأحرار .

* * *

قروض العالم الثالث...

العالم الثالث يترنح تحت وطأة الديون التى يسأل عن سدادها ، ونصف هذه الديون أو أكثر ناشىء من الربا المضاعف الذى فرضته الدول الغنية . ومع مرور الزمن ودوام العجز فإن المشكلة تزداد تعقيداً ، والمستقبل يزداد سواداً .

وقد اقترح أمير الكويت حلا عادلا رحيما لهذه المحنة عندما طلب من الدول الغنية أن تسقط الربا الذى فرضته ، وأن تنظر إلى المدين المعسر نظرة عطف فتتصدق عليه ببعض ما أعطت . .

وقد لقى هذا الاقتراح وجوما وصدا لايستغربان ممن نبتت لحومهم على السحت ونمت على الابتزاز والاحتيال .

إن الاستعمار العالمى بنى عواصمه الكبرى من نهب الأقطار المتخلفة فى أفريقيا وآسيا ، وكلف العراة من سكان القارتين أن يقدموا الفراء الثمين لسكان الشمال المحظوظ .

وهو الآن يغير وسائله فى النهب مع بقاء عوامل الجشع والبغى تطلب وقودها الدائم من عرق الفقراء والمنكوبين !

إن الارتقاء الحقيقى ليس فى إخفاء المخالب وراء قفازات من حرير ، بل الإرتقاء أن يقمع المرء جشعه ، وأن يخجل من البغى والأثرة . . ويبدو أن حضارة الغرب لاتؤمن بهذا . .!

إن الربا مرفوض بين الأفراد والدول ، وقد يخالف بعض الفقهاء فى وصف بعض العقود بأنها ربوية أو غير ربوية ولكن أحدا منهم لايخالف أبدا فى أن ماتصنعه الهيئات الدولية الآن هو عين الربا ، وأن استغلال الضوائق فيه ظاهر ، وأن أحط الغرائز الحيوانية تكمن وراءه . . .

وقد آخذ القرآن الكريم أهل الكتاب ـ خصوصا اليهود ـ باستباحتهم الربا وخلط

معاملاتهم المالية به ، قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۞ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ . . . ﴾[1] .

وكنت أتوقع من المؤسسات الدينية ومن شتى المذاهب المسيحية أن تظاهر أمير الكويت فى صيحته العادلة ، بيد أنها مشغولة بأمور أخرى لانتحدث عنها الآن . .

فى الجاهلية الأولى سمع واحد من الرجال المنصفين بعض آيات القرآن التى توصى بالمكارم والمروءات فقال : والله لو لم يكن هذا دينا لكان فى خلق الناس حسنا ! !

ونحن نسائل أتباع الأديان جميعا : ماذا لو اتفقت الكلمة على محاربة الرذائل والمظالم . . والوقوف فى جبهة واحدة ضد البغى والطغيان . .

إن هذا المسلك يوجه قوى كثيرة لحماية الإنسانية ، وصيانة يومها وغدها ، وأعتقد أنه مع شيوع الأمان سيشرق المستقبل أمام الإيمان ، وتقل الفرص أمام الإلحاد .

* * *

(١) سورة النساء : ١٦٠ : ١٦١ .

يهود متحدون وعرب متخلفون...

قال مستر « شامير »[1] فى صلف : إن الفلسطينيين الذين يرشقوننا بالحجارة لن يرسموا سياستنا ، وردّ بهذا القول على اقتراح بأن يناقش «الكنيست» الإنتفاضة الفلسطينية التى طال أمدها . . .

وبديهة أن تكون الحجارة سلاحا مغلولا فى مقاومة الدبابات والبنادق ! وسيبقى رماة الحجارة مستباحين« فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ »[2] .

أليست لدى العرب والمسلمين أسلحة أخرى يدفعون بها الأذى ، ويصدون العدوان ؟ بلى ولكن هذه الأسلحة لها وظيفة لم يعرف العالم لها شبيها فى الخسة والبوار ! . . إنهم يقتلون بها أنفسهم !

هناك هذه المجزرة بين العراق وإيران التى أربى القتلى فيها على المليون ، واستخدمت فيها كل الأسلحة ، وسعرتها ولاتزال تسعرها مشاعر وحشية ، أدهشت العالم بحدتها وشدتها .

إن عشر معشار ما أنفق فى هذه الحرب كان يستطيع تحرير المعذبين فى فلسطين ! لكن الأمر كما قيل قديما :

سريع إلى ابن العم يلطم خده
وليس إلى داعى الندى بسريع !

لعنة الله على من أشعل هذه الفتنة ، ولايزال يمدها بالوقود ، ويضاعف الضحايا والخسائر .

ويرمق أهل فلسطين جماهير المسلمين بين الأطلسى والهندى فيرونهم مشغولين بحرب الأحقاد عن إسعاف إخوان العقيدة ، واستنقاذ حقوق الإنسان أياً كان لونه أو دينه . .

---

(١) رئيس وزراء إسرائيل وقتئذ .

(٢) سورة يس : ٤٣ .

بين المغاربة والصحراويين حرب لامعنى لها . . وبين ليبيا وتشاد ! ، والسودان مشغول برد الشيوعيين الهاجمين عليه من الجنوب ، ومخيمات اللاجئين فى لبنان تعانى من حصار وضيع .

والباكستان تحمل أعباء اللاجئين من أفغانستان ، والبنغال يقاتل شعبها حاكمها . .

وفى كل بلد مسلم - إلا ما عصم الله - تجد فتنا مائجة ، وشعوبا نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ووسط هذا الشتات السياسى والعسكرى يرسخ اليهود أقدامهم فى الأرض التى أغاروا عليها وهم آمنون مطمئنون . .

وتتحرك ضمائر أناس لهم غيرة على كرامة الإنسان وحقه الطبيعى ويصيحون بضرورة وقف المأساة التى تدور رحاها فى فلسطين ، بيد أن الولايات المتحدة - وهى الدولة الأولى فى العالم - تعترض الصائحين ، وتخرس ألسنتهم ، وتشد أزر إسرائيل فى عدوانها ، وما كان ينتظر غير ذلك من ولية نعمة إسرائيل والقيم المحامى عن مطامعها فى تراثنا كله .

من ألوم ؟ ما ألوم إلا المسلمين كافة والعرب خاصة ! فحرب الحزازات أزهقت روح الأخوة واستدبار الإسلام حرمهم تأييد الله ! وكأننا لم نسمع قول الله : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1] .

لقد اجتمعوا على باطلهم فلماذا نتفرق على حقنا ؟ ! إنهم رفضوا كل يد تمتد إليهم بصلح أو هدنة ! فماذا نرجو ؟

* * *

(1) سورة محمد : ٧ .

تديّن غبى ...!!

فى مدينة كبيرة من قطر إسلامى رأى شباب مسلمون يمشون حفاة إلى المسجد ! فلما سألهم أحد المراقبين عما يفعلون قال قائلهم : إن النبى ﷺ وأصحابه كانوا يمشون إلى المسجد منتعلين أحيانا وحفاة أحيانا فأحببنا أن نحيى سنتهم ونقتدى بهم !

وبلغنى الخبر مع طلب الفتوى ! فقلت للسائل : ربما استطعت الإجابة عن أشياء يفكر الناس فيها بأدمغتهم ! أما ما يفكرون فيه بأرجلهم فلا أستطيع أجابة عنه . . . !

* * *

وسمعت من إذاعة لندن هجوم بعض الشباب على مسجد للإخوان تصنع فيه حقائب صغيرة فيها هدايا للفتيان الذين يحضرون مصلى العيد ، وتتضمن الحقيبة كتاب المأثورات وبعض التمور والحلوى ، قال المهاجمون : هذه بدعة لم تعرف على عهد السلف ! وكان الهجوم بقضبان وسلاسل حديدية ، وانتهى ببضعة عشر جريحا نقلوا إلى المستشفى ، وعدد من المتهمين نقلوا إلى السجن !

وقد استقصيت النبأ ووجدته صحيحا ، ودعوت لأولى الألباب الذين تدخلوا على عجل لمنع الفتنة ومحاصرة المعركة !

لقد شاهدت بنين وبنات فى أيديهم الهدايا المقدمة وكانوا فرحين بها ، وسألت المشرفين على المصلى : ما هذه الهدايا ؟ قالوا : أحببنا أن نجتذب قلوب الصغار ، وأن نفهم رجال الأمن أننا لانفكر فى خصام ، ولذلك أهديناهم منها ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : « تهادوا تحابوا . . »[1] .

---

(١) فى مسند أبى يعلى . . حديث حسن .

لكن فرحة العيد حولّها المتقعرون إلى مأساة ! هذا هو إجتهاد الأئمة الجدد الذين لا يعجبهم فقه الأئمة الأربعة ! !

* * *

وجاءنى رجل غاضب يقول : هل «صدق الله العظيم» حرام ؟ ! ! لابد أن أفعل كذا وكذا . . .

وأدركت أننا على أبواب معركة أخرى ، وقررت إطفاء الفتنة قبل أن تقع . .

قلت : يا عباد الله ، إن الله صادق فيمايقول لايمارى فى ذلك ذو عقل «ومن أصدق من الله حديثا » ؟ فإذا قال الكلمة قارىء أو سامع يحكى بها ما فى نفسه من تصديق ومحبة للوحى فلا حرج عليه ، وقد كان تصديق الله سبحانه فيما يلقاه الناس من خوف أو أمان شيمة أهل الإيمان « وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » [1] .

وقد أمر الله بتصديقه عندما يتجلى الحق فى شئون الحلال والحرام « قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » [2] .

فإذا كان قارىء القرآن أو سامعه يعبر عن هذه المشاعر عندما يقول صدق الله فلا حرج عليه ، وما زعم أحد أنها فريضة لازمة ، ولا نوجِّه لوماً لساكت عنها . .

أين البدعة التى تريدون سفك الدم لإطفائها ؟ ! ! كفاكم فضائح للإسلام .

* * *

(١) سورة الأحزاب :٢٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٩٥ .

تساؤل عن جريمة غامضة..!

تملكتنى حيرة شديدة عندما قرأت خبر قتيل حى «الظاهر» الذى ظل يعذب أربعة أيام نقل بعدها إلى المستشفى القبطى ، ودلت التقارير الأولى على أن هناك اشتباها فى ارتجاج بالمخ ، وكسر بالجمجمة ، وآخر بالرسغ الأيسر ، وآخر بالضلوع والقفص الصدرى ونزيف دموى حاد ! !

وقالت جريدة الشعب : إن ضباط المباحث بشرطة قسم الظاهر : نكلوا به ، وتم تهشيم جمجمته وفقء عينه وبتر جهازه التناسلى كله . . الخ . .

خامرنى الشك لهول ما قرأت ، وقلت : لابد أن يظهر توضيح لما حدث ولاسيما الجريدة تقول : إن رئيس المباحث عندما علم بوفاة هذا البائس أمر الأطباء بكتابة تقرير يفيد أن الوفاة كانت إثر هبوط حاد فى الدورة الدموية ! وأن المريض كان فى غيبوبة عند نقله إلى المستشفى ! وتم إخفاء جميع صور الأشعة التى تثبت الحقيقة !

أى أن الجريمة ارتكبت ، واتخذت بعد ذلك كل الوسائل التى تضلل القضاء وتنقذ المجرمين ، وتهيل التراب على المأساة المرعبة ! .

قلت لنفسى مرة أخرى : أيمكن أن يقع هذا ؟ ! فلأنتظر بيانا يلقى الضوء على القضية كلها ، ومرت بضعة أيام ولم يتكلم أحد ! ما هذا الصمت ؟ ! أيختطف شاب غير متهم بشىء خفى أو ظاهر ، ثم يتعرض لأهوال تزهق فيها روحه ويشوه فيها جسده ، حتى إذا هلك تحت وطأة العذاب الأليم تَمَّ إبعاد المعتدين عن أى إتهام ، وزورت تقارير طبية كى يمرح الجناة على ظهر الأرض دون قلق ، أو لعلهم يكلفون باقتراف جريمة مشابهة وهم آمنون ؟ ؟

كيف يقع هذا كله ؟ ! !

وعدت أقرأ القصة الكئيبة ، إن القتيل حاول أن يثنى رجال المباحث عن اعتقال جار له مع والدته دون أسباب ظاهرة لاعتقالهما ! !

أى أنه ذهب ضحية شهامته ، ولو جبن وخرس وترك الاعتقال يقع دون تدخل منه لنجا بنفسه ! ! وما دق له أحد عظما ولاقطع له عضوا . .

أهكذا نبنى الرجال على الكرامة والإباء وننشىء أجيالا عالية الرأس موفورة العزة ؟ !

وتقول القصة : إن أهل القتيل بحثوا عنه فى قسم الشرطة وفى المستشفى الذى نقل إليه ، ولكنهم تاهوا ! و إن الشهود على الواقعة المحزنة يهددون حتى لايذكروا الحقيقة . . . و إن المحامى «**صفى الدين سالم**» تقدم ببلاغ إلى النيابة لحماية العدالة ، وإن الأسرة أرسلت أربعة بلاغات إلى النائب العام تناشده التحقيق فى الأمر .

ذلك ، وقد كلفت المنظمة العربية لحقوق الانسان خمسة من كبار المحامين لتولى هذه القضية على نفقتها . .

لقد تساءلت : ما معنى هذا كله وما دلالته ؟ ؟ !

من يدرى عدد الضحايا الذين قتلوا مظلومين ، وأُبرزوا للناس على أنهم قتلة ظالمون ؟

كان يجب أن يصدر بلاغ رسمى بما حدث ! قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **لايقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما ، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه**» . . **وروى فى حديث آخر : «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام**[1]» .

إن هذه الحوادث تفضح أمتنا وتسقط رايتنا بل لاتجعلنا أهلا لحرية أو أهلا للتمتع بحقوق الإنسان .

* * *

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن أوس بن شر حبيل .

مسلمو بريطانيا وغضبهم على كاتب مرتد..

يعيش فى الجزر البريطانية نحو ثلاثة ملايين مسلم هاجروا إليها من آسيا وإفريقيا لظروف إقتصادية وإجتماعية كثيرة ، وفيهم إنجليز اعتنقوا الإسلام بعد دراسة متعمقة وتصديق جازم . . !

والمسلمون المهاجرون بعضهم يعمل فى شركات كبرى ، وبعضهم يرتزق من حرف صغيرة ، ومع أن مستواهم الحضارى والمالى دون مستوى اليهود إلا أنهم معروفون بدماثة الأخلاق وشرف السيرة ، وجمهرتهم لاتعرف الخمر ولا القمار ولا الدنايا الجنسية الشائعة بين غيرهم .

وقد تعرض مسلمو إنجلترا هؤلاء لمحنة كبيرة فى الأيام الأخيرة ، فإن شخصا من مواليد الهند ـ يحمل اسما إسلاميا للأسف ـ ألف كتاب جرح فيه مشاعر المسلمين جميعا ، ووجه إليهم أقبح السب .

ومانشك فى أنه موعز إليه ما كتب ، وأن ناسا من العاملين فى الظلام الحاقدين على نبى الإسلام هم الذين وسوسوا للكاتب باقتراف ما اقترف . . ومحور الكتاب أن بغيا افتتحت محلا للدعارة جعلت اللافتة الدالة عليه كلمة « الحجاب » (!) .

هل كلمة « الحجاب » تصلح عنوانا لدار بغاء ؟ هكذا صنع المؤلف ! ثم استأجرت المرأة المتمرسة بالدعارة اثنتى عشرة امرأة من المومسات ، يعملن معها واختارت لهن أسماء زوجات النبى العربى المحمد (!) أطهر من مشى على الثرى وأندى عباد الله صوتا فى الدعوة إلى الشرف والسمو ! !

فهل هذا نهج فى عرض سير الأنبياء أو حتى سير الرجال الكبار ؟

وهاج المسلمون هياجا شديدا وطلبوا من أولى الأمر مصادرة الكتاب ، فكانت الإجابة : نحن لانصادر حرية الفكر !

هل هذا النوع من الكتابات يدخل فى دائرة الفكر ؟ ! !

هل من حرية الفكر أن يؤلف رجل كتابا ينشره بين الأوروبيين يتهم فيه مريم بأنها مومس ، أو الإنسان الجليل عيسى بن مريم بأنه شاذ ؟ ؟

إن هذا المؤلف لو كان مسلما لاجتمع مؤتمر فى الأزهر وقرر أنه مرتد عن الإسلام ، ولما شغب على هذا القرار مسلم فى طول العالم الإسلامى وعرضه !

ولكن الغريب أن تؤلف قضية حول الإسلام وحرية الفكر لأن المسلمين أحرقوا كتاب «آيات شيطانية» الذى ألفه وغد اسمه سلمان رشدى ، يشتم فيه الإسلام ونبى الإسلام . . وظاهر أن هناك مؤامرة عة لاتخفى علينا القوى المشاركة فيها كى ينتشر الكتاب فى أوسع دائرة ممكنة تحت عنوان دفاع عن حرية الفكر . . ! وما قال عاقل : إن حرية الفكر تعنى السباب المقذع والإفتراء والإسفاف .

وقد سمعت رئيس جماعة إسلامية فى انجلترا يشكو من أن القانون هناك لايعاقب على سب الإسلام والتهجم على مقدساته ! وهذا أمر يشين الإنجليز ولايشيننا ، وهو باب إذا انفتح لن يؤذى محمدا وحده ، ولكنه سوف يؤذى كل نبى سبق وكل منتسب إلى السماء ! !

إننا ننصح إخواننا من رجال الأديان الأخرى فى إنجلترا وغيرها أن يتبصروا عواقب هذا النزق وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

* * *

حول التشريع الإسلامى الغائب...

عندما كنت طالبا صغيرا بمعهد الإسكندرية الدينى أَلِفْتُ رؤية أحد أقسام الشرطة مملوءا بالجنود الانجليز يغدون ويروحون فى هدوء ! وبعد كفاح طويل تم جلاء هؤلاء وغيرهم من الأرض المصرية !

ولكن الاستعمار العسكرى زال ، وبقى الاستعمار التشريعى والفكرى ينشر مباذله ومفاسده ، إن الإحتلال العسكرى يسكن الأرض إلى حين أما الاحتلال الثقافى والاجتماعى فيسكن النفوس ويستقر والجهاد الأكبر هو مطاردة هذا الغزو حتى يعود من حيث أتى . . .

إن التشريع فى أوروبا وأمريكا يعتمد على العرف الشائع والأهواء المتبعة ، ويعقد صلحا مشبعا بالعطف مع القتلة والزناه وناهبى المال ، ولم أشعر بأى غرابة عندما أباح الغربيون اللواط فعوقبوا بالإيدز ، وعندما ألغوا القصاص فكثر القاتلون والفوضويون .

المثير للغرابة حقا هو اقتفاء أثر القوم والسير بعمى وراء مجونهم وجنونهم ، يقول الأستاذ الجليل عبد الحليم الجندى : « إن الشريعة الإسلامية هى صميم الفكر الإسلامى ، وهى ملاك العلاقات بين الأفراد ، فإذا لم تطبق على هؤلاء الأفراد فى مجتمعهم ، فقد صار المجتمع بالضرورة غير إسلامى ، واصطبغت معاملاته بصبغة أجنبية ، وكلما اطرد تطبيق القانون الاستعمارى زادت مسافة البعد بين الناس ومجتمعهم الحقيقى المهزوم ، وما كفله من مزايا وفضائل . . ثم جرت البيوع والإجارات والقروض والإعارات على محاور غير إسلامية ، تتنكر لقواعد الفقه الإسلامى ، وهى قواعد قوامها العدل الإجتماعى ومصالح الأفراد .

ولقد أثبت تطبيق القانون الجنائى الأوروبى زيادة كبيرة فى الجرائم ، وترتب عليه إنشاء نظام ضخم للسجون ، وقضاء ضخم مثله للجنح والجنايات ، وفحشت نسبة جرائم الأخذ بالثأر ، كما كثرت جرائم الاغتصاب والاعتداء على الآمنين . . » . .

إن العقوبات المرصدة للسطو على الأعراض كأنما وضعها ديوث لايبالى بالحرمات وصيانتها ! والمرء يعجب للعطف الشديد الذى تبديه القوانين الوضعية على أصحاب الانحرافات الجنسية والأمزجة الدموية ! !

وقد طال عجبى وأنا أسمع رئيسا عربيا يعد بأنه سوف يلغى عقوبة « الإعدام » كأنه بهذا الإعلان يثبت رقيه الاجتماعى ، وما درى أنه يؤكد تخلفه الفكرى والخلقى ؟ !

إن فى حضارة الغرب « **شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه** »[1] وهذه الرذائل علل سوف تأتى عليها إن قريبا وإن بعيدا . .

وما يبقى هذه الحضارة إلا عدم وجود صالحين يرثون الأرض ويقودون الخلق إلى الله ! ذلك أن حملة الإسلام غرباء عليه ولما يدخلوا بعد فيه . .

بل إن مسلمى اليوم ينقلون عن الغرب أخبث ما فيه ، ويزهدون فى العناصر التى سبقت به ، وبوأته المكانة المادية التى دفعت به إلى الأمام .

* * *

(١) نص من حديث نبوى : رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس .

حول وجه المرأة..

لقينى رجل فوق الأربعين يتحدث وكأنه يافع غِرٌ ! قال لى بصوت مهتاج : أنت الذى تفتى بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة ؟

قلت بهدوء : نعم !

قال : أما تتقى الله ؟

قلت : أوصيك ونفسى بتقوى الله . .

قال : إنك مخطىء فيما تذكره للناس ويجب أن تتوب !

قلت له : لست وحدى الملوم ، فإن كبار المفسرين سبقونى إلى هذا الخطأ ، كما سبقنى إليه رواة عشرة من الأحاديث الصحاح ، وشاركنى فى خطئى أيضا أئمة المذاهب الأربعة ، وعدد من المذاهب الفقهية الأخرى .

أولئك جميعا هم الذين استقيت منهم قولى أو تابعتهم فى غلطهم ، ولا أشعر بغضاضة إذا كنا جميعا أصحاب تهمة واحدة . .

قال الرجل وهو دهش : ماذا تقول ، أهؤلاء جميعا يفتون بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة ؟

قلت : نعم ! ولكنكم تؤثرون التقاليد السائدة ، وتتشبثون بآراء مرجوحة . .

ولنفرض جدلا أن فى المسألة قولين اخترت أنا أحدهما فلم الغضب ولم التحامل والشتم ؟ ! ! هل سمعت حديث سلمان وأبى الدرداء ؟

قال : لا ! قلت له اسمع : (روى البخارى عن أبى جحيفة قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان الفارسى ـ وأبى الدرداء . . فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذِّلة ـ عليها ثياب لاجمال فيها ـ فقال لها : ماشأنك ؟ ـ لماذا هذا المنظر ؟ ـ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى النساء (!) .

وجاء أبو الدرداء وصنع طعاما وقال لسلمان كل فإنى صائم فقال : ما أنا بآكل حتى

تأكل ! فأكل ـ أفطر لأداء حق الضيف ـ فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، فقال له نم فنام ! ثم ذهب يقوم فقال له نم فنام ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا جميعا .

وقال سلمان : إن لربك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا وإن لأهلك ـ زوجك ـ عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه .

فأتى ـ أبوُ الدرداء ـ النبىَ فذكر له ذلك ، فقال النبى ﷺ صدق سلمان » .

والذى يعنينى من سرد الحديث الحوار الذى جاء فى صدره ، فلو أن هذا الحوار وقع فى عصرنا لضُربَ الزائرُ ، وقُتلت المرأة ! !

ولقيل للرجل : ماذا يعنيك من النظر إلى ملابس الزوجة؟ ! ولماذا تتطفل بهذه الملاحظة ، ولقيل للزوجة : كيف تشكين زوجك وتكشفين للآخرين انصرافه عنك ؟ !

لكن سلامة الفطرة فى عصر الصحابة تنفى كل شبهة ولاتدع لظنون السوء مكانا ، فلما فسدت النفوس ، جاء قول الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاده من توهم

وعلى هذا الأساس وجدنا الطباع المريضة تصف كشف الوجه بأنه فجور ، وأنه حرام لأنه باب إلى الكبائر والعياذ بالله . .

* * *

العالم يدل على خالقه....

شرحت لأحد المبهورين بالمنطق المادى بعض مالا يعلم ! قلت له : أترى السلالم التى نستخدمها صاعدين هابطين ؟ إنها لاتعرف شيئا عن الأقدام التى تدوسها ، لقد صنع المهندس درجها لتسلم كل درجة إلى زميلتها ، وأقامها بفنه على هذا النحو ، وهى لاتدرى من فعل بها ذلك ولماذا ؟

أتعرف العنصرين المكونين للماء فى كوب أمامك أو فى البحار الفيح ؟ ! إنهما منفعلان لا فاعلان وما يدرى أحد العنصرين ما هو أولا ، وما هو بعد أن امتزج بصاحبه ، ثم سالا أنهارا وبحارا .

أتحسب الأرض تحت قدميك هى الخالق للزروع والحبوب ؟ فأسرع يجيب : نعم هى الخالق !

قلت ضاحكا : لعل التراب صنع الشعر الأبيض فى لوزة القطن ، والماء هو الذى صنع البذور الحافلة بالزيت ، والشعاع هو الذى صنع أعواد الحطب . .

إن الخلق ـ أيها المسكين ـ وظيفة لاتستطيعها ذرات التراب أو الماء أو الضوء ! إن هذه الذرات لخشب السلالم التى تصعد فيها ، إنها لاتعى لنفسها وجودا فكيف تهب الوجود لغيرها ؟ ! !

إن ما نراه من فوق ومن تحت وعن يمين وشمال غطاء لقطرة عليا يتحرك بها الكون ظاهرا وباطنا ، قد تغلى بالحركة ، وقد تهمد بالموت ، وهى على الحالين منفعلة لا فاعلة « وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » [1] .

اقرأ هذه الأمثلة ثم سل نفسك : من الفاعل ؟

خذ هذا المثال :

---

(١) سورة البقرة : ١١٥ .

تصفى الكليتان فى الإنسان البالغ نصف متر مكعب من الدم يوميا ! وتحتوى الكليتان على تمديدات من القنوات الدقيقة يقدر عددها بمائتى مليون تقريبا ، وطول كل منها نحو خمسة سنتيمترا ، فيما يشكل طولها نحو عشرة آلاف كيلو مترا !

وهذا المثال :

يبلغ عدد الحويصلات الهوائية فى رئتى الإنسان البالغ أكثر من ٣٧٥ مليون حويصلة ! وخلال ساعات اليوم الواحد يسحب الإنسان البالغ نحو ١٨٠ مترا مكعبا من الهواء فى عمليات التنفس ! ويتولد عن ذلك طاقة تكفى فى مجموعها لرفع قاطرة سكة حديدية إلى علو مترين !

وهذا المثال :

قلب الإنسان كمثرى الشكل ، فى حجم قبضة اليد . يزن ما بين ٢٢٥ إلى ٣٤٠ جراما . وينبض معدل ٧٠ مرة فى الدقيقة أى ٤٢٠٠ مرة فى الساعة . أى ١٠٠٨٠٠ مرة فى اليوم ، أى ٣٦٧٩٢٠٠٠ مرة فى السنة ، فإذا كان متوسط عمر الإنسان ٦٠ سنة فإن هذا يعنى أن هذا القلب العجيب يكون قد نبض ٢٢٠٧٥٢٠٠٠٠ مرة « أى مليارين ومائتين وسبعة ملايين وخمسمائة وعشرين ألف نبضة » دون توقف !

من الفاعل ؟

من ؟ إلا الله . . !

* * *

هل القومية العربية بديل عن الإسلام؟

بعيدا عن الخيالات والأحلام نقرر أن القومية عند أكثر العرب بديل جديد عن الدين ! والبعثيون والعلمانيون يصرحون بذلك دون مواربة ! . . أما القومية عند اليهود فهى مرادف للدين ، أو عنوان آخر لحقيقته عند بنى إسرائيل !

ليست اليهودية رسالة روحية عامة لأبناء آدم كلهم ، بل هى علم على التعاليم التى أوحى بها رب الجنود إلى شعب من الناس اختاره لينتمى إليه ويحكم الناس به . .!

وقد نشأ عن هذا الاختلاف بين مفهومى القومية عند العرب واليهود ـ فرق واسع من النواحى الاجتماعية والسياسية ، فقد ذابت الاختلافات العرقية والوطنية عند اليهود ، ولم شملهم المبعثر ! إحساس واحد وهدف واحد ، وتكاتف القادمون من روسيا ومن أمريكا على إقامة الدولة الدينية الحديثة .!

أما العرب فإن استبدالهم القومية بالدين أحيىٰ بينهم النزعات القبلية ، وأفقدهم الخصائص الروحية الإسلامية ، وأقام للأهواء الرخيصة سوقا رائجة ، وأعجزهم عن الإفادة الحقيقية من الحضارة الحديثة !

إن البيئات القومية ليست ساحة للعبادات ولا أرضا خصبة لنمو الفضائل والأخلاق .

وفى النزاع اليهودى العربى يقاتل اليهود بعقيدة دينية طاغية ، أما العرب فهم يتحركون عراة عن الإسلام ووصاياه .

ولنذكر أن اليهود النازحين إلى فلسطين طليعة لعالم كبير طويل عريض يعج بحاقدين على العرب ليس لحقدهم نهاية أذكر معه قول الشاعر :

من كان يسألنى عن أصل دينهم

فإن دينهم أن يقتل العرب !

إن للنزاع جذورا تاريخية عميقة ، جعلت وراء اليهود مستودعا من الرجال والأموال فى أوروبا وأمريكا يستندون إليه وهم يهاجمون .

أما البائسون من عرب فلسطين فماذا وراءهم وهم يدافعون عن أرضهم وعرضهم ؟ عرب متخاصمون ، أو مسلمون بأسهم بينهم شديد ، شغلتهم حزازاتهم عن نجدة إخوان العقيدة !

أى عقيدة ؟.الإسلام الذى أداروا له ظهورهم وأصموا عن ندائه آذانهم !

إن الانتفاضة التى تهز فلسطين اليوم هزا تقع فى أيام نحسات فاليهود أمرهم جميع ، وشعارهم واحد ، والشيوعية الرأسمالية تُظَاهِرَانِهم ، والكنائس المسيحية تقول وهى تتحدث باسم السماء : إن اليهود والعرب ينبغى أن يقتسموا فلسطين قسمة عادلة ! يأخذ رب البيت غرفة أو غرفتين ويأخذ اللص الصهيونى سائر الحجرات والشرفات . . !

فى هذه الفوضى العمياء أقول للعرب التائهين عن شرفهم وعزهم : عودوا إلى دينكم ، تظفروا بالحياتين ! فإن أبيتم الا ما أنتم فيه فأمركم كما قال الله : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة محمد : ٣٨ .

الحروب الصليبية لاتزال دائرة..

عندما يواجه الإسلام تحديا علميا فى ساحة ما نطير خوفا إلى مواجهة التحدى ، وملء نفوسنا الثقة والاطمئنان ، فنحن أغنى أهل الأرض بالأدلة التى تدمغ الباطل وتدعم الحق . .

إن قوما لديهم القرآن لن يطيش لهم سهم ، و إن قوما يعرفون محمدا لن تضعف لهم حجة ، إن الإعجاز الأساسى للإسلام أنه جملة الحقائق التى قامت بها السماوات والأرض ، وتضافر الأنبياء على إبلاغها كابرا بعد كابر .

فكيف يوصف الإسلام بأنه يفر من معركة علمية ؟ ! أو تخف كفته فى أية موازنة بينه وبين غيره ؟ !

فى جو حُرِّيَّة الفكر نحن ننتعش ونتحرك ، فأين هى حرية الفكر التى يتحدث عنها قادة الغرب ؟ !

هل الحكومات العلمانية محايدة فى أى نزاع بين الإسلام وغيره من الأديان ؟

هل الحكومات العلمانية محايدة فى أى عراك بين المسلمين ـ عربا كانوا أو عجما ـ وبين غيرهم من أهل الأرض ؟

حين خطب وزير داخلية انجلترا فى المسجد الكبير بأحد البلاد وقال للمسلمين يجب أن تخضعوا لقوانين الأمة التى تعيشون فيها . . ! وهذا كلام ظاهره حسن وباطنه دميم ! فالقانون الإنجليزى يعد سب النصرانية جريمة ، ويسكت عن سب الإسلام ، وهذا القانون يرى اللواط مباحا ، ويرى الحجاب منكرا ، أو يرى تعدد الزوجات محرما ، ويرى الزنا لاحرج فيه ! !

ليكن للقوم ما أرادوا لأنفسهم ، فالمسلم فى إنجلترا لا طاقة له على تغييره أوضاع ارتضاها أصحابها ونحن لانكره أحدا على ما نريد ، وكتاب ربنا يقول لنا : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

فماذا على الكافر لو ترك المؤمنين على نهجهم ، وبقى هو على نهجه ؟ ماذا عليه لو سكت فلم يشتم محمدا ويتطاول على تراثه وأتباعه ؟ لماذا تمنح الجوائز لمن يهين الإسلام وتبسط عليه الحماية ؟ هل هذه هى الحرية التى يرفع شعارها ؟ !

لقد حاولت أن أجد قضية علمية واحدة فى الكتاب الذى وضعه سلمان رشدى فلما أجد أثارة من علم ! . الكتاب كله لون من الإسهال الفكرى خرج من دماغ عفن منتن ثم وضعت انجلترا عليه حمايتها ، وأعلنت عنه رضاها ! !

وبعد برهة وجيزة تحرك «السربطرس هاو» ناسك القرن العشرين فجعل بقية أوروبا وأمريكا الشمالية تشاركانه الرأى .

بل إن الحماس الصليبى اتسعت دائرته فرأى أن يضم روسيا الشيوعية إليه ! وإذا نجح فسيتجه إلى بقية العالم ليجعل الحملة على محمد ودينه تشمل أرجاء الدنيا . . !

إن بطرس الناسك عاد مرة أخرى ليحرق الأخضر واليابس !

ورمقت أمتنا المحروبة وأمضنى الألم ، إن مسلمين فى الهند وباكستان حصدهم الرصاص وهم يعلنون غضبهم على الكتاب النجس ! !

والأسوأ من هذه المصائب أن المعركة أخذت عنوانا مقلوبا ، فالغرب يقاتل عن حرية الرأى وحقوق الإنسان ، والمسلمون يقاتلون عن التعصب والرجعية ! !

أليس بديعا أن يقاتل إبليس عن كرامة البشر ، ويقاتل موسى وعيسى ومحمد لإذلال الإنسان وإظلام مستقبله ؟ !

ترى من وضع هذا العنوان ؟

* * *

سكرة الجدل تغطى العقل والدين...

دخلت مجلسا يحتدم فيه الجدل ، ورأيت شابا قد شمر عن ساعد الجد يستعد لخوض معركة شديدة تتمخض عن هزيمته أو انتصاره ، وكأن النصر والهزيمة فى هذا المجلس هما بالنسبة له الحياة أو الموت !

ورأى البعض أن يحتكموا إلىّ لأحسم الموقف ، ولكنى كنت زاهدا فى سماع الأطراف المتنازعة وكارها لتقرير الخطأ والصواب ، عند هذا أو ذاك !

كنت مقتنعا من المنظر الذى رأيته أن الغلبة الشخصية أغلى من معرفة الحق ، وأن إهانة المخطىء هدف مهم ، وأن شموخ المصيب غاية مطلوبة ، وأن الشيطان هو سيد الموقف !

وتذكرت ما رواه أبو سعيد الخدرى قال : كنا جلوسا عند باب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتذاكر ، ينزح هذا بآية ، وينزح هذا بآية ، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يفقأ فى وجهه حب الرمان ـ أى يتلون وجهه بالبياض والحمرة من شدة غضبه لما سمع ـ فقال : « يا هؤلاء بهذا بعثتم ؟ ! أم بهذا أمرتم ؟ ! لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض[1] » .

إن معارك الجدل من أسوأ المعارك أثرا ، وأوخمها عقبى ، والفرار منها أشرف للعاقل وأصون للدين !

وتبعنى شاب يطالبنى بتحديد الحقيقة العلمية بعيدا عن جو الجدال ، فقلت له : إن بعض الناس يعرف جزءا من الحق ويجهل جزءا آخر ينطبق عليهم قول القائل :

فقل لمن يدعى فى العلم معرفة   حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

وإنى أقدر على بسط الحقيقة كلها ، لكنى أريد تغيير المسلك الشائع ، وإشعار أولئك الشباب بأن الإسلام لايخدم بهذا الأسلوب ! لماذا يكون التدين كلاما كثيرا أو قليلا ؟ لماذا لا يتوجه المتدينون إلى التنقيب فى أرجاء المجتمع للبحث عن عوج

(١) صحيح : أخرجه البخارى ومسلم والإمام أحمد وغيرهم .

يقومونه ، أو ثغرة يسدونها أو عورة يسترونها أو رحم يصلونها أو علة يداوونها أو أزمة يفجرونها ؟ ؟

إننا ورثنا أمة حاقت بها هزائم شتى وسادت فيها تقاليد رديئة ، والإصلاح يحتاج إلى لباقة ومصابرة وإخلاص لا إلى ثرثرة وعناد .

والتدين السلبى بضاعة مزجاة فى هذا العصر ، ولن يلقى من الله إلا المقت ، ولكى يسدى المؤمنون خيرا لدينهم يجب أن يتجمعوا على دراسة البيئة التى يعيشون فيها ، والمسارعة بالنجدة إلى كل من يرتقبها من العاجزين والمنقطعين .

تَدَبَّرْ هذا الوصف لسلوك المؤمن ، قال رسول الله ﷺ : « على كل مسلم صدقة قيل : أرأيت إن لم يجدْ ؟ قال : يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ! قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف ! قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يأمر بالمعروف أو بالخير ! قال : أرأيت إن لم يفعل ؟ قال يمسك عن الشر ، فإنها صدقة له[1] » . .

إن السلبية عجز بائن ، ربما كانت أقرب إلى النفاق منها إلى الإيمان .

* * *

(١) صحيح عن أبى موسى . . أخرجه البخارى ومسلم و الإمام أحمد وسنن النسائى .

سماسرة الغزو الثقافى..

فى مطلع عصر النهضة الأوروبية كان الأوروبيون عامتهم وخاصتهم يعلمون أن العرب أولياء نعمتهم ! وأن الثقافة الإسلامية من وراء عصر الإحياء الذى أيقظهم من سبات وأنقذهم من خبال !

ولم يزعم عاقل أن وسط أوروبا أو غربها له مدخل فى هذه الصحوة ، ولكن بعض المضللين زعم أن هجرة علماء القسطنطينية بعد سقوطها فى يد العثمانيين هى التى أنشأت عصر الإحياء ، بيد أن المنصفين كشفو القناع عن وجه الحقيقة عندما أكدوا أن شرق أوروبا كان أسوأ حالا من غربها ، وأن المسلمين وحدهم هم آباء النهضة العلمية الحديثة فى أوروبا ، وأن تحويل الأنظار عن هذه الحقيقة أحقاد صليبية وأكاذيب على التاريخ الإنسانى . .

ويقول الأستاذ **جلال مظهر** فى كتابه النفيس « الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث » : إن حضارة العرب والإسلام تعرضت فى القرنين الماضيين إلى عملية من أبشع عمليات التضليل التاريخى . . وأنه قام بهذه الحركة المضللة نفر من علماء أوروبا لأغراض سياسية أو دينية . . وأنهم دسوا وروجوا آراء كان لها أثر كبير فى البلبلة الفكرية التى أصابت الشرق العربى والإسلامى ، هزت شخصيته وأعقبت النتائج التى نعانى منها الآن . . » .

وأقول : إن الإستعمار الثقافى سكت الآن ليتكلم بدلا عنه أناس من جلدتنا وينطقون بألسنتنا يحترمون كل تراث إلا التراث الإسلامى . ويؤثرون كل انتماء إلا الانتماء الإسلامى .

وقد طال لغطهم فى هذه الأيام ، وأعطتهم الصحافة مساحات واسعة استطاعوا فيها تحريف الكلم عن مواضعه ، وإهالة أكوام من التراب على أمجاد المسلمين والعرب متوسلين إلى ذلك بالكذبة الفاجرة ، والنكتة الباردة والجهالة الطامسة .

إن منطق التجربة والاستقراء عرفه العرب من المنهج القرآنى الذى يبنى الإيمان على دراسة الكون والحياة .

وممن طبقه فى ميدان النقد العلمى «الجاحظ» أديب العربية الكبير فى كتابه «الحيوان» حيث نقل مقررات أرسطو ثم وضعها على محك التجربة فتساقطت كلها ! وقد شرح ذلك الأخ الدكتور **مصطفى عبد الواحد** فى الملحق الثقافى لجريدة الندوة السعودية .

ومعروف أن الارتقاء العلمى فى الغرب تم بعد استبعاد منطق أرسطو على أساس أنه لايأتى بجديد ! إنه تحريك للمياه داخل صحن مسطح أو عميق ! لن تزيد ولن تنقص .

وقد كتب الفقيه الحاذق **ابن تيمية** سفرا ضخما عن وظيفة العقل الإنسانى ، تناول فيه منطق أرسطو بالميزان المنصف ، فوضعه فى مكانه الطبيعى !

ومع ذلك فإن بعض الدكاترة الذين ضُربت عقولهم عواصم الاستعمار ، وأشرف على توجيههم سماسرة الصليبية العالمية ، اختاروا هذه الأيام ليطعنوا فى أسلافنا ومواريثنا اعلاء لقدر الغرب وفلسفة يونان .

متى يحدث ذلك ؟ ! فى الوقت الذى تتحول فيه أساطير اليهود الدينية إلى دعائم هائلة لدولة جديدة على أنقاضنا !

إننا نرقب هؤلاء المرتدين ، وننذرهم إن لم يتوبوا بيوم رهيب .

* * *

قصور الفقه خطر على الإسلام...

كنت فى أحد كتبى قد ذكرت حديث البخارى الذى جاء فيه : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج . فقال : اصبروا ، فإنه لايأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم ! سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم . .

قلت : إن أنسا رضى الله عنه كان يعلق بما قال على الفتن السيئة التى بدأت بمعركتى الجمل وصفين وانتهت بالاعتداء على الكعبة واستباحة المدينة . .

إن الإسلام نهض بعد هذه المحنة وشرَّق حتى دقَّ أبواب الصين ، وغرَّب حتى بلغ أواسط فرنسا وسويسرا . .

وقلت : إن الذين يرون أن الحديث حكم على مستقبل الإسلام كله مخطئون ويستحيل أن يخبر نبينا بأن رسالته تنحدر كل يوم ، وأنها تسير حثيثا إلى الهزيمة والتلاشى !

وقلت : إن هناك مرويات أخرى تؤكد أن الحكم الإسلامى سوف يبسط ظلاله على المشارق والمغارب ، وأنه بتعبير مسند **أحمد بن حنبل** سيبلغ ما بلغ الليل والنهار . .

وينبغى فهم ما رواه البخارى فى ضوء المرويات الأخرى ، وفى ضوء الواقع التاريخى الذى يشرح أن الأمم عامة والمسلمين خاصة عرضة للهزيمة والنصر والمد والجزر !

بل الدلائل عندنا تشير إلى أن الدين سيظهر على الدين كله ، وأن أمر محمد سيعلو حتما وإن كثرت أمامه العراقيل . . ! !

وفوجئت بعد نشر مقالى ـ وكنت يومئذ أدرِّس بكلية الشريعة فى مكة المكرمة ـ بكتيب ينشر عنى يتهمنى بتكذيب السنة ، ويوصم فيه محمد الغزالى المصرى – بتعبير المؤلف ـ أنه يرد ما روى البخارى ، ويحارب التراث النبوى ! !

والواقع أن الأوساط العلمية رفضت الكراسة المنشورة ، وتجهمت لمؤلفها ، وإن كنت أنا قد ارتبت فى الغرض من وراء النشر ، واعتقدت أن ثَم قصدا غير شريف . .

وكنت أتساءل : ما الحكمة فى إثبات أن مستقبل الإسلام غائم ؟! وأن كل يوم يمر يدنيه من أجله ، وأنه لا أمل فى جهاد مع هذا القدر المكتوب !

إنه لايستفيد من هذا الشرح الجاهل إلا أعداء الحق والحاقدون على رسالته ، أعنى أعداءنا من اليهود والنصارى والوثنيين والشيوعيين !

على أن أمرا آخر شغلنى ومازال يشغلنى . . ما السر فى أن بعض الكاتبين فى الإسلام شديد الرغبة أن يتلمس للبراء العيب ؟ !

إذا كان قاصر الفقه فلماذا لايتفقه فى الدين ، ويزداد علما بالكتاب والسنة ؟ ! ولماذا ينحصر فى حظه التافه من المعرفة ويتحصن داخله لقذف المخالفين بالأحجار ؟ !

ثم لماذا لايحمل حال المسلمين على الصلاح ويدعو لهم بالخير إن أخطئوا وينتفع بما لديهم من فقه ؟ !

إننى متأكد أن سماسرة الاستعمار الثقافى تستغل فقر العلم والخلق عند بعض الناس وتطلقهم فى أرجاء العالم الإسلامى ليقطعوا أوصاله بالخلافات اليسيرة والشائعات الكذوب .

وهكذا تكثر العثرات والعوائق أمام دعاة الإصلاح ، وينبرى لهم داخل الأمة نفسها من يبطل سعيهم ، ويبعد هدفهم ! والله غالب على أمره و إليه المشتكى .

* * *

غيبوبة تعترى العقل الإسلامى..!

أيام نزول الوحى ، وعلى حياة الرسول الكريم ، وفى عهد الخلافة الراشدة ، كان العقل الإسلامى سليما معافى ، فالقرآن المتلو يوقظ الفكر الغافى ويقيمه على صراط مستقيم ، والرسول القائد يبنى باقتدار أمة صاحية هادية ، تعلم أن الله خلق لها ما فى الأرض جميعا ، وأنشأ لها السمع والأبصار والأفئدة ، فهى تتعامل مع الكون والحياة بخلائق السادة المالكين . .

ومع هيمنة المسلمين على الممالك الكبرى اتصلوا بأفكار وفلسفات أخرى كثيرة . . يقول بعض المؤرخين : لا حرج هذا لون من الانفتاح على مواريث الثقافة الإنسانية لا بأس به !

وأقول : إن الانفتاح سائغ يوم أحسن التعامل معه والأخذ والرد منه ، ولكن بعض المتعاملين مع الثقافة الوافدة لم يكن على المستوى المنشود فوقعت فتن كبيرة فى تاريخنا الثقافى لا أريد التعرض لها هنا .

وشاء الله أن تسقط الفلسفة الإغريقية مع عصر الإحياء الذى استيقظت به أوروبا من سباتها أو تحركت به بعد مماتها ، وأن تقوم فى غرب العالم حضارة تعتمد على توظيف العقل ، وتسخير الكون ، أى على مقررات تشبه الحركة الإسلامية على عهد النبوة والخلافة الراشدة . .

ويقع ذلك والعالم الإسلامى قد نسى خصائص رسالته السماوية ، والطبيعة الإنسانية لسلفه العظيم .

فإذا مفارقة رائعة تقع ، القوم يشتغلون بعالم الشهادة ، ونحن نشتغل بعالم الغيب ! !

الآخرون يسخرون لأنفسهم البر والبحر ، ونحن دون غيرنا من الخلق المسخرون فى البر والبحر ! .

الناس تخدم عقائدها ومبادئها بتفوق حضارى ساحق ، ونحن لا نزال نعالج قضايا

من مـخلفـات الاخـتـلاط الفـوضـوى بين الإسـلام قـديمـا وبين الأفكار الأرضـيـة الأخرى . . .

إن الخـلاف العـتيق بين السلف والخلف يجب تجـمـيـده وأن ننفض اليـدين من مباحثه فى الغيبيات والمتشابهات ، وأن نضعه فى «أرشيف» الذكريات المحزنة . .

وعلى العقل الإسلامى أن يرجع إلى توجيهات القرآن التى تبنى الإيمان على النظر فى الكون ، وتبنى نصرته على العمل فى هذا الكون وتطويعه لمثلنا الراشدة .

ألا يشعر المسلمون بالخجل عندما يقرءون قول الله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] فإذا غيـرهم يزحم الأمواج بأساطيله ، بينما نحن ندرس فلسفات نظرية بائدة عن الذات الإلهية ، ولايزال من رجال الدين عندنا من ينكر غزو الفضاء ، بل من ينكر دوران الأرض ! !

إن الأوروبيين رجعوا إلى أصول الفكر البشرى كما رسمها القرآن الكريم وإن كانوا لايؤمنون بالقرآن ، ونحن محصورون داخل دائرة المتشابه من الآيات لاندرى ما وراءه ، ولانحس بمطارق الاسـتـعـمـار تقرع الأبواب بعنف ، وتوشك أن تنسف المـسـجـد الأقصى وسائر المقدسات !

يا قومنا ! أفيقوا من هذه الغيبوبة ، وعودوا إلى فهم الحياة الصحيحة من كتابكم وما أحكم الله فيـه من توجيـهـات . . . عـودوا قـبل أن تستـيـقظوا من نومكم على دبابات العدو تزلزل الأرض أو صواريخه تنقض من السماء .

* * *

(١) سورة الجاثية : ١٢ .

صرخة من ميدان الجهاد فى أفغانستان[1]

سمعت شكاة مفعمة بالألم والوجل من إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ! إنهم يستقبلون شتاءً مزعجا فى أرجاء تهبط فيها الحرارة دون درجة الصفر ، وهم فى مرابضهم أمام العدو يريدون الاحتفاظ بالأرض التى حرروها ، وكيف يستطيعون الثبات وهم محتاجون إلى الصوف والفراء وأسباب الدفء ؟

ولو تراجعوا إلى القرى وراءهم التماس النجاة من البرد تقدم الشيوعيون إلى الأماكن التى خلت منهم ، واستولوا عليها غنيمة باردة ، وهم ما كسبوها إلا بدماء أعز الشهداء !

ترى هل يمدهم المسلمون بالخيام والبطاطين والثياب الواقية ؟ !

وهم بحاجة ملحة إلى أسلحة وذخائر أخرى ، ففى هذا العام وصلتهم عدة مئات من الأطنان ، وذاك عشر ما وصلهم فى العام السابق أو أقل ، مع أن القتال الذى يخوضونه يتطلب أنواعا حديثة من الأسلحة تمكنهم من اقتحام الحصون و إحكام الحصار ومقاومة الطائرات والصواريخ . .

إنهم عاجزون عن دفع أجرة البغال والحمير التى تحمل إليهم أمتعتهم وأسلحتهم ! أما وراء الجبهة الشيوعية فإن الطائرات الروسية تقوم بآلاف الطلعات حاملة أنواع العتاد والمؤن لجيش الحكومة الحمراء .

الحق أن الجهاد الإسلامى فى أقطاره المترامية لايشتبك مع قوى متكافئة ، أو قوى ترجحه بنسبة معقولة ، كلا . . إن الشباب المؤمن المحتسب المتعشق للدار الآخرة يراد منه أن يصارع ببندقيته الدبابات من طراز ثقيل ، وأن يصيب بمدفعه اليدوى أعتى الطائرات ! !

---

(١) لقد جاب الشيخ الغزالى البلاد الإسلامية يدعو للجهاد بكل ما ملكت الدول من أموال لمساندة المجاهدين الأفغان وقابل قادتهم ولم يترك جهدا فى تحريض المسلمين على القتال إلا وبذله .

وحسب القاعدين فى دورهم الآمنة أن يعلقوا بالكلام الغث على التقدم والتقهقر والنصر والهزيمة !

هل فكر هؤلاء فى أن شباب الإنتفاضة يقاومون بالحجارة عدوا يملك أفتك الأدوات ، إن المستوطنين اليهود يتعاونون مع المستوطنين البيض فى جنوب إفريقيا على إنتاج أسلحة ذرية جديدة ، وعلى تجربة مدافع بعيدة المدى تعبر قذائفها الآف الأميال ! !

هل يترك هذا الشباب المؤمن يلقى مصارعه كل يوم فردا بعد فرد ، وثلة بعد ثلة . .

إننى أناشد المسلمين فى أقطار الأرض أن يعيدوا النظر فى أساليب حياتهم ، وطرائق تفكيرهم ، وأن يتأكدوا من أن الدائرة ستدور عليهم حتما إن هم ظلوا على هذا البرود . .

إن الروس مع أزماتهم المالية أنفقوا فى حرب أفغانستان ٧٠ بليون دولار ! ومع ما يعانون من زلازل فهم باقون فى المعركة . .

واليهود فى تصديهم للجهاد الفلسطينى ينفقون مايثقل كاهلهم ، ويتعرضون لأزمات شتى مع هذا وذاك ، فيجب على أمتنا أن تصابر الليالى ، وأن تساند الشباب الذى يتعرض للحتوف وهو يكافح عن دينه وأرضه وشرفه وحاضره ومستقبله .

لابد من إعادة النظر فى الطريقة التى يعيش بها المسلمون فى أنحاء الدنيا مادام عدوهم مصرا على إنزال رايتهم ، وإسقاط رسالتهم وميراث أرضهم ، ودحرجتهم إلى الفناء أو العيش بلا دين .

* * *

الإلحاد الشيوعي يترنح..

عندما احتفلت روسيا بالذكرى الثالثة والسبعين لقيام الحكومة الحمراء ، وميلاد النظام الشيوعى ، كانت الدولة تستعرض قواتها فى الميدان الكبير ،لكن بضعة الآف من الناس كانوا فى جانب قصى من العاصمة يصيحون : السلطة للشعب لا للحزب !

إن هذه الآلاف القليلة كانت الترجمة الشجاعة لما استكن فى نفوس الملايين من كره للاستبداد الفردى ، ورغبة فى سيادة الحريات واستعادة ما فقد الناس من كرامة خلال عشرات السنين . .

أكثر من سبعين سنة عجز فيها الحمر عن اقناع الجماهير بسلامة مبادئهم وقدرتهم على الإصلاح فمحو كل إشارة للديمقراطية .

إن الحكم القيصرى كان سيئا بالغ السوء ! والتمرد عليه كان غضبة صادقة عارمة ، ولكن الشعوب لاتريد استبدال قيصر أحمر بقيصر أبيض إنها تريد جوا صحوا يحسن الفرد فيه أن يقول ما يعتقد دون توجس ، وأن يحاسب الحاكم على ما يصدر منه دون تهيب . .

أما أن يرتكب «ستالين» باسم الشعب من المآسى ما كان يعجز القيصر عن ارتكاب عشر معشاره فهذا هو العجب العاجب . .

فى ظل بعض النظم تذهب الجماهير فى غيبوبة طويلة ، وتعرض لضميرها وتفكيرها إغماءة فاجعة محزنة تقع خلالها مآسى مخزية . . وقد كان ألوف الأحرار فى السجون يوم كان المغنى فى القاهرة يقول للرئيس عبد الناصر :

يا فاتح باب الحرية ياريس ياكبير القلب . .

كان الحاكم المسيطر يفرض نفسه على أنه الشعب نفسه . .

وهكذا فعل حكام روسيا الحمر حتى جاء الزعيم الأخير للشيوعية ، وبدأ حركة تراجع عن شتى المقررات التى كانت مقدسة . . ورأينا كيف طارت حصون من ورق ،

وكيف أن المبادىء الحاكمة أمست كأوراق النقد التى ليس لها غطاء ، فهى لاتصلح للتعامل ، ولاتساوى من قيمتها الإسمية شيئا . .

والغريب أن الذين بلوا بالشيوعية بدءوا يتخلون عنها إلا فى الشرق العربى ، فلايزال هناك من يقول : عنزة ولو طارت . .

وأنا ممن يؤمنون بالحرية ويقدسون حقوق الإنسان ، فهل الذين يريدون فرض الإلحاد على الناس بالسلاح ، وبالقوانين الاستثنائية ، يحق لهم أن يذكروا اسم الشعب على ألسنتهم ! !

إن الشعوب مؤمنة بربها وفيِّة لدينها ، وهى تأبى أن تجعل زمامها إلا فى يد متوضئة ، ولدى عقل مؤمن وضمير يتقى الله ! فما معنى الصياح باسم الشعب حين يراد قهر الشعب و إذلاله ؟ !

أعلم أن بعض المتدينين ليس صورة حسنة لدينه ، لكن هؤلاء العجزة لن يساندهم أحد عندما ينكشف أمرهم ، وما ينكشف أمرهم إلا فى جو الحرية ، أما السياط فسترسخ مكانتهم وتجمع العامة عليهم !

إن التحرر من الاستبداد السياسى دعامة كل حضارة راشدة .

* * *

فظائع شنعاء فى إريتريا الإسلامية...

أكثر من ٨٥٪ من شعب إريتريا مسلم ، وقد خاض حربا قاسية ضد «هيلاسلاس» يوم كان يحكم الحبشة كى يسترد حقوقه الطبيعية ، وكنت أعرف هذه القيادات ، والتقيت ببعضها وهى تحمل أعباء الكفاح . . ثم وقع تحول غامض لايزال مبهما أمامى ، أمست به قيادة الثورة الإسلامية ، جبهة شعبية شيوعية ! ! وجاءتها الأسلحة والتوجيهات والمبادىء من الخارج ، فماذا حدث للشعب المسلم المعزول الضائع ؟

أنقل هذه الواقعة عن صحيفة القبس كما سجلها الأستاذ **فيصل الزامل** تحت عنوان الجبهة الشعبية :

خافت الأم الإريترية على ولدها خليفة ، عندما أحست بالسيارات تدخل القرية ، قالت :اجر يا خليفة . . اجر يابنى . . اهرب منهم . . سيأخذونك ويعلمونك كيف تقتل أخاك .

يقول خليفة : جريت وكنت ألهث من التعب ، وعندما اقتربت من مدينة « كسلا » ، قررت العودة لأرى أمى . . وصلت البيت . . ناديتها . . أمى . . أنا خليفة . . قومى افتحى . . لم ترد علىّ . . ذهبت إلى بيت خالتى . فنادانى زوج خالتى قائلا : تعال يا خليفة ، ربنا معاك . . لقد خطفوا أمك . . ! !

فى إريتريا تخطف النساء لتسعة أشهر . . فى خطة ، لتكوين جيل جديد يتم إنجابه سفاحا من المخطوفات ، وقد تم حتى الآن إنجاب ١٢٠٠ طفل وذلك بعد اختطاف ٦ آلاف فتاة إريترية مسلمة .

كشف الصحفى العربى شريف قنديل هذه الحقيقة المرة بعد أن تجول لسبعة أيام بين تلك القرى المنكوبة المحيطة بمدينة « كسلا » على الحدود مع إريترية .

فقد قررت الجبهة الشعبية هناك أن تشكل قوات « الكوكب الأحمر » . . وأنشأت لهذا الغرض معسكر « الورود الحمراء » ، حيث تجلب الأمهات والفتيات القادرات على الإنجاب لمجموعة من الجنود الذين وصفتهم إحدى العائدات من قرية . . وهى

ترتجف . . قائلة : هؤلاء يشربون الخمر ، وتخرج من أفواههم رغاوى تشبه ما يصدر عن الجمل ثم يهجمون على الفتيات المسلمات ، و . . . و . . . وبعد أن تحمل الفتاة وتنجب وهى تعرف مصير ما ستنتجه . . يتركونها ترضع المولود حوالى شهرين ثم يأخذونه إلى معسكر بذور الثورة حيث توجد مرضعات وخادمات ودادات ، وفى سن الرابعة يبدأ تعليمه كل شىء ليكون من أبناء الثورة .

لقد تابعت التحقيق الصحفى المنشور فى إحدى الصحف العربية بألم لما وصلت إليه أحوال الإنسان ، حيث انتشر خطف الأمهات بمعدل ٢٥ فتاة أو امرأة فى الشهر . . وقد تضمن التقرير أسماء فتيات التقى الصحفى العربى بأسرهن من قرية «عرا» وقرية «هبردا» وقرية «حبيب دامر» وقرية «رقة» وقرية «عد هارون» وقرية «دلك جنوب اغوردات» ولك أن تتخيل الدمار النفسى لأم تعود لأبنائها وزوجها بعد أن تترك مولود السفاح . . بأى وجه تلقاهم ؟ !

محمد إبراهيم لايترك زوجته تخرج من البيت ، ويعود من طلب الرزق كل يوم وهو يتوقع ألا يجدها . . فقد سمعت زوجته أحد رجال الجبهة الشعبية يقول لها : الدور عليك . . وبالفعل . . رجع ذات يوم فلم يجد ليلى ، فاتجه إليهم يركض ويصرخ ، فلم تمهله رشاشاتهم فتناثرت أشلاؤه . . ولم يستطع رجال القرية أن يعرفوا وجهه لكثرة الرصاص .

إنها مأساة . . أن يحدث كل هذا . . ومن بيننا من له كلمة مسموعة عند هذه . . (الشعبية) . . ولاتخرج من فمه كلمة تنقذ فتيات إريتريا من هذه البهيمية .

ماذا أقول بعد سرد هذه المخازى والمآسى ؟

وقرأت أخيرا أن هناك مفاوضات تحت إشراف دولى بين حكومة « أديس أبابا » وبين الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا ، والجبهة الشعبية لتحرير ، «تيجرى» ، الأولى فى كينيا ، والثانية فى إيطاليا ، لإقرار العلاقات وتخطيط المستقبل .

ترى ما مستقبل الإسلام فى شرق أفريقيا ؟ هل نهتم به أم لانزال صرعى الخلافات الفقهية والمآرب الشخصية ؟ ! !

* * *

وفاة مرتد محقور، مهما احتفلوا به ! !

عندما جاءنى نبأ وفاة «كاتب ياسين» قلت : إنه ما كان حيا قبل أن تدركه منيته ! وكل ما فعل الموت به أنه نقله من دار الغرور إلى دار الجزاء ، ولو كان الأمر إلىّ لأوصيت بدفنه فى فرنسا لا فى الجزائر ، فقد عاش يكتب بالفرنسية لا بالعربية ! ! أما علاقته بالإسلام فهى الكفر البواح !

وقد وجهت إليه ثلاثة أسئلة من إحدى دور النشر فى لندن ، فكانت إجابته على هذا النحو :

هل النظام السياسى فى الإسلام مرحلة حتمية يجب أن تمر بها الشعوب العربية فى طريق تطورها ؟ فقال : لا . . قطعا .

هل يجوز لدولة عصرية إعتماد الإسلام نظام حكم ؟ قال : لا أعتقد أبدا . .

وأخيرا سئل : من هو العدو الأول للإسلام فى هذه الأيام ؟

قال : هو الإسلام نفسه فى اعتقادى . . ! !

وظاهر من هذه الأقوال أن الرجل ارتد عن الإسلام ارتدادا ملأ أقطار نفسه ، كما تمتلىء قارورة الخمر من قاعها إلى عنقها بالرجس ، أو بالنجس .

وهو بيقين ممن تتناولهم الآية : « وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » [1] .

والرجل أدنى عندى من أن أتكلم عنه ، و إنما أردت أن أكشف مؤامرة بدأ تنفيذها بالنسبة له وسيتم تنفيذها بالنسبة لكل من يخدمون الغزو الثقافى ، ويحاربون الإسلام وأمته . .

إن إذاعة لندن نعت للعالم العربى الكاتب الكبير ، ونوهت بآثاره الأدبية ، ووعدت بذكر المزيد من مآثره وأياديه البيضاء ! !

(١) سورة البقرة : ٢١٧ .

وستتبعها إذاعات شتى من عواصم الشرق والغرب تحاول أن تعلى خسيسة الكاتب الكاره للإسلام والعروبة ، وأن تجعله من قادة الفكر المرموق !

ألم يؤلف كتابه الخسيس : «محمد . . خذ حقيبتك وارحل» ؟ ! !

ماذا يريد المبشرون والمستشرقون أكثر من ذلك ؟ ! وعندما يأخذ محمد ما جاء به ويذهب عن أرضه فمن يرثها . . . ؟ !

إن المسيح لن يرثها لأن موسى وعيسى إخوة لمحمد ولو كانوا أحياء مازادوا عن أن بلغوا رسالته وأكدوا دعوته ! إن الإلحاد هو الوارث الفذ لتراث الأنبياء كلهم ملخصا فى حقيبة التى لاتحتوى إلا الوحى الحق كما تنزل على المرسلين أجمعين .

إن « كاتب ياسين » وأشباهه من سماسرة الاستعمار الثقافى يجب أن نكشف خباياهم ، وأن نفضح حقائقهم حتى لايمضى الاستعمار العالمى فى خطته الآثمة ضد الإسلام وأمته . .

إننى أعرف أن ألقابا معينة تقرن بأسماء عدد من مروجى الثقافة الأوروبية المسمومة ، ومعها محاولات ملحة لفرض هؤلاء الخونة على أدبنا وفكرنا ، وأرى أنه قد آن الآوان لمنابذة هؤلاء الخائنين والتحذير منهم أحياء وأمواتا . .

إنهم كما جاء فى الحديث من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ولكنهم دعاة على أبواب جهنم ، من استجاب إليهم قذفوه فيها !

فليذهبوا إليها وحدهم .

* * *

الأنظمة التى تحارب الله ورسوله..

سياسة تمويت الإسلام تمضى إلى غايته دون ضجيج ! فرئيس وزراء تركيا يصرخ من إذاعة شاكيا اضهاد البلغار لقومه ! لقد هرب خلال الأسبوعين الأخيرين فقط عشرون ألف تركى ، مخلفين أرضهم ودورهم طالبين النجاة بأنفسهم !

ممن يهربون ؟ إن بلغاريا قررت إرغام المسلمين على ترك عقائدهم وتغيير أسمائهم وأسماء آبائهم حتى الجد السابع ، فلايبقى هناك شىء يدل على إسلام فى الحاضر أو فى الماضى . .

إن الإحتلال التركى القديم جعل هؤلاء مسلمين ، وقد زال فليزولوا معه!!

ولما كانت تركيا قد تحولت رسميا إلى العلمانية ، فقد صورت النزاع خصومة بين قوميتين وبهذه السياسة يطحن أكثر من مليونى مسلم فى صمت ، ويستمر الارتداد الجماعى وسط ضحك الأعداء .

وتابعت استنكار الولايات المتحدة لقمع التظاهرات الطلابية فى الصين ، وبكاء زعمائها على حقوق الإنسان وطيش الحكام الشيوعيين فى مطاردة الأحرار !

هذا شىء حسن ، هو غيرة مشكورة على الحريات المهدرة والدماء المسفوحة لكن ذلك وقع بعد ساعات من اعتراضها على مجلس الأمن وهو يلوم إسرائيل على ذبح الفلسطينيين ، واستباحة كل حق ، وهدم الدور وتشريد سكانها . .!!

ما الفرق ؟ ! ولم السكوت هنا والصياح هناك ؟ ! لاريب أن الدعم العربى أخف وزنا وأحقر شأنا !

والبعثيون العرب فى سوريا علمانيون ، وما سمع عنهم أحد حنينا إلى الإسلام ، وهم إذا انتصروا فى لبنان فسوف يقيمون حكما عربيا بحتا ! ولكن هناك سياسة أخرى يراها العالم أولى بالمؤازرة والتأييد هى تمكين الموارنة من ناحية السلطة لأنهم يرنون بأبصارهم إلى أوروبا ، ويحلون الفرنسية مكان العربية ، والأحد مكان الجمعة ، إن الحياد بين الأديان هنا جريمة وطنية وحركة رجعية . . ! !

والواجب هو سحق الحركات العربية ، وإخراج الجيوش الأجنبية من أرض لبنان . .

وكان « حبيب بورقيبة » من سماسرة الاستعمار الثقافى فى المغرب العربى ، بيد أنه كان أشد صفاقة من زملائه المشارقة ، ما عرف طريقا إلى مسجد ! ولا اكترث بحرمة لرمضان ، بل كان يدعو إلى إفطاره علانية مخافة أن يتعطل الإنتاج فى المصانع الذرية التى أقامها بتونس لزيت الزيتون ، والجنون فنون !

ونشأ عن هذا المسلك قيام جماعات شعبية كبيرة تريد توفير الاحترام لدينها ، والحكم به ! وما العجب فى ذلك ؟ !

وأطاح القدر بالرجل الماجن ، وحل مكانه رئيس[1] عاقل أملنا فيه الخير ، ولانزال !

وقد بلغتنا من تونس أنباء مريبة ترددنا فى تصديقها ، ونرجو أن تكون كاذبة ، فقد قيل : إن هناك سياسة لجعل الفرنسية اللغة الأولى ! ولإضعاف الثقافة الإسلامية ، ومنع الكتب والصحف المشرقية من دخول البلاد ، حتى تجفّ منابع الدين واللغة بين الأجيال الجديدة ! !

نحن نعرف ما تبيته الصليبية العالمية لحاضرنا ومستقبلنا ، ونعرف المسارب الخفية التى تسلكها لبلوغ أهدافها ، وإذا كانت السنوات العجاف قد آذتنا ، فإن الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ، ولايجوز أن نرخص مواريثنا لمحنة عارضة ، أو سراب خداع .

* * *

(١) على زين العابدين .

الارتداد.. والخيانة العظمى

قال لى صحفى أمريكى : ما الخط الفاصل بين الحرية الدينية أو حرية الارتداد كما نفهمها ، وبين حماية الدعوة أو الدولة أو الجماعة الإسلامية كما تذكر ؟

قلت : إنكم تعرفون هذا الخط جيدا فى حياتكم الديمقراطية ، فقد حكمتم بالقتل صعقا على الكرسى الكهربائى على بعض علماء الذرة الذين كشفوا أسرارها لخصوم أمريكا ، عددتموهم خونة ، ولم تشفع لهم ضمانات الحرية فى النظام الديمقراطى ! .

وكسر الاحتكار الذرى هو المخرج الوحيد من حرب الإبادة التى يقدر عليها مالك القنبلة الذرية ، إن الولايات المتحدة قهرت اليابان واحتلت أرضها بعدما دمرت لها مدينتين وأهلكت نحو مليون نفس . .

فإذا رأى بعض علماء الذرة إشاعة السلاح النووى فإن استعماله سيبطل مخافة الثأر المنتظر ، أى أن الرعب النووى سيوقف الحرب الذرية !

ولكن القضاء الأمريكى اعتبر هذا المنطق خيانة أو ارتدادا وقرر قتل العالم الذى أفشى السر! كان يريد أن يحتكر هذا السلاح لنفسه حتى يملى على الدنيا إرادته . .

والذى يحدث الآن فى العالم الإسلامى أبعد شىء عن الحريات كلها ، إن الخطة موضوعة لتحويله عن الإسلام طوعا أو كرها . .

وعندما قسمت أفريقيا إلى أكثر من خمسين دولة روعى فى التقسيم الماكر أن توضع أقطار مسلمة بين أخرى وثنية تساويها عددا أو تفوقها ثم تتولى إدارة هذا الكيان قلة صنعها التبشير الغربى فإذا المسلمون فى الجهاز الإدارى صفر ، ربما كان منهم الكناسون والبوابون . .!

وإذا الجهاز التعليمى يخضع لنفر من الكرادلة المدربين المتخصصين فى تجهيل المسلمين أو تنصيرهم .

أما الاقتصاد فقد قام على دحرجة الفلاحين المسلمين من الأرض الخصبة إلى الأرض الجدبة ، وعلى جعل الحرف والصناعات فى أيدى الآخرين . .

وعندما تعجز السياسة المدنية تظهر القوة العسكرية لقهر المسلمين على الخضوع ، فإما بادوا - كما حدث فى زنجبار - أو خضعوا للمؤامرات التبشيرية المحكمة . .

ولا بأس أن يقع ذلك كله فى إطار ديمقراطى متقدم تباركه الدول الكبرى وتتعامل معه باحترام . .

وعلى هذا المحور دارت سياسة الارتداد عن الإسلام فى وسط أفريقيا وأطرافها ، وفى جنوب آسيا خصوصا أندونيسيا والفلبين . . ! !

فهل مطلوب من علماء الإسلام أن يقروا هذه السياسات الجائرة الماكرة وأن يرفضوا آثارها باسم الحرية ؟ أين هذه الحرية المزعومة ؟ !

وهناك محاولات خبيثة لفصل جنوب السودان عن شماله ، وذلك لإقامة دولة صليبية به ! ومسلمو الجنوب يساوون فى العدد نصاراه ، لكن الخطة موضوعة لتذويبهم فى صمت ، وعدم الإعتراف بوجودهم وحقوقهم !

فإذا قامت هذه الدويلة ومن ورائها الاستعمار العالمى فستخمد أنفاس الوثنية والإسلام معا خلال عشر سنين ، وستختنق الجماعات الإسلامية المبعثرة فى ست دول لا حول لها ولا طول وسيتم الفصل بين أفريقيا السوداء ، وبين أفريقيا العربية المسلمة فى الشمال وسوف يستسلم المكافحون فى صمت وسط القارة لمصيرهم الكالح . .

وقد نجحت حرب الإحصاءات المزورة فى حجب أعداء المسلمين الحقيقية هنا وهناك ، وأعانت على ذلك صيحات العلمانية والقومية التى يدفع الإسلام وحده ثمنها ! !

فى أيام السلام لانواجه منافسة عادلة ، وفى أيام الخصام نواجه الضغائن والمطاعن والمهالك فأين هى حرية التدين ؟ ! !

لقد تحرك حلف الأطلسى كله لحماية شخص نال من نبى الإسلام ، ولم يكتف بذلك بل ضم إليه السيد «جورباتشوف»[1] بعدما ضم إليه من قبل وثنيات آسيا وتلك هى الحرية المنشودة .

---

(١) رئيس روسيا وقتئذ .

العرب الذاهلون!!

نشرت الصحف ما قاله حاخام «إسرائيل» الأكبر عن عرب فلسطين ! لقد أكد ضرورة طردهم جميعا ، ثم أردف تصريحه بكلمة أخرى : إن كل إسرائيلى يعترف بأن للعرب حقوقا مشروعة فى أرض إسرائيل فهو خائن يجب على المجتمع اليهودى أن ينبذه !

وشرح الحاخام الأكبر ما يعنيه من الناحية الدينية قائلا : « إن لليهود حقوقا كاملة على أرض إسرائيل ، ولا مكان ـ من ناحية الشريعة ـ للحديث عن حقوق وطنية أو أية حقوق أخرى للعرب الفلسطينيين . . » !

ثم يورد نصا من التوراة يقول : « **من جاء لقتلك فقم واقتله** » ! ومضى فى حديثه يوصى شعب إسرائيل بالإجهاز على شباب الإنتفاضة : « . . إننى أوصى بطرد هؤلاء الذين يخوضون حربا بالحجارة والزجاجات الحارقة ضدنا ، أدعو إلى طردهم جميعا خارج أرض إسرائيل ، الأطفال والنساء والشيوخ . . » ! .

والواقع أن الحاخام الأكبر كان مترفقا فى كلامه ، ولم يذكر النصوص الحقيقية لطبيعة الحرب التى يشنها اليهود على عدوهم ، فإن هذه النصوص توصى بالإبادة العامة للكبار والصغار والرجال والنساء والزرع والضرع ، فلا يبقى أثر لحياة بين المهزومين من خصوم إسرائيل ، لابد أن يحصدهم الفناء فلايبقى لهم عينا ولا أثرا ، هكذا قال رب الجنود ، رب إسرائيل . ! !

وقد قرأتُ هذه النصوص من العهد القديم لطلابى فى كلية الشريعة بمكة المكرمة بيد أن عرب اليوم تائهون ، ويبدو أنهم لن يستفيقوا إلا على مصارعهم !

إن إسرائيل تمثل تجسيدا حيا للحقد على الناس كافة وعلى العرب خاصة ، ولن يرضى ضميرها الأسود إلا إذا قدمت غير اليهود قرابين لربها المتعطش إلى سفك الدماء . . .

والنصوص الموحية بذلك قائمة بين أيدى القوم ولكن العرب لايقرءون !

وإذا كان الحقد اليهودى سافرا فى صحائفه «المقدسة» فإن هناك حقدا آخر وضع على وجهه نقابا سميكا أو نقابا خادعا . .

لقد روى الجبرتى كيف نُثِرَتْ جثث بضعة عشر شابا من علماء الأزهر ، حول القلعة ، عندما احتل الفرنسيون القاهرة ، يقودهم ابن الثورة البكر «نابليون بونابرت» وكيف اقتحم الجامع الأزهر ، وربطت الخيل فى أعمدته ، وعاث الجنود فسادا فى صحنه . . وكيف ظلت النار تشتعل أربعة أسابيع فى امبابة حتى أتت عليها ، وأخمدت ثورتها التى كانت امتدادا لثورة القاهرة كلها على جيش الحرية والإخاء والمساواة . .!

أما الألوف المؤلفة من الجزائريين الذين جدّلتهم الثورة الكبرى ، والذين بلغوا فى آخر انتفاضة لهم مليونا ونصف من الشهداء فحدِّثْ ولا حرج !

بل إن طبيعة الثوار انكشفت فى معاملة بعضهم للبعض الآخر فقد حكم بالإعدام على بضعة عشر ألف متهم ، سيقوا إلى المقصلة لتفصل رءوسهم عن أجسامهم مما دعا « السيدة تاتشر » رئيس الحكومة الإنجليزية إلى وصفها بأنها ثورة الرعب والدم !

أما العرب المعاصرون فيقولون ثورة النور فى عاصمة النور !

ألم أقل لكم إن العرب لايقرءون ؟ !

إن علم التاريخ واحد من العلوم الخطيرة التى ظلمت فى ثقافتنا والتى انكمشت مساحتها فى وعينا حتى صرنا لانعرف أنفسنا ولانعرف غيرنا ، ومن ثغرات هذا الجهل تتسرب المهالك والعطوب .

* * *

هكذا يعمل خصومنا...

مع شعورنا بصدق الحديث الشريف : «الجماعة رحمة والفرقة عذاب » ! ومع ما بلوناه من عواقب الإسترخاء فى تنفيذ قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾(1)

مع ذلك كله فإن المسلمين بقوا أحزابا متخاصمة على حين يتجه من عداهم إلى التقارب والإندماج !

حدث نزاع بين الفاتيكان وبعض الأساقفة فى لغة العبادة : هل تكون اللاتينية أم اللغة المحلية ؟ وبدأ النزاع حادا وسرعان ما تدخل البابا مصرحا بأن وحدة الكنيسة لاتمس ، وقال : أننا ندعو الجميع للبقاء داخل الدار الأبوية ـ يعنى المسيحية الجامعة ـ ثم قال : هناك دارات خاصة كثيرة ـ لشتى المذاهب ـ لكن هذه الدارات فى نطاق البيت الكبير ، بيت الله ، الذى هو كنيسة المسيح فى العالم !

وذهب البابا إلى ما هو أبعد من ذلك فى توثيق العلاقات بين المذاهب النصرانية المتضاربة التى كانت إلى أمد قريب يكفر بعضها بعضا ، فأمست الآن وحدة متماسكة يصلى هؤلاء وراء أولئك دون نكير !

لم يحدث ذوبان يمحو الفوارق القائمة ، وإنما حدث تسامح يوحى بالإغضاء والتجاوز لمصلحة الوحدة الجامعة والقيم المشتركة (لوموند ١٩٨٨/٦/٣٠) .

وخطا «بابا الفاتيكان» خطوة أخرى فى أثناء زيارته الأخيرة للنمسا فعقد اجتماعًا فى مدينة «زالتبورغ» فى كنيسة المسيح حضره مندوبو ١٣ كنيسة تمثل المذاهب الكبرى ـ الكاثوليكية والبروتسنتية والأرثوذكسية ـ كما تمثل الفروع المهمة المتشعبة عنها ، وفى هذا الاجتماع استبعدت الخصومات المذهبية واستنكر ما وقع منها فى الماضى . .

(١) سورة الأنفال : ٤٦ .

ووقع شىء آخر عميق الدلالة بعيد الآماد ، فإن البابا زار المعبد اليهودى بروما منهيا مرحلة الجفوة بين اليهودية والنصرانية ومنوها بالتراث المشترك بين اليهود والنصارى (!) وقائلا : « إن اليهود والنصارى أمامهم أولا أن يضعوا معا مستقبلا جديدا للإنسان » ! !

ونسأل نحن : ما صورة هذا المستقبل ؟ إن اليهود مصرون على مطاردة العرب ، وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى ! هل سيقف الفاتيكان أمام رغبتهم أم يسارع فى هواهم ؟

لكنى أعود إلى نفسى ألومها على توجيه هذا السؤال ! إن التساؤل الحقيقى يقع داخل البيت الإسلامى الكبير الذى تندلع نيران الخلاف فى جنباته ، وترى ألسنتها من نوافذه . . إن المسلمين ينتحرون ! هل العقل الدينى عندنا أصيب بخبل ؟ أم غلب عليه الهوى فهو لايدرى : ما الطريق ؟ !

العراك على أشده بين مؤيدى « على » وأبنائه من ناحية وبين جمهرة المسلمين من ناحية أخرى بعدما استخرجت القضية من مقابر التاريخ ! والعراك على أشده كذلك بين دعاة السلفية وأتباع أبى الحسن الأشعرى ! !

شاهت الوجوه ! ! أما توقظنا الهزائم الموجعة المتتابعة ؟ ؟

* * *

ادرسوا الثغور التى نهاجم منها...

الميدان الذى نجاهد فيه ـ كى يسلم لنا ديننا وتراثنا ـ واسع جدا . .

إنه ذاهب فى الطول والعرض حتى ليشمل الحياة كلها ، ففى كل شبر مظنَّة هجوم إن لـم نكن أيقاظا لـه أخذنا من قبله . . . !

هذا يقول : الإسلام دين لا دولة !

وهذا يقول : الإسلام نظام أخلاقى عربى وليس نظاما اجتماعيا عالميا !

وهذا يقول : النصوص يجب إلغاؤها عند معارضتها للمصلحة العامة ـ أو الخاصة ـ وهذا يقول : ما صلح قديما لا يصلح للعصر الحاضر !

والغريب أن النغمة التى تسمعها فى غرب إفريقيا هى هى التى تسمعها فى شرق آسيا ، أهو تشابه فكر ؟ !

كلا بل هى وحدة المصدر الذى تهب منه رياح الفتنة ! ويجيىء منه الخطر على الإسلام وأهله !

وسمعت فى إذاعة عالمية كبيرة أن السودان مهدد بثلاثة أخطار : الفيضان ، والجراد ، والأصوليين الإسلاميين !

أى دعاة الحكم بما أنزل الله ، وإحياء النصوص التى أماتها الاستعمار العسكرى ويريد الغزو الثقافى أن يهيل التراب فوقها حتى لا يسمع بها أحد !

ثم ينطلق من قبل ومن بعد دعاة العلمانية الذى يختلون العامة والخاصة عن مبادئهم ومواريثهم فى الجامعات والمجامع والمجلات والكتب وبرامج الإذاعة وأنواع الفنون .

فلا يكاد أهل الحق ينجون من شرك حتى يلتف على أقدامهم شرك آخر !

إن ميدان الكفاح لاستنقاذ الإسلام وصون رسالته أضحى لا حدود له .

وقد استيقنت من أمر أريد شد الانتباه إليه .

إن تصور هذه المعركة الشرسة دون قيادة ماكرة وخطط مرسومة ضرب من الغفلة .

إن أعداء الإسلام يعرفون مايريدون ويسيرون إليه بتؤدة وحزم . .

لست أخاف حرب المواجهة وإنما أخاف حرب الاحتيال والاغتيال . .

فى ساحة العلم المجرَّد يجيىء جاسوس يعمل لأعداء أخفياء ، فيقول عن ديننا كلاما ما يستطيع أولئك الأخفياء أن يرددوه ! وذلك تحت عنوان البحث العلمى !

والجاسوسية فى العصر الحديث جندت أسماء لامعة ، وكبراء لهم وزن ، وقادة ذوى مناصب ، وصحافيين مرموقين . .

هؤلاء وأولئك يمكرون بأمتنا المسترسلة ويدسون لهم السم فى الدسم وينحرفون بها عن الصراط المستقيم خطوة خطوة ، ويصبحون ويمسون وهم يختلونها عن عقائدها وشرائعها . .

فلنأخذ حذرنا من جاسوسية العلم والإعلام ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[1] .

لقد انتهت حرب السيف والرمح ، وانتهت معها حرب السب الصريح للرسالة الخاتمة وبدأت حرب أخرى تقوم على الخديعة والمداهنة والتزوير والدوران فلنعرف كيف نقف .

* * *

(١) سورة الطارق : ١٥ : ١٧ .

تجارب نستفيدها لو صحّ الوعى

(١)

دخول جزيرة العرب كلها فى الإسلام جاء بعد جهود يعجز القادة العاديون عنها . وما كان ليقدر عليها أحد غير محمد عليه الصلاة والسلام ، جنوب الجزيرة وشمالها استعصيا قديما على دعوات الرسل لا عن قصور فى البلاغ ولكن عن رسوخ فى الضلال ، ومن هنا بادت ديار « عاد » ، وخربت أرض « سبأ » وهلكت « ثمود ومدين » وقرى « المؤتفكة » ، ونزل العقاب الإلهى بالجنوب والشمال على سواء . . .

ثم جاء إبراهيم وإسماعيل إلى مكة ، وبنيا الكعبة المشرفة لتكون حصنا للتوحيد ، غير أن الأوثان سرعان ما أحاطت بها ، وغرقت الجزيرة كلها فى الظلام . .

وهربت قبائل يهودية إلى الحجاز ، وإلى اليمن فماذا صنعت ؟ علمت الناس الربا والغدر والأثرة ! وانعقد صلح خسيس بين اليهودية والوثنية ! ودخلت النصرانية الأراضى العربية مع الاستعمار الرومانى والامتداد الحبشى ، فاشتد عود الشرك صلابة وزادت الفطرة الإنسانية عوجا .

وبقى العرب غرقى فى تلك الظلمات حتى طلع الشروق المحمدى ، فإذا كل ما فشلت فيه الرسالات الأولى يتحقق ، إذا عقيدة التوحيد تتحول إلى فيضان غامر يغسل الأرض من الوثنيات الدينية والإجتماعية على نحو لم يعرف من بدء الخلق . .

ولسنا نقول : إن محمدا عليه الصلاة والسلام نقل العرب فقط من الجاهلية إلى الإسلام فنجح حيث عجز غيره ، لا . . الأمر أكبر من ذلك !

لقد أدخل فى قلوب العرب مقادير من الإيمان تكفى لهداية سائر العالم أى لإخراج الناس كلهم من الظلمات إلى النور . .

ومن هنا كان الجهد لإنشاء أئمة لا لمجرد إحياء أمة ! كان الجهد لتكوين أطباء لا لشفاء مرضى وحسب .

وكان هذا الشعور يخامرنى وأنا أسمع الأذان فى تاريخ الدنيا من سابق إلى لاحق . .

على أن العرب كثيرا ما هبطوا عن المستوى المرسوم لهم ، فكانت القلة الراشدة تهذب الكثرة الفاسدة ، وتعود بها إلى الطريق . .

حدث ذلك بعد سقوط دولة الوثنية ، وتطهير مكة من الأصنام فقد استخفت الوثنية فى جحور خفية وحاولت بالأيمان الكاذبة والنيات المغشوشة والغدر المبيت أن تعرض الصباح الطالع ، فنزلت سورة براءة تخير المجرمين بين التوبة وبين ترك الجزيرة لعقيدة التوحيد ، وأمهلتهم أربعة شهور .

وحاول المرتدون أن يردوا الظلام بعد ذهاب ليله ، فقاتلهم أبو بكر حتى أخمد أنفاسهم وتحولت الجزيرة كلها دولة وأمة ـ إلى التوفُّر على البلاغ المبين . .

وبدأت حضارة جديدة ترث الأرض ، وتعلى قدر الإنسان ، وتحيى تعاليم السماء ، وتجعل الناس أنصار الله لا عبيد لأهوائهم .

فهل ظل العرب أوفياء لميراث محمد ؟ حملة لرسالاته ، وجسوراً لهداياته ؟ هل أمسوا شهداء على الناس كما كان الرسول شاهدا عليهم ؟ هذا سؤال نتريث فى الإجابة عليه .

* * *

تجارب نستفيدها لو صحّ الوعى

(٢)

قال لى باحث حائر : أحيانا أشعر بأن نظام الشورى والشعبية المفرطة التى صاحبت دولة الخلافة الراشدة كانت إصلاحاً سابقا لعصره !

قلت له : ماذا تعنى ؟

قال : إن العرب لم يقدروا هذا الكسب الرائع الذى انفردت به أرضهم ، ولم يحسنوا الدفاع عنه ، فجاءت مصارع الخلفاء الثلاثة على نحو قضى على أشرف حكم فى الدنيا يوم إذ !

فأجبت : إن الخلفاء الراشدين الأربعة كانوا يمثلون أبوة دينية ودنيوية للأمة جمعاء ، كانوا أساتذة يعلمون ، وأئمة يصلون ، وساسة يحكمون ، وأسوة حسنة يذكرون الناس برسول الله وهم يمشون فى سناه ويقتفون آثاره ! من الخطأ حسبانهم حكاما وحسب .

وقد أدوا واجبهم على النحو الأكمل فى استقبال القرآن وتوريثه للأجيال من بعدهم إلى قيام الساعة ! كما استبقَوْا الإسلام عقيدة وشريعة وتبيانا لكل شىء . .

وهناك أمر يجب إبرازه ، فقد اصطبغوا بالإسلام ظاهرا وباطنا وهم يقضون على الاستعمار العالمى ويدفنون القيصرية والكسروية ويهدمون السجون التى عاشت داخلها الجماهير العانية .

إن دولة الخلافة حمت العالم أجمع من إفك كثير وضلال كبير . .

قال : فهل يكون القتل نصيب عمر وعثمان وعلى قادة المسلمين بعد أبى بكر ؟ أهذا جزاؤهم ؟ !

قلت : لا أرتاب فى أن هناك خطأ وقع من جمهور العرب فى حماية رجالهم ! لقد زحف على المدينة كثير من الناس من أذناب القوى المهزومة ومن أتباع الوثنيات المدبرة ومن الحاقدين على زوال المستعمرات اليهودية بالحجاز . .

لقد تآمر أولئك جميعا على ضرب الدولة الجديدة ، واستغلال سذاجة العرب للنيل من قادة الدين الجديد ، أو بتعبير آخر ، من رؤساء الأمة التى خلقها الإسلام . .

كان أولئك الخلفاء الذين غيروا وجه العالم يمشون فى الطريق ، ويرتادون المساجد ، ويغشون الأسواق ، ليس مع أحدهم حارس !

والغريب أن عمر لما قتل حسبت قضيته عدوانا شخصيا من أحد المجرمين . .

ثم كان مقتل عثمان بعده مثيرا للدهشة ، فقد حاصر الرعاع داره كأن ليس بعاصمة الإسلام رجال شرطة يحفظون الأمن ويحرسون الحاكم !

وانتهت الصفحة الدامية بمقتل علىّ ، وظاهر أن المأساة الكبيرة تمت وفى خطة موضوعة ، ونفذت بدهاء لم يألفه فرسان الصحراء الذين لايعرفون الحرب إلا فى وضح النهار .

لقد هززت رأسى منكرا ، وأنا أقرأ أن الجنّ قتلوا سعد بن عبادة ، وقلت : متى اشتغلت الجنّ بالاغتيالات السياسية ؟ !

إن مقتل الرجل كان تدبيرا لفتنة تقع بين الأنصار والمهاجرين ! فتنة حاكها أعداء الإسلام ، فلما فشلت ، اتجهوا إلى الرأس الكبير إلى عمر نفسه !

إننى أحذر العرب اليوم من مؤامرات أعدائهم الذين يبغون استئصال شأفتهم ، إنها مؤامرات هائلة فهل يصحون ؟

* * *

رمتنى بدائها...!

كنت أستمع إلى إحدى الإذاعات العالمية ، فاستوقفنى تصريح لبابا الفاتيكان يلوم فيه السودان على موقفه من القلة النصرانية فى الجنوب ، ويتهم الكثرة المسلمة بأنها تفتات على مخالفيها وتفرض عليهم مايكرهون !

وقد استغربت هذا التصريح لأن مسلمى السودان ما فكروا قط فى مصادرة شعائر الآخرين أو خنق حرية العبادة أو التفرقة فى الحقوق والواجبات بين أتباع الأديان المختلفة !

ولو أنهم فعلوا شيئا من ذلك لتصديت لهم ، ولأيدت من يلومهم ، إنصافًا لدينى وإحقاقا للحق ، لكن الواقع غير ذلك فإن الذين شقوا عصا الطاعة فى جنوب السودان ظاهرتهم الشيوعية وأمدتهم بكل سلاح وتسترت على جرائمهم ! وسمعناهم نحن وهم يطلبون من السلطات الحاكمة أن تترك الإسلام ، وتهجر تعاليمه وتعلن حكما علمانيا لا علاقة له بدين !

وبديه أن يرفض المسلمون هذا الطلب ، ووضع الأديان فى الجنوب معروف فعشر السكان فى أرجائه مسيحيون والعشر الثانى مسلمون ، والبقية وثنية ، فبأى حق يريد الأقليون أن يجعلوا الحكم علمانيا مبتوت العلاقة بالإسلام ؟!وماذا يضيرهم وقد استمتعوا بحريتهم الدينية كاملة أن يتمسك المسلمون بعقائدهم وشرائعهم ؟ وأن يصطبغوا بها شعبيا ورسميا ؟

هل يوصف هذا الموقف بأنه عدوان على الغير يستحق اللوم ؟ !

لقد قرأت بدقة الخطاب اللبق الذى ألقاه سيد الفاتيكان فى المغرب بين عشرين ألف طالب وطالبة جمعوا له ـ وهم جميعا مسلمون ـ لقد جاء فى هذا الخطاب : « **إن الصراحة تقتضى أن نعترف بتبايناتنا وأن نحترمها ، وأن أهم هذه التباينات هى نظرتنا إلى شخص سيدنا يسوع الناصرى وعمله ، إنكم تعلمون أن سيدنا يسوع**

المسيح فى إعتقادنا هو الذى يدخل المسيحيين فى معرفة حميمة للذات الإلهية تفوق كل إدراك بشرى . .

ثم يقول : « لذلك يشهدون ويقرون بأنه هو الرب المخلص» . ويقول : «إنها لتباينات من الأهمية بمكان يمكن قبولها بتواضع واحترام وبروح التسامح المتبادل » .

ونقول نحن : إن المسلمين منذ ظهور الإسلام وملكوا باسمه السلطة تركوا من شاء يعتقد ما شاء ، وقد رفض عمر بن الخطاب أن يصلى فى الكنيسة حتى تبقى ملكا لأهلها يقيمون فيها وحدهم شعائرهم ، وحتى لايجىء مسلم فيقول : هنا صلى عمر ، فلنصل مثله !

وكنا نريد من سيد الفاتيكان ـ وقد دعا إلى احترام التباينات بين الأديان ـ أن يدع مسلمى السودان يتمسكون بكتابهم وينفذون أحكامه ! وأن يقول للثائرين فى الجنوب وهم قلة ضئيلة : ألقوا السلاح وامرحوا فى بحبوحة الحرية المتاحة لكم فهى خير من حكم شيوعى . . . !

* * *

اليهود مع التوراة
فهل العرب مع القرآن؟

إذا استوحش أهل الحق ومشوا على الأرض يشعرون بالعزلة والكآبة فهم معذورون ، إن المتأمل المتعمق فى أحوال الناس يشعر بأن الجمهرة الكبرى من الخلق تسيرهم الأوهام أو الأهواء ، وأن وراثات غبية ، وتقاليد طائشة ومآرب عاجلة ، وغرائز جامحة هى التى تمسك بالزمام وتنطلق إلى غاياتها دون دليل راشد ، حتى ليقول الرجل المخلص فى أسى : **إن قول الحق لم يدع لى صديقا** . !

ورميت ببصرى بعيدا عن بيئتى فماذا وجدت ؟ هناك أكثر من مليار وثنى يطوفون حول أصنامهم وأكثر من مليار شيوعى ينكرون الحقيقة الأولى فى العالم ، أعنى وجود الله ! أى أن برامج التعليم والإعلام فى دنيا الناس تشرف على تأسيس الكفر وتأييد الظلمة فى الشرق والغرب . . وذلك فى نصف العالم . .

أما أهل الكتاب من يهود ونصارى ومسلمين فإن أعدادا غفيرة منهم ينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1] .

وذلكم بين بقية المليارات الخمسة التى تسكن أرضنا !

فبم نصف الناس ؟ وبم نحكم عليهم ؟ ما أصدق قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾[2] .

لا أريد الحديث عن العقائد مع أنها لباب الحياة ومناط النجاة ، وإنما أتعرض للأعمال العامة التى يتصور البعض أن العقل قد ينفرد بفهمها والحكم فيها .

إن الناس فى هذا الميدان الثانوى يقترفون الخطايا ببرود ، ويرتكبون الدنايا بكبرياء ، ويجتاحون المستضعفين دون حرج . .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٦ . (٢) سورة الأنعام : ١١٦ .

شاهدت صورة رئيس الولايات المتحدة يراقص رئيسة وزراء إنجلترا فى حفل ساهر بهيج ! ثم سمعت تصريحات أولئك الساسة الكبار ، قبل الحفل وبعده ، عن قضية فلسطين .

فمن قائل إنهم لم يعترفوا صراحة بحق إسرائيل فى الحياة !

ومن قائل إنهم لم يقرروا ترك العنف !

ومن قائل إن طلب نصف فلسطين شىء سابق لأوانه ! الخ .

أما فى الجبهة العربية فالصيحة المعلنة أن الدولة المقترحة علمانية يستوى فيها الهلال والصليب والكفر بالهلال والصليب معا !

ثم رأيت علامة النصر الإنجليزية التى كان يرفعها «تشرشل» ضد النازى ! ثم انشقت الحناجر بنشيد العودة إلى الوطن السليب . .

مساكين أولئك العرب اليتامى ! إنهم لم يعرفوا ولا يريدون أن يعرفوا أباهم الحقيقى الذى يناشدهم العودة إلى أحضانه !

أما بنو إسرائيل فهم يرددون أن إبراهيم أعطى يعقوب هذه الأرض المقدسة ، وهم وحدهم ورثتها .

كأن الله بعث رسله إقطاعيين ينهبون الأراضى ويورّثونها ذراريهم على امتداد القرون !

إن الحق مستوحش أعزل فمن يؤنس وحشته ؟ لست أدرى لماذا يبعد الإسلام عن قضية فلسطين ويبقى غيره ؟

* * *

فن الإدارة من الأعمال الصالحة!

قال لى خبير إقتصادى : إن الإدارة الحسنة ركن ركين فى إطراد التنمية ووفرة الإنتاج !

وإلى حسن الإدارة يرجع تفوق الحضارة الحديثة علينا فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ، إن هؤلاء الخواجات يستغلون الأوقات كلها فلا يضيعون لحظة ، ويستغلون المواهب كلها فلا يغمطون ذكاء ، ويحسنون التنسيق والترتيب والجمع بين المتجانسين وإتاحة المجال لذوى الأمزجة المتفردة فلا مكان للتنافر والتشاكى والتحاسد !

ومن هنا استخرجوا المعادن من بطون الثرى وحولوها إلى طاقات وآلات تزحم البر والجو .

وفى الحقول والحدائق حيث ورثنا الحرف الفلاحية من قديم سبقونا سبقا بعيدا فاستصلحوا الأرض السبخة وجعلوها تجود بالخيرات قناطيرة مقنطر ، وبقينا نحن راضيين بالنزر اليسير .

قلت : هذا حق ! وما ينكر منصف التفوق الإدارى لدى خصومنا فى شئونهم المدنية والعسكرية ، ولكن لتخلفنا أسبابا ينبغى أن تعرف فليس الداء عياء . .

إن النجاح الإدارى تكمن وراءه خصلتان سهلتان فكر واسع ، وحماس كامن ، وكلتا الخصلتين وليد شرعى للعقيدة المتأصلة التى تجعل صاحبها يواجه الحياة مقبلا غير مدبر مقتحما لايعرف الجبن والعجز . .

ويعلم الله أن العقيدة الإسلامية عندما تتصل بالنفس البشرية تهب لصاحبها الأمرين جميعا : سعة الفكر وشدة العزم .

وأسلافنا الأولون ما شانهم غباء أو تبلد ، وما أزرى بهم عجز ولا قصور ! كيف ؟ واليقين عندهم وليد عقل متألق جوَّاب بالآفاق فتَّاح للإغلاق ، ثم هو - إلى جانب

الفكر الذكى ـ حماس يسيح فى البر والبحر لاتنطفىء له شعلة ، ولاينكسر أمام عقبة . .

أما اليوم فللإيمان منطق عجب ، قارىء للقرآن لايعى منه حرفا فهو أحد الذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صما وعميانا ، أو مصلٍّ يقف فى الصف لايدرى أمام من يقف ؟ !

قيل لواحد من هؤلاء : متى تسوى حسابات دكانك ؟ قال : فى أثناء الصلاة ! !

وهو فى الدكان نصف نائم ، لاتكتمل يقظته إلا إذا شم رائحة طمع ، أو خداع مسترسل ، عندئذ يثب كالوحش على الفريسة ! ! .

أو مدير عمل يرى الإدارة استكمال وجاهة وإشباع غرور ، وإصدار أوامر واستقبال مداحين ! !

إن كل إيمان لايحرك العقل ، ولايوسع الآفاق لاخير فيه . .

وإن كل إيمان لايشعل المشاعر ويزرع البواعث ويفيد الإقدام لاخير فيه . .

وليس غريبا أن ينهزم ذلك الإيمان أمام عقائد أخرى أورثت أصحابها سعة المعرفة وسعة النشاط ، بل ليس غريبا أن ينهزم ذلك الإيمان أمام الفراغ النفسى الذى يسود الآن بين أمم ومذاهب سبقتنا فى أرجاء الدنيا لأنها أوسع منا خطى . . .

* * *

الكفر ملة واحدة، فهل المؤمنون صف واحد؟

غطتنى لجة من الفكر العميق بعد ما سمعت خطاب «جورباتشوف»[1] فى هيئة الأمم يدعو إلى السلام ويعلن عزم بلاده على تقليص أسلحتها فى أوروبا وآسيا ويطلب إبطال الحروب الكيماوية . . الخ .

قلت فى نفسى : إن مستقبل الدين كله مربوط بمسالك أهله وقدرتهم على التسامى أو رغبتهم فى الإسفاف !

إن أمر الدين يعلو ويمتد إذا التزم حملته الطهارة الاجتماعية والسياسية ، وصانوا دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، أما إذا انطلقوا معربدين شرقا وغربا ، فإذا الناس ستلقى أسماعها إلى أصحاب الفلسفات المادية الرافضة للوحى والملتصقة بتراب الأرض وحده ! !

إن القرآن الكريم استنكر بغضب سيرة ناس من أهل الكتاب الأولين يستحلون مخالفيهم فى العقيدة ، ويلتهمون حقوقهم ، ويحقرون عهودهم ، لماذا ؟ لأنهم لايرعون إلا أنفسهم ومآربهم ! ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

نعم إنها فتنة تطعن الدين فى صميمه أن يكون الملحد أنظف يدا وأدنى إلى الشرف من شخص يرتدى شارة الإيمان .

إن «جورباتشوف» لاينتمى إلى دين أو ينظر إلى المعركة الدائرة بين «أهل الكتب السماوية» كما يزعمون ، أعنى معركة فلسطين فلا يزداد إلا بعدا عن السماء ، ونشدانا للعدالة بعيدا عنها . . فالولايات المتحدة ـ المؤمنة ـ تشد أزر اليهود ـ المؤمنين ـ وهم يدوسون العرب ويخمدون أنفاسهم بكل وسيلة متاحة . .

---

(١) الرئيس الروسى وقتئذ .

(٢) سورة آل عمران : ٧٥ : ٧٦ .

إن مستقبل الدين كله فى خطر ـ كما قلت ـ إذا كان يهود أمريكا ونصاراها ينساقون وراء شهواتهم بعمى طامس ويتحركون لإنقاذ حوتين حبسهما الجليد فى القطب الشمالى ، ويجمدون كالحجارة أمام مصارع الصبية والعزل فى فلسطين !

ليتهم كانوا جامدين !

إن الولايات المتحدة اختارت أيام الحزن والحداد في الأرض المقدسة لتعلن استئناف إمداد اليهود بالقنابل العنقودية ، حتى إذا أصيب مجاهد بشظية ، تفجرت فى بدنه كله فأعجز الأطباء شفاؤه ، ولا بأس أن يقال لليهود عند تسلم هذه المهلكات : لاتستعملوها ضدالمدنيين !

إن التدين المزيف حريص على استكمال مظاهر النفاق كلها . . هل ننتظر من الأجيال الناشئة أن تحترم دينا ما إذا كان المتدينون على هذا الغرار الهابط . . سيشق الإلحاد طريقه ، وسيقول الكثيرون إن الدين عملة مزيفة تعتمد على رصيد كبير من الإفك والنفاق .

أما الإسلام ـ وأنا أحد دعاته ـ فالبحث يجرى عنه فى المدائن والقرى ، ويبدو أنه لا أمل اليوم فى العثور عليه إلا فى الصحف ، فهو حبر على ورق .

* * *

محور التنصير فى بلادنا...

طالما شكوت من أن الهجوم على الإسلام منظم والدفاع عنه مرتجل ! الهاجمون الجدد لهم قلب « بطرس الناسك » ومشاعره المشبوبة بيد أنهم أذكى منه عقلا وأوسع حيلة .

فتمويت الإسلام فى هذا العصر تدرس له خطط ، وتعقد له مؤتمرات ، ويعرض بدقة حساب الأرباح والخسائر ، ولاحرج من الاستعاضة بمشروع عن مشروع وبرجل عن رجل !

وقد لاحظ ذلك الأستاذ **محب الدين الخطيب** عندما كتب أوائل القرن الماضى يقول : « وقف شيخ من دعاة النصرانية فى آخر مؤتمر عقده البروتستانت قبل الحرب العالمية الأولى يقول لزملائه الدعاة : « لقد جربت الدعوة إلى النصرانية فى أرجاء كثيرة من ديار الإسلام ، وإن تجاربى تخولنى أن أعلن بينكم على رءوس الأشهاد أن الطريقة التى سرنا عليها إلى الآن لاتوصل إلى الغاية المنشودة ، فقد صرفنا من الوقت شيئا كثيرا وأنفقنا من الذهب قناطير مقنطرة ، وألفنا كتبا ورسائل وخطبنا ما شاء الله أن نخطب ! ومع ذلك فنحن لم ننقل من الإسلام إلى النصرانية إلا عاشقا بنى دينه الجديد على أساس الهوى أو نصابا سافلا لم يكن داخلا فى دينه من قبل حتى نعده قد خرج منه ! ولا محل لديننا فى قلبه حتى نقول : إنه دخل فيه ، ومع ذلك فالذين تنصروا لو بيعوا بالمزاد لايساوون ثمن أحذيتهم . . . الخ » .

وقرر كبير الدعاة أن الخطة المثلى هى إفساد المسلمين على دينهم وتوهين الروابط التى تصلهم به وخلق أجيال فارغة من عقائد الإسلام وتعاليمه ، وتشجيع حملة الأقلام الذين ينشرون الأدب الغث والمقالات الهابطة والذين يكتبون فى كل شىء إلا فى الإسلام وقضاياه ومطالبه .! وتبنى رجالاً يزورون التاريخ ويجعلون أمتهم دون ماض تستند إليه أو تراث تعتمد عليه . .

وتشجيع الإسلاميين المخرفين الذين تكمن فى دمائهم جراثيم البدع المفسدة

والانقسامات الهادمة وتشجيع «المفكرين» الذين يلمزون الإسلام ويغمزون أصوله وفروعه . . .!

ودفع العلمانيين من صدارة المجتمع ، ووضع مقاليد الأمور فى أيديهم ، وتدويخ المسلمين المخلصين وإقامة السدود فى وجوههم . . الخ .

وظاهر أن الأسلوب الجديد هو الذى تقرر اتباعه ، وإن لم يهجر الأسلوب الأول هجرًا تاما . . ولعل أخطر شىء فى الحملة على الإسلام رفض الانتماء له محليا وعالميا ، وقد راقبت باحتقار شديد الجهود التى تبذل لإبعاد الإسلام عن الإنتفاضة الفلسطينية الأخيرة ، مع أنه باعثها وموقد جذوتها ، ومع أن اليهود يصرخون بالولاء لدينهم والإنتماء إليه وصبغ أرض «الميعاد» بصبغته ! !

* * *

محنة أندونيسيا أمام هجمات التنصير..

نقلت مجلة «لواء الإسلام» عن وكالات الأنباء أن أسلوب التنصير العلنى فى أندونيسيا دخل فى طور لم يسبق له مثيل، فقد بلغ نفوذه إلى مكتب لتسجيل المواليد، زوّرت فيه ديانات الأطفال، وأثبتوا فى الدفاتر على أنهم نصارى لامسلمون!

وقع ذلك فى مكتب بمدينة «لهوكسمارى» شمالىّ « سومطرا » حيث كتب أمام كل مولود جديد أنه نصرانى !

وقد اندلعت المظاهرات الصاخبة استنكارا لهذا السلوك الخبيث، واقتحم المتظاهرون المكتب مطالبين بإحراق الدفاتر المزورة، ورجموا المكتب بالحجارة، واضطرت قوات الأمن للتدخل انقاذاً للموظفين الذين بقوا محاصرين داخله مدة يومين . .

ومع هذا الخبر المحزن كان هناك خبر آخر أشد منه إحزانا ! فقد ذكرت مجلة الجهاد الأفغانية أن سبعين مؤسسة صليبية طلبت من حكومة المجاهدين الأفغان السماح لها بالعمل داخل أفغانستان، وأن ١٩ مؤسسة منها اجتمع مندوبها بالفعل مع « صدر الدين أغاخان » لتنسيق العمل، والاستعداد للمرحلة القادمة، مرحلة ما بعد سقوط نظام «كابول» .

أى أن الصليبية تريد أن ترث الشيوعية بعد هزيمتها ! والعفاء على دماء الضحايا ورفات الشهداء، وجهود المسلمين فى المشارق والمغارب لنصرة إخوانهم المحروبين !

وأنا خبير بما سوف يفعله دعاة النصرانية، إنهم يدخلون فى صمت القرى المنكوبة ويتجهون إلى البيوت التى قتل أربابها، باحثين عن اليتامى والأرامل، فيبنون الملاجىء التى تتعهد اليتامى بالتربية والتعليم، ويرسلون إلى الأرامل ما يتطلعون إليه من ملابس وأغذية، وينتظرون فى صبر وأمل نتائج هذه السياسة البانية الحانية، وهى نتائج تسودّ لها وجوه الموحدين !

فماذا يصنع دعاة الإسلام مع هذه المآسى ؟ أهداهم طريقة يذهب إلى أحد المساجد ليذكر الحديث المشهور : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » أو الحديث الآخر : « أنا وكافل اليتيم كهاتين . مشيرا بالسبابة والوسطى » .

ولايفكر فى تحويل خطبته إلى مشروع علمى وخطة واقعية .

أما النوع الآخر من الدعاة ـ وهم كثيرون ـ فيقولون : الأفغانيون أحناف مبتدعون ، وهم عندما يصلون لايرفعون أيديهم قبل الركوع ولابعده ! فالجهاد فيهم واجب حتى يحملون على السُنة حملا !

وهنا تندلع حرب أخرى بعد انتهاء الحرب مع الشيوعية ! ربما ضاع مستقبل الإسلام كله فيها !

ألا يستيقظ أولو الألباب لحماية الأمة من هذا الخراب ؟ إن الدعاة الجهلة لايقلون شرا عن المبشرين !!

* * *

توبة سياسى أعجمى ! .. هل نقتدى ؟ !

سمعت من إذاعة لندن ما فعله رئيس كوريا الجنوبية السابق بعدما أقتيد إلى السجن تلبية لأمر الجماهير الغاضبة ، قالت الإذاعة : إنه وقف أمام عدسات التلفاز ، واعترف بما اقترف من آثام خلال فترة حكمه ، وصرح بأنه يشعر بالأسف والندم على ما وقع منه ! وأنه يقدم أرضه التى يملكها وبيته الذى يسكنه ، وعشرين مليون دولار فى حوزته كفارة عما ارتكب خلال فترة حكمه . . . !

قالت الإذاعة : وبعد هذا الإعتذار الحىّ ترك العاصمة «سيول» إلى منفى بعيد يقضى فيه بقية عمره فريدا مجردا من المال والجاه . .

وربما هدأت هذه الخاتمة مشاعر السخط العام ، وأنهت سيل المظاهرات التى كانت تتجه إلى بيته طالبة رأسه .

* * *

أنصتُ إلى هذا النبأ وغمرتنى لجة من الأفكار والعواطف المهتاجة ! كنت أعلق بارتياب على نبوءة تزعم أن جنوب شرق آسيا سيقود الحضارة العالمية ، وأقول : ربما كانت هذه الشعوب قديرة على صنع بعض الأجهزة والأدوات والملابس التى يعجز العرب عنها ! أما أن تقود العالم بديانتها« البوذية» فلا !!

لكنى بعدما ترويت فى دلالات هذه القصة أخذت أراجع نفسى وأوازن بين شعوب وشعوب . .

فى عام ١٩٦٧ ذاقت مصر والعرب جميعا أحط هزيمة فى تاريخ الحروب ! ففى بضع ساعات فقدنا الضفة الغربية لنهر الأردن ، وفقدنا قطاع غزة ، وتحطم الأسطول الجوى كله ، ووقع الألوف من أنضر الشباب المقاتلين فى مصيدة رهيبة !

ووقف الزعيم الذى قاد المعركة يعتذر عما حدث ببغام لايقوله ذو عقل !

وانعقد مجلس الأمة فإذا أحد الأعضاء يرقص لأن الزعيم قرر البقاء فى الحكم !

وتحدثت الصحف عن أن الذى حدث ليس هزيمة لأن المراد كان القضاء على قيادة الثورة ، ولم يتحقق المراد بفضل رب العباد . . ! !

وسميت المخزاة الطامة نكسة !! وقيل للشيوخ : حدثوا الناس عن نكسة أُحد !! وهكذا أدخل الدين فى معركة يلطخ فيها بالأوحال ، ويسخر فيها لعبادة الأصنام !!

ومنذ عشرين سنة والعرب يحاولون استعادة الضفة والقطاع ، ولكن اليهود يعالنون العدو والصديق بأنهم لايتنازلون عما قدم إليهم غنيمة باردة . .

وتمضى الأيام العجاب على الأمة البائسة وهى أعجز من أن تقول لمخطىء أخطأت ، أو لسارق منصب دع ما اغتصبت !!

قلت : ليست هذه الأمم صناعة إسلامية ! بل ليست صناعة بوذية ! فإن الجماهير فى كوريا الجنوبية البوذية كانت أحمى أنفا وأشد بأسا ، نعم ، قد يقع فيها الإستبداد والقهر بيد أن عمرهما يكون قصيرا ، والعقاب عليهما يكون رادعا .

وتذكرت كلمة لسيد الأحرار ومربىٍّ الأبطال صاحب الرسالة الخاتمة يقول فيها : « إذا رأيتم أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم ، فقد تُودع منها » أى أنها تتهيأ للإنتقال إلى القبور فليست أهلا للحياة . .

هل توطنت حميات الإستبداد الفرعونى فى العالم الإسلامى كما توطنت ذبابات مرض النوم فى بعض المناطق الحارة ؟؟

فى دفع هذا البلاء ينبغى أن تتكاتف جهود ، وتتعاون همم .

* * *

كل شىء يدل على الله..

عندما انطلقت مركبة فضائية لاكتشاف المريخ لم أشعر بحفاوة ، فقد اعتبرت ذلك من نافلة العلم ، وقلت : إننا لم نستكمل بعد معرفة الأرض ومن عليها فلنعرف أولا ماحولنا . !

هل كان مبعث هذا الشعور أننى واحد من العالم الثالث الذى لم يدرس أرضه ولا سماءه؟ ربما .

لكننى أحسست شيئا من سعة العالم كله عندما عرفت أن المركبة لن تبلغ غايتها إلا بعد أزمنة مع أنها تندفع بسرعة كبيرة ودون عائق ، والمريخ عضو فى الأسرة الشمسية وهو أقرب توابع الشمس إلى الأرض . .

ثم صحا فكرى فتساءلت : ما قيمة هذه المسافة إذا قيست بالأبعاد السحيقة الفاصلة بيننا وبين دارات النجوم الأخرى ؟ إن علماء الفلك يذكرون أن فى الفضاء النائى عنا مجرات تزيد أعدادها على حبات الرمال حول شواطىء البحار والمحيطات !

الحق أنى شعرت بكلال عقلى وأنا أتصور جو السماء الذى تسبح فيه هذه الألوف المؤلفة من النجوم ! كيف تدور ؟ كيف تنتظم وتنسجم ؟ ما أحجامها وما إشعاعها ؟ ماذا فيها وماذا عليها ؟؟ ليكن الجواب ما يكون فلست أشك فى أن خالقها أوسع منها وأبدع ! نعم إذا كان هذا الكون كبيرا فالله أكبر .!

وعدت إلى عقلى أتابع النظر ، هل المؤمن بحاجة إلى سياحة فى السماء ليعرف ربه ؟ إن هذه المعرفة ميسورة له عن قرب ، فى الأرض التى يمشى عليها ، فى نفسه التى بين جنبيه!! قال تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠ : ٢١ .

قد يكون للأحجام الكبيرة أو للأعداد الكبيرة إيحاء صارخ ثم إن العدد ينطلق فى صعوده إلى غير نهاية ، أبدأ بواحد ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ الخ . إنك لن تقف عند رقم معين ستظل تحصى إلى آخر العمر !

قال لى عقلى : الأمر كذلك فى الجهة المقابلة عد وأنت نازل : $\frac{١}{٢}$ ، $\frac{١}{٤}$ ، $\frac{١}{٨}$ ، $\frac{١}{١٦}$ ، $\frac{١}{٣٢}$ . . الخ . إنك لن تبلغ كسرا تقف عنده . .

والعظمة الإلهية التى فى خلق الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب تروع كذلك وربما أكثر من ذلك فى خلق الجراثيم التى تجتمع ألوف مؤلفة منها على رأس مخيط . .

إن خلق الإنسان يبدأ من نطفة ، ويقول العلم الآن : إن فى النطفة مئات الملايين من الحيوانات المنوية التى يتخلق البشر من واحد منها فقط ، والباقى يذهب إلى دورة المياه ! ثم يقول العلم : إن فى هذا الحيوان تكمن خصائص الوراثة كلها ، وراثة الجنس ووراثة النوع فما هذه المورِّثات ؟ ما حجمها وما وزنها ؟؟

إن عصرنا الحاضر استخدم التلسكوب ليقرِّب البعيد واستخدم الميكروسكوب ليكبِّر الصغير ، والإبداع الإلهى يتجلى على سواء فى القريب والبعيد والصغير والكبير !!

ثم عدت إلى نفسى أقول : لم هذه السياحات فى أعلى وفى أدنى ؟ وما يتوقف الإيمان العادى عليها إن كل امرىء يأكل فلينظر من أين أتى طعامه ؟ «فلينظر الإنسان إلى طعامه . . . » .

الواقع أن منابع الإيمان ميسورة للدهماء وللعباقرة ، وما يكفر بالله إلا أحمق .

* * *

الدنيا الخادمة للحق... دين !!

ما معنى إيثار الآخرة على الدنيا ؟ هذا سؤال يسخر منه الماديون عبيد الحياة الذين يصبحون ويمسون لايعرفون إلا يومهم الحاضر أو غدهم القريب ، ولذلك يجيب الواحد منهم : لا أبدل موهوما بمحسوس ، وأرفض التفكير إلا فى الأرض وما عليها .

هذه إجابة عند أولى الألباب سيئة ، ولاعقبى لصاحبها إلا السقوط !

وهناك إجابة تبدو للناس صحيحة ، أو هى فى العرف الشائع إجابة سائر المؤمنين ، يقولون : الحياة الدنيا حقيرة ، وينبغى أن نمرق منها كما يمرق السهم لنصل إلى مستقرنا فى جنات عدن !

وأريد أن أقف طويلا عند هذه الإجابة ! ما معنى أن أعبر الحياة دون تعريج على شىء منها ؟ إن خالق هذه الحياة قال : اعرفوا أسمائى الحسنى وصفاتى العلا فى تضاعيف المكان والزمان وفى مسيرة الحياة والأحياء ! إنكم لن تعرفوا عظمتى إذا انطلقتم من المهد إلى اللحد عميانا عن آياتى فى الأرض والسماء وعن أقدارى فى الأفراد والأمم !

إنه أقسم بالشمس والقمر والليل والنهار والفجر والشفق والوالد والولد ، بل يقسم بما نبصر ومالا نبصر لأن رؤية السطوح لاتغنى عن رؤية الأعماق ، أقسم بالرياح عاصفة ولطيفة وبخيل المجاهدين يتطاير الشرر من تحت سنابكها وهى فى المعركة الأزليه بين الحق والباطل ، أقسم بهذا كله لنتعرف عليه ونعيش فى جوه ونفيد من عبره .

فكيف يقول : أنا عارف بالله مَنْ هو جاهل بالحياة وأسرارها وقواها وقواميسها ؟

إن بعض الناس يمر بالحياة كما يمر الكناسون بدكاكين الصاغة ، لاينظر إلى حلية أو زخرفة لأن الأمر لايعنيه ، أو كما يمر الفلاح الأجير بالسنابل الحافلة والثمار الطالعة فلا يفكر إلا فى أجرته وحسب !

عندما تساءل منكرو البعث : كيف يقع النشور ؟ جاءت إجابة القرآن الكريم على هذا النحو : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

السير فى الأرض لدراسة الحياة هو طريق الإيمان بالله ولقائه ، لابد من السباحة فى أمواج الحياة ، ومعرفة تياراتها ومداها وجزرها وشواطئها وأسباب الغرق والنجاة . .

ليست البلاهة إيمانا ولا الجهل صلاحا ، إن الخبرة بالحياة والقدرة على امتلاكها وتطويعها لخدمة ربها هى الإيمان والعمل الصالح . .

ما أحقر العقل الكليل والفكر القاصر والثقافة الضحلة ، إن هناك شعوبا تنتسب إلى القرآن لاتعرف أنه كتاب حياة لاتستفيد من الكون إلا ما يستفيده الضرير من أشعة الشمس ، وطالما التقيت بهؤلاء فى ميدان الدعوة فضاق بهم صدرى ، وأشفقت على الدين ومستقبله من جهلهم الطامس أو زهدهم البارد !!

قلت : لأمر ما كان الشاهدون بوحدانية الله هم الملائكة وأولو العلم .

* * *

(١) سورة العنكبوت : ١٩ : ٢٠ .

إلى أبطال الانتفاضة الفلسطينية
فى العام الأول

يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة ، حَيَّ الله كفاحكم ونضّر وجووهكم ! لقد أثبتم أن الإسلام كان ولايزال صانع الرجال ، وملهم المقاومة الباسلة ومقدم الشهداء العظام .

إن انتفاضتكم الأخيرة مسحت عن وجوهنا الخجل ، وأخرست المرتدين والخونة ، وأثبتت للعالم أن جذوة الإيمان لم تخمد ، وأن عزيمة الأبطال لم تضعف ، وأن كل هدوء يعقبه إعصار يلحق بالمعتدين الخزى والعار .

يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة ! إذا كانت اليهودية سلاح هجوم فليكن الإسلام سلاح دفاع ! احرصوا على انتمائكم الإسلامى وتشبثوا به فإن المعتدين يريدون اغتصاب الأرض والعرض والدين والدنيا جميعا ، وليس لنا إلا الإستمساك بديننا والتحصن بعقائده وفضائله ، والجهاد الطويل تحت رايته إلى أن يمن الله علينا بالحرية التى تكسر القيود وتغسل أرضنا من أدران اليهود وترد كيدهم إلى نحورهم .

نعم يجب أن نستخلص حقوقنا من إخوان القردة الذين استباحونا ونالوا منا وأخرجونا من ديارنا ، وحاولوا محو تاريخنا ورسالتنا ووجودنا كله . .

يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة . . اثبتوا فى مواقف الحراسة ، «اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا»[1] إن سلاحكم قليل على حين يملك اليهود أسلحة هائلة ، وتظاهرهم قوى الشر التى تعادى الإيمان والشرف وكذلك المؤامرات التى فقدت كل حيلة ، ليكن هذا كله فنحن نستند إلى الله القادر ، ونعتمد عليه فى هذا العراك المر ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[2] .

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ . (٢) سورة إبراهيم : ١٢ .

يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة . . لا تفقدوا روح المسجد وأنتم تواجهون العدوّ ! إن الجماعة من شعائر الإسلام فسوُّوا صفوفكم ، وسُدُّوا كل ثغرة ، ولاتتركوا فرصة للشيطان كى يفرق كلمتكم ويمزق وحدتكم . . الناس فى كل قطر يعرفون أن أعداءكم جبناء ، وأنهم « لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ »[1] وأنهم وراء الدروع والقنابل والقذائف الفتاكة يواجهون الفتيان الرامين بالحجارة ! ليكن اليوم لهم ، فالغد بإذن الله لنا ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] .

يا أبناءنا الأبطال فى فلسطين المجاهدة . . إن بعض الرؤساء العرب جبن عن متابعة الكفاح ، والبعض الآخر أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، لاتهولنكم هذه المواقف الجبانة وارفعوا راية الإسلام بقوة ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾[3] .

وفى أشد المواقف حرجا اعتصموا بالله وادعوه قائلين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[4] .

يا أبناءنا فى الأرض المسروقة من دار الإسلام قاوموا فمن بقى منكم ظفر بالنصر ، ومن مات ورث جنة عرضها السموات والأرض ، قاوموا والله معكم .

* * *

---

(١) سورة الحشر : ١٤ .
(٢) سورة آل عمران : ١٣٩ .
(٣) سورة النساء : ١٠٤ .
(٤) سورة آل عمران : ١٤٧ .

قيم الرجال والشعوب

المناصب لاتصنع العباقرة، والثروات لاتخلق الرجال، وقد يلى العبقرى منصبا ما فيزدان المنصب به ولايزدان هو بالمنصب! والثروة الطائلة بين أصابع الرجال أداة لفعل الخير وقضاء الحقوق وليست وسيلة لرفعة الخامل أو ستر السفيه!

زدت يقينا بهذه الحقيقة وأنا أرجع البصر بين حالة اليابان العلمية والمالية وأحوال أممنا فى الشرق الأوسط! إن تربة الأرض اليابانية ليس فيها شىء يقيم صناعة، لانفط ولا حديد! لا معادن ولا وقود! لكن المعدن النفسى للإنسان اليابانى تغلب على هذا الفقر.

لقد شرع يشترى النفط من الأقطار الغنية به، وأنواع المعادن التى يحتاج إليها فى صناعاته، وأخذ ينتج وينتج فإذا السلع اليابانية تغزو العالم القديم والجديد وإذا إتقانها ورخصها يغلبان سائر السلع حتى ضجت الأسواق الأخرى من هذا الغزو الإقتصادى، وقاومته بكل وسيلة...

يحدث ذلك كله والذين يملكون الأرض الغنية، والإمكانات المتاحة لايفعلون شيئا!

إن الأساس الأول لكل نهضة هو الإنسان، لا ما تحت قدمه، ولا ما فوق رأسه! ولذلك كان اتجاه الأنبياء منذ الأزل إلى النفس الإنسانية يغيرونها، ويصقلون معدنها ويعلمون ملكاتها فإذا تم لهم ذلك أطلقوها فى فجاج الأرض تصنع الخوارق، وتغزو المغارب والمشارق!!

ومازلت ألفت النظر إلى عبارة القرآن الكريم فى وصف الرسل العظام بأنهم أولو الأيدى والأبصار.

الإيمان عقل مؤمن، ولا وجود له إذا ضاع العقل، ويد مقتدرة ولا وجود له إذا انقطعت اليد! والجماهير الإسلامية إذا خف علمها ووهن إنتاجها لا يرفع الإسلام خسيستها.

وقد أزعجنى أن بعض المتنبئين يقولون : إن قيادة الحضارة ربما انتقل إلى الشرق الأقصى ، وجنوب آسيا !

قلت : ولماذا لا يعود كما بدأ إلى الشرق الأوسط وإلى الأمة العربية ؟ وكانت الإجابة محزنة أو مخزية ! نحن فى مضمار الإنتاج كسالى ، يصنع لنا غيرنا ولا نصنع نحن لأنفسنا !

وفى ميدان العلم كذلك نحن مستوردون لا مصدرون . !

وما السبب فى هذه المكانة المتخلفة ؟

السبب أننا نكترث بتزويق الظاهر ولا نهتم بدعم الباطن أو بتعبير أدق لا نعول على إصلاح النفس وتغييرها وإزاحة مابها من علل ، وكتابنا يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .

هكذا يعامل الإسلام وحده

كثيرون من الناس لم يكونوا يتصورون الحقد الصليبى على الإسلام بهذه الضراوة ! بعضهم ظن الإرتقاء العلمى قد خفف السخائم القديمة ! وبعضهم ظن المنافع الاقتصادية تصنع شيئا من التجاوز والسماحة .

وآخرون قالوا : إن فن الدبلوماسية فى العصر الحديث نقل العالم أجمع إلى مرحلة جديدة ردمت الفجوة بين الأديان المختلفة . . .

حتى وقف الغرب وقفته الأخيرة ضد نبوة محمد وينابيع الإسلام ، عندما احتضن رواية «آيات شيطانية» وبسط حمايته على صاحبها .

إنه حسر القناع عن وجهه ، أو طفحت كراهيته على نحو لم يستطع مقاومته . .

قد يقول البعض : إن كرامة المسيح قد أهينت من قبل ذلك ! وألفت رواية اتهم فيها بالشذوذ ! ونقول : إن الرواية منع تمثيلها وأحرقت دار السينما التى قامت بعرضها وأهيل التراب على الموضوع كله . .

وفى إنجلترا قد يسمح بنقد كلى أو جزئى لبعض المبادىء والهيئات ، ولكن نقد الملكة مستحيل ، ومن فعل ذلك نُبذ شعبيا ورسميا . .

على أن الرجس الذى صبه فى روايته كاتب آيات شيطانية بلغ حدا من الوساخة جعل أحد الصحافيين يقول : إن المؤلف جدير بأن يضرب بجميع النعال التى فى أقدام الناس ، على جميع المقاسات . .

وأولى بالإستنكار والشناعة الوزراء الكبار الذين تنادوا على شاطىء الأطلسى فى أوروبا وأمريكا بتأييد المؤلف واعتبار المحاماة عنه قضية قومية ، وغاية إنسانية .

إنه موقف فى الدرك الأسفل من السقوط ! وقد شعرت بمدى ما تنحط إليه البشرية من ضعة وهى تهاجم الإسلام وأمته بتلك الطريقة .

وشاء الله أنى كنت أستأنف تلاوة وردى من القرآن الكريم ، وأصداء الهجوم على

محمد تتردد فى نفسى ، فقرأت هذه الآيات ، التى تضمنت خمسة أوامر صادرة من الحى القيوم إلى النبى الخاتم محمد بن عبد الله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾[1]

هذه هى الآيات الشيطانية التى تلقاها محمد عن ربه !! فما تكون الآيات الإلهية الصحيحة ؟ ! ! إذا كان هذا وحى الشيطان فما يكون وحى الرحمن ؟ ! !

هل فى تاريخ الأحياء إنسان حارب الشيطان وضيق على وساوسه الخناق مثل ما فعل محمد ؟ هل وعى ضمير العالم سيرة لرجل وصل الليل بالنهار عبادة لله وكدحا فى سبيله ، وتقطيعا لأوصال الجاهلية وتثبيتا لمعالم الحق والخلق والعدل والفضل ، مثل النبى العربى المحمد ؟

هل بقى فى الدنيا تراث يحمل الوحى الأعلى ويستنقذ البشر من الحيرة والضياع غير تراثه ؟

إن كان القرآن آيات شيطانية فهل الآيات الإلهية هى التى تقدم الأنبياء زناة وقتله ، وتقدم الوحى طريقا إلى الشرك والعمى ؟

أهذا ما يريد ساسة الغرب أن نفهمه ؟ ! « أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ »[2] .

* * *

(١) سورة الزمر : ١١ : ١٥ .
(٢) سورة النحل : ٢٥ .

أين الوعى العربى ؟؟

عقدت هيئة الأمم جلسة لبحث الإنتفاضة الفلسطينية التى توشك أن تتم عامها ، وذلك بعد أن اشمأزت المشارق والمغارب من عدوان اليهود على الشعب البائس . .

لقد انتهكت حقوق الإنسان ، واستبيحت الدماء والأموال والأعراض ، وقد رأيت صور البيوت وهى تتحول إلى أنقاض بعد تهديمها ومرور الجرارات على بقاياها ، ورأيت صور النخيل وهى تهوى بسعفها وثمرها بعد قصم جذوعها ، وقابلت الرجال المطرودين من وطنهم السليب ، وسمعت بمقاتل الأطفال فى الثالثة والخامسة ، ودق عظام الشباب الذى يؤسر فى المظاهرات ، كما سمعت بالأحوال الوحشية التى يوضع فى جحيمها المعتقلون . .

إن بنى إسرائيل لا يبيِّتون لأهل فلسطين إلا السيف والنار والعار !

وقد اطلع أعضاء الهيئة على مائة وأربعين صفحة تصف ما ينزله اليهود بالعرب ، ثم قررت ١٣٠ دولة إدانة إسرائيل ، واستنكار خروجها على المواثيق الدولية . . وشذت دولة واحدة عن تجريم إسرائيل هى الولايات المتحدة ، وامتنعت ١٦ دولة من أصدقاء أمريكا عن التصويت ! !

لو كنت أمريكيا لشعرت بالخزى من موقف المندوب الأمريكى ، ولقلت لقومى : ما أنصفتم أنفسكم ولا أنصفتم أصدقاءكم من الدول العربية ، إن هذا الجوْر فى الحكم وهذه الخسّة فى ممالأة العدوان ستجعل أصدقاء أمريكا ييأسون من نزاهتها ، ويفكرون طويلا فى علاقاتهم بها . .

كان لى حديث مع نفر من عرب الخليج عن القوى العظمى فى العالم ، وعن المواقف الواجب منها فقيل لى : لقد تجاوزنا الروس لأن فلسفتهم المادية هى الكفر بالله والمرسلين ! أما أهل الكتاب فلهم مواريث سماوية تدنينا منهم . !

قلت : ليت الأوروبيين والأمريكيين يؤمنون برسالات موسى وعيسى ويصدقون بالله واليوم الآخر إن خصامنا معهم على هذا !

إنهم يعبدون الحياة الدنيا وحدها ، وينطلقون مسعورين وراء شهواتهم .

وليس للإستعمار دين إلا السلب والنهب وضروب التفرقة العنصرية والدينية . .

ولو كان للقوم علاقة بوحى ما صنعوا بنا الذين يصنعون . .

إننى أحفظ للشاعر القروى - وهو مسيحى مخلص صادق - قوله يناجى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام :

فـيـا حـمـلا وديعـا لـم يخلّـف

سـوانا فـى الورى حـمـلا وديعـا !!

أحـبـوا بعـضكم بعـضـا ، وعظنا

بهـا ذئبـا فـمـا نجّت قطيـعـا !!

فماذا يقول العرب الآن إذا تحول الصهاينة إلى ذئاب ، وتحول الأمريكان إلى أنصار للمفترسين . ؟ !

إننى أناشد شعب الولايات المتحدة أن يثوب إلى رشده ، وأن يوقظ ضميره النائم ، وأن يستغل قوته الحاضرة فى إقامة العدل وإحقاق الحق . . وأن يقف يوما ما فى المحافل الدولية مؤيدا عرب فلسطين وحقهم فى أرضهم ، وفى ردِّ العدوان النازل بهم ، ذلك خير له ! !

* * *

مع لجنة العفو !!

فى أحد مؤتمرات الدعوة قدم الدكتور المهندس مصطفى مؤمن اقتراحا بأن تقوم علاقة بين أجهزة الدعوة الإسلامية وبين لجنة العفو الدولية .

وقد أيدت هذا الاقتراح بحماس ، ودعوت لإقراره بيد أن التيار المعارض نجح فى طيه ! ولما رآنى بعضهم محزونا قال لى : لاتنس أن لجنة العفو هذه علمانية تطالب بإلغاء عقوبة الإعدام . . .

قلت : إن تعطيل القصاص غلط كبير لايدافع عنه عاقل ، بل إن إطالة حبل الحياة للمفسدين فى الأرض إفساد للحياة كلها وترويع للأبرياء ، ولو كان الأمر بيدى لحكمت بالموت على مغتصبى الأعراض وتجار المخدرات وقتلة النفوس بغير حق . .

وموقف لجنة العفو هنا لايقبل منها ، وإن كنت أذكر ضميمة لابد منها لشريعة القصاص عندنا ، فولى الدم يستطيع العفو ، وإذا تقدم أحد لترغيبه فيه جاز ذلك ، « **ومازاد الله أحداً بعفو إلا عزا** » وللدولة حقها المقرر فى حماية النظام والأمان بعد ذلك . .

ولا أحب أن أقف عند هذا الحكم الفرعى المعروف إنما يعنينى أمر آخر أهم !

إن لجنة العفو تستقصى أخبار المظلومين فى أرجاء الأرض ، وتمسك بتلابيب المجرمين ! وتصرخ بصوت يوقظ الغافلين طالبة وقف العدوان ، وحماية الضعفاء ، ولاتنس أن جمهرة المعذبين فى هذه الدنيا منا نحن المسلمين !!

قال : كيف ؟ قلت : إن المؤامرة على ضرب الإسلام تتبع نشاطه فى الميدان التشريعى والميدان الاقتصادى والميدان السياسى وتقاتله بضراوة ، وتدوس كل حقوق الإنسان فى هذه المجالات الخطيرة .

ذلك أن إسلام العبادات سوف يموت من تلقاء نفسه إذا استقرت الأوضاع للقوانين الأجنبية والإنحرافات المالية والمفاسد السياسية .

لن تطول الأيام التى يغلق المسجد بعدها أبوابه ; فإن تغير المجتمع حوله سوف يقضى عليه عاجلا أو آجلا . .

إن المشتغلين بالاقتصاد الإسلامى يذادون بوحشية عن ساحات العمل ، وكذلك المطالبون بإقامة حدود الله ، والمنادون بالانتماء الإسلامى ! إنهم يُعْتَبُرون رجعيين لاكرامة لهم ، وأفضل مكان لهم السجن حيث يلاقون صنوف التعذيب . .

ثم تجند أقلام المرتدين والمرتزقة وشيعة الإستعمار الغالب كى تحبذ ما يقع وتدفع عنه ، ولايسمع الناس أصواتا غيرها !! وربما لاذ بعض المتعبدين بالصمت مخافة أن يبطش به !!

فإذا تحركت لجنة العفو ، وغضبت للإنسانية المهيضة وهتكت الستار عن وجوه المجرمين فهى أولى بالله من الشياطين الخرس ، بل هى أحق بالحياة من أعداء الحياة الذين يستخفون وراء أشكال التدين ، وبينهم وبين التدين بُعْدَ المشرقين .

* * *

إيمان مغشوش
لا يحتوى إلا على الحقد العام

عندما فرّ اليهود من الاضطهاد الرومانى إلى شمال الحجاز كانوا يحملون فى حناياهم وفى سيرتهم تدينا جديرا بالتأمل ، كانوا يرون أنهم شعب الله المختار ، وأن سائر الأمم خلقت لخدمتهم وأن ما بأيديها من أموال هو حق اليهود الذى يجب أن يستردوه . . .

وإذا كان العرب فى جاهلية فلتبق هذه الجاهلية إلى الأبد ، فذلك أعون على بقاء بنى إسرائيل فى وضعهم العالى ، وأعون على بقاء الفروق بين الشعب المختار والعبيد المسخرين . .

ومن ثم لم يرتفع صوت يهودى بمحاربة الوثنية السائدة ، ولم ينطلق مبشراً بجنة أو منذرا بنار !

إن الدين عند القوم لون من الصلف الجنسى والاستغلال الخسيس للآخرين ! وإذا كانت هناك علل تؤذى الجيران الأقربين أو الأبعدين فليزيدوا هذه العلل ضراوة ، وليصدروا إليها مزيدا من الجراثيم التى توسع دائرة الفتك وأعداد الضحايا . .

ذلك ما صنع اليهود قبل البعثة ! عاشوا سعداء على متاعب العرب . وبنوا ثراءهم على بيع السلاح للفرقاء المتخاصمين ، حتى جاء الإسلام فمحا هذه الفوضى محوا ، ووطد سلطات الإيمان والخلق . .

وكأن التاريخ يعيد نفسه فى هذه الأيام النكدات ، فقد هجم اليهود على فلسطين ، وشرعوا يكيدون للعرب حولهم بأساليب أنكى مما صنع آباؤهم الأقدمون . .

وقد وضعوا ثلاثة أهداف لجعل الأجيال العربية الناشئة تشب وفيها قابلية الاستعمار والاستسلام لما يراد منها . .

أول هذه الثلاثة إضعاف الصحوة الإسلامية وتأليب القوى ضدها وإمداد خصومها بكل سلاح والثانى : نشر المخدرات وتيسير الحصول عليها للمدمنين ، واصطياد السذج لتذوقها ثم الوقوع فى براثنها والاتفاق مع المهربين من كل جنس لترويج بضائعهم فى الأسواق العربية عامة والمصرية خاصة .

وثالثة الأثافى : استجلاب فتيات يهوديات أو غير يهوديات يشتغلن بالبغاء ويعتبرون إغواء العرب سياسة قومية تحقق مصلحة إسرائيل العليا ، وتنشر مرض «الإيدز» بين طلاب اللهو والمجون من المصريين وغير المصريين ، وتخيف السائحين من القدوم إلى بلادنا !

هذه هى عاطفة التدين الراقى التى يكنها أبناء الله وأحباؤه لغيرهم من البشر !

وعندما تنتصر إسرائيل ويهدم المسجد الأقصى وينهض مكانه هيكل سليمان فإن رب إسرائيل سيحل فى الهيكل المقدس ليحكم العالم عن طريق شعبه المختار ، وعندئذ سيتبختر الصهيونى الغالب على أنقاض شعوب استهلكتها المخدرات والمسكرات ، واستنزفتها الأمراض السرية والعلنية لأنواع الشهوات وانهمك ساستها فى جدولة الديون تحت ضغط ما تعانى من أزمات .

* * *

هل العروبة المجردة تنصر فلسطين؟

لقيت صديقا قديما من قادة الإنتفاضة نفاه اليهود من فلسطين فهو يضرب فى أرض الله بعيدا عن الميدان الذى يهوى إليه فؤاده ، ويثمر فيه جهاده .

كانت على فمه وعينيه ابتسامة تجمع بين الجلد والكمد ذكرتنى بقول الشاعر يصف محزونا غريبا عن وطنه :

تبسَّم كَرْها ، واستبنت الذى به
من الحزَن البادى ، ومن شدَّة الوجد !

وعادت بنا الذكريات إلى أيام خلت كنا نخدم فيها الدعوة الإسلامية ، وكان يخطب الجمعة أحيانا فى مسجد بالجيزة عندما كنت أخطب فى مسجد عمرو بن العاص .

قلت له : ماذا فعل اليهود بك فى سجونهم ؟ فأبى أن يجيب !

قلت : أخائف أنت ؟ قال : لا أعرف الخوف ، إننى خجلان وحسب !

فلما رأى إلحاحى فى تعرف ما نزل به وبإخوانه قال : أذكر آخر ما سمعت من محقق يهودى معى قال لى : إننا خلال شهور الإنتفاضة قتلنا من العصاة المتمردين نحو مائتين !

إن مثل هذا العدد قتل فى أيام بين أتباع عرفات وأتباع أبى موسى !

وقبل ذلك قتل العرب منكم مئات ومئات فى حرب المخيمَّات التى دارت فى العام الماضى !

أما فى العام الذى سبقه فقد استحرّ القتل فيكم ، ودمِّرت عليكم مساكنكم فى «صبرا وشاتيلا» و«تل الزعتر» وأماكن أخرى .

وقد طاردكم إخوانكم العرب فى أرجاء لبنان حتى تلقفكم المصريون فى عرض البحر من ميناء طرابلس . .

قال : ومضى المحقق يصف مقاتلنا هنا وهناك حتى اسودَّ وجهى من الخزى ، وها أنت الآن تنكأ الجراح !

قلت : معذرة فقد نسيت علل أمتى حتى عادت أعراضها الدميمة أمام عينى !

لكأنه نزل فينا قوله تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ ﴾[1]

وبقيت ضميمة أخرى . . وأيدى المؤمنين بالعهد القديم !

إن عربا كثيرين كانوا من وراء مأساة فلسطين ، ولا زال أولئك العرب يتحدثون بفخر كبير عن العروبة وهم فى الوقت نفسه يسدون إلى اليهود أجل الخدمات ! ويُسَدِّدون إلى المجاهدين أحدّ الطعنات .

وتساءلت : ماذا قدم العفالقة لنصرة فلسطين؟ إن « ميشيل عفلق » جعل العلمانية أساس البعث العربى ، وأقصى العقيدة الإسلامية عن قلوب العرب وصفوفهم .

وهذا وحده نصف الهزيمة التى يصبو إليها اليهود !

ثم هاهو ذا يتابع كل تجمع فلسطينى لينقض دعائمه ، ويهوى بالمطارق عليه حتى يجعله هباء . .

إن مبادىء « ميشيل عفلق » كانت أشد على العرب من عدة حملات صليبية ناجحة ، فهل يستفيق العرب من غفلاتهم ؟

* * *

(١) سورة الحشر : ٢ .

الصليبية الحديثة تواصل زحفها المتقدم ...

أخشى أن ينسى العرب دينهم ، وأن ينسوا إخوان العقيدة المنتشرين فى المشارق والمغارب ، وأن يتجاهلوا قضاياهم وأحزانهم الكثيرة .!

إنهم إن فعلوا ذلك نسيهم الله ونسوا أنفسهم ومكنوا أعداءهم من أعناقهم ووقعوا فى فخاخ ماكرة نصبت لهم هنا وهناك . .

إن الأقليات الإسلامية فى العالم تزداد تعاسة وعزلة ، ولا أدرى لماذا لايكون لطلاب الحرية من هذه الأقليات المهضومة من يمثلها فى المجامع الإسلامية ، رسمية كانت أو شعبية ؟

حبذا لو كان فى الأزهر ، أو فى رابطة العالم الإسلامى قسم خاص لكل أقلية مهدرة الحقوق ، يدرس أحوالها ويتابع آمالها ويعلن ما يحاول الأعداء كتمانه ، ويكشف للعالم مايراد إتمامه فى الظلام .

لقد علمت بأن رئيسة الفلبين كانت تنوى إسداء خير للمسلمين هناك ، وأن تضع حداً لحرب قاسية خسر فيها المسلمون أموالا ورجالا ، وبقوا إلى الآن محروبين مكروبين ، ولكن الرئيسة خضعت لضغط المتعصبين من رجال الدين فبقيت الأمور تتدحرج من سيىء إلى أسوأ .

ومن نصف قرن والمسلمون هناك يطاردون إلى البقاع المجدبة ، ويحرمون حقوقهم الطبيعية ويحملون السلاح دفاعا عن عقائدهم وكراماتهم ، والناس من حولهم ينظرون غير مكترثين !

ومنذ أيام قرأت تحذيراً للمشير **عبد الرحمن سوار الذهب** كبير الأمناء فى منظمة الدعوة الإسلامية جاء فيه أن حملات التنصير فى وسط إفريقيا امتدت إلى المسلمين أنفسهم بعد أن كانت قاصرة على الوثنيين ، وأن الذى أعان على ذلك مايعانيه السكان من الجْفاف والجوع والضياع . .

ونبه المشير إلى أن جماهير الجياع فى الحبشة وإرتريا وغيرها من الأقطار المنكوبة هم من المسلمين ، وقد استغلت الحملات التنصيرية هذه الأوضاع لتحقيق مآربها ، متوسلة إلى ذلك بالقدرات المادية الهائلة التى تمتلكها . . !

وقال : إن أكثر من ٧٤ مجلة أسبوعية للتبشير تصدر فى إفريقيا وأن هناك ثمانية مليارات من الدولارات رصدت لحملات التنصير وحدها (!) وقد نجحت فى ضم ٩٠٠ ألف جدد إلى المسيحية ! ولم لا ؟ وهم لايجدون طعاما ولا شرابا . . ! !

أما الدعوة الإسلامية فلا عون لها ، ولامدد ! والظروف التى تعمل فيها شديدة التعقيد ، وقد اصطلحت الأضداد على خصومة الإسلام ، فلا تستغرب أن تجد الشيوعيين يساندون المبشرين على حرب الإسلام ، والصورة العامة لجنوب السودان تحتاج إلى وعى وتبين ويقظة . .

مرة أخرى أقول للعرب : لاتغرقوا فى خلافاتكم ، ولاتذهلوا عن رسالتكم ، إن مستقبلكم رهن عودتكم إلى الإسلام .

* * *

الثرثارون بالإسلام من غير عمل مثمر..

عندما أرى صاحب حرفة من الحرف المهمة عاجزا فى عمله ، أو فاشلا فى إتقانه أشعر بالأسى !

فإذا وجدت هذا العاجز الفاشل يتكلم فى الدين ، ويثرثر فى بعض القضايا الفقهية شعرت بالغضب !

ذلك أن التفيهق هنا ستارة لإخفاء التقصير و إ تقان التزوير !

ماذا على صاحب أية مهنة أن يعبد الله بإجادة مهنته ؟ وإبرازها فى أبهى صورة ؟

إن المهارة الفنية والإدارية عمل صالح كالصلاة والصيام ، ويستحيل أن تنهض أمة أو تنجح رسالة إلا إذا توفر لديها جيش من الفنيين والإداريين المهرة .

والذى يقدّم سلعته دميمة الصورة منقوصة الأطراف لايغنى عنه أن يذكر بعض الأحكام الفقهية !

فإن ذكر هذه الأحكام ليس دليل اكتمال ، بل قد يكون شقشقة لسان ، أو مداراة لنقص ، أو مطاولة للعلماء ، وكأنه يقول لهم : لستم أفضل منى فأنا أعرف ما تعرفون !

قد تقول : هذه دعوة لاحتكار العلم الدينى وحبسه على نفر مخصوصين ، والإسلام يأبى هذه الدعوة ، وليست لديه طائفة من الكهنة أو رجال الدين !

وأقول : إن الدعوة إلى التخصص غير الدعوة إلى الاحتكار ، وبلاء الأمة الإسلامية جاء من أنصاف متعلمين لايحسنون الفتوى ، ولا ينصفون الحقيقة ، ولايكملون الصورة ، ولايحسنون ضبط المقادير التى يشفى بها الداء ، ولاتحديد العلل التى يشكو منها المجتمع . وهم بهذه الجهالة يضرون ولاينفعون .

وقد كتب الراغب الأصفهانى ينهى عن التوسع فى تعليم أصحاب الحرف مالا يحتاجون إليه فى إجادة حرفهم ، ورأى تقوية إيمانهم بما ورد فى القرآن من ترغيب وترهيب ، وإبعادهم عن القضايا الخلافية ومصادر الشبهات !

قال الراغب : فإذا اضطربت نفس أحدهم لمقولة باطلة أو بدعة عارضة وتطلع إلى مزيد من الدرس والتمحيص اختبرناه ، فإن كان ذا فهم ثاقب وتصوّر صائب أعنَّاه بالشرح والتعمق حتى شفينا ما به .

وإن كان مريض القصد نزّاعا إلى الجدل والظهور وقفنا دون غرضه !

وقال الراغب : إننا يجب أن نُفرِّغ هؤلاء المحترفين والصناع إلى أعمالهم التى لاقيام للأمة إلا بها ، ويجب أن نحول بينهم وبين الشغب بعلم قليل وقلب مدخول . .

وقصّ علينا الراغب هذه القصة : سأل جاهل من هؤلاء حكيما عن مسألة دينية ، فأعرض عنه ولم يجبه !

فقال له السائل : أما سمعت قول الرسول : « **من سئل عن علم يعلمه فكتمه أُلجم بلجام من نار يوم القيامة** » ؟

قال الحكيم : بل سمعته ! أترك اللجام هاهنا واذهب ! فإن جاء من ينفعه علمى وكتمته فليلجمنى به !

الحقّ أن ناسا يتكلمون فى الإسلام يودّ الدين لو خرسوا فلم يُسمَعْ لهم صوت . .

والمحزن أنهم كثروا فى هذه الأيام الهزيلة ، حتى يكاد يتسع الخرق على الراقع . .

* * *

طبيعة وحشية للقدامى والمحدثين

خداع العناوين أمر بغيض حقا ، ويبدو أن الأوروبيين قديما وحديثا يتقنون هذا الفنّ من الخداع ، ويسيرون وراءه نحو أغراضهم .

فتحت «الدعوة إلى السلام» يستعدون للقتال ، ويتقنون صناعة الموت .

وتحت طلاء من المدنية يقترفون ألوان الهمجية ويثقلون كواهل الشعوب بالديون والآلام . .

منهم إلا فلول تشهد بما أصاب آباءهم من اضطهاد واستئصال . .

وفى الوقت الذى يخبىء القوم فيه مخالبهم وأظافيرهم خلف قفازات من حرير يصفون غيرهم بما هم منه براء !

فالمدافعون عن أرضهم وعرضهم إرهابيون .

والمسلمون ينشرون عقائدهم بالسيف !

والإسلام دين مادىّ يخدم الغرائز ! أما هم فأصحاب روحانية لانظير لها فى الماضى والحاضر . .

وتبحث عن هذه الروحانية المزعومة فلا تجدها إلا فى لياليهم الحمراء ، وحاناتهم الطافحة بالآثام . .

نقل الأستاذ عمر عبيد هذه الفقرات عن الكاتب الفرنسى «جوستاف لوبون» يصف أفاعيل الصليبيين عندما اجتاحوا بيت المقدس أواخر القرن الرابع الهجرى ، قال : **«كان قومنا يجوبون - كاللبؤات التى خطفت صغارها - الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، كانوا يذبحون الأطفال والشبان والشيوخ ويقطعونها إربا إربا .**

كانوا لايستَبْقُون إنسانا ، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة !

كانوا يقبضون على كل شيء يجدونه . ويبقرون بطون الموتى بحثا عن قطع ذهبية !

كانت جموعا تسيل كالأنهار خلال مدينة مغطاة بالجثث !

ثم أحضر «بوهيموند» جميع الذين اعتقلهم في برج القصر فأمر بضرب رقاب العجائز والشيوخ والضعاف » .

ويستأنف «غوستاف لوبون» وصفه الكئيب فيقول : « لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان . فكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك ! وكانت الأيدى والأذرع المبتورة تسبح كأنما تريد الاتصال بجثث غريبة عنها . .

وأراد الصليبيون الاستراحة من عناء تذبيح الأهالي قاطبة ، فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعربدة . . » .

* * *

إن المسلمين أهل نسيان وغفلة ، لقد طوَوْا ستارا على هذا التاريخ البشع ، وقلما يذكرونه إلا بإيجاز وتجاوز ، بل إنهم ما يذكرونه إلا بعد ما استعادوا بيت المقدس وأعلنوا عفوا عاما عن أبناء المجرمين الذين اقترفوا هذه المجازر في رحابه البائسة[1] . .

وهاهى ذى أوروبا قد استقدمت الصهاينة ليأخذوا بيت المقدس من المسلمين مرة أخرى . . إلا أن اليهود تركوا هذه المرة خداع العناوين . . وقالوا للمسلمين فى صراحة لامقام لكم هنا ! . . أحدنا سيبقى على أشلاء الآخر !

ترى ماذا سيفعل المسلمون ؟ !

هل يبقون على مانرى يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى الخصوم ؟ !

* * *

(١) من المعروف أن صلاح الدين قد عقد صلحًا مع الصليبيين بعد أن أجلاهم عن بيت المقدس وأعلن العفو عن الأسرى وزهد بأثمان بخسة . . أنظر المحاسن اليوسفية عنهم .

مدرسة مظلومة...

نرفض المسلك الجديد لأعداء الإسلام فى أقطار كثيرة ، إنهم يعبثون بالألفاظ ويخادعون بالعناوين متوسلين بذلك إلى بلوغ غاياتهم .

إنهم يحاربون الإسلام ذاته تحت راية محاربة التطرف .

والذى يقيم الصلوات ويدعو إلى إقامتها لايوصف بتطرف .

والذى يحترم حدود الله ويكره أعتداءها لايوصف بتطرف .

والذى يستنكر الاستعمار التشريعى والاجتماعى ، ويريد العودة بالأمة إلى ينابيع الوحى لايوصف بتطرف !!

إننا نرعى البناء الإسلامى كله حجرا حجرا ، ونريد إعادة الجدّة والروْنَق إليه بعد ما حوّله الاستعمار العالمى إلى أنقاض فى السنين التى خلت . .

والتطرف الذى نأباه ونحاربه هو عجز علميٌّ عند بعض المنتمين إلى الإسلام يجعلهم يتصورون المباح حراما ، أو النفل فرضا أو العادات عبادات أو تقاليد بعض البيئات هديا سماويا .

وقد تصح لهم أفهام فقهية غير أنهم لايحسنون وضع الخطط الراشدة لإنصاف الدين المظلوم بها ويسارعون إلى دخول معارك لم يأخذ الإسلام لها أهبته ، أو يستكمل عدته . .

والأدهى من ذلك كله الاشتباك مع الظواهر الشائعة دون تعمق فى فطرة الإسلام ، وصبغته العقلية وقدرته على تطويع الحياة لخدمة أهدافه ومثله . .

في القرن الماضى ظهر **جمال الدين الأفغانى** ، وكان رجلا حاد الذكاء حاد الطبع يحتقر التعصب الأوروبى ويمارس إنقاذ الجماهير من غارته .

وكان يرى أن الحكومات الإسلامية مصدر الداء وأصل البلاء فوجه إليها حملات منكرة ودخل معها فى حرب حياة أو موت . . وترك دويا واسعا ولم يصنع شيئاً طائلاً . .

وكان الشيخ **محمد عبده** ألمع تلامذته ، وقد شارك فى الثورة العرابية ، وجنى معها الفشل ، ولكن **محمد عبده** له ذكاء الفيلسوف ، ودقة الفقيه ، وأناة المربّى ، فأدرك أن الأمة التى تفقد التربية السليمة لاتحقق شيئا ، ولاتنجح لها ثورة ، وإذا نجحت لها ثورة لأمر ما ، فسرعان ما يستولى عليها الشطار ونهازو الفرص ، ويستغلّونها لمآربهم !

من أجل ذلك لجأ إلى التربية ، ورفع مستوى الشعوب ، وإبعاد العطب الذى سرى فى كيان ثقافتنا الدينية ، واشتغل بتشكيل العقل الإسلامى على نحو صحيح !

ونحن نؤكد أن الأمة التى لاتتربى لاتفلح ، ولايقوم بها جهاز إدارى محترم ، وقد تكون الجامعات فيها قصوراً شامخة لكنها مبنية على أسس واهية .

فلنربِّ أنفسنا وأمتنا لنضمن الحاضر والمستقبل .

* * *

لاعرب إن تركوا الإسلام

لم يكن العرب فى جاهليتهم شيئا مذكوراً ، فإن الوثنية المنتشرة بينهم أزرت بأفكارهم وأخلاقهم ، ونشرت بين ظهرانيهم صنوفاً من الرذائل والمقابح ! حتى شاء الله أن يرفع أقدارهم وأن يجعلهم قادة للناس ، فبعث فيهم محمداً عليه الصلاة والسلام يتلو كتابه ويفتح به البصائر ويزكى السرائر ، وقيل للعرب الأولين كما يقال للعرب المعاصرين ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[1] أى فيه شرفكم ومجدكم فاعقلوا ما فعل الله لكم !

فإن تقاعستم وتراخيتم فاحذروا عقاباً لم ينج منه الجاحدون قبلكم ، ولذلك جاء هذا التهديد ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾[2] .

وقد تردد العرب أول الأمر فى قبول الإسلام ولكنهم خلال عشرين سنة أقبلوا عليه وحملوا رسالته ، وخلال عشرين سنة أخرى كانوا به الأمة الأولى فى العالم ، فقد هزموا الروم والفرس فى معارك متقاربة الأزمنة متباعدة الأمكنة ! وحققوا بهذا النصر معجزة عسكرية وسياسية لم تعهد قط فى تاريخ الأمم ! والفضل الأول والأخير للإسلام وحده . .

على أن النسيان سرعان ما يعترى البشر ويخدعهم عن ماضيهم الهابط كما قيل :

كأن الفتى لم يَعْرَ يوما إذا اكتسى

ولم يكن صعلوكا إذا ما تموَّلا . . . !

فجاء من الأخلاف الذاهلين من نسى فضل الإسلام ، وشرع يذكر آباءه وأجداده ! وما آباؤه وأجداده ليس الأعاريب عند الله من أحد !

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠ .　(٢) سورة الأنبياء : ١١ .

إنما نحو بالإسلام وحده ، حياتنا حياته ومجدنا مجده ! وكان المفروض أن يقود العرب العالم الإسلامى بالرسالة التى اصطفاهم الله لها ووضع بين أيديهم علمها .

يقول الأستاذ **أحمد بهاء الدين** : « لكن العرب لم يقوموا بأعباء هذه القيادة ، بل قدموا للعالم الإسلامى المشاكل فوق ما لدى كل قطر من مشاكل ، قدموا خلافاتهم وحروبهم الدموية ، وتخبطهم فى البحث عن هُوِيَّة لهم فى هذا العصر » !

نعم ، العرب المعاصرون ـ بعد تأخير الإسلام ـ لاهوية لهم ، وأغلبهم رفع شعار العلمانية ، أو قبل الإسلام عنوانا ليس له موضوع ، أو شريعة بلا أحكام ، يقول **بهاء الدين** : « . . رحم الله رئيس غينيا الراحل أحمد سيكوتورى – الذى تكلم عدة ساعات فى القمة الإسلامية السابقة ـ فى الرباط ـ يلقن الدول العربية دروسا فى السياسة والأخلاق وإيثار المصلحة العليا والنهى عن الأضراب !

قال لى عربى كبير حضر ذلك المؤتمر : كان الرؤساء العرب جالسين وقد نكسوا رؤوسهم لايجد أحدهم ما يردُّ به على هذا الدرس القاسى البليغ ! » .

أقول : كلما ابتعد العرب عن الإسلام هووا من شاهق ، وأطبقت على آفاقهم ظلمات جاهلية جديدة ، وغيوم تمطرهم مطر السوء ، فهل من عودة إلى الله .

* * *

الطوائف الإسلامية المأكولة فى أنحاء العالم

لن أسأم الحديث عن جماهير المسلمين الذين يعيشون «أقليات» فى شرق العالم وغربه وهم ألوف مؤلفة .

إن سبعين مليونا من المسلمين يعيشون فى روسيا وحدها ، بدأت مأساتهم قبل سقوط الخلافة الإسلامية وتضاعفت بعدها ! وهذا العدد يساوى عدد السكان فى عشر دول عربية بينها مصر !

ومع أن الرفيق «جورباتشوف»[1] بشرٌ بتكسير القيود وعودة الحريات فإن العداوة التقليدية للأديان عامة وللإسلام خاصة لم تخفّ حدتها ، بل إن المسلمين شرقى الإتحاد السوفييتى وجنوبه ووسطه زادت آلامهم وفصل بعضهم من الحزب الحاكم . وبقيت الدعاية ضد الإيمان ناشطة واسعة .

ومن العجائب أن «أرمينية»[2] المسيحية ضيقة الصدر شديدة الغضب لأن بعض الأرمن يعيشون داخل أذربيجان الإسلامية ، وأذربيجان دخلها الإسلام من أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، قبل أن تعرف روسيا المسيحية ، وكلا الإقليمين محكوم بالفلسفة المادية التى تقول لا إله ! ! فعلام الهياج والصياح ؟ !

ومأسى المسلمين فى شرق أوروبا معروفة ولا يرثى لها أحد !

قال لى سائح قادم من هناك : لو رأيت المسجد فى «بوخارست» لشعرت بالخزى ! طَلَلٌ مُتداع يكاد البوم ينعب فوقه بدل كلمات الأذان التى خفتت وانسحبت من الحياة سنينٌ طويلة . .

(١) رئيس روسيا وقتئذ .
(٢) من الجمهوريات المتعصبة للمسيحية الكارهة للإسلام ولها تاريخ كبير فى العداء للمسلمين وكم خرجت قوافل العداء الصليبية لقتال المسلمين ، كما كان له دور بارز فى معاونة غزو المغول للعالم الإسلامى . . .

أما فى بلغاريا فالحرب لاتهدأ لمحو كل آثار تدل على أن الإسلام كان هنا . .

حملات الاضطهاد ، وتغيير الأسماء الإسلامية ، وتغليق المساجد والمعاهد ، وتقتيل المتشبثين بعقائدهم ، وإشعار بقايا الأمة الإسلامية فى هذا العصر أنهم أحيط بهم ، وليس لهم من ناصر يهتم بهم أو يأسى لمصابهم !!

وقرأت أن الدكتور نصيف الأمين العام لرابطة العالم الإسلامى قدم تقريرًا لوزراء الخارجية المسلمين عن مذابح المسلمين فى بلغاريا ! فهل وقع شىء ؟ !

الذى أعلمه أن المؤتمر الإسلامى أصمّ أذنيه عن نداء مسلمى الفلبين ولم يقدم لهم التأييد السياسى الذى يحتاجون إليه ، وكان يجب أن يكون لمسلمى الفلبين مراقب يمثلهم فى هذا المؤتمر ، ويدعم قضيتهم التى تتدحرج من سىء إلى أسوأ . .

إن عددا من القساوسة المتعصبين ، والعملاء الصهيونيين يطاردون المجاهدين والدعاة ، ويرسمون للسيدة «أكينو» سياسة استئصال وقهر للمسلمين المكافحين من عشرات السنين كى يظفروا لأنفسهم ودينهم بحق الحياة . .

إننا نسأل العرب : هل سيعيشون لأنفسهم وجنسهم أم يوفون لدينهم ورسالتهم ؟ إنهم إذا تجاهلوا أحزان العالم الإسلامى الكبير فلن يطول الانتظار حتى تنتقل الأحزان نفسها إلى دورهم وأهليهم .

* * *

النفوس الكبار

ما أجمل العمل المصحوب بالسرور والرضا ، إن المرء يقوم به وهو مستريح له ، يطوى مراحله بأجنحة الشوق ويغالب صعابه بعزم من حديد . .

أما العمل الكريه فإن الإنسان يباشره ضائق الصدر يستصعب سهله ، ويود الخلاص منه !

طالب المعرفة يقرأ بشغف ويشارك قلبه وبصره فى الوعى والإفادة ! أما المكره على الدراسة فهو يرمق الكتاب وكأنه عدو مبين . . !

وما يتم عمل عظيم إلا إذا كان مقرونا بالرغبة الصادقة والإقبال العارم ، عندئذ تنتظر مواقف البطولة وترى مغالبة بين الإرادة الشديدة والغاية البعيدة ، يتحقق فيها قول أبى الطيب :

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت فى مرادها الأجسام !

والمربون العظام هم الذين يجعلون وراء كل تكليف عاطفة صادقة ووراء كل واجب باعثاً حياً . .

إن الله عذر فى الهجرة المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، ماذا يصنعون ؟ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . . فليبقوا إذن فى أوطانهم . . بيد أن قوة اليقين قد تخيل لصاحبها أنه يفعل مالا يطيق وأنه قادر على الهجرة مع ضعفه وعجزه ، ومن هنا يرسم خطته وكأنه سليم معافى ، ويأبى التسليم بما فى بدنه من علة !!

قال **ابن عباس** : سمع رجل من بنى ليث أن الله عذر المستضعفين وأسقط عنهم الهجرة ! وكان الرجل شيخا مُسنا مريضا ، فقال : والله ما أنا ممن استثنى الله ! و إنى لأجد حيلة ، ولى من المال ما يبلغنى المدينة ، وأبعدَ منها ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، أخرجونى ! فخرجوا يحملونه على سرير حتى أتوا به «التنعيم» ـ على مرحلة

من مكة - فغلبه المرض وحضره الموت !

إن الحماسة الشديدة لم تغلب العلة الكامنة ، وشعر الرجل المؤمن بأنه يموت دون أن يتحقق أمله ، ودون أن يرضى ربه وينصر رسوله وينضم إلى إخوانه المهاجرين ، فماذا يصنع ؟

ضرب بيمينه على شماله كهيئة المبايع ثم ناجى ربه قائلا : اللهم هذه لك ، وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع رسولك ، ثم مات . .

هذا جهد الرجل وهذا قدره ، وقد نفَّس عن إيمانه الكامن بحركة يمناه على يسراه ، وهو على فراش الموت ! وبلغ خبره رسول الله ﷺ ، ونزلت الآية الكريمة ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] .

ماذا كان سيحدث له لو بقى حياً وتمت هجرته ؟ كان سيتشهد فى مقاتلة اليهودية المستكبرة التى لم تبذل أى جهد فى محاربة الوثنية ، أو تهذيب الجاهلية وبذلت الجهد كله فى مقاومة الإسلام ومحاربة عقيدة التوحيد !!

أو كان سيقتل فى محاربة الإستعمار الرومانى الذى أهان الإنسانية وشوَّه حقائق الإيمان ، وبعثر وحشيته فى كل مكان !!

إن صاحب الرسالة الخاتمة عليه الصلاة والسلام نجح فى صنع الرجولات الرائعة والبطولات الشامخة لأنه نجح كما لم ينجح أحد فى صياغة الأفئدة الزاكية والبصائر الهادية ، فكانت طلائع الحضارة الجديدة التى أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ، وربطت العالم بالله الصمد .

* * *

---

(١) سورة النساء : ١٠٠ .

الساكت عن الحق..

فى أثناء متابعتى للمؤتمر الشيوعى المنعقد أخيراً فى موسكو سمعت نقداً شديداً لغزو أفغانستان ، وتنديدا بالطريقة التى تم بها والمطالبه بألا يتكرر مثل هذا الخطأ فى المستقبل ، واتهاما لأصحاب القرار بالعناد وقصر النظر . . !

كان الناقد رئيس تحرير إحدى الصحف الأسبوعية ، وقد استطاع الكلام فى عهد الرئيس الروسى الجديد الذى رفع الكمامات عن الأفواه وأباح تصويب الأخطاء .

وودت لو كان بعض الصحافيين العرب يسمع معى ! فإن هذا البعض هاجم المجاهدين ، ووصفهم بالرجعية(!) ونظر إلى الحكومة الخائنة فى «كابول» على أنها حكومة تقدمية تحارب الإقطاع وتنشر الاشتراكية وتُنْصف الشعب من مستغليه ! !

إن الشيوعيين العرب يتمتعون بقدر كبير من الغباء والغرور ، وجراءتهم على الإسلام شديدة لأنهم لايعرفونه ولايريدون أن يعرفوه . .

قد يكون العالم العربى مبتلى ببعض الأنظمة السيئة . . ! لكن الذين يطلبون الإصلاح من الشيوعية كالمستجير من الرمضاء بالنار !

وخير لهم أن يتعلموا قبل أن يتهجَّموا ، وأن يدرسوا ما يقع من تجارب وتطبيقات قبل أن يصوغوا قصائد الثناء على أنظمة شرع أصحابها يتخلصون من قيودها . .

يقول صديقنا **الشيخ عبد القادر العمارى** عن الشيوعيين العرب : إنهم ملكيون أكثر من الملك وإنهم تجهموا لما سمعوا النقد اللاذع الذى وجهته صحيفة «برافدا» للطريقة التى كان يدار بها الحزب الشيوعى خلال السبعين سنة التى انقضت ! .

ولا أدرى ماذا كان تعليقهم على قصة عشرين فتاة انتحرن بسبب ما يتعرض له النساء أحيانا من استغلال رؤساء الحزب وأصحاب النفوذ فيه !

ولا أريد الوقوف عند هذه الفضائح ! بل أريد أمرا أهم ! ! إن العالم العاقل يتجه إلى

المزيد من حرية النقد ، والأخذ والرد ، والبحث النزيه عن الحقائق والحلول العادلة لشتى المشكلات ، فهل العالم الإسلامى يسلك هذه الوجهة ؟ أو بتعبير الإسلام العتيق هل العالم الإســلامى يمضى فى طريق الأمــر بالمعروف والنهى عن المنكر و إقامة العدالة الفردية والاجتماعية والوعى الدقيق بقوله ﷺ «كيف تقدّس أمة لايؤخذ من شديدهم لضعيفهم » ؟

إن أخطاء الآخرين كثرت أو قلت لاتغنى عنا شيئا ! إذ واجبنا أن نقدِّم الإسلام أسلوبا مشرفاً للحياة ومنهاجاً مضيئاً يغرى بالدراسة والإقتداء . .

وقد يشرف الآخرين أن ينقدوا أنفسهم ، وأن يعترفوا بأخطائهم ! ولن يشرفنا نحن أن نسكت على تقصير يقع بين ظهرانينا لأن الدنيا مليئة بالأخطاء والخطائين .

* * *

كذب باسم الشعوب ! هل نلحظه ؟

قصة الفتن التى تفتك بالإيمان وأهله تحتاج إلى دراسة وتأمل ، فقد كان الجبابرة قديما يقولون للمستضعفين : إنا عليكم غالبون وفوقكم قاهرون ! أما اليوم فإن مالك السلطة المستبد يقول للمغلوب على أمره : أنا لك ممثل . وباسمك ناطق ، ولمصلحتك أعمل ! فإذا رفضت فإنى سأخمد أنفاسك !!

جرى هذا الخاطر فى نفسى وأنا أقرأ إحدى خطب «جورباتشوف» الزعيم الأول لأكبر دولة شيوعية ، إنه رجل صريح يبصر علل قومه ويحاول علاجها على طريقته !

قال : هنالك الآن فى الإتحاد السوفييتى أربعة عشر مواطنا من كل خمسة عشر ولدوا بعد الثورة ـ بعد سنة ١٩١٧م ـ مازالوا يدعوننا إلى التخلِّى عن الاشتراكية (!) ثم يطرح سؤالا : لماذا ينبغى للناس الذين ولدوا فى كنف الاشتراكيه ونما فيها عودهم أن يتنكروا لنظامهم ؟ !

ولم يجب الزعيم الشيوعى عن سؤاله الذى طرحه ، وإنما بذل وعودا جادة للإصلاح وتخفيف المعاناة وإشاعة الرضا . .

إننى فكرت بعمق فى النسبة الكبيرة لرافضى الشيوعية ، أربعة عشر مواطنا من كل خمسة عشر ! أى أن المؤمنين بالشيوعية نحو ٧٪ من سكان روسيا ! وقد فرض هؤلاء الأقلون أنفسهم على الأكثرين المسحوقين ، فى ظل نظام باطش لايتيح للمعارضين حركة ! .

والذى يثير العجب أن المتحدث باسم الشيوعية الحاكمة يقول : باسم الشعب نعمل ! لمصلحة الشعب نحكم ! الولاء للشعب ! الويل لأعداء الشعوب ! .

أين هذا الشعب الذى تتحدثون باسمه إذا كنتم ٧٪ من تعداده ؟ ! !

وللشيوعية جانبان : أحدهما اقتصادى لا أتحدث عنه ، والآخر اعتقادى أساسه إنكار الدين كله ، وشعاره لا إله والحياة مادة . .

وإنكار الدين قدر مشترك بين الشيوعية والرأسمالية والعلمانية وبعض الفلسفات الأخرى . .

فهل هذا الإنكار ينهض على حرية متاحة ، وقدرة متساوية على الأخذ والرد ومقارعة الحجة بالحجة ، ولجوء المهزوم إلى الانسحاب أو السكوت إذا بارت بضاعته ؟ كلاً ، إن الإلحاد المدحور فى ساحة الرأى يتحول إلى مارد جبار ، شديد الخبث طافح الشر يقول لأهل الإيمان : أنتم أعداء العقل وحرية الفكر وتقدم الحضارة وارتقاء العالم ، أنتم وأنتم !! .

أريد من أهل الحق أن يدرسوا خصومهم بذكاء ، وأن يتابعوا الأطوار التى تتقلب فيها الفتن ، وهى تنفث دخانها ليعتكر الجوّ ، ويظلم الأفق ، ويتحيَّر الناس ، إن الملاحدة أصحاب دعاوى عريضة ، وهم يصلون إلى أغراضهم فى غفلة أهل الحق واسترسالهم .

* * *

أهل الكتاب المتدينون والعرب المنحلون..

لم يتعمد المذيع أن يجمع بين الخبرين ، ولكن لما سمعت أحدهما عقب الآخر شعرت بما بينهما من شبه ، كان الخبر الأول إطلاق شرطة جنوب إفريقية النار على جمهور من الزنوج وقتل أربعة ، وكان الخبر الثانى إطلاق شرطة إسرائيل النار على جمهور من العرب وقتل ثلاثة . .

المستعمرون البيض فى جنوب أفريقية والمستعمرون اليهود فى فلسطين المحتلة يقومون بعمل واحد ، إلا أن مسلسل القتل فى الأرض العربية لم ينقطع منذ الإنتفاضة الأخيرة حتى أمسى قتل العرب كل يوم كالأنباء الجوية المعتادة . . ! !

ولا أدرى لماذا احتفل العرب والمسلمون بعيد الأضحى الأخير ؟ ! ولماذا لم يقتصر استقبال العيد على الشعائر الدينية وحدها ؟

إذا كان الرجل الأبيض فى جنوب القارة السوداء يريد جعل المواطنين خدما له ، وينظر إليهم بازدراء ومقت ، فإن اليهودى الوافد على أرض فلسطين يريد محو كل شىء فى ثراها وإنشاء وطن له وحده ، وإذا قبل بعض العرب أن يعيش رقيقاً إلى حين ، فلا حرج على أن يتم طرده فور الاستغناء عنه !

هناك تغير هائل يقوم على المحو والإثبات ، ويتناول التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والماضى والحاضر ، وكل مظهر من مظاهر الوجود البشرى . .

محو لما هو عربى فى جوهره أو مظهر وإثبات لما هو عبرانى بحيث تتغير الأرض غير الأرض والسكان غير السكان . .

حتى العناوين المألوفة ، فخليج السويس اسمه خليج سليمان ، والعقبة اسمه خليج إيلات ، والمسجد الأقصى اسمه الهيكل ، وهناك جسر بنات يعقوب ،

واستخرجت الأسماء العتيقة من التوراة والتلمود لتوضع هنا وهناك ، حتى النقد الإسرائيلى حمل إسمه الأول !!

وظاهر أن العقيدة الدينية من وراء هذين الجهدين الهائلين من محو وإثبات تناولا الماضى والحاضر إعداداً لمستقبل لا عروبة فيه ولا إسلام !

وبين الساسة الأوروبيين والأمريكيين من يعتبر «شيخ طريقة» فى ملّته ! أى أن تدينه صارخ اللون والوجهة ، وهو ينظر إلى ما تفعله إسرائيل على أنه حق نابَتْ هى عنه فى فعله ، ولو قصرّت لأدى هو الواجب المفروض عليه ، وتقرب إلى ربه بمحو الإسلام والعروبة !

أما العرب فالدين لديهم لغو على الألسنة ، ونوع من الذكريات ! وكان اكتفاؤهم بالعلمانية العربية من وراء حرب الحزازات التى التهمت المخيمات وساكنيها وشتت القوى التى يمكن أن تتجمع يوماً لاستنقاذ الأرض والعرض !

إن العرب يهلكون أنفسهم عندما يزهدون فى دينهم ، ويرفضون الانتماء إليه ، إنهم يفقدون دنياهم وأخراهم معا .

* * *

الإسلام ليس دعوى !

« رب ساع لقاعد» مثل يضرب للرجل يكدح فى هذه الحياة ، ولكن ثمرة كدحه تصل إلى غيره ممن لم يبذل جهدا ، ولم يحسّ تعبا . .

تذكرت هذا المثل فى قضية أخرى مشابهة ، فمن نصف قرن كنت كثير الكتابة فى آلام الطبقات الكادحة[1] ، والمظالم التى تقع على رؤوس العمال والفلاحين ! ولم أكن مغالياً فقد رأيت من يزرعون القطن ويكادون يمشون عراة !

ومن ينحنون على آلاتهم سحابة النهار ولايجدون إلاَّ الكفاف على ما قدموا من عناء . .

وتغيرت الدنيا ، وشرعت قوانين جديدة ، وضمنت للكادحين أرزاقا أرغد ، بيد أن الذين تعبوا قديما ماتوا محرومين ، وظفر بالأجور السخية قوم آخرون !

قوم عملهم قليل وطمعهم كثير !

قوم لايعرفون أن عليهم واجبات بل يعرفون أن لهم حقوقا .

قوم يحسنون : هات ! ولا يحسنون خذ !

هذا الصنف من الناس ينتشر على امتداد الحقول والمصانع وأنواع الحرف والوظائف ليس لهم إنتاج يذكر وليس لمطالبهم حدود ! وما أرتاب فى أن هذا النوع من الأخلاق وراء تأخر الأمة وعجزها العام ومستقبلها الغائم . .

وينضم إلى هذا العوج النفسى عوج آخر ! فالمحفوظ من تعاليم الإسلام أنه لا آخرة لمن فقد زكاة نفسه كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[2] .

(١) كتب الشيخ الغزالى فى ذلك الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، والإسلام والمناهج الاشتراكية ، والإسلام المفترى عليه . . (٢) سورة الشمس ٩ : ١٠ .

ولا أريد أن أحلم مع الحالمين فأتصور الزكاة المنشودة مزيدا من الصفاء والإيثار والتسامى وذكر الله عز وجل ، ومع أن هذا كله أساس الزكاة المطلوبة للقلب والخلق . .

إننى أريد المبادىء الأولية لبناء الإنسان المحترم مثل صدق الكلمة ، ونظافة البدن والوسط ! !

عندما يضرب لك العامل موعدا لإنجاز أمر ما ، ثم تجيئه فينظر إليك ببلاهة أو بصفاقة ويبدأ يختلق الأعذار ! أو عندما تنظر إلى محله وأدواته فترى الفوضى والمهملات تحفّ به ! بماذا تصف هذاالمرء ؟

هل فكر يوما فى ترقية نفسه وفكره ؟

هل رفع مستواه بتزكية يلقى بها ربَّه ؟

هل الإسلام بهذه الأدوات البشرية المعطوبة يشقّ طريقه إلى الأمام أم إلى الخلف ؟

لقد رأيت عمالاً وثنيين مقبلين على الواجبات الملقاة عليهم باقتدار وابتسام ، يفرح بهم أصحاب الأعمال ، ويؤثرونهم على غيرهم ! فهل يحسب العمال المسلمون أنهم بالإهمال والاسترخاء يحفظون إيمانهم ؟ ويشرفون دينهم ؟

إنهم يكذبون والكذب طريق العار والنار . . !

* * *

فلسفة الصليبية فى حرب الابادة..

ينبغى أن نعرف ما يقوله خصومنا عنا ، وماهى وجهات نظرهم التى يتحركون بها ضدنا !

هناك سفهاء ينطلقون بغرائز الوحوش ولايعنيهم إلا تحقيق مآربهم ، فلنعرف طباع هؤلاء !

وهناك من يردّد أعذارا لما يفعل ، أو يذكر شبهات يحسبها براهين ! ليكن ، يجب أن نتبينّ ما يقول خصومنا على أية حال . .

* * *

نشرت «لوموند» فى ١٩٥٩/١٢/٢٤ تقريراً لضابط فرنسى فى تسويغ حرب الإبادة التى أعلنت على الجزائر ، وتأييد الأساليب المفزعة فى قمع الثائرين جاءت به هذه العبارات : « إن كل حرب من هذا النوع تستلزم التعذيب ، فلولا التعذيب ما ثبتت فرنسا فى وجه الغزاة سنة ١٧٩٣م ، ولولا التعذيب ما انتصر «ستالين » ـ وثبّت الشيوعية ـ وفى الصراع بين الحضارات الذى فرضته علينا الثورة الجزائرية لانستطيع ترقية سكان الجزائر بدون الضغط والإكراه فهؤلاء الناس قوم بدائيون متعلقون بنبيهم محمد تعلقاً قوياً ، ويبغضون الفرنسيين ويحتقرونهم بدوافع من دينهم ! وليس فى الإمكان أن نُدْخِل أساليب الحياة العصرية إلى بلدان الشمال الإفريقى المتشبثة بدينها بدون الديانة المسيحية ، فهى وحدها الكفيلة بنشر الحرية والارتقاء بين أولئك السكان » ! .

* * *

قرأت هذه العبارات ، وكنت قد طالعت فى صحف اليوم أن شابا قتل امرأة عجوزا واستولى على حليها كى يتزوج به من شابة يهواها !

إن الشاب الحيوان لايعرف إلا هواه ، لو قلت له : أتحب أن صاحبك يقتل أمك ويستولى على ثروتها لينفقها على عشيقته لخرج بالصمت عن لا ونعم ! ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[1] !

والمستعمرون القدامى والجدد لايعرفون إلا أهواءهم ، وقد سخروا تفوقهم فى السلاح كى يبلغوا مآربهم ، وعلاقاتهم **بموسى وعيسى** مقطوعة ، وما يذكرون الدين إلا تزويرا .

أما المسلمون فإن محبتهم لمـ[illegible] لاتنكر ، و اعتصامهم بدينه ظهير لهم فى حرب تصون حقوقهم وتضمن بقاءهم ، وقد أشار إلى ذلك مؤلفوا كتاب «الجزائر الثائرة» حيث قالوا « إن الحرب القائمة بالجزائر ليست حرباً دينية أو جنسية أو حضارية ! إنها حرب شعب مظلوم يريد أن يتحرر من ربقة شعب ظالم ، إلا أن الإسلام عنصر فعال فى دفع الجزائريين إلى طلب هذا التحرر ، ولقد أيقن الجزائريون منذ الأيام الأولى للإحتلال الفرنسى أن الهدف هو القضاء على الإسلام ، ومن أجل ذلك أدركوا أن الاعتصام بالإسلام مقرون بإرادة التحرر ، والواقع أن الاحتلال حمل منذ البداية صفة الغزو الصليبى » .

واليوم يكرر التاريخ نفسه فى فلسطين ، فالمراد محو عقيدة وتراث وتاريخ ولغة ، محو شخصية كاملة لشعب مستباح الأرض والعرض ! واستبعاد الإسلام من المعركة ، أعنى استبعاد الإسلام وحده ، وبقاء إسرائيل تختال بدينها ، هو فى الحقيقة هزيمة عاجلة قبل الهزيمة الماحقة التى يُمَهِّد لها العلمانيون ، ويتحدث عنها دبلوماسيون خونة .

* * *

---

(١) سورة القصص : ٧٨ .

هذه الإنتفاضة المجيدة، لايجوز أن تترك

الشهور تمضى ثقيلة طويلة على الإنتفاضة الفلسطينية ، والخسائر البشرية والمالية تزيد ، والحرب لاتؤذن بنهاية ، ولايزال اليهود يهدمون البيوت ، وينفون الزعماء ، ويدقون بكعوب البنادق عظام الفتيان الذين يأسرونهم ! .

والضمير العالمى يغط فى غيبوبته غير مبال بما يقع ، لا ، بل إن كبرى دول العالم - أعنى الولايات المتحدة - تؤيد سياسة إسرائيل ، ويقول نائب رئيسها : إنه يرشح نفسه للرئاسة وعندما يظفر بها سيمضى فى برنامج حرب الكواكب حتى يقى أمريكا غزو الصواريخ العابرة للقارات ، وحتى يضمن حماية إسرائيل !! .

حماية إسرائيل ممن ؟ ! الفتيان الذين يقاتلون بإلقاء الحجارة ؟ ! من الجيران الذين لايصنعون صاروخا يحمل كيداً لعدو ؟ ! .

إنه تصريح غريب ، ولكن الرجل يترجم بأمانة عن مشاعره ضد العرب « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ »[1] ولايزال التدين المنحرف الحاقد يعمل عمله ضد أمتنا الساذجة ! .

إننى أوازن بين وضعين متباعدين : الفتية الذين يملكون العقيدة ولا يملكون السلاح ومع ذلك يصابرون ويرابطون ويقاومون ويمدّون أجل انتفاضتهم ما بقى فى صدورهم نفسٌ! والجيوش التى قاتلت فى حرب الأيام الستة أو الساعات الست ، والتى كانت تملك السلاح ولاتملك الإيمان ، والتى أهدت إسرائيل أخزى نصر عرفه التاريخ ، وألحقت بالعرب أسوأ هزيمة فى ماضيهم الطويل !

إن العقيدة كانت ولاتزال صانعة المعجزات ، والذين يوهنون الإيمان فى صفوفنا ، ويحاربون الدين فى أخلاقنا ومناهجنا ناس ليسوا منا ، بل هم فرقة من جيش العدو

متنكر داخل بلادنا ، وتعمل لمصلحة خصوم مَكَرة مَهَرة ، بل هم أجدى على إسرائيل من حرب الكواكب التى يعد بها «جورج شولتز» الطامع فى رياسة أمريكا ! .

إن المجاهدين الأفغان الذين صنعهم الإسلام وحده أثاروا الدهشة بالنتائج الباهرة التى حققوها ، قال المراقبون العسكريون : إنهم أسقطوا ستين طائرة سمتية بصواريخ «ستينجر» التى يحملونها على أكتافهم ! وأن براعتهم فى إلحاق الدمار بخصومهم هى التى جعلت الروس يقبلون فكرة الانسحاب ووقف إطلاق النار .

وأجمع خبراء حلف الأطلسى أن أولئك المجاهدين أصبحوا يتمتعون بخبرات قتالية فى الجبال لاتتوفر لقوات الحلف . . ! .

ذاك أثر الإيمان الحق ، والانطلاق باسم الله لإعلاء كلمة الله ! وذاك ما يكمن الآن فى أفئدة شباب الإنتفاضة الفلسطينية الأخيرة ، الإنتفاضة التى داست العلمانية بنعالها ، وردت الحياة إلى قضية فلسطين . .

* * *

تحذير إلى قادة الجهاد الأفغاني

يظهر أن بعض القادة فى الجهاد الأفغانى لايقدرون أمل المسلمين فيهم ولامستقبل الإسلام على أيديهم ! وإلافكيف أفسر الأوامر المتناقضة التى تصدر عنهم ؟ ! !

هذا قائد يقول للمجاهدين : لاتتعقبوا الجنود الروس المنسحبين ، ودعوهم يتركوا أرضنا ، وهذا قائد آخر يقول : اشتبكوا معهم وألحقوا ما استطعتم من خسائر بهم !

أليس لكم أيها القادة مجلس حرب تدرسون فيه خططكم ، وتصفّون فيه خلافاتكم ، وتنزل فيه القلة على رأى الكثرة كما يصنع الناس فى كل مكان ؟ ! !

هل من مصلحة المعركة أن تدار بهذا الشجار ؟ ! هل يشرف المسلمين أن يكتشف القريب والبعيد ما بينكم من فجوات ؟ ! أما كفاكم أنكم مازلتم جبهات شتى وكان يجب أن تكونوا رجلاً واحداً ؟ !

الحق أن نصر الله الذى تنزل على المجاهدين إنما جاء من الشهداء المجهولين والمكافحين الخاملين الذين خرجوا عراة من كل أعراض الدنيا وجاهها ، وقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة أعدائه السفلى !

وصدق رسول الله : « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم ؟ . . » ولو نظر الله إلى شعور القادة بذاتهم واستدامتهم لخلافاتهم ، ما ساق لهم نصراً ، ولا أنزل عليهم خيراً . .

إننى أذكّر قادة الجهاد الأفغانى بقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأنفال : ٤٦ .

لِنَنْسى أشخاصنا فى الأيام العصيبة التى تمر بها أمتنا . .

لكننا لم نَنْسَ ـ بعد ـ أشخاصنا ، ومازلنا ندور حولها ! وأصارح إخوانى بأنى استقبلت قرار الأردن بمغادرة الضفة الغربية بفتور أو بانكسار ، فإن الطابع الإسلامى للمعركة هو الذى يعنينى ، لأنه وحده طريق النصر ! إن اليهود يقاتلون فى كل مكان بعقيدتهم الدينية ، والقوى التى تحالفهم وتشد أزرهم تفعل ذلك ببواعث دينية ! .

أما نحن فعن عمد نغفل دور الإسلام فى إعداد المقاتلين وتصبيرهم على التضحية وتعليقهم بوجه الله ، ونحسب الفدائية لونا من الجراءة التى كانت تحرك عنتر بن شداد ! .

وأريد أن أصارح العدو الصديق بما عندى : إذا خيِّرت بين جمهورية علمانية أو مملكة إسلامية فسيكون هواى مع الإسلام وحده ، ويعلم الناس أنى ما كنت يوما فى حاشية أحد الملوك . .

إننى لا أنتظر خيراً أبداً من قيادة «جورج حبش » ، أو أمثاله من اليساريين ! ولا أنتظر بركات الله فى رفع شعار العلمانية وتنكيس راية الإسلام ! .

إننى أحذر العرب من الغرق إذا آثروا الانتماء العلمانى ، وزهدوا فى الإسلام عنوانا وموضوعا !

إن اللجج المقبلة ظلمات بعضها فوق بعض ، ومن لم يجعل الله نوراً فماله من نور .

اذكروا ربكم وانسوا أشخاصكم تفلحوا . .

* * *

لاتظلمونا.. يا أهل الكتاب

لى أصدقاء من أهل الكتاب فى نفوسهم طيبة ، وفى عقولهم ذكاء ، ولهم منطق رأيت أن أستمع إليه وأجيب عليه . .

قال لى أحدهم : ما نهاية العداء القائم بين العرب واليهود ؟ فعرفت ما يقصد ! وقلت له : ياصديقى إن أولى الإنصاف من المؤرخين يقررون أنه لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية واليهود جميعا فى وقدة التعصب القديم ضدهم ، وعدّهم مسئولين عن دم المسيح كما تقرر ذلك الأناجيل التى بين أيدى أصحابها .

لقد عاش اليهود فى أرجاء العالم الإسلامى موفورين ، ما اضطهد أحدهم فى اليمن أو فى مصر أو فى المغرب . . ولو أنهم كانوا ضعف عددهم الحالى ـ وهم نحو خمسة عشر مليونا ـ ما فكر المسلمون فى اضطهادهم ولا نظروا لاختلاف الدين نظرة حيف أو بغضاء . .

إن المسلمين يعلمون أن نبيهم الخاتم مات ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى مصون الدم والعرض والمال ، قادر كل القدرة على ألا يسلف النبى إلا برهن ، ما شعر بقلق ولا حرج . . إن التظالم لاختلاف الدين لاتعرفه أخلاقنا ولا تقاليدنا ولا شرائعنا . .

لكن عندما يزحف اليهود على فلسطين ، ونيَّتهم المعلنة إعادة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى ، وتشريد وإذلال العرب فى البلد المحروب ، وانتهاز الهزيمة الإسلامية للقضاء على تراث **محمد** كله . . فماذا تنتظر من العرب والمسلمين ؟ الموت دون هذا بيقين ! .

وشىء آخر لابد من مواجهته ! إن الإنجليز لما ملكوا فلسطين قاتلوا العرب تمكينا لليهود ، أعطشوا أرضهم ، وأذلوا جانبهم ، وقرروا إذا وجدوا رصاصة فى بيت يدافع بها عن نفسه ، أن يدمّروا البيت ليسكن أهله فى العراء ! وذلك كله يقع فى ظل الكلمة التى قالها مارشالهم «اللنبى» بعد الاستيلاء على فلسطين : **اليوم انتهت الحروب الصليبية** . . ! .

وتفككت الإمبراطورية البريطانية ، وخلفها فى قيادة العالم الأمريكان ، فاستأنفوا المساندة الصليبية لبنى إسرائيل ، وأمدوهم بسيل من المال والسلاح لاتغيض منابعه ، ووقفوا محامين عنهم فى مجلس الأمن ، فإذا قرر أعضاء المجلس التنديد بإسرائيل لما تقترفه من آثام سارع المندوب الأمريكى بإبطال القرار ، وإعطاء إسرائيل الحق فى المزيد من الطغيان . .

ظاهر أن الإسلام يلقى عنتاً موصولا ، وأن أهله يلقون من إخوانهم أهل الكتاب ، إن صحّ التعبير ، الإمتهان والغدر .

ياصديقى ضع نفسك مكانى ثم أجب أنت عن السؤال الذى وجهته إلىّ ، إننا نحنُ إلى سلام يملأ العالم ، فهل أنتم تعينونا على صنعه ؟ .

* * *

من هذر الكتاب المرتدين

تابعت الإنتفاضة الكبيرة لإخواننا فى فلسطين المحتلة ، ورأيت البنين والبنات يقذفون بالحجارة جيش إسرائيل المزود بأحدث الأسلحة وأفتكها ، لم تخنهم شجاعتهم ولم يتسلل إلى قلوبهم خوف أو جزع ! ورأيت الأمهات العربيات يخرجن من المخيمات المحاصرة لجلب الطعام إلى أطفالهن ، ورأيت هذا الطعام يداس تحت نعال الجنود ، واستمعت إلى التعليمات الجريئة المتجبرة التى كان يصدرها القادة اليهود ، وأحزننى أن البغاث بأرضنا يستنسر ، وأن الأحرار يضامون ، وأن ساسة العالم الأول ينظرون إلى المعركة الدائرة إما باستخفاف ، أو بكلمات ميتة ، أو باستنكار سلبىّ خافت .

ولكن الذى أثار غضبى واشمئزازى ما كتبه هنا بعض الصحافيين العرب ! فقد لاحظوا أن الإسلام محرّك هذه الإنتفاضة ومشعل حماسها ، وأن صيحات التكبير كانت تملأ الجو وتمدّ بالطاقة . . فقلت لمن حولى : ما هؤلاء الناس ؟

قال : ظاهر من تعليقاتهم أنهم لايريدون إضفاء الطابع الإسلامىّ على الثورة المتجدِّدة ، ولايريدون العودة إلى عصر الحروب الدينية ! .

قلت : ومن يريد هذه العودة ؟ إن الحروب الدينية لاتخطر لنا ببال ! إن غيرنا هو الذى فعلها ! إن بنى إسرائيل الذين تحركوا باسم التوراة ، وزعموا أن الأرض المقدسة ميراث لهم ، وأن العرب مغتصبون يجب إخراجهم منها ، وأنهم الأحق بهذه الأرض لا أصحابها من عشرات القرون ، بل مهاجرون مُستخرجون استخراجا من روسيا وبولندا ، وشتى أقطار الأرض ليحلوا محل العرب الذين يُطردون من مدنهم وقراهم ويسكنون فى مخيمات للاجئين لا حاضر لهم ولامستقبل . .

فإذا أقبلت عقيدة ما لاغتصاب الأرض وطرد السكان جاز لها أن تعلن عن نفسها ، وأن تتخذ الدين عنوانا لها .

أما إذا استظهر السكان بعقيدتهم وهم يدافعون عن حقوقهم فإن ذلك مثار النقد والغرابة ؟ ! !

قال صاحبى : ذلك لأن الإسلام هو الدين المدافع ، والإسلام اسم ينبغى أن يختفى من ميادين كثيرة ، وألا تتحرك تحت لوائه جماهير أو طوائف !

ماذا أقول عن هؤلاء الصحافيين الناقمين على الإسلام ؟ ! إنهم لم يرتدّوا عنه لأنهم لم يسبق لهم أن دخلوا فيه ! إنهم نوع من الناس لم يُصنع عقله فى مصر أو غيرها من بلاد العرب ، إنهم صناعة الاستعمار الثقافى الأنكى من الاستعمار العسكرى . . فلنحذر على أنفسنا .

* * *

شعب مختار !!

العبقرية لاتورث ، وأغلب القادة والمفكرين الكبار ولدوا من آباء عاديين ، فلما أعقبوا أولادا من بعدهم كان أغلب هؤلاء من سواد الناس ذكاء وقدرة . .

وقد اتفقت كلمة علماء التربية على أن الحق وليد تفاعل معقد بين الوراثة والبيئة ، ونحن لا سلطان لنا على روافد الوراثة ولا على عناصر البيئة ، يكاد الأمر كله يكون غيبا !

ومع ذلك فإن الاعتداد بالآباء والاعتماد على الأصول مسلك شائع بين كثير من الناس !

وإذا كان هذا الإعتداد أو ذلك الاعتماد منكورا فى عمل الأفراد فهو فى أحوال الأمم والجماعات أشد نكرا ! وعندما ندرس التاريخ الإنسانى نجد الحضارات الكبيرة تنقلت من جنس إلى جنس ، ومن قطر إلى قطر ، وأن شعوبا ارتفعت حتى بلغت القمم ، وهبطت حتى بلغت السفوح ، فكانت كأسراب الطير التى قال فيها الشاعر :

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

ومن ثم فإن الزعم بأن هناك شعبا مختارا خلقه الله للسيادة ! وجعل الآخرين له فى مكان الخدم ! فرية افتراها ذهن مريض ! .

وقد طالعت من مدة مقالا فى مجلة « لوفيجارو » الفرنسية عنوانه : أما تزال هناك مسألة يهودية ؟ ماذا يعنى أن تكون يهوديا عام ١٩٨٧ ؟ جاءت فيه هذه العبارات لكاتب يهودى : « **ليس هناك شعب أكثر عبقرية من الشعب اليهودىّ ، لايوجد هذا الشعب المزعوم ، فاليهود هم الذين أوجدوا وأمدّوا أكبر الإيحاءات فى هذا الكون ! وقد تركوا بصماتهم على التاريخ العالمى ! وفى كل حقبة يوجد بينهم من استحق الخلود ! إنهم شعب عبقرى وعبقريته ترجع إلى ظروفه السيئة ، إنه ـ كما يقول الكاتب ـ عبقرى لأنه مريض ، متفوق لأنه مهان ، مبدع لأنه شاذ** » ! .

وهذا الكلام يشبه هذيان المحموم ، فاليهود مثل غيرهم من الشعوب سادوا وأسفُّوا ، غلبوا وانهزموا ، وتاريخ ضيعتهم أطول كثيرا كثيرا من تاريخ عزهم !

وقد أتعبوا أنبياءهم ، وآخر من تحمَّل أذاهم بجلد **عيسى بن مريم عليه السلام** ، وقد أعتبر من أولى العزم لصبره الطويل فى كسر غرورهم .

وقديما هرب اليهود من التعصب الدينى أيام الرومان وأنشئوا مستعمرات لهم فى الجزيرة العربية ، وأحسن العرب جوارهم سنين عددا فلما ظهر النبىّ الخاتم من العرب وكانوا يتوقعونه منهم ، كانوا أول كافر به وأشد الناس إيذاء له . .

واليوم يكرر التاريخ نفسه ، فقد شنَّ عليهم الأوروبيون حرب إبادة من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، فاتجهوا إلى فلسطين ينتقمون من العرب(!) ويقتصّون منهم آثاما لم يرتكبوها ! وحققوا المثل الشائع بين العوام : لم يستطع ضرب الحمار فضرب البردعة ! .

ولكن العرب يستحقون لأنهم أمسوا بين الناس برادع ! ولن يَنْجوا من عصا الأذلاء حتى يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى دينهم .

* * *

أزمة الدعاة.. طاحنة

لعل الصلاحية الذاتية للإسلام هى التى تستبقى وجوده وتوسع دائرته جيلا بعد جيل !

أما أجهزة الدعاية التى تفتح عقولا جديدة ، وتزيد أعداد المؤمنين فليس لها أثر يذكر لاسيما فى هذا العصر الذى شهد فى بلاد الإسلام سلطات لاتظهر الانتماء إليه ، ولاتكترث بالولاء له ! .

والحكومات المرتبطة ارتباطا وثيقا بإحدى الجبهتين الكبيرتين فى العالم تؤثر العلمانية أو القومية أو أى عنوان يؤخر الدين ويوهى الروابط به !

ومن ثم فإن أجهزة الدعوة الصحيحة تنبت بين الشعوب وتستمد قدرتها من روح الجماهير وتتعرض بين الحين والحين لمفاجآت كئيبة . .

ومع ذلك فإن هناك سلطات رسمية بادية الاهتمام بالدعوة والدعاة ، تضع خططا لا بأس بها كى تستطيع الرسالة الإسلامية المضىّ فى طريقها ومغالبة العوائق التى تبعثر فى وجهها .

وأرى أن تكوين الدعاة هو حجر الأساس فى كل جهاز ناجح ! إن الله اختار رسله من أنفس المعادن البشرية ، وزوَّدهم بعناصر عقلية وروحية غلابة ، ومن ثم فليس يصلح لخلافتهم فى نشر الدعوة أصحاب الآفاق الضيقة والمواهب الرخيصة ! أما المتملقون والمرتزقون فيجب أن يكنسوا كنسا من هذا الميدان ، فليسوا يصلحون له أبدا .

ونحن المسلمين نتبع كتاباً هو قمة البلاغة العربية ولايملك فهم هذا الكتاب إلا أديب ذواقة حىّ العاطفة ذكى الفكر ، ولذلك ينبغى الابتعاد ـ فى علوم الدين كلها ـ عن ذوى المشاعر الخامدة والأذهان الخاملة فهم لايصلحون للفقه فكيف يصلحون لتفقيه غيرهم ؟ ! ! .

والبصر بالسنة الشريفة لايقدر عليه محروم من معرفة العظمة المحمدية ، مبهور بجلالها ، مربوط بخلالها ، مشغول بحسن الأسوة ودقة الاقتداء !

أما المتكلمون فى السنن وقلوبهم هواء فمن مصلحة الإسلام أن يصمتوا فهم وبال عليه !

سمعت خطيبا تكلم كثيرا وأطنب ، فقلت فى نفسى : هذه خطبة أخذت من ليل الشتاء ثلاث صفات الطول ، والظلمة والبرودة ! .

وسمع الحسن البصرى رجلا ألقى خطبة بليغة فلم يرق قلبه لها فقال للخطيب : إن بقلبى شيئا أو بقلبك ! .

والإسلام فى هذه الأيام مبتلى بفوضى هائلة فى أجهزة الدعوة ، وكثير من المتكلمين والمُفْتِين والمدرسين مصاب بضحالة الثقافة وسقام الفطرة ، وطلب الدنيا وتهيُّب الظالمين ، ذلك إلى عدد كبير من أصحاب الجهل المركّب الذين يدعون إلى وجهات نظرهم أو تقاليد بيتهم وهم يحسبون أنهم يدعون إلى الإسلام . .

حتى لقد خيّل إلىّ أن أجهزة الدعوة يديرها أحيانا بعض أعداء الإسلام ، وقد يكون الجاهل عدو نفسه إن لم يكن أداة لغيره من الأعداء .

* * *

الصحافيون الخونة لقضايانا الكبرى

رجوت ومازلت أرجو أن تهتم وسائل الإعلام العربى بشئون المسلمين حيث كانوا ، وبقضايا الإسلام المعقدة فى كثير من الأقطار ، فإن هناك قصورا أو تقصير فى هذا الميدان .

قرأ علىّ صديق يهتم بمطالعة الصحف الأجنبية عنوانا لفت نظرى فى إحدى المجلات الفرنسية «الـ .كى .جى .بى» ضد محمد ! أى الإتحاد السوفييتى يخاصم الإسلام ! قلت للصديق لا جديد فى هذا ، فعداوة الشيوعية للإسلام معروفة ، وهى نابعة من عداوتها للدين كله !

ومع ذلك فأحب استجلاء الخبر ! قال : خلال الأشهر الأخيرة ضاعفت السلطات فى آسيا الوسطى نشاطها فى مراقبة المتدينين ، وتعقُّب حركاتهم لاسيما عندما تجددت ذكرى وفاة البطل المجاهد «قربان مراد هشام» وحجَّتْ الجماهير إلى قبره تدعو له وتحيّى كفاحه .

وقربان مراد هشام واحد من أشجع القادة الذين قاوموا غزو القياصرة القدامى للبلاد الإسلامية فى وسط آسيا ، إن القرن الماضى شهد حربا صليبية مروّعة شنّها القياصرة الروس على تركستان ، وقد استمات المسلمون فى صدِّ الجيوش الزاحفة ، وأذهلت بسالتهم المهاجمين ، لم يتخلَّوْا عن شبر من الأرض إلا بعد ما تركوا فيه أثرا من دمائهم !

لكنهم عجزوا عن الصمود ، وتركهم العالم الإسلامى للقياصرة المتعصبين ، فاحتلت أرضهم وطوى تاريخهم ! وورثهم الشيوعيون بعد ثورتهم من سبعين سنة ، والمسلمون الآن ربع سكان الإتحاد السوفييتى ، والأرض الإسلامية المنهوبة نصف مساحته الرحبة ! .

هل استسلم المؤمنون المهزومون لما وقع ؟ تقول جريدة «سوفيت أزبكستان» فى الأيام الماضية تم حل جماعة إسلامية ناشطة ، واعتقل زعيمها وهو عامل فى «طشقند» وحكم عليه بالسجن سبع سنوات فى معسكر عمل خاضع لأنظمة صارمة !

كانت هذه الجماعة تبيع نشرات دينية وشرائط مسجلا عليها القرآن الكريم ، وتربط المسلمين باللغة العربية . .

كما تم فى الفترة نفسها - كما تقول الصحيفة - إغلاق مدرسة غير قانونية كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم فى ضواحى «طشقند» ، وتقول الـ«كى .جى .بى» إن مدير المدرسة مجهول ! .

هذه المعلومات كلها نشرتها صحيفة فرنسية ، أما صحفنا العربية فتفضل على نشرها صورة لعارضة أزياء ، أو خبر عن قاتل نساء ، أو آخر المحاولات لعلاج مرض الإيدز أو نشاطا دمويا لإحدى المنظمات الإنفصالية .

أما رجالنا الرابضون فى مواقف الحراسة ، المدافعون عن معالم الإسلام فى الفلبين ، وأفغانستان ، وأعماق روسيا ، وأواسط إفريقيا فأمرهم دون ذلك ! إننا نذكر هؤلاء بالحديث « **من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم** »[1] .

* * *

---

(١) رواه أحمد وغيره .

المذابح الطائفية بالهند ما تزال تفتك بنا

بين الحين والحين يتعرض المستضعفون من المسلمين لما يشبه حرب الإبادة ! فيقتل العشرات والمئات من الأولاد والشيوخ ، وتوارى جثثهم فى ضجة أو فى خفوت ، ولا يشعر القتلة بإثم أو عار ! بل قد يشعرون براحة النفس عندما ينفّسون بجرائمهم عن تعصب دينى مسعور ، أو تفوق جنسى محقور ! .

ومستبيحو الدم على هذا النحو يقترفون آثامهم وهم واثقون من أنه لا قصاص ! لأن التفكك الذى عرا المسلمين فى أرجاء الأرض جعل بعضهم لا يشعر بآلام البعض الآخر ، بل ربما جهل وجوده ، ونسى أخباره . .

وقد قرأت ما أذاعته لجنة العفو الدولية عما أصاب المسلمين فى ولاية « أوتار برادش » الهندية ، « **فإن رجال الشرطة ! هناك ذبحوا أعدادا كبيرة من المسلمين ، ومن بين الضحايا أطفال فى سن الثالثة . .**

وذكر تقرير اللجنة أن القوات الإقليمية للولاية ألقت بعدد كبير من الجثث فى الأنهار والقنوات . . كما تخلصت بالحرق من عدد آخر . . . !

وأضاف التقرير أنه تم العثور على أكثر من ٨٠ جثة منها ٢٩ مقتولة ، والأخرى ذكر أنها مفقودة . .

ونقل التقرير عن طالب نجا من المذبحة بعد سقوطه فى النهر مصابا برصاصة : أن الجنود أطلقوا دفعات من النار على الأسر الهاربة عند الشاطىء ، وأنه شاهد الأجسام وهى تسقط فى االماء . .

كما ذكر التقرير أن قرى إسلامية هوجمت . . . ، وأبيدت عائلات بأكملها . . ، وأن النار أشعلت فى المساكن ، وأمكن التعرف على ثلاثين جثة بينها عشرة أطفال . . » .

ذلك ما ذكرته واستنكرته لجنة العفو الدولية ، وطلبت من الحكومة الهندية معاقبة المسئولين عن هذه المآسى ! .

ونحن نعرف أن الضمير الوثنى لا يستيقظ أبدا ، وأن سلسلة الآلام لن تنقطع مادام المسلمون فى الأوطان الأم على الحال التى نحسُّها .

هناك جماعات تبحث عن الطعام وعن سلع غائبة بعضها من الضرورات وبعضها من المرفهات ! .

وهناك ثرثارون مشغولون برأى الدين فى الغناء والموسيقى ، والميل الحاد إلى مذهب التحريم ، والحملة العميفة على مذهب الإباحة !! .

وهناك من لا يبكى على القتلى لأنهم يتبعون المذهب الحنفى !! .

وهناك من لا يدرى مواقع المسلمين على ظهر الأرض ، ولا يشعر باهتمام لإخوان العقيدة هنا وهناك ، ولكنه يهتم أشد الاهتمام بإحفاء شاربه !! .

وأمة هذه حالها لابد أن تسقط من عين الله ، وأن تتجمع الذئاب على جيفتها ، وقانون الله الخالد هو : « إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ »[1] .

* * *

(١) سورة الرعد : ١١ .

أدعياء الدعوة وخطرهم على ديننا

فى أحد الأقطار التى زرتها سمعت شكوى عامة من قلة قطع الغيار للسيارات المعطوبة ، مما أغلى الأسعار وضاعف المشقات ! فقلت : ترى ماذا يحدث لو أغلق الباب كل الإغلاق أمام هذه القطع المطلوبة ؟ فكان الجواب الصمت ! قلت : سنركب بدل السيارات الخيل والبغال والحمير !!

وسمعت شكاة أخرى عن غلاء الأدوية وندرتها ، قلت : ما السبب ؟ وكان الجواب لاتوجد عملة صعبة نشترى بها الأدوية من صانعيها !

وسألت : ماذا يحدث لو دامت تلك الحال ؟ وكان الجواب : تستفحل العلل ويتعرض المرضى للهلاك !

قلت : أو نعود لاستعمال الأعشاب وعقاقير العطارين ! وربما عدنا إلى تعليق التعاويذ والتمائم !!

ياقوم إن تسعة أعشار العمل الصالح مجهولة لديكم ، والعمل الصالح ضميمة لابد منها إلى الإيمان ، ولا نجاة لكم فى الدنيا والآخرة إلا بإتقان الصالحات التى لا تعرفون منها غير النزر اليسير ! .

دائرة العمل الصالح تشتمل كل الصناعات المدنية والعسكرية ، وكل الأنشطة الصحية والإدارية ، وكل الجهود الزراعية والتجارية ، والراسخون فى هذه الميادين ربما كانوا أجدى على الإسلام من ثرثارين فى فضول العلوم التى نسميها دينية !

إن هؤلاء الثرثارين شغلوا الناس بقضايا هى من قبيل «**علم لاينفع وجهل لايضر**» وأذكر أنى كنت أقول لطلابى فى إحدى المحاضرات : إن مصدر الاعتقاد عندنا هو الخبر المتواتر ، فى كتاب الله وسنة رسوله ! وفوجئت بكاتب يرد علىّ فى إحدى الصحف يقول : إن هناك عقائد كثيرة من أخبار الآحاد مثل نبوة آدم ، ونزول الحجر الأسود من السماء ، والعشرة المبشرين بالجنة والإمام المهدى المنتظر .. الخ ..

وجاءنى طالب يسأل : ماذا أقول ؟ فأجبت غفر الله **للبخارى** إمام المحدثين ، إنه

ما كان يدرى هذه العقائد ! ما روى حديثا عن المهدى ، ولا عن نزول الحجر ولا عن العشرة الكرام ، ولا عن رسالة آدم ! !

أكان الإمام الكبير كافرا عندما جهل هذه الأمور أو عندما تجاوزها فى صحيحه ؟ يابنىّ هذه قضايا يتناولها العلماء بالقبول والردّ حسب المقاييس العلمية ولاتتعلق بكفر ولا إيمان ، وإنما تتعلق بالخطأ والصواب ، وخير لكم أن تعلموا المسلمين ما هم فى أمس الحاجة إليه ، لاسيما فى هذا العصر العضوض !

وقابلنى الكاتب يريد استغضابى ، وكان عابس الوجه ! فقلت ضاحكا : قال رجل لأبى حنيفة : لا أدرى نصف العلم ! فقال له أبو حنيفة : قلها مرتين تحرز العلم كله ! وقال له الحلاق : لو نزعنا الشعرة البيضاء حلّت محلها شعرتان ! فقال له : انزع الشعر الأسود كله فلعله يعود مضاعفا !!

كان علماؤنا الأولون يجمعون بين الفقه والظرف ! أما أنتم فتجمعون بين القصور والتجهم ، ما أشقى الإسلام بكم . .

* * *

خطورة المسكرات على العالم

لاحظت أن هناك اتفاقا بين العالم الشيوعى والعالم الرأسمالى على كراهية الخمر ومحاولة فطام الناس عن شربها ! وفى شكاة من المسئولين الروس أن الخسائر فادحة من مدير يصدر أوامره وهو مخمور ، وأن الخسائر فادحة كذلك من عامل يعالج آلته وهو فى غيبوبة .

والحديث موصول عن أخطار الطرق التى تنشأ من تهور السائقين السكارى ، وآلاف الضحايا كل يوم ، بل كل ساعة من جنون أولئك السائقين . .

وقد رفع الروس أخيرا سعر زجاجة الخمر نحو ستة أضعاف ، وقرروا إغلاق الحانات من السابعة مساء ! ! .

وما يقع فى روسيا صورة مشابهة لما يقع فى أوروبا وأمريكا من مآس خلقية واجتماعية واقتصادية بسبب الإقبال على الخمور ، وتهالكٌ الجماهير على شربها . .

والقوم يزنون الأضرار المحتومة بما يعترى الإنتاج من نقص ، وما يصيب الأجسام من علل ، وقلما يذكرون ما يصيب الكرامات من هوان وما يصيب الأرواح والعقول من دنس . .

وكنت أناقش قادما من روسيا عن الاضطرابات الجنسية هناك فقال لى : الشذوذ نادر ! ومن أراد الزواج فلن يتكلف أكثر من الذهاب إلى المسجِّل الحكومى ليذكر بمن تزوّج ؟

قلت : هل معنى ذلك أنه لا زنى ؟ قال : لا ! فإن هذه الفاحشة تنتشر مع انتشار الخمر وغلبة السكر وتحرك الغرائز وغيبة العقول ! .

واستطرد : إن الجماهير تحترم من المسلمين صدوفهم عن الخمر ورفضهم للخنا ! ويوم يرون مسلما يسكر فإنهم يزدرونه ويسقطون عيونهم .

وعواصم العالم الغربى تجعل من الخمر مهادا لانطلاق شهوانى ردىء ، والخمر وراء مذابح الأعراض رضا أو اغتصابا .

وهى الجسر الذى تعبر عليه المخدرات لتأتى على ما بقى من حضارة الغرب ، ولتنشىء أجيالا محقورة تفقد العلم والإيمان . .

ونتساءل : لماذا لايحرم الناس الخمر بالأسلوب الحاسم الشامل الذى وضعه الإسلام ؟ .

والجواب المحزن : لأنهم لايريدون أن يُنسب إلى الإسلام صواب ، ولايحبون القول بأنه سبق إلى خير ! .

وقد زعم قسٌ غيور أن النصرانية تحرم الخمر ، ودعا قومه إلى تركها ! .

وليته كان صادقا وكيف يصدق ، ففى الإنجيل لديهم أن عيسى شرب خمرا فى العشاء الربانى ! وكذلك شرب أنبياء العهد القديم الخمر حتى فقدوا الوعى واقترفوا المناكر . . ! !

إنه لا علاج إلا فى الإسلام فهل نعى قيمة الحظر الصارم الذى فرضه الإسلام على الخمور كلها ، ونحترم هذا الحكم ؟ .

* * *

مع سفير ألمانى أسلم!!

عندما علمت أن سفير ألمانيا فى الجزائر أعلن إسلامه من أمد قريب أحسست قدرا من السرور، ودعوت الله له أن يزيده هدى وثباتا .

كان إسمه «ووليفريد هوفمان» فاستبقى الاسم القديم وضم إليه اسما إسلاميا هو «مراد» .

ومراد فى مصطلحات الصوفية أعلى من مريد ! لأن المراد من اختارته العناية العليا ، وسبقت إليه بالحسنى .

وقد ألف الأخ الكريم عدة كتب شرح فيها إيمانه الجديد ، منها : « يوميات جرمانى أسلم » و«مدخل فلسفى إلى الإسلام » ورأيت بعض الترجمات الإنجليزية لما كتب .

الحق أن الفكر سرح بى وأنا أتأمل فى هذه القصة .

إن الشاعر الألمانى «جيته» أبدى إعجابا عميقا بتعاليم الإسلام . وقال عندما شُرِحَ له : إن كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون .

ثم إن هناك أمرا جديرا بالتسجيل ! قال لى الدكتور **حمدى زقزوق** عميد كلية أصول الدين بالقاهرة : إن لديه صورة من الإجازة العلمية التى حصل عليها الفيلسوف الألمانى «كانت» فقلت له : وما قيمة هذه الصورة ؟ !

قال : فى صدرها من أعلى كتبت الآية . . «بسم الله الرحمن الرحيم » !

وشعرت بالأسى والفخر معا ! وقلت : كتبت البسملة يوم كان العلم يمشى فى ركابنا وينطلق من كتابنا ، وتزخر به صحائفنا ! فأين نحن الآن ؟

وأعود إلى السفير الذى دخل فى الإسلام ، إن الرجل قهر عوائق كبيرة ، أولها المواريث التى آلت إليه ، وارتبط بها حينا من الدهر ، وكثير من الناس يشعر بالريبة فيما ورث ، ويساوره قلق وضيق ، ومع ذلك يبقى فى مكانته لايحب التحوُّل عنها .

وهناك أمر أخطر من هذه المواريث المريبة ، هو غربة الحق أو غموضه ! .

والإسلام تكتنفه ثقافات مغشوشة تشينه ولاتزينه ، وتكتنف أمته تقاليد اجتماعية وإدارية تدفع إلى الهرب منه . .

ومع ذلك كله فإن بعض الرجال يقتحم هذه العوائق كلها ، ولا يستريح حتى يعرف الله الواحد ، ويسلم إليه وجهه ، ويقضى بقية عمره عابدا داعيا إلى الله على بصيرة !

إن هذا السفير المهتدى جدير بالشرف الذى ساقه له القدر .

وهو يقينا أرجح عند الله من القائد اليهودى « موشى ديان » الذى ألف كتابه «الحياة مع التوراة» وأهداه إلى مستر « كارتر » وغيره من رؤساء العالم ، ولكن لماذا أذكر «ديان» هنا ؟

لأن بعض الصحف التى تصدر فى العواصم العربية تكره الدين كله ، ثم تصب جام غضبها على الإسلام وحده وتحاول النيل من رجاله ومن مستقبله .

ولو أن قائدا عربياً كتب «الحياة مع القرآن» لنبحه جَرْوٌ تائهٌ هنا أو هناك ، ولطالب بإقصائه عن قيادته لأنه رجعى ؟ ! !

إن مصابنا كبير بيد أن أملنا أكبر . . ونحن بإذن الله قادرون على تطهير بلادنا من سماسرة الاستعمار ومروِّجى أفكاره بيننا .

* * *

فضل الإسلام علينا..

الإسلام ولىّ نعمة العرب باسمه عُرفوا فى الدنيا وبتراثه بقوا أصحاب رسالة ! واقترن اسم العروبة والإسلام حتى لكأنهما عنوانان لمفهوم واحد ، حتى قال«غوستاف لوبون » : لم يعرف العالم فاتحا أرحم من العرب ، مع أن الفاتحين المسلمين من أجناس شتى ، ومع أن صناع الحضارة الإسلامية من أعراق مختلفة ! .

ولو لم يظهر محمد فى جزيرة العرب ، ويتدفق خيره فى المشارق والمغارب خلال القرون المقبلة ما كان للعرب من ذكر ، وبم يذكرون إذا لم يكن لديهم كتاب ولا سُنة؟

ربما عاشوا فى أرضهم كشعب «بورما» فى آسيا ، أو كشعب «ناميبيا » فى إفريقية . . !!

وأشرف ما يذكره العرب تزكية لأنفسهم أن الإسلام ضاعف فضائلهم ، وكبت أهواءهم وغرائزهم ، وبذلك أمكنهم من صعودٍ هم له أهل ! فلسنا حريصين على الزراية بأحد ! . .

المهم أن العرب بالإسلام كانوا ، وبغيره هانوا ، وأن كبواتهم التاريخية الكبرى جاءت من تفريطهم فى تعاليم الإسلام وتراجعهم إلى سيرتهم الجاهلية الأولى . .

وقع ذلك عندما فسدوا فى الأندلس وأترفوا واتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، فأذن الله بطردهم شر طردة !

لقد جاءوا هنا باسم الإسلام فما بقاؤهم إذا تخلّوْا عنه وأداروا ظهورهم له ؟ .

لقد تنكرت لهم الأرض ، وركبت أقفيتهم الفرنجة فلم يبقوا لهم وسْما ولا رسْما . .

ومن قبل ذلك سقطت الخلافة العربية فى بغداد ، ومات الخليفة الضائع ركلا بأقدام المغيرين ! وجلس المؤرخ العربى[1] يسطر الأحداث التى أظلمت بها الآفاق وزهقت خلالها الأرواح ، وأحرقت المكتبات ومغانى المعرفة الإنسانية الزاهرة . . كان يقول : ليت أمى لم تلدنى لأرى هذه الأحداث الهائلة . . !

---

(١) ابن الأثير .

وأصلحت الأمة الإسلامية شأنها بعد ذلك ، واستأنفت رسالتها الجليلة بقيادة العثمانيين ، وكان على العرب أن يصطلحوا مع ربهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويحملوا رسالة الإسلام الثقافية إن فاتتهم قيادته السياسية ، ولكن العرب اتَّأدوا أو استكانوا ثم تركوا الميدان خاليا !! .

وليته بقى خاليا منهم فإن لله جنودا لايتخلَّوْن عن واجبهم أبدا . .

الداهية الكبرى أن بعض العرب شرع يرسل صيحات الارتداد عن الإسلام ، ويرفع راية العلمانية ، ويتنكر لمواريث الوحى الأعلى ، ويجحد العبادات والمعاملات جميعا ، ويرفض العقيدة والشريعة ، ويقول وهو تائه العقل : إن محمدا زعيم عربى الجنس والرسالة ، وفى هذا النطاق نعمل .

قلت : بل فى هذا القبر تموتون ! .

إن محمدا لأقطار العالم أجمع ، ورسالتهُ عصارة الحق من أزل الدنيا لأبدها ، ومبلغ علمى أنكم لاتمتُّون إلى عروبة ولا إسلام ، إنكم عنصر غريب علينا ضرب عقله وراء حدودنا .

* * *

الجانب العاطفى من الإسلام..

الإحسان قمة العبادة لأنه حالة نفسية وعقلية تجمع بين مشاهدة الله ومراقبته وسط شئون الحياة المختلفة من سقم وسلامة وسفر و إقامة وقلق وطمأنينة ويأس ورجاء وجدال وقتال . . الخ

والمرء ـ وهو خال ـ قد يستجمع مشاعره ويملك أعصابه ، أما فى زحام الناس وفى معركة الخبز فالأمر صعب ، وهو يحتاج إلى علم يصفه الخبراء بالوحى الإلهى والنفس الإنسانية .

سميت هذا العلم **الجانب العاطفى من الإسلام** ، وسماه آخرون علم القلوب والأخلاق ، وأطلق عليه البعض علم الإحسان ، وشاع بين الناس باسم التصوف ، وأنكر هذه التسمية أئمة محافظون ، وعندى أنه لا مشاحة فى الاصطلاح ، والمهم هو الموضوع لا العنوان .

نعم فالموضوع كبير جليل ، إذ هو أحكام العلاقة مع الله وبسط سيطرة الدين على الباطن والظاهر أو على القلب والجوارح ، فمن الناس من يبالغ فى الوضوء والغسل ، ولكنه لايطهر نفسه من الأثرة والغفلة ، وعبادة الذات والدوران حول الشهوات . . وربما أتقن صورة الصلاة وفشل فى تدبر ما يقرأ وفى إشراب روحه حقيقة الخشوع . .

والعبادة الصحيحة حقا ارتباط بالله ، وإرادة للآخرة ، وتحرر من قيود الدنيا . .

وقد لاحظت أن الداخلين فى الإسلام من رجالات الغرب اجتذبهم لهذا الجانب الرقيق الجياش وربما يستمعون إلى الكلمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى فتهزهم من الأعماق ، والسبب واضح فهم من حضارة مادية موغلة فى عالم الحس ملتصقة بتراب الأرض ، لاترنوا إلى السماء إلا فى ساعات العسرة والحرج ! .

والغريب أن بعض المسلمين يهاجمونهم ويتهمونهم بالتخريف ، وذاك لشيوع الجهل عندنا فإن قادة السلفية المحدثين أفاضوا فى هذا العلم ، ولابن تيمية فى فتاواه مجلدان كبيران عن أحوال القلوب ، ولابن القيم مؤلفات كثيرة تبع فيها أستاذه . .

ولكن جهلة عصرنا لايدركون ، أو كما قلت : لايحسنون استقبال الداخلين فى الإسلام لقصورهم العلمى .

هناك تصوف فلسفى مرفوض لأنه تراث هندى أو يونانى مشوب بالوثنية والحلول ، ونحن ـ وسائر المسلمين ـ نحارب هذا التصوف !

على أنه لايجوز أن ننسى أن جماهير من أمتنا مشت تحت راية التصوف السنى ـ كما يقول ابن خلدون ـ ونشرت الإسلام جنوبى آسيا وشرقها ، وغربى أفريقية ووسطها ، وإذا كانت هناك أخطاء علمية فمن الذى سلم من هذه الأخطاء ؟ لعل أشد الناس اتهاما لغيرهم هم أكثر الناس تورطا فى الأوهام !

والذى أمسيت مقتنعا به أن أمتنا فقيرة جدا إلى التربية الدينية الجيدة ، أكثر من افتقارها إلى عشرات الأقوال فى فقه الوضوء ، وحركات العبادة . .

إن التربية فن عسير ، يتطلب سعة المعرفة الدينية وسعة المعرفة بأحوال النفس والمجتمع وقضايا الشباب وضغوط الأوضاع الاقتصادية وغير ذلك من شئون وشجون ! .

ما أيسر الفتوى العابرة ، وما أصعب اقتياد الناس إلى الحق !! .

* * *

حاجة العالم إلى الإسلام...

الدين فكر ثاقب ، وقلب نابض بالمشاعر الحية ، إنه عقل ذكى ووجدان جياش بالعواطف الصادقة . .

الأحمق لايتماسك فى رأسه إيمان ، وقد يكون المرء متصوراً لعناصر الإيمان ولكن فؤاده متحجر لايحس إلا نفسه ولايسمع إلا نداء مآربه ، وكلا الرجلين ناقص العقيدة غائم الوجهة . .

كان سلفنا الذين بنوا حضارتنا يجمعون بين صحة العقل وسلامة الضمير ، بالأولى عرفوا الله الواحد ، وبالثانية حثوا إليه المسير ، حتى ليقبل أحدهم على الموت وهو يقول : « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ »(1) .

وقد كثرت القراءات الدينية فى عصرنا ولكنها لم تلق الأستاذ اللبق الذى ينظمها ، ومع خطورة هذه الآفة فإن الأخطر منها فى نظرى فقدان التربية التى تصقل القلوب وتوثق رباطها بالله وتصحح النية باستمرار . . أى تجعل الجهاد فى سبيل الله لا فى سبيل آخر ، والعمل ابتغاء مرضاة الله لا ابتغاء شىء آخر . .

والعالم فى عصرنا بلغ من التقدم العلمى شأوا رفيعا بيد أنه يشعر بجفاف روحى محرق ، وهو يتطلع إلى دين يشبع عقله الذكى المكتشف ، ويروى ظمأه النفسى ، ويرده إلى ربه الذى تاه عنه وهو أحوج ما يكون إلى عطفه وحنانه .

هذا العالم يرفض تصوير العهد القديم للألوهية ! أى صلة تربطه برب إسرائيل ، رب الجنود ! الإلٰه الغضوب الغيور المنتقم المؤثر لشعبه على سائر الشعوب ؟ !

إنه يهفو إلى إله سبقت رحمته غضبه ، إله يفرح بتوبة عباده كلهم إليه ، إله

(1) سورة طه : ٨٤ .

يتحبب إلى الناس بالنعم إن تبغضوا إليه بالمعاصى ! إله يقول لسكان الأرض ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

والعالم الآن يأبى المتناقضات فى تصوره لربه ، إنه يوم ينشرح بالإيمان صدرا فهو يؤمن بإله واحد لاشريك له ، ولاند ولاضد ولا والد ولا ولد .

وبنبى يقول فى إخلاص ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۞ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2] .

وآيات القرآن الكريم تهدر بالوحدانية النقية ، وفى هديرها الممتد تطحن الإلحاد والإشراك وتغرس فى النفوس الإجلال للفرد الصمد ! .

فهل يحسن المسلمون عرض دينهم على هذه القواعد ؟

إن الإسلام هو الدين الثانى فى أوروبا وأمريكا بعد المسيحية وذلك برغم الظروف التعيسة التى يمر بها فى هذه الحقبة من تاريخه والمسلمون المعاصرون يصدون عن سبيل الله بأحوالهم المتردية ، ثم هم لايحسنون استقبال أولى الألباب من الغربيين الداخلين فى الإسلام ، ولايقدمون لهم العناصر التى شعروا بالحاجة إليها يوم كانوا محتفظين بمواريثهم القديمة .

* * *

(١) سورة الأنعام : ١٢ .   (٢) الزخرف : ٨١ : ٨٢ .

بين القومية والدين..

الوثنيات الدينية والقومية تستمد قوانينها وتقاليدها من غرائز الفرد والجماعة ، أو من حاجاتها التى تحسها ، فلا صلة لها بوحى يجىء من خارجه إما لأنها لاتؤمن بالله ورسله أصلا ، أو لأن ما لديها من وحى قديم طال عليه الأمد ففقد بريقه ، وأمسى لا أثر له .

والقوميات فى العصر الحديث قد تستضيف الدين وتمنحه مكانة إسميه ! على أن هذه المكانة مهما سمت لاتجعله رب البيت ، ولاتسمح له بصدارة ، إنه تابع وحسب .

لكن اليهود مزجوا مزجا مدهشا بين عرقهم ودينهم ، فلا تكاد تميز أحدهما عن الآخر ، واليهودية الآن آصرة دم قبل أن تكون هداية سماوية ، وإذا حدث خلاف بين تعاليم الله ومطالب الجنس فالغلبة حتما للشعب المختار !!

إن الوصايا الإلهية ستحترق فى لهب التعصب الوطنى أو الشعور القومى .

تقول الأساتذة «مريم جميلة» وهى يهودية أسلمت ، فى كتابها «الإسلام فى النظرية والتطبيق » « **إن الدين فى اليهودية مختِلط بالقومية ، ويجد الإنسان صعوبة فى التمييز بينهما ، وأن اسم «اليهودية» مشتق من «يهودا» ـ سبط يعقوب ـ واليهودى هو فرد من سبط يهودا . وحتَى الإسمٍ لهذا الدين لايحمل أى معنى لرسالة روحية إنسانية . فاليهودى ليس يهودياً بفضل اعتقاده بوحدانية الله ، وضرورة اتباع هديه المنزل للبشرية ، بل لمجرد أنه حدث أن ولد من أبوين يهوديين . فإن أصبح ملحدا معروفا ، فإنه لن يعدوا أن يكون يهوديا فى نظر قومه اليهود .**

وهكذا ، فإن افسادا كبيرا بالقومية جعل هذا الدين يفلس روحيا فى جميع مظاهره . فالإله ليس إله كل البشرية بل إله إسرائيل . والكتب السماوية ليست وحى الله للجنس البشرى عامة ، بل هى فى الدرجة الأولى كتب التاريخ اليهودى .

وداود وسليمان ، عليهما السلام ، ليسا رسولين لله بالمعنى التام ، بل هما ملكان يهوديان ليس إلا ، والخلاص عند اليهودى لايكمن فى الآخرة كما يكمن فى استعادة فلسطين . وباستثناء «يوم كفير» - يوم كفارة اليهودى أو توبتهم - فإن الأعياد والعطل التى يحتفل بها اليهود ، كيوم حانوخاه ، وبوريم ، وبيصاح -[1] هى أيام ذات أهمية قومية أكثر منها دينية .

ونتيجة لذلك ، فإن المسيح ويحيى - عليهما السلام - كُذِّبا واحتُقرا فى قومهما بوصفهما مبتدعين منشقين . لأن الرسالة التى جاءا بها لم تتفق مع الشعور القومى السائد آنذاك . ولذلك فقد نزع الله النبوة من بنى إسرائيل وأنعم بها على أشقائهم العرب » أ . هـ

ويبعثنا على الأسى أن العرب المعاصرين أوغلوا فى التحريف أكثر من خصومهم فإن اليهود خلطوا دينهم بقوميتهم على حين رأينا القومية العربية عند الكثيرين نزعة متجردة من الدين . . ! ! ! .

* * *

(١) حانوخاه : عيد التدشين ، أو عيد الشموع .
بوريم : آلام استير أو الكرنفال .
بيصاح : عيد الخروج .

حراسة اللغة العربية دين

منذ قرن والمستشرقون ودعاة الصليبية يبذلون جهودا مضنية لإنشاء أجيال من العرب والمسلمين يخدمون قضاياهم ويتبنون وجهات نظرهم وينصرونهم فى شتى الميادين ! وظاهر أنهم ـ مع الدأب والإلحاح ـ قد بلغوا أغراضهم وكونوا عصابات قوية فى أجهزة الإعلام والتربية والإقتصاد وشئون المجتمع عامة ، وشرعت هذه العصابات تؤدى أدوارها بمكر أو فى علانية ! .

وسكت أعداء الإسلام وتكلم رجالهم ! نعم لامعنى لأن يظهر سماسرة الاستعمار والتبشير إذا كان أتباعهم سيحققون المطلوب على نحو أيسر وبأسلوب أخصر !

وشرعت الأبواق المعدة بذكاء تحقق ما يعجز السادة عن تحقيقه وتقول ما كانوا يجبنون عن قوله ! .

هذا يصيح : ما اللغة العربية وعلوم الطب والهندسة والصيدلة ؟ ! إن تعريب العلوم مستحيل ! تقول له : إن اليهود نقلوا العلوم الحديثة إلى العبرية وهى لغة ميتة استخرجت من المقابر وحررت من الأكفان منذ نصف قرن ! فهل تعجز لغة حية ، لغة الوحى الإلهى عمّا حققته العبرية ؟ !

وكذلك فعل الصينيون واليابانيون وغيرهم ! أفلا يسعنا ما وسع الآخرين ؟ ولكن الذين صنعهم الغزو الثقافى يواصلون حربهم على لغة القرآن ، تلك الحرب التى شنها المستشرقون علينا منذ قرن أو يزيد ! والفرق أننا كنا نواجه خصوم الأمس بقوة . أما خصوم اليوم فقد استمكنوا من خناقنا يريدون فرض خيانتهم علينا !

فى قضايا أخلاقية وعقائدية وفى أحكام أصلية وفرعية تقتحم خطوط الإسلام الدفاعية ببأس شديد ، ونرى الضربات الموجعة تتجه إلى النواصى والأقدام .

من يوجهها ؟ لقد سكت المستشرقون والمبشرون ، وناب عنهم أناس من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ويتسللون خلف صفوفنا وبين ظهرانينا ، ويوقعون بلبلة شديدة فى

حياتنا الفكرية والدينية عامة ، وأعداؤنا من وراء الحدود يضحكون وهم يرون تلامذتهم يؤدون دورهم بنجاح ! .

أشعر بأن هناك ردة حقيقية لدى بعض الأقلام التى تكتب ويفسح لها المجال ، وتبعثر بذور الفتنة وتنتظر نضجها بثقة وأمان ، وتقوم بين الحين والحين بغارة على شعائرنا وهى آمنة من كل عقاب ، بل وهى تنتظر المكافأة على ما ألحقته بالإسلام وأمته من جراح ! .

والآن نرى القوميات الكافرة بالإسلام ترفع رأسها ، والنزعات المعادية لشرائع الله تهين الأحكام السماوية وتعارض عودتها بتبجح ، وأنصار الله يطاردون أشد مما يطارد باعة المخدرات !

والذين يحملون رايات الجاهلية الجديدة هم أناس ضربت عقولهم فى عواصم الاستعمار العالمى أى أنها عقول لاتحمل أفكارا ، إنما تحمل أهواء جامحة وتخدم ضغائن كالحة .

* * *

خط صليبى ثابت..

من تسعة قرون والسياسة الدينية لفرنسا تأخذ نهجا ثابتا وإن اختلفت أنظمة الحكم ! فخلال الحملات الصليبية فى العصور الوسطى أغار لويس التاسع على مصر ولقى هزيمة كبرى حبس عقبها فى سجن المنصورة ، ثم أطلق من دار ابن لقمان بعد أداء فدية غالية .

ولكن القديس لويس ـ هكذا يسمَّى ـ نجا من مصر ليعاود الغارة على تونس حيث صرعه المرض وراء أسوارها ، وفشلت الحملة . .

وبعد بضعة قرون أغار نابليون على مصر ، ثم تركها على عجل لظروف لم تكن فى الحسبان ، لكن الإمبراطور نابليون الثالث كان مشغولا بالأوضاع الدينية فى الشام . متابعا للعراك المتصل بين الدروز والموارنة .

وحدث أن الدروز أنزلوا هزيمة فادحة بالموارنة . فَنَجَدَهم الإمبراطور بجيش أنقذهم ودعم جانبهم واستطاع إرغام العثمانيين على منحهم استقلالا ذاتيا فى الجبل الذى يعيشون فيه .

وبعد الحرب العالمية الأولى انتزع الفرنسيون لواءين كبيرين من سوريا هما لواء طرابلس ولواء عكار وضموهما إلى الجبل المارونى ، وأنشأوا لبنانا كبيرا يضم مسلمين سُنِّيين وشيعة ودروزا وأرمن وروما أرثوذكس . . الخ وجعلوا السلطة الرئيسية فى هذا الكيان الجديد للموارنة الذين التحقوا بالحضارة الفرنسية لغة وأدبا وتقاليدا وقيما ، وحاولوا فرض صبغتهم على جميع الطوائف والمذاهب .

ومع أن المسلمين وهم الكثرة ارتضوا العلمانية نظاما يشمل السكان جميعا ، ويمكن تقاسم السلطة فيه على نحو عادل إلا أن فرنسا وحلفاءها أبوا إلا جعل السيادة للكنيسة المارونية وحدها . . ومن هنا اندلعت الحرب التى لاتزال تشتعل من بضعة عشر عاما .

وقد تدخلت فرنسا اليوم بزعامة فرانسوا ميتران الاشتراكى الحرّ كى تدعم الموارنة وتعيد لهم السلطة !

واجتمع مجلس الأمن للمرة الأولى فى حياته كى يبحث نزاعا داخليا ، ويصدر إليه توجيهاته !! .

ونسأل : لماذا لم يفعل مجلس الأمن فعلته هذه فى فلسطين ، حيث الخسائر أفدح ، والدماء أغزر ، والمعتقلات مشحونة بالأسرى ، والمواطنون يطردون وراء الحدود وبيوتهم تنسف أمام أعينهم ؟ ! !

إن الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات قَبِل طوعا أو كرها حكومة علمانية على نصف التراب الوطنى لقومه ، ولكن العالم الغربى يرفض إلى الآن هذا الحل الملىء بالغبن ! لماذا ؟ لأنه يريد تهويد فلسطين كما يريد تنصير لبنان .

ونسأل مرة أخرى : إذا ترأس العماد « ميشيل عون » حكومة من صناعته ماذا سيفعل بجيش لبنان الجنوبى المتعاون مع إسرائيل وكثرته من الموارنة ؟ وهل سيسمح لعرب فلسطين بالبقاء لاجئين مكافحين على أرض لبنان الذى يحكمه ؟

إننا فى محنة عقلية وخلقية ! وليس للمسلمين «بابا» يصلى من أجلهم ويستصرخ الناس لهم ! بل إن المسلمين أنفسهم حيارى لايدرون أين يساقون ؟ !

إن هيئة الأمم المختلفة تمسى هيئة الأمم المتحدة فى مواجهتهم ! ومجلس الخوف يمسى مجلس الأمن حين يوجه النداء لهم ! بماذا ؟ بالتصالح ! على أى أساس ؟ على أساس انتصار الموارنة فى لبنان ، وانتصار الصهاينة فى فلسطين ! أى على أساس هلاكنا !!

وأرى أن التبعة تقع علينا وحدنا .

* * *

دعوا الخلافات القديمة..

أحاول قدر الاستطاعة ألا يتحول الخلاف إلى عداوة ، وأعرف أن فساد ذات البين ضارٌ بديننا ودنيانا .

وإذا رأيت نية حسنة وراء رأى معارض استثمرتها لمصلحة أمتنا واستبقاء وحدتها .

والظروف التى أحاطت بى . . وأنا أطلب العلم فى الأزهر ، أعانتنى على ذلك ، فقد ألِفْتُ اختلاف وجهات النظر ، وسماع الأدلة المتباينة ، حتى تكسرت النصال على النَصال .

وأضرب مثالين استخرجتهما من ذكريات بعيدة لسبب سوف يعرفه القارىء .

كان الشيخ يشرح حديث نزول الربً سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا فى ثلث الليل الأخير يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ، ثم يقول : الحديث أنكرته المعتزلة ، لأن النزول من أمارات الحدوث وهو مستحيل على الله ، فهو لن يدع مكانا إلى مكان آخر !

وقال علماء السلف : هو نزول لانعرف كنهه يليق بذاته سبحانه وتعالى ، وقال الأشاعرة : إن العبارة مجاز عن تجلِّيه جل شأنه على عباده فى هذه الساعات المباركة . .

ومثال آخر : ورد فى السُنة أن الله خلق آدم على صورته .

قال الشيخ : أنكر المعتزلة الحديث وقالوا : إنه من أساطير العهد القديم فى سفر التكوين .

وقال علماء السلف : إن الله ليس كمثله شىء ونُفوِّض حقيقة هذه الصورة إلى الله تعالى ، مع إثباتها له .

وقال الأشاعرة : للحديث معنيان كلاهما صحيح وما عداهما باطل .

المعنى الأول أن آدم وجد على صورته الإنسانية المعرفة وليس كما يزعم علماء النشوء والإرتقاء أنه كان قرداً مثلا ثم صار إنسانا .

والمعنى الثانى أن الصورة هى الصفة ، ويستحيل على قيم السماوات والأرض ورب الملكوت الأعلى أن يشكل من طينة الأرض تمثالا على هيئته ـ سبحانه ـ ولكنه نفخ فى الجسد من روحه فأصبح الإنسان عاقلا قادرا مريدا متكلما إلى آخره . .

ولا أستطرد فى ذكر مواضع الخلاف ، فهى فى نظرى قد صارت فى ذمة التاريخ ، لماذا ؟

لقد كان المسلمون يختلفون بعد ما دانت الدنيا لهم ، وبعدما سيطرت جيوشهم على المشارق والمغارب ، كانوا يطعمون من أرضهم ، ويلبسون من نسيجهم ، ويصنعون أسلحتهم من معادنهم ، ويتداوَوْن من عقاقيرهم . . كان هذا الخلاف لونا من الترف العقلى يسود الحضارات المنتصرة المستقرة .

ثم إن خلافا كثيرا نشأ عن ترجمة فلسفة يونان وهذه الفلسفة قد سقطت عن عرشها فى العصر الحديث ، فأمسى ما انبنى عليها سلبا كان أم إيجابا لا موضوع له .

وبقى لنا نحن المسلمين ما نعض عليه بالنواجذ ، ما نتشبث به إلى آخر رمق ، ما نحيا به ونموت عليه ، وهو كتاب الله وسُنة نبينا .

وقد قامت دولة الخلافة وانسابت جيوش التحرير فى أقطار الأرض وهى لاتعرف شيئا عن هذا الخلاف كله ، فليكن بناؤنا على الدعائم التى وضعها أولئك الآباء .

إننى قرأت باستنكار كتابا من تأليف أحد علماء « نجد » يعيد فيه الحرب القديمة بين المتكلمين ، وعنوان الكتاب «عقيدة أهل الإيمان فى خلق آدم على صورة الرحمن» ! .

وودت لو عاش هؤلاء العلماء فى عصرهم ، وأحسوا مشكلات أمتهم !

إن الموضوع الذى أثاره لايتصل بكفر ولا إيمان ، وهو إن دلّ على شىء فعلى أن الغيبوبة الفكرية التى تسيطر على بعضنا تهدد مستقبلنا كله .

الأخ الكاتب لايعرف أن الأقمار الصناعية تصور الآن أسطح النجوم البعيدة ، وأعماق البحار القريبة ، فى وقت يرتدى هو ملابسه من مصانع الشرق والغرب لأننا لانصنع شيئا غير إثارة المشكلات التى ماتت ، وإمساك الهراوات لضرب مخالفينا فى الرأى .

قدرة اليهود العسكرية...!!

قبيل احتفال اليهود بمرور أربعين سنة على إنشاء دولتهم فى فلسطين ، قاموا بغارة جريئة على تونس انتهت بمقتل القائد العربى للكتائب الفلسطينية «خليل الوزير» وعدد من الحراس .

ثم ركب اليهود البحر عائدين من حيث أتوا ، مخترقين أمواجه فى زهو ، ومستمتعين بنسيمه الرطب ، كأنهم ما ارتكبوا جرما ، أو عانوا من رحلتهم نصبا !

لقد أطرقت كئيبا خزيان عندما قرأت النبأ الدامى ، فتلك هى الغارة الثانية التى يقوم بها اليهود على تونس دون اكتراث أو مبالاة أو خشية عقاب . .

وزادنى غيظا أن مندوب انجلترا فى مجلس الأمن قال : إن العالم لايعرف من القاتل ، أما مندوب الولايات المتحدة فهو يوزع بسماته بين الشماتة والسخرية ، ووظيفته معروفة هى حماية إسرائيل من قرار يدينها . . !

لم أحس أن الضعف جريمة ورذيلة ومصيبة إلا وأنا أتابع ما يتخذ ضد العرب من قرارات فى الهيئات الدولية .

هذه الدول لاتحترم إلا من له ناب وظفر ، إنها تستمع إلى كلامه بتهيب وتأدب ، أما الحق الأعزل فإن مجلس الأمن هو صانع كفنه ومهيل التراب عليه فى صفاقة نادرة لاسيما إذا كان الحق يمس العرب ، أو يرجح كفتهم ، أن وأده فريضة لازمة نافذة . .!

وسألت قومى : لماذا يخرج المعتدون من أرضكم سالمين ؟ لماذا لم تدقّ أعناقهم ثمن جراءتهم ؟ وأجابنى مستمع قريب : إن رجال الأمن لايعرفون نيات اللصوص عندما يقررون السطو على بيت واغتيال من فيه وفى طيات الختل والظلام يفعلون فعلتهم ثم يفرون !

قلت : ذاك لو لم تكن هناك حرب قائمة ، وأراض محتلة ، وانتفاضة شعب يقاوم

بجهده المحدود أحدث أسلحة العالم وأمكر شعوب الأرض . . إن حسن الظن - والحالة هذه - عجز ، وعدم الاقتصاص من القتلة مهانة .

وعدت بذاكرتى إلى أدبنا العربى القديم أردد أبياتا قالها شاعر يشكو قومه ، ويتألم لتخاذلهم وقلة أخذهم لأنفسهم :

لو كنت من مـــازن لم تســـتـــبح أبلى

بنو اللقــيطة من ذهل بن شـــيــبـــانا

لكن قـــومى وإن كـــانوا ذوى نفـــر

ليـــســـوا من الشـــر فى شىء وإن هانا

يجـــزون من ظلم أهل الظلم مـــغــفـــرة

ومن اســـاءة أهل الســـوء احـــســـانا

لماذا ألجأ إلى الشعر فى هذا الموقف العصيب ؟ لماذا لا أذكر كلام الله وسيرة نبيه البطل ؟

إننى أفعل ذلك لأستنهض ناسا ينتمون إلى العروبة! ولو كان الإنتماء إلى الإسلام لقلت « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ »[1] .

لكن الإسلام استبعد ولايزال مستبعدا من المعركة ، على حين بقيت اليهودية تصول وتجول .

* * *

(١) سورة التوبة : ١٤ .

عظمة محمد (١)

دكتور « مايكل هارت » عالم الفضاء الأمريكى ألف كتابا عن المائة الأوائل من عظماء العالم وعباقرته وتاركى أعمق الآثار فى تاريخه ، ورأى بمقاييسه العقلية المجردة أن محمدا نبى الإسلام هو طليعة أولئك المائة ، وقمتهم الشامخة وأنه يصعب ـ أو قل يستحيل ـ أن يتقدمه أحد ! .

والأمر واضح بالنسبة إلى حملة الوحى الإلهى ، فقد مكث نوح يدعو إلى الله عشرة قرون ثم كان أتباعه آخر الأمر لا يملأون ظهر سفينة ! وأما إبراهيم فإن صحائف وحيه تلاشت فى أعقاب وفاته . .

وبذل موسى جهودا عصيبة ليجعل من بنى إسرائيل شعبا يعرف ربه ويتأدب معه ويسدى الخير للناس فإذا بنوا إسرائيل يجعلون الألوهية احتكارا على جنسهم ، وكأن الله خلق السموات والأرض لهم وحدهم وكأن أهل الأرض خلقوا لخدمتهم . . ومع ذلك كله فما رفعوا لله راية ولا احترموا له وحيا ولا اتخذوا عنده ذخرا ، وما بين أيديهم من تراث يؤكد هذه المزاعم !

وأما المسيح عيسى بن مريم فقد كان إنسانا واسع الرقة ، باذخ الشرف ، يرحم المستضعفين ويضىء الطريق للخاطئين ، فإذا نظرت إلى المتمسحين باسمه ، وجدت للرذيلة أسواقا مائجة .

ما أظن العالم رأى نظير لها فى إشاعة الخنا و إقامة الربا ، ونسيان الآخرة وعبادة الدنيا .

والغريب أن أتباع المسيح تكاتفوا مع اليهود على نصرة قضاياهم ، و إهانة الحق والشرف من أجلهم وتمكينهم من أعناق العرب ليكسروها أو يذلوها .

وتسأل : أين بقايا الوحى التى تجعل هؤلاء وأولئك أهل الكتاب ؟ لقد استخفتْ نظريا وعمليا !

يقول الدكتور هارت : إن اختيارى **محمدا** ليكون الأول فى قائمة أهم رجال التاريخ ! قد يدهش القراء ! ولكنه الرجل الوحيد فى تاريخ الإنسانية كله الذى حقق أعلى نجاح على المستويين الدينى والدنيوى . . وهو الرجل الوحيد الذى أتم رسالته الدينية كاملة ، حيث تحددت كل أحكامها وآمنت بها جماهير كثيفة . .

ولقد أقام إلى جانب الدين دولة جديدة ، ووحد القبائل فى شعب ، والشعوب فى أمة ، ووضع كل أسس حياتها ورسم شئون دنياها ووضعها فى موضع الإنطلاق إلى العالم أجمع قبل أن يرحل عن هذه الحياة .

وهذا حق ، فلم يوجد فى أصحاب الرسالات المعروفة الآن من أقام دولة لدينه تبسط سلطانها على أرض فيحاء ، وتتحرك بدستورها جماعات من القوّامين الصوّامين المجاهدين ، إلاّ **محمد** ، تمّ ذلك فى حياته وتحت إشرافه وبين سمعه وبصره .

أما موسى فقد مات فى أرض التيه ، لم يعرف له قبر ، وزعم اليهود أنهم قتلوا عيسى ، وأعجزوه عن تبليغ رسالته !

ونحن نعلم أن اليهود كذبة ، وأن من يصدقهم أسوأ منهم . .

وإذا كان عيسى لم يتم رسالته ، فإن خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، أنصف موسى وعيسى ونوحا وإبراهيم ، وبلغ عنهم ما ماتوا دونه ، إن المرسلين كلهم تلتقى تعاليمهم فى رسالة **محمد** ، لقد وصل ما انقطعوا عنه واستبقاه إلى آخر الدهر .

* * *

عظمة محمد (٢)

الباحثون عن أسرار العظمة فى شخص محمد ، من كُتَّاب أوروبا وأمريكا يحدِّقون بأبصارهم فى زوايا شتى من السيرة النبوية ويستخلصون نتائج جديرة بالتأمل . .

وأرى أن السرَّ فى تلك العظمة القدرة الفريدة على خلق أمة تطلع على العالم زاكية هادية تزهق الباطل وتحيى الحق وتنقل العالم من الظلمة إلى النور .

إنه لم ينقل العرب من الجاهلية إلى الحنيفية وحسب بل زودهم بطاقات روحية وفكرية يستطيعون بها تغيير الدنيا ، ومعنى هذا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوجد أجهزة إدارية وثقافية وعسكرية ، وقيادات روحية ومدنية هزمت القوى الطاغية فى الشرق والغرب ، ووضعت يدها على مواريثهم ، ثم أنشأت من ذلك الحطام القديم حضارة أعلت الهتاف لله والعمل بهداه ! .

لقد تحول الحكم إلى مسئولية ، والحاكم إلى أجير للأمة يحاسب أمام الله وأمام الناس عن سيرته !

أكان ذلك معروفا فى شرق أو غرب ؟ كلا ، كانت الشعوب درج السلم الذى يصعد فيه طلاب العلى والمجد ، حتى غيرَّ الخلفاء الراشدون هذا المفهوم الوثنى !

وكان المنتصر يدلّ على الناس بعنصره ويزعم أنه أرفع منهم درجة ! لكن الفاتحين الجدد يحملون للناس كتابا يقول لهم ، ويقول للناس معهم : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ . . ﴾[1] لا قيمة للدعاوى الفارغة والآمال الغرور إنما القيمة للجهد والعرق ـ ﴿ . . مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[2] ـ الجزاء مربوط بالعمل وليس لامرئ إلا ما سعى مهما كان جنسه أو نسبه .

يقول الدكتور هارت : « إن معظم الذين غيروا التاريخ ظهروا فى أحد المراكز

(١) ، (٢) سورة النساء : ١٢٣ .

الحضارية العالمية ، أى فى بيئة يُؤْلَفُ ظهور العظماء بها ، لكن محمدا هو الوحيد الذى نشأ فى بقعة من الصحراء الجرداء تفقد جميع مقومات الحضارة والتقدم ، وقد جعل من البدو السذج الدائمى الاحتراب قوة معنوية هائلة قهرت فارس وبيزنطة المتقدمين بما لايقاس .

ونحن نجد فى تاريخ الغزو فى كل زمان ومكان أن الغزو يكون عسكريا فقط . أما فى حال الرسالة المحمدية فإن معظم البلاد التى فتحها الخلفاء استعربت ، وتغيرت دينا ولسانا وقومية من الخليج إلى الأطلس غربا و إلى السودان جنوبا ، ثم بقيت أمة واحدة إلى يوم الناس هذا . .

كذلك لايوجد فى تاريخ الرسالات نصٌ نقل عن رجلٍ واحد وبقى بحروفه كاملا دون تحريف طوال هذه الأعصار المتتابعة سوى هذا القرآن الذى بلّغه محمد . .» أ . هـ .

نعم المصحف هو المصحف ، لم يتغير ما فى الأرض عن اللوح المحفوظ فى السماء .

المصحف هو المصحف لاتختلف نسخة عن أخرى فى أرجاء القارات الخمس ، الصوت المتردد فى المحاريب منذ خمسة عشر قرنا لايزال يرنّ صداه لم تتغير نغمة ولالفظة ، وما يعرف هذا لكتاب فى الأولين والآخرين . .

كذلك صنع القرآن العرب قديما ، فقادوا بجدارة ، فما حال العرب الآن ؟ وما مكانهم من الكتاب ؟ وما دهاهم حتى تراجعوا عن عزهم الأول ؟

* * *

عظمة محمد (٣)

قلت لرجل من المشتغلين بعلوم الدين : أتعرف سنة محمد صلى الله عليه وسلم فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ؟ قال : ما تعنى ؟ قلت : كان العرب أمة فقيرة متخلفة ، فلما جاءهم خاتم الرسل أضحوا به أمة ذات عافية وحضارة ، يتعلم منها الآخرون بعدما كانت هى غارقة فى الجهل ، وتمرح فى بحبوحة من العيش بعد أن كانت تكتفى بالتمر والماء .

ما سرّ هذا التغيرّ ؟ إن الإناء المثلوم لايبقى به السئل وقد كان جهد صاحب الرسالة أن يصحح الكيان الإنسانى للأمة ، ثم يفرغ فيها بعدئذ حقائق الوحى ومعادن الدين الجديد ! .

نعم لقد أعاد بالإسلام تشكيل الأمة العربية ، فإذا العقل الكسول ينشط للتفكير ، وإذا لطبع الجموح يستمسك بالأدب ، وإذا البصر الكليل يرمق الآفاق ، وإذا المزدلفون أمام الأوثان يدوسونها بعد ما أشرق على بصائرهم التوحيد ، وعرفوا من هم؟ ومن يعبدون ؟

إن الإسلام جعل العرب أثقل وزنا فى كل ميدان مادى أو معنوى ! إذا كان غيرهم عاطلا فهم عاملون ، وإذا كان مخطئا فهم مصيبون ، وإذا كان مرذولا فهم الأفاضل الموقَّرون ! .

كان الإكتفاء الذاتى ـ وهو خلق يعرفه الأبطال ـ صفة للعرب وهم يقاومون الاستعمار الباطش بالشعوب شرقا وغربا حتى إذا تم النصر عاد العرب يأخذون الحياة ويعطون ، ويأكلون ويتصدقون ، وتعتمد أجهزة الجهاد بينهم على إنتاج لايشينه قصور ، وفيض لايلحقه غيض !

ثم غدرنا برسالتنا وعاقبنا القدر ! الاكتفاء الذاتى لدى المجاهدين الأولين حسبه السخفاء فقرا ، فدعوا إلى الفقر واستداروا للدنيا وصفرت أيديهم من كل خير ، وهل يستطيع نصرة الحق مسكين يتضوّر ؟

إن اليد السفلى لاتستطيع أن تخدم المثل العليا والشعوب التى تقترض لتعيش أعجز من أن تحمل رسالة ! وكيف يقدم الإيمان لغيره من يجثوا أمام الغير لحاجة تدنيه وتخزيه ! .

فى تقرير أمامى أن العرب أكبر مستوردى الغذاء فى العالم .

إذ بلغ ما استوردوه من المواد الغذائية سنة ١٩٨٠م ١٤ مليارات من الدولارات ارتفعت سنة ١٩٨٥م إلى ٢٥ مليار ووصلت سنة ١٩٨٧م إلى ٣٠ مليارا .

ويأكل العرب يوميا ٧٥٠ مليون رغيف المستورد منها ٥٠٠ مليون رغيف . كما أنهم يستهلكون ٧٧٪ من كل ما يدخل السوق العالمية من الأغنام والماعز ، ٢٠٪ من الألبان ومنتجاتها .

والأرض العربية تجرى فيها أنهار النيل والدجلة والفرات وغيرها ، وتستطيع أن تزرع كل شىء وأن تأكل وتبيع وتتصدق . .

ولكن المشكلة قلة العاملين ، وكثرة العاطلين ، فأين عمل الدين بين هؤلاء الخاملين ؟ !

إن الإسلاميين مشغولون بأمور أخرى ، وهم - أمام شُعب الإيمان - لايدرون ما الرأس ؟ وما الذنب ؟ وأمام البنيان المنهدم . يريدون إقامة السقف قبل إقامة الجدران !

وهم مسترخون فى مطالب العقيدة وأصول الأخلاق وتصحيح التقاليد الشائعة وإحكام مناهج التربية على حين يكثر الصياح حول وظائف الحكومة ومسالك الحاكمين !

من يأبى الحكم بما أنزل الله ؟ لا يأباه إلا كفورا ! لكن هذا الحكم لايقيمه إلا من أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا قلوبهم له ، وجعلوا من حياتهم الخاصة وتربيتهم الزاكية وسيرتهم العاطرة ما يصدِّق الظنون وينعش الآمال . .

* * *

اللهُ جَلّ جَلالهُ...

سألنى : ما الفرق بين وحدة الوجود ووحدة الشهود ؟ فقلت له : وحدة الشهود إحساس داخلى يطغى على مشاعر المرء كلها فيرى الله فى كل شىء ! أعنى أنه يرى الشمس تجرى لمستقر لها ويعلم أنها ليست لها أجنحة تطير بها فى الفضاء ، وليست بها أجهزة كالسيارات والطائرات تحرق الوقود ، وتنطلق بها إلى الأمام ، فمن يسيرها طوال الدهر دون كلل أو ملل ؟ إنه الله ! فهو يرى الله أكثر مما يرى القرص المتوقد فى كبد السماء . .

وكذلك يرى الإنسان القمر ، تلقى الأرض عليه ظلالها فيضيىء منه هذا الجانب حينا ، ويضىء منه ذلك الجانب حينا آخر ، وقد تنحسر عنه الظلال كلها فيظهر بدرا مكتمل الصفحة ! إن ذلك ليس نتيجة اتفاق معقود بين الأرض والقمر ، سجل أمام المحاكم أم لم يسجل ! إنها مشيئة من أراد إنارة ليل الناس بمصباح هادىء السنا ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[1] .

وننزل من السماء إلى الأرض فنرى الذين غمرتهم وحدة الشهود ينظرون إلى الزروع التى تحمل حب الحصيد وإلى النخيل التى يزينها الطلع النضيد ، فلا يرون عمل الفلاح ولاعمل الأرض ، ماذا عمل هذا أو عمل تلك ؟ إن الذى حوّل الطين إلى أغذية وطعوم وألوان ، هو الله الرحمن . .

وتطّرد وحدة الشهود حتى تجعل المؤمن يرى الدول وهى تعلو أو تهوى ، والأفراد وهم يضحكون أو يبكون ، فيحسّ هيمنة القدر على كل شىء ، وأسماء الله الحسنى تكمن فى سنن الكون كلها وقوانينه الخفية والجلية ، فلايرى إلا الله على نحو ما قال الشاعر :

وفى كل شىء له آية ... تدلّ على أنه الواحد

---

(١) سورة الفرقان : ٦١ .

وهذا الذى نقوله من قريب من قول علماء الكلام ، إن وجود الله سبحانه نابع من ذاته ! أما هذا العالم الذى نعيش فيه فليس له من ذاته وجود ، وإنما يستمد وجوده أنًا بعد آن من امداد الله له . .

ولو انقطع هذا الإمداد لحظة لهلك العالم ، إن تيار الإيجاد كتيار الكهرباء الذى يضىء مدننا وقرانا ، لو انقطع حلّ الظلام فورا . .

هذا معنى وحدة الشهود وهو معنى لا غبار عليه بل هو قمة اليقين . .

أما وحدة الوجود فهى عنوان من عناوين الكفر بالخالق الأعلى ، إذ مبناها أنه لاشىء وراء مادة هذا العالم ، فهى من تلقاء نفسها تسكن أو تتحرك ، وإذا فرضنا ألوهية كما يقول الأنبياء جميعا فإن هذا الإله حالّ فى الكون حلول الروح فى الجسد ، لا فكاك بين حالّ ومحلول به ، أو خلاف بين البيت وساكنه كلاهما قديم وهما شىء واحد . .

وهذا الكلام ينتهى يقينا بمقولة : لا إله والحياة مادة . .

وافتراض الألوهية فيه نوع من التوهم إذ لاوجود إلا للعالم المحسوس .

ونحن لانرى أغبى ولا أسفه ممن يتصور الجنين قد خلقته حوايا البطن ، أو اشترك الأبوان فى منح الحياة والذكاء له . .

إن الأرض مخلوق لا خالق ، والإنسان موجد لا موجود ، ومجعول لا جاعل ، والكفار فى نظرى نوع من الأنعام .

* * *

العسكريون والحكم...

هذه قضية يوجس الناس خيفة من الحديث فيها أو التعرض لها ، قضية استيلاء العسكريين على أغلب الوظائف المدنية العليا ، وحرمان الجيش من تجاربهم ومواهبهم التى تكونت لديهم على المدى الطويل ، مع أن الأمة العربية تواجه عدوا ماكرا ماهرا يضاعف إستعداده للبطش بها وفرض نفسه عليها . .

إن العرب ، والحالة هذه ، محتاجون إلى رجال يجيدون صناعة الموت والفداء ، وينظرون إلى الجيش نظرة الصياد إلى البحر ، والفلاح إلى الحقل ، والعابد إلى المحراب بل نظرة الطائر إلى الجو الذى يحلق فيه ويروح ويغدو فى آفاقه . .

ولا مساغ أبدا لنقل الضابط من العمل الذى له كى يكون مدير «بنك» أو رئيس شركة أو حاكم إقليم أو نائب وزير . . الخ .

إن الجيوش العربية تحتاج إلى خبراء محترفين فى فن القتال ، وقد اتسعت فى هذا العصر ميادين الكفاح العسكرى ، واستبحرت الثقافات البرية والبحرية والجوية استبحارا تنوء به الكواهل الصلبة ، ويتطلب مجموعة من العبقريات العظيمة ، ذلك فضلا عن الجهود التى يجب توفرها للتدريبات والمناورات وملاحقة الجديد من الكشوف والمخترعات . .!

وأحسب أن شغل العسكريين بغير مهامهم العظمى هو بعض الأسباب الكامنة وراء هزيمة ١٩٦٧ التى مرغت العرب فى الأوحال .

وقد شعرت بإعجاب كبير عندما نوقشت رسالة علمية فى كلية التجارة بجامعة أسيوط عنوانها . . العسكريون ودورهم فى الحكم العالم الثالث مع التطبيق على مصر من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠ . .

فالقضية كان لابد من إثارتها واستبانة النتائج الحزينة التى تقترن بها ، ومن الجبن ترك الأخطاء تقع دون تصويب أو ترك الخطيئات تقع دون إنكار . .

كما أنى تتبعت بالرضا والإكبار قول الدكتور أحمد عامر أستاذ العلوم السياسية وعميد كلية التجارة بجامعة قناة السويس : « إن بعض الحكام العسكريين لم يفعلوا شيئا من أجل التنمية الاقتصادية أو دفع مسيرة الديمقراطية ، وإن المشكلات الداخلية فى عهدهم تفاقمت وزادت عما كانت عليه أيام الاستعمار الأجنبى » .

من المؤسف أن يكون الحكم وسيلة لتحقيق مآرب خاصة ، وأن تكون الوظائف مغنما لا عبئا ثقيلا ، أو كما يعبر البعض تشريفاً لاتكليفاً . .

وقد انتهت هذه الأيام بيد أن عبرتها باقية ، وعلينا أن نختار للمناصب مدنية كانت أو عسكرية من يعبدون الله بتوليها ، ومن يتصبَّبون عرقا وهم يباشرون أداءها . . وأن ننظر إلى الجيش خاصة على أنه درعنا الواقية وسياج حياتنا الخاصة والعامة ، فنمنحه أثمن ما نملك من قوى مادية وأدبية .

* * *

كيف تمنح هذه الجائزة؟

المسئولون عن جائزة نوبل يبحثون فى أرجاء العالم عن أكفأ رجل لنيل هذه الجائزة الرفيعة ، فى شتى الفروع العلمية والأدبية التى تقررت لها .

ولا يدور فى خلدهم أى بحث عن إيمان الرجل أو إلحاده إذا كان مبرِّزا من الناحية الفنية! ولذلك لم يترددوا فى منح جائزتهم للفيلسوف الوجودى «جان بول سارتر» مع أنه جرىء الكفر منكور السيرة . .

والمفاجأة التى وقعت أن «سارتر» رفضها بكبرياء لأنه يزدرى نوبل ومؤسسته ، ويحيا وفق قيم أخرى ليست موضع حديثنا . . !

وقد تتدخل معان ذات بال فى سوق الجائزة إلى قوم آخرين ، فقد نالتها الراهبة «تريزا» أكبر داعية للنصرانية فى الهند لأعمالها الاجتماعية الجليلة .

وأرى أنها جديرة بها ، ولاريب أنها وجَّهت قيمتها المادية إلى أعمال البر التى تشرف عليها .

كما نال الجائزة «مناحم بيجن» أستاذ «اسحاق شامير» وكلا الرجلين يؤمن بأن اليهود ملاّك العالم وملوكه ، وسادة العرب وأصحاب الأرض التى يعيشون عليها ! !

وهى فلسفة تشبه فلسفة قطاع الطريق وهم يقومون بالسلب والنهب ، ويجتاحون حقوق الآخرين بما أتيح لهم من قوة . .

أما أنور السادات فله شأن آخر لا نذكره هنا !

وقد نال الجائزة أخيرا الأستاذ « **نجيب محفوظ** » وهو قصاص كبير وروائى متمكن والرجل ليس دون من نالوها من قبل ، وقد يكون خيرا منهم ، ولكن لفت نظرى أن من بين الأعمال التى رشحته لنيلها رواية «أولاد حارتنا» التى نشرت فى الخمسينات بصحيفة الأهرام . . .

إن هذه الرواية هجوم على عقيدة الألوهية ، ورفض للوحى كله ، وإنكار ساخر لنبوات موسى وعيسى ومحمد ، ونزعة علمانية تجعل الدين أوهاما ومهازل . .

وأذكر أن الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة كتب تقريرا إضافيا عنها ، وأن الدكتور أحمد الشرباصى قام بالعمل نفسه كما أنى كتبت تقريرا عن الرواية .

والتقت هذه التقارير عند الأستاذ حسن صبرى الخولى الرقيب العام يومئذ ! وقد رجع إلى الرئيس عبد الناصر ثم صادر الرواية ومنع تداولها تسكينا لثورة المؤمنين . .

واليوم يتحدث البعض عن إبطال المصادرة و إعادة النشر !

وقد كنت أظن المؤلف ـ وهو فى العقد الثامن من عمره ـ وفى رحلة العودة إلى الله يحب ترك الرواية فى مرقدها ، طارحا ما فيها من أفكار .

فهل أخطأت الظن ؟ لا أدرى ، على أية حال نحن نقبل التحدى ! وستكون نتائجه مُرَّة المذاق فى أفواه كثيرة . . .

إن الملاحدة فى بلادنا لاتنتهى لهم جراءة على الله ورسوله ، ولهم الويل مما يصفون .

* * *

الموارنة واليهود وجيش لبنان الجنوبى

الخيانة خلق مقبوح قد يتصف به بعض الناس فيكون موضع الزراية والإنكار ، لكن الشيء المستغرب أن يشيع هذا الخلق وتنمو جراثيمه فى كيان أمة نمو الخلايا السرطانية فى الجسم المعتل حتى تجهز عليه . .

ذكرت هذا وأنا أتابع أنباء ما يسمى بجيش لبنان الجنوبى ، وهو عصابات من المرتزقة والمرتدين والحاقدين على العروبة والإسلام ، جمعهم اليهود ليضربوا بهم العرب !

وذكرت أن خالد بن الوليد وهو يحرر العراق من حكم الفرس وجد بعض العرب يقاتل مع المجوس المستعمرين للعراق ! فقال لهم :

أ أنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف ؟ . .

وهذا الكلام نفسه يقال ـ بعد أربعة عشر قرنا ـ للموارنة الذين يظاهرون إسرائيل ، ويعينونها على تشرد العرب والتهام حقوقهم ! إن هؤلاء الناس نسوا حقوق النسب والجوار ، وقبل ذلك نسوا نداء الشرف والوفاء ، ومشوا وراء وساوس الاستعمار الذى يكيد للعرب والمسلمين ، ويبنى خططه كلها على ألا يكون للإسلام وجود . .

لقد جعل العثمانيون لجبل لبنان كيانا ذاتيا ، ثم جاء الفرنسيون وخلقوا لبنان الكبير بعد ما سلخوا من سوريا بعض ألويتها . .

والمهم أنهم قرروا أن تكون السيادة فى لبنان الجديد للموارنة وحدهم ، وأوعزوا لأغلب الطائفة أن تدحرج معالم الإسلام فى كل ميدان حتى تكون الكثرة الإسلامية قلة تائهة تافهة . .

وهذا سر القتال الدائر من بضع عشرة سنة بين مسلمى لبنان وغيرهم .

وصانعو هذا الوضع المحرج يقولون : إما أن يكون لبنان هكذا أو لايكون !! فماذا نحن قائلون ؟

والقصة نفسها تتكرر فى السودان ، فإن ماركسيا من زنوج الجنوب ألف جيشا زعموا أنه من المسيحيين ! سمّاه جيش الشعب السودانى أعلن أنه يريد به التحرير !! تحرير مَنْ ؟ تحرير السودانيين من الإسلام وأحكامه وأهدافه وإقامة حكومة علمانية . . .

وقد لفت نظرنا أن الحبشة الشيوعية تمد الجيش الجديد بالسلاح ، وأن الإرساليات التبشرية من السويد فى الشمال ، إلى حوض البحر المتوسط فى الجنوب ، تمد الجيش الثائر بالمؤن وكل ما يعين على النصر !

لماذا ؟ ليتم الإجهاز على الإسلام والعروبة فى نصف السودان تمهيدا للقضاء عليهما فى السودان كله . .

وصانعا هذا الوضع المحرج يقولون : إما أن يكون السودان هكذا أو لايكون . . .

إن المؤامرات قد افتضحت ضد الإسلام عنوانا وموضوعا ، عقيدة وشريعة وقد ظل المسلمون يتقهقرون حتى أصبحت ظهورهم إلى الجدران ، فإما قاوموا العدوان الوقح إلى آخر رمق ، وإما ذهبوا فى خبر كان . . .

ولنعلم أن الجيوش الخائنة فى لبنان أو فى السودان تتلقى الأوامر من جهات لاتكتم ضغائنها على يومنا وغدنا . .

* * *

مدرس ينشر الإلحاد بين تلامذته

هو مدرس فلسفة ، توهم لأمر ما أن حرفته تفرض عليه تبنى الإلحاد فكرا ونشرا ، ولما كان الشر لايستطيع أن يمشى مكشوف السوأة ، بل يتوارى غالبا فى رداء من الخير ، فإن صاحبنا اتخذ العلم شعارا يدس تحته مايريد ، ومن الممكن باسم المنطق العلمى أن يهاجم الدين وأركانه وأن يضلل الأغرار ويفتنهم !

قلت له : مالك وللعلم ؟ إنك تتحدث كأنك سبقت **أنشتين** فى اكتشاف نظرية النسبية ، أو شاركت **نيوتن** فى تقرير قوانين الجاذبية ! وتخصصك الذى تعيش فى نطاقه لا علاقة له بهذا أو بذاك . .

إن جمهرة المشتغلين بالعلم والفلك والأحياء والفيزياء والكيمياء . . الخ مؤمنون بأن للعالم ربا يشرف عليه ، وليس سيارة تنطلق بلا قائد .

وقد أحصى **العقاد** فى كتابه : «عقائد المفكرين» أساطين العلوم الكونية فإذا تسعة أعشارهم مؤمنون ، والعشر الباقى بين متردد وملحد !

وكان سير **جمس جنز** الفلكى الإنجليزى تملكه هزة عصبية وهو يتحدث عن عظمة خالق السماوات ، ومرصع فضائها بالنجوم ! وقرأت لأنشتين حديثا عن الله كأنه قصيدة عاطفية لمحب مشبوب المشاعر .

وليقرأ من يشاء كتاب العلامة «كريسى موريسون» الذى ترجم إلى العربية بعنوان : «العلم يدعو إلى الإيمان» والرجل رئيس أكاديمية العلوم فى الولايات المتحدة ، وحصيلته من العلوم تجعله قمة شامخة !

وتحضرنى قصة طريفة لهذا الكتاب ، فإن الصحفى **كامل الشناوى** نشر مقالا تحت عنوان : هل الرجال قوّامون على النساء ؟ ونشبت بينى وبينه مجادلة عاصفة ، عندما كان محررا بالجمهورية ! ثم قرأ الرجل كتاب «كريسى موريسون» ثم نشر مقالا

عنوانه : «**وضعت يدى على الله !!** » .

والعنوان عليه صبغة المجون ، ولا أدرى أمات الرجل مؤمنا أم كافرا ؟

المهم أن جمهرة أولئك الملاحدة يخطون سوادا فى بياض ، وليست بينهم وبين المعرفة رحم موصولة !

إنهم كما وصف القرآن الكريم : « يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . .» [1] .

وعندما خطبت فى أحد المؤتمرات الكبرى أناشد الحكام العودة إلى قواعد الإسلام وشرائعه رسمنى المصور الهزلى صلاح جاهين وقد سقطت عمامتى على الأرض بفعل قوانين الجاذبية (!) ، قلت : هذا مؤلف مواويل تافه الفكر والأدب يتمسح بالعلم وهو يهاجم الدين ! ما علاقته بالعلم والعلماء ؟

وفى هذا العام نشرت مجلة عربية تصدر فى باريس صورة هزلية تتناولنى بالغمز لأنى عبت رواية أولاد حارتنا ، واتهمت بواعث إحيائها ! والرسام الماجن يذكر اضطهاد العلماء الذين أثبتوا كروية الأرض ودورانها حول الشمس !

ما علاقة حقيقة جغرافية مقررة بمزاعم صحفى ينكر الألوهية والوحى ؟ ! وما علاقة الإفك بالعلم ؟ !

إن تطاول الصغار شيء لايطاق ، وقد رمقت ملاحدة العرب فى الأيام العجاف ، فلم أعجب لأظافرهم التى يخمشوننا بها قدر ما عجبت من كلامهم عن العلم ، العلم الأوروبى طبعا !

إن القرعاء تباهى بشعر بنت أختها ، فهل علمت القرعاء أن بنت أختها مؤدبة ؟ لم يفقدها شعرها الأدب .

* * *

(١) سورة الأنعام : ١١٢ .

اليد العاطلة لاتخدم رسالة..

فى موازنة بين أحوال أمتنا وأحوال الأمم الأخرى شعرت بأسى يكسو قلبى ، وبهزيمة أطأطىء لها رأسى ، وبتفريط فى جنب الإسلام ما أحسبنا ننجو من عقباه !

رأيت الحاكم فى أمم قد تكون وثنية يتولى السلطة حينا من الدهر ثم يتركها فإذا ثروته هى هى مازادت فلسا ، وربما نقصت ! على حين ترى العكس فى العالم الإسلامى ، ما يترك السلطة أحد إلا وله مال ممدود وجاه معدود . .

ورأيت العالم فى شئون الكون والحياة ، وفى شئون الوحى ورسالات الله يحيا ـ فى أوروبا وأمريكا وآسيا ـ مقبلا على علمه ينميه ويخدمه ويفرش له بصره وبصيرته وينفع الجماهير ماديا وأدبيا به ، على حين نرى نظراءه فى عالمنا الإسلامى يعيشون لأنفسهم ولا يسافرون خارج حدودها !

ولم تبرح ذاكرتى صورة راهب بوذى وراهبة بوذية أشعل كلاهما النار فى نفسه وثبت مكانه لايجرى حتى أتت النار عليه كى يلفت النظر إلى قضية دينه الذى تحيف عليه الشيوعية !

ورأيت العامل فى أقطار شتى يفرغ وسعه فى إجادة ما فى يده ، أما عندنا فقلما يخرج العمل إلا ناقصا أو شائها ! أما السباق فى مضمار الكمال فقد استبعد من حياتنا ، وحل محله تزويق الظاهر وإحسان الطلاء . .

ورأيت الممرضة ترمق المرضى كما يرمق الحانوتى الجثث على أنها «الشغل» الذى تخصص له أو فرض عليه ! أما العاطفة الجياشة بالرقة والعناية فأمر آخر .

ورأيت الخادم تتعامل مع البيت الذى ترتزق منه بكراهية خفية وملل ملحوظ أما الخادم القادمة من شرق آسيا فهى راعية فى مال سيدها وهى مسئولة عن رعيتها . .!

ورأيت البائع والمشترى ، كل منهما يريد أن يأخذ أكثر ويعطى أقل ما يستطيع أداءه ، أما ضوابط العدالة والصدق فقصة خيالية !!

وعدت من هذه الموازنة الخاطفة إلى آيات الله أتلو منها ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾[1] ثم قلت : لماذا نطمع من هذا القانون الصارم ؟ .

إن الأمم تتقدم وتتأخر بعناصر من ذاتها . . والأمم التى تدفعها إلى الأوج تيارات هوائية مفاجئة ، لقد ارتقت وخوافيها ، ورغبتها فى التحليق ونفورها من الإسفاف . .

لابد من علم يستنفذ الطاقات ، وتتشابك فيه المواهب الإنسانية أولاها إلى أخراها ، أما المنى الحالمة فهى بضائع الحمقى !

* * *

(١) سورة النساء : ١٢٣ .

مدارس إسلامية كبيرة..

الثقافة الإسلامية بحر متلاطم الأمواج مترامى الأبعاد يقف بساحله من شاء لينال منه ما يشبع نهمته ويروى غلته !

هناك ميدان الفقه والتشريع ، وهناك ميدان الأصول وقواعد الإستدلال ، وهناك ميدان المرويات القولية والعملية وهناك ميدان التربية والتصوف والسلوك ، وهناك ميدان الاعتقاد ومذاهب المتكلمين ، وهناك ميدان الفلسفة والحكمة ومناشط العقل الإنسانى ، ثم هناك ميدان اللغة والأدب ومواريث الشعراء والأدباء . .

وقد لاحظت أن المستغرق فى أحد هذه الميادين غير مكترث بما فى الميادين الأخرى من حق وخير ، يكون فاشلا أو قاصرا فى الميدان الذى تفرغ له وحده .

إن آفاق العلم المختلفة ينير بعضها البعض الآخر ، ويعين على ضبط الأحكام والمواقف ! فالمحدِّث القصير الباع فى الفقه لايحسن فهم السُّنة .

والمفسرِّ الضعيف الاطلاع على الأدب لايستطيع تذوق البلاغة القرآنية وشرح أسرارها للطالبين . .

والمتفقه الذى وهت صلته بعلم الأصول ومدارسه المختلفة يظلم المذاهب الفقهية ويسيىء إلى الشريعة .

وقد رأيت أئمة العلم الدينى مهرة فى أغلب الميادين التى ذكرتها ، فأبو حامد **الغزالى** فقيه أصولى متكلم صوفى فيلسوف أديب ، وإن كانت بضاعته كاسدة فى المرويات !

وا**بن تيمية** محدث فقيه أصولى أديب وإن كان نائيا عن الفلسفة والتصوف ، وعند التأمل فى علم الرجل نجده أحذق من أرسطو فى المنطق ومن أرسخ الناس قدما فى علم القلوب الذى هو أساس التصوف المقبول . .

وقد قرأت للشيخ **محمد عبده** أنه قرأ خمسة وعشرين تفسيرا وهو يعالج إحدى آيات الأحكام ! ثم تأملت فى تراثه وتراث تلميذه الشيخ الإمام **محمد رشيد رضا** ، فوجدتنى أمام قمة شامخة من قمم الفقه والأصول وعلوم العقيدة والملل والنحل .

ولاريب أن الاشتغال بالدعوة الإسلامية يتطلب ثروة عريضة من مدارس الثقافة الإسلامية الرحبة ، وبصرا حادا بآفاق الفكر الإنسانى على الإجمال . .

أقول ذلك لأنى رأيت دعاةً حصيلةُ أحدهم من العلم تعينه على فتح دكان فى إحدى الحارات ، ولكن غروره يزيّن له أن يدخل فى صراع مع شركات النفط ، أو فى نزاع مع المصارف الكبرى ! .

ورأيت من هؤلاء من يتناول أقدار الأئمة كما يتناول الطفل حُصيات يعبث بها . .

لقد ذكرت الحديث الشريف **«رحم الله امرءا عرف قدر نفسه»** . . !!

* * *

الإيذر : والشذوذ والبغاء

تتسع الدائرة التى ينتشر فيها مرض «الإيدز» وتزيد الأموال المرصدة لمحاربته وتنوء الدول الفقيرة ـ فى أوروبا وأمريكا ـ بمغارم هذه الحرب التى لاتبدو لها نهاية .

ويقول الدكتور «ليونارد ماتا» ممثل «كوستاريكا» فى أحد المؤتمرات الطبية : إن وزارات الصحة فى دول أمريكا الوسطى لاتستطيع تطويق هذا المرض ومنع انتشاره ! وشكا من أن المرض اللعين أصبح مُتَوَطِّناً لا مستوردا ! وذلك لعجز الشعوب عن مطاردة الشذوذ الجنسى ، والبغاء ، اللذين يمثلان بؤرتين أساسيتين لهذا الداء الخبيث ! ! .

ونحن نعلم أن الولايات المتحدة مهددة بهذا الوباء ، ومهتمة باستكشاف دواء له ، وقد بلغ من اكتراثها بمكافحته أنها سخرت إحدى مركباتها الفضائية لحمل جرثومة المرض فى خلية مصابة لتعرف ما يعروها فى طبقات الجو العليا ! فقد تجد وسيلة للتغلب عليها !!

وقد يسرنا أن يفلح العلماء فى اختراع ما يشفى من هذه العلة ، فنحن نرحم كل مصاب ونحاول أن نحمل الجرحى فى ميدان الاستقامة حتى نجد لهم المأمن والعافية ، داعين لمرضى الأرواح والأجسام أن يمنّ الله عليهم بالعافية حتى يعودوا إليه تائبين .

إن مرض الإيدز من أمراض الحضارة التى تَضَخَّم كيانها المادى ، وضمر كيانها الروحى ضمورا شديدا .

والبلاد الإسلامية أقل البلاد تعرضا لهذه المصيبة المثيرة للسخط والاشمئزاز ، وذلك لبقايا الإسلام فى جنباتها ، والنفور الشديد من جريمتى اللواط والزنى ، وهاتان

الجريمتان تجدان مرتعا خصبا فى أقطار الغرب حيث عجز أهل الكتاب بإمكاناتهم القليلة ومواريثهم الضعيفة أن يقاوموا نزوات الغرائز ، وانحرافاتها الشائنة . .

ونحن ـ معشر الدعاة ـ نشعر بقلق عندما نشعر بمطارق الغزو الثقافى المسعور تنهال على بلادنا ، تريد الإجهاز على بقايا الدين فى أرضنا واجتياح ما بقى من طهر لدينا !!

ولقد وقفت ضائق الصدر أمام عنوان فى صحيفة كبيرة جدا تتحدث عن مرض الإيدز فتقول : إنه مشكلة عالمية لها أبعادها المتعلقة بالحرية الفردية وسلامة المواطن واستقراره . . الخ .

أهذه أخطار المرض الخسيس ؟ أية حرية فردية يتحدث عنها الكاتب الماجن ؟ حرية العهر والتخنث وتحول الرجال إلى نساء ؟ ! !

إن الأقلام التى تنسى الله ، والدار الآخرة ، ومدارج الكمال الإنسانى آن لها أن تحتجب أو تنكسر ، فإن بقاءها ذريعة فناء ماحق لكل ما فى العالم من خير .

* * *

الساسة العاميون!
لماذا يخطبون ويرتجلون؟

مع صلتى الحميمة بالأدب العربى فقد بتّ أخشى على لسانى ولغتى من شيوع الأخطاء واضطراب الأساليب ، إننى أحترم لغة الوحى وأغار عليها ، وأشعر بالخجل الشديد عندما أخطىء فى إعراب أو أسيىء اختيار لفظ . .

وليس هذا خُلُقاً أنفرد به ، إنه خلق أولى الألباب الذين يحترمون أنفسهم وتراثهم ودينهم ، وقد روى أن رجلا قال لعبد الملك بن مروان : شِبْتَ يا أمير المؤمنين ! فقال : شيَّبنى صعود المنابر وتوقع اللحن !! .

إن الخليفة الكبير يحذر عثرات اللسان وسوء الأداء ، ويرى ذلك خللا فى مروءته وخدشا لمكانته ! .

ويظهر أن ذلك يوم كانت المناصب الكبرى إمامة مرموقة وقيادة هادية ! أما بعد أن أمست مغانم يستولى عليها الشطّار ، ويحرزها المغموصون فى علمهم وكفايتهم فقد أصبح الخطأ قانونا والصواب شذوذا . .

ومن بضع سنين أرسل طلاب إحدى الجامعات الأمريكية كتابا شديدة اللهجة إلى قائد حلف شمال الأطلسى يستنكرون أداءه المعتل للغة الإنجليزية ، ويطلبون منه إما السكوت أو صحة النطق ـ وكان القائد من كبار العسكريين الأمريكيين ـ وقد أعجبنى تصرف الطلاب ، ولم أعتذر عن الرجل بأنه ليس متخصصا فى اللغة .

إننا لا نكلفه بأن يكون أديبا ماهرا ، ولكننا نكلفه ونكلف غيره من أصحاب المناصب الكبرى أن يحسنوا التعبير عما يريدون ، وأن يتجاوزوا مرحلة الطفولة البيانية ، وإلا فليلتزموا بهذا الحديث الشريف « الصمت خير وقليل فاعله » . .

وكان الساسة القدامى يحضرون خطبهم تحضيرا متقنا حتى جاء الرئيس عبد الناصر ، فاعتقل سيبويه وحزبه ، وأعلن على الفصحى حربا شعواء ، وهو أول من كسر

الباء فى كلمة «بَدْء» وهى مفتوحة من نشأة اللغة إلى قيام الساعة وكسر الواو فى كلمة « وحدة » وهى مفتوحة أبدا وهبط باللغة العربية هبوطا شنيعا .

ولم نجد من حراس اللغة من يصنع معه صنع الطلاب الأمريكيين مع قائد الأطلسى ، بل وجدنا برنامجا فى التلفاز المصرى يتحدث عن خصائص البلاغة فى خطب عبد الناصر !! .

وقد سمعت متحدثين عربا فى إذاعات عالمية ومحلية يقلبون القاف همزة ، أو كافا ، والجيم دالا ، ويكسرون أوائل الألفاظ ، ويدوسون قواعد النحو والصرف وكأنهم فلاحون فى معرض فنان عالى الذوق ! . .

والغريب أنهم إذا تكلموا بالإنجليزية أو الفرنسية استقامت فى ألسنتهم وحسدهم الإنجليز والفرنسيس على فصاحتهم ! ما هذا البلاء ؟ ! !

يجب ألا نسكت على هذا العوج .

أكاد أشعر بأن الأمة التى تفقد لغتها كالفتاة التى تفقد عرضها !

هذا هو طريق الضياع المادى والأدبى والعلمى . .

وهذا ما ينشده الإستعمار الثقافى حتى تموت لغة الوحى ، ويضيع الدين كله ، وتذهب الدنيا معها .

* * *

غناء مرفوض..!

للغناء أثره فى تحريك المشاعر وإذكاء العواطف ، وإذا كان يثير الجمال فى الصحراء فكيف لايثير الناس فى دروب الحياة ؟ لذلك ينبغى أن تكون الكلمات التى تُغنَّى منتقاة شريفة ، وأن ترفض كل المعانى الهابطة والتوجيهات المنحرفة . .

وفى سماعى لما يذاع من أغنيات وجدت كلمات جديرة بالمحو ، ما كان يليق أن تقال ، وأن تلحّن ، وأن تحيط بها الأنغام الجذابة ! ومع ذلك فقد تمهَّد لها الطريق ، وبقيت سنين عددا تؤدى وظيفتها الخسيسة ! ولاتزال !

خذ مثلا قصيدة « كليوباترة » التى تصدح فيها الموسيقى بصوت محمد عبد الوهاب ، وهو يقول «ليلنا خمر . .» والتى تصف وجه الحبيب بأنه «أسمر الجبهة كالخمرة فى النور المذاب » .

إن ليالى السكارى تتبعها حتما أصْبَاحُ الهزيمة والعار ! وعندما يكون ليل العرب خمراً فماذا ينتظرون من حكم الله فيهم ، والعدو يحيط بهم ؟ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾[1] ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴾[2] .

ونحن نطلب إما وقف إذاعة هذه القصيدة ، وإما تغيير للكلمات النَّابِيَة التى تضمّنتها ، والتغيير سهل وأنا على استعداد للقيام به إذا طُلِبَ ذلك منى ، وسيبقى بعد ذلك اللحن والأداء على حالهما . .

لقد مُنعت إذاعة أغنية «الفنّ» وهى من روائع عبد الوهاب لأنها تحدثت عن فاروق باحترام ! تقول :

الفن من شرَّفه ... غير الفاروق ورعاه ؟

وكذلك أُلغيت أغنية «إلام الخلف» ؟ لأنها قالت للملك فاروق :

فيا فاروق أدركها جراحا ... أبتْ إلا على يدك التئاما !!

---

(١) الشعراء : ٢٠٤ . (٢) الصافات : ١٧٧ .

فهل احترام الدين والشرف والتزام التربية الزاكية والسيرة الناضرة أخفت كفة من ذكر فاروق بخير ؟ ! !

وندع هذا المثل لنوع آخر من الإسفاف المحقور ! أى أثر يتركه عبد الحليم حافظ فى النفوس عندما يغنى « قدر أحمق الخطى . . » ؟ ! !

هل القدر الأعلى أحمق الخطى ؟

أعرف الشاعر الذى ألف هذا اللغو ! إنه فى ميزان المروءات والرجولات صفر ! وأعرف كذلك أصحاب الحناجر ال[illegible]قة ، إنهم لايخشعون لله إذا ألقوا قصائد دينية ، وربما لايكفرون إذا قالوا كلمات ساقطة إنهم كالقصب الذى ينفخ الهواء فيه فيخرج رخيما أو سقيما ، ولاقلب هناك ولا فكر ! ولكننا نخاف على الأجيال الناشئة عندما تسمع هذا الإسفاف ، ولذلك نطالب بإراحة الناس من سماعه ! .

* * *

آثار ضعف اليقين..!

لكل مجتمع محترم دعائمه التى يقوم عليها ويُعرف بها ويتحرك منها ، والويل لمجتمع تمشى فيه العقائد على استحياء ، وتهيم فى جوّ من القلق والتوجّس ، وتظهر فيه الفضائل والعبادات كئيبة غريبة كأنها تلتمس المأوى فلا تجده .

إن الاستعمار الثقافى خلق فى العالم العربىّ حالة من اللا إيمان واللا فكر أشاعت الميوعة والبلبلة فى أرجاء واسعة .

تشخيصها الطبى إن الإيمان موجود ، ولكن أحاطت به مضادّات وأحجبة تشبه المواد العازلة التى تحيط بقوى الكهرباء فتبطل عملها . .

ونشأت عن ذلك فوضى أخلاقية واجتماعية جعلت المسلمين يتحركون فى مواضعهم لايخطون إلى الأمام خطوة ، وربما تحركوا ثم عادوا من حيث بدءوا ! .

وقد استغل أعداؤهم هذا الوضع استغلالا سيئا ، فهناك مدارس عربية الطلاب أجنبية الإدارة جُمعت منها تبرعات سخية سارت فى سراديب خفية حتى وصلت إلى «**جون جارانج** » قائد الثورة فى جنوب السودان !

وهناك مدارس أخرى كرهت الاستشهاد بآيات الكتاب وأحاديث الرسول فى قواعد اللغة والبلاغة فعُدِّلت البرامج من أجل سواد عيونها .

وهناك مسارح وسينمات عرضت فيها روايات تعرض التاريخ الإسلامى على إنه إرهاب وعنف ، وتهديد بالسيف ! ويخرج المشاهدون وهم تائهون زائغون . .

وهناك رؤساء يقول أحدهم بصلف : أنا لا أتحدث فى الدين ، ولا أحب سماع حديث فيه !

وهناك محاكمات تصون حق الحياة لباعة الموت من تجار المسكرات والمخدرات ، وهى فى الوقت نفسه تقتل المتهمين بالتطرف الدينى فى عرض الطريق وفى وهج الشمس !!

وبعد ذلك كله ، هناك إسرائيل التى تصرخ بأعلى صوتها معلنة انتمائها إلى العهد القديم والتلمود ، وتقدس السبت وتستعد لبناء الهيكل بعد هدم المسجد الأقصى . . ثم العرب الذين يستحيون من الانتماء الإسلامى ، ويخفون ملامحهم وراء قناع العروبة العلمانية ! .

وهناك إنجلترا أو دول غرب أوروبا التى تعلن جهرة تأييدها لإهانة الإسلام ، وسب نبيه العظيم ، والعرب الذين يتظاهرون بالصمم ولا تتمعر وجوههم لما حدث . .

أما كان فى الإمكان عمل شيىء جادّ لوقف هذا السفه ؟ ! .

إن المنافقين الذين ظهرت لهم عصابات فى صدر الإسلام ثم اختفت بعد ما باءت باللعنة عادوا كرة أخرى ينشرون الدخان فى آفاقنا ، ويظاهرون الأعداء على تعويق مسيرتنا وإطفاء نهضتنا . .

إن دولة إسرائيل تهاجمنا دون عوائق ، أما نحن المدافعين عن دار الإسلام فإننا نجد مختبئين فى حجرات الدار ودواوينها يَدُلُّون علينا ويوهنون قوانا ، ويتربصون بنا الدوائر !

فحتى متى يبقى هذا «الطابور» الخامس من سماسرة الغزو الثقافى الخائن ؟ .

* * *

تحدى النبوة الخاتمة سفاهة قديمة !

كان صوت المؤذن يترامى إلىّ من بعد ، ولكن حفظى للكلمات وإلْفى للأنغام جعلانى أتابعه وأردِّدُ فى خفوت ما يقول ! بعد تكبير الله وتوحيده شهدت لمحمد بالرسالة ! بعد إعظام الله وإسقاط أى شريك له أقررت بالنبوة للإنسان الجليل الذى قرر هذه الحقيقة وحماها وبذل دونها نفسه وماله ، ولم يسترح ساعة حتى بلغ بها الآفاق وملأ بها أرجاء الدنيا . .

إن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أشد حارس للحقيقة الأولى فى الوجود ، وقد عمر بها ولا يزال مساحات من الأمكنة والأزمنة لم يستطعها أحد من قبل .

ولا يزال الدين العام الخالد يكافح جاهليات هائلة تكره التوحيد ولازلت أرى بنفسى أناسا تنقلب سحنتهم عندما يسمعون الأذان ، وتعرف فى وجوههم المنكر .

إننى أردد كلمات المؤذن فى كل وقت وكأنى أقول له : أؤيدك برغم أنوف الكذبة والمكذبين ! .

وفى أعصار متطاولة تنتهى إلى زماننا هذا يوجد حاقدون على محمد ، فى مواريثهم بقايا من الشرك وفى مسالكهم بقايا من الرجس يؤثرون العمى على أن يَرَوْا امتـــداداً لدين محمد .

وهم يستطيلون فى عرض النبىّ الخاتم ويتلمسون له العيوب ، والغريب أنهم لم يدرسوا سيرته ، ولم يستبينوا رسالته ، إنهم ورثة أحقاد وحسب ! .

وقد عجبت لدول أوروبا وأمريكا وهى تحتفى بشتائم يوجهها شخص مسعور إلى أمير الأنبياء ومجدد هداياتهم ، ومذكر العالم كله بمعالم الفطرة وأمجاد العقل ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور .

إن الضغائن الصليبية الأولى توهجت شعلتها ، ورأت لغير سبب أن تشجع سَبَّ محمد وأسرته وأتباعه بأساطير شيطانية ! لمــاذا ؟ لا لشيىء إلا لأننا ضعاف ، هُنَّا على الله وعلى أنفسنا فكان هذا الهوان وراء النزق ضدنا والسكوت على ما يؤذينا . .

ولاشك أن تصرفات بعض المسلمين من وراء هذا العدوان الممتدّ .

أعرف أن من علمائنا الأقدمين من قال : إن توبة الزنادقة لاتقبل ! وهم إنما أصدروا هذه الفتوى لأنهم يتهمون الزنادقة بالكذب والغش ، وأن توبتهم غير صحيحة ، ولذلك لايصدَّقون فى إعلانها !! .

بيد أن أحوال العالم تغيرت ، ومن الممكن العودة إلى الأصل المجمع عليه وهو أن التوبة تمحو كل شيء !! ولا مساغ للتشبث بفتوى لا تجرُّ علينا إلا العنت ، وفى أيام يطمع فى النيل منا الذباب والكلاب .

إننى أنظر بأسف إلى قصة مغموص شتم نبينا فرحبت بصوته أوروبا وأمريكا ، كان من الممكن أن يموت هذا الكويفر التافه مكانه لو كنا نحسن إدارة المعارك ، ولكنا جعلنا له شأنا عالميا بطريقة مدهشة .

ونفَّس الصليبيون عن أحقادهم فى هدوء ! وتحركت الجماهير فى الهند وباكستان هائجة .

وسكت العرب ، ولست أدرى سر سكوتهم ، أعن حكمة أم عن بلادة ؟ ؟ .

وقيل عنا : إننا لانعرف الحرية ولانقدر حقوق الإنسان !! يا عجبا إن آباءنا هم الذين ابتدعوا الحرية الدينية على وجه الأرض فكيف نتهم بالنقيض ؟ .

وددت لو اجتمع المؤتمر الإسلامىّ ليقول لمّن يستبيحون محمدا : بعض الأدب وبعض الحياء .

أَسْكِتوا سفهاءكم ليستطيع عقلاؤنا الكلام .

* * *

الخلاف الفقهى..!

استغرب البعض رفضى الشديد لأحكام قررها ابن حزم ، واستهجانى لأدلتها ! .

وقالوا : إنك روّجت لآرائه فى قضايا شتى تتصل بقول شهادة المرأة فى كل شيىء ، وفى استحباب حضورها الجماعات ، وفى توليها أغلب المناصب ، وفى سماع غنائها مادام شريف الغرض . . الخ فكيف نوفق بين حاليك ؟ .

قلت : موقف أولى الألباب مع ابن حزم وغيره هو وزن الأدلة ، واستبانة ما فيها من ضعف أو قوة ! . . إننا ينبغى أن ننظر إلى ما قيل لا إلى مَنْ قال ، وليس أحدٌ أولى بالحق من أحد . . !

وأحبُّ أن أؤكد حقيقة نفسيّة لدىّ : أننى أحترم أئمة الفقه الكبار احتراما عميقاً ، وأحترم المدارس التى نشأت حولهم أو نشأت مستقلة عنهم مادامت تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله !

وأرى أن فنون الجمال العلمى أكثر من فنون الجمال البدنىّ .

هناك جمال العقل اللمَّاح عن بُعد وهناك جمال الفكر المتروّى العميق وهناك جمال الذاكرة المحيطة المستوعبة ، وهناك جمال الذكاء المكتشف المحلّق ، وهناك جمال الأداء المترسِّل البليغ ، وأنا أعشق فى أئمتنا ومجتهدينا أنواع هذا الجمال ، وأتتبعها فى مذاهبهم . .

وأعلم بعد ذلك أن الاجتهاد تحكمه ملابسات مثيرة ووجهات نظر كثيرة ، وأن الشخصية الممتدة غير المنكمشة ، عقلية النص غير عقلية الفحوى والصارم غير السمح . . الخ .

وثم أمر آخر أحب أن أذكره وأكرره ! أن علامة الخطأ ـ فى شئون الحياة ـ ما يعقبه

من مشقة أو ضرر ، وأن علامة ما يصحبه أو يلحقه من نفع خاص أو عام مصداق قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾[1] .

لذلك روّجت للمذهب القائل بأن طلاق البدعة لايقع مثلا فهو أَصْون للأسرة وأجدى على المجتمع ، ولا مجال هنا للاستطراد . .

وعندما أقرأ لابن حزم فى المحلَّى أشعر بعبقرية الأثر والاستيعاب والإحاطة الرائعة بأحوال الرواة والمرويات ، وأقدر للرجل الكبير هذه المكانة ! .

وقد أقرأ له لأعرف أقوال غيره فهو يوردها بأمانة ، ثم يناقشها بأسلوبه الذى لايخلو من العنف والتهكّم .

فإذا بلغ الأمر مرتبة الاستنتاج والترجيح لم أر حرج فى تركه يمضى وحده ، وأمضى أنا حيث أرى الدليل أقوى والمصلحة أرجى ! .

ومع أنى أخذت إجازتى العلمية من الأزهر على أنى حنفى المذهب ، ومع إجلالى لأبى حنيفة فقد رفضت مذهبه أن القرشية لايتزوجها إلا قرشى وأن المصرى أو اليمنى ليس لها بكفء ، هذا عندى باطل ، وإن أيده الحنابلة !! ومالك أولى بالحق منهما . . .

على أن مخالفتى لاتجعلنى أكثر من طالب علم ينظر إلى أئمته الكبار باحترام وحبّ وتقدير .

* * *

(١) الرعد : ١٧ .

ما أظن أولئك عربا ولا مسلمين !

كلما سمعت بأنباء الإنتفاضة الفلسطينية ، ومصارع الفتيان والفتيات فيها ضاق صدرى وأظلمت الدنيا فى عينى ! إن اليهود يعربدون دون وجل ، ويلقون بقذائف الموت من لايملكون إلا رمى الأحجار ! وأمسى للثعالب زئير الأسود ، وتناقلت أرجاء العالم وعيد بنى إسرائيل وهم يرغون ويزبدون ، وينذرون بعظائم الأمور . .!

ولم لا والعالم كله ينظر ببرود إلى ما يقع ؟ والعرب أنفسهم يكتفون بالكلام الأجوف والتعليق البارد ؟ !

إنه لاتوجد خطط جماعية بين العرب لمواجهة هذا العدوان المستمر !

لابد من معونات مالية لدعم المحرومين فى هذه الجبهة الحافلة بالمآسى ، لابد من غضب عام يجتاح العالم العربى والإسلامىّ كلما هدم بيت وبات أهله فى العراء ، وكلما قتلت طفلة أو هلك يافع برصاص المعتدين !

إن ترك الثائرين فى فلسطين يلقون مصيرهم وحدهم جريمة لها عواقبها فى الدنيا والآخرة ، والذين يقفون اليوم متفرجين سيكونون صرعى الغد القريب أو البعيد ! فالرحى الدائرة لن تتركهم أبدا .

المتطرفون فى الأرض المحتلة يقولون : سنقيم دولة يهودا إلى جانب دولة إسرائيل ، وظاهر أن الأرض المقدسة عند اليهود المعتدلين والمتطرفين جميعا محور لدائرة سوف تنداح على مر الزمان لتبلغ الخطوط التى رسمها العهد القديم ، أى من الفرات إلى النيل !

فكيف يفكر العرب أمام هذا الطوفان الدينى القادم عليهم من وراء الحدود ؟ !

إن عدداً كبيراً منهم لايزداد عن الإسلام إلا بعدا ، ولايزيده الخطر الداهم إلا غفلة ، مع أن التنادى بالإيمان ضرورة حياة أمام هذا العدوان ! .

فماذا فعلوا بعد أن اتخذوا هذا القرآن مهجورا ؟ هل أصبحوا عربا لهم خلائق العرب

فى الجاهلية الأولى ؟ يحمون الذمار ويطلبون الثأر ، ويحظرون على أنفسهم المتع حتى يقهروا عدوهم وينتصفوا لأنفسهم ؟ كلا لقد أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم فلا إلى الإسلام انتسبوا ، ولا إلى العروبة كان انتماؤهم وعملهم ! .

قرأت لأحد صعاليك العرب فى الجاهلية أبياتا يتوعَّد فيها قَتَلَة قريبٍ له يقول فيها :

إن بالشِّعْب الذى دون سلْع
لقتيلًا ، دمه ما يُطَلّ
خلف العبء ، علىّ ، وولّى
أنا بالعبء له مستَقل
ووراء الثأر منى ابن أخت
مصِعٌ ، عُقْدَتُهُ ما تُحَلّ

فلما أدرك ثأره أباح لنفسه الاستمتاع واللذة وشرب الخمر ! قال « تأبط شرا » يصف حالته تلك :

حلّت الخمر وكانت حراما
وبلأيٍ ما ألمّت تحلّ !!

إننى أهدى خلق هذا الصعلوك إلى العلمانيين من قادة العرب لعلّهم يرتفعون إلى مستواه .

* * *

أديب مظلوم ...!

هذه قطعة من أدب النفس أذكرها لما فيها من صفاء وسمو ! قال كاتبها : «كان لى أخ هو أعظم الناس فى عينى ، وكان رأسُ ما عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه !

كان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ! ولا يُكثر إذا وجد . .

وكان خارجا من سلطان لسانه فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى فيما علم . . !

وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبدا إلا على ثقة بمنفعة !

وكان أكثر دهره صامتا ، فإذا قال بزَّ القائلين !

وكان يُرى ضعيفاً مستضعفا ! فإذا جَدَّ الجدُّ فهو الليث عاديا !

وكان لايد له فى دعوى ولايشارك فى مِراء ، ولايدلى بحجة حتى يرى قاضيا فَهماً وشهودا عدولا .

وكان لاَ يلوم أحدا فيما يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما عذره ؟

وكان لايشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء !

ولايستشير صاحيا إلا أن يرجو منه النصيحة !

وكان لايتبرم ولا يتسخَّط ولايتشهَّى ولاينتقم من العدوّ ، ولا يغفل عن الولىّ ، ولايخصّ نفسه بشىء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته » .

أقرأت هذه الصفات ورأيت معالم الاكتمال البشرىّ فيها ؟ إن كاتبها هو عبد الله بن المقفع ، وإنما نقلتُها كى أميط اللثام عن بعض المآسى فى تاريخنا الأدبى . .

فإن ذلك الأديب المربِّى الواعى المصوِّر بقلمه آفاق الكمال البشرى قتل متهما بأنه مجوسى ملحد !!

وما أشك أنه ضحية مؤامرات سياسية أو حزازات شخصية .

فأنّى لوثنيٍّ مُخَرِّف أن يرسم سمات العظمة الخلقية على النحو الذى رأيت ؟

ومصارع العظماء فى التاريخ الإنسانى كثيرة ، وهى إن دلّت على شىء فعلى هوان الدنيا عند الله ، وعلى أن سراءها وضراءها لايعنيان شيئا ذا بال . .

وقد قتل اليهود أنبياء الله ، وقدِّم رأس يحيى بن زكريا هدية لامرأة لعوب طلبته !

وعندما قرأت الخبر قلت : إن الله سبحانه وصف يحيى بأنه سيد ! فهل يعامل السادة بهذه الخساسة ؟ ما أحقر الدنيا ، وفى الوقت نفسه ما أعظم الآخرة .

إن عوضا ضخما هناك ينتظر المصابين والمظلومين! عوضا ينسى كل ما وقع من أسى وهضم ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1]

* * *

(١) سورة آل عمران : ١٨٥ .

أمريكا المتخلفة..

لم يقع أدنى تغيير فى الخط الذى تلتزمه القوى المعادية للإسلام ، بل لعل الأيام لاتزيدها إلا تعصيبا وقسوة .

فها قد مرت أربعة عشر عاما على الثورة المندلعة فى لبنان ، ويوشك الدمار أن يشمل بيروت شرقا وغربا ، ومع ذلك فأوروبا ـ خصوصا فرنسا ـ مصرة على أن يكون الموارنة سادة لبنان !

إنهم أقل من خمس السكان ومع ذلك فهم أهل القيادة والسيادة لأنهم منحرفون عن العروبة والإسلام يرنون بأبصارهم وبصائرهم إلى أوروبا وحدها .

كان من الممكن أن يتزعم لبنان عربى علمانى بعيد عن الدين كله ، وقد يعجب ذلك روسيا بيد أنه لن يعجب الغرب الذى تبنى المنطقة كلها على النحو الذى يروقه . .

وما يقع فى السودان قريب مما يقع فى لبنان فالخطة المرسومة من خمسين سنة إبعاد أو إضعاف التيار الإسلامى فى أفريقية السوداء ، ومنع العروبة من التسلل جنوبا حتى تنفرد البعثات التبشيرية بوسط القارة وتقضى فيه على كل وجود للإسلام . . !

ومركز السودان خطير فهو همزة الوصل بين شمال القارة وجنوبها . ولن يشفع للحكم العربى فى شمال السودان وجود الصادق المهدى ! الواسع العقل المتخرج من أعرق جامعات إنجلترا .

من يدرى ؟ ربما نزعه عرق إلى جده الكبير ، ربما ارتبط بالواقع الإسلامى فى الشمال !

أولى منه بالتأييد زنجى يسارى يمقت العرب والمسلمين ، ويسلخ السودان كله من تراثه وعقائده ، ولا يهم أن يكون النصارى عشر السكان !

وفى فلسطين رضى القتيل ولم يرض القاتل! وقبل العرب جزءا من حقهم يلعقون داخله جراحهم وينجون من التيه الذى بعثرهم فى كل بلد . .

لكن بنى إسرائيل رفضوا ، ومن ورائهم القوى المعادية للإسلام .

إن الرؤى الدينية المسيطرة على القوم أن إسرائيل من الفرات إلى النيل .

فليرض العرب أو ليسخطوا فلا اكتراث برضاهم ولا بسخطهم ، وسوف يمضى الصلف اليهودى فى طريقه لايلوى على شيىء .

لكن هذه الحروب الظاهرة الفاجرة توازيها حرب أخرى أظهر وأفجر يقوم بها كتاب عرب داخل الأمة العربية نفسها ، هذا دكتور ، وهذا مستشار ، وهذا فنان ، وهذا أديب ، وهذا مفكر ، وهذا وهذا .

الجميع يكتبون للقراء الذاهلين أن الإسلام دين لا دولة وأنه ما يجوز أن يقوم باسمه حكم ، وما يجوز أن تنشأ له سلطة وما يجوز أن يتألف حوله حزب .

فى ألمانيا وإيطاليا أحزاب دينية لأنها دول متخلفة !

وفى الولايات المتحدة حضر حلف اليمين الدستورية للرئيس بوش أكبر رجل دين فى أمريكا !

ومنذ أيام كان الرئيس السابق كارتر يطمئن على سير الأمور فى جنوب السودان . . هؤلاء جميعا من دول متخلفة !

إن الدول العربية الراقية هى التى تدير ظهرها للإسلام وحده ، وترسل سماسرة الغزو الثقافى ينبحون قافلة الإسلام وترى أحدهم بين الحين والحين يوجه إليهم طعنة غادرة أو سافرة .

* * *

صدق النية يطفىء آثار الخلاف

الخلاف طبيعة البشر ، وبين آراء الناس وأهوائهم مسافات تتقارب وتتباعد ! وقلما يقع الوفاق التام بين الأفراد والأحزاب ، ولست أتشاءم عندما أرى اجتهادا يغاير اجتهادا ، أو حكما يغاير حكما ، وإنما أتشاءم عندما أستبين بواعث الخلاف ، ويرى فيها ما يسوء . .

وذلك لأن الخلاف العلمىّ النزيه لا حرج فيه ولا خوف منه ، إنما يقع الحرج والخوف عندما يكون سبب الخلاف شهوة خفية أو رغبة مجنونة فى مآرب من مآرب الدنيا ! .

إن تقوى الله تميت كثيرا من أسباب الشقاق ، وتجعل المرء إن كان مخطئا يتراجع عن خطئه ، وإن كان مصيبا لايتحدى بما عنده أو يطلب به إذلال معارضيه .

وقد نظرت إلى أئمتنا الأوائل فرأيت نماذج للخصومة العلمية الشريفة ، فلا إعجاب بالرأى ولا إدلال على المعارض ولاتتبع للسقطات . . وإنما تقرير لوجهة النظر يخدم الحق بالدليل مع نشدان لوجه الله ونفع الأمة . .

المصيبة تكمن فى الاختلاف على المغانم . . والتهارش على إحراز ما يستطاع من هذه العاجلة ، والتوسل إلى الدنيا بالدين ، وسوق النصوص الكريمة ستارا على الرغائب الدفينة ، كما قال أبو العلا :

وكم من فقيه خابط فى ضلالة !

وحجّته فيها الكتاب المنزّل !

وقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يحذّر من هذا الخلاف ، ويكشف عواقبه على حاضر الأمة ومستقبلها ، فعن العرباض بن سارية قال :

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . .

فقلنا : يا رسول الله إن هذه لموعظة مودّع فقال : « **لقد تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها ، فلا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ! ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ » . . !**

إن قواعد الدين وشعائره العظمى وأسباب انتصار الإسلام وتمكينه ليست موضع خلاف ونصوصها قطعية الثبوت والدلالة حتى لاتبقى لأحد معذرة . .

أما ما كان ظنى الثبوت أو الدلالة ، فإن تشعُّب الآراء فيه لايقلق مادامت النيات صادقة ومادامت الوجهة هى الله .

وأمامنا فى هذا العصر أمم عظمى تملك البر والبحر ننظر إلى أبنائها فنجدهم متفقين على أصول ! ونجدهم أحزابا فى شئون فرعية هينة .

فهل ضارهم اختلاف الفروع مع إلتقاء كلمتهم على مبادىء واحدة ؟ ألا نحسن الإفادة من الماضى والحاضر ؟

* * *

من خصائص الحضارة الحديثة..

لو أن الحضارة الحديثة بقيت على الأصول التى عرفت بها من خمسة قرون لأفادت العالم كثيرا واستحقت التقدير والثناء ! لأنها من الناحية العقلية احترمت منطق الاستقراء والتجربة والملاحظة .

وأنشأت ضمانات قوية للوصول إلى الصواب والابتعاد عن الخطأ ، ثم نقلت مقرراتها العلمية إلى عالم الصناعة فطفرت بالدنيا كلها طفرة بعيدة المدى . .

أما من الناحية الاجتماعية فقد رفضت الوثنيات السياسية والكهانات الدينية واعتبرت الحكام أجراء لدى الشعوب وأن المناصب العامة أمانات مسئولة ، ومشت فى هذا الدرب حتى أقرّت أخيرا مواثيق حقوق الإنسان وهيئة الأمم ومجلس الأمن . . الخ .

وانتهت الحرب الضارية بين العلم والدين لمصلحة الإنسانية ، والواقع أن الوحى الإلهى النازل على موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام لايمكن أن يجور على الفطرة أو يرجح جنسا على جنس أو يسمح لطائفة من الناس أن تقول : نحن أبناء الله وأحباؤه . .

ولم يكن «راسبوتين» متحدثا باسم السماء عندما أبيح دمه واستحق الإزدراء . .!

ولكن الذين انهزموا فى الحرب التى نشبت بين الدين والعلم فى أوروبا عادوا للعمل مرة أخرى بعد ما غيّروا إشاراتهم وأصلحوا هيئاتهم !

فهل غيروا أنفسهم وأصلحوا أفئدتهم ؟ !

إننى أقرأ بغضب وألم أن الشيوعيين اليهود والعرب يطلبون معايشة سلمية ! ولكن الكثرة الكبرى من بنى إسرائيل تريد ـ وفق نصوص التوراة ـ أن تملك فلسطين كلها . وألا يقوم للعرب كيان ، فليذهبوا إلى حيث ألقت أو يبقوا خدما فى أرض ليست لهم !

والتدين الفاسد له خصائص مأثورة : القسوة والعناد وحرب الإبادة والضنّ على الآخرين بأى شيىء﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ ... ﴾[1] .

الخيانة والغدر وغرائز أخرى هابطة سيطرت على عصابات من المتدينين ، وجعلت للإستعمار الأوروبى والأمريكى وجها شديد الدمامة !

وأضعفت الخصائص الإنسانية فى الحضارة الحديثة ، وزيِّنَت لها إبادة الهنود الحمر فى أمريكا واستراليا ، كما زينت لها استئناف الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامى ، واستحيت ضغائن قديمة كان يمكن أن تتلاشى ! وليس ينتظر من التدين الفاسد إلا هذا الحصاد . .

والعرب اليوم يقفون أمام أحقاد القرون ، ويقال لهم : لا بقاء لكم معنا .

فإن لم تقبلوا فراغ الأرض منكم رحَّلناكم إلى المقابر ! ! .

وينظر العرب إلى الهيئات العالمية ، وإلى ساسة الدول الكبرى فماذا يجدون ؟

يجدون من يقول لهم : اليهود أصحاب الحق فى الأرض المقدسة وفق نصوص العهد القديم .

وسنبحث لكم عن مكان إلى جوارهم إذا شاءو ا !

ولايزال عدد كبير من قادة العرب يزعمون لقومهم أنه لا صلة للدين بهذا النوع !!

لماذا ؟ حتى لايفكروا فى الإسلام .

* * *

(١) سورة المائدة : ١٣ .

العلاقة القائمة بين الملتين وأتباعهما

فى أثناء الحربين العالميتين الأخيرتين وفى أعقابهما قامت دولة إسرائيل .

كانت فى أحشاء السياسة الدولية جنينا نشأ من سفاح ثم نَمَّتْه الخلافات والخيانات الفاشية بين العرب والمسلمين .

وما كاد يولد حتى أصبح ماردا يتحكم ، أو أصبح شرطى المنطقة لدى الإستعمار العالمى ، يضرب به من شاء متى شاء !

وساسة الغرب قبل هذه الحروب وبعدها لم تَخْفَ لهم ضغينة على الإسلام .

لقد قرروا الإجهاز على الخلافة المعتلّة وأجهزوا عليها ، وقرروا تقليب الأمور على عقائد الإسلام وشرائعه ، فلم يتركوا محفلا رسميا ولا شعبياً ، عالميا أو محليا ، إلا ودفعوه إلى تلك الغاية .

وساسة الغرب ـ كما طالعت تاريخ حياتهم ـ مؤمنون بأديانهم ، أوفياء لها يستوحون ماضيها ومستقبلها وهم يتعاملون مع الساسة العرب . .

اليهود منهم يجهرون بأن التوراة حقّ وأن وعودها لابد من إنجازها !

والصليبيون يرون أن قيام إسرائيل تمهيد لقيام مملكة المسيح وإشراق مده الإلهى بعد عودته الظافرة . .

أما القادة العرب فما كانوا يدرون شيئا . . !

كثير من الساسة العرب لاينتمى للإسلام إلا كارها ، وقلما يعظم له شعائر أو يحيى له مأثر !

وقد كنت ألحظ أن مفاوضات الهدنة بين العرب واليهود تدور وقت صلاة الجمعة ! ما صلاة الجمعة ؟ لاضرورة للحرص عليها ! على حين يعظم اليهود سبتهم ، ويقاتلون من يَعدو عليه ! .

قليل من الساسة العرب من يحافظ على صلواته اليومية ، ويباشر أعماله بيد متوضئة وقلب منيب ! .

أما علاقات الحكام بالشعوب فإننى أذكر الحديث الشريف عن عمر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم ؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتدعون لهم ويدعون لكم !

وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » .

إننى أقرأ هذا الحديث ثم يخيل إلىّ أن تبادل الحب بين الشعوب والحكام هناك فى أوروبا وغيرها ، وأن تبادل اللعنات يقع فى بلاد تزوّر فيها الانتخابات وتداس الجماهير ، وتقتحم المساجد . .

إن الأمر جدّ ! والعرب مقبلون على حرب إنقاذ أو حرب إبادة .

فإن إسرائيل قررت جعل كلمة العربىّ التائه بدل كلمة اليهودى التائه وهى تصارح بأنه لا دولة للعرب . . . ولا ظهير لنا فى محنتنا الكبيرة إلا التشبث بالإسلام والمقاتلة دون مسجده الأقصى . . !

يقول «كيسنجر» فى مذكراته : لقد ساندنا إسرائيل طيلة حرب العبور بدوافع تاريخية عديدة وأدبية واستراتيجية وكدنا نعرض بلادنا لخطر الحرب مع الإتحاد السوفييتى ونحن نعانى من فضيحة «ووترجيت» .

إن العلاقة بين الصهيونية والصليبية كشفت عنها المؤلفة اليهودية «توخمان» فى كتابها «التوراة والسيف» وقد شرع بعض كتابنا الأيقاظ يميط اللثام عن أطراف المؤامرة ويحذر قومه عواقب الرقود . . ! !

* * *

ما انتشر الباطل إلا فى غياب الحق..

عرفت نفرأ من الملاحدة معرفة عارضة عابرة ! حاورتهم حوارا سريعا كنت فيه على حذر وكانوا فيه على غرور ! لم ألمح فى عقولهم بريق ذكاء و إنما لمحت فى نفوسهم ظلال كبرياء . .

وبعد أخذ ورد سريعين تركتهم لأشم هواء نقيا ، فإنى أنفر من النتن العقلى كما ينفر المرء السوىّ من روائح الجيف .

وآخر ما قلته لأحدهم : أتظن عملية التمثيل «الكلورفيلى» تتم بين الشعاع والنبات بعد عقد وقَّعَهُ كلا العنصرين بمحض إرادته .

إن النبات يأخذ الكربون ، والهواء يأخذ الأوكسجين ، وكلاهما مسخَّر لا إرادة له .

أتظن أن القمر والأرض اتفقا على أن تبعد الأرض ظلها ليلة النصف حتى يستطيع القمر استقبال ضوء الشمس بوجهه كله فيكون بدرا ؟ ! إن كلا الكوكبين مسخر فى مساره لايدرى ما يفعل به .

أتظن أن الحيوان المنوى الذى يحمل خصائص الجنس ومعالم الوراثة من الأقربين والأبعدين يستقر فى بويضة المرأة وهو يعلم أنه يبدأ مشروعا لتكوين إنسان عادىّ أو عبقرىّ ؟ !

إنه أقل من ذلك وأتفه ! إنه جزء من خطة رائعة وضعها غيره !

تدرى من واضعها ؟ ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1] .

---

(١) الحشر : ٢٤ .

أعجبنى قول العارف :

«ياعجبا كلّ العجب للشاكّ فى قدرة الله وهو يرى خلقه ! وياعجبا كل العجب للمكذب بنشور الموتى وهو يموت كل ليلة ويحيا ! وياعجبا كل العجب للمصدّق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور ! وياعجبا كل العجب للمختال الفخور وإنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو بين ذلك لايدرى ما يُفعل به » !

ليس لشيىء فى الكون وجود من ذاته ، وإنما وجوده منحة من قيوم السموات والأرض ، تستوى فى ذلك العناصر الجامدة ، والحشرات الزاحفة والدواب الغادية الرائحة والبشر والجن والملائكة .

إن الإيجاد عمل رفيع المستوى ، أترى أجهزة القمر الصناعى ؟ إنها قد تملأ عشرين قُفَّة ، وإطلاق القمر فى الفضاء يحتاج إلى عشرات العلماء والعمال !

فما ظنك بإطلاق الأكوان فى مدارها ؟ الهيمنة على شروقها وغروبها ؟ كيف يتم ذلك تلقائيا ؟ !

إن الإلحاد جنون !

ولأمر ما دارت آيات القرآن الكريم على تحريك العقل كى يعرف ربه ، ويسبح بحمده .

والفتنة الكبرى أن أهل القرآن أناموا عقولهم وعاشوا بلا وعى ، فكانت غيبوبتهم الفكرية من وراء انتشار الإلحاد وسطوة الملحدين .

* * *

الأمراض النفسية

العبودية الحقة لله أن تنقِّب فى نفسك فلا تجد عوجا إلا قوَّمته ، ولا سيئة إلا محوتها ولا علة مزمنة إلا طلبت لها الشفاء على اختلاف الليل والنهار فلا تموت إلا وأنت برىء منها أو مجاهد لها . .

إن الرضا عن النفس شيمة الصغار ، والغفلة عنها مع اليقظة لأخطاء الآخرين طريق الخسار ! .

وقد وجدت بعض الجماعات الدينية لا تفتأ تحصى مثالب الآخرين وهى فى الوقت نفسه ذاهلة عن عيوبها حتى لتكاد تزعم العصمة ! . .

والاعتزاز بالحق شىء والرضا عن النفس شىء آخر ! الاعتزاز بالحق شعور بفضل الله ، وعظمة ما منح من توفيق ، ورغبة فى نشر هذا الحق حتى لايحرم منه أحد ، وأسى للزائفين عنه والمحرومين منه . . .

أما الرضا عن النفس فهو استكبار بالحق على مَنْ جهلوه ورغبة مجنونة فى الإجهاز عليهم والشماتة فيهم مع ذهول عن العيوب الكامنة والشهوات المصاحبة للأعمال . .

تأمل معى هذا الحوار : « قال رجل لآخر : إنى أحبك فى الله ! فقال له الآخر : لو علمت منى ما أعلمه من نفسى لأبغضتنى فى الله ! !

فقال له صاحبه : لو علمت منك ما تعلمه من نفسك لكان لى فيما أعلمه أنا من نفسى شغل . . » .

إن المؤمن العاقل يشغله عيبه عن عيوب الناس ويعلم أنه امرؤ فقير إلى المغفرة العليا ، وإذا كان لديه فضل عليهم فهذا يحسب عليه لا له .

فإن العلم الزائد يتطلب جهدا أكبر لا تطاولا على الخلق وتربُّصاً بهم وفى الحديث **« قال رجل : والله لايغفر الله لفلان ! فقال الله : من ذا الذى يتألى علىّ أن لا أغفر لفلان ؟ فإنى قد غفرت له وأحبطت عملك »** .

أذكر أن شابا لقينى غاضبا أو معاتبا يقول : إنك تجلس بين طلاب حليقى اللحى وطالبات متبرجات ويراك الناس مبتسما لا غضبان وما يسمع منك أمر ولا نهى . أفلا يعذر من كرهك وذمك وأنت على هذه الحال ؟ !

قلت : ما أظن العبوس من لوازم الدعاة ، وأنا أشرح أولا أبجديات الإسلام فى العقائد والأخلاق .

وإذا صح البذْر أتى الثمر فى أوانه ! ويوم يعرف الناس ربهم ويرتبطون به على مبدأ السمع والطاعة فإن ما تطلب وفوق ما تطلب سوف يتحقق . . !

أما قضية ذمّى فلا أدرى ما أقول فيها ؟

غير أنى أحمد الله الذى أسبغ الأستار فلم يمكنكم منى ! .

إنكم تشتهون أن يفتضح الخلق لترضوا أنفسكم وهذا الاشتهاء داء أخبث من المعاصى التى تعيبونها على الناس .

يابنىّ أخشى أن تكونوا شرا من غيركم بهذه الطوايا الكالحة !

إن عاصيا كسير القلب أشرف من واعظ يتطاول على العباد .

* * *

هجوم ذكى متتابع ودفاع أخرق !!

بعد مرور عشر سنين من القرن الخامس عشر للهجرة رأيت أن ألقى نظرة على الصحوة الإسلامية لأستبين حالها ، فلاحظت أن العالم الإسلامى يلاقى تحديات تكاد تغلب قواه المحدودة ومن هنا فإن صحوته توقفت فى بعض الميادين ، وتتأرجح بين الثبات والتقهقر فى البعض الآخر . .

وهناك فوضى علمية وخلقية واجتماعية تثير الكآبة فى نفوس المراقبين . .

أما فى المعسكر الآخر فالوضع يخالف ما لدينا كل المخالفة ، اليهود ماضون فى طريق غايته هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان ، وهم يتقدمون خطوة خطوة ، ولم أرهم تراجعوا يوما .

والنظام الشيوعى فى أفغانستان يرسخ أقدامه ، ويريد سلخ البلد المحروب من دار الإسلام .

وكل قلة إسلامية على ظهر الأرض تقاوم المغيرين ببأس شديد ، وتكاد تفقد الأمل ! وبعضها مات ونسى قبره كمسلمى كمبوديا وتايلاند وعشرات الملايين فى الإتحاد السوفييتى وعشرات الملايين فى الدول الناطقة بالإنجليزية أو الناطقة بالفرنسية .

وزعماء «العالم الحرّ» لاينسون أبدا انتماءهم الدينى ، وذاك شيىء لايلامون عليه ! وإنما يتجه إليهم الملام عندما يتحول ذلك إلى إهانة للإسلام وازدراء لأمته !

إنه بعد استضافة جامعة اكسفورد للمرتد الهندى سلمان رشدى ، استضافه «مستركنك» زعيم حزب العمال وأقامت هيئة الإذاعة البريطانية ما وصف بأنه حفل تكريم للمرتد المحقور . .

وفى الوقت نفسه أذن وزير الثقافة الفرنسى لشركة نشر كبرى أن تطبع رواية آيات شيطانية لتنشر فى فرنسا وغيرها من الدويلات التابعة .

ويوالى «مستر كارتر» زياراته لأفريقية الوسطى ، والحبشة وجنوب السودان متعهدا البعثات التبشيرية وحالاً مشاكلها وممهدا أمامها الطريق .

أما ساسة العالم الإسلامى فإن القوميات التى يخدمونها ـ وأولاها القومية العربية ـ تؤثر العنوان العلمانىّ على غيره ، وتسمع الصيحات الإسلامية باستنكار ، والغريب أن اللغة العربية فى ظل هذه القومية تضمحلّ وتترنح ، فلا ترى فى الشارع العربى ، ولا فى مجال المصطلحات الحديثة ، ولا فى ميادين العلوم والآداب . . ولاعجب فاللغة تزدهر مع الحسّ الدينى ، وهذا الحس يطارد بدهاء ، وإلحاح .

على حين تنجح فرنسا فى مدّ إذاعتها الذكية إلى غرب العالم العربى وشرقه وهى مشكورة ! ثم يسمع رأيها فى موارنة لبنان باحترام شديد . . ! !

والجماهير الإسلامية تحيا فى واد آخر ، تزعم أنها تريد خدمة الإسلام ، وهى لاتحسن صنع الرغيف الذى تأكله ، أو السلاح الذى تحمى به شرفها ! !

ولها فى تناول تعاليم الإسلام مسلك مدهش . .

فالإيمان بضع وسبعون شعبة ، فيها الأعلى وفيها الأدنى ، فيها الأصل وفيها الفرع ، والأولويات تختلف عند التطبيق يقينا .

وإذا أنت أمام صيَّاح متهدج الصوت يريد رفع السقف قبل إقامة الجدران ، أو إقامة الشريعة قبل إرساء العقيدة !! ولايكاد يطاع لفقيه أمر ! !

إن الصحوة الإسلامية فى موقف حرج ، ومن الكذب القول بأنه مقنط ، ولكن على أولى الألباب تدارك الموقف ، وتصحيح المسار .

* * *

أرباح وخسائر

حراس الإسلام نائمون ، وداره مهددة من النوافذ والأبواب ، والهجوم يتجه إلى الأطراف والقلب معا ، والهاجمون تراودهم الأمانىّ أنهم هذه المرة منتصرون ، وأن حظهم سيكون أفضل من حظوظ آبائهم الأقدمين .

بل إن الصليبية الحديثة وقتت للقضاء على الإسلام أجلا فى أفريقية وأجلا آخر فى جنوب آسيا ، والخطة المعلنة ألا ينقضى هذا القرن العشرون حتى ترفرف راياتها على أقطار فيحاء ، ينسحب الإسلام منها أبدا . .

أما فى صميم الدار ، والعواصم القديمة فالغزو الثقافى يعمل دائباً على توهين الإيمان وإضعاف الأخلاق ، وإشاعة الإلحاد وبث الفساد وتعليق الشباب بالدنايا والجراءة على شرب المسكرات والمخدرات .

والويل لأمة تضيِّع الصلوات وتتبع الشهوات ، إنها تحيا يومها شبحا وتلقى غدها وهى رفات ! .

وأما الأطراف الممتدة فى وسط أفريقية وغربها وشواطىء الهادى والهندى فقد استغلت البعثات التبشيرية أزمات الجفاف المتلاحقة ، ومصائب الجوع والمرض والضياع ، وشرعت تعمل عملها فى سرقة العقائد .

وقد أعلنت أن المسيحيين زادوا ١٣٪ هذه السنة وتوشك أن تتحقق الأحلام فى السنين القادمة .

وأنا أعلم أن ملاجىء الأطفال استقبلت الألوف من يتامى الحروب والفتن التى نشبت هنا وهناك ، ومع أنهم أولاد مسلمون بالنسب والوراثة ، فقد مُهِّدت لهم حياة جديدة لا صلة لها بما كان ! .

والمسئولية تقع على رأس الأمة الإسلامية التى لاتدرى ما يصنع بها ولا ما يبيت لها . .

إننى أرفع عقيرتى محذرا من الغارات السرية والعلنية التى نتعرض لها فى كل ميدان والتى تسربت تحت أكثر من عنوان . .

يجب أن يحيا الإنتماء الإسلامى ويقوى ويعود سيرته الأولى ، وأن نوقظ الجامعة الإسلامية من سباتها لتتحرك بمشاعر الأخوة المتماسكة المتراصّة . .

وقد ذكرت فى حديث سبق أننى عندما زرت أوغندا قال لى رجل أشيب ـ وهو يعتب ـ لماذا جاء آباؤكم إلينا بالإسلام إذا كنتم أنتم تتركوننا ، ولاتهتمون بأمورنا . .؟

وقد تعاون معهد الفكر الإسلامى بأمريكا مع الجامعة الإسلامية بالجزائر على إرسال بعثة صغيرة إلى وسط القارة المهجورة ـ أفريقية ـ فاستقبلت استقبال الفاتحين ، وهرعت الجموع إليها مستبشرة ، وكأنهم يقولون : أين أنتم؟ إننا إليكم بالأشواق ! .

علينا أن نتحرك لنواجه زحوفا مادية وأدبية تريد القضاء علينا ولا تستحى من المصارحة بأن الإسلام ينبغى أن يلقى ضربة قاتلة مع نهاية هذا القرن .

علينا أن نشكل من أجهزة الدعوة كلها خطوط دفاع جديدة ترد البلاء المقبل .

* * *

دراسة واجبة لغارات محمومة!

إذا لم يدرس الإسلاميون الميدان الذى يعملون فيه ، والقوى التى تخاصمهم فإن مستقبل الصحوة الإسلامية تكتنفه المخاوف !

هناك أبجديات لنجاح الدعوات تكاد تكون مختفية بيننا على حين تتوفر فى صفوف الآخرين على حد معجب . . فحكماء صهيون يقودون الشعب اليهودى فى السر والعلن قيادة حكيمة تجمع بين العلم والإخلاص ، وتجعل مؤتمراتهم المحلية والعالمية خطوات رتيبة فى الحفاظ على مستقبل القوم . .

ومجلس الكنائس العالمى إلى جانب أجهزة الفاتيكان خلايا مائجة بالنشاط البشرىّ الدءوب لنصرة الصليبية وتوسيع دائرتها وتوهين ما يعترضها من عقبات . . القيادة تأمر ، والجماهير تنفذ ، ولا مكان لغبىٍّ يشير أو لشاذ يشغب . .

أما الجبهة الإسلامية على امتداد المحيطات الثلاث ، فليس هناك ما يجمعها أو يفكر فى حمايتها أو يهتم برسالتها . .

ولأترك المجال العالمى إلى المجالات المحلية اليتيمة ! إن أمتنا غنيّة بأولي الألباب ولكنى لا أعرف أمة تضع السدود أمام عقلائها كالأمة الإسلامية ، الرأى فيها لمن يملك الكلام لا لمن يبصر الحق !! والغلبة لمن يملك العصا لا لمن يسوق الدليل ، والسفهاء يطاردون العباقرة حتى يخلو منهم الطريق ! !

وأنا مع أبى الطيب المتنبى فى بغضه للجاهل المتعاقل ، والقاصر المتطاول وقوله فى حكام المسلمين على عصره :

فى كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

وفى ميدان التدين خاصة استغرب أن يتصدّر للفتوى من لا فقه له ، وأن يتقدم

للرياسة من لا ثقافة له ، وأن يتطوّع بالرأى فى شئون العامة من لا يُؤْمَن على إدارة دكان !!

وفى تاريخنا القريب والبعيد وجدت من هؤلاء من يطعن الأئمة ويناوش القمم ، فقد روى ابن مردوية أن رجلا من الخوارج نظر إلى سعد بن أبى وقاص وقال : « هذا من أئمة الكفر !

فقال له سعد كذبت أنا قاتلت أئمة الكفر ! فإذا وغد آخر يظاهر زميله يقول عن سعد : هذا من الأخسرين أعمالاً !!

فقال سعد : كذبت ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه » .

وسعد بن أبى وقاص هو القائد الذى قوض دولة الفرس ، وكانت نصف الدنيا ، وانتصر فى معركة القادسية التى محت تاريخا وأثبتت تاريخا ، وقد نهض البطل بأعباء القيادة وهو مريض يرسل بأوامره من على فراشه للفرق المشتبكة مع عمالقة الأرض ، فما غلبه الألم على فكر أدال الله للمسلمين ، واكتسحوا الميدان .

ومع ذلك كله ، فإن فتى غرّه أن قرأ شيئاً من القرآن ، أو نظر فى بعض كتب السُّنة ، أو صلى ركعتين فى جوف الليل أو فى أوله يحسب أن ذلك يمنحه الجراءة على تصغير الكبار وتكبير الصغار !! .

إننى أنصح العاملين فى ميدان الصحوة الإسلامية ، أن يزدادوا علما ، وأن يزدادوا تواضعا لله وللناس ، وأن يعطوا كل ذى فضل فضله ، وأن يريدوا الله بأعمالهم ، وأن يدركوا حقيقة قد تغيب عن كثيرين ، إن من يَسْرِقُ مكانة ليست له شر من سُرَّاق البضائع والأموال .

* * *

حلفاء إسرائيل أيقاظ..!

يقترف اليهود فى فلسطين جرائم لامثيل لها فى كل دول الأرض ! إنهم ينسفون بيوت العرب المجاهدين - أو المتهمين بالجهاد - فتتحول هذه البيوت إلى أرض فضاء ، كأن لم تغن بالأمس ، ويتوارثها أحفاد عن أجداد . .

والعالم يعرف ذلك معرفة اليقين ، والأمريكيون خاصة يرون بأعينهم ما يفعل حلفاؤهم ، ومع ذلك فالعرب إرهابيون واليهود ناس طيبون !

وقد قتل اليهود من أمد قريب «كونت برنادوت» ممثل الأمم المتحدة ، وذهب دمه هدرا ! وقتلوا «لورد موين» الوزير البريطانى فلم يغضب له مواطنوه ! وقاد «اسحاق شامير» عصابة من أشد العصابات سفكا وفتكا ، ومع ذلك فإن الأمريكيين يعمون عن ذلك كله ولا هم لهم إلا اتهام « ياسر عرفات » بالإرهاب ، لأنه يمثل المقاومة الفلسطينية !

ومنذ بدأت الإنتفاضة الفلسطينية ضد الإستعمار الصهيونى ومئات القتلى وآلاف الجرحى يتساقطون صرعى خصوصا الشباب فى مقتبل العمر ، بعد الأطفال والصبية ، والأمريكيون الذين يقولون عن أنفسهم : إنهم شعب مؤمن ! لايلقون بالا لهذه التضحيات ولاتهتز لها ضمائرهم !

أى إيمان هذا الذى يزعمون ؟ ثم كان ما فضح تعصبهم وضغائنهم على العرب ، كان القرار الطائش بمنع عرفات من التحدث إلى هيئة الأمم فى مقرها بأمريكا .

والقرار وليد قلب غلّفته القسوة وحيف أطغاه الهوى ! فهل يحق بعد ذلك للشعب الأمريكى أن يقول : نحن شعب يؤمن بالله ؟ هل الله عندكم يأمر بالفحشاء والمنكر ؟ هل الله عندكم يأمر بتجنيد كل القوى ضد شعب صغير يريد أن يحيا آمنا مسالما حتى يبيد أو يستذل ؟ « بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »[1] لكنى لا ألوم

(١) سورة البقرة : ٩٣ .

الذئب الطامع فى القطيع ! إنما ألوم العرب المسترسلين الغافلين ، وأقول لهم : ما حوّلكم قطعانا فى عالم يصح فيه المثل القديم «من لم يتذأب أكلته الذئاب» .

إن الأمريكيين افترسوا الهنود الحمر ثم ورثوا أرضهم قسرا ، وهم يريدون تكرار المأساة نفسها حتى يرث اليهود أرض العرب فى حرب إبادة من أوضع الحروب التى وعاها تاريخ العالم . .

إن الذين ينتظرون عدالة بشرية أو نزاهة أخلاقية عند أولئك المتعصبين الحاقدين إنما يؤملون فى سراب خادع . . !

على العرب أن يصلحوا ذات بينهم وأن يُسوُّوا صفهم وأن يكافحوا بكل ما فى أيديهم ! ولأن يموتوا شرفاء وهم يقاومون الاستعمار الهاجم أفضل من قبول سلام يفرضه الجزارون فيه شبه حياة اليوم والموت المجهز غدا . .

* * *

نكبات المتشبثين بالحق

لعلّى أخفّ أهل الإيمان عذابا مع أنى اعتقلت وأهنت على عهد فاروق وعهد عبد الناصر ! إن الله رحم ضعفى وحمل عنى ، فى الوقت الذى كان فيه المئات والألوف يتعرضون لعذاب تشيب منه النواصى ! زهقت فيه أرواح كثيرة ، وخرجت منه جماهير بعاهات وذكريات رهيبة . . !

إن دعاة الإسلام وأنصاره لقوا فى نصف القرن الأخير معاناة تقشعر منها الجلود ، وقد ترك ذلك فى نفسى جنوحا إلى كراهية الظلم ، ومحبة الحرية وتجاوبا مع كل صيحة تقدر حقوق الإنسان وتصون كرامته . .

وأعرف أن طوائف كبيرة من الناس تعرضت للاضطهاد والفتنة بسبب مذاهبهم وعقائدهم ، وقد كشفت الأيام الأخيرة عن حمامات الدم التى طاحت فيها ملايين على عهد « ستالين » فى روسيا ، وعن المذابح الجماعية التى تمت فى أثناء الثورة الثقافية بالصين على عهد الزعيم «المحبوب» ماو !

الحق أن الإستبداد السياسى طاعون يأكل الأخضر واليابس ، ويهلك الحرث والنسل ، وأن أحرار العالم يجب أن يتعاونوا ويتساندوا ليقضوا على هذا الوباء إذا ظهرت له جرثومة فى قطر من الأقطار .

إننى أحب حرية الرأى ـ وهى غير حرية الهوى ـ فحرية الرأى من خصائص العقل الإنسانى ، أما حرية الهوى فارتكاس حيوانى يهوى بقيمة الإنسان ويذهب بعقله . .

ومع أن العقيدة الدينية أغلى شىء فى الوجود ، فإنه لم يقع قط أن أحدا من أنبياء الله أكره أحد على دين . .

إن هؤلاء المرسلين الكبار كانوا يقاومون من ضنَّ على غيره بحرية الإيمان كما صور ذلك القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ . . ﴾[1]

---

(١) إبراهيم : ١٣ : ١٤ .

ويبدو أن التاريخ يعيد نفسه فى أقطار شتى ، فالسكارى بخمرة القوة يقولون للمؤمنين الضعفاء : لا مكان لكم بيننا مادمتم متمسكين بالله ووحيه !! .

وعقبى هذا العراك معروفة وإن فدحت المغارم وتتابع الشهداء . . ! لكن كلمة استوقفتنى طويلا وأنا أرقب عراك المبادىء فى دنيا الناس ! فإن كاتبا ماركسيا قال لأحد الإسلاميين : تريدون العودة إلى محاكم التفتيش؟ فضحكت ساخرا وأنا أقول : قد تكون العودة إلى عهد « ماوتسى تونج » أو « ستالين » رسل الحرية فى الأرض ، وغارسى الجنة الخضراء فى ثراها العريض !! .

إن محاكم التفتيش أيها الأحمق دون ما صنعتم بالناس عندما انتصرتم وتسلمتم زمام السلطة ! فكيف يجرؤ أحدكم على مخاطبة المعذبين فى الأرض بهذا اللغو ؟ .

إن حملة الإسلام يكافحون وسط أنواء هائلة ، ولاينشدون إلا حرية الكلمة فكيف يتهمهم أتباع « ماو » ، و « شامير » ، وغيرهما بأنهم أعداء الحرية ؟ إن الحرية الواعية أثمن هدايا السماء إلى الأرض .

* * *

المخدوعون برنين الكلمات !

يرى بعض المعلقين السياسيين أن أمريكا تحتضن «إسرائيل» وتحميها لأنها خطّها الأمامى فى مواجهة الروس ، وقاعدتها فى الدفاع والهجوم إذا ما وقعت حرب عالمية ثالثة !

وهذا الكلام لايصوّر الحقيقة أو لعله يصوّر جانبا تافها منها ! أما الحقيقة الدميمة التى يراد إسدال حجاب عليها فهى أن الامبراطورية الأمريكية تكره العرب بدوافع صليبية وصهيونية ومن ثم فهى تحيف عليهم ، وتشوه مواقفهم ، وتظاهر عليهم كل عدوان !

وهى تتلقى هذه المواريث الشريرة من إمبراطوريتى إنجلترا وفرنسا السابقين اللتين خاصمتا الإسلام بضراوة ! وأنزلتا بالعالم الإسلامى كله ضروب الهوان . .

وإذا كان المسلمون الآن موزعين على عشرات الدول ، وإذا كانت ريحهم ذاهبة ، وعصاهم مكسورة فمن أثر هذه السياسات المتعصبة الكنود !

هل لسيرة عيسى عليه الصلاة والسلام مدخل فى هذه المواريث ؟ كلا .

فعيسى إنسان مهذب جليل يؤثر الرحمةعلى العقوبة ويقدم العفو على القصاص ، ويقيم العلاقات بين البشر على أساس السماحة والفضل ! فما الذى يقع الآن ويؤيده الأمريكيون المؤمنون ؟ ! ! .

إن الفلسطينى البائس يسمع التهمة الكاذبة توجه إليه ، ثم يسمع الحكم القاسى يصدر عليه ، فإذا بيته يهدم وأهله فى العراء ! وإذا هو حبيس السجن أو طريد وراء الحدود ! !

فى أى قطر من أقطار العالم تهدم مئات البُيوت على هذا النحو المتوحش ؟ ولماذا يسكت الأمريكيون المؤمنون على هذه المسالك ؟ ويعينون أصحابها ؟

ويقول اليهود : هذه الأرض وهبها الله لأبينا إبراهيم من أربعين قرنا ! فلنسلّم جدلا

بهذه الفرية ! إن إبراهيم أنجب إسماعيل واسحاق ، واسحاق أنجب إسرائيل «يعقوب» فلماذا يحرم الإبن من الصلب حقه فى الميراث ؟ ! ويؤول الميراث كله إلى الحفيد ؟

وكيف يجيىء أفاقون من بولندا وروسيا وكندا وغيرها ليقولوا نحن بنوا إسرائيل نريد حقنا فى التركة ؟ بل يقولون : هذه التركة كلها لنا ! أما العرب أولاد إسماعيل فليس لهم شىء .

إن المحتال الأمريكى «كاهانا» ـ وهو فى الوقت نفسه ـ إسرائيلى ـ ينادى بطرد العرب وتشريدهم بعيداً عن أرضهم ! .

والواقع أن هذه خبيئة المستعمرين اليهود للأرض العربية ، يطرح بها البعض ، ويداريها آخرون يتربصون الأيام لإظهارها . . والأمريكيون المؤمنون يعلمون هذا ويبتسمون !

إن لأمريكا أصدقاء من العرب يترفعون بها عن هذا الإسفاف ، ويصدقون ما يشاع عن استمساكها بحقوق الإنسان وكرامات الشعوب ، ويطالبوننا بإحسان الظن وارتقاب الخير . . !

ونحن نقول لأولئك الطيبين ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۞ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة هود : ١٢١ : ١٢٢ .

هذا ديننا

رأيته واجما تكسو وجهه مسحة حزن بعد أن قرأ نتائج الإنتخابات التى جرت أخيرا بين اليهود ! قال : إن بنى إسرائيل رفضوا السلام ، وقرروا المضىّ فى حرب العرب ، والمستقبل مليىء بالنذر ، فنظرت إليه ضائقا راثيا وقلت : أنت كغيرك من الناس تعيشون فى وهم كبير ، وما أدرى كيف يتمّ إخراجكم منه لتعرفوا الواقع هنا وهناك .

ثم قلت غاضبا : إننى أخاف على مستقبل فلسطين من العرب أكثر مما أخاف اليهود ! أكنتم تحسبون أن حزب العمل الإسرائيلى يقدم لكم القدس عاصمة لدولة فلسطين ؟ ! بعد مؤتمر دولى تُتبادل فيه الابتسامات ؟ هذا هو الغباء بعينه !

قال : ماذا تعنى ؟

قلت : ألفتُ نظرك إلى ثلاثة أمور تعرف منها الجواب الأمر الأول : لقد تمت الانتخابات فى إسرائيل وعلم الناس فى المشارق والمغارب بنتائجها ، ما شكّ أحد قط فى صدق هذه النتائج ، ما اتجهت إصبع الاتهام إلى حاكم أو محكوم ، كانت نزيهة أمينة ١٠٠٪ تصوِّر رغبات الناس فيمن يريدون توليته أو تنحيته ! أفكذلك تكون الانتخابات فى أغلب الدول العربية ؟ إن التزوير عملة متداولة .

وحيث ينتشر تستخفى فضائل الصدق والشرف والثناء .

والنصر لايحالف هذه البيئات . .

وهناك أمر ثان جدير بالتأمل ، لقدكسبت الأحزاب الدينية نحو عشرين مقعدا ، والأحزاب اليهودية كلها تقوم على مقررات التوراة فى تخطيط أرض الميعاد فهى موصولة بالدين دون ريب ، أما ما يسمى بالأحزاب الدينية فهى جماعات المتطرفين والمغالين والمتشدِّدين .

إن الأحزاب الكبيرة شرعت تسترضى هؤلاء وتتألف قلوبهم وتتلمس الحيل لجرِّهم إليها . .

أما فى العالم العربى حيث يوصم المتدينون بالتطرّف ، فإن السياط تهوى على الأجسام واللطمات والركلات تتناولهم ظهراً لبطن ، بل لقد اخترعت لهم أساليب من التعذيب لاتخطر ببال .

إن المعتدل هناك يقود المتطرف أما العرب فبأسهم بينهم شديد ! .

والأمر الثالث الذى أختم به هو التفاوت الواسع بين الأسلحة ، إن اليهود اختاروا سنة الإنتفاضة ليطلقوا قمرهم الصناعى .

وكأنهم يقولون للعرب : فتيانكم داخل فلسطين لايزالون يحاربوننا بالحجارة ، مايملكون غيرها ، وأنتم معشر العرب حيث كنتم تشترون أسلحتكم من أصدقائنا ، وتستوردون العلم من الخارج فلا ينشأ بين ظهرانيكم . شتان بيننا وبينكم . . !

من أجل ذلك قلت إننى أخاف العرب على فلسطين أكثر مما أخاف اليهود ! بل إننى أخاف العرب على دينهم ودنياهم جميعا .

إن هناك تفاوتا اجتماعياً وسياسياً وحضارياً يجب أن يختفى على عجل ، ولن يتحقق ما نصبو إليه حتى يستمسك العرب بالدين الذين شرفوا به أولا ، ولن يشرفوا بغيره أبدا .

* * *

الغنى من العافية....

أكره الضيق والقلة ، وأحب السعة والوفرة ، إلا أن يكون ذلك من مصدر مريب أو من ناحية مشبوهة ، فعندئذ أقرر الصوم ، وألوذ بالفرار ، وعلى لساني قول القاضي الجرجاني رحمه الله :

يقولون : هذا مَوْرد قلت : قد أرى ولكن نفس الحر تحمل الظما . .!

أما المورد السائغ العذب فلا معنى للبعد عنه أو الزهد فيه ، وهو عندى شعاع من حسنة الدنيا التى ندعو الله بها ، أو من زينة الحياة التى هى حق عباد الله المؤمنين به . .

وأذكر أن أحد الصحابة كان يدعو بهذا الدعاء : اللهم أعطنى كثيرا فإن القليل لايكفينى . .

ومن المهم أن يأتى هذا الكثير مما أباح الله ، وألا يكون عائقا عن أداء الحقوق وفهم طبيعة الحياة المؤقتة التى نحياها . . .

أعنى إيثار الدار الآخرة فى مواقف الموازنة والاختيار التى تعرض للناس فى اختيارهم الطويل هنا . .

وأعرف أن طبائع الناس تختلف ، فقد سئل غاندى : لماذا تركب الدرجة الثالثة فى القطار ؟

قال : لأنه لاتوجد درجة رابعة ! ! وظن أن ذلك الموقف الخشن تفرضه زعامة غاندى لشعب بائس أذله الإستعمار الإنجليزى ، ودحرجه إلى درك بعيد !

والناس يحسبون الدين رضا بالدنيّة ، أو ركونا إلى البأساء والضراء ، وانصرافا متعمدا عن مباهج الحياة . .

وهذا خطأ إلا أن يفرض الجهاد على الأمة التحمل والشظف ، فهنا توجب الرجولة أن نتحمل ونصابر ونقبل الواقع دون ضجر !

أعجبنى قول ابن الجوزى : « مازال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا فى مباحات ، والذى يحملهم على هذا هو الجهل فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم ، وهذا لأن الطباع لاتتساوى ، فرب شخص يصلح على خشونة العيش ، وآخر لايصلح على ذلك ، ولايجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو ، إن لنا ضابطا هو الشرع ، فيه الرخصة وفيه العزيمة ، فلا ينبغى أن يلام من حصر نفسه فى هذا الضابط ، ورب رخصة كانت أفضل من عزائم ، لتأثير نفعها ، وحسن عاقبتها » أ . هـ .

وكلام ابن الجوزى فى تربية النفس ، وإحسان رقابتها يشبه قول البوصيرى فى الموضوع نفسه :

وأخس الدسائس من جوع ومن   فرب مخمصة شر من التخم

إن الإسلام لايعلن حربا على الجسم ، وإنما يستعين بقواه على إقامة الفرائض ، وترك المحرمات ، ولايعلن حربا على الدنيا ، وإنما يجعلها معبرا لما بعدها ! وأى حرج فى أن يكون الجسر متينا أمينا ؟

إن المعتلِّين بدنا وروحا لايجوز أن يعرقلوا النشاط الإنسانى باسم الدين فالدين صحة عقلية ونفسية قبل كل شىء .

* * *

القيمة الذاتية للإنسان الخامل..

من خمسين سنة وأنا أرقب العلاقة بين العمل والعمال ، وبين العمال والملاك ، وبين أولئك جميعا ورجال الحكم وتنقلت بين أقطار مستقلّة ومحتلّة ، فوجدت هذه العلاقة تتردد بين الفعل ورد الفعل ، وقلما يضبطها فقه إسلامى راشد أو خلق إنسانى نبيل .

شاهدت الفلاح عندنا ـ من نصف قرن ـ يمضى عقد الإيجار فيوقع على بياض تاركا للمالك أن يضع من الشروط ما يشاء ، وغالبا ما كان يزرع القمح ويأكل الطين ، أو يزرع القطن ويحيا شبه عريان ! .

والغريب أنه كان غزير الإنتاج يملأ الوادى سمنا وعسلا . .

ثم حدثت ثورة قلبت هذه الأوضاع ، فإذا الفلاح يملك الأرض فلا يجيد استغلالها ، وإذا هو يشارك فى المجالس التشريعية العليا ، وله ولسائر العمال أكثر من نصف الأصوات !

وما حدث فى مصر يشبه ما حدث فى الجزائر حذوك النعل بالنعل ! فإن الفلاح هناك كان تحت هيمنة المستعمر الفرنسى يجعل البلاد تصدِّر القمح إلى أوروبا ، فلما استقلت الجزائر أصبحت تستورد القمح من الخارج !

لاريب أن هذه نتائج تستدعى التفكير العميق ، وعندى أن القفز من الفعل إلى رد الفعل يرجع إلى جهالة الثوار وجراءتهم على الإصلاح بنقل نماذج شيوعية أو شبه شيوعية إلى أرض ترفضها كما يرفض البدن الأعضاء البديلة .

إن المزارع الجماعية فشلت فى روسيا فكيف تنجح فى الجزائر ؟ والعمال الذين يصلحهم الإنصاف المعقول كيف يتحولّون إلى مُشرِّعين يزاحمون أهل الذكر وأصحاب الاختصاص ولهم نسبة ترجّح كفتهم فى كل نزاع ؟

إن ردود الأفعال الجامحة قد تكون أبعد عن الصواب من الأخطاء القديمة !

ومن ثم أمرٌ مهم ، إن الله يمنع بركته ممن يعرفون الحق ويجحدونه ، وإذا كان الشيوعيون الحمر فى روسيا والصين لا بصر لهم بالإسلام فهم يخبطون فى مسالكهم الاجتماعية خبط عشواء فما عذْر الثائرين المسلمين إذا كنا قد أريناهم من الإسلام ما يكفى ويشفى فهجروه عامدين ؟

من أجل ذلك لم أعجب عندما افتقرت جماهير العرب إلى القمح واللبن وصنوف الضرورات الأخرى فمدُّوا أيديهم إلى أمريكا وأوروبا مقترضين أو مُسْتَجْدين . . !

وكثير ما ساءلت نفسى : هل نحن شهداءُ على الناس ؟ كان أسلافنا كذلك يوم قال الله فيهم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1]

أما الآن فبم نشهد على الناس ؟ هل بلّغنا الغافلين وعلّمنا الجاهلين ؟ إننا يوم نزعم للأوروبيين والأمريكيين أننا شهداء عليهم فسيقولون لنا : اخسؤوا فأيديكم السفلى وأيدينا العليا ، إننا نطعمكم من جوع ، وإنكم تتعلمون منا ما يرفع مستواكم البشرى !

وهذا الجواب هو أحقُّ ما يؤوَّب به من نام عن مواريثه الرفيعة وعاش على ظهر الأرض يحسب فى ميزان العمل عُشْرَ إنسان أو تُسْعَ إنسان ولا يملك إلا الإدعاء والمكابرة . .

* * *

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

الردة الحديثة..

الارتداد دميم الوجه مقبوح السريرة ، ونحن قد نصم بالارتداد مسلك فرد انقلب علي وجهه ، وهذا حق ! ولكن الخسران الأعظم هو ارتداد أنظمة تيمن على السياسة والثقافة ، وتحرِّك المجتمع والدولة . . !

وقد لاحظنا أن هذا الارتداد العام يتسم بقسوة القلب وظلام الفكر وقلة الإنتاج ، وأن الأمم فى ظلّه تتقهقر حضاريا ، وتنتشر فى كيانها الجراثيم الفتاكة ، وتضعف فى الداخل والخارج .

ثم تلقى بعد فشلها فى الحياة الدنيا ما ينتظرها من عقاب فى الآخرى مصداق قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[1] .

ولنذكر أن المسلمين فى حياة رسولهم العظيم فقدوا بضع مئات من الشهداء وهم يقاومون الوثنية وينشرون التوحيد ، أما فى مقاومة الارتداد الذى حدث فى أعقاب انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى فإن الخسائر زادت أضعافا ، ولم يقمع الصديق رضي الله عنه فتنة المرتدين إلا بعد مسيرة طويلة من مواكب الشهداء . . . ذهبوا إلى الله راضين مرضيين بعد أن ثبتوا أعلام الحق وصانوا بيضة التوحيد !

والأنظمة المرتدة فى العالم الإسلامى تتبع خطى مسيلمة فى إراقة الدماء ، وغباء الرأى ، وشؤم المسلك ، إن قتل الألف كقتل الواحد ، وقتل الواحد كقتل ذبابة ! وقد رأيت مقاتل الإسلاميين فى أقاطر شتى ، فوجدتها أضعاف ما قتل الإستعمار العالمى فى طغيانه الممتدّ ، وأضعاف ما قتل الصهاينة من عرب فلسطين ! .

إن الأنظمة العلمانية المنسلخة عن الإسلام لاتتقى الله فى معاملة الغير أو فى معاملة من ينكر عليها ارتدادها ويريد أن يستبقى الأمة على دينها .

---

(1) سورة البقرة : ٢١٧ .

وقد نشأت عن ذلك أوضاع نفسيّة هامدة وأوضاع اقتصادية فاشلة .

طالعت تقريرا للبنك الدولى عن الإنتاج الأفريقى فرأيت العجب من قلة تسرف على نفسها وكثرة متماوتة فى مكانها ، وإنتاج لنصف مليار من السكان لايساوى إنتاج أصغر الدول فى أوروبا . .

قلت : ما أشبه هذه البلاد بأغلب البلاد فى عالمنا العربى الذى يأكل كثيرا ويعمل قليلا ويغتال قويه ضعيفه وينسى الجميع ربَّهم . .

إن التزاحم على اقتسام نهر الفرات شديد بين تركيا وسوريا والعراق ، وما أحسب أحدا خطر بباله قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ .[1]

وما النيل يغيض أحيانا ويفيض حينا لعلّ ورّاده يذكرون من أجراه ويتقون الله ! فهل من مدّكر ؟ .

إن للأنظمة المرتدة حسابا آخر غير حساب الأنظمة الكافرة ! إنه حساب أقسى وأنكى فليس من يعلم كمن يجهل .

لعل من معالم هذا الحساب هو الفشل فى الدنيا قبل الخزى فى الآخرة . .

ترى ماذا قدم جبابرة العرب الذين زعموا أنهم فينا عباقرة ؟ ! ماذا قدموا لأمتهم الضائعة ؟ وتَدَلُّلُ إسرائيل ، وتذللنا نحن فى المحافل الدولية ، والكساد والبطالة والحيرة !! .

ماذا لو عادوا إلى الإسلام ؟ وتابوا عن فتنة الجماهير المكروبة ؟ .

* * *

(١) سورة الملك : ٣٠ .

نصيحة خالصة..

رأيته مشمرا عن ساعد الجد ، متجها إلى المسجد ليلقى درسا ضد مذهب الأشاعرة ! فقلت له : على رسلك ، هناك ما هو أهم وأجدى تستطيع أن تقوم به وتنال من الله أجرا كبيرا عليه !

قال : ماذا تعنى ؟ لاشىء أهم مما عزمت عليه !

قلت : يا أخى هناك الآيات المحكمات اللاتى هن أم الكتاب ، إنها بحاجة إلى الفهم الحسن ، والخدمة الجيدة والحماية الواسعة والقوى المتساندة لأن إهمالها ظاهر والهجوم عليها متتابع !

قال : محاربة البدع أهم !

قلت له : إن بدعا كثيرة سوف تختفى من الحياة عندما نتعاون على إقامة السنة وتوسيع دائرتها وتبصير الناس بها ! والنصوص المحكمة التى هى أساس الدين وقوام حياته مهددة تحتاج إلى الناصر الصادق ، فدعك الآن مما تتفاوت فيه الأنظار ويشتجر فيه الخلاف ، ولنتعاون على بناء ما تصدع من الأركان ! وأطمئنك إلى أننى لا أتعصب لأشعرى أو ماتريدى ، إننى زاهد فى إحياء أفكار ماتت ، وراغب فى التجميع على الكتاب والسُّنة وحسب ! لكن الرجل لم يفهمنى ، ولم يرد أن يفهمنى ، وذهب إلى المسجد فأشعل معركة لم تنطفىء نارها بعد ، وما أظن أنها تنطفىء عن قريب !

إذا كانت المساحة العقلية مائة ذراع عند امرىء مّا فما معنى أن تستغرق الخلافيات تسعين ذراعا منها ؟ ماذا يبقى لأركان الدين وعزائم الإيمان وميادين الإصلاح بعد ذلك ؟ لكن بعض الناس مساعر فتنة لأن رغبتهم فى الهدم أسبق من رغبتهم فى البناء وولعهم بالجدل أهم من العمل الصامت ، وما أحسبهم يرْون وجه الله وسط هذه الغيوم !! .

إن أولى الألباب فى عصرنا هذا يشعرون بأن الأمة الإسلامية متخلفة عن غيرها فى أمرين خطيرين : **أولهما** فى شئون الدنيا التى خطت فيها الحضارة الحديثة أشواطا فسيحة ، ومانزال نحن نحبو على أوائل الطريق .

والثانى فى معانى الخير والمعروف والعدالة التى تأسست لها جماعات قوية تعمل تحت عناوين إنسانية عامة وتشد إليها الأنظار بما تقدم من عون مزعوم للمحتاجين وأنصاف للمظلومين على حين خلت هذه الساحات منا ، ولم يرتفع لنا علم بها !! .

لماذا لم يتجه أهل الحماس الدينى إلى هذه المجالات كى يدعموا رسالتهم وينصروا ربهم ؟!

إن المسلمين جمهرة العالم الثالث ، وعلى أم رؤوسهم يقع غبن كبير ، وقلما يرى لهم أثر فى الإقتصاد العالمى ، أو مستقبل البشرية على هذا الكوكب المنحوس !

فإلى متى يبقى العقل الدينى مشغولا بخلافاته التاريخية ، مشلولا عن عمل شىء ليومه الحاضر ؟! .

* * *

الفهـــــرس

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

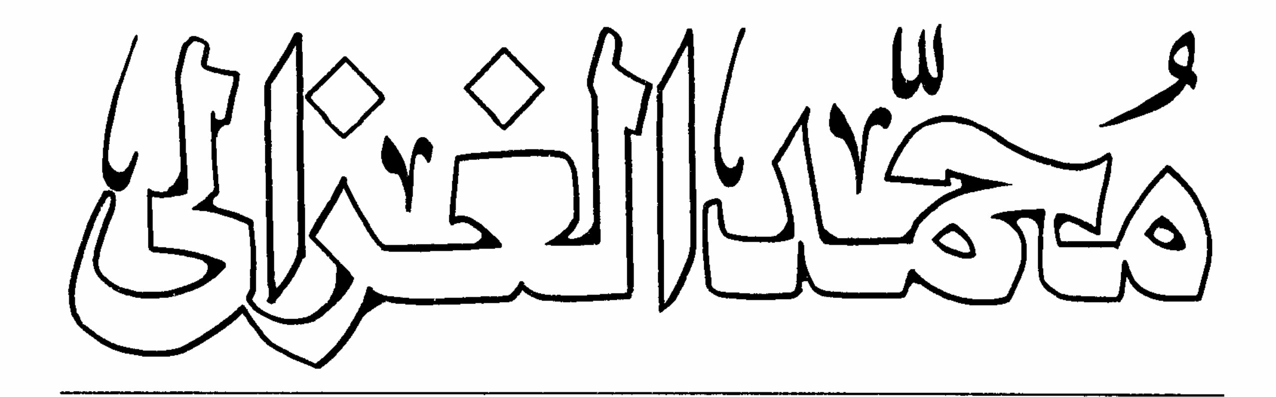
الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

مؤلفات فضيلة الشيخ

محمد الغزالى

1. همـــوم داعيـــة .
2. جـــدد حيـــاتك .
3. مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية .
4. سـر تأخـر العـرب والمسلمين .
5. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين .
6. مع الله . . دراسة فى الدعوة والدعاة .
7. الإسـلام والمناهج الاشتراكية .
8. مـن هنـا نعـلم .
9. الإسـلام والأوضاع الاقتصادية .
10. نظـرات فى القـرآن .
11. الحق المرّ . . «ستة أجزاء» من ١١-١٦ .
17. الإسـلام المفـترى عليه .
18. معركة المصحف فى العالم الإسلامى .
19. خُـلق المسـلم .
20. الإسـلام والاستبداد السياسى .
21. الاستعمـار أحقـاد وأطماع .
22. فى موكـب الدعـوة .
23. ظـلام مـن الغـرب .
24. التعصـب والتسـامح .
25. مـن معـالم الحـق .
26. حقيقة القـومية العـربية .
27. الإسـلام والطاقات المعطلة .
28. كيـف نتعـامل مـع القرآن؟
29. كنـوز مـن السـنة .
30. الفسـاد السيـاسى فى المجتمعات العربية والإسلامية .
31. كفـاح ديـن .
32. جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج .
33. تأمـلات فى الدين والحيـاة .
34. الإسـلام فى وجه الزحف الأحمر .
35. صيحة تحذير مـن دعاة التنصير .
36. مقالات (أربعة أجزاء) من ٣٦-٣٩ .
40. حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعـلان الأمم المتحـدة .
41. الجـانب العـاطفى من الإسـلام .
42. عـقيـدة المسلم .
43. كـيف نفـهم الإسـلام؟
44. مـائة سـؤال عن الإسـلام .



جرعات جديدة من



14

«الجزء الرابع»



العنوان: جرعات جديدة من الحق المر «الجزء الرابع»
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالي .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة السادسة يناير 2005م .
رقم الإيداع: 2002/1695
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-1748-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



مقدمــــة

فى المرصد الذى نقف فيه نرقب كل ما يقع على المسلمين من عدوان ، وما يقع بينهم من أخطاء وما يُثقل ميزانهم أو يخففه من أعمال ثم نصوغ ذلك كله فى سطور معدودات نواجههم به ونسائلهم عنه . . .

إننا نجتاز مرحلة صعبة من تاريخنا ، وقد لحقت بأمتنا خسائر مادية وأدبية فادحة ونحن محكومون بالقانون الإلهى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

ولذلك لم نجبن عن تسجيل الجليل والتافه من شؤوننا والتعليق عليه بما يجب . . .

والإيجاز مقصود فى هذه الكلمات المرسلة ، ولكن المعانى المخبوءة ضافية الذيول ، وقد قلدنا «ابن الجوزى» فى كتابه صيد الخاطر ، وتمشينا مع طبيعة القراء فى هذا العصر ، فالملاحظة السريعة أحب إليهم من المقالة المسهبة سيما والأحداث متتابعة والأعباء ثقيلة . . .

وفى حياتنا قد تلقى الكلمة الكلمة كما تلقى فى الأفق سحابة سحابة ، فينشأ من تلاقيها مطر يهمى وبرق يضىء ، فلنطالع هذه الفصول من «الحق المر» ففيها إن شاء الله ما يكفى ويشفى ، إنها حلقة من سلسلة تمتد ما بقى الأجل لعل فيها بلاغاً للناس .

محمد الغزالى

٢٧ من صفر ١٤١٦ هـ

٢٥ من يوليو ١٩٩٥ م

النيّة الصالحة

القلب الموقن بالله الراكن إليه جدير بالتوفيق والاهتداء إلى الصواب قال تعالى : «وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ . .»[1] أما القلب الفارغ من ربه المليء بالأهواء فهو يخبط في الحياة خبط عشواء مصداق قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ . . .»[2] .

وعامة الناس يعرفرن أن النية الصالحة تنقذ صاحبها من ورطات شتى ، وأن النية المدخولة يصحبها العثار والشرود ، وقد وعد الله المؤمنين الأتقياء بأنه جاعل لهم نورا يمشون به ، فمن أدركه شعاع من هذا النور لزم الصراط السوىّ ، وتجنّب المزالق المخوفة «وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ »[3] .

وقد أوضح النبىُّ ﷺ أن المؤمن الصالح يضاء من داخله فقال : «**التقوى ها هنا**» مشيرا إلى صدره ، أى أن التقوى ليست شقشقة لسان ، ولا براعة تمثيل ، ولا طول ادعاء ، إنما هى قلب مُخْبِت ، مفوِّض إلى الله ، متشبِّث بـه . .

وعدد من الناس يجيد تقليد الصالحات وإتقان أدائها ، ولكنه محجوب عن معناها ، محروم من آثارها الطيبة ، والسبب قسوة قلبه ، وانشغاله بأعمال دون ذلك . . .

وقد كنت أجْفل من أناس فى أفئدتهم غلظ ، وفى أخلاقهم قسوة ، وإن أتقنوا بعض الفرائض ، لأن حسن الظاهر لا يغنى عن طهارة الباطن ووضاءته . . .

وعند التأمل أشعر بأن بعض الساسة أو الرؤساء يعبد نفسه ، وهو يتظاهر بعبادة ربه ، وقد يدور حول مآربه وهو يباشر أعمالا عامة ، وهذا القصد المغشوش من وراء أخطاء هائلة تدفع ثمنها الشعوب . .!

كان أبو جهل يستطيع العودة بقومه دون أن يمرغهم فى هزيمة بدر ، وما كان لهذه المعركة معنى بعد أن نجت القافلة التى هرعوا لاستنقاذها ، ولكن ميل أبى جهل للزعامة والظهور جعله يقول لن نبرح حتى نشرب الخمور ، وننحر الجزور ، وتغنى القيان . فكان هذا الغرور هو الذى قاده وقومه إلى الهلاك . . .

---

(1) التغابن : ١١ . (2) النحل : ١٠٤ . (3) النور : ٤٠ .

إن كثيرا من العقد النفسية يكمن وراء المسالك المشئومة والمقررات الدامية ! ولو اجتهد كل إنسان فى إصلاح باطنه وتطهيره من العلل الخفية - أو من الشرك الخفىّ كما وردت التسمية فى بعض الآثار - لنجت البلاد والعباد من مآسى كبرى . . .

ومعروف فى ميدان التدين أن الله ينظر إلى البواطن لا إلى الصور ، وأن مكانة العابد تتقرّر له من استقامة سريرته ، وصفاء قلبه ، وصدق معاملته لربه « أَفَمن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ للإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّه فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ »[1] .

وقد تدبرت الآية التالية لهذه الآية فوجدتها تنوِّه بالعاطفة الوجِلة ، والمشاعر الرقيقة ، والإنسان المتحرك بخشية الله ، البعيد عن الأثرة وحب العاجلة « ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ »[2] . . .

ذكر لى شخصان نزلا بإحدى المدن ، أحدهما له دقة فقيه ، وفكر فيلسوف ، ولكنه أنانى شحيح ، والآخر محدود المواهب ولكنه بشوش سمح اليد !

فقلت : سوف ينهزم الفقه ، ويضيع الفكر مع الضيق والكزازة ، وسوف يغلب القصور مع بشاشة الوجه وبسط الكفّ !!

وفى معركة الإيمان مع الكفران ألحظ أن بعض الكهان فدائى ، وأن بعض العلماء أنانى ، فأتشاءم من سوء العاقبة ، وأعلم أن الدائرة سوف تدور على الحق . .!!

إن الدين أبعد شىء عن القسوة والفظاظة والكبرياء والحرص ، هذه خصال ما وضعت فى كفة إلا هوت بها ، وعندما أتأمل فى سيرة محمد ﷺ أرى تجسيدا للتواضع والإحسان ، والمرحمة والإنصاف ، وحبٍّ كل شىء ، إنه «**عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم**» فهل نأخذ الأسوة الحسنة من الإنسان الكامل الذى قيل له : « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » ؟؟[3]

---

(1) الزمر : ٢٢ . (2) الزمر : ٢٣ . (3) آل عمران : ١٥٩ .

قلة النظر.. والإغماء

راقبْت المركبة الفضائية التى ترصد كوكب الزهرة ، وتأملت فى الصورة التى رسمتها لسطح الكوكب وقد شقه أخدود طويل عميق ، قال العلماء : إنه حديث ، وإنه يدل على أن الكوكب يتعرض لهزات الزلازل والبراكين !!

وشعرت بخشوع تجاه عمل القدرة العليا ، وقلت أين الأرض من الزهرة ؟ وأين أنا من الأرض ؟ وأين هذا الأخدود من الكوكب الذى وقع فيه ؟ إن الأسرة الشمسية شىء عظيم ، وإن أجرامها بالغة الضخامة ، وإن نظامها بالغ الدقة ، وسبحان الله العظيم . . .

ثم نظرت فى الجهة المقابلة ، تركت ناحية الكبر إلى ناحية الصغر ، فإذا أنا أمام مقال علمى للدكتور مصطفى محمود ، يسجل ما تقرر بإجماع من أن الإنسان مخلوق من حيوان منوى شديد الصغر ، أقل ألف مرة من الهباءة التى قد ترى مرتعشة فى ضوء الشمس !

وأن هذا الحيوان المتضائل الذى لا يكاد يبين ، يحمل كل الخصائص التى تمتاز بها البشرية ، وتبت فى مصيرها المادى ، والأدبى ، وتقرر أن الذكورة والأنوثة هندسة وراثية و «جينات» وتعليمات وأوامر مكتوبة بحروف شفرية سابحة فى دماغ الحيوان المنوى !!

ثم قال : لا أحد يفكر من هو الذى كتب تلك «الشفرة» ؟ وكيف أودعها فى تلك الصحيفة المتناهية فى الصغر ، إن مجموع «الجينات» لكل البشر من أيام آدم إلى الآن لا تملأ نصف فنجان !!!

وعدد الجينات فى كل فرد منا يتجاوز التسعمائة ألف ، تحمل فى طياتها أكثر من تسعمائة ألف معلومة ، عن بنائنا الإنسانى ، بناء كل واحد منا وصفاته ! فهى مجلد ، أو عدة مجلدات ، أو مكتبة فى حجم أصغر ألف مرة من الهباءة . . .!!

مَنْ الكاتب الذى سطر أقدارنا وأوصافنا وسيرتنا وحياتنا داخل هذا اللوح الأسطورى ؟ بأى يد تقدست وتباركت وتعالت فى قدراتها ومهاراتها وعلمها وعدلها تم هذا التسجيل المتناهى فى الصغر ؟

وبعد أن عاب الدكتور مصطفى محمود على الغرب أنه عرف الكتابة ولم يعرف الكاتب ! وطالع المجد ولم ينْحَنِ لصاحبه ، قال : لماذا لم يلهم الله المسلمين شيئا من هذه المعرفة الثمينة ؟ لماذا خرجت هذه المنجزات العالية من نصف الكرة الآخر ولم تنبت فى بيئاتنا نحن ؟ ثم أجاب على هذا التساؤل راداً العيب إلى المسلمين أنفسهم وإلى حالة الإغماء والغيبوبة التى تسود عالمهم الكسول . . .

وهذه إجابة صادقة ، أحب أن أضم إليها شيئا مهما . إن القرآن الكريم أمر بالبحث فى المخلوقات «أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ من شَيْءٍ »[1] ولكن جمهرة من علماء العقيدة لن تتعرف على الخالق من النظر فى ملكوته ؛ بل من البحث فى ذاته !! فزاغوا وأزاغوا . .

يقول الله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ . . »[2] ولكننا ما سرنا ولا نظرنا ، بل استوردنا مقولات إغريقية انشغلنا بها سنين عددا : هل صفات الله زائدة عن ذاته أم هى عين ذاته أم لا عين ولا غير ؟؟

وهذا الأسلوب لوا اتجه إلى دراسة الإنسان نفسه ما أفاد شيئا ! فكيف إذا اتجه إلى دراسة البارئ الأعلى ؟ وقد اعترض هذا المنهج علماء آخرون من المسلمين المحافظين فكان منهجهم جدليا سلبيا لا يقل عن صاحبه سوءا .

ولم نجد من وجّه الهمم إلى دراسة الكون ذاته كما أمر الله فى كتابه ، مع أن بناء الإيمان فى ديننا - كما تهدر آيات القرآن - يقوم على النظر العميق المتفحص المعتبر « وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ »[3] .

إن الأسلوب الذى سار عليه علم الكلام فى تراثنا أساء إلى ثقافتنا الإسلامية وأصابها بالعقم ، ويجب أن نعود إلى منطق القرآن الكريم نفسه ، فهو يستنقذ المسلمين من غيبوبتهم الحاضرة والغابرة ، إن منطق التجربة والملاحظة والاستقراء هو المهاد الحقيقى للعلم ، وهو الطريق الوحيد للسيادة والقيادة وهو وحده منطق القرآن الكريم .

أما الاشتغال بالجدل والتقعر فيما وراء المادة ، والقول على الله بغير علم فذلك طريق الضياع . .

---

(١) الأعراف : ١٨٥ . (٢) العنكبوت : ٢٠ . (٣) يوسف : ١٠٥ .

خلايا الهدم والفرقة

من عدة قرون فقد المسلمون شعورهم بأنهم أمة ذات رسالة يحملونها للعالمين ويُسألون عن حسن أدائها أمام الله والناس ! وشغلوا عن هذا الواجب بخلافات فرعية ونزاعات كلية وأهواء شخصية أو قومية أو هنت قواهم وأذلت جانبهم . . .

وخلال هذا الأسبوع قرأت فتوى للإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر عن حكم الصلاة مع قبض اليدين أو سدلهما إن هذه القضية اختلفت فيها مذاهب أهل السنة كما اختلف فيها الشيعة مع السنيين ! وقد أفتى الشيخ الأكبر بصحة الصلاة على الحالين وحمدت الله أن القضية لم تحوّل إلى محكمة العدل الدولية ، وأن الشجار حولها وقف عند حدّ . . .

إن المسلمين لديهم استعداد غريب للجدل والمنافرة ، وهم يسوّون بين الزكام والسرطان والشحم والورم ، كما أن لديهم قدرة غريبة على تجاهل الأركان والتخّفف منها ولا أدرى حتى متى تبقى هذه الحال ؟

ولكنى أدرى أن أعداءهم يتربصون بهم ويحكمون المؤامرات حولهم ، ويهددون حاضرهم ومستقبلهم . إن الخلاف فى الفروع الفقهية قد يشبه فى بعض وجوه الخلاف بين العمال والمحافظين ، أو بين الديمقراطيين والجمهوريين ، والخلاف بين هذه الأحزاب الغربية يتلاشى وحده أمام قضايا «الوطن» الكبرى فيتقارب المتباعدون ، وتصبح الأمة كلها جبهة واحدة .

أما نحن المسلمين فالأمر عندنا يحتاج إلى مصارحات ومكاشفات . وأرى أن الخلاف الفقهى قديم قدم الإسلام ، ولكنه كما قيل خلاف تنوُّع لا خلاف تضاد ، وأن لجميع المختلفين أجورهم عند الله .

وعندما كنا طلابا فى الأزهر كان الحنفى والشافعى يصليان فى جماعة وأحدهما يرى القراءة وراء الإمام محرمة ، والآخر يراها واجبة ! أو هذا يرى لمس المرأة ناقضا للوضوء والآخر لا يرى فيه شيئا والوضوء كما هو ! !

وقد كان الشيخ «محمود شلتوت» والشيخ «محمد المدنى» رحمهما الله طليعة هذا التسامح الجميل . . فكل مجتهد مأجور أخطأ أم أصاب ، وإطفاء نار الفتنة فى جميع الخلافات المذهبية لابد منه ودائرة الإسلام الرحبة ينبغى أن تشمل الجميع ، بيد أن هناك أمرا آخر يتجاوز الفروع إلى الأصول والتنبيه إليه مطلوب لحماية أمتنا ورسالتنا ، لقد ظهرت تجمعات كما تكونت سلطات تقوم على العلمانية والقومية وتتجهم للدين وتراثه وقيمه وقد رأيت الشيوعيين القدماء يختبئون فى هذه القيادات الجديدة ، ويصارحون بأن رفع مستوى الشعوب أهم من إحياء الشريعة وأن السير فى موكب الحضارة الغربية أجدى من إحياء التراث الإسلامى .

وعند التأمل وجدت أن حكومة «السودان» تحارب لأنها تنادى بإحياء الشريعة الإسلامية ، وأن حكومة «إيران» تُحارب لأنها ترفض الارتداد الدينى وتتمسك بالكتاب والسنة . . .

وظاهر أن الغرب لا يوارب فى عدائه للإسلام ، ولا فى مساندته للتيارات الإلحادية التى خلقها فى بلادنا . . .

والأوضاع الجديدة التى تواجه المسلمين توجب علينا أن نحدد الأصول والفروع فى ديننا ، أى نحدد ما يمكن التسامح فيه وما لا نقبل خلافا عليه إن هذا الموقف يغلق الطريق أمام الختل والخداع والمناورات الخبيثة . . .

فى هذا العصر يوجد من يريد الحديث عن الإسلام وهو لم يدخل مسجدا ولم يقدم لله شيئا ويوجد من يصارح بطرح الفقه الإسلامى كله ومع ذلك يقول إنه مسلم ويتهمك بالخروج على الإسلام .

وأرى أن الأوان قد آن لعقد هدنة عامة فى ميدان الفقه الفرعى ، وعقد تحالف مشترك للدفاع عن أصولنا الفقهية فى ميادين التربية والأخلاق والفقه الجنائى والدولى والدستورى . .

إن حضارة الغرب تكره الله وتنفر من الحديث عنه وعن لقائه فى يوم جزاء . كما تكره ربط القانون بمواريث الدين إجمالاً . . وهى تتظاهر بأنها تجافى الأديان جملة وهذا كذب فهى ناشطة فى محاربة الإسلام وحده ، وقد أقامت هيئة الأمم دولة لليهود على أنقاض العرب المسلمين ، كما أن النشاط الاستعمارى العالمى يقوم على نشر المسيحية ! إن التهديد يتجه للإسلام وأمته ونهضته ، وإذا لم نستيقظ على عجل هلكنا .

أزمة شهامة

شعرت كأن هناك «أزمة شهامة» بين أبناء البلد ؛ لم تكن تعرف فيهم قديما ! كان اللص إذا اختطف شيئا من أحد تبعه المارّون بالشارع ، حتى يمسكوا بخناقه ويوسعوه لكما ويسلموه لرجال الشرطة ! .

وكانت صيحة «حرامى» لا تكاد تسمع حتى تهرع الجماهير إلى مصدر الصوت لنجدته . . .

أما الآن فقد تغيرت الحال ، يهجم لصان على سيارة ملأى بالرجال والنساء ، فيباشر أحدهما السرقة ، ويشهر الآخر سلاحه حاميا له ! والناس سكوت ، والأنظار تائهة ، إلى أن تتم الجريمة ويختفى اللصان فى أقرب محطة ! .

ماذا لو علت صيحات الاستنكار ؟ ونهض أهل الجراءة بمقاومة المغيرين ولو تعرضوا لبعض الأذى ؟ إنهم منتصرون عليهم يقينا ، فلن يغلب اثنان عشرين أو ثلاثين من الركاب ، ولكن «أزمة الشهامة» استحكمت ، فقوى اللصوص ، وضرى شرهم !

ولو قذفوا باللص المغير من السيارة المنطلقة لطُلَّ دمه ، وذهب غير مأسوف عليه ، ولكن الناس من خوف الذل فى ذل . . ! ! .

إن «أزمة الشهامة» هذه هى التى تسوّل للص أن يمتطى دراجة ويخطف قلادة من عنق فتاة أو أسورة من يدها ، ويمضى فى طريقه غير آبه لشىء ! ! .

ولو أن جمهور الشارع كان يقظا لتابعه بصراخ الإنذار ، حتى ينزله من فوق دراجته ، ويسترد المسروق ويسلم المجرم لرجال الشرطة . .

لا أدرى هل سيطرت على الناس غيبوبة ؛ ففقدوا الإحساس بما حولهم ، أم هم يحسون به ولكن الأمر لا يعنيهم و لا يوقظ انتباههم ؟؟

من تعاليم الإسلام الأولى **«المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره»** وروى أبو داود عن جابر وأبى طلحة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **«مامن مسلم يخذل امرءاً مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من**

عرضه ، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته . وما من مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته» .

وروى أيضا : **«وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ، ولأنتقمن ممن رأى مظلوما فقدر أن ينصره فلم يفعل»** .

لماذا لم يفعل ؟

قلة اكتراث بالجريمة ! قلة عطف على المهان ! قلة شعور بالأخوة المشتركة !

إن المواقف قصاص ، والأعمار ممتدة ، وستشعر يوما بالوحشة وأنت تبحث عن نصير فلا تجد ، لأنك فعلت ذلك يوما مع غيرك . .!

كان الناس قديما لا يتكلفون الاشمئزاز من منكر يقع ، وأذكر وأنا طالب أننى كنت فى الترام ذاهبا إلى الدراسة ، فرأيت شابا يلكز غلاما قريبا منى ، فنظرت إلى الضارب مستنكرا فقال على عجل : إنه يغازل الآنسة التى أمامه فى الكرسى ، فسكتُ وسكت الركاب مقرِّينه على ما فعل . ! !

وكانت السيدة إذا دخلت عربة مزدحمة قام لها فورا من يجلسها مكانه من الرجال ، احتراما للأنوثة وتكريما للأعراض . .

أما الآن فنسمع قصص الاغتصاب الخسيس ، والاحتيال على فتاة ضعيفة ، واستغلال محنتها بنذالة هائلة للإيقاع بها .

إن أزمة الشهامة دليل على فتور روح التدين والرجولة ، وانطلاق السعار الحيوانى دون قلق ، والأمر يحتاج إلى معالجة سريعة ، فإن استقرار المنكر على هذا النحو إيذان بالانحدار ، والضياع ، وتتابع الهزائم المذلّة .

* * *

هل نفر من القدر ؟

لم أشهد الزلزال الذى وقع فى مصر أخيرا ، ولكنى رأيت آثاره وسمعت أخباره ، فلم تعجبنى الروايات التى بلغتنى وأحسست أن نقصا كبيرا قد أصاب عقائدنا وأخلاقنا ، قالوا هذا مدرس فى فصله ما إن شعر بالزلزال حتى كان أول اللائذين بالفرار !

وهذا إمام فى مسجده رئى أول الخارجين منه حين اهتزت الأرض تحته !

قلت : ماهذه مسالك أهل الإيمان ، إن الفزع لا يفقد الناس عقولهم ولا يَقينَهم !

كان يجب أن يبقى المدرس بين تلامذته يشرف على خروجهم فى صفوف عجلة ولكنها منتظمة ، ويعلو صوته حينا بعد حين يحذر من فوضى الزحام وغلبة الهلع ! أليس ذلك أجدى وأشرف من موت العشرات تحت الأقدام اللاهثة ، ومرور الجبناء بنعالهم على جباه إخوانهم الواقعين ؟

والإمام الذى هرب من المسجد أليس الأشرف له أن يبقى رابط الجأش نابض اليقين يوصى الصفوف بذكر الله ووحدة الأجل وغلبة القدر ؟

إن غريزة النجاة معروفة لكن المؤمن يتحرك بعقل الواثق فى الله الراضى بقضائه فلا يهلع ولا يطيش . وقد مضت سنة الرجولة أن يكون الربّان آخر من يغادر سفينته ، إنه لن يتركها حتى يطمئن إلى نجاة الركاب أجمعين ، وقديما قال «على بن أبى طالب» .

أىّ يومىّ من الموت أفرّ يوم لايقدر ؟ أو يوم قدر ؟
يوم لا يُقدر لا أحذره ! ومن المقدور لا ينجو الحذر !

إن الأمة قد تدخل فى عراك مع أعدائها فتصاب فى البر والبحر والجو ، فيجب أن نتماسك لا أن ننهار ، وأن نتعلم الصبر على الآلام لا الضراعة أمامها والوجل منها . وعند وقوع النائبات تتحامل الأمة كلها على جراحاتها لا يبقى لغنى غناه ولا لفقير فقره .

وعلى المسئولين أن يواجهوا المأساة ، فلا يترك أحد ينام فى العراء أو يبيت على

الطوى ، إن روح الجماعة تظهر فى هذه اللحظات ، وتجعل القوى يحمل الضعيف والغنىّ يحنو على الفقير ، وتملى على الحاكم أن يترك ديوانه ليتجول فى المدن والقرى باحثا عن خلل يسدُّه ، أو شارد يؤويه .

وقد تابعت آثار الحروب فى أوروبا فوجدت القوم أسرع الناس إفاقة من مصيبة وأوشكهم كرة بعد فرة كما جاء فى الحديث !

إنهم يبنون ما تهدَّم بجلد وينتصرون على أوجاعهم برجولة ، فإذا كنا لم نتعلم من ديننا فلنتعلم من غيرنا . .

إننى خبير بالزلزال وفزعه لأنى عشت فى الجزائر بضع سنين ، ومرت بى ليلة كئيبة تقلبت فى فراشى وأنا أحس كأن السقف يريد أن ينقضّ وسمعت له صوتا حملنى على الوقوف ، وما كدت أقف حتى دارت بى الأرض فعلمت أن هناك زلزالا .! وتحركت نحو باب الدار التى كانت خالية إلا منى وفتحته لأتعرف ما هنالك فسمعت ضجيجا عاليا ينبعث من كل ناحية . .

ووقعت خسائر وزهقت أرواح ، وتركت زمامى للأقدار حتى انجلت الغمة ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا .

* * *

نفس مقهورة ..!!

كنت كسير النفس وأنا منطلق مع معجبى من «زغرب» إلى مخيمات اللاجئين من أهل البوسنة والهرسك ، إننى أحمل مقدارا من الآلام لا أحتاج معه إلى مزيد !! ولكن ما بدّ من هذه الزيارة حتى نشعر المسلمين هنا بأن وراءهم إخوة يدعمون جانبهم وَيَأسوْن لقضيتهم ، ومررنا فى أول الطريق بميدان رحب يتوسطه مبنى فخم فقال السائق : هذا ميدان الجامع !

قلت : فأين الجامع ؟

قال : كان هنا فهدم «تيتو» مآذنه الأربع وحوّل صحن المسجد إلى متحف هو ما نراه الآن . . !

وشعرت بضيق خانق ! وقلت وأنا أهمس : إن «تيتو» الذى منح نفسه لقب ماريشال هو أحد زعماء عدم الانحياز بين القوى العظمى ، ويظهر أن ضرب الإسلام من مظاهر عدم الانحياز ، ، فإنى ما استعرضت تاريخ أحد من قادة هذه الحركة إلا رأيت موقفه من الإسلام بالغ السوء ! .

وشقت سيارتنا طريقها حتى بلغنا مساكن اللاجئين ، كان حشد من الرجال والأطفال ينتظرنا ، ماذا أقول لهؤلاء الناس ؟ كانت معنا بعض الحلوى سرعان ما تلقفها الجياع ، وتذكرت ما جاء فى السنة أن عائشة أم المؤمنين أعطت امرأة تمرة ، وكان معها ابنتاها فقسمت المرأة التمرة نصفين ، وأعطت كل بنت نصفا . .

رأيت بعض الأمهات يفعل هذا ، ورأيت بعضا غلبه الجوع فالتهم ما نال !! كانت عليهم ثياب خفيفة هى ما أمكن أن يفروا به من بيوتهم ، وهم يوجسون خيفة من الشتاء القادم فإن درجة الحرارة هنا تبلغ أحيانا ٣٠ تحت الصفر !!

ووعدناهم بإرسال بطاطين يقاومون بها البرد . .

وأحسست غضبا يملك علىَّ حواسّى وأنا أتذكر أن هيئة الأمم المتحدة من وراء هذه النكبة ، فقد كانت قادرة على تأديب وحوش الصرب ، ولكنها لم تفعل عمدا . .

هل هذه أول فعلة لها ؟

من خمس وأربعين سنة أرسلني الأزهر لأعيش بين اللاجئين الفلسطينيين فى قطاع غزة ، ما أشبه الليلة بالبارحة ! الجموع الهائمة تتضوَّر وليس أمامها إلا مستقبل مبهم ، وكنت أعلِّلهم بعودة قريبة ، لكن الذى حدث أن ألوفا مؤلفة من يهود روسيا وسائر العالم جاءوا ليحلّوا محلّهم فى ديارهم ، تمهيداً لإقامة اسرائيل الكبرى !!

لماذا لا نقول صراحة : إن مواثيق حقوق الإنسان مصونة فى كل مكان إلا حيث يكون المسلمون ؟؟

إن المسلمين وحدهم طريدو هذه المؤسسات العالمية . .

والمضحك فى هذه المصيبة أن مجلس الأمن قرر عدم تزويد أحد الفريقين بالسلاح ، وهو يعلم أن الصربيين ورثوا جيشا من أقوى جيوش أوروبا ، وأن المسلمين كانوا عمالا وفلاحين لا يملكون شيئا يدافعون به عن أنفسهم ، فلما وقعت المعركة كانت أشلاؤنا تملأ البقاع وكان أعداؤنا يملون شروطهم !!

إذا لم يعد إلينا وعينا الدينى فستتكرر المأساة فى أقطار أخرى فلنصحُ قبل فوات الأوان .

* * *

رفقا بالخلق

الإسلام يرحم الضعف البشريّ ويتيح فرصا شتى للمخطئ حتى يتوب وللعاثر حتى يستقيم ، إن تقنيط الناس من رحمة الله جريمة ، والمربِّى الصالح يفتح نوافذ الأمل للمنحرفين حتى يعودوا إلى ربِّهم . . .

وبعض الدعاة كأنما هو مُوَكّلٌ بأهل الخطأ يعذلهم ويكشفهم ويضيق عليهم الخناق !! وخير له أن يرفق بهم حتى يهديهم طريق النجاة فى الله وفى طاعته ، فإن الله أهل لكل حبّ .

روى النسائى أن رجلا لم يعمل خيرا قط ، وكان يداين الناس فيقول لرسوله - عامله - خذ ما تيسّر ودع ما تعسَّر ، وتجاوز لعلّ الله يتجاوز عنا !!

فلما هلك قال الله تعالى له : هل عملت خيرا قط ؟ قال : لا ، إلا أنه كان لى غلام وكنت أداين ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له خذ ما تيسَّر ودع ما تعسّر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا !! قال الله تعالى : قد تجاوزتُ عنك . . .

وفى رؤيا صدق للنبي عليه الصلاة والسلام **«أن ملكين أتياه وهو نائم فذهبا به إلى مدينة فاستفتحنا فَفُتح لنا فدخلناها فتلقّانا رجال ، شَطْر من خَلْقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطر كأقبح ما أنت راءٍ ، فقال الملكان لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، وإذا نهر معترض كأن ماءه المحض من البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا وقد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا فى أحسن صورة . . . ! ! »**

وفسَّر الملكان للنبى ما رأى فقالا إن هؤلاء القوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم ! !

والحديث من رواية البخارى ومسلم وقد رأيت مصداقه فى مواضع شتى من كتاب الله « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . »[1] والرجاء فى جنب الله متحقق . . !

وقال تعالى : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ »[2] وظاهر من مقارنة آيات الوعد والوعيد أن أبواب الأمـل

(١) التوبة : ١٠٢ . (٢) العنكبوت : ٧ .

مفتوحة لأصحاب الإرادة الطيبة التى تعتريها الهزائم - وإن كثرت - أما أصحاب الإرادة المنعقدة على الإثم فلهم شأن آخر . .

ثم إن الذى ينكر الله أو يرفض تشريعه مستبعد ابتداءً من مجال المغفرة ، إن جحد الواجبات واستباحة المحرمات والجراءة على الذات الأقدس لن تثمر لأصحابها إلا مستقبلا كالحا . .

هناك دعاة يأسون الجراح ويرجون للعليل الشفاء ويفرشون طريق الخير بالأزهار ويبتسمون لكل سالك فيه ، فإن زلّت قدمه أعانوه على النهوض وأصلحوا شأنه حتى يستأنف السير مكرما مصونا . .

وهناك دعاة لا تسمع منهم إلا الويل والثبور وعظائم الأمور !

تُرى هل هم أغير على الدين من رب الدين . أو أحنى على الناس من رب الناس ؟؟

رفقا بالخلق ولنذكر الأثر الرقيق «**إنما الناس رجلان مبتلىً ومُعافىً فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية**» .

* * *

في خبايا النفوس ..

هل تكفى تجربة واحدة للكشف عن طبيعة إنسان والبتّ فى مصيره ؟

يبدو أن النفس البشرية أعقد من ذلك ، أو أن بعض النفوس ترسب فى الاختبار مرة أو مرتين ثم يدركها النجاح بعد ذلك !

وقد تدبرت سيرة خالد بن الوليد فوجدت أن الرجل كان من أسباب هزيمة المسلمين فى معركة أحد ، ومن وراء استشهاد سبعين بطلا من خيرة المؤمنين ! . ومع ذلك فقد انشرح صدره للإسلام بعدئذ ، وقاد جيوش المسلمين فى معارك أودت بالامبراطورية الرومانية التى قاومت الفناء قرونا طويلة ! ! .

وكذلك عمرو بن العاص الذى تأخر إسلامه إلى قبيل فتح مكة ومع ذلك فتح مصر ، وأسعد بالإسلام رجالا وأجيالا !!

إن خبايا النفوس لا يعلمها إلا الله ، وقد تضيق بامرىء لأمر مّا ثم تكشف الأيام أن بقلبه كنزا من الخير .

وتظهر هذه الحقيقة فى تعليق القرآن الكريم على مصاب المسلمين فى أحد ، وعلى ألَم النبى الكريم لمصاب أصحابه ، وغضبه الشديد من المشركين ، لقد قال الله له « لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ »(١)

والتلويح بالتوبة لأناس من أعداء الإسلام قاتلوه بعنف تكررَ فى غزوة الأحزاب عند قوله تعالى« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ . . »(٢) ثم قال بعد ذلك «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . . »(٣)

وقد دخل فى الإسلام بعدئذ أناس طالما ضاقوا به . . .

---

(١) آل عمران : ١٢٨ ، ١٢٩ .   (٢) الأحزاب : ٢٣ .   (٣) الأحزاب : ٢٤ .

ربما تأخر ناس عن اعتناق الحق لملابسات رديئة أحاطت بهم ، فلا يجوز أن يحملنا هذا على الشطط معهم ، فلعل الله يجعل منهم أنصاراً لدينه .

وقد رأيت أن الله سبحانه أطال الحبل مع صنوف من أهل الكفر لعلهم يَرْعوون .

وتدبّر قوله جلّ شأنه فى المنافقين « أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ »[1] إن الله لا يفضح عبده لأول مرّة ، بل يصبر عليه ويطاوله لعله يستحى ويتوب ، فإذا أصرّ على عوجه فآخر الدواء الكىّ ، إنه يفضحه لأنه لم ينتفع من ستر الله عليه وحلمه معه ! .

وقد تقبّل الله أقواما انتفعوا من ستره وحلمه فحسن إيمانهم وطابت أحوالهم ، وغضب على آخرين حسبوا أن الإرجاء إغضاء ، وأن الإمهال إهمال ، فمضوا فى طريق الشر إلى منتهاه ، وفيهم يساق قوله تعالى « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ »[2] .

إن على الدعاة طول الصبر وحسن العرض وألا يسمحوا لمشاعر الغضب أن تحملهم على إغلاظ القول وإساءة الظن ، ولنتأسّ برسولنا الكريم فى الحرص على الناس والأسى لعوجهم والأمل فى استقامتهم .

* * *

(١) التوبة : ١٢٦ .
(٢) النمل : ٥٠ ، ٥١ .

أسرة «حورس» !!

«حورس» و «رع» و «أتون» و «آمون» أسماء ليس لها مسميات اخترعها العقل الوثنى وهو يخبط فى بيداء الخرافة بعيدا عن معرفة الله الحق ، وإذا كان الفراعنة الأقدمون قد فعلوا ذلك فإن العرب الأولين افتروا كذلك أسماء «اللات» و «العزى» و «مناة» وجعلوها آلهة تعبد من دون الله .

وقد اشترك اليونان والعرب فى عبادة «هُبل» وإن كان الإغريق سموه «أوبلو» وهو أكذوبة كبيرة ما أنزل الله بها من سلطان .

وقد أعلن الأنبياء كلهم حربا على هذه الأوثان ، ووجهوا البشر إلى عبادة الله الواحد « اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ »(1) .

وقديما زعم فرعون موسى أنه إله ابن إله ، وقال لوزيره « فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ »(2) ولو فرضنا أن هامان بنى لفرعون ناطحة سحاب فماذا كان يرى ؟

لن يرى أكثر مما تراه الطير وهى مسخرة فى جو السماء

ولكن فرعون كان غبيا ، ولا نرى أغبى منه إلا من يحاولون إحياء سنته فى هذا الزمان ! ! .

كيف يؤلف بعض الطلبة جماعة منهم تحت عنوان «حورس» أو «اللات» ؟ أهو حنين إلى الوثنية القديمة ؟ أم زهد فيما جاءت به الأديان السماوية من هدى ؟

أنا لا أحب أن ينتسب إلى هذه الجماعة مسلم أو مسيحى ، فإن موسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام حاربوا الوثنية ، ودعوا جميعا إلى عبادة الله الواحد .

وعندما كان يوسف الصديق عليه السلام محبوسا فى أحد سجون مصر قال لمن معه « ۞ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ . . »(3)

---

(1) البقرة : ٢٥٥ .   (2) القصص : ٣٨ .   (3) يوسف : ٣٩ - ٤٠ .

قال لى الرواة إن فتية من طلبة جامعة القاهرة اختاروا أو اختير لهم اسم «حورس» ليتوجوا به نشاطهم ويؤدوا تحته رسالة طلابية بعيدة عن التطرف الدينى الكريه ! ! .

قلت : هل نكفر بمواريثنا الدينية حتى نبتعد عن التطرف ؟ !

إننا نستطيع أن نكون معتدلين مقبولين ، والشارة التى نرفعها لا صلة لها بعبادة الأصنام ! .

قال لى أحد الطلاب الفارغين إن «حورس» رمز مصرى قديم ونحن نعتز بمصريتنا ! !

قلت له : هل من الاعتزاز بالمصرية أن ننضم بمشاعرنا إلى فرعون ضد موسى عليه السلام ؟ .

إن لنا حضارة ضربت بسهم وافر فى ميدان الهندسة والطب وشتى العلوم العريقة . .

ونحن نثنى خيرا على صانعى هذه الحضارة ، ولكننا لن نعود إلى ركوب الخيل والحمير زهدا فى الحضارة الحديثة وما استحدثته من آلات وأجهزة .

إننا لن نترك موسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام لأن بعض الفراعنة عاداهم . .

لقد عرفنا الله رب الأرض والسماء ، ويستحيل أن نقدس الأصنام مرة أخرى ، إننى أهيب بطلابنا جميعا ألا يقعوا فى هذه الخدعة وأن يتشبثوا بالوحى الأعلى وشاراته وأن يدفنوا اسم «حورس» فى تراب التاريخ ويحيوا وفق شعائر الدين .

مع البعد طبعا عن التطرف .

* * *

رجعة إلى الحق

الرجل الكبير إذا زلّت قدمه أو زلّ قلمه ساءه ما وقع فيه وكره أن يعود إليه ! وأحبّ أن ينساه وأن يتناساه الناس وفى الآية « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ »(١) .

وقد كنت فى الخمسينات أخطب فى الجامع الأزهر ، وفوجئت بأن الشيخ على عبد الرازق رحمه الله كان يصلى الجمعة معنا ، وأذكر أنه عاتبنى يوما على طول الخطبة وهو مريض بالمسالك البولية يشق عليه الانتظار الطويل فأنصفته من نفسى وقلت له : تطويل الخطبة خطأ . ودعوت له بالعافية .

كان الرجل يعرف موقفى منه ومن كتابه الذى ألفه ضد الدولة فى الإسلام ، لقد اكتفيت منه بأنه جمّد هذا الكتاب فلم يعد طبعه قط ، وكره الحديث عنه ولقى ربه مؤمنا مصليا مؤيداً لرجال الدعوة الإسلامية . وحسبى هذا منه .

لم تكن له شجاعة خالد محمد خالد الذى ألف كتابا يتحدث فيه عن الدولة فى الإسلام وعن خطئه حين أنكرها وعن عودته إلى الحق بعد ما استبان له ، والناس معادن ورحم الله على عبد الرازق ولعن الله من ينشر كتابه من بعده من مبشرين ومستشرقين وملاحدة يعيشون على حرب الله ورسوله .

وقد ألف الأديب الكبير نجيب محفوظ روايته «أولاد حارتنا» وكان ذلك من خمس وثلاثين سنة ، والرواية إزراء على الألوهية والنبوات ومواريث الوحى كلها ، وقد طلب الأزهر مصادرتها ، واستجاب جمال عبد الناصر للطلب ، ولكنى لاحظت كما لاحظ غيرى أن نجيب محفوظ فعل ما فعله على عبد الرازق ، فلم يعد طبع روايته ، بل إن الكلمات التى تنشر له بين الحين والحين تمتلئ بالرويّة والإيمان ونصرة الحق ، وآخر ما قرأته له أنه يحب بناء الحضارة على الإسلام ويحب للمسلمين أن ينتفعوا بكل تقدم علمى بلغه العالم ، وقد استنكرت محاولة قتله . والمجرم فى نظرى إما مخبول ! وإما مدفوع من جهة تريد الإساءة إلى الإسلام !!

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .

ومعـروف أن العـدو العـاقل خيـر من الصـديق الجـاهل ، ومـا أكـثـر الجـرائم المادية والأدبية التى ترتكب باسم الإسلام .

إننا نبرأ إلى الله منها ونسأله أن يقى المسلمين شرها .

غـيـر أننا نتسـاءل عن قـوم يكرهون الله أشـد الكره ويمقـتـون الإسـلام كل المقت ويخاصـمـون الوحى فى كل موطن ويقـولون لعلى عبـد الرزاق ونجيب محـفوظ سـتطبع كتبكما برغم أنوفكما .

أعرف جـملة أقـلام مـا شـرفوا يومـا بالسجود لله ، إذا سـمـعوا بفتح خمـارة كست البشاشة وجوههم ، وإذا سمعوا بفتح مسجد ضاقت بهم الأرض ، وإذا سمعوا بكلمة إلحاد حفُّوا بها كما يحفّ الذباب بالقذى ، وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا هم معرضون أو معترضون .

إن الدولة تسىء إلى نفسها بترك هؤلاء ينبحون قافلة الإسلام والله غالب على أمره .

* * *

وظيفة الأمة

قلت محدّدا وظيفة الأمة العربية وجامعتها : إن الله ربّى محمدا - عليه الصلاة والسلام - ليربّىَ به العرب ، وربّى العرب بمحمد ليربّى بهم الناس كافة . فلأمتنا رسالة واضحة يجب أن تعمل بها وتدعو إليها ، وترفع رايتها وتشعر الأقربين والأبعدين بحقيقتها ، وهذا معنى عالميّة الإسلام ، فليس هو نهضة عربية كما يزعم زاعمون ، أو ثورة قومية كما يهرف خرّاصون .

إنه رحمة الله بالعالمين وهدايته للناس أجمعين .

وإذا كان العرب قد انكمشوا فى هذا العصر ، وتقطّعوا فى الأرض أمما ، وصارت كل أمة تسعى وراء القوت وتهتم بحياتها الخاصة فإن ذلك لون من النسيان المخزى إن لم يكن من الارتداد القبيح !! .

وتوجد - ولله المنة - طوائف ترفض هذا الوضع وتعرف أن الإسلام رسالة عامة خالدة وتقدم آصرة الإسلام على كل آصرة وغايته على كل غاية ، والآيات فى القرآن كثيرة على عالمية الرسالة ، وعلى أن أمتنا شاهدة الأمم . كما أن الرسول شاهد علينا أى أننا مبلّغون مواريث الوحى كما بَلَغَنَا . وشاهدون على الأمم كما أن الرسول شهيد علينا . قال تعالى « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »[1] .

وجاء فى مكان آخر « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ »[2] .

ويحزننى أنى فوجئت بشخص ينكر هذه الحقائق ويحطّ عن الكواهل أعباء الدعوة العامة ويشغل المسلمين بقضاياهم الخاصة ، ويزعم أن الشهادة على الناس فى الآخرة وليست فى الدنيا ويسوق فى ذلك حديثا لم يفهمه ، قال رسول الله ﷺ :

(١) البقرة : ١٤٣ .   (٢) الحج : ٧٨ .

« يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجل والنبى معه الرجلان . وأكثر من ذلك ، فَيُدْعى قومه فيقال لهم هل بلغكم هذا ؟ فيقولون لا ! فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقَول : نعم ! فيقال له مَنْ يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ! فيُدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم ! فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرُسل قد بلغوا . ! فذلك قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . . »[1] . .

قلت لمن ساق هذا الحديث إنه جاء بإضافة جديدة إلى جانب ما أفادته الآية من أن المسلمين أمة دعوة عامة تتناول الشعوب فى القارات الخمس ، هذه الإضافة أننا شهداء على الناس فى الدنيا وفى الآخرة معا ، فلا تضارُب بين الآيات والحديث إلا فى أذهان المشوشين وذوى البلاهة ! .

إن المسلمين - ومعهم كتاب الله وسنة رسوله - لهم إشراف وأستاذية على الناس الذين يملأون أرجاء العالم ، ولا وظيفة لهم إلا الأكل والسِّفاد ، وكما أخرجهم الرسول من الظلمات إلى النور يجب أن يفعلوا ذلك مع الناس وسيحقّ عليهم العقاب إذا تركوا هذه الوظيفة العليا .

* * *

(١) البقرة : ١٤٣ .

تهذيب الغرائز

الحياء والعفاف من سنن الأنبياء الأولين ومن معالم الفطرة السليمة ومعروف أن للإنسان رغبات طبيعية مقررة لا يجوز كبتها أبدا ولا يجوز إطلاقها فوضى ، بل الأمر كما قال الله « لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا »(١) .

والحضارة الأوروبية المعاصرة تعيب على المسلمين أمورا - فى مجال العلاقات الجنسية - نريد فى هذه السطور مناقشتها .

فهى تتهمنا بالتزمّت والتشدد وإعلان الحرب على الغرائز البشرية فماذا فعلت هى؟

إننى أكره المتاجرة بالفضائح ولكننى أسائل المفتونين بالغرب : هل سرهم ما وقع أخيرا للأسرة المالكة فى انجلترا ؟

لقد ظهر أنه صورة لما يقع فى آلاف الأسر الأخرى . الأسر التى أباحت الخلوات الحرة ، والرقص المزدوج بين الجنسين ، والتى استهانت بالبكارة واستغربت بقاءها بعد سن العشرين ! والتى عدت غضّ البصر وحفظ الفروج وصون المروءات تقاليد بالية لا تليق بامرئ متحضر !

وتنتشر الآن كتب تقذف بالزنى أزواجاً وزوجات دون خوف من جلد أو أى حدّ !! ويعترف رجل ذو منصب خطير بأنه يتصل بامرأة آخَر ، فلماذا سكت الآخر ؟ لأنه يتصل بأخرى ذات زوج ! ! .

ما معنى سكوت هؤلاء جميعا ؟

لقد ذكرت الأعشى وهو يصف الجاهلية الأولى وانفلات الشهوات بها فيقول :

عُلِّقْتُها عَرَضا ، وَعلِّقتْ رجلا غيرى   وعُلِّق أخرى ذلك الرجل ! !

إنها شهوات سائبة يجرى بها الهوى حيث شاء !

فى الجو المؤمن التّقى لا تقع فاحشة ، وإذا زلّت قدم سرعان ما تستقيم « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ »(٢) .

---

(١) المائدة : ٨٧ .   (٢) الأعراف : ٢٠١ .

أما فى أوروبا فإن إحدى الأميرات تبقى مع سائس خمس سنين ، لا ندم ولا ألم !

إننى أتساءل هل بقى شىء من تراث عيسى أو موسى عليهما السلام فى أقطار الغرب الصليبى ؟ لا يوجد هناك إلا كره الإسلام ولمزه بكل نقيصة .

ومن النقائص الأولى فى تعاليمه أنه يأمر المرأة بالحجاب ويأمر الرجل بغض البصر عن مفاتن النساء !

إن العين الجريئة المحملقة فى العورات هى التى تحترم . . !

وفتياتنا المهاجرات مع أسرهن فى أوروبا يمنعن من الدراسة لأنهن يغطين رءوسهن حين يطلبن العلم ! .

المراد أن يظهرن بآخر بدعة فى تسريح الشعر حتى يستدعين الإعجاب ! !

قلت لماذا تبقى الأقدار هذه المدنية الزائفة وكان الجواب حتى ينجح المسلمون فى إقامة مدنية جديرة بالاحترام فإنهم الآن أمة تائهة لا يربطها بالوحى الأعلى إلا خيط واهٍ .

* * *

إنهيار

الانهيار الواقع فى النفس العربية بعيد المدى ، وأخشى إن بقى طويلا أن يضيع معه اليوم والغد ! وقبل أن أصف علاجات له أريد أن أسرد بعض مظاهره . .

كنت أرقب المباريات الرياضية بين بعض الفرق العربية وأشمئز من خروج البعض عن قواعد اللعب وحقوق الزمالة ثم رأيت أخيرا كيف خرج العرب كلهم مهزومين أمام زنوج إفريقية على نحو مضحك ! .

إنهم لم يُهزَموا بسلاح سرى ، أو لقلة فى العدد !

لقد كان الزنوج مَرَدَة فى الساحة لا ينتقصهم فن أو صبر على حين كان الشباب العربى سريع الإعياء قليل الحيلة فاستحق الهزيمة بجدارة .

وما وقع فى الميدان الرياضى نموذج لما يقع فى ميادين شتى ، الشباب لا يحسن الإجادة ولا يعشق الإتقان مشغول بذاته قبل كل شىء ، تستهويه القشور ويحترق فى أنوار الشهرة .

فى ميدان التجارة الكلمة رباط ، وهو يستهين بالكلمة ، وكأن التجارة أن يأخذ المشترى أكبر ما يستطيع من البائع وأن يدفع أقل ما يُدفع ، ولا مكان للوضوح والصدق والعدل .

وفى ميدان الوظائف الرياسة شرف يُشترى بأى ثمن ، والعمل عبء يحتال للخلاص منه ، ومصالح الجمهور مشغلة ينبغى الفرار منها ! ! .

ورأيت المناور فى أغلب العمارات مجامع للقمامة ، وليس بين السكان تعاونٌ مّا على تنظيف الشوارع والحارات .

وشكا لى قريب أنه اشترى عُلَبًا لأدوية كتبتْ له فرأى بعض العلب ناقصا . .

وهموم الرزق جعلت المدرسين يشتغلون بالحصص الإضافية أكثر مما يشتغلون بالحصص الأساسية ، والناس ينطلقون فى المدن والقرى كما تخرج الوحوش للصيد . . أما الارتباط القديم بالله وحدود الحلال والحرام ، والتواصى بالحق والصبر ، فإن حباله رثّتْ أو انقطعت .

كان المؤمن قديما يخرج من بيته وعلى لسانه الدعاء المأثور «**بسم الله توكلت على الله اللهم إنى أعوذ بك من أن أزلّ أو أُزل أو أَضِلّ أو أُضَلّ أو أَظْلِم أو أُظْلَم أو أجهل أو يُجهَل علىّ . .**» .

أما اليوم فللناس شغل آخر أو هَدَفٌ آخر ! ! . والسبب الأول فى هذه المأساة التى هدمت الإنسان العربىّ ، انتشار الفكر العلمانى وانحلال الرباط الدينى ، ونسيان اليوم الآخر . .

فى أقطار أخرى يمكن أن يكون للأخلاق مهاد غير الدين ، ولو كان مهاداً رديئًا ، أما فى البلاد العربية فإن ضياع الدين يعنى ضياع الأخلاق ، فلن أنتظر أخلاقا من امرئ كافر بربِّه واهى الصلة به ! .

إن الثورات القومية الكبرى فى بلادنا أدركت حظا من نجاح ، لأنها اعتمدت على رجال ربّاهم الدين وضبط أحوالهم ! فلما خفت داعى الدين ، وقام داعى المنفعة ركدت ريح الأمة ، وهانت على عدوها .

إن العلمانية تحارب الانتماء الدينى ، ويوجد الآن من يهتمون بالسلوك ولا يهتمون بالعقيدة . وهيهات فلن يكون مع القلب الفارغ إلا المسلك التافه .

إن النفس العربية انفرط عقدها لما ذهب يقينها ، ولن تتماسك هذه النفس وتتكون فيها ملكة الإجادة والصلاح والإصلاح إلا بعودة الإيمان الغائب ، وانعقاد الإرادة على فعل الجميل وترك القبيح .

* * *

سيدٌ واحد

جاء فى السنة أن النبىّ عليه الصلاة والسلام قال بعد ما رفع رأسه من الركوع : **«اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ماشئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد – وكلنا لك عبد – لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت . ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ»**

وجاء عنه أيضا عليه الصلاة والسلام أنه بعد ختم الصلاة استحبَّ هذه الكلمة **«لا إله إلا الله وحده لاشريك له . له الملك وله الحمد . وهو على كل شئ قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولامعطى لما منَعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»** .

قلت : لم هذا التوكيد على أن أمر المنع والعطاء لله وحده ؟ وأنه لا دخل لبشر فيه مهما كان سلطانه ؟ ولماذا ارتبط بالصلوات الخمس التى تجب على المسلم كل يوم؟

وكان الجواب أن المرء كثيراً ما تمرُّ به ساعات عسرة ولحظات ضعف ، يشعر فيها بالوحشة والعجز فيميل قلبه إلى ذوى السلطة والنفوذ يحسب أن لديهم ما ينقذه من ورطته ، ويفكّ عنه ما نزل به من ضيق ! ! .

وهو مخطىء كل الخطأ فى هذا الشعور المنهزم ، فإن الأمور لا تفلت من يد الله أبدا . ويستحيل أن يملك عليه أحد عبيده شيئا ، والرشد كله فى انقطاع المرء إلى الله وتعلقه به وحده .

« وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُون اللَّه مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ »(١)

والعلاقات بين عبيد الدنيا قد تقوم على هذه المنافع المرجّوة بين الضعفاء والقادرين ، وربما قامت تقاليد اجتماعية راسخة بين الأتباع الأذناب والسادة أهل الجاه ، وربما كابر هـؤلاء وأولئك دعوات الحق ، وناصبوا المرسلين العداء ، ولكن النتائج الأخيرة تخزى الجميع يوم الحساب **«وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا**

---

(١) هود : ١١٣ .

لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»[1] وقد عجبت للمتنبّى كيف فَنِىَ فى سيف الدولة وكيف قال له :

يامن ألوذ به فيما أؤمله ! ومن أعوذ به مما أحاذره . .!

لايجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره .

إن جحود المتنبى لسيده لم يتأخر ليوم الحساب ! إنه بعد سنين كفر به وساق رواحله إلى مصر يقصد سيدا آخر وهو يقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا .

ما أجمل أن يكون للمرء سيد واحد لا يعرف غيره ولا يرتبط إلا به .

* * *

(١)إبراهيم ٢١

عصابات المرتدين

نجح الغزو الثقافى فى تأليف عصابات من المرتدِّين تستبقى ما حقَّق من أهداف إبَّان استعماره للعالم الإسلامى الواسع . إنه ألغى الشريعة الإسلامية وعطل نصوصها فى ميادين شتى ، وأوهن جانب العقيدة بعد ما قطع صلتها بالتربية والسلوك وأنشأ تقاليد جديدة لا ترتبط بالحلال والحرام ولا تكترث للقاء الله ! .

وهذه العصابات الكفور تخلط عامدة بين حرية الفكر وحرية الكفر ! . وتتبنى ألوانا من الثقافات الخائنة والفنون المنحلّة لا تزيد أمتنا إلا خبالا وقد انتسب إليها كل كاره للتراث الدينى ، وكل تاركٍ للصلاة والصيام . ولا ريب أن وراء هؤلاء مُوجِّهين من قادة الصليبية والصهيونية يحثّون خطاهم ويشدّون أزرهم ، والهدف القريب والبعيد منع المسلمين من العودة إلى دينهم وتزهيدهم فى أحكامه وشعائره .

إن هذا الجيش من المرتدين الجدد يحرس مخلفات الاستعمار العسكرى ، ويشتبك فى صراع مكشوف مع كل مسلم وَفِىٍّ لدينه وتاريخه وحضارته ، والراية التى رفعها الحرية والتجديد والتنوير ! .

وقد نظرت إلى السائرين تحت هذه الراية فما وجدت فيهم غيورا على كتاب الله ، بل قل : ما وجدت فيهم مُصدِّقًا له !! وما وجدت فيهم من يحترم رسالة الإسلام أو يحفظ حدودها . فإذا أعلن أحد الناس ريبته فى مقدساتنا طاروا إليه يشجِّعونه ويقوُّون ظهره ، ويُحرضونه على الله ورسوله ! .

لمن يعمل هؤلاء المرتدون ؟ لأعداء العرب والمسلمين وحدهم ! .

والمضحك أنهم يتحدثون عن العلم ، كأنهم بعض غزاة الفضاء أو مُفجّرو الذرة ! ومالهم فى ميادين البحث العلمى ناقةولا جمل ، وما ينظر إليهم علماء الكون إلا على أنهم عاطلون سخفاء . .

إن جمهرة العلماء أصحاب عقائد ، ولم يقل أحد : إن «كارل ماركس» من العلماء ، أو أن أشباهه من أصحاب الأهواء لهم علاقة بالدراسات الفيزيائية أو الكيميائية أو الفلكية ! . يجب أن نلقى عصابات المرتدين بما يجب من ازدراء وخصام ، وأن نمزق الأستار عن الجهات التى يعملون لها حتى يأخذالناس حذرهم ، إننا لن نترك ديننا ، وسنكسر القيود عن شرائعه المعطلة وآدابه المهجورة .

في .. «الطور»

رضيت كل الرضا عندما رأيت الطائرات المصرية تبيد أشجار الأفيون والحشيش التى زرعها بعض البدو فى سيناء وعجبت لقوم يزرعون الخبيث ويتركون الطيب ! .

لماذا لم يغرسوا قمحا أو شعيرا ؟ لماذا لم يغرسوا فواكه أو نخيلا ؟

إن سيناء من أقطار البحر المتوسط التى تجود فيها زراعة الزيتون فلماذا ماتت هذه الزراعة مع أن القرآن ذكرها منسوبة إلى منابتها « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ »! . (١)

إن الأجيال تتغير وإن الأراضى كذلك تتغير والذى يرى سيناء الآن يعجب للصفرة والوحشة اللتين تكسوان سطحها وآكامها .

وذكرياتى فى سيناء بئيسة فقد اعتقلت فى «الطور» نحو عام ورأيت بدْوها لا يكادون يفقهون قولا ، وشعرت بأن الحكام فى القاهرة قد جعلوا ترابها المبارك منفى لمن ينقمون منه !

قلت لنفسى وأنا فى «الطور» : هنا هبطت نعمة النبوة على موسى عليه السلام ، سمع النداء المقدس « إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ »(٢)

لقد أمسى راعى الغنم قائد شعب كبير ، ولقد حمل الوحى وذهب إلى فرعون يقول له بأدب رقيق « هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » ؟ . (٣)

لكن فرعون زهد فى هذه الهداية ، إنه يريد أن يعبده الناس لا أن يعبد هو الله ! . وحرّر موسى عليه السلام قومه من عبودية قاسية ولكن محرر العبيد لم يكن يدرى أن قومه يحملون للعالم أشد الضغائن ، وأن قلوبهم قدّتْ من الحجارة .

---

(١) المؤمنون : ٢٠ . (٢) طه : ١٢ - ١٣ . (٣) النازعات : ١٨ ، ١٩ .

إنهم الآن يمنعون «الصليب الأحمر» من تقديم الطعام إلى ثلاثة آلاف عربى جائع فى الخليل ، فرضوا عليهم منع التجوال فهم محبوسون فى بيوتهم ليهلكوا من المسغبة !! .

والمعركة اليوم محتدمة بين المستكبرين الذين يرون أنفسهم أتباع موسى عليه السلام وبين المستضعفين الذين يُحْسَبون أتباع محمد ﷺ !! وهم لا يربطهم برسالة محمد ﷺ سبب قائم . .

وشرعت أفكر فى أمتنا وفى أوضاعنا . . .

وعدت إلى زراع المخدرات فى سيناء ، إنهم لو حصدوا ما غرسوا ، لأرسلوا الموت إلى الوادى وقتلوا بسمومهم ألوف الأسر ، ولكن الله سلّم . .

بيد أن هناك فى ميدان الأدب والفكر أشخاصا آخرين يكرهون الوحى ويخاصمون تراث محمد ﷺ كلّه ، ويبذرون فى الحياة بذور الكفران بالله والدار الآخرة .

إن هؤلاء أضرى على الحياة العامة من ناشرى المخدرات ، ليس من الإبداع أن تحارب الصلاة والتقوى ! وأن تحتفى بالشهوات والأهواء وأن تمنع عودة المؤمنين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إن هذا تمهيد لجاهلية حديثة ينشدها الاستعمار .

* * *

هل هذا التزامن مقصود ؟

الحروب الصليبية - فى العقل العربى المعاصر - ذكريات أتت عليها الأيام فاندملت جراحها وبردت آلامها . فإذا جدَّت أحداث تُذكِّر بها لم يذكرها أبناؤنا إلا غائبى الوعى قليلى الاكتراث .

أما فى العقل الغربىّ الحاضر فالحروب الصليبية محفورة فى ذاكرته تتجدد ولا تتبدَّد ، لا تبرح فكر الساسة والقادة وعلماء الدين والسياسة .

وقد رأيت مظاهر للحقد على الإسلام تثير الدهشة فما كنت أتصور أن امرأة كتاتشر[1] تذكر الإسلام بعدما انهارت الشيوعية على أنه الخصم الباقى للحضارة الأوروبية ، وما كنت أتصور أن كثرة من المدنيين والعسكريين تعتنق هذه الفكرة ، وتنشرها هنا وهناك . حتى الإذاعات العالمية التى تدعى الحياد والصحف الغربية التى تزعم الموضوعية فى علاجها لشتى القضايا لا تفتأ تنتهز الفرص بخبث كى تنال من الإسلام وأمته ! .

إن الغرب يطوى فؤاده على كره عميق للإسلام من الصعب علاجه ، وأنا يائس من إصلاح هذا العوج وكلّ ما أدعو إليه هو التحذير منه والاستعداد لمواجهته .

وهناك صنف آخر من الحاقدين على الإسلام ، هم عرب من جنسنا ، يتكلمون بألسنتنا ، فإذا راقبت مسالكهم وجدتهم كخواجات الغرب لا يقلّون عنهم ضِغْنا ولا أذى ، بل قد يزيدون .

ألَّف أحد الصعاليك كتابا نال فيه من الوحى والنبوات وسخر ما شاء أن يسخر من الدين وحقائقه ، فعاقبه القضاء بالسجن بضع سنين على وقاحته وهبوطه . فإذا كاتب شيوعى يعترض على الحكم ، ويقول : إن هذا مصادرة لحق الإبداع !! .

الإبداع فى عرف هذا التافه هو الإقذاع فى شتم الأنبياء !!

وكأنما كانت هذه الحركة إشارة على بدء الهجوم . فإذا عصبة من الملاحدة تتصايح من هنا ومن هناك على ضرورة إلغاء الحكم أو تخفيفه ليكون صوريا !!

---

(١) رئيسة وزراء انجلترا وقتئذ .

والتهمة المختارة التى يرددها هؤلاء أن حرية الفكر فى خطر ، وأن المتدينين - وفى طليعتهم الأزهر - صنعوا مقصلة لقتل المفكرين الأحرار ، أو بعثرة الأشواك فى طريقهم !! .

وقال واحد منهم يحمل لقب «مستشار» إنه حُرِم من حق الاجتهاد وصودرت له عدة كتب ! .

وقرأت ما كتبه «المستشار» المجتهد ، فإذا هو يحلِّلُ الخمر مستدلا بالآية «﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . . »[1]

هذه هى عبقرية الاجتهاد عند مستشار لا أدرى أكتب كلامه وهو صاح أو سكران . إنه يتهم الأزهر بالجمود ، والعدوان على الحريات وإغلاق باب الاجتهاد !ً.

إن الحاقدين على الإسلام كثروا وعلا صياحهم وطالت لجاجتهم ، ويقع هذا فى بلادنا فى أيام نحسات تتعرض فيها الحركات الإسلامية لضروب الفتن وأنواع القمع مما يجعلنى أحس بأن هذا التزامن مقصود ، وأن الهجوم على قرية فى فلسطين قد يصحبه هجوم على حكم شرعى مقرر يجعل الأمة المحروبة تحار فى أى الجبهتين تقف للدفاع ؟ فهى توزع قواها المحدودة على جبهات شتى !! .

ماذا نصنع ؟

لابد من الثبات فى مواقف الحراسة ، ولن نتخلَّى عن ديننا مهما كثر الهاجمون ، وخبثت حِيَلُهُم ، وساندتهم قوى جليَّةَ أو خفيَّة .

* * *

(١) الأنعام : ١٤٥ .

عجز مهين

تعظيم أمر الله من أمارات التقوى ودلائل اليقين أما قلة الاكتراث بحكم الله فما يقع إلا مع خراب القلوب ، وبعدها عن الإيمان ! ومن خصائص الحضارة الحديثة أنها لا تربط السلوك برضا الله أو بسخطه ، العمل فيها له باعث شخصى ، فإذا ارتقى قليلا كان له باعث خلقى ، وقد يكون لأسباب تجارية أو اجتماعية أما أن يكون العمل ابتغاء وجه الله ، وانتظار ثواب الآخرة ، فذاك بعيد بعيد ! .

وقد لاحظت فى بعض الإحصاءات أن الأولاد اللقطاء يقاربون فى العدد الأولاد الشرعيين كما أن بعض اللقطاء وصل إلى منصب رئيس حكومة ولاحرج ! وقع ذلك فى أوروبا وأمريكا . . وأعرف من دينى أن ابن الزنا غير ملوم ، وأنه خير من أبويه ، ماجريرته ؟ .

لكنى ما تصورت أن يكون أولاد الحرام نصف المجتمع ! وأن يبلغ الاجتراء على الله هذا الحدّ ، لكن الحضارة الحديثة لها منطق آخر لا ندريه ، وقد كنت أتساءل عن صلابة موقف الفاتيكان فى تحريم الإجهاض ، إنها صلابة مشكورة ، وهو يتفق مع الإسلام فى احترام الأجنّة ، لكننى إلى الآن أتساءل : لماذا سكت عن إباحة اللواط والسحاق والبغاء والزنا وسائر الأدران الجنسية الشائعة؟ لماذا لم يشن عليها حربا شعواء؟

إن الله دمّر المدينة التى يّسرت الفسوق وتواضعت على اقترافه ، فلماذا يترك الفاتيكان عواصم الغرب تتعرض للمصير نفسه ؟

ثم أريد أن أعرف هل الله الذى نؤمن به هو الله الذى يؤمن به الغربيون ؟ أم هو كائن مشغول بالتأمل فى ذاته - كإله أرسطو - الذى يذهل عما يقع فى العالم ؟

يدفعنى إلى هذا القول ما أسمعه من أن كوكب الأرض سوف يضيق بالأحياء ويعجز عن طعامهم وشرابهم ، إن كثرتهم أثقلت كاهله فلن يستطيع بعد انتهاء القرن العشرين لميلاد عيسى عليه السلام أن يتحمل مزيدا منهم ! سبحان الله ، أين الرزاق ذو القوة المتين؟

الحق أن عيسى ومحمداعليهما الصلام والسلام بريئان من هذا اللغو ، وأن الحضارة المقطوعة عن السماء من وراء شيوعه ، إنها حضارة موغلة فى الجشع والكنود ، وهى تحسب أن زيادة العالم الثالث ستحرمها الينابيع الدافقة هنا وهناك ، وتمنعها من الاستئثار بها ولذلك ترسم سياسة صارمة لتقليل الأقطار المتخلفة فإن كثرة الخدم قد تكون سببا فى متاعب السادة ! إننى لا أعاتب أحدا وإنما ألوم قومى على عجزهم المهين .

لا خلط بين الآيات

لا يجوز الخلط بين الآيات التى تعرض الدعوة ، والآيات التى تبنى الدولة . فالآيات الأولى تخاطب ذهنا خاليا كى يعرف ربًا هو به جاهل وله منكر ، فإذا شرح بالإيمان صدرا قيل له : استقبل حياة لها معالم أخرى وتكاليف جديدة ! .

عندما يدعى الخالى إلى الإسلام تجيء الآية « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . »[1] لاقسر ولاجبر ولا إكراه فى الدين ، فإذا آثر الحق ودخل فى الإيمان قيل له : هناك واجبات شتى تنتظر المؤمنين وعليهم القيام بها مثل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »[2]

فالقول السديد بعد القلب التقى أساس الخلق المسلم . كما يقال للمؤمنين عامة « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[3] فالمجتمع المسلم خليّة نحل حول المسجد يستجيب لندائه بين الحين والحين مؤديا حقوق الله ، كما يطلب من المؤمنين الاستعداد لمواجهة عدوهم وصدّ عدوانه الذى لاينقطع « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً »[4] .

هناك شبكة من الأوامر والنواهى تحرس المجتمع الجديد وتشدّ بنيانه ، ولا يقبل من أحد الاستهانة بها أو التفريط فيها . .

وقد رأيت ناسا يفسرون « . . **من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**» من شاء صلّى ومن شاء ترك من شاء سكر ومن شاء صحا ! من شاء عفّ ومن شاء فسق . .

أى يريدون مجتمعا فوضويا خاليا من الحقوق والالتزامات .

ونبتت جرثومة هذا الفهم فى الأوساط المرتدة التى رباها الاستعمار فى كنفه ، وغذّاها الغزو الثقافى بتعاليمه الكفور . .

---

(١) الكهف : ٢٩ .
(٢) الاحزاب : ٧٠ .
(٣) الحج : ٧٧ .
(٤) التوبة : ١٢٣ .

إن هذا الاستعمار بعد ما ألغى الحدود والقصاص ، وأبعد الشريعة عن عالم القانون اتجه إلى ضرب العقائد والعبادات ، وأخلاق الإسلام وقيمه ! وبثّ دسائسه فى ميادين التعليم والإعلام لإنشاء أجيال خاوية لا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا .

وقد سمعنا صيحة غريبة تقول لا نريد الإسلام السياسى ! .

فماذا تريدون ؟

نريد الإسلام الروحى وحسب !

والحقيقة أنهم يرفضون الإسلام كله بدءا من كلمة التوحيد إلى إماطة الأذى عن الطريق ! .

إنهم يريدون إسلاما يبيح الزنا والسكر ولا يعرف لله حقا فى شىء .

إن هناك عقدا بين الله وعباده ، يقول الله : شرعت .

ويقول المؤمنون سمعنا وأطعنا .

فمن رفض السمع والطاعة لله لا يسمَّى مسلما ، ولا نقبله فى صفوف المؤمنين .

* * *

الإيمان والمعادن النفيسة

سمعت فى إذاعة لندن أن هناك نظاما مقترحا لتشغيل المسجونين حتى يسهموا بعملهم فى نفقات معيشتهم ، فإن المسجون الواحد يتكلف فوق الأربعمائة جنيه شهريا ، والنظام المقترح يساعد بتقديم ربع هذا المبلغ !! .

ومعروف أن عقوبة الإعدام ممنوعة فى إنجلترا وأنه لا القتلة ولا المفسدون فى الأرض يفقدون حياتهم ، إنهم ينزلون ضيوفا على سجون تشبه أن تكون فنادق !! وعلى الدولة تكاليف هذه الضيافة . ولست أقحم نفسى على فكر هؤلاء الناس ومسالكهم ، وإنما استغربت أن يطلب منا التشبّه بهم والعيش على غرارهم ، فإن منتسبين لجماعة حقوق الإنسان – وهم يستنكرون عقوبة المرتد فى الإسلام – طلبوا إلغاء عقوبة الإعدام جملة . وقالوا : إنهم لا يرجعون فى هذا إلى نصوص الدين ، وإنما يستندون إلى الميثاق الدولى .

ودحرجة الإسلام حتى لا يكون مرجعاً للسلوك هدف تسعى إليه فئات كثيرة .

إن الدين ينسج شبكة من الأوامر والنواهى على وجهات الناس فى هذه الحياة ، تضع أمام أعينهم علامات حمراء أو خضراء : مرّ أو لا تمرّ ! ، افعل أو لا تفعل ! .

فإذا أطفئت هذه العلامات وأبطلت وظيفة الدين فما الذى يوجّه سلوك الناس ؟ ويرسم لهم الغاية من مسعاهم . ؟

إن هناك جهودا مكثفة لتضييق دائرة الدين ، وتغطية أشعته هنا وهناك واختلاق بدائل مستوردة من الشرق أو الغرب لتحل محلّه ! .

فماذا كسبت الجماهير من هذه الجهود الخائنة ؟

وماذا أفادت قضايانا العالمية والمحلية ؟ ضعفت العقائد ، وهانت الأخلاق ، وتاه الشباب وتحركت الشهوات دون قلق ، ودافع الناس عن وجهات نظرهم وكأنها الوحى الصادق .

عندما استُقْدمتْ النزعة الوطنية من أوروبا ، طُلب منها أن تحلّ محل الضمير الإنسانى وأن تحلَ محل الشعور الدنى ، ومن الذى يكره وطنه ؟ أو يرخص مكانته ؟ ولكن صوت الدين لا يجوز أن يخفت ! .

وقال الله وقال رسوله لابد من إعلائهما ! والحق أن الوطنيين من خمسين سنة كانوا قريبى عهد من منطق العقيدة وهداها فكانوا أقوى رجولة ، وأصلب عودا .

ولقد أضرب الموظفون أجمعون يوما ما عن العمل فى مواجهة الاحتلال البريطانى ، وكان نداء الرجولة سريعا فى ملء المواقف الصعبة ، بل كان حامل الشهادة المتوسطة أكفأ من حملة الإجازات العليا فى هذه الأيام العجاف ! .

لقد كان الإيمان – ولا يزال – صانع المعادن النفيسة والأخلاق الصلبة .

سعى القلوب

شعرت بضيق فى نفسى ، وانحراف فى مزاجى ! وأدركت أن حكمى على الأمور سوف يبعد عن الصواب إذا بقيت سجين هذه الحال الرديئة ، فقلت أستغفر الله وأتوب إليه لعل صدرى ينشرح وميزانى يعتدل ! ! .

ولكن هاجسا تحرك فى نفسى يقول : علام تستغفر ؟ إنك ما أخطأت فى شىء ولا ظلمت أحدا ، فاطمئن . . .

فقلت لنفسى : وهل انتظر حتى أسىء أو أعتدى ثم استغفر الله ؟

إن الحال التى تعانيها هى الوعاء التى تولد فيه السيئات ثم تنمو ، حتى إذا جاءت المناسبة للظهور تحركت . والقلب القاسى هو الذى يدفع إلى الكبر حينا وإلى الكنود حينا وإلى استباحة الآخرين حينا ، فإذا شعرت أن قلبك أخذ يقسو فاستشعر الخطر وتذكر قوله تعالى « فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ . . . »[1]

إن الله قد يمتنّ بالنعمة على واحد من خلقه ، فيقول المسكين : هذه ثمار عبقريتى ونتيجة جهدى وكفايتى ويمتلىء اعتدادا وفخرا «فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[2] فليرقب المرء أحواله الباطنة فإن فساد الظاهر يغلب أن يكون من رداءة الباطن . .

جاء فى السنة أن أحد الراسخين فى العلم جاءه مجرم اعتاد القتل ، وسأله هل لى من توبة ، فأجابه العالم من يمنعك من التوبة ؟ دع أرضك التى تعيش فيها ، والحقْ بأرض صالحة تعينك على الاستقامة ! فانطلق الرجل صوب القرية التى تعينه على تقوى الله .

---

(١) الزمر : ٢٢ .   (٢) الزمر : ٤٩ ، ٥٠ .

ولكن مَنيتُه أدركته فى الطريق ! قيل إنه لما أحسَّ دُنُوَّ أجله أخذ ينوء بصدره إلى الإمام ، ولكن الأجل عاجله .

قال رسول الله ﷺ «فاختصمتْ فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

قالت ملائكة الرحمة : إنه جاء تائبا ، مقبلا بقلبه إلى الله تعالى .

وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرا قط !! فأتاهم مَلَكٌ فى صورة آدمىّ فجعلوه بينهم - حكما - فقال : قيسوا ما بين الأرضيْن ، فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد بشبر ، فقبضته ملائكة الرحمة . .!!»

شبر واحد بتَّ فى مصيره ! لم يكن نشاط قدم تسعى ، بل كان جهاد قلب تائب مستميت فى العودة إلى الله ، جعل صاحبه - وهو يغالب الموت - يتحرك إلى الأمام .

إن المؤمن يتطلع دائما إلى الكمال ويتبرم دائما بالنقص ولا يستكين إلى وضع إذا ركن إليه يوشك أن يهبط إلى القاع ولأمر ما قال رسول الله : « أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب إلى الله فى اليوم والليلة مائة مرة »

هذه دعوة حثيثة إلى التسامى مادامت الحياة .

* * *

مسلمون فى ألمانيا

قضيت فى «ألمانيا» عشرة أيام للتعرف على أحوال المسلمين هناك ، وفى أثناء انشغالى بلقاء إخوانى ودراسة قضاياهم رأيت مظاهر الارتقاء الإدارى والحضارى الذى بلغه الألمان وشيوع النظافة والنظام فى كل شىء ، ولفت نظرى أن الجدّ والرضا يصبغان وجوه العاملين فى كل مكان فلا أثر للاسترخاء والعبوس ! وطويت نفسى على ما بها وأخذت أفكر فى حال قومى ! .

المسلمون هنا يبلغون مليونين ونصفاً أغلبهم من الأتراك ، وبقيتهم من العرب ، ومع أن الوجود الإسلامى مضى عليه قرنان إلا أنه تنامى فى الثلاثين سنة الأخيرة وتضاعف عدده .

ويتوزع الأتراك على ثلاث طوائف كبيرة تتنافس فى الخير ، ومع تمايزها فلا شقاق بينها ، بل لاحظت حرص الجميع على الهوية الإسلامية وحماسهم فى دراسة الكتاب والسنة وإن كانت الكتب التى يستفيدون منها كالغذاء الصعب الهضم ! .

أما العرب الوافدون من أماكن شتى فتقودهم الطلائع الإسلامية المنظمة ، وقد صلينا الجمعة مرتين فى مسجد «آخن» مع جماهير من الرجال والنساء ، وقبل عودتنا بيوم سجلنا إسلام إحدى الألمانيات ، وكانت بادية السرور رائعة الاحتشام ! وحرية التدين مكفولة ، وليس هناك عائق أمام إقامة الشعائر .

والشعب الألمانى نصفه من الكاثوليك ونصفه الآخر من البروتستانت ، وهو شديد التمسك بنصرانيته ولعل أقوى دليل على ذلك أنه لما انهزم فى الحرب العالمية الأولى ، ثم بلغه أن « أعداءه » الإنجليز دخلوا بيت المقدس دقّت الكنائس أجراس النصر لانتهاء الحروب الصليبية كما أعلن ذلك «مارشال ألنبى» !! لقد نسوا جراحاتهم ، وما اقتطع من أراضيهم وأموالهم وذكروا شيئا واحدا ، أن الإسلام انهزم !! .

ونحن لا نعجب لهذه الأحقاد التاريخية ، ولا نغفل عن آثارها فى السياسة المعاصرة ، ووَددْتُ لو أحسنَّا مواجهتها ! .

إن المسلمين مع ما يتمتعون به من حرية إقامة الصلوات ينقصهم شيء مهم ، هو حرية إقامة المدارس الذى تتربّى فيها ناشئتهم ، إن هذه الحرية مفقودة . والخطر على مستقبل الأجيال الجديدة قائم .

والسبب فى ذلك عدم اعتراف الدولة هناك بأن الإسلام دين ! كما اعترفت بذلك بلجيكا والنمسا ، ويسعى المسلمون فى ألمانيا للحصول على هذا الاعتراف ، وجمهرتهم تسعى وراء ذلك سعيا حثيثا ، وتبذل جهدها لبلوغ هذا الهدف .

ومنذ أيام أقام المسلمون حفلا كبيرا لبناء أول مسجد فى ألمانيا منذ ٢٧٠ سنة ، وكان لزاما عليهم أن يذكروا بالتقدير والشكر الملك «فردريك» الذى أصدر إعلانا بضمان الحريات الدينية ، ومكنهم من إقامة المسجد ! وقد كتبوا هذا التقرير فى إعلان يحمل صورته . . .

وبعد أيام وجد الإعلان مشقوقا والصورة ممزقة !! .

إن أحد الغلاة فعل ذلك لأنه يكره التصوير !! وقامت إدارة المسجد بلصق إعلان آخر . . .

قلت : أبهذا المسلك نحصل على الاعتراف بالإسلام ؟ وتحصين الأجيال الجديدة ؟ أما نحسن التصرّف ؟ .

* * *

فى المانيا
إنهم يعملون !

فى أثناء التجوال ببعض المدن فى ألمانيا لاحظت أن الزحام خفيف ، وأن نصف الكراسِىّ فى المركبات العامة خالٍ ، وأن الشوارع لا تسمع فيها إلاهمسا . . !

قلت لصاحبى : أين الناس ؟

فأجاب : الناس فى مَقارّ أعمالهم ، فمن الصباح الباكر إلى منتصف السابعة مساء يكون العمال فى أعمالهم والموظفون فى مكاتبهم ، والطلاب فى مدارسهم وجامعاتهم إذ أن الدراسة يوم كامل . .! فإذا انقضى يوم العمل بدأت الراحة داخل البيوت ، وهى بيوت مزوَّدة بما يعين على الاستجمام .

وسرحت بى الذكرى إلى القاهرة وغيرها من العواصم العربية . الزحام شديد والعمل صورىّ والناتج قليل ! .

إننى فى الفندق الذى أنزل به أسمع وقع الأقدام على الأرض وكأنها خطوات عسكرية . وأرى الموظفين يؤدون أعمالهم وعلى أفواههم بسمات وفى وجوههم بشاشة . الناس هنا لايرون الحياة إلا عملا . . !

على أن هناك شيئا رابنى ، وأعلنت كراهيتى له ، فتى وفتاة يسيران معا . الفتى يلبس سراويل طويلة ، والفتاة تلبس سراويل لا تكاد تغطى نصف أفخاذها ! .

قلت فى نفسى لماذا هذا التناقض ؟

والواقع أن أغلب النساء ما يمنعهن من العرى إلا الجو البارد ! فإذا ساد الدفء تكشفت أعضاء ما يسوغ أن تكشف . . .

إن الناس فى الغرب يشرحون النساء شرحا منكرا ، وقد تحدثت مع أحد المستشرقين ، فقال هذه فروق بين حضارتين ، بين مجتمعنا ومجتمعكم ! .

فقلت له : كان آباؤكم عندما يسافرون يُلبسون المرأة حزام العفّة وكانت الثياب طويلة سابغة ! فماذا عراكم أنتم ؟ أكان آباؤكم ضالين مثلما تنظرون إلينا ؟ فسكت ضاحكا . .

على أن الغربيين يقيمون فواصل غليظة بين الجدّ واللهو فلا يسمح أبدا بعبث فى أوقات العمل ، بل الأعصاب والأفكار مشدودة إلى الإنتاج الكثير والثمر الوفير .

فإذا انتهى يوم العمل ترخّص القوم فى المجون والعبث ! والمأساة عندنا تظهر فى الخلط القبيح بين الأمرين ، بل نحن نكاد نضيع وقت العمل سدى ! ! .

وبعض الناس عندنا يجعل العمل الإدارىّ متنفّسا للعُقَد النفسية ، وينظر للجمهور الذى يتردّد عليه كأنه من طبقة أدنى ! أو كأن الناس عبيد أبيه أو أمه .

وأذكر أن صديقا لى دخل على أحد الرؤساء فى حاجة له تتصل بمبنى يملكه فإذا الموظف الكبير ينظر إليه شزرا ويتناول الورق بتأفّف ، فقال له صاحبى مقتحما أسواره : إذا كنت نصرانيا فالله عندكم محبة ! وإذا كنت مسلما فنبيكم يقول **تبسّمك فى وجه أخيك صدقه !!** فما هذا الكبر البادى على وجهك ؟ إذا لم تخدم المصلحة العامة فما عملك هنا ؟ .

والواقع أن صورة هذا الموظف السمج لا ترى هناك ، الرئيس والمرءوس يؤديان عملهما بلطف ودقة وعندما قدمت جواز سفرى للموظف المختص أخذه وردّه فى لمح البصر ، وتحوّل إلى غيرى على عجل ، العمل هو الهدف ! لا مكان لشىء آخر .

* * *

الإخـلاص

الإسلام يقين فى الأفئدة وزكاة فى النفوس وشرف فى الأخلاق وسموٌ فى المسالك على نحو ما قال الرسول الكريم «**إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها**» وفى كل شبر من الأرض ولحظة من الزمن تستطيع أن تقدم هذا الإسلام مُستقىً من الكتاب والسنة وتطبيقات الخلافة الراشدة واجتهادات كبار الأئمة وأفهام أولى الألباب .

عيب بعض المتحدثين فى الإسلام أنهم ينقلون علومه عن عصر ملوك الطوائف ، أو عصور المستعجمين من المماليك ، أو سياسة الدويلات التى خرجت من جذع الدولة العباسية كما تخرج من جذر الشجرة فروع طفيلية تنقصها ولا تزيدها .

إن القدوة فى العلم والحكم تؤخذ من السلف الأول ، ولا تؤخذ من خلوف تائهين ، وقد رأيت البعض يجادل بحدَّة عن أن مشورة أهل الحل والعقد مُعْلِمة لا ملزمة !!

فقلت هازئا : لماذا سُمُّوا إذن أهل الحل والعقد ؟ وهناك من يقف مكتوف الأيدى أمام قضية حقوق الإنسان لأن هذا العنوان الجديد لم يُعرف فيما قرأ من كتب ، كأن الإسلام هو المصطلحات التى شاعت وحدها قديما ، أما المعانى التى استبحرت فى القرآن الكريم وتألقت فى السنة الشريفة فهو بمعزل عنها . . .

وثم أمر آخر ، إنه لا دين إذا لم يتكون القلب التقىُّ والعقل المؤمن فمن فقد الضمير الصاحى والفكر الذكىّ فلا خير فيه .

إن الأنبياء جميعا اتجهوا إلى الإنسان يصقلونه ويتعهدونه ، وبعيدا عن عصا الشرطىّ كوّنوا الرجال والأطفال أى صنعوا مجتمعا وضيئا مكينا فى أيام كان الحكم فيها للوثنيات الحجرية أو البشرية ، والذين يعجزون عن بناء هذا المجتمع يستحيل أن يقيموا حكما إسلاميا ، والذين يقاومون بناء هذا المجتمع لابد أن تحصدهم سنن الله فى العمران البشرى« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ »[1] .

---

(١) الرعد : ١٧ .

وإذا كان لابد من قبول هزيمة مَّا فأنا أوثر شعبا مؤمنا أنجح فى بنائه على حكم سيِّئ أفشل فى اقتلاعه ! أو بتعبير الدكتور مصطفى محمود «أفضل للإسلام أن يتربع على ضمائر الناس ويسوس حياتهم من أن يتربَّع رجاله على كراسىٍّ السلطة» .

وأعتقد أن نجاح الدعاة فى نشر الإخلاص والمرحمة والتعاون والنظام والنظافة والنشاط والإيثار شئ لا يقدر بثمن ، وهذه الأخلاق هى المهاد الحقيقىّ لكى يقوم من تلقاء نفسه حكم صالح . . .

لطالما قررنا أن الحكم صورة صادقة للشعب نفسه وأن الأمر كما قال القرآن الكريم « وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] .

أذكر أنى رأيت رجلا متحمسا فى نشر الدعوة - كما يقول - فارتبت فى نيته ورأيت أن اختبره !

فقلت له : تحب الشهرة ؟

قال : وُلم لا ؟

قلت : هل أدُلُّك على أخصر طريق للشهرة ؟

قال نعم !

قلت : تشتم النسوان وتتجرأ على ذوى السلطان !! وأنا أضمن لك بعدئذ مكانة بين الناس ، ومكانا فى جهنم !!

قال : ولماذا المكان فى جهنم وأنا أذكر الحقائق ؟

قلت الحقيقة إذا لم يقصد بتقريرها وجه الله كانت وبالا على صاحبها ، وقد قرأت الحديث الصحيح «**الرياء شرك**» .

قال : أيعجبك ما ترى من تهتك وخلاعة وفوضى ؟

قلت : كلاً ما يعجبنى ، وليست حربه بالأسلوب الذى تفعل ! إن التربية المتأنية والشرح المتتابع والموعظة الحسنة والجدال المبتسم أجدى على الإسلام من الشتم ، والتهجُّم ، وليكن الله من وراء القصد ، ولتعلم أن المستقبل بيده .

(١) الأنعام : ١٢٩ .

المـثيرات

هناك مثيرات تردّ الإنسان إلى الله وتشعره بقربه وهيمنته عليه وإطلاعه على سرّه ونجواه .! ما هذه المثيرات ؟ .

قد تكون لحظات عابرة تومض ثم تخفت ، ويعود المرء بعدها إلى غفلته العادية وقد يطول أمدها ويعمق ويعقبها تغيّر فى السلوك العام ! .

إننى أنتهز هذه المثيرات وأرتب عليها أمورا ذات بال حتى لا تضيع سدى . .

أذكر وأنا طالب أقضى إجازتى فى القرية أنى صليت الفجر فى المسجد ثم قررت أن أخترق الحقول متجها إلى النيل لأسير على شاطئه ساعة كانت الظلمة لا تزال تسود الأرجاء ، وأصوات الضفادع والجنادب لا تزال تسمع فى الترعة القريبة ! قلت حسنا فلأتْلُ أنا بعض ما أحفظ من قرآن ، ولأدخل فى مسابقة مع هذه الكائنات التى تسبح بحمد ربها وكنت متوقفا عند سورة الإسراء فاستأنفت التلاوة وأنا اخترق عيدان الذرة وشجيرات القطن وأنواع الزروع ، وهجس فى نفسى هاجس غريب .

قلت إن الطين انشقّ عن هذا النبات الناضر وهذا الثمر النضيد أفلا يمكن – ونفسى من هذا الأصل – أن تزدان بصنوف من الثمر الجيد والخير الكثير ؟ فدعوت بصوت عال : يامن يخلق من الطين حبوبا ورياحين اجعل منى إنسانا مورقا بالخير ، حافلا بالثمر !! إنك على ما تشاء قدير . .!!

وبلغت شاطىء النيل وأنا أناجى وابتهل ، ثم سرت قليلا وقد سرح فكرى مع رحلة أخرى وإنسان آخر ، مع أبى الفرج بن الجوزى الداعية الكبير قالوا : كان يستحب الدعاء بين القبور ! .

لقد استحببته أنا مع منابت الحياة ومطالع الأزهار والثمار ، فبيننا فارق كبير !! ثم قلت : النتيجة واحدة ، إن الرجل يقتل غرور الدنيا فى نفسه عندما يسير بين مصارع الآمال ، وخواتيم هذه الدنيا ، ويتعلم أن الله هو الحق المبين .

أما أنا فقد أتيت الحقيقة من طرفها الآخر . . أو من نشأتها الأولى .!

إن كثيرا من الناس يودع أحبابه الثرى ثم يذهب لشأنه دون ذكرى واعية أو عظة بالغة فهل تلك قصة الحياة . .؟

وتذكرت شاعرا من محلة اسمها « الدير » قريبة من مقابر المدينة يقول :

وبالدَّيرْ أشجانى ، وكم من شَج له دُوَيْن المُصَلَّى بالبقيع شجون !
رُبىً حولها أمثالها إن أتيتها قَرَيْنك أشجانا . . وهن سكون !!

إن المثيرات التى تخترق مجرى الحياة العادية كثيرة ، والمهم حسن استغلالها فلعلها تكون نقلة من طريق إلى طريق ومن اتجاه إلى اتجاه .

ولنعلم أن الحضارة المعاصرة ترفض كل ما يعود بالناس إلى ربهم ، وتطرب لكل ما يربط الناس بالدنيا وفتونها وزخرفها .

ولست محاربا للحياة ولا كارها للبقاء فيها ولكنى مستيقن أن الخلود فيها مستحيل ، وأن لربها حقوقا . من العقوق أن ننساها ، ومن العقل أن نحافظ عليه .

* * *

حـــماقـة

الفطانة من أخـلاق الأنبـيـاء ، وهى بصـيـرة تدرك الأعـمـاق الخـفـيّـة والأبعـاد القصيّة ، وترى الأشياء على ما هى عليه دون نقص أو زيادة ، وتتلطف فى معاملتها واستخلاص النتائج منها . . ذلك أن هناك بصرا أحول ، أو بصيرة حولاء ترى المائل مستقيما وترى الواحد جمعا ، وتبنى النتائج على ما تهوى فبينها وبين الواقع مسافة بعيدة ، وقلّما يصح لها حكم . !

وأحق الناس بالفطنة رجال الدعوة الذين يتبعون الأنبياء ويقومون على رسالاتهم ويُقدِّمون من أنفسهم وسيرتهم نماذج للصلاح والتقى !! ولا أمل فى دين أو دنيا مع البصر الأحول .!

تأملت فيما وقع ببنى سويف ، وفى أعداد الجرحى والقتلى الذين تمخضت عنهم معركة عمياء للاحتفال بعيد الفطر قبل ثبوته فى مصر ، أو بعد ثبوته فى قطر آخر ، وتذكرت ما وقع للأستاذ الشهيد حسن البنا عندما دخل قرية فوجد أهلها منقسمين حزْبين ، هذا يريد أن يصلى التراويح ثمانى ركعات ، وذاك يريد أن يصليها عشرين ركعةَ ، وأُشْرِعَتْ العصىّ واستلّت السكاكين وبدت نذر الحماقة المزعجة !

فأمر الأستاذ بإغلاق المسجد عقيب صلاة العشاء ، وإلغاء التراويح به ، وقال ليصلِّ من شاء فى بيته العدد الذى يريد من الركعات .

إن صلاة التراويح نافلة ، وإن صلاح ذات البين فريضة ، وإذا كانت الفريضة ستضيع لإقامة نافلة فلا أقامها الله .

وقد تساءلت بعد قتل بضعة أشخاص ، وجرح كثيرين : فى سبيل ماذا كل هذا؟ .

إن صلاة العيد سُنة ، لو صحّ وقتها ، ووقتها عند الجمهور لم يأت ، فلماذا تسفك فى سبيلها دماء وتزهق أرواح . ؟ !

وقلت : إن هذا من تلبيس إبليس على بعض العابدين كما يقول ابن الجوزى .

وفوجئت بشخص يقول : ابن الجوزى لا يحتجّ به !

قلت : إمام مؤرخ مفسّر داعية أديب لا يحتج به فبمن يُحتجُّ إذن ؟

قال : قرأنا أن ابن الجوزى كان يشرك فى دعائه لله ، كان يذهب إلى القبور فيدعو !

فقلت يدعو ا لله ولا يدعو الأموات ! وماذا فى أن يتذكر المرء مصارع البشر فى هذه الحُفَر ، وهمود حركاتهم وضجيجهم تحت هذه الصفايح فيرق قلبه ويلجأ إلى ربه ويجأر بدعائه أهذا شرك أيها الأحمق ؟ إن تفكيركم مُلْتاث ، ولكم جراءة على أئمة الفقه ورجالاته لا تزيدكم إلا خبالا ! .

ألا فلتعلموا أن تلمَّسكم العيوب للأبرياء جريمة تبطل أعمالكم وقد قال رسولنا الكريم «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه**» .

وإذا كان أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى مشركا فمنْ تصحّ عقيدته بعده ؟

ثم ينبغى أن تعلموا أن الأمة التى لا تاريخ لها لن يكون لها حاضر ولا مستقبل ، وإذا كان شغلكم الشاغل تجريح الرجال ، وهدم الجبال ، فستقع الأنقاض على رءوسكم وتخمد تحتها أنفاسكم .

قليلا من الفطنة ، قليلا من الأدب ، قليلا من الإنصاف حتى ننقذ أمتنا من ورطات أحاطت بها .

* * *

عقوبة الإعدام

منظمة العفو الدولية تقوم بعملين متناقضين ، فهى تسعى إلى كشف الجرائم الموجّهة ضد البشر حيث كانوا ، وتشهّر بأصحابها وتحاول تطهير المجتمعات منها ، وهذا عمل حسن نؤيدها فيه ، ولكنها تبذل جهدا آخر فى إلغاء عقوبة الإعدام من قوانين العالم كلها ، وتمهّد للقتلة مستقبلا فى السجون يتناولون فيه الغذاء وقد يستمعون إلى الغناء ! وهذا تفكير مستغرب نرفضه جملة وتفصيلا .

إننا عن طريق العقل والوحى نرى أن القاتل يقتل ، وإن إفقاده الحياة جزاء عدل على ما جنت يداه .

ومعروف أن العقوبة لها جانبان جانب يرمى إلى حماية المجتمع ، وتخويف الآخرين من القصاص إن هم اقترفوا هذا الإثم ، وذاك معنى قوله تعالى **«فى القصاص حياة»**(1) .

إن الإجهاز على مجرم أزهق روحاً بريئة يصون أرواحا أخرى كثيرة و يستبقى لها السلامة والأمان ، وذاك ما أدركه العرب الأقدمون فى جاهليتهم عندما قالوا : « القتل أنفى للقتل . » .

والحق أن الإعدام رادع جيد لذوى الضمائر المظلمة .

أما الجانب الآخر فهو يتصل بالقاتل نفسه . لماذا نُكلّف بصيانة حياته وهو لم يصن حياة الآخرين ؟

لماذا لا يذوق طعم الموت الذى أذاقه غيره ؟

لماذا نرحمه وهو لم يرحم أحدا ؟

إن العشب السامّ يقلع . والعضو الضارّ يبتر . والرحمة به عدوان على الغير .

---

(1) البقرة : ١٧٩ .

ومنظمة العفو تسير فى الطريق التى سارت فيها القوانين الوضعية فضرّت وأساءت ، فالقضاء فى أغلب البلاد العربية أظهر الرأفة بالقتلة ولم يحكم بالقصاص العدل إلا فى عُشر جرائم القتل فكيف كانت العاقبة ؟ اتسعت دائرة الإجرام ولم تجفَّ الأرض من الدماء المسفوكة طلبا للثأر أو إشاعة للجريمة .

ولو أن كل قاتل قُتل لتضاءل عدد الجرائم إلى حد بعيد .

ذلك وليس القتل واجبا لمن يقتل وحسب ! بل إن الفساد فى الأرض يستحق العقوبة نفسها ، لأن مثيرى الفوضى ومستبيحى الأعراض وناشرى الذعر بين الناس لا يجوز التهوين من خطرهم على الحياة العامة . وقد قال الله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا »[1] .

إن هذا قانون طبيعى . فنحن نبيد الجراثيم ونهلك الحشرات المؤذية حفظا للصحة العامة ، إن الإنسانية تكسب كثيراعندما تخلو الحياة من قطاع الطرق ومغتصبى الأعراض ، ولن تخسر شيئا من اختفائهم تحت أطباق الثرى .

المطلوب فقط أن يتم ذلك أمام قضاء بصير عادل نزيه ، وأرى أن تتم العقوبة علانية حتى تحسم ميول الإجرام عند بعض المرضى ، فالاستقامة تتم بين عوامل الرغبة والرهبة معا !

وأخيرا ننبه الساعين إلى إقامة فرع لمنظمة العفو الدولية عندنا أننا نرفض التفريط فى آية من كتاب ربنا ، ونساهم مع أهل الشرف فى حماية حقوق الإنسان ومقاومة من يعتدى عليها ، ونبسط أيدينا مصافحين ومؤيدين !

أما القوانين الوضعية فقد آن الأوان لدفنها وإراحة البشر منها ! .

* * *

(١) المائدة : ٣٢ .

الوحدة الوطنية

للوحدة الوطنية فى مصر صورة مستغربة ، أساسها أن يترك المسلمون دينهم ، وأن يترك الأقباط دينهم ، وبعد التعرّى من العقائد والعبادات ينصهر الكلّ فى بوتقة الحب الخالص لمصر ، وبذلك تنشأ أمة عصرية تحيا بعيدة عن التعصب والرجعية !!

هذا ما يتحدث به العلمانيون ويدعون إليه الأجيال الجديدة . .

ونحن نقاوم كل دعوة لترك الدين ، ونؤكد أن الوحدة الوطنية الصحيحة قوامها شعب مؤمن بمواريثه ، بعيد عن الإلحاد والإنحلال . .

وأصارح بأنه لا يسرنى أن يتحول النصارى إلى ملاحدة تحت عنوان شيوعى أو وجودى إن المؤمن بالوصايا العشر أقرب إلى نفسى من الكافر بها ، والمرتبط بعبادته أولى بالثقة ممن لا يعبد إلها ، ولا يضبطه وحى !!

والعلمانيون فى مصر أو فى غيرها يَحْدون الجماهير إلى مواطن الخزى والندامة ، وينبغى أن نحشو أفواههم بالتراب !

ماذا لو بقيت الوحدة الوطنية تستمد قوتها من علاقة سماوية شريفة ؟ تفرض على كل مؤمن الوفاء بتعاليم دينه ؟

إن هذه الوحدة المتدينة غائرة الجذور فى تاريخنا ، وقد توارثنا احترامها من آبائنا وأجدادنا فهى ليست وهما ولا خيالا . .

وأنا بصفتى مسلما لم أشعر بأن الحياة حق لى وحدى ـ كلا ـ من خالف عقيدتى فأرض الله واسعة أمامه لن أعرقل فيها خطاه ، وقد تعلمت من دينى مؤاكلة من يخالفنى فى أصل الإيمان والتزوج منه !

إن أرضنا لم تعرف الحروب الدينية بين المواطنين ، وإنما عرفت هذه الحروب عندما استعمر الرومان مصر ، أيام وثنيتهم أو بعد دخولهم المسيحية وفهمهم لعقائدهم على نحو يخالف مذهب المصريين . .

إن أوروبا هى التى ألفت الفتن والمذابح الدينيـة ، ومـا عـرفنا ذلك فى تاريخنا ولن نعرفه . .

ويخيل إلىّ أن العلمانيين فى مصر عندما يخلطون الحق بالباطل ويلبسـون تاريخنا بتاريخهم . إنما يقصدون الإساءة للإسلام أصلا ، ثم تجىء الإساءة إلى غيره تبعا ، ومن ثم تتابعت حملاتهم على الشريعة دون العقيدة ، وعلى المعاملات دون العبادات . .

فهل يعنى ذلك أنهم يرضون عن الإسلام فى المسجد ، ويكرهونه فى المحكمة ؟

الواقع أنهم ما صلّوا لله ركعة ، ولا ربطتهم به علاقة ، وكراهيتهم لآيات المصحف كلها ، ما يتصل بالفرد وما يتصل بالدولة ، ولكنهم يتدرجون فى حربهم للإسلام ، فإذا قضوا على جزء انتقلوا إلى ما بعده . . ! !

وهم ليسوا مخلصين للوحدة الوطنية ، وإلحادهم يجعلهم جسرا تعبر عليه أوروبا ، لكى لا تبقى إسلاما ولا كنيسة وطنية ! !

إننى أدعو المسلمين والأقباط إلى الحذر من هذه الصيحة الجديدة واستكشاف أصحابها وتبيّن دخائلهم . .

ولن نتوانى نحن المسلمين فى ذود هذا الجراد عن زروعنا وحماية عقيدتنا وشريعتنا معا من هجومهم الغادر !

إن المصحف أمانة فى أعناقنا ولن نترك آية واحدة منه ، وإذا كانت الليالى قد جاءت علينا فإن الفلك لن يتسمَّر « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[1] .

* * *

(١) الشعراء : ٢٢٧ .

أخلاق «الإيدز»

«الإيدز» طاعون هذا العصر ، ومصدر الهلاك الذريع لآلاف مؤلفة من البشر ، وإنه لمن المفزع أن يفقد امرؤ مناعته الطبيعية ويصبح جسمه مَمَرًا مفتوحا أمام الجراثيم الغازية فيأتيه الموت من كل مكان !!

وقد انتشر «الإيدز» فى أمريكا وأوروبا ولكن القارة التى سقطت فى براثنه وانهارت أمامه هى أفريقيا ، فإن الشعوب السوداء رحبت بالحضارة الحديثة ترحيبا أعمى جعلها تأخذ أسوأ ما فيها وتقع فى عقابيله !!

ومعروف أن البيئات الإسلامية لا تزال فى مأمن من هذا البلاء - وإن كانت مهدّدة به - فالمسلمون يمسون ويصبحون يسمعون من كتابهم كيف أهلك الله قوم لوط ، وهدم عليهم مدينتهم ، والفقه الإسلامى يجعل فاحشتهم من الكبائر التى تُعالج بالجلد أو القتل .

والتقاليد المرعية ترى الشذوذ منكرا يمسّ الشرف والمكانة لا سيما وقد رويت أحاديث توصى بقتل الشواذ وتطهير المجتمع منهم . .

وقد اشتد استغرابى لما علمت أن رجال الكنيسة فى انجلترا وافقوا على تشريع يبيح اللواطة لمن يريد !! ووافق على ذلك مجلس اللوردات والعموم ، وكان رئيس كنيسة «كانتربرى» بين الموافقين ، وقد شاعت هذه الموافقة بين المسئولين فى أوروبا وأمريكا . . . ولم يسمع باسم الله نكير عالٍ على هذا السقوط .

قلت : ماذا جرى لرجال الدين هناك ؟

هل جرفهم السيل النجس فى مدّه فلم يستطيعوا المقاومة ؟

وما هذا التواطؤ الغريب على الصمت ؟

إن من بقايا الوحى عندهم ما جاء فى سفر اللاويين «**إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجسا ، إنهما يقتلان ، دمهما عليهما**»!

ومن بقايا الخير عند القوم قول عيسى عليه السلام «**كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه**» ! نعم فالعين تزنى كما جاء فى تراثنا . . .

لكن هذه التعاليم تطايرت أمام الزحف المادى المتمرد على الوحى الأعلى ، وأخذ التشريع يستمدّ أحكامه من الشهوات « بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ »[1] .

والمصيبة المخوفة عندنا أن بعض الرجال فتنوا بالحضارة الحديثة ، وأمسى لهم دوىٌّ شديد فى دور الإعلام ينظرون إلى وحى الله بتجهُّم وإلى الخروج عليه باستهانة ويريدون نقلنا إلى أوروبا أو نقل أوروبا إلينا .

من هؤلاء المقلدين العميان نحذّر وندقّ ناقوس الخطر ، إذا كان غيرنا قد تمرّد على مالديه من وحى فهو وشأنه .

وما يستغرب على من نسى الأصول أن ينسى الفروع ، والجاهل بالله جدير بأن ينسى تعاليمه !

لكننا نحن المسلمين ينبغى أن نتشبث بالأصول والفروع معا ، وأن نخشع عندما نسمع قال الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »[2] .

* * *

(١) الروم : ٢٩ .
(٢) الأحزاب : ٣٦ .

من الأقزام

أرفض أن يتحول ذم المتطرفين إلى ذم للإسلام نفسه ! ما ذنب الإسلام إذا تحدث عنه متطرف أبله ، أو أساء تصويره متدين جهول ؟؟

لكن حفنة من الكتاب الملاحدة تتربص بالدين وحقائقه وتنتهز الفرص للنيل منه .

وقد حدث فى إحدى الندوات النسائية أن وقف امرؤ سليط اللسان يتحدى الإسلاميين قائلا : ماذا تقدمون للناس فى عالم الطب ؟ تقولون الشفاء فى أبوال الإبل وألبانها ؟ ثم رفع عقيرته بغناء لاذع يحاكى به بائعى العرقسوس فى الأحياء الشعبية ! تقولون شِفا وخمير يابول البعير . ! !

لم أشهد هذا الحفل ، ولكن نبأه جاءنى من عشرات الناس وشعرت بسخونة فى رأسى من شدة الغضب ، قلت : إن الحضارة الإسلامية قدمت الشىء الكثير فى عالم الطب وقد ظلت أوروبا قرنين من الزمان تعتمد على كتاب القانون الذى ألفه ابن سيناء . كما أن ابن النفيس كان أول من كشف أثر العدسات فى خدمة النظر القصير!! أهكذا يجحد فضلنا شيوعى عربى ؟ وينتقل من محاربة المتطرفين - كما يزعم - إلى محاربة الإسلام نفسه ؟

إن عالما منصفا مثل «تيرى فاير» تحدث فى جلسة الافتتاح لجماعة الصداقة الألمانية العربية فقال : إن جميع العلوم التى تدرس الآن فى الغرب ، لابد أن تكون من صنع العرب ! إن العرب استفادوا من الحضارات التى سبقتهم وأسدوا جديدا لمن جاء بعدهم . . .

لكن شيوعيا عربيا قزما يهجو قومه ويجرح دينه ويقول قدمتم للناس أن الشفاء فى أبوال الإبل وألبانها !!

قال لى صديق : لايذهبن بك الغضب ، إنه شخص معروف بالدعابة والتبذل!!

قلت : بل هو كما قال رب العالمين فى أمثاله « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ »(١)

إننى أحذِّر العابثين بالإسلام من اللعب بالنار فإنها حارقتهم حتما . .

لقد لاحظت أن الزنادقة من حملة الأقلام يتستَّرون وراء محاربة التطرف فينالون من الإسلام ذاته ، لقد حاربنا التطرف قبلهم وكنا على أصحابه أشد وطأة ، وخطة هؤلاء الآن الذهاب إلى كتب التراث ونقل نتف منها مبتورة عما قبلها وما بعدها لتضليل السذج على نحو ما قال الشاعر الماجن :

ما قال ربك : ويل للأولى سكروا

بل قال ربك ويل للمصلينا

« فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »(٢) .

* * *

(١) التوبة ٦٥ ، ٦٦

(٢) النور ٦٣

الأيدى العابثة

استمعت إلى ندوة عن التعصب الدينى من إذاعة لندن ، وساءنى أن يكون ذلك لمناسبة ما ينشر من حوادث دامية بين مسلمى مصر وأقباطها . .

إننى خبير بالأوضاع فى بلادى وموقن بأنه لا توجد حروب دينية ولا فتن طائفية ، وأن كتلة الشعب سليمة ، وأن أحداثا فردية أريد تضْخيمها دون سبب معقولُ وأن الذين يصطادون فى الماء العكر يروِّجون هذه الأحداث لنيّات مغشوشة !!

بل إن عقد هذه الندوة يثير التساؤل والعجب ؟

فإن أحدا من المشاركين فيها لم يتحدث عن التعصب الدينى اليهودى ، وكيف أنه باسم الدين يجاء بأقوام من روسيا وبولندا وألمانيا واستراليا ليحتلوا أرض فلسطين ويطردوا أصحابها من دورهم !

هذا العدوان الوقح باسم التوراة يُسكَت عنه ، ويهاب ساسته ويمر رجاله بسلام !!

والجزرة التى وقعت فى البوسنة والهرسك ، والتى لم يعرف العالم مثيلا لها فى نصف القرن الأخير ، والتى أكل الحقد الدينى فيها الأطفال والنساء والكبار والصغار لأنهم مسلمون مهدرو الحقوق . . . هذه الجزرة لا يطول الحديث فيها عن وحشية التعصب وقساوته المفرطة !!

إن الحديث يطول عن التعصب الدينى فى مصر ليختلق خرافة ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم يلفت الأنظار إلى الدخان المفتعل !

والمعروف أن المصريين من أهدأ الناس أخلاقا ، وأن مسلميهم حلماء عقلاء وأن أقباطهم سعداء موفورون . .

ولكن الذين يثيرون القضية كلها يطيلون حبل الكذب ثم يكشف عن خبيثتهم

سائل يقول : إن الأجهزة الحكومية تخلق هذا التعصب عندما تصرّ على إثبات العقيدة الدينية فى صحيفة الهوية الشخصية !

لماذا لا تخلو هذه الصحيفة من النسب الدينى ؟

يقال هذا الكلام واليهود يبحثون عن بقاياهم فى الحبشة واليمن ليدعموا حكمهم فى فلسطين ، ويقال هذا الكلام وأول حارق للمسجد الأقصى قادم من استراليا ! ويقال هذا الكلام والفاتيكان يعتذر لليهود ، ويبرئهم من التهم !

يؤسفنى أن تكثر المؤامرات ضد الإسلام وحده ، وأن تتعدد المحاولات لإخماد الصحوة الإسلامية ، وإثارة أقاويل السوء حولها !!

إننا نعرف الكثير من الوقائع ، ونبصر الأيدى العابثة فى الظلام ، ومع ذلك فنحن نؤثر الصمت كى لايتسع الخرق على الراقع ولا يعزّ العلاج على محبّى الإصلاح . .

لا توجد حروب دينية فى مصر ، وإنما يوجد علمانيون يريدون أن يطيح الدين كله ، وأن تنقطع صلة الأرض بالسماء ، وأن يعيش البشر وفق أهوائهم لا تبعا لما جاء به المسلمون .

* * *

تهجما صبيانيا

القول بأن الفقه الإسلامى فى عصوره الأولى انحصر فى دائرة العبادات يحتاج إلى إعادة نظر ، فإن هذا الفقه ملأ ميادين كثيرة واستبحرت بحوثه حتى لكأنها تستمد من الآية الكريمة «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ »(١) .

وفى القرن الهجرى الثانى كان لأبى حنيفة رحمه الله تلميذان مشهوران ، الأول أبو يوسف الذى ألّف كتابه الخراج فى الفقه المالى والإدارى .

والثانى محمد بن الحسن الذى ألف فى فقه العلاقات الدولية ، وله مدرسة مشهورة بين علماء القانون الدولى فى أوروبا وقد قرأنا لابن حزم فصلا فى فقه العدالة الاجتماعية لو كتبه غيره من مفكرى الغرب لبلغ به قومه الأوج .!

لكن المسلمين فى فترة انحسارهم الحضارى حصروا نشاطهم فى نطاق العبادات ، وعجزوا عن مواكبة الزمن ، فأساءوا إلى أنفسهم ودينهم . .

ثم جاء عصر التقليد المحض فزاد الطين بلة ، وأمست الدراسات الفقهية بحوثا ميتة فى الصلاة والحج واقتسمها أتباع المذاهب الأربعة فكادت الصلات بالكتاب والسنة تنقطع وصارالفقه ترديدا لأقوال الفقهاء فى عصر الاضمحلال .

ومنذ قرن انفجرت نهضة صالحة تهيب بالناس أن يعودوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم بدل الاحتباس فى أقوال رجال المذاهب المختلفة ، وهذا حسن بيد أنه مسلك يحتاج إلى إيضاح .

فإن الأئمة الأربعة الأوائل ، ومن دار فى فلكهم من الفقهاء كانوا يستنبطون من الكتاب والسنة ، ولهم اجتهادات مشكورة ومحاولة محوهم من تاريخنا العلمى خطأ واستهجان مناهجهم أو التهوين من شأنها لا يسوغ ، إن باب الاجتهاد قد فتح ليواجه

(١) النحل ٨٩

المسلمون قضايا دولية ومحلّية وشئونا تربوية واجتماعية لابد من مواجهتها . .

وتراثنا القديم صالح لأن نبنى عليه ونعلى البناء ، ولو ورثنا عقول سلفنا الصالح وأساليبهم فى الفهم وتجردهم للحق ورغبتهم إلى الله لكان لنا مستقبل أنضر . .

إننى أسمع تهجما صبيانيا على رجال الفقه القدامى ، وزعما بالعودة المباشرة إلى الكتاب والسنة ، وقد تفرست فى مسالك هؤلاء المتهجمين فرأيت كما قيل : أبا حنيفة من غير فقه ، والشافعى من غير أصول ، مالكا من غير سنة وابن حنبل من غير رواية !!

إننى لا أتعصب للأولين ، ولكنى أقدرهم قدرهم وأطلب أن يكون المجتهدون الجدد على مستواهم الفنِّى والخلقى ، وأن يدركوا ما وفدت به الحياة من مشكلات ويحسنوا التماس الحلول الجدية ، إننا الآن نسمع لغطا حول حقوق الإنسان ، وحديثا عن مستقبل الإنسانية فى هيئة الأمم .

وهناك صراع بين أديان ومذاهب ، ولنا ولغيرنا تاريخ طويل على ظهر الأرض ، فيه الخطأ والصواب والجد والهزل ، وعندما نتلاقى فى الساحات العالمية يجب أن نكون على مستوى الإسلام العظيم . .

إن الفقه الإسلامى أحد تيارات الفكر المنْبَجِسة من ديننا وقد يكون أخطرها لأن أحكامه تتناول الإنسان من المهد إلى اللحد ، كما أنها تشرع للفرد والمجتمع والدولة . .

إن عظمة آبائنا ليست فقط فى أنهم أزالوا دولتى الروم والفرس ، وخلصوا الدنيا من عبئهما الثقيل ، بل عظمتهم أنهم ملأوا الفراغ المتخلف عنهما بفجر علمىّ منير الآفاق باهر الإشراق ، ولن نصلح لخلافتهم إلا إذا أوتينا قدرتهم على الإبداع والنفع .

* * *

إسلامية المعرفة

يرى البعض أن إسلامية المعرفة تعنى انقلابا فى مناهج البحث وموضوعات العلوم ومسيرة الحضارة ! وهذا رأى يحتاج إلى مراجعة واستبانة . فإن العقل الإنسانى قاسم مشترك بين الشرق والغرب ! والفطرة الإنسانية السليمة هى الأساس الذى يجب أن نبنى عليه ونعلى البناء . .

لقد قدنا الحضارة ألف عام ثم فقدنا خصائص القيادة فقام غيرنا بوظيفتنا فأحسن وأساء ، وخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وعلينا حين نستأنف رسالتنا أن نحق الحق ونبطل الباطل ، فما كان حسنا أبقيناه وزدنا فيه وما كان سيئا استبعدناه وجئنا بأفضل منه .

ومن هذا المنطلق أقول : إن إسلامية المعرفة ليست حكما بالموت على العلوم الحديثة التى قامت على مناهج التجربة والاستقراء واستفتاء العقل المجرد ، فهذا مستحيل ! إنها قد تكون حكما بالموت على أوهام حُسِبتْ حقائق ، أو على أهواء ألحقت بالعلم وليست منه ، ولا يعترض ذلك عاقل .

ستظل الجغرافية تصف البر والبحر والجو ، ومعها فى هذا الوصف علم طبقات الأرض وعلم الفلك .

وسيظل علم النفس يصف الغرائز والانفعالات والمشاعر العقلية من ذاكرة وانتباه وخيال . . إلخ .

فإذا تدخلت الأسلمة فلكى تمنع الشرود فى الوصف واستخلاص أحكام خاطئة . أى أنها تعترض ما وصل إليه «فرويد» من تصور للعقل الباطن ومن إطلاق العنان للرغبات المكبوتة دون اهتمام بضوابط الدين والخلق .

وستظل علوم الأحياء تعمل فى مجالها تصف آيات الله فى كونه وتبرز صفاته وأسماءه الحسنى . . حتى إذا بلغت تهويمات «دارون» فى أصل الأنواع ، وتنازع البقاء

والنشوء والارتقاء تدخلت - بسلطة العلم لا بأثر الغيبيات وحدها - كى ترد إليه وعيه ، وتحفظ الناس من خلطه . . وهكذا .

وستبقى علوم الحساب والجبر والهندسة كما هى .

أما التاريخ فلابد من تدخل الأسلمة لمنع الافتيات الذى أوقعه الغرب بتاريخنا ، فقد تجاهل بحقد غريب عشرة قرون أخطر وأنضر حلقات التاريخ العالمىّ ، فإذا تحدث عن حقيقةٍ مّا ردّ أصلها إلى اليونان والرومان ونفى بخبث أن يكون للعرب أى فضل على الإنسانيّة ، وهذه نزعة صليبية منكورة تشدُّ أزرها الصهيونية التى تزعم الآن أن الإسرائيليين هم بناة الأهرام . . ! !

إن الإسلام دين الفطرة ، وقد تألقت تعاليمه فى حياتنا عندما كانت فطرتنا سليمة ، واشتغل العقل الإسلامىّ بالبحث الجدى فى العلوم الإنسانية والكونية على نحو معجب ، كما أن علوم الدين استبحرت وفى مقدمتها الفقه بشعبه المختلفة ويستحيل أن يكون للفقه الرومانى قدر إذا قيس بالفقه الإسلامى وازدهرت الآداب فى عصورنا الأولى . . . ثم نمنا نومة أكلت الأخضر واليابس من تراثنا وحياتنا ونحن الآن نريد الذود عن وجودنا المادى والأدبى ، والعود إلى رسالتنا الإسلامية التى نهضت بنا أولا وسوف تنهض بنا ثانية .

والمحور الذى ندور عليه هو تصحيح الفكر والتزام الوحى فيما قال الوحى فيه كلمته ، والتجديد والاجتهاد فى شئون الدنيا التى نحن أعلم بشئونها ، ولا حرج علينا أن نستفيد من تجارب غيرنا على أن نكون أيقاظا لا نُخدع أو نُغشّ أو نُصرف عن رسالتنا .

* * *

هكذا تضيع الأمم

لاحظت مع كثير تفاحش الملاهى والمساخر فى أحفال السنة الميلادية الجديدة وأن السهرانين بقوا إلى الفجر يسمرون ويعبثون ، وأن التهنئة بالعام الجديد تزجى لمناسبة ولغير مناسبة وأن المحاولات كانت مُلِحَّةً لإشعار الناس بأن الاحتفال شعبى عام ، وليس تقليدا للغرب !

وبدا لى أن أتجاوز هذا الأمر ، فأنا من الناحية الإسلامية أشعر بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإذا كنت أصوم أو أحج تبعا لجريان القمر فأنا أصلى الفرائض الخمس كل يوم تبعا لجريان الشمس **«فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون»**[1] .

ثم رأيت أن الأمر يستحق الاكتراث ، فإن الحضارة الغربية - وهى صاحبة الشأن الأول فى احتفالات رأس السنة - يجب أن تعرف ما تفعل بنا وبغيرنا ! إن أثرتها طفحت وقسوتها ربت وهى تسكر وترقص على أشلاء ألوف مؤلفة من اللاعبين والهلكى . .

ولن أتحدث عن مأتم البوسنة ولا عن ضحايا التحرر الإسلامى فى كل قطر . .

إننى أتأمل فى معاهدة «الجات» التى عقدها الأوروبيون والأمريكيون ، والتى ضمنت لهم «مليارات» من الأرباح الحرام على حين حققت للأقطار العربية وبعض الدول الإسلامية خسائر جسيمة !

وأعترف بأنى لمت نفسى وقلت لقومى تستحقون ما حلّ بكم : لماذا لا تزرعون ما تأكلون ؟ إذا باعوكم قمحهم بأغلى الأسعار فلا لوم عليهم والقانون لا يحمى مغفلا ولا كسولا !

أليس مخزيا أن نكون مستهلكين لا منتجين ؟

لماذا أنتظر من الدول الكبرى أن تعدل معنا ؟ وهى التى بدأت رحلتها الحضارية بالافتيات على الغير ؟

---

(١) الروم : ١٧ ، ١٨ .

وكان من المصادفات أن أقرأ مع أحفال رأس السنة ثورة الهنود الحمر فى المكسيك! إن هؤلاء الهنود سُلِبوا أرضهم وديارهم وعاملهم المهاجرون البيض أحَطّ معاملة . وقال لى صديق زار استراليا إن بقايا هؤلاء السكان الأصليين يبادون بالخمور المغشوشة ويعرّضون للحتوف حتى يُستأصلوا جميعا .

إن الجنس الأبيض يكذب فى إخلاصه للمسيحية ، وهو يدارى غرائزه الشرسة وراء مزاعم مردودة ، إن دينه الاستعمار الجشع ، ولا بأس أن يتعاون مع الصهيونية ليصل إلى أغراضه القريبة والبعيدة على أنقاض العرب والمسلمين !

ربما جاز للمنتصر أن يرقص ويسكر ، وأن يسهر حتى الفجر على مهاد من الإثم ! لكن السؤال الذى لا جواب له : بم يحتفل المهزومون ؟

وعلام يضحكون ؟ ؟

ظاهر أن الغزو الثقافى فى القسم شعبتين ، إحداهما تزهد فى العقائد ، والعبادات ، والأخرى تغرى بالمباذل والمضحكات . وهكذا تضيع الأمم ، وتطوى صفحتها . . .

* * *

بهتان عظيم

سمعت تصريحا لأحد وزراء أوروبا الغربية يهاجم التطرف الإسلامى ويطالب العالم بالتصدّى له حفاظا على سلام العالم ومستقبله ! وكنت أود من الرجل المسئول أن يهاجم التطرف الدينى وأن يحذر آثاره ، لا سيما وتعصّب الصرب الأرثوذكس سوّد صحائف كثيرة واقترف فضائح شائنة وألحق بأوروبا عارا لا يمحى !

لكن الرجل المسئول صبّ جام غضبه على المسلمين ، وسكت سكوت القبر عن غيرهم فعلمت أن الرجل لا يضيق بالتطرف لأنه غلوّ وعدوان ، بل يكره الإسلام وحده ويضنّ على أهله بحق الحياة ويتستر تحت راية رفض التطرّف لينال منا . .!

هل تطلّع المسلمين لبقاء شريعتهم وصون عقيدتهم تطرّف ؟

هل احترامهم لرسالتهم ورغبتهم فى الانتماء إليها تطرّف ؟

إن صحيفة "الإيكونومست" تقول : لماذا يظلّ الإسلام وحده مؤثرا فى الحياة السياسية والاجتماعية على حين لا تملك الأديان الأخرى هذا التأثير ؟

وتكرر «الجارديان» المعنى نفسه حين تقول : إن لُبَّ المشاعر الإسلامية هو إدراك المعنى الحقيقى للدين وجعله نظاما مشتقًا من الكتاب والسنة !

والقرآن يضع الأسس اللازمة لوجوه الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية . . ونحن نؤكد شمول الإسلام لشئون الحياة كلها كما قال تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ »[1] .

ونأبى كل الإباء أن يقال لنا : اجعلوا الإسلام مقصورا على الصلاة داخل المسجد أو على أفراد الأسرة داخل البيت !!

إن الإلحاد عندما ينفرد بالسلطة خارج البيت وخارج المسجد لن يلبث طويلا حتى

---

(١) النحل : ٨٩ .

يخرب البيت والمسجد معا . ولن نحكم بالشلل على نصف ديننا وبالموت على النصف الآخر ، وفى العالم الإسلامى الآن أصوات تقول : اقصروا الدين على السلوك الفردى ، ودعوا المجتمعات تتحرك كيف تشاء . ! ونحن نعرف من الذى ينَفخ فى هذه الأصوات ويحمى أصحابها ! ونعرف القصد المستخفى وراءها ، إنه القضاء المبرم على الإسلام فى الفرد والمجتمع ، وعلى العقيدة والشريعة معا . .

إننى وغيرى من المسلمين نحارب التطرف ، لأننا أمة وسط ، ولأننا لا نعرف خصومة بين الدين والعقل أو بين المصلحة والشريعة ، أما أن نوصف بالتطرّف لأننا نحامى عن الكتاب والسنة ، وعن شرائع الحدود والقصاص أو لأننا نغرس الإيمان فى ضمير الفرد وفى نظام الدولة على سواء ، فهذا بهتان عظيم .

* * *

رائحة علمانية

من حق الأمسية الثقافية التى يقدمها الأستاذ فاروق شوشة أن تجتذب المشاهدين فهو أديب مستقيم الوجهة نقىّ العبارة ، ولكن حواره مع الأستاذ سيد ياسين خرج عن هذا النهج وكان عرضا ماكرا لأفكار علمانية مريبة ! فما معنى القول بأن التراث يعنى أصحابه الأقدمين ، ولا يجوز أن يرتبط المعاصرون به ! كيف يقال هذا الكلام والعرب مشتبكون مع دولة هى ثمرة تراث دينى يعتز به أصحابه ؟

هل إسرائيل إلا حصيلة إصحاحات العهد القديم ؟

فإذا كان هؤلاء قد أقاموا بالتراث دولة شامخة فهل الردّ عليهم يكون بتحقير تراثنا والزعم بأنه تركة لا معنى للتعلق بها !

إن التراث فى الكيان العربى رسالة سماوية كاملة وتاريخ إنسانى عريق فكيف نعرض ونزهد فيه ؟ وبم نتمسك ؟ ببعض الفنون والقشور التى يصدرها لنا الغرب والتى يستحيل أن تحقق هويتنا وتستبقى ملامحنا . هل التراث كريه إذا كان الإسلام؟ ومستحب إذا كان أى دين آخر ؟

ويقول الأستاذ سيدياسين . إن المصريين كان لهم إبداع قانونى فى ميدان التشريع الحديث !

ومعروف أن التشريع الحديث مستورد من أوروبا ، وأنه جاء بعد إقصاء الشريعة الإسلامية .

إن الاحتلال الأجنبى قصم ظهر الإسلام ، وألغى الشريعة لفوره وألحق بالعقيدة عطبا يقرّب أجلها فما هو الإبداع المصرى فى عالم القانون ؟

إن هذا الكلام خديعة عما أصاب الشريعة ، وترضية للأمة بأخبث أنواع الغزو الثقافى ظاهر أن مهمة العلمانية فى العالم الإسلامى جرّ ذيول النسيان على ماضينا كله وإلحاق العربة العربية بالقطار الأوروبى ينطلق بها حيث يشاء !

لقد شاهدت هذه الأمسية الثقافية وسمعت الكلام المسهب الذى قاله سيد ياسين ثم تساءلت : أليس للعالم ربٌّ يشرف عليه ؟

أليس لهذا الربّ وحى نرتبط به .

أليست أمتنا هى الوارثه للنبوات كلها عندما تلقت هذا القرآن ؟ ماذا يريد العلمانيون أن يفعلوا بنا ؟

عندما ننسى التراث ونتمرد على الله ونتحول إلى تلامذة للإلحاد الغربى .

إن الفاتيكان اعترف بإسرائيل وعقد معها صلحا باسم الكاثوليك ، وإن رئيس أساقفة انجلترا ينتقل إلى جنوب السودان ليوثق العلائق بين الانجيليين فى أفريقيا وأوروبا ! دين واحد هو الذى يحاصر ويضيقّ عليه الخناق ، ويوظف العلمانيون للنيل منه ، هو الإسلام ! .

* * *

تربية الأطفال

الوالدية غريزة أصيلة فى جملة الأحياء التى تسكن الأرض ! وإذا كنا - نحن البشر - نقول :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى عن الغمض

فإن الطيور فى أوكارها ، والدواب فى غابها تتحرك فيها غرائز الأبوة والأمومة ، فهى تغذو أولادها وتحميهم من كل سوء قدر استطاعتها . . .

ويبقى هناك فارق أصيل بين حُنوٍّ وحُنُوّ ، وتربية وتربية ، فالإنسان لا يربى الجسد وحده ، وإنما يربى معه العقل والعاطفة ، ومسئولية الأبوين تتجاوز توفير الغذاء إلى توفير الآداب الرفيعة والشمائل الحسنة . . .

والواقع أن الطفولة صفحة بيضاء يخط فيها الآباء والأساتذة ما شاءوا ، قال عبد الله بن عامر : **دعتنى أمى - ورسول الله قاعد فى بيتنا - فقالت : تعال أعطيك ، فقال لها رسول الله : ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا ! ، قال أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة !!**

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ **«من قال لصبى : تعال ، هاك ، ثم لم يُعطه فهى كذبة !!** فتأمل كيف يحترم الإسلام الكلمة ؟ وكيف يعوِّد الصغار على تقديرها ، وتصديقها ؟ إن ذلك ما عناه الشاعر عندما قال :

وينشأ ناشىء الفتيان فينا على ما كان عوّده أبوه . .

وقول ابن الرومى فى مصرع أحد الطالبيِّين :

كد أب علىّ - فى المواطن قبله - .˙. أبى حسن ؛ والغصن من حيث يخرج .

ليس المهم أن توفر لأولادك ثروة طائلة ، إنما المهم أن توفر لهم عقلا ذكيا ؛ وخلقا قويا ، ومسلكا زكيا ، وهذا معنى الحديث الشريف **«ما نحل والد ولداً من نُحْلٍ - أى ما أعطاه عطاء أفضل من أدب حسن »** وفى رواية أخرى **«لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع » ! !**

إن الأولاد من ريحان الله ، ومن أجلّ هباته ، والواجب أن نتعهدهم بما يصنع منهم رجالا نابهين ، أو نساء فضليات .

والأخلاق ليست نباتا طفيليا ينمو وحده ، وإنما هى غرس تختار له التربة ، ويُتعهد بالسقيا والتهذيب ، ويُحمى من الأوبئة والحشرات ، إلى أن ينضج ويؤتى ثمره . .

وفى الطفل ملكات كامنة تغذى بما يصلح لها حتى تدرك ، وقد رأيت أن الإذاعة المرئية تقدم للأطفال «أفلاما» تقوم على الخيال المحض ، وتشبع فيهم التصورات التى لا تضبطها حدود . . .

وعندى أننا بالغنا فى هذه الأقاصيص الخرافية ، وعرضنا الأطفال لأحكام ينقصها الضبط . . وقد كان آباؤنا أرشد سلوكا عندما نمّوا الذاكرة ، وشحنوها بأنواع من المحفوظات التى تنفع فى المستقبل القريب أو البعيد ، ونحن لم نحفظ القرآن الكريم إلا بهذا الأسلوب . .

ولست أدعو إلى تحفيظ القرآن للأطفال جميعا ، فهذا لم يحدث حتى فى عصر الصحابة والتابعين ! وإنما أفضّل تنشيط الذاكرة على تنشيط الخيال ، وأرجو أن تقل أفلام الكرتون التى تعجب الصغار ولا تفيدهم شيئا يذكر . . .

والتربية فى الصغر تحتاج إلى الرحمة والأناة وسعة الصدر ، فإن الاعتماد على العصا عَبَث ضار ، وقد يحتاج الأولاد إلى شىء من الصرامة ، لكن هذه الصرامة لا تعنى الجفوة والإرهاب ، والأب المكتمل يربى أولاده على هذا الحنو الرقيق .

كان الناس فى الجاهلية يعاملون ذراريهم بجفوة ، وربما رأوا من الرجولة أن يكونوا خشنين معهم ، وقد رأى أحدهم النبى ﷺ يقبل الحسن أو الحسين : فقال مندهشا : **أتقبلون الأولاد ؟ إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فقال النبى ﷺ : أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟؟**

ولليتيم مكانة خاصة فى تعاليم الإسلام ، ففى الحديث **«من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله ؛ كانت له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات - ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة عنده ؛ كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين ، وفرّق بين إصبعيه السبابة والوسطى»**

وجمهور من الناس يرى الأولاد ثروته العظمى فى الحاضر والمستقبل ولا عجب فالقرآن الكريم يصرح بهذا الإحساس «**المال والبنون زينة الحياة الدنيا . .**» .

والواقع أن أولاد الشخص امتداد له ، وزرعه الذى يرعاه اليوم ليعيش فى جناه غدا . . أعجبنى أن رجلا له ولد اسمه «رباط» أحسن تربيته فى صغره ، واستراح إلى سيرته فى كبره ، فقال فى ذلك :

رأيت «رباطا» حين تم شبابه ... وولّى شبابى ليس فى بره عَتْب

إذا كان أولاد الرجال حزازة ... فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

لنا جانب منه دَميثٌ ، وجانب ... إذا رامه الأعداء ممتنع صعب

وتأخذه عند المكارم هِزَّة ... كما اهتز تحت البارح[1] الغصن الرطب

وفى الإسلام الحنيف أحاديث طويلة عن العلاقة بين الوالدين والأولاد ، يجب فيها تبادل البر والرحمة ، وهى أساس لأسرة متماسكة ومجتمع مكين حصين .

* * *

(١) البارح : الريح .

الغـدر

الغدر نقيصة خسيسة تسقط صاحبها – وتسلبه كل احترام ، وقد تعاطف الناس مع «ميخائيل جورباتشوف» عندما غدر به نائبه ، وتآمر مع آخرين ضده ! وفهموا سرّ غضبه وهو يقول عن النائب الغادر : لقد اخترته ووقفت ضد الكثرةالتى رفضته ، وأصررت على أن تغير رأيها فيه ، وها هو ذا يخذلنى ويطعننى فى ظهرى بعد ما أفأت عليه هذه النعمة . .!!

والحق أن الخيانة والكنود رذائل لا يسيغها أحد ، ولا يساق فى تهوينها عذر ، وسوف يلقى نائب جورباتشوف ورفاقه العقاب الذى يستحقون ، ولن يرثى لهم أحد . . .

لكنى تساءلت : هل الغدر بالله دون الغدر بالبشر ؟ هل كفران النعم الإلهية دون كفران أنعم الناس ؟

وددت لو سألت جورباتشوف : إنك ناقم على امرئ أسديت إليه يداً فجحدها ، فما رأيك فى الأيادى التى أسداها الله إليك ؟ لقد خلقك فى أحسن تقويم ، وأقامك بين قومك زعيما أى زعيم ، فما سمع منك طول عمرك اعترافا بجميل ، وما قلت له يوما : سبحان ربى العظيم !!

إن مقت الله لك أشد من مقتك لنائبك الخائن ، لأن صنيعه إليك لا يقاس به صنيع ! وما قيمة أن ترفع نائبك إلى وظيفة ما بجانب أن يخلقك الله من الصفر ، ويهب لك السمع والبصر والفؤاد ؟

المأساة الكبرى فى مسالك الناس أنهم يستهينون بالإساءة إلى البارئ الأعلى ، ويضخمون الإساءة إلى ذواتهم المحدودة ، حتى لكأنه ليست لله حقوق ولا له على عباده واجب .!

إن للشيوعية جانبا إلحاديا ؛ وجانبا اقتصاديا ، والغريب أن دول الغرب لا تكترث بالجانب الإلحادى ، ولا تغضب منه ، إن نقمتها الكبرى وحربها الدائمة على الجانب الاقتصادى ، تقول : الحرية لرأس المال وحق التملك وحرية التداول . . إلخ .

أما إنكار الإيمان فالأمر هين ، وحرية الكفر مكفولة لكل أحد ، لمن شاء أن يقول : لا إله ! ولمن شاء أن يقول : إن كان فلا علاقة له بنا ولا علاقة لنابه ..! ولمن شاء أن يقول سمعنا وعصينا ، ولمن شاء أن يقول : نحياهنا كما نريد ، فإذا انتقلنا إليه كان لنا معه شأن !

أما أن لله عظمة تعنو لها الوجوه ، وأن له إحسانا تستعبد به النفوس وعهودا مع الخلق لا ينبغى الغدْر بها ؛ فذلك كله كلام المتدينين البله ؛ وما أكثرهم ! « أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » ؟ [1]

وعندى أن أزمة التدين تعود إلى المتدينين أنفسهم ، فقلَّ منهم من يصدق الله فى معرفته وعمله ، وقلَّ منهم من يكون صديقا لله ؛ يعامله بالود والوفاء والشرف ..

عندى أن الوالد الأول للشيوعية هو «راسبوتين» لا «ماركس» فلولا وضاعة الأول ما نجح الأخير .

عندى أن الطبع الفظ ؛ والقلب القاسى ، والتبلد أمام آلام البشر من وراء الهزائم الكبيرة التى لحقت بالإيمان فى هذا العصر ، ولو أن دعاة الإيمان اكترثوا لأحزان الناس ، وغضبوا لمظالمهم ، ومشوا فى مواكب المستضعفين بدل السير فى مواكب الكبراء لكسب الإيمان معارك كبيرة ..

إن الغرب يدق الطبول لهزائم الشيوعية فى روسيا ، فلنعلم أن الطنين القادم من بعيد ليس فرحا بهزيمة الكفر ! البعد عن الله سواء فى الجبهتين ! وكراهية الإسلامية قاسم مشترك ...!

والسؤال المثار فى الدنيا والآخرة لجماهير المسلمين :

هل فعلتم شيئا من أجل الإسلام ؟ إلى متى تبقى روائح العفن والتخلّف مقصورة على بلادكم ؟ أبهذا ينتصر دين ؟

* * *

(١) الواقعة : ٨١ ، ٨٢ .

إلى متى تغيب الشريعة..؟

مواد القانون الوضعى تنضم إلى المسلسلات المنحلة فى تصديع المجتمع ؛ وتجفيف بقايا الخير فيه ، الروايات الماجنة عندما تعرض على الناشئة تلفتهم إلى شرور ما كانوا يعرفونها ، وعندما تعرض على الكبار تجرئهم على ما كانوا يتهَيَّبونه !

ثم يجئ القانون فيعامل المجرم معاملة الأب الحانى ! وأقصى ما يؤاخذه به سنون تطول أو تقصر يقضيها فى ضيافة السجون ، ثم يخرج بعدها قلّما يعرف طريقا للتوبة . . .

أولو الألباب يلحظون أن المجتمع يتهاوى ، وأن الجرائم تنمو كما وكيفا ، وأن ترك الأمة على هذا النحو حكم عليها بالضياع ! لابد من العودة إلى الشريعة الإسلامية وقوانينها الصارمة ؛ حتى نستأصل شأفة الجريمة ؛ ونسكن من روع الناس . . .

إننى أتصور غافلا يؤثر لذة عاجلة على النعيم المقيم ، أو يقدم متعة سريعة على مواعيد الدار الآخرة ! لكنى لا أتصور من يؤثر الضرر العاجل على الخير الباقى !

ماذا فى القانون الوضعى من فائدة تجعلنا نشاقّ الله ورسوله من أجله ؟

لقد تكشفت عورات هذا القانون ، وبدأت آثاره السيئة تزحف من كل ناحية ، والمآسى التى تطالعنا بها الصحف كل يوم تهيب بنا أن نتحرك لتغييره وإنقاذ الناس من عجزه ! .

من أيام سمعت قصة ثلاثة ملثمين دخلوا «بوتيك» تديره امرأة كادحة ، وأبرزوا السكاكين ، وطلبوا ماجمعت من مال حصيلة سعيها طول النهار ، واستسلمت المرأة وهى ترى عيون قتلة ، وتركت لهم المال المطلوب ففروا به . .!

قلت : لو علم هؤلاء أن قانونا يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ؛ وأنه من الممكن أن تصلب أجسادهم فى بعض الميادين نكالا لهم وردعا للآخرين ؛ أكانوا يتآمرون على نهب الآمنين وقطع طرقهم ؟ ما معنى الشفقة على هؤلاء الغلاظ ؟ ما معنى الاستهانة بآلام المظلومين والمسروقين ؟

أعرف أن هناك متعصبين للقوانين الوضعية ، وما أحسب عامتهم على دين !

والمرء قد يتعصب لشىء يحسبه خيرا ؛ فهو يتشبث به ويدافع عن خيره الموهوم ، لكن ما معنى التعصب إذا كان هناك أفضل وأنفع مما يتعصب له ؟

جربوا شرائع الحدود والقصاص عاما أوبعض عام ثم انظروا ما تجنون من ثمرها الطيب ، وعيشوا فى ظلال الأمان عاما أو بعض عام !!

إن هناك من يتعصب لما عنده وحسب . . « قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » . .[١]

عندما أغار التتار على العالم الإسلامى فى القرن السابع الهجرى ألغوا أحكام الشريعة ! وهل تنتظر منهم إيمانا بكتاب أوسنة ؟ وجاءوا بتشريعات أخرى فى كتيِّب لهم أسموه «الياسق» وفرضوا على الناس الاحتكام إليه ، وقد قلدت أوروبا التتار فيما فعلوا ، وخضع المسلمون للغارة الأخيرة ، بل إن قبائل البدو وضعت لها قوانين أخرى غير ماشرع الله ، وارتضت الاحتكام إليها !!

ومع غروب شمس الشريعة أخذ الناس يخبطون فى الظلام ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض . . .

وهذا هو المقصود ! فلن يثبت أركان الاستعمار الجاثم إلا ما تتركه هذه الجاهلية فى البيوت والشوارع ، والأخلاق والتقاليد من ضياع . .

إن فى دهاليز أو خزائن مجلس الشعب مشروعا تم إعداده للعودة إلى الشريعة الإسلامية ، أظن أنه قد آن الأوان لنفض الغبار عنه ؛ والنظر بجد فى تطبيقه ؛ لعل المحن تنزاح عنا والاطمئنان يعود إلى قلوبنا ، والاعتبار يُرَدّ إلى شريعتنا . . .

* * *

(١) الزخرف : ٢٤ ، ٢٥ .

إثار الكسل والصعلكة

هل الأرض مهدَّدة بالجوع لكثرة من يسكنونها ؟ إن عدد البشر الآن تجاوز خمسة مليارات وتشير الإحصاءات إلى أنهم زادوا فى السنوات الأخيرة زيادة فاحشة وإذا اطردت نسب الزيادة على النحو القائم فإن الأفواه المفتحة لن تجد ما يملؤها !

ولست أشارك المتشائمين هذا القلق فقد قالت الإحصاءات نفسها : إن الإنتاج الغذائى تضاعف فى هذه المدة ، وانقطعت أسباب الخوف !

إننى أتهم الحضارة المعاصرة بضعف الإيمان وسوء الظن بالله ، لقد فرطتْ في جنبه وجحدت نعمته ثم زعمت أنه لن يرزق من يخلق وهو القائل « إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ »[1] .

إن البشر قد يتظالمون ، وقد يحبس أحدهم رزق الآخر تجويعا وتعذيبا ، والله لا يرضى عن ذلك وما زلت أذكر أياما كانت تحرق فيها المحاصيل حتى لا يرخص سعرها ، وتخزن فيها جبال الزبد حتى لا يتشبّع الفقراء منها .

والأخطر من ذلك كله أن مساحات شاسعة من الأرض لما تزرع لأن أُصحاب هذه الأرض كسالى ، أو لأن القوانين الموضوعة تجعل إحياء الموات مشكلة معقدة !

وقد تأملت فى موقف العالم الأوّل من الشعوب المتخلفة فوجدته يقرضها بالربا الفاحش ويعجزها عن السداد ويحبسها فى ذل الدين كى تظل طوع أمره !

وفى المعاملات التجارية وجدت أن معاهدة «الجات» ضمنت مصالح الدول الكبرى ، وداست الدول الصغرى ثم طالبتها آخر الأمر بتحديد النسل !

لقد قلت : إن النسل يكون مصيبة إذا كان الأولاد القادمون يستهلكون ولا ينتجون ، ويقعدون ولايعملون ، إن عدم قدومهم أفضل ، فهم عبء على الحياة لاعون لها . .

لكن لماذا تكون البيئة قاتلة على هذا النحو ؟ هذا ما يجب أن نمنعه !

---

(١) العنكبوت : ١٧ .

إن الله مهّدَ الأرض وزودها بخيرات لا تفنى وأتاح لجماهير لا تحصى من الخلائق أن تحيا فوقها وقال « وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ »[1] .

فكيف يقال : إن الأرض عجزت عن إطعام أهلها ؟ الممكن أن يقال : إن ناسا كثيرين آثروا الصعلكة على الغنى ، أو آثروا القعود على العمل ، أو آثروا صناعات الموت على إحياء الموات .

* * *

(1) الحجر : 19 ، 20 .

الأرض لم تفلس !!

(١)

التنامى الذى لوحظ على الأمة الإسلامية حمل أعداءها على النظر فى مستقبلها بحذر ، إنها الآن تزيد على خمس العالم .

وخلل الرماد وميض صحوة إسلامية تحنّ إلى أمجاد الماضى وتكره ما نزل بها من ضيم وتحقر ما فى صفوف أعدائها من إثم ! صحيح أن ميزان القوة لا ينصفها لكن الفلك الدوّار لا يثبت على وضع فقد يحط غدا من رفعهم اليوم « وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »[1] .

وقد جدّ فى المحافل الدولية حديث ذو شجون عن سكان الأرض يزعم أصحابه أنهم كثروا كثرة تعجز الموارد الطبيعية عن إطعامهم ، وأنه لابد من تحديد النسل وتقليل البشر ! .

وينظر هؤلاء إلى الأمة الإسلامية المتنامية نظرة ذات مغزى ثم يقولون ينبغى أن يباح الإجهاض وأن يكون تعداد الأولاد - إن وجدوا - واحدا أو اثنين . .

وأنا أعتقد أن هذا التفكير علته الأولى والأخيرة تنامى المسلمين ، ولو اختفت الأمة الإسلامية من على ظهر الأرض لا ختفى هذا اللغط وترك الناس يتناسلون كيف شاءوا !!

إن الجوائز الآن توزع على العروسين كى يتعهدوا بتحديد النسل والسخرية من الأرانب لا تقف عند حدّ . .

وأنا أنظر إلى هذه القضية من أساسها الموضوعى ، إننا فى مصر نبنى قرى سياحية على شواطىء البحرين الأبيض والأحمر لخدمة طلاب المتع ، ولو أننا زرعنا شاطىء المتوسط ، ومهدنا أرضه لسكنى الفلاحين وكدحهم لكان ذلك أجدى علينا وأصون لمستقبلنا . لماذا يشتغل مستوردو القمح ببناء مساكن الترف ؟ .

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

إن بيننا من يستطيع إخصاب الصحراء فلم تُغَلُّ أيديهم دون تحويلها إلى زروع ونخيل ؟

ولا بأس أن نهتم بشئون السياحة فهل هذا الاهتمام يمنعنا من تثمير أرضنا أم ننتظر حتى يجئ «الخواجات» لاحتكارها ؟ ! !

أعلم أن هناك أجهزة عالمية ذكية تشتغل الآن بقضايا السكان ، وستعقد مؤتمراتها في عواصمنا وسوف توصى بتحديد النسل ، وربما أوصت بحرمان الولد الثالث من الخدمات الثقافية والاجتماعية ! !

والحكم الإنسانى الراشد المعقول يقوم على تنمية المواهب ومنحها فرص الابتكار والازدهار وحرية الحركة والثراء !

يوجد الآن حملة أقلام يقولون للناس : إن الأرض أعلنت إفلاسها وأنذرت البشر بالجوع والعطش وحملة هذه الأقلام أجراء لأناس يكرهون ديننا ودنيانا ولا صلة لهم بأمانة الكلمة ، إن الأرض لم تفلس ، وإنما أفلست الأنظمة الكافرة .

* * *

هل خيرات الأرض محدودة؟

(٢)

الإيمان بالغيب ليس معناه القصور أو الغباوة فى عالم الشهادة ! فأنا أحترم المنطق المادىّ ولكنى فى الوقت نفسه أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن خالق الأسباب لا تحكمه هذه الأسباب وأن زمام الأمور يستحيل أن يفلت من يد الله ، بل إن ما يقع فى عالم المادة لو حكيناه لجنس آخر من المخلوقات لا ستغربه وأنكره كيف تكون الحبة الواحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ؟

كيف يتحول السَّبَخُ إلى قطن للكسوة وأرز للمعدة وتفاح للمتعة وزهر للشم ؟ !

كيف يتحوَّل ما نطعمه إلى لحم وعظم وجلد وشعر ودم وأظافر وطاقة ونماء ؟ !

كيف بارك الله فى هذه الأرض فأوتنا أحياء ووارتنا أمواتا ثم منها النشور ؟

إن الكافرين بالله أقرب إلى الدوابّ حين ينكرون منطق الإيمان ويتندّرون بالمؤمنين ! وقد سمعتهم يتساءلون : كيف يطعم الله الزيادة المطردة فى السكان فقلت : كما يطعم الأصل يطعم الفرع !

قالوا خيرات الأرض محدودة !

قلت : بل أفكاركم أنتم محدودة ، ولو فكرتم ونشطتم لو سعت الأرض أضعافكم عددا . !

الذى ظهر لى بعد طول تأمل أن الإيمان مريض مرضا عضالا . .

عندما أوصى «تشرشل»[1] أن يحرق بعد موته قلت فى نفسى هل هذا سلوك رجل يؤمن بالمسيح ؟ لقد عاش ومات ما يخطر الله بفكره !

وقرأت كلاما للأمير «فيليب» زوج ملكة إنجلترا يقول فيه : « **إنك لا تستطيع إدامة قطيع من الغنم بأكثر مما تستطيع إطعامه ، إن المحافظة على البيئة تستدعى المحافظة**

---

(١) رئيس وزراء بريطانيا الأسبق .

على توازن الأجناس . وكل فدان من الأرض يستصلح للزراعة يعنى نقصان فدان تحرم منه الحيوانات البرية» .

ماذا يريد الأمير أن يقول ؟

يريد أن يقول إن إبادة الأجناس الأدنى شرط لبقاء الأجناس الأعلى وهذا معنى قوله « **لو كتب لى أن أولد مرة أخرى فإنى أتمنى أن أعود على شكل«فيروس» قاتل كى أسهم فى حلّ مشكلة زيادة السكان » ! ! !**

والمعروف أن الأمير « فيليب » يؤمن بنحلة هندية تعظم الطبيعة وتقدس الحيوانات وتطلق على الأرض الإلهة «جايا » ! ! .

إن علاقته بالنصرانية كعلاقة « تشرشل » بها ، والواقع أن نفرا من علماء الاقتصاد والفلسفة يحملون أسماء مسيحية ، ولا يرون أن للعالم خالقا اسمه «الله» ! ! .

والمقلق أن عددا من المقلدين العميان يسيرون وراءهم فى بلادنا ، ويحرجهم أشد الإحراج أن نحدثهم عن المعاملات الإسلامية وأصول الاجتماع والاقتصاد والتربية والتشريع التى يحفل بها الإسلام ويموج بها تراثه الضخم . !

إنك تناديهم من مكان بعيد ، إنهم يعيشون بيننا ولكن قلوبهم فى الغرب الاستعمارى .

* * *

فقر على أرض من ذهب

(٣)

النشاط موصول لتنظيم الأسرة – وهو التعبير الملطف لتحديد النسل – وقد راقبت النتائج القريبة فوجدت القادرين على الإنجاب والتربية هم الذين يحددون نسلهم ، أما الذين لا يعرفون معنى الأسرة ووظيفة البيت فهم الذين يتكاثرون بغير حساب !

وأعرف أن المسئولين عن المجتمع قلقون من زيادة عدد السكان فى مصر ، فقدقاربوا الستين مليونا ، ويرون أن موارد الرزق لا تتسع لهم !!

وللتفكير القومى منطق يلتزمه ، وللتفكير الإسلامى منطق آخر يتجاوز حدود الوطن الخاص . قد يشمل أرجاء العالم الإسلامى كله ، بل قد يتسع لدنيا الناس مستجيبا لقوله تعالى « قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ . . »[1] .

وقد أبديت رأيى فى هذه القضية وقلت : إنه حيث يوجد المسلمون توجد ينابيع ثرّة للأقوات ، ولكن الهمم الكسول والأيدى القصيرة من وراء الفقر الشائع ، ولو نقص المسلمون إلى نصف عددهم الحالى ما ارتفع مستواهم المادى ، **فإن الفقر فقر أخلاق لا فقر أرزاق** .

إن الأزمات السائدة من ورائها خصائص إنسانية مشلولة وعجز معيب عن أداء ما يستطيعه الآخرون !

إن الذى خلق الأرض وقدّر فيها أقواتها لم يجعل هذه الأقوات نصيب القاعدين ولا غنيمة المنهزمين ، إن النهر لا يسعى للشاربين ، فمن كان ظمآن فليْسعَ إلى الماء . .!! ولنوازن أنفسنا بغيرنا وسنرى بمنْ يرجح الميزان !

نظرت فى سيرة الملك «بدوان» ملك بلجيكا الذى مات أخيرا فرأيت أنه رأى النزول عن العرش حتى لا يمضى قرارا بإباحة الإجهاض !!

---

(١) الزمر : ١٠ .

فلما أمضاه غيره عاد وقد استراح ضميره الدينى ، وتحمّل الوزر غيره !

ورأيت الرجل فى سبيل تكثير النسل جعل نفسه أبا لكل مولود سابع فى بلجيكا يحمل نفقته منذ يولد حتى يقضى ، ويتحمل أعباء تعليمه فى جميع المراحل . . .

قد تقول هذا ملك واسع المال والجاه ، أجيب ما تقول فى لاعب الكرة الشهير «بيليه» الذى أصبح أباً لولد رابع كما نشرت الصحف ؟ ولو حدث ذلك عندنا لقيل للاعب المنجب : حسبك ، إلى أين ؟ !

وأعباء مشروعات تنظيم الأسرة بين المسلمين – وقد تكون فى العالم الثالث كله – تتكفل بها المساعدات الأجنبية ، فهل هذه القوى الخارجية تبذل جهداً مّا فى سبيل دعمنا اقتصاديا ؟ !

أم هى مسرورة للهمم القاعدة ، والفقر الذى يمشى على أرض من الذهب . . .

* * *

مجلس الذكر

جلست إلى مكتبى سارح الفكر ثم استقرت عيناى على شىء فوق الأوراق ضئيل الحجم كأنه سمسمة ، فقلت : إن الخادمة لم تنظف المكتب جيدا . .

ومددت أصابعى لأنحِّىَ هذا القذى ، فإذا السمسمة تفلت من يدىّ وتطير فى الهواء ، فعلمت أنها فراشة صغيرة ، لعلها كانت نائمة أو مستريحة فلما أحسَّت أناملى تقترب منها طارتْ ! لكنى ما رأيت لها أجنحة ، إن أجنحتها لا تكاد تبين ! بل إنى ما أعرف لها رأسا من ذنب إن أجهزة الحياة فيها لا يمكن أن يراها بشر !

قلت لكن يراها خالقها الذى يطعمها ويسقيها ويمدّها بالحياة !

وتداعت المعانى فى رأسى ، إن الذى أحيا هذه الفراشات وأطلق أسرابها فى الجوّ لم يشغله تدبيرها عن أمر السماء ، إنه فى الوقت الذى يلهم الفراشات طيرانها يلهم الكواكب دورانها فى مسار لا تزيغ عنه ولا تطيش !! ، إنه لا يشغله شأن عن شأن ، إنه « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ »[1] .

وعدت إلى نفسى أتساءل : لماذا عنانى أمر فراشة صغيرة ؟ !

إن جرثومة «الإيدز» أصغر منها سبعين ألف مرة ومع ذلك تدخل هى وزميلاتها أجساد الفجار فتصرعها وتحدث بها تلفا يقهر العلم ويعيى الأطباء !!

ما أحوجنا نحن البشر إلى التأمل فى خلق الله واستنباط صفات الخالق من إبداعاته فى الكون ، فيما بين أيدينا وما خلفنا وما فوقنا وما تحتنا ! .

ماذا لو جلس بعضنا إلى بعض يتحدث عن آثار الله فى ملكوته على عباده ، هذه هى مجالس الذكر التى تبحث عنها الملائكة ، وتشارك فيها وهى معجبة فرحة !

جاء فى الحديث القدسىّ « **إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون اللّه تنادَوْا هلموا إلى حاجتكم** .

---

(١) سبأ : ٢ .

قال رسول الله : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا !

قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم - ما يقول عبادى ؟

قال يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك !

فيقول : هل رأونى ؟

فيقولون : لا والله ما رأوك !

قال فيقول : كيف لو رأونى ؟

قال يقولون : لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة ! وأشد لك تمجيدا وتحميدا وأكثر تسبيحا » . . . إلخ

إن جهود الأفكار فى معرفة الله هى الصورة الأولى للعبادة الصحيحة « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »[1] .

إن الذكر وظيفة عقلية جادّة واعية ترقى بأهلها من الأرض إلى السماء ، والبشر الآن قسمان ملاحدة لا يعرفون الله ، ولا يحسبون أنه سيجمعهم به لقاء ! ومسلمون لا يحسنون الذكر والتذكير ! ومعرفتهم بالله قشرة لا تزكى فؤادا ولا تحسن تربية .

* * *

(١) آل عمران : ١٩١ .

الإدارة

تمتاز حضارة الغرب بامتلاك أجهزة إدارية حسنة الأداء غزيرة الإنتاج ، ويرجع ذلك إلى جملة من الأخلاق الرفيعة والنزاهة المعجبة فى اختيار العاملين فى الميادين العسكرية والمدنية على سواء ، وقد تابعت اختيار وزير الحرب الجديد فى أمريكا وبهرتنى الطبيعة التى أملت هذا الاختيار ، ووددت لو أننا فى العالم الإسلامى نحسن الاستفادة والاعتبار !

يقول وزير الدفاع الجديد : إنه لم يسع إلى هذا المنصب ، بل لم يكن يريده ! وإنما قبله عندما أسند له قياما بالواجب المفروض لخدمة بلاده ، وقال الوزير الذى اختاره رئيس أمريكا الجديد إنه فى انتخابات الرياسة أعطى صوته لمنافس الرئيس الذى لم ينجح !! أى أنه ليس تابعا للرجل الذى اختاره ، وهى كلمة واسعة الدلالة ، فهى تشير إلى أن رئيس الولايات المتحدة يبحث عن الأكفاء ولو كانوا من خصومه ، مقدّما للمنصب أحقّ الناس به ، وهى فى الوقت نفسه تشير إلى أن ولاء الوزير المختار لوطنه أولا وآخرا . .!

لقد طالعت هذه الصورة الوضيئة لملء المناصب وتذكرت سلفنا الأول وقواعد الأخلاق التى كانوا يتبعونها .

إن ولاية الأمور لا تساق إلى من يسعى إليها أو يحرص عليها ، فإن طالب الولاية يغلب أنه يطلبها حبا للعلو فى الأرض والصدارة بين الناس ، وتلك فى الإسلام رذائل ، إنما يختار للرياسة من يجعل وظيفته عبادة لله وأداء للحقوق ، فعن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « **إن شئتم أنبأتكم عن الإدارة وما هى . فناديت بأعلى صوتى وما هى يارسول الله ؟**

قال : أولها ملامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل » .

وكيف يعدل مع قريبه ؟ !

قال عمر بن الخطاب لأحد الناس : والله لا أحبك - وكان قد أصاب أخًا له فى الجاهلية .

فقال له الرجل : أما يفى ذلك حقِّى يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : لا . .

فقال الرجل : لابأس إنما يأسى على الحب النساء !!

إن الأعرابى يهتم بالعدل ولا يعنيه من عمر أن يكون محبًا أو كارها له !

* * *

فى الجوّ الإدارى النظيف يُبحث الموضوع بتجرد ، ويقول كل مشارك ما يمليه ضميره ، لا مكان لملَق ، ولا موضع لاسترضاء كبير أو صغير ! البحث عن المصلحة العامة وحدها والغاية إرضاء الله وحده . .

وفى الحديث «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**» .

إن العالم الإسلامىّ فقير إلى جوّ إدارى نقىّ لا تغيم آفاقه بالشهوات والمآرب ولا تعكره عواصف الغرض والمرض ! هل ذلك صعب ؟ إنه توفر فى بلاد أخرى تشبه سيرتهم سيرة آبائنا الكبار ! نستطيع إن أردنا الانتفاع بتراثنا أو الاقتباس من المعاصرين خصوما كانوا أو أصدقاء .

* * *

القـــدرة

ما أوسع الغنى الإلهى ، وما أعْصاه على الإحصاء ، وحسبك قوله تعالى فى حديثه القدسىّ **«يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا . .»**

والعوالم التى خلقها الله – غير عالمنا – تعجز التصوّر ما دقّ منها وما جلّ ، وتردّ الطرف خاسئا وهو حسير . .

وقبل أن أذهب بعيداً أتأمل فيما حولى إن الله قيمّ على خمسة مليارات من البشر يرزقهم ليلا ونهار ، وقد جاء فى الحديث **«يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار»** .

وليست القصة تقديم طعام إلى جائع ، إنه سبحانه وتعالى ، يعرف مسالك الرىّ والشبع فى البدن ، وكيف يتحول الطعام إلى طاقة يحيا المرء بها . وكيف يتحول الطعام إلى خلايا تبنى العظم واللحم وتسيل الدم فى العروق وكيف يقذف الفضلات فى الأرض لتحولها الأرض إلى أزهار وثمار فى دورة من الكون والفساد ليس لها آخر . . .

إن الله على كل شىء قدير وبكل شىء بصير ، لقد برقت هذى المعانى فى نفسى وأنا أقرأ «مواقف» للأستاذ أنيس منصور يلخص فيها أشرف علم فى الوجود ، ويتناول الإلحاد بالإنكار العلمىّ الساحق فيقول : «ليس كلاما علميا أن تقول إن الكون يتمدّد ويتقلّص من تلقاء نفسه ، الجواب الذى لا جواب غيره هو : الله يريد ذلك !! لماذا ؟ نحن لا نعرف ولكن لا بد أن تكون البداية هى الله» .

ربما لا نرى وسائل القدرة فى العمل . ربما لا نعرف كيف يباشر القادر الأعلى تدبير ملكوته العظيم لكننا نتساءل مع القرآن الكريم «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا »؟[1]

(١) النمل : ٦٠ .

إن الملحد يلوك بلسانه كلمات لا معنى لها عندما يجعل الخلق والإمطار والإنبات لغير الله !! إنه يكذب على نفسه وعلى الحقيقة .

ويتساءل الأستاذ «أنيس منصور» : لماذا لا تكون فى الكون أحياء عاقلة مثلنا ، وهو سؤال وارد ، وأياما كان الأمر فالملكوت الإلهى عندنا نحن المسلمين مشحون بمن يعرف الله ويقدره حقّ قدره ، وهناك مكلفون يقينا غير البشر ، ولهم حسابهم يوم الحساب ، ثم تدبر قوله تعالى « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ »[1] وقوله « **ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دابة ، والملائكة ، وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون**»[2] .

لقد قلت من سنين فى أحد كتبى : إن الذى يبنى قصرا من ألف غرفة لا يُسكن واحدة منها ثم يدع الباقى تصفر فيه الريح . . .!!

وأعجبتنى كلمة الأستاذ أنيس التى ختم بها حديثه الجميل : «إن موسى لم يستطع أن يرى الله . . إنما عرف كيف تجلّى الله على الجبل فدكّه دكًّا . . فلنحاول نحن أن نعرف كيف يتجلى الله فى الخلية الحيوانية والنباتية ، أو كيف يتجلى فى فضاء مشحون بالكواكب » .

إن الملحدين حشرات مغرورة وآن لنا أن ندرك أن العلم يقود إلى الإيمان . . .

* * *

(١) الشورى : ٢٩ .

(٢) النحل : ٤٩ ، ٥٠ .

قانون غريب..

نشرت صيفحة «أخبار الخليج» البحرينية ، هذا الخبر تحت عنوان : «السجن ٢٥ عاما لقتل ٨٧ شخصا» .

قالت : أصدرت محكمة فى «نيويورك» أمس حكما بالسجن ٢٥ عاما ، على كوبى يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، أشعل النار فى ملهى ليلى ؛ مما أسفر عن مصرع سبعة وثمانين شخصا . .

قالت : لقد حصل «خوليو جونزاليز» على الحد الأقصى للعقوبة (!) الذى تضمنه القانون بعد إدانته فى التاسع عشر من أغسطس وفق ١٧٤ مادة اتهام فى تهمتين منفصلتين عقوبتهما الإعدام . .!

وذكرت القضية أن «جونزاليز» أشعل النار فى كمية من البنزين سكبها على الباب الوحيد للملهى ، فى شهر مارس الماضى ، لأنه كان على خلاف مع صديقته التى تعمل فى هذا الملهى . .

وظاهر أن عقوبة الإعدام ملغاة ، وأن القضاء لم يكن أمامه إلا الحكم بالأشغال الشاقة . .

تذكرت وأنا أقرأ الخبر الكلمة الشائعة «القانون حمار» وإن كنت لا أدرى أى الطرفين سيغضب القانون أم الحمار ؟

وعزّ علىّ أن تزهق عشرات الأرواح ؛ لخلاف وقع بين وغد وخليلته ، وأن ينزل القاتل ضيفا على سجن يستمتع فيه بسماع الإذاعة ، ويستأنف حياة من لون آخر لا بأس به على الإجمال . .

وتساءلت : هل هذا القضاء يعرف أن لله حكما فى هذا الإفساد ؟

أم أنه لايعرف الله أصلا ؟

إن النفس بالنفس شريعة سماوية قديمة ، وهذا مجرم أهلك عشرات النفوس ! ومع ذلك فقد صانوا دمه ، واعتبر سفكه تخلفا ؛ أو جريمة !! واعتبروا القانون الوضعى أرقى وأعدل من الشريعة الإلهية !!

الحق أن علاقة الغرب بالله وهمية أو شكلية ، وأن الدين هناك هو عطلة عيد الميلاد أو أيام الآحاد ، أو هو الحقد التاريخى على الإسلام وأمته ، يحمله الاستعمار الغاشم فى أطوائه ، سواء كان هذا الاستعمار عسكريا أم ثقافيا . .

واحتكام البشر إلى غير ما أنزل هو قمة الهوى ، لأن الشهوات الضالة تتحول إلى قاعدة مرعية ، أو عرف ملزم ، أو حد لا يجوز تخطِّيه !!

وقد قال الله لداود عليه السلام « لا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ »[1] وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام : « ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »[2] وقال : « لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ »[3] وقال : « بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ »[4] .

والحق أن أهل الكتاب - الذين قلدناهم - نسوا كتابهم ، واتبعوا أهواءهم ، وضلّوا وأضلوا ، ولن يحصدوا من مسالكهم العوجاء إلا الخسران المبين ! فما حرصُنا على متابعتهم فى الحكم بغير ما أنزل الله ؟ لا سيما فى شئون الحلال والحرام ؟

والحقيقة التى ألفت الأنظار إليها بقوة ، أن الدين واسع الدائرة ، وأن شُعَب الإيمان تبلغ السبعين شعبة ، وأنها متفاوتة القيمة والوظيفة ، فالأصل له مكانه فوق مكانة الفرع ، والركن له مكانة فوق مكانة النافلة ، وأن هناك روحا عامة تسرى فيها ؛ كما تسرى الروح فى أعضاء البدن ؛ تهب للمخ الحياة كما تهب للإصبع الحياة ، ولكل مكانته وعمله ! !

---

(١) سورة ص : ٢٦ . (٢) الجاثية : ١٨ ، ١٩ . (٣) البقرة : ١٢٠ . (٤) الروم : ٢٩ .

وقد رأيت فى الحقل الإسلامى من ينسى الأصل ويتعلق بالفرع ، ومن يغفل عن الركن ويتشبث بالنافلة ، ومن يفقد روح اليقين والإخلاص التى تشد تعاليم الإسلام بعضها إلى البعض الآخر ..

ولذلك تفشل الجهود القاصرة فى خدمة الإسلام ، وربما جرت التهم على الدين كله !

إن للنفاق ميدانا يرتع فيه ويعرف به ميدان الكذب والخيانة ، والخلف والغدر ؛ وخسة الخصومة ، ويعنى ذلك أن مكانة الأخلاق راسخة عندنا ، وأن تجاوزها مستحيل على تقىّ .

وإذا كان القلب مُسْتَقَر التقوى ، فإن القلب الغاش الفارغ لا وزن له ..

وإذا كان الجهاد سنام الإيمان ؛ فإن ترك الدين أعزل فى ميدان الصناعة والحضارة جريمة كبرى ..

وقد لاحظت أن حرب الخليج كشفت عورة العرب ، وحددت قدر الإسلاميين وأظهرت أن الصياح الأجوف لا ثمرة له !!

لذلك كله ، لن يقيم الحكم الإسلامىّ إلا جيل متين ، واسع المعرفة ، حادّ الذكاء ، راشد الرأى ..

لاتقل خبرته بالدنيا عن خبرته بالدين حتى يستطيع تطويعها له ، وإلزامها حدوده!!

ترى ؛ هل نراجع أنفسنا وننقدها ونحاسبها ، ونحملها على الحق أم نبقى على ما نحن عليه فلا تتغير النتائج ؟ ؟

* * *

استقصاء العدل

قرأت من أمد قريب أن نفرا من النقاد ذهب إلى مستر «تشرشل» يعلن تشاؤمه من الاضطراب الخلقى والاجتماعى فى انجلترا ، وأعربوا عن خشيتهم على مستقبل البلاد! فقال لهم «تشرشل» : هل تناول هذا الاضطراب القضاء والقانون ؟ قالوا : لا ! فقال : لا خوف إذن . . .

وقرأت أمس أن أم الرئيس بوش - وهى فى التسعين من عمرها - كتبت مظلمة لمصلحة الضرائب التى طالبتها بمبلغ قدره ٨٦ ألف دولار ، عن بيت تملكه فى جزيرتها ، وقد ذهب أخوها ومحاميها يتظلمان طالبين تخفيض المبلغ !

ولما قيل لها : لماذا لا تخاطبين ابنك ؟ قالت : فى أمريكا دستور وقانون قبل ابنى وبعده !

ولو ذهبت أستقصى الطرائف على ضمانات العدل بين الناس لضاق المقام ! إن الأمم التى ازدهرت وتصدرت لم تصل إلى الأوج مصادفة أو بعد استرخاء واضطراب ، لقد تم ذلك لها وفق مقدمات منتظمة أتت نتائجها المحتومة . . .

إن إسلاما مزعوما مع قطيعة وعسف وفوضى ؛ لابد أن يصحبه التقهقر والخراب ! أما الإنصاف والتراحم فهما أساس العمران وحصونه التى لا تسقط . . .

وربما استحق البعض غضب الله بعصيانه ومروقه ! ومع ذلك فإن القدر الأعلى يأذن له بإثارة الأرض وتعميرها ؛ والتكاثر والازدهار فوقها ، بسبب خلال حميدة حرص عليها . .

ويشهد لذلك ما رواه ابن عباس ، قال رسول الله ﷺ : **«إن الله ليعمِّر بالقوم الديار ؛ ويثمِّر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم بُغضا لهم !! قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : بصلتهم أرحامَهم !!»** وعن عائشة رضى الله عنها ؛ أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لها : **«إن من أُعْطى الرفق فقد أُعطى حظه من خير الدنيا والآخرة وصلة الرحم وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار»** .

والواقع الذى نراه فى عالمنا شاهد صدق على صحة هذه الآثار ، ونحن نعانى من اضطراب خطير فى المفاهيم ، ومن اضطراب أخطر فى الحكم على الأشياء من اضطراب المفاهيم ما شكا منه الشاعر القديم :

إذا قلتَ يوما لمن قد ترى ... أرونى الشريف أروك الغنى !!

والغنى ليس دلالة الشرف إلا فى مجتمعات الأكل . . والقلب المليء بالنبل أشرف من نعل محشوَّة ذهبا !!

وقد أعجبنى ما كتبه الأستاذ «محمد الحيوان» يكشف فيه فنونامن التناقض فى أحوالنا الإدارية ؛ تحت عنوان لماذا نأخذ بتقارير الشرطة فى المسائل السياسية ، ولا نأخذ بها فى المسائل الأخلاقية ؟ إذا كتب تقرير عن أحد بأنه إسلامى يمنع تعيينه أو تؤخر ترقيته ويضيع حقه ، وقد يكتب تقرير عن أحد الناس بأنه مصاب بانحراف ، ومع ذلك تسند إليه وظيفة كبيرة ، وقد يكتب عنه أنه مقامر ، ومع ذلك يتولى عملا له مسئوليات جسام ، وقد يقال : هذه السيدة فى حالة تسيُّب ؛ ومع ذلك توضع فى مكان السيطرة ، أو أن هذا الرجل يعمل فى السوق السوداء ، ومع ذلك نوليه الإشراف على السلع التموينية ، أى أننا نحاسب السياسيين ولا نحاسب الخائنين والمرتشين . . .

ومهزلة نواب المخدرات لها أكثر من دلالة ، وأحسب أن فصلهم كان سيتم لو أن الشواهد أثبتت أنهم من الأصوليين !! بل ما كانوا ليدخلوا المجلس أصلا !!

أعتقد أن قضية الأخلاق الخاصة أو العامة يجب أن تشغلنا . إن تقدُّم الغرب لا يرجع إلى تفوقه الصناعى أو العسكرى قدر ما يرجع إلى النظم الأخلاقية ، والتقاليد المحكمة التى تسود أرجاءه . .

وكثيرا ما أرى مشكلات كثيرة التعقيد ، أعجزت من تصدَّى لحلِّها ، وما هذا العجز إلا لأنهم عموا عن الداء الدفين ، داء القلب الميت والخلق السائب ، أو ما عناه القرآن الكريم عندما قال : « وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا »(١) .

القلب الغافل والشهوة الغالبة ، والأحوال الفرط ، تلك هى عللنا التى أودت بنا وأخرت جماعتنا ، وهزمتنا فى كل صراع .

---

(١) الكهف : ٢٨ .

من تصحيح المفاهيم

كلمة التوحيد أعلى شُعَب الإيمان ، وهى عنوان الإسلام وموضوعه ومَدْخله وحقيقته ذلك أن الخوف من الله والرجاء فيه والتوكل عليه والاعتصام به لا يتم إلا بصدق التوحيد ! وقد وردت فى قيمة الكلمة العظيمة أحاديث تحتاج إلى بيان ، منها ما يسمَّى بحديث البطاقة وهو ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال رسول الله ﷺ : «إن الله سيخلِّص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجِلاً ، كل سجل مثل مدّ البصر ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ .

فيقول لا يا ربّ !

فيقول : أفلك عذر ؟

فيقول : لا ياربّ !

فيقول الله : بلى إن لك حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ! فتُخْرَج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فيقول الله له : احضر وزنك !

فيقول : ياربّ ما هذه البطاقة من هذه السجلات ؟

فقال : إنك لاتُظلم . .

فتوضع السجلات فى كفّة والبطاقة فى كفّة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله أحد . . .!!»

وظاهر هذا الحديث أن التوحيد لا يضرّ معه شىء ، وهو فهم يحتاج إلى نظر ! وعندما قرأت هذا الحديث ذكرت قصة روتها كتب السنة أن رجلا جاء إلى النبىّ ﷺ وهو يستعدّ للقاء العدو .

فقال له : أقاتل معك ثم أسلم ، أم أسلم أولا ثم أقاتل معك ؟

فقال له الرسول : بل تسلم أولا ، فأسلم واشتبك مع الأعداء فقُتل وفاز بالشهادة!

فقال الرسول : عمل قليلا ونال كثيرا !

قلت فى نفسى لعل ذلك الرجل صاحب هذه السجلات الملأى بالذنوب ، وهو جدير بالمغفرة بعد ما جاد بروحه فى سبيل الله . . .

إن فرقة من المسلمين اسمها المرجئة اعتمدت على حديث البطاقة الذى ذكرناه وأسقطت الأعمال عن الناس ، وهونت الواجبات الضخمة وجرأت على الذنوب العظام ! وهى فرقة ضالّة مضلة ، ولعلها سبب سقوط الحضارة الإسلامية واستهانة الناس بالتكاليف الشاقة ، بل هى من وراء ذهول العامة عن القانون الإسلامىّ الجليل « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ »[1] .

وقوله تعالى « مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً »[2] .

إن الإسلام اليوم يحيط به أعداء مكرة مهرة ويحتاج إلى أهل النجدة والفداء ليدفعوا عنه ، أما كلمة الإسلام التى تمرق بين الشفتين دون رصيد من إيمان أو خلق فلا جدوى منها «ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» .

* * *

(١) الزلزلة : ٧ - ٨ .

(٢) الكهف : ٤٩ .

خيبة الأمل...

استطاعت الحضارة الحديثة أن تطوى القارات الخمس تحت جناحها وأن تجعل البشر عامة ينتفعون بثمارها المادية التى رفهت معايشهم ويسرت مرافقهم ، اختفت مصابيح الزيت وحلّت محلها ثريات الكهرباء ، واختفت الأفران القديمة وما تتطلب من أحطاب وأخشاب لتحل محلها أفران أنيقة خفيفة الوقود وصار التنقل بالسيارات والطائرات بعد ما كان بالخيل والبغال والحمير !

والمهم أن هذه الحضارة قدمت فلسفتها فى فهم الوجود وخطتها فى قضاء العمر وعبور الحياة بين يدى خدمات مادية حسنة ورؤى واقعية سهلة .

وكان المسلمون قد فقدوا قوة الدفع وتذوّق الوحى ولباقة التصرف فألقوا بأنفسهم بين أحضان الجديد المقبل وذاب أكثرهم فيه ، ونحن ما نرفض دنيا حسنة وإنما نرفض أن تكون هذه الدنيا «طعما» لنسيان الله واطراح وحيه ، ونرفض أن يكون الفقر المادى ذريعة للانحراف والمروق .

وإن جماهير من الناس غرتهم هذه الحضارة وأعجبتهم فماذا يفعلون ؟

ظنوا أنهم يلتحقون بأصحابها إذا ارتدوا ملابسهم وقلدوا مسالكهم فهل أفلحوا ؟

كلا ، كان ينبغى أن يدرسوا سرّ تفوق القوم ، ومصادر المعرفة التى نقلتهم إلى ما بلغوا ولو اختاروا هذا الطريق لأدركوا أن دراسة الكون وقواه من وراء هذا النجاح الباهر !

فهل دراسة الكون والتأمل الواعى فى خلق السماوات والأرض اختراع أوروبى ؟ أم هو توجيه قرآنى فى مئات الآيات ؟ .

إن المسلمين ظلموا أنفسهم وكتابهم وتاريخهم وحضارتهم عندما أداروا ظهورهم لآيات الله فى العالمين وانشغلوا بالمتشابه من آيات الوحى وحسبوا أنهم يبنون العلالى وما درَوْا أنهم يحفرون لأنفسهم القبور !

ماذا جنينا ؟ لقد تسلح الإلحاد بتفوق علمى فى البر والبحر والجو وبقينا فى أماكننا محسورين !

قرأت هذه السطور فى بحث عن مستقبل الشرق الأوسط أنقلها للعبرة .

يقول البحث نحن نحتاج اليوم إلى جهد أقل وتربة أقل وماء أقل نستخرج منتجات أكثر وأكثر ! فالولايات المتحدة التى تستخدم ١½ ٪ من قواها العاملة فى الزراعة تنتج ٢٥٪ من مقادير الغذاء فى العالم فى حين لم يستطع الاتحاد السوفيتى أن يصل إلى الاكتفاء الذاتى مع أنه يستخدم ٣٣٪ من قواه العاملة فى الزراعة !

وقد اشترى السوفيت البقر من إسرائيل لماذا ؟ لأن البقرة فى إسرائيل تعطى من الحليب ثلاثة أضعاف المقدار الذى تعطيه البقرة فى روسيا رغم أن البقر هو البقر ! وله ذات الصفات ، الفرق هو الطريقة التى تصل بالانتاج إلى ثلاثة أضعاف ، الفرق هو فى الارتقاء العلمى !!

وقد رأيت فى التلفاز صورة لنجاح اليهود فى زراعة قطن ملوّن . والقطن كما نعرفه أبيض ناصع وكان الفلاحون عند جنى القطن فى بلادنا يغنوّن «نوّرت ياقطن الليل»! لشدة بياضه !!

إن الارتقاء العلمى سيغنيهم عن تكاليف الصناعة ، أظن أنه لو حاول ذلك عندنا أحد العلماء لجاءه من يقول له لا تفعل فإنه تغيير لخلق الله !! والجنون فنون .

* * *

النساء والقبور

سألنى أحد الناس غاضبا : لماذا لم تحدث النساء ألا يزرن القبور وأنت تتحدث فى أمور كثيرة ؟ فقلت له : تقصد أن أحدثهن عن آداب الزيارة ؟ قال : بل تمنعهن منعا قاطعا كما أمر الإسلام !

قلت له : عيبكم أنكم تعرفون وجها واحدا من وجوه القضية الفقهية -- ثم تتعصبون له وتحاولون الوصول به إلى مجلس الأمن ! .

تعال بنا إلى أقرب وأدقّ مرجع فى هذه الشئون ، إلى فقه السنة للشيخ سيد سابق وسنرى فيه هذا الكلام «رخَّص مالك وبعض الأحناف ورواية عن أحمد وأكثر العلماء فى زيارة النساء للقبور . وفى الحديث أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر ، فقلت : يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟

قالت من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت لها : أليس كان نهى رسول الله عن زيارة القبور ؟

قالت نعم . كان نهى عن زيارة القبور ثم أمر بزيارتها !

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله مرّ بامرأة عند قبر تبكى على صبىّ لها ، **فقال لها اتقى الله واصبرى فقالت وما تبالى ؟ بمصيبتى . . فلما ذهب قيل لها إنه رسول الله - ولم تكن تعرفه - فأخذها مثل الموت فأتت بيته ، فلم تجد بوابا ، فقالت : يارسول الله لم أعرفك !**

فقال لها :«إنما الصبر عند الصدمة الأولى» ولم ينكر عليها أن كانت فى المقابر . .» .

وقد ورد حديث ضعيف عن أحمد بن حنبل «لعن الله زوّارات القبور» وهذا الحديث إن صحّ فهو يرفض العكوف على الزيارة وتكرارها ونقل وحشة القبور إلى البيوت وإثارة جزع لا ينتهى ، وذاك ما يأباه الطبع السليم .

وقد أطلت شرح هذه القضية لأنى رأيت بعض الناس لا يعرف إلا رأيا واحدا فى مسألة فقهية ، ولعله يعرف الرأى الأضعف ثم يغالى به ويريد حمل الكافة عليه ويجأر بالشكوى من فساد الدنيا والدين لأن الناس لم يتبعوه على رأيه !

وقد كثر الشغب بين العوام على قضايا الخلاف ورأينا غلمانا لا يملكون إلا بعض القشور يريدون تمزيق الأمة بترجيح مذهب على مذهب أو إيثار رأى على رأى ، وهؤلاء فتنة نحذِّر الناس من غوائلها .

إن الفقه الإسلامىّ حافل بآلاف الآراء فى شتى الأحكام ومعنى خلاف الأئمة أن فى الأمر سعة ، فإن للمخطئ وللمجتهد أجرهما وليس فى الإسلام أن الفقيه المخطئ عصى الله ورسوله وعليه وزر خطئه ! !

إن الذين ينشرون التعصب ويشعلون المعارك لنصرة رأى إمام على إمام مثله خطر على وحدة أمتنا ومستقبلها فى أيام تألب على الإسلام أعداؤه يريدون النيل منه .

* * *

شباك منصوبة

لو كان سلمان رشدى أخطأ فى اجتهاد فقهى أو تحقيق تاريخى لقلت : باحث ضل طريقه إلى الصواب وما أكثر الذين يخطئون وتلتمس لهم الأعذار !

لكن هذا المخلوق صاحب طبيعة نابحة وخيال خسيس ، وقد اتجه إلى القمم يريد النيل منها فألف روايته فى تجريح بيت النبوة ، ولو عرف للشهرة طريقا آخر ما نجت منه الصدّيقة مريم ابنة عمران ، ولا ابنها المسيح المبارك ، ولو جد فى روايات اليهود ما يشبعُ طبيعته فى السباب .

ولكن هذا الكاتب آثر طريقا قليل الأخطار كثير الأنصار من سماسرة الاستعمار فشتم محمدا ﷺ وآل بيته الأطهار ، وقد وجد ما يبغى !

قابله رؤساء الدول ، وهشّوا لحديثه ، وانحازوا إلى جانبه وقال كبيرهم بعد أن قضى معه ساعتين : إننى أريد توكيد حرية النشر !!

نشر ماذا يا رجل ؟

أفلو كتب أن مريم عليها السلام بغىّ وابنها لقيط - كما يزعم اليهود - كنت تستقبله ؟ .

هل شتم محمد ﷺ هو تذكرة الدخول على رؤساء الدول الغربية ؟ .

إن حقدكم على الإسلام مرض عضال يبدو أنه ليس منه شفاء ، وقد لاحظت أن الإسلام يحارب تحت عناوين ، لعل أهونها حرية النشر هذه !

فالعالم الإسلامى الذى يبلغ خمس سكان العالم يجب أن يغطى كيانه ويضيع عنوانه ولذلك اخترعت كلمات الشرق الأوسط ، وشعوب البحر الأبيض ، ووحدة الدول الإفريقية ! والشعوب الأفرو آسيوية ! وقد تخترع كلمات جديدة المهم فيها ألا يظهر العالم الإسلامى ظهورا يخدم قضاياه ، أو يذكر بعقائده ورسالاته . . . !

وعندما يقال الشرق الأوسط فستكون إسرائيل أهم دولة وأقواها وأعرقها حضارة وستكون مالكة الزمام الاقتصادى لأنها المنتجة بين جماهير من المستهلكين .!

أما العرب وتاريخهم ودينهم ومستقبلهم فذكريات الماضى يجب أن يهال عليها التراب !

وإذا قيل : شعوب البحر المتوسط فجنوب أوروبا سيد الموقف ، وقد اعتبرت مصر من الدول «الفرنكفونية» وأسست بها جامعة «ليوبلدسنجور» السنغالى المتفرنس وتفرض الآن العلمانية على أغلب دوله حتى تنقطع العلاقة بين الإسلام وأتباعه وطوى تعاليمه التربوية والاجتماعية ، كما أنزلت رايته فى عالم القانون والتشريع ! والغزو الثقافى ناشط فى هذا المجال وسماسرته تفتح لهم الأبواب ويحظون بالحفاوة والترحاب !

إننى أحذر المسلمين من الشباك المنصوبة لاغتيال دينهم والقضاء عليهم ، ولقد تقدم أعداؤنا فى جبهات شتى ، والمسلمون بين غافل ومسترسل ومخدوع ومخدَّر فلنصْحُ قبل فوات الأوان وإلا حقّ علينا العقاب .

* * *

الغش الثقافى

أكره الغشّ الثقافى المنتشر بين العامة وأحسبه مسئولا عن بعض الهزائم التى تصيبنا ونحن ندعو إلى الإسلام ، وودِدت لو أن لجانا علمية تكونت لكشف هذا الغش وذود الناس عن تصديقه .

قرأت لمفسر يشرح قوله تعالى «﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ »[1] أن هذه الليلة ليلة النصف من شعبان !! فاستغربت هذا الخطأ وقلت ألم يقرأ الرجل قوله تعالى «﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. »[2] ؟ فكيف يكون النزول فى شعبان؟ . ومع ذلك يثبت هذا الهراء على أنه رأى !

وبعض المفسرين لا يرى مانعا من ذكر الرأى السخيف المخالف لليقينيات ثم يردّه بعد ذلك ، ففى قوله تعالى «﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا »[3] يقول حتى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا ويقول تستأنسوا خطأ من الكاتب (!) ثم يقول المفسر اللبيب : وفى هذه الرواية نظر لأن القرآن ثبت بالتواتر . وكان يجب أن يدفن هذا القول المروىّ ، فإذا ذكر لأمرٍ مّا وجب تكذيبه فورا والإزراء عليه ..

وبعض الجهلة بلغة العرب أو العجزة فى علم النحو لم يفهموا النصب على الاختصاص فى قوله تعالى « ... **والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة**» وظنوا أن النصب خطأ ونسبوا جهلهم إلى بعض الصحابة ووجد هذا الزور للأسف من يرويه ولا يستحى من حكايته !

وأرى أن ننظر بإنصاف وتدقيق إلى بعض كتبنا القديمة لنجردها من هذا اللغو الباطل ، المجمع على بطلانه .. لماذا نستبقى هذا الغش القبيح ؟

---

(١) الدخان : ٣ .
(٢) البقرة : ١٨٥ .
(٣) النور : ٢٧ .

وهذا الدَّخَلُ فى الثقافة الإسلامية تسلَّلَ إلى ميدان الأمر والنهى والحلال والحرام فقد سمعت شكاة لأسرة تقول إن ربَّ البيت أمر بتجريد بيته من السرير والمائدة ، لأن النوم على الأسرة بدعه وكذلك الأكل على المائدة ، يجب النوم على الأرض والأكل على الأرض !!

إن الجبهة التى نقاتل فيها عن الإسلام تتسع لأن الغلاة والمتطرفين أوجبوا على من يدخل فى الإسلام أن يعيش على نهج لم يؤلف فى كتاب أو سنة ، فإذا دخلت فى الإسلام فكن كهذا الصوفى الذى إذا أراد النوم قال :

أجعل الساعد اليمين وسادا

ثم أثنى إذا انقلبت الشِّمالا!

لا وسادة ولا مخدة ولا فراش ولا حشيّة ! إن دعوة التوحيد والعقل يعرضها بعض الناس عرضا ينافى الوحى والرأى فهل نتدارك هذه الأخطاء ؟ .

* * *

مَنْ نسخ الآية ؟

إذا انتشر القصور فى الفكر والفوضى فى الحكم فلن يصح فى الأذهان شىء ..

جلس رجل يفسر القرآن للناس ، فقال : إن الآية الموجودة فى سورة البقرة «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »[1] منسوخة ، وقد أكد الصحابة رضوان الله عليهم هذا النسخ بمقاتلتهم للروم والفرس ، مستصحبين قوله تعالى « قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً .. »[2]

واستشارنى هذا الجهل ، فقلت للمفسر المخطئ : من أنبأك أن الروم والفرس لم يكونوا معتدين على العرب والمسلمين ؟

هل إذا اجتاح الروس أفغانستان ، وأقاموا بها حكما فشرع المجاهدون فى المقاومة وشن الغارات عليهم ؛ اعتبروا مهاجمين ملومين ؟

هل إذا احتل اليهود فلسطين فشرع العرب فى رد العدوان ، وإخراج الطغاة اعتبروا مهاجمين ملومين ؟

لقد جاء الرومان من أوروبا فاحتلوا سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، وهبطوا معتدين على تبوك ومؤتة من أرض الجزيرة ! فهل إذا بدأ المسلمون فى إخراجهم من الشام ومصر وسائر الأقطار التى نكبت بهم ؛ يعتبر المسلمون معتدين ، ويقال إن آية تحريم العدوان منسوخة ؟

هذا هو الغباء المحض ، وما يجوز لغبىّ يعجز عن رؤية الواقع أن يفسر القرآن ، ويحاول إفساد معانيه ...

إنكم بهذا التفسير الذى ينسخ ما تعجزون عن فهمه تبيحون سياسة قطع الطريق وترويع الأبرياء ...

لقد كانت الحرب مع الروم من أعدل الحروب التى وقعت على ظهر الأرض ،

(١) البقرة : ١٩٠ . (٢) التوبة : ١٢٣ .

ويشبهها فى هذا العصر قتال الصهاينة والمستعمرين حتى تعود الأرض لأصحابها ، وتنتهى هذه المظالم . .

كيف يزعم زاعم أن قوله تعالى : «**قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا . .**» آية منسوخة ؟

هل أصبح الله يحب المعتدين وكان من قبل يكرههم ؟

أم كيف يجىء أحد بساطور يضرب به الآية فيقسمها قسمين ، يبطل أحدهما ويستبقى الآخر ؟

يجب أن تذاد هذه العقول العليلة عن فقه الكتاب والسنة ، فلا تفسد على الناس دينهم . . وما قلناه فى هذه الآية نقوله فى الآية الأخرى «لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ »[1] فإن بعض الشواذ قال بنسخها ، وهو بهذا الفهم شارد عن الصواب ، ولم يقع قط فى تاريخ الرسول وصحابته أن أكره أحد على الإسلام ، بل إن الإكراه على الدين منتف من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ ، فقد قال نوح عليه السلام لقومه « أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ » ؟[2]

ثم قيل لمحمد ﷺ بعد ذلك بعشرات القرون «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ؟[3]

أنبياء الله كلهم يرفضون الإكراه ؛ ويعرفون الإقناع الحر ؛ فكيف يتاح لذى عقل مدخول أن يفسر القرآن بهواه ، فيصف آية محكمة بأنها منسوخة ؟؟

إننى أعانى الأمرين فى هذه الأيام من أناس لا يحسنون فهم تأليف أرضى لبشر عادىّ . . . ثم يجيئون بعجزهم هذا إلى كتاب الله ؛ كى يلبسوا الحق بالباطل . . .!

إن دين الله أشرف من أن يؤخذ عن أفواه الحمقى .

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) هود : ٢٨ .

(٣) يونس : ٩٩ .

أصوات الطيور

أنا من القلائل الذين يعرفون العقاد شاعرا كما يعرفونه ناثرا ، وعندما كنت طالبا ناشئا كنت أستجيد شعره وتتماسك فى ذاكرتى أبيات شتى له . ثم أقمت ببيتى فى القاهرة ولفَتَ انتباهى كروان يمر بالسماء والسحر يرسل هتافه المتتابع العجول فكنت أردد بيت العقاد يناجى صاحب الصوت .

أنا لا أراك ، وطالما طـرق النهى وحـىٌ ولـم تـظفر به عينان !

وكنت أذكر عهد الريف ، وشعبنا المؤمن الذى يفسر أصوات الطيور بما استكنّ فى قلبه من إيمان . لقد فسَّر هديل اليمام المتقطع الجادّ فقال : إنه يصيح بالبشر : وحدوا ربكم وحِّدوا ربكم!! وفسَّر هتفات الكروان السريعة المتلاحقة بأنه يقول لله : الملك لك لك . ياصاحب الملك .!

وظاهر أن هذه التفاسير نضح إيمان الناس بربهم ، ووعيهم أن كل شىء يسبح بحمده ، ويتغنى بمجده . .

وقد كان شعراء الغزل ينطقون الحمام بمشاعرهم على نحو ما قال أحدهم :

رب ورقـاء هـتوف بالضـحى ذات سـجْع رجَّعتْ فى فَنَن

إلى أن يقول :

غـير أنى بالجـوى أعـرفها وهى أيضا بالجـوى تعرفنى !

لكن الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى رأى أن ينطق الكروان بغير ما تعارف عليه الناس ، فزعم أن الكروان يقول : الملك لك لك أيها الإنسان . .

وهو بذلك يؤكد أن الإنسان ملك الكون ، وأن الملك ليس لله الواحد !

لقد كان مؤمنا قبل أن يسافر إلى فرنسا وأحسب - إذا لم تخنى الذاكرة - أنه غُنيتْ له قصيدة دينية فلما اعتنق الشيوعية وعاد إلى مصر رأى أن يكفر وزعم أن الكروان يكفر بالله معه ، ويؤمن بالإنسان وحده !

والغريب أن تنشر الأهرام للدكتور غالى شكرى تحية لهذا الاتجاه ، واتِّهامًا للشعب المصرى بأن أُولى عاهاته الفكرية أنه مؤمن بالغيب !

ولما كان الرجل مسيحيا فقد تساءلت : هل الإسلام وحده هو المؤمن بالغيب أم أن القصة كلها خلْع الإسلام من القلوب وإيجاد شعب تائه ؟

إن جماعة «التنوير» كما تسمى نفسها تكره الله كراهية شديدة وتتنكر لوحيه وهداياته كلها . . وتريد بكل الوسائل سرقة العقائد من القلوب ، ولها فى ذلك حيل وألاعيب لا تخفى على أولى الألباب وعلى الناس أن يحرسوا إيمانهم ويكتشفوا ما يراد بهم . . .

* * *

ماذا ننتظر

بعضهم يحسب المتدينين أصحاب فكر غيبى غبّى لا يثبت على تجربة أو اختبار ، وأنهم جامدون على تراثهم لا ينفكون عنه على كثرة المحاولات معهم . .!

أنا أكره التدين من هذا النوع وأرفض أصحابه ، ولكننى أشد كراهية لقبيل من الناس صلتهم بأوروبا كصلة الجاهليين القدامى باللات والعزى ، يمشون وراءها فى كل طريق مهما كان وعرا ، ويؤيدونها فى كل شأن مهما كان سخيفا . . .

وأنا منذ شهور أحس بالقلق العام الذى يسود المجتمع لكثرة الجرائم ، وتعدُّد صورها ، وعجز القانون المستورد عن مقاومتها ، ومع ذلك لا نفكر فى تغييره بما هو أفضل وأشرف ؛ لأنه أوروبى !

هذا شاب فى السابعة عشرة من عمره ، قتل صبيا وفسق بآخر ؛ حكم عليه بالسجن لأنه حدث ، والحدث فى شريعة القانون الأوروبى من كان دون الثامنة عشرة من عمره ؛ فهذا لا ينفذ فيه العقاب الطبيعى . . .

ولست أدرى ما يكسبه المجتمع من الحرص على حياة شاب فاسق قاتل ؟ ولماذا لا تنفذ أحكام الشريعة فى ربط التكاليف بِسنّ البلوغ ، وللبلوغ شاراته المعروفة ، إن محمد بن القاسم فاتح الهند كان فى الثامنة عشرة من عمره - والتأريخ بالهجرى - أى أنه كان أكبر بشهور من هذا المجرم المعفو عنه .

وسوف يذهب المجرم إلى السجن ليخرج أكثر شذوذا وأضرى أخلاقا ! فماذا كسبنا ؟

وقد يكون القاتل ارتكب جريمته دون سبق إصرار ، فيعاقب بالسجن سنين عددا ثم يخرج . . .

ومنذ أيام خرج قاتل بعد قضاء المدة المحكوم بها ، وكان ابن القتيل يتربص به ، فاقتصّ منه ، وقبض رجال الشرطة عليه ، وسوف تتكرر المأساة مع أحكام القانون القائم فى عشرات المدن والقرى .

وقرأت قصة ابن البواب الذى تسلل إلى الشقة ليسرقها ، فوجد ساكنها التاجر أمامه ، فأطبق على عنقه يعتصره حتى قتله وهرب !

قلت : سيجد من يدفع عنه بأنه لم يكن مترصدا ، ويبعده عن حبل المشنقة !!

الشريعة تقول : من قتل عمدا يقتل ، فمن أين اخترعت هذه الشروط ؟ وماذا كسبنا من احترامها إلا وقوع جرائم القتل بالآلاف ؛ وعدم تنفيذ القصاص إلا آحادا . .؟

لقد كثرت جرائم السطو المسلح ، وقطع الطريق واغتصاب الفتيات ، فهلاّ جربنا حكم الشارع الحكيم ، فقتلنا وصلبنا ؟؟ جربوا ذلك دون احترام لرأى الأوروبيين ، الذين ألغوا القصاص جملة وتفصيلا ، وأباحوا اللواطة والزنا كذلك جملة وتفصيلا ! إن القيمة العقلية والخلقية لآراء هؤلاء الناس صفر ، ومتابعتهم بلاهة ودمار . .

إن التساهل مع المجرمين زادهم ضراوه ، وجعل حبل الأمن مضطربا ، فما يأمن أحد على نفسه فى ظلام الليل ، أو وحشة النهار . .

والأوروبيون يعصون كتابهم المقدس بهذا التفريط ، ولديهم شريعة السن بالسن والعين بالعين ، فإذا رأوا بعد اضطراب إيمانهم أن يلغوا أحكام ربهم ويسيروا وفق شهواتهم فمالنا ولهم ؟ ولماذا نتابعهم وقد قال الله لنبيه ﷺ : « وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » ؟[١]

هل ننتظر حتى ينقطع الطريق بين المقطم ووسط العاصمة ؟ هل ننتظر حتى ينقطع الطريق بين مصر الجديدة والقاهرة ؟ ماذا نخاف إذا نفذنا شريعة الله ؟ أن يجىء خواجة ملتاث سكران فيقول لنا : أنتم متخلفون !! أو يجىء آخر مستباح العرض فى الليالى الحمراء أو فى وضح النهار ؛ ليقول لنا أنتم متوحشون !!

إن للأوروبيين بعض المزايا العمرانية ، أما وراء ذلك فلا . . . ولا كرامة .

* * *

---

(١) المائدة : ٤٩ - ٥٠ .

دعوة لروح جديدة

القوى المعادية للإسلام دائبة على إلحاق الأذى به ما استطاعت ، يمدها حقد مشبوب ؛ وبصر يبحث عن العيوب ؛ وقدرة على استغلال الأخطاء لتحويلها إلى مقاتل وعطوب . .

إن العالم يعرف أن إسرائيل تملك من أسلحة الدمار الشامل مالا تملك العراق ولا باكستان ، ومع ذلك لم ينبس بحرف واحد ضد اليهود ، ولا جرؤ أن يوجه إليهم تهمة . . لكنه مع جبنه أو رضاه يضرب العلماء المسلمين بقوة ، ويهجم على شعوبهم بجبروت ، ويعالن برفضه أن تكون لدى المسلمين أسلحة نووية !!

هذا الجور فى الحكم ، وهذا الكيل بكيلين ينم عما وراءه من نيات السوء وما يبيته على مر الأيام من شر لأمتنا وديننا . .

وفى الوقت الذى يتم فيه هذا دوليا يعلن «شارون» بطل مذبحة صبرة وشاتيلا ، أنه سيقود الجبهة الحاكمة فى إسرائيل ، ويوعز إلى بعض «المتطرفين» من أتباعه أن يسكنوا البيوت العربية فى القدس ، تحت شعار أن الإسرائيلى يسكن أين يشاء فى الأرض المقدسة فهى ميراثه العتيد . . ! !

لقد أسكرتهم الانتصارات الرخيصة التى أحرزوها ، وحسب قواد العصابات القدماء أنهم قادرون كل يوم على إحراز نصر جديد ، ومن ثم يتكلمون بتبجح مثير ! ويتحدثون عن الحرب دون اكتراث ! ويريدون أن يملوا على العرب شروط المنتصر ، وأن يذيقوهم ذل المغلوب . .!! وما كان العرب ليواجهوا هذا الموقف لولا الأخطاء الكبرى لساستهم وزعمائهم !

لو أن الجيش المصرى لم يبدِّد قواه فى اليمن ما لحقت به هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، إنه فى ست ساعات خسرنا القدس والضفة والقطاع والجولان وسيناء ، ولو أن الجيش العراقى لم يبدد قواه فى غزو الكويت لأدار الحرب على كبد إسرائيل ، واسترد منها كل ما غصبت ورمى بها فى البحر . .

وهكذا وهبنا لليهود نصرا ما كانوا ليحرزوه أبدا ، وأطلقنا أفواههم بالدعاوى ، وصدق من قال :

إن الزرازير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهينا !

إن اليهود أذل وأقل من أن ينتصروا فى معركة ، إن أخطاءنا وحدنا هى التى صنعت لهم النصر ، وأغرتهم بالنباح العالى .

والعرب الآن يُنادَوْن إلى مؤتمر سلام ، حسنا ، نحن طلاب سلام ، ولكن اليهود من اللحظة الأولى يريدونه مؤتمر استسلام ، وتسمعهم يقولون : إن لنا حق اختيار الوفد الفلسطينى الذى نتحدث معه ! لا نقبل أن يذهب من القدس المحتلة أحد ليفاوضنا ، فالقدس صارت ملكنا . .

لا تنازل عن الأرض التى كسبناها . . اللاءات على أفواههم كثيرة . ونحن المسئولون أولا وآخرا . .

إننا نستطيع أن نحل مشكلتنا بأيدينا لو أردنا ، لماذا يقصى الإسلام عن المعركة وتبقى اليهودية ؟ لماذا يكون انتماؤهم الدينى مباحا وانتماؤنا الإسلامى حراما ؟ إننا بالقوى القليلة التى لدينا نستطيع بتأييد الله لنا أن نسترد ما فقدنا ونعود ظافرين . .

وقد تقول : سلاحنا أقل . . ! وأقول : كان أكثر فهزمته الفرعونية الحاكمة ونسيان الله ؛ قبل أن يهزمنا أحد ، إن اليهود لم يهزمونا فى المعارك السابقة إننا نحن الذين انتحرنا !!

إن العرب بحاجة إلى روح جديدة ، اسمها الإيمان بالله ، والاعتزاز بالتراث والثقة بضمان الله لمن يأوى إليه . . وهم إذا تغيروا غير الله ما بهم « إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ »[١] .

أوصى الرجال الذاهبين إلى مؤتمر السلام أن يعتمدوا على الله ، وألا تضطرب ثقتهم فيه ، وأن يحادثوا اليهود من منطلق قوة لا من منطلق ضعف ، فإن الغد لنا إن لم يكن اليوم لنا . ولتزأر العصابات الغالبة المغترة ، فلن يطول بها غرور ، ولن يمتد لها فجور وإن غدا لناظره قريب . .

---

(١) يونس : ٨١ ، ٨٢ .

الـزواج

ليست الغريزة الجنسية رجسا من عمل الشيطان ، إن الإسلام - وهو دين الفطرة ينظر إليها على أنها واقع لا يجوز تجاهله ، وكل ما يفعله أن يضعها فى إطار طاهر بشوش ينمى خيرها ويمنع انحرافها . .

فإذا استقامت على أمر الله كان إيحاؤها عبادة ، ومذاقها سعادة ،تأمل فى قول الرسول ﷺ : **«اللقمة تضعها فى فم امرأتك لك بها أجر»** وقوله : **«فى بُضع أحدكم صدقة» فتساءل أحد الصحابة : أيقضى أحدنا شهوته وله أجر ؟ فقال له : أرأيت إن وضعها فى حرام أليس عليه وزر ؟»**

إن مسلك هذه الغريزة إذا استقام على السنن الجاد كان طاعة لله تعالى ، وكان إرضاءاً لله أن تحب زوجتك وتلاعبها وتداعبها . .

إن الرائحة الحسنة ترفع الإحساس وتريح الطبع ، وقد ضم إليها النبى ﷺ المرأة التى أنعم الله بها ، فقال : **حُبِّب إلىّ من دنياكم النساء والطيب ، وقرة عينى فى الصلاة»** . . .

وأغلب الفقهاء يجعل الزواج من العبادات ! ويجعل نفقة الرجل فى بيته صدقة تكتب له . . .

- وطبيعى أن يهتم الإسلام بالمناسبة التاريخية التى يبدأ بها الزواج ، فهو يستحب الاحتفال بها ، وقد قال الرسول لأحد أصحابه : «أَوْلِمْ ولو بشاة» وصحّ فى السنة المطهرة أن النبى عليه الصلاة والسلام حضر حفل زفاف ، فكانت العروس هى التى تتحف الأصحاب بالشراب الطهور ، والطعام الهنىء . .

وإن كان القصد هو السمة الغالبة على المجتمع الأول ، والإسلام يكره الإسراف الذى تراق فيه الأموال دون وعى ، وقد وصف حافظ إبراهيم إحدى ليلات زفاف من هذا النوع فقال :

قد شهدنا أمس فى مصر عرسا جعلت أضواؤه الظلام نهارا . . . !

سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضارا . . . !

والمعروف فى سنة نبينا ﷺ أنه استحب اللهو أيام الزفاف ، وسمح بالغناء الرقيق اللطيف .

أتينـــاكم أتينـــاكم فحيـــونا نحييـــكم

ولـولا الحبـــة الســـمراء ما سمنت عـــذاريكم

ويقصد بالحبة السمراء القمح . . .!

والغناء والموسيقى لا بأس بهما فى الأعراس ، والمهم اختيار ألفاظ شريفة وأنغام حسنة !

وقد سمعت من يطلب إحياء الأعراس بالقرآن زاعما أن هذه هى السنة !

والقرآن كتاب جادّ ، نزل لتسيير الحياة ، ولم ينزل لأحفال الموتى والأحياء ، فذاك كله من أعمال الناس ؛ أو مخترعاتهم . .

المسلك الصحيح أن نحتفل بما يسر ، وأن نذكر نعمة الله بالزواج ، وجَمْع الأحبة ، وقد كان الزوج يأخذ بناصية زوجته ، ويدعو الله لها ، ويدعو لنفسه بالبركة ، وفى القرآن الكريم من دعاء عباد الرحمن « رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »[1] ، والدعاء المأثور عند المباشرة «**اللهم جَنِّبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا**» .

نظرة الإسلام إلى الزواج أنه نعمة مضاعفة تُستقبل بالترحاب والبشر ، وقد عدَّه القرآن الكريم من آلاء الله التى تذكر وتشكر « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ . . »[2] وهكذا تمتد الحياة من الأجداد إلى الأولاد وإلى الأحفاد . .

واتصال حلقات الحياة على هذا النحو جعل الزواج من آيات الله الكبرى ، نعم ، فعندما يقول : «**ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم**» يقول قبل ذلك : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً »[3] ثم يختم هذه الآيات بقوله : «**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره . .** »

فإذا كانت للزواج هذه المكانة ؛ فلعل الليلة الأولى فيه تستحق الحفاوة والإعزاز . . وجميلُ كلِّ بدء ينتهى خير انتهاء . . .

(١) الفرقان : ٧٤ . (٢) النحل : ٧٢ . (٣) الروم : ٢١ .

الفـنّ

كان الأستاذ العقاد - فى عصره - ينتقد الفنون العربية ويقول : إن الفنّ فى الغرب تمثيل للحقيقة أما لدينا فهو تمثيل للتمثيل ! أى أننا نحاكى ما يصنع الغير دون أن نعرف بواعثه أو أهدافه . .

وقد تذكرت هذه الكلمة وأنا أقرأ ما وقع فى مهرجان «كان» بفرنسا .

إن المتعصبين الصليبيين ساءهم أن يصوِّر الفن بأمانة ما وقع من مخاز وفضائح فى البوسنة فضربوا الفنان الذى سجل المجازر هناك ، والذى أبرز وحشية الصربيين وهم يخمدون أنفاس المسلمين ويذيقونهم ألوان الحتوف .

وقد اضطر وزير الثقافة الفرنسى أن يدافع عن هذا الفنان وأن ينقذه من أيديهم ! مع أن هذا الوزير هو الذى منح سلمان رشدى جائزة باسم الاتحاد الأوروبى ، على إيذائه للإسلام بداهة !!

لقد تساءلت : ماذا يفعل الفنانون العرب ؟ وهل فكروا فى خدمة القضايا الإسلامية ؟

وهل ذهبوا إلى الساحات التى يهان فيها الإسلام لينقلوا للعاملين ما يقع فيها وليجسِّموه فى صور حية حتى يحسّ الناس بما هنالك !

إن الإعلام فى أرجاء الأرض ثقافة وتسلية ، ولكن يظهر أنه عندنا وحدنا تسلية وحسب ، تسلية لا ترتبط دائما بالأدب العالى أو التقاليد المضبوطة . .

إن المسلمين من الناحية العسكرية ضعاف وعند التقسيم السياسى للسكان فى العالم وضع مسلمون كثيرون تحت حكم نحل أخرى وتعرضوا للفتن فى أنفسهم وأموالهم فهل تطوّع فنانون عرب بعرض روايات فى شتى القارات لما يصيب المسلمين ؟

إن اليهود لما عذبوا فى ألمانيا الهتلرية عرض ما نزل بهم مضاعفا آلاف المرات حتى صدق العالم أن ملايين منهم أبيدوا ولا تزال الجوائز حتى هذه السنة تمنح لمن يحسن المبالغة فى تصوير فتك النازى باليهود . .

ما أرخص آلامنا وأحراها بالكتمان والنسيان أما آلام غيرنا فهى التى تذاع وتمثل وترتفع لها الموسيقات الحزينة ثم يطالب لها أخيرا بالقصاص !

لماذا لا يكون الغناء إلا غزلا ؟

هل انحصر الأدب فى الغريزة الجنسية ؟ لماذا يمكن تمثيل كل شىء إلا هزائمنا وانتصاراتنا ؟وإلا قضايا العقيدة ومحاولات الآخرين لمحو الإيمان والعمل الصالح ؟

لماذا تكون الفنون حركات جسدية ولا تكون أمجادا تاريخية وأشواقا روحية ؟

* * *

كلمة فى «فن الأدب»

عندما أدليت بحديث صحافىّ عن موقف الإسلام من الفنون لم اقترب خطوة من أحد ، ولم أبتعد خطوة عن أحد !! كنت فى مكانى الذى لا أتزحزح عنه وهو تعليم الإسلام للجاهلين به والجاحدين له ، والاعتماد فيما أقول على دراسات أئمة الإسلام وشيوخه الكبار . . . مع إحساس فى الوقت نفسه بالمحن التى يتعرض لها المسلمون والهزائم التى أذلّت جانبهم !

ومن حقى أن أعجب لأناس يبحثون عن اللذة وأقوامُهم يُمرَّغون فى التراب أو يتغزلون فى النساء وأعراضهم تُغْزَى بنطف الكلاب كما يفعل الصربيون بفتياتنا .!!

قد تضحك أوروبا وأمريكا طويلا ، لأنهما منذ قرون ينهبون ثروات العالم الثالث كما أسموا بلادنا ! وبنوا مدنهم العظام على أنقاضنا ، وهم فى حال من خفض العيش وجماح الانتصار يغريهم بالمزيد من المجون !

أما نحن ففى أوضاع تملى علينا مسلكا آخر ! مسلكا لا يفكر أبدا فى إحياء أدب أبى نواس أو قلة أدبه !

لعل أدب الرثاء هو أولى الفنون بالإحياء فى أيامنا العجاف ! قد تقول ما معنى أن تطلب منا البكاء ؟ وما جدوى ذلك . .

وأقول : إن بنى اسرائيل آثروا البكاء عند حائط المبكى حتى أقاموا لهم دولة وهم الآن ماضون فى خطتهم حتى يهدموا المسجد الأقصى ويقيموا هيكل سليمان . .

وما أريد البكاء السلبىَّ العاجز ، فليس ذلك من خلق آبائنا فى جاهليتهم قبل الإسلام ، فكيف بهم بعد ما شرفوا برسالته ؟ يقول دريد بن الصمة عندما قتل أخوه .

تنادوا فقالوا أردت الخيل فارسا ... فقلت أعبد الله ذلك الرَّدى . . ؟

فجئت إليه والرماح تنوشه . . . ... كوقع الصياصى فى النسيج الممدَّدِ . .

فإن يك عبد الله خلّى مكانه ... فما كان وقَّافا ولا طائش اليد . .

كميش الإزار ، خارج نصف ساقه بعيد عن الآفات طـلاع أنجـد . . .

قليل التشكّى للمصيبات ، حـافظ من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد !

انظر معالم هذه الرجولة فى فارس بملابس كشّاف يعلوا الرُّبى بنشاط رياضىٍّ جَلْد ، لا يشكو ولا يتراجع ، ولا يحب أن يذكر فى المجالس بما يشين !!

أىّ فنٍّ هذا ؟!

إنه فن بناء الأبطال ! ولماذا لا يُتغنى به ، وقد كانت الفتيات تغنِّى بما قيل من شعر فى معركة بعاث ؟

إن فنون الأدب فى تراثنا كثيرة فما الذى يجعل أديبا كبيرا «كعبد المعطى حجازى» يأسى على أدب أبى نواس ، ويتألم لأن البعض يريد إهالة التراب على شذوذه ؟

ما الحرص فى هذه الأيام السود على أدب اللذة ، والبحث عن الشهوات ووصف القدر بأنه أحمق الخطا .

* * *

رسالة الفن !!

يظهر أننا فشلنا فى مقاومة الغزو الثقافى على حين نجح آباؤنا فى مقاومة الغزو العسكرى .

إن ثورات التحرير التى يمدها الإيمان والاحتساب قدرت على إجلاء جيوش الاحتلال وردّها على أعقابها .

لكن الاستعمار العالمى رأى أن ثمرات الغزو الثقافى أكثر وأخطر وأنها تحقق له غنائم باردة وتصيب الإسلام فى مقاتله فرأى أن يحرس هذا الغزو ويبسط يده لحماية أصحابه ! وحسبه أنه عطل الشريعة وأفسد الأخلاق والتقاليد وترك الإيمان فى حالة احتضار . .!

نظرت إلى ميدان الفنّ فى ظل هذا الغزو فرأيته يرحب باحتساء الخمر والطرب فى مجالسها فيغنى موسيقار الأجيال لعلى محمود طه مع عشيقة إيطالية قصيدة الجندول ، إن الحبيب نهم إلى شرب الخمر «كلما قلت له خذ قال هات» أما هو فيقول إن عشيقه «ذوّب فى كأس عطره» وعندما ينتشى يقول «قلت والنشوة تسرى فى لسانى هاجت الذكرى فأين الهرمان» ؟ الهرمان بشرّ حال أيها السكران . . .!

وفى قصيدة «كيلو باترا» يقول «ليلنا خمر . .» ويبحث عن حبيبه سائلا «هل رأيتن فتى غضّ الإهاب أسمر البشرة كالخمر فى النور المذاب» ؟

والذين احتفوا بهذا الغناء ، وهتفوا له هم الذين قال فيهم شوقى :

هتفوا لمن شرب الطلا فى تاجهم ... وأصار عرشهمو فراش غرام

ومشى على تاريخهم مستهزئا ... ولو استطاع مشى على الأهرام

وماذا بعد السكر ؟

بقى الغناء للكفر والشك فى وجود الله واعتبار الحياة شرودا ليس له هدف «جئت ولكنى لا أدرى من أين أتيت ، ولقد وجدت قدامى طريقا فمضيت» .

مضى إلى أين ؟ ليس يدرى ! إنه ملحد تائه ، ومغنى هذا السخف تمنحه الدولة لقب لواء ، ولقب دكتور ، ليجىء بعد ذلك كامل الشناوى فيغنى له فنان آخر «قدر أحمق الخطى . . .»

وتمضى رسالة الفن فى الطريق التى رسمها الغزو الثقافى لتجىء جماعة من الممثلين والممثلات تتهجم على العقائد والآداب !

إن للفنّ العالى رسالة أخلاقية عالية يقول فيها أبو تمام .

ولولا خلال سنَّها الشعر ما درى بُغاة العلا من أين تؤتى المكارم ؟

أما السكر والكفر وشتم القدر فأمل إسرائيل لسحق أمة ، وإماتة دين .

* * *

جهل أقبح من جهل

أزعجتنى جراءة الجهال على الإسلام ثم نجاتهم من عقبى التطاول !

كنا ونحن طلاب صغار نعرف أن أبا حنيفة مات سنة ١٥٠هـ ، وأن الشافعى ولد فى هذه السنة فكنا نردّد فى هذه السنة ولد إمام ومات إمام . .

ثم قرأنا لأستاذ جامعى أن الشافعى كان من عمال الدول الأموية التى سقطت سنة١٣٢هـ ! كان من عمالها وهو فى ضمير الغيب !!

وتتسع دائرة الجهل عند الأستاذ المسكين فيقول : إن عثمان بن عفان تعصب للقرآن القرشى ، وأخفى القرآنات المكتوبة بلهجات القبائل الأخرى !

وهذا التفكير فضيحة علمية يستحق عليها صاحبها التعزير ، فلم يعرف التاريخ إلا قرآنا واحدا كان العرب القادمون من اليمن يفهمونه وإن كانوا من جنوب الجزيرة وكان أهل المدينة ومن فوقهم ومن حولهم يفهمونه وإن جاءوا من شمال الجزيرة ، فما هذه اللهجات التى نزلت بها قرآنات أخرى؟

لابد أن الكاتب كان مخمورا حين ساق هذا اللغو . . .!

وجهله الثانى أقبح من جهله الأول لأنه يتصل بأساس الإسلام ومعْجزته الباقية ! والمأساة أن يتصدى الشيوعيون للإسلام يبغون الارتقاء بمهاجمته ، فإذا كشف القدر سوأة أحدهم تنادوا من كل مكان ليناصروا صاحبهم المخذول ، ويمنعوه أن يسقط . .!

إن القرآن هو الكتاب الفذّ الذى تأذّن الله بحفظه ، إنه الوحى المصون الذى حرسته التلاوة والكتابة المتواتران ، وأسلمته للأجيال ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فكيف يتجرأ عليه كوَيْفر مغرور يتعثر فى بديهيات التاريخ ثم يناطح الجبال الشمّ؟

كناطح صخرة يوما ليوهيها . . . فلم يضرْها وأوهى قرنه الوعل !

كنت أعرف أن هناك حملة أقلام لا إيمان لهم ، لكننى لم أكن أعرف أنهم يكرهون الله ورسوله على هذا النحو ! ثم كشفت الأيام أنهم متآمرون بليل ، فإذا ضبط أحدهم متلبسا بكفره تصايح الباقون يطلبون النجدة لإنقاذ حرية الرأى ، وحرية الرأى هنا هى حرية الخطأ والضلال ، والإسهام مع الصهيونية والصليبية فى ضرب الإسلام !

ولما كان الإسلام الآن يتعرض لهزائم عسكرية وسياسية مخوفة فإن هجوم أولئك الملاحدة يتزامن مع ساعات العسرة أو أوقات الحرج التى تكتنف تاريخنا المهاجَم فى جبهات شتى ؛ فلنتخذ الحيطة ولنضاعف الحذر .

هُــراء

نحن نحارب فى جبهتين ، جبهة الجاحدين للإسلام وجبهة الجاهلين به ، وكلتاهما شرٌ من الأخرى ، إننا نريد عرض الإسلام الصحيح دون زيادة فيه أو نقص منه إن الزيادة تعنى إضافات بشرية من البدع والخرافات ، والنقص يعنى حذف عناصر من حقيقة الوحى قد تعطل الأثر المنشود منه ، وتسلِّط الهوى على الهدى !

أيًّا ما كان الأمر فلن نتزحزح قيد أنملة عن هذا الموقف !

والتدين الفاسد لن يصلحه إلا التدين الصحيح وعلاج الإفراط والتفريط أن تعود إلى حدّ الاعتدال وللجاحدين أحيانا مسالك مزرية ، فقد يتطاولون على الهداة ويسلقونهم بألسنة حداد .

كان أبو نواس شريب خمر فلما نصحه أحد العلماء بتركها كان من إجابته .

فقل لمن يدعى فى العلم معرفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء !

وأبو نواس فى جهالته لم يذكر أن الله أباح الخمر ، أو أن القرآن لم يَرِدْ به تحريم لها كما زعم أحد القانونيين المحدثين الذين يصحّ فيهم قول القائل :

وكنت امرءا من جند إبليس مالرتقت بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ولعل الأعجب من هذا كلّه أن يُستدعى هؤلاء لعلاج الإرهاب والانحراف ! رأيت فى التلفاز صورا للرقص المفرد والمزدوج ، وهى صور يلعنها أهل العفة والاستقامة ، ولكن الممثلين والممثلات المشاركين فى تلك المهرجات الحيوانية جُنِّدوا فى حملة على الحجاب والحشمة ! على أساس أن المتبرجات صواحب أخلاق ، أما غيرهن من أرباب الجلابيب الطويلة فأهل سوء . .!

هل الإرهاب يحارب بالممثلين والممثلات ؟

متى كانت زعامة الإصلاح الاجتماعى تنبت فى هذه البيئة ؟

أين المفكرون والمربّون والعلماء ؟

إن الفتنة لا تطفأ بهذا المسلك ، إنها تزداد اشتعالا كما تعلو النار إذا صُبَّ عليها النفط .

إن الجماهير غضبت لدينها عندما تحدَّث هؤلاء الفنانون فى الدين وهم بأحكامه جهال ، ولا عجب ففاقد الشىء لا يعطيه .

ومن المضحك أن يستدعى فخامة «الولد سيد الشغال» ليحارب الإرهاب ويناصر رجال الشرطة فى مهمتهم الصعبة ...

إذا كانت ثقافة بعض المتدينين مغشوشة ، فالذى يصححها العلماء الراسخون لا الفنانون الهزليون .

ربما استطاع «شارلى شابلن» فى انجلترا أن يدفع الناس إلى الضحك بذكائه وحركاته .

فهل يلغى هذا الممثل دور الأدب والفلسفةوالدين والمؤسسات الكبرى فى حراسة الحق والخير ؟ ودعم رسالة الأمة ؟

* * *

سخرية واستعباد
متى نفيق؟!

عندما وضع الاستعمار الأوروبى يده على البلاد العربية لم يتريث فى توهين العقيدة وتعطيل الشريعة ووضع خطة وئيدة لضرب التراث كله وإحلال النزعة القومية محل الانتماء الدينى على نحو ما قال شاعر بعثى .

لا تسل عن ملّتى أو مذهبى　　　أنا بعثى اشتراكى عربى !

ذاك هو نصيب الإسلام من الولاء ! فهل وقف بنو إسرائيل من دينهم وتوراتهم وتلمودهم هذا الموقف ؟

كلا كلا لقد غالوا بأنفسهم وأمانيّهم وكلما ازداد العرب استهانة بالإسلام سال لعابهم إلى تحقيق إسرائيل الكبرى وليذهب السكان الأصليون إلى الجحيم .

وقد رسمت التوارة خطة الخلاص من هؤلاء السكان نثبتها هنا منقولة عن بحث علمى نزيه للزعيم السورى فارس الخورى - وهو مسيحى منصف يعتمد على العهد القديم فيما يقول - «إن تعاليم التوراة فى هذا المجال مبنية على القتل العام ومحو سكان البلاد المفتوحة سواء كانوا أسرى حرب أو مستسلمين صلحا - لا فرق بين رجل محارب مسلّح أو شيخ أعزل أو امرأة أو طفل . فالكل يذهبون طعام السيوف قال الرب «تمحو اسمهم مِن تحت السماء ، لا يقف إنسان فى وجهك حتى تفنيهم تدريجا لئلا تكثر عليك وحوش البريّة» !

ذاك فى المدن القريبة من إسرائيل أما المدن البعيدة فهناك نص آخر « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك وفتحت أبوابها لك فكل الشعب المولود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف .

وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، فهو غنيمتك تغتنمها لنفسك وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريما» ومعنى التحريم القتل العام ، أو حرب الإبادة . .

ويصرح اليهود بأن مصر ملك اليهود كما قرر التلمود ، وأن الأرض التى عاش فيها آباؤهم الأقدمون يجب أن تُسترد كلها . .

ومن حقى أن أسأل أين خطط السلام التى يعرضها اليهود على العرب ؟ وهم إن عصوا كتبهم ومنحوا غيرهم حق الحياة فلكى يكون عبدا مسخرا !

إن مجزرة مسجد الخليل إبراهيم نموذج للفتك المشروع ، وقد سبقت مجازر فى مدن أخرى وسيظل العرب طعام السيف حتى يعلموا أن لهم دينا فرطوا فيه فضاعوا .

* * *

... لا تنقصهم الوقاحة

تابعت وقائع الحفل الذى أقيم فى البيت الأبيض لعقد صلح بين العرب وبنى إسرائيل وسمعت الخطب التى ألقيت ..

كان «رابين» كبير اليهود شامخا مع باطله قريبا مع جبروته . ومع أنه واضع سياسة تكسير عظام المجاهدين حتى يموتوا داخل جلودهم ، فقد اعتذر عن ذلك بأن أيام الحرب غير أيام السلام ! وقد تلا نصوصا من التوراة عبَّر بها عن مراده وعن يهوديته معا ثم رأى أن يصلّى لله ، وأن يقول للحاضرين جميعا إنى داع فأمّنوا ، ودعا وأمن الحضور وهم قيام يصفقون معجبين للسياسى المؤمن الذى سحرهم !!

قلت فى نفسى هذا يوم مشهود من أيام اليهودية ! أما كان لنا كتاب نتلو من آياته كما فعل اليهود مع توراتهم ؟ أما كانت لنا ضراعة نتقدم بها إلى الله طالبين نحن الآخرين أن يؤمّن الحضور عليها ؟

إن النازى فى ألمانيا عذب اليهود فلماذا يدفع العرب ثمن هذا التعذيب ، إن هناك أربعة ملايين طريد عربى فلماذا يبقون هائمين على وجوههم ويُستجلب اليهود من المشارق والمغارب ليحتلوا دورهم ، مَنْ لأولئك المسْتضعَفين من الرجال والنساء والولدان ؟

أما يدعو أحد لهم ؟

أما يستثار الضمير الغربى ليخجل من أحوالهم ؟

يبدو أنه لا يليق بمسئول سياسى أن يتلو شيئا من القرآن ! ويبدو أن دعاء الله هو عمل أئمة المساجد وليس عمل رجال السياسة العرب !

ورجعت بى الذاكرة إلى عام ١٩٧٣ فى أوائل معركة العبور وكان نصرنا فيها مؤزرا وخذلان اليهود فاضحا عجيبا ، وأخذ المؤمنون يتحدثون عن آيات الله ، وخوارق العادات ، وإذا كبير العلمانيين فى مصر يقول مستنكرا : لا تردّوا إلى الغيوب ما فعلت الشعوب !

إن السماء لم تفعل شيئا ! ولم يبطئ العقاب الإلهى فكان ما كان . . ولكن المنطق العلمانى الكفور سكن فى أدمغة بعض الساسة فهم لا يذكرون الله فى القضايا التى يعالجونها ، ولا يستشيرون كتابه ولا سنة نبيه فى المواقف التى تفرض عليهم ولذلك تجىء مبتورة مشئومة .

إن قضية فلسطين خاصة قضية دينية واليهود يعالنون بهذا معالنة مكشوفة ، فما معنى إبعاد الإسلام عنها ؟

ولو كان للشيوعية أو العلمانية منطق فى شىء مّا لما كان لها منطق فى القدس أو غزة ! !

لكن العلمانيين العرب لا تنقصهم الوقاحة ، هم لا يعرفون صلاة ولا دعاء ، فهل يعرفون إدارة أو سياسة أو تثميرا أو تعميرا ؟ إنهم لا يعرفون إلا ما لقنهم الاستعمار من لغو . **«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا»**[1] .

---

(١) مريم : ٥٩ .

إشـــمئزاز

يرفض الإسلام الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، يكره وقوعها ويكره السكوت عليها إذا وقعت .

وأول مظاهر الخلل فى المجتمع أن يرى الناس الآثام فلا يكترثوا بها ولا ينهوا عنها ! ذلك أن بذرة العصيان حيث تقع فى البيئة السيئة تكتنفها نفايات وفضلات تنميها وتضاعف شرورها ولذلك يقول الله تعالى «**لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون**»[1] .

جرت هذه الخواطر فى نفسى وأنا أتابع الحوار الدائر بين الأمريكيين : هل يجوز قبول الشواذ فى الجيش أو لا يجوز ؟

إن القوم منقسمون انقساما كبيرا لأن الرئيس الجديد وعد الشواذ - فى حملته الانتخابية - أن يقبلهم فى الجيش !!

أما الجمهوريون والمحافظون فهم ضائقون بهم كارهون لانتظامهم فى السلك العسكرى . .

فالحق أنى شعرت بغضب حيث تصورت ضابطا شابا شاذا تؤدّى له التحية العسكرية ، ويعامل بالتجلّة والاحترام ويبدو أن الأمور فى طريقها إلى هذا المصير !

إن مجتمعات الغرب تجنى ما غرست ، والخط المنحرف يزداد طولا على مر الزمان !

لقد بدأت الكنيسة الإنجيلية فى لندن فأباحت الشذوذ ويسّرت لأعضاء مجلس العموم واللوردات أن يصدروا التشريعات بإباحته ، أكانوا بهذا المسلك سائرين على منهج العهد القديم ؟ أو الجديد ؟

كلا ، إنهم خالفوا دينهم ، وبدلا من محاربة الرذيلة تساهلوا معها وأقروها ، ولم يبالوا بالنتائج التى ستترتب على هذا الانحطاط . .

---

(١) المائدة : ٦٣ .

فما وقع فى لندن انتقل وانتشر فى أمريكا . .

ونحن نرقب الأمور بقلق ، فإن الاستعمار الثقافى اشتدت وطأته وتبجح أتباعه ، ويوجد بيننا الآن من يقلد الغربيين فى مباذلهم أكثر مما يقلدهم فى مزاياهم ويضاف إلى ذلك أن القوانين التى تحكم أقطارا شتى فى العالم العربى تستمد موادّها وفلسفتها من انجلترا وفرنسا وغيرهما ، ومع أن الدستور المصرى يقرر فى مطلعه أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى لكل القوانين ، فإن هناك بقايا تعالج ببطء ، ويحاول العلمانيون اعتراض العودة إلى الإسلام ووضع العوائق أمام تنفيذ الشريعة !

إننى أتمنى ألا يدخل الشواذ فى الجيش الأمريكى حتى لا يقول رجل مخدوش الشرف عندنا لنا أسوة !

إن المعصية استترت أو تبجحت قاذورة يجب البعد عنها وتحصين المجتمع منها وتأليب المشاعر ضدها .

* * *

الشرعية الدولية

هل كلمة الشرعية الدولية صادقة الدلالة نزيهة الغرض يهشّ لها المظلوم ويقلق منها الجائر ؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك ! لقد شعرت بذلك مرارا ، ولكن ربا شعورى أو زاد ضيقى عندما سمعت أمين الأمم المتحدة يقول للإسرائيليين : أعيدوا هؤلاء العرب الذين طردتموهم إلى فلسطين ، ولو إلى سجن أو معتقل . .!!

قلت : لماذا لم يقل الرجل المسئول أعيدوهم إلى أرضهم وأهليهم ؟

هل الحرية محرمّة عليهم . وهم لم يقترفوا ذنبا ؟

هل تُخلى منهم دورهم لنستقدم بدلهم مستوطنين من بولندا أو من روسيا ؟ هل هذه هى الشرعية الدولية ؟

أحــرام عــلى بــلابله الــدوح   حــلال للطير من كل جــنس ؟

لكن دولة إسرائيل - كما يعرف أهل الأرض - مولود غير شرعى وضعته هيئة الأمم من عشرات السنين ، وفّرت له ضمانات البقاء ، ووفرت لغيره ضمانات الفناء وذلك كله فى إطار الشرعية الدولية !!

ويظهر أن كرش هذه الشرعية يقبل الكثير فقد رأت السكوت على هلاك مئات وألوف من مسلمى البلقان ، وعلى فعل المناكر بنسائهم وعلى التطويح بمستقبل الأطفال والشيوخ هناك ، لأنه لا يجوز أن تقوم فى أوروبا دولة إسلامية !

أما فى القرن الإفريقى فقد رأت الشرعية الدولية أن تدرك أطفاله الجياع وأن ترسل الجيوش من دول شتى ، وأن تساعد الهيئات الإنسانية على أداء رسالتها النبيلة . . وودت لو صدقَتْ هذه الأغراض ! إننى أخاف أن يكون الاستحواذ على شرق القارة تأمينا لمستقبل الحملات التبشيرية الناشطة فى إفريقية السوداء عامة . .

إننى أستبعد الإخلاص والشرف على من قضى عمره صاحب هوى وغرض .! والفرصة لم تفت هيئة الأمم لتتوب من مسلكها الجائر ضد العروبة والإسلام ، تستطيع تحت لواء الشرعية الدولية أن تغيث المستضعفين فى قطاع غزة وفى الضفة الغربية للأردن ، فقد رضوا بالدون من العيش وقبلوا أن يعيشوا فى نصف أرضهم ، ولكن اليهود يأبون ، ويبدو أن ضمير الشرعية الدولية لا يزال يحابى الدولة اللقيطة ويسارع فى هواها على حساب العرب أجمعين !

نظرة للرياضة

انتهت دورة «برشلونة» الرياضية ، وشرع مندوبو ١٧٣ دولة يعودون إلى بلادهم فكيف عاد العرب من هذه الدورة المشهودة ؟ كانوا أقل الناس نجاحا وأبخسهم حظا إلا أفراد قلائل نالوا الأوسمة فلم يخفف ذلك من عبء المصاب !

قلت فى نفسى : حتى فى ميدان الرياضة البدنية نتخلف ويتقدم غيرنا ؟

يبدو أن للنَّفَس الواهن طبيعة تسرى فى كل مجال ، وتجرّ الهزائم هنا وهناك !

وتذكرت أن عشاق الرياضة عندنا يذهبون لحضور المباريات قبل الموعد بساعات طوال لا تؤدّى خلالها صلاة العصر وربما كانت المباريات فى رمضان فلا يصوم إلا النزر اليسير ، كأن الرياضة ضد التدين !

إن الألعاب الرياضية مران جميل على تقوية الأجسام وتحمل المتاعب وإصابة الأهداف ومنافسة الآخرين وتقوية العزائم ، وقد اختلفت أنواعها فى هذا العصر ، وكانت قديما لا تعدو الجرى والرمى والملاكمة والسباحة . . . وكان الاشتراك فيها حفاظا على الجسد حتى يبقى قديرا على الكفاح حمّالا لتكاليف الجهاد . ويذكر الرواة أن النبىّ عليه الصلاة والسلام مرَّ بفريقين يتباريان فسرَّه منظرهم - **وكانوا ينتضلون بالسهام - فقال : ارموا بنى اسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى الأدرع ! فأمسك القوم وقالوا : من كنت معه فأنَّى يُغلَب ؟**

فقال ارموا وأنا معكم كلكم ! فرموا عامة يومهم فلم يسبق أحدهم الآخر أى انتهت المباراة بالتعادل . .

ولا شك أن عددا كبيرا من الألعاب الشائعة مقبول وجميل الأثر وهو يدل على مبلغ ما أودع الله فى الأبدان من قدرة وسحر ومرونة واكتمال ، وقد كنت أرجو أن نلفت أنظار العالم ببطولات فذّة فى آفاق شتى ، لكن خيبتنا كانت ثقيلة ، مع كثرة ما ننفق فى هذه المجالات . . ويبدو أننا فى حاجة ماسّة إلى مراجعة سياستنا التربوية وسياستنا الرياضية على سواء .

ولفت نظرى فى مباريات «برشلونة» منظر تفردت به حضارتنا الحديثة وكان من أسوأ مباذلها ، منظر السباحة الراقصة على نغمات الموسيقى وتقلّب الأجساد العارية على سطح الماء ، والعيون المحملقة تجتاحها ظهرا لبطن !!

لماذا هذا السخف ؟ وما جدواه؟

إننا نستطيع أن ننقل آداب ديننا إلى الساحات المائجة بالشباب ، ولكن متى يسمع الناس منا ويصغون إلينا ؟ يوم نكون طلائع ظافرة فى الملاكمة والمصارعة وحمل الأثقال وقطع المسافات الطويلة والقصيرة ! والوثب على الخيل وتخطِّى العوائق ورمى الأقراص . . . إلخ .

إن الناس تستمع إلى المهرة وترى إشارتهم تقليداً يتّبع أما أن نذهب إلى المحافل الدولية فيرانا الناس قاصرين أو مقصرين فإن نظرتهم تقتحمنا بغير مبالاة ، إن خدمة الإسلام تحتاج إلى أساليب ذكية مادية وروحية فهل نرتفع إلى هذا المستوى ؟

إنه لا يحتاج إلى تفجير الذرة ! يحتاج لأن نكون بشرا عاديين .

* * *

إســـراف طـائش

فى إحصاء محزن قرأت أن الجماهير العربية أنفقت ٦٤ ألف مليون دولار على الخمور والمخدرات فى العام الماضى ، وأنا أعلم أن ثمن المعاصى فادح ولكننى ما تصورت أن يبلغ هذا الحدّ !

إن هذا المبلغ الضخم يحرر دولا استرقّتْها الديون وأذلت جانبها ، وينفق على يتامى العالم الإسلامى أجمع وينقذهم من غوائل التنصير ، بل إنه يسد ثغورا مادية وأدبية فى كياننا نحار كيف نحمى المسلمين من بلائها . .!

والخمور والمخدرات محظورة شرعا ومع ذلك يتهافت عليها الآثمون والضائعون ، ويعرضون حاضرهم ومستقبلهم للبوار .

ويمكن أن تضم التدخين إلى الخمور والمخدرات فتتضاعف مغارمنا فى ميادين العبث ، ونحقق أرباحا هائلة لشركات التبغ العملاقة على حساب ما يصيب عافيتنا من انحطاط . . .

وقد كثر المال فى أيدى المسلمين أخيرا بيد أن أساليبهم فى الإنفاق - حتى فى وجوه الحلال - تحتاج إلى مراجعة !

نظرت إلى جمهور العمال الذاهب إلى الخليج يلتمس الغنى ، فوجدت فى تصرفه ما يرضى وما يسخط ، لا بأس على من استفاد مالا أن يبنى لنفسه بيتا إن لم يكن له بيت أو كان له بيت من اللبن الهشّ ، ولا بأس أن يقتنى من الأثاث ما تحتاج إليه أسرته !

أما الإسراف الطائش فهو لونٌ من السفه والعصيان ، إننا نحن العرب دعمنا المصانع التى تنتج الكماليات ، وأعطيناها قوة مضاعفة . لأن شهوة الاقتناء عندنا لا يرد تطلعها شىء . .

ودخل لون من التكاثر المزعج إلى مطالب البيوت فأمسى العامل لا يستريح إلا إذا كان عنده آخر ما أنتجت مصانع الغرب من أدوات الترف ! !

كان التنافس قديما فى الكرم والتقوى وصار الآن يجرى فى ميادين أخرى . ولست هنا أتتبع ما يجوز وما لايجوز ، وتكفى القاعدة الدينية التى وضعها القرآن لعباد الرحمان « وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »[1] .

والقاعدة التى وضعتها السنة المطهرة «**كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة**» .

إنه من المحزن أن يتحول السرف إلى عادة لازمة عند الفقراء ، فكيف بالأغنياء ؟ وأن تكون الخيلاء أو طلب إعجاب الآخرين خلقا عاما فى السلوك العام ، ولا ريب أن تكاليف هذه المعيشة ثقيلة ، وقد رأيت أنها قبضت الأيدى عن الإنفاق فى وجوه الخير ، وقعدت بالسواد الأعظم عن تلبية مطالب الإسلام ! .

إن الإسلام رسالة تضبط كل شىء ، والمسلمون فى هذا العصر يواجهون أعداء لايرضيهم إلا اغتيال الدين وطمس آثاره ، والمال سلاح خطير ، والذين يبعثرونه فيما يجدى ومالا يجدى يهددِّون مستقبلنا . . ويؤسفنى القول بأن اليهود والنصارى أحرص على المال وأدقّ فى إنفاقه منا ، إن الشهوات الجامحة لا تقود إلى خير أبدا .

* * *

(١) الفرقان : ٦٧ .

أموال الأغنياء

أغلب علمائنا يرون أن الغنىَّ الشاكر أفضل عند الله من الفقير الصابر لأحاديث صحاح أفادت ذلك ! ولكن المحققين يرون أن تعميم الحكم فى ذلك خطأ ، وأنه عند التأمل لا يوجد غنىّ خال من المتاعب التى تستوجب الصبر كما لا يوجد فقير مجرد من النعماء التى توجب الشكر ، وللنيات التى يعرفها الله وحده دخل فى مصاير الفريقين ودرجاتهما .

وقد روى أثر أن عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْوًا لكثرة أمواله ، وهو أثر شاذ لا يجرح واحدا من العشرة المبشرين بالجنة . . !

فى كل دين نُسَّاكٌ يعيشون عيشة خشنة وفى كل دين موسرون يبذلون أموالهم بذل السماح ، ويجاهدون بها فى سبيل الله ، وكلا الفريقين يؤدى واجبه فى نطاق الآية الكريمة « لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا »[1] أن تقوم دولة على الفقر العام ، ولا أن يحيا مجتمع بأسره على الاستدانة ، وكما يستعين الفرد بالمال على صون مروءته وتربية أولاده تستعين الدول بالمال على أداء رسالتها ، وإعلاء رايتها ، وبناء الجيوش والمصانع ، ورد الطامعين والمعتدين . . .

أكان السابقون الأولون يستطيعون رَدْع الرومان فى تبوك إلا بأموال الأغنياء ؟ لقد جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وكان سواد الجيش بعد ذلك من أهل الفداء وإن قلّ مالهم . .! والأمة الإسلامية اليوم تنتشر على مساحات فيحاء فى آسيا وإفريقية ، ويوجد فيها الموسر والمعسر ! وليس فى دين الله ولا دنيا الناس أن تكون بين الفريقين جفوة فأين إذن أخوة الإسلام ؟ وأين إذن مشاعر الجسد الواحد ؟ الذى إن تألم بعضه تألم كله . .؟ فى القرن الإفريقى عامة وفى الحبشة خاصة تتابع الأزمات على السكان ، وينتشر الجفاف والضنك .

(١) الطلاق : ٧ .

وتوجد الآن ثمان وأربعون هيئة للإغاثة تعمل فى الحقيقة للتبشير وتقيم الملاجىء للفقراء واليتامى والأرامل ، وما يجرؤ أحد على إنكار وجودهم ولا اعتراض صنيعهم! فهو جهد إنسانى مقدور مهما كانت بواعثه والسؤال الذى يردُ بحق : أين أغنياء المسلمين ؟ وأين ماقدَّموا لاستنقاذ إخوانهم من هذه الأزمات السود ؟

إن المال سلاح خطير ، وقد ملكه الشيوعيون فى بعض الميادين فحولوا به المؤمنين إلى ملاحدة ! ثم رسموا سياسة ماكره لجعل المحتاجين إليهم يساندون مبادئهم ! ومسلمو روسيا - وهم ثلث السكان - لا يقدرون على الفكاك من مخالب الدب الكبير لأن حركة المال والإنتاج ليست بأيديهم !

بين يدىّ تقرير عن أحوال مسلمى الحبشة ، وهم ٦٥٪ من السكان - مع استبعاد ارتريا - رأيت فيه كيف أكل الفقر جمهورنا البائس وخفض رأسه أيام الامبراطور المتعصب «هيلا سلاسى» الذى أصر على نظام إقطاعى كالح كان المسلمون فيه يزرعون القمح ويأكلون الطين .. ثم هلك الامبراطور الحقود ، وحل بعده نظام شيوعى كان أَحْنى على الكثرة المسحوقة من حكم الكهنة ، ولكنه نظام يستبعد الأديان كلها!

ومسلمو شرق أفريقية على الإجمال يفترسهم الفقر ، وتسترقّهم الإعانات الأجنبية ، والمطلوب من أغنياء المسلمين فى كل مكان أن يسارعوا إلى نجدة إخوانهم واستبقاء إيمانهم ...

إن أصحاب الثروات الكبيرة الذين يبحثون عن اللذة ويطيرون إليها حيث كانت يقترفون جرائم هائلة ، وسوف يعاقبون مرتين : أولاهما على سفه الإنفاق ، والأخرى على إضاعة إخوانهم الفقراء ، وتركهم يواجهون فتنا كقطع الليل المظلم لا يستطيعون منها النجاة ، ولنتدبر هذه الدعوة التى يرسلها مسلم بائس : اللهم لا تجعل لفاجر نعمة علىّ فيميل إليه قلبى ..!!

إن المال الإسلامى يجب أن يكون أسبق إلى فقراء المسلمين ...!!

* * *

القيمة الإنسانية

يعرف المشتغلون بالثقافة الإسلامية أن شرائع الحدود والقصاص فروع من أصل قائم وركن جامع وأنها إذا انقطعت عن أصلها الذى انبعثت عنه أو ركنها الذى نهضت عليه أشبهت أطراف الجسم إذا انفصلت منه لسبب أو لآخر ، إنها لا تساوى شيئا ، ولو أن دولة فى شرق أوروبا أو غربها تبنت العقوبات الإسلامية - لأمرما - ما اعتنقت بذلك الإسلام ما دامت باقية على عقيدتها أو فلسفتها !! .

إن ارتباط الشريعة بالعقيدة لا يمكن فكّه ولا التهوين منه ، ولذلك فإن إدارة أى حوار حول التشريعات الفرعية يكون ضرباً من اللغو إذا لم نجب بحسم على الأسئلة الآتية : هل الألوهية حق ؟

هل لله وحى ملزم ؟

هل الإنسان حرّ فى تجاوز مراد الله ؟

إن الذى يجهل أين جاء ؟ ولماذا خلق ؟ لا معنى للحديث معه فى صلاة أو صيام . . .

ومع ذلك فسأترك الحديث عن الإيمان وما يرتبط به من أنظمة خلقية خطرة وتقاليد اجتماعية بعيدة الأثر وسأشارك فى أى حوار يقترح حول القيمة الإنسانية لأى تشريع فرعى أو أى حكم فقهى ، يكون معلوماً من الإسلام بالضرورة ، بيد أن من حق الباحث المسلم أن يتساءل :

هل هذا الحوار حرّ حقا ؟

هل سيكون ختاماً لسياسة العصا الغليظة التى استخدمت عشرات السنين ، وأصابت الفكر الإسلامى بعاهات مستديمة ؟

إننى مستعد للنسيان وبدء صفحة جديدة أساسها الإقناع الحرّ ، إننى أومن بالحرية إلى أبعد مدى ، وعندما أعجز فى ظلها عن بلوغ هدفى أعلن انسحابى من الحياة العامة .

إن الإيمان ليس فقيرا فى أدلته وحقائقه حتى يخاف الحوار ! لكنى أوجِّه سؤالا له ما بعده .

هل الديمقراطية أن يحكم الشعب نفسه بنفسه إلا أن يكون مسلما فإنه يجب أن يحكمه غيره بقوانينه وتعاليمه المستوردة ؟ !

وسؤال آخر يخرج من المنبع نفسه : هل القلة تنزل عن رأيها وتتبع الكثرة فى جميع البلاد الحرة إلا أن يحدث ذلك فى الأقطار العربية والإسلامية فإن للقلة أن تفرض نفسها بالقهر الإعلامى ، والسلطات المفروضة ، ثم تبلغ الجراءة حدها الأقصى فيقال : إن ذلك تم باسم الشعب ؟ !

مرحبا بالحوار فى ظل الصدق ، والنزاهة ، وكرامة الأفراد والجماعات .

* * *

الأخلاق والعبادات

تساءل الأستاذ الكبير الدكتور «محمود محمد سفر» : هل حقا تسبق الأخلاق العبادات فى الإسلام كما يفهم من كلامى ؟ وطالبنى بمزيد من الشرح والتوضيح لهذه المقولة . .

وأجيب بأن اللبس قديزول إذا ظهر أنى قسمت الأخلاق قسمين ، أخلاقا ربانية جوهرها علاقة المرء بربه كما تحددت فى كتاب الله وسنة رسوله وأخلاقا إنسانية عامة يعرفها طلاب الكمال من جميع الأجناس والملل .

فأما الأولى فهى خشية الله والرجاء فيه ومحبته والتوكل عليه ، والاستمداد منه والتوبة إليه ، وقد شرحت ذلك كله فى كتابى «الجانب العاطفىّ من الإسلام» .

وأما الثانية فهى الفضائل الضابطة للسلوك البشرى من صدق وأمانة ورفق وحياء وشرف ووفاء . . .إلخ .

والإسلام يقيم صروح هذه الأخلاق جميعا ، وينظر إلى المتجرِّد من هذه وتلك على أنه امرؤ لا خير فيه ، فإذا فقد الإخلاص مثلا وكان عمله للرياء والسمعة فإن عباداته تطيش ويمسى حطبا لجهنم ويكون أول من تُسعَّر بهم النار ، ما نفعه علم ولاعطاء ولا جهاد . .!

وإذا فقد الصدق مثلا - وهو من الأخلاق العامة - تدرج به الكذب من درك إلى درك «**ولايزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» . .

أحسبنى مصيبا إذا قلت : إن العبادات إذا فقدت الأخلاق رفضت ، فالمصلى الذى يقرأ بلا وعى ، ويقوم بلا خشوع والمجاهد الذى قاتل الروس بشجاعة ، فلما هزمهم قاتل إخوانه الذين يحولون بينه وبين الرياسة ، هؤلاء جميعا يفقدون الأخلاق الربانية ، فلا خير فيهم . .

والمتعاملون فى الأسواق الذين لا تربطهم كلمة ، ولا وفاء لهم بوعد ولا عهد ولاعقد ، هم كما عبرت السنة منافقون !

إن الله سبحانه بشر بجنته الخاشعين فى صلاتهم « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[1] ووعد الصادقين - ووعده الحق - بالنعيم الخالد « هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ »[2] أى أنه نظر إلى الأخلاق المقارنة للعبادات ثم تقبلها ، على أن النتيجة قد تتحول هى الأخرى إلى سبب ، فالذى واظب على صلواته استجابة لأمر الله ستجعله صلاته بعيدا عن الفحشاء والمنكر ، أى ستجعله صلاته يكتسب أخلاقا أرقى وهكذا . .

والمسلمون اليوم مصابون فى أخلاقهم على الإجمال ، مما جعلهم متخلفين فى كل سباق إنسانى يقوم على ظهر الأرض !!

والخطب سهل فى هذه التقسيمات الفنية ، فنحن متفقون على أن الدين يشمل الأخلاق والعبادات معا ، ولن يضرنا تقديم أحد المتعاطفين على الآخر ، تستطيع أن تقول الماء يتكون من «أوكسجين» و «أيدروجين» ، أو من «أيدروجين» و «أوكسجين» !! ويمكن التساهل فى العبارات لكن لا يمكن أن نقبل فى ديننا إنسانا تنظر فى قلبه فلا تراه يخاف الله أبدا ، أو تنظر فى عمله فترى مسالك الكفار أفضل منه ، وعلى من يغار على دينه أن يعلن حربا على هذه الأوضاع حتى يغيرّ الله ما بنا .

وأخيرا فللدكتور سفر أطيب تحية وأعمق المحبة .

* * *

(1) المؤمنون : 1 ، 2 .

(2) المائدة : 119 .

فى القناعة..غنى

فكرت ملياً فى مصائب الأسرة المالكة فى انجلترا ، والمعاناة التى جعلت الملكة تقول : إن العام الأخير كان من أسوأ ما مرّ بها طول حياتها ، إن احتراق قصرها العتيق وما حوى من آثار أهون فى نظرى من تقطّع العلاقات بين أولادها وأزواجهم وانتشار الوحشة فى بيوتهم جميعا ، هل أغنى المال الكثير ؟

هل أجدى الجاه العريض ؟ لم يحقق السعادة شيء من هذا كله !!

أعرف رجلا فقيرا يعيش مع زوجته فى غرفة واحدة كان يخرج من بيته إلى عمله بادى الراحة مستريح البال !

قلت له : كيف أمسيْت البارحة وكيف أصبحت اليوم ؟

قال : أويت إلى الفراش مجهودا من كدح النهار فقرأت الدعاء المأثور «**باسمك ربى وضعتُ جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمْها . وإن أرسلْتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» فضمنت بهذا الدعاء الدنيا إن بَقيتُ والآخرة إن تُوفيتُ ، ثم أغمضت عينى إلى الفجر ، فلما استيقظت قلت «**الحمد لله الذى ردّ إلىّ روحى ، وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره**» وهأنذا استفتح يومى بالذهاب إلى عملى على بركة الله . .

إن الإيمان نجح فى تحقيق السعادة ، كما لم ينجح الثراء والملك !

لست من دعاة الفقر ، فإن نبينا - عليه الصلاة والسلام استعاذ منه ، وإنما أنوّه بالغنى الروحى ، وقيمة الصلة الحسنة بالله . .!

وأذكر أن علماءنا بحثوا قضية طريفة : هل الأفضل عند الله الفقير الصابر أم الغنىّ الشاكر ، ومع أن الكثرة اتجهت إلى تفضيل الأخير إلا أن للمحققين رأيا آخر ، فقد قالوا : ليس يخلو بشر من نعمة تستحق الشكر ، ومحنة تتطلب الصبر ، ولو فتّش كل امرئ فى حياته لو جد فيها ما يثير الرضا ، وما يثير الألم ، وعليه أن يجمع بين

الفضيلتين ليكون ممن قال الله فيهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »[1] يشكر على العطاء ويصبر على الحرمان ولا أنكر أن هناك من تتصل متاعبهم فى هذه الحياة ، وأن هناك من تترادف نعماؤهم !! بيد أن الآخرة تجيء لتصحيح هذا كله .

وفى الحديث أنه يجاء بذى نعمة جحود ، فيغمس فى النار لحظة ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ فيقول : لا . . لقد أنساه هول لحظة ما ذاق فى دنياه من لذات . . .

وطبيعة عصرنا الإعراض عن هذه الآثار أو الضحك منها لأنه عصر الإيمان باليوم الحاضر لا باليوم الآخر . .

إن الجرى المسعور وراء اللذة طبيعة الناس فى دنيانا هذه ، فهل فرضنا إرادتنا على القدر ؟

أم أنزلنا القدر على حكمه ؟

هذه الأسرة المالكة فى انجلترا تبحث عن السعادة والستر بعدما نشرت الصحف صورة عارية لفتاة منها !! ما أحرانا بشكر الله على أن جنبنا هذه الآلام ، هل صدقت أن الفقر حشمة ؟ إنه حشمة لهؤلاء الماجنات . . . .

* * *

(١) سبأ : ١٩ .

حوار مع كاره للإسلام

قال : أنا أكره الإسلام السياسى وأضيق بأتباعه وأرى أن وراء صياحهم مآرب أخرى!

قلت : إن اصطلاح «الإسلام السياسى» جديد على أسماعنا ! فهل تعنى أنك تتبع الإسلام فى ميادين الأخلاق والعبادات والتقاليد وجملة الشرائع «الداخلية» التى يقوم عليها ؟وتكره توجيهات الإسلام فى المجالات العالمية والتوجيهات السياسية الأخرى ؟

قال مراوغا : ربما . . .

قلت : فما أعلمه من حياتك أنك ما رُئيتَ قطّ مصليا ولا دخلت يوما مسجدا . .!

قال : لقد صلّى هؤلاء السياسيون ثم قتلوا السائحين ، فلتسقط هذه الصلاة ! !

قلت : صل معنا وحافظ على حياة أولئك السائحين ولا تترك الصلوات ! أأنت مؤمن بالله حقا ؟

قال : إنهم آمنوا به وكفروا بالشعوب وأكلوا حقوقها أما نحن فآزرنا الشعوب ووقفنا إلى جانبها فليسقط هذا الإيمان !

قلت : دعك من الكذب إننا أول من حارب المظالم الاجتماعية ، ونادى بحق الشعوب فى الحياة الكريمة العزيزة ، وقد صدرت لنا عدة كتب من نصف قرن تجعل الدين ظهرا للمغبونين وتتلوا الآية الكريمة « وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ »[1] فأين كنتم ؟ كنتم تشيعون الإلحاد وتحسبون العدالة الاجتماعية تجىء من موسكو وحدها وتظنون أن أى فلسفة أرضية تغنى عن وحى الله ، كنتم تضيعون الصلاة وتبغون الشهوات ، وما زلتم على سيرتكم !

إن كراهية الإسلام السياسى غطاء جديد لكراهية الإسلام كله ، والعمل الماكر لمحوه من التعليم والتربية والمجتمع والدولة ، ونحن فى مصر بذلنا جهودا متتابعة لجعل

(١) القصص : ٥ .

الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للقانون كله ، وقد جعلنا ذلك فى صلب الدستور ، وعلمنا أن ما فسد فى سنين لا يصلح فى أيام معدودات فتربصنا مع الزمن لتسود الشريعة كل شىء فلا يبقى قانون مضاد لهدايات الله وتعاليم المرسلين . . ولكنكم جثمتم فى مخابئكم كارهين لله ورُسُله ، تزعمون أن لا إله والحياة مادة وتحاربون كل حركة إسلامية بخبث وضغينة ! تحت عنوان محاربة الإسلام السياسى!

نحن نعرف أن هناك إسلاميين ينقصهم الفقة ، وتشينهم مسالك حمقاء ، ونحن نحارب فهْم هؤلاء المعوج ، ونضيق بهم أكثر مما تضيقون ، فلماذا تخلطون بين الإسلام وبين من أساءوا إليه . .؟ وتستغلون الفرصة لضرب الإسلام فى صميمه تحت عنوان كراهية الإسلام السياسى ؟ إن كنتم مسلمين حقا فاحملوا الراية ونحن نصلى وراءكم ، ولعنة الله على أصحاب النيّات المغشوشة !

إننى أكره الكفر بالله ، وأكره من يُبغّضون الله إلى عباده ، وأكره من يصدّون عن سبيله وأعلن أن الشيوعية الجديدة لن يكون لها بيننا مكان .

* * *

الفنانات التائبات

يقول الله لنبيه « فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ »[1] فمكانة النبوة الاستجابة لأمر الله ، أما ما عدا الرسول فهو يقلع عن ذنبه ويعود إلى ربه ويستقيم على دربه ، نحن البشر جميعا خطاءون وخير الخطائين التوابون !

ومن أشهر التوبات توبة «أبى نواس» الذى غام شبابه بسوء كثير ، ثم استيقظ فجأة واصطلح مع ربه وقال :

وما المرء إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق . . .

إذا عرف الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق . . .

ومن أشهر التوبات كذلك توبة «رابعة العدوية» التى صحت من غفلتها وناجت ربها بقول الشاعر

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك تصفو والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب !!

وقد استقبل الناس هذا المتاب بتقدير واحترام ، ولم يحاول أحد خدشه أو الريبة فيه ولذلك استغربت الحملة على الفنانات التائبات ومحاولة التهوين من شأنها والتشكيك فى أسبابها ، والعدوان على أصحابها !! لم ذلك ؟

وبلغ السخف حدّ اتهامهم بأنهم تابوا لأسباب مادية ، ثم زعموا أن فلانة عرضت عليها مبالغ طائلة لتتوب فأبت . . .!! وأن فلانة عرض عليها مائة وخمسون ألف جنيه شهريا لترتدى الحجاب فرفضت بشمم . . !

والقصد من وراء هذا كله اتهام الفنانات المحجبات بأنهن ما تحجبن وتركن حياتهن الأولى إلا جريا وراء المال ! وهذا كله لون من الإسفاف ما كان يَنبغى أن يقع . .

(١) هود : ١١٢ .

ولفت نظرى أن سيدة تجاوزت الستين من عمرها وهى تزحف نحو السبعين قالت إنها رفضت الحجاب . والمال المعروض معه !

من هذا العارض ؟ لا أحسب هذا الكلام إلا من خرف الشيخوخة ، ولا أحسب الغرض منه إلا تجريح الأشراف التائبات . .

وأحبّ أن تعلم هذه السيدة أن الشارع لم يلزمها بالحجاب الذى يلزم به الشوابّ قال تعالى «**والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة** . . .»[1] فقد تُتْرَكُ المرأة العجوز كاشفة شعرها ، أومتخفِّفة من بعض ثيابها ، أما الشابة فأولى بها التصوّن والاحتشام !

أطلب من أصحاب الأقلام الجريئة وقف الحملة على الفنانات المحجبات التائبات فذاك أشرف لهم ، أما اللاتى مسّهن رشاش هذا النزق فمعذرة ولهن الله .

* * *

(١) النور : ٦٠ .

دائرة الغش !

لا يجوز أن تمرّ بنا المصائب دون استفادة واعتبار ، والزلزال الذى ضرب مصر أخيرا تكشف عن أخطاء اقترفها أصحابها وضمائرهم غافية لا صاحية أو قل ميتة لاحية . . .!! فإن عددا من المدارس الحديثة انهار على عجل ودفن تحت أنقاضه أبناء لنا أعزة كانوا يتلقّون العلم فى سكينة وأمل . .

لماذا تهدّمت هذه المدارس بينما صَمَدَتْ أخرى قديمة وتحملت الهزات الأرضية ؟ ظاهر أن الغش فى طريقة البناء وموادّه من وراء هذا البلاء ، وأن أطماعا خسيسة طغت على أصحابها ففعلوا ما فعلوا دون حذر أو بصر !!

وفى الحديث الشريف «**ليس منا من غشّ**» وفى رواية أخرى «**من غشنا فليس منا ، والمكر والخديعة والخيانة فى النار**» نعم فهذه الرذائل من وراء نكبات نفسية واجتماعية هائلة ، ونحن نفهم الغش فى أدنى صوره ، نحسبه وضع الثمار الأحلى فوق الثمار الأدنى ، أو بيع المعطوب تحت السليم !

وهذا لا ريب غش ولكنه دون الغش فى الامتحانات مثلا فإن العبث فى الاختبارات ينشئ أخطارا كبيرة على مستقبل البلاد وحاضرها ، لأنه إجازة بالطب لمن لا يحسن العلاج وبالدراسة لمن قلّت معارفه ، وبالهندسة لمن يعجز عن وضع الأمور فى مواضعها ، وهيهات أن تقوم أمة بهذا العوج !

ومن الغش المقبوح إعطاء تصريح ببناء عمارة شامخة مع أن المرافق الموجودة بالحى لا تتحملها ، فلا أنابيب المياه تكفى ولا أنابيب الصرف الصحى تتسع ومعنى ذلك أن تنفجر هذه الأنابيب وتشيع الفوضى والأقذاء هنا وهناك . . .

إن التعامل الشريف الصريح أساس المجتمع المؤمن ، ويروى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « **المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحَة وادّون – أى متوادّون – وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفجرة بعضهم لبعض غَشَشَة مُتَخاوِنُونَ – أى غاشون خونة وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم** » .

ولننظر إلى هذه الحكاية المروية عن أحد الصحابة وقد بيعت من بيته ناقة . قال المشترى : فلما خرجت بها أدركنى الصحابى فى الطريق وهو مسرع ، قائلا اشتريت؟ قلت نعم ! قال أبين لك ما فيها ! قلت وما فيها ، إنها لسمينة ظاهرة الصحة ؟ قال الصحابى : أردت بها سفرا ، أو أردت بها لحما ؟ قال أردت أن أحج عليها قال الصحابى : فارتجعها ، يعنى أنها لا تصلح لما تريد بها من سفر . قال المشترى أنا راض بها فقال الصحابى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لا يحل لأحد بيع شيئا إلا بيَّن ما فيه ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا بيّنه**» .

إن الأمم تقوم على الصدق والمصارحة وإحسان العمل وإخلاص النية ، أما ما يتم فى الظلام فهو بغيض إلى الله مشئوم المستقبل

السِّتــر دون الفاحشــات وما ... يلقــاك دون الخيــر من ستــر !

وما يرتكب فى الخفاء من غش لا يلبث طويلا حتى يفتضح وإن ربك لبالمرصاد .

* * *

إكـــبار

نظرت إلى الشجرة الباسقة عن بعد ، والريح تعصف من حولها ؛ وكنت أفكر فى عظمة الله البادية فى الأنفس والآفاق ، فرأيت غصنا مورقا فى ذوائبها ، تعلو به الريح فينتصب قائما ، ثم تتركه فيهوى ساجدا ، خُيِّل إلىّ أنه يصلىٍّ !

ليكن من أمره ما يكون ، إن الشجرة كلها ؛ وظلالها من تحتها تندرج فى قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ » ؟[1]

إن الذى عنانى ليس هذه الشجرة ، إن الذى استوقفنى هو الريح المتحركة حولى وحولها ، ما هى ؟ تيار من الهواء يندفع بقوة أو لِين هنا وهناك ! فما هذا الهواء ؟ وما علاقتى به ؟

يقولون : إن الغلاف الهوائى يحيط بأرضنا عشرات الأميال ثم ينتهى ويتلاشى ، إنه خلق لنتنفّس فيه ، وحياتنا تتصل من الشهيق والزفير المتواصلين يمدان أجسامنا بما يجدد الدماء وينشط الأعضاء . .

على أننا لسنا وحدنا الذين نعيش به ، هناك أمم من الدوابّ والطيور والحشرات تشاركنا العيش على ظهر الأرض ، والتنفس فى هذا الهواء وسمعت أمس درسا فى عالم الحيوان يقول : إن الطيور تصطاف فى أوروبا ، وتشتوفى إفريقية ، وإنها فى رحلتها ذاهبة آيبة قد تعتمد على الطيران الانسيابى وتيار الهواء من تحتها ، فتضم أجنحتها وتنطلق . كما يقع أحيانا للسباحين الذين يتخذون بين الأمواج وضعا معينا ، ثم يتركون التيّارات البحرية تتقاذفهم !

قلت لنفسى : أين يذهب الهواء الخارج من صدرى ؟ كم صدرا يدخله بعدى ؟ وبعد تردُّده فى عشرات أو مئات الصدور أين يستقر ؟ إن الرياح تسافر به مسافات شاسعة !

رُبّ نَفَس أُرسله غير مكترث به يتجه غربا مع تيارات الريح فيتجاوز الصحراء الكبرى إلى المحيط الأطلسى ؛ وأنا فى وادى النيل ، أو يتجه شرقا إلى جزيرة العرب

---

(١) النحل : ٤٨ .

ثم أعماق الهندى والهادى ، إننا نسمع فى النشرات الجوية حديثا موصولا عن تحركات الرياح فى كل اتجاه . . .

وسألت نفسى مرة أخرى : هل أنا أهيم فى أودية الخيال ؟ مع جمهور الشعراء ؟ وكان الجواب : أننى مرتبط بحقائق الأشياء لا أعدوها ، وتذكرت أن القرآن الكريم أقسم بالرياح ووظائفها فى غير موضع « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ . . »[1] والجمل الأخيرة تشير إلى أن الهواء هو الوسيط الذى يحمل الأصوات ، وأنه عندما ينقل الوحى إلى الناس فهو عذير أو نذير !!

ما أعجب هذا الهواء الذى يهب عنيفا فيدمّر أو خفيفا فيلطّف .

وقد نبه القرآن مرّة أخرى إلى وظائف هذا الهواء « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ . . »[2] إن الذرّات التى تبعثرها الريح لا حصر لها ، وهناك السحب التى تحملها فنراها مختلفة الشكل حافلة بالخير ، أو ملّوحة به لتبعث الأمل . . « اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »[3] كم فى الهواء من آيات تدعو إلى التأمل .

وعدت إلى نفسى أتأمل فى الأنفاس الداخلة والخارجة : من يحصيها ؟ ومن يتابعها ؟ والأحياء على الأرض جماهير لا تحصى ! وكان الجواب وما شأنك أنت وهذا ؟ يحصيها ويتابعها من قال عن نفسه « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ »[4] يشرف عليها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

إن ذلك كله يتم وفق نظام مقدور وكتاب مسطور ، ولذلك قال العلماء : . . . شئون يُبديها ولا يبتديها ، إن لُبابها عنده ، وظواهرها لدينا ، وعلينا التدبر والاعتبار ؛ والتمجيد والإكبار .

---

(١) المرسلات : ١ - ٧ .
(٢) الذاريات : ١ - ٦ .
(٣) الروم : ٤٨ .
(٤) الرحمن : ٢٩ .

استنزاف القوى

كان اليهود ومَنْ وراءهم يرون أن تكون قوة إسرائيل معادلة لقوى العرب أجمعين ، أى قوى عشرين دولة أخرى !! وذلك لضمان بقائها على تغير الأحداث . . ولكن هذا التفوق الساحق أخذ طابعا أقسى عندما تقرر أن تكون إسرائيل وحدها هى المالكة للقنبلة الذرية فى المنطقة كلها !!

إن ذلك لا يعنى التقدم اليهودى فقط ، بل فرض صَغار أبدىٍّ على العرب ؛ يجعل أرضهم ورسالتهم ومستقبلهم تحت أقدام الصهيونية العالمية ، ويجعل إسرائيل الكبرى قضاء مبرما لا فرار منه . . .

يقول «موشى دايان» أمام الغرفة التجارية الإسرائيلية الأمريكية : على إسرائيل أن تؤمِّن نفسها بامتلاك السلاح النووى ، وأن تنتج وحدها صواريخ أرض - أرض بعيدة المدى ، إننا نملك الآن القدرة على تفجير الذرة ، وذاك لابد منه لدولة صغيرة (!) ولنعلم أن الولايات المتحدة ليست شرطىّ العالم الذى يُستنجد به ، فلنعتمد على أنفسنا وحدها .

وقال - أيضا - : على إسرائيل امتلاك الخيار الذرى حتى يعرف العرب أننا نستطيع تدميرهم إذا نشأ وضع أحسسنا معه أن دولتنا معرضة للخطر ، وفى لقاء لشارون مع الشيخ الأمريكى «جون جلين» والسفير الأمريكى «صموئيل لويس» سنة ١٩٨٢ قال «شارون» : إذا أقيم مفاعل نووى جديد فى العراق فسوف نهاجمه وندمره ، ولن نسمح بوجود سلاح ذرى لدى جيراننا العرب ، ولن ننتظر هذه المرة حتى يصبح المفاعل النووى العربى فى وضعه الساخن .

ثم قال : لقد رسمت إسرائيل خطا أحمر للأسلحة التى تسمح للعرب بحيازتها ! هذا أمننا ، ولن نسمح لأى بلد عربى أن يعكره بامتلاك القنبلة الذرية . .!!

إن اليهود - انبعاثا من عقيدة توارثية راسخة - ماضون فى إقامة إسرائيل الكبرى بالسلاح الذى يفنى العرب كلهم إذا اقتضى الأمر ، ولست متجافيا عن الحق إذا قلت : إننى وسائر المسلمين نؤثر الموت المجهز على ترك إسرائيل تفعل ذلك ، ونحن نرفض هذا المصير ، وليكن ما يكون . .

لقد نجح العراق فى بناء مفاعل نووى من عشر سنين ، ثم استطاعت إسرائيل تحطيمه فى غارة جوية ضحك العالم بعد وقوعها ، ولم يصنع شيئا !

وكان بين العراق وبين صنع قنبلة جديدة عام ونصف كما يقول المحققون ، ولكن حرب الخليج أجهزت على هذا السلاح قبل اكتماله !!

ولست آسى على شىء كما آسى لما يصنع العرب بأنفسهم ، إنهم ينتحرون قبل أن يشتبك العدو معهم ! من قال من أهل الأرض : إن اليمن هى الطريق إلى القدس حتى يُرسل الجيش المصرى إليها ليفقد خيرة قواته ؟ فإذا وقعت حرب سنة ١٩٦٧ انهزمنا فى ست ساعات ، وضاعفنا مساحة إسرائيل ثلاث مرات !!

إن مؤتمر السلام الحالى هو معالجة يائسة لآثار هذه الهزيمة المخزية !

ومن قال : إن الكويت هى الطريق إلى القدس حتى يُستدرج الجيش العراقى إلى غزوها والفناء فيها ، ثم ترْكِ تقدُّمه الذرى نهبا فى أيدى الحلفاء !!

إننى أتحدث وقلبى ينفطر وعلى لسانى قول الشاعر القديم :

كفى حزنا ألاّ أزال أرى القنا ... تمجّ نجيعا من ذراعى ومن عضدى

وإنى وإن عاديتهم . . وجفوتهم ... لتألم مما عضّ أكبادَهم كبدى !!

إن العرب يستطيعون أن يفعلوا الكثير ، وأن يمحوا الغرور اليهودىّ ، وأن يؤمِّنوا المسجد الأقصى ، وأن يغيثوا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ الذين أكلهم الذل داخل سجون إسرائيل ، إنهم يستطيعون ذلك يوم يغيرون خططهم القديمة ، ويفتحون صدورهم لمبادئ الإسلام وتوجيهاته ، ويستهدون بالله فى حربهم وسلامهم . .

ماذا يصنع العرب الآن ؟ يقولون لليهود نترك لكم ما أخذتم سنة ١٩٤٨ ، وتردون لنا ما أخذتم سنة ١٩٦٧ ، ويجيب اليهود لا ، لن نترك من «أرضنا» شيئا !!

إن تفاوضنا يدور مع اليهود على هذا المحور إن دل على شىء فعلى أن العرب منهزمون نفسيا ، وأنهم يجهلون طبيعة المعركة القائمة ، وأنهم لا ينبعثون عن صلة بالله الذى اصطفاهم لرسالته ، واختار لهم الإسلام دينا .

مؤتمر السكان

ينعقد فى القاهرة مؤتمر عالمانى ضخم يزيد المشتركون فيه على عشرين ألف شخص جاء أغلبهم من أوروبا وأمريكا كى يبحثوا فى قضايا السكان والتنمية .

والمؤتمر من أنشطة الأمم المتحدة . وقد قرأت مذكرة تزيد على ٢٠٠ صفحة أعدتها الأمانة العامة للمؤتمر عن برنامج عمله . ومع أن الكلام فى المذكرة عن الناس كلهم - أنا وأنت وهو- فإنه لم يعرج على الدين من قريب أو بعيد ، ما ذكر اسم الله أو الوحى أو الحلال والحرام أو الضمير وحساب الآخرة ، كأن الله بعد أن خلق البشر نفض يديه من شئونهم فلا أمر ولا نهى ولا وعد ولا وعيد ، وهذا التجاهل للتوجيه الإلهى لا يتناول الإسلام وحده ، بل الأديان السماوية والأرضية كلها ! وعلينا نحن المسلمين عندما نشارك فى هذا المؤتمر أن ننسى تراثنا الثقافى كله وأن نتبع الخط العقلىّ لبعض الناس الذين يستوحون غرائزهم ويحتكمون إلى أهوائهم ولايحترمون قال الله . وقال الرسول .

لقد كان الفقيه المسلم قادرا على إصلاح عوج كثير فى الحياة العامة لكن ماذا أصنع إذا جاء دعىٌّ فى العلاقات الإنسانية ثم شرع يصوغ مقترحاته الإصلاحية فى هذه العبارات ص٢٧ : «إن من الأساسىّ تحسين الاتصال بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بقضايا الجنس والحياة الجنسية والصحة التناسلية وتحسين فهم كل منهما للمسئوليات المشتركة بينهما» وقبل ذلك يقول : «يلزم بذل جهود خاصة فى مجال التعليم والإعلام للتشجيع على معاملة البنات والأولاد على قدم المساواة فيا يتعلق بالتغذية والرعاية الصحية وحقوق الميراث . . » ! !

ما هذا الخلط ؟ ولمن يقال هذا الكلام ؟

إن الإسلام شرع حقوق الزوجين والأولاد فى عبارات أشرف وأذكى وأعدل . ولكن عشرين ألف شخص يجيئون إلى القاهرة لنستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ! وليرشدوا الذكور والإناث إلى أيسر وسائل منع الحمل !

ما معنى هذا القول الوارد فى ص٤٣ «ينبغى أن تكون برامج الرعاية الصحية والتناسلية والجنسية مصممة لتلبية احتياجات المرأة والفتاة المراهقة» !

هل هذا هو الإصلاح الاجتماعى ؟ فما يكون الإفساد ؟

وتمضى الدراسة الواعية فتقول : إن الأساليب الطوعية والمناسبة لمنع الحمل لدى الذكور ، فضلا عن الوقاية من الأمراض المنقولة بالاتصال الجنسى والإيدز ينبغى ترويجها وتيسير منالها» .

ظاهر أن من أهم أغراض المؤتمر تيسير الخنا ، وتخفيف عواقبه ونشر الأغشية الواقية من الأمراض القتالة المرتبطة بالصلات الجنسية المنحرفة !

وفى ص٥٣ يقول : ينبغى توفير برامج للوقاية والعلاج من الاعتداء الجنسى وسفاح المحارم» ثم يقول «والمراهقون الناشطون جنسيا يحتاجون إلى نوع خاص من المعلومات والمشورة والخدمات» ! ! !

أبدل تعليم الدين والعفة والصلاة تجمع مؤتمرات لمدارسة هذا العهر ؟ أخشى أن يكون هذا المؤتمر العلمانى زلزالا يهدم ما بقى لنا من بيوت وأخلاق .

* * *

مبادئنا

هناك صياح عالى النبرات حول السلوك الجنسى لسكان العالم ، وأنا باسم الإسلام وقد أكون باسم الأديان السماوية جميعا أقدم هذه المبادئ قواعد لمؤتمر أرشد يعالج مسار هذا السلوك المضطرب :

(١) الإنسان مالك جسده ومن حقه أن يفعل به ما يشاء كما يقول أكثر العلمانيين ، ولكننا نذكّر بأن الله صاحب الحق الأول فى هذا الجسد ، فهو خالقه وولىّ أمره ، ومصدر التشريع الذى ينفعه ويرفعه ويطهره ، ولا نقبل مماراة بتّةً فى هذا الحق .

(٢) فراش الزوجية وحده هو الملتقى المقبول بين الرجل والمرأة ، وما عداه إثم ، والعلاقة الجنسية دعامة بيت شريف وتربية فاضلة لما يمنحه الله من أولاد ، والزواج ببواعث العفة ورعاية النشء عبادة من أزكى العبادات فيجب تيسيره وإزاحة كل عائق أمامه . .

(٣) البغاء واللواط والسحاق وسائر المباذل الشهوانيةمناكر مرفوضة ، وتشريعها محاربة لله ، وظلم للفطرة وتهديم للمجتمع . .

(٤) يجوز لظروف خاصة المباعدة بين أوقات الحمل ، وتترك لتقدير الزوجين .

(٥) الأصل فى الإجهاض أنه جريمة ، ولا يلجأ إليه الطبيب إلا صونا لحياة الأم .

(٦) خالق هذه الأرض أودع بها ما يقوت ساكنيها على أساس أن تتعاون القوى على استثارة الأرض واستخراج خيراتها ، وهذه الأرض تستطيع إطعام أضعاف سكانها المعاصرين على شرط أن يتوقف الإثم والعدوان ويتعاون البشر على البرّ والتقوى .

(٧) عندما نجح الشيطان فى إيقاد الحروب تهدمت المدن والقرى وجمّدت مئات المليارات فى أسلحة الدمار الشامل ، وكان يمكن اختفاء الجوع لو كرست هذه الجهود لإطعام الجياع .

(٨) مؤتمر السكان الذى انعقد فى القاهرة لم يجئ فى دراساته حرف واحد لاستنكار الشذوذ ، ومحاربة القوانين التى تنظمه ، بل بدا من دراساته الطويلة المملة أنه يقرّ الحرية الجنسية فى حدود منع الضرر !

فإذا أمن طاعون الإيدز وأشباهه فلا حدود لهذه الحرية الدنسة !! كما أن رغبته ظاهرة فى تقليل سكان العالم الثالث وضمان مستوى عال من المعيشة للعالم الأول ، الذى يحكم الأرض الآن . . .

(٩) إن المؤتمر المذكور لم يرفع عينه إلى السماء يوما ، أتراه لا يعرف رب السماء ؟ لكننا المسلمين نؤمن برب الأرض والسماء ، ونحترم وحيه الذى توارثه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فإذا خان غيرنا دينه فسنظل نحن نقول لربنا «**سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**»[١]

* * *

(١) البقرة : ٢٨٥ .

أفكار متخابث

قال «فهَامة» فى علم الأحياء لصاحبه : لقد تبيَّن لى أن نسبة الزيادة فى سكان الأرض تزيد على نسبة الموارد الطبيعية اللازمة لتغذية البشر ، وأن كارثة رهيبة توشك أن تقع بالناس فلا يجدون ما يأكلون !!

قال له صاحبه : عاود البحث لعل نظرتك موضعية لا تنتج مبدأ عاما أو مؤقتة لا تنتج قانونا خالداً . .

قال : أنا متأكد خصوصا فى العالم الثالث الذى يتكاثر بجنون وبين المسلمين الذين تتفاحش زيادتهم ! يجب وقف هذا كله لمصلحة العالم أجمع !

قال له صاحبه : كيف ؟

قال كما توقفت الزيادة فى دول أوروبا ولولا الجوائز والمكافآت لنقصت أعدادها إنه عن طريق الشهوات المطاعة يسهل الصعب ، يكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وتتاح الخلوات الحرّة ، والرقص المزدوج ، والتخلص من الحمل الكريه ، وإشاعة البغاء فيكتفى عدة رجال بامرأة ، وقد فتحت أوروبا وأمريكا الطريق وقرر اللواط والسحاق بقانون .

وسارت مواكب الشواذ فى أمريكا تطلب الالتحاق بالجيش حتى نالت وعدا من رئيس الولايات المتحدة ، إن النقص فى المواليد سيكون حتما بعد استقرار هذه التقاليد .! وعندما ننجح فى نشرها بالعالم الإسلامى سيتراجع المدّ السكانى فيه ، بل قد ينقص عدده !

قال السامع : لكن هؤلاء الناس متمسكون بدينهم ولن يقبلوا هذا الانحلال المعروض عليهم !

قال : عندما تعرض عليهم انحلالا لا تلومن إلا نفسك ، عليك بالعبارات اللطيفة

والجمل الخادعة ، خذ مثلا هذه الكلمات : الكبت الجنسى يصنع العقد النفسية . المساواة مطلقة بين الذكورة والأنوثة . الحبّ حق طبيعى للجنسين . ليس للآباء التدخل فى أسرار الفتى أو الفتاة . الضوابط الطبيعية للعلاقات التناسلية . التجمل حق للرجل والمرأة . المباعدة بين الولادات مطلوبة . .إلخ إن العبارات الرجراجة المطاطة تحفظك من الحرج . . وعندما ينعقد مؤتمر السكان فى القاهرة فستكون المصطلحات المطاطة خير طريق لدحرجة العقائد والضحك على الذقون ! . .

إننا نحن المؤمنين بالوحى الإلهى نكره الختل والمراوغة فى أمهات الفضائل وفى تقاليد الأسرة وأول ما نطلبه من المؤتمر أن يقرر تحريم الزنى ، واللواط والسحاق ، والخلوة ، والرقص مفردا أو مزدوجا ، والعرى المختلط فى البر والبحر وجعل الملابس ستارا لوصف الأعضاء وتحديدها . . . . إلخ .

إن الملابس النسائية فى تقاليدنا الإسلامية والشرقية كالملابس النسائية عند الراهبات المسيحيات ، والخنا مرفوض فى أديان السماء كلها وسنقاوم باسم الله كل حركة ضد هذه المقررات .

* * *

منطق مغالط

إذا رأيت جثة مجرم تتدلى من حبل المشنقة ؛ فلا يتطرق إلى قلبك عطف عليه أو ألم له ، وتذكر كيف فتك بضحاياه دون رحمة ، وتخيل أولئك المساكين وهم يتلقون ضرباته ويخرون صرعى تحت قدميه !

إن القصاص حق ، وما يضيق به ذو عقل ، ولولا القصاص لاسودّت الآفاق من فعال المجرمين واستهتارهم بسفك الدم وظلم الضعيف .

ولقد قرأت قصة فى صحيفة كبيرة تصف مصرع قاتل وصفا يفيض بالأسى ، ويملأ النفوس شفقة على المسكين !!

وعمل الخيال الجامح فيها عمله ، فإذا أنت أمام مأساة ينبغى أن يتحرك لمنعها مجلس الأمن . . ! !

إنه من الممكن بهذا الفن المؤنّث المولول تحسين القبيح وتقبيح الحسن .

لقد قرأت أن زوجة خائنة تآمرت مع عشيقها على قتل الزوج المسترسل بدسٍّ السم له ، فهل جزاء أولئك إلا القتل ؟

ما معنى أن يجىء صاحب قلم تائه فيذرف الدمع على الزوجة التى اشترى جسدها أحد القادرين ، فكانت تسلم نفسها له ، وقلبها بعيد ! حتى تاحت الفرصة فالتقت بقُرّة العين ، وكان من جيشان العاطفة وألم الحرمان ما أدى إلى موت الزوج بطريقة أو بأخرى . . ! !

أليس هذا الكلام تزيينا للجريمة واعتذارا عن بواعثها ؛ وفتوى بإباحة القتل ؛ وتسويغا لكل ما يهجس فى الأنفس من شرور ؟

إن الفنان الذى كتب فى الصحيفة الكبيرة وصفا لساحة القصاص فى مكة المكرمة ، وأطلق العنان لخياله كى يثير الأحزان على الشاب النحيل الذى قُتل عدلا ، وحشد من الصور الكئيبة ما يثير العطف على الضحية ؛ هذا الفنان كان يكذب فى كل حرف خطَّه ، وكان يفتعل حكايات مبتورة لا صلة لها بالواقع أبدا !

وأول أكاذيبه أنه رأى يد لص معلقة منذ مدة طويلة ، وأفواج الذباب تغطيها وتطنُّ حولها ، وهذا الكلام لا أصل له ، ولا مصدر له إلا نفس الكاتب الكذوب ، وهو فى حقيقته تنديد بشرائع الحدود ، ودفع إلى تعطيلها . .

وأشهد ما رأيت أمتنا أحوج إلى شرائع الحدود والقصاص منها فى هذا العصر الكالح ، فقد تبجح المجرمون ، وفدحت المغارم ، وشاع القلق ؛ فلا أمان فى بيت ولا فى طريق ، وليس أنجح من العلاج السماوى فى حسم هذه البلايا . .

إن كاتب هذه القصة زعم تمشيا مع خياله المريض أن السياف الذى ينفذ القصاص رجل لديه عشة دجاج يتأنق فى صفها وذبحها وتعليقها ؛ لأنه متعطش إلى سفك الدماء !!

أى دماء أيها الأحمق ؟ وهل عشماوى عندنا فى مصر لديه هواية خنق القطط والكلاب حتى ينفس عن رغبته بشنق المجرمين . . ؟

ومن قال : إن المحكوم بقتله يحضر والده ليرى مصرع ابنه ؟

الذى نعرفه أن ولىّ الدم يحضر القصاص ، وله الحق أن يعفو ، فيقف التنفيذ للفور . . . .

ويوجد من السّراة والمحسنين من يعرض عليه الدية أو أكثر حتى ينزل عن حقه ، فإذا أبى إلا قتل من قتل أباه أو ابنه نفذ الحكم ، وهذا حقه . .!

ومن قال : إن بركة الدم تبقى حتى تتجلط ، وتلوث الرخام الأبيض . . إلى آخر السخف الذى أثبته هذا الكاتب المخبول ؟

ألا فليهنأ المجرمون من قتلة ولصوص بدفاع هذا المحامى المبطل عنهم ، وليخالط الروع والفزع أفئدة الكبار والصغار ، لأن بعض الناس يكره التأديب والعقاب . . ! !

* * *

النفــاق

للمرء المنافق والمجتمع المنافق أركان يعرف بها ، هى - كما جاء فى السنة - الكذب والخيانة والغدر وخسّة العداوة . .

ونسبة النفاق تزيد أو تنقص حسب مقادير هذه الخلائق الرديئة فى سلوك الناس !!

بعض من نعامل لا يعرف للكلمة وزنا ولا حرمة ، إنه يدير فمه فى لسانه وحسب ، لا يصدق فى وصف ولا خبر ، وربما كان كلامه تغطيه للحقيقة لا كشفا لها . .

والرباط بين أولى الألباب هو الكلمة التى تعطى ضمانا للوعود والعهود والعقود ، بيد أن كثيرين يعدون فيُخلفون ؛ ويعقدون فينقضون ، ويعاهدون فيغدرون ، وشيوع هذه المناكر يشيع الفوضى فى أرجاء الحياة ، ولذلك يقول الله تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »[1] .

والمصيبة الطامّة أن تكره إنسانا فتحاول النيل منه بكل أسلوب وتجتهد وسعك فى إلحاق الأذى به ، وهو ما سماه النبى ﷺ : الفجور فى الخصومة . . .

وقد رأيت الناس الآن تهوى فى خصومتها إلى مكان سحيق ، وتستبيح الدم والمال والعرض ، وتجعل آفاق الحياة سوداء أينما اتجهت . .

والأمة لا تنجو من هذا السواد بعظة عابرة ، ولا بد من نظرة جادة إلى أصول التربية ومكونات الأخلاق فى البيت والشارع ، وأركان البيئة كلها ، وهذا عمل أصيل للجماعات الإسلامية الصادقة ، وتخلفها عنه إيذان بالويل والثبور . .!

وقد لمحت فى جوانب أمتنا أمور أخرى لها دلالتها !

قال لى صديق : كنت فى «هونج كونج» فلمحت بدلة سرتنى لكنها دون قوامى ، فذكرت للبائع ما عندى ، فقال : هاك القماش ، خذ منه القدر المناسب ، يفصله لك الخائط ؛ وبعد ستين دقيقة تتسلم البدلة ! !

---

(١) النحل : ٩٢ .

قال : وفعلت مغامرا ، فإذا أنا بعد ساعة مضبوطة ألبس البدلة الجديدة !

قلت : يتم هذا عندنا في أسبوع أو يزيد !

إن رداءة الأداء خاصة مستغربة بيننا ، وتنشأ عنها خسائر كبيرة ، فكم من حريق مستعر يسببه إهمال عامل في مدّ أسلاك الكهرباء ! وكم من مبنى هدّده سباك لم يحسن توصيل المياه ، فتخللت الجدران ، ورشحت ظاهرا وباطنا ..

إن تغيير النفوس - لتبرأ من هذه العلل - أساس لا بد منه لبناء أمة ذات رسالة كبيرة ، بل أساس لابد منه لبناء مجتمع يستطيع الحياة ، وهذا جهد أول لعمل الجماعات الإسلامية مصداق قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. »[1]

إننا بالموازنة المنصفة نشعر بأن حقيقة الإنسان عندنا مشوبة ، ومضطربة ؛ وسائبة إلى حد بعيد ، وإذا كان الفكر مختلا والقلب معتلا فأنّى تجيء النجاة ؟ وكيف يقترب النصر ؟ ؟

قلت لأحد المتحمسين : إننى أشد منك شوقا إلى إقامة حكم إسلامى ، ولكن هل أجنح إلى البطالة والصياح حتى يتحقق النصر ؟

أبواب العمل كثيرة ، فالإسلام دين النفس والمجتمع والدولة وعلينا - إذا فاتنا الحكم - أن نعرق فى تزكية النفوس بالأخلاق العالية ، وفى دعم المجتمع بالتقاليد الصالحة ...

إنه لا إسلام إذا لم يكن الفكر واعيا والضمير صاحيا ...

فلتنشط الجهود فى هذا الميدان ، وفى نجاحها تحقيق الآمال .

* * *

(١) الرعد : ١١ .

سبحان الله وبحمده

قلت فى نفسى لو أنى على بعد مائة ميل من كوكب الأرض فماذا أرى وماذا أسمع ؟ ؟

هل أرى سحب الأدخنة والأتربة التى لوثت الجو وعكرت صفاءه ؟

هل أسمع عاصفة الضوضاء التى تنبعث من المركبات والمصانع والتى غطّى ضجيجها كل شىء ؟ أعرف أن لهذا الكوكب أجلا مسمىّ فهَل هو يستعجله ويبحث عن حتفه بظلفه ؟

ثم ماذا نحن فى هذا الكون الكبير ؟

قرأت أن علماء الفلك اكتشفوا ما يعتقدون أنه ثقب أسود فى مجرّة نائية أكبر مائة مرة من أى ثقب أسود تم اكتشافه من قبل ! وذكر راديو «صوت أمريكا» أن العلماء يعتقدون أن هذا الثقب الهائل يضمُّ ألف مليون نجم ! وأن تجمّع النجوم والمواد الأخرى فيه يشكل مركزا كثيفا للجاذبية يبلغ من القوة أنه لا يفلت منه شىء حتى الضوء . . . !

قلت : إذا كان هذا ثقبا فى جانب من الكون فما يكون الكون نفسه ؟ يبدو أن ما بين السماوات والأرض أعجبَ منهما . . !

وانفتح أمامى أفق عريض عامر بالدلائل على عظمة الله وعلو شأنه . . « اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »[1]

قد أرى حولى جماهير من الناس ، وقد أرى محيط الأرض وأنا داخل قمر صناعى ، لكن القصة ليست رؤية إنسان من بين مليارات الأناسىّ .

إن هذا الإنسان وحده كون صغير ! على جلده مائة ألف شجرة أعنى مائة ألف شعرة تنمو وتنقصف ليعود مكانها مثلها ! لعلّ الشعر أهون ما فى الإنسان فلننظر إلى

(١) الرعد : ٢ .

ألوف مؤلفة من كرات الدم تسبح فى عروقه ، إنها كرات متجدِّدة ، لها مصانع تنشئها وترسلها حسب الحاجة ، ولننظر إلى شبكة الأعصاب المنتشرة فى الجسم إنها تتلقّى الأوامر ليلا ونهارا من المخّ الذى عجز البشر عن معرفة تلافيفه المعقدة ووظائفها الخطيرة ، من فجر الإنسانية إلى الآن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يدبر ربُّنا شئون هذه الأجساد ، وما يعرض لها من بؤسى ونعمى « وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا . . »! ![1]

إن الكون كبير كما كشف العلم ، ولكن الله أكبر كما يجب أن يشعر العلماء .

فى مجتمعاتنا نحن البشر نرى الساسة الكبار مثلا مشغولين بالأمور الكبيرة غافلين عن الصغائر ، ولكن رب العالمين لا يشغله شأن عن شأن فهو يسمع مُوَاء هِرّة معذبة ويدخل مَنْ عذبها النار كما يسمع دعاء جماهير بائسة ، ويجزى الظالمين بما كانوا يعملون إنه يسمع سقوط ورقة من شجرة ويرى تجلُّط الدم فى عرق كما يرى ويسمع قصف الرعد فى السماء ، وأفول نجم فى الفضاء ! «سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته» .

* * *

(١) النجم : ٤٢ : ٤٤ .

ماذا.. بعد قتل الأم ؟!

بليت مصر كما بليت أقطار إسلامية أخرى بالأحكام الوضعية التى حلّت محل الشريعة الإسلامية ، فقد رأى الاستعمار العالمى أن هذه الشريعة يجب أن تختفى وأن يكون اختفاؤها بداية للإجهاز على الإسلام كله فى شتى الميادين ، ومن أمد طويل والاستعمار ماض فى التنفيذ ونحن ماضون فى المقاومة ولاندرى ما يتمخض عنه المستقبل !!

وقد قرأت فى «الأخبار» أن ولدا عاقا قتل أمه بالفأس لأنها لم تعطه ما ينفقه فى بعض ملذاته ، وشكت إليه ضيق الحال ، فرفض هذا الاعتذار وما زال يضربها بالفأس حتى أزهق روحها !! ولم تبد عليه بعد ارتكاب جريمته علامة ندم ، واقتيد إلى القضاء فحكم عليه بالسجن المؤبد !

لماذا لم يقتصّ منه ؟ ويقتل كما قتل أمه ؟ لأن القانون الاستعمارى - المنقول عن فرنسا - يشترط للقصاص الترصد وسبق الإصرار ، والولد قتل أمه فى لحظة غضب !!

وقد تمنت المحكمة لو استطاعت الحكم بالموت ، ولكن القانون لا يعينها والقوانين الأوروبية عموما تستند إلى آراء بشرية ووثنيات رومانية أو يونانية وعلاقتها بالسماء مقطوعة أو واهية وقد ضاق أولو الألباب بها ذرعا كما أن آثارها العامة زادت من شيوع الجرائم وإرخاص الدماء وإهانة الإسلام وإضعاف الأخلاق ، وقد تحرك أولو الغيرة لعمل شىء والوضع الآن يتلخص فى مسلمين يريدون إحياء مامات من تعاليم الإسلام وكافرين يريدون إماتة ما بقى حيا من هذه التعاليم !

إن النزاع لا تحسمه جولة واحدة ، إنه نزاع ممتد طويل ، أمل أعداء الإسلام أن يتحول موت الشريعة إلى موت للعقيدة والتربية والتقاليد ، وأملنا نحن أن يعمل الدين فى مجاله العتيد فيتناول شئون الحياة كلها ، كما قال الله فى كتابه . « ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ »[1] .

---

(١) النحل : ٨٩ .

وأريد لفت النظر إلى أن الهزائم المادية والأدبية التى نزلت بالمسلمين فى الأعصار الأخيرة تجمعت أسبابها من الداخل قبل أن تجىء من الخارج ، وأن الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة وفقه الفروع التافهة والتقليد الغبىّ ، كل ذلك ألحق بنا هزائم نكراء وأزرى برسالتنا وحضارتنا ، وأن الإسلام إذا أراد أن يعود سيرته الأولى فلابد من شعوب تتأسّى بالصحابة والتابعين فى حدة الذكاء وسلامة الفطرة ونظافة القصد ونشدان الآخرة . .

إن أعداء الإسلام مصممون على إماتته ونحن مصممون على الدفاع عنه والله غالب على أمره .

* * *

ظلومة للنساء

من مآثر الجاهلية الأولى أنها كانت تزدرى المرأة وتصادر حقوقها وتهمل شئونها وتفرض عليها أن تعيش فى زاوية من الإهمال والخمول . ويظهر ذلك بوضوح عند تقسيم المواريث ! فإن الرجال يذهبون بالمال كله ولا يبقى للزوجات والبنات إلا الثكل والأحزان . .!

والغريب أن تقاليد الجاهلية القديمة لا تزال حيّة فى ضمائر البعض ، فهم يضنّون على البنت بأخذ نصيبها لا سيما إذا كانت متزوجة ، ويقولون لها : تذهبين بمال الأسرة إلى الغرباء ! فإذا كانت لما تتزوج خلطوا مالها بأموالهم تمهيدا لأكله بالباطل ! وهذا كله فسوق عن أمر الله ، ورغبة فى ردِّ النساء إلى الجاهلية التى حررهن الإسلام منها . .

ويحكى المفسرون سببا لنزول الآية الكريمة « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا »(1) .

قالوا : نزلت هذه الآية فى أوْس بن ثابت الأنصارى ، تُوفى وترك امرأة تُسَمَّى «أم كحة» وثلاث بنات وترك ثروة حسنة ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصيّاه ، يقال لهما سويد وعرفجة فأخذا المال كله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئا . . . وذلك حسب تقاليد الجاهلية التى لا تورث النساء ولا الأطفال ، وإنما يذهب بالتركة الرجال الكبار متعلِّلين بأن الإرث لا يستحقه إلا من قاتل وحاز الغنائم وحمى الحَوزَة . . .!

فجاءت امرأة أوس إلى رسول الله ﷺ ، وشكت له ما وقع وقالت : إن زوجها ترك مالا كثيرا وتركنى وثلاث بنات وليس عندى ما أنفقه عليهن ، وقد اجتاح «سويد» و «عرفجة» كل شىء ولم يعطيانى ولا بناتى منه شيئا ، وهنّ فى حجرى لا يُطعمن ولا يُسقين ! !

---

(1) النساء : ٧ .

فدعاهما الرسول ليسائلهما عما فعلا . . فقالا : يا رسول الله إن أولادها لا يركبن فرسا ، ولا يحملن كَلاً ، ولا يكدْن عدوا . . فأنزل الله هذه الآية مبينا أن الإرث ليس مختصا بالرجال ، بل هو أمر مشترك بين الرجال والنساء . .

فلما نزلت الآية مجملة لم تحدد فيها الأنصبة أمر الرسول ﷺ بتجميد التركة حتى ينزل بيان بالتقسيم ، فنزل بعدئذ قوله تعالى : « يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ »[1] . . . إلى آخر آيات المواريث ! فقسم ميراث أوس بن ثابت على هذا النحو وفق تعاليم الشريعة $\frac{٣}{٢٤}$ للزوجة $\frac{١٦}{٢٤}$ للبنات $\frac{٥}{٢٤}$ لأولاد العم ، وهذا هو التقسيم المعتمد عند جمهور المسلمين !

ذلك ، وقد لوحظ أن اليتيمة تكون عند الوصيّ ، فيحب أن يتزوجها لأنها أقل مؤونة ومهرا ، وبذلك يأخذها ويأخذ معها ميراثها فنزل قوله تعالى « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا »[2] أى ذنبا عظيما . . .

إن المجتمع الذى يهين النساء ، ويقلل من شأنهن ، ويستبيح حقوقهن المادية والأدبية مجتمع أنانى ظلوم بعيد عن تعاليم الإسلام ووصاياه وكذلك المجتمع الذى يجور على المستضْعفين الذين لا شوكة لهم ، ولا يستطيعون دفاعا عن أنفسهم !

إن الله سبحانه أمر بالعدل والرحمة ، ووصى بالإحسان والفضل ، وأقام الأمم على التكافل الكريم ، وعلى أن يتنفس الصغار والكبار فى جو إنسانى رفيع ، وقال للناس بعد ذلك « وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا »[3] .

* * *

---

(١) النساء : ١١ . (٢) النساء : ٢ . (٣) النساء : ١٢٧ .

مفارقات

هناك معاصٍ مركّبة تلتقى فيها عدة رذائل ، أو تتشابك فيها بضعة آثام !

ماذا تقول فى رجل يأتيك بالعمل ناقصا ، ثم يطلب عليه أجرا زائدا ، فإذا اعترضته اتهمك بالجور وهضم الضعفاء ؟؟

عمال كثيرون يبنون حياتهم على هذه السيرة الرديئة ، تخرج الأعمال من أيديهم مشوهة ، ويطلبون لقاءها الثمن الغالى ، فإذا أخذ أحدهم ما يريد شرع ينفقه فى التدخين ، أو يبعثره فى وجوه الشر !

قلت : رحم الله أياماً كان آباء هؤلاء العمال يزرعون القمح ويأكلون الطين ، ويجيدون ما يكلَّفون به ويطلبون العِوَض باستحياء !

لقد دافعنا عنهم بحرارة ، وطالبنا حقوقهم بقوة ، فلما تقررتْ هذه الحقوق بعد لأى كانوا قد ماتوا وحلّ محلهم كسالى أدعياء لا يحسنون شيئا ويطمعون فى الكثير .

لقد نزلت فى القرآن الكريم سورة عن المطففين « الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ »(١)

وهذا الصنف من الناس موجود فى ميادين شتى ، شيمته أن يدور حول نفسه يصبح فيتصور أن ما فى أيدى الناس ملكه فهو يعمل على استرداده ، وهو كثير الحديث عما يرى أنه له ، قليل الحديث عما يجب عليه ، بل سريع الجحود والنكران!

« أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »(٢) .

إن الحديث كثر عن الإسلام السياسى وعن ضرورة تطبيق الشريعة فى دروب الحياة كلها ، وهذا مطلب جليل ، ولكن دونه أهوال فهلاّ أكثرنا الحديث عن الإسلام الأخلاقى ، وعلى غرس الفضائل الجليلة بين الكبار والصغار !!

---

(١) المطففين : ٢ ، ٣ .

(٢) المطففين : ٤ ، ٥ ، ٦ .

إن الحضارة الحديثة قامت على صناعات دقيقة قد ترى آلاتها بالمجهر وقد تكون آلاتها الضخمة قائمة على علاقات بالغة الدقة ، والنجاح فى تصريف هذه الآلات يتطلب اللطافة واللباقة والأناة والحذر ، ويستحيل أن يُهدَى إليه الهجَّامون على الحياة بغباء ، أو المتقلبون فى شئونها باستهانة ، أو عبيد أطماعهم بعمى ونزق . .!!

لماذا يكون العامل عندنا دون نظيره فى أوروبا ؟

إن اليابانيين يرون الأمريكان كسالى ! والأمريكيون يرون الأوروبيين دونهم ! فما منزلتنا نحن فى دنيا الناس ؟

وكيف ينتصر دين يكون أتباعه من المطفِّفين الذين لهم الويل ؟ أو من الهمل الذين فقدوا بريق العقل ؟ ؟

الميزان القرآن يتحرك بالذرّه ليميل يمنة أو يسرة « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » ! ! (١)

فهل ينصف هذا الميزان أناساً فوضويين فى النواحى الفنية والخلقية ؟

على المسلمين أن يعرفوا دينهم ويرتفعوا إلى مستواه ، وإلا هلكوا .

* * *

(١) الأنبياء : ٤٧ .

العقل الغائب

للإسلام أركان يعتمد عليها ، وعزائم يقوم بها تشبه الآيات المحكمات التى هى أساس الدين ولبابه ! هذه الأركان والعزائم ليست موضع خلاف ، وإذا كان هناك من تفاوت فى المواقف فهو تفاوت سطحى خفيف الوزن .

ولنضرب مثالا يوضح القصد ، قد يقول الله تعالى « ... أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا »[1] هل الملامسة تعنى اللمس المطلق فكل لمس ينقض الوضوء أم التعبير مجازى ، والمراد لمس معين ؟

إن الفقهاء يختلفون ، وميدان الفقه مجال رحب لوجهات النظر المتعدِّدة ، وأجمع العلماء على أن هذا الخلاف لا حرج فيه ولا ضرر منه ولا يسىء إلى الإسلام ولا يفسد للودّ قضية .

لكن إذا قال رسول الله **«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من خصال النفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»** فالمعنى واضح حاسم فإن يكن فى الفقه خلاف فلا خلاف فى الأخلاق . .

وقد لاحظت أن فئات من الناس ظهرت فى هذه الأيام رباطها بالعقيدة غامض ، والأخلاق ضعيف ، وبمصلحة الأمة منقطع ، يتركون عزائم الدين وفضائله ويتبنَّوْن وجهات نظر فقهية معينة يتعصبون لها أشد التعصب ، ويفاصلون الآخرين عليها فمن لم يشاركهم الرأى فليس بمسلم .

هناك قضية السروال والجلباب وقضية النقاب والحجاب وقضية التصوير والغناء وقضية المنبر العالى والمنبر القليل الدرجات . . إلخ .

وقد غام جوّ الصحوة الإسلامية لطول اللغط فى هذه القضايا ، إن الجدال فيها غلب النظر فى مستقبل شعوب إسلامية مهددة ، وأهداف دينية رئيسة ! بل إن أعداء

---

(١) النساء : ٤٣ .

الإسـلام فى الداخل والخـارج أصـابوا الإسـلام فى مـقـاتل بسـبب هذا الوضع المزرى والشقاق المفتعل .

فى هذه البيئات وجد المتطرفون الذين يسيئون أكثر مما يحسنون ، ويضعون بمسالكهم العراقيل أمام أولى الألباب . . .

إن أعـداء الإسـلام فى هذه الأيام يملكون قوى أفـتك وتظاهرهم ظروف مـسـعـفـة ! ونحن نعانى من متاعب موروثة ومعاصرة إذا شغلنا بها اجتاحنا عدونا !

فلنكن صرحاء فى تعريف الفتيان المتعصبين لبعض الأفكار الفقهية بأن حالة المسلمين العالمية لا تحتمل هذا التحجرُّ ! وأن من الخير تحكيم هذه القاعدة «نتعاون على ما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه» .

إننى أخطّ هذه السطور وقد شرع أعداء الإسلام فى محوه من أوروبا فخرست منائر ومنابر كانت أمس غانية بذكر الله !! على حين شغل بعض رجالنا وفتيتنا بالجدال المُرِّ هل تخرج زكاة الفطر نقودا أو حبوبا ، إنه جدال قطع الأرحام فى وقت تزلزل فيه دار الإسلام ! فهل يعود العقل الغائب ؟

* * *

قبل أن يقتلهم القهر

هناك حكومات عربية تكره الجماعات الإسلامية كرها شديدا ، تنكّل بالمتهم وترتاب فى البرىء ، وهذا مسلك يحتاج إلى تعليق من الناحيتين الإسلامية والحضارية لأنه بعيد عن الإنصاف . . !

أنا أعلم أن فى الإسلاميين من لا يفرق بين ركن ونفل ، وعادة وعبادة ، وشكل وموضوع !

وأعرف أن منهم من يمقت اسمى وفكرى . . . ولكننى أعلم أيضا أن فيهم من آتاه الله رشده وأراه قصده فهو يخدم الإسلام جهده ولا يطلب أجرا إلا عند الله وحده ! وهؤلاء كثيرون ، بل جماهير غفيرة ! !

وأرى أن على الحكومات الغاضبة أن تقلد الحكومات الأوروبية فى موقفها من المتطرفين ، فهى توفر لهم حقوق الإنسان ، وتعتمد فى مخاصمتهم على البرهان وتنأى عن التعذيب والهوان . .

وقد قامت فى أوروبا أحزاب عنصرية متمردة تصارح بطرد العرب والمسلمين ، ودائرة التأييد لها تتسع ، وأثرها يمتد إلى الأحزاب المستولية على السلطة ! ومع ذلك لا تلقى مطاردة ولا اضطهاداً . . .

فلماذا تستمتع هذه الأحزاب بحق الحياة هناك ، ويُستكثر هذا الحق أو يُستنكر على الأحزاب الإسلامية هنا ؟؟

كتب الدكتور «أحمد القديرى» فى صحيفة «الشرق» يقول : صدرت فى فرنسا مجلة «جولياس» المسيحية المعتدلة تحمل فى عدديها ٢٧ ، ٢٨ تحقيقا ضافيا عما سمته المجلة : عودة الصليبيين ، أثبت بالبراهين أن المنظمة المتطرفة المدعوة بالإخاء المسيحى ، والمنظمة الأخرى المدعوة بإخاء القديس بطرس عقدتا حِلْفًا سياسيا مع حزب الجبهة الوطنية اليمينية الذى يترأسه «جون لوبان» المعروف بعدائه الشديد للإسلام ومقاومته للمهاجرين المسلمين - القادمين من الغرب - وأطلق هؤلاء وأولئك على حلفهم «الوطنيون الكاثوليك» وهو نوع من التحزب العرقى المتطرف .

وقد نشر القسّ «لاجيرى» مقالا فى جريدة «لوموند» فى ٩٠/٨/١٧ قال فيه «إن المسلمين كلهم كالنساء يَضعفون إذا قويت معهم ، ويَطغون إذا ضعفت بإزائهم» .

هكذا يتحدث كاتب الإخاء المسيحى !

أما المنظمة الثانية فقد أصدرت مجلة بعنوان «إعادة الغزو» !! وفى آخر عدد من هذه المجلة كتب برنارد أنتونى مقالا جمع فيه - فى سلك واحد - بين الكفر والنازية والشيوعية والإسلام . . .

والأغرب والأنكى ، أن هذه المنظمة المتطرفة تلقت من الرئيس الزائيرى جنرال «موبوتو» مبلغا ماليا كبيرا مشاركة منه فى بناء المعبد البندكيتى الجديد الذى بلغت تكاليفه عشرين مليون دولار ! وهكذا فإن الصليبيين عائدون !!

وقد أسأل : هل يجد مسلم فى سلطان «موبوتو» بصيصا من نور . أو أملا فى حياة؟ إن الدعم الذى يلقاه المتطرفون الدينيّون سواء فى إسرائيل أم فى أوروبا وأمريكا يدعو إلى التأمل العميق ، فكيف الحال فى العالم العربى ؟ إن الحملة عامة على كل موصوم بالتطرف . واتسع نطاق الحملة حتى شمل الدعاة الأبرياء والمعلمين المعتدلين وأمسى من يدعو إلى تحليل الحلال وتحريم الحرام وإقام الصلاة وإحياء شرائع الإسلام أهلا للتهمة . . .!

إن خلط الأوراق على هذا النحو مزلقة إلى محاربة الإسلام نفسه ، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله ، والقول بأن الجماعات الإسلامية سواء كلها قول تنقصه الدقه أو قل ينقصه الصدق ، وهو تنفيذ لمخططات استعمارية تريد تدويخ اليقظة الإسلامية والإجهاز عليها . .

ويوم تخلو الساحة من الشباب المسلم الصاحى الغيور فسوف يتحول الغزو الثقافى إلى غزو عسكرى ، وعندئذ نبحث عن أولى النجدة فلا نجدهم فقد قتلهم القهر قبل أن يقتلهم أعداء الإسلام الصرحاء ، من صهاينة وصليبيين . . ! !

* * *

قلوب لا تعى

لكى تكون دعايتنا للإسلام ناجحة يجب أن تتوفر فى الداعية خصلتان : الذكاء والنقاء ، أعنى ذكاء العقل ونقاء القلب .

ولا أريد بالذكاء عبقرية فائقة ، يكفى أن يرى الأشياء كما هى دون زيادة أو نقص .

فقد رأيت بعض الناس مصابا بحَوَل فكرىّ لا تنضبط معه الحقائق قد يرى العادة عبادة ، والنافلة فريضة والشكل موضوعاً ، ومن ثم يضطرب علاجه للأمور ، وتصاب الدعوة على يديه بهزائم شديدة !

كما أنى لا أريد بنقاء القلب صفاء الملائكة ، وإنما أنشد قلبا محبا للناس عطوفا عليهم لا يفرح فى زلّتهم ولا يشمت فى عقوبتهم ، بل يحزن لخطئهم ويتمنى لهم الصواب .

جاءنى طالب جامعى يخبرنى بأن بعض المنحرفين يريد إقامة حفل غنائى ، وأنه هو وأصحابه سوف يمنعون هذا الحفل بالقوة !

قلت له أوافقكم على عدم إقامة الحفل ، وانقُلْ لهم رأيى مصحوبا بهذا النصح ! لا مكان للفرح فى أيام كثرت فيها الأحزان المحلية والعالمية ! كيف نغنى وعشرات الألوف من المسلمين بين قتيل وجريح وشريد ؟ إن مصابنا فى فلسطين وأفغانستان ينزف ، ومستقبل الإسلام فيها غامض . . وإن الحرب الأهلية فى الصومال تزيد ضحاياها مائة مرة أو مئات المرات على الحرب الأهلية فى يوغوسلافيا ، ولا نزال فى مصر حديثى عهد بنكبة الباخرة فى البحر الأحمر وغرقى السيول فى الإسكندرية فعلام الغناء ؟ هل قدّت قلوبهم من صخر ؟

قال لى الطالب : لن يقنعهم هذا الكلام !

قلت : سلهم بم يغنون ؟ بغَـزَل رقيع ، ولحن هابط ، إن الأوساط الفنّية مريضة الذوق والحسّ فلن يصدر عنها إلا ما يسوء ! والواجب فى الأيام العصيبة التى تحيط بنا أن تنزه الأسماع عن اللغو . . .

قال لى الطالب : لن أقول شيئا من هذا الذى توصينى به !

سأقول لهم : الإسلام يحرم الغناء ، وسنهدم الحفل المقام على رءوس أصحابه !

قلت له إنك ناشىء فى ميدان الدعوة فلماذا لا تنتفع بتجارب من سبقوك ؟ وإن للإسلام خصوما متربصين فلا يجوز إعطاؤهم حجة على سوء فهمنا وسوء سلوكنا ! فأبى إلا ما استقر فى ذهنه ، وأخيرا تدخلت الشرطة ودخل البعض السجون !

إننى لا أزال أنصح الإسلاميين بأن يرعوا الحكمة فى مجال الدعوة ، وألا يمكنوا خصوم الإسلام من النيل منه بسبب حماس طائش !

وليكن الهدف الأول بناء العقائد والأخلاق والعبادات أما الخلافات الفقهية فلا صلة لها بميدان الدعوة ، ولا بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر !

إن داود وسليمان عليهما السلام لم يختصما من أجل قضية الحرث الذى عاثت فيه الغنم ، ومن الفقهاء من رأى حكم الرضاع فى الكبر كحكم الرضاع فى الصغر . . ! فليقع الخلاف وليدرس فى ميدانه أما نقله إلى ميدان الدعوة فخطأ فادح . .

إن الداعية الذى لا يجمع بين الذكاء والنقاء يثير مشكلات معقدة أمام انتشار الإسلام ، وقد رأيت فى كندا والولايات المتحدة - وكانت رابطة العالم الإسلامى قد أوفدتنى إليهما - رأيت دعاة وضعوا فى طريق الإسلام أحجارا نقلوها من البيئات التى عاشوا فيها قديما كى يقف سير الدعوة فى العالم الجديد !

إنهم يغضبون لمذاهبهم وأهوائهم باسم الغضب للإسلام ، ويعلم الله حاجتهم إلى من ينير عقولهم ويطهر أفئدتهم .

* * *

الحريق الشهوانى

عقب مؤتمر إسلامى انعقد فى انجلترا أخيرا قالت إذاعة لندن إنه لم يقع شىء ذو بال إلا أن تظاهرة للشواذ جنسيا تجمعت فى المكان معلنة احتجاجها على ما يلقاه إخوانهم فى أرجاء العالم الإسلامى من اضطهاد !!

وتفرقت المظاهرة دون أن تُضرب بالسياط أو بالنعال ! وانتهى الأمر . .

كان أولئك الشواذ يطالبون بحقوق الإنسان بعد ما اختلط مفهومها بحقوق الحيوان ، وذابت الحدود بين الفضائل والرذائل فى مجتمعات تائهة !

قلت فى نفسى : هل سمع أولئك المنحرفون الضِّياع كلمة نصح من «حاخام» أو «كاردينال» ؟

يبدو أن حيوانيتهم قوبلت بالصمت المطلق حتى أمسى المعروف منكرا والمنكر معروفا وحتى تجرأ هؤلاء السفلة على حدود الله وبلغت الجراءة بهم أن خاصموا المسلمين الحافظين لحدود الله ، وتجمّعوا للإنكار عليهم .

لقد وقع هذا من قديم وسط أهل الكتاب « وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ »[1] .

وخيانة رجال الدين لأمانات الوحى الإلهى جريمة نكراء ، إن صمتهم الجبان أبطل رسالات الخير وترك الشياطين تعربد دون قلق .

قرأت وصفا للنساء فى عواصم أوروبا للأستاذ «أنيس منصور» جاء فيه «هناك اتفاق سرّى بين المرأة والشمس . الشمس تطلع والمرأة تطلع من ثيابها ، فلم يبق لها إلا بعض أوراق التوت موزعة توزيعا شحيحا هنا وهناك . وخصوصا هنا !! النساء كأنهن خيول عربية . والرجال كأنهم حمير أحسائية ليس لديهم ما يكشفونه فى هذه الجهنم فهم دائخون سياسيا واقتصاديا وجنسيا » ! !

---

(١) المائدة : ٦٢ - ٦٣ .

لماذا هذا الحريق الشهوانى ؟ وماذا فعلت المعابدلإطفائه ؟

أين رجال الدين ؟

لقد فر الجبناء مكتفين من إقامة الشعائر بمهاجمة الإسلام ! وعقد المؤتمرات العلمانية فى بلاده للقضاء على تقاليده ووصاياه !

إن البلاد الإسلامية - على ما تعانى من هزائم - هى أبعد البلاد عن طاعون الإيدز ، فبقايا الإيمان لديها تعصمها من هذا الداء الفاتك .

لكن هل يُعترف للإسلام بفضل ؟

أتحدى المؤتمر [1] الذى تعقده هيئة الأمم بالقاهرة أن يثبت الإحصاءات المعروفة هنا وهناك ، وأن يقول إن التقاليد الإسلامية من وراء الطهارة والبراءة التى تسود أمتنا . .!

إنه لم ينعقد للثناء على الإسلام ، أو للتنويه بالوحى الإلهى على الإجمال ، إنه يرفع راية المساواة بين الجنسين لا فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، بل فى تحقيق الرغبات وتدليل الغرائز ! ألا فليعلم المسلمون أن دينهم إيمان وتقوى ، وأنه عدو لدود للفوضى الحيوانية الى يرفع الغرب رايتها ويرغب فى أن تعلو مسيرتنا . .

* * *

(١) مؤتمر السكان الذى عقد بالقاهرة ١٩٩٥ .

بئس مايقولون

كنت معتقلا بطور سيناء سنة ١٩٤٩م مع ألوف من الإخوان ، ورأت الحكومة يومئذ أن تعتقل معنا عدة مئات من الشيوعيين ، فقلت لإخوانى : ما رأيكم ونحن فى هذا القفر الموحش أن نذهب للجناح الذى يضم الشيوعيين كى نتعرف عليهم ونتحدث إليهم ؟

فردّ أحد السامعين نعم إن المصائب يجمعن المصابينا !

قلت : لا ، وأريد أن يعرفوا الإسلام معرفة حسنة لعل الله يهديهم ! وذهبنا إلى مهاجعهم فى ضحوة هادئة ودخلنا أول غرفة ففوجئنا بنحو عشرين شابا يلبسون سراويل توارى سوءاتهم أما بقايا الأجسام فعارية !

قلت وأنا أتكلف الابتسام ما هذا ؟ كأنكم على شاطئ البحر !

فردّ أحدهم نحن نؤثر العيش هكذا !

فقلت الملابس أستر للبدن وأصون للمروءة ! وكدت أقول : وأرضى لله !! ولكننى طويت الكلمة الأخيرة ، ما لهم ولله ؟

واستأنف الشاب الشيوعى الكلام : إننا لانشغل أنفسنا بمحاربة الغرائز ما الغريزة ؟ غدة تمتلئ ثم تفيض ، ليس لكبتها معنى !

فقلت لأصحابى ! نعود أدراجنا !

ونسيت ما وقع حتى قرأت برنامج مؤتمر السكان الذى ينعقد فى القاهرة فإذا الفكر واحد والنظرة إلى الحياة لا تختلف ، لامكان للدين وإيحائه ، أتباع موسى وعيسى عليهما السلام نسوهما كل النسيان وربما وجدتْ فلسفات روحية أو خلقية يعجب البعض بها ، لكن هذه الفلسفات اختفت فى برنامج المؤتمر فالفكر المعروض مقطوع عن

السماء ، وقد قلت : إن كلمة الله لاوجود لها فى طول البرنامج وعرضه ، وليس لواحد من أنبيائه ذكر .

الكلمة التى ترددت كثيرا فى أثناء البحث هى تعاون البشر على «الصحة الجنسية والحياة التناسلية» وقد وضعت بين أقواس !!

والمعنى النظرى للكلمة شرحه «فرويد» عندما حذّر من الكبت وبين أنه صانع العقد النفسية والأمراض العصبية ، أما التطبيق العملى للكلمة فشرحته التقاليد والقوانين الغربية عندما أباحت اللواط والسحاق والبغاء وأقامت المراقص المزدوجة ويسَّرت الخلوات البعيدة وأزاحت كل عائق أمام النزوات الجنسية ، إن كلمة مؤتمر السكان تفهم عنوانا على موضوعها إذا كان البحث فى العمران البشرى وما يعتريه من متاعب !

أما أن تكون أغلب فصول البرنامج عرضا لفلسفة الانحلال الغربى ، وتوكيدا لبعده عن الوحى الإلهى فهنا العجب !

إذا كان اليهود والنصارى فى أوروبا وأمريكا قد رفضوا الولاء للوحى الأعلى فبأى حق يطلبون منا أن نقلدهم ؟ ولماذا نفتح أبوابنا لهم ؟

أنفتحها لنسمعهم وهو يقولون : إن الله سيعجز عن إطعام البشر وهم يتزايدون بهذه الكثرة ؟

أنفتحها وهم يقولون : نفِّسوا عن الغرائز بعيدا عن جوّ الأسرة ، فجوها مظنة تكاثر الأولاد !! شاهت الوجوه وبئس ما يقولون .

* * *

أطفال للبيع

كل من يعكر صفو الأمن أو يشعل نار الفتنة فهو آثم لا يوجد من يدفع عنه أو يعتذر له ولكن ما يقع فى أغلب البلاد الإسلامية شىء آخر ، خذ مثلا كشمير ، إن أهلها يطلبون حق تقرير المصير ، وقد أظهروا فى انتخاب حرّ أنهم يأبون الانضمام إلى الهند فلماذا تصادر مشيئتهم ؟

ولماذا يستكثر عليهم حقٌّ يتقرر لغيرهم فى هدوء ؟ ثم لماذا يوصفون بالإرهاب أو الأصولية أو الخروج على القانون وتبقى مشكلاتهم معلقة عشرات السنين ؟

وخذ مثلا «نيجيريا» أو «الجزائر» إن انتخابات حرة جرت فيهما ودلّت على اتجاه الجماهير إلى لون معين من الحكم وصنف معين من الناس فلماذا يصدر أمر عسكرى بإلغاء هذه الانتخابات ؟ وكيف يزعم أن الاتجاه إلى الإسلام ضد الديمقراطية ؟

ولماذا تسارع الدول إلى محاصرة «هايتى» التى رفضت حكومتها مثل هذه النتائج على حين تبارك الأوامر العسكرية إذا كانت ضد الإسلام ؟ وما معنى استخدام القوى العسكرية فى «الصومال» ورفض أى تدخل عسكرى فى «البوسنة» ؟ بعدما استيقن أهل الأرض أن مسلميها يواجهون حرب إبادة لا شرف لها ولا ضمير !

لماذا يُستكثرعلى المسلمين أن يعيشوا بدينهم وأن تتوفر لهم الحقوق والحريات التى توفرت لغيرهم ؟

وقرأت هذا الخبر منقولا عن «إسلاميك ريفيو» السويسرية تحت عنوان «بيع أطفال المسلمين» قالت هل وصلت حاجة ألبانيا إلى العملة الصعبة إلى حدّ بيع أطفالها ؟ ذكرت هيئة التلفزيون السويسرى أن حكومة ألبانيا باعت ألفى طفل مسلم إلى إحدى المؤسسات التنصيرية الأمريكية ! وستتولى هذه المؤسسة تنشئة الأطفال على المسيحية بالتعاون مع أسر أمريكية مستعدة لتبنّيهم . وكان منظرا رهيبا بعد أن أذاع التلفزيون صور الأطفال وهم يتعلمون الصلوات المسيحية وغيرها من التقاليد الكهنوتية تحت رعاية المنصِّرين .

وذكرت هيئة التنصير الأمريكية أنها أتمت الإجراءات القانونية المتعلقة بتبنّى وشراء هؤلاء الأطفال . .»

أإذا شعرت بالقهر ، وسالت العبرات لهذا الخبر أُعْتبَر أصوليا متعصبا وأحسب خارجا على القانون ؟

إن الاستعمار العالمى حين احتلّ البلاد الإسلامية ألغى الشريعة وهوّن العقيدة ، وحفر لها القبور فى انتظار أن تخمد أنفاسها ، فإذا جئنا نحن نريد إحياء شريعتنا وصيانة عقيدتنا قيل لنا إن الإسلام السياسى مرفوض !

وقام نفر من المرتدين وسماسرة الغزو الثقافى يصيح فى وجوهنا نرفض التخلّف ! إن التخلّف والضياع ما تجهرون به ضد القرآن والسنة خدمة لأعداء الإسلام فى كل مكان .

فليعرف المسلمون حملة هذه الأقلام فهم خونة ساقطون .

* * *

مواكب الماكرين

قرأت أن بابا الفاتيكان ينوى فى مطلع العام الجديد أن يزور جبل «موسى» تحية للمكان الذى نزلت فيه الوصايا العشر وهو يود أن يصحبه نفر من أصحاب الأديان الأخرى لإقام الصلوات وترديد الدعوات . .

ونحن المسلمين نؤمن «بموسى» عليه السلام وتوراته ونقرأ فى كتابنا قول الله له : « يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ »(1) .

فهل الذين تبعوا «موسى» عليه السلام آمنوا بما أوتى ونفذوا وصاياه ؟ أو بعبارة أخرى : هل الذين احتفوا بالعهد القديم احترموا شريعته وبنوا عليها مجتمعهم ؟ وما جدوى أن نزور مكان النزول إذا تواطأنا على إهمال ما نزل ؟

إن قادة الحضارة الحديثة فى أوروبا وأمريكا لا يبالون بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، ولا يكترثون بذكر الله إلا عند الموت ، عندما يفرض الفراق نفسه ثم تمضى بعدئذ مواكب الحياة مجنونة لا تلوى على شىء !

إن التشريع السماوى فى الحضارة الحديثة قد أهيل عليه التراب ويعتبر ذكره تخلّفا عقليا ! !

وقد تم فى القانون العالمى احترام الزنى إذا تم بالتراضى ، وأكرهت الدول الإسلامية على التزام ذلك فى تشريعها ! كما ألغيت عقوبة الإعدام ، ورفض مبدأ النفس بالنفس والعين بالعين المقرر فى التوراة ، ولا نزال نذكر كيف أباح مجلس العموم البريطانى اللواط حتى سن الثامنة عشرة وكيف حاول رئيس الولايات المتحدة إدخال الشواذ فى الجيش ! !

إن إهانة الوحى الإلهى وإطلاق العنان للغرائز الحيوانية أمسى سمة غالبة للنشاط الإنسانى فى العالم أجمع فهل يغنى عن ذلك أن يذهب آحاد أو ألوف إلى جبل الطور لإحياء ذكرى الوصايا العشر ؟

---

(1) الأعراف : 144 .

لقد ذهب نيافة بابا الفاتيكان إلى أقطار فى إفريقية وقبّل ترابها وأقام بها أحفالا دينية مائجة ، فماذا تم فيها ؟ انتشر الإيدز وبلغت ضحاياه الملايين ، وفى بعض الفتن العرقية قتل مائتا ألف فى رواندا وحدها . . فهل هذه ثمرات التبشير الحق ؟

إن للدعوة إلى الله أسلوبا آخر تنكره أوروبا وترفض أصحابه أساسه إيمان لا شرك معه وصلاح لا ريب فيه ! ونحن نعرف أن بابا الفاتيكان دبلوماسى محنك ودارس كبير وأعتقد أنه محيط بعقيدتنا فى المسيح وأمه عليهما السلام ، إننا نحبهما ونثنى عليهما وننفى عنهما كل دنس ، ومع ذلك فدول العالم المسيحية تؤثر علينا اليهود وتناصر قضاياهم ضدنا !

أى سلوك هذا ؟

وما موقفنا فوق جبل الطور إذا كان ألوف المسلمين بعيدين عن بيوتهم يعيشون فى العراء ؟

هل الله العلىّ الكبير ترضيه هذه «الدبلوماسية» الجائرة الماكرة ؟

أليس إحياء التشريع الإلهى أهم من هذه المظاهرات ؟ .

* * *

ابتغاء الفتنة...

لا نبالى بمن يخاصموننا فى الله فنحن موقنون بربنا الواحد وثابتون على احترام وحيه واتباع أنبيائه . وإذا كانت هزائم الآباء قد عطلت شريعته وأهانت عقيدته فذاك عرض زائل وسنعود سيرتنا الأولى ما بقى فينا نفس يتردد . ولن توجد فى المصحف آية ميتة أو حكم مجمد . . وسيفشل عبدة الطاغوت فى ليّ زماننا بإذن الله « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[1] . .

من غرائب الزمان أن الكارهين لله وهداه يسمّون أنفسهم «تنويريين» ! وأنهم لن يستريح لهم بال حتى يحققوا رغبات الاستعمار العالمى فى محو الإسلام من الأرض . .!

الهدف محو الإسلام وحده ! ولتبق الأديان كلها بعد ذلك فما يعاب عليها شىء وما يخاف منها شىء . .! جرى ذلك الفكر فى نفسى وأنا أقرأ بعض ما كتبه الدكتور «مراد وهبة» تحت عنوان «تيار الأصولية يتحكم فى الإعلام ويهيمن على التعليم» قلت : ماذا يريد الرجل ؟

لقد أوهمنا أن «الغزالى»[2] درويش كبير وأن جموده العقلى نال من الفكر الإسلامى كله ، وأن «ابن رشد»[3] هو إمام التنويريين (!) وأن العالم الإسلامى لن يبصر الطريق إلا إذا مشى خلفه وبهذا التوجيه أصبحت عصابة الشيوعيين التى تعمل تحت عنوان التنوير تعتمد على أبوة عقلية محترمة !

و «الغزالى» و «ابن رشد» من علماء الإسلام الكبار ، وكلاهما يحترم الكتاب والسنة ، والخلاف العقلى بينهما كالخلاف الفقهى بين «الشافعى» و «أبى حنيفة» لا

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .

(٢) أبو حامد الغزالى ت ٥٠٥ هـ .

(٣) ابن رشد أحد أعلام الفلسفة الإسلامية - رد عليه أبو حامد فيما ذهب إليه . . .

يعنى شيئا ذا بال ، ولو وجدا فى هذا العصر لكانا صديقين حميمين ولتعاونا معا ضد الإلحاد الأحمر أو الأصفر .

إن منهج الشك عند «ديكارت» مستقى من منهج الشك عند «الغزالى» وعندما نقد «أبو حامد» فلسفة الإغريق كشف عن عقل من أكبر العقول فى دنيا الناس ، كان يسبح فى أفق أسمى من آفاق «أرسطو» و «أفلاطون» و «سقراط» جميعا ، وبالعقل الذرِّى الذى منحه الله إياه ترك هذه الفلسفة خرائب فى أغلب قواعدها . .

أما ـ «ابن رشد» فهو مع يقينه الجازم بالكتاب والسنة فله وجهة نظر تقترب أو تبتعد عن «الغزالى» وليس فى ذلك حرج ولا لوم ، وكان العالمين الجليلين من قمم الفكر الدينى .

ولا أدرى ما علاقة «مراد وهبة» - وهو مسيحى يخدم مسيحيته بإخلاص - بهذه القضايا القديمة وما معنى اتهامه الإعلام والتعليم بالأصولية ؟ أظنه لن يرضى إلا إذا أقيم تمثال « لماركس » أو «لينين» فى أحد ميادين القاهرة ، وخلع الإسلام من جذوره .

* * *

عبيد الحياة

الظن الغالب أن العلمانيين العرب امتداد للعلمانيين فى الغرب يجمعهم كره الدين والإخلاص للحياة وحدها ! وهذا خطأ فالعلمانيون فى أوروبا وأمريكا اصطلحوا مع المسيحية - وهى الدين الغالب - وتعايشوا معها .

فالملكة فى انجلترا رئيسة الكنيسة الإنجيلية وحاميتها ، والحكومات فى حلف الأطلسى من الأحزاب الديمقراطية المسيحية ، والصبغة السياسية العامة تميل مع «إسرائيل» وتنحرف عن «البوسنة والهرسك» ، وتضيق بقضايا الإسلام كلها . .

أما العلمانيون العرب فصفتهم الأولى كراهية الإسلام والبعد عن عباداته وإعلان الحرب على شريعته ومخاصمة كل من ينادى بإحيائها ! هذا كل ما يعرفونه عن العلمانية ، وهذا نفسه هو ما يجعل أوروبا وأمريكا تحتفيان بهم وتدفعان عنهم .!

لكن ما العمل إذا كان سير الحياة محرجا ، وإذا تدحرجت الأوضاع وتقرر نهائيا التسليم بقيام إسرائيل ومحو العروبة والإسلام عن جزء غالٍ من دار الإسلام ؟

إن عبيد الحياة لا يكترثون بذلك ، إنهم لا يعرفون مقدسات فى جنوب أو شمال ، إنهم يعرفون مآربهم ومصالحهم وحسب . .

وقديما - فى أثناء الحروب الصليبية - اشتبك الوزيران «شاور وضرغام» ، هذا مع الصليبيين ، وذاك مع المسلمين ، ودارت بينهما الحروب ، بل إن الملك «الكامل» حفيد السلطان المظفر «صلاح الدين» - ساوم الصليبيين على أخذ بيت المقدس وتركه آمنا فى مصر !! ، وطالت الأيام المظلمة ، فماذا حدث بعد ؟

بقيت أرض الإسلام له وهلك المتآمرون عليه « ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ »[١] .

---

(١) المرسلات : ١٦ : ١٩ .

ونحن المؤمنين نرقب الأحداث بقلق وغضب ونعلم أنه من الممكن استرداد الحقوق بالتجزئة إن عزّ الحصول عليها دفعة واحدة !

ولكن كيف يتم ذلك مع النفور من الإسلام وترك شرائعه وشعائره . .؟

كنت فى ندوة – من بضع سنين – لدعم الكفاح فى فلسطين ، وأعلن الأذان لصلاة المغرب فهبّ الجميع للصلاة إلا واحدا هو مندوب منظمة التحرير ، فقلت : لعله مسيحى وعذرته ثم عرفت بعد أنه مسلم علمانى فقلت : ما أبعد النصر . .!!

إن اليهود متشبِّثون بكل كلمة فى توراتهم وهم محاربون أشداء عن مواريثهم التى يزعمون فهل يغالبهم إلا أصحاب إيمان أقوى ، وتعصب أشد ؟ « وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ »[1] ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »[2] .

* * *

(١) الحج : ٤٠ .
(٢) محمد : ٧ .

ليسوا دعاة

رمقت بعض الناس فى ميدان الدعوة ثم تمنيت لو اشتغلوا بحرفة أخرى ! وما أظن أن الحرفة التى يختارونها لأنفسهم ستكون سعيدة بهم ! إذا كان الدين تيسيرا فهم معسِّرون ، وإذا كان تبشيراً فهم منفِّرون ، . والمعروف فى خلق رسولنا ﷺ أنه كان هاشاً باشّاً لكن هؤلاء فى ملامحهم تجّهم ، وفى أعطافهم شراسة . . .

ومحور نشاطهم بعض الأحكام الفرعية يؤثرون فيها رأيا ويقاتلون الرأى الآخر ، ولو أخلصوا لله نياتهم لوجدوا ألف طريق لخدمة الإسلام بعيدا عن هذا الجدال المحموم .

أذكر أنى سئلت يوما عن رجل أدرك الإمام راكعا فى الأولى ، وأتم الركوع معه ثم أتم بقية الصلاة هل عليه شىء ؟

فقلت غير مكترث : لا !

فقال رجل بصوت حادّ : بل يقضى الركعة الأولى ! فنظرت إليه فإذا هو يستعدّ لخوض معركة بدنية فقلت متجاوزا القضية كلها : ماقلت هو الرأى الراجح ، وإذا أردت غير ذلك فأنت حرّ !! فرأيته راغبا في الاشتباك والأخذ والرد فغادرت المكان . . .

ليس هؤلاء فقهاء ولا دعاة ودينناأحوج ما يكون إلى حسن الخلق وسعة الأفق والتأتِّى إلى الأمور من باب اليسر والأدب .

إن أعداء الإسلام فجروا الذرّة ، ولديهم أسلحة أخرى لا ندريها وليس أمامنا إلا إحكام الرأى وإيثار الحسنى وعرض الحق بأشرف الأساليب ، وهذا هو ما تعلمناه من ديننا . . .

وهناك شىء آخر ،ليس كل ما مضى من تاريخنا يصلح لأن نعود إليه ، ونتأسّى به ففى تاريخنا الطويل كبوات مفزعة تشبه الأيام التى نحياها الآن !

إن الفترة التى سقطت فيها بغداد تحت سنابك التتار ، أو سقطت فيها القدس تحت

سنابك الصليبيين ليست موضع الأسوة الحسنة ، إنها فترة يُحكم عليها ولا يُحتكم إليها ، والأسوة إنما تؤخذ من خير القرون وأعظم الناس اتباعا لصاحب الرسالة العظمى ، وقد رأيت من الدعاة من يخلط بين الأيام الحلوة والأيام المرّة فى تاريخنا وينشد العودة إلى الماضى وحسب !

إن أمامنا الكتاب والسنة ، وصورة الإسلام فيهما واضحة ، فمن أحسن العمل بهما تآخينا معه وإلا نبذناه والهزائم التى مرت بالمسلمين فى التاريخ القريب والبعيد يجب أن تدرس أسبابها ، وأن نضعها تحت المجهر لنكتشف أدقّ جراثيمها ونأخذ الحيطة منه ، وبذلك نبنى مستقبلا أكرم .

لقد رأيت بعض الناس يحسب السلف الصالح هم أجداده الأقربون ، ويحسب أن سيرتهم فى الدين والدنيا هى المثل الأعلى ، لا ، إن سلفنا الصالح هم مؤسسو دولة الإسلام وحضارته وثقافته الرفيعة ، هم هازمو الباطل وتاركوه يلتمس المهارب فى المشارق والمغارب .

* * *

المتفيقهون

العوام وأشباهم من المتعالمين يعرفون القليل ويجهلون الكثير ولا يتقون الله فيما يعرفون بل قد يرتكبون به الإثم ويثيرون الفتنة !! ولعل ذلك ما دعا الغزالى إلى تأليف كتابه «إلجام العوام عن علم الكلام» .

لماذا لا يتقن هؤلاء الحِرَف والصناعات الميسورة لهم ويحسنون علاج الأعطاب الشائعة بدل أن يشتغلوا بالفتاوى ويثرثروا بالإصلاح ؟

إن ما يحتاج إليه الناس من أحكام شرعية ليس معضلا إنه نزر يسير ثم ينضم إليه الإخلاص والنشاط وحب الإصلاح فتستقيم الأمور إن أنصاف المتعلمين - أو أعشارهم - يحبون المباهاة بما لديهم على ضحالته كما يسارعون إلى انتقاص الآخرين وإظهارهم قليلى المعرفة . .

كنت أحدث بعض الناس فقلت له : يا سيدى الأمر كذا وكذا . . .

فأسرع يقول لى : يا سيدى هذه شرك ! السيد الله !!

فأجبته للفور : السيادة المطلقة على العالمين هى لله لا ريب كما أن العلم الشامل له تبارك اسمه ، ولا يمنع هذا من أن يكون بين الناس علماء وقد استعمل القرآن كلمة سيد فى وصف «يحيى» عليه السلام « وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »[1] وفى وصف زوج صاحبة يوسف عليه السلام «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ »[2] .

ووصف الرسول عليه الصلاة والسلام الحسن بن على رضى الله عنهما فقال : **إن ابنى هذا سيد . .! .**

وقال للأوس عندما قدم سعد بن معاذ رضي الله عنه : « **قوموا إلى سيدكم** » .

---

(١)آل عمران : ٣٩ .

(٢) يوسف : ٢٥ .

إنك يا سيِّد حفظت شيئا وغابت عنك أشياء ، إنك تشتهى شتم الناس ، ولو كنت مصيبا ما قبل الله منك حتى تخلص لربك وتتعلم الأدب !

وفى ميدان الفقه الإسلامى - والخلاف فيه بحر ليس له ساحل - وجدت هذا الصنف يحفظ بعض الأحكام ويريد المماراة بها وتغليبها على غيرها ويبسط لسانه بالأذى فى بعض الأئمة الكبار فلا كرامة لأحد خالف ما يعرف ! !

أنا أصلى الفجر وراء أئمة يقنتون ووراء أئمة لا يقنتون عالما أن الأئمة الأربعة الكبار اختلفوا فى هذه السنة فمالك والشافعى يقنتان وأحمد وأبو حنيفة لا . . . والخطب سهل وإغلاق المسجد عندى أهون من حلّ هذه المشكلة بالعصىّ .

إن الأمة الإسلامية تواجه أياما كالحة وأعداء مكرة مهرة فهل نلقاهم برجالنا الواعين ، أم نضع زمامنا فى أيدى الرعاع وأعشار المتعلمين ليقودونا إلى الهاوية .

إن بعض المنتمين إلى الإسلام يظلمونه بقصورهم ورفضهم سؤال أهل الذكر فهل نتعجل الهزيمة الماحقة بهذا التعصب .

* * *

تسليمة نسرين

دأب الغرب على إهداء الثناء المستطاب للكتاب الملاحدة ، وتشجيعهم ماديا وأدبيا على ضرب الإسلام وإهانة شريعته .

وفى الشهر الماضى تسلمت الكاتبة البنغالية «تسليمة نسرين» جائزة نادى القلم وهى أكبر الجوائز فى السويد بعد جائزة نوبل ، وتعيش الآن فى السويد عيشة راضية ، بعدما تركت «دكا» التى حوكمت فيها بتهمة مهاجمة الإسلام !

وتذكر مجلة «تايم» الأمريكية إجماع النقاد على أنها كاتبة نسوية كافرة ، وأن أسلوبها مفكك وقصصها ضعيفة لا ترتفع إلى مستوى الكتابات الجادّة ، ولكنها اكتسبت شهرتها من صرختها ضد المعاملة الرديئة التى تلقاها المرأة فى المجتمع الإسلامىّ !!

وعندما سئلت هل تعمدت استثارة المتطرفين ؟

قالت : من بدء حياتى وأنا أهاجم الشريعة الإسلامية !

وأمام المحكمة فى «بنجلادش» قالت : إنها لا تقصد القرآن وحده بالنقد ، ففى رأيها أن الأديان كلها تحتاج إلى مراجعة !!

لكن كيف سارع نادى القلم إلى إهدائها الجائزة الثمينة ؟ رغم أنها كاتبة مغمورة تافهة القيمة ؟

تكفى الإشارة إلى أن مؤسس الجائزة التى يمنحها نادى القلم هو الصهيونى الكبير «كورت تشولسكى» الذى حارب الإسلام والمسلمين أمدا طويلا ، واستمات فى ترويج قصة أن فلسطين أرض الميعاد وأن إسرائيل ملتقى يهود العالم .

وإذا كانت نسرين قد نالت هذه الجائزة عام ١٩٩٤ فقد سبقها سلمان رشدى فى نيل هذه الجائزة سنة ١٩٩٢ .

وتقول جريدة الراية المغربية : إن هناك أكثر من كاتب مصرى وعربى يرشح لنيل هذه الجائزة ! . .

إن تشجيع الأقلام المرتدة خطة سياسية أوروبية وأمريكية .

وفى تونس منح أرفع الأوسمة لكتاب يناصرون الانحراف ومخاصمة الإسلام ! فى الوقت الذى يطارد فيه أهل اليقين والوفاء لدينهم وتراثهم !

الغريب أن فرنسا التى تحارب الحجاب الإسلامى فى مدارسها توزّع بالمجان موانع الحمل على الطالبات ، ويكاد الأولاد غير الشرعيين يزيدون على الأولاد الشرعيين !

ونتساءل ماذا فعل المسلمون للسويد حتى أثاروا ضغائنها على الإسلام وتعاليمه ؟ لا شىء !

إن جماهير المسلمين لا تعرف هذا الاسم ، وما أساءت قط إلى السويد سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا ، إنها الصليبية المتوراثة من قرون طوال تحيّرنا كيف نرضيها ونكتفى شرها .

* * *

حقارة فكرية

اهتممت بسماع «الرأى الآخر» فى قضية المرتدة «تسليمة نسرين» الطبيبة البنغالية التى أهانت القرآن ونسبت إليه ظلم المرأة وطلبت إلغاء شريعته !

قالت إذاعة لندن إن دول أوروبا الغربية أعلنت حمايتها لها ويسّرت لها أن تهاجر إليها ، بل إن ألمانيا عرضت عليها أن تقيم فيها وتنشر آراءها على أرضها . .!

ودول أوروبا الغربية – من بضعة شهور – منحت سلمان رشدى جائزة سنية وأكدت رضاها عن ارتداده واستعدادها للدفاع عنه .

إن أوروبا كلها بالنسبة إلى الإسلام عدوّ ينتظر نائبة ! ويسرّها أن يرتد المسلمون جميعا لا رجل أو امرأة .

قالت الطبيبة البنغالية : لماذا يبيح القرآن للرجل أن يتزوج أربع نسوة ، ولا يبيح للمرأة أن تتزوج أربعة رجال ؟

ونسيت المرأة أن تعدّد النّطف فى وعاء واحد هو سبب الزهرى والسيلان ، ولعله إذا ساد يضاعف طاعون الإيدز !

إن شذوذ العلاقات الجنسية باب إلى الدمار والفوضى وقضاء مبرم على الأسرة ! ومن الغلط الشائع تصور أن الإسلام انفرد بإباحة التعدد ، فالأديان كلها سماوية أو أرضية أباحته ، ولم يوجبه واحد منها وقد زعمت التوراة أن سليمان عليه السلام كانت لديه ألف امرأة !! لماذا ؟

وقرأت الباب الغريب الذى سجّلته التوارة عن شَبَق سليمان عليه السلام تحت عنوان «نشيد الإنشاد الذى لسليمان» كان الرجل المشتاق يبحث فى دروب القدس عن الحبيب المجهول أو المعلوم ويشتاق إلى الوصال بنهم مفرط ! !

قلت فى نفسى هذه الصورة المذهلة لأدب الفراش يصمت أمامها الأوروبيون ، ثم يجرون وراء النبى الذى تجاوز الخمسين من عمره مع زوجة تكبره كثيرا يلتمسون له التهم ويفترون عليه الأكاذيب ويكافئون من يشتمه !

إن حضارة الغرب تمنع الزواج بثانية وتبيح الزنا بمئات ، وتعاقب على تعدد الزوجات وتشرع اللواط وتحميه ..

وتنظر إلى دار الإسلام فإذا وجدت رجلا أو امرأة يطعن فى سيرة محمد ﷺ هشّت له وفتحت ذراعيها مرحبة !!

وقد عُرف الآن بين المثقفين أن الإلحاد أقصر طريق إلى الشهرة والترقية ! وأن الانحراف ضمان للأمان والرضا ...!

أطلب من الشباب المسلم أن يحتقر هذه الأوضاع ، وأن يتشبث بدينه وشرفه رغم المثبطات والعوائق !

إن الإلحاد حقارة فكرية وسوأة خلقية ، وإذا كان حاضره مريحا فإن مستقبله محفوف بالمكاره مقرون باللعنة والغضب .

* * *

حقد وحماقة

عدوى التحامل على الإسلام سرت إلى الصين ، فانتشر فى المناطق الإسلامية كتاب يهين تعاليمه ويشوه حقائقه ويصور المسلمين يصلون على خنزير !

حدث ذلك فى مدينة «شنغاهاى» فوقعت مظاهرات غاضبة ، وقالت وكالة الأنباء الصينية إن المتظاهرين اعتدوا على مكاتب الحزب الشيوعى والدواوين الحكومية وهاجموا سيارات الشرطة وحاصروا قوات الأمن ، واتهم المسلمون بأنهم لا يحافظون على الوحدة الوطنية!! على أن العقلاء من رجال الحكومة سارعوا إلى علاج الموقف بالحسنى ، وفصلوا مدير دار النشر ونائبه وحظروا توزيع الكتاب ، وبذلك سكت المسلمون واستأنفوا حياتهم العادية .

ومسلك الحكومة الصينية أرشد من مسلك الأتراك الذين أذنوا بطبع نسخة من كتاب الوغد الهندى «سلمان رشدى» «آيات شيطانية» فلما غضب الجمهور لإهانة دينه أطلق الرصاص على عدد من المتظاهرين ، فقتل بضعة أفراد ، ذهبوا شهداء غيرتهم الإسلامية ، ورفضهم تحقير الإسلام !

إن شتم ديننا والنيل منه يتمان وفق مؤامرة عالمية بدأت من أوروبا ، وانتشرت شرق آسيا وغربها وشمال إفريقية وجنوبها ، وقد لاحظت أن «كينيا» حظرت تكوين حزب إسلامى مع أن عدد المسلمين بها قريب من نصف السكان ! أى نحو ثمانية ملايين !

وفى مباراة «المغرب» مع «زمبابوى» استحمق أحد الرؤساء المشتغلين بالتبشير ، وأراد شحن العواطف ضد لاعبى المغرب ، فقال لقومه إن المباراة حرب صليبية ! ولابد من الانتصار فيها . . وانفجر غضبه عندما جاءت النتيجة بما لا يشتهى !

ما دخل كرة القدم فى اختلاف الأديان ؟ !

إنها الكراهية عندما تتحول إلى حماقة !

ويؤسفنى أن قوى خفية - وقد تكون جليّة - تكيد للإسلام بكل وسيلة تتيسر لها ، وقد انتهزت فرصة الهزائم العسكرية والسياسية التى حلّت بأهله فشنت حرب منشورات وإذاعات على الدين المثخن بالجراح كأنما تريد الإجهاز عليه ، ولكن حراس الإسلام - بالوسائل القليلة المتاحة لهم - يقاومون ، ويثبتون فى أماكنهم برغم ضراوة الهجوم وضعف الأدوات . . .

إن دولا عظمى تمنع السلاح عن مجاهدى البوسنة ، وتُمِدُّ به خصومهم حتى ينهار الدفاع الإسلامى وتسقط حصونه ، ولكننا لن نستسلم « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ »[1] .

* * *

---

(١) يوسف : ٢١ .

غَـــرور

قرأت وصفا لسرب من الجراد يطير بين غرب آسيا وشرق إفريقية ، قالوا طوله ألف كيلو متر ، ويضم أربعين مليار جرادة !

شعرت بفزع فإن هذا السرب يقارب طول القطر المصرى من الشمال إلى الجنوب ، وإذا بلغ أرضنا ترك الديار بلاقع ، وحصد الحدائق والحقول ، وتركها عيدانا ذاوية لا خير ولا ثمر !

سألت نفسى : ما يكون الجراد بين مخلوقات الله ؟ حشرة طائرة لا تلفت النظر لتفاهتها ! لكنها إذا اجتمعت مع غيرها كانت خطرا داهما . .

وتذكرت دودة «البلهارسيا» التى تجعل البشر يبولون دما وتورثهم عللا مشقية أو مردية ، إن المليارات منها تغمر مساحة محدودة الطول والعرض ، فإذا أصاب بعضها أبناء آدم نال منهم وأودى بهم .

وانتقل الخاطر بى إلى الطبيب الألمانى «بلهارس»الذى اكتشف هذه الدودة ومسارها فى الجسم الإنسانى والأوصاب المتخلفة عنها .!

وقلت : لماذا بقينا ذاهلين حتى جاء الخواجة فأسدى لنا هذا الجميل ؟

لأترك هذا السؤال المعترض ولأعد إلى ما يهدد البشر من أخطار !

لقد لاحظت أن ما نستضعفه من العناصر هو الذى يتحول ماردا عاتيا يهددنا بالهلاك ، خذ الماء مثلا ، إننا نرتفقه شرابا وطهورا طيّعا بين أيدينا ، ولكن ما الحال إذا أمطرت السماء وظلت تمطر أياما وليالى ؟

لقد رأيت صور بلاد نكبها الفيضان فهدم بيوتا وقطّع أوصال أخرى وغمرت الأمواج الشوارع فلم يلق أحدٌحداً وقد رأيتُ موجَ البحارِ وهو يعلو ويهاجم ويفور ويمور ؟ إنه لا يبقى ولا يذر !

بل انظر إلى النسيم العليل ، إنك تحركه بيدك كى يرطب وجهك ، وتستقبله بالرضا فكيف الحال إذا تحرك ريحا عاصفة ، وبلغ من قوته أن يحمل سيارة فيقذفها بعيدا . .

إن أضعف شىء قد يتحول بالمشيئة العليا إلى أقوى شىء وما يحقره الإنسان قد يتحول - بهذه المشيئة - إلي عدو ذى بأس شديد ، وتدبرّه مع هذه الحقائق قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّه لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »[1] .

إن الإنسان قد تهزمه جرثومة أقل من الذبابة ألف مرة ، ومع ذلك يغرّه بالله الغرور ! .

* * *

(١) الحج : ٧٣ .

هل هذا تناقض؟!

تمر بالمتهم أحوال شتى بعدما يقبض عليه ويقدَّم للمحاكمة ، سيزعم أول الأمر أنه بريء وقد يقسم على ذلك . حتى إذا أحاطت به الأدلة وتظاهرت ضده القرائن اضطر إلى الاعتراف وهو صاغر .

وقد ذكر القرآن الكريم مواقف المجرمين ، وما يمر بها من تناقض فقال فى الأولى « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[١] .

وقد يفجؤهم الفراغ الذى يصفر حولهم ، وعدم وجود نصير يدفع عنهم فيعترفون بضلالهم « . . . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ »[٢] .

وقد ينكرون ما وقع منهم حتى تنطق أركانهم بكذبهم « حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ »[٣] .

وبديهى أن المجرمين يستسلمون بعد مقاومة أو تقصير ، ثم يساقون إلى مصارعهم على نحو ما قيل « فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ »[٤] .

وقد شرح العلماء هذه المواقف جامعين بين شتى الآيات وقد قرأت أخيرا أن أحد الحمقى وصف القرآن بالتناقض لماذا ؟ لأنه وصف يوم القيامة طورا بأنه ألف سنة وفى مكان آخر بأنه خمسون ألف سنة ! !

قلت للفور : الآية الأولى غير الثانية : فالخمسون ألفا هى يوم العروج لقطع المسافة

---

(١) الأنعام : ٢٢ - ٢٣ .
(٢) الأعراف : ٣٧ .
(٣) فصلت : ٢٠ .
(٤) الرحمن : ٣٩ .

بين الأرض الدنيا وعرش الرحمان « ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » [1] لكن الملأ الأعلى يقطع هذه المسافة أسرع من الضوء الذى يقطع المسافة بين الشمس والأرض فى بضع دقائق !

أما الألف سنة فهو ظرف تدبير الأمر فى شئوننا الأرضية « وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » [2] ، وتدبير الأمور كلمة واسعة ، قد تتم فى لمح البصر ، وقد تستغرق دهرا طويلا .

وحساب الزمان فى عالمنا الأرضى غيره فى كواكب أخرى ، قد يكون العام فيها ألف عام عندنا . .

إن آجالنا محدودة وأعمارنا موقوتة ورب العالمين لا يرسل أقداره وفق وعينا القاصر إنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض وفق حسابات أخرى تتلاشى فيها القاصرة ، وما عمر الإنسان العادى إلا قطرة يسيرة فى بحر الحياة الطويل ، وما إحساسنا بما حولنا إلا جزء تافهٌ من الوجود السرمدىّ الذى يسود الكون من أزله لأبده .

* * *

(١) المعارج : ٤ .

(٢) الحج : ٤٧ .

عوائق فى طريق الإسلام

عدد من المثقفين العرب المعاصرين يشغب على التراث ويتمرد على العبادات ويكاد ينسلخ من دينه لولا ما فى ذلك من تبعات ولكنه على الإجمال معتلّ القلب مضطرب الوجهة !!

تساءلت عن عمل أولئك المثقفين أيشتغلون بدراسة الكيمياء والفيزياء والكهرباء وعلوم الفضاء وسائر ما تخلّفت فيه أمتنا ، كى يسدُّوا الخلل ويستدركوا ما فات ؟

فوجدت أغلبهم يشتغل بالأدبيات العامة ولا علاقة له بدراسات الكون والحياة!

ووجدت أساس ثقافتهم المعلومات السُّوقيَّة المأثورة عن فلاسفة معلولين أمثال «ماركس» و «سارتر» و «فرويد» وغيرهم . وأنهم مقطوعون عن السبق العلمى الذى تفوّق فيه الغرب وما يدرون عنه شيئا . . .

وربما كانت لبعضهم دراسات فى العلوم الحديثة أنالتهم إجازات علمية أمّنت معايشهم فقط ، ووقفتهم عند حدودهم لا يستطيعون حراكا ولكنهم ناشطون نشاطا محموما فى تعكير الصفو وبعثرة العوائق فى طريق الإسلام واللغط الطويل حول قدرتهم على التنوير . . . ، أى تنوير هذا ؟

لقد قلت إنهم لا صلة لهم بالعلوم الحديثة ، فهل التنوير المزعوم إثارة الغبار حول ثقافتنا التقليدية وترديد مزاعم المستشرقين حولها ؟ والصياح بالحق فى الارتداد !! والتعاون مع بعض الجامعات الأجنبية على تشويه الإسلام ؟

أعرف أن أحدا من هؤلاء لم يُر فى مسجدولم يتورع عن خمر ، ولم يتجاوب مع شعْب إسلامى مظلوم ، ولم يعترض شهوة استعمارية جامحة ، فما بقاؤه بيننا ؟ ولماذا لم يلحق بمن هواه معهم ؟

لقد أدركت أن لهؤلاء الناس رسالة خسيسة يحملونها ويقدمون لسادتهم حسابا عنها . إنهم كثروا بيننا ، وربما كانوا قلة فى بعض الأقطار التى عافاها الله ، لكنهم كثروا حيث تنتظر للإسلام نهضة ، ويرتقب لأنصاره نجاح . .

والأمة الإسلامية الآن فى مفترق طرق ، والمكر بها سىّء ، ولا معنى لفسح الطريق أمام الكائدين لها والضائقين بدينها ولعل عجبك يزداد للصلف الذى تشعر به هذه الطوائف المرتدة ، والأسلوب الذى يتحدثون به عن غيرهم ، إننى ذكرت الآية الكريمة فى المنافقين الأقدمين « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ »[1] .

إن ملاحدة العرب المعاصرين لاحظوظ لهم من الارتقاء العلمى المزعوم ولكنهم يحسنون التطاول على دعاة الإسلام وحملة ألويته وهيهات فالعاقبة للمتقين . .

* * *

(١) البقرة : ١٣ .

سب القمم.. وحقوق الإنسان

ليس يصحُّ فى الأذهان شىء إذا كان السبّ العلنى جزءا من البحث العلمى ، أو كان تجريح الكبار جزءا من حقوق الإنسان . .

إن الذين يدافعون عن «سلمان رشدى» إما أنهم لم يطلعوا على ما كتب ، وإما أنهم حاقدون على «محمد» ﷺ لأنه حمل رسالة الإسلام للعالم ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور . .

إن عددا من ساسة الغرب - وفى طليعتهم الإنجليز - يضيقون بمحمد ﷺ وتاريخه، ويشجعون كل طاعن فيه ، ويروجون لكتبه فى الأسواق ، ويعطون الرشاوى المادية والأدبية لمن يتناول «محمدا» ﷺ بسوء !

ونحن نعرف القوم ، ولكنا نستغرب أن يُلبسوا مخازيهم رداء حرية الرأى وشارات حقوق الإنسان !

للإنسان أن يقول ما يشاء دون حرج ! هكذا يزعمون !

ولما كان القانون الانجليزى يأبى التهجم على الدين ، فقد لجأ بعض المسلمين إلى القضاء ليمنع نشر «رواية آيات شيطانية» إنفاذا للقانون ، ولكن قيل لهم : إن المراد بالدين هنا هو المسيحية لا الإسلام ، وانتهز أعداء الإسلام الفرصة ليصدروا طبعات شعبية من الرواية القذرة ، ويضاعفوا الحراسة المسلحة على كاتبها ويوسعوا دائرة النشر فى العالم كله .

وقد قام أحد الملاحدة الأتراك بترجمة الرواية ليوزعها بين أفراد الشعب التركى المسلم ، ووقعت معركة بين الجمهور الغاضب وبين الكاتب الملحد وشيعته قتل فيها خمسة وثلاثون رجلا !!

ولما كانت الضغينة على «محمد» ﷺ ودينه لا تنتهى فإنى أتوقع أن تترجم الرواية إلى لغات أخرى ليزداد الهجوم على الإسلام ضراوة وتكثر الضحايا بين المدافعين !

والسؤال الذى ألحّ فى توجيهه وأطلب الإجابة عليه : ما العلاقة بين حماية سلمان رشدى وبين الدفاع عن حقوق الإنسان . .؟

إن فرنسيا نذلا ألف رواية عن عيسى بن مريم عليه السلام اتهمه فيها بالشذوذ ! ! ، وقد أحرق الجمهور السينما التى مثلت فيها الرواية ، وهذا حقه فلم يقل عاقل : إن حرية الرأى تعنى سفالة التهمة وتلمس العيب للقمم !

ما علاقة حقوق الإنسان برغبة وغدٍ فى الهجوم على نبى كريم ؟

قلبى مع الأتراك الذين طاردوا مترجم آيات شيطانية وأرغموه على الفرار ، إن ذلك الغضب لله بقية إيمان حرّ ، والإيمان كما جاء فى السنة الشريفة حب وبغض . .

* * *

عصابات من المجانين

لست قاسيا وأكره قساة القلوب ، ولست أتتبع العثرات ولا أنا من متلمسى العيوب للأبرياء لكننى أرفض مبارزة الله بالمعصية والتبجح بالرذيلة فى جنبات المجتمع . .

وأذكر النصيحة النبوية الحكيمة **«اجتنبوا هذه القاذورات ، فمن أَلَمَّ بشىء فليستتر بستر الله فإن من أبدى لنا صحيفته أقمنا عليه حدَّ الله»** .

قلت لشخص عَلْمانى سكّير : إذا عجزت عن ترك الخمر فلن تعجز عن الاختفاء بها فلا يراك الناس غائب الوعى !

فقال فى بلادة : أنا أشربها علانية على مذهب القائل :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر . .!!

قلت له : إن هذا الماجن تاب إلى ربه وعرف سوء ما كان يفعل وقال :

إذا عرف الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق . . .

فقال لى : تذم الدنيا ؟ لم يبق إلا أن تحدثنى عن عذاب القبر !

فقلت له : إنك بهذا المسلك تنحدر من الفسق إلى الكفر !

فقال : أنا أعرف منك بالشريعة ألم تقرأ التحقيق العلمى أن الخمر حلال !!

قلت له : أى تحقيق ؟

قال : ما كتبه المستشار سعيد العشماوى المفكر الإسلامى الكبير وهو يفسر قوله تعالى « قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ . . . »[1]

فقلت على عجل : هذا السعيد ليس مفكرا إسلاميا ولا نصرانيا ولا مفكرا أصلا . . هذا كلام من يهرف بما لا يعرف . إن الخمر رجس بنص القرآن فهل أباح

---

(١) الأنعام : ١٤٥ .

القرآن شرب الرجس وحرم أكله ؟ كل من الخمر والخنزير رجس فكيف يباح أحدهما ويحرم الآخر ؟ إن تحريم الخمر من المعروف بالدين بالضرورة ومن جحد تحريمها مرق من الإسلام ، وكفر بالكتاب والسنة معا . . .

إن عصابات من الماجنين انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى لا تعرف صلاة ولا زكاة ، ولا تعترف بحلال أو حرام أخذت تنخر فى كيان الأمة منتهزة الهزائم العسكرية التى نزلت بنا ، وهى فيما أرى «طابور» خامس يتهدد قلب الإسلام ، وما أحسب هذا التوافق بين الهجومين تمَّ من تلقاء نفسه !

وهناك دور ثالث لجامعات أوروبية وأمريكية تسعى نحو هذا الهدف وتستعمل أسماء إسلامية للنيل من صميم الإسلام ، وآن الأوان لنكشف أعداءنا .

* * *

عصيان خبيث

العمل محرم على اليهود يوم السبت ، ولكن بعضهم رأى أن يخترق هذا التحريم بحيلة قد تنطلى على الله فذكر جل شأنه نبأهم فى هذه الآية . « وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »[1] .

لقد لاحظ الصيادون الذين يعيشون حول الميناء أن السمك يملأ البحر يوم السبت ، فإذا جاءت الأيام الأخرى قلت الأسماك أو اختفت فماذا يفعلون ليغتنموا سمك السبت ؟

صنعوا وراءه سداً يمنعه من العودة ، واستولوا عليه يوم الأحد ! وبذلك أرضوا أنفسهم وحفظوا سبتهم !! وحسبوا أنهم خدعوا ربهم بترك الصيد محبوسا فى الماء يوم السبت .

وبعض المتدينين يحسن صناعة الحيل فيأتون بالعمل يشبعون به هواهم فى صورة تتفق مع تعاليم الدين أو تلتقى به فى ناحية ما . .

ولكن هذا العصيان الخبيث لا يقبله الله . ولا يخرج أصحابه عن دائرة الفسق !!

إن التكليف الإلهى امتحان جادّ يكشف طبيعة النفس ومدى صبرها على طاعة الله ، ولو أن هؤلاء المحتالين احترموا السبت ونجحوا فى الاختبار لأرسل الله إليهم الخير غدقًا فى سائر الأيام .

ومن الصلاح المغشوش ما روى أن أحد الناس قال للرسول ﷺ : أريد أن أقاتل معك فى سبيل الله ، وأن يرى الناس مكانى . أى يرون شجاعتى وكرّى وفرّى ! !

إنه عرض مريب ، إن سبيل الله لا يتحمل هذه الشركة ، ولذلك سكت الرسول

(١) الأعراف : ١٦٣ .

ليتكلم الوحى « فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[1] .

إن انتظار رأى الناس والتماس إعجابهم يفسد العبادة ، والعمل الصالح هو الذى يتم ابتغاء وجه الله وحده ..

لقد أرى الرجل فى منصبه يحب أن يأخذ سمته وتتوفر له حرمة ، وهذا حقه وحق المنصب الذى يشغله ولكن لا يجوز أن تتحوّل هذه الكرامة إلى جبروت واستعلاء يشبعان الجوع إلى السلطة والظهور ، فحفظ الكرامة شىء والتطاول على الناس شىء آخر ..

ولذلك قال العلماء : إن العمل لا يقبل إلا إذا توفر فيه شرطان : الأول صلاح النية وشرف القصد .

والثانى جريانه وفق تعاليم الشرع « **فمن أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد – أى مردود عليه –** »[2] .

إن النية الحسنة لا تشفع للمسلك المعوج .. ليس الدين فوضى ، ولا مكان للتسيُّب فى نهجه وعلى المؤمنين أن يُعلوا قدر الدين بالقلب الطيب والمسلك الدقيق فإن الدين يعانى فى عصرنا هذا من سوء القصد حينا ، ومن اضطراب العمل حينا آخر .

* * *

(1) الكهف : ١١٠ . (2) حديث شريف .

فوضى منكورة

مطلوب من علماء الدين فتوى تبيح الارتداد ، وتنسى عقوبته ، وتقرر ما يسمونه حرية الكفر والإيمان على أنها جزء من حقوق الإنسان ! وهم يجيئون إلى آيات الدعوة وينقلونها إلى نظام الدولة وبنائها الداخلى ! فإذا قال الله « الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ »[1] كان معنى الآية أن يتصرف كل امرئ وفق ما يحب . فمن شاء شكر ومن شاء لا ! ومن شاء نهب ومن شاء لا . . .

والمعنى الحقيقى الوحيد للآية أنها فى عرض الإسلام على الناس عامة لا قسر ولاجبر ، ولا إكراه فى الدين . .

فإذا آمن أهل الإيمان وكوّنوا جماعتهم أو دولتهم التزموا بأوامر الله ونواهيه فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وتركوا الفحشاء والمنكر والبغى . ولا مكان لمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، لأنهم آمنوا بالفعل ، وأقاموا بالإيمان دولة تحرس حدود الله وتصون حقوقه . .

إن نقل آيات الدعوة إلى معنى الدولة عبث . فالدولة تطارد اللصوص ولا تقول من شاء سرق ومن شاء لم يسرق ! وإذا قيل لمبلغ الدعوة « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[2] فإن أجهزة الدولة تقوم على السيطرة فتضرب على أيدى المفسدين ، وتقتصّ من القتلة والمعتدين .

والخطأ الفادح الذى وقع فيه منكرو الدولة فى الإسلام أنهم جاءوا إلى آيات البلاغ وأرادوا تطبيقها فى دائرة التأديب والتهذيب ، وتلك جهالة قبيحة وفوضى منكورة !

وإذا كان بعض الناس يضيق بالأساس الذى قامت عليه الدولة لأن الدولة مؤمنة وهو كافر بالله فليطو نفسه على ما بها ، أو ليرحل إلى مكان آخر !

أما أن يصيح بين الحين والحين : لا إله والحياة مادة ! أو لا تشغلونا بهذه الصلوات المعْنتة ! أو افتحوا أبواب الحانات! أو دعونا نلتقى بالنساء كما نشاء! فهذه الصيحات الكفور تقرب أجله .

إن المسلمين يلتصقون بدينهم عن حب وإعزاز ، وهم يبذلون دونه النفس والنفيس والجماهير المحرجة تقاوم أعداءه باستماتة ، أما العصابات التى ارتدّت إثر الغزو الثقافى فهى قلة مغموصة ، وهى تستعين بالاستبداد السياسى لتفرض ضلالها وهيهات « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ »[3] .

---

(١) الكهف : ٢٩ . (٢) الغاشية : ٢١ ، ٢٢ . (٣) الروم : ٦٠ .

فى تعاليم المسيحية
«صوت المرأة»

كان وضع المرأة سيئا جدا فى التاريخ القديم لأوروبا ، وامتدَّ هذا السوء حتى نهاية العصور الوسطى وبدايات عصر الإحياء ، والسبب فى ذلك ما استقر فى تعاليم الدين من أن حواء كانت المغوية لآدم بالأكل من الشجرة المحرمة ، فاستحقت بذلك - هى وزوجها - لعنة الطرد من الجنة والهبوط إلى الأرض والتعرض للمعاناة والآلام .!

والأوروبيون يرون كل أنثى هى حواء ، وأن الحذر منها واجب . . وظل الأمر كذلك حتى ظهر الإسلام مقررا أن آدم هو المخطئ لنسيانه وخور عزيمته ، وقد تتبعه امرأته ثم أحسَّا جميعا بالندم ورجعا إلى الله يدعوانه « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »[1] فغفر الله لهما ، وبدآ معا عهدا جديدا على ظهر الأرض .!

ما العلاقة بين الجنسين بعد هذا الهبوط ؟

إنها علاقة ماسَّة حميمة « هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ »[2] « خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً »[3] وليست هذه العلاقة وليدة إكراه أو ضرورة ! كلا إنها وليدة ودّ ورغبة « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . »[4]

ولم تعرف أوروبا طبيعة العلاقات الزوجية السليمة إلا بعد ظهور الإسلام وحفاوته بالأسرة والأولاد وجعله الزواج عبادة .

وفى تعاليم «بولس» : **«أريد أن يكون جميع الناس كما أنا - بلا زواج -»** ولو تمت هذه الإرادة لهلك العالم وأقفرت القارات ! !

---

(١) الأعراف : ٢٣ .
(٢) البقرة : ١٨٧ .
(٣) النساء : ١ .
(٤) الأعراف : ١٨٩ .

إن هذه الوصايا الناضحة بكره المرأة كثيرة ، ولعلها من وراء جواز بيع الزوجة كما تباع السلعة! وقد ذكرنا أن القانون الانجليزى إلى القرن الماضى كان يجيز هذا البيع معتمدا على تعاليم وردت فى سفر الخروج ، وراعوث . .

ويقول بولس : «**لتصمت نساؤكم فى الكنائس ، لأنه ليس مأذونا لهن أن يتكلمن بل يخضعن . ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة . . .**»!

هذا الجفاء فى معاملة المرأة كان جوهر التقاليد فى أوروبا قبل عصر النهضة حتى بزغت شمس الإسلام ، وسمع القرآن يصرح بأن المرأة من الرجل والرجل من المرأة . « لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ »[1] .

ويقول الرسول الكريم «النساء شقائق الرجال» وفى مواجهة الحملات المجنونة على مكانة المرأة يقول «**حُبِّبَ إلىّ من دنياكم النساء والطيب . . . وقرة عينى فى الصلاة** » لقد ضمّ المرأة إلى الأزهار والورود عندما كان غيره يجعلها نجسة منبوذة . .

لا أدرى كيف تسرب ازدراء المرأة إلى أذهان بعض المسلمين ، وكيف قيل : إن الإسلام ظلم المرأة حتى جاءت حضارة الغرب فأنصفتها ، لقد ألّف اللواء المهندس «أحمد عبد الوهاب» كتابه الإسلام والأديان الأخرى ، أحصى فيه نقاط الاتفاق والاختلاف ، أرجو أن يرجع إليه من يطلب المزيد من النصوص والأدلة فى هذا الموضوع ، وفى غيره من القضايا .

* * *

(١) آل عمران : ١٩٥ .

القرآن بين الحفظ والوعى

رأيت صورة لطفل فى العاشرة من عمره نال جائزة سنيّة لأنه حفظ القرآن الكريم وأحسن تلاوته !

تفرست فى وجهه فرأيت أمارات السذاجة تكسوه ! على أنى لم أكتم إعجابى بذاكرته الواعية على حداثة النشأة !!

لقد مررت بمثل هذه الحالة فحفظت القرآن فى عشر سنين والتحقت بالأزهر بعد بضعة شهور ، ثم أنسيته ثم استعدتُه ولله الحمد .

إن يكن لهذا الحفظ المبكر من أثر فهو كنز نحسن الانتفاع به عند النضج وحصانة تصون السيرة الخاصة ، أما أن هذا الحافظ الناشئ قد استدرج النبوة بين جنبيه وصار بذاكرته الجيدة من العلماء ، فلا . . .

إننى لا أزال أمرّ ببعض الآيات والسور فأذكر أن المعلّم ضربنى هنا وتركنى هنا وكافأنى هنا !

أما أنى أفقه المراد منها فهذا ما لم يخطر بالبال ! كنا أشرطة مسجّلة للأحرف فقط .

والآن أتساءل : هل القرآن الكريم كتاب مطالعة ونصوص ، حسبنا منه القراءة العابرة ؟

لقد تأملت فى موقف المسلمين من كتابهم ثم قلت : ما أشبهه بموقف هذا الطفل ابن العشر سنين ! كأن هذا العالم الإسلامىّ طفل كبير ! إنه فى مجالس القرآن يلقى السمع وهو بعيد لا شهيد ، وتتحرك به أمواج الإذاعة ولا تتحرك به الضمائر أو تحتكم إليه المجتمعات ، وما لهذا نزل القرآن . . « هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ »(1) .

---

(1) إبراهيم : ٥٢ .

إن علامة المرور تحمرّ فتقف المواكب ويهدأ المتعجل ويسكن الحراك فإذا اخضرّت أبيح الممنوع وجاز المسير !

هكذا يفعل أمر القرآن ونهيه بالناس أما أن يكون القرآن تلاوات معزولة عن المجتمع هو يهدر فى واد والناس ينطلقون فى واد آخر فهذه مأساة أو جريمة كما يشير القرآن نفسه « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ »[1] .

والقرآن فى عصرنا معزول عن الحياة العامة ، وقد تكون له صلة بالعلوم الشرعية أو العلوم اللغوية أما أن تكون له صلة بعلوم الكون فلا . .! هذا كتاب يتحدث عن السماوات والأرض وما بينهما أفلا تكون له صلة بعلوم الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وطبقات الأرض ومعالم العمران ؟

أفلا تكون له صلة بعلوم الفلك والفضاء ؟ .

لقد كان آباؤنا أساتذة فى هذه الآفاق فما الذى أبعدنا عنها ؟

وعندما يكون التبريز فى هذه المعارف سنادا للإلحاد والبعد عن الله ، فهل ننصف أنفسنا وقرآننا بالعجز فى فنون الحياة ودراسة الكون ؟ إن الإيمان فى منطق القرآن مبنىٌّ على النظر والتفكير والاستنباط فما تكون قيمة إيمان معزول عن هذه المعانى ؟

إنى أُطرق كاتما ضحكى وأسفى عندما يفتتح حفل بالقرآن ثم يهيم الناس على وجوههم فى كل واد لم يربطهم بالكتاب العزيز رباط ، ولم يتسلل إلى أفئدتهم شعاع .

* * *

(١) السجدة : ٢٢ .

هبوط عقلى

أسفت لمصرع الدكتور فرج فودة ، ووَدِدْتُ لو بقى لأستأنف معه حوارنا حول : هل الإسلام عقيدة وشريعة ، عبادات ومعاملات ؟ أم هو علاقة خاصة بين إنسان وربّه !!

ولست واهما أو ساذجا لأتصور أن الدكتور فرج سيقتنع بشىء مما أقول أو يقوله رفاقى إننا - والحق يقال - كنا نخاطب مَنْ وراءه ، ونكشف شبهات كثيرة فى الجو الآسى الذى يعيش فيه الناس .

أما رأيى فى الدكتور فرج فودة فهو صورة عربية للعقيد «جون جارانج» الزنجى الذى يحارب الإسلام فى السودان ، ويريد وضع دستور علمانى لشماله وجنوبه معا . . .

ولكن الدكتور يحارب بأساليب كثيرة منها القلم ، وهذا ما جعلنا نتعرض له ولأمثاله ، فنحن نتبع دينا يقوم على الحوار ويقول لخصومه « هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »(1) .

ويقول فرج فودة إنه يحارب التطرف ! فهل هو من المعتدلين ؟

إن الإسلاميين المتطرفين ابتعدوا عن الحقيقة ٥٠ شبرا ناحية اليمين ، أما هو فقد ابتعد ٥٠ شبرا ناحية الشمال ، والمتطرف لا يقنع متطرفا مثله ! .

ثم هو رجل يلجأ كثيرا إلى المجون وإرسال نكتة بارعة أهم عنده من اكتشاف حقيقة علمية وهو ما جادل متطرفا إلا بالحقائق الدينية التى قررناها ، وبسطها علماء الدين الثقات فماذا بقى عنده من الفكر المستنير أو المنطق الذكىّ ؟

بقى ما قاله فى آخر مقال نشرته له مجلة أكتوبر حيث زعم أن التدين المفرق يقوم على هوس جنسى ، وأن المتدينين حاولوا تحريم حشو الباذنجان والفلفل لأن هذا الحشو يثير الغريزة ، ويذكر بمسالك جنسية !!!

أرأيت هذا الهبوط العقلى ؟

أسَمِعَ امرؤ مًّا طول حياته بهذا الإسفاف ؟ تلك هى الطبيعة العلمية لفرج فودة !!

---

(١) النمل : ٦٤ .

وقد ملأ مقاله بأفكار عن الدين والمتدينين لا تصدر إلا عن ملتاث الفطرة مريض القلب مثل أن الناس كانوا يشاهدون مباريات الكرة فيقول قائلهم : هذا لاعب فذ ! ويقول المتدين هذا لاعب فخذ ! ! لأن الفخذ عند المتطرفين عورة !! وهم لا يرون كشفها !!

أين وقع هذا الكلام ؟ فى ذهن فرج فودة وحده وهو فى هذا يقلد «فرويد» الذى يزعم أن الطفل عندما يرضع من ثدى أمه يترجم عن حركة جنسية !!

المأساة التى نواجهها نحن الدعاة هذا الخلط الهائل فى ميدان الإعلام ، كيف أقنع رجلا بأن الإسلام دولة وهو لا يؤمن بأنه دين ؟

إن المقتنع بالوحى يكفى أن أقول له : قال تعالى « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ »[1] ليقتنع بأن القرآن نزل ليحكم . .

المشكلة أن يقول لك امرؤ أنا مسلم : ولكنى أبيح الخمر ، وأنا أعرف منك بالإسلام . .!!

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها ، وحتى سامها كل مفلس

ثم يجىء بعدئذ من يصف مستبيح الخمر بأنه المفكر الإسلامى الكبير . . .!! ما هذا الهذر ؟

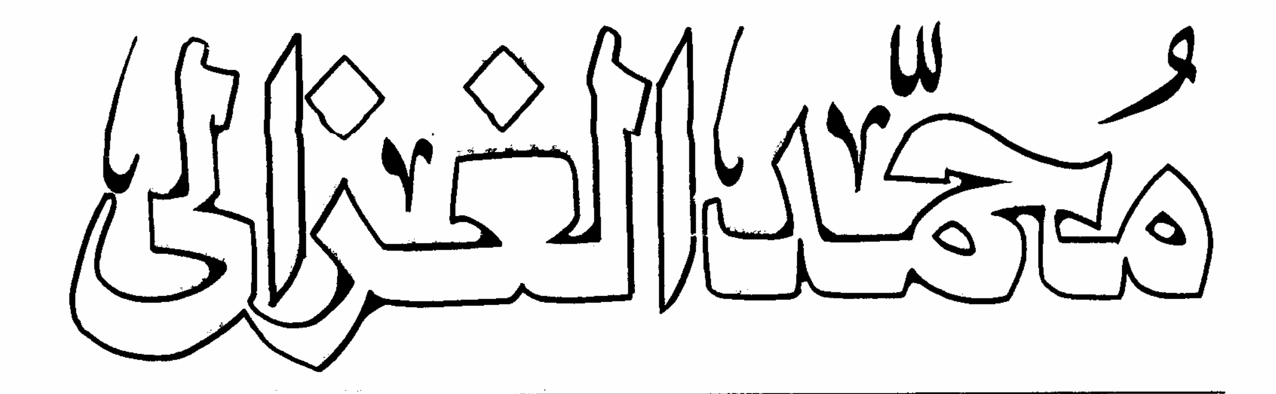
* * *

(١) النساء : ١٠٥ .

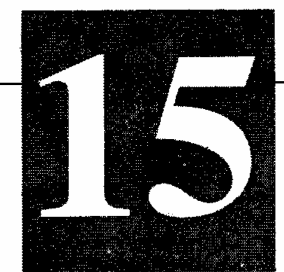
الفهرس

مؤلفات فضيلة الشيخ

محمد الغزالى



جرعات جديدة من الحق المر



الجزء الخامس



العــــنــــوان: جرعات جديدة من الحق المر «الجزء الخامس».
المؤلــــــــف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشـــراف عـام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشــر: الطبعة الخامسة أغسطس 2005م .
رقـــم الإيـداع: 2002/1695
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-1748-7

الإدارة العامة للنشــر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فـــاكس: 8330296 (02)
البـريد الإلكتـرونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت . 5909827 (02) - 5908895 (02) - فـــاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البـريد الإلكتـرونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـــدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد الســـلام عـــارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشـركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيـع على الإنترنت: www.enahda.com



مــقدمة

أعلمُ «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وذلك قانون إلهى كائن لا محالة .

ويخالطنى الألم والأمة الإسلامية تجتاز مرحلة صعبة من تاريخنا إزاء ما لحق بها من خسائر مادية وأدبية .

لذلك أحرصُ – دائما – فى مرصدنا الذى نقف فيه لمشاهدة مراقب المسلمين أن أسجل ما يقع بالمسلمين من مصائب وما يحاك لهم من مكائد وما يقع بينهم من أخطاء ونصوغ ذلك فى سطور قليلة نذكرهم . . ونسائلهم . . .

متى يفيقوا ؟

إننا لم نجبن عن تسجيل الأحداث غثها من سمينها ونسجل أمام الله ما علينا ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، لعل فى ذلك ما يثقل الميزان .

والإيجاز مقصود فى كلمات مرسلة وسريعة ، والمعانى المخبوءة كثيرة ضافية الذيول ، ونهجنا فى ذلك «ابن الجوزى» فى كتابه «صيد الخاطر» . فقد قل كلامه ودلَّ على الصواب .

والأمر يستلزم ذلك فى هذا العصر . . تمشيا مع طبيعة القراء . .

فالملاحظة السريعة أحب إليهم من مقالة مسهبة وكلام ينسى بعضه بعضا .

وفى حياتنا قد تلقى الكلمة الكلمة ، كما تلقى فى الأفق سحابة سحابة ، فينشأ من تلاقيها مطر يهمى وبرق يضىء . .

وسأكتب كل خاطرةٍ ما تراخت منيتى . .

فلنطالع هذه الفصول من «الحق المر» ففيها إن شاء الله ما يكفى ويفى ، إنها حلقة من سلسلة تمتد ما بقى الأجل لعل فيها بلاغا للناس .

محمد الغزالى

١٢ من شوال ١٤١٦ هجرية

٢ من مارس ١٩٩٦ ميلادية

حسن البنا

أنا واحد من الذين صحبوا «حسن البنا» وتربَّوْا على يديه وأفادوا من علمه ، قد لاحظت فى دراستى الطويلة للرجال أن الله جمع فى «حسن البنا» مواهب عدد من الزعماء الإسلاميين الكبار أمثال «جمال الدين الأفغانى» ، و «محمد عبده» ، و «رشيد رضا» ، فكان إذا تحدث بين الناس التقى فى حديثه ما تميّز به أولئك الرجال كما تلتقى الأشعة فى عدسة صافية تجمع ما تفرق وتضاعف أثره !!

كان «جمال الدين» أول من أبصر الحقد التاريخى فى ضمير الاستعمار الغربى ، ونبه المسلمين إلى أن أوروبا لا تزال تحمل ضغائن «بطرس الناسك» فى تعاملها مع المسلمين .

وكان «محمد عبده» أول من أحسّ حاجة الأمة إلى تربية واعية ، تتعهد سلوكها بالعقل المؤمن ، وتحرس نظامها بالشورى العامة . .

وكان «محمد رشيد رضا» ترجمان القرآن وشارة السلفية الصحيحة والمفتى العارف بأهداف الإسلام والمستوعب لآثاره . .

شاء الله أن يكون «حسن البنا» وريث هؤلاء فكانت محاضراته فى المدن والقرى علما وأدبا وثقافة وكياسة ، وقلَّما يفلت سامع له من التأثر به والانقياد إليه ، وعلى هذه الدعائم نهضت جماعة الإخوان المسلمين ، وانتشرت فى أرجاء العالم الإسلامىّ ، فكانت بمرشدها العام تجديدا لأمر الدين ، وتحصينا لكيانه من الغزو الثقافى والسياسى الذى نال منه وأساء إليه .

من الظلم اعتبار جماعة الإخوان حزبا جُلُّ نشاطه العمل السياسى فى وطن من أوطان الإسلام ، إن الدائرة التى عمل فيها «حسن البنا» أرحب كثيراً ، إنها ترديد لغايات القرآن الكريم التى ذكرها فى هذه الآية : ﴿ ونَزَّلْنا عليْكَ الْكتاب تبْيانًا لّكُلّ شيْءٍ وهُدًى ورحْمةً وبُشْرىٰ للْمُسْلمين ﴾[1] .

لقد كان الإمام الشهيد يبعثر العلم فى خطبه كما يبعثر الزارع الحبّ فى أرضه ،

---

(١) النحل : ٨٩ .

وأعانته على ذلك موهبة لم تعرف فى تاريخنا الثقافى إلا لأبى حامد الغزالى ، فقد كان «أبو حامد» قادرا على أن يشرح للعامة أفكار الفلاسفة ويجعل ما تعقَّد منها كلاما سهلا سائغا ، كذلك كان «حسن البنا» رضى الله عنه يلخص لسامعيه حقائق الدين والدنيا ، ويوجههم برفق وحب إلى ما يريد من خدمة الإسلام وتجاوز المرحلة التاريخية الصعبة التى يمر بها أو التى كبا فيها ..

وجهد الإمام الشهيد كان لابد أن يلفت إليه أعداء الإسلام فاغتالوه لتستريح الشياطين منه ..

وما كان «حسن البنا» ولا الأقربون منه يخدمون الإسلام بالعنف أو ما يسمَّى الآن بالإرهاب .

وقد قابلته يوم مقتل الخازندار - مستغربا ما حدث - وكان القتلة من الإخوان - فأقسم بالله أن القاتل لو كان فى السماء لبحث عن طريق يصعد إليه ليمنعه مما فعل !!

وقد شعرت بأن بعض الإسلاميين يفقدون وعيهم أمام بعض الأحداث ، ولكن ما ذنب «حسن البنا» وجماعة الإخوان كلها ؟

إن الرسالة التى حمل لواءها «حسن البنا» يجب أن تبقى ، وهى رسالة يستحيل أن يكرهها مسلم مخلص لله ورسله ولا تزال جماعة الإخوان بعد عشرات السنين من اغتيال «حسن البنا» أعدل الجماعات الإسلامية .

ولا يزال التاريخ الإسلامى المعاصر بحاجة إليها ، وأحسب أن الذين يهاجمونها إما أبواق لأعداء الإسلام ، وإما جهلة لايدرون شيئا ، والمرحلة التى نمرّ بها خطيرة ، وقد قررنا ألا نموت بما نحمل من رسالات الله .

* * *

لم يكن شيئا مذكورا..

فكرت قليلا ماذا كنت من مائة عام ، وماذا كان غيرى من أترابى ؟ أظن عامتهم إلا قليلا جدا كانوا فى أطواء العدم ! كانت الأرض صفرا منهم !

ماذا كانوا ؟ وأين ؟ ربما كانوا حبات تراب تذروه الرياح ، ربما كانوا قطرات مياه تجرى فى الأنهار ! ثم تحوّلوا بعد ذلك إلى حبوب وبقُول وفواكه ، أكلها الآباء ، ثم جعلتها أجهزتهم العتيدة دماء فى العروق ، ثم ماء دافقا تفرزه الغدد المختصة ، ثم تمضى السلالات وفق الأطوار المعروفة حتى تنشأ خلقا آخر . .

إننا لم نكن شيئا ثم كنا ، وقد لفتنا القرآن إلى هذا التاريخ الغامض عندما قال : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾[1] ، إن هذا الاستفهام تقرير لواقع ما يستطيع أحدنا إنكاره .

إلا أن هذا التقرير جاء تمهيدا لما بعده ؛ لا من حياة أرضية فحسب ؛ بل من حياة أخرى زُوِّدنا بمواهب خاصة حتى نبلغها ، ونتوزع على أنواعها ودرجاتها : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[2].

لكننا لا نفكر فى خلو الحياة منا قبل الميلاد ، ولا فى خلو الحياة منا بعد الممات ، وإن كان الفارق بين الحالين بعيدا !! الخلو الثانى فناء لأجسامنا وحسب ، أما الأرواح التى احتلتها فهى تذهب إلى مصايرها وفق ما صنعت لمستقبلها !

لكن هذه الأجساد التى خدمناها طويلا ، أين تذهب ؟

الجواب : تذهب من حيث جاءت « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ »[3] ، ترى هل ستتحول إلى تراب ثم إلى حبوب وبقول وأشجار وأثمار ؟

---

(١) الإنسان : ١ .

(٢) الإنسان : ٢ ، ٣ .

(٣) طه : ٥٥ .

إن هذا التساؤل مرَّ بذهن أبى العلاء فقال :

صاح هذى قبورُنا تملأ الرَّحب فأين القبور من عهد عاد

خفِّف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدُم العهد هوان الآباء والأجداد

لكننى أعترض هذا التفكير ، وأرى الانسياق معه عقيما ؛ لأنى إنسان بروحى وإدراكى وأخلاقى ، لا بشَعْرى وأظافرى ولحمى وعظامى ، والمهم هو الارتقاء بالروح إلى معرفة الله وتقواه ، وعندئذ تظفر بالخلد ، وتفتح لها أبواب السماء .

الشىء الذى يصر الناس على تجاهله ، ويرفضون التفكير فيه هو العدم الذى سبقهم ، والعدم الذى سيلحق بعدئذ أجسامهم وحدها ، ثم تبقى أرواحهم لتواجه أثر التجربة الصعبة فى هذه الدنيا . . .

إن الجماهير تحس أنها تحيا ، وهى رهينة هذا الإحساس تأبى ما عداه ثم يفجؤها الموت فتعرف بعد فوات الأوان أنها أضاعت فرصة الاستفادة من العمر المحدود على ظهر هذه الأرض ، أى من فترة الاختبار هنا !!

والحضارة الغربية التى تسود الدنيا الآن تحتقر التفكير فى الآخرة ؛ وتركز اهتمامها كله فى هذه الدار .

وقد فشل أهل الكتاب فى أوروبا وأمريكا أن يلفتوا الأنظار إلى ما وراء هذه الدار ، أما اليهود فلأن توراتهم التى بين أيديهم لم تذكر الجزاء الأخروى قط ؛ وهذا من إضاعتهم للوحى الأعلى ، وأما النصارى ، فإن لهم حديثا عن الآخرة بالغ الضعف وظاهر أن الشهوات كانت أعتى منه فغطت عليه !!

على أن الدين لايذكر الموت ليعطل الحياة ، وإنما يكفكف من غلوائها ، ويمنع الافتتان بها ، والغرق فى حمأتها .

* * *

العرب من غير مصر ؟

شعرت بغضاضة وغضب عندما طلبت طوائف من الأكراد بقاء الجيش الأمريكى على أرض العراق .

ومع علمى بما نزل بهم من هوان ، على أيدى رجال البعث العربى ، فإنى ضقت بما وقع ، وتمنيت أن يكون البديل المطلوب من المظالم السابقة إقامة حكم إسلامى راشد تتآخى فى ظله شتى الأجناس وتختفى معه نعرات الجاهلية الأولى . .

إن استئناف الماضى الطيب ليس شيئا صعبا ، وقد ذابت الفروق الجنسية فى ظل الأخوة الإسلامية قرونا طوالا . . .

وبدا لى أن صيحات استبقاء الأمريكيين مفتعلة ، ولعلها بإيعاز من بعض دهاتهم !! زيادة فى النكال بالعروبة الخائنة لدينها وتاريخها !!

وقد رأيت فى المغرب الكبير أن الأوروبيين يُبْدون عطفا مستغربا على البربر والزنوج ، ويوجسون خيفة من العروبة ويقظتها ، وقد أثاروا فتنًا شتى حول هذه القضية ، وخطتهم التى ينبعثون منها تمزيق الأمة الإسلامية ، وتوسيع الفجوات بين شعوبها ! وجهد المستشرقين والمبشرين وراء هذه الغاية لا ينقطع ، وإعلامهم لا يخْفِت عن بثّ الوقيعة وإيغار الصدور !!

ليت شعرى ، ما أصاب العرب حتى طوتهم هذه اللُّجّة الطامسة لحاضرهم ومستقبلهم ؟ لقد استيقنت من أن دسائس أجنبية وراء هذه المحنة تريد جعل هذه الأمة جُذاذا .

وهناك صحافيون مختبئون فى جحورهم يتنظرون الفرص لينفثوا السموم ، هناك من يكتب طعنا مريرا فى المصريين جميعًا !

ماذا ينبغى ؟ يبغى خدمة سادته فى عزل مصر عن العرب !!

وما درى هذا الأعمى أن العرب من غير مصر لا يكسبون خيرا ولا يدركون نصرا ، فهم كما قال حافظ :

أنـــا إن قـدْر الإلـه مماتى لاترى الشرق يدرك الرشد بعدى

وقد سمعت أن صيحات حمقاء – عند الخلاف فى بعض القضايا – انبعثت تطلب هدم السد العالى أو هدم الأهرام !!

فهل يستريح الحاقدون عندما يتم ذلك .. وهل يكسبون إلا العزلة والحسرة والهزيمة ؟

إننى ما أشك فى أن أصحاب هذه الصيحات مستأجَرون لجهات استعمارية ، تريد القضاء على وادى النيل كله ...

عندما ذهب أنور السادات إلى بعض بلاد الخليج يريد أن تتعاون معه على سداد ديون مصر ، قوبل بألفاظ مقذعة ، وشنت حملات مجنونة على المصريين أجمعين ، فماذا كسب العرب من اتفاق مخيم داود ؟ والصلح مع إسرائيل ؟

لقد اعتقدتُ أن الذين شنوا هذه الحملات أُجَرَاء للصهيونية العالمية يعملون لحسابها ، وينفذون مخططاتها ، وصدّقت الأيام ما رأيت ..

ويوجد الآن من يشتم شعبا عربيا كاملا ، يبتغى النَّيْل من مكانته وكرامته ، وما يعنينى أن يكون هذا الشعب فى إفريقية أو فى آسيا ، إنما الذى أُحِسّ الجزع منه نتائج هذه السفاهة ، فى زيادة الطين بلة ، وزيادة الصف ضعفا .

فى كل بلد مَنْ يحسن ومن يسىء ، ومن يخطىء ومن يصيب ، فمن كان ناصحا لله ورسوله ، فليتخيّر ألفاظه ، ولْيتحسّس خُطاه ..

وإن عجز عن ذلك فالسكوت فريضة عليه ...

أُناشد جماهيرنا أن تعرف خطورة أوضاعنا ، وتكالُب أعدائنا ، وأطالبها بأن تُصمّ آذانها عن شتائم السفهاء لشعوب بأسرها ، فهذا أولا ظلم ، وثانيا لا يفيد منه إلا الخصوم ..

نحن ننادى بجمع الشمل وتلاقى الأهل .

* * *

لماذا يرهبون المعتدلين؟!

لا أستنكر عقوبة على من يساند رأيه بالإرهاب ، ويريد إكراه الناس على مذهبه فى الحياة ! .

فليس هذا أسلوب القرآن الكريم الذى يقول لنبيه : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

أما الذين يعرضون ما عندهم بالرفق والحجة فلا مساغ للقسوة عليهم أو معاملتهم بالعنف .

وعندما كنت فى الجزائر جاءتنى شكاة من نحو ستين طالبة وموظفة بأنهن مهددات بالفصل من وظائفهن ومعاهدهن إذا ارتدين الحجاب .

- وهو شىء آخر غير النقاب - فقلت لماذا تحاول المتبرجات - بالإرهاب والتهديد - أن يفرض مسالكهن على الأخريات ويضطروهن إلى العرى ؟

إن الإرهابيين من أتباع الأديان الأخرى مدللون كما يقع فى إسرائيل أو يعاملون بالقانون العادى كما يقع فى أقطار أخرى .

أما فى البلاد الإسلامية فإن التهمة بالإرهاب لا تكاد تناقش وتخترع لها محاكمات غريبة ! وأسباب ملفقة . . .

وقد نشأ عن هذا أن بعض طلاب النجاة أخذ يفر من الانتماء الإسلامى ويخشى على نفسه وأسرته من هذا البلاء . .

إنه لا وجاهة لمن يشتكى من العدالة !

أما أن يكون التدين تهمة يقذف بها الناس حتى تثبت براءتهم فذلك مرفوض !

---

(١) يونس : ٤١ .

أريد أن أقول للعرب كلهم شعوبا وحكومات : إن إسرائيل الصغرى تتهيأ لتكون إسرائيل الكبرى ، ويوشك أن يهدم الأقصى ليرتفع مكانه هيكل سليمان .

ويوشك طبقا لتعاليم التوراة أن تكون حدود إسرائيل من الفرات إلى النيل !!

وما يقع فى العالم العربى اليوم من إرهاصات هذا البلاء .

والواجب أن نحمى ديننا من العدوان عليه ، كما نحميه من العدوان به ، إنه لا مكان لإضاعة الصلاة واتباع الشهوات وإشاعة العبث فى بلاد يستعد اليهود لإرغامها على الرضا بالدنية ، والتسليم بالهزيمة ، والانخراط تحت لواء الصهيونية العالمية ، ومساندتها فى ضرب الإسلاميين . . اعدلوا هو أقرب للتقوى .

الصياح بطلب الحكم !!

سقطت دولة الإسلام الكبرى من سبعين سنة خلال عواصف داخلية وخارجية أظلم معها كل أفق ، وخبا كل فكر .

وليس مستغربا أن يسعى المسلمون المخلصون خلال هذه المدة كى يرفعوا الراية التى سقطت ، ويعيدوا البناء الذى انهدم . . .

وقد تألفت جماعات إسلامية لبلوغ هذه الغاية ، كانت جماعة الإخوان بلا ريب طليعتها ، وهناك جماعات أخرى ، فى أقطار شتى تسعى للغرض نفسه ، وما يرتاب أحد فى نبل الغرض ، ولكن حديثنا هنا عن طبيعة الوسائل ، فإن البعض ظن طلب الحكم هو الخطة الفريدة لخدمة الإسلام وبناء حكومته . .!

إن إقامة الدولة المنهدمة لا تصح ولا تتم إلا بإقامة الأمة نفسها ، وشفائها من عللها ، وهو عمل ينبغى أن يكون الشغل الشاغل للإسلاميين إلى جانب نشاطهم النظرى فى بناء النظام السياسى للإسلام . . .

وعندى أن طلب الحكم لا يستغرق إلا ١ ٪ من العمل الإسلامى الصحيح ، أما التسعة والتسعون جزءا الأخرى ففى ترميم الكيان الشعبى المنهار فى كل مكان .

وأنا أنظر بريبة شديدة فيمن لا صياح لهم إلا طلب الحكم ، وأخاف أن يقع مستقبل الإسلام بين أيديهم ؛ فيكتنف الظلام مستقبل الإسلام . .

هناك أعمال ثقيلة خطيرة يجب أن يباشرها الإسلاميون فورًا لإصلاح أمتهم وتهيئتها لغد أشرف . . .

أشعر بالجزع عندما أرى أخلاق الكذب والخيانة والغدر وخسّة الخصومة تشيع هنا وهناك ، أليست هذه أركان النفاق ؟ فكيف يبقى معها إسلام ؟ . .

هناك تقاليد فى الزواج والطلاق ، والافتراق والاجتماع ، والأفراح والأحزان ، ومعاملة الأصدقاء والجيران تشيع بين المسلمين وتملأ بلادهم بالعقد والخلل ، والرياء والتكلف ، لو نقلناها إلى الناس لأثرنا الفوضى فى البر والبحر ! فكيف نتركها دون إصلاح ؟

خلائق العجز والكسل والجمود ، والرغبة عن الابتداع والاكتشاف فى شئون الدنيا تدفع بنا إلى الوراء ، وقد برىء منها غيرنا فاندفع إلى الأمام .

فبم نفسر تقاعسنا فى محو هذه الخلائق الرديئة ؟ وكيف يستقيم - مع وجودها - حماسنا للدعوة إلى الإسلام ؟

لغة القرآن تُنْتقَص من أطرافها ، والغارة عليها متجهة إلى صميمها ، وتكاد تختفى فى أروقة الجامعات العلمية ، وتتلاشى فى لغة التخاطب ، بل فى عناوين الدكاكين والمؤسسات الأخرى ، فما سر فتورنا فى مواجهة هذا البلاء ؟

إن انتظار الحكم ليس العمل الصالح الذى ينضم إلى الإيمان ، وتتمّ به النجاة ، إن هذا الانتظار يمكن فهمه عندما يكون فى حاشية الشعور ، على أن يكون فى بؤرة الشعور العمل العاجل المتاح فى أى مجال لخدمة الإسلام فى أى ميدان ، وما أكثر الميادين الظمأى إلى عاملين مخلصين ناشطين . . .

أصارح بأننى مرتاب فى أفئدة مقاتلين من أجل الحكم ، بل مرتاب فى قدراتهم وخبراتهم ، وأخشى إذا وقعت مقاليد الحكم فى أيديهم أن يصاب الإسلام بما لا طاقة له به !

هل عَجَزَة اليوم سيكونون المقتدرين غدا ؟

اللهم احرس الإسلام من هؤلاء الأصدقاء . .

* * *

علاقة حيّة

مع هلال الشهر المبارك ينظر المسلمون إلى الأفق ثم يناجون ربهم بهذا الدعاء «اللهم أهلّه علينا باليُمن والإيمان والسلامة والإسلام ، هلال يمن وبركة إن شاء الله » ، وجاء فى الحديث أن الرسول الكريم كان يشير إلى الهلال ويقول : «**ربى وربك الله**» . .

كأنه يشرح قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾[1] .

إن الذى زحم الأرض بالبشر زحم السماء بالكواكب ـ ومن بينهما الشمس والقمر ـ يديرها فى أفلاكها كيف شاء فهى تعنو لمجده وتسبح بحمده وعلى أبناء آدم أن يقدروا الله حق قدره ، وأن يصلوا مع حركات الشمس وأن يصوموا مع حركات القمر ، ونحن المسلمين نؤدى برضا وسرور الفريضة التى كتبها الله علينا عالمين أننا ننفرد دون الناس كلهم بهذه العبادة ، فغيرنا يترك بعض الأطعمة ويتناول أخرى ، أما نحن فنغلق الأفواه عن كل طعام ونكبت الشهوة الجنسية ونعلن سيطرة الروح على الجسد ونصوغ سلوكنا فى قالب من السكينة والأدب فلا لغو ولا رفث ولا غيبة ولا عدوان . .!

عندما كان أبونا «آدم» فى الجنة كان عنده ضمان ضد الجوع والعرى ، والكدح والعرق المتصبّب ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾[2] .

لكنه ضعف وخضع لشهوته فكلفنا نحن أن نربى أنفسنا على قوة الإرادة والسيطرة على الأهواء حتى نكون أهلا للخلود فى دار النعيم .

والواقع أن الحضارة الحديثة بقدر ما أحرزت من تقدم علمى خضعت لمختلف الشهوات فشرعت تنحدر وتناوشها العلل والأسقام ولن تنقه حتى تخضع لأمر الله وتحسن الصلاة والصيام ، وتستعد للقاء الخالق الكبير .

---

(١) الأنعام : ١٦٤ .

(٢) طه : ١١٨ ، ١١٩ .

قال سلمان الفارسى رضى الله عنه : خطبنا رسول الله - ﷺ - فى آخر يوم من شعبان فقال : «يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوّعا . من تقرّب فيه بخصلة كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدّى فريضة فيه كان كَمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه . وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة . وشهر المواساة ، وشهر يزاد فيه رزق المؤمن ، من فطّر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتقا لرقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء! قالوا : يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم!

قال رسول الله : يعطى الله هذا الثواب من فطّر صائما على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن . وهو شهر أوله رحمة وأوسطهُ مغفرة وآخره عتق من النار . من خفف عن مملوكه - خادمه - فيه غفر الله له . . » .

إن شهر رمضان موسم قربات وموعد سباق كبير إلى الرضوان والخلود ينتظره الأتقياء كما ينتظر الأغنياء الذهاب إلى المصايف لتمتيع أنفسهم ، لكن المتعة هنا علاقة حيّة بالله وظفر بروحانية عالية ونعيم مقيم . .

* * *

مع الله

فى حديث لرسول الله ﷺ **«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة . يقول الصيام : أى ربِّ منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه . قال : فيُشفَّعان . »** العبادات لابد منها لنجاة الإنسان وصقل روحه وزكاة نفسه ، وهى تذكُّر بالله ونعمه وحقوقه ، ويستحيل التفريق بينها ، بل تُؤدَّى كلّها مجتمعة ؛ فلا صلاة بدون صيام ولا صيام بدون صلاة . وكلتا العبادتين أساس للتسامى وباعث على القبول الإلهى .

كنت أتابع يوما درسا في عالم الأفلاك حيث تسبق الأعداد شطحات الخيال وتقاس المسافات بأرقام هائلة ، وتضاءلت فى نفسى ثم عدت إلى مواقع الأقدام من أرضى ونظرت إلى ما تحت الثرى وعلمت أنى لا أدرى ولا أرى!

قلت : ترى ما هناك في أعماق هذه الكرة حتى النقطة المكشوفة من سطحها فى الجانب الآخر المقابل لى؟ أشياء كثيرة نجهلها كل الجهل ، قلت : لكن الله وصف نفسه فقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾[1] .

إن اللمعة المضيئة عند سدرة المنتهى كالحبّة المستخفية فى ظلمات التربة سواء فى علمه ، تبارك اسمه وهو علم مسطور فى سجلٍ دقيق منذ الأزل .

وملأتْ أقطار نفسى عاطفة إعجاب بهذا الخالق الأعلى ، بيد أن الكلمات المعبِّرة تقاصرت ثم احتبست وشاء ربى أن يلهمنى كلمات تنفِّس عما بى ، فإذا الكلمات المعبرة فى حديث رواه على بن أبى طالب يصف صلاة النبىّ عليه الصلاة والسلام جاء فيه : « . . **وإذا ركع يقول فى ركوعه : اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت . خشع لك سمعى وبصرى ومخِّى وعظمى وعصبى . وإذا رفع رأسه من**

(١) طه : ٥ : ٨ .

الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد . وإذا سجد يقول فى سجوده : اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت . سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ فيه سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين» .

فى هذه المناجاة ترى الألوهية الكاملة والعبودية الكاملة ، بين يدىْ بديع السماوات والأرض يجثو عابد ملهم فيهمس فى ركوعه وسجوده بكلمات تصوّر ما ينبغى أن ينطق به كل فم تحية لذى الأسماء الحسنى . . ذاك فى الصلاة .

أما فى الصيام فنحن عند تناول الفطور نعوِّض ما فاتنا من طعام الغداء ، وقد نتوسع فى ذلك إلى حدّ الإسراف ، لكن محمدا انفرد بعبادة لايقوم بها غيره! إنه لا يفطر مع الناس أحيانا إنه يواصل الصيام يوما آخر أويومين !

يقول للناس : «**إنكم لستم كهيئتى ، إننى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين**» وهذه عبارة تصوِّر قدراته الروحية الفائقة ، فإذا كان بعض الناس عبيد بطونهم فهو فوق هذا المستوى المادىّ وأرفع قدرا .

* * *

وتزودوا..

يستعد المؤمن لرمضان قبل مقدمه : كيف يحسن صيامه وقيامه؟ كيف يخرج منه مغفور الذنب مضاعف الأجر؟

فإن الشهر الكريم تدريب على الطاعة وترشيح للتقوى كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

ومن الخطأ تصور الاستعداد بأنه تدبير النفقات وتجهيز الولائم للأضياف .

إن هذا الشهر شرع للإقبال على الله والاجتهاد فى مرضاته وتدبّر القرآن وجعل تلاوته معراج ارتقاء وتزكية ، إنه سباق فى الخيرات يظفر فيه من ينشط ويتحمّس!

عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : «**أُعطيتْ أمتى فى شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبىّ قبلى أما الأولى فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله عز وجل إليهم . ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً - يعنى يختار الله الأكثر إقبالا ونشاطا وحماسا فيخصه بنظرة رضا لا يشقى أبدا بعدها - ، وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك ، وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة - مصداق قوله تعالى :** ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[2]

وأما الرابعة فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها : استعدى وتزيّنى لعبادى! أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى ، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا ، فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر؟ فقال : لا! ألم تر إلى العمال يعملون ، فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم؟» .

---

(١) البقرة : : ١٨٣ .

(٢) الشورى : ٥ .

والمهم فى الصيام والقيام أن يصحبهما اليقين وتحمل التعب لوجه الله تعالى . ولذلك صرحت الأحاديث بأن استحقاق الأجر لا يكون إلا مع شرطين ، قال رسول الله ﷺ **«من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه»** وقال : **«من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»** ، وإذا استحق مؤمن المغفرة بأحد العملين فإن العمل الثانى تضاعف به حسناته وينضاف إلى رصيد الخير عنده ، وحفزا للهمم على الاشتراك فى هذا السباق جاء فى الحديث : **«إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار - وينادى منادٍ من قبل الحق - يا باغى الخير أقبلْ ويا باغى الشر أقصر ! »** .

أحيانا يدخل المرء سوقا تباع فيها السلع الغالية بثمن زهيد ، هكذا رمضان ، فرصة للتزوّد بالخير الكثير ، وذاك سر النداء ياباغى الخير : هلمّ . . !

* * *

ليست حملة على الطعام

قال الرسول الكريم لأمته : «**إنما أخشى عليكم شهوات الغىّ فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**» .

والغرائز الدنيا فى الناس إذا جمحت وأفلت قيادها هوت بالحضارات وملأت المستقبل بالرجوم ، ولابد فى ضبطها من الصيام الحكيم والحرمان الواعى المهذب وهذا ما يفعله الصيام الذى عرّفه الفقهاء بأنه الإمساك عن شهوتى البطن والفرج من الفجر إلى الغروب ، ولاشك أن صيام المسلمين يحتاج إلى تأمل وتعقيب فى هذه الأيام فإن هذا الشهر يمكن أن يسمَّى شهر الطعام ، وسهر الليل فى التلاوة حلّ محلّه سَمَرٌ هزيل المعنى تافه الأثر حتى أن الشاعر القروى قال من قصيدة له :

لقد صام هندىٌّ فدوخ دولة ... فهل ضار علجا صوم مليون مسلم؟

يشير الشاعر إلى حرب المقاطعة الاقتصادية التى أعلنها «غاندى» على الاستعمار الإنجليزى ، لقد ألزم قومه أن يتركوا كل ما تنتج المصانع الإنجليزية ولو لبسوا الخيش بدل الصوف الفاخر ، وبدأ بنفسه فلفّ جسمه بخِرَق متواضعة ، ولم تمض شهور حتى توقفت المصانع الانجليزية ، فرحل الانجليز عن الهند واًعترفوا باستقلالها ! !

هل لدى العرب هذه القدرة النفسية ؟

هل يملكون هذه الإرادة الحديدية؟ هل يحكمون شهواتهم أم تحكمهم شهواتهم ؟

إن الصوم ليس جوعا طويلا تمهيدا لأكل كثير . وليس حرمانا موقوتا يتبعه انطلاق فوضوى ! !

ثم إنه ليس تحريما لبعض المأكولات المباحة وتركاً للفم يلغو ويستهل الغيبة واللغو والإسفاف ، هذا النوع من العبادات لا خير فيه .

وفى الحديث الشريف «**ربَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، ورب قائم حظه من قيامه السهر**» .

وعن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه**» .

وقال الرسول أيضا : « **الصوم جُنَّة - أى وقاية - ما لم يخرقها ، قيل وبماذا يخرقها؟ قال : بكذب أو غيبة !** » .

إن العبادات بذور جيدة فى الحياة الاجتماعية ولعل أقرب ثمارها ظهورا حسن الخلق وأدب النفس وكبح الطباع الرديئة .

إنه ليسوءنى أن يكون السائحون المسلمون فى أقطار العالم أول الناس بحثا عن الشهوات واستجابة للإغراء ، كما يسوءنى أن ننفق فى بلادنا المال الكثير على الكماليات والمرفهات حتى أننا أحيينا صناعات الترف فى دول تخاصمنا وتنال منا .

* * *

أيام الانتصار

إذا كان رمضان شهر القرآن فإنه كذلك شهر معارك حامية دفعت الباطل وكسرت شوكته ، إن هذا القرآن كتاب حوار وفكر وأخذ ورد وهو يستبعد الإكراه فى عرضه للعقيدة ودعوته إلى الفضيلة : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ .[1]

وعندما درست أهمّ معارك السيرة النبوية وجدت أن مسالك الكفار وغرورهم كانت السبب الأول فى خذلانهم وسقوط رايتهم ، خذ مثلا «بدر» لقد خرج أهل مكة لحماية قافلتهم المهددة كما يقولون ، حسنا! لقد نجت القافلة فلِمَ لَمْ يعودوا من حيث جاءوا ويستأنفوا حربهم للإسلام ؟

قال أبوجهل لابد أن نعسكر قريبا من المدينة فننحر الجزور ونشرب الخمور وتغنى لنا القيان ويسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا ! أى ولا يزالون يخافون من اعتناق الإسلام مادمنا نخاصمه ! !

إن هذا الكبر والطغيان كانا سبب هزيمة الشرك وذهاب ريحه . .

وانظر - بعد بدر - إلى فتح مكة ، كانت هناك معاهدة تمنح الوثنية السائدة عشر سنين لو آثرت الوفاء والإنصاف ، ولكنها خرقت المعاهدة وقتلت أصدقاء المسلمين فى الشهر الحرام فسار المسلمون إلى مكة وفتحوها وأخمدوا أنفاس المعتدين . .

وقد وقعت فى أواخر رمضان معركة «عين جالوت» وهى معركة بعيدة الأثر فى تاريخ العالم كله ، فإن التتار بعدما أسقطوا الخلافة العباسية ودمروا «بغداد» ، استعدوا لفتح «مصر» ، وأرسلوا إليها كى تستسلم!! وشاع فى أرجاء الدنيا أن جيش التتار لا يقهر !

ومن يستطيع الوقوف أمامه بعد مقتل المستعصم آخر الخلفاء العرب ، لكن «قطز»

(١) الأنعام : ١٠٤ .

قتل الوفد التتارى وأعلن التعبئة العامة وقاد الجيش المصرى وسار به إلى فلسطين ليلقى عدوه المغرور بقوته ، وكانت الشائعات بأن جيش التتار لم ينهزم قط تنتشر فى كل مكان ، وتغزو الأفئدة باليأس ، وظهر هذا عند التقاء الجمعين فترجل قطز ، وألقى على الأرض خوذته وصاح بصوت رهيب وا إسلاماه ، وهجم بمن معه فإذا الأرض تزلزل تحت أقدام المغيرين ، وإذا هم يولون الأدبار . .!

وحاولوا الوقوف فى خط آخر أنشأوه على عجل ولكن المسلمين تعقبوهم فإذا هم بين قتيل وأسير . وانهزم جيش «هولاكو» فاتح بغداد ، وقال التاريخ لم يكن ما حدث نجاة لمصر وحدها ، بل نجاة للعالم كله من الفوضى والوحشية ، وكم لرمضان من بركات عسكرية ، ولكن المجال يضيق عن الإحصاء .

* * *

المفروض

المفروض أن رمضان شهر السموّ الروحى والإقبال على الله وتلاوة القرآن ومغالبة شهوات الجسد التى تتنفّس طول العام وتنضبط خلال هذا الشهر الكريم .

إن العالم فى عصرنا حوّل حضارته إلى آلة ضخمة يُسمَع دويّها فى المشارق والمغارب لخدمة الجسم الإنسانى وإرواء غرائزه التى لا ينتهى لها جيشان ، فهل يقدر شهر الروحانية على إعادة التوازن ، وإفهام الإنسان أنه ليس حيوانا يحكمه الطعام والسفاد ؟

المنظور فى فريضة الصيام أنها تدعم خصائصنا العليا وتقوّى إرادة التسامى وتذكر المرء بأصله السماوى ، وبأنه نفخة من روح الله الأسمى ، وقبس من نوره الأسنى فلا يجوز أن تهزمه شهوات الحيوان الرابض فى دمه يغرى بالطيش والإسفاف . .

إننا بالصيام نستجيب لأمر الله أن ندع الطعام والشراب ، وهما حلال طوال العام ! فهل نستفيد من ذلك أن نجعل بيننا وبين الحرام مسافات بعيدة ، وأن نعشق الإقبال على الله واتباع مرضاته؟ لقد راقبت الناس فوجدتهم فريقين ، قلة تأخذ الأهبة للفريضة الوافدة وتستعدّ لاحتمال أعبائها ، وكثرة تفكر فى الطعام الكثير والمرفهات الشهيّة وكأنهم يجوعون طويلا ليأكلوا كثيرا !!

والمؤمن حقا لن ينسى ما يكتنف رمضان هذا العام من آلام تحسّها جمهرة المسلمين هنا وهناك ، إن أمتنا وحدها تقع تحت وطأة هزائم ثقيلة ، وتمر بها أزمات عضوض ، وهناك نساء مَسْبِيَّات ورجال أسرى ، وبيوت استوحشت من أهلها ، وكان يقال قديما : اليهودى التائه ولكن الذى يقال الآن : العربىّ التائه!! أوالمسلم المطارد بدينه لا يقرُّ له قرار . .

ولعل الأعجب فى معاملة الشهر الاستعداد لإماتة لياليه بفنون التسلية بدل إحيائها بدروس العلم وتدبر القرآن ، ودراسة ما حوى من حكمة وتوجيه !

إن الصيام ارتقاء معنوى ، وإقبال زائد على الله ، ورغبة فى التسبيح والتحميد لا فى اللغو والمجون . .

وأطلب من أمتنا أن تعى حكمة التشريع لفريضة الصيام ، كما أطلب منها أن تذكر تاريخ هذا الشهر وما وقع فيه من أحداث جسام . .

إن هناك من يحسب الشهر الكريم فرصة بطالة وقعود ، أو راحة واستجمام ونسى أن أعظم معارك الإسلام دارت فى هذا الشهر ، وأن صحائف من أمجادنا كتبت فيه .

فيه خرج المسلمون للقتال فى بدر والفتح ورزقهم الله النصر المؤزّر والفوز العظيم . .

هل نستطيع أن نُرِىَ المتربصين بنا أننا مازلنا أوفياء لديننا ، وأننا قادرون على الثبات فى مواقف الحراسة ، وأن الإسلام حىٌّ فى ضمائرنا ، وسيبقى مرفوع الراية ؟

* * *

مع الصيام

الصيام شريعة تشتبك مع أعتى الغرائز البشرية ، غريزتى الأكل والجنس وهما الغريزتان اللتان سيطرتا على السلوك فى الحضارة الحديثة ، وفرضتا أنفسهما على كل شىء فى عالم الأزياء والغذاء !!

والإسلام لا يحارب الجسد ، ولكنه يرقبه بدقة ويحاصره بأحكام الحلال والحرام ، ويرشده إلى مصالحة العاجلة والآجلة .

وقد ختمت آيات الصيام بقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

فالصيام وإن كان تكليفا فيه بعض المشقة إلا أنه حميد العقبى جميل الأثر ، ويتحول مع الأداء الصحيح إلى نعمة جديرة بالشكر . .

أما عبادة الجسد والمسارعة فى هواه فحيوانية تزرى بصاحبها وتجر عليه الهوان فى الدنيا والآخرة . .

وقد انفرد الإسلام بهذه الفريضة من الحرمان الموقوت ، وجعلها دَعْماً للإرادة ومعراجا للسموّ ومرضاة لله سبحانه .

وقد لاحظت أن مراسلين للصحف الأجنبية والوكالات العالمية تندسّ عندنا بين الجماهير ووسط الأحياء المختلفة لتعرف : أبقى المسلمون أوفياء لرمضان يصومون أيامه ويقومون لياليه ؟ أم جرفتهم تيارات الحضارة ، فقرروا الإفطار والمنام . . !

والواقع أن الكثرة الكبرى تطيع ربّها وتحترم الشهر المبارك ، ولكنى وجدت أن التقاليد الضارّة تهجم على الشهر وتكاد تطفىء سناه وتمحو أثره ، هناك من يجوع كثيرا ليستطيع الأكل أكثر فرمضان عنده شهر الطعام لا شهر الصيام !

وقد استعدَّتْ وسائل الإعلام فى أقطار كثيرة بفنون التسلية لتنقل المسلمين من الجدّ إلى الهزل ، وتصرفهم عن الشغل بقضاياهم الخطيرة إلى التيه وراء خيالات مريضة .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

ومعروف أن رمضان جاء هذا العام والإسلام يستوحش من مآسٍ أحاطت بأهله وهزائم ألحقت بهم جراحات غائرة ، فإذا لم يكن الشهر للإنابة والاستغاثة فلماذا يكون ؟

وأسوأ ما ألاحظه على قومى أنهم يسمعون القرآن ولا يتدبرون! وتمر بهم المعانى التى تهدّ الجبال فإذا بعضهم يصيح طربا ويستعيد الآيات إعجابا بالأنغام التى حفّت بها . .!!

ليس هذا سماعا ، وإنما هو طمس وذهول ، يبرأ منهما عباد الرحمن الذين جاء فى صفتهم : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[1]

إن رمضان فرصة لتوبة نصوح ، وأمل فى نصر قريب على شرط أن نصومه ونقومه كما أمر الله سبحانه . فكم فينا من قَلِق يريد القرار! وهائم عن وطنه يريد العودة ومهزوم يشتاق للنصر . .

* * *

(١) الفرقان : ٧٣ .

جورباتشوف

استحوذ «ميخائيل جورباتشوف» على إعجاب العالم ، للطريقة التى أجهز بها على الشيوعية ، وأخرج مئات الملايين من سجنها الكبير دون خسائر تذكر . .

وقد فكرت طويلا فى شخصية الرجل : أهو عقلانى يؤمن بالله على نحو خاص كبعض الفلاسفة الإلهيين ؟

لم يبد فى أقواله ما يشهد بذلك! أهو ينتمى فى سريرته إلى أحد الأديان السماوية؟ كلا ، ما ادعى ذلك ولا لوحظ عليه !!

ظاهر أن الرجل صاحب طبيعة حرة ، ولعله أحد المؤمنين بحقوق الإنسان على ظهر الأرض ، وحسب ! لكن صاحب هذه الطبيعة قد ترسب فى نفسه مشاعر خاصة ضد بعض الناس فلا ينجو من سيئاتها . .

فعندما رجعت حرية التدين إلى المجتمع الروسى طالبت الكنيسة الأرثوذكسية بأملاكها المصادرة ، ولم ير «جورباتشوف» حرجا فى ردها إلى أصحابها ، لكن المسلمين لم يعاملوا بالمثل ، وبقيت آلاف المساجد والمعاهد والمؤسسات الإسلامية مخازن واصطبلات ومرافق أخرى لاحق للمسلمين فى استعادتها !

ومعروف أن دول البلطيق عندما طالبت باستقلالها عوملت بتلطف ومراوغة ريثما تتاح الفرصة لتنال حرياتها ، أما مسلمو أذربيجان فقد تولى الجيش الرد على مطالبهم ، وخرست أصوات الحرية تحت هدير الدبابات التى أرسلها جورباتشوف لحل الأزمة!!

وهناك أمر يحتاج قبل عرضه إلى شرح : إن السلطة فى بلد ما قد تعاقب موظفا مسيئا بنقله إلى بلد بعيد عقوبة له ، حتى جاء «ستالين» فقرر تطبيق هذه العقوبة على شعوب بأسرها ، فنقل ثلاثة ملايين مسلم من القرم إلى سيبريا وبقاع أخرى ، وطبقت العقوبة نفسها على مسلمين من أقطار شتى ، قطّع الجبار أوصالهم ، ورمى بهم فى فيافٍ لا علاقة لهم بها . . !

لقد أمسوا أقليات حيث ذهبوا ، وصفرت منهم أرضهم التى ورثتها طوائف أخرى أسعد !

وعومل المسلمون الروس على أنهم شعوب من درجة ثانية ساقطة المكانة المادية والأدبية . .

والغريب أن جورباتشوف عندما نظر فى شكاواهم لم يقض فيها بشىء ، وتركهم تحت المعاناة التى رزئوا بها ، وهذه المعاناة يذوقها أيضا مسلمو جورجيا الذين يقعون تحت حكم مسيحى طائفى متعنت يحسون فيه الوحشة والضياع !

إن المسلمين فى روسيا يبلغون ثمانين مليونا أويزيد ، أى أنهم أكثر من ثلث السكان! وقد وصفت أحوالهم فى كتابى «الإسلام فى وجه الزحف الأحمر» الصادر من ربع قرن!! والجمهوريات التى استوطنوها من قرون من أغنى أقطار الأرض ، ولكن السيادة والقيادة للجنس الروسى الحاكم الذى ابتلى به هؤلاء التعساء ، أيام القياصرة البيض والحمر على سواء . .

والخزى أن المسلمين العرب يجهلون كل شىء عن إخوانهم المنكوبين ، ولا عجب فقد وجد من العرب أنفسهم من نبذ الولاء الإسلامى ، وقطع أواصره بإخوان العقيدة ، وجعل البعث العربى أوالقومية العربية محور نشاطه وعلاقاته !!

إن هناك ارتدادًا أنكى من الارتداد الذى قام به مسيلمة ، وقع فى شراكه كثيرون فنسوا أمتهم الكبيرة وتاريخهم الجامع ، وقبعوا وراء حدود موهومة ، يحسبون أنهم سوف يظفرون وراءها بالحرية . .

وهيهات فقد جاء بنو إسرائيل بعقيدتهم التى آخت بين يهود اليمن ويهود روسيا ؛ ليقولوا لاعرب المفتونين : إن زهدتم فى عقيدتكم فلن نزهد فى عقائدنا!! إن يهود روسيا أولى بأرضكم منكم . . ! !

* * *

مؤتمر إيباك

فى يونيه سنة ١٩٩٠ انعقد المؤتمر الحادى والثلاثون للجنة اليهودية الأمريكية المسماه «إيباك» – وهى أعتى الفئات المؤازرة لإسرائيل فى الولايات المتحدة – وشارك فى هذا المؤتمر نائب الرئيس الأمريكى ، ووزير الدفاع ، وزعيم الأغلبية الديمقراطية ، وزعيم الأقلية الجمهورية ، وعشرات من أعضاء الكونجرس الأمريكى . .

ودار الحديث حول دعم وديمومة العلاقات الفريدة بين إسرائيل والولايات المتحدة .

ولفت نظرى الحديث الصريح عن حدود إسرائيل ، وضرورة بقائها مائعة حتى تستقر على خطوط يمكن الدفاع عنها! وترغم الدول العربية على قبولها . .!

قلت : ما الدول التى ستبقى لتُوقِّع وثيقة الضياع والخزى الأبدىّ؟

إن إسرائيل الكبرى ستهلك كل ما حولها من الفرات إلى النيل شرقا وغربا ، ومن الحجاز إلى تركيا جنوبا وشمالا !

ربما بقيت من الفريسة الملتَهَمة بقايا أقدام وعظام فهى تطالب بالاستسلام للأمر الواقع والتوقيع عليه بالقبول والرضا والشكر ! !

هذه هى حصيلة الرؤى الدينية التى آمن بها دراويش السياسة المعلنة فى الدوائر الأمريكية العليا والدنيا .

ومن الطريف أن رئيس الأقلية الجمهورية رأى استبقاء الحوار بين أمريكا ومنظمة التحرير الفلسطينية؟ لأن العرب لن يأخذوا من هذا الحوار إلا الوعود الخادعة والكلمات المعسولة !

وقد سألت نفسى : لقد بدأ هذا الحوار من أمد طويل ، فماذا أفاد العرب منه؟ ولماذا يحرصون عليه؟ إنه تَعَلُّق الغريق بالقشة لعله ينجو !

وأمريكا خلال هذا الحوار ما تركت كلمة تحرج العرب إلا قالتها ، ولا عملا يخذلهم فى الميدان الدولى إلا قامت به .

ولنترك مؤتمر «إيباك» الذى انعقد لمواصلة إذلالنا فى الولايات المتحدة ، إلى مؤتمر آخر انعقد قبله بشهرين فقط لإهانتنا فى كندا . .

دعت إلى هذا المؤتمر جامعة «مانيتوبا» وجعلت عنوانه «العروبة والإرهاب الإسلامى سنة ١٩٩٠ وتهديدهما لأمريكا الشمالية!!» .

وقُدِّمتْ بحوث ودراسات كثيرة من أساتذة متخصصين ، واهتمت أجهزة الإعلام الكندية بالمؤتمر الوقح وعاقديه المفترين ، ولم يتحرك أحد من المعْنيِّين لكشف أكاذيبه المتعمدة . .

قلت : إن عام ١٩٩٠ الميلادى قد انتهى نصفه ولم يفقد دين من الأديان ضحايا وخسائر عُشر ما فقد الإسلام ، إن مئات من القتلى فى الهند وفى فلسطين ؛ وفى الاتحاد السوفيتى ، وفى أفريقيا شرقا وغربا ؛ ذهبت فى صمت ، لا عزاء ولا رثاء !!

إن حاخاما يهوديا قتل شابا فلسطينيا فجوزى بثلاثة شهور ، تقضى فى مستشفى ، وكان القتل عمدا وقصدا ، وكان العقاب هزلا لغرض مكشوف .

أما فى أرجاء القارات فشهداؤنا لا يكترث بهم أحد!

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتزّ إنسان !

ومع ذلك فنحن إرهابيون ! نكره السلام ونستمرىء العدوان . . ! وغيرنا المسالم الطيب !

وفى حضارة العصر أن ينسف البيت العربى ، ويبيت أهله فى العراء ؛ ويُسمَّوْن إرهابيين ، أما أمريكا حامية هذه المآسى فهى حارسة حقوق الإنسان !!

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾[1]

* * *

---

(١) النمل : ٤ ، ٥ .

حراس الشعائر

أطللت من شرفتى على مياه البحر المتوسط والنسيم يموِّج صفحتها ، وقلت : أستقبل الآفاق الممتدة ، وأفكر فى عظمة الخلق والخالق ! إنَّ الشمس تؤذن بالمغيب ، وقرصها الأحمر يوشك على الانحدار . .!

وبينما أنا أقلب الطرف فى الأرض والسماء سمعت من الإذاعة أذان المغرب بالقاهرة ، لقد اختفت الشمس هناك ، وبعد خمس دقائق ستختفى من الإسكندرية ، ويبدأ تحول اليوم الحاضر إلى جزء من أمس الدابر . .

وتساءلت : أيسود الأجواء صمت فى الفترة بين أذان القاهرة وأذان الإسكندرية؟ كلا ، إن هناك مئات من المؤذنين على امتداد خطى الطول اللذين تقع عليهما العاصمتان ، كما أن بين الخطين فى شتى المدائن والقرى من يرقبون الشمس عندما تميل ثم يشقّون الصمت بالتكبير والتوحيد .

وبدا لى كأنه فى كل دقيقة تمر يقع أذان يذكِّر الناس بوحدة الله وعظمته ، ويناشدهم القيام بحقه . .! وامتدت الفكرة فى نفسى فقلت : أتخلو دقيقة - أوثانية - من أذان ، بدءا من وادى النيل إلى الرباط والدار البيضاء على شواطىء الأطلسى ؟

هذه الأقطار تقع على خط «جرينتش» يتنقل الغروب فيها خلال ساعتين! ومع اختفاء الأشعة فوق هذه الأرض الدوارة يتصل صوت المؤذنين ليلفّ الكرة الطائرة شرقا وغربا . .

ثم قلت : ذاك فى دار الإسلام وحدها ، فإن سلسلة الأذان الصادحة بأنغام التوحيد تنقطع فى بلاد تعبد الأوثان ، أوترفض الإسلام! وسرح ذهنى إلى مئات الملايين فى الهند ، وفى الصين ، وأجيال أخرى من الخلائق . .

إن آباءنا - مقدورين مشكورين - حاولوا أن لا يخرس خط من خطوط الطول أوالعرض عن نداء التوحيد ودعوةالتوحيد ، وقد بذلوا جهدهم ، ثم ذهبوا إلى الله يقولون له : ذاك ما قدرنا عليه . .

وأفقت من هذا الاستغراق على منظر عجب ، فإن عشرات من العصافير - أومئات - كانت تلفّ قريبا منى بقوة ، وتقوم بمظاهر حماسية ساحرة :

أهي تودع النهار المدبر وتستقبل المساء القادم؟ فلأهتف معها بهذا الدعاء :

«اللهم إن هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك فاغفر لى» .

وأخذت أجيب المؤذن لصلاة المغرب! إن الأذان فى الإسلام حديث معروض على الآذان والسرائر ، ويجب أن نحدد موقفنا منه بتصديقه وترديد ما يقوله المؤذن توكيدا له وشهادة فوق شهادته .

وذاك معنى الحديث الذى رواه سعد بن أبى وقاص **«من قال حين يسمع المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ورسولا ، غفر الله له ذنوبه»** .

والناس فى معايشهم وأسواقهم ومنازلهم يستغرقون فى شئونهم الخاصة ، ويكادون يذهلون عن كل شىء ، فإذا كشفوا هذه الغمة ، وذكروا حقوق الله ، وأصاخوا إلى صوت الداعى ، فإنهم يبدؤون رحلة إلى الحقيقة .

الفلاح فى حقله ، والراعى فى غنمه ، والمسافر فى رحلته ، والعامل فى مصنعه ، كل أولئك قد يُشغلون بما هم فيه حتى ليستغرقهم ، فإذا انتصر فى نفوسهم هاجس الحق ، ونشطوا إلى الأذان ، كانت لهم عند الله مكانة حسنة ، وقد جاء فى الصحاح أن النبى ﷺ **كان فى سير له فسمع رجلا عن بعد يصيح : الله أكبر الله أكبر! فقال النبى ﷺ : على الفطرة!! ثم قال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال الرسول : خرج من النار . .!!**

فاستبق القوم إلى مصدر الصوت ، فرأوا راعى غنم حضرته الصلاة ، فقام يؤذن . .» إن الذين يغالبون النسيان ويحرسون الشعائر ، ويقيمون حقوق الله لهم أجرهم ونورهم .

ونحن فى هذا العصر الذى يعبد اليوم الحاضر ، وينسى اليوم الآخر ينبغى أن نتجاوب مع صيحات الأذان ونتشبث بذكر الله .

الغيبة الجماعية

التحريش بين المسلمين ، وتعميق الجراح فى الجسم المُثْخَن ، عمل تقوم به الآن فئات كثيرة ، وتُسخَّر له أقلام شتى بأسلوب ماكر . .

هناك من يقول : الفلسطينيون خونة! ومن يقول : أهل العراق أهل النفاق والشقاق ! ومن يقول : الكويتيون خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت! ومن يقول : المصريون فراعنة إذا قدروا ، وعبيد إذا عجزوا! ومن ومن . . . إلخ .

وتلك كلها كلمات ماجنة وضيعة ؛ أحسب أن مُروِّجيها مأجورون لجهات أجنبية تكيد لأمتنا وتَوَدّ لها العَنَت! وسواء أُلقيت كلمات عابرة أونكات ساخرة فأثرها القريب والبعيد خطير على وحدتنا ؛ وتماسكنا فى هذه الأيام العصيبة .

لقد حرم الإسلام البُهتان والغِيبة ، وعدّ كليهما من الكبائر ، والبهتان اختلاق العيوب ورَمْىُ الأبرياء بها ، أما الغيبة فهى التحدث بعيب موجود مادى أوأدبى ، على سبيل التنقُّص والفضيحة . .

وعند التأمل فى نصوص الشريعة نجد التحريم يتناول مايجرى على ألسنة الأفراد من إثم يراد به إساءة امرىء فى نفسه أوأسرته ، لكن الذى يقع الآن يمكن تسميته غيبة جماعية أوافتراء جماعياً ، الغاية منه إهانة شعوب كبيرة وتوهين أواصر الوحدة الكبرى التى تلُمُّها ، وإعادة العرب إلى الجاهلية التى ردم الإسلام مآثرها ورفَض مفاخراتها ومنافراتها !

أى أنها غيبةُ مُركَّبة ، أو رذيلة مضاعَفة ، ونتائجها إيغار الصدور ، وتقطيع الصفوف ، وإظلام المستقبل . .

ولن يستفيد من هذا العمل إلا أعداء الإسلام ، والحراص على تمزيق أمته وإضاعة جماعته ! !

ومبلغ علمى أن أنور السادات عندما قرر الصلح مع إسرائيل كانت من وراء قراره الكلمات المسمومة التى تناوله بها بعض الصحافيين وهو يناشد دول الخليج معونة مصر!

لقد اعتبروه سائلا كريها ، وذكروه بصفات مقبوحة ! !

إن هذا السَّفه المنكور غيَّر تاريخ الأمة العربية على نحو هائل مزعج ! !

واليوم يراد أن يتحول الخصام الحكومى إلى عداوات شعبية ، تضيع فيها قضية فلسطين ، وينهار فيها البيت العربى الكبير ، وترث أجيال كراهية أجيال ، وتذهب وصايا الله فى جمع الكلمة هباء . .

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]

عندما أصف واقعا سيئا لإنسان أولجماعة على نحو طائش ، فليس يغنى عنى أنى أقول الحق ! !

ففضح البشر ليس كَلأً مباحا ، نعم عندما أذكر أحدا بما يكره ، فلا يُقبل عذر لى أن أقول : لقد قررتُ الحق !

ولا بأس أن أذكر هنا قصة ماعز الصحابى الذى قُتل لارتكابه جريمة الزنى! فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : «**جاء ماعز الأسلمى إلى رسول الله ﷺ ، فشهد على نفسه بالزنى أربع شهادات يقول : أتيت امرأة حراما ، وفى كل ذلك يُعرَ عنه رسول الله ﷺ** » فذكر الحديث إلى أن قال الراوى «**قال رسول الله لماعز : فما تريد بهذا القول؟ قال : أريد أن تطهِّرنى . فأمر به رسول الله ﷺ ، أن يُرجم ، فرُجم ، فسمع رسول الله ﷺ رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذى ستر الله عليه ، فلم يدَع نفسه حتى رُجم رَجْم الكلب** » .

قال الراوى : «**فسكت رسول الله ﷺ ، ثم سار ساعة فمَرّ بجيفة حمار شائل برجله ، فقال : أين فلان وفلان؟ فقالا نحن ذا يارسول الله ، فقال لهما : كُلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا يارسول الله ، غفر الله لك ماتقدَّم من ذنبك وما تأخر ، من يأكل من هذا ؟**

(١) النور : ٦٣ .

فقال رسول الله ﷺ : ما نلتما من عِرض هذا الرجل آنفا أشدّ من أكْل هذه الجيفة ، فو الذى نفسى بيده إنه الآن فى أنهار الجنة» !

يقول الله تعالى فيمن يختلقون المعايب ويرمون بها الناس : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1]

وأشعر أحيانا أن الغيبة قد تكون أنكى من البهتان ، فإن المفترى يمكن كشف كذبه وجرّه إلى القضاء ليَلْقَى عقابه ، أما الذى يعيب شخصا أوقوما بسيئة هى فيهم ليُسقط مكانتهم ، فهذا هو الذى يُخاف شرّه ، ويُتّقَى ضَرّه .

والمطلوب من أهل الإيمان أن يستروا الزّلل لا أن يُشيعوه وأن يعينوا العاثر ليقوم ، بَدَلَ أن يزيدوا هاوِيته عمقا لتبتلعه . . ! !

* * *

(١) الأحزاب : ٥٨ .

فرقة.. تفتك بالجماهير

أمراض المسلمين على اختلاف أقطارهم متشابهة ، قد تفلح المسكنات فى علاجها هنا ، على حين تتحول فى أقطار أخرى إلى أوبئة جائحة . .

ولم أر فى القارة الهندية علة غير معروفة لدينا ، لكن هذه العلل هناك استفحل شرها ، وطالت آثارها ، وتوطنت جراثيمها ، فالمسلمون منقسمون إلى سنة وشيعة ، والشيعة ألوان! فهناك الإمامية الاثنا عشرية وهم ينتظرون الإمام الغائب ليملأ الدنيا عدلا بعدما ملئت جورا .

وهناك الشيعة البهرة الذين يصلون ويسلمون على المعز لدين الله ، والحاكم بأمر الله . . وهناك الاسماعيلية الباطنية الذين يرون أغاخان ممرا لتيار إلهى يجعل جسده يوزن بالنفائس ! !

أما أهل السنة فالانقسامات بينهم لا تقل خطورة . .

السلفيون يكرهون المتصوفة ، ويعلنون عليهم حربا شعواء ، وهم مع أهل الحديث يكرهون أتباع المذاهب الأخرى ، ويرون الاستنباط المباشر من السنن ، وهناك حرب أخرى بينهم وبين الأشاعرة .

والأحناف مع جمهرة المسلمين الأعاجم يلتفّون حول مذهب أبى حنيفة ، ويؤثرونه على غيره .

ويوجد رجال الدعوة المشتغلون بالتبليغ ، ويوجد إصلاحيون يقومون بنشاط عام يشبه نشاط الإخوان المسلمين فى الشرق العربى ، ويوجد قوميون ؛ ومنحلون وغوغاء يطلبون العيش على أى نحو .

وهناك فِرَق مرقت عن الإسلام ، وظاهَرَها الاستعمار بقوة لتنال منه ، كالقاديانية والبهائية .

والآفة الجديرة بالتأمل أن كل تلك الفِرق تعيش على هامش الحياة ، وتحيا صريعة الفقر الشديد ، والتخلف الحضارى المحزن . .

وقد رأينا أن العالم المعاصر لم ير حرجا فى إيصال الذرّة إلى الهند ، ففجرت قنبلتها من بضع سنين ، على حين حاصر باكستان ومنعها من اقتفاء أثر الهند ! !

والواقع أن الهنادك يتلقون دعما كبيرا فى كل ميدان ، حتى قيل : ليس فى الهند بقعة لم تزرع ، وإنه - خلال سنين - ستكون الهند أمة صناعية مرموقة ! !

وأرى أن الأوضاع الإسلامية فى الهند تحتاج إلى علاجات من المنبع ، وأن ترْك الفُرقة المذهبية ، والاضطرابات الاجتماعية تفتك بالجماهير ، معناه ضياع الحاضر والمستقبل . .

ويمكن أن يقوم الأزهر بتوضيح العقائد والأركان والأخلاق التى يجتمع المسلمون عليها ، وأن يتناول بحكمة أسباب الفرقة مُهوِّنا من شأنها ، ومنذرا بعواقبها إن بقيت .

وحبذا لو تألفت لجنة للتقريب بين المذاهب السنية أوّلا ، بوصف أهل السنة هم كتلة الإسلام الكبرى ، ثم تقوم هذه اللجنة بجهد آخر فى التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة .

من النصائح الحسنة : «لا تجعل شمس اليوم تخفى وراء غيوم من المستقبل ينسجها الوهم» والواقع أن غيوما من الماضى تنبعث بين الحين والحين ، فتحجب الرؤية أمام المسلمين المعاصرين . .

فى أول نصر للمسلمين قال الله لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ (1)

لما تسلل إلى النفوس تطلع تافه إلى متاع الدنيا . . ثم قيل لهم فى توكيد أسباب النصر :

﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾(2)

والواقع أن الخلافات العلمية لن تكون سبب وقيعة بين الشعوب ، إذا صلحت السرائر ، وزكت الضمائر . . والأمر يحتاج إلى يقظة علمية وخلقية ، فإن أعداء الإسلام أحدقوا به ، وتحدثهم نفوسهم بأنهم موشكون على القضاء عليه . .

وبقاؤنا متفرقين هو ذريعة الفتك بنا وبرسالتنا ، فلنسارع إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة ، والإفادة من المدنية الحديثة بالقدر الذى يمحو التأخر الشائع فى كل مكان .

---

(1) الأنفال : 1 .   (2) الأنفال : 46 .

فتاوى متعسفة

من الآفات التى اعترضتنى فى طريق الدعوة ، أناس عندهم رغبة مجنونة فى الحكم بالتحريم على أى شىء! فلو استطاعوا تحريم الهواء لأصدروا بذلك الفتوى ، ولو ماتوا مع الناس مختنقين !

وهم يتصورون الإسلام رسالة تسكن من العالم الرحب حارة ضيقة لها تقاليدها ولها مراسمها ، فما يصلها بالعالم ممنوع مهما كانت طبيعته ، والمهم بقاء الحارة منطوية على أصحابها وحسب . .

وأصحاب هذا الفكر قد يصلحون بوابين على خرابة ، أما أن يكونوا دعاة لدين عالمى ، يفتح صدره للأعصار والأمصار ، ويتجاوب مع فطرة الله فى الأنفس ، ويتفاهم مع الرجال والنساء فى الشرق والغرب ، فهذا مستحيل . .

رأيت أحدهم ينظر إلى الشارع مكفهر الوجه ، فقلت له مازحا : ما أغضبك ؟

فقال : رءوس الرجال عارية وكذلك وجوه النساء وأيديهن ، والواجب تغطية هذا كله ، قفاز فى يد المرأة ، ونقاب على وجهها ، وقلنسوة أوعمامة على رأس الرجل ، وبذلك يصير المجتمع إسلاميا ، واسترسل يقول : إنه فى الإحرام بالحج والعمرة ، لاغطاء على الرأس ، ولا نقاب على الوجه ، ولا قفاز فى اليد ، فإذا انتهت المناسك تغيرت الأوضاع . .

ولم أر أن أجادل هذا المسكين ، وحِسبته يعبر عن فكر عامى ؛ يلتزمه بعض المتطرفين ، يحسبونه دينا وماهو بدين ، حتى قرأت لعالم كبير فتوى بأن ستر اليد داخل قفاز من تمام الحجاب! وبذلك زاد قيد آخر على حراك المرأة وعلى دائرة المباح الذى كفله الشارع لها . .

وراجعت معلوماتى من كتاب الله وسنة رسوله ؛ فوجدت الكلام رأيا خاصا لصاحبه ، ولا يجوز أن يسمى دينا ولا شبه دين !!

كانت المرأة تلقى النبى ﷺ ، وفى أصابعها خاتمها ؛ فما ينكر ذلك عليها ، وإنما يتساءل فقط : **هل أخرجت ما عليه من زكاة ؟**

فما معنى زيادة القيود المفتعلة على المرأة وإيهام المؤمنات بأن اليد عورة يجب سترها ؟

هل المقصود زيادة العقبات أمام انتشار الإسلام ؟

أم المقصود جعل المؤمنات يكرهن الإسلام ويضقن به ؟

روى أبو داود وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ **أن امرأة أتت النبي ﷺ ، ومعها ابنتها ، وفى يد ابنتها أسورتان غليظتان من الذهب ، فقال لها : أتعطين زكاة هذا ؟**

قالت : لا! قال : أيسرُّك أن يسوِّرك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار ؟

فخلعتهما فألقتهما إلى النبى وقالت : هما لله ورسوله» .

وفى رواية ثوبان ، فى قصة هند بنت هبيرة أنه كانت فى يدها خواتيم ضخام ، فجعل رسول الله يضرب يدها . . وتمام القصة يشير إلى رفض رسول الله هذا المظهر الدال على الخيلاء والاستعلاء ، ولم يشر من قريب أوبعيد إلى أن اليد عورة .

والعلماء على أن غضب الرسول كان لعدم إخراج الزكوات على هذه الحلى ، ولو أخرجنها ما غضب منهن ، يدل على ذلك ما رواه جابر بن عبدالله قال : **شهدت العيد مع رسول الله ﷺ ، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ثم قام متوكئا على بلال ، فأمر بتقوى الله ، وحث على طاعته ، ووعظ الناس وذكرهم ، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن ، فقال : تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم !**

فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين - وجهها أحمر فيه سمرة - فقالت لم يارسول الله ؟

قال : لأنكن تكثرن الشكاة ، وتكفرن العشير .

قال جابر : فجعلن يتصدقن من حليهن ، يلقين فى ثوب بلال من أقرطتهن وخواتيمهن » .

والحديث كما ترى ظاهر فى أن وجه المرأة ليس بعورة فقد وصفه الراوى دون حرج ، وفى رواية البخارى : **كنت أرى أيدى النساء تهوى بحليهن فى حجر بلال** ، فاليد ليست عورة . .

إن رسولنا بعث بالحنيفية السمحة ، وقد أنذر بالويل من يأتون من عند أنفسهم بالمشكلات والمتاعب فقال : **هلك المتنطعون** . .

ولو كلفنا النساء المسلمات بلبس القفازين لعجز أكثر من نصفهن عن ذلك ووجدن فى لبسهما العنت . .

وأصارح بأنى كنت ألتمس العذر لبعض الغلاة ، وأقول : مخلصون ينقصهم الفقه فى دينهم ، وعلّ إخلاصهم يغفر جهلهم ، بيد أنى بدأت أشعر بالقلق من أن يكون وراءهم من يتعمد تعسير الإسلام خدمة لمآرب أجنبية ! !

إن الإسلام يلقى محنا خطيرة فى هذا العصر ، وقد استيقنا من أن أصابع غريبة تحيك له الدسائس ، وتتعمد نشر فتاوى متعسفة للمتقعرين والمنحرفين ، حتى تصرف أتباعه عنه وتصد الداخلين فيه ، وهنا الخطر ! !

* * *

وبقى فى الحج كلمة

أتجاوبُ مع العاطفة الصادقة ، فإذا تجاوزتْ منطق العقل أغلقتُ أمامها قلبى ، وأبيت الانسياق معها !

أذكر وأنا طالب أنى كنت شديد الرغبة فى الحج مع إدراكى لعجزى ويقينى أنى غير مكلف به . .

وفتّشت فى نفسي عن السرّ وراء رغبتى الجامحة ، فخيِّل إلىّ أنه الأمل فى دعوة تستجاب هناك ، تفرج كروبى !

وتحرَّكَ عقلى يقول : الذى يستجيب هناك يستجيب هنا . !

إننى أولِّى وجهى شطر الكعبة ، وليس من الضرورى أن أراها ، والكعبة بناء لا يضر ولا ينفع ، وإنما أعبد رب البيت الذى يطعم من جوع ويؤمن من خوف . .

ومرت الأيام أسرع مما أقدِّر ، وزرت البيت العتيق حاجّاً ومعتمرا ، وجاورته سنين عددا ، وكان برُّ الله بى أَرْبَى من أملى القاصر ، وعرفت من أسرار الحج ما لو عرفَتْه أمتنا لصلحت أحوالها الروحية والسياسية . .

الحج هو الركن الخامس فى ديننا ، ووجوبه على المستطيع ، فما معنى الاستطاعة؟ إن العاطفة الجياشة تكلف صاحبها فوق ما يحتمل وقد رأيت ناسا فى مكة المكرمة ينامون فى الطرق ، ويعيشون على الطوى ، ويتعرضون لمحنة بعد أخرى لقلة النفقة وقسوة الغلاء ، فهل تتحقق الاستطاعة مع هذا الشظف والحرمان ؟

إذا لم يكن للمرء بيت يؤويه ، ويتطهر فيه ، ويخرج منه إلى المشاعر مصون المروءة والكرامة فلا استطاعة هنا ،ولا تكليف بحج . .!!

إننى أحب أن ترتفع العبادات بنا لا أن نهبط نحن بالعبادات ، وأمتنا تتحمس للشكل ، وقلما تكترث بالموضوع ، وذاك من أسرار تخلُّفنا ، وقد بذلنا أوقاتا وجهودا فى تصحيح المراسم ، ولم نبذل عُشر ذلك فى تصحيح الفكر ، وضبط العلاقات الاجتماعية بين الناس . .

ومن هنا فنحن فى أى زحام تسودنا عقلية القطيع ، ولا يسودنا نظام الصفّ ، وإحكامُ الخَطْوِ ، وملاحظة الغير . .

القطيع عندما يندفع بالأثرة وحب النجاة ومزاحمة الآخرين والمضىّ مع الرغبة الجامحة ولو على أشلاء الضعاف ، أما نظام الصف فهو محكوم بالعقل والأناة والإحساس بالآخرين ، والتصرف بروح الفريق ، ومسئولية الكلّ عن الفرد ، والفرد عن الكلّ . .!!

ويؤسفنى أن أصارح بأن التربية الشائعة فى أمتنا ، لا تكترث بتنظيم الصفوف ، ولفت كل امرىء إلى من معه ، أو إلى من حوله . .

لقد ساءنى كما ساء غيرى موت جمهور كبير من الحجيج فى أحد الأنفاق وتساءل الكثيرون عن السبب؟ وهو منهم قريبٌ لو أرادوا الحق ، وأخشى أن يكون تجاهلُه سببا لتكرار المأساة !!

إن الجماهير فى العالم الثالث لم تلق التربية الواجبة فى آداب المرور ، وحقوق الطريق ، والرفق بالضعفاء ، ورعاية النظام ، وأخذ الحذر ، وتدبّر العواقب ، ونصح الغافلين . .

وكثير من الدعاة والمعلمين يهتمون بأنواع الجدل فى القضايا الفقهية أكثر مما يهتمون بتكوين الرشد فى مواجهة المآزق والمضايق . .

وقد كدت أهلك فى أحد مواسم الحج للرعونة السائدة بين الناس ، شعرت بأنى لا أتحرك تبع إرادتى ، وأن موجات بشرية تجرنى يمنة ويسرة ، فأدركت خطورة الموقف ، وتسلقت سيارة نقل من الخلف حافلة بالركاب ، لم أستطع دخولها ولا النزول منها ، وأخذ العرق يسيل من وجهى وظهرى ، وكنت أسمع خلال التلبية العالية أصوات الاستغاثة . .

ثم بوغت بموكب آخر من الإفريقيين الأشداء يجرى صوبنا من الناحية الأخرى ، فشممت ريح الموت ، ولولا نجدة مسعفة من أقدار الله تحركت بها السيارة لهلكت !

لماذا تكون المسيرة بهذه الفوضى؟ هذه غرائز العالم الثالث للأسف الشديد ، لا يصلحها إلا تديُّنٌ واعٍ مهيمن . . يجعل عقل الإنسان يغلب طبع الحيوان . .

فروق

فى أيام الصبا كانت عاطفة التدين تنضح على أعمالنا ومسالكنا ، وتهيمن عليها بدءا ونهاية ، وهى عاطفة لم تكن من صنع أيدينا ، بل كانت تجيئنا من أرجاء المجتمع كله ، كأنها الهواء المناسب فى جوه!

نصحو مع الفجر لنبدأ مذاكرة الدروس بعد صلاته ، ولاحظت أننا كنا نطالع الدرس الذى سوف يلقى علينا ، فنقرؤه مستكشفين ، قبل أن نصغى إليه متعلمين ، أى أننا كنا نشارك فى الدراسة قبل أن نجلس للتلقِّى !

ولم يكن هناك قط ما يسمى بالدروس الخاصة ، فالحصص توزع علينا بالتساوى لايتفاوت فى حضورها مُجِدٌ ولا كسول .

وكنا نشعر بمعرَّة الخطأ ، فارتبط الصواب بالكرامة الشخصية ، وحرصنا على النجاح حرصنا على الحياة . .

والفجر بداية اليوم والنشاط ، وعقب العشاء تكون المذاكرة قد انتهت تقريبا لنستجم ونستعد لليوم التالى .

من حسن حظنا أن التلفاز لم يكن اكتشف ، وأن السهر فى الحلال لم يكن مألوفا فكيف بالسهر فى اللغو ؟

لقد نتج عن ذلك إخلاص للعلم ، وتوفُّر عليه استفادت منه أمتنا ، كما استفادت من ارتباط العلم بالخلق والدين ، فكان الجيل السابق أرجح كفة وأفضل مآلا . .

وما شاع بيننا يشبه المألوف فى أغلب الطوائف ، فالفلاحون فى قراهم كانوا يستيقظون مع الفجر ، وربما صحوا قبله للاستغفار والابتهال ، فإذا قضيت الصلاة انطلقوا إلى الحقول متزودين بأيسر الطعام ، ويغلب أن يتناولوا غداءهم فى أثناء العمل الشاق ، وأن يصلوا الظهر والعصر وسط الزراعة ، فإذا اقترب المغرب عادوا إلى بيوتهم ، ليتناولوا العشاء ويستعدوا للنوم . .

لم تكن كهرباء السد العالى قد أمدت البيوت بأجهزة الإذاعة ! ولم تكن المجالات ممهدة للسهر والثرثرة ، كان التبكير بالنوم يتبعه تبكير باليقظة ، وحفاظ على حق الله وحق الحياة . .

ولذلك بورك فى الثمار فجاءت فيضا لا غيض معه ، وأذكر أن شهر أكتوبر بعد جنى القطن ، كان الشهر الذى يوسر فيه المعسر ، ويتزوج الأعزب ، ويكتسى العريان ، ويوفى المدين بما عليه ، ويغنى فيه الفلاحون : « نوَّرت ياقطن الليل . . » .

أما الآن فالليل لا ينيره قطن ولا قمح ، لقد تغيرت الأخلاق ، وفترت الهمم ، فمن الذى يذرأ البركة فى الحقول ؟

إن الشيوعيين كفروا بالله ، وأنكروا وجوده ، فلم يرسل الله عليهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود! وإنما أوحى إلى الأرض أن تُضرب عن الإنتاج العادى! فإذا الروس يشترون بكل مالديهم من ذهب قمحا ليأكلوا ، وانتهى الذهب وبقيت الأرض مضربة ، وسقطت الشيوعية ! !

وأترك الحديث عن الطلاب والفلاحين لأنظر إلى العمال وأصحاب الحرف ، إن مصانع النسيج أيام طلعت حرب كانت تتفوق على مثيلاتها فى البلاد العريقة ، وكانت الطبقات الكادحة تثمر الذهب ! !

ويوجد اليوم من يطلب الحقوق ولا يؤدى الواجبات ، ومن يعيش على التسويف ويحرص على شهواته! ومن يذكر نفسه فى كل وقت ولا يذكر الله إلا قليلا . .

من ستين عاما - عندما كنت طالبا - كان الانجليز يحتلون مصر ، ولكن مراجل الغضب على وجودهم كانت تغلى باستمرار ، وتنفجر بين الحين والحين مقدمة أفواج الشهداء .

كان هناك إحساس عارم بحق الله ، وحق الأمة . .

أما الآن وبعد أن طهر الله البلاد من الغزاة الذين احتلوها فإن الشعور بارد بما يقترفه الغزاة فى أراض أخرى يعيش عليها أشقاؤنا ، ويتطلعون منا إلى عون مسعف . .

إن عاطفة التدين أصيبت فى صميمها ، وحل محلها جدل بارد فى بعض القضايا ، والدين عندما يتحول إلى جدل وتهارش على المظاهر الفارعة فسوف ينتهى حتما ، لأن الدين هو القلب العامر وليس الفم الهادر . .

* * *

تــزوير

كان اليابانيون عقلاء عندما اقتبسوا من الحضارة الغربية جانبها الصناعى ، تاركين ما عداه لأصحابه ، لأن ما لديهم أهدى وأجدى! وكان «محمد على» باشا مؤسس الأسرة المالكة السابقة أعقل وأبصر من حفيده الخديوى «اسماعيل» عندما أرسل بعوثا من الأزهر لتتعلم ما ينقصها من العلوم الحديثة والحرف النافعة ، فكانت هذه البعوث دعامة الدولة التى أقامها فشدّت أزره ودعمت سلطانه !

أما اسماعيل فقد تمنى أن تكون مصر قطعة من أوروبا ، ولكى يحقق أمانيه بنى دار «الأوبرا» وظن أن «التمثيل» يغنى عن الحقيقة ، وأن الفن الناعم والغناء اللاهى يدلاّن على تقدم الشعوب ، فكانا الطريق إلى زوال ملكه وإذلال أمته . .

إن الغزو الثقافى أنكى من الغزو العسكرى لأن الأول يمحق الشخصية ، والآخر يهزم الأجسام !

الأول يسلب التراث والوعى ، ويجعل المهزوم يستحلى قيوده .

أما الثانى فهو جرح متجدد الآلام ، ينادى بالثأر ، ويوم لك ويوم عليك . .!

والاستعمار العالمى اجتهد بعد غلبه المادى أن يتحول إلى استعمار ثقافى كى يمحو خصمه ويطمس وجوده .!

قرأت مقالا فى هذا الموضوع للواء «أحمد عبدالوهاب» كشف فيه كيف أن بعض حملة الأقلام عندنا خدم المستعمرين بأكثر مما يخدمون أنفسهم ، وهاجم عقائدنا وتقاليدنا واستمات فى تجريحها وتشويهها!! يقول «سلامة موسى» فى كتابه «اليوم والغد» « . .أريد من التعليم أن يكون أوروبيا لا سلطان للدين عليه ، وأن يتولى تعليم اللغة العربية رجال متمدينون يفهمون على الأقل نظرية التطور ، ولا يعتقدون أن العربية أوسع اللغات ، وأريد أدبا مصريا أبطاله فتيان مصر لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية .

أما الثقافة الشرقية ، والتوكل على الآلهة فلا مكان له الآن . . إلخ . »

وذهب «سلامة موسى» وجاء بعده «لويس عوض» الذى اجتهد فى إبعاد الشباب عن الدين ، والذى يقول عن نفسه على طريقة «إياك أعنى واسمعى ياجارة» : «بعد حصولى على الثانوية توقفت عن الصيام ، وكنا فى بيتنا لا نتكلم أبدا فى موضوع الصوم والصلاة بل كنا نعدها قلّة أدب أوقلة ذوق أن يسأل أحد الآخر : هل أنت تصوم أوهل أنت تصلى ؟؟ » ، وذهب «لويس عوض» بعد تاريخ حافل فى كلية الآداب ، كما ذهب من قبله «سلامة موسى» بعد كفاح طويل فى نشر الإلحاد والفوضى ، وخلفتْ من بعدهما خلوف تسير فى نفس المنهاج وتستقى من الينبوع ذاته ، ولكنها كانت أكثر دهاء وأوسع مكرا وتعلمت من الهزائم والانتصارات أن تدور حول أغراضها ، وأن تخْتل القارىء الساذج بما تختلق من موضوعات عامة وقضايا مائعة ، والمهم أن تبعد العروبة عن الإسلام ، وأن تبتعد بالتربية عن العقيدة ، وأن تبتعد بالأدب عن القيم النبيلة ، والروابط التقليدية بالعرف ، والتراث . .

إننا نحن المسلمين فى فترة يقظة لاستعادة ما فقدنا ، وحراسة مستقبلنا حتى لانتعرض لما تعرض له آباؤنا من فتن وهجمات ، والغرب اليوم فى مرحلة ترف ورفاهية لم تفقده بعد قواه! وما يستمرئه من لذات نجسة لا يؤثر فيه كثيرا ، ولكنه يقتلنا إن قلدناه ويجرّنا إلى هاوية تذهب بالقليل الذى ربحناه . .

والأقلام التى ترنو بإعجاب يجب كسرها قال اللواء «أحمد عبدالوهاب» : إن الغرب يطالعنا كل يوم بقيم جديدة يصل الفحش فى أغلبها إلى حد يفوق كل تصور ! من أمثلة ذلك ما نشرته المجلة الفرنسية «ليڤن مانت» فى ٩١/٧/١٨ فى تحقيق صحفى عن «الخيانة الزوجية» قدمت له بكلمة على الغلاف جاء فيها :

لم تعد الخيانة الزوجية اليوم كما كانت من قبل إن الخيانة الزوجية رباط يشد الزوجين ! !

نقول : ما هذا العقد الذى تشدُّه الخيانة وتقوِّيه . . ! !

أما سلامة موسى فيقول : كانت المرأة الفرنسية أعظم ما حرك وجدانى : أريد حرية المرأة كما يفهمها الأوروبى ! !

ولا تزال المدرسة التى أنشأها «سلامة موسى» و«لويس عوض» وينتمى إليها صحافيون كثير ، لا تزال تقود الغزو الثقافى ، وتزين أرجاسه للمخدوعين . .

حسبنا الله

ترددت طويلا قبل أن أكتب هذه الكلمة ، ولكن مصادرة كتابى «كيف نتعامل مع القرآن» الذى صدر أخيرا أملت علىّ أن أحسم الموقف . .

إننى أحب المملكة العربية السعودية لأن علمها يحمل شعار التوحيد! ولأن ملكها يخدم الحرمين الشريفين ! ولأن تراثها شهد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وهم يخرجون من ديارهم لإخراج العالم من الظلمات إلى النور . .

وشىء آخر ينبغى أن أذكره ، لقد آوتنى المملكة عندما تنكر لى السادات ؛ واضطرنى أن أترك وطنى مهزوما مظلوما ، إننى وجدت أذرعا مفتوحة ، وصدورا مشروحة ، واشتغلت بالتعليم مع نفر من أنبل العلماء وأذكاهم ، وأديت واجبى على نحو أرضيت به ربى وأرحت ضميرى ! !

بيد أننى لاحظت ما رابنى وأعيانى! هناك شيوخ على عقولهم أغلاق ، وفى قلوبهم قسوة ؛ يتعصبون للقليل الذى يعرفون ، ويتنكرون للكثير الذى يجهلون ، قلت : لعل الزمن يفتح أغلاقهم ويلين قلوبهم . . ويظهر أنى كنت متفائلا أبعد من الواقع . . إنهم لا يعطون الرأى الآخر أى حرمة ! !

أذكر أن نبينا عليه الصلاة والسلام قال بعد انفضاض الأحزاب من حول المدينة : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلينّ العصر إلا فى بنى قريظة**» وصدع الصحابة بالأمر ، ولكنهم بعد مراحل من الطريق اختلفوا ، قال بعضهم : «**ما نضيع وقت العصر ، وما أراد بكلمته إلا استعجالنا وقهر كل عائق عن المسير ، ويجب أن نصلى قبل دخول المغرب ، وصلّوا فى الطريق ، وأنفذ الآخرون الأمر على ظاهره ، وصلّوا فى بنى قريظة**» . .

قلت : لو كان هؤلاء الحنابلة المتشددون حاضرين لقالوا لمن استعجل الصلاة : ياعدو الله ورسوله تعصى النبى وترفض عزيمته علينا! إن هذا نفاق!! كيف نصلى فى الطريق وقد أمرنا بالصلاة فى بنى قريظة ؟

ولكن المجتمع الأول كان أنقى وأطهر ، صاحب الرأى ذكر ما عنده دون محاذرة أوخشية ، فالحرية فطرة ، وذكر ما عنده على أنه وجهة نظر إسلامية ، ما يمكن قطعها عن نسبها الدينى . .

وبلغ الأمر الرسول الكريم ، فلم يُلق إليه بالا ، وجمع أصحابه كلهم فى جبهة واحدة ضد اليهود ، وأحرزوا النصر . .

على هامش العقيدة ، وفى فقه الفروع تبدو وجهات نظر شتى ، يستطيع كل ذى رأى أن يذكر ما عنده مقرونا بدليله ، ومع تلاقى العقول ، وتلاقح الحوار ، يظهر خير كثير . .

أمـا أن يزعم بعض الحنابلة أن الرأى رأيهم ، وأنه وحـده هو الدين الحق ، وأنهم المتحدثون الرسميون عن الله ورسوله ؛ فهذا غرور وطيش ! !

وقد خرج هؤلاء من أرضهم وانساحوا فى العالم الإسلامى ، فكانوا بلاء يوشك أن يقضى على الصحوة الإسلامية الناجحة ، وكانوا بفقههم المحدود وراء تكوين فرق التكفير والهجرة ، وجماعات الجهاد والإنقاذ ، فإذا الصف الواحد ينشق أنصافا وأعشارا ، هذا يقاتل من أجل النقاب والجلباب القصير ، وهذا يقاتل من أجل أن تكون وظيفة المرأة محصورة فى الولادة ! ! وهذا يقاتل لمحو المذاهب الفقهية ، وهذا يعلن حربا على الأشاعرة ، وهذا وهذا . . فماذا كانت العاقبة؟ انهدام البناء وشماتة الأعداء . .

إن لى فوق الخمسين كتابا أخدم بها الإسلام ، ومصادرة كتابى «كيف نتعامل مع القرآن» عمل طائش يكتب لأصحابه فى صحائف السيئات . .

إن مسالك هؤلاء الشيوخ أساءت إلى المملكة فى حرب الخليج ، وجعلت التيار الإسلامى يضل الطريق ، وما ينتظر من بلائهم أعظم ، وحسبنا الله . .

* * *

هل نرفض العوج؟!

أصحيح أن البشرية ترث لعنة الخطيئة التى ارتكبها آدم ، وأن هذه اللعنة تنتقل خلال الأجيال المتلاحقة لاينجو من جريرتها إنسان؟ قلت : ياصاحبى ، هذا باطل ، خطأ آدم وقع منه وحوسب عليه ولا صلة لنا به! ونحن مسئولون عما جنته أيدينا وحسب ! إن الذين يحسبون الدنيا سجنا نرسف فى أغلاله جرّاء ما فعل أبونا الأول قوم ظلمة ، وقد سوَّدوا وجه الحياة بهذا التصوّر الجائر ، ولعلهم المسئولون عن صرخة أبى العلاء التى يقول فيها : «**هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد . .!!**» .

قال : الوراثة حق ، فماذا ورثنا عن آدم؟

قلت : ورثنا جسده وروحه وذكره ونسيانه وضعفه وقوته وخطأه وتوبته !

ورثنا ميله إلى الأرض وشوقه إلى السماء ، لماذا الحديث عن خطأ «آدم» وحده ؟ إن هذا الخطأ زال منذ وقف «آدم» وزوجه فى ساحة الله ضارعين : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١) .

وقد هبطا معا مغفورًا لهما ، فمن زعم غير ذلك فهو كاذب قال : إن نفرا من الناس يقولون : ما غفر خطأ آدم إلا دم المسيح ، ويشيرون إلى قول شوقى أمير الشعراء :

يا حامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت عليه باسمك الآلام . .! !

قلت : القانون السرمدى عند الله ، وفى سائر الرسالات :

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾(٢) .

وشوقى فى بيته الذى ذكرت إنما يسخر من مسالك قوم عيسى الذين تضاعف حيفهم وكثرت دعاواهم . .

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) النجم : ٣٨ ، ٣٩ .

المواريث التى تسرى فى دماء البشر كلهم ، هى مواريث الفطرة التى تتجاوب مع الحق ، وتعرف أن العالم لم ينشأ من الصفر ، وأنه لابد للمخلوق من خالق ، وللنظام البديع من منسّق بديع ، وللإدارة المحكمة من مدبِّر يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . . إن الفطرة المؤمنة هى الميراث المشترك بين أهل الأرض أجمعين وليست هذه اللعنة التى يهرف بها القاصرون . .

على أن الفطرة تحتاج إلى حماية حتى تبلغ تمامها فالأصل أن الأجنة تخرج من بطونها سويَّة ، وأن الثمرات تخرج من أكمامها شهيَّة لكن بعد أن نحتاط من الآفات والحشرات التى تعدو عليها ، وتصيبها بشتى العاهات ، والناس يولدون بفكر مستقيم يتجه إلى الله الواحد كما يتجه السيل إلى منحدره ، ويشعر بأن الفساد قبيح فهو ينأى عنه ويحس معرَّته .

بيد أن التقاليد المعوجة والعرف السيىء تلوى زمام النشء ، وتسيِّرْه فى طريق آخر ، وما أكثر ما تغلب البيئة الرديئة الوراثات الحسنة ، وذلك ما أشار إليه الحديث المشهور **«كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أوينصِّرانه أويمجِّسانه» ! !**

فليست الوراثة ضربة لازب - وإن كانت عناصرها قائمة - فإن مغالبة شديدة تقع بين البيئة والوراثة تنتهى غالبا بانتصار التقاليد المعوجَّة والأعراف الضارَّة ، وهذا يكشف عن ضرورة التربية الصحيحة ، ويبرز العمل الحقيقى للدعاة والمربين ، إنهم يكافحون أخطارا شديدة ، ولكن لهم فى جهادهم ظهيران سلامة الفطرة وشرف الطبيعة الأولى والحق أن الإسلام وهو يخوض معركة الحياة له فى كل ضمير مهاد يحسن استقباله ، والمهم أن نقدم نحن إلى الناس « فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا »(١) .

فقد حدثنا القرآن الكريم عن مواثيق الفطرة المأخوذة على الإنسان منذ نشأته الأولى ، هى مواثيق تغرس عقيدة التوحيد ، وتقاوم دواعى الشرك ، وتربط الإنسان بربّه أبدا . .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣ .

وظاهر فى ميزان العدل الإلهى أن هذا الموثق من القوة بحيث ينبغى أن يغلب ما عداه! وأنه لا يقبل معه اعتذار بجهل أوغفلة ، كما لايقبل منه التعلّل بوطأة التقاليد الموروثة وشدة آثارها !

وعدد كبير من المفسرين يرى الآيات من قبيل الاستعارة التمثيلية كما جاء في سورة أخرى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾(1) .

ولا حوار هنالك بل النظم الكريم تمثيل لخضوع العالم أجمع لربه الكبير! كذلك النداء المنبعث من كل فطرة يهيب بالمرء أن يوحّد الله ويكفر بما عداه ، إنه نداء من الأعماق البشرية وباعث حثيث على الارتباط بالله وحده !

وقال بعض المفسرين : إنه ميثاقٌ أُخِذَ فى عالم الذرّ!! فى طور سابق من أطوار وجودنا !! ولا أدرى ما الذى نقل ذهنى إلى عالم «الجينات» أى المُوَرِّثاتِ القائمة فى كياننا؟ إننى فى هذا المجال عابر سبيل ، كل ما عرفته أن هذه «الجينات» تكتنف الخلايا الحية فى أجسامنا ، وأن لكل «جينة» حَبْلَين حلزونين يكتنفانها ، وأن هذه الحبال لو اتصل بعضها ببعض لكونت حبلا مسافته طول المسافة بين الأرض والقمر عدة مرات . قلت : أهذه الكائنات الذرِّية فى أجسامنا الصغيرة ؟ ما أصدق الشاعر الذى قال للإنسان :

وتزعم أنك خلق صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر ! !

إن هذه المُوَرِّثات هى التى تشكِّل الإنسان بأمر ربها ! « الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »(2) .

ويوجد الآن علم هندسة «الجينات» للتدخل فى وظائف بعض الأجهزة وتعديل اتجاهها !

على أية حال من الخير لى أن أدع هذا البحث الذى لا أحسن القوْم فيه لأقول : نحن نولد على فطرة سوية ويجب أن نحافظ على سلامتها ، وأن الزعم بأننا نولد

---

(1) فصلت : 11 .
(2) طه : 50 .

حاملين لعنة الخطيئة الأولى زعم مفترى! ذلك ولا نستطيع تجاهل العوائق التى تعترض مجرى الفطرة ، وتصدٌ عن سبيل الله وقد عالجها الإسلام بقبول كل توبة عن كل خطأ ، والحفاوة بالنيات الحسنة ومضاعفة أجورها عندما تنمو مئات الأضعاف ، وفى الحديث القدسىّ يقول الله عز وجل : «**إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها اكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة**» وحسبنا هذه الآية المفعمة بالرجاء :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[1]

فلنعتصم بدين الفطرة ، ولنرفض العوج الذى تقدِّمه أديان أخرى . .

* * *

---

(١) الزمر : : ٥٣ .

مذكرة للتاريخ

يزيد المسلمون فى شبه القارة الهندية على ثلث السكان ، أى أن أعدادهم تناهز ٣٥٠ مليونا من الأنفس! وكان من السهل أن يستمتعوا بحقوق «أقلية» كبيرة ، ويبقون داخل هند موحدة ؛ لو أنهم أنِسوا إلى معاملة منصفة ؛ ومواطنة شريفة . .

الذى حدث أن الاستعمار الإنجليزى الصليبى شحن القلوب ضدهم بالبغضاء ، وأفهم «الهنادك» أن المسلمين غرباء ، وفدوا على البلاد غزاة لنشر دينهم ، وأن معاملتهم ينبغى أن تنبع من هذا الإحساس . .

وقد كان المسلمون هم الحكام الطبيعيين للهند ، ومكثت السلطة فى أيديهم عدة قرون . . حتى قدم الإنجليز تجارا أول الأمر ، ثم استطاعوا تكوين امبراطوريتهم فى الهند بأقل الخسائر وأتفه الجهود . .

كانوا يضربون هذا بذاك ، ثم يرثون الجميع ، ولا أعرف مُلْكا عريضا تكوَّن بأرخص من هذا الثمن . .

وخضع المسلمون والوثنيون جميعا لانجلترا ، ولكن انجلترا شجعت الوطنية الهندوكية ، ونفخت فى نيرانها ، فانشغل المسلمون بالدفاع عن كيانهم المبعثر على مساحات شاسعة . .

فلما انتشرت روح الاستقلال فى العالم ، وبدأت مقاومة الاحتلال الأجنبى ، ونبتت روح الاستقلال بين الهنود جميعا ، كان عدد كبير من المسلمين يشعر بأن البقاء فى الهند عسير ، وأن الأفضل تقسيم البلاد بين المسلمين ـ وهم مئات الملايين ـ وبين الهنادك الذين يزيدون عليهم عددا . .

وظاهر أن الفكرة أملى بها اليأس من الحياة المعقولة فى وطن مشترك ، وأكاد ألمس أن الإنجليز من وراء هذه الأحوال النفسية التعيسة ، فإن عداوتهم للإسلام أغرت الوثنيين بإنكار حق الحياة لأمة التوحيد ، والوثنى إذا غضب فعل المآسى ، ولم يتحرج من إهلاك الحرث والنسل . .

ولو كانت الظروف عادية لبقى المسلمون فى الهند المستقلة الموحدة قلة تربو على الثلث ، وتنال أنصبتها وفق هذه النسبة فى كل شىء ! !

وعلى أية حال فإن مسلمى الهند الكبرى أحاطت بهم أحوال عصيبة عالمية ومحلية ، دينية وشخصية ، انتهت بتقسيم القارة الكبيرة إلى هند وباكستان . .

ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم حسب الخطة المرسومة ، وأنه تم وسط برك من الدماء ، قتل خلالها نحو نصف مليون مسلم ، وأن النتائج المرجوة منه لم تحقق للمسلمين مكاسب ذات بال ، بل ربما عادت على كثير منهم بالوبال . .

ونشأت الباكستان التى انسلخت عنها فيما بعد البنغال . .! وبقى داخل الهند نفسها قلة مسلمة ، تبلغ نحو مائة وثلاثين مليونا من السكان ، بعضهم فى ولايات منفصلة خاضعة للهند ، لم يسمح لها بالانضمام إلى باكستان ؛ مع رغبتها فى ذلك كجامو وكشمير ، وبعضهم يملأ مدنا وقرى تعتبر جزرا وسط جماهير من الهنادك ، وبعضهم أفراد وطوائف يعيشون معزولين حيث تيسر لهم البقاء المعنت . .

وإسلام هؤلاء فردىّ خاص ، فإن التعليم فى الهند إما علمانى بحت ، وإما هندوكى متعصب ، وربما وجد المسلمون المنكوبون متنفسا لهم فى الجو العلمانى ، فإن العلمانية هناك قد تعطى حق الحياة للمؤمن والكافر . .

وقد رحب المسلمون . . بحكم حزب المؤتمر ، لأنه لايجور على عقائدنا الدينية ، بيد أن هذا الحزب فقد هيمنته على الأمور ، وفقد الكثرة الشعبية التى كانت توصله للحكم ، وظهرت فى الحياة العامة الوطنية الهندوكية الجانحة إلى اليمين- كما يقولون - .

وهذه ترى الإسلام عدوا تقليديا ، ولا ترعى لأمته إلاً ولا ذمة . .

ولا حرج عندها من هدم مسجد بقى مرتفع المآذن خمسة قرون ؛ لأن هناك شائعة بأنه بُنى على أنقاض معبد هندوكى لأحد الآلهة . .

والواقع أن مستقبل المسلمين داخل الهند غامض ، وهم قلة مستضعفة ، مع أنهم أكبر من عشر دول عربية مجتمعة!!

وموقف العالم منهم صفر . . ولا تتمثل المشكلة فى هذا الموقف الجائر . . إذ المشكلة تبدأ من موقف المسلمين من دينهم ، والأحوال الحضارية والأخلاقية التى تنتشر بينهم . . وهذا ما نريد إلقاء نظرة واعية عليه . .

الزبالون والاستهداف الأجنبى

أسماء الشيوخ الذين تلقينا العلم عنهم ، وأسماء أسر كبيرة لها وضع مهيب فى المجتمع كثيرا ما تنتهى بالحِرَف التى اشتهرت بها وعاشت منها ، فيقال الشيخ اللبان ، والفحام ، والسمان ؛ والدباغ ؛ والعقاد . . إلخ .

وهذه الألقاب لها طابع دينى ومدنى معا! فقد شاع بين المسلمين من سنن النبوة ؛ أن أفضل الارتزاق ما كان من عمل اليد ، وأن طلب الحلال واجب على كل مسلم ، وأن الله يحب المسلم المحترف . .

وسئل رسول الله : **أى الكسب أفضل؟ قال : «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور . .»** .

إلا أن المسلمين نكبوا بطوائف من البطالين ترفض هذا النهج ، وتحتقر عمل اليد ، فالفلاحة مثلا مهنة رديئة ، مع أنها كانت حرفة الأنصار رضى الله عنهم! ومن أمثال البدو فى الأرياف ، عندما تُخطب ابنة أحدهم : «**يأكلها التمساح ولا يأخذها فلاح**» ، وازدراء الفلاحة سفه وخراب معا . .

وقد قسم الفارغون الحرف فحسّنوا بعضها واستهجنوا بعضا آخر ، وأقاموا تقاليد اجتماعية شديدة على أساس هذا التقسيم ، وكان فيما نقرؤه أن كلمة آل من دلالات الشرف ، فلا يقال : آل الإسكاف ، أو آل الحجام . .

ومن طبائع البشر أن يصموا غيرهم بلا جريرة ، وأن يرفعوا من شاءوا بغير منقبة !! وهل الافتخار بالأنساب والأوطان والألوان إلا من هذا القبيل المكذوب ؟

ونحن نخاصم هذه النزعة الجائرة ، وننظر إلى أبناء آدم على أنهم سواء ، يهبط من يهبط بكسله وخموله ، ويعلو من يعلو بجده واجتهاده ، وقد تكون الجنة من نصيب امرىء خامل فى الدنيا متفوق - بخلقه - عند الله ، وقد يكون العذاب حظ عالٍ فى الأرض ، كبير المنصب ، مظلم النفس ، قريب الشر . .

والمجتمعات التى تأبى هذا الميزان ستدفع ثمن خطئها ، وقد نظرت مليا فى قضايا الزبالين والكناسين عندنا ، إن عملهم ضرورى فى كل مجتمع ، فما معنى احتقارهم حتى يجىء المبشرون للحنوّ عليهم؟ إنهم جاءوا فجعلوا من الحبة قبة ، وتدخلت مؤسسات دولية لترجيح كفتهم ؛ وإبداء العطف عليهم . .

قرأت كما قرأ غيرى فى جريدة الجمهورية ٩١/٨/١٥ أن المساعدات الأجنبية التى تمنح للزبالين فى مصر تستوقف الانتباه : جمعية لحماية البيئة من التلوث تمّ تأسيسها وسط زرائب الزبالين بتمويل ٣٠٠ ألف دولار من السوق الأوروبية المشتركة ! !

قرية نموذجية للزبالين بالمعادى على مساحة ٣٠ فدانا بتمويل من السوق الأوروبية وصندوق التعاون الفرنسى!! قرية نموذجية للزبالين بالمقطم تكلفتها ٤٠ مليون دولار تمولها اليابان ! !

راهبات وأجانب يقيمون مع الزبالين بصورة دائمة لتقديم الرعاية الاجتماعية والصحية لهم ! !

لماذا الزبالون بالذات ؟ هل هو نوع من التغلغل الأجنبى المنظم قصد أن يكون مصوَّبا نحو النخاع؟ هل هناك خطر ما ينتشر بشكل سرطانى فى هذا الجزء من جسم المجتمع دون أن ندرى ؟

ذهبنا لجمعية الزبالين : مبنى خرسانى من طابق واحد . . طرقنا الباب ودخلنا . لم نجد سوى الساعى ، فمجلس إدارة الجمعية بأكمله فى إحدى الكنائس!! انتظرنا طويلا حتى جاءنا «وجيه أنور» محامى وسكرتير عام الجمعية!! سألته : لماذا الزبالون بالذات هم محور المساعدات الأجنبية؟ قال : لأنهم مساكين وأوضاعهم فى الحضيض . .

وينبه الدكتور المجذوب إلى نقطة هامة ، فأجهزة المخابرات فى العالم تعتمد فى عملها اليوم بشكل أساسى على الزبالة والزبالين ، إذْ تعتمد على مخلفات المكاتب والأوراق المهملة . وعندنا - والحمد لله - تلقى الوزارات بالتقارير الهامة وهى سليمة !

وهناك سبب آخر للتركيز على الزبالين بالذات وتقديم تلك الخدمات إليهم - كما يقول الدكتور المجذوب - فالزبال يذهب إلى العمارات والبيوت ، ويعرف كل صغيرة وكبيرة عنها من خلال نوعية الزبالة ، والزبال فى عمارتى مثلا يعرف بالضبط أين أعمل ، والجامعات والأكاديمية التى أعمل أستاذا غير متفرغ بها . .

والمساعدات الأجنبية على هذا النحو يفسرها الدكتور المجذوب بأنها مخطط . . فما الذى يهم السوق الأوروبية من الزبالين المصريين ، ولديهم فى أوروبا المناطق المتخلفة التى تحتاج إلى مساعداتهم . . فهناك الآلاف فى لندن ينامون على الرصيف ويعانون البطالة . . وفى بروكلين بالولايات المتحدة أيضا ؟ ؟

هل عرفنا ما يراد بنا ؟ وهل نصحو ؟

نصر أبو زيد

أحترم الحقيقة المجردة ، وأرفض ما يعرض لها من زيادة أونقصان ، ومن فضل الله علينا أن الإسلام دين مضبوط الكمّ والكيف لا يتحمل إضافة من بشر بعدما أكمله الله ، كما أنه يتأبّى على النقصان والتشويه فهو محفوظ المقادير والسِّمات ، وكتابه آية خالدة فى الضبط والصدق « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِه »[1]

ونحن مكلفون بالاتباع الدقيق ، لا إفراط ولا تفريط :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ »[2] .

ومن ثم حاربنا الغلو والتطرف معتقدين أن الوحى يفقد من الأثر والوجاهة بقدر ماينضاف إليه من البدع والأهواء !

أى أننا لحساب الإسلام نحارب التطرف ، واحتراما لحقائق الوحى نكره الأباطيل . . ! !

وقد شعرنا بأن عصابة من صرعى الغزو الثقافى انتهزت فرصة الفوضى الفكرية السائدة وتقدمت بشىء من إنتاجها الإلحادى تحسب أنه يمرّ فى أثناء الحملة على التطرف ! !

ونحن نؤكد أن بغضنا للمرتدين هو هو بغضنا للمنحرفين ، وقد يكون أشدّ . .

وأننا فى دفاعنا عن الإسلام نقاوم الجاحدين له والجاهلين به على سواء ، وقد أدى صديقنا الدكتور عبدالصبور شاهين واجبه على خير وجه حين اعترض طريق الدكتور نصر حامد وجماعته التى تريد تحت ستار العلم الترويج لأقبح صور الإلحاد .

---

(١) الأنعام : ١١٥ .

(٢) المائدة : ٧٧ .

يقول صديقنا الدكتور مصطفى محمود : «الخلاصة المفيدة لإنتاج الدكتور حامد أنه ينعى على الخطاب الدينى ، أو يعيب عليه أنه يرد كل شىء فى العالم إلى الله ومشيئته! وهذا الردّ ينفى الإنسان وينفى القوانين الطبيعية والاجتماعية . .»

ثم يقول بعد دفاع حار عن الماركسية « إن الله تجلى فى القرآن كما تجلى من قبل فى المسيح . . ولكن منذ نزل القرآن فى كلمات عربية ، أصبح بشريا يجوز الطعن فيه ، وتجوز مناقشته ، ويجوز فيه ما يجوز على الكلام البشرى من خطأ وصواب » ! ! ! . هـ .

* * *

أقول : لا جديد فى كلام الملاحدة الذين زاد لغطهم فى هذه الأيام العجاف ، إنه الهراء القديم وضع فى ورقة مفضضة ، وأُعطِىَ عنوانا براقا ثم دفع به فى زحام المعركة بيننا وبين الغلاة كى يمرّ !!

ومن السهل على أى ملحد كذوب أن يقول : إنه يحارب التطرف فافسحوا الطريق!!

ونحن نعلم أن سلمان رشدى مثلا يحارب التطرف ، ولكنه يحاربه بأفكار أقذر من الأفكار التى يروجها المتطرفون أنفسهم ، وأن المنهج الراشد الذى سلكه أولو الألباب شىء بعيد عن هؤلاء وأولئك .

إن الاستعمار العالمى نجح فى تكوين فئات من الناس خربة الباطن مظلمة الروح حاقدة على الله ورسوله ، أو على الكتاب والسنة ، أو على العقيدة والشريعة جميعا ، ومهما كثر الأعداء ، وهاجمونا من جهات عدة فلا يجوز أن ننسى هؤلاء أو نتهاون معهم فإنهم خونة مخاتلون لا إيمان لهم ولا أمان .

* * *

عجباً

لم يضع الاستعمار أوقاته سدى عندما وطئت أقدامه دار الإسلام ، لقد شرع لفوره يغيرّ التشريع والتعليم والتربية والتقاليد ليصنع جوّا يلائمه ومستقبلا يطمئن إليه .

وها قد نضجت الأشواك التى بذرها ، ورأينا ناسا يفكرون بعقله ويضربون بيده ويحاولون تغيير الأخلاق والعقائد وفق مشيئته . .

والناظر عن قرب أو بعد يرى المثقفين قسمين ، قسما لم يتغير للإسلام ولاؤه ولا انتماؤه وقسما آخر يعالن بكراهيته لشرائع الدين وشعائره ، ورغبته فى إسقاط ما بقى من رايات الإسلام فى بلاده!! ، كانوا قديما شيوعيين ، ثم صاروا علمانيين . . وتتغير الشارات التى يَبْدون فيها وتبقى ضغائنهم على الإسلام وأمته ثابتة لا تزيدها الأيام إلا ضراوة وغلوّا . وهم مع ضيقهم بالإسلام ومعالمه حراص على البقاء فى دائرته ! لماذا ؟ حتى يؤدوا وظائفهم فى تخريبه من الداخل ، إن دودة «البلهارسيا» تريد أن تبقى داخل الجسم لتعوق نموّه ، وتنمِّى علله وتجرّه إلى الموت جراً ، ولذلك رأينا هؤلاء المرتدين عن الإسلام يرفضون المعالنة بتركه ويحرصون على البقاء فيه!! لكنهم فى الوقت نفسه لايقيمون صلاة ولا يؤتون زكاة ، ولايُقرّون لله بسمع أوطاعة! إنهم يعرفون إسلاما بلا نصوص ولا أركان ، ويحاربون كل دعوة إلى الاحتكام إليه أوإحياء ما أمات الاستعمار من أمره . .!!

واليوم وقد سقطت الشيوعية فى كل أماكنها نجدهم يملكون أزمّة التوجيه ويفرضون إلحادهم صراحة أو التواء ويحاربون رموز الإسلام بكل ما لديهم من طاقة !

لقد بلغتْ الأمور مرحلة لا تتحمل هذا النفاق ، ونحن نأبى كل الإباء أن يضرب الإسلام بأيد إسلامية ، ولا مكان بعد اليوم للبس أونفاق ، إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسلام باطنًا وظاهرا ، وإما أن تتركوه علانية وتكشفوا كفركم به! ويعجبنى قول المثقّب من شعراء الأقدمين :

فإما أن تكون أخى بصدق ... فأعرف منك غثّى من سمينى
وإما فاطّرحنى ، واتّخذْنى ... عدوا أتْقيك وتتقينى!

لامكان بيننا اليوم لمرتدّ يكره الكتاب والسنة ، ويصدم جماهير المؤمنين ثم يزعم نفاقا أنه مسلم ! مسلم يحارب الله ورسوله ! ياللعجب . .

يضاهئون قول من قبلهم!!

وصف الله قرآنه الخاتم بقول : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]

ويقول الدكتور أبوزيد : إن القرآن «منذ لحظة نزوله الأولى ، أى مع قراءة النبى - ﷺ - له لحظة الوحى تحول من كونه نصا إلهيا وصار فهما إنسانيا» !!

كيف ؟

يقول : «لأنه تحوّل من التنزيل إلى التأويل! فإن فهم النبى - ﷺ - للنص يمثل أولى مراحل حركة النص فى تفاعله بالعقل البشرى ، ومن ثم فإن إنطلاقنا الفكرى يبدأ من حقيقة أن النصوص الدينية هى نصوص بشرية إنسانية لغة وثقافة . .» .

نقول : وهذا كلام فى غاية الغثاثة والسقوط . .

كيف تنقطع صلة الكلام بمنزله عندما ينقله الرسول إلى غيره؟

جاء فى سورة الزمر مثلا : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ * قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2]

وتكررت كلمة «قل» فى السياق خمس مرات ! .

فما معنى ابتعاد النص عن الله وتحويله إلى تراث بشرى ؟

منذ قال الله لنبيه فى غار حراء ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[3] ظل القرآن ينزل ثلاثا وعشرين سنة لم ينقطع إلا بالوفاة فلما تضايق الكافرون منه قالوا له :

---

(١) الشعراء : ١٩٢ : ١٩٥ .

(٢) الزمر : ١٠ : ١٢ .

(٣) العلق : ١ .

﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [1]

فكيف تحول القرآن من الربانية إلى البشرية ؟

كان الدكتور محمد أركون - إتْباعا لفلاسفة الغرب - يصف القرآن بأنه «النص» ويحاول سحب العصمة الإلهية عنه وقد اشتبكنا معه فى ندوة بالجزائر خرج منها زاريا على نفسه .

ودكتورنا المصرى نصر أبوزيد يتأثر خطوات أركون ، ويناصر الإستعمار الثقافى ويزعم أن القرآن بعد الوحى صار فهما لمحمد ، وتراثا بشريا عاديا ! !

ونتساءل : هل أركون وأبوزيد ومن سبقهما ومن لحق بهما يمثلون أنفسهم فى هذا التحامل على القرآن ؟

كلا إن الذين قادوا الفكر الشيوعى المادى هم . . هم الذين يقودون الفكر العلمانى الإلحادى .

وسنرى كيف أنهم سماسرة للاستعمار العالمى الكافر بالله والمرسلين .

وكيف يغضب بعضهم لبعض ويناصر بعضهم بعضا . .

* * *

---

(١) يونس : ١٥ .

عتمة فى العقل!

أسماء القرآن معروفة ونرفض اختراع اسم آخر له ، ولكننا نستغرب من الذين أسموه «النص» . لماذا لم يلتزموا به ويتفقهوا أحكامه ؟ كما توحى الكلمة .

يقول الدكتور أبوزيد : « إذا كان مبدأ تحكيم النصوص يؤدى إلى القضاء على استقلال العقل . إذ يتحول إلى تابع يقتات بالنص ويلوذ به ويحتمى ، فإن هذا ماحدث فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية » .

وما العمل والحالة هذه ؟ يجب احترام الواقع وقبوله وإقصاء التمرد عليه .

يقول الدكتور أبوزيد : « الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره . ومن الواقع تكوّن النص يعنى القرآن !! ثم يؤكد الواقع أولا والواقع ثانيا والواقع أخيرا . وإهدار الواقع لحساب نص ثابت جامد المعنى والدلالة يجعل كليهما أسطورة » ! !

ويشرح الدكتور مراده فيقول : « إن الإسلام بدأ تحرير المرأة وأعطاها نصيباً من الميراث لم تكن تناله فيجب المضى مع هذا الاتجاه ، وتسوية المرأة بالرجل فى الميراث احتراما للواقع الجديد » .

وعبارته هى « ليس من المقبول أن يقف الاجتهاد إلى المدى الذى وقف عنده الوحى . وإلا انهارت دعوى صلاحيته لكل زمان ومكان » .

يبدو أن الشارع وافاه الأجل قبل إنصاف المرأة بالمساواة الكاملة فلنكمل نحن ماقصر فيه ! !

ويكرر الدكتور نفسه فيقول : « إن التمسك بالدلالات الحرفية للنصوص لايتعارض مع مصلحة الجماعة فحسب ولكن يضر الكيان الوطنى ضررا بالغا . . » .

ويغمز الدكتور أبوزيد قضية عموم الرسالة المحمدية ويتابع المستشرقين الذين زعموا

أن محمدا بعث للعرب ، ولكن النصر الذى أحرزه فى جزيرة العرب أغراه بالانطلاق إلى آفاق العالم والزعم بأنه للناس كافة ، وقد أحصينا - فى كتاب لنا - أن عموم الرسالة ورد فى إحدى عشرة آية من القرآن الكريم[1] .

وأن هذه الآيات جميعا نزلت فى مكة قبل أن يحرز الرسول أى نصر على المشركين فى معركة صغيرة أوكبيرة ،بل إن قوله تعالى : ﴿ ومَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [2]

نزل فى سورة القلم وهى من أوائل الوحى النازل بمكة فى السنة الأولى!

لكن سماسرة الاستشراق يتبعون سادتهم بعمى عجيب !

إن محمدا جمع فى شخصه وهداه سائر الأنبياء ، ما يفرق بين أحد منهم ، وليس ميراث محمد إلا ميراث الرسل كافة فالكفر به كفر بهم . ووثنية أعتى من سائر الوثنيات . .

* * *

---

(١) انظر كتاب «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» للمؤلف .
(٢) القلم : ٥٢ .

سجل آلام المسلمين

طالعت هذا السِّجلّ الحاوى لآلام المسلمين فى البوسنة والهرسك ثم قلت : هل يبلغ البشر هذا الحدّ من التوحش؟ هل يَفْتنُّون بتعذيب ضحاياهم على هذا النحو الكفور ؟

كنت أحيانا أشاهد عالم الحيوان فى التلفاز المصرى ، فأرى كيف يفتك سبع بظبى أونمر بثعلب ، إنها ضربة واحدة ثم يشرع الوحش فى التهام فريسته ، وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها . .

أما المسلمون بين مخالب الصرب فلهم شأن آخر! إن نفوسهم تزهق جزءاً جزءاً ، وآلامهم تتسلط عليهم ألما بعد ألم فما تفيض أرواحهم إلا بعد أشدّ العذاب . . !

ما مبعث هذا الحقد الدفين ؟

إن المسلمين رجالا ونساء بوغتوا به ، وما جرى فى خيالهم يوما أن يلقوا مثله! ويماثله فى الوحشية والخسة أن أوروبا وأمريكا علمتا به فتحركتا ببطء لاستنكاره ، وما تجاوزتا الكلمات الجوفاء ولا تركتا مكانهما لعمل شىء طائل ، صحيح أنهما أنقذتا «سلوڤونيا وكرواتيا» من بطش الصرب ، وأسرع الساسة إلى إعلان استقلالهما والدفاع عنهما . .

أما المسلمون فكان الحرص شديدا على عدم إمدادهم بالسلاح ، وعلى الإبطاء الشديد فى حجب التأييد الدولى عنهم ، إن استنقاذ الكاثوليك فى «سلوفونيا وكرواتيا» واجب .

أما المسلمون فليتركوا ليلقوا حتفهم ، بعد العذاب الأليم ، يجب أن نعى هذا التعصب ضد الإسلام ، فى مؤسسات دولية زعمت احترامها للإنسانية المجردة وبغضها للتعصب الدينى . .

ماذا نسمّى الحيْف الذى نزل بنا والدواهى التى حلّت بإخواننا ؟

إن السياسة العالمية ساقطة الضمير ، أوهى لاضمير لها بتة عندما يتعلق الأمر بالمسلمين .

إن أسبانيا فى الدورة الرياضية العالمية ببرشلونة ذكّرت العالم بأنها طردت الإسلام من ديارها وقد مرت خمسمائة عام الآن على هذه الذكرى الجديرة بالاحتفال .

أما المسلمون الذين سمعوا هذا الكلام فكانوا مخدَّرين ، وربما فوجئوا بما قيل ولكنه مرّ دون تعليق فإن الغزو الثقافى أفقدهم رشدهم ، ونسَّاهم أيامهم الأولى وهم الآن دويلات يسعى أغلبها لمحاربة الفقر!!

يجب أن نعرف تاريخنا جيدا ، إننا لسنا المسئولين عن الحروب التى اشتعلت فى أرجاء العالم قديما ، إننا نحن المسلمين حاربنا الرومان الغزاة الأجانب عندما أغاروا علينا فهل تلك جريمتنا ؟

وطاردنا الصليبيين عندما حاولوا العودة فى القرون الوسطى فهل نلام على ذلك ؟

وإذا كانت ذراريهم تحمل الجراثيم نفسها فهل المطلوب أن نستسلم لهم ؟

إننا قديما وحديثا ندافع عن حياتنا وعقائدنا ومواريثنا . .

* * *

هل تدهمنا الأحداث ؟

إن كراهية أوروبا للإسلام شديدة ، وليست أمريكا أحسن منها حالا ، لكن الخطط والأدوات تغيرت مع سيادة النظم العلمانية ، وترْكِ رجال الكهنوت القيادة لغيرهم . . إن تبدّل القيادات عرّض الإسلام لمحن أخبث وأسوأ ، وقد رأينا روسيا التى اعتنقت الإلحاد الأحمر سبعين سنة ، إنها ظلت على ولائها للصرب وللأرثوذكسية ، وهى تسعى لجعل دولة البوسنة دولة لاجئين تماما كما حدث لمسلمى فلسطين ! !

أما الدول الكبرى الأخرى فقد حرصت على تجريد المسلمين من السلاح فى حرب يتفانوْن فيها ، وماذا عليهم لو هلكوا جميعا؟ تكون الخطة قد نجحت . . !

وفى ظل المؤسسات الدولية يواجه مسلمو البوسنة حربا ليست فيها ذرة من شرف أوحياء ، والعزاء الذى يذكر حينا وينسى أحيانا أنه لابد من تأسيس محاكم لمعاقبة مجرمى الحرب . . بعد فناء المسلمين طبعا وذهاب ريحهم !

لا أُلْفِينَّك بعد الموت تندبنى   وفى حياتى ما قدمت لى زادا . .!!

لكنى أعود إلى نفسى ثم أقول : نحن صانعو المأساة المخزية ، لقد وجدت سباقا بين الصحف على شرح وتصوير مباهج العيد التى هرعت الجماهير للانغماس فيها !

قلت : أهذه أمة تشعر بالنكبة ؟ ؟

وقال لى أحد البوسنيين : نحن ما نحتاج إلى رجال ، ولا إلى متطوعين ، نحتاج إلى سلاح وحسب ، ونعرف أن هيئة الأمم تمنع عنا السلاح ، لكن التهريب ممكن ، أنفقوا مليارين . . مليارا ثمنا للسلاح وآخر للعصابات التى تهرّبه ، ونحن كفلاء بحل المشكلة .

لكننا نحن المسلمين ننفق القناطير المقنطرة فى الترف ، أونختزنها لضمان الغنى ونترك إخواننا يموتون كمدا ، ولا تحركنا أخوة الإسلام لعمل شىء . .

إن الإسلام يواجه فى هذا العصر حرب فناء ، وأطرافه يُغار عليها وتتساقط الفئات من المؤمنين واحدة بعد أخرى . .

أما القلب فإن الاستعمار الثقافى يتولّى أمره ، ويوجد فى ربوعه من يشيد بالرواية القذرة التى ألفها «سلمان رشدى» ، ومن يحدث ثقوبا فى مستودعات الإيمان حتى إذا جاء اليوم الموعود عزّ الرجال وقلّ المدافعون ولحق القلب بالأطراف . .

أنصحو أم نبقى رقودا حتى تدهمنا الأحداث ؟

لمن يعقل

لايزال فقدان الرشد الاجتماعي يسيطر على طوائف من المسلمين ويضرى الحروب بينهم فى الوقت الذى تحتاج فيه أمتنا إلى التجمُّع والوئام ، بأى عقل يستأنف المجاهدون الأفغان القتال بعضهم ضد البعض الآخر؟ وكانوا بالأمس القريب يقاتلون عدوا مشتركا !

بأى عقل تبقى العداوة الخسيسة بين أحزاب الصومال وقد عصفت المجاعات بالشعب كله وتسابق الغرباء إلى إطعام الجائع وإيواء الشارد؟ ومتى يقع هذا البلاء؟ يقع وحرب صليبية جديدة تنشب فى البلقان للقضاء على الإسلام فى شرق أوروبا تمهيدا للقضاء عليه فى أوروبا كلها . . !

إن وكالات الأنباء أذاعت أمس عن «فليبور اسكوبتش» وزير الإعلام فى حكومة الصرب أن حكومته تحارب فى البوسنة والهرسك لإنقاذ أوروبا من الإسلام . . ! !

وأنها ترفع لواء حرب صليبية جديدة لمنع الإسلام من السيطرة على العالم! وزعم هذا الوزير أن المسيحية تتقلص من العالم ، وأن لدى المسلمين من العقيدة والمال والكثرة البشرية ما يجعلهم يرثون الأرض ، وصرح الوزير الظلوم! بأن الصرب تقوم بحرب دينية ضد المسلمين الذين يهدمون كنائسهم ! !

أين وقع هذا الهدم ؟ والمساجد وحدها هى التى تزال! إنها قصة الذئب والحمل تتكرر فى كل مكان .

وقياما بشعائر هذه الحرب الدينية تنشر «الوفد» بعنوان يمتدّ فوق جميع أعمدة الصحيفة أن الحراس الصربيين السكارى يذبحون المسلمين ويلقون بجثثهم إلى الكلاب!! وأوضح الفارون من معسكرات الموت أن الصربيين كانوا يجبرون الأسرى المسلمين على الانبطاح فوق أرصفة المعتقل قريبا من بالوعات المجارى المؤدية إلى نهر «سافا» حتى تتدفق دماؤهم إليها بعد ذبحهم . . !

كما قرروا أن عددا من الأطباء والممرضات يبترون أعضاء بشرية من القتلى ويغلِّفونها فى أنسجة بلاستيكية ثم ينقلونها فى ثلاجات خارج المعسكر ، وما تبقى من الجثث يرمى للكلاب . . ! !

ولا أمضى فى نقل هذه الأخبار الهائلة ، وإنما أسجلها ليعلم من لايعلم أن مصيرنا لن يكون أفضل من ذلك إذا أحاطت بنا هذه الظروف التى أحاطت بإخواننا فى البلقان !

والزمان قُلّب ، والفلك الدوّار لا يقف! فهل نبقى مختلفين يقاتل بعضنا بعضا ؟

ومن نكاية الدنيا بنا أن الغزو الثقافى شوّه أفكارا كثيرة عندنا وسَلَخَهَا عن دينها وتراثها .

فقد سمعت رجلا كبير الجُثّة والمنصب ينكر أن هذا العصر عصر الحروب الدينية . .

ويزعم الأحمق أن القتال الدائر هو صراع أعراق! وتنازع السلطة على أمكنة من الأرض ؟

إن حكام الصرب صرحوا بطبيعة الحرب التى أعلنوها ، ومع ذلك فإن صرعى الغزو الثقافى لا يزالون يهرفون بما لا يعرفون ! وقى الله أمتنا شرهم .

* * *

جفّت المشاعر

في الجاهلية الأولى كان هناك أفراد حنفاء تشبثوا ببقايا من دين إبراهيم فازدروا الوثنية واستعفُّوا عن المناكر والمظالم .

وفي أمريكا وأوروبا الآن أفراد ظلت ضمائرهم حية وأحكامهم عادلة فهم يشهدون بالحق ويواجهون الظالمين .

من ذلك ما علمته عن لجنة لحقوق الإنسان في الولايات المتحدة اتهمت رؤساء الدول الغربية بتغليب المنافع القومية على المبادىء الأخلاقية وبدأت بأمريكا نفسها التي تجاهلت هزيمة حقوق الإنسان في الصين ، وما يقع من مآسي للمعارضين المستضعفين وذلك حفاظا على مصالحها التجارية وضمانا لمنافعها الاقتصادية! وقالت عن فرنسا إنها سلحت حكومة رواندا وتركتها تفتك بخصومها من قبيلة أخرى ودخلت البلاد بجيشها حتى مكنت الحكومة المعتدية من الفرار بعدما قتلت نصف مليون رواندي فاحت رائحتهم في أرجاء العالم ، وذكرت اللجنة عددا من دول أوروبا في مقدمتهم انجلترا وحلف الأطلسي الذين مكنوا ذئاب الصرب من افتراس مئات الألوف من المسلمين ومنعوا تزويدهم بالسلاح ليستطيعوا الدفاع عن أنفسهم !

ذكرت جريدة «الوطن» عن مراسل أجنبي رأى أن يحقق بنفسه ما يقع من جرائم ضد الإنسانية في البوسنة قال : التقيت بأحد البوسنيين وكان مفجوعا شاردا إثر جريمة وقعت له ولأسرته تركته أقرب إلى الجنون ! !

يقول : هربت من القصف في سراييفو ومعي زوجتي وطفلنا الرضيع ، وليتني ماهربت كان هروبا مهلكا . . إذ وقعت في ثكنة عسكرية صربية ، تضم وحوشا بشرية لاقلب لهم ولايعرفون الرحمة ، قاموا باغتصاب الزوجة ورموا الطفل في مدفأة تشتعل بالنار ، فأخذت أصرخ أنا وزوجتي صراخا متواصلا حتى فقدنا الوعي ، وما صحونا إلا على ركل أقدامهم ودفع نعالهم ثم أحضروا لنا لحما مشويا قد تفحَّم وألصقوا بنادقهم بأجسامنا وأمرونا بالأكل . .! كان ذلك اللحم هو لحم ابننا الرضيع . . !

كيف نبقى أحياء بعدما أصابنا هذا البلاء الماحق ؟

هؤلاء هم رؤساء حلف الأطلسي الذين تآمروا على دولة إسلامية صغيرة ضعيفة وسط بحر هائج من الدول الصليبية الكبرى إنهم يتشدقون بحقوق الإنسان! أي حقوق بعد موقفكم المخزي من المسلمين القلائل الذين أوقعهم سوء الحظ بين ظهرانيكم ؟

الويل لمن يتذكر

من أمارات النفاق ألا يستفيد المرء عبرة من الماضى ولا درسا للمستقبل بل يرتجل تصرفاته ارتجالا ويتحمل نتائجها دون وعى !

وقد جاء فى القرآن الكريم وصف المنافقين بهذه البلادة قال تعالى : ﴿ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1]

إن الإيمان حسٌّ شديد ، واستفادة من الأحداث ، وأخذ من الماضى للحاضر والمستقبل وقد صح عن رسولنا قوله : «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**» فما بالنا نلدغ من الجحر الواحد مثنى وثلاث؟ ثم نمضى فى طريقنا كأن لم يقع شىء !!

من أيام احتفلت أوروبا بمرور ٥٠٠ عام على خروج المسلمين من الأندلس ، أما نحن فإن الذكرى الكئيبة مرت بغير اكتراث! لعل الكثيرين لا يَدْرُون أننا كنا هناك ، إنهم يذكرون ، أما نحن فننسى !

وفى القتال الوحشىّ الذى وقع بين الصربيين والمسلمين فى «سراييفو» قال المراقبون : إن البلد تحوَّل إلى «سلخانة» كبيرة ، وإن جثث المسلمين ملقاة فى الطرق لاتجد من يدفنها !!

إن القذائف تنهمر فتخطف الأرواح وليس هناك إلا مقاتل يتحصن وراء هدم ، أوتحت بقايا بيت ، والحرائق مشتعلة لاترى عندها إلا سحب الدخان . .

إن براكين الحقد التى انفجرت بغتة ذكرتنا بغارات الصليبيين القدامى على أنطاكية وبيت المقدس مُخلِّفة أكواما من الجثث تبلغ أحيانا عدة طوابق ، عجبا إن الحقد القديم لم تفتر حرارته ولا مرارته رغم مرور القرون . . !!

إننا وحدنا الذين ننسى أما القوم فإنهم يتذكرون ويتحركون !!

---

(١) التوبة : ١٢٦ .

ومن بقايا إنسانية لاتزال تحيا فيها ذكريات عدل ورحمة صدر قرار مجلس الأمن بإدانة العدوان والإذن بمقاومته !

وتساءلتُ : ماذا صنعتْ المؤسسات السياسية فى العالم الإسلامى الكبير تعليقا على أنْباء السلخ والحرق والنسف الذى تعرضت جماهير المسلمين له فى البوسنة والهرسك ؟

كنت أرقب أن ينعقد المؤتمر الإسلامى ليواجه المأساة ، ولكن يبدو أن الإسلام السياسى فى واد ، والإسلام الشعبى فى واد آخر!!

سياسىٌّ يوغوسلافى يقول عن أهل البوسنة والهرسك : لقد كان هؤلاء الناس صربيين أرثوذكس ، ويجب أن يعودوا كما كانوا !! أى لا بقاء للإسلام وأمته هنا . .

وقال سياسى عربى : نحن نستنكر الظلم الواقع بغضِّ النظر عن أن الذين يعانون منه مسلمون أوغير مسلمين ! !

أى أن تحركه ليس غيرة دينية ، ولا أسى لإخوان العقيدة ، ولا أن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . . لا . إنها غضبة إنسانية ! !

إن أعداء الإسلام يجددون أحقادهم ويؤكدون انتماءهم ، ونحن وحدنا الذين ننسى والويل لمن يتذكر ! !

* * *

عار الصمت

«الدبلوماسيون» أطول الناس حلما وأبعدهم أناة وأقدرهم على كتمان الغضب وضبط النفس ولذلك عجبت من موقف الأمين العام للأمم المتحدة الدكتور «بطرس غالى» عندما حجب العون الدولى عن مسلمى البوسنة والهرسك وقال : هذه حرب الرجل الثرىّ !!

قلت : من الرجل الثرىّ فى هذه المأساة ؟

الصربى الفاتك الذى يريد سحق وطن ومحو دين !

أم المسلمون الذين وقعوا فى مصيدة المدافع المنصوبة فوق الجبال تصبّ عليهم الموت من كل مكان ؟

إن أمين الأمم المتحدة سلك مسلكا مزريا عندما قرر ترك المسلمين يستغيثون ولايغاثون ، ويطلبون النجدة من «الشرعية الدولية» فلا يجيبهم إلا عار الصمت ! وسكوت المتغاضين ، لقد دمرت المساجد كلها تقريبا وقتل مئات الأئمة ، وهرب من الأسر المذلّ ملايين المدنيين العزل ، وبدأت مظاهر الاستعمار الاستيطانى تغيِّر معالم الأرض كى يرثها الصربيون كما فعل اليهود بفلسطين وأهل فلسطين !

فهل هذه حرب الرجل الثرىّ المستغنى عن المعونات ؟

ومعلوم أن آلاف الأطفال فقدوا أسرهم فتولّت محَاضِنُ التبشير العناية بهم ، قدّمت لهم المأوى ومحت عنهم معالم الإسلام ليشبّوا بعيدا عن ماضيهم الحزين !

يقع ذلك كله والأخبار ترد معلنة أن أرض الإسلام تُنْتقَص من أطرافها ، فها هى ذى صحيفة المسلمين تعلن عن ارتداد أربع قرى إسلامية ، فرض عليها الهندوس ترك الإسلام واعتناق الوثنية ، فإذا نحن بين عشية وضحاها نفقد ٧٥ ألف مسلم ، عدا من تُسرَق عقائدهم من الهائمين على وجوههم هنا وهناك . . !

فى هذا الوقت يقول الدكتور «بطرس غالى» : «إن حرب البوسنة والهرسك حرب الرجل الثرىّ ! » .

أعلم أنه وجّه إعانات الأمم المتحدة إلى الصومال ، وضنّ بها على مسلمى البلقان التائهين والصومال فى أيام نحسات صنعها لنفسه بنفسه ، إنه تفانى فى الصراع على الحكم وطلب السلطة لرؤساء مشئومين! ونحن نريد له الخلاص من محنته وعودته إلى حريته .

ولكننا نرفض الاعتذار بحالته عن ترك مسلمى البوسنة يواجهون حرب الإبادة المعلنة عليهم . .

إن الوضع شائن مرعب فى وسط البلقان ، وقد انكشفت المؤامرات المدبَّرة لسحق المسلمين فى هذه البقاع ، بل فى أوروبا كلها ، وعلى أمين الأمم المتحدة أن يواجه الواقع ولا يحاول الفرار منه أوالاعتذار عنه ، وإذا بقى يصمّ آذانه عن آلام المسلمين فإننا معذورون إذا اعتبرنا هيئة الأمم تريد أن تكون صربيا الجديدة إسرائيل أخرى وأن رجلها فى تنفيذ المؤامرة هو الدكتور «بطرس غالى» فهل يرضى لنفسه هذا الدور ؟

* * *

جراءة

إلى متى نحب الدنيا ونكره الموت؟ إلى متى نحب التوجس ونكره الجسارة ؟

إذا كان صاحب البيت جبانا واللص جريئا فالبيت ضائع لا محالة . . !

عندما زار «مسيو ماتيران» مدينة «سراييفو» واخترق الحصار المضروب حولها شعرت بانبهار لشجاعة الرجل ، تابعته فى الذهاب والإياب ، وهو يهبط بطائرته فى أرض الوحشة والموت ، ويتخطى العقبات المبعثرة ، ويحاول الاتصال بالمسئولين وسائر الأهلين!

قالوا : ووصلت القذائف الطائشة قريبا منه ، واخترق بعضها طائرته وهو منتصب القامة رابط الجأش كأنه سيف الدولة عندما قال فيه المتنبى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم! !

وأخذت طائرته تحطّ أحمالها من الأغذية والأدوية ، فاتحة الطريق أمام طائرات أخرى تحمل الشفاء للمرضى والطعام للجائعين . .

إن ذئاب الصرب قطعت الطريق أمدا طويلا حتى بلغت القلوب الحناجر وكاد اليأس يهزم المقاومة !

وخطة المعتدين إرغام المدينة على الاستسلام حتى يستطيعوا ضم أراض من البوسنة والهرسك إلى صربيا الجديدة ، فإذا صحّ للمسلمين بقاء بعد ذلك فهو بقاء الحرج المختنق ، بعدما فقدوا بيوتهم ، وتعرضوا لاستعمار استيطانى يشبه مايتعرض له عرب فلسطين . .

«ومسيو ماتيران» لا علاقة له بمستقبل الإسلام وأمته ، وهو لم يفعل ما فعل ذودا عن حوزته أو صونا لوحدته! إنه زعيم إنسان يحترم العقل والضمير ، ويناضل من أجل كرامة البشر فى الميدان السياسى والاقتصادى . .

وقد ساءه أن جند الصرب ارتكبوا المناكر وألفوا الغدر واستضعفوا المسلمين واسترخصوا الفتك بهم شيبا وشبانا ، فرأى أن يذهب بطائرته ليمحو هذه السُّبَّة من وجه الحضارة الحديثة ! !

وإنى أذكر فعل الرجل لأن المعادن النفيسة تستحق التنويه ، ولأسائل قومى : أما كان فيكم من يقدر على مثل هذا الصنيع ؟

قد يكون جمهور المسلمين فقيرا إلى الأسلحة الحديثة ، بيد أنه – عند التمحيص – أفقر إلى النفوس الكبار التى تضعف فى مرادها الأجسام . .

إننا نحمل رسالة الإسلام ، وهى رسالة ضخمة تنوء بها الكواهل الطَّرِيّة ولا يصلح لها عبيد الشهوات وأحلاس اللهو وإنى أنظر إلى المستقبل بقلق لأن أعداءنا يخدمون مبادىء وعقائد . . أما نحن فالعقائر ترتفع بشىء آخر . . هو رفع مستوى المعيشة ! !

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً ﴾[1] .

* * *

(١) الإسراء : ٨٤ .

كراهية

قد تشعر بكراهية الآخرين لك فى فلتات اللسان وسقطات الحديث فتأخذ حذرك وتحتاط لنفسك ، ولكن ما الموقف إذا واجهت غلاً راسبا وخُصُومة عاوية وعدوانا لايقر معه قرار؟

إننى قرأت مع ألوف القراء تصريحات القائد الصربى «فوشتيك» عن الأسلوب الذى يعامل به المسلمين وكيف يستهتر بقتلهم ويستريح لفراغ الأرض منهم فقلت كأنه المعنىُّ يقول شوقى :

سكينه ، وحزامه ، ويمينه والصولجان ، جميعها آثام . .!!

ولم أر أخسَّ منه وأحقر إلا من سمعوه وسكتوا فلم يفعلوا شيئا . .

لقد سأله الصحفى الألمانى مندوب مجلة «ديرشيجل» : كم من المسلمين قتلتهم أنت شخصيا؟ خلال الحرب الدائرة فى البوسنة والهرسك ؟

فأجاب : مئات كثيرة! كذلك قمت بإطلاق الرصاص على الأسرى المسلمين للقضاء عليهم . . فلما نبهه المندوب الألمانى إلى خطورة مايقول ، لأن المعاهدات الدولية تحرّم قتل الأسرى . قال ساخرا : إنه لم يجد سيارات لنقلهم ، فأسهل الطرق وأرخصها هى التخلص منهم بالقتل!! مثلما أجهز الصربيون على ٦٤٠ مسلما كانوا مختفين فى مخبأ فتخلصوا منهم جميعا قتلا بالرصاص !!

وسأله الصحفى الألمانى : ماهو الهدف من هذه الحرب . . ؟

فأجاب : هدفنا القضاء على الإسلام! فالمسلمون فى أوروبا يجب أن يختفوا وألا تكون لهم أمة !

إن على المسلمين هنا أن يتحولوا عن الإسلام ، وأن يصبحوا صربيين أوكروات أما الخيار الثالث فهو الموت ! !

إننى أقتل كل قادر على الحرب من المسلمين . ومن لم أقتله أقوم بخرق عينيه! وعندما نستجوب الأسرى لاستخراج المعلومات منهم نهشم أيديهم ببطء حتى يعترفوا بما نريد . .

هذا ما يقوله القائد الصربى مجاهرة يصف معاملته للمسلمين والكلام المذكور هنا نشر فى أوروبا فماذا كان صداه فى أوروبا ودولها الساعية إلى الوحدة ؟

ونقل إلى أمريكا فماذا فعلت هيئة الأمم المتحدة التى زعمت أنها قامت لحفظ كرامة الإنسان ورعاية حقوقه؟ ونشر أخيراً فى البلاد العربية فماذا كان غضبنا لديننا وإخواننا . . ؟

الغريب أن اسم الحروب الصليبية ليس من وضعنا نحن ، إنه اصطلاح أوروبى ، أما نحن فكنا نسمى الغارة الوحشية علينا بأنها هجوم الفرنجة ! !

إن العدوان باسم الدين طبيعة فى القوم ، أما نحن فأبعد شىء عن أذهاننا الحروب الدينية! وطرد الرومان من مصر والشام وسائر المستعمرات الأخرى كان ردّ عدوان وتحرير مستضعفين وما كان إكراها على دين ، ولا إقرارا لفتنة . . إن تحت الإهاب الأبيض للأجناس الأوروبية مشاعر سوداء ، لم يَشْق المسلمون وحدهم بها بل شقى بها الهنود الحمر وغيرهم وهلكت فى حريقها أجيال . . ولأمر مّا قال الله فيهم : ﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[1] .

فهل نثبت أم نزيغ؟ وهل ندرك الواقع أم نحيد عنه؟ إن هزيمة الإسلام فى البوسنة لها ما بعدها . .

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

* * *

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) النور : ٦٣ .

ذئــــاب

فى أثناء حملات الطرد والإبادة التى تعرض لها مسلمو البوسنة هوجمت إحدى القرى هجوما شديدا وأخذت المدافع والصواريخ تصبّ حممها من كل ناحية ، وشعر الشبان الذين يحملون البنادق بعجزهم عن المقاومة ، كما شعر السكان القابعون فى البيوت أن وراء هذه الحملة ما وراءها فقرروا الفرار من وجه الذئاب القادمة ، وتركوا بيوتهم إلى العراء يلتمسون النجاة فى أماكن أخرى ، وأدركهم الصربيون وهم فى حال منكرة من الفزع ، وشرعوا يجهزون عليهم وهم يصيحون بهم : أين ربكم الآن يامسلمون ؟ ؟

سمعت هذه القصة من إذاعة لندن ، وظل هذا الاستفهام يرنّ فى أذنى طويلا وشعرت بالعجز والخزى !

إن الذئاب الفاتكة لاتهاب أحدا ولا يَردّها شىء ! !

وواجه الهاربون مصايرهم فهم بين قتيل وأسير وهارب . . والنداء الصربىّ يلاحقهم : أين ربكم الآن ؟

أعرف أن هؤلاء ليسوا أول مظلومين فى التاريخ ، فقد وثب الفراعنة على بنى اسرائيل يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم ويجعلون نهارهم ليلا وحياتهم ويلا !

فماذا كانت العقبى ؟

أغرق الله الظلمة وأبقى أبناء المحروبين ليرثوا الأرض من بعدهم . .

إن نسيج هذه الحياة من اختبارات لاتنتهى ، هكذا شاء من : « خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » [1] .

والاختبار يتم فى أزمنة قريبة أوبعيدة ، وقد تبدأ المقدمات فى جيل وتظهر النتائج فى جيل آخر ، فما بدٌّ من الصبر والانتظار ، نعم لابد من تمحيص المؤمنين وإمهال الكافرين .

---

(١) الملك : ٢ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (١)

والذين يقولون للمستضعفين من المسلمين : أين ربكم الآن؟ سيجدون ربهم إن قريبا وإن بعيدا فيوفّيهم جزاءهم! لابد من زمن يطول أويقصر يتم فيه القدر الساهر .

ولذلك يقول الله لنبيّه : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾(٢)

إن كلمة حين تكررت مرتين هنا ، ليُعْلَم أنه لابد من صبر وانتظار حتى يتمّ القدر الأعلى . .

ونتساءل : ماذا يعمل الناس فى هذا «الحين» ؟

يصابر المستضعفون الليالى ويعملون لمستقبل أفضل !

هل نقوم نحن المسلمين بهذا الواجب ؟

كلا إن هناك بلادة لاينقضى منها عجبى ، لقد بحثت فى الصحف عن أخبار المذبحة التى كان الصربيون يقولون فيها للمسلمين : أين ربكم الآن ؟ فلم أجد لها ذكرا . .

وسألت رجلا فى منصب كبير هل سمعت إذاعة لندن تقول كذا وكذا ؟

قال : نعم سمعت !

لماذا تواطأ المراسلون - عندنا - على طيّ هذه الكلمة الكافرة ؟

لأنها تكشف عن خبايا الحقد الصليبى ، والفكرة السائدة جعل هذه الحرب غير دينية!! ومادام البلاء ينصبّ على رءوس المسلمين وحدهم فالخطب سهل !! ولله فى خلقه شئون . .

* * *

(١) الطارق : ١٥ - ١٧ .

(٢) الصافات : ١٧٤ : ١٧٨ .

الوعى.. ولقمة الخبز

قلما تسقط الحضارات أوالدول دَفْعة واحدة ، إنها غالبا تترنّح وتدوخ ثم تهوى ! وعندما نتأمل فى تاريخنا نجد أن الأندلس لم تستسلم وتزول دفعة واحدة ، إن هذا المصير تم جزءا جزءا ، وكانت غرناطة آخر قطعة فى الأرض الضائعة . .

ومن حقنا أن نفزع من تعرض فلسطين لمصير الأندلس ، ومن استنامة العرب لفقدان بعض أرضهم والنظر ببلادة إلى مايصير!! لاشك أن الإسلام فى مرحلة سيئة من تاريخه وأن على أولى الألباب مراجعة النفس واتخاذ الحيطة . .

لقد أدهشنى هذا الاهتمام الذى اكتسح أوروبا وأمريكا بقضية «غزة وأريحا» ، إن الولايات المتحدة برؤسائها السابقين واللاحقين ودول الجماعة الأوروبية مشغولة بالموضوع كلها ، حتى النرويج ! !

إن هذا القطر القصىّ شمال العالم هو الذى تمت فيه المفاوضات السرية وصنع فيه القرار الأخير !

لماذا؟ لأن هذه الدول جميعا مسيحية مسئولة عن قضية القدس ، ومكترثة بوضع العرب فيها ، وهى ترمق مستقبل الإسلام بحذر ، ولا تبالى أن تكيل له التهم ، وهى لم تنس ولا تريد أن تنسى الحروب الصليبية الأولى !

ذلك كله يقع ونحن فى واد آخر نَوْجل من الاشتغال بالقضايا الإسلامية ، ونهشّ لأى عنوان آخر غير عنوان الدين . . !

لماذا وقد وُجِّهتْ إلينا أسئلة شتى – لم نسأل إسرائيل : هل ستبقى وطنا قوميا ليهود العالم أجمع ؟ يجيئون إليه متى شاءوا جماعات ووحدانا ؟

وإذا كان اليهود فى شتى الأقطار نحو خمسة عشر مليونا فكيف تسعهم فلسطين وحدها ؟

أم أن إسرائيل الكبرى لاتزال الحلم الجاثم فى عقل اليهود ومَنْ وراءهم من الحلفاء ، وليذهب جيران فلسطين إلى الجحيم !

ثم ماهو مصير اللاجئين الضائعين بعد حربى سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ ، هل نذكرهم أم أنا تركناهم للمجهول ؟

لو أن عرب الأندلس فكروا فى أعقاب كل هزيمة ماذا جرّ عليهم هذا البلاء لنجت بقيتهم من المحق الذى لفّهم فى أكفان العدم ، وإنى ألحّ على مسلمى اليوم أن يعوا حقائق الأحداث الضخمة التى تهز اليوم كيانهم ، إنهم ماضون فى خطّهم المائل وأعينهم مغمضة !

الناس – حتى عبدة الأوثان – يذكرون أديانهم ، ونحن وحدنا الذين نترخص ونستهين !

تحت القطبين ، وفى أعماق المناطق الحارة ترسم الخطط لضرب الإسلام ، والمسلمون هنا وهناك مشغولون بلقمة الخبز ، وحبّ الدنيا وكراهية الموت . . ترى هل نعى ؟

* * *

مكرٌ بالعرب..

لن يقع سلام أبدا بين اليهود والعرب مابقيت فلسفة الاستيطان الدينى ماثلة فى أذهان اليهود حَسَبَ رؤى التوراة! والذى يطلب من العرب أن يتركوا أرضهم لشراذم قادمة من هنا ومن هناك ، مؤمنة ، بهذه الرؤى هو امرؤ جائر حائر .

إن يهود العالم يبلغون خمسة عشر مليونا ، ثلثهم الآن فى «فلسطين» بعد طرد العرب من أغلبها فإذا بقيت خرافة أن الأرض لليهود ميراثا من إبراهيم فمعنى هذا أن العشرة ملايين الباقية ستستولى على أرض الدول المجاورة ، وتقوم إسرائيل الكبرى بين الفرات والنيل كما تقرر النبوءات المزعومة . .

هل يستقيم هذا مع صلح يمنح العرب «غزة وأريحا»؟ أم أن هذا مكر بالعرب الطيبين ؟

لكى يمكن تصديق بعض مايقال عن هذا الصلح يجب أن تعلن إسرائيل وقف الهجرة اليهودية إلى إسرائيل ، تمهيدا لبحث سلام حقيقى بين السكان الأصلاء وبين القادمين الذين جاءوا من شتى الأقطار باسم الإقامة فى أرض الميعاد!! ثم يجب من الآن البحث فى إعادة اللاجئين العرب إلى ديارهم ، سواء من تركها سنة ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ . .

إن أوروبا وأمريكا ـ لأسباب دينية ـ مهتمتان بأمن إسرائيل ، فهل اكتفتا بما ناله اليهود؟ وبالدولة الشامخة التى أسسوها ؟ ربما قبل العرب الأمر الواقع وفكروا فى أسس جديدة لتعايش ممكن !

لكن ذلك لايتصور أبدا إذا بقيت أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين مفتوحة ، أين سيقيم هؤلاء إلا إذا كان مخططا لهم استعمار فلسطين ودول الطوق وماتيسّر من دول عربية أخرى ! !

إن سياسة التوسع اليهودى تقوم على أعمدة دينية فصلها العهد القديم وأشار إليها العهد الجديد والعالم كله الآن ينظر فيها ويفكر فى عقباها ، ولن تحلّها أريحا ولا غزة ولا مابعدهما إنما يحلها العرب إذا صحوا من الإغماءة الطويلة التى أصابتهم! وإذا علموا أن مزيدا من الإغماء سيخمد أنفاسهم ويقضى على حياتهم .

ونسأل العلمانيين العرب بعد ذلك : هل سيبقون فى مواقف الخيانة لدينهم وقومهم وتاريخهم ؟

إن كرههم للإسلام ، وموالاتهم لأعدائه وضيقهم بشرائعه هو دعم للصهيونية وإيهان لعناصر المقاومة الباسلة التى يبديها المؤمنون الأحرار .

هل.. تحرير فلسطين بالعلمانية!![1]

بعد يوم متعب بارد منَّيْت نفسى بليلة هادئة دافئة فى فراش وثير مريح ، لكنى ماكدت أبدأ المنام حتى هاجمنى ضميرى ، وهاجت الأفكار فى رأسى !!

أنت هنا تجد الفراش المعجب ، وإخوانك المطرودون من فلسطين لايجدون شيئا ؟ إنهم يأكلون نزْرا ويشربون كدرا ويطاردهم الصقيع سواء خرجوا من خيامهم أواختبئوا داخلها ، وجريمتهم أنهم إسلاميون يحرسون دينهم وبلدهم ، إنهم خلاصة الرجال فى الأرض المحتلة ، فيهم العلماء والمستشارون والدعاة وأولو الفطنة والقدرة الذين زلزلوا الكيان الصهيونى وعكروا صفوه! أربعمائة أويزيدون من الأوفياء لدينهم وتراثهم ، أليس عجيبا أن يسكت العالم على العمل تحت راية اليهودية ويثور للعمل تحت راية الإسلام ؟

هل الانتماء إلى القرآن جريمة العصر . .

والانتماء إلى أى دين آخر سائغ مباح ؟

إن قضية فلسطين قضية دينية شئنا أم أبينا ، والمستوطنون اليهود قدموا إلى هذا القطر المنكوب وهم يصلّون لرب إسرائيل ، ويتذاكرون وعوده فى التوراة والتلمود أن يردَّهم إلى أرض إبراهيم ، التى ورثوها عنه كما يزعمون . .

فما مكان العلمانية فى هذا التفكير؟ ومامعنى أن يكون العرب علمانيين كى يسمح لهم بالبقاء فى هذه الأرض كلها أوبعضها ؟ ؟

إن إبعاد الإسلام عن هذه القضية قضاء أبدى على فلسطين ، ومخدِّر خطير ، بل سم قاتل لمستقبلها كله! وقد أدركت أن الخطة الاستعمارية التى وضعت من قديم كانت تسعى إلى هذا الغرض ، كان الحاج أمين الحسينى بعمامته التقليدية رمزا للإسلام المكافح ، وكنت قريبا من الرجل فرأيت فيه استنارة العلماء وعزم المجاهدين ،

---

(١) كتب هذا المقال أثناء قضية الفلسطينيين المبعدين الذين طردتهم السلطات الإسرائيلية .

ورأيتـه يتـحـمـل الـهـزائم بِجَلَد ، ويرتب صـفـوفـه بأمل ، وكنت أزوره فى مـسكنه بمصر الجديدة أتدارس معـه حاضر الإسلام ومستقبله . ثم فوجئت بإخراجـه من القاهرة ، واضطراره إلى سكنى بيروت ، ونفث الدخان حول سيرته وكفاحه . .

كانت الخطة قد رسمت ليكون تحرير فلسطين تحت راية علمانية لا إسلامية . .

وبدأت سلسلة الهزائم ، فقد خذلتنا الأرض ، وحرمتْنا السماء ، ولم ننل شيئا من أحد ! !

إننا نطلب الـيـوم سـلامـا فى مـقـابل التنازل عن بعض فلسطين ، وهم يطلبـون استسلاما على شروطهم هم . .

وهذه أولى بركات العلمانية التى جُعلت عنوانا لتحرير فلسطين!! لكن أمتنا الكبرى تأبى إلا الإسلام شكلا وموضوعا ، ومن حقها أن تحيا بدينها وأن يعود اليهود من حيث جاءوا . .

إننا نقنت فى مساجد للنوازل الداهمة ، ومايحدث الآن للمجاهدين المطرودين يحتاج أن نجأر إلى الله بالدعاء كى يفرج كربهم ، ويحلّ عقدتهم ، ويثأر من ظالميهم .

* * *

ماذا بعد غزة وأريحا؟

بعد الحرب العالمية الأولى حققت انجلترا لليهود إنشاء وطن قوميّ لهم يجمع شتاتهم ويلمّ شملهم بعد آلاف السنين من التشرد والمسكنة! وتمّ ذلك على أنقاض العرب الذين رأت انجلترا أن يذهبوا إلى حيث ألقت ، فهم مسلمون لايستحقّون الحياة! وهبّ المظلومون يدفعون عن أنفسهم وتراثهم وعقائدهم ولكن الهزائم لاحقتهم لضعف الناصر وفتك المعتدى والحرب دينية يقينا وهى تخالف مبادىء القومية الحديثة ولكن إذا كان الغرض القضاء على الإسلام فلا بأس !

إن الدين يعتبر تخلفا إذا كان الإسلام أما إذا كان غير ذلك فهو تنوير وتحرير !

ورأى بعض الفلسطينيين أن يدع العنوان الإسلامى ويرفع راية العلمانية . وهذا مافعلته منظمة التحرير على أمل أن تكسب شيئا وقد تدخل بعض الساسة ومنحوا العرب فرصة العيش إلى جوار اليهود أصحاب الدولة والصولة . . !

وأنا الآن أمام واقع عالمى ومحلى يحتاج إلى الدراسة والتروّى . أبناء فلسطين الآن بحاجة إلى نوع جديد من الجهاد قد يكون أقسى مما عانوه فى الأيام الماضية . أخوف ما أخافه أن يقتتل أبناء البلد المغصوب ويقع بأسهم بينهم ، بل أعتقد أن قوى خارجية ستفعل ذلك .

ورأيى أن موطىء القدم الذى أتيح للعرب يجب أن يحصَّن ويؤمن ، وأن تعمل التربية الإسلامية عملها فى دعم الأخلاق ومضاعفة الإنتاج وإشاعة التراحم والمواساة وإعادة الصواب إلى من فقدوا صوابهم ينبغى فى صمت أن ينكس شعار العلمانية وإضاع الصلاة واتباع الشهوات ، وأن نحترم ديننا وكتابنا وسنن نبينا !

إن عقلاء العالم أخذوا يحذرون من الانطلاق الأعمى وراء الشهوات وهذا «نيكسون» يخيف الأمريكيين من الضياع وراء إغراق هوليوود فى الجنس والعنف !

وهذا ولى عهد انجلترا يهيب بقومه أن يلتزموا التقاليد الجادّة وإذا كان لابد من ضرب الأطفال كى يرعووا فلا حرج !

ومن الحفاظ على التراث الأدبى أن نحترم لغتنا ، ألا ترى «رابين» يخطب بالعبرية فى واشنطن من عدة شهور ، وفى القاهرة من أيام كى يحيى لغة ميتة بينما العرب يحسنون الرطانة ويميتون لغة حية لغة القرآن الكريم .

لقد استصدر وزير الثقافة فى فرنسا قانونا بمعاقبة من يستعمل كلمة أجنبية لها بديل يغنى عنها فى اللغة الفرنسية! وفرض ذلك فى ميادين الإعلام والتعليم . .

أما نحن فنحطم قواعد النحو والصرف والبلاغة دون حرج لكى نكون عصريين علمانيين ! !

إن الشعب الفلسطينى من أذكى الشعوب العربية ، ويستطيع جعل ما حدث خطوة إلى مستقبل أنضر وأطهر ، والمهم نكران الذات وإرضاء الله واستعادة النماذج المشرقة فى تاريخه الجلْد المصابر . أيها الفلسطينيون شرفوا الإسلام كما شرفه آباؤكم وأجدادكم والمستقبل بعون الله لكم .

* * *

نؤثر الموت

قاومت متاعبى التى جعلتنى بمعزل عن الناس وقررت مشاهدة حفل استعادة غزة وأريحا .

إننى أمثل الإسلام الذى تضاعفت خسائره فى هذا العصر ، فلأنظر ما هنالك لعلى واجد بعض العزاء! وألقيت نظرة سريعة على الساحة - من خلال التلفاز - فرأيت أول ما رأيت جيشا من الفنانين والفنانات يشبه حزمة من الورود الصناعية لاطعم لها ولا ريح .

فقلت : كان الأولى أن يشهد الحفل طلاب الجامعات ليروا كيف يصنع مستقبل أمتهم . . ! !

ودخل الساسة الكبار وسمعت أحاديثهم واحدا واحدا وأصغيت بوعى إلى كبير اليهود الذى بدا وكأنه يتصدق على العرب ببعض ما يملك !

وعادت بى الذاكرة إلى ماحدث قبل نصف قرن ، فقد اجتمعت هيئة الأمم المتحدة وقررت إقامة دولة اسرائيل على الأرض العربية ، وقسمت فلسطين قسمين خصت اليهود بالنصيب الأهم ورمت إلى المسلمين مابقى ، وناصرت أمريكا وأوروبا ما وقع وقيل فى التعليق على هذا الجور : إن من لايملك أعطى من لايستحق !

والواقع أن أحقادا تاريخية هائلة كمنت وراء هذه السياسة الخرقاء بدأت بإسقاط الدولة الإسلامية الكبرى ثم توزيع المسلمين على عشرات القوميات وشغل كل قومية بقضايا محلية وإحراج الإسلام ثقافيا واجتماعيا حتى لايتضح له هدف ولايستقيم له درب .

لكن جماهير المسلمين أبت إلا التشبث بدينها وأهل فلسطين لم يستسلموا قط للضياع الذى كتب عليهم ، ولم تزدهم التضحيات المتلاحقة إلا ثباتا . .

وهنا ظهرت حلول جزئية وسمعت صيحة السلام لتهدئة المواقف وطمأنة المصالح

العالمية . ونحن المسلمين أحرص الناس على السلام وماحملنا السلاح للعدوان يوما لكن ماذا أصنع إذا طردت من دارى وعشت فى العراء؟ ألا أدافع عن أرضى وعرضى؟

إن الدم النقىّ لصربيا الكبرى وجد من يحميه ويفرضه ويرفع علمه فماذا يصنع المسلمون الذين يهيمون على وجوههم بعدما فقدوا ٧٢٪ من أرضهم ، وهلك منهم نحو مائتى ألف .

مامعنى صيحة السلام هنا إلا إعداد الأكفان لدين وأتباع ؟

إن المسلمين وهم خمس العالم لايضيقون بأن يعيش يهود العالم أجمعون بين ظهرانيهم لهم مالنا وعليهم ماعلينا أما أن يضنّ العالم على الرسالة الخاتمة بالبقاء وعلى تعاليمها بالنفاذ وعلى أحكامها بالتطبيق وعلى أتباعها بالإنصاف فهذا باب فتنة كبرى لاتجدى فيها ألاعيب الساسة وحيل الدبلوماسية الحديثة ، وليعلم القاصى والدانى أننا لانفكر فى ترك ديننا وإطراح شريعتنا ونؤثر الموت دون ذلك . .

* * *

محنة الصومال

لا أدرى ما دهى أمتنا فى المشارق والمغارب حتى أمست أرضها نهبا للفوضى والشتات والنكبات؟ ترى مايقول الناس عنا وعن ديننا عندما يذاع أن التهارش بين الأقوياء حال دون وصول الأقوات للجياع من نساء وأطفال؟؟ هل بلغت شهوة السلطة هذا الحدّ من التوحش فتستولى على أطعمة أناس يموتون جوعا بالآلاف كى يقدروا هم على استلاب الحكم؟؟ هل أرض الإسلام هى التى تقع فيها هذه المآسى أو هذه المعاصى؟؟ إن مجىء قوات أجنبية لدعم جوانب إنسانية واضحة فى أرض الإسلام أمرٌ يكاد يبعث على الجنون !

ولا يقع هذا فى الصومال وحده ، بل فى شمال العراق حيث تتدخل قوات أجنبية لإطعام الأكراد وتدفئتهم من زمهرير الشتاء ، فإن الأكراد - فى ضمير البعث العربى - لايشفع لهم دين ولاتاريخ فى العيش السوىّ مع سائر العرب الأشاوس !!

لقد كانوا جميعا أمة إسلامية واحدة ، فكيف صاروا قلة منبوذة ؟

هذه بركات القومية العربية والتعصب الجنسى والبعد عن الإسلام !!

لقد لاحظت أن الصومال عندما انضم إلى الجامعة العربية كان قد قرر استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية! أهذه هى العروبة ؟

ثم لاحظت أن الفكر اليسارى استبدّ بالبلد المسلم فأصبح ذيلا لروسيا حتى ضاقت به روسيا فقطعته وآثرت عليه الحبشة ، فهل عاد إلى دينه بعد هذه اللطمة ؟

إننا لم نحسن الانتماء إلى ديننا ولا العمل به ، بل لم نحسن فهمه فكانت النتيجة مانرى . .

أريد أن يعرف المسلمون أن العبادات لا وزن لها إذا كانت غطاء للدنايا ، أوتنفيسا عن سفساف الأمور . .

إن الإنسان العادى يتحول إلى وحش كاسر عندما يعبد نفسه وعندما ينطلق فى الحياة خادما لمآربها مولّيا وجهه شطر ما ينفعه وحسب ، أى شرف فى سلوك عصابات

تقاتل لتستولى على طعام أطفال يموتون جوعا؟ وهى عندما تشبع تتخاصم بالسلاح على الحكم وإحراز منافعه . .

إن القرآن الكريم يصف عباد الله الصالحين فيقول : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾[1] .

هؤلاء المحسوبون على الإسلام فى هذه الأيام ما أسلموا الوجوه ولا أحسنوا العمل!! لقد تذكرت حديث الرسول الكريم عن أول ثلاثة تُسعَّر بهم النار يوم القيامة إنهم مراءون بالإسلام لم تخصب به قلوبهم ، ولم تطب به نفوسهم ، فما أغنت عنهم قراءة ، ولا أجدى عليهم جهاد أوعلم . .

أما هذا النفر المنسوب إلى الإسلام اليوم فشأنه أعجب ، إنه لم يراء بإسلام لأنه زاهد فيه ، إنه يدور حول نفسه ، ولا يبالى بحاضر الإسلام ولا مستقبله .

* * *

(١) لقمان : ٢٢ .

ردة

بدأت الشيوعية حركة قلّة من الناس تحسن استغلال الجماهير ، والاستفادة من الضوائق التى تخنقها ، وبقيت هذه القلة من الناس فى موقعها القيادى تكسب وتتوسع حتى سمَّت نفسها آخر الأمر الشعب! وملكت باسم الشعب المزعوم كل شىء فى أكبر دول أوروبا ، وأقامت حوله سياجا حديديا يحظر عليه التحرك إلا بإذن ، وحسبه أن يأكل ولو أتفه الزاد وأن يرضى طول حياته بالفتات . .

وفى مقابل ذلك وجد فى أوروبا وأمريكا مايسمّى بالعالم الحرّ يستمتع ويمرح ويجيئه من المستعمرات سيل غدق من الخيرات . .

المهم من هذه اللفتة أن الشيوعية منذ وُلِدتْ وهى قرينة الاستبداد السياسى وما عرف أهلوها طعم الحرية الفردية ، وظهر الشيوعيون العرب يبشرون بالاشتراكية ويتحدثون عن الفردوس المنشود ، ولم ينسوا أن يقولوا إنهم باسم الشعب يعملون ولمصلحته يكافحون ، فما الذى عرضوه على الناس ؟

الخبز والسلام ، هكذا قالوا! هل تم شىء آخر؟ لا الدنيا تغنى عن الآخرة ، فلا تلويح بشىء آخر !

ولم يفلح الشيوعيون فى اجتذاب الجماهير إلى صفوفهم على حين نجحت أحزاب أخرى كثيرة . .

ثم انهزمت الشيوعية عالميا ومحليا ، واختفى الاتحاد السوفيتى وانكسر السياج الحديدى . .

ونظرت إلى أمتنا العربية بعد هذا التغيّر الهائل فرأيت عجبا .

إن هناك حملة كبيرة على الإسلام فتفرست فى وجوه الأعداء الجدد ، فإذا هم شيوعيو الأمس القريب ، الأسماء هى الأسماء وإن تغيرت العناوين ، لقد سمّوا أنفسهم علمانيين ، وزعموا أنهم أنصار الحرية الفردية والاجتماعية ، وأنهم يريدون حزب الرجعية القديمة وتنوير الأذهان من المخلفات الدينية ! !

والعلمانيون العرب يكنون ضغينة سوداء على الإسلام وحده ، ربما قبل العلمانيون الألمان والطليان أن تحكمهم أحزاب تنتمى إلى المسيحية ، وربما قبل العلمانيون اليهود أن تشدَّهم خيوط إلى التوراة ، أما العلمانيون العرب فهم يمقتون الإسلام سرا وعلنا ويرفضون كل صلة به !

هل هذا الإلحاد جديد عليهم ؟ كلا ، لقد كانوا شيوعيين يقولون : لا إله والحياة مادة ، فلا حرج عليهم إذا استمر الكفر وبقيت الردّة واتسعت الحملة على القرآن والسنة ، واتصل النشاط لتكفير الجماهير تحت عنوان التنوير . .

إننى أحذّر من الرِّدّة الجديدة ، إن كفرها صريح بالشريعة وماكر بالعقيدة ، وضيقها بالقرآن نفسه ظاهر ، وهى تستنجد بالحرية وقد علمْتَ أنهم مذ وجدوا أعداؤها ، وأن هدفهم الأول والأخير تمويت الإسلام .

* * *

مـقال

فى مجلة «كشمير المسلمة» قرأت مقالا عن النموذج الأسبانى وكيف نقضى على المسلمين فى الهند ؟

ومع أن قراءة المآسى توجع فؤادى إلا أنى أرغمت نفسى على مطالعة المقال إلى آخره لأرى ماذا يقع لإخوان العقيدة فى مختلف القارات ، ومن منهم سيموت بالسيف ومن منهم سيموت بغيره ؟

وقد رجح الكاتب الباكى أن الهندوك اختاروا النموذج الأسبانى فى القضاء على الإسلام بالهند واستقى معلوماته من الساسة والمفكرين الهنود !

لقد سقطت غرناطة سنة ١٤٩٢م وبعد ١٢٠ سنة أى فى أوائل القرن السابع عشر غربت شمس الإسلام نهائيا عن الأندلس بعد سلسلة من المذابح والاضطهادات الدينية الوحشية ! والغريب أنه فى الدورة الرياضية العالمية التى تمت ببرشلونة من عدة سنين احتفل العالم بانقشاع الظلام عن أسبانيا وعرضت تمثيلية هائلة لليل المدبر والحضارة المنتصرة ، وكان الرياضيون العرب والمسلمون يشاهدون وهم واجمون !

إن النسيان لفّهم ، فهم لايدرون شيئا ، أما خصومهم فهم لاينسون مامضى ولا مايجىء . . !

وأرى أن القوى المعادية للإسلام لاتلتزم خطة واحدة فى ضرب عقيدة التوحيد ، وأن تجارب أخرى تتم فى إفريقية لتقليص الرقعة الإسلامية إداريا وثقافيا وسياسيا ، ومع المخادعة ومع المصابرة يمكن أن تتحقق الأهداف !

هناك مائة مليون مسلم فى «نيجيريا» وفى أى انتخابات حرة سيفوز المسلمون بالحكم ؛ ويرتبط النيجيريون بإخوانهم فى العالم كله فما العمل ؟

الحلّ هو الانقلابات العسكرية التى تساند سياسة علمانية يرضى بها الوثنيون والنصارى الذين احتضنهم التبشير والذين لايزيدون عن ٥٪ من السكان! والإنجليز

يدعمون هذه الحكومات العسكرية ويزينون لرجالها الاستيلاء على الحكم وحرمان المدنيين الفائزين فى الانتخابات من حقوقهم واتهامهم بالخيانة !!

والأمم عادة لاتحارب جيوشها وستضطر إلى الاستسلام وقبول التسويف فى قضايا كثيرة وانتظار الوعود بعودة الكثرة المسلمة المستبعدة وخلال ذلك يقضى على عاطفة التدين وتقاليد العفة والحجاب وتمزيق أواصر الجامعة الإسلامية وإشاعة نوع من التعليم المائع لايحترم شخصية الأمة ولا تراثها ، وبذلك يتم القضاء على الإسلام وإن طال المدى ، فَنَفَسُ الاستعمار طويل ! . .

* * *

عدتُ.. كئيب النفس

كلما طالعت أخبار المسلمين فى الصحف ، أو تتبعتها فى الإذاعات عدت كئيب النفس كسير الخاطر! ماكنت أحسب أن الضعف يجرّ على أهله هذا الويل كله ، ويغرى الذئاب بالنيل منا على هذا النحو! ثم تذكرت قوله تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ .[1]

لقد غفلنا ومالوا ، «**ولأم المخطىء الهبلُ**» كما يقول المثل ، وتأملت فى المفاوضات التى تدور بين الضعيف والغالبين فملكنى الدوار !

يقول المفاوض اليهودى لنظيره العربى : لاتتحدث عن القدس ولا عن المستعمرات ولا عن دولة مستقلة ، ويمكن أن نطيل الكلام فيما وراء ذلك ، فى ظل ميثاق حقوق الإنسان . !

وتنقل الأنباء خلال ذلك مصارع العشرات من الشباب الذين لايملكون إلا الحجارة بالرصاص اليهودى . .

كما تنقل نصائح أصدقاء العرب لهم أن يحافظوا على السلام . . !!

وفى البلقان تتفق القوى العالمية على رفض إمداد المسلمين بالسلاح ، وتمضى المفاوضات المفروضة ومئات المساجد تهدم ، وآلاف البيوت تحترق ، وعشرات الألوف من الناس تزهق أرواحهم . والمهم أن ذلك كله يتم تحت عنوان البحث عن السلام ، وتحرّك وسطاء الأمم المتحدة لإقرار الحقوق المشروعة .!!

ويبدو أن السلام لن يجىء حتى تكون الديار بلاقع ، ويكون الوجود الإسلامى ذكرى منتهية ببركة هيئة الأمم المتحدة . . !!

ثم قرأت هذا الخبر عن مسلمى الهند ومايفعل الوثنيون بهم ، إن عدد المسلمين فى الهند أقل قليلا من أعداد المسلمين فى جامعة الدول العربية! ولا أستطيع بتة أن

---

(١) النساء : ١٠٢ .

أتناسى آلامهم لقد قرأت أن ٧٤ ألف مسلم أجبروا على ترك دينهم . هم مجموع أربع قرى من مقاطعة «ويستك» جنوبىّ الهند تم تحويلهم إلى الديانة الهندوسية . وكان حزب «بوشوا هندوبار يسند» المتشدد قد سارع إلى تغيير وثائقهم المدنية وأخذ يطبق عليهم كل مظاهر الدين الجديد ابتداء من حرق الموتى ، واتباع تقاليد الزواج ، ومنعهم من مخالطة باقى المسلمين فى المقاطعات المجاورة ، وفرض حظر على ترديد كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقال الأمين العام للمجلس الهندوسى العالمى فى مدينة « الله اباد» ليس فى قدرة أحد فى العالم أن يمنعنا من إقامة دولة هندوسية فى الهند خلال العام الحاضر !

يقع ذلك كله وهناك نفر من المثقفين العرب يرفضون الإسلام ، ويمقتون تعاليمه ويتنادون لإقامة مجتمعات علمانية متقدمة !! حتى لانعود إلى حضارة الصحراء .

* * *

ما جاء بكم إلى هنا؟!

الاستعمار الغربى شديد المقت للإسلام والنقمة على أمته ، كما يمقت اللص شرطيا أخذ بتلابيبه ، وحمى الناس من سرقاته ، ثم ساقه إلى السجن ، لكن الشرطىّ للأسف مات وترك ذرية ضعفاء وجد اللص فيهم متنفسا لحقده القديم . . !!

ما الذى أغرى الرومان بالزحف على الشرق ؟

قالوا : سحر الشرق وكنوزه المهملة . .!! وغفلات حكامه ! !

لقد رأيت تمثالا للإمبراطور «قسطنطى» فى الجزائر ، فى البلد الذى أطلق عليه اسمه ، وظل الرومان فيه دهرا . .

ومن قبل ذلك كان احتلال مصر التى عاش فلاحها يكدح لتصدير القمح إلى روما !

ما الذى جاء بهؤلاء الناس ليحتلوا الشمال الإفريقى كله ، ويحتلوا وادى النيل والشام والأناضول ؟

إنه السلب والنهب وضراوة القوىّ بالمستضعفين . .

الغريب أن الإسلام وحده هو الذى أخرج الرومان مدحورين ، وطارد جيوشهم حتى ردّها إلى أوروبا وقطع عنهم الإتاوات التى فرضوها لأنفسهم !

فهل روعيت هذه الحقائق فى كتابة التاريخ ؟

قالوا : فتح العرب مصر ، هل كانت مصر دولة مستقلة ذات سيادة قاتل العرب أهلها واستولوا عليها ؟

لقد قاتل المسلمون الرومان المستعمرين ، ما قاتلوا أحدا من مصر ، وظلوا يطاردونهم حتى أجْلَوْهم من الإسكندرية إلى إيطاليا .

وعندما قرأت غزوة مؤتة خيّل إلىّ أن هذا بلد أجنبى يمتلكه الرومان ، ثم عرفت بعد أن مؤتة فى الحجاز كدمنهور فى مصر ، بلد عربى خالص .

قلت ما جاء بالرومان إلى هنا ، وما الذى أغراهم بوقف سير الدعوة الإسلامية شمالىّ الحجاز ؟

لكن الله غالب على أمره ، لقد ظل «الفتح» الإسلامى يقاتلهم شبرا شبرا . فلما أصاب منهم مقتلا فى معركة اليرموك خرج هرقل من الشام وهو يقول : سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده !

اخرج لا ردّك الله ، ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

وما الذى قدمتم إلى الناس طول مقامكم بينهم ؟ الإذلال والكفر !

لقد شاء الله أن يكون الإسلام وحده مؤدب أولئك الطغاة ، ففى العصور القديمة والوسطى كان الرومان جاثمين على صدور الناس ينالون منهم ماشاءوا حتى ظهر خاتم الأنبياء «محمد» ، وقذف بالرجال الذين رباهم على قلاع الظلم فتساقطت قلعة قلعة بعد ما ظلت ألف عام لايحركها شىء! أفلا يكره الأوروبيون الإسلام بعد ذلك ويكيدون له ما استطاعوا ؟

* * *

كيف نكتب التاريخ؟!

سرنى أن جماعة الإغاثة الإسلامية فى البوسنة والهرسك هى التى تجمع الأخبار والحقائق عن الحرب الدائرة هناك! وإذا لم يهتم المسلمون بذلك فمن الذى يهتم ؟

إن دراسة التاريخ القريب والبعيد عبادة ، وقد كان الصحابة يروُّون لأولادهم مغازى الرسول كما يحفظونهم السورة من القرآن . وإننى أحسّ فزعا كبيرا من جهل أمتنا بالوقائع الخطيرة فى حياتها ، يبدو أن المشاكل الاقتصادية والسياسية للساعة الحاضرة أحاطت بهم ولفّتهم فى ضباب قاتل ، وإلا فما هذا الجهل والانحسار ؟

ذلك وقد رأيتُ بعض المتدينين يهتمون بقضية المسح على الجورب أكثر من اهتمامهم بسقوط قطر إسلامىّ فى يد الأعداء! فأى تديّن ذلك ؟

إننا بحاجة إلى أن نعرف مايقع لنا ، وما يعترض مسيرتنا ومدى العداوة التى تواجهنا وحرام والله أن نلتقط هذه المعلومات من أفواه المراسلين الأجانب الذين تتحكم فى مروياتهم أهواء شتى . .

إننى مع ألوف غيرى كنا نقرأ أن «**طارق بن زياد**» أحرق سفن المسلمين وألهب مشاعر جنوده كى يفتحوا الأندلس .

والحق أن هذه رواية مختلقة لاسناد لها .

والغريب أن المصادر الأوروبية مجمعة على أن الأسبان الثائرين على مليكهم الفاسق هم الذين استنجدوا بالمسلمين ، وقدموا لهم العون ، وأغروهم بفتح «الأندلس» وإنقاذ شعبه المقهور !!

لماذا لا نستوعب كل مايقال فننصف أنفسنا ورسالتنا ؟

ولماذا لانزال ندرس سقوط بغداد على أنه غارة تتارية بدل أن نتدبر الروايات الأوروبية التى تؤكد أنه حَمْلة «مغولية صليبية» شارك فيها الفاتيكان مشاركة فعالة ؟

إن جهود المؤرخين المسلمين قاصرة ، ونشاطهم مشلول ، والغارة على الإسلام فى هذا العصر لانجد من يسجل أنباءها ، مع كثرة هذه الأنباء ومرارتها واتساع جَبَهاتها وإنه

مما تسوَدُّ له الوجوه أن يهلك الألوف من المسلمين جوعا ومرضا ، بينما تبحث ألوف أخرى عن الاستجمام والراحة لأنها لاتدرى شيئا عما يقع لإخوانهم . .

أناشد أيقاظ المسلمين أن يسدّوا هذا النقص .

إن أنباء كالحة تجيء عن مسلمى الهند الذين قهرهم الهندوس ، وكما هدمت مئات المساجد فى مدن البوسنة وقراها هدمت أمثالها فى أرجاء الهند ، إن الغارة على الإسلام تشعبت وغارت جراحها والمسلمون الآن يُناوَشون شرقاً وغرباً ، وضعف المقاومة يعنى الموت . .

فليكن هذا الكتاب صيحة لها مابعدها ، ولتتجاوب النداءات من كل مكان حتى تصحو الجماهير الغافية : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ .[1]

* * *

(١) هود : ١٢٣ .

فتـــن

لا يزال جهاز المناعة فى كيان الأمة الإسلامية يؤدى وظيفته ، ويحمى هذه الأمة من الأزمات والفتن التى يبثها أعداؤها ، ومن الخطأ أن تحسب شموع الإسلام قد انطفأت كلها وأن الظلام يهدد مستقبله ، وأن أمة أخرى ورسالة أخرى موشكة على الظهور! . كلا ، ليس بعد رسالتنا رسالة ، ولا بعد أمتنا أمة ولاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، وكتابنا باق إلى يوم البعث ، وسنقول للمجرمين الذين حاربونا : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ .(١)

وقد وعد الله «عيسى بن مريم» بأنه نازل لتوكيد عقيدة التوحيد ، وأنه لن يجىء لغير هذا الهدف الذى قرره فى حياته الأولى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .(٢)

والقول بأنه سوف يبيد الملايين من الناس فى معركة «هرمجدتون» تمهيدا لقيام مملكته قول مستنكر . .

إن المسيح إذا نزل الآن فسيدافع عن المسلمين فى «البوسنة» و«الهرسك» وسيدافع عن المضطهدين فى كل مكان ، وسيحفّ به المسلمون فهم أولى الناس به . قال تعالى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .(٣)

ومزاعم الإنجيليين « البروتستانت » أن قيام إسرائيل الكبرى شرط لنزوله خيال مريض ، بل هو نوع من التضليل الصهيونى الذى وقع المساكين فى حبائله ، والنبوءات

---

(١) الروم : ٥٦ .

(٢) آل عمران : ٥١ .

(٣) آل عمران : ٥٥ .

التى عندنا - وهى أصدق مما اختلقوه - أن اليهود يحفرون فى فلسطين مقابرهم ويخطّون مصارعهم ، ولن تقوم بإذن الله إسرائيل الكبرى ولن تبقى إسرائيل الصغرى ، وإن غداً لناظره قريب .

أعرف أن الخلافة الإسلامية سقطت من سبعين سنة ، وأن الجامعة الإسلامية تعرضت للتذويب والمحو ، وأن النزعات القومية تعمل بدأب على استبعاد التشريع الإسلامى والتربية الدينية ، وأن محنا شديدة تمر بالمسلمين المعاصرين . .

ولكن شيئا من ذلك لن يفتّ فى عضدنا ولن يقذف باليأس فى قلوبنا ، فقد مرت بنا عَبْر تاريخنا الطويل محن أقسى وظلمات أشدّ ، ثم نجونا واستأنفنا المسير!

والذى أريد تذكير إخواننا به فى المشارق والمغارب أن وعد الله لنا بالتمكين مشروط بشىء واحد ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾[1]

وقد أردف ذلك بما يربط على قلوب المؤمنين : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .[2]

إن الصهاينة من المسيحيين يخونون دينهم عندما ينضمون إلى اليهود فى حربنا ، وسواء كانوا رؤساء أو مرءوسين فإن مصيرهم كالح : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .[3]

* * *

(١) النور : ٥٥ .

(٢) النور : ٥٧ .

(٣) الشعراء : ٢٢٧ .

دليل الإقناع

بعض الناس قد يستريح إلى عقيدة مّا أومنهج مّا ثم يمضى فى طريقه لايلوى على شيء . .! لعله يؤثر الصمت أويكره الجدال أوييأس من إقناع الآخرين بصحة ماعنده وبطلان ماعندهم . .

وهذا الصنف قليل فى الدنيا ، أو كان يمكن أن تتسع له الحياة قديما فيحيا وحده ويموت وحده !

أما فى عصرنا فإن العلاقات العامة فرضت نفسها على الناس ، فما يستطيع أحد أن يعيش فريدا . .

كان المثل المضروب قديما (**السلطانُ من لايعرف السلطانَ**) أما الآن فهذا متعذر فإن من لايعرف السلطان سيسعى السلطان إلى معرفته وفرض نفسه عليه . . !!

إن الحكم الآن صنع شبكة من العلاقات المادية والأدبية تمنع أى فرد من أن يعيش فى قوقعة ومعنى ذلك أنه لابد من الحوار والأخذ والرد وعرض وجهات النظر والاعتماد على الدليل فى الإقناع والاقتناع وإعطاء الرأى المعارض حق الحياة مادام مصحوبا بالإخلاص والتجرد . ويضيف الإسلام إلى ذلك دفع السيئة بالحسنة : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ .[1]

وترك اللجاجة تأخذ مجراها حتى يبتّ فى مصيرها القدر فماذا تفعل لأناس يقولون لله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .[2]

وأنا أحترم حرية الرأى إلى أبعد حد ولكنى أكره الغباء والافتراء ومساندة الدعوى بالعصا واستغلاق العقل بحيث تعجز كل مفاتيح الحقيقة عن فتحه ! إن المكابرة رذيلة بغيضة ! !

(١) المؤمنون : ٩٦ .

(٢) الأنفال : ٣٢ .

وقد وجه الإسلام من أول تاريخه بمجادلين طوال الأنفاس يرفضون الله الواحد ويستريحون إلى أوثان متعددة ، يأنف أحدهم من السجود لقيوم السماوات والأرض ويذل أمام حجر أصمّ

وقد استعرضت سورة غافر أحوال هؤلاء المجادلين الذين كذبوا بالكتاب كان آخرها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ . (١)

إن ردّ القرآن الكريم ليس تكذيبا له وحده ، إنه تكذيب لكل وحى نزل ، إنه تكذيب لموسى وعيسى ومحمد . .

وقد نظرت إلى المتدينيين فى الغرب فإذا هم غثاء فى تيار الحضارة الحديثة ، يكرهون الإسلام لأن آباءهم كرهوه ، فهل آمنوا بموسى وعيسى؟

وهل استعدّوا بشىء للقاء الله ؟

كلا إنهم جزء من الحضارة التى تعبد اليوم الحاضر وتكره اليوم الآخر .

إن أقطار الغرب استباحت الشهوات والمظالم ، واحتفت بالجنس الأبيض وتجهمت لسائر الأجناس .

وما أنكر أن المسلمين فرطوا فى تراثهم وخانوا رسالتهم ولكن ذلك لايمنع من التنبيه إلى الهاوية التى تجرنا إليها حضارة أضاعت الصلاة واتبعت الشهوات .

* * *

---

(١) غافر : ٦٩ ، ٧٠ .

عواء الإلحاد

أَتَسمَّع أنباء القتال فى البوسنة ، وأتابع مصارع المسلمين على أرضها ثم أنثنى على كبدى من خشية أن تصدعا كما يقول الشاعر! من ثلاثين شهرا والحرب دائرة هناك والمسلمون تحت الضغط الهائل يتراجعون شبرا شبرا وفوق كل شبر قتيل طُلَّ دمه ورخص ثمنه !!

والعالم كله يمنع السلاح عن المسلمين ، روسيا وحلفاؤها ، والأوروبيون جميعا ، وأمريكا التى اكتفت بالكلام الحماسى والتلويح باليد عن بعد! ويسمع الناس مذهولين أن حلف الأطلسى عجز عن مواجهة العصابات الصربية ، وأن ممثلى هيئة الأمم ينصحونها بالفرار !! أعنى ينصحون الهيئة الموقرة ، وأن مواثيق حقوق الإنسان وضعت على الرف . .

وأنظر إلى المسلمين حولى فأرى أناسا يذوقون لباس الجوع والخوف ، ويتحركون على الأرض كأنهم سكارى ولايدرون ما يصنعون !!

وسمعت إذاعة لندن تقول إن الصربيين يقاتلون بمهارة ويتقدمون بشجاعة ، وأنهم سوف يطلقون سراح بعض الأسرى من جنود هيئة الأمم !!

قلت : لماذا لايقاتلون بشجاعة والطائرات تحميهم من فوق والدبابات من تحت والمدافع البعيدة المدى تمهد لهم الطريق ، أما المسلمون فهم يقاومون بالبنادق أوبالسلاح الأبيض ويسكتون بطونهم بلقيمات لاتسدّ جوعا ، إننا فى بلادنا - والبرد خفيف - نتقيه بشتى الأغطية أما هم - ودرجة الحرارة عندهم تحت الصفر - فما يجدون دِفْئا إلا من فضلات المتصدقين !

إننى فى هذه الأيام العجاف أتذكر الهاربين من التتار عندما سقطت بغداد ، والهاربين من الصليبيين عندما سقطت غرناطة ، الجراح الجديدة تنكأ الجراح القديمة وتبعثنى على التساؤل : ما سرّ هذه النكبات بين الحين والحين ؟

والجواب : نحن السبب كما قال الله لنا عندما هُزمنا فى أحد : ﴿ أو لمَّا أصابتكم مُصيبةٌ قدْ أصبْتم مثْليها قُلْتمْ أنَّىٰ هذا قُلْ هُو منْ عند أنفُسكُمْ ﴾ .[1]

لقد أمرنا الله بالعدل فلماذا نتظالم .

وأمرنا بالإحسان فلماذا نسىء .

وأمرنا بالوحدة فلماذا نتفرق .

وأمرنا أن نتحاكم إلى كتابه فلماذا نتحاكم إلى الطاغوت؟؟

هل جرّب المسلمون أن يصطلحوا مع الله ويقيموا شرائعه وشعائره ؟

إننى أسمع عواء لدعاة الإلحاد فى عواصم إسلامية كثيرة ، عواء يرتفع دون وجل أوخجل ، إننى أرى سباقا مجنونا لإرضاء اليهود ومَنْ وراءهم على حساب الأرض والعرض ، إننى أرى دولا علمانية وشعوبها مسلمة تقول للحكومات الأوروبية : ساعدونا لنبقى علمانيين ونحول بين الأجيال الجديدة والعودة إلى الإسلام !

إن الإسلام يخان فى أقطار كثيرة والقاعدة التى درسناها فى كتابنا :

﴿ إن ينصُرْكُمُ اللَّهُ فلا غالب لكُمْ وإن يخْذُلْكُمْ فمن ذا الَّذي ينصُرُكُم من بعده ﴾ .[2]

* * *

---

(١) آل عمران : ١٦٥ .

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

حميّة للإلحاد

يعرف المسلمون «أذربيجان» منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فقد وصل الإسلام إليها واستقر فيها قبل أن يطويها المدّ الشيوعى فى فيضانه النجس فيحرج عقيدة التوحيد ، ويرجح كفة الكفر والفسوق والعصيان .

وقد ساءنى أن ينهزم الجيش الإسلامى أمام الأرمن ، ويبدأ السكان فى الفرار! وتساءلت ما سر هذه الهزيمة المباغتة ؟

فعلمت أن أسلحة ثقيلة ومتطوعين كثيرين وفدوا من روسيا يشدّون أزر الأرمن ويقوُّون حملتهم لأنهم - وبقايا الشيوعية فى دمهم - يكرهون أن ينتصر الإسلام ويعز أهله . .

ولست أدرى ما المستقبل؟ فإن ما يقع الآن فى أذربيجان سبق أن وقع أنكى منه فى البوسنة والهرسك ، فدحر الأهلون وهدمت مساجدهم !

ولم تنكمش ظلال المحنة بعد ، بل الذى أراه أن الإسلام يضرب فى كل مكان ويحرج فى أكثر من ميدان ، فالذين طردوا من «بورما» لم يعودوا ، وهم الآن لاجئون مثل إخوانهم فى فلسطين ، ومسجد بابرى فى الهند لم يهدم وحده ، وإنما هدمت معه مساجد كثيرة ، ومسلمو الفلبين يعيشون فى وجل مخافة أن ينفجر بين لحظة وأخرى بركان التعصب الصليبى فيخوضوا حربا لاتعرف نهايتها . . !

لقد لاحظت أن العلمانيين داخل العالم الإسلامى ووراءه يحرضون أتباع الأديان الأخرى على الإسلام ، ويختلقون لهم الأعذار ، وربما نسبوا إلى المسلمين عدوانا لم يعرفه اليهود ولا النصارى ، وليس ذلك حبا للكنيسة ولكنه كره للمسجد . . !

وفى تتبعى للمعارك الأدبية والاجتماعية وجدت العلمانيين - وجمهرتهم من الشيوعيين المنافقين أوالصرحاء - يتنادون بين الحين والحين لضرب الإسلام فى هذه

المعركة أوتلك ، وينصر بعضهم بعضا إذا وجده مُحرجا ، بل قد ينصره لغير سبب حَميَّة للواء الإلحاد الذين يجتمعون تحته !

وقد رأيت أخيرا مظاهرة لهم اشترك فيها عشرات من الأساتذة ردًّا على ضيرْ توهموا نزوله بواحد منهم !!

إن ذلك يجعلنى ألفت نظر الإسلاميين إلى المستقبل القريب والبعيد لديننا المثخن بالجراح ، إن خيرا لهم أن يتقاربوا وأن يلمّوا شملهم فإن النذر المقبلة تؤذن بشر مستطير ، إن أعداء الإسلام طامعون فى القضاء عليه ، وحاضرنا ملىء بالخسائر فإذا لم نتلاق على كلمة سواء تلاقى أعداؤنا على رفاتنا .

* * *

من ذكريات حرب رمضان

انتظرت أن يكتب غيرى فى هذا الموضوع ولكنى وجدت الصمت ممتدا فقلت ما بدَّ من الكلام عن نشاط الدعاة المسلمين بين الضباط والجنود قبل معركة العاشر من رمضان . .

كان الشيخ حافظ سلامة يجيئنى صباح الخميس من كل أسبوع ليقول لى نريد نحو عشرين من الأئمة والوعاظ يتوزعون على الجبهة ليلقوا الدروس الدينية فى المساء ويخطبوا الجمعة ويرفعوا الروح المعنوية! ويتعاون الأزهر والأوقاف على اختيار العدد المطلوب ، وتنقلنا السيارات إلى السويس ويدلنا الشيخ حافظ على أماكن عملنا فنذهب إليها لننفخ روح القوة والأمل ونروى فصولا من السيرة النبوية وفتوح الخلفاء ومقاتلة الصليبيين على امتداد قرنين ، ويتحول السمر الدينى بالليل والدرس الحماسىّ بالنهار إلى تيار كهربىّ متصل فما نترك الفرق المعسكرة على ضفاف القناة إلا وهى ترجو الشهادة وتنتظر اليوم الموعود !

ولم يكن ذلك جهدا سهلا فإن هزائمنا السابقة تركت فى النفوس رواسب مقلقة . كيف انتصر اليهود سنة ١٩٦٧؟ وكيف استطاعوا خلال ساعات أن يوجهوا إلينا ضربة قاضية ؟

إن قيادتنا كانت فى غيبوبة! ما أعدت للحرب عُدّه ، وما وضعت لها خطة ففوجئنا بأن الجيش الذى هزم أوروبا فى «حطين» وهزم آسيا فى «عين جالوت» وشتت شمل الصليبيين والتتار فى معركتين هائلتين فوجئنا بأن هذا الجيش يحاط به وينال منه وهو فى الحقيقة مظلوم .

ما أشبه جمال عبدالناصر بصدام حسين هذا ذهب بجيشه لاحتلال الكويت وهذا ذهب لاحتلال اليمن !!

ما لكما ولليمن والكويت ، ولماذا تركتما فلسطين نهبا لليهود ؟

ولما دارت الحرب لم نر للرجلين خططا مدروسة ، فلم يكن بد من الهزائم الموجعة .

كنا نرى إخواننا على ضفاف القناة مقطبى الجبين كاسفى البال غضابا لما حلّ ببلادهم وسمعتهم ولكن الإيمان صانع العجائب والاتصال بالدين فعل بنفوسهم فعل السحر فكانوا يتحركون وفى صدورهم شحنات من اليقين المضغوط حوّلهم إلى جنّ عندما بدأت المعركة فهم يدوسون خط بارليف ببأس شديد ويجرون فوق الجدار الرملى كأنهم مدعوون إلى حفل ويهبطون بالردى على خصومهم فيملؤونهم رعبا وقنوطا .

ويعلم الجنود أن الإفطار فى رمضان جائز لهم ، ولكن بعضهم أبى أن يفطر وقال : لعلى فطورى يكون فى الجنة !

وكانت الجبهة الممتدة على أربعين ميلا تدوى بالتكبير وتقذف بالرهبة فى قلوب العدو فما يرى أمامه إلا الاستسلام أوالموت . كان نداء الله أكبر قد ألغى! ثم فرضته طبيعة الإيمان فى شعبنا المؤمن .

إن أعداء الله ورسوله كثيرون . ومنهم من يكره كلمة الله أكبر أشد الكره ، وهؤلاء من وراء الانهيار الملحوظ فى الجبهة العربية اليوم ، الجبهة التى لا تبالى بالمسجد الأقصى ولا بمصير ملايين اللاجئين .

* * *

ثبات عميق

مسجد «بابرى» بشمال الهند ظل أربعة قرون مثابة للمسلمين يقيمون فيه الشعائر ويتقربون إلى الله الواحد لايشعرون بقلق ولا ريبة ، ولكن الاستعمار الانجليزى للهند غير الأوضاع وخطّ للأمور مجرى آخر إذ جعل «الهندوس» حكاما للبلاد وأبعد المسلمين عن مناصب القيادة وأحيى النزعة القومية وزعم - باسمها - أن المسلمين - وكانوا ثلث السكان - لايجوز أن يحكموا البلاد كما كانوا أيام الفتح!! وبهذه الخطة الانجليزية حكم الوثنيون الهند ، وكانوا كثرة ساحقة ووجدوا الفرصة سانحة لإنزال الإسلام عن مكانته وتحويل المسلمين إلى رعيَّة مسحوقة . .

وانتهى الصراع بين الفريقين إلى مانعلم ، فقد قامت باكستان الكبرى ثم انقسمت بعد إلى دولتين!! وحمل المسلمون الباقون فى الهند عبء الأوضاع الجديدة وهم يبلغون ١٥٠ مليونا وإن زعمت الإحصاءات المزوّرة أنهم دون ذلك . . لكنهم مع هذه الكثرة تائهون وسط أكثر من ستمائة مليون وثنى لايزالون يعبدون الأصنام ولكن أوروبا تدعمهم ماديا وأدبيا حتى لتوشك الهند أن تتحول إلى دولة كبرى . .

ومحاربة الإسلام ، وقهر أتباعه وتمويت شعائره شىء محبب للغرب والشرق معا ، وقد كانت هناك فلسفة علمانية تحكم البلاد ، وتكفكف غلواء الوثنية الحالمة ، لكن يبدو أن كفَّة العلمانية خفَّت ، وأن حزبا آخر يعتمد على الهندوكية يوشك أن يأخذ الزمام . .

ورئيس هذا الحزب هو الذى أصدر الأمر بهدم المسجد التاريخى كى يبنى المتعصبون على أنقاضه معبدا للإله «رام» !! وقد أحْضَر الهادمون تمثال الإله «رام» هذا كى يضعوه فى ساحة المسجد الذاهب !!

والمضحك أن جند الحكومة المركزية لما جاءوا لإجلاء الهاجمين على المسجد ، ورأوا التمثال سجدوا له ، وإن كانوا نجحوا فى إجلاء الألوف التى هدمت المسجد !

وفداحة المأساة تظهر عندما نعلم أن «أرثوذكس الصرب» هدموا فى البلقان مئات

المساجد ، وأن الأمة الإسلامية تواجه فى شرقها وغربها غارة شعواء تحاول الإطاحة بمعالم الإسلام ، والقضاء على رسالته . .

إننى أناشد المسلمين فى كل شبر من أرض الإسلام أن يصحوا من رقادهم وأن يهبّوا للدفاع عن تراثهم ووجودهم . .

إن العداوات القديمة استيقظت بغتة وهى تحسب أن الظروف تساعد على محونا والإجهاز على ديننا . .

فى كل حارة أوميدان ، فى كل قرية أومدينة ينبغى أن نتلفت حولنا فقد تكون هناك مكيدة مدبَّرة لديننا ونحن لاندرى .

وسوف ينصر الله من ينصره ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ . [١]

* * *

(١) محمد : ٧ .

هل نفيق؟

ما أكثر السهام المُصوَّبة للإسلام فى هذه الأيام! كأن القوى المعادية له وجدت الفرصة مواتية للنيل منه وإصابة مقاتله . .

ونحن لن نصرخ مع هذا البائس اليائس الذى يقول :

فلو كان همٌّ واحد لاتقيته ولكنه همٌّ وثان وثالث . .

بل سنبقى فى مواقف الحراسة عن ديننا وردّ الهجمات الغادرة التى يتعرض لها ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . [1]

راقبت الضحايا فى القتال الذى يدور فى يوغوسلافيا فإذا هم بين الكروات والصرب عشرات ، لأن الكروات كاثوليك يؤيدهم البابا ودول أخرى . .

أما القتال بين المسلمين والصرب فالقتلى مئات ، وقد يصلون إلى الآلاف لأن المسلمين ليس لهم ظهير يفزع لهم ويدفع عنهم !!

ومن قبل فرَّ مئات الألوف من مساكنهم فى بورما وقتل الآلاف دون أن يؤدب المجرمون أويشعروا بخوف مما اقترفوا . .

قال لى صديق : وما العمل الذى كنت تقترحه لقمع الوثنية البوذية فى بورما ؟ وشلٍّ يدها عن إيذاء إخواننا ؟

قلت : التناصر عنصر أصيل فى الأخوة الإسلامية ، ولو تحرك البنغاليون والباكستانيون مُلَوِّحين بالقوة العسكرية لتراجع المعتدون وجنبوا ، ولو وقع ذلك لكان لزاما على الدول الإسلامية كلها أن تساعد بنجلاديش وباكستان وتشد أزرهما حتى يثوب البوذيون إلى رشدهم ويأمن المسلمون فى مواطنهم . .

---

(١) إبراهيم : ١٢ .

إن فقدان روح التناصر يرجع إلى ضعف الأخوة العامة ، وضعف هذه الأخوة يعود إلى أن الإيمان مريض ، والصلة بالله واهية !!

وربما لا يحتاج الأمر إلى قتال أوتلويح به ومع ذلك ندع ديننا يخذل فى قضايا قد تكون محدودة ولكن دلالتها صارخة .

خذ مثلا ما وقع أخيرا فى «إريتريا» إن المعهد الإسلامى فى العاصمة «أسمرة» تحوَّل إلى مدرسة مدنية عادية! وقد كان هذا المعهد تابعا للأزهر ، ودرَّس به نفر من كبار علمائه ، وإلى جواره مسجد شامخ . . فما معنى محو الصبغة الإسلامية له ؟

ولماذا تفعل ذلك الثورة الساعية إلى استقلال إريتريا ؟

هل محو الصبغة الإسلامية عن التراب الوطنى شرط هذا الاستقلال؟ ومسلمو إريتريا تسعة أعشار السكان ؟

إن هيلاسلاسى تمثال الحقد الصليبى فى القارة السوداء ، لم يفعل ذلك فكيف يتجرأ عليه الثوار الجدد ؟

والغريب أن هيئة الأمم المتحدة لا تستضعف إلا المسلمين فى تنفيذ مقرراتها ، فإن إسرائيل كما يعرف القاصى والدانى رفضت الخضوع لهذه القرارات ، وأقامت مؤسسات ذرية تحت سمع العالم وبصره ، ومع ذلك تعامل برقة شديدة ، وعطف بالغ ويقال علانية : إن قواها – وهى مفردة – يجب أن تساوى قوى العرب مجتمعين . .!! أوتزيد . .

ما أرخص الدم الإسلامىّ فى هذه الأرض! وظاهر أن القصعة لا تزال حافلة بالطعام وأن الآكلين يعزمون على ضيوف جدد كى يشاركوهم فى الأكل!! ترى هل نفيق !!

* * *

المد الإسلامى

ابتلى الإسلام فى القرن الأخير بثلاث مصائب كبرى : أولاها نجاح الاستعمار العالمى فى إلغاء الشريعة الإسلامية وإبعادها عن القضاء واستبدال الأحكام الأوروبية بها .

وثانيتها إقامة دولة لليهود على أنقاض العرب ، وتقليب الأمور فى الأقطار المجاورة حتى يُعترف بهذه الدولة وتنشأ مجتمعات تتعاون معها سياسيا واقتصاديا . .!!

وثالثة المصائب النشاط العالمى والمحلى لضرب التيارات الإسلامية المتشبثة ببقايا الإسلام المقيمة لشعائره الظاهرة الحنين لآدابه ومعالمه !

فقد ظهر أن العالم الإسلامى لايزال يؤثر العفاف على الرذيلة والاحتشام على التكشف والتقوى على الانحلال ، ولايزال يأوى إلى ظل الأسرة ويرفض التسوّل الجنسىّ ويحترم الحجاب ويحتقر الشذوذ ، والأجهزة الراصدة للنشاط الدينى عندنا أثبتت أن مقيمى الصلاة يزيدون ولا ينقصون ، وكذلك صوام رمضان وطالبو الحج . . وإذا ترك المسلمون على هذه الحال فقد يستردون ما فقدوا ، وتعلو راية الإسلام مرة أخرى!! فما العمل ؟

يجب أن تنشط الحرب ضد الإسلام ، وأن تكون وسائل القضاء عليه أمكر وأدهى!

إن المسلمين زادوا زيادة ملحوظة فى السنين الأخيرة فلتقف هذه الزيادة فورا . .

فإن آثارها غير مأمونة وكما قررت هيئة الأمم إقامة إسرائيل من خمسين سنة ، فلتقرر الهيئة تحديد النسل الآن ولتمنع ما يسمَّى بالانفجار السكانى ولتضع من وسائل الترغيب والترهيب ما يقلِّص أعداد هذه الأمة المتنامية !

وقد قرأت وأنا دهش كيف طلبت الهيئة الموقرة (!) منع الزواج المبكر فى حين أن الدول العظمى أقرت الشذوذ المبكر ، ومنذ شهور أباح مجلس العموم البريطانى اللواط إلى سن الثامنة عشرة! أما الزواج المبكر فهو مكروه .

وقد استغربت وضع العوائق أمام الطالبات اللائى يرغبن فى الحجاب ، فهل وُضع عائقٌ أمام راقصة تتلوى أمام الجمهور كالحية الرقطاء تستفزّ الغرائز الهاجعة ، وتثير الرغبات الحرام ؟

إننى أتوقع قرارات رسمية وحملات دعائية ومؤامرات استعمارية لضرب الإسلام فى مقاتله وفضّ الجموع التى تحنّ إليه وتريد إعادته دينا ودولة وعقيدة وشريعة ، وأناشد أمتنا أن تواجه الغارة عليها بالمقاومة الصادقة واليقظة العارمة .

* * *

الشخصية الإسلامية

الشخصية الإسلامية مُهدَّدة فى هذه الأيام تهديدا محرجا لا فى المعالم التى تمحوها عوامل التعرية بل فيما هو أخطر من ذلك وأدهى! فى كيانها نفسه . .

فإن التطبيع الاسرائيلى والامتداد الفرنكفونى يتسابقان جميعا لزحزحتنا عن ديننا والإتيان على تراثنا . .

عندما قررت الحكومة الفرنسية منع الحجاب فى مدارسها كان القرار نفسه قد صدر فى بلاد إسلامية أخرى فمنعت الطالبات ، بل منعت الموظفات والممرضات من ارتداء الحجاب ، والمقصود بداهة إكراه المسلمات على التفريط فى الإسلام ، وكان ذلك من بضع سنين ، وجاءتنى شكاوى كثيرة - وأنا فى الجزائر - من هذا التصرف الشرير الذى وقع فى بلاد مجاورة .

ثم شاء الله أن يحكم القضاء الفرنسى ببطلان القرار الوزارى لأنه ضد حقوق الإنسان !

ولكن التعصب عاد هذا العام يرفض التحجب بوصفه من رموز الإسلام ، والغريب أن مصر سارعت إلى تنفيذ هذا القرار الفرنسى بوصفها من الدول الفرنكفونية فيما يظهر !!

ومعروف أن فرنسا من أشد الدول ضغينة على الإسلام وتعاليمه وتاريخه ، وهى تحارب الثقافة الإسلامية كما تحارب الشارات الإسلامية استئنافا لمهمة ابنها البار «بطرس» الناسك ، واستهانة بحلفائها المسلمين الذين يظلهم علم الفرنكفونية الجليل!!

أما التطبيع اليهودى فله شأن آخر ، يجب قبول الأمر الواقع فى احتلال القدس وأغلب فلسطين ، والرضا بذلك سرا وعلنا ، فبعد الصلح الواجب مع إسرائيل ينسى المسلمون أنهم كانت لهم هنا دولة ، وأن أهلها هربوا ولن يعودوا ، ولايجوز التفكير فى إعادتهم ، ويجب أن يدرس تاريخ اليهود القديم والحديث دراسة أخرى يتوفر فيها الاحترام لليهود وأخلاقهم وأعمالهم وخبراتهم !

لكن ما العمل إذا كان القرآن نفسه قد صوّر مآسى بنى إسرائيل وتحالفهم مع عبدة الأوثان ضده ؟

الخطب سهل ينسى المسلمون هذا القرآن ، أويتجاوزون عند تلاوته الصفحات التى يضيق بها اليهود! لماذا يكررون قوله تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ . [1]

ليقرأوا غير ذلك! ولا داعى لدراسة خيبر وبنى النضير وغيرهما !

إن تطبيع العلاقات يوجب تغيير التاريخ . .

وعلى دعاة الهزيمة والراضين بها تغيير الشخصية الإسلامية ، بل عليهم التنازل عن دينهم كله جملة وتفصيلا ، حتى يرضى اليهود . .

* * *

(١) المائدة : ٧٨ .

سماسرة الكفر

الاستعمار الثقافى أحرز انتصارات واسعة فى العالم العربى وتكونت له عصابة من الكتاب ذوى القلوب الخربة تخدم أغراضه وتزين مقابحه وتحارب من حارب وتسالم من سالم ، وأعضاء هذه العصابة من الصنف الذى قال الله فيه : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ . (1)

وقد تأملت فى سيرتهم فرأيتهم يكرهون الله كرها شديدا ويشمئزّون من وحيه ويهشون لكل هجوم عليه ويصرون على تمويت شرائعه وتشجيع كل خارج عليها فى الشرق أو فى الغرب ، ولو علموا بأن على سطح المريخ ملحدا لأرسلوا إليه يؤيدونه .

إننى أعرف أن بالأرض كفارا وأن بها مؤمنين وأن بها دعاة للخير ودعاة للشر ولكنى لم أعرف سمسرة للكفر أضرى من هذه السمسرة .

إنهم إذا وجدوا رجلا تاب سارعوا إليه يقولون : كنت عاقلا فما دهاك ؟

وإذا وجدوا أحدا شتم محمدا سارعوا إلى كتاباته ينشرونها ويثنون عليها ، وقد ضلت أخيرا امرأة من البنغال واحتضنها الغرب الصليبى على عجل وطار إليها أولئك الكتاب العرب يشجعونها وينقلون هذرها إلينا بلا حياء وكأنهم يقولون لأهل مصر : تعلموا من هذه العبقرية .

واستغربت من استماتة هذه العصابة الحقود . فى نشر رواية «أولاد حارتنا» برغم أنف صاحبها !

لقد قرأت ماكتبه نجيب محفوظ فى السنوات الأخيرة ، كانت كتابات واعية لعقل مجرب يبغى الخير لأمته ، فإذا نفر من سماسرة الكفر يعلنون بأنهم سينشرون الرواية التى صدرت من خمس وثلاثين سنة ، وقال لهم مؤلفها : إن الجو غير ملائم !

(1) الأعراف : ١٤٦ .

وقالوا هم نريد نشرها! يظنون بذلك أنهم يكيدون للإسلام وينالون من سلطانه الروحى على الجماهير !

والعيب الأكبر ليس فى هؤلاء المارقين ، إنه فى من مكّن لهم وأكره الناس على قراءتهم وأعطاهم صدور الصحف السيارة يملأونها بالغثاء ويُنفِّسون عن ضغائنهم ضد الإسلام وأمته !

فى لقاء عام قابلت واحدا من هذه العصابة فرأيت فى جيده قلادة من ذهب ، فلم أستغرب أن يستنوق من الجمل ، لقد ألفت رؤية هذه النوق ، وإنما استغربت أن تلقى الأمة زمامها لهذا الصنف الملتاث الذى لا يُرى أبدا فى مسجد وقد يُرى فى إحدى الحانات يشرب الإثم ويستعد لكتابة مقال يفسد به الأجيال الجديدة ، ويُجرِّئها على ترك الإسلام بعضه اليوم وكله غدا .

* * *

مفسدو الأوضاع

عاصرت فى شبابى نهضة أدبية عارمة فى ميدانى الشعر والنثر جاءت بعد قرون مجدبة كما يجىء الغيث بعد قحط طويل ، كان هناك شوقى وحافظ والجارم ومطران ومحرم وعبدالمطلب ، وقد تركوا دواوين أغنت العروبة ورفعت قدرها . كما كان هناك العقاد والرافعى وأحمد أمين وزكى مبارك وطه حسين وأحمد حسن الزيات ومواريثهم الأدبية تزحم المكتبات وتغذى العقل والعاطفة ، وقد كتبوا فى الدين والتاريخ والسياسة والفن وثمرات أقلامهم باقية على الزمن ، وجمهرتهم ساندت شعبنا المكافح ، ولم تعرف الملق والارتزاق ، وقد خرج العقاد من السجن الذى دخله متهما بمحاربة الاستعمار وكان أول ما فعله بعد تحرره أن ذهب إلى بيت سعد زغلول زعيم الأحرار ليقول هناك :

عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما ... سيعهدنى كل كما كان يعهد!!

الغريب أن هؤلاء الرجال القمم لم يصف أحد منهم نفسه بأنه مبدع! ولم يصف زملاءه بأنهم عصابة الإبداع !

وذهب عصر الرجال ، وجاء عصر العيال ، فإذا الذى يعرق فى تركيب جملة يسمى فارس الكلمة !

وإذا الذى يعلن الحرب على علماء اللغة حين يلقى خطبة يُسمى رجل المنابر!

وأصحاب هذا الهراء يقولون عن أنفسهم : إن المبدع لا يحاسب أو لا يساءل عن قصده حين يكتب سطرا !!

والمجال المختار لهذا الإبداع المتطاول هو الإلحاد ، وإنكار الشريعة ونشر الإباحة والفوضى الجنسية على نحو ما قال نزار قبانى لفتاة أحلامه : «أحاول سيدتى أن أحبك خارج كل الطقوس ، وخارج كل النصوص ، وخارج كل الشرائع والأنظمة . . إلخ » .

ما لهذه الشيوعية الدنسة وللشرائع والأنظمة ؟

لقد رأيت شيوعيى العصر الماضى يختارون العلمانية عنوانا جديدا لهم . ثم يهاجمون الإسلام بكل ما يقع فى أيديهم من أسلحة ، وقد استغربت عندما قرأت لأحد هؤلاء : « . . لقد خذلنا نجيب محفوظ ، منع نفسه من التداول وحبس «أولاد حارتنا» عن النشر ووضع ضميره فى سجن الخوف» .

ثم يقول : « . . نجيب محفوظ الذى خرج على القانون مبدعا يعود إليه موظفا » !!

أرأيت ماهو الإبداع عند هؤلاء الشيوعيين القدامى ؟

اكفر بالله تكن مبدعا ، حارب التعاليم والحدود الشرعية تكن مبدعا ، اجمع القمامات الفكرية من مواطن الزبالة فى العالم أجمع وارم بها المجتمع الإسلامى تكن مبدعا ، هل عرفت الإبداع فى منطق مفسدى الأوضاع ؟ !

* * *

احتضار اللغة العربية

يساورنى قلق شديد على مستقبل اللغة العربية فإنها إذا ماتت وُضع القرآن الكريم فى المتاحف ، وضاع تراثنا العلمى والأدبى كله .

وقد كان الأزهريون قديما يتكلمون باللغة العربية فى البيوت والشوارع فمازال الغزو الاستعمارى يلاحقهم بالنكت والهزء حتى استعجمت ألسنتهم وتركوا الكلام بالنحو!

وقد رأيت حالة اللغة العربية فى المغرب العربى واجتياح الفرنسية لها بين العامة والخاصة فأدركت إن الإسلام مقبل على كارثة .

وقد نجحت مصر فى مقاومة الاحتلال الانجليزى عندما حاول تدريس العلوم باللغة الانجليزية فقضى سعد زغلول ورفاقه على هذه المحاولة وازدهرت اللغة العربية فى مصر ، وارتقى تدريسها إلى حد بعيد . .

ولكن محاولات القضاء على لغة القرآن تكررت وتصدّى لها أولو الإيمان والغيرة حتى ظننا أننا نجونا فإذا قرار وزارى يصدر فى ١٩٩٤/٦/١٥ ليبدأ تنفيذه هذا العام جاء فيه :

١ ـ تخفض درجة اللغة العربية فى الصف الثانى من الثانوية العام من ٦٠ درجة وبحد أدنى ٣٠ إلى ٢٥ درجة وبدون حد أدنى !

٢ ـ تخفض درجة اللغة العربية فى الصف الثالث من الثانوية العامة من ٦٠ درجة وبحد أدنى ٣٠ إلى ٢٥ درجة وبدون حد أدنى .

ومعنى ذلك خفض درجة الصفين من ١٢٠ درجة وبحد أدنى ٦٠ إلى ٥٠ وبحد أدنى ٢٥ لتتساوى مع اللغة الانجليزية .

وقد تساءلت ما الغرض من دحرجة اللغة العربية على هذا النحو ؟

إننا نشكو من شيوع اللحن وضعف الإعراب بين الكبار والصغار فهل تتخذ الخطوات لتحسين الأداء وضبط القواعد أم توجَّه إلى اللغة المهيضة ضربة أخرى للقضاء عليها . .

إن كثيرين بيننا تنطلق ألسنتهم سيالة باللغات الأجنبية ، فإذا فرضت عليهم الضرورة أن ينطقوا باللغة العربية وجدت لهم بغاما مضحكا ورطانة هابطة !!

لماذا نجهِّل النشء الجديد فى لغتنا ؟

لماذا نشعرهم بأن الرسوخ فيها لا جدوى منه وأن العجز فيها لا ضرر منه ؟

إن فرنسا تعاقب من يخطىء فى لغتها وإن تل أبيب أحيت لغة ميتة فلحساب من نميت لغة حية ؟

ولحساب من يقف أصحاب المناصب المرموقة يتحدثون بالانجليزية فلا يخطئون فإذا حاولوا الكلام بالعربية تلعثموا وطاش صوابهم ، إننا نطلب من المسئولين أن يلغوا هذا القرار قبل فوات الأوان .

* * *

كرامتنا

عقد الأزهر الشريف مؤتمرا حضره ممثلو اثنتين وثلاثين دولة إسلامية لبحث شئون العالم الإسلامى «الديمغرافية» أى أحوال السكان من ناحية المواليد والوفيات، وأحوال المعايش من ناحية الفقر والغنى، وأحوال الموارد المائية والمالية وغير ذلك.

وقد استمعت إلى المتحدثين من الصين إلى السنغال، ولا أعلق الآن على موضوعات البحث ولكن على لغة الأداء!

كان عدد من المتحدثين مقطوع الصلة باللغة العربية خصوصا الوافدين من شبه الجزيرة الهندية ووسط إفريقية، فإن الانجليزية كانت لهم أطوع، وهم فيها أفصح، وشعرت بالأسى لغربة لغتنا بين أبناء الإسلام، ونجاح الأعاجم فى فرض لغاتهم وجعلها لغة التخاطب ولغة العلم..

ثم عدت إلى نفسى وقلت: نحن العرب الذين نحمل مسئولية هذه الهزيمة الثقيلة، فما قمنا بحق القرآن علينا فى نشر لغته وتسويد أدبه وحكمته!!

إن العرب هم سدس المسلمين. والأمة الإسلامية فى آخر إحصاء لها تبلغ مليارا ومئتى مليون مسلم، ومع أن العرب قلة عددية فهم دماغ الإسلام وقلبه وأساس رسالته وحماتها وكان واجبا عليهم أن ينشروا لغة القرآن فى كل موقع بَلَغَهُ الإسلام، ورفع فيه راية التوحيد أى أن عليهم ثلاثة واجبات:

الأول: تعليم الأخلاف لغة الأسلاف فتتصل مواكب العربية الفصحى بين الأجيال المتعاقبة للعرب الأقحاح!

الثانى: تعليم من دخل فى الإسلام مقدارا حسنا من اللغة يعرف به دينه ودنياه دعما للأخوة الإسلامية وإقامة للوحدة الدينية.

أما الواجب **الثالث** فهو نشر لغة القرآن فى أرجاء الأرض تحقيقا لعالمية الرسالة، ووصلا للناس بينابيع الإسلام ليطلع من شاء على تعاليم الدين من أصولها العربية..

وقد قصّر العرب المعاصرون فى هذه الواجبات الثلاثة ، وأرى أن هذا التقصير نذير شؤم وجرثومة بلاء ماحق .

إن خدمة العربية فريضة كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإضاعتها إضاعة القرآن والسنة وأمجاد الإسلام كلها . .

وقد جرح كرامتى أن أرى المرتزقة من أبناء الأجناس الأخرى يجيئون إلى الخليج العربى ليجدوا لهم معايش . فإذا هم ينقلون لغة الاستعمار الذى اجتاح أرضهم ، وبدل أن يتعلموا لغة الناس الذين يعيشون بينهم ومن ثرواتهم يرغمون الآخرين على أن يتحدثوا معهم بالانجليزية أو الفرنسية !!

ما أشقى اللغة العربية بنا ، وما أصبرنا على النار . . إننا نضيع شرائعنا وشعائرنا بهذا التهاون ، ونرخص أنفسنا وتراثنا . . لقد فهمت قول حافظ ابراهيم على لسان اللغة العربية :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى   وناديت قومى فاحتسبت حياتى!!

هل نعيد للغتنا مكانتها وكرامتها فنرضى الله ورسوله ؟

* * *

صيحات طائشة!!

الله قيِّم السماوات والأرض رازق الإنسان والحيوان والطير والحشرات وما نرى ولانرى من خلقه الكبير . وهذا الإنفاق الواسع لا يكلفه شيئا فإن يده المغداق لاتغيض أبدا !!

وعندما خلق الله هذه الأرض - وهى ذرة فى ملكوته الرحب -

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [1]

وكفل لكل حيّ مايكفيه ، إلا أنه بعد ما أعد المائدة قال لعباده : هلمّوا لتطعموا . فمن رفض المجيء وجثم فى مكانه حتى هلك فهو منتحر!

نعم لقد قال الله للناس : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ . [2]

فما يصنع القدر لمن أبى المشى ؟

وما يصنع القدر لمن عجز عن تطويع الأرض لنفسه بعد ما ذُلِّلَتْ له؟

إن هناك مصابين بالكسل النفسى والفكرى والبدنى وبآفات أخرى تُعْجز أصحابَها عن الضرورات بل المرفهات . .

ثم إن نوازع الشر فى البشر عميقة ، لقد اهتدوا إلى تفجير الذرة وكانوا قادرين بطاقتها الرهيبة على تحويل الماء الملح إلى عذب فرات وريّ الصحراء الكبرى وتحويلها إلى حقول وحدائق ، ولكنهم صنعوا من الذرَّة أسلحة الدمار الشامل ، واختزنوا من القنابل ما يدمِّر الأرض عشرات المرات . .

ثم قالوا بعد هذا العمى : إن أقوات الأرض لا تكفى البشر ! !

---

(١) فصلت : ١٠ .

(٢) الملك : ١٥ .

واستمعنا إلى صيحات طائشة تدعو إلى منع النسل أوتحديده فى أضيق نطاق لأن أقوات الأرض لاتكفى الناس! أى أن الله الذى استضاف الناس إلى مائدته لم يعدّ لهم الأكل المطلوب !

وتوجد الآن برامج لإباحة الإجهاض ، وتوجيه الشهوة الحيوانية إلى الشذوذ فإن الشواذ يعاونون على انقراض الإنسانية أوتقليل عددها كما توجد برامج لإباحة المخادنة وتعسير الزواج فإن النسل الكثير الطيب يولد فى أحضان أسر بارك الدين قيامها واستقبل ذرياتها بحفاوة !

إن أناسا كثيرين لم تتنضّر وجوههم بمعرفة الله يتصايحون فى أقطار شتى بتقليل البشر وهم الآن يأخذون أهبتهم للزحف على العالم الإسلامى كى يقنعوه بفلسفتهم المدمرة! وستنعقد لهم مؤتمرات فى البلاد العربية تمتلىء بثرثرة لا آخر لها .

والفقر العربى يمشى على أرض من الذهب ، ولو أحسن أهل وادى النيل زراعة واديهم ومحاسنة ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولاتسعت أرضهم لأضعاف عددهم ولكن أين الرجال ؟ !

* * *

السياحة وسنن الله

أحب الفطرة وأمضى مع منطقها وأكره التصنّع والتمثيل وأصدف عن مشاهدة المسلسلات التمثيلية التى تنشرها وسائل الإعلام ، هذه طبيعتى التى لا ألزم بها أحدا ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ .[1]

ومع ذلك فقد حملت نفسى حملا على مشاهدة تمثيلية «عايدة» التى أقيم لها مسرح كبير فى «الأقصر» وقلت : ينبغى للداعية المسلم أن يعرف ما هنالك إننا يجب أن نعرف الخير والشر حتى نستطيع أن نضع هدايات الله موضعها المناسب . .

وحبست نفسى أمام التلفاز نحو ساعتين ضاعتا سدى لأن الرواية تعرض باللغة الإيطالية ، وأنا وتسعة أعشار المصريين لا نفهم هذه اللغة !

وتساءلت : لم الإعلان الواسع وحشد الجماهير وإنفاق الملايين ؟

فقيل لى : إن نصف المشاهدين أوأكثر قادم من أوروبا ، والعمل كله لخدمة السياحة! والسياحة مورد دافق بالخيرات !

قلت : قبل أن تكون السياحة مورد رزق فهى مصدر معرفة ومثار عبرة ، والعقل الإنسانى يحتاج إلى السياحة فى أرض الله كى يتم نضجه ويتسع أفقه ويعرف ما وقع لمن سبق من الأجيال الأولى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .[2] ومصر حافلة بالآثار الجديرة بالدراسة ، ولها تاريخ ضارب فى القدم يحتاج إلى القراءة والاعتبار !

لكننا لا نحسن إيقاظ البصائر إلى سنن الله فى الأولين والآخرين ، وفريق كبير من البشر يحسب السياحة لمزيد من اللهو والمجون! ويجب ألا ننزلق مع هذا الطيش .

---

(1) البقرة : ١٤٨ .

(2) الحج : ٤٦ .

ورأيى أن إعادة تمثيلية «عايدة» حفّتها أخطاء كثيرة ، فقد جاءت فى وقت محنة كبيرة غمرت عشرات البلاد بالأحزان لفقدان الأهل والمال ، والمرء قد يلعق جراحه إذا كان وحده أومع أمثاله ، أما أن يجاوره طلاّب المتع وعشاق اللهو فإن ذلك يُحفظ صدره ويثير غضبه .

قد يقال إن المال يجمع من هنا وهناك لمواساته وأجيب بأن آلام الفقراء والمنكوبين لا تعالج بما يجمع من أحفال الغناء ومجامع العبث ، هذا تقليد أوروبى سخيف و«أوبرا عايدة» بقية من ميراث الخديوى إسماعيل الذى قال : أريد جعل مصر قطعة من أوروبا .

ومصر لا تكون قطعة من أوروبا بنقل الملاهى والمباذل ، إنما تكون بنقل المصانع والجامعات ، وعندما ننقلها إلى أرضنا فهى بضاعتنا ردّت إلينا !

ماذا كانت أوروبا قبل حضارة الإسلام ؟

* * *

مآرب اللصوص

بعض لصوص العرب الأقدمين كان يسرق ليقوت نفسه ومن يلوذ به من الفقراء ، من هؤلاء العداء الماهر عروة بن الورد الذى كان يغير على أصحاب الأموال ثم يعود من غاراته بغنائم يشبع منها الجياع ويؤوى الضائعين! وكان يقول لامرأته إذا نفد ما عنده :

ذرينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى أفيد غنى فيه لذى الحق محمل!!

كان ذلك فى الجاهلية الأولى ، والشحّ مطاع والزكاة مجحودة ، لا وحى ولا دين فتصرف الناس حسب غرائزهم وميولهم !

وسمعت فى طفولتى قصة تجرى على ألسنة الناس فإن امرأة ضعيفة قتل ابنها مظلوما فماذا تصنع ؟

ذهبت إلى أحد الفتاك تبثه حزنها وتشكو عجزها وتناشده أن يقف إلى جانبها ، فقال لها الشقى الكبير :

سأقتل خصمك لله ، لا آخذ منك شيئا . . !!

قلت : إن المجرمين أحيانا يعدلون !

وتذكرت ما يجرى الآن فى الساحة العالمية من أحداث ، ليس للوحى صوت مسموع ولا للعدل نداء مجاب ، وكلمة الإنسانية غطاء جيد للمآرب والأهواء ، فقد أغار الرفيق صدام حسين على السعودية والكويت وسارعت دول أوروبا لتقديم الغوث المنشود وحشدت الرجال والأموال لتحقيق هذه الغاية النبيلة .

وعلم الله أن « دول الخليج » استضافت الحلفاء القادمين ودفعت لهم عوضا سخيّاً عن كل جهد بذلوه فما خسر أحد شيئا بل إن فرنسا حققت أرباحا من هذه الحرب ، وعندما وضعت الحرب أوزارها خرج الحلفاء منها وخزائنهم عامرة وذكرياتهم سعيدة !

وها هو ذا الرفيق «صدام» يعيد الكرّة ويهدد الجيران .

وتحركت أساطيل الدول الكبرى بحرا وجوا ، وشرع العدّاد يحسب التكاليف ويقدر الثمن المطلوب .

إن قناطير مقنطرة من المال العربى سوف تضيع سدى ، وستنتفخ جيوب الدول الكبرى أما العرب فسيذوق بعضهم بأس بعض ، وينحدرون جميعا إلى البأساء والضراء .

ما هذا الذى يقع ؟

إنه الجزاء الطبيعى لأمة أهداها الله القرآن فرفضت العمل به والانقياد له! إنها فتنة تدع الحليم حيران !

لقد وصف الله المسلمين إذا مكنوا فى الأرض بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهل هم الآن يحققون هذه الغايات ؟

لا غرابة إذا تخلّى القدر عنهم . .

إن الشعوب تدفع ثمنا غاليا لشهوات الاستعلاء عند بعض الرؤساء . .

* * *

أكذوبة يهودية

لا أدرى إلى متى تظل هذه الأكذوبة منتشرة؟ أكذوبة أن اليهود فقدوا ملايين من جنسهم فى المذابح التى أوقعها بهم «هتلر»! إن هذه الأكذوبة كانت من أهم الأسباب فى سكوت العالم على اغتصاب فلسطين وجعلها وطنا قوميا لليهود . ولذلك عمل اليهود على تثبيتها ومطاردة المؤرخين الذين يثبتون زيفها .

وقد ذكرتُ من بضع سنين كيف أهيل التراب على رسالة جامعية فى فرنسا أثبت الكاتب فيها أن اليهود ضاعفوا أعداد ضحاياهم مائة مرة! لينالوا عطف العالم على إسرائيل ويطيلوا عمر الدولة المفتعلة .

واليوم أقرأ خبرا آخر عن حقيقة المأساة اليهودية نشرته إحدى صحف الخليج وأماطت به اللثام عن الأسطورة الشائعة . . تحت عنوان «**وثائق سوفيتية تكذب ادعاءات اليهود حول عدد ضحايا النازية**» .

قالت صحيفة الخليج : – من وارسو – ذكر مسئولون بولنديون ويهود أمس أن وثائق أفرج عنها حديثا أظهرت أن ١,٥ مليون يهودى وبولندى وغجرى ، وروسى وآخرين قتلوا فى معسكر «اشوينز» النازى خلال الحرب العالمية الثانية وليس أربعة ملايين معظمهم يهود كما كان يقال حتى الآن !!

وأوضح «فلاديسلاف بارتوفسكى» عضو مجلس الحوار اليهودى البولندى أن الإحصاء الرسمى الأخير خفض عدد الضحايا استنادا إلى أرشيفات أعادتها السلطات السوفيتية قبل أشهر إلى بولندا . .! وكان البولنديون فى أعقاب الحرب قد أذاعوا أن القتلى أربعة ملايين!! ، بل إن المنظمات اليهودية ذكرت أن ستة ملايين يهودى قتلوا على أيدى النازى » .

ومزاعم اليهود تكاد تتلاقى على أن نصف يهود العالم قد أبيدوا على يد هتلر ، وهذه كلها أكاذيب لا أصل لها ، ولا سناد ، تعمّد اليهود ترويجها تمهيدا لاحتلال فلسطين .

والأوروبيون يعلمون أن اليهود كذبة وأن قتلاهم أقل من قتلى غيرهم ، وأنهم قد يبلغون بضع عشرات من الألوف . .

هلكوا فى جحيم العنصرية التى صارح بها الألمان وخافت بها غيرهم ، وهى عنصرية تبغض العرب أكثر مما تبغض اليهود كما ظهر من سير الأحداث .

إن أوروبا استراحت للهجوم اليهودى على العرب ، وباركت مقدماته وصدقت أسبابه - وهى التى اختلقتها - ولو فرضنا زورا أن قتلى اليهود ملايين فلماذا يجلى عرب فلسطين ليحلّوا محلّهم ؟

ونتساءل : هل العنصرية مرض ألمانى اختصّ به النازيين وحدهم ؟

إن جمهوراً من الفرنسيين يكاد يبلغ نصف السكان ينادى الآن بطرد ثلاثة ملايين من المغاربة أو إرغامهم على ترك دينهم ولغتهم والذوبان فى الجنسية الفرنسية !!

والمستقبل حافل بالنذر ، أليست هذه نازية ؟

وعندما لجأ المسلمون إلى القضاء الإنجليزى لمحاكمة سلمان رشدى على إهاناته لنبى الإسلام ماذا قيل لهم ؟

قيل لهم : إن القانون يحمى العقيدة النصرانية وحدها من التطاول ، أما إهانة الإسلام ونبيه فهى خارج الموضوع !!

أليست هذه عنصرية ؟

وقد بلغت مداها فى احتضان الكاتب الأفاك وترويج كتابه بشتى الأساليب !

إن الغرب منحاز إلى إسرائيل ، كاره للعرب ودينهم ، وهو فى الوقت نفسه حريص ألا يوصم بالعنصرية . . !!

سيل الهزائم

تتعرض وحدة العالم الإسلامى لمزيد من العوائق والمتاعب ، وسنشرح أسباب ذلك هنا لافتا الأنظار .

أولا : إلى الوحدة الألمانية التى تمت أخيرا بين ألمانيا الشرقية والغربية! لقد كان يوم إعلانها عيدا فى البلاد كلها فقد زالت الفوارق المصطنعة وعاد المواطنون الألمان جميعا صفوفا مرصوصة تحت راية واحدة وشيعت ذكريات الفرقة باللعنة والمقت . . !!

وأسأل : هل وقع شىء من ذلك عندما خرجت خمس دول إسلامية من وراء الستار الحديدى لتنضم إلى العالم الإسلامى الكبير ؟

لقد فرح بعض الناس واستبشروا بمستقبل أفضل لإخوان العقيدة ، ولكن جماهير كبيرة كانت تسمع الأنباء وهى فى مكان بعيد ، وكأن الأمر لا يعْنيها! أويعْنيها على المجاز لا على الحقيقة !

ويرجع ذلك إلى أمور ، **أولها** : نجاح السياسات الاستعمارية فى إقامة قوميات مختلفة على الصعيد الإسلامى بلغت سبعين جنسية ، تستظل كل واحدة منها بعلم خاص ، وأبناء الوطن الواحد قد يشعرون بقرابة الإيمان بينهم وبين الآخرين ولكنهم معنيون قبل كل شىء بإخوانهم داخل الحدود التى رسمتها السياسات العالمية ، فالمصرى يهتم بالإسكندرية أكثر مما يهتم «بيافا» والسعودى يهتم «بتبوك» أكثر مما يهتم «بالخليل» ، وقد استقرت الأوضاع العالمية على ذلك ، وارتضينا نحن ماكان . .

أما قول الرسول الكريم «**المسلمون أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**» فأمل لا يعرفه الواقع الأليم ، وعندما نسعى إليه نعتبر خياليين . !

والأمر الثانى : أن بعض الشواذ يسلطون الخلاف فى الرأى على مبدأ الأخوة الجامعة ، فإذا كان يرى لحم الجزور ناقضا للوضوء أو سدل اليدين ناقضا للصلاة طارد مخالفيه فى الرأى وضيق عليهم الخناق ليلحقهم بأهل الملل الأخرى !!

وعندما يغلب هذا السفه فالويل لوحدة الأمة .

وأذكر أن شابا جاءنى يسألنى أن أقترح له اسم كتاب يدرسه فى الفقه ، فذكرت له كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ثم استدركت أسأله ماذا قرأت من كتب الأخلاق؟ فسكت متحيرا !

فقلت له لابد أن تقرأ أولا تعاليم الإسلام فى الصدق والأمانة والوفاء والحياء والرحمة والحب . . إلخ . فلا قيمة لفقه بلا خلق . . !

وهناك **أمر ثالث** : إن الغزو الثقافى يشن غارة شعواء على التقاليد الموحدة للأمة وقد علّمنا أن التاريخ الفرنجى يسبق التاريخ الهجرى ، وأن القانون يسبق الشريعة وأن الرطانات الأعجمية تسبق اللسان الفصيح .

وقد لاحظت أن اليهود حراص على عباداتهم - فى المفاوضات الأخيرة - على حين يتبجح العرب بترك الصلاة والصيام!! ويقولون عن أنفسهم إنهم علمانيون !

لقد برزت فى أيام مشئومة عروبة عريانة عن الإسلام فماذا صنعت بالأمة الواحدة؟

أثارت البربر فى أقطار المغرب وأثارت الأكراد فى العراق ، وأقرت الفواصل بين العرب والترك والهنود والزنوج ، وهزمت الإسلام فى ميادين كثيرة ، وأعانت الأديان الأخرى على الانطلاق وتسنم مراكز الصدارة !!

إن الوحدة الإسلامية تحتاج اليوم قبل الغد إلى أن نراجع أنفسنا وأحوالنا وإلا فسيل الهزائم لن يتوقف !!

* * *

العين الحمئة

موقف الغرب منا يحتاج إلى محاذرة وتوجُّس ، فإن ينابيع حقده على ديننا تفيض ولا تغيض ، ثم هو يضربنا ويشتكى منا! ويعتدى علينا ويتهمنا !

ومن أيام قرأت فى صحيفة الوفد هذا العنوان على امتداد الصفحة الأولى «تصاعد الحملات المعادية للعرب والمسلمين فى أوروبا» !

يقع ذلك فى الوقت الذى نرى فيه المسلمين فى البوسنة مذبوحين ذبح النعاج ومرتَّبين فى صفوف ممتدة طويلة !!

إن مشاعر من الغل الدفين أشرفت على هذه المجزرة ، والبلد محاصر والمآسى لاحصر لها . . ومع ذلك كله فالحملات ضدنا تتصاعد !!

وتذكرت ماكتبه الأستاذ فاروق جويده عن عودة الوجه القبيح إلى أوروبا ، وكيف أن كره الإسلام والنيل منه يسيطران على العقل الباطن والظاهر عند الأوروبيين !

قال : «منذ سنوات قليلة أقيم فى إيطاليا ملهى ليلى ، أطلقوا عليه اسم مكة . .

وفى الأسبوع الماضى ظهر حذاء جديد فى لندن سعره ١٢٠ دولارا كتبت عليه آيات من القرآن الكريم باللغة العربية . . !! » .

إن العين الحمئة التى تسيل منها ضغائن القوم ضد محمد ودينه لا تزال تقذف بالأقذار ، وتدمغ أصحابها بالعار ، والغريب أن المسلمين غافلون لا أدرى أيدرون أم لا يدرون ؟

وقد أملت السياسة الغربية على الأمة العربية ألا تؤلف فيها أحزاب دينية - أى إسلامية - ويقع ذلك وسط مفارقات صارخة فإن الأحزاب الدينية أواليمنية تحكم الغرب تقريبا تحت عنوان الديمقراطية المسيحية ، فى الوقت الذى يحظر فيه العنوان الإسلامى عندنا . .

وقد رفض القضاء الإنجليزى محاكمة «سلمان رشدى» الذى آذى الله ورسوله بكتابه الخسيس ، لأن القانون هناك يحمى الدين المسيحى ، ولا يمنع التطاول على الأديان الأخرى . .

ويقول الأستاذ فاروق جويده : «فى الأسبوع الماضى احتفلت الجامعات الأمريكية بزيارة سلمان رشدى لها ، وصدور طبعة شعبية من كتابه آيات شيطانية ، وسط ضجة إعلامية ضخمة ، ومهرجانات تكريم وحفاوة شعبية ورسمية . . !» .

إننى أوجس خيفة على مستقبل الطوائف الإسلامية فى فرنسا وغيرها من دول أوروبا ، فإن هناك أحزابا تطالب علنا بتنصير أولئك المسلمين أوطردهم . .

ماذا فعلنا ليبقى هذا الحقد حيا فى قلوب الأوروبيين منذ القرون الوسطى إلى الآن ؟ لقد رجحت كفتهم ، ودَخلوا بلاد الإسلام فاتحين ، واستنزفوا ثرواتها وعاثوا فى الأرض فسادا ، وفرضوا علينا قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ، وتقاليد تحمى العلمانية والإلحاد ، ماذا يبغون بعد هذا كله !!

إن هذا السؤال لا يوجه إلى الأوروبيين والأمريكيين فهم كما قال تعالى فى أباطرة الرومان قديما :

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ . (١)

السؤال يوجه إلى المسلمين المسترسلين الرقود !!

إن صوت غطيطهم يسمع من مكان بعيد . .

* * *

---

(١) الكهف : ٢٠ .

إحصائيات التنصير فى عام

الأخبار التى تنتهى إلىّ هذه الأيام تبعث على الكآبة . فالإسلام يُضرب بقوة فى أماكن كثيرة! ودماء المسلمين تسيل بغزارة! والضاربون لا يخشون قصاصا ولا يرهبون يوما ولا غدا . .!!

وباذلو الأموال لمحاربة الإسلام ينفقون بسخاء ، ويُعدّون الأجهزة الفعالة لدعم التنصير وتوسعة ميادينه .

وأمامى بيان بما أنفق العام المنصرم جاء فيه . . «أصدرت الهيئة الدولية لبحوث الإرساليات المسيحية نشرة إحصائية عن التنصير وأنشطته فى العالم لعام ١٩٩١ جاء فيه أن عدد المؤسسات التنصيرية ووكالات الخدمات المسيحية بلغ ١٢٠٨٨٠ وكالة ومؤسسة كما بلغ دخل الكنائس العاملة فى مجال التنصير ٩٣٢٠ بليون دولار ، وأنفقت ١٦٣ بليون دولار لخدمة المشاريع المسيحية . وحققت الإرساليات الأجنبية دخلا مقداره ٨,٩ بليون دولار . وذكرت أنه يعمل فى مجال خدمة التنصير ٨٢ مليون جهاز كمبيوتر لحفظ ونشر المعلومات ، وأنه صدر ٨٨٦١٠ كتابا ، و٢٤٩٠٠ مجلة أسبوعية للدعوة ، وبلغ عدد الأناجيل الموزعة مجانا ٥٣ مليون نسخة ، أما محطات الإذاعة والتلفاز المعْنية بالتبشير فتبلغ ٢٣٤٠ محطة . . وإذا جمعت الأرقام المنفقة فى أغراض التبشير للسنة ١٩٩١ بلغت ١٨١ مليار دولار . .» .

ومن حق أوروبا وأمريكا واستراليا أن تنفق ما تشاء لنصرة عقائدها ، ولكننا نتساءل : ماذا يفعل الإسلاميون فى مواجهة هذا الزحف الذى ما خفى منه أعظم مما بدا ؟؟

إنهم – على فقرهم وضعفهم – يستطيعون الكثير المجدى! بيد أن هناك ما نشكو منه!! فالعقلاء المعتدلون فى مجال الدعوة يُقيَّد نشاطهم عمدا ، ويكادون يدورون حول أنفسهم لانسداد الطرق أمامهم !!

والمتطرفون البله يؤذون أنفسهم ببعض مسالكهم ويؤذيهم خصومهم بصنوف من البهتان ينسبونها إليهم ، هم منها أبرياء ، والأمر كما قيل :

ومـن دعـا النـاس إلى ذمـه ذمـوه بالحـق وبالباطـل . .!!

وأريد لفت أصحاب العقول والضمائر إلى خطورة هذه الأوضاع! منذ أيام قتل خمسون مسلما فى «سريلانكا» بالأسلحة البيضاء ، قتلتهم عصابات التاميل شر قتلة! وذهب الخبر المنشور مع الصدى ما تحرك له أحد ، وما تخلف عنه أثر !!

أنا موقن بأنه لو كان بعض هؤلاء القتلى من اليهود لزلزلت القارات الخمس ، ولأرسلت بعض الأساطيل لتعقُّب القتلة !!

أعرف أن الدم الإسلامى أرخصته أحوال أمتنا ، فأصبح أهون الدماء المسفوكة ، فهل إذا تألم أصحاب الغيرة لهذه الأوضاع اعتبر ألمهم عجبا ، ونُثِرتْ حوله الإشاعات والتمست التهم ؟؟

أليس من حق المظلوم أن يتألّم ؟

أليس من حق المسلمين أن يصرخوا إذا ضُربوا ؟

إننى أطلب من العاملين فى الحقل الإسلامى أن يتبيَّنوا مواقع أقدامهم . ، فإن المتربصين كثيرون ، وأطلب منهم قبل ذلك أن يحسنوا فهم دينهم وفقه أحكامه وقضاياه حتى لا يمكنوا من أنفسهم ويجرُّوا التهم على دينهم .

* * *

زحف الكنائس

من التاريخ الأول للإسلام نعلم أنه صان لأهل الكتاب معابدهم ، ويسّر لهم إقامة الشعائر بها ، وجعلهم أحرارا فى التردّد عليها ، وأحاط بالتقدير صلبانهم وشتى مأثرهم وهذا بديهى ، إنه يعترف بالأديان الأولى فكيف يعمل على إهانتها أو إساءتها أو اعتراض أصحابها ؟ وقد تقررت هذه التعاليم فى كل المعاهدات التى تمت بين المسلمين والنصارى !

ويروى التاريخ أنه فى أثناء المفاوضات لتسليم بيت المقدس حضرت الصلاة ، وهمّ عمر بن الخطاب بالخروج لأدائها ، فقال له الأسقف متلطفا : صل مكانك !! فى الكنيسة . .

فقال عمر : لو صليت هنا لوثب المسلمون على المكان وأخذوه قائلين : هنا صلّى عمر !!

لقد كان الخليفة الراشد حريصا على بقاء الكنيسة لأهلها يؤدون فيها عباداتهم ، وهذا هو الوفاء ثم وقعت الحروب الصليبية بعد ذلك بخمسة قرون ، وجاء الأوروبيون فذبحوا المسلمين فى القدس وحاولوا طمس معالم الإسلام فى كل مكان ، وخلال ثلاثة قرون من الكر والفر فشلت الحملات الصليبية ورجع الأوروبيون مدحورين . .

ثم عادوا مرة ثانية خلال هذا القرن ووضعوا سياسة ماكرة لإطفاء منارات الإسلام ووضع الطابع الصليبى على الأرض العربية وظهر ذلك فى بناء الكنائس بكثرة مقصودة وإسراف شديد .

واستطاعت فرنسا أن تقيم فى لبنان مئات الكنائس ، وأن ترسم الصلبان على قمم الجبال ، ووصلت آخر الأمر إلى إقامة دولة مارونية فى بلد أربعة أخماس سكانه من المسلمين!! بل لقد تكوّن جيش لبنان الحرّ (!) ليقاتل مع اليهود ضد الوجود العربى !!

واتجهت المحاولة إلى مصر لتغيير صبغتها الإسلامية ، ولكنها اصطدمت بتشريع يقف دون ذلك ولولا هذا التشريع لجُمِعَتْ مائة مليار دولار وبنيت بها كنائس للإنجيليين والكاثوليك والسبتيين ، ولكنائس أخرى اصطلحت مع اليهود وعادت إلى العهد القديم .

وما عسى يصنع المسلمون بإزاء هذا الزحف ؟ بل ما عسى تصنع الكنائس الوطنية هنا ؟

لذلك ألفت الأنظار إلى خطورة هذه المقاصد الاستعمارية ، وأعود إلى ما قلته أولا من أن أهل الأديان المختلفة ينبغى أن تقام لهم معابد تسعهم لا يشعرون داخلها بضيق أوتعصب كما لا يشعرون باستعلاء أواعتداء ، ولعل أمثل الطرق وأعدلها وأبعدها عن الاعتراض ربط ذلك بأعداد السكان ، فتبقى حرية التدين للجميع دون وكس أوشطط .

* * *

الحرب القذرة

قرأت التحرش الإسرائيلى بمصر والتلويح بأن حربا قد تقع فى المستقبل القريب أوالبعيد! ولم يكن النبأ مفاجأة لى فإنى أشعر بأن هناك حربا معلنة على مصر تخوضها البلاد فى صمت وتواجه نتائجها بجلد ، ولا أدرى بم تنتهى ؟

هناك حرب المخدرات التى تخوضها الشرطة المصرية على امتداد الحدود الشرقية والشمالية لسيناء ، وداخل البلاد نفسها ، إن هناك الآن ملايين من المساطيل قتلوا صحيا ونفسيا ، ودور إسرائيل فى قتلهم معروف! ولا تزال الدولة اليهودية مستميتة فى توسيع الحرب القذرة ، وتكثير ضحاياها ، وخسائرنا تنمو نفسيا وماليا .

وقد قيل إن مليارات من الجنيهات تذهب فى هذا السبيل . .

وأرى أن نكون صرحاء وقساة فى مقاومة هذه الفتنة حتى تنجو البلاد من عواقبها . .!

وهناك الحرب المعلنة على المحاصيل المصرية فى ميدان الزراعة ، وهى حرب بالغة الخسة أساسها توزيع بذور رديئة على الفلاحين توضع فى الأرض ولا تنبت شيئا له قيمة ﴿ والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾ .(١)

وقد تقهقرت مصر فى ميادين كانت سباقة فيها ، كان قطنها ينير الليل ويغمر العالم ، فأصبحنا فى إنتاج القطن متخلفين ، وسبقتنا فى مجال المنافسة الحرة دول أخرى وكذلك الحال فى جملة من الحبوب والفواكه . .

والغريب أن اهتمامنا بشواطئنا على البحر الأبيض والبحر الأحمر ظهر فى بناء القرى السياحية الكثيرة! ولست أغفل السياحة ومواردها ولكنى أتساءل أين الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية فى بناء سيناء ، وتعمير الصحراء ؟

وأين المستعمرات التى تضم أفواج الشباب ليحرسوا مستقبل بلدهم أمام عدو يشتغل بجنّ سليمان !

---

(١) الأعراف : ٥٨ .

إن فنون اللذة لا تزدهر إلا مع الهدم والضياع ، وأعتقد أن إسرائيل يسرها أن تتحول شواطئ البحرين إلى سلسلة من المستعمرات المائجة بأنواع التسلية؟! يخدم فيها المصريون ويستمتع فيها الأجانب الوافدون . .

وبقى أهم عنصر يرسم مصير المعركة بيننا وبين اليهود . . إن الدولة هناك قائمة على الدين ، والعقيدة مستغلَّة أوسع استغلال فى النشاط الأخلاقى والاجتماعى والزراعى والصناعى ، وقد رأينا فى المفاوضات الأخيرة كيف يحترم اليهود يوم السبت ، وكيف يقيمون شعائره بجدٍ ، على حين كان القوميون العرب لا يؤدون صلاة ولا يحترمون شعائر !!

فهل الانحلال العقائدى أوالميوعة العلمانية يهبان النصر للعرب ؟

إن التحرش الإسرائيلى الذى ورد على ألسنة بعض المسئولين اليهود ليس إلا مظهراً عاديا لحرب خفية حقيقية يشنها اليهود على خصومهم جميعا وفى طليعتهم مصر ، حتى إذا جاء اليوم الموعود كان لهم لا لنا !!

ولكى نضمن مستقبلا شريفا لأمتنا يجب أن نَهُبَّ سراعا لمقاومة العدو المتسلل عن طريق المخدرات التى تذهب العقل والملهيات التى تذهب العرض والمال ، والحاضر والمستقبل .

* * *

نظرات مسلم مقهور

لقيت صديقا من علماء الدين فى إحدى الدول التى تحررت عقب انهيار الاتحاد السوفيتى ، كانت ملامح وجهه جادّة ونظراته أدنى إلى الحزن ، وعندما ابتسم للقائى كان ابتسامه كشعاع يشق طريقه بصعوبة بين طبقات من السحب !!

قلت فى نفسى : إنه صورة من قومه الذين قضوا أكثر من سبعين عاما تحت وطأة الشيوعية ، وضعف هذه المدة تحت وطأة القيصرية ، وفى كلا العهدين كانوا يُسامون الخسف ليتركوا الإسلام ، ولكنهم صمدوا وقاوموا الفتنة وتحملوا الهوان . وهاهم أولاء يخرجون أحياء من بين الأنقاض ، ويبحثون عن إخوان العقيدة ليؤنسوا وحشتهم ويسكّنوا روعهم . .

كان اللقاء فى الأزهر وأذان الظهر يشق الفضاء ، والمستمعون يرددون كلمات الأذان بهدوء .

ونظرت إلى صاحبى فخيل إلىّ أنه يقول لى هذه نعمة كنا نحن محرومين منها ، ماكان أذان يرتفع عندنا وإذا ارتفع فما كان أحد يجهر بترديد الكلمات!

ما أطول عذاب المستضعفين ، وأسوأ ما نزل بهم ، الصوت الوحيد الذى يرتفع طوعا أوكرها : لا إله ، والحياة مادة! ، ما عدا ذلك يدمَّر!

يقول الأستاذ فهمى هويدى : كان هناك ٤٠ ألف مسجد بقيت منها مائة ، وكان هناك ٣٠ ألف فقيه ومعلم تم حصدهم أيام ستالين .

ثم جندت الشيوعية ٢٠٠٠ محاضر و١١ ألف مرشد سياسى ، و٤١ ألف موجه ملحد ، وأُلْقى أكثر من ٤٧ ألف محاضرة عن الإلحاد وألِّف نحو ألف كتاب لمناهضة العقيدة ، وهذا كله فى حملات متتابعة لمحو الإسلام من القلوب والبيوت والشوارع والأسواق . .

ومع ذلك فقد بقى الإسلام وبقيت الشمس والقمر ، إن مابناه الله لا يهدمه الناس !!

ويوجد الآن قريب من سبعين مليون مسلم يتحركون فى عدة جمهوريات ليستأنفوا نشاطهم القديم ويعودوا سيرتهم الأولى . .

المصيبة التى نلفت الأنظار إليها أن البلاء الشيوعى استطاع أن يقتحم السدود الموضوعة أمامه ، وأن ينضح من كفره على البلاد العربية وأن يضلل جماهير كثيفة من العوام والخواص الذين يسترون إلحادهم تحت لافتات غاشّة خادعة فعدد ضخم من الاشتراكيين والعلمانيين ينفرون من تعاليم الدين ويدعون سرا وعلنا إلى الخلاص منها . . وجمهرتهم لا تحترم الوحى ولا ترتبط به ، وهم فى ميادين العلم والأدب وفى دروب المجتمع وعند بحث قضاياه يتحدثون حديث من لا يعرف الله ولا يكترث لرضاه . . !!

وأرى - بعد انهيار الاتحاد السوفيتى - أن ننشىء على عجل جسورا بيننا وبين إخواننا فى الأقطار الروسية ، تنقلنا إليهم وتنقلهم إلينا وأن نهتم بالكتاب الدينى تأليفا وترجمة وأن يتم تبادل الوفود بين الجامعات والمعاهد عندنا وعندهم .

إن هناك فراغا يجب أن نملأه ، فإن القوى المعادية للإسلام تتأهب لملئه !!

أما الشيوعيون العرب - وهم أخسُّ شيوعيى العالم - فيجب أن نتيقظ لهم ، وأن نحبط كيدهم ونفضح مؤامراتهم إنهم الآن ناشطون فى التغلب على الهزيمة التى عرضت لهم وسيحاولون بخداع العناوين وتزوير المضامين أن يسرقوا الإيمان ، ويفتنوا القراء بقضايا موضوعية أوجانبية ، وعلى العقل المسلم أن يتأهب لمعركة أخرى لا تقل حدَّة عن معارك مضت .

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [1] .

* * *

(١) الفرقان : ٢٠ .

صلاة الشتاء

مع أنى نحيت الصحيفة جانبا إلا أن الصورة التى استوقفتنى لم تبرح عينى كانت صورة جنود من الشيشان يقيمون الصلاة على أرض المعركة !

وكانت هناك ملاءة بيضاء واسعة تغطى الأرض كلها ، إنها من التلج الممتد على ظهر الأرض لا يريد أن يذوب !

لا بأس الصلاة حق وعندما يتكالب العدوّ فاللجوء إلى الله أعظم عُدّة !

وتذكرت أنى فى الجزائر عانيت مثل هذا الشتاء القارس ، كان المطر ينزل خيوطا بيضاء رفيعة تتراكم على الثرى وكأنها قطع من السحاب آثر البقاء على الأرض !

لكن أين أنا من هؤلاء الجنود ؟

إننى أخرج من مسكن مكيّف الهواء وأركب سيارة مكيفة الهواء وأذهب إلى طلابى فى مدرج مكيف الهواء وأجلس فى مكتب مكيف الهواء . .

أما هؤلاء الذين يصلون فى العراء فإن صقيع الشتاء يلفحهم من كل جانب ، وقد تصيب أحدهم قذيفة طائشة فينقل إلى أقرب جدار ريثما يسعف أويلقى ربه ، وربما جاء جندى أعزل فجرده من السلاح ليستأنف المعركة مكانه ، إن سلاح المسلمين قليل !!

وتساءلت متى جاء الإسلام هنا ؟

وكان الجواب من عهد الخليفة الثالث .

إن موجة الفتح العظيم انداحت حتى تجاوزت القوقاز ، وكان الروس يومئذ دويلة من الهمل لاتذكر بشىء يشرّف . .

وبقى الزحف الإسلامى حتى بلغ سيبريا ، ثم تراجع المسلمون تراجعا رهيبا فحكم القياصرة الأرثوذكس أرض الإسلام ثم قتلهم الشيوعيون ووقع الموحدون فى براثن ملاحدة لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . .

والغريب أن الشيوعية لما انهزمت عاد الأرثوذكس إلى السلطة وأذاقوا المسلمين الويل .

إننى أنظر إلى وجه «يلتسين» وهو يأمر بضرب الشيشان ، فلا أرى إلا ملامح جزارا أَلِفَ سفك الدماء وإزهاق الأرواح !!

إن الجنود المصلين قاوموا بصلابة هائلة ، فتعطلت دبابات وأسقطت طائرات .

ولكن أين مسلمو العالم أجمع ؟

أعرف أننا لن نستطيع الوصول إليهم ، ولكننا نستطيع إلحاق خسائر اقتصادية كبيرة بالروس وبغيرهم ممن يؤذون الله ورسوله وجماهير المسلمين .

المهم أن نستبقى أخوة الإسلام ، وأن نرجح كفتها فى كل موازنة .

أما أن يضرب الروس إخواننا ثم يذهبون إلى بلد عربى ليعقدوا معه صفقات تجارية فى أحفال نتبادل فيها الابتسامات فهذه خيانة ما بعدها خيانة .

إن الأمة الإسلامية بحاجة إلى أبجديات الدين **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله »** .

* * *

التواجد على أنقاضنا

إذا كنت ترجو مستقبلا يسوده السلام والإنصاف وتختفى منه الفتن والمظالم فأنت واهم !

إننى أنظر قريبا منا وبعيدا عنا فأرى الحقوق تهضم والغيوم تملأ الآفاق . .

اليهود لا يقرون بشبر من الأرض لعرب فلسطين ويزعمون أنهم ورثة هذه الأرض من عهد إبراهيم ، وأن القدس عاصمة مملكتهم الدينية وأن راية إسرائيل لا يجوز أن تزاحمها راية أخرى وإذا جاز أن يبقى العرب فى الضفة أوالقطاع فليكونوا أُجراء لدى سادتهم فوق أرض تهوَّدتْ وامَّحى منها كل ما يشير إلى عروبة أو إسلام . .

هذا موقف اليهود منا وقد التزموه سرا وعلنا واصطلح عليه المتخاصمون صراحة أو ضمنا وسوف يقاتلون دون هذا . .

وهم لا يعتمدون على قوة شكيمتهم قدر ما يعتمدون على ضعف عزيمتنا سيّما وإسرائيل تضاعفت ثلاث مرات فى حرب سنة ١٩٦٧ واستطاعوا خلال ست ساعات لا ستة أيام أن يفضحوا الأمة العربية وحكامها الخادعين المخدوعين ما كان أفدح خسائرنا وأسوأ مصايرنا !!

ذاك بالنسبة إلى قضايا العرب فى هذه المنطقة .

أما بعيدا عنا فهناك خطة لحرب إبادة لا تبقى للإسلام أثرا فى أوروبا ، بدأ تنفيذ هذه الخطة فى البوسنة والهرسك ، وأبرز مظاهرها استئصال علماء المسلمين فقتل العشرات من علماء المساجد ، ومحيت قرى لتبنى فوق أنقاضها بيوت للصرب الأرثوذكس .

المهم ألا يكون هناك أثر لإسلام !

ويتم تنفيذ هذه الخطة فى صمت بين مسلمى ألمانيا وفرنسا .

وهناك أحزاب يمينية (!) رتبت نفسها للقيام بعبء التنفيذ فى الوقت المناسب ، والمسلمون فى دول البلقان يزيدون على عشرة ملايين وفى وسط أوروبا وغربها يبلغون ستة ملايين . .

وقد تسأل عن علاقات هذه الملايين بإخوانهم فى إفريقية وآسيا فيسوءك الجواب !!

إن الهزائم الواقعة أوالمتوقعة لا تجىء من قوة العدو ، بل تجىء من فوضى الدفاع وتضعضع الإيمان وسوء التنظيم .

كان سلاح الجيش المصرى سنة ١٩٧٣ نصف سلاحه فى سنة ١٩٦٧ ، ومع ذلك فقد قام بمعجزات عسكرية مزقت اليهود على ضفاف القناة شذر مذر ، والسبب أن التكبير كان له دوى على امتداد أربعين ميلا ، وكان الجنود يطلبون الموت فظفروا بالحياة . .

أما قبل ذلك فقد ألغى التكبير واستبدل به بُغَامٌ غامض (!) يزعق به الجنود وهم يتقدمون ، فما تقدموا بل اسودَّت وجوه الساسة الملحدين . .

إن المستقبل ملىء بالنذر ، ولا يوجد فى الجبهات المقابلة من يعترف لنا بحق !

بل يوجد من يستكثر علينا الحياة !

وأرى أنه لابد من إعادة النظر فى حاضرنا كله ، وإعادة بناء أمتنا على فكر جديد ، وعزم حديد! وعلى شعور باليأس من أن يعود عدونا إلى رشده .

إن من يبنى وجوده على أنقاضنا يستحيل أن نعترف له بوجود .

* * *

بتر الشريعة

فى الصراع بين الإسلام والعلمانية يجب أن نحدّد الموقف ونضبط المفاهيم !

قال لى رجل علمانى : ماذا عليكم لو كسبتم الإيمان والأخلاق ، وتركتم شئون التشريع والاقتصاد والاجتماع لأصحابها يعملون فيها وفق مقتضيات العقل الحر والزمان المتجدّد ؟؟

إن بُعْد الدين عن السياسة واكتفاءه بالصفاء الروحى والسناء الخُلُقى أشرف له وأجدى عليه!!

قلت له : تريد بصراحة أن تقسم القرآن شطرين ترمى بشطر المعاملات فى البحر ، وتمنح الشطر الآخر حق البقاء !

فسكت قليلا ثم قال : ذاك ما أريد تقريبا !

قلت له : وهذا ما نراه نحن ضياعا للشطرين جميعا وبقاء الأمة بلا عبادات ولا معاملات !

إن الإسلام انقياد مطلق لله فيما أمر ونهى ، وعلاقتنا بربنا تقوم على مبدأ السمع والطاعة ، ونحن فهمنا هذا صراحة من قول الله لنبيه : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .(1)

تصوَّر أن إبليس قال لله سأصطلح معك على أن تطرد آدم من الجنة ، وسأخلفه فيها أسبح بحمدك وأقدس لك وأعفنى من قضية السجود !

أيكون إبليس بهذا العرض قد تاب وأناب ؟؟

إنك يا صاحبى مخادع كبير حين تعزل الإسلام عن الشرائع والمعاملات وحركات الحياة والأحياء ثم تقول له : إنك كسبت حظاً طائلا !

---

(1) النساء : ٦٥ .

هذا فى الواقع حكم على الإيمان نفسه بالموت! عندما ينطلق الغناء فى كل فجٍّ يقول للسامعين :

جئت ، ولكن لا أدرى من أين أتيت ؟

ولقد وجدت قدّامى طريقا فمضيت ؟

أيكون إبعاد الدين عن الفنِّ كسبا للإيمان أوللإلحاد ؟

وعندما يكون الزنا مباحا بتراضى الطرفين أيكون إبعاد الدين عن التشريع كسبا للإيمان أوللإلحاد ؟ وعندما يظفر التراث اليهودى بحق الحياة ويرجع التراث الإسلامى بخفَّىْ حنين ، أيكون إبعاد الإسلام عن السياسة كسبا للإيمان أم للإلحاد؟

إن الزعم بأن الإسلام يبقى بعد عمليات البتر والتشويه التى تجريها العلمانية فى كيانه هو من أبطل الباطل وأجرأ المفتريات ، لن يبقى من الدين شىء ذو بال إذا قبلنا مبدأ الحذف والإلغاء لبعض تعاليمه ، وقد حاول ذلك بنو إسرائيل قديما فقيل لهم :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ .(١)

إذا كان المسلمون يطلبون نصرا فى الدنيا وكسبا فى الأخرى فليحتقروا هذه الصيحات العلمانية وليستمسكوا بالدين كله وبذلك يفوزون بنصر مؤكد .

* * *

(١) البقرة : ٨٥ .

الذكريات لمن يتدبر

كنت أمرّ مرورا عابرا على القول بأن سفن الفراعنة اكتشفتْ أمريكا قبل «خورستوف كولمبس» كان يستوى الأمران عندى وأقول ذهبوا أم لم يذهبوا فالخطب سهل!! وكان الظن الغالب أن الحضارة الأوروبية انتقلت عن طريق الأسبان إلى القارة المكتشفة ، وأن الهنود الحمر انتقلوا بهذه الحضارة من طور إلى طور أعلى ، وأنهم لم يكونوا على دين فدانوا بالمسيحية .

وإن كان المبشرون والساسة قد أبادوا جماهير غفيرة حتى حققوا أغراضهم . .

ثم قرأت اقتباسا من كتاب «علامات على طريق الحرية الأمريكية» ذكره الأستاذ أحمد صدقى الدجانى من وثيقة تعود إلى سنة ١٨٧٩ ، وهذه الوثيقة رسالة وجّهها الزعيم «جوزيف» الهندى الأحمر ، وقائد قبائل «النيزبيريز» الذى وصفه خصمه الأمريكى «جنرال هوارد» بأنه أعظم زعيم فى تاريخ الهنود الحمر ، والرسالة الموجهة تتضمن تسجيلا للمفاوضات التى أجراها «جوزيف» مع الرئيس الأمريكى «راذوفورد» بعد كفاح طويل مرير ضد الغزاة الذين جاءوا من وراء البحار واستطاعوا بتفوقهم العسكرى أن يهزموا السكان الأصليين . .

يشعر القائد الهندى بأن الحقيقة تائهة وسط الكلمات الكثيرة التى ينطق بها الأمريكيون ثم يقول : « إن الأمر لا يتطلب هذا اللغط كله ، إننى أكشف عن قلبى عندما أتكلم بلسان مستقيم ، والروح الأعظم شاهد على ما أقول فهو يسمعنى» !!

وقفتنى هذه العبارة المؤمنة ، الرجل يذكر أن الله يسمعه ، ويرقبه ، وهو ما يعرف الله إلا بهذا التعْبير !

ثم يقول : «لقد ورثنا عن أسلافنا تقاليد جيدة ، أن نعامل الناس بمثل ما يعاملوننا به ، وألا نبدأ بنقض أى عهد! وأنه عار علينا أن نكذب ، وأنه لا يجوز لرجل أن يعتدى على زوجة آخر! أويأخذ شيئا من ماله إلا بعوض!! وقد علمنا أسلافنا أن الروح الأعظم يسمع ويرى كل شىء وأنه لن ينسى أبدا ، وأنه فى الحياة الأخرى سوف يمنح كل

إنسان بيتا روحيا حسب استحقاقه ، فإن كان صالحا فسوف يقتنى بيتنا جميلا ، وإلا فسيكون بيته رديئا!! هذا ما أعتقده ويعتقده شعبى . . » .

ثم يتحدث الرجل عن الأمريكيين الذين قاتلوا قومه فيصفهم بأن كلامهم يناقض أفعالهم ، وأنهم وعدوا بأشياء كثيرة مختلفة ، ولم يقدموا لنا شيئا . . وأن خسائر الهنود الحمر تلاحقت ! . .

ثم يقول : «نفسى تجيش بخواطر شتى حين أتذكر الكلمات المعسولة والوعود المنقوضة . . » .

قرأت المقتطفات المأخوذة من هذه الرسالة ثم تساءلت :

ظاهر أن الهنود الحمر كان لهم إيمان بإله واحد فهل ذلك جاءهم من الخارج أم هى بقايا الفطرة فى نفوسهم لم ينجح الشيطان فى زحزحتهم عنها ؟ وظاهر أنهم كانوا يؤمنون بالبعث والجزاء ، أوبالجنة والنار كما تعبر الشريعة السماوية ، فهل الإيمان الذى عرض عليهم بعد هزيمتهم يتضمن هذا الوضوح فى الوعد والوعيد ، ويربط الأعمال بأجزيتها ؟

إن المادية طغت على أقطار الغرب فما تذكر السماء إلا لماما ، بل لعل الإلحاد الذى ساد اكتسح كل فكرة عن لقاء الله ، وارتقاب ثوابه وعقابه . .

قد يكون الهنود الحمر متخلفين علميا فى بلادهم عندما طرق الأسبان أبوابها ، أما الزعم بتخلّف أخلاقى ، وفراغ دينى فأمر يحتاج إلى نظر ، وقد دفع هؤلاء المساكين ثمن تخلّفهم العلمى غاليا فحصدتهم الأوبئة التى كان المبشرون يصدرونها إليهم فى الملابس والبطاطين حتى تصفر الأرض منهم وتخلو للفاتحين الجدد ، وتم لهم ما أرادوا ، وبقيت الذكريات لمن يتدبّر . .

* * *

المستر «نيكسون»

فى كتاب «الفرصة السانحة» «لمستر نيكسون» الرئيس الأسبق للولايات المتحدة وردت هذه العبارات «إن العالم الإسلامى يملك حضارة مهمة تبحث عن شخصيتها التاريخية ، لقد تمكن هذا العالم من تحرير نفسه من الاستعمار خلال الخمسينات والستينات ثم اندفع بعد ذلك مغمض العينين فى اتجاه عدم الانحياز ، وتوحيد الأمة العربية وسياسة رد الفعل! وسوف يعاود البحث فى التسعينات وما بعدها عن مكانه اللائق بين دول العالم ، وعلى الولايات المتحدة أن تساعده فى ذلك بطريقة بناءة» .

أقول وفى هذا الكلام قدر من الصحة نتقبله راضين ، مضيفين إليه أن نعمة الاستقلال لم تكن طارئة على العالم الإسلامى ، فقد كان خلال قرون طوال يستمتع بحرياته ، ويحيا على أرضه موفور الكرامة حتى جاء المستعمرون من وراء البحار فعكروا صفوه واجتاحوا حقه ، وليس المسلمون أول الشعوب التى وقعت بها مظالم ، وحفّت بها مكاره ، فإن الولايات المتحدة نفسها كانت مستعمرة إنجليزية ونالت استقلالها بحدّ السيف وهى بلا شك جديرة بهذا الاستقلال ، ومن حقها أن تعيش فى ظلاله . .

ولا يجوز أن ننسى أن مسلمى العالم حملوا حضارة أنارت المشارق والمغارب ، وإذا كانت الأيام قد تقلبت بهم فمن حقهم الحنين إلى ماضيهم واستعادة الأمجاد الروحية والعقلية التى عرفوا بها ونحن نشكر كل عون يسديه الآخرون ، ونرد الجميل مضاعفا بيد أن أسفنا يشتدّ حين نرى العوائق أمامنا بدل المعاونات ، ومشاعر البغضاء بدل معانى الإخاء . .

إن البعض يسْتحيى الأحقاد التاريخية حين يعاملنا ويتربّص بنا الدوائر .

وقد شعرت بأشد الاستغراب حين قرأت لمستر نيكسون فى الصفحة نفسها من كتابه هذه العبارات «إن المتعامل مع العالم الإسلامى يشبه وضعه وضع شخص واقف فى حفرة ضيقة وحوله مجموعة من الثعابين السامّه (!) تحمل فى سمّها «ايدولوجيات» متصارعة وقوميات متضاربة . .» !

هل الذى يتعامل مع المسلمين والعرب يتعامل مع مجموعة من الثعابين ؟

هل المسلمون المستباحون فى أرجاء الدنيا ، والذين تسيل دماؤهم غزيرة وهم ينشدون حق الحياة يستحقون هذه الكلمات ؟

هل العدالة الجديرة بالاحترام والبقاء هى التى تقول : يجب أن تكون إسرائيل وحدها أقوى من العرب مجتمعين ، حتى إذا دافع العرب عن أرضهم وعرضهم باءوا بالهزيمة ودمغوا بالذل ؟

بأى منطق نُعامَل فى هذه الدنيا ؟

ولم هذا الغلّ المتوارث ضدنا . . ؟

﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .[1]

سنبقى على ديننا راكنين إلى الله ، مستعينين به ولن نضيع إن شاء الله . .

* * *

(١) إبراهيم : ١٢ .

ذكريات لص

ربما استعاد اللص ذكرياته القديمة فى الخطف والفتك فشاقَهُ ذلك إلى معاودة الإجرام!! وقد تشتد الرغبة فى نفسه إذا رأى الحراس نائمين ، والغنيمة دسمة! إنه يقول مع مستر «نيكسون» الرئيس الأسبق للولايات المتحدة : انتهز الفرصة ، وخذ ما تيسر . .!

إننا نكره الحروب ونمقت تجارها ، لكن ما العمل إذا هجم علينا سماسرة الغزو ورأَوْا سرقة عقائدنا ونفائسنا ؟

ما بدٌّ من الدفاع إلى آخر رمق !

لقد تحدث مستر نيكسون عن الحروب الصليبية ونتائجها فى العصور الوسطى ، وما ذنبنا نحن فى هذه الحروب ؟ إن أفواجا من الهمج أضْراها الحقد فظلَّت تهاجم بلادنا قرابة ثلاثة قرون ، وما وقع فى يدها بلد إلا دمرته ، وأعاننا القدر آخر الأمر فهزمنا الطلائع وسحقنا الفلول ونجونا وماكدنا ننجو! فهل هذه جريرتنا ؟ وهل نحاسب عليها ونؤاخذ بها ؟

لكن «مستر نيكسون» يضنّ بدار الإسلام على سكانها ويبيحها لكل طارىء غريب ويسوق هذه الكلمة تعليقا على نتائج الحروب الصليبية الأولى :

لقد خسر الغرب هذه الحروب - ولكنه كسب المعتقدات !

لقد تم طرد كل مسيحى من الأرض المقدسة للمسيحيين واليهود !

ولكن الإسلام - وقد أسكره النصر ومزق أوصاله المغول - سقط فى غياهب العصور المظلمة من الفقر والنسيان بينما الغرب المنهزم وقد أنضجته الأهوال تعلّم من عدوه ، وبنى الكنائس لتصل إلى عنان السماء !!

ويضم «مستر نيكسون» إلى هذا التعليق الحقود تعليقا آخر يصفنا به شر وصف فيقول : «إن المتعامل مع العالم الإسلامى يشبه وضعه وضع شخص يعيش فى حفرة ضيقة ومعه مجموعة من الثعابين السامّة التى تحمل فى سمّها «إيدلوجيات» مختلفة وقوميات متصارعة» !!

أهكذا نحن ؟

نحن الذين نسبح بحمد الله ونقدس له ونُعْلى اسمه وكلمته ثعابين سامة ؟

أما الذين يكرعون من الشهوات ولا ينتهون عن إثم فملائكة كرام !

أرضنا المقدسة حلال لكل جنس حرام على أصحابها الأصلاء! ويجب انتهاز الفرصة السانحة للقضاء علينا بعدما تم القضاء على الشيوعية .

والمدهش أن هذه الروح الخبيثة تشيع بين جملة الساسة الذين يقودون الغرب ، «فمسز تاتشر» ترى ذلك ، ووزير خارجية إيطاليا عندما ترأس المجموعة الأوروبية يرى ذلك ، وقد تكونت جماعات من الصهاينة والكهان فى الولايات المتحدة ترى ذلك ، ونشطت أحزاب كبيرة فى بعض دول أوروبا ترى ذلك ، وتجهر بضرورة القضاء على الإسلام وطرد أهله من أوروبا !!

إن المأساة تنمو ، وناس منا يساعدونها على النماء ! وماذا نقول فى رؤساء يصارحون بأنهم لا يؤدون العبادات المفروضة لأنهم علمانيون ؟

إنهم يرفضون الشعائر الدينية ، ويكرهون الشرائع السماوية ، ويتملقون بهذا التفريط أوروبا كى تعطيهم شيئا فى المفاوضات مع اليهود !

والغرب كله لن يعطيهم إلا الذل ، ولن يزيدهم إلا خبالا ، والصيحة التى أطلقها مستر نيكسون : « انتهزوا الفرصة واقضوا على الإسلام » هى التعبير الحقيقى عما يجيش فى النفوس ويتفلّت على الألسنة .

* * *

الولاء للكنيسة

عندما شنَّ «مستر بوش» حملته الانتخابية كى يتولى حكم الولايات المتحدة مرة أخرى ، تأملت فى برنامجه الانتخابى فوجدت أنه يعلن ولاءه للكنيسة واحترامه لرسالتها بين عناصر أخرى تحدد وجهته وعمله!!

قلت : هذا رجل يتجاوب مع شعبه ويحترم نفسه ، وهو كجملة حكام الغرب يتمشى مع العواطف الدينية للجماهير ، فملكة انجلترا عند تولى العرش تقسم على حماية الكنيسة الإنجيلية ، ولا تزال الأحزاب الحاكمة فى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا محافظة على الديمقراطية المسيحية !!

لكن الطوائف العلمانية فى الشرق الإسلامى تذيع أوهاما مستغربة عن ترك الغرب للدين ، تريد بذلك إحراج الإسلام وحده ، وصرف المثقفين عنه ، والواقع أن الغرب الصليبىّ كله متمسك بمواريثه . وهو يعلِّم ذراريه كره الإسلام ومقت شعوبه وخذلان قضاياه .

ولا يغضّ من هذه الحقائق أن تنشر «التايمز» صورة لمسجد يزدحم المصلون فيه - فى قلب لندن - وصورة أخرى لكنيسة خاوية إلا من مترددين يُعَدُّون على الأصابع ، صحيح أن الكنائس فشلت فى تقديم زاد روحى عقلانى يجتذب المصلين إليها . . لكنها نجحت فى جمع تبرعات سخية جدا لدعم التبشير العالمى وإلحاق جراحات غائرة بالأمة الإسلامية . .

كما استغلت ضعف أجهزة الدعوة عندنا لترويج الأساطير عن الإسلام ورسالته . وقد يكون لين رجال الدين هناك ، وإقرارهم لمباذل الحضارة الحديثة سببا فى سوء الظن بالدين نفسه ، فالمعروف أن رئيس كنيسة «كنتر برى» كان من بين الذين أقروا إباحة الشذوذ ، وترك عقاب أصحابه ماداموا متراضين على الخنا !!

كما أن قدرة اليهود على سرقة الضمائر وقبول المظالم الواقعة بالعرب لم يشرف الدين ولا رجاله ولا معابده . .

ومع هذا كله فقد بقيت للدين مكانة عامة حتى أن الرئيس الأمريكى كما رأيت يعلن روابطه بالكنيسة قبل خوض المعركة الانتخابية . .

ونحن قبل أن ننظر إلى أوضاع غيرنا ينبغى أن ننظر فى شئوننا الخاصة ، وأن نتساءل : هل المسجد يؤدى رسالته النبيلة ؟ وهل هناك من الحاكمين من يعلن ولاءه له ، ورباطه به ؟

لقد كان المسجد منذ أنشىء جامعا للعبادة وجامعة للعلم ، وما نشأت الدراسات الفقهية إلا فى صحون المساجد وكان الشعر ينشد فى المسجد - على عهد الرسول ﷺ - وكان رواد المساجد يخرجون منها بزاد متكامل من المعارف والآداب ، بل كانت هذه البيوت مفزعا لمن يريد الإقبال على الله يلتمس فى جوّها الخاشع السكينة والرضا . .

ومن ربع قرن تقررت دراسات رتيبة بين المغرب والعشاء فى التفسير والسنة والفقه والتاريخ والعقائد والأخلاق عدا خطبة الجمعة التى أعدت لها كراسات خاصة وتولّى الخبراء النظر فى موضوعاتها ونصوصها وشواهدها . . فهل ذلك يقع ؟ أم طواه الإهمال ؟

إن عددا ضخما من المصلين لا يحضر الجمعة إلا عندما يقارب الإمام الانتهاء من خطبته !!

أما الدروس العلمية فقلما تُلْقَى ، وإذا أُلْقِيَتْ فمادتها غثة ونَفَسُها بارد إلا من عصم الله .

إن المساجد عندنا يمكن أن تقوم بعمل هائل في تزكية النفوس ، وتنوير العقول ، ورفع مستوى الجماهير ، ولكننا نبدّد هذه الطاقة ، ونستهين بآثارها .

وأظن أن الآوان قد آن لربط الأسرة المسلمة بالمسجد فقد كانت صفوفه قديما تشمل الرجال والنساء والأولاد ، فيخرجون جميعا منه وهم أضوء عقولا وقلوبا .

* * *

غيبوبة

أحيانا تضع عصابات اللصوص خطتها على أن الحراس قليلون أونائمون ، وأن المنافذ سهلة لا وعرة ، وأن الاستيلاء على الغنائم لن يكلّف جهداً يذكر ، فهى تقوم بعملها لا يخامرها قلق ، وكثيرا ما تعود من مغامراتها وهى راضية بما نالت . .!!

والتبشير العالمى - وهو يقوم بخدمة الاستعمار الغربى - يتبع هذه الخطة ، عالما بأن كفة المغارم صفر ، وأن كفة المغانم حافلة!! المسلمون فى نظره ركام هشٌّ لاتماسك فيه ولا مقاومة له ، يستطيع من شاء أن يختطف منه ماشاء دون قلق ، وقد حادثت عدداً من أولئك المخطوفين فوجدتهم لايدرون من أين جاءوا ولا أين يذهبون . .؟

إنهم حملوا أسماء جديدة وعاشوا كما أريد لهم دون وعى . .!

وهذا هو السرّ وراء الإعلان بأن أفريقيا مثلا يجب أن يتحول الإسلام فيها إلى دين ثانوى خلال كذا سنة ، وأن جنوب شرق آسيا ينبغى أن ترفرف عليه أعلام الصليبية خلال كذا سنة ، إن واضعى الخطط لا يحسبون حسابا لمقاومة ، ولا يتوقعون أن يجدوا أمامهم عوائق .!

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها تولّى رعيها الأسد!!

وأخيرا تحرك أصحاب التراث المنهوب ، وشرعوا يقاومون الغارات الجريئة . . وشعر لصوص العقائد بأن الجو تغير ، وأن أطماعهم لا تنساب إلى غاياتها فى سهولة! فماذا يفعلون؟ أخذوا يصيحون : حقوق الإنسان فى خطر! يجب أن تتحرك الدول الكبرى لإنقاذ الشعوب ! انقذوا الثقافة الإنسانية من أخطار الرجعية!! وهكذا شعر العاملون ضد الإسلام بأن المقاومة الإسلامية يجب أن تضرب ، وأن يقظتها فى وسط إفريقيا وجنوب آسيا لابد أن تغطّى ، وامتد هذا المكر إلى الأرض الإسلامية المتخلفة عن

انحلال الاتحاد السوفيتى ، فإذا تيارات العلمانية تنتعش وإذا جهود هائلة تبذل لمنع الجماهير من الحنين إلى دينها والعودة إلى شرائعها وشعائرها . .

إن الخصوم التقليديين للإسلام يتحركون على عجل لاستبقاء الغيبوبة الفكرية التى عاشت فيها أمتنا الكبيرة تحت سطوة الاستعمار والشيوعية ، والتى فقدت كيانها خلالها . .

وأنا أهيب بالإسلاميين الناشطين فى الأمة العربية أن يسابقوا الزمن ، وأن ينتهزوا الفرصة ، وأن ينسوا خلافاتهم ، وأن يوحدوا صفّهم أمام عدو استمرأ العدوان عليهم وكسب الكثير فى أيام خلَتْ ، إننا خمس سكان العالم ولا يجوز أن ننقص بل يجب أن نزيد ، وأرضنا معروفة المعالم من تاريخ طويل فلا يجوز أن يُغار عليها أوتنتقص من قلبها وأطرافها ، إن فجرا جديدا يجب أن يطلع علينا يضع حداً لغارات الطامعين والراغبين فى محو عقيدة التوحيد . .

* * *

مسلمون فى الجبل الأسود

الحرب التى دارت فى «يوغوسلافيا» جديرة بالبحث والاعتبار ، كنت أظن مع غيرى أنها حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل! حتى قرأت أخيرا مقالا فى صحيفة الاتحاد كشف لى عن حقائق لم تكن تخطر لى ببال . .!

إن «يوغوسلافيا» دولة حديثة الوجود كوّنها الحلفاء عقب فوزهم في الحرب العالمية الأولى من عدة قوميات مختلفة الأعراق ، كان المسلمون جزءا كبيرا منها إذ يبلغ عددهم قرابة ستة ملايين مع ملاحظة أن إقليم «كوزوفو» سلخ من ألبانيا المسلمة ، وضم إلى يوغوسلافيا ، وهى سياسة تبعها الاستعمار العالمى فى معاملة الأمة الإسلامية المترامية الأطراف لاسيما فى إفريقية ، فهو يأخذ جزءا من الصومال المسلم ليضمه إلى كينيا حتى يفقد شخصيته وتضعف الصومال بفقده ، وتكررت هذه السياسة فى أغلب دول القارة التى استحدثت فى السنين الأخيرة ، المهم أن المسلمين فى «يوغوسلافيا» جعلوا من دينهم قومية خاصة عاشوا بها فى إقليمى «البوسنة والهرسك» ولهم بقايا كثيرة فى سائر أقاليم الدولة الجديدة . .

وعندما وقعت الحرب الأخيرة بين الكروات والصرب لاحظت ضراوة القتال وشدة الحقد بين أصدقاء الأمس تظهر فى المدن الكرواتية التى تحولت إلى حجارة وزجاج وأخشاب وأنقاض . .

قلت فى نفسى ما السرّ فى هذا اللدد ؟ حتى عرفت أن اليهود من ورائه !!

إن إسرائيل تمدّ الصرب بما تحتاج إليه من سلاح ، وتعينها بعدد من الضباط الذين احترفوا القتال ، وهناك جنود مرتزقة من دول أخرى أشرفت إسرائيل على جمعهم فى صمت! لماذا ؟

لأن رئيس الكروات متهم بمعاداة السامية – وهى تهمة رهيبة – وقد ألف كتابا نفى فيه المجازر التى قيل إن الألمان أوقعوها باليهود ، ووصفها بأنها أكذوبة كبيرة . والواقع أن هناك مبالغة مفرطة فى أعداد القتلى اليهود! ربما بلغوا عدة آلاف أما الزعم بأنهم عدة ملايين فأكذوبة كبيرة كما قال الزعيم الكرواتى ثم إن الكرواتيين على الإجمال فاترو

المشاعر نحو إسرائيل ، ولم يظهروا حماسا نحو إقامتها ، وقيل إن عددا منهم شارك فى تعذيب اليهود بمعسكرات النازى ، وبنو إسرائيل يبحثون عن هؤلاء ، وعن أولادهم أوأحفادهم ليقتصّوا منهم !! وسوف تظل إسرائيل مع الصرب حتى تبلغ غايتها . . وموقف المسلمين فى يوغوسلافيا شديد التعقيد!! إنهم الآن يلتزمون الحياد بين الفريقين المتخاصمين ولكن الصرب تتربص بهم ، وتريد أن تشق لنفسها طريقا على شاطىء «الإدرياتيك» كى تنشىء لها ميناء على البحر ، وذلك بداهة على حساب المسلمين المعزولين فى هذه البقاع . .

والعدوان مرتقب إن لم يكن اليوم فغدا . .

وعندما يُضرب المسلمون فى قطر أوروبى ﴿ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ .[1]

وتتساءل : أما لهم من نصير من إخوانهم فى القارات الأخرى ؟ والجواب كئيب!!

إن الجنرال «ميخايلوفتش» قتل منهم مائة ألف وَمَرَّ دون مساءلة ، وجاء بعده «تيتو» وهو شيوعى ملحد فكان موقفه من المسلمين مثل موقف سابقه . .! وكانت «لتيتو» هذا مكانة فى البلاد العربية لأنه من رؤساء «جبهة عدم الانحياز» .

إن موقف المسلمين فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود وكوزوفو وألبانيا نفسها ، يجب أن يدرس بأناة وأن يتحرك العالم الإسلامى لمساندته وردّ العدوان عنه !!

بم يشتغل المسلمون ؟ وإذا أصيبوا فى أخوتهم العامة فماذا يبقى لهم ؟ وهل بعد ذلك إلا أن تدور الدائرة عليهم فى عقر دارهم ؟

* * *

(١)يس : ٤٣ .

لا مكان للضحك !

ما أعقب مجزرة الحرم الإبراهيمى يثير ضمائر الأحرار ويزيد الجراح عمقا . ونحن نثبت ما حدث لأن هناك محاولات دائمة لطمْسه! قال متحدث يهودى عن عدد القتلى : إنه قليل ولكنه بداية طيبة! والقتلى الذين حصدهم الرصاص وهم سجود كانوا خمسة وستين مصليا ، ثم لحق بهم ثلاثون من الجرحى عزت جراحهم على الشفاء ، ثم لحق بهم ثلاثون آخرون من المتظاهرين الناقمين مما حدث !!

إنهم فى المنطق اليهودى بداية طيبة وإن كان العدد قليلا ! وفى التعليق على مصرع الجانى بعدما ارتكب جريمته .

يقول متحدث يهودى آخر : إن مليون عربى لا يساوون ظفره !! وإن اسمه الآن على كل لسان ! .

والجانى فعل فعلته فى حماية جيش الدفاع الاسرائيلى ، وانتظر حتى سجد المصلون فوجد الشجاعة لإطلاق الرصاص ! والأوامر صادرة لهذا الجيش ألا يعترض مستوطنا ولو بدأ بإطلاق النار .

والغريب إن إذاعة لندن أحصت القتلى أربعين ثم استدركت فجعلتهم ثلاثين ثم قالت بضع عشرات !

أما فى الولايات المتحدة فإن مجلس الأمن حاول الاجتماع عدة مرات لتوبيخ اليهود ، ولكن الرئيس الأمريكى قال له تريَّثْ ، حتى نطمئن إلى قبول العرب للسلام !

وماذا ترقب من رجل جلس ساعتين يسامر «سلمان رشدى» ليؤيده فى حرية رأيه ، وما رأيه ؟ إهانة محمد وأسرته !!

وقد نظرت إلى بعض الأقلام العربية فوجدت الخيانة مجسَّمة ، فمنهم من يقول إن الحادث المؤسف لايجوز أن يقف مسيرة السلام !

لقد جثا العرب على ركبهم يتسوّلون السلام - وهو فى حقيقته الاستسلام - ومع ذلك فقد ضنَّ اليهود به ، ليزيدوا الفريسة عذابا . .

وبعض الصحفيين يتبنّوْن الآن وجهات النظر الصهيونية والصليبية وكان المنظور أن تلغى أفراح الأعياد ، وأن يتدارس المسلمون محنتهم محليا وعالميا ، وأن يعلنوا حدادا عاما على نكباتهم المترادفة .

ولكن قوى خفيّة كانت تحثّ المواكب على الطرب ، وتقود قوافل الدهماء إلى حدائق الحيوان وتجعل ضجيج العيال يردم ذكريات المصاب ويهيل النسيان على جثث القتلى . . وإذا بقى الإعلام فى الأقطار الإسلامية ينفذ هذه السياسات الخائنة فإن العالم الإسلامىّ فى طريقه إلى الضياع .

إنه لامكان للضحك مع هذه الأحداث .

* * *

السلام.. تدليس مفضوح

احتفلت أوروبا وأمريكا بميلاد السيد المسيح وعيد رأس السنة وأحسّ القوم أن شمس القرن العشرين موشكة على الغروب فلم تبق على نهايته إلا أعوام قلائل . .

وقال المراقبون : إن هذا القرن من أشأم القرون وأملئها بالخسائر والضحايا ، فإن حربين عالميتين وقعتا فيه ، وسبقتهما وأعقبتهما حروب محلية كثيرة وأمسى الحديث عن السلام تدليسا مفضوحا بعدما تفجرت الضغائن وانكشفت الأطماع وانطلقت الجماهير وفق غرائزها الهابطة كأنها سباع فى غاب . .

إن المسيح من رموز السلام وقد قال القرآن الكريم عنه : ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .(١)

لكن العالم الغربىّ لم يستطع الارتفاع إلى مستوى المسيحية ، بل جرّها إليه واعتسف بها طريق العدوان والخصام ، وقد نشط التبشير بالمسيحية فى قارة أفريقية فماذا جنت القارة المظلمة - كما سمّوها - ؟

عشرة ملايين إصابة بالإيدز! لأن العلاقات الجنسية فى أوروبا جعلت ٦٠٪ من الأطفال يولدون من آباء غير شرعيين دون أى حرج .

فماذا تنتظر أن يقدمه هؤلاء للناس ؟

ثم تجىء سلسلة المظالم التى تقع بالمسلمين ، إنها مصحوبة بحقد دفين ، فالعملاق الروسى لا يستحى أن يسوق قواه البرية والجوية لضرب شعب كالشيشان ، كما أن حلف الأطلسى يسكت عامدا عما يصيب مسلمى شرق أوروبا ، وتعجب عندما يتكلم هؤلاء وأولئك عن حقوق الإنسان ، واحترام الأديان !

إن أوروبا بدأت مدّها الاستعمارى من خمسة قرون ، اكتشفت خلالها أمريكا واستراليا فماذا فعلت بسكان هاتين القارتين ؟

---

(١) مريم : ٣٣ .

إن جماهير الهنود الحمر لم يبق منها إلا النزر اليسير لأن الجنس الأبيض الفاتح كان يريد الأرض وما فيها لنفسه ، كان يبحث عن الذهب وشتى المعادن ، وكان يَفْتَنُّ فى إبادة المستضعفين طورا بالرصاص وطورا بالجراثيم حتى إذا خلت الأرض من أصحابها استقدم الأوروبيين ليحلوا محلهم ، إن أوروبا لاتعرف من المسيحية إلا أنها غطاء لرغباتها الحرام ، وما تنظر إلى الشعوب الأخرى إلا نظرة السيد إلى الخدم !

وقد ظهر الإسلام ليعود بالدين إلى حقيقته وليقهر طبائع الاستعلاء والفساد عند بعض الناس ، وقد قام آباؤنا الأولون من الصحابة والتابعين بتأديب الأوروبيين الأقدمين ، وكفّ مظالمهم عن الأمم ، ولعل الحرب التى شنوها على الرومان كانت أشرف حرب فى العالمين .

ما أحوج الناس فى هذا العصر إلى سيف محمد لينقذ المستغيثين وينصف المستضعفين .

* * *

سلام على سلامكم

هناك لغط هائل حول قضية السلام بين إسرائيل والعرب أوهناك تضليل متعمد حول جوهر القضية وموقف الطرفين منه!! وأريد أن أكون حاسما فى إحقاق الحق وإبطال الباطل .

قال «بن غريون» رئيس إسرائيل الأسبق : «لا إسرائيل بدون القدس ، ولا قدس بدون الهيكل» والهيكل يبنى على أنقاض المسجد الأقصى .

وقد وصف العهد القديم طريقة بنائه فى عدة صفحات يراها اليهود وحيا واجب النفاذ وإن تراخت الأيام .

والمسلم الذى يوافقهم على ذلك مرتد عن دينه يقينا وما أحسب أن هذا المسلم يوجد فى بلد من البلاد . .!

وعلى بنى إسرائيل إذا كانوا طلاب سلام أن ينفوا ما قاله «بن غريون» ويعلنوا احترامهم للمسجد الأقصى وأن يضموا إلى ذلك أمرين .

أولهما فتح الطرق لعودة اللاجئين العرب .

والآخر تسليم سلاحهم الذرى لهيئة الأمم المتحدة ، فإن هذا السلاح مُعَدٌّ لإبادة العرب والمسلمين . .!!

أستطيع باسم الإسلام القول بأننا لا نريد سوءاً باليهودية ، وإذا كان فى أرجاء العالم من يهدد اليهود بالفناء ويعلن عليهم حربا عنصرية فإننا نحن المسلمين على استعداد لفتح أقطار العالم الإسلامى كلها لاستقبالهم وتأمينهم والعيش معهم على قاعدة لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات ، إننا لا نعرف حروب الأحقاد الدينية وقد وسعت بلادنا - من بدء تاريخ الإسلام - مللا شتى ومذاهب كثيرة ، إننا لا نحارب إلا منعا للفتنة وردا للعدوان وكسرًا لشوكة الطامعين والمغرورين .

الحرب فى حقٍّ لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء !

لكن إسرائيل اليوم تحاول خديعتنا وخديعة العالم معنا وتزعم أنها تسعى للسلام ، أى سلام مع استمرار تسلّحها الذرى ، واستمرار سياستها العدوانية ، واستمرار فلسفتها الدينية القائمة على بناء سلطة صهيونية خالصة بعد إماتة العروبة والإسلام ؟ ؟

إن العالم الإسلامى يمر بفترة مشئومة من تاريخه الطويل وليست الصهيونية والصليبية أعدى أعدائه ، إن أعداءه فى صميم أرضه ، إنهم بين ظهرانينا صنعهم الغزو الثقافى لينشئوا أمة لا خلق لها ولا إنتاج ، لا عقيدة ولا شريعة ، لا تراث ولا مستقبل ، إنهم يلبسون ثوبا عربيا على كيان أجنبى ، ويوشك مع الأيام أن يخلعوا الثوب ويكشفوا المخبوء .

* * *

السقوط من عين الله

لم تكن هيئة الأمم المتحدة عادلة ولا مصيبة ولا موفقة عندما ارتدَّتْ عن قرارها السابق بأن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية !

ما الفرق بين دولة النازى وفلسفته ودولة إسرائيل وفلسفتها ؟ كان هتلر يرى الدم الجرمانى أنقى وأرقى من سائر الدماء ، وكان يرى حقه سيادة العالم ، وكان يصيح : ألمانيا فوق الجميع ، وقد اضطهد اليهود وقتل منهم الألوف وجعل بقاءهم فى ألمانيا مستحيلا . .

وهذا الذى صنعه النازى هو الذى يكرره اليهود مع العرب ، فقد طردوهم من أرضهم ، وهدموا عليهم بيوتهم وصنعوا مذابح رهيبة على آماد متتابعة بدعوى أنهم أحق بالأرض من العرب لأنهم شعب الله المختار الموعود بهذا الميراث كى يقيم عليه مملكته المقدسة !!

الفارق بين اليهود والألمان هو أن مزاعم اليهود تستند إلى نص سماوى – كما يقولون – أما التفوق الجرمانى فهو دعوى أرضية سنادها جنون العظمة وحسب !

اليهود يصرخون : نحن شعب الله المختار ، وقد فضلنا على العالمين! ولنا أن نمحو العرب من فلسطين لنثبت عليها أمتنا وحدها ، ولنا أن نجلب بنى جنسنا من أرجاء الأرض ليحتلوا كل شبر هنا ، أما أصحاب الأرض الأصلاء فليرحلوا حيث شاءوا فرارا من الموت وليعيشوا لاجئين منبوذين فى كل مكان . . !

إذا لم تكن هذه دعوى عنصرية ، فما تكون العنصرية إذن ؟

والغريب أن يصدر هذا الارتداد من هيئة الأمم وقضايا العرب تتدحرج على الثرى فى غير اكتراث ! ليس لها من يدافع عنها من أصحاب السلطان أما الصلف اليهودى فقد جاوز الحدود! يُدعَى القوم إلى حديث فى الصلح فيكونون آخر من يحضر ، وأول من ينصرف ، وأبعد من يستجيب لتفاهم ، ويظل العرب أياما قبل حضورهم ينتظرون وبعد انصرافهم يتساءلون ! وتجىء الأنباء من هيئة الأمم المتحدة بأن اليهود ناس طيبون ليسوا عنصريين ولا أنانيين فيعلم من يجعل أن الحق للقوة ، وأن الغلبة للجسور .

والناس من يلق خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل!!

وهكذا تسقط الأخلاق ، وتستخفى المثل ، ويستوحش أهل الحق ويتحقق أمام أعيننا قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [1] إننى أسائل إخوانى العرب : تعلمون أن أكثر من ٦٠٪ من مياه الرى فى إسرائيل تسرق من سوريا ولبنان والأردن فهل تظنون أرشدكم الله أن إسرائيل تصطلح معكم وتكف عن السرقة وتتوب إلى الله ؟ أم أنها ستأخذ هذا الماء هدية منكم ويتبدل الاسم فقط ؟

إن إسرائيل لا تملّ من تكرار تشبثها بما نالت برا وبحرا وجوا ، والدول العظمى وافقت على سحب اتهامها بالعنصرية ، ومن ثم فأنا أسائلكم .

هل سيظل الإسلام يعيش على هامش تفكيركم بينما تعيش اليهودية فى سويداء قلوب أصحابها ؟ إن اليهود يسجلون غيابهم يوم السبت لأن العمل فيه حرام ، فهل تسجلون غيابكم يوم الجمعة لأداء صلاة فى مسجد ، أونعتبركم مسافرين فتؤدون الصلاة فى بيوتكم ؟ إنكم أسقطتم الإسلام من حسابكم فليس غريبا أن تسقطوا من عين الله !!

بعضكم جرب التوكل على الاتحاد السوفيتى فها هو ذا قد ضاع .

فهلا جربتم التوكل على الله وقررتم العودة إليه والتجمع تحت رايته ، وإعادة بناء الأمة على قواعدها الدينية وقيمها الإسلامية المهملة ؟؟

إن العرب يزهدون فى الانتماء الإسلامى ويحسبون العلمانية هى النزعة التى تجمعهم بسائر الناس .

وهيهات ، فقد كشر التعصب عن أنيابه ، وتهيأ لافتراسنا .

* * *

(١) الأنعام : ١١٦ .

عالم من المرايا

أكره الذين يعبدون أشخاصهم ويرتبطون بأهوائهم ارتباطا لافكاك منه ، إنهم يرنون أبدا إلى مصالحهم الخاصة ، ولا يتنازلون عنها إلا ليعودوا إليها ، كحمار الرحى يتحرك فى مداره والمكان الذى يرحل إليه هو المكان الذى رحل منه !!

هذا قائدٌ همه الأول والأخير الهتاف باسمه والتسبيح بحمده !

وهذا عالم ينشد المال والجاه !

وهذا متبرع يطلب الظهور وبعد الصيت !

فإذا بحثت فى صدورهم عن الله والإخلاص له لم تجد شيئا . .

والغريب أنهم ينتسبون إلى الإسلام ويعملون فى ميدانه ، وقد نبهت السنة المطهرة إلى خسار هؤلاء وسوء عقباهم وأنهم أول ثلاثة تسعَّر بهم النار يوم القيامة . . ولا تحسبن هذا الوعيد لوناً من الترهيب المبالغ فيه فإن ارتداء الإسلام على كيان غير طاهر لايفيد شيئا . بل قد يكون بلاء على الإسلام ومبعثا على سوء الظن به .

انظر ما يقع فى أفغانستان ، لقد نجاها الله من الحكم الشيوعى بعد جهاد طويل فى سبيل الله ، أبلى فيه الشباب المخلص بلاء حسنا ، وذهب شهداء كثيرون إلى الله وهم فرحون بلقائه ، زاهدون فى الدنيا وما حوت من متع . .

فإذا بعض الرؤساء يحولون المعركة إلى بحث عن المناصب ، وتطلع إلى الزعامة ، ويصدرون الأوامر إلى جيوشهم كى يحولوا البلاد إلى خرائب وأنقاض . . !!

إن الغمَّ كان يملؤ نفسى وأنا أتسمع إلى أنباء العراك على الأسلاب ، وأشعر بأن سمعة الإسلام تُمرَّغ فى الأوحال ، وأتبع بطرف دامع ألوف الهاربين من وجه القتال الخسيس ، قتال الذين تحوَّلوا قطاع طرق بعد ما كانوا قادة لمجاهدين فى سبيل الله !

إن حصيلة الكفاح الحر الشريف وقعت للأسف بين أيدى خطافين يعبدون أنفسهم ويجرون وراء الحطام الزائل !

إن علماء النفس وصفوا بعض الأشخاص بأنهم يعيشون فى عالم من المرايا ، كلما تحركوا إلى جهة من الجهات لا يرون إلا أنفسهم وحدهم ، وهؤلاء الأشخاص خطرون على الدنيا والدين جميعا .

فأما الدين فإن الله لا يقبل من العمل إلا ماكان خالصا لوجهه .

وأما الدنيا فإن الشعوب فى عصرنا ثاقبة البصر ، إذا رأت قائدا مفتونا بنفسه مشغولا بمصلحته تخلصت منه ونأت عنه .

فلنحدد موقفنا من هؤلاء القادة المرضى .

* * *

كابوس الجرائم

لا يختلف اثنان فى أن الولايات المتحدة أعظم دول العالم ، وأرقاها حضارة ، وكان المنتظر بعد هذا السبق البعيد أن يسودها الأمان وتغمرها الصحة النفسية والاجتماعية ولكن يبدو أن ذلك لم يحدث ، وأن الدولة القوية الغنية تسودها أحوال مزعجة !!

وفى تصريح لوزيرة الصحة الأمريكية ذكرت أرقاما عن الجرائم والأمراض والانحلال تدعو للتساؤل .

قالت : إن خمسين ألف شخص يذهبون ضحايا العنف والإجرام سنويا ، وأن هذا الرقم المخيف يزيد على ضحايا مرض الإيدز الذين لا يتجاوزون عشرين ألف شخص سنويا ، كما أنه يمثل ثلاثة أضعاف حوادث المرور الناجمة عن تناول الخمور وهم لا يزيدون عن ثمانية عشر ألفا !! أى أن هذه الدولة العظمى تفقد كل عام ثمانية وتسعين ألف قتيل لأسباب شتى ، وهى لم تشتبك فى حرب مع دولة أخرى إنهم ضحايا الأحوال الداخلية المضطربة !

وأوضحت وزيرة الصحة الأمريكية فى تقرير قدمته لإحدى اللجان البرلمانية أن الرعاية الطبية لضحايا العنف كلفت الدولة فى العام الماضى ١٣,٥ مليار دولار! وذكرت أن ٤٤٪ من جرائم القتل سببها المخدرات !

ولم تنس الوزيرة المسئولة أن تقول فى تقريرها إن التلفاز ووسائل الإعلام تحمل وزرا كبيرا فى تزايد هذه الفوضى ، وأنها خيّلت للشباب أن العنف هو الطريقة المثلى لحل المشاكل !

لقد تدبرت هذا الواقع المخزى ، وبحثت عن أسبابه ، وشعرت بأن البلد المتفوق علميا وصناعيا متخلف دينيا وخلقيا ، وأنه محروم من عناصر الوحى السماوى التى تمنعه من رذائل كثيرة ، إنه استطاع تفجير الذرة ، وقهر الأعداء ، ولكنه عجز عن علاج أمراضه والنجاة من غوائلها ، والكنائس لديه خالية ، والعامر منها مشغول بدعم إسرائيل وهزيمة العرب !! وبضاعة رجال الكهنوت - لو نشطوا فى

تـوزيعها - لاتنجح فى زكاة نفس ، ولا فى إحياء ضمير وغرس تقوى ، وتذكرت قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .(١)

لكن القوم يعقدون المؤتمرات ويفضّونها من أجل محاربة الإسلام ، وكان الأولى بهم أن ينشغلوا بإصلاح بواطنهم وتهذيب مسالكهم بدل هذا اللدد فى محاربتنا !

كنت يوما فى أمريكا ، وخرجت من الفندق لبعض شأنى ، فلما عدت وجدت الفزع باديا على أصحابى ، واستقبلونى وهم لايصدقون أنى عدت !! لأن الخارج فى هذه الساعة يغلب أن يُسرق ، أويُجرح ، أويُقتل !

فقلت فى بلادنا نمشى فى الظلام إلى المسجد لانخاف إلا الله وحده ونصلى الفجر ونعود آمنين . . أتمنى أن تقتبس هذه البلاد بعض ما لدينا .

* * *

(١) المائدة : ٦٨ .

حضارة!!

أذاعت وكالة «رويتر» هذا الخبر المثير قالت :

«إن دراسة حكومية فى كندا كشفت أن نصف النساء الكنديات قد تعرضن للإيذاء البدنى أو الاغتصاب ، وأن واحدة من بين كل أربع سيدات قد تم الاعتداء عليها من أحد المقربين لها!!

والطريف أن هذه الدراسة ذكرت أن ٦٠٪ من الكنديات يخشين السير فى الشوارع المظلمة خوفا من الاعتداء عليهن !» .

الحق يقال أن هذه الحال ليست مقصورة على كندا ، بل هى حال المجتمعات الأوروبية والأمريكية كلها ، فإن النظرة الحيوانية إلى المرأة تكاد تكون عامة ، والأسباب الباعثة على ذلك تزيد ولا تنقص ، والعفة التى تنشدها الأديان كلها تكاد تكون من المستحيلات . . !

ولم أعجب عندما قرأت إحصاء لإحدى اللجان أن غشاء البكارة يندر بقاؤه بعد سنّ المراهقة !!

إن أزياء النساء تفصّلها شياطين مولعة بإثارة الشهوات وتمزيق الأعراض فالثوب قلما يغطّى الركبتين من أسفل وقلما يستر الصدر من أعلى وصقل الشعر فنون !!

ومع كل فصل من فصول السنة يخترع الخياطون بدعا جديدة فى الملابس يعرضها سِرْب من الفتيات الغاديات الرائحات وهن يكشفن ما يوفره الزى الجديد من إثارة وإعجاب . .

أما قصة غضّ البصر فخرافة قديمة لا يعرفها هذا العصر ، ولعلها من الذكريات الرديئة !

وقد انفردت هذه الحضارة بإقامة المراقص التى يحتضن فيها من شاء ماشاء! وأى عيب فى ذلك ؟ كما انفردت بعرض البغايا من وراء زجاج مصقول كى ينظر المارة إليهن ، ثم يدخل إلى المحل من ارتضى إحداهن !!

إن وضع المرأة فى الحضارة الغربية يدعو إلى السخط والاشمئزاز . والغريب أن بعض حملة الأقلام عندنا يريد نقل هذه المباذل إلينا ويراها دلالة تقدم وارتقاء . .!

إننى أعود بخيالى إلى مجتمعنا الأول فى المدينة المنورة ، والمسلمون من الرجال والنساء يُدعْون إلى صلاتى الفجر والعشاء فى ظلام الليل «بشّر المشائين إلى المساجد فى ظَلَم الليل بالنور التام يوم القيامة» وتخرج النساء من بيوتهن زرافات ووحدانا ليملأن الصفوف المؤخرة فى المسجد ، ثم يعدْن إلى بيوتهن ما يُعرفن من الغَلَس وما يخشين اعتداء ولا اغتصابا إن نسائم الطهر والعفة تهبّ على المجتمع كله ، وتجعله لا يعرف إلا مرضاة الله ، ولا يسعى إلا إلى تقواه . .

إن الفروق واسعة بين المادية الحديثة وبين مواريث موسى وعيسى ومحمد .

وما يقع الآن فى العالم الغربى يستحيل أن يقبله عيسى بن مريم ، ويحزننا أن رجال الدين هناك بدل أن يصلحوا أنفسهم ومجتمعهم انشغلوا بالحملة على الإسلام ومؤازرة الاستعمار فى النَّيْل منه واجتياح حقوقه .

* * *

قطاع طرق

قد ينجح قاطع طريق فى احتلال جزء من الأرض واستذلال قبيل من الناس لكن هذا النجاح لا يشبع أطماعه ويبعثه على الرضا بل يزيده تلمظا وجشعا على طريقة إن الطعام يقوى شهوة النهم .

والضمير اليهودى بعدما استولى على فلسطين استيقظت فيه كل خصائص السلب والابتزاز ، وافتضح ماكان خافيا من أثرته وتطلّعه الذى لاحدّ له ، وهو يعمل الآن بدهاء رهيب لاستكمال «إسرائيل الكبرى» على أنقاض العرب أجمعين ، مستغلا الفوضى الدينية بينهم ونجاح الغزو الثقافى فى تدويخهم وتزهيدهم فى مواريثهم .

وأول ما نذكره عن الضمير اليهودى أنه لايرعى عهد ولا يعرف وفاء بل يندفع بقواه الذاتية إلى مآربه غير آبه لشىء ، ومعروف أن الأمريكيين أقاموا الدولة اليهودية بمساعداتهم التى تبلغ ألف دولار كل عام لكل طفل أو رجل فى « إسرائيل » !

ومع ذلك فإن عصابة من الحاخامات تكونت لسرقة المال الأمريكى من منابعه وزعمت أنها كونت مدارس لتخريج يهود متطرفين!! ينفق على طلابها من تبرعات الأغنياء ، ويدفع لكل طالب يهودى ٢٤٠٠ دولار سنويا .

وقد كشفت التحقيقات عن أن ٩٧٪ من هؤلاء الطلاب وهميون لا وجود لهم فى الواقع وأن الحصيلة المجموعة ذهبت لحساب رؤساء يخدمون التطرف ويدعمون قضاياه وأن أصحاب الهوس الدينى من الأغنياء هم ضحايا هذه القصة !

وهكذا ردّ اليهود الجميل إلى من يساعدونهم فى السر والعلن فخدعوهم وضحكوا على ذقونهم !

وعلى أية حال فمهما فعل اليهود فإن الضحايا راضون مادام الهدف المقرر هو ضرب العروبة والإسلام !

وكشف اليهود عن طباعهم وهم يفاوضون فى صلح «غزة وأريحا» وقالوا :

إن المقصود بأريحا البلد لا المنطقة كما تقول المقصود بالجزائر العاصمة لا الدولة ، أوكما نقول المقصود بمصر القاهرة لا البلاد كلها . . وعلى المفاوض العربى أن يدوخ ليثبت حقه فى بلدة يملكها من آلاف السنين !

وفى أثناء المفاوضات كان الرصاص اليهودى يغتال ويعربد ليثبت أنه طالب سلام !

من قديم واليهود معرفون بأنهم لا عهود لهم ، لا مع الله ولا مع الناس ، حتى قال الله فيهم : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ .[1]

وبيّن أن هذا الغدر سجيّة فيهم غير محدثة فقال :

﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .[2]

لقد اغتصب اليهود فلسطين ولا حق لهم فى ذرّة من ترابها ، وتم هذا الاغتصاب فى أيام نحسات من تاريخ أمتنا التى تفرقت وضرب بعضها بعضا فضربها القدر بمن لا يرعى فيهم إلاًّ ولا ذمة ! والآن بدل أن نعود إلى ديننا ليعود إلينا عزنا نمدّ أيدينا إلى أعداء الإسلام وقتلة الأنبياء . .

إنهم اليهود الذين لن يتركوا طبائعهم السوء أبدا .

* * *

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) المائدة : ١٣ .

أمة منحدرة

كانت العروبة فى أحضان الإسلام تعنى التربية والثقافة والشريعة والتراث فلما انسلخت عنه أو أريد لها أن تكون بديلا عنه وُجدتْ شعوب معتلة الثقافة منحلة الأخلاق متسولة للقانون متنكّرة للتراث حتى صحَّ فيها قول محمود غنيم :

ويح العروبة ، كان الكون مسرحها ! فأصبحت تتوارى فى زواياه! !

وقد نظرت إلى إسرائيل بعد اشتباك سبعين سنة مع العرب فرأيت اليهود دولة قوية تحظى باعتراف الشرق والغرب ورأيت العرب زادوا على عشرين دولة تتنافس جميعا على مرضاة إسرائيل ! ورأيت اليهودية دينا ودولة ، أما الإسلام فلا يجوز أن تتكون باسمه هيئة ترفع راية الشريعة وتتشبث بمواريث الوحى !

وأعرف أن المسلمين يعانون من هزائم ثقيلة ، وأن كفتهم طاشت بين الأمم .

ولكنى لم أعرف منهزما يدعى البطولة ، ويلبس شارة الزعامة ويرقب من الجماهير أن تهتف له كما يقع ذلك فى أرجاء الأمة العربية! والعرب بأسهم بينهم شديد ، ولو أن نصف خسائرهم فى الفتن الداخلية وُجِّه إلى عدوهم لاستردوا أكثر ما فقدوا . .

أليس من العجائب أن جيشا لبنانيا لا يزال يقاتل العرب مع إسرائيل ؟

وقد استطاع بعض الرؤساء العرب أن يؤلف جيشا لا بأس به ، مزودا بأسلحة حسنة وزعم أنه سيدخل به تل أبيب ، فلما وقعت الواقعة دخل به الكويت وضلّ الطريق إلى تل أبيب !

وبين العرب اليوم سباق إلى مصالحة إسرائيل والرضا بالهزيمة المذلة وأول من سنّ هذه السنة الرئيس أنور السادات لأنه ورث عن جمال عبدالناصر عروبة مقطوعة عن الإسلام مربوطة بقومية مجردة وجاهلية عمياء حرمته كل توفيق وأذاقته الموت قبل أن يحين أجله !

إننى أرمق أوضاع العرب السياسية فأشعر بغصّة ، وسيبقى العرب ينحدرون مادامو يرفضون الإسلام تربية وثقافة وشريعة وفلسفة وشارة حياة ودعامة مجتمع ، وسيبقى الصلف اليهودى يتورّم وتنفخ فيه الدول الكبرى ما بقى العرب زاهدين فى الاسلام . .

وسيبقى قادتنا أصحاب عضلات من حزَقٍ إلى أن يَرجع الإيمان التائه إلى القلوب الفارغة وتعود الأخلاق إلى المسالك المعوجة .

* * *

مخالب حادة

الفرنكفونية حركة ثقافية سياسية اقتصادية تقودها فرنسا وتنتظم الآن بضعا وعشرين دولة كان أغلبها مستعمرات فرنسية سابقة ، فلما تحررت حلّ الرباط الجديد محل القيادة القديمة !

وفرنسا من الدول العظمى ، وهى شديدة الحب للغتها وأدبها وتقاليدها وليست فى ذلك بدعا بين مثيلاتها من الدول ولكن الطبع الفرنسىّ نزّاع إلى المغالبة والسَّبْق . فإذا دخَل بلدا أحب أن تكون لغته الوحيدة فى مجال التعليم والتخاطب فإذا عجز عن محو اللغة القومية للآخرين فلتكن الفرنسية هى اللغة الأولى .

وقد تدحرجت اللغة العربية فى أقطار المغرب الكبير برغم مساندة الإسلام لها والمستقبل مقلق ! والارتباط بالإسلام نفسه يعانى حرجا كبيرا لضعف العلاقات بين الدين والقانون ، والدين والإعلام ، والدين والتربية .

والناظر إلى الدول الفرنكفونية يرى أن الاستعمار الثقافى والاجتماعى ماضٍ فى طريقه لإفقاد الإسلام مكانته . . !

والفرنسيون كاثوليك شديدو التعصب لمذهبهم ، وقد التزموا خطا لا يحيدون عنه فى القرن الأخير .

وقد استغربت موقفهم فى رواندا ، فقد صادقوا حكومتها القديمة وسلحوا جيشها وأعانوها محليا وعالميا وشرعوا يعملون على ضمِّها إلى بقية الدول الفرنكفونية فى القارة السوداء .

ولكن قبيلة «التوتسى» كانت متأثرة بتيار أوروبى آخر فاستعصت على هذه المحاولة ، ووقعت فتن وانقسامات خسرت فيها القبيلة المتمردة على الفرنكفونية نصف مليون قتيل! ولا تزال حركة التمرد قائمة ! وعندما نجحت فرنسا فى استصدار قرار من

مجلس الأمن لدخول رواندا لإقرار الأمن (!) غضبت القبيلة الثائرة وقررت اعتبار الفرنسيين غزاة وعقدت العزم على محاربتهم !

لقد ساءلت نفسى عن هذا النصف مليون من القتلى فيم ذهب ؟ ولماذا يغضّ العالم من فداحته ؟ وما هذه الفرنكفونية التى يدفع الإفريقيون فيها هذا الثمن الفادح ؟

وساءلت نفسى مرة أخرى هل لو كان النزاع بين المسلمين وأتباع إحدى الوثنيات وسُفك الدم بهذه الغزارة أكان العالم يسكت علينا ؟

إنه يسكت فى حال واحدة! أن يكون الضحايا من المسلمين !

وددت لو أن لجنة من المؤرخين المحايدين سجّلت بأمانة وقائع التاريخ الحديث وعدد الذين أزهقت أرواحهم من اكتشاف القارات إلى يوم الناس هذا . . إن الدول العظمى ذات مخالب حادة وإن غطاها الحرير . . !!

* * *

حالك الظلمات

قال «بن غريون» أحد مؤسسى إسرائيل ورئيس حكومتها الأسبق : سنكتسح الدول العربية بالدبابات فإذا تأخر ذلك اكتسحناها بالجرارات! أى سنهزم العرب بتفوّقنا العسكرى فإذا استبعدت الحرب هزمناهم بتفوقنا الاقتصادى! وحتى لا تكون الكلمة تهديدا أجوف ، فإن جنّ سليمان يصلون الليل بالنهار دأبا على تجويد صناعتى الحرب والسلام حتى أمسى اليهود مسلحين من الرأس إلى القدم ، وحتى أمسى إنتاجهم الزراعى والصناعى يغزو الأسواق العالمية !

واستغربت ظنون اليهود بنا إنهم لا يتصوروننا إلا شعوبا مستهلكة ، أما هم فمالكو زمام الإنتاج ، إن الرقعة التى سرقوها من أرضنا ليس فيها شبر لم يزرع وقد أضافوا إلى ذلك مهارة فى الإنتاج المدنى والعسكرى تبعث على الدهشة !

وظهر أن الخطة لإقامة إسرائيل الكبرى أساسها شعب كادح يعرق فى ميادين العمل وسط شعوب ناعمة تبحث عن اللذة حُرم شبابها من التوجيه الدينى الصارم وراح يجرى وراء الضرورات حينا ووراء الرفاهية حينا آخر . .

إن الأمر ليس استنتاجا إن الخبرة اليهودية فى الزراعة المثمرة والإنتاج الكبير تعرض علينا فى مصر التى تزرع الأرض من خمسين قرنا ، والتى جاءها إسرائيل نفسه من عشرات القرون فرارا من القحط الذى أصاب وطنه كى يستطيع العيش الهنىء على ضفاف النيل . .

ماذا عرا مصر والعرب كلهم حتى تقهقروا فى استثمار أرضهم ومضاعفة خيراتها ؟ إن أقطاراً فيحاء يستشرى فيها الجدب وكان يمكن أن تدرّ السمن والعسل لو وجد المهندسون والفعلة ، أين هم وما الذى يشغلهم ؟

وعجبت لما قرأت أن الجيش الإنجليزى قرر أن يستخدم صاروخا إسرائيليا جيدا فى عدّته الحربية .

قلت : أبلغ اليهود هذه الدرجة من الإجادة ؟

إننى قريب من شبابنا وخبير بمواهبهم وأقسم أن فيهم من لو سابق اليهود سبقهم ولكنهم ثروة معطلة ومواهب مشلولة !

من هوى بنا إلى هذا الدرك ؟ وكيف تحولت الأمة الوسط العظيمة إلى أنقاض وخرائب ؟

إن شيئا واحدا أوقن به أن الإسلام برىء من هذه الأوضاع وأن تركه هو الذى أزرى بنا ومكن عدونا أن يسبق هذا السبق .

إننى أكتب هذه الكلمات وفى دماغى طنين من خبر سمعته من الإذاعة هذا الصباح .

مقتل ١٦ أصوليا قريبا من إحدى العواصم !

إن بأسنا بيننا شديد ، وإن تنازعنا على حطام الدنيا رهيب وإن المسافة بيننا وبين الكتاب والسنة طويلة ، وردّدْت مناجاة شوقى لصاحب الرسالة :

شعوبك فى شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف فى عميق سبات

بأيمانهم نوران : ذكر وسنة ... فما بالهم فى حالك الظلمات !

* * *

لجّة من الأسى

غمرتنى لجّة من الأسى عندما طالعت فى الصحف أن اجتماعا تمّ بين وزير خارجية إسرائيل ، وبين ياسر عرفات فى «غرناطة»! آخر بلد تركه العرب بعد هزائمهم فى الأندلس . .

قلت : لماذا اختيرت «غرناطة» لتكون مقر هذا الاجتماع بين اليهود الأقوياء والعرب المستضعفين ؟

أهى مصادفة غير مقصودة ؟

أم هى تذكير بالهزائم القديمة والملك المفقود حتى لايجزع الفلسطينيون من قبول اتفاق غزة وأريحا ؟

إن الاجتماع فى هذا المكان أثار أشجانى ، وبصّرنى بطبيعة المنحدر الذى نهوى فيه ، صحيح أن الإسلام - بقيادة الترك - استطاع تعويض خسائره فى شرق أوروبا إذا كان قد انهزم غربها ، وصحيح أنه فتح القسطنطينية ، وكاد يدخل ڤيينًا عاصمة النمسا لكن الفتح العسكرى قليل الجدوى إذا لم يصحبه فتح ثقافى ، وإذا لم يكن معه جهاز جيّد العرض لتعاليم الإسلام ، والعرب وحدهم أصحاب المقدرة فى هذا المضمار ، وقد استطاعوا بعد طرد الرومان من الشمال الإفريقى كله أن يُقرّبوا الإسلام والعروبة من الجماهير المحرّرَة فأسلمت الشعوب وتعرّبت فى وقت واحد .

أما الأتراك فقد عجزوا عن مثل ذلك فى البلقان ، ولذلك اضطرب مستقبل الإسلام فى البلقان كله وكان مانشكو منه الآن !

ومن حقك أن تسأل : لماذا لم يؤلف العلماء العرب جماعات من الدعاة المدربين تساند العسكرية التركية ، وتشرح للناس حقائق الإسلام ؟ ما أظن الترك يمنعون ذلك أو يعترضونه مادام نشاطا علميا مجردا غير مشوب بمطامع الحكم ومنازعة أصحاب السلطة ، لكن الطبيعة العربية فيما يبدو لى كانت تستكثر الصدارة على الأتراك ،

وكان النزاع بين الجنسين سببا فى سقوط الخلافة العثمانية ثم فى سقوط العالم الإسلامى كله . .

ثم فى محاولات عنيدة مجنونة لاستئصال الإسلام نفسه !!

وهكذا دفعنا ثمن مخالفتنا لقوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ﴾ .[1]

إن الاعتبار بالماضى شأن العقلاء ، والمأزق الذى يحيط بالأمة الإسلامية الآن ضيّق معنت وما بدٌّ من جمع الشمل وتوحيد الكلمة ومواجهة خصم يعالن بالإجهاز علينا ، وقد بدأ هجومه لمحو التوحيد من أقطار الأرض كلها . .

إن الدفاع عن أركان الإسلام أمسى ضرورة مُلِحَّة فلا مساغ للاشتغال بالثانويات وإشعال النار من أجلها ولتتضافر الجهود فى مواجهة علمانيين ينكرون الوحى ويرفضون العقائد ويسخرون العبادات ويخدمون سائر الملل الأخرى ولا يتجرؤون إلا على الإسلام وحده .

* * *

(١) الأنفال : ٤٦ .

مغالطة..!

للمجرمين منطق عنيد يقلب الحقائق ويجعل المتهم بريئا والبرىء متهما . وكأن نعمة البيان التى وهبها الله للإنسان تحولت عن غايتها فأمست للتغطية بدل التجلية وللتزوير بدل التوضيح !

رأيت ذلك فى الحوار الذى وقع بين فرعون وموسى ، كما رأيته بعد ذلك فى كل حوار يقع بين المحقين والمبطلين .

يقول موسى لفرعون : ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [1] .

وما يطلبه موسى واضح أن يستخرج بنى إسرائيل من مصر بعدما كشفت الأيام عن استحالة بقائهم فيها ، وتبقى مصر عندئذ لأهلها وحدهم ولكن فرعون يردّ قائلا – بعد هزيمة السحرة – : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

ثم يمضى فى منطقه الكذوب قائلا : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾[3] .

فرعون يخاف من موسى أن يظهر فى الأرض الفساد !!

ومرة أخرى يقول فرعون لموسى وأخيه هارون : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[4] .

إن موسى يبدو فى هذا الحوار متهما مقلقا للأمن أما فرعون فهو معتدى عليه أومدافع عن نفسه وقومه !!

---

(١) الأعراف : ١٠٥ .　　(٢) الأعراف : ١٢٣ .

(٣) غافر : ٢٦ .　　(٤) يونس : ٧٨ ، ٧٩ .

هل عـرفت النسب التـاريخى لما يقـال الآن من أن الإرهاب العـربى يهـدد الوجـود اليهودى فى فلسطين ؟

العرب المطرودون من بيوتهم فى العراء يهدّدون اليهود الذين اغتصبوا البيوت وطردوا منها أهلها !!

وقد تكرر هذا المنطق فى صدر الدعوة الإسلامية فإن أبا جهل - فرعون هذه الأمة - قال عندما التقى الجمعان فى بدر : «**اللهم أينا كان خيرا عندك فانصره . اللهم انصر أهدى الفريقين وخير الفئتين . اللهم من كان أفجر وأقطع لرحمه فأحنه اليوم !!** »

كان أبوجهل يرى أنه صاحب حق وأن المسلمين على باطل !

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ . (١)

وإلى أن تنتهى هذه الدنيا سوف يبقى الخصام شديدا بين المؤمنين والكافرين ، يرى الملاحـدة أنهم أرقى عـقـلا وأرحب أفـقـا ويرى المؤمنون أنهم أعـرف بالله وأدنى إلى مرضاته . .

وهذا الوضع يوجب علينا مـزيدا من الرسـوخ والمقـاومـة ، ومـزيدا من الثـقـة فى الله والتوكل عليه ، إننى أنظر إلى مايدور من جدال بين أعضاء الأمم المتحدة ، فأشعر بأن المحامين عن الحق محـتاجون إلى مقادير أكـبر من الثبات والإيضاح ، ولكن الشعوب التى يمثلونها يجب أن تشدّ أزرهم باليقظة والكفاح حتى لا يقول أحدهم :

ولو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقـت ولكـن الرمـاح أجـرَّت !

أى ربطت لسانى !

فلتعرف الشعوب واجبها ولتنهض به مهما كان ثقيلا .

* * *

(١) النمل : ٤ ، ٥ .

تزوير غريب

عندما كان للشيوعية كيان ظاهر غالب كان الغربيون يكرهونها ويعدّونها الجبهة الأولى ضدهم . فهل كانوا يومئذ يحبون الإسلام أو يهشّون لأمته ؟ كلا ، بيد أن خشيتهم من الأسلحة الحمراء جعلتهم يخشون الروس وأتباعهم أشد من خشيتهم للأمة الإسلامية العزلاء ومن دينها المهزوم فى مواطن كثيرة !

فلما نكِّست أعلام الشيوعية وذهب خطرها ظهر للفور الشعور الكامن أوالحقد القديم ضد الإسلام وقيل إنه الخصم البديل الباقى بعد الشيوعية المُدْبرة !!

من الخطأ أن نحسب هذا شعورا طارئا ، إنه السرّ وراء مقررات غربية سابقة تقول إن اليهود أولى بفلسطين من العرب ، وأن عددهم يجب أن يتضاعف ولو دفع الغرب تكاليف الإسكان مساعدات أوقروضا وأن الدولة المصطنعة يجب أن تكون قوتها العسكرية أرجح من قوى جميع الدول العربية متحدة !! حتى إذا وقعت حرب سحق اليهود خصومهم بسهولة . .

هذه مقررات سياسية ثابتة فى موقف الغرب من العرب وجامعتهم ، ومن المسلمين عامة في المشارق والمغارب .

ومع أن الكاثوليك والبروتستانت سواء فى الضيق بالعروبة والإسلام إلا أن الكنيسة الإنجيلية أشد حماسا وأقوى شكيمة فى مناصرة بنى إسرائيل ، وأتباع هذه الكنيسة هم جمهرة السكان فى انجلترا والولايات المتحدة . وعندما أعلنت إسرائيل تهويد القدس تداعى ألف رجل من زعماء الكنائس الأوروبية والأمريكية وعقدوا مؤتمرا دينيا عنوانه «السفارة المسيحية الدولية» تأييدا لليهود وشداً لأزرهم ومحّوا للطابع العربى الإسلامى لمدينة القدس .

ويوجد الآن أكثر من ٢٥٠ منظمة دينية تعمل لهذا الغرض ، وهى تبشر بالعودة الثانية للمسيح ، وأنها سوف تقع فى صهيون ، وأنه لابد من تجميع اليهود هنا لاستقباله !!

ونتساءل نحن كيف سيستقبلونه بكفرهم القديم ؟ وطعنهم فيه وفى أمه ؟ أم بأفئدة أخرى . . ! !

الواقع أن نصارى أوروبا وأمريكا أبعد الناس عن رسالة المسيح « عيسى بن مريم » وأجهلهم بطبيعته ، وأن مؤازرتهم لليهود ضد العرب لا تترجم عن إيمان ، ولا عدالة! وأن القول بأن المسلمين هم العدو الطبيعى للغرب بعد زوال الشيوعية يدل على جهل فاضح ، فإن جمهور المسلمين هم الذين يؤمنون بعودة المسيح وتوحيده لله ومناصرته للحق وخذلانه للباطل . .

إن الإعلام الغربى يصور المسلم المعاصر بأنه إنسان عابس الوجه ، مقطب الجبين ، كبير اللحية يلبس العمامة على رأسه ويثير الرعب بقوله وعمله . . !

ولما كان المسلمون خُمس العالم فقد صوِّر هذا الخمس الأعزل المستضعف على أنه يهدد أوروبا وأمريكا بفوضاه وهمجيته !

وبهذا التزوير الغريب تستباح دماؤنا وأموالنا وأعراضنا فى أغلب القارات ، وتهزم قضايانا فى مؤسسات الأمم المتحدة !! ويمنع السلاح عن مسلمى البوسنة والهرسك حتى يتمكن خصومهم من استئصالهم . .

يجب أن ندرس موقفنا من العالم وموقف العالم منا ، وأن تتحرك أجهزتنا الإعلامية لدحر هذه الأكاذيب التى طمّت وعمّت .

* * *

تشويه

كره بعضهم كلمة الغزو الثقافى ، ونفى أن يكون ما حدث وما يحدث نتيجة عدوان مبيَّت على شعائرنا وشرائعنا وزعم أن الأمر لا يعدو حوار حضارات أوتلاقى تيارات فكرية مختلفة ينشأ عنه محو وإثبات ، أوذهاب أفكار وحلول أفكار أخرى . .

وهذا كله اعتذار عما فعل بنا الاستعمار العالمى وهروب عن مواجهة آثاره فى محارمنا ومعالمنا ، إن هذا الاستعمار بدأ احتلالا عسكريا لأرضنا احتلالا مشحونا بالبغضاء لديننا ولغتنا وحضارتنا وكل مقوماتها المادية والأدبية ، وقد سارع بمحو الشريعة وجعل الحكم بغير ما أنزل الله ! ثم أنشأ التعليم المدنى فارغا من العقائد والقيم الدينية وجعل مقاليد السلطة بيده ! ثم هجم على التقاليد الاجتماعية فأخذ يصبُّها فى قوالب جديدة لا ترتبط بكتاب ولا سنة! ثم وضع خططا اقتصادية محكمة تجعل شعوبنا مستهلكة لا منتجة ، وتجعلها عربة ملحقة بالقطار الغربى يجرها حيث يشاء طوعا أوكرها ، وغطى هذا كله بإعلام مكتوب أومقروء له طنين يذهب الرشد !!

فأين هنا حوار الحضارات ؟

إن الحوار أخذ وردّ ، وتبادل حر للأفكار والقضايا ، وبعد تام عن الختل والاغتصاب والإسلام فى حقيقته وأسلوبه دعوة حارة لهذا الحوار ، بل هو يعرض نفسه خاضعا للدليل!! ومستسلما لنتائج الفكر الذكىّ فى أولى عقائده ، واسمع قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .[1]

واسمع إلى هذا التساؤل وكيف يربط الإيمان بجوابه

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .[2]

---

(١) الأنبياء : ٢٤ .　　(٢) النمل : ٦٤ .

وعندما يزعم أهل الكتاب أن المستقبل لهم وحدهم ، وأن الحق معهم وحدهم يسألهم : أين الدليل ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .(١)

ثم يجعل القبول الإلهى واسع الرحاب فسيح الجانب لكل من أخلص قلبه وأحسن عمله ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .(٢)

والآيات على أننا أهل الحوار ، وأن حضارتنا تقوم على العقل المؤمن لا على العقل الفارغ لا حصر لها ، فكيف نخشى حوارا ونحن الذين ابتدعنا الحوار ؟ ؟

إن الغزو الذى نواجهه يعتمد على التفوق العسكرى والقدرات المادية الكثيرة ، وهو سافر الوجه عندما يستبقينا ضعفاء ويستبقى خصومنا قادرين !

للوثنية الهندية أن تملك السلاح الذرى ، أما باكستان المسلمة فلا . .

ولليهود أن يملكوا السلاح الذرى أما العرب المسلمون فلا . . !!

إنه يقول لنا انقلوا ما شئتم من حضارتنا ، نستطيع أن نصدِّر إليكم أجود الأنبذة المعتقة والروائح المنعشة وآخر ما ابتكرت الغرائز المهتاجة من ملابس الليل أوالنهار ، وإذا شئتم صدَّرْنا لكم الإيدز . . ولن نَضِنَّ عليكم بأدوات القتال ، ولكن الذخائر وقطع الغيار تجيئكم وفق مانشاء . . !!

إن الغزو الثقافى أخبث مآلا من الغزو العسكرى ، وقد انهزمت ألمانيا واليابان عسكريا بيد أن كلتيهما ، احتفظت بشخصيتها فلم يمر ربع قرن حتى عادت كلتاهما أقوى مما كانت . .

الغزو الثقافى محو للكيان الذاتى وتشويه متعمد لملامح أمة . . !!

ويحزننى أن أنظر إلى نتائج هذا الغزو منذ بدأ حتى اليوم ، فأرى خسائرنا فادحة فى الرجال والنساء ، والأهداف والوسائل ، والأفراد والهيئات ، أما المؤسسات الدينية الحارسة لجوهر الأمة فإن لججا هائلة تثور حولها ، وهى تقاومها ولا تدرى ما النتيجة ؟ أتغرق أم تظفر بالبقاء ؟

---

(١) البقرة : ١١١ .

(٢) البقرة : ١١٢ .

وجهوا بنادقكم بعيدا..

أظن الولاء للدين لم يبق على شدته الأولى فى كثير من الأرجاء .

إن الإنسانية المطلقة اجتذبت عشرات الدول واستطاع العنوان العلمانى أن يفرض نفسه على هيئة الأمم وعلى أنواع من الأنشطة البشرية الأخرى ، وأظن رجال الأديان هم المسئولين عن هذه الهزيمة فمواريثهم السلبية فسحت الطريق أمام مذاهب وفلسفات ماكان لها أن تظهر أبدا وأجرؤ - وأنا أحد علماء المسلمين - على القول بأننا - نحن المسلمين - لم نحسن العمل بديننا ولا العمل له ، وأن هزائمنا فى فلسطين والقدس وغيرهما كانت عقوبات عادلة للغش الثقافى والبَلَه السياسىّ اللذين أصبنا بهما .

وأبدأ وأنا أتحدث مع رجال الأديان الأخرى فأذكر حقيقة إسلامية خافية ، ونحن نعتقد أن العمران البشرى لا يحتكره دين واحد ، إن تعدد الأديان أمر مأنوس فى وعينا وفى معاملاتنا ، يستحيل أن ننفرد نحن أوينفرد غيرنا بهذه الأرض .

ويسعنى أن أقول للآخرين ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .[1]

﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾[2]وفى معاملة أهل الكتاب الأولين يقول الله لنبيه

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ .[3]

الاختلاف بين البشر لابدّ منه ، ولكنه ليس سبب تظالم وتخاصم ، ويستطيع المسلم أن يتزوج كتابية فيعيش دينان فى غرفة واحدة !

فكيف تضيق بهما الأرض الفضاء . . ؟

إننى أعتب على أهل أديان أخرى أن يعتبروا الإسلام دينا خارجا على القانون ! .

---

(١) الكافرون : ٦ .

(٢) يونس : ٤١ .

(٣) البقرة : ١٤٥ .

وأن يستبيحوا المسلمين ويعتبروهم جماعات من البشر غير جديرة بحق الحياة ، وأن يتوارث هذا اللَّدد حتى يتم إسقاط دولة الإسلام ، واختفاء شعار التوحيد فى أغلب الأقطار !!

وقد هززت رأسى عجبا وأنا أرى الوحى الإلهى يداس فى صمت مع إباحة اللواط والسحاق والبغاء وأدران جنسية أخرى ! والصامتون هم أعلى الناس صوتا فى اعتراض الإسلام ومطاردة شرائعه !

إننا نحن المسلمين نريد أن نعامل معاملة طبيعية أى يُعترف بحقنا فى الحياة ، وبحقنا فى الدعوة إلى ديننا بالحسنى ، لا نحب أن نفتن أحدا ولا أن يفتننا أحد .

إن العالم أجمع يواجه أزمة دينية شديدة .

دعونا نشارك فى تفريج هذه الأزمة .

دعونا نقنع الناس بأن الله حق وأن لقاءه حتم وأن وحيه واجب الطاعة ، وجهوا بنادقكم بعيدا عنا ، إن المادية فى طريقها لاكتساح كل شىء . .

* * *

مالكم.. كيف تحكمون؟!

الفرق واضح بين المجاهدين والمتطرفين ، ولكن أعداءنا يتلاعبون بالألفاظ والمصطلحات ويريدون تحريف الكلم عن مواضعه .

فالذين قاتلوا دون هدم مسجد «بابرى» فى الهند والذين يستعدون للموت دون آلاف المساجد المهددة هناك ليسوا متطرفين ، وإنما هم مجاهدون مخلصون نذكرهم بالتقدير والدعاء . .

والذين يحافظون على عروبة فلسطين ، ويستميتون دون تهويد القدس ويقاتلون العدوان الصهيونى ليسوا متطرفين ، وإنما هم مسلمون صرحاء لهم شرفهم ومكانتهم فى نفوسنا .

والذين يحزنون لتعطيل شعائر الإسلام وشرائعه ، ويذودون تكالب الاستعمار الثقافى والتشريعى على بلادنا ، ويجتهدون فى إحياء تعاليم الإسلام ليسوا متطرفين وإنما هم مؤمنون مقدورون يجب أن يعانوا ويُنصروا . .

إن التطرف لون من الغلو الممجوج ، أوتحويل العادات إلى عبادات ، أوالنوافل إلى فرائض ، أوتسليط النظر البليد على تراثنا الفقهى ليعوقه عن الانطلاق والحركة الواجبة . .

أما أن يقول الهندوس إن المدافعين عن دينهم ومساجدهم متطرفون ، أويقول اليهود عن حماة القدس والأرض والعرض إنهم أصوليون منبوذون ، أويقول الشيوعيون والعلمانيون عن دعاة الحكم الشرعى إنهم رجعيون فهذا لعبٌ بالألفاظ ، وزيادة فى الكفر ومكر سىء بالإسلام ومستقبله . .

لقد نشرت «المسلمون» فى عدد مضى نبأ التعاون بين إسرائيل والهند على محاصرة الإسلام .

فعجبت إذ يقول سفير إسرائيل فى الهند : إن كلا من الهند وإسرائيل يواجه خطرا مشتركا من الأصوليين الإسلاميين ، وأن هناك دولا إسلامية تشجع الإرهاب الأصولى . . إلخ .

لقد تحوّل المقتول إلى قاتل وتحوّل المعتدى عليه إلى خصم مخوف .

إن معالم الإسلام فى الهند وفلسطين مهددة بالمحو ، والخطط توضع لإزالة دين وحضارة ، دين قام على التوحيد وحضارة قامت على التسامح !!

المطلوب الآن : لا إسلام فى الهند ولا إسلام فى فلسطين . . الوثنية وحدها صاحبة السلطة فى الهند ، واليهودية وحدها صاحبة السطوة فى فلسطين ، بل لا فلسطين هناك ، توجد إسرائيل فقط . . !!

ثم تتآمر المحافل الدولية والطوائف العاملة للغزو الثقافى على تسمية المدافعين عن كيانهم وتراثهم بأنهم متطرفون . . !

فى هذه الفوضى المائجة ، وهذه الغارات الملحاح نطلب إلى المكافحين المسلمين أن يتشبثوا بالشكل والموضوع ، وأن يمزقوا الأستار عن نيات الأعداء وأن يظلوا مسلمين صرحاء . .

* * *

مقتل الخلفاء..

فى كوم الأسئلة التى وجدتها أمامى بعد انتهاء محاضرتى ، سؤال استوقف انتباهى لأنه يحمل تشكيكا واتهاماً للعصر الإسلامى الأول ، أعنى دولة الخلافة الراشدة ، يقول : أين الرضا واستقرار الحكم وتأييد الجماهير إذا كان ثلاثة من الخلفاء قد ماتوا قتلى ؟

أدركت أن السائل تأثر بالحملات التى يشنها الغزو الثقافى على الإسلام وتاريخه كله !

قلت : إن دولة الخلافة قامت بعد زوال المستعمرات المسلّحة التى أقامها اليهود فى جزيرة العرب ، وبعد زوال الجبروت الفارسى ومصرع آخر الأكاسرة ، وبعد فرار الرومان من أرضين ظلوا بها أكثر من ستة قرون ، وتركهم للشام وما وراءه ، ومصر وما وراءها فى أعقاب هزائم رهيبة . .

والغريب أن الفرس والروم واليهود كانوا يحيون داخل جزيرة العرب حياة عادية ، ومن اليسير تحت رداء الإسلام أن يخفوا عداوتهم للدين الذى قضى عليهم ، وللدولة التى قامت باسمه !!

هل كان هؤلاء الموتورون يحيون بصدور سليمة ؟ ويعيشون رعايا طيبين ؟ ولا أدرى لماذا أحسنا الظن بهم ؟ ولم نحسن الحيطة منهم ؟ وكيف يستريح الخليفة إلى الذهاب إلى المسجد من قبل صلاة الفجر إلى ما بعد العشاء ، لا حارس له فى طرقات المدينة أو داخل المسجد ، والأعداء الأخفياء كثيرون ؟

إنها طيبة مثالية خطيرة ، كانت لها نتائجها الوخيمة ! ثم لماذا لم يكن للدولة جهاز مخابرات ذكىّ ينظر بدهاء إلى حاضر الأمة ومستقبلها ، ويرصد أعداء الأمس حتى إذا بيّت أحدهم شرا أطفأ النار قبل اندلاعها . .

أليس من المضحك المبكى أن يقول «كعب الأحبار» لعمر إننى أجد مقتلك فى التوراة !

إن هذه الفلتة على لسان «كعب» فضحت التآمر على الخليفة الثانى الذى تم بين رجال من الفرس واليهود والدهماء كما ذكر التاريخ بعد فوات الأوان، ومما يستحق التأمل أن «كعبا» إلى يومنا هذا يُعَدُّ من المحدثين ! ! ومن العجائب أن يذهب «سعد بن عبادة» ضحية مؤامرة لإثارة الشقاق بين الأنصار والمهاجرين، ثم يقال : إن الجن هى التى قتلته !!

وترقب مجىء الوفود إلى المدينة لقتل عثمان، فتسأل : من حرّكهم ؟ ومن رسم الخطة لهم ؟ ومن صحبهم فى فوضاهم حتى مقتل الخليفة الثالث ؟ أكان للدولة جهاز مخابرات يدرى ما هنالك ؟

إن أعداء الظلام حبكوا الفتن لضرب الإسلام فى صميمه، ورجال الدولة الإسلامية يعيشون فى عالم المثل مشغولين بالعبادة، والجهاد فى وضح النهار وتحت أشعة الشمس.

إن التاريخ البشرى لم يعرف حاكما أعدل من عمر، ولا أنبل من عثمان، ولا أطهر من علىّ وجماهير المسلمين تعرف هؤلاء الرجال على أنهم أئمة هداة، وأعلام فى طريق الحق، وما ينحرف عنهم إلا شقىّ ! إن مصارعهم أدمت قلوب المؤمنين فى كل عصر ومصر، ولعلنا نتعلم من تاريخهم ألا نأمن لأعداء الله، وأن نجعل دولة الحق وراء سياج من الحذر واليقظة.

* * *

النظام العالمى الجديد

فى أوائل هذا القرن كانت انجلترا وفرنسا وعدة دويلات أوروبية تستعمر أقطار فيحاء من العالم القديم ، ثم دفع الله الناس بعضهم ببعض ، وأخذت ظلال الاستعمار تتقلص ، ومع انتهاء الحرب العالميتين الأولى والثانية تحررت المستعمرات ، وتراجع المستغلون إلى الوراء قليلا حتى يتقنوا حيلة أخرى لاستعمار العالم مرة أخرى بأسلوب أدهى وأرقّ وكان المسلمون فى أرجاء العالم ، من بين الشعوب التى التقطت أنفاسها واستعادت - على نحو مَّا - حريتها ، وللمسلمين اليوم نحو أربعين دولة مستقلة ، ويتوزعون على ثلاثين قومية أخرى .

ونحن انطلاقا من تعاليم ديننا لا نفكر فى ظلم أحد ، وإنما ننظر إلى موقف الآخرين منا فنسالم من سالم ، ونخاصم برغمنا من خاصم ، ونعرض عليه بين الحين والحين السلام . . !

وأريد أن أتساءل - والإنسانية تتابع النظام العالمى الجديد - ما الموقف منه ؟ وماذا أفدنا من النظام العالمى القديم ، وماذا يمكن أن نفيده من النظام الجديد ؟ وهل يُعامل المسلمون بعدالة فى هذه الدنيا ؟

إن هيئة الأمم فى عهدها السابق اتخذت قرارا بإنشاء دولة إسرائيل ، فإذا البولنديون والروس وجموع من الشعوب ، يرسلون يهودهم إلى الأرض العربية فيطردون أهلها من قراهم ومزارعهم وينفذون خطة مرسومة بتهويد فلسطين !!

إن الدول الخمس الكبرى ، وعشرات من الدول الأتباع اتخذت هذا القرار - وهى مستريحة الضمير - ! وأضحت إسرائيل الولد الشقىّ المدلّل الذى تبنته هيئة الأمم ، وتركته يضرب الجيران ، وقد تنهره وهى تبتسم إذا زاد على الحدّ فى شقاوته وما تفكر أبدا فى تأديبه !

وإسرائيل الآن تُسْتَعْطَفُ لتترك بعض ما غنمت للعرب البائسين ! ترى هل ترقّ ؟

ذاك فى النظام العالمى القديم! أما فى النظام العالمى الجديد فقد انحلّت دولة «يوغوسلافيا» وتكونت على أنقاضها دول كثير ، بعضها مسلم ، والآخر مسيحى . فأما القسم المسيحى فقد اعترف العالم به ودافع عنه حتى استقر وضعه ، وأما القسم المسلم فقد قرر النظام العالمى الجديد إماتته ببطء ، وترك وحوش الصرب تسفك وتفتك وتعد وتغدر وتجيع وتُظمىء ، وتبتذل أغلى ما فى الدنيا من أعراض ودماء . .

والدول الكبرى تنتظر وتدمدم بكلمات ظاهرها الغضب وباطنها الرضا ، وكانت تستطيع أن تمنع هذا الشر كلّه أوبعضه لو تحركتْ بجدّ ، وغضبت بصدق ، لكن الدم الإسلامى رخيص فلا داعى لتكلّف البكاء . .!!

ليس أمام المسلمين إلا أن يعودوا إلى الركن الذى يأوى إليه القَلِقُ فيأمن والمستغيث فيغاث !

إن علاقاتهم بالإسلام ليست عزيزة عليهم فى ميادين شتى ، فهل يحتمون بربّ الدين ، ويُحيُون دينه ؟ فى هذا اليوم يجىء النصر ويستريح الهائم ، ولا نشكو الهوان بين الناس ، ولا نرجو الخير من النظام العالمى القديم أو الجديد .

* * *

خيفةٌ من الإسلام

تحت عنوان «عقيدة استبدادية أخرى تتسرب إلى الغرب» نشرت «نيويورك تايمز» مقالا يقطر حقدا على الإسلام وأمته ، ويثير القلق والوجل ضد انتشار دعوته ويناشد حلف الأطلسى الاحتياط ضد العدوان الإسلامى المرتقب !

وأريد اقتطاف عبارات من هذا المقال الذى يمثل الفكر السائد فى الغرب حتى يعلم المسلمون ما يراد بهم وكيف ينظر إليهم ؟

قالت الصحيفة الكبيرة : «إن الأصولية الإسلامية تتقدم بسرعة لتصبح التهديد الأساسى للسلام العالمى»! وقالت : «إنها تشبه التهديد النازى والفاشى فى الثلاثينيات والتهديد الشيوعى فى الخمسينيات» وقالت : لقد أسلم فى بريطانيا - وحدها - بعد الصحوة الإسلامية ٢٠٠٠٠ مسلم أغلبهم من طبقة المتعلمين الوسطى والعليا ويفضّل هؤلاء العيش فى أجواء منعزلة هادئة لأسباب خاصة مع الاحتفاظ بأسماء إسلامية ومع الخضوع التام لكلمات الله فى القرآن الكريم » .

وقالت : «إن الإنجليز الذين اعتنقوا الإسلام اختاروا منهجاً دينيا معتدلا يبعدهم عن المادية الحديثة ويوفر لهم السلام النفسى ويعدهم الخير فى الآخرة» وقالت : «لا نفهم السبب الذى جعل هؤلاء الرجال والنساء - وقد عاشوا فى جو ديمقراطى - يعتنقون عقيدة ترجم الزناة وتقطع أيدى اللصوص» !

وأضافت : «من المناظر المألوفة فى «السعودية» - لأنها تطبق الأحكام الشرعية - كثرة ذوى العاهات » ! ونسارع إلى القول بأن ذوى العاهات فى (السعودية) أقل من أمثالهم فى أوروبا وأمريكا ، وقد عشت شخصيا فى مكة سبع سنين فلم تقطع أيدٍ تبلغ أربعا أوخمسا خلال هذه الفترة . !

ثم أوصت الصحيفة أن تمنع الدول الغربية عن دعم المدارس الإسلامية ، فإن الروح الإسلامية فى امتداد وقد اتسعت دائرة الأصولية فى الشرق الأوسط وحوله . وحذرت من أن الإسلام أول هذا القرن كان يظهر جماعيا فى صوم رمضان أما الآن فأثرياء المسلمين يبنون المساجد فى «تركيا» و«تونس» و«الجزائر» وشعائر الإسلام تبرز هنا وهناك !

ذاك ما نشرته صحيفة أمريكية كبرى ، وهو صورة لما تنشره أمهات الصحف الأوروبية والأمريكية . .

ولما كنا نحن المسلمين نتعرض لأزمات عالمية ومحلية كبيرة ، ولما كانت تعاليم الإسلام وتشريعاته تواجه حربا شعواء فنحن نتساءل : من الذى يطلب النجدة ويصرخ لما نزل به ؟ نحن أم من يعتدى علينا ؟ أم كما قيل : ضربنى وبكى ! وسبقنى واشتكى . .

الجامعة الإسلامية

عندما وفد علينا الاستعمار الثقافى بفكرة القوميات الضيقة قاومها أهل الإيمان بفكرة الجامعة الإسلامية على أساس أن الإسلام أساس أخوة عامة تلمّ أتباعه فى المشارق والمغارب ، وتجعل المسلم فى القارة الهندية أولى بأخيه فى المغرب الكبير !

والحق أن المسلمين على اختلاف أوطانهم لم يستهينوا بروابط الدين ، وبرغم عوامل التوهين والتعرية ظل نداء «**يا أيها الذين آمنوا . .** » **يجمعهم حيث كانوا** .

وجدير بالنظر أن أوروبا التى انقسمت دولا شتى على أساس مبدأ القومية أخذت تتقارب بقوة حتى لتكاد تتحد طاوية كل أسباب الفرقة والوحشة! وقد تابعت إحدى جلسات «البرلمان الأوروبى» فوجدت مندوبين عن اثنتى عشرة دولة ، انتخبتهم شعوب أوروبا انتخابا حرا مباشرا ووكلت إليهم أن يبحثوا المستقبل على نحو يجمع ولا يفرق ، حتى لقد تساءلت : هل ستقوم ولايات متحدة فى أوروبا كما قامت ولايات متحدة فى أمريكا؟ إن أسرة جديدة تتكون فى أوروبا تجمع بين أعضائها عددا من الدول العظمى ، وتوشك أن تفرض نفسها على العالم أجمع ! ترى أين نحن من هذا التطور فى العلاقات الدولية ؟

وتأملت فى وضع المؤتمر الإسلامى ، إن الفكرة جليلة ، والمهم أن تنفخ فيها روح الحياة حتى يقوم المؤتمر المرموق بتوحيد أمتنا فى مجالات كثيرة !

وقد جدّ اليوم ما بعثنى على القلق !

إن التبشير العالمى يتاجر بآلامنا وإذا سمع بأرامل أويتامى أومنكوبين خفّ على عجل ليعرض عونه المريب مادًّا شباكه لسرقة العقائد وقد انتهت حرب الخليج ولقى الظلمة عقابهم ، وسمعنا عن مآسٍ تقع للأكراد والعرب تستحق الدرس والعون .

فهل نهرع لأداء واجبنا قبل أن يسبقنا الآخرون ؟

إن مستقبل الأكراد تحفّه الأخطار ، بل لقد أذيع أن القوات المتحالفة تركت وراءها ٤٠ طنا من اليورانيوم المستنزف فى الكويت وجنوب العراق كانت تستعمل فى

الطلقات الخارقة للدروع ، وهذه المواد المتخلفة سامة كيماويا ولها إشعاعات ضارة ويخشى أن تسوق الموت البطىء إلى الآلاف من المسلمين . .

والمسلمون فى أرضين واسعة تمر بهم أزمات خانقة ويتعرضون فى مسائهم وصباحهم للحتوف ، فهل يُشغل كل منا بما لديه ، وينسى حقوق إخوانه ؟

تذكرت ما ذكر فى سيرة الشيخ محمد رشيد رضا من أن الغم كان يساوره لآلام المسلمين حيث كانوا ، فقالت له أمه يوما ، وقد أصبح مهموما مغتمّاً : هل مات اليوم فى الصين أحد المسلمين ؟

إن بعد المكان لا يلغى حقوق الإيمان ، ونحن مسئولون عن مسلمى الفلبين كما نسأل عن مسلمى وادى الفرات أو وادى النيل . .

لقد تقارب الزمان والمكان واستطاعت الكشوف الحديثة أن تجعل أجيال البشر يحيون فى دار واحدة! لا سماعا بالآذان ، ولكن رؤية عين من خلال قنوات التلفاز ، والناس كلهم عبيد لإله واحد ونحن مكلفون شرعا أن نعرفهم حقه ، وأن نبصرهم حكمه! ألم يجعل الله العرب الأمة الوسط الشاهدة على العالمين ؟

فلنعرف رسالتنا ولنقم بأعبائها ، ولنكن - كما علمنا رسولنا - جسدا واحدا إذا اشتكى بعضه تحرك كله بألم متجاوب وعون متبادل .

عندما ذهبت «الأم تريزا» الراهبة الكاثوليكية النشيطة إلى ألبانيا سرحت عينى فى الفضاء ، وتصورت بقايا الأمة الإسلامية هناك بعدما انهارت السلطة الشيوعية إن تسعة أعشار السكان مسلمون كانوا يكتمون كلمة التوحيد خوفا من البطش ، وكانوا لايجدون مسجدا يصلون فيه لأن المساجد غلقت أوتحولت إلى مخازن . . وقد تحرروا اليوم وهم يتلفتون ليروا إخوان العقيدة فإذا هم يرون طلائع التنصير !!

إننى أهيب بالعرب أن يحملوا الراية ، وألا تذهلهم العروبة عن الجامعة الإسلامية .

* * *

الشاذلى بن جديد

قضيت فى الجزائر قرابة خمس سنين كادحا إلى ربى ، جاهدا فى سبيل دعوته ، عرفت خلالها الشاذلى بن جديد الذى استدعانى للمشاركة فى تأسيس الجامعة الإسلامية بالجزائر ، وأشهد أن الرجل كان مؤمنا حسن الإيمان ، غيورا على دينه ، مقيما للصلوات الخمس ، وقد أدى هو وأسرته مناسك الحج !!

وما عرضتُ عليه مشكلة تعترض قيام الجامعة إلا حلّها ، وإذا كانت هذه الجامعة قد نهضت فالفضل لحماسه الدينى ، ورغبته فى ترسيخ الإسلام بالجزائر وضمان مستقبله . .

ولكى نعرف قيمة هذا الصنيع نذكر أن الساسة قبل مجيئه كانوا علمانيين يؤمنون بقومية عربية غريبة عن الإسلام ، وقد ألغوا التعليم الدينى بجرَّة قلم ، وحلّوا الوزارة المشرفة عليه ، واستولوا على مبانيه كأنها غنائم حرب !

وقد كره الاتجاه اليسارى فى ميدان الاقتصاد ، وأعاد كثيرا من الأملاك لأصحابها ، وأعاد الحرية التجارية إلى الأسواق ، وسمعت منه أن ديننا لا يعرف كلمة الاشتراكية ، وأن تطبيقها فى الجزائر جرَّ الخراب على الفلاحين ، والمنتجين والمستهلكين جميعا . . وأشهد أنه أوصانى - وأنا وزملائى نبنى الجامعة - أن نبتعد عن الغلاة ، وأن نخرج علماء لهم بصيرة نيرة فى خدمة الإسلام ، يعرفون طبيعة العصر الحاضر ، وحال الأمة الإسلامية المتردِّية ، ويؤثرون التجميع على التفريق والوفاق على الخلاف!! وَتَرَكَ ضمائرنا فى رقابة الله ونحن نؤدى هذه المهمة الصعبة . .!

وقد تركت الجزائر بضع سنين ، ولكنى أتابع أخبارها ، أبتهج لما يسرّ ، وأنقبض لما يحزن! وعندما أجريتْ الانتخابات الأخيرة كنت واثقا من أن الرئيس المؤمن لن يسمح بتزويرها! والحق أن موقفه كان صعبا ، فإن الجمهرة من جبهة الإنقاذ كانت تريد التطويح به وتتعجل إجراء انتخابات الرياسة للمجىء بغيره !! وبلغ علمى أنه حاول التفاهم معها ولا أدرى ما تم ؟ ثم هناك جبهات أخرى لها وزنها قررت ألا تسمح لجبهة

الإنقاذ بالمرور ، وتحت ضغط هذه المتناقضات قرر الرئيس أن يستقيل . . ذكرت كفاح الرجل ونظافة يده وصدق إيمانه ثم ذكرت قول الشاعر :

إن الأمير هو الذى يضحى أميرا يوم عزله !

إن ضاع سلطان الولاية لم يضع سلطان فضله !

ويبقى بعدئذ حق النصح لمن خلفوه ، وحق النصح لكل من يخدم الإسلام فى الجزائر ، إننى أناشد الجميع أن يبتعدوا عن سفك الدماء ونشر الفوضى ، أعتقد أنه فى ظل الأناة والرفق يمكن تقديم أيادى بيضاء للإسلام فى حاضره ومستقبله يستطيع الحكام الجدد أن يُحرِّموا بعض الجرائم الخلقية والاجتماعية التى يبيحها القانون الوضعى اقتداء بأوروبا ويستطيعون كبح جماح الشيوعيين والعلمانيين الذين يضيق صدورهم بالإسلام وتعاليمه ، وتستطيع جبهة الإنقاذ أن تعمل بين الجماهير لدعم التربية الدينية ، والأوضاع الاجتماعية ، وأن تزداد خبرة بمعالجة الأزمات الاقتصادية التى تأخذ بخناق الجزائر وتكاد توردها المهالك ! هذه نصيحة مخلصة أرجو لها القبول .

حدث فى الجزائر

أعرف أن الله هو الحق المبين ، وأن من فى السماوات والأرض عبيده المفتقرون إليه وهو الغنى عنهم ، وأن محمدا أمير الأنبياء عبده ، وأن جبريل أمين الوحى عبده ، وأن ارتفاع مكانة بشر أوملك هو بقدر استغراقه فى العبودية وتلاشيه أمام جلال الألوهية الباهر القاهر . .

عرفت ذلك من تدبر الكتاب الكريم ، ومن دراسة الرسول العابد القائد . .

لم تسُقْنى إلى هذا المعتقد عصا ، ولم تدفعنى إلى نشره غاية دنيا . .

لكن ناسا فقدوا القدرة على الفهم والتفهيم ظنوا أنهم يخدمون الإسلام بوسائل أخرى فوقعت فى الجزائر أحداث مستغربة !!

هدمت مساجد لأن بها قبورا وقبابا ، ونبشت مقابر الشهداء وسحقت العظام والجماجم أوحرقت لأنها ذريعة إلى الشرك !!

استغربت ما وقع ، وقلت : ما بهذا يخدم التوحيد أوتصان العقيدة ، أغلب الظن أن أصابع أجنبية من وراء هذه الفتنة .

إن المراد تمزيق شمل الجميع حتى إذا هجم اليهود لإقامة إسرائيل الكبرى لم يقف زحفهم صف مرصوص !

وتذكرت أمرا مشابها وقع فى مصر ، لا بأس من ذكره . . وقبل إثباته هنا أروى ما وقع لعمر بن الخطاب عندما كان يتسلم بيت المقدس ، فقد حان وقت الظهر وهو فى الكنيسة يتسلم ثالث الحرمين ، وعرض الأسقف على الخليفة أن يصلى فى مكانه !

لكن عمر أبى ، وخرج وصلى فى مكان آخر ، وشرح موقفه للأسقف الطيب قائلا : لو صليت هنا لجاء المسلمون من بعدى واستولوا على المكان قائلين : هنا صلى عمر !!

وعمر حريص على بقاء الكنيسة لأصحابها يؤدون فيها مشاعرهم كما يحبون ، لا يشركهم أحد فيها !!

إن عمر الراشد يرفض اغتصاب أماكن العبادة للآخرين ، ويحرص على استبقائها لجماهير المؤمنين بها ، لا يذادون عنها ولا يراعون بها !!

وقد قلت : إن الإسلام أول من اخترع حرية التدين ، ونادى بها وأقام الحياة المحلية والدولية عليها . .

ومن هنا عجبت لما سمعت بأن محاولة وقعت لإحراق كنيسة وجزمت بأن أصابع أجنبية تعمل فى الخفاء لاقتراف هذه الآثام . .

إن الغوغاء لاعقل لهم ، وربما سمعوا كلمات مريبة من أشخاص يتحركون فى الظلام ، فيرتكبون ما لا يقره ديننا العظيم ويسيئون إلى تعاليمه الواعية الهادية . .

وعندى أن المأساة كان من السهل اجتنابها لو ترك المجال للتيار الدينى الراشد كى ينير الأفئدة وينظم الصفوف . . وذاك ما لم يقع! بل الذى وقع أن بعض العلمانيين الكذبة تركوا يتكلمون ليزيدوا الطين بلة ، ويزيدوا الأمور فوضى .

ولن ينتفع بهذه البلبلة إلا العدو المتربص من وراء الحدود ينتهز الفرصة ليثب ، ويقضى على كل شىء ، ويدمر الحاضر والمستقبل جميعا .

كبوة الجزائر

مازلت أؤكد أن العلمانيين العرب يكرهون الإسلام ويوجلون من عودته إلى الحياة العامة وظهور شعائره هنا وهناك .

وقد سمعت من إذاعة لندن أن الأذان مُنع من التلفاز «الجزائرى» ، فلن يعلن بعد اليوم! وأن ذلك تم إرضاء للفرنكفونية التى تريد تجريد المجتمع من الصبغة العربية والإسلامية لينفسح المجال أمام الثقافة الفرنسية وحدها . .!

والتلفاز الجزائرى هو المصدر الأول للإعلام ويجىء الراديو بعده ، ولا ريب أن هذا التصرف إساءة كبيرة للإسلام والمسلمين ، وخيانة لمليون ونصف من الشهداء الذين ذهبوا فى كفاح الاستعمار الفرنسى ، واستبقاء الجزائر عربية مسلمة . .

إن الأذان نداء الحق ودعوة جهيرة إلى الله وتذكير بالصلوات المكتوبة وتطهير للجوّ من تيارات العبث والغفلة و عوْد متجدِّد بالبشرية إلى خالقها .

وإن كان للحضارة المادية طنين يكابر منطق الإيمان ويغرى بعبادة التراب وحده!

فـــلا الأذان أذان فى منائـــره !   إذا تعـــالى ، ولا الآذان آذان . .!!

ومع ذلك فإن بقاء هذا الصوت القدسّ له أثره وخطره ، إننى قد أكون مستغرقا فى فكرة أومسترسلا فى عمل ، أومستريحا من جهد . فإذا شق الأذان حجاب الصمت ، وقرعت كلمة الله أكبر الأسماع ، تجاوبت معها لفورى وأيدت الداعى بترديد التكبير معه ، ومعروف أن التكبير من الباقيات الصالحات ، وأنه هدف النشاط الإسلامى كله ، وأن شهادة التوحيد المنهج العملىّ لهذه الغاية ، وأن «محمدا» هو القدوة وسيرته هى الرائد ، وأن الدعوة إلى الصلاة والفلاح ترشيد للسلوك وكبح للشهوات واهتمام بالآخرة ، ثم يختم الأذان مرة أخرى بالتكبير والتوحيد توكيدا للغاية والوسيلة .

إن الأذان برنامج حياة ونشيد تقوى وبر ، ولذلك جاء وصفه بأنه دعوة تامة ، فيقول كل مسلم **«اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته »** .

أما الذين يضيقون بالأذان ويكرهون صداه فى المجتمع ويمنعونه من أدوات الإذاعة فهم من تَعْنيهم الآية الكريمة فى دلالاتها الواسعة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ممَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ .(١)

إن الأذان لا يستغرق أكثر من دقيقتين ، فهل الإذاعة التى تسرف فى اللهو والتسلية تضيق بهاتين الدقيقتين ؟

(١) البقرة : ١١٤ .

فى ثلاثة مواضع

من ثلاثة أسابيع غزت جسمى علة مُعْنتة ألزمتنى الفراش وأقعدتنى عن واجبات شتى! قال لى الطبيب : احمد الله لأن الجلطة التى أصابتك كانت فى الساق ، وكان من الممكن أن تبلغ القلب أو المخّ !

قلت : الحمد لله على كل حال ، لو بلغت القلب لوقفته أوالمخَّ لأتلفته ، لكن كليهما بقى قادرا على استقبال الأوجاع من أحوال أمتنا وأزماتها الخلقية والسياسية ، لقد ازددت سقاما على سقام . . !

بعد اجتياح الكويت فى بطشة من بطشات الجبابرة ، وبعد فوران التوجس هنا وهناك من فتكة مشابهة ، ثم مجىء الجيوش وتتابع الأحداث وانتشار الفوضى قلت فى نفسى : هذه أيام بالغة السوء! ماذا حدث ؟

من شهر واحد كان الصف مجتمعا فكيف انصدع ؟ وكنا نتحدث عن إنقاذ فلسطين فإذا بيضتنا تستباح وتدحرجت القضية الأولى للمسلمين فإذا هى تقع على الثرى ثم تستخفى لنرى أنفسنا أمام قضايا أعقد !

ماذا فعل العرب بأنفسهم ورسالتهم ؟ إننا أمة تنتحر! وقع زمامها فى أيدى الشياطين فإذا هى كما حدث القرآن الكريم من قبل ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .[1]

اليهود يد واحدة تضربنا بقوة ، عبيد البقر يد واحدة تزهق أرواحنا بالمئات فى المساجد ! .

الناس فى شرق أوروبا وغربها يتجمعون ونحن وحدنا نفترق ! .

ماذا يفعل العرب بدينهم ودنياهم .

فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم يتحدث العرب عن أنفسهم أنهم لو حملوا

(١) الأنعام : ٦٥ .

أمانات الوحى لكانوا أرعى لها وأبرَّ بالناس ممن سبقوهم فى هذا الميدان! فهاهم أولاء حملوا هذه الأمانات فما رعوها حق رعايتها ولا شرفوها محليا أوعالميا فى هذه الأيام العجاف .

فبم علّق القرآن على هذا السلوك ؟ قال : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ .[١]

إن صور التكذيب للقرآن شتى ، والذين يقدمون الإسلام قسوة لا رحمة فيها ، أوثروة لازكاة فيها أوسلطة لا شورى فيها أوحظوظا لا عدالة فيها ، هؤلاء جميعا مكذبون بالدين .

إن المسلم يصطبغ وجهه بالقار عندما يرى عرب الكويت يطلبون النجدة من «بوش» حامى إسرائيل ، ويرى بوش عند حسن الظن به !

لقد جاء فى الحديث الصحيح : «**إن هذا الأمر فى قريش ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا قسموا أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منهم صرف ولا عدل**» أى لاتوبة ولافداء!! فهل فعلنا ؟

إن العرب بهذه السياسات التى عرفوا بها ينتحرون .

وويل للجماهير اللاهية من علمانيين يحكمون وجاهلين يفتون .

* * *

(١) فاطر : ٤٢ ، ٤٣ .

قانون لأعمال همجية

استوقفني فى إحدى الإذاعات حوار مريب بين رجل وامرأة! فقد أبدى الرجل رغبته مراوداً المرأة عن نفسها فقالت له : لا ، إن لى صديقا!! فحاول التشكيك فى إخبارها هذا ، فأكدت له أن هناك صديقا وهبت له حبها ، وعليه هو أن يبحث عن أخرى ليرمى عليها شباكه . . !!

هل ترى أثر الإيمان فى هذا الكلام ؟ هل تجد مكانا لخشية الله ؟ أهناك ظِلٌّ لدين ؟

إن الإثم وُلد ونما تحت عنوان الصداقة ، واستراحت إليه ضمائر الأفراد . . ويبدو أن الحضارة الحديثة هى أقدر الحضارات على استجلاب عناوين شريفة للأعمال القذرة . . !

ذكرت ذلك وأنا أقرأ فى الصحف ما أسدته الولايات المتحدة أخيرا «لإسرائيل» إنها خزّنت لديها كل أسلحتها التى استخدمتها فى حرب الخليج وزادت على ذلك أن دفعت ثلاثة أرباع نفقات برنامجها الجديد فى تطوير حرب الصواريخ ، وهو يتكلف مئات الملايين من الدولارات ، ثم رأت أن ذلك غير كاف فمنحتها عشر طائرات من أحدث ما أنتجت من أدوات الدمار! لقد تم ذلك تحت عنوانٍ «الصداقة» !!

ما أشرف العنوان وأقبح الموضوع ! إن هذه الصداقة دعم لصلف اليهود ورفضهم لكل هدنة مع العرب ، وإصرارهم على اغتصاب الأرض والعرض ، ومُضيِّهم فى إقامة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل ، وتأكيدهم أن الانتفاضة الباسلة المستميتة لوقف العدوان لا قيمة لها ولا أثر ، ولو بقيت سنين . .

والذى لفت نظرى هو الشكل القانونى للأعمال الهمجية وراء غلاف من الدفاع العادى . .

وأهل الأرض كلهم يعلمون أن أمريكا صديقة لإسرائيل ، فهى والدتها وحاضنتها وحاميتها ، وقد أعلن الرئيس بوش رضاه وسروره لأنه شارك فى نقل يهود الحبشة إلى فلسطين ، ولعله ظن ذلك من العبادات التى يتقرب بها إلى الله يوم الأحد أو يومى السبت والأحد معا . .

المهم أن أوروبا وأمريكا حريصتان على أن يكون عملها مشروعا ، موافقا للقوانين الدولية !

أما العرب فلهم منطق آخر . . وعنتريات جديرة بالدراسة ! ماذا - عندما شعر العراق بالقوة - لو تحرك تحت عنوان تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة المعطلة ؟

فيقول لسكان الأرض أجمعين : إن الهيئة الدولية سقطت مكانتها بتعطيل اليهود لقراراتها ، ونحن بالقوة سوف ننفذ هذه القرارات .

أما كان الجو العالمى سيتغير تأييدا له ؟ أما كان العرب كلهم سيعملون معه ؟ أماكنا سنغلق الطريق أمام كل تهمة بأننا - معشر العرب - لا نعرف حقوق الإنسان ؟

لكن عبدالناصر قديما حسب اليمن طريقا إلى فلسطين ، وصدام حسين حسب الكويت طريقا إلى فلسطين ، ولم تكن الهزيمة كفاء هذا الجهل الغريب . . بل الأمر العجب أن القانون الدولى كان العلم الخفاق فوق الحلفاء الذين خفوا لنجدة المستضعفين . .

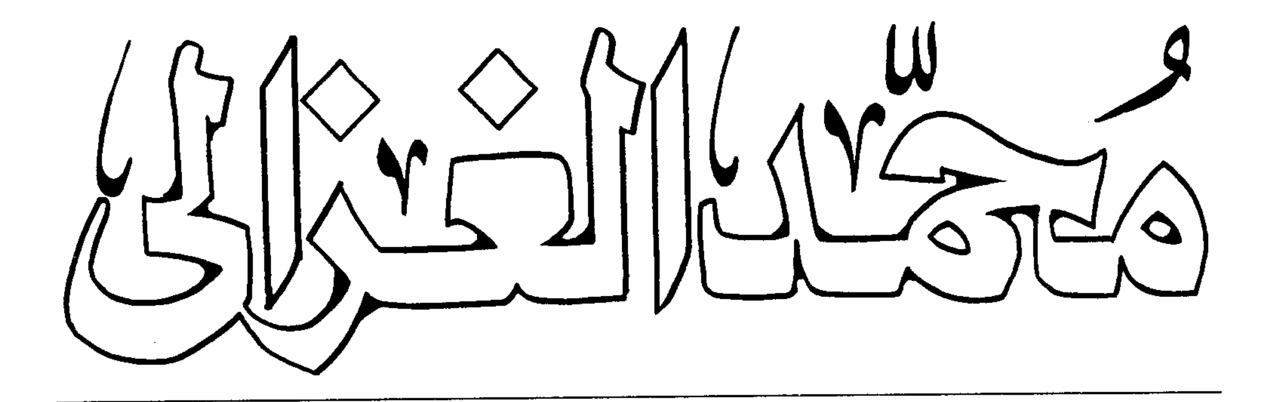
وضاعت مع فلسطين بعد ذلك أقطار أخرى ، أوهى فى طريق الضياع ! فأين منطق العقل ؟

* * *

الفهرس

مؤلفات فضيلة الشيخ
محمد الغزالى





الجرعات الأخيرة من

الحق المر

16

الجزء السادس



العـــنـــوان: الجرعات الأخيرة من الحق المر (الجزء السادس) .
المؤلـــف: الشيخ/ محمد الغزالى .
إشــراف عـام: داليا محمـد إبراهيـم .
تاريخ النشــر: الطبعة الرابعة يناير 2005م .
رقــم الإيـداع: 2003/ 1633
الترقيم الدولى: ISBN 977-14-2061-5

الإدارة العامة للنشــر: 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864(02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) ـ 8330289 (02) ـ فــاكس: 8330296 (02)
البـريد الإلكتـرونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مـركـز التـوزيع الرئيـسى: 18 ش كـامل صـدقى - الفـجـالة - القـاهــرة - ص . ب : 96 الفجـالـة - القـاهــرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) ـ فــاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البـريد الإلكتـرونى لإدارة البـيع: sales @nahdetmisr.com

مـركـز التوزيع بالإسكندرية: 408 طـريـق الحريــة (رشـــدى)
ت: 5230569 (03)
مـركـز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبـد الســلام عــارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشـركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقــع البيــع على الإنترنت: www.enahda.com



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ربما اعتمدت وسائل الإعلام الحديث على الصورة الساخرة أو الخبر الموجِّه أو التعليق السريع . . فإن القارىء المعاصر يشغله عن الإسهاب ما هجمت به الحياة من تعقيدات وهموم . .

ولما كنت واحداً من الذين يحملون أعلام الدعوة ويرابطون على ثغور الإسلام فإنى أخذت أرمق كل حركة مريبة تصدر عن خصومنا - وما أنشطهم فى هذه الأيام - لأنبه خطوط الدفاع المترامية ، وأدفعها لاتخاذ الأهبة ولزوم اليقظة .

وأعداؤنا لهم باع طويل فى الفكر السىء ، والإساءة إلى الرسالة الخاتمة ، وتاريخهم إمتداد لماضى ملىء بالغارات ، وهم فى هذه الأيام يضمّون إلى الحروب الساخنة غزواً ثقافياً كثير الشعب ، مَخُوف العواقب !

ومن هنا كانت كلماتنا ذات موضوعات شتى ، تستمد سطورها من الواقع ، وتعتمد على إثارة الوعى الكامن فى أفئدة المؤمنين ، وحسبها أن تكون كضوء البرق الذى يكشف الظلام ، ويوضح الطريق . .

إنها كلمات قصار لكنها فواتح لمعانٍ جمة عند أولى الغيرة على دينهم وأمتهم .

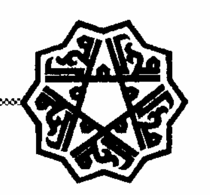
أحياناً تتناول القيم ، والأخلاق ، والتاريخ ، والفقه وأحياناً تغوص فى واقعنا الحىّ لتشد أزر المجاهدين فى سبيل الله ، وتحق الحق وتبطل الباطل ، وجماهير المسلمين - فى يومهم الحاضر - بحاجة إلى هذه اللفتات ، فإن مناسباتها إن مضت تكررت على مرّ الأيام ، حتى لتحسب أن ما يتمخض عنه الغد صورة لما كان بالأمس ، وتدبر قوله تعالى : **﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون ﴾** .

وستظل كلماتنا - بتوفيق الله - وميضاً يبرق بالإيمان ، ويحامى عن الحق .

وفى هذا الكتاب حصاد لثمرات القلم خلال عامين حافلين بالأحداث ، أرجو أن تكون منه عبرة تنفع المؤمنين .

محمد الغزالى

القسم الأول



حقوق الله ثم حقوق الإنسان

يعلق بذهنى من أيام الصبا ما قرأته فى الصحف عن سقوط الحكومة المصرية القائمة ، بعد اكتشاف حادثة تعذيب شائنة فى مركز البدارى بمحافظة أسيوط ، الرئيس الذى سقط هو إسماعيل صدقى ، والرئيس الذى أتى هو عبد الفتاح يحيى ، وكان ذلك كله فى أيام النظام الملكى السابق .

كان اشمئزازنا كبيراً لما وقع ، واشتد غضبنا لعدوان الشرطة على سجين مستضعف وقلنا لعل ذلك لا يتكرر أبداً .

وذهب النظام الملكى ، وحل محله نظام جمهورى شعبى وفى يوم ما ، ذاع أن بضعة وعشرين شاباً من الإخوان المسلمين قتلوا فى سجن طرة ، حصدهم الرصاص فى ساعة من نهار ، وأمر بدفنهم سراً ، ولم يسقط وزير ولا خفير !!

وفى ظل الرعب السائد كانت العيون مفتوحة من الدهشة ، والأفواه مغلقة من الجبن والناس يمشون متخاذلين فى معركة الخبز ، أما معركة الحرية فلا حديث عنها ، فقد نسيت أنباؤها مع لباس الجوع والخوف الذى ارتدته مصر .

لقد بلوت من خديعة العناوين ما أفقدنى الثقة بها .

ليست القصة فى نظر عنوان الملكية أو الجمهورية ، وإنما القصة ، ماذا تملك الأمة من حريتها ؟ وماذا تستطيع أن تواجه به حكامها ؟ .

أعرف معرفة اليقين أفكاراً هدمت فيها مدن على رؤس أصحابها ، ومات عشرات الألوف تحت الأنقاض ، وسدنة نظامها الجمهورى يبتسمون وينتفخون !!

وأعرف عشرات الأطفال والكهول صعقتهم الغازات الخانقة وهم لا يملكون حولاً ولاقوة ، بينما حديث القتلة عن الحريات لا يخفت .

إن خداع السياسة وضجيج الأذناب يعفيان على الحقائق ويجعلان الليل نهاراً والظلم عدلاً .

الغريب المفزع أن أكثر من ذلك يقع فى العالم الإسلامى ، العالم الذى يحلم بالحرية فلا تتحقق لها رؤيا . . ويسمع بأخبارها فى بقية الدنيا فيشتاق ويتلفظ ثم يقلد يائساً .

إن عدداً من الدعاة الإسلاميين فقد الإحساس بقيمة الحرية السياسية والفكرية ، وضرورة توفير العناصر التى تغذيها وتنميها ، وفقد الوعى بأن حقائق الإيمان فى غياب الحرية تضؤل وتنكمش حتى تختفى من الحياة ، وربما تحولت بعد إلى كفر وإلحاد .

إن الإيمان بالله فى ظل الاستبداد السياسى كثيراً ما يتحول عن معناه ومجراه ليكون لوناً من الشرك القبيح .

وقد رأيت عدداً من الإسلاميين فى فتنة الكويت والعراق يرسل أحكاماً مستغربة ، أو يطلق صيحات مستهجنة ، إن دلت على شيء فعلى أنه لا يعرف رسالة الدين بين الناس ، ولا وظيفة أصحاب السلطة فى خدمة الجماهير .

أريد أن أقول للمسلمين فى كل مكان ، إن تخلفنا الحضارى جريمة ، نحمل نحن عارها ولا يحمله الآخرون عنا .

وإن الأخطاء أو الخطيئات التى ارتكبها المسلمون داخل أرضهم هى التى استدعت القوات الأجنبية للمجيء من الخارج ، وإن العلاج ليس فتوى مضحكة بإعلان الجهاد ، وإنما هو إعادة ترتيب البيت كله ، ليعود للعقل الإنسانى مكانه وللخلق الإنسانى مكانه .

إن دين الفطرة لا وجود له فى بلاد تحيا على التصنع والتكلف والمراءاة والكذب .

إنه عندما تنوسيت عمداً حقوق الله تبخرت فوراً حقوق الإنسان .

* * *

رأس السنة ومستنقع الشهوات

لم أكن أظن المعصية فادحة الثمن إلى هذا الحد ، إن سعرها المعجل باهظ ، أما نتائجها المؤجلة فلا يعلم جسامتها إلا الله . .

قرأت هذا الخبر الذى يصف واحداً من أحفال رأس السنة الميلادية ، ثم استولى علىّ فكر عميق ، الخبر يقول : فى رأس السنة الأسعار دون دعم ، زجاجة الويسكى بـ ٣٤٠ جنيهاً ، والعشاء بـ ٢٥٠ جنيهاً .

زجاجة خمر واحدة تشترى بثلاث مئة وأربعين جنيهاً ؟ إن هذا المبلغ تشترى به ستة آلاف وثمانمئة رغيف !

حلوف واحد يحتسى شراباً من الإثم يكفى ثمنه لإطعام قرية من الفلاحين ؟ لماذا قلت حلوفا واحدا ؟ قد تكون معه أنثى يتبادلان السكر ويستمعان إلى الأغنية الشهيرة كلما قلت له : خذ . . قال : هات .

والعشاء المقدم فى هذا الحفل المائج ثمنه ٢٥٠ جنيهاً ، إن مرتب ستة من خريجى الجامعة . . يستقبلون به الحياة بعد كدح طويل ، يتجرعه هذا التائه فى مساء أسود .

والنساء الحاضرات قد انسلخن من الفراء الذى كان على أجسادهن ، فأمسين لحماً يتاجر فيه الشيطان من عالم الجن أو الإنس . وتوجد قطع من ثياب بقيت لأمر ما ، لكن هذا الأمر ليس ستر العورات على كل حال .

أما العطور فقد قال الراوى . . إنها تدوخ من يشمها ، ونظر المدعوون والمدعوات إلى راقصة تجيد فن الأفاعى فى الالتواء والامتداد .

قال الراوى : كانت الفتاة الراقصة تصدر أصواتاً أثناء الرقص انزعجت لها الزوجات وذهل لها الأزواج .

وانطفأ النور فى منتصف الليل ثلاث دقائق ، وفق تقاليد الاحتفال بانتهاء سنة واستقبال أخرى ، وكان الجميع على موعد مع هذه الظلمة المفتعلة ليعبث الذكور وليأتى النساء ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن .

إن عيسى وموسى ومحمد وسائر الأنبياء عليهم السلام يرفضون هذه المآسى أو هذه المعاصى جملة وتفصيلاً ، إن الأندية والفنادق فى هذه الليلة الحمراء تتحول إلى غابات طافحة بالكفر والفسوق والعصيان .

وأنا أعرف أن الحضارة الغربية لا تنظر إلى السماء ولا تفكر فى آخرة ، لكنها حضارة منتصرة ، وللنصر نشوة قد تفقد ذوى الألباب عقولهم إلى حين .

وسؤالى إلى العرب المهزومين والمسلمين المقهورين ، ما أقحمكم فى هذه الأحفال ؟ ما حملكم على المشاركة فى أرجاسها ومباذلها ؟ .

لماذا رضيتم بفقدان الشرف والأنفة ؟ وخنعتم لما نزل وينزل بكم من خزى ؟ إن الشباب الناضر فى فلسطين يدفن حياً أو تدق عظامه كلها حتى يبقى حياً كميت .

إن معركة الإسلام مع الشيوعية فى أفغانستان استنفدت ألوف الشهداء ولا تزال تطلب المزيد .

إن دينكم ودنياكم معاً يتهددهما الابتزاز والاغتصاب والكساد والجفاف ، وصنوف من الهوان المادى والأدبى لم تعرف فى هذا العصر الكالح بين أتباع دين آخر ! .

ماذا فعلتم بماضيكم وتراثكم ؟ ماذا تفعلون بحاضركم وقضاياكم ؟

إذا رقص المنتصر وانتشى رقصتم معه وفقدتم وعيكم ، وأنتم مغلوبون على أموركم فى ميادين العلم والإنتاج وشئون الحياة كلها .

ما أصدق قول القائل فى كل واحد منكم :

بعت دينى لهم بدنياى حتى . . . . . . سلبونى دنياى من بعد دينى

* * *



مأساة مصرى فى الخارج

لابد أن العربى المخلص سوف يشعر بالوحدة عندما يقضى أياماً أو أعواماً فى ربوع الولايات المتحدة ! خصوصاً العربى النابه فى ميدان العلوم الطبيعية والكيمائية ، إنه سيكون هدفاً لمؤامرات الصهيونية العالمية ، ترقبه وتختله لتقضى عليه إن استطاعت .

وقد طاردت الدكتور المشد حتى أجهزت على حياته ، كما اغتالت فتاة أخرى بدا عليها النبوغ وهى تعمل فى الميدان المحظور على العرب .

إن اليهود فى أمريكا هم الجنس المدلل ، وقد استطاعوا فى صمت أن يضعوا أصابعهم على مراكز التوجيه العلمى والإعلامى كما أن قدراتهم المالية مزدهرة أو طاغية .

أما العرب فقد أفلت منهم قلائل إلى مواقع علمية أو عملية حساسة ، أفلتوا وأيديهم على قلوبهم من المستقبل الغامض ، ففى هذه الولايات المتحدة يسمع العرب أن جنسا طفيليا يجب أن يزول « وادفع دولاراً تقتل عربياً » !

ويؤلف الحاخام (كاهانا) كتاباً عنوانه « شوك فى عينيك » أى أن العربى شوكة فى عين الإسرائيلى ، لا راحة إلا بإزالتها ، فهل يستغرب أحد مقتله ، وهو يثرثر بهذه الإهانات والتهديدات ؟ ذلك ما فعله « سيد نصير » المصرى الأصل والمتجنس بالجنسية الأمريكية .

وبين يدى الآن قصة محزنة للأستاذ الدكتور عبد القادر حلمى كبير علماء أبحاث الدفع الصاروخى بشركة « ايروجيت » للنفاثات الجوية .

والدكتور عالم واسع الخبرة ، دميث الخلق مستقيم السيرة ، وما وصل إلى منصبه إلا بكفاءته الرحبة ، وفجأة قبض عليه متهماً بالمساعدة على تهريب مواد محظورة إلى دول أجنبية ! والدولة المعنية هى مصر ، الحليفة الأولى للولايات المتحدة والتى تتعاون معها فى صناعاتها العسكرية وتسليحها العام ! !

مصر تتجسس على أمريكا وتحاول استكشاف أسرارها وتهريب ما تؤثر به نفسها من مزايا صناعية ! ! .

والذى ترافع ضد الدكتور عبد القادر قانونى صهيونى متعصب قدح ذهنه حتى كون اثنتى عشرة تهمة تستحق السجن ٩٧ عاماً .

ولكن المحكمة مشكورة اختصرت هذه القائمة إلى تهمة واحدة ، هى تصدير مكونات صاروخية إلى مصر ، وحكمت عليه بالسجن ٤٦ شهراً ، وذلك فى نهاية سنة ١٩٨٩ م ، كما حكمت عليه بغرامة ٣٦٠ ألف دولار إلى جانب مصاريف المحاماة وهى نحو ١٨٠ ألف دولار .

وزيادة فى النكاية بالدكتور عبد القادر اتهمت زوجته بمشاركته فى الجريمة ، وأخذ منها ابنا الرجل الجريح ليودعا فى إحدى مؤسسات التبنى ، ثم أخلى بعد سبيل الأم ووليديها ، وكانت المحكمة قد رأت حبس الدكتور فى سجن قريب من أسرته فى ولاية كاليفورنيا ، ولكن الصهاينة تمكنوا من نقله إلى سجن بعيد فى ولاية (أريزونا) زيادة فى تمزيق شمله ، ألا تستحق هذه المأساة تدخل مصر كى تخفف من آلام الرجل المخلص الذى اتهم بمساعدتها ؟

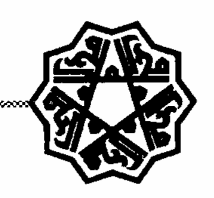
أعرف أن الأخوة الدينية قد غاضت من العلاقات المحلية والدولية فأين المواطنة ؟ أليس من الوطنية أن نذكر رجلاً قيل عنه : إنه حاول خدمة مصر وتطوير قوتها الحربية؟ وأين الرجال الذين عرفوا عبد القادر حلمى واستثاروا حميته لخدمة قومه ؟ أيفرون عنه فى محنته ؟

أعتقد أنه يجب عليهم تحمل ديونه كلها ، والوقوف إلى جانبه حتى يخرج طليقاً من سجنه !

ثم هذه الأسرة التى غاب عنها ، ألا من رفيق يواسيها أو صديق يؤنسها ؟ إن الرجال يعرفون أيام الشدائد لا أيام الموائد !!

يعلم الله أنى لم أر الرجل ولا واحداً من أسرته ، ولكن أنباءه بلغتنى من عابر سبيل ، فرأيت أن أذيعها ، لعل الناس يذكرون .

* * *



الرمم.. والقمم

سلمان رشدى - أو سيمون رشتى - كما سمى نفسه أخيراً ، فأر هندى ولد فى بومباى ، وتربى فى مجارى انجلترا ، فلما كبر كان صورة دميمة لحقارة البشر حين يفقدون الصدق والشرف ، ويحيون على الافتراء والاجراء .

سخرته القوة المعادية للإسلام ، وبسطت عليه حمايتها ، فشرع يكتب ضد الإسلام ونبيه ، والكتابة المرتقبة من مثله ، فكان صورة مستغربة للسباب القبيح .

وبعض الهجائين له قدرة على الأداء البليغ ، لكن هذا الهجاء الانجليزى كان سبة على اللغة التى يكتب بها ، لأنه لا يطبق إلا أسلوب الرعاع ، حتى أن أديباً انجليزياً كبيراً قال لوزير الداخلية البريطانى : إذا كان الرجل لا يساءل من الناحية الدينية ، فيمكن أن يكون من المعقول منع كتابه ، للشناعة التى ألحقها باللغة الإنجليزية ، لو كنت مكان الوزير المسئول لذهبت إلى حظيرة الخنازير لأخرج هذا الكاتب منها وأطرده من البلاد .

انظر كتاب الدكتور محمود دياب ، فى الرد على أكاذيب سلمان رشدى الذى ظهر أخيراً ، ولكن التعصب المحفور الذى يكنه البعض ضد الإسلام ، جعل الفأر الهندى يبقى فى حماية السلطة ، وعلى عينها ، باسم حرية الرأى .

ولو أن واحداً فى الألف من شتائم الكاتب ومفترياته وجه إلى ملكة انجلترا لمات ضرباً بالنعال فى أحد ميادين لندن ، وهل كان يترك شخص مغرم بوصف من يتحدث عنهم فلا يسبهم إلا بأنهم أولاد زنى ، ويرى أن جبريل كان يعشق هذا الوصف ، وأن رئيس الملائكة كان من مؤيدى اللواط ، وأن الله عجوز شرير ، وأن محمداً نبى مزيف ، وأن الحجاب عنوان على ماخور للمومسات .. إلخ .

والأوربى عندما يكفر لا يتجه ذهنه إلا إلى الغريزة الجنسية وانحرافاتها ، من أجل ذلك وجدنا كاتباً فرنسياً مدنساً يتهم المسيح ، عيسى بن مريم - وهو من أسمى نماذج الطهر والعفة - بتهمة الشذوذ .

وقد أيدت - والحق يقال - الجمهور الذى أحرق دار العرض لهذه الرواية الحقيرة ، إن الرعاع قد يسرهم أن يتطاولوا على القمم ، لكننا لا يجوز أن نأذن بهذا تحت أى عنوان ، وقد شعرت بالدهشة لوصف خالد بن الوليد بأنه سقاء ، ما هذا النعت ؟ وما علاقته بقائد منزلته العسكرية فوق منزلة نابليون فى القرن الماضى ومونتجمرى فى القرن الحالى ؟ والذى ثار فى نفسى أن القضاء الإنجليزى ترك سلمان رشدى ، لأنه لم يخرج على قوانين البلاد ، وليته صرح فقال : إنه أرضى مشاعر الحقد المشبوبة فى نفوسنا ضد الإسلام .

وعدت لأقرأ مقاطع رائعة من شعر الأستاذ فاروق جويدة ، يخاطب هذا السلمان فى زمن الردة والبهتان :

أكتب ما شئت ولا تخجل .. فالفكر مباح
يا سلمان ضع ألف صليب وصليب فوق القرآن
وارجم آيات الله ومزقها على كل لسان
لا تخش الله ولا تطلب صفح الرحمن
فزمان الردة نعرفه .. زمن المعصية بلا غفران
إن ضل القلب فلا تعجب أن يسكن فيه الشيطان
ولا تخش خيول أبى بكر .. أجهضها جبن الفرسان
وبلال يؤذن بين الناس بلا استئذان
أتراه يرتل باسم الله ولا يخشى بطش الكهان
فاكتب ما شئت ولا تخجل فالكل مهان
واكفر ما شئت ولا تسأل فالكل جبان

إلى أن يقول : اكفر ما شئت ولا تخجل ميعادك آت يا سلمان ..
دع باب المسجد يا زنديق وقم واسكر بين الأوثان ..
سيجيئك صوت أبى بكر ، ويصيح بخالد : قم واقطع رأس الشيطان .

والقصيدة جياشة بمشاعر اليقين والإنكار على هذا الوغد ولعلها أفضل ما قرأت فى وصفه .

أرض الميعاد أم أرض البغايا والأوغاد

قرأت ذلك الخبر فى صحيفة الأهالى ، فأثار فى نفسى التساؤل عن طبيعة الصراع الدينى ، الذى عادت إليه الحياة فى هذا العصر ، على نحو جدير بالدراسة ، والخبر ما أكده إسحاق بيريز ، وزير الهجرة فى إسرائيل ، من أن ممارسة الروسيات المهاجرات للدعارة أمر معروف . .

وقال إن هذه الظاهرة لن تختفى إلا بعد أن تحل السلطات اليهودية مشكلة البطالة ، فإن معظم العاطلين فى المدن هم السوفييت المهاجرين - إلى أرض الميعاد - وكذلك أكدت أورانامير عضو الكنيست عن حزب العمال ، قالت : إن حوالى ألف مواطنة سوفيتية هاجرن إلى إسرائيل ، يمارسن الدعارة ، وأن ٥٠٠ منهن يؤدين عملهن فى تل أبيب على أنهن يعملن مدلكات ، على حين يدعى النصف الآخر أنهن يشاركن الرجال المتوحدين حياتهم .

وأشارت وكالة (نوفستى) إلى أن أحداً لا يعرف متى تحل السلطات الإسرائيلية هذه المشكلة ، وهل فى الإمكان حلها ؟

إننى أرثى لحال أولئك البغايا ، ولست ألومهن على سقوطهن بقدر ما ألوم الساسة اليهود الذين استقدموهن ليواجهن هذه المأساة المعتمة .

أهذه أرض الميعاد التى يتجلى الله فيها على شعبه المختار كى يصلح به العالم ؟ إن دولة إسرائيل تقوم على الدين وتنتمى إلى الأنبياء ، وللقوم دعاوى عريضة فى نسبهم السماوى العريق .

وهم الآن فى قمة حماسهم ، وفى مرحلة الوثوب لإقامة إسرائيل الكبرى ، وحشر سائر الأقطار تحت علمها الطهور ، فهل تلك غايتهم ؟ .

إننى أحسب هؤلاء النسوة البغايا أزكى قلوباً من ساسة يحترفون المظالم ، ومن حاخامات يتاجرون باسم الله ، وإنى مكره على التصريح بأن حقيقة التدين أرفع مما يمارس أولئك الساسة والحاخامات من بغى وعدوان .

لو بقى أولئك المهاجرون والمهاجرات فى البلاد التى قدموا منها ، وأحسنوا العمل مع الله ومع الناس لكان شأنهم أفضل ، ولكانوا أقرب إلى الإيمان منهم إلى الفسوق والعصيان .

إن الأرض لا تقدس أحداً والباغى والبغى لا تزكيهم أرض الميعاد والله يمنح رضاه من يترفعون عن الدنايا ، ولو كانوا فى القطبين أو خط الاستواء ، وينزل سخطه بمن يسكنون الأرض المقدسة وهم يقترفون الرذائل والدنايا .

عندما ظهر الإسلام جعل الأرض كلها مسجداً ، وأتاح للناس كلهم أن يقتربوا من الله باتجاه قلوبهم وسناء ضمائرهم ، وحدد وظائف الأنبياء بالبلاغ المجرد ، فقال ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [1] .

إن بنى إسرائيل فى العصر الحالى يرجعون بالعالم القهقرى ويردون الدين إلى طور مجدب عقيم ، يجعلونه هيكلاً لرب الجنود ، ومثابة لحفنة من اليهود ، ولوناً من التعصب الأعمى والكبرياء المنكرة .

وقد ظاهرهم على هذا الفهم العفن رجال دين كذبة ، نسوا الإيمان العاقل أو العقل المؤمن ومشوا وراء ترهات لا تزيد الإنسانية كلها إلا خبالا .

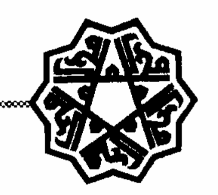
إن جعل الدين نبوءات وأحلاماً هو ضرب من الكهانة التى حاربها الإسلام ، لأنه لا يعرف الدين إلا إيماناً واضحاً وعملاً صالحاً ، وقد قال الله لأتباع القرآن وحملة الوحى الخاتم ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾[2] .

ماذا لو بقى اليهود فى أراضيهم بأرجاء العالم وأصلحوا صلتهم بالله ، وعاشوا بناة لا هدامين وأصحاب وفاء لا مصاصى دماء ؟ ونسأل داعميهم ومحرضيهم : هل من تقوى الله - فى منطق الصليبيين الجدد - أن يطردوا العرب من أرضهم ليحلو محلهم القتلة والبغايا ؟ أما لهذا الحقد من آخر ؟ ألهذا أنشأتم مجلس الأمن وهيئة الأمم ؟ .

---

(١) الأنعام : آية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) النساء : آية ١٢٣ : ١٢٤ .



هم .. ونحن

أليس عجيباً أن تكلف أمة ببناء إيمانها على دراسة الكون ، ومع ذلك تحيا محجوبة عن الكون ونواميسه وأسراره وقواه .

أهذه هى استجابتها لقول الله ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ .. ﴾[1] .

لو كانت أمتنا حين تكاسلت واستنامت تعيش على ظهر الأرض وحدها لكان وزر تخلفها على رأسها ، تعانى منه فى شئونها قلت أو كثرت ، لكن أمتنا فى سباق مع أمم أخرى لا تنام ، أمم لا رسالة لها ، أو لها رسالة مادية محدودة قوامها الباطل والهوى .

ومع ذلك فإن المبطلين يسابقون الريح نشاطاً وعزيمة ، ونحن ممثلى الحق جاثمون على الثرى ننظر ببرود أو بلاهة إلى الآخرين ، ولا نعى من رسالتنا شيئاً ذال بال .

الآدمية فى كتابنا علم عجزت عنه الملائكة ، وظفر به آدم وحده فاستحق الخلافة فى الأرض ، والآدمية فى حياتنا طعام وسفاد ، وتحاسد وتفاخر ، أى هى الحيوانية الهابطة ! ، الآخرون سيروا الأقمار الصناعية وأرسلوا مركبات الفضاء تزودهم بمزيد من المعرفة ، وفى الوغى لهم أظافر تخنق وتذبح وتصعق وتفعل المنكر بعدوها .

أما نحن فقد نتودد لهم مشترين من أسواقهم ، أو متزودين من غنائمهم أو مستعيرين من أسلحتهم ما نحتاج إلى تعلمه منهم قبل أن نحسن استخدامه .

أنا ما أشك فى أن هناك عطباً أو كسراً أو تلفاً فى كياننا الفكرى والنفسى جعلنا فى هذا الوضع المهين ، وما نصح أبداً إلا بذهاب هذه العاهات وعندئذ نصنع كما يصنعون .

---

(١) آل عمران : آية ١٩٠ ـ ١٩١ .

وقد أنظر إلى أنظمة الحكم هناك فأجد القادة بلغوا فى ثقافتهم أعلى شأو ، وفى تجربتهم أعظم خبرة .

ومع اقتدارهم على الرأى السديد فهم يستشيرون أهل الحل والعقد فى بلادهم ، ويستمعون بإخلاص إلى الرأى الآخر ، وإلى النصح المجرد ، وكأن على لسان كل منهم كلمة أبى بكر : « وليت عليكم ولست بخيركم ، إن رأيتم خيراً فأعينونى ، وإن رأيتم شراً فقومونى » .

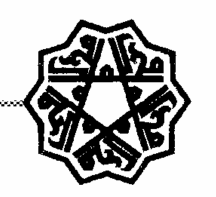
أما نحن فقد وقعت أمورنا بين أيدى أقزام متعالين متطاولين ، لا ندرى من أين جاءوا ثم تسمع الواحد منهم يقول فى صلف وزهو : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[1] .

قائد الحق تجرى على لسانه صيحة فرعون – قبحه الله – وقائد الباطل تجرى على لسانه كلمة الصديق – رضى الله عنه – .

أية موازنة تلك وما يكون المصير مع هذا البلاء فى الأحوال السياسية والعمرانية التى تسود أرض الإسلام . . . ؟

* * *

(١) غافر : آية ٢٩ .



من المجرمون حقا؟

أستحى من المقارنة بين مجالس الشورى عندهم وعندنا ، لقد تابعت المناقشات التى دارت بين الحكومات وممثلى الشعوب فى باريس ولندن والولايات المتحدة وقارنتها بما وقع فى بغداد ، وما وقع قبل ذلك فى عواصم أخرى شعرت بالعىّ والحسرة ، كيف أقارن بين الجد والهزل ، والقماءة والشموخ ، وسجال الأحرار وبُغام العبيد . . ؟

الحكومات هناك - وجلُها من رجال فارعين - تقف أمام ممثلى الشعوب وقفة المتهم أمام القضاء همه الأول والأخير أن يبرىء ساحته ، ويعرض جهده الذى بذل فيه طاقته ، فإذا ظفر بالبراءة خرج متهللاً .

أما فى أغلب العواصم العربية فممثلوا الشعب يقولون للزعيم بالروح والدم نفديك يا فلان . . أهذه مجالس شورى ؟ !

وهذا الزعيم رجل واحد ، وهو يمثل العدد الواحد ، ولكن الأفراد أعنى الأصفار التى تصطف عن يمينه تجعله ألفاً أو مليوناً أو ملياراً حسب كثرة العشاق الوالهين أو العباد الفانين !! .

وعندئذ لا يفكر بعقله الخاص بل يرى أنه يفكر بعقل الألوف المؤلفة التى ذابت فيه ، ومن حقه أن يقول : أنا الشعب ، إن المليم الواحد أمسى مليوناً أو ملياراً ، والويل لمن يتحداه أو يقف فى وجهه .

إنه لا يقف فى وجه « مليم » ، بل فى وجه « بنك » عامر الخزائن يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، والويل للشعوب التى تحيا على هذا النحو ، وتفنى وراء هذه القيادة ، إنها تحكم على نفسها بالموت المادى والأدبى .

الناس فى أرض الله الواسعة تشغلهم مآرب كثيرة وأهداف شتى ، هذا عالم يمشى فى الطريق وذهنه سارح فى قضايا علمية ، وهذا رب أعمال يكاد يذهل وهو غارق فى تثميرها وتنميتها ، وهذا وهذا . . . . .

لكن هناك ناساً شغلهم الشاغل كيف يقفزون ، كيف يتصدرون ، كيف يرأسون ويزأرون ويلبسون جلود الآساد ، وكيف يسيرون على هامات العباد ، هذا النوع من الناس لا يعرف إلا نفسه ولا يعبد إلا شخصه .

وبدل أن يكون هذا الصنف جذاماً يهرب منه الناس ، نجده في بعض البلاد المنكوبة أو المتخلفة يقوم بانقلاب إن كان ضابطاً ، أو ينفق القناطير المقنطرة إن كان غنياً ، وبأسلوب أو بآخر يتولى الزعامة ثم تتكاثر الأصفار عن يمينه - كما وصفنا - فإذا هو رسول العناية الإلهية الذى ينبغى التفانى فى نصرته ، والصياح حوله : نفديك بالروح والدم يا فلان .

فى الشرق العربى وغير العربى حملت الجماهير على كواهلها هذه الأوثان السياسية وداخت تحت وطأتها فما نجت منها إلا بموت مجهز أو انقلاب طارئ .

ترى من المجرم ؟ السيد أم المسود ؟ القائد أم المقود ؟ أليس هؤلاء الذين قال القرآن الكريم فيهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[1] .

هل مضاعفة العذاب الأخروى تغنى ؟ كلا ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [2] .

أين الرجال الأحرار ؟ متى تتضاعف أنصبتنا منهم ؟ متى يستخفى الأقزام ويخلون الطريق لأولى النهى ؟ لا نجاة إلا يومئذ ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

* * *

(١) الأحزاب آية : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الزخرف آية : ٣٩ .

نصيحة لقومى

لا ينفك عجبى من احترام المبطلين وترويجهم له ، واستهانة المحقين بحقهم وخذلانهم له .

لقد سمعت مع غيرى خبر تعطيل الإذاعة الإسلامية الخاصة بمدينة مارسيليا الفرنسية وحرمان مائتى مسلم من المغاربة وغيرهم أن يستمعوا إلى الصوت الوحيد الذى يربطهم بدينهم ولغتهم . . ومعروف أن فرنسا تمنع إنشاء مدارس لتعليم الإسلام واللغة العربية ، وأن الأطفال المسلمين ينشؤون تنشئة علمانية فرنسية على حين تظفر الطائفة اليهودية بقدرات على بقاء هويتهم ، واستدامة عقائدهم .

أعرف أن القرار الصادر بذلك شكوى إدارية - لا دستورية - وأن المشرفين على الإذاعة الإسلامية يقاومون بحماس ، لكنى يائس من النتائج القريبة والبعيدة .

ذلك لأن القرار الصادر جانبه الحياء والوعى ، فقد أقدم عليه أصحابه عشية أذنت مصر بإقامة جامعة فرنسية فى الإسكندرية وقد حضر « مسيو ميتران » حفل الافتتاح بعد ما أدى واجباته الدينية فى كنيسة سانت كاترين بطور سيناء .

أعند القوم ذرة من خجل أو تقدير للآخرين ؟

وقد افتتحت عدة دول عربية مسلمة قنوات فى إذاعاتها المرئية والمسموعة لفرنسا قيل إنها للتثقيف والتسلية .

أى خير يرتقب من هذه القنوات الأجنبية إلا توهين الشخصية العربية ونحت مقوماتها ومعالمها بمكر ودهاء حتى تنشأ أجيال لا تعرف ربها ولا دينها ولا تتجاوب مع لغتها وتراثها .

إننا نساعد الآخرين على إلحاق كل هزيمة أبية بنا .

الأمر خطير . . فهناك عدة ملايين من المسلمين فى كل من أمريكا وانجلترا وفرنسا مهددون بالذوبان فى محيط موّار بالانحراف وأسباب الضياع ، ويجب على الأوطان

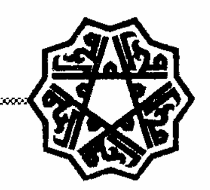
الأم أن تحافظ على عقائد المهاجرين ومواريثهم ، وأن تيسر لهم من القراءات والإذاعات ما يستبقى علائقهم بأمتهم .

بيد أنى أحس الخيبة والاكتئاب لأن هذه الأوطان الأم فتحت أبوابها للغزو الثقافى ويسرت للغزاة أن يسمعونا ما نكره ، ويطالعونا بما يغضب .

الدعوة الإسلامية مغزوة فى عقر دارها ، والأقمار الصناعية تُستغل استغلالاً واسعاً فى تضليل الجماهير ، وبعض الأغبياء لا يزال يتحدث عن حرمة التصوير وهو لا يدرى أن هذه الأقمار تحدد موقعه لتضربه بما تشاء وكيف تشاء ومتى تشاء .

إننى أنصح قومى أن يستشعروا خطورة الحاضر والمستقبل ، وأن يتواصوا بتعليم أنفسهم وأهليهم ومواطنيهم الأقربين والأبعدين ، وأن يحصنوهم ضد أمراض الحضارة فى الوقت الذى يستفيدون فيه من علوم هذه الحضارة وإمكاناتها الهائلة .

* * *



هؤلاء .. ألا يستحون؟

قرأت هذا الخبر فى صحيفة الوفد تحت عنوان « حملة منظمة لقتل أطفال الشوارع فى البرازيل » نقلته وكالات الأنباء من عاصمتها « ريودى جانيرو » يقول الخبر : كشفت الحركة الوطنية للدفاع عن أطفال الشوارع عن قيام فرق اغتيال بصيد وقتل المئات من الأطفال المتشردين فى المدينة خلال العام الماضى ، وقد بلغ عددهم - كما ذكر البيان الصادر - ٤٥٥ طفلاً وقع معظمهم فى أيدى فرق اغتيال تسعى إلى تخليص المدينة من المتشردين وصغار المجرمين .

وأكد البيان أن هذا الإحصاء منقول عن الأرقام الرسمية ، ثم أشار إلى احتمال أن تكون الأرقام الحقيقية أكبر من ذلك .

وقد نظرت فى تعريف عمر الطفل فى الاتفاقية الدولية التى صدرت أخيراً ، فوجدت أنه من نعومة الأظفار إلى سن الثامنة عشرة !! أى القتلى صبية ومراهقون وشباب فى سنه الباكرة ، ربما كانوا بين السابعة والسابعة عشرة ، المأساة رويت فى صمت وتناقلتها الوكالات المختلفة للأنباء ، وكأنها تنقل مباراة رياضية انهزم فيها فريق وانتصر آخر ، دون استبشاع أو إستنكار أو تعليق عاجب أو ضائق .

وتذكرت أن هذه الوكالات نقلت جَلْد سكير فى باكستان على أنه عدوان على الإنسانية ، واحتقار لحقوق الإنسان ، وقد قلت - وأنا أطالع الخبر الغريب - ترى ماذا كان يحدث لو طار هذا الخبر من بلد عربى يدين بالإسلام ؟ .

كانت الأقلام تلهب جلودنا ظهر البطن ، وتصف الإسلام وأتباعه بهمجية أو حيوانية بلغت الدرك الأسفل ، وربما نقلت جماعات الرفق بالحيوان عملها من ميدان الدواب إلى ميدان البشر .

وقد تنعقد مؤتمرات عاصفة خلال عام أو أعوام ، لا عمل لها إلا هجاؤنا وتحذير العالم من أى سلطة قد نملكها ، إننا خطر على الحضارة وسبة فى جبين الإنسانية كلها ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ودفنت جثث الصبية والمراهقين والشباب والصغار فى صمت .

وقد وقعت قصة أخرى لانتحار جماعى ذهب فيه مئات الشباب مع رئيس لهم من رجال الدين فى موجة من موجات الازدراء للدنيا واستعجال الآخرة ، وبعد نفض الأيدى من دفنهم أطبق الصمت على خبرهم ، فلم ينبس أحد ببنت شفة ، والبلد الذى وقعت فيه المأساة هى « غيانا » فى أمريكا الجنوبية .

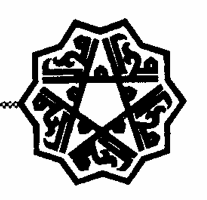
آه لو وقع هذا فى بلد إسلامى إذن لزلزلت الأرض زلزالها ، ولطخ وجه الإسلام بالأوحال وطولب بطرد الدولة التى وقع فيها الحادث من هيئة الأمم المتحدة .

أعرف المثل العربى الذى يقول : « إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه » والدنيا الآن ليست لنا ، فلا عجب أن تنتحل لنا التهم ويوصف غيرنا بكل محمدة .

إننى أسأل لماذا لا يتحول رجال التنصير عن عملهم فى بلادنا ، ويوجهون أنشطتهم إلى بلادهم التى يهددها الإيدز والإنحلال ؟ إن ميازيب شتى تصب أقذارها فى بلادنا التى ما كانت تعرف هذا السيل من الجرائم الخلقية .

هل شعار المحبة الذى يحملونه حقيقة أم هو غطاء لقلوب من حجر لا تحسن تربية النشء ، فتقوم بقتلهم جملة وتفصيلاً ، أما كان الأولى جمع هؤلاء الصبية فى محجر صحى أو معتقل سياسى ، ثم يشرف على تهذيبهم رجال رحماء يحاولون نقلهم من جو الجريمة أو التشرد إلى جو الصلاح والعمل المثمر ؟ ثم ألا يستحى الغربيون من الزعم بأنهم أساتذة لنا وساعون إلى ترقيتنا ؟ . . وكلمتى إلى المسلمين : ألا أيها النوام ويحكم هبوا ، ففراغ الدنيا من يقظتكم بلاء مبين .

* * *



المصيبة الكبرى

فى وصف خلائق العرب يقول أحد الشعراء :

إذا احتربت يوماً فسالت دماؤها   تذكرت القربى فسالت دموعها !!

هذا النزق الذى يسفك الدماء . . ثم تجيش بالبكاء ، قد يكون مسلك امرئ غضوب سريع الرجوع ، وإذا نما شره يكون مسلك أسرة ضعيفة الوعى حادة العاطفة ، لكنه لا يكون مسلك دول كبيرة ، ولا جماعات راشدة ، وعلى أية حال فإن الأمم فى شتى العصور تصون كيانها من ذوى الأمزجة المتقلبة ولا تضع زمامها فى يد متهور طائش .

وفى هذا العصر خاصة قامت مجالس الشورى بفرض وصايتها على تصرفات الحكام حتى لا ينزع الهوى بهم ذات اليمين وذات الشمال .

وما زلت أذكر رفض مجلس النواب والشيوخ فى الولايات المتحدة لاسم وزير الدفاع الذى عرضه الرئيس ، لأنه مسرف فى الشراب ، فاضطر الرئيس إلى اقتراع رجل آخر . . والرجال كثير ، والشورى ملزمة هناك ، أما العرب فلهم شأن آخر ، لا يعرفه دين صحيح ولا تقره دنيا ناضجة .

ولعل من هذا المسلك المدهش ما ثار من خلاف أخيراً فى أزمة الخليج . . كان من السهل أن تتفق كلمة العرب على أن يخرج العراق من الكويت ، وأن تعود الجيوش التى جاءت الجزيرة إلى بلادها ، أما أن يقول كلا الفريقين لصاحبه : أخرج أنت أولاً . . فهذا لون من العبث .

ويظهر أن هناك أمراً آخراً قاله لى بعض الناس ، قال لى : إن وحدة العرب غاية مهمة نسعى إليها جميعاً ، وفى سبيلها يجب أن نتجاوز عن بعض الهنات .

قلت : ما هذه الوحدة العربية التى تتحدث عنها ؟

أهى الوحدة التى عرفتها الجاهلية الأولى ويدعو إليها حزب البعث العربى الآن أو القوميون العرب ؟؟ والتى تهيل التراب على الإسلام ، وتعد محمداً أحد الزعماء العرب الأشاوس ؟ فلا وحى ولا ألوهية ولا نبوة ، وإنما علمانية واشتراكية .. إلخ ؟ .

إن هذه الردة الخسيسة داستها جماهير العرب ، وسودت وجوه أصحابها ، واعتبرتهم شر الكفار ، فاحذر أن تحدث عنها أو تنوه بها ، ويجب أن نحشو بالتراب هذه الأفواه النجسة .

قال : الصلح مع الدين ممكن ، و ... فقاطعته مستنكراً ليس الدين لغواً على الألسنة . أو مزاعم للطماعين القتلة .. الإسلام قبل كل علاقة بالله الواحد تعترف بحقه فى حكم العالم وفق ما شرع ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾[1] ، ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[2] .

إن الله حرم على نفسه الظلم ، وتريد أنت صناعة إسلام يأذن بالسفك والفتك والانتهاب والاغتصاب .

إن نبى الإسلام الذى محا الجاهلية الأولى استثنى حلف الفضول ، وقال : « لو دعيت به فى الإسلام لأجبت » ، فهل نقول للناس الآن باسم الإسلام : دعوا فلاناً يكذب أو فلاناً ينهب ، وسنصلح ذات بيننا ، وأخرجوا من أرضنا .

المصيبة الكبرى أن يتحدث عن الإسلام رجال لا يعرفون حقيقته ، ولا يدرسون تاريخه ، ولا يدرون ما يقع فى العالم الآن ، ولا يشعرون بالأوضاع المحرجة التى تكتنف الأمة ، ودينها ، وحاضرها ، ومستقبلها ، ولا يفطنون إلى المؤامرات الخفية التى حيكت للقضاء عليها .

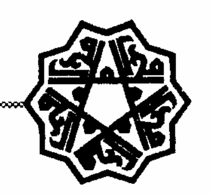
اللهم إليك المشتكى وأنت المستعان .

* * *

---

(١) الأنعام : آية ١١٤ .

(٢) آل عمران : آية ٨٣ .



ساحات دامية على خريطة الإسلام

دول البلطيق طلقت الشيوعية ، وتأبى البقاء داخل الاتحاد السوفيتى ، ويتعاون الشعب والحكم على قطع كل صلة بالماضى البغيض ، والظفر بحرية التدين ، وحقوق الإنسان والانطلاق مع العالم الحر إلى آفاق أرحب .

وفى الوقت الذى يقع فيه هذا الكفاح المقدور تحاول الحكومة الحمراء فى أفغانستان قهر الشعب المسلم مستخدمة السيف والنار لمد دخان الإلحاد وغيومه إلى كل شبر من الأرض الإسلامية المثخنة بالجراح .

فكرت طويلاً فى هذا التباين فوجدت الغزو الثقافى أفلح فى دار الإسلام أكثر مما أفلح فى أقطار أخرى ، ورأيت أنصارا للشيوعية يتشبثون بها بعد ما تفرق عنها أنصارها الأولون .

أحسب أن ما يقع يعود إلى تقصير الدعاة فى عرض الإسلام وشرح حقائقه حتى توهم كثيرون أن العودة إلى الإسلام تعنى العودة إلى حياة القبيلة ، والانغلاق دون فهم الكون ، وتجهيل المرأة وحبسها على توافه العيش .. إلخ .

هذا تفكير سخيف لم تعرفه الحياة الإسلامية عندما كان المسلمون العالم الأول وعندما كانت حضارتهم تعنى المعرفة والذكاء والعدالة والتفوق .

وقد تابعت فلول أمتنا الجريحة وهى تعذب تحت وطأة السلطات الكفور فانفطر قلبى ، هذا جمهور الأفغان تطارده الحكومة العميلة لموسكو .

ويقول محرر « لهيب المعركة » : إن أهل القرى من شبان وشيب تتساقط عليهم القنابل العنقودية فتدع بيوتهم رمادا ، ولا يجدون أمامهم إلا الفرار طالبين الأمان فى قرى أخرى ، وإن كان البرد شديداً ؛ والجليد يكسو أديم الأرض وليس معهم ما يقى من الصقيع والجوع فليتحملوا اللحاق بأقرب قرية مسلمة ، وليفروا من سلطان الكفر ، فبعض الشر أهون من بعض !! .

وأترك الشعب الأفغانى لأرى الشعب الإسلامى فى الهند ، المحاولات مستمرة لهدم المساجد ، ومحو العقائد ، والمليشيات الوثنية تقوم بهجمات وحشية على الشعائر الدينية ، بإيعاز من المجلس العالمى للهندوس ، وقد قتل وجرح مئات فى مدن « جيبور » و « أحمد أباد » و « قودا » و « برودا » و « بنجاور » .

المليشيات مسلحة ، والجماهير المسلمة عزلاء ترد بأيديها القنابل ، والبنادق ، وأمواجاً من الهمج لا يضبطهم فكر أو خلق .

وأنظر قريباً منى فأرى عرب القطاع والضفة مفروضاً عليهم منع التجول ، تحولت بيوتهم إلى مصائد يتحركون داخلها فحسب ، فإذا تجرأ على مجاوزة عتبة بيته رجل أو امرأة خطف روحه الرصاص !

قالت إذاعة لندن : إن الحقول خلت ممن يفلحون الأرض ، ويرعون الدواب ، واستحكمت أزمة القوت . أما الأمة العربية فإن فتنة الخليج قسمتها فريقين فريق يرى إعطاء الكويت لصدام حسين لعله يرضى ، وفريق يقاوم الجبروت ويحاول استبقاء ما كان على وضعه المعتاد .

وعجيب أن يتبلد الإحساس بالظلم على هذا النحو ، إننى أصارح أمتنا بأنها تسير نحو كارثة مخيفة وأتساءل إلى متى تبقى أنفسنا باردة ونحن نقرأ القرآن ، وتظل أنفاس اليهود حارة وهم يتلون ما لديهم .

إن كل شىء الآن يخدمهم حتى تذكرت قول الشاعر الساخر :

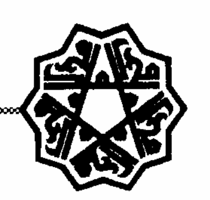
يا أيها الناس قد نصحت لكم   تهوّدوا فقد تهود الفلك

وماذا تكون النتيجة حين يأخذون كتابهم بقوة ، ونأخذ كتابنا بضعف ؟

يوم يكون إيماننا بحقنا أو هى من إيمانهم بباطلهم فلن ننال من عناية الله ذرة .

إن البعث العربى يجرد العروبة من الإسلام ، وإذا انخدع أحد به فقد خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

* * *



القرار الشؤم

بدا لكل ذى عينين أن إسرائيل هى الكاسب الأوحد فى فتنة الخليج التى اتسع نطاقها وعم بلاؤها .

إن العنوان الذى وضعه الحلفاء لهذه الفتنة هو حرب تحرير الكويت ، وما ينكر أحد أن الكويت قد احتلها العراق ، وأرهق أهلها ، وسامهم الخسف ، وأن قوى أجنبية سارعت لنجدتها .

ولكن هناك أطماعا ومطالب لأعداء الإسلام ، ربما واتتهم الفرصة خلال هذه الفتنة كى ينفسوا عنها ، أم يمهدوا لبلوغها . . . وليس هذا عيبهم ، وإنما عيب من أشعل الحرب وقاد الهجوم ، وتجاهل الملابسات ، واستهان بأخوة الإسلام وحقوقها .

وقد درست موقف إسلاميين كثيرين فى المغرب والمشرق وتساءلت : أين كان هؤلاء عندما قتل عشرات الألوف من الأكراد المسلمين خنقا بالغازات السامة ؟ ما سمعنا لهم صوتاً ؟ أين كانوا عندما دمرت مدائن عامرة فى إيران ، وصارت خرائب ومدافن ؟ ما سمعنا لهم صوتاً ! .

إنهم الآن يعدون حاكم العراق المكافح الأول للصليبية والصهيونية .

أعرف أن كرههم لأعداء الإسلام من وراء هذا الشعور الكاذب ، وأن الصيحات الخادعة ضللت تفكيرهم ، إننى أحذر المخدوعين من الانزلاق إلى تزوير الإسلام ، وحسبانه مؤيداً للعدوان ، وحليفاً للظالم ، وجاحداً للمظلوم .

إنه يمكن القول بأن الذى حدث كله كان مؤامرة لخدمة إسرائيل ، ودعم كيانها الذى بدا عليه الوهن .

وقد سار صدام حسين بقدميه إلى الشرك المنصوب كما يسقط الطير على الحب داخل الفخ فينطبق على عنقه ، ويورده المهالك .

لقد تخصص فى ضرب المسلمين حين يستضعفهم ، ومضى فى خطته تلك دون حساب للملابسات واختلاف الظروف ، فوقع له ما وقع ، ثم عانت جماهير المسلمين كلها ما عانت . وربط مستقبل الإسلام وأمته بتفكير فرد متسلط مغرور أمر لا يجوز ، والدهماء الذين يسيغون ذلك لا مكان لهم ولا وزن عند أولى الألباب .

إن عبد الناصر سنة ١٩٦٧ م زعم أنه سوف يرمى بإسرائيل فى البحر ، ودخل حرباً لم يحسن بدايتها ولا نهايتها فماذا كان ؟ انهزم خلال ساعات وتضاعفت مساحة إسرائيل مرتين ، وانتفضت أطراف وأوساط مصر والأردن وسوريا ، وصبغ القار وجوه العرب أجمعين .

إن القضايا الكبرى لا يجوز أن يستبد بالتفكير فيها واحد مهما كانت عبقريته ، وفى قتال يكون الدافع إليه الذود عن الإسلام ، ومحو الغبن والعدوان ، لابد للمقاتل المسلم أن يستند إلى الله ويخلص نيته ، ويستغيث به رجاء عونه .

أما استعراض العضلات وإبداء الفرعنة ، وإظهار الغرور فلا ثمرة له إلا الهزيمة ، لقد هزم الله المسلمين فى حنين لما أعجبتهم كثرتهم ، فكيف نخوض حرباً دينية نبدأها باغتصاب بلد سالم ، ونخوض حومتها ونحن سكارى بالغرور وبالخمر معاً .

إننى قد أقبل من مسلم أن يمقت أعداء الإسلام ، لكننى لا أقبل من مسلم أن يقول بجلافة : لا يهم ضياع الكويت إذا كانت وسيلة إلى ما هو أعظم !! ما هذا الأعظم ؟ غرور بباطل وانتظار لوهم ؟ إنه لا أعظم من إحقاق الحق ! .

لقد كان قرار احتلال الكويت شؤماً على صاحبه وعلى العرب والمسلمين فى المشرق والمغرب ، وهكذا يصدق قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[1] . أما تأييد الغوغاء لحاكم العراق فإنه يذكرنى بقول أبى تمام :

إن شئت أن يسود ظنك كله . . فأجله فى هذا السواد الأعظم . . !

ونحن ولله الحمد لا نأخذ ديننا من طغيان الكبراء ولا من أفواه الدهماء ، ونؤمل يوماً للحق أرشد وأسعد .

---

(١) سورة محمد : آية ١ .



طوق النجاة

مضت تقاليد أهل الإيمان أن يفزعوا إلى الله فى الشدائد ، وأن يلزموا بابه مرتقبين الغوث ، ونحن بطبيعة الخلقة ضعفاء إلا أن يسندنا القوى ، خطاءون حتى يمن الله علينا بالتوبة والعصمة والرضا .

والأيام التى تمر بنا حافلة بالنذر ، بل يكاد يتطاير منها الشرر الذى لا يبقى ولا يذر ! وينبغى أن تدفعنا دفعاً إلى الله مستغفرين مسترحمين .

أمتنا الإسلامية أضاعت رسالتها ، وعاشت صنفين من الناس : صنف واحد أذهله ثراؤه عن آخرته ، فهو مفتون بدنياه ، وصنف فاقد يحسد الأول ، ويريد أن يكون مثله .

وقد انخدع الفريقان برونق الحضارة المعاصرة فتعلقوا بأسوأ ما فيها ، وتركوا ما عداه ، فماذا كانت العقبى ؟ .

إن الدماء اليوم تسفك ، والويلات تقترب ، والفتن ظلمات بعضها فوق بعض ، والمستقبل غامض ، وكل شىء يلفتنا بقوة إلى انتهاج أسلوب جديد فى الحياة نرجع فيه إلى الإسلام الذى شرفنا الله به ، وكلفنا بحمله وتبليغه .

أموال المسلمين تحترق أمام أعينهم ، ومدخراتهم تغتال علانية ، والعقد النظيم انقطع خيطه ، وتناثرت حباته ، أفلا نتذكر مقالة أصحاب الجنة التى دمرها الله لما عزم أصحابها على منع حقوقه وحرمان عباده ؟

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (١) .

إننى أبصر جماعات من أبناء الأمة المنكوبة لا تزال تبحث عن اللذات ، ولا تزال سادرة فى غوايتها ، لا ترعوى ، علام تستيقظ إذا لم تصح على هذه القوارع ؟

---

(١) القلم : الآية : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

إننا يجب أن نستقبل أمواج البلاء بالدعاء ، إننا يجب أن نهرع إلى المساجد قانتين ناشدين العون ! .

إننى أنظر إلى طلاب اللهو فى هذا الأوان الصعب فأحسبهم قطيعاً من الدواب ، فقسوة القلب ، وجمود العين ، ونسيان الآخرة دلائل غضب ماحق .

المفهوم من كتابنا الكريم أن الآلام سياط ترد الشارد إلى الصراط المستقيم إن حاد عنه ، وتلهم المؤمن الضراعة الحارة إن سكت عنها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾(١) . ومع عودة العقل ويقظة الضمير ، وحسن الإنابة ينتظر العفو الإلهى ورجوع السراء والنعماء .

أما إذا بقى السكارى يبحثون عن خمر ، والأنجاس ينقّبون عن شهوة ، والمتكبرون بالغنى يأبون السجود ، والمزدهون بالترف لا يستقيم لهم عوج ، فما بد من أن تهجم المآسى ، يردف بعضها بعضاً ، لا تنته غيمة حتى يتبعها أخرى . . وفى أولئك يقول الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾(٢) .

لماذا لا يفكر الشباب العربى فى تحسين مسلكه ، وتهذيب سيرته ؟ لماذا لا يفكر الكبار فى تدارس الماضى والتنقيب عن خطأ فيه يتقربون إلى الله بإصلاحه ؟

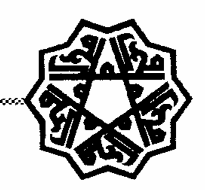
فى مأساة العرب الحاضرة أرى أعداءنا يكثرون ولا يقلّون ، ويَقْوَوْنَ ولا يضعفون ، أما نحن فليست مصيبتنا من قلة السلاح ، ولا من قلة المال ، ولا من قلة العدد ! إن مصيبتنا نابعة من أنفسنا وحدها ، وما لم تتغير هذه النفوس فلن يتغير ما بنا .

إذا كنا راضين عن أنفسنا – وتلك أحوالنا – فستبقى هذه الأحوال حولنا كما يبقى الظل الأعوج مع العود الأعوج .

كبرياء السلطة عندنا ، وذل الجماهير عندنا ، وركود الرأى العام عندنا ، وانشغال العلماء يسقط القضايا عندنا ، فبأى وجه يلقى المسلمون الناس ؟ ثم بأى وجه يلقون ربهم ؟ .

---

(١) الانعام آية : ٤٢ ، ٤٣ .   (٢) المؤمنون آية : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ .



البعث الإسلامى .. منقذنا

لإنقاذ فلسطين وتحرير أهلينا ومقدساتنا فيها طريق واضح : أن يجتمع العرب على قلب رجل واحد ، ومعهم كل ما يملكون من قوة ، وكل ما ورثوا من إيمان ، ويناجزون عدوهم جهرة لا خفية ، ويصارحون بغايتهم دون جبن أو استخذاء ، ويعتمدون على الله وحده فى تحقيق أملهم .

والعرب منذ اغتصبت منهم فلسطين لم يسيروا فى هذا الطريق . بل لم يفكروا فى سلوكه ، وذاك سر هزائمهم المتتابعة ! .

وقد عقد بعض الناس أملهم على الرئيس صدام حسين ، كى يدرك ما فات غيره ! وكم تكون سعادتنا غامرة لو أن الرجل مضى فى الطريق التى رسمنا معالمها ، فهل كان عند حسن الظن ؟ .

إنه أعد جيشاً عظيماً ، ووفر كل الأسلحة ، وأنفقت عليه أموال طائلة ، وتوافرت له ظروف جعلت الشرق والغرب معاً يمدانه بكل جديد من أدوات الفتك والدمار . .

.وكان المفروض أن يبدأ الرجل بإحياء الجبهة الشرقية التى ماتت ، وأن يفاتح زعماء سوريا والسعودية واليمن والأردن وسائر الخليج بما أفاء الله عليه من عدة وعدد ، وأن يطالبهم بمظاهرته فى إنقاذ شباب الانتفاضة ، وطرد اليهود من الأراضى التى اغتصبوها . . .

وهو عندما يفعل ذلك يستطيع معالنة العالم بأنه ينفذ قرارات الأمم المتحدة ، ويحقق بالقوة ما رفضت إسرائيل تحقيقه بالمناشدة والرجاء .

ويوم تسير ألوية العرب فى هذه الجبهة نحو غايتها ، فلن تتخلف عنها دولة من الجبهة العربية ، لا فى وادى النيل ولا فى المغرب الكبير ! .

هل هذه الخطة تحتاج إلى عبقرية ؟ كلا ، إنها خطة طبيعية لا يعرف عاقل غيرها وستحار الدول الاستعمارية فى مواجهتها ، وكيف تواجه قائداً يقول : إنه يحقق ما اتفق عليه مجلس الأمن ، ومن ورائه هيئة الأمم ، وأى قائد عربى – وليس زعيم

العراق وحده - ينهض بهذا العمل فسوف يحشد الجماهير حوله ، وسوف يوصف - إن تقاعس عنه - بالخيانة والارتداد .

لكن الذى وقع غير هذا ، بل ضد هذا ، فإن الجيش الذى اعتز بقوة سلاحه ووفرة عتاده ، اتجه أول ما اتجه إلى إيران ، فوقع قتال ظل ثمانية أعوام هلكت فيه الأنفس ، وانقسمت فيه الأمة العربية ، ولم يربح منه إلا عداتها .

ثم عاد الجيش من إيران ، فما مضت عدة شهور حتى كان يتجه إلى الكويت ليحتلها بين عشية وضحاها ، وتبع ذلك أن الشرخ الذى أصاب العرب صدع كيانهم ، فانقسم ووقف الجندى العربى يقاتل الجندى العربى ، أما الإسلام ومواثيقه فقد تبخرت من قديم ، وأما القضية الفلسطينية فقد لحقها خسار بيّن .

ويرمق العدو والصديق ما حدث ، فلا يرى كاسباً إلا إسرائيل التى تدعمت مادياً واقتصادياً حتى كأن هذه الحرب اشتعلت لمصلحتها وحدها . .

إن الرئيس صدام حسين أخطأ حين احتل الكويت ، وفتح باب شؤم على العرب والمسلمين بهذه الفعلة ، يستحيل أنه كان يفكر فى فلسطين عندئذ !! .

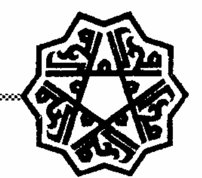
على أنى أصارح العرب من بعثيين وقوميين بأن قضية فلسطين دينية وليست عنصرية ، هكذا كانت فى تاريخها القديم وهكذا بقيت إلى عصرنا الحاضر ولو أن العرب احتشدوا صفاً واحداً ، ثم نظر الله إليهم فوجدهم أقل من اليهود تمسكاً بالدين ما نالوا سهما من نصر ، ولا ذرة من توفيق ، إن البعث الإسلامى لا البعث العربى هو الذى يقدر على استنفاذ التراث المنهوب ، والبلد المنكوب .

إننى حين أرسل هذه الصيحة ليست من رجال الوعظ ، ولكننى أبصر الحق فىّ صميم السياسة التى تَبتّ فى مصاير الأمم .

ويؤسفنى أن علائق العرب بدينهم تحتاج إلى إعادة نظر .

فى صراع العقائد لا مكان لعابدى نفوسهم ، ولا للمفرطين فى رسالتهم إننا نقول بحق « الإسلام هو الحل » .

* * *



العروبة .. أم الله أكبر ؟

إلى متى يظل مفهوم العروبة معزولاً عن الإسلام فى بعض الأقطار ، وعوضاً عن الإسلام فى أقطار أخرى ؟ إن هذا العوج الفكرى من وراء الفوضى الخلقية والاجتماعية التى يعيش فيها العالم العربى .

لقد كانت شعب الإيمان تسد كل فراغ فى دنيانا ، فلما ساء وضع الدين وأغير على حقائقه ، وحلت هذه العروبة محله فى شتى الأرجاء تخلخل المجتمع كله ، وشرع الفارغون يملؤون أنفسهم بأفكار يجلبونها من ها هنا وها هنا ، حتى كدنا نكون أمة أخرى غير أسلافنا الكبار .

وهكذا نجح الغزو الثقافى فى تغييرنا ، ونحن ندرى أو لا ندرى .

فى بلاد أخرى أمكن عزل الدين فحلت فلسفات أخرى مكانه ؛ لأن هذا الدين لم يكن يحل ابتداء إلا حيزاً محدوداً من النفس الإنسانية ، وقد يكون ما جاء بدله خيراً منه فاستراحت الجماهير من قيد موروث .

أما الإسلام فقد كان الوحى الكامل الخاتم ، الكافى الشافى ، فلما تقرر إبعاده كان ما بعده شيئاً دونه يقيناً ، فإذا الأمة تنتقص من أطرافها بل من صميمها ، فاضطرب أولاً حبل الأخلاق ومات الضمير الدينى ، ووهت العلاقات العامة ، وظهر زعماء من طراز لا يعرف فى بلاد أخرى .

كان على بن أبى طالب يقول : « لا تسمعونى خفق أقدامكم ورائى . فإن ذلك مفسدة لقلوب الرجال » !! فإذا حكام يجعلون الهتاف بأسمائهم أساس الولاء وسلّم الترقى ، ووجدنا من تصنع له تسعة وتسعين (اسماً) كأسماء الله الحسنى .

وكان الذى يستشهد فى سبيل الله يعد من الأحياء عند ربهم ، وهذا هو العزاء الحق ، فإذا نحن نسمع بشهداء العروبة الذين نحيى ذكراهم بالوقوف دقيقة صمت !!

ومرت عهود العوام ، فما يجود عمل ولا يصح هدف ، ولا ينتظر وفاء ولا حياء ! ماذا حدث ؟ هذا أثر غياب الدين عن القلوب والألباب .

وكان المفروض أن الحريصين على النسب الإسلامى يزينون نسبهم هذا باليقين الواضح والعمل الصالح ، فإذا هم يضعون موازين جديدة للحسنات والسيئات ليس من بينها الحفاظ على حقوق الإنسان ، والعدالة الاجتماعية ، وكرامات الجماهير ، وفعل الخير ، وإقرار المعروف ، وتغيير المنكر .

الدين عند هؤلاء جدل عقائدى من مخلفات القرون الأولى ، وعبادات مفصولة عن آثارها ، فالصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والصوم لا ينهى عن رفث أو صخب ، وهذا إسلام غريب .

إن الدين قبل كل شىء عقل سليم وقلب سليم ، ومن فقد هذه السلامة فلن يعزيه عنها أن يقيم شعائر أو يحفظ مراسم .

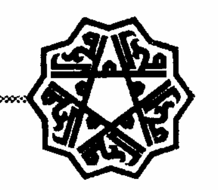
وقد رأيت فى محنة الخليج الأخيرة متناقضات تستدعى الدهشة : هذا يقول : لا مانع فى سبيل الوحدة العربية أن تظلم الكويت ، وهذا يقول : لا مانع فى سبيل حرب أمريكا وانجلترا أن نقبل الاستبداد الفردى ، وهناك من يقول : إن الحرب الدائرة هى حروب صليبية جديدة .

قلت لأصحاب هذه المقولة : هل الطرف الإسلامى فى هذه الحرب الجديدة يقوده طارق حنا عزيز ، وميشيل عفلق ؟

إن الأمة الإسلامية تعانى من فوضى فكرية رهيبة ، لا يصلحها إلا أن نعود إلى الإسلام بمفهومه النظرى الرحب ومفهومه العملى الدقيق ، وجمهور ضخم من الإسلاميين لا يقلون سوءاً عن عبيد العروبة المعزولة عن الدين .

ليست العودة إلى الإسلام أن نكتب على راياتنا : الله أكبر ، بل العودة إلى الإسلام أن نملأ قلوبنا : « الله أكبر » ، ونجعلها باعث أعمالنا وهدف حياتنا .

* * *



بل سينادى : ... يا مسلم

نحب أن نسأل أولئك الذين يملأون بالتفاخر الكذوب أفواههم ، ويريدون أن يخيلوا لأولى الأفهام القاصرة أن العرب يمكنهم الاستغناء عن الأمة الإسلامية ، كما أن العروبة يمكنها الاستغناء عن الإسلام .

نحب أن نسأل هؤلاء : هل قرأوا التاريخ ؟ هل وعوا دروسه ؟ وهل فى وجوههم بقية حياء تجعلهم ينزلون على حكمه ؟ .

إن العروبة فى أشد أزماتها لم تجد منفذاً إلا لدى المسلمين المخلصين من أجناس الأرض الأخرى .

بل إن العرب لما تكسرت صفوفهم تحت سنابك التتار الزاحفين من الشرق ، وانهارت سدودهم أمام الصليبيين المنحدرين من الغرب ، وكادت تذوب هذه الأمة فى دوامة العواصف المطبقة ذوبان الملح فى الماء . .

فى هذه اللحظات العصيبة تقدم المسلمون من الأجناس الأخرى يصدون العدوان ويدافعون عن ديار العروبة ، ويبسطون حمايتهم المشكورة .

اجتاح التتار أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ وقضى على الخلافة العباسية ، ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر .

ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك وهو الملك المظفر (قطز) كتاباً ملأه تهديداً ووعيداً ، وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه .

فثارت حمية السلطان ، واستفز الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان إذ ذاك أن التتار لا يغلبون !! .

ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال ، وليصحبه من يشاء ، عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم .

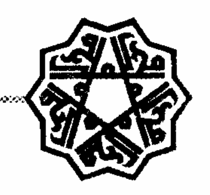
وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨هـ .

يقول المقريزى فى وصف بلاء « قطز » و « بيبرس » والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب : « فلما كان يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان التقى الجمعان ، وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتار ، وذلك بعد طلوع الشمس وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتار إلى الجبل ، وعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتفض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه » وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة فأيده الله بنصره ، وقتل « كتبغا » قائد التتار وانهزم باقيهم » .

صيحة « وا إسلاماه » كانت مفتاح النصر على التتار ، والصيحة نفسها هى مفتاح النصر على اليهود .

إن الحجر لن ينادى : « يا عربى ورائى يهودى مختبئ فأدركه » ، بل سوف ينادى : « يا مسلم » وعندئذ يتنزل النصر . .

* * *



تفسير الشعار المنقوص

الشعار الذى رفعه حزب البعث منذ نشأ : « أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» ، ولا أرى بأساً من عقد مصالحة بين المسلمين كافة ، وبين رافعى هذا الشعار ، على أساس التفسير الوحيد الذى يصح له ، وهو أن الرسالة التى حملها العرب – ولا يزالون يحملونها – هى الإسلام .

فماذا حمل العرب غيره ؟ وماذا قدموا للناس إلا هذا الدين الكريم ؟ ويوم يرتدون عنه فبماذا يوصفون ؟ وماذا لديهم يفتحون أفواههم به ؟

إن العرب الأقدمين فى تاريخهم السحيق رفضوا الوحى ، وفشل الأنبياء العرب فى اقتيادهم به . فماذا كان مصيرهم ؟ هلكت عاد بعدما عصت هودا ، وهلكت ثمود بعدما عصت صالحا ، وهلكت مدين بعدما عصت شعيباً ، وهلكت سبأ وقوم تبّع وأصحاب الرس وغيرهم فهل سيكون مصير المستأخرين أفضل من مصير المستقدمين؟ .

إن عرب الجزيرة فى العصور الوسيطة طووا مسافات الخلاف ، وقهروا شياطين الهوى ، وآمنوا بخاتم المرسلين محمد – ﷺ – فإذا هم أمة من طراز جديد ، ﴿ صنع اللَّه الَّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[1] طلعوا على الدنيا بعد إيمانهم شروقاً ساطع الآفاق ، شريف الأعراق ، زاكى الأخلاق ، فاستكانت لهم الدول الكبرى ، واعتنقت شعوبها الدين الجديد ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، واستطاع الصحابة والتابعون أن ينقلوا بأمانة مواريث السماء ، وأن يطبقوا بدقة ما حوت من رشد .

وتدافعت العصور ، وهى تتناقل الرسالة الكبيرة حتى جاء هذا العصر الأغبر وقد بلغ الإعياء من العرب مبلغه ، لأن فيهم مفرطين لم يحسوا عظمة الرسالة ، ولم يوفوا بالمواثيق المأخوذة ، فانقلب المتبوع تابعاً ، والمنتصب راكعاً ، والمبدع بليداً ، والأباة عبيداً ! ! .

---

(١) النمل : آية ٨٨ .

ثم ظهر بين المسلمين من ارتد على عقبه ، وشرع يصيح : العروبة وكفى ، والبعث لا يكون إلا عربياً ، والدين لا يعتقد إلا مكاناً ثانوياً ، إن بقى له مكان ، وبهذا الأسلوب من النباح نرتد إلى أيام مسيلمة وسجاح .

وبدهيّ أن يعين الاستعمار العالمى هذه الصيحة الغادرة ، وأن يمد أصحابها بكل سلاح ، وأن يمكنهم من افتراس المجاهدين المقاومين .

وعلم القاصى والدانى أن هذا اللون من الحكم يستحيل أن تأتى به شورى ، أو أن يكون له من الجماهير سناد ، فاتحدت العلمانية والإلحاد ، فى أشكال من القمع والاستبداد تحكم الأمم بالحديد والنار .

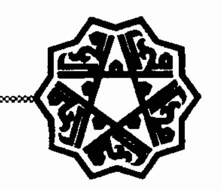
ثم طلع على الإنسانية عصر جديد ، كشفت فيه اليهودية عن وجهها ، وقالت : نريد أرض الميعاد ، وبناء الهيكل وعودة الشعب المختار إلى وطنه . . وكشرت الصليبية عن نابها ، وقالت : لقد توحدت كنائسنا لنستعيد مجد الرب ونمحو ما طرأ عليه من أغيار ، وبقى السؤال الفذ لأصحاب الرسالة الخاتمة : هل سيبقى فيكم جاحدون لرسالة الإسلام ، ساعون إلى ارتكاس العرب فى جاهليتهم الأولى ؟

إن الإجابة على هذا السؤال لابد منها ، فإما أن يبقى الإسلام أو لا يبقى . . على النظم الكافرة أن تعلن إيمانها ، وعلى النظم المنافقة أن تبدى إخلاصها ، وعلى الجماعات الهازلة أن تواجه أيام الجد والعبوس .

إن المستقبل حافل بالنذر ، ولا نجاة لنا إلا أن نكون أمة واحدة ، ذات رسالة خالدة هى الإسلام وحده ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾[1] .

* * *

(١) هود : آية ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .



عاقبة تعطيل الحدود

تفاحشت الجرائم التى تقع هذه الأيام بالليل والنهار ، ولفت الأنظار ما يقارنها من التحدى والبأس ، فقد توقح المجرمون ، وزادت ضراوتهم وشعر الناس بالقلق ، وأخذ الخارج يوصى القاعد ، والقاعد فى بيته يوصى الخارج إلى عمله ، ولا ندرى ما يجىء به الغد . . قلت : ألم يأن للذين عطلوا أحكام الله أن ينفذوها ؟ إن حداً من الحدود يقام بالحق جدير بأن يعيد الطمأنينة إلى القلوب الفزعة ، ويلقى الرعب فى قلوب معتادى الإجرام .

لكننا لا نفكر فى هذا الدواء الحاسم ، وقديماً قيل :

ومن العجائب والعجائب جمة	قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ	والماء فوق ظهورها محمول

ماذا لو قبض على قطاع الطريق الذين سرقوا الذهب أو مادونه ، فقطعوا من خلاف ، أو أخذ من قتل منهم ، فصلب فى ميدان عام ، وعلقت جثته إعلاناً عن مصير العدوان المسلح على الآمنين ، وعن النهاية التى لابد منها لكل فاتك أثيم !!

كان البعض يقول : إن اللص يسرق ليأكل ، وهذا كلام مضحك ، لقد ظهر الآن أنه يسرق ليحشش ، وأنه يملك فى بيته - عندما يسرق - أجر من سيدافعون عنه ، ويلتمسون له البراءة أو تخفيف العقاب .

وقد بلغ الفجور فى الاغتصاب حد إجهاز الوغد على الفتاة التى استعصت عليه ، وأبت التفريط فى عرضها ، ولم تبق الجريمة خاطر يساور شخصاً بطّالاً ، بل اتفاق بين متعاونين على الإثم والعدوان .

ومع تقلص الروح الدينية ، وضراوة الشهوات المادية ، أخذ شياطين الإنس والجن يذرعون القارات ويبعثرون المآسى فى كل مكان ، والصحف تنشر فتصف الجرائم ، وتسكت عن العلاج الصحيح ، ولا نجاة من البلاء إذا استمر ذلك الأسلوب .

بعض الناس يقصر فى الواجب استجابة للذة عاجلة أو شهوة عارضة ، أما أن يقصر فى الواجب ليتعجل ضرراً ، أو يستجلب خطراً ، فهنا العجب العاجب ؟ ماذا كسبنا من تعطيل الحدود ؟ ماذا كسبنا من الحرب على المجرمين ؟ لقد سمنت الكلاب ورأت أن تأكل أصحابها . .

إننا قررنا تقليد أوروبا فى كل شىء وما دامت نسبة الإجرام هناك صاعدة فلتكن نسبتها عندنا متزايدة ،لكن القوم مع شيوع المنكرات بينهم يضاعفون إنتاجهم ، ولا يتوانون فى عمل ، أما نحن فنجمع بين الكسل والإساءة ، أو بين العطل والجريمة .

والحكومة الآن تجرى وراء لصوص الذهب فى ضاحية الزيتون ، وربما وصلت إليهم بعد أسابيع أو شهور ، وربما فروا منها أبداً ، وإذا حدث أن عثرت عليهم فسوف يحاكمون فى آماد طويلة ، ثم يحكم عليهم بالسجن عدة سنين أو حتى عشرين سنة ينزلون فيها ضيوفاً محروسين تعلفهم الدولة من حساب دافعى الضرائب ، وربما أطلقت سراحهم فى أحد أعياد النصر .

هل هذا علاج ناجح ؟ إن لنا كتاباً ناطقاً يقول : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾[1] . . إلخ فلماذا يكون موقفنا منه : « **سمعنا وعصينا** »[2] .

وماذا جنينا من هذا الموقف الذى تجمد ولا أرى ما يدل على تغييره ؟ .

* * *

(١) المائدة : آية ٣٣ .

(٢) البقرة : آية ٩٣ ، النساء : ٤٦ .



بعث عربى .. أم ارتداد عقائدى ؟ !

فى العصور الأولى لم ينجح الأنبياء العرب فى هداية أقوامهم إلى الله ، ونقلهم من الظلمات إلى النور ، برغم طول المصابرة وجلال النصح ، كان أولئك العرب أغلظ قلوباً وأسوأ طبائع من أن ينقادوا إلى هداتهم ، فحقت عليهم كلمة ربك .

وأعنى بأولئك الأنبياء صالحاً فى ثمود ، وشعيباً فى مدين ، ولوطاً فى قرى المؤتفكة ، وكانوا جميعاً شمالىّ جزيرة العرب ، أما جنوبى الجزيرة فقد أنذر هود قومه بالأحقاف ، كما تمردت سبأ على رسولها الذى لم يذكر اسمه .

وعجيب أن يجمع الضلال بين الشمال والجنوب فى مواقف مشتركة ، تستبين معالمها من قوله تعالى للنبى الخاتم ﷺ وهو ينصح قومه بعد قرون طوال : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1] ..

كانت عاد أهل غطرسة وجبروت استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً » [2]؟ وكانت ثمود أهل عناد وصلف : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾[3] .

وكانت الإبادة الحاسمة هى الجزاء الماحق للجميع .. ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾[4] .

إن خصائص العرب البائدة هوت بهم ، فلم يفلحوا أبداً ، وأمسوا أحاديث يسمر بها السامرون ، وينشغل بها الدارسون ..

ثم ظهر محمد - ﷺ - وسط الجزيرة العربية ، واستطاع أن يحقق ما عجز عنه إخوانه فى الشمال والجنوب ، كيف أمكنه ذلك ؟ تلك معجزته .. !

---

(١) فصلت : آية ١٣ .

(٢) فصلت : آية ١٥ .

(٣) فصلت : آية ١٧ .

(٤) سبأ : آية ١٧ .

وشاء الله أن يتحول العرب الجامحون إلى رهبان بالليل فرسان بالنهار ، وأن يصنع منهم النبى المحمد صلى الله عليه وسلم قوة للخير دكت الاستعمار القديم ، وأجهزت على جبروت الروم والفرس ، وقدمت للدنيا الإيمان والعدل وحرية العقل والضمير ، وجملة حقوق الإنسان ، والمعالم الدقيقة لفلاحه فى معاشه ومعاده .

ويبدو أن العرب حنوا للطباع التى أبادت خضراءهم بالأمس ، حنوا إلى طباع عاد وثمود وأمثالهم فإذا هم يتخلصون من قيود الإسلام التى كبحت جاهليتهم ، وجعلتهم أصحاب حضارة رائعة ، ثم أخذوا يتهامسون : نحن قبل كل شىء عرب ، وإذا كانت الأيام تقلبت بنا فلابد أن نغالبها بعروبتنا وحدها .

وأتاهم ميشيل عفلق من اليونان هاتفاً بحياة عاد وثمود ، زاعماً أن محمداً صلى الله عليه وسلم عظيم مثل هانيبال وحمورابى فهو بانى دولة عربية وحسب .

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحى نزل

وانطلق العفالقة الحمر يقودون بعثاً عربياً علمانياً مقطوع العلائق بالسماء ، وليس الغريب أن يتحرك الشيطان ، ولكن الغريب أن يجد مغفلين يصفقون له ويمشون فى ركابه .

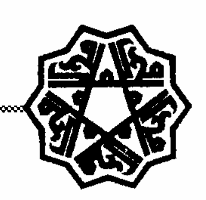
إن تجريد العروبة من كتاب الله وسنة رسوله وجهاد الأسلاف العظام حركة ارتداد عام خطرة فى عصرنا هذا خطورة حركة الردة التى قادها مسيلمة الكذاب قديماً .

فليرجع العرب إلى الإسلام ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

ما العرب بغير دين ؟ ! غثاء كغثاء السيل أو أتفه . .

* * *

(١) النور : آية ٦٣ .



مقتضيات الإيمان

الإيمان يفرض على أصحابه مواقف لا محيد عنها ولا فكاك منها ، وهل الإيمان إلا سلوك ملتزم واتجاه صارم ؟

فى مطلع سورة الأنفال رفض القرآن تطلع المجاهدين إلى الغنائم ، وتنازعهم فى تقسيمها ، ورد الأمر إلى حكم الله ورسوله فيها ، فليست لهم مقترحات ، ولا تقبل فى ذلك رغبات .

والموقف الوحيد المقبول شَرحتهُ الآيات النازلة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾(١) .

الإيمان الحقيقى يتطلب هنا موقفاً وحيداً هو ذكر الله ، ووجل القلوب ، وزيادة التسليم والتوكل والصلاة والعطاء ، فهل هذا الموقف يتكرر على اختلاف القضايا المعروضة والأحوال العابرة ؟ .

لننظر إلى آخر السورة فسنجد صورة أخرى لما يطلب من المؤمن عمله قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾(٢) .

هنا واجبات جديدة من الكفاح الجلد والهجرة الزاهدة فى الوطن من جانب ، وضرورة النصرة والإيواء والتعاون من جانب آخر ، ولا يصح الموقف إلا بتلاقى هذه المعانى جميعاً لدعم الحق وذلك وحده هو الإيمان الحقيقى ! ! .

مقتضيات الإيمان تتغاير حسب الظروف ولابد من القيام بكل موقف على حدة ، وتدبر قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(٣) اليقين الصحيح هنا يقوم

(١) الأنفال : آية ٢ ، ٣ ، ٤ . (٢) الأنفال : آية ٧٤ . (٣) الحجرات : آية ١٥ .

على اتقاء الريبة وحسن البذل والتضحية بالنفس والنفيس ، وهذا موقف تمليه الأحوال التى يمر بها الإيمان من بلاء أو رخاء ، وهزيمة أو نصر .

ومع هذا التوجيه نذكر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾[1] .

هناك مؤتمرات لها خطرها على مستقبل الجماعة ومصير رسالتها ، لا يتكاسل عن حضورها مؤمن ، فإذا حضر كان عليه أن يجعل نفسه طوع أمر القيادة يبقى ما أحبت وينصرف بإذن منها وحدها .

إن الإيمان مواقف صارمة ، وله توجيهه فى كل أمر ذى بال ، ولا يقبل من مسلم أن يتصرف على النحو الذى يرى ، بل هو تابع طيِّع لأوامر هذا الدين ومطالبه التى تتكاثر وتتغاير وفق تقلب الأحوال ! هما خطتان : إما إيمان وإما انسحاب ، أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ، طريقان شتى : مستقيم وأعوج ! .

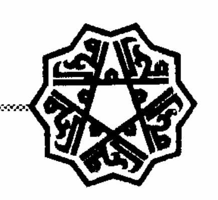
ويقول شاعر معاصر :

فى موكب حق أو فى موكب الزور ... وفى ركاب العلا أو مربط العير
اختر لنفسك ما يحلو فليس بنا ... من حاجة للمطايا والقوارير

الإيمان مواقف ، وهناك ناس متخصصون فى الهروب من المواقف إلى مواقف أخرى هى الباطل بعبثه ، وإن لبست أحياناً ثوب التديّن ، فالفرار من الجهاد لا يغنى عنه المُكث فى صحن المسجد .

* * *

(١) النور : آية ٦٢ .



هل من توبة ؟

صلاة الرجل فى الجماعة تزيد على صلاته وحده سبعة وعشرين ضعفاً ، كأن الخير أصبحت له مظاهرة كبيرة تعالن به ، وتفرضه بين الناس ، وتجعله من معالم الحياة الراسية .

إن البر الوحيد شىء حسن ، وأحسن منه أن يتحول البر إلى تقليد متبع ، وعُرف شائع ، ودولة ذات سلطان ، وكذلك الحال مع الآثام .

إن الرجل المنقطع المعزول قد يتورط فى رذيلة فيقارفها وحده ، ما يشعر به أحد فكأنما ولدت ميتة ، ويوشك أن يتوب منها ، فيمحوها الله ، وينساها الحفظة ، كأن لم تكن . .

أما إذا انضم إليه غيره في أدائها ، وتعاونوا جميعاً على الإثم والعدوان فإن الشر يتفاقم ، ويقوى بعضه بعضاً ، ويمتد أثره ، ويتضاعف وزره ، وذلك كله ذريعة الدمار العام ، وتدبر قوله تعالى قوم لوط : ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾[1] لقد ضرى الإجرام فما بُدّ من حسمه بزلزال يغير وجه الأرض ويمحو ما سادها من فحش .

إن الكسل فى أداء الواجبات جريمة ، قد يواقعها فرد فيبوء بإثمها وحده لكن ما العمل إذا وجدت أمة كسول تتراخى فيما يصلحها ، وتخلد إلى الأرض كأنما هى سكرى ، أو مخدرة ، إن عقباها إلى بوار .

وقد ثبت فى الإسلام أن الأمم المفرطة تسأل عن هذا الإجرام العام . . ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾[2] .

---

(١) العنكبوت : آية ٢٩ .

(٢) الجاثية : آية ٢٨ ، ٢٩ .

وعلى هذه الأمم الخائرة أن تنشط وتتوب إلى ربها ، كما يتوب الفرد الفاشل سواء بسواء ، وقد أعجبنى من الدكتور درويش مصطفى الفار الأستاذ فى علم الجيولوجيا قوله : « المخططون الذين يهملون استثمار كل شبر من أرضنا ويريقون كل قطرة من ماء تعيننا على أن نأكل مما تزرع أيدينا ، هم فى حاجة إلى توبة » .

والمعلم الذى لا يغنى تلاميذه عن الدروس الخصوصية فى حاجة إلى توبة ، والتاجر المنهوم المتعطش إلى الأرباح الفاحشة بحاجة إلى توبة ، وجامعة الدول العربية التى لم تستطع خلال ست وأربعين سنة أن تحقق تقدماً نحو وحدة الصف والهدف والفكر والعمل ، والتى عجزت عن منع التشرذم والانقسام تحتاج إلى توبة .

والمتفيهقون الصياحون عبيد المظاهر ، وهواة التعويق ، والذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا - محتاجون إلى توبة .

وأى موظف أو رئيس يمارس أساليب النخاسة أو التفرقة العنصرية ، ويشيع الاستعلاء هنا ، والاستخذاء هناك - يحتاج إلى توبة .

ومجامع البحث العلمى ، مجالس الخدمة العامة المكتفية بالألقاب والنعوت ، التى لم تستطع - مع طول بقائها - أن تمنع التسول الثقافى والاستجداء الحضارى - بحاجة إلى توبة .

وكل شيطان أخرس يخذل المظلومين ، ويدعهم مقهورين ، وهو قادر على مساندتهم وصون حقوقهم - بحاجة إلى توبة .

إن المعاصى الاجتماعية هى سرطان الأمم ، وسر ضياعها ، فهل نقلع عنها لتصبح أمّة سوية ؟ ؟ .

* * *

أعدلوا -- ينصركم الله

التصور الدينى للحكم يجب أن يكون سليماً ، وإلا جر الخسار على الدين نفسه ، وربما حمل الناس على نبذه والبعد عنه .

إن قيام الناس بالقسط غاية مشتركة لجميع المرسلين ، ولم يقع أن أحد الأنبياء أرخص العدالة ، أو هانت لديه مظالم العباد ، فقد قرر الكتاب العزيز هذه الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(١) .

وعندما تتظالم الأفراد والجماعات يرفع الله يده عنها ، ويتركها لعوادى الدهر تفعل بها ما تشاء ، وفى الحديث الشريف : « لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف فيها حقه من القوى غير متعتع » .

وقد أنكرت على جماعة من الإسلاميين التائهين برود مشاعرهم عندما ظُلمت الكويت ، وأهين أهلوها واستبيحوا ، كان يجب أن يكونوا أحدّ الناس صراخاً فى وجه الظالم ، وأشد الناس مساندة للمظلوم حتى يذهب عنه ما حل به .

وفى عصرنا هذا وضعت مواثيق حقوق الإنسان ، وضمنت كرامات الدول كبراها وصغراها ، ويؤسفنا أن هذا كله ارتكز على مهاد من الفطرة الإنسانية التى تحسن الحسن وتقبح القبيح دون عناء أو تكلف ، وتركت الأديان جانباً ، لأن فريقاً من حملتها لا يبالى بفقدان الحقوق الخاصة والعامة إذا اطمأن إلى مصير عقائده وعباداته !! .

وقد كان الإسلام أول ما ظهر سناداً للفطرة السليمة ومصدقاً لإيحاءاتها ومطالبها . . فقرر إقامة العدل ، وإن اختلفت الأديان ، وبرأ يهودياً مظلوماً ، وأدان مسلماً متهماً ، وقال : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢) .

---

(١) الحديد : آية ٢٥ .   (٢) المائدة : آية ٨ .

فماذا حدث حتى رأينا من يدّعى الإسلام ، ولا يبالى بعدالة فردية أو اجتماعية أو سياسية ؟ أتغنى عنه همهمة لسان بكلمات ؟ أو انقباض الجسم وانبساطه بأعمال الصلوات .

الحق أن سقوط الدولة الإسلامية كانت من ورائه هذه الآفاتُ ، ولقد رأيت سيرة السلطان سليم الأول فاتح مصر ، فرأيت رجلاً متعطشاً لسفك الدم ، لم يبال أن يفتك قائد جيشه فى أمر من أوامره الطائشة ، ولما فتح مصر نكّل بعلمائها ورجالاتها ، وجعل القاهرة خراباً ، فأى دين هذا ؟ .

وفى عصرنا استباح صدام حسين دولة الكويت ، واقترف فيها المآسى ، ثم رأينا منتسبين للدعوة الإسلامية يحسبونه من المجاهدين للاستعمار العالمى ! كيف يصح فى الأذهان هذا الهذيان ؟

أريد من المنتمين للدولة الإسلامية أن يصححوا معرفتهم ، وأن يُصلحوا طواياهم ، وأن ينصفوا الصديق والعدو ، وأن يرتفعوا إلى مستوى الإسلام ، وإلا فستظل أيديهم عاطلة من أسباب السلطة ، وسيمنحها الله قوماً آخرين ، ينظرون فيفقهون ، ويحكمون فينصفون ، ألم يقل ابن تيمية : « إن الله ينصر الكافر العادل على المسلم الجائر » ؟

* * *



تهويل التوافه وتهوين العظائم

المعروف من كتاب الله وسنة رسوله أن الإسلام عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع ، وأنه من التقاء هذه الأنواع الأربعة تتكون تقاليد ومعالم لمجتمع كامل وجماعة قائمة . . وليس يغنى فرض عن فرض ولا نافلة عن نافلة ، فكل تكليف له سره وله أثره ، ومجموعة التعاليم كمجموعة الحواس الإنسانية لكل حاسة ضرورتها ووظيفتها والأمر كما قال ابن الرومى :

هل السمع بعد العين يغنى مكانها أو العين بعد السمع تهدى كما يهدى

ولكن عاطفة التدين عند [illegible] أصحابها قد تصاب بأمراض مهلكة ، تتورم فيها بعض التعاليم وتنكمش [illegible]

ويغلب أن يكون [illegible] الفروع القريبة أو البعيدة ، فيتضخم ليأخذ حيزاً ليس له ، كما يغلب أن يكون [illegible] من الأصول المهمة فتكون دحرجته عن مكانته إضاعة لُلباب الدين وأساس [illegible] . . .

رأيت بعض الطلبة والعمال يتواصلون بعدم تحية العلم ، ويزعمون أن تحيته شرك ، كما أفتى بعضهم بأن الموسيقى العسكرية ضد الإسلام ، وهؤلاء وأولئك يعملون تحت عنوان « السلفية » ، والسلفية فوق ما يزعمون ! .

قلت لأحدهم : إن العلم رمز لمعنى كبير ، وهذا ما جعل جعفر بن أبى طالب فى معركة مؤته يقاتل دون سقوطه ، وتنقطع ذراعاه وهو يحمله ويحتضنه ، ولم يزعم مغفل أن جعفراً كان يعبد الراية المنصوبة ، ولا يتصور فى عاقل أن يعبد متراً من قماش .

ثم إن الموسيقى العسكرية تضبط الخطوات ، وتهيج المشاعر ، وتعين على أداء الواجب فلا مكان لخصومتها !! .

إنكم مولعون بتضخيم أشياء ، وتهوين أشياء دون ميزان يحقق العدل ، هل صورة التديّن المكتمل الجدير بالاحترام جلباب قصير ولحية كثة ؟ هذه ظواهر وأشكال ، فأين أركان الدين من خلق وطاعة وجهاد ؟

المأساة أن من تورمت لديه بعض المراسم ذهل عن الحقيقة الكبرى ، وتمحّص لمقاتلة الآخرين على التوافه ، ولم تتماسك فى ذهنه صورة سليمة ، أو حكم رشيد .

وقد ظهر أثر ذلك الفقه الضحل فى محنة الكويت وفتنة الخلية كبيرة فإن الذين حسبوا التدين تكبير بعض الأمور التوافه تحركوا بقوة مستغربة لمناصرة العدوان العراقى ، واتهام القوى العربية التى تصدت له .

كأن مستقبل الإسلام المستوحش منوط بانتصار « ميشيل عفلق » و « طارق حنا عزيز » وعلمانية البعث العربى .

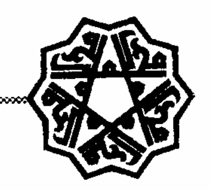
إن الدين الحق وعى صحيح بجملة العقائد والعبادات والأخلاق والشرائع ، وارتسام صورها فى نطاق النسب التى تقررت من عند الله لها ، فلا تشمل العين الخد ، ولا تضرب الأذن الكتفين !! لكل عبادة مكانها ومكانتها ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[1] .

والغرور بالجهل لا يغير حقائق الأشياء ، ولا يعترض مجرى الأقدار .

* * *

---

(١) البقرة : آية ٢٦٩ .



تعطيل الحدود ظلم للمجتمع

لست جباراً أرصد العثرات لأجعل أصحابها نكالاً ، إننى امرؤ أشعر بضعفى وضعف الناس أمثالى ، وأجثو أمام ربى أسأله السلامة من كل إثم ، والقدرة على السداد والاستقامة .

إن قصة أبينا آدم خطأ وتوبة ، وفى تجاربى مع القدر الأعلى أن الله يستر كثيراً ، ويمنح عباده فرصاً عديدة ، كى يصلحوا شأنهم ، ويقوّموا عوجهم ، ويوثقوا به علائقهم . .

ولن يهلك مع هذا الحلم إلا شقى لا عذر له ، ظن الصبر الإلهى إهمالاً فمضى يتعسف الطريق حتى لقيته وهدة لم يقم منها ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

ومن هنا فأنا أنقم أشد النقمة على من يقترفون جرائمهم فى وضح النهار ، وباقتدار وتبجح ، وتزداد النقمة عندما يكون هذا العدوان وليد قُوى متعاونة ، وخططاً مرسومة ومبعث إصرار عنيد .

والأشخاص الذين يدبرون جرائم الاغتصاب ، ويستغلون قواهم فى ختل امرأة ضعيفة ويشبعون نهمتهم من افتراسها وهم آمنون ، هؤلاء إذا كشف الله عنهم ستره فيجب ألا تأخذنا بهم رحمة ، وأن نوقع بهم عذاباً يلقى الرعب فى قلوب أشباههم من السفلة العادين .

إن الأنبياء يرحمون المخطئ الذى عمى لحظة فهوى ، فلما استيقظ كاد يموت من الغم بل ربما طلب الموت راحة من عذاب الضمير !! وقع ذلك فى حياة محمد بن عبد الله - ﷺ - وفى حياة عيسى بن مريم .

---

(١) البقرة : آية ٨١ .

ولكن الأمر يتغير عندما نواجه متبجحين بالمنكر ، جرآء على المعصية ، موغلين فى الفساد . . إن تطهير الأرض من هؤلاء حتم ، فهم جراثيم خطرة تحول الخطأ إلى خطيئة ، ولا تبالى بعوج الغرائز وأمراض القلوب ، وأغراها بذلك علماء أهل الكتاب الذين أماتوا أحكام الله ، ويسروا للناس سبيل الانحراف .

وقد حاول اليهود قديماً تعطيل حد الرجم – مع وجوده فى كتبهم – حتى أكرههم النبى على إيقاعه ، ومع أن حد الزنى تقوم دونه عوائق شتى رحمة من الله بالعباد ، فإنه إذا زالت العوائق ووجب الحد ، لم تأخذنا رأفة بمجرم ، فكيف إذاً كان الزنى اغتصاباً ، وفتكاً بمستضعف برىء ؟؟ .

أعتقد أنه لابد من مراجعة قوانين العقوبات فى هذه القضايا ومحو السخيف منها ، فإن بعض هذه القوانين وضعها ديوث يقبلُ الريبة فى بيته وفى بيوت المؤمنين والمؤمنات . . . ! ماذا لو قتلنا مغتصب عِرض ؟ ما معنى العطف عليه بعدما فضحه الله ، وثبتت عليه جريمته ؟ .

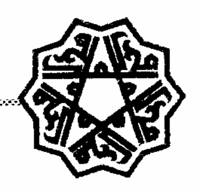
يجب أن نعود إلى شريعتنا فى استئصال الفساد وحماية الأمة ؟

أكتب ذلك بعد ما قرأت هذا الخبر : « قضت محكمة جنايات الجيزة بالأشغال الشاقة المؤبدة على ثلاثة من سائقى السيارات استدرجوا فتاة إلى مكان موحش واغتصبوها » .

قلت فى نفسى : ماذا تكسب الحياة من بقاء هؤلاء أحياء ؟ إنهم نزلوا ضيوفاً على السجن ، تعلفهم الدولة من أموال دافعى الضرائب ! إن قتلهم بصفتهم قطاع طريق ومقترفى الزنى أفضل للمجتمع وأنفى للجرائم ، وأشفى لأفئدة المظلومين .

إنه القانون الوضعى الذى نقلناه عن أوربا لنشقى به ، أو ألزمتنا به أوربا حتى لا نفيق من دوار ، ولا نطهر من عار .

* * *



شياطين الشائعات فى الجزائر

قضيت فى الجزائر بضع سنين من أخصب أيام العمر خدمة للإسلام ورسالته ، وقد راقبت عن كثب مؤامرات شتى تحاول النيل من ديننا وأمتنا ، وتبذل جهوداً حثيثة خبيثة لتضليل مسعى المسلمين وإظلام مستقبلهم .

وماذا نقول فى قرار يصدر بإلغاء التعليم الدينى وحل الوزارة المشرفة عليه وهى وزارة التعليم الأصلى ؟ . . إن الأوضاع التى أملت بهذا القرار كانت تخطط لضربات أشد تقصم ظهر الإسلام ، فلا تقوم له قائمة !! . .

حتى جاء الشاذلى بن جديد ، وأصدر قراراً بإنشاء جامعة إسلامية ، هيأ لها موارد ثرة من طلاب التعليم الثانوى ، ثم قامت الجامعة فى وجه عواصف عاتية ، وكتب الله لها البقاء .

ونظر الشاذلى بن جديد إلى التيار اليسارى المعربد هنا وهناك باسم الاشتراكية ، فتجهم له ، وشرع يهيىء البلاد للاقتصاد الحر ويهيئ دروبها لاستقبال منهاج أجدى وأسد ، وقد تحمل فى سبيل ذلك عنتاً بالغاً ، وعانى المر وهو يرفع الأنقاض ، ويمهد الأرض .

وكان الاستعمار العالمى قد أوعز إلى أصدقائه فى أرجاء الأمة العربية ألا يسمحوا بتكوين حزب دينى ، ولكن الرجل المؤمن تساءل : لماذا يسمح بتكوين حزب شيوعى ، ولا يسمح بتكوين حزب إسلامى ؟ ثم أعطى إشارة خضراء للإسلاميين فتكونوا ، وصاروا حزباً ، إنه الحزب الوحيد فى المغرب الكبير ! ! .

ووقع ما كنت أحذره ، فإن الماكرين بالجزائر وبالأمة الإسلامية عامة سارعوا إلى إيغار الصدور ، ونشر الأكاذيب وتمزيق الصفوف ، فإذا مسلحون يظهرون فى مواقع مريبة ، ويندسون بين الجماهير يطلقون الرصاص على رجال الأمن ، ويوقعون بين الشاذلى بن جديد وشعبه ! ! .

وينشرون دعايات وأكاذيب ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ويزعمون أن الرجل خصم للإسلام !! .

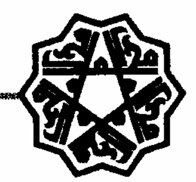
تذكرت حديث مسلم فى ذلك : « إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل ، فيأتى القوم فيحدثهم الكذب ، فيتفرقون ، فيقول الرجل منهم : سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أعرف اسمه يحدث كذا وكذا » وهكذا تنتشر الشائعات ، وفى حديث آخر لمسلم : « يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون ، يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم » .

فإذا استأجر الاستعمار جزائرياً ليطعن فى شرف المصريات فاعلموا أنه شيطان يفترى ، والشعب الجزائرى برىء منه .

إن الجهود دائبة فى هذه الأيام لتمزيق الشمل الإسلامى ، وبعث مشاعر فتنة بإيغار الصدور ، وحفر فجوات بين الشعوب .

فلنصم آذاننا عن هذا اللغو ، وأنا أهيب بالإسلاميين فى الجزائر ومصر وغيرهما من الشعوب أن يفتحوا أبصارهم بقوة ليضربوا على أيدى الكذبة الفجرة ، إن الاستعمار راغب فى جعل المسلمين أمة يأكل بعضها بعضاً ، ويلعن بعضها بعضاً ، فليكن المسلمون أيقاظاً لرد هذا البلاء وإحباط هذا المكر .

* * *



مازلنا نياماً تحت العلل

ألقيت كلمتى فى المجلس الحاشد ، وانتظرت سماع السائلين فيما أثرت من قضايا ، وتوقعت أن تكون حول فتنة الخليج ، فإن الكلمة كانت فى إحدى مدن الخليج ، والأحداث الأليمة لما تزل شديدة الإيجاع ، والآثار التى خلفتها تجاوزت المشاركين فيها إلى جماهير المسلمين فى كل مكان .

ولكن السؤال الذى فاجأنى كان من واد آخر ، والعدد الذى تقدم به كان كبيراً من الصعب تجاهله ! .

قال السائلون : هل الأرواح تعرف ما نحن فيه ؟ وهل الموتى من أهلينا وأحبابنا يرقبون أعمالنا ويستغفرون لأخطائنا ؟ . . وتريثت فى الإجابة كارهاً السؤال وأصحابه ، إن القوم مشغولون بما وراء المادة لا بالمادة نفسها ، مشغولون بعالم الغيب لا بعالم الشهادة ، لقد فرغوا من قضايا الحس ، وبقى أن يعرفوا قضايا أخرى . . ! !

قلت ملتوياً بهم : إذا كان الاستغفار للذنوب يهمّكم فإن الملائكة - كما خبرنا القرآن - تستغفر لكم ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾[1] بل إن الأمر أوسع فالملأ الأعلى ينظرون إلى سكان هذا الكوكب المنحوس وما يقترفون من خطايا ، فيرجون الرحمن أن يعفو ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ ﴾[2] .

فقال السائلون : نعرف هذا ولا نسأل عنه ، إننا نسأل عن نبينا والصالحين من أمتنا وأهلينا الأقربين الطيبين ، هل هم أحياء يعرفون أحوالنا ، ويشغلون بأمورنا ويدعون لنا ؟ ورأيتنى محاصراً بالسؤال الكريه ، فقلت : أما أنهم أحياء فلا ريب فى ذلك ! ولكنهم أحياء عند ربهم ، وأما أنهم مشغولون بنا فهم مشغولون بما قدموا وأخروا ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [3] .

(١) غافر : ٧ . (٢) الشورى : ٥ . (٣) الطور : ٢١ .

والبشر فى الدنيا ما كانوا يعلمون الغيب ، فلن يطلعوا عليه ، بعد مماتهم ، ولن يعرفوا مصائر الآخرين إلا بعد أن ينتقلوا من هذه الدار إليهم ، وخير لكم - معشر المسلمين - أن تصلحوا أنفسكم ، وأن تقبلوا على شئونكم توجهونها إلى مرضاة ربكم بدل هذا البحث فيما لا يغنى .

وهنا قام شيخ بدين شديد الثقة بنفسه يقول : بل الأرواح تعرف ما نحن فيه ، وترقبنا فى عليائها ، وأول هذه الأرواح الرسول الأعظم يقول : « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم ، تعرض على أعمالكم فما وجدت من شر استغفرت الله لكم » وفى كتاب الروح لابن القيم أدلة كثيرة على ما أقول .

ووجدتنى مرة أخرى قد استدرجت إلى جدل عقيم من النوع الذى أبغضه ، ولكن لابد من الإيضاح ، فقلت للشيخ المعترض : لقد جاء فى الصحاح « أن ناساً من أصحاب رسول الله قريبين منه يسحبون بعيداً عنه - يوم الحساب - فيقول : أصحابى أصحابى أين تذهبون بأصحابى ؟ فيقال له : أنت لا تدرى ما أحدثوا بعدك » فهذا نص على أنه لا يعرف حال أقرب الناس منه ، وحديثك الذى ذكرته لا يساوى شيئاً ، وكتاب الروح لابن القيم إن صحت نسبته إليه فهو كتاب رؤى وحكايات لا يؤخذ منه حكم دينى .

وحدث الضجيج الذى كنت أخافه ، فإن الشيخ وزمرته كرهوا مقالتى ، وما ساءنى أن يكرهوا قولى ، ولكن الذى ساءنى أن يكون الناس فى واد ، ونكون نحن فى واد آخر ، نتجادل فى أمور لا خير فيها ولا طائل تحتها ، ثم ننقسم حولها متخاصمين فى وقت قرر فيه أعداء الإسلام أن يجهزوا عليه وعلى أمته .

لقد كان فى الأحداث الهائلة التى مرت بنا ما يوقظ النيام ، ويزعج أولى الغفلة ، ولكن العلل القديمة لا تزال تفتك بنا ، وتضرب بعضنا ببعض ، وتجعل البعض يقاتل من أجل عدم أخذ شىء من شعر اللحية ، وينسى الدواهى التى تزلزل البلاد والعباد .

* * *



لن يفل الحديد إلا الحديد

قالت إسرائيل لهيئة الأمم : لا تتدخلى فى النزاع القائم بينى وبين العرب ، فلا مكان لك فيه ، وخرست هيئة الأمم وجمدت حركتها ، فلم يُسمع لها قول ، ولم يَظهر منها فعل . . إنها منذ أسابيع قليلة كانت قاضياً مهيباً جريئاً . . تتحرك قواها فى البر والبحر والجو لتأديب العراق لمّا بغى . . فماذا حدث حتى أمسى اللصّ اليهودى يأمر ويزجر ، ويعد ويتوعد ؟ وما الذى جعل الهيئة الكبيرة تتراجع مخذولة مرذولة لا تحق حقاً ولا تبطل باطلاً . . ؟

المعروف أن إسرائيل صنعتها هيئة الأمم المتحدة ، هى التى جعلت من العصابات دولة ، وخلقت من العدم كياناً سياسياً فرضته على الصعيد الدولى ، وألزمت الأعضاء بالاعتراف به .

وها قد شبّ الوليد عن الطّوق ، وملك من الأسلحة ما هدّد القريب والبعيد ، وقرر أن يتوسع ، ويُشبع أطماعه ، فإذا خاطبته الهيئة على استحياء : حنانيك ! بعض الشر أهون من بعض ، قال لها : اسكتى لا دخل لك فى علاقتى بالعرب دولاً وشعوباً .

والعرب جديرون بما يقع لهم ؛ لأنهم - حتى هذه الساعة - لا يعرفون أثر الدين فيما جرى ويجرى ، إنهم سلخوا العروبة عن الإسلام ، وقرروا أن يعيشوا عرايا ، فى الوقت الذى كان كل ذى قومية يؤخرها عن الدين ، ويلبى نداء الدين قبل أن يلبى نداءها . . !!

إن عملية « النبى سليمان » التى نقلت يهود الحبشة إلى إسرائيل ، شارك فيها البيض باسم الدين اليهودى ، وأعانت فيها أمريكا تلبية لنداء الكتاب المقدس ، وكان من الخوارق نقل عشرين ألف يهودى فى عشرين ساعة فقط .

وكان من احترام حقوق الإنسان أن يسمح لليهود الروس بالقدوم إلى فلسطين ، فى الوقت الذى يُرمى فيه العرب خارج أرضهم ، ويتم نسفُ دُورهم ! ! .

إن الأحقاد الدينية تعمل عملها فى السر والعلن ، ولا يزال العرب يتحرجون من الانتماء الإسلامى .

ما شعر « أللنبى » بذرة خجل عندما دخل القدس وهو يقول : « الآن انتهت الحروب الصليبية » وما شعر «جيرو » بأقل حياء وهو يقول عندما دخل دمشق أمام قبر صلاح الدين : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » .

إن قادة أوربا وأمريكا لا يستهينون بروابط الدين أو إيحاءاته السياسية ، إذا استهانوا بروابطه العبادية والشخصية . . وهم لم يقاتلوا اليهود أبداً من أجلنا .

ونصيحتى للعرب أن يخرجوا من الهاوية التى تردوا فيها ، ويعودوا إلى الإسلام ، قبل أن تتحول هذه الهاوية إلى مقبرة تخمد أنفاسهم ، وتُوارى رُفاتهم . . أو قبل أن يذهب الله بهم ، ويأتى بغيرهم ، كما قال : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾[1] .

عندما كان الدين رباطاً بين المسلمين رفض الترك أن يبيعوا فلسطين ، وعندما نشأت القومية الطورانية والقومية العربية ضاعت فلسطين ، وكان الترك بين من اعترفوا بإسرائيل .

وإذا بقيت مكانة الدين ثانوية مهملة ، فإن إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل سوف تتحقق ،لن يقاوم الدين إلا دين ، ولا يفل الحديد إلا الحديد .

* * *

(١) محمد : آية ٣٨ .



ماذا نعرف عن إخوان العقيدة ؟

كنت كغيرى من الناس أحسب أن الإسلام لم يكن له وجود بأقطار البلقان ، حتى قدم به الترك وهم يغزون هذه الأرض الواسعة بعدما استولوا على القسطنطينية أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

بيد أن هذا الظن تبدد كله بعدما سمعت المحاضرة التى ألقاها الدكتور « باليتش » خبير الشئون الإسلامية بالنمسا ، فقد أثبت الرجل بما لا يدع مجالاً لشك أن المسلمين وفدوا على هذه البلاد خلال القرون الثلاثة أو الأربعة السابقة للفتح التركى ، وأنهم كانوا معروفين بدينهم الجديد ، وأنهم بنوا لهم قرى يعيشون فيها ، ويقيمون شعائرهم الدينية ، وأنهم - إلى جانب أعمالهم فى الدولة - كانت لهم حرف شتى ، فهم يفحلون الأرض ويربون الحيوان .

وذكر الدكتور « إسماعيل باليتش » أمراً آخَر جديراً بالنظر العميق ، قال : « إنهم فى سبيل الدفاع عن أنفسهم وعقائدهم بنوا أسوارا عالية على ثلاثين قرية كانوا يسكنونها ، حتى يأمنوا الاغتيال والفتك ! ومع ذلك فإن المستضعفين منهم تم تنصيرهم كرهاً . . وبقى الأخذ والرد ، والهجوم والدفاع حتى جاء الزحف التركى فأنهى هذا النزاع » .

أى أن القتال فى البلقان كان شبيهاً بالقتال فى الحجاز والشام بين عرب يحملون راية الإسلام ، ورومانيين مستعمرين قدموا من وراء الحدود للسلب والنهب والفتنة المسلحة المتبجحة .

ومع ذلك فإن بعض الناس يصف الرومان الهاجمين على مؤتة وتبوك بأنهم مدافعون عن الشرعية الدولية ، وأن المسلمين الذين يرون تحرير بلادهم والعيش بدينهم معتدون ملومون ! .

يقول المؤرخ الدكتور باليتش : إن الزعم بأن الترك حملوا الإسلام إلى دول البلقان

ليس له أى سند من تاريخ ، وأنه خلال القرن التاسع عندما نزل الهنغار سهل «بانونيا» ظهرت جماعات بدوية آسيوية كانت تعتنق الإسلام ، ويقول : إن المسلمين الهنغار لم يكونوا جميعاً مرتزقة - كما وصفتهم بعض الروايات - فقد أدار بعضهم مصلحة الجمارك الملكية ، واشتغل آخرون فى سك النقود أو فى تسويق الملح ، كما أنه لابد أن يكون آخرون قد اشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوان . .

وقد ارتبطت جماعاتهم بالأمة الإسلامية الكبيرة ، ذكر المؤرخ العربى ياقوت أنه تحدث مع طلاب مسلمين هنغاريين فى مدينة حلب .

وقبله فى القرن الثانى عشر وصل العالم الأندلسى « أبو حامد الغرناطى » إلى البلقان وظل عامين يلقى دروسه فى هنغاريا . . !!

لقد سمعت المحاضرة القيمة القوية ، وغلبتنى حيرة شديدة وأنا أسأل نفسى : هل نعرف تاريخ ديننا ؟ وكان الجواب المر المزعج : إننا لا نعرف إخوان العقيدة فى العصر الحاضر ، إننا نجهل أقطارهم وأحوالهم ، فكيف نعرف من مضى من الصالحين والشهداء ؟

على المسلمين المشغولين بسفاسف الأمور أن يستحيوا من الله فى فهمهم للإسلام بقضاياه .

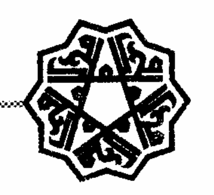
لقد أحزننى ما قرأت من أن بعض مجاهدى هذا الزمان يتجمعون صفوفاً حول منبر عال فيمحون ما زاد على ثلاث درجات ، ويستريحون بعدما حقق المنشار السنة النبوية .

يحسبون أنهم بهذه المهزلة قد أقاموا الملة ونصروا الدين ، فذكرت قول أبى الطيب :

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

والجنون فنون . . وللتديّن الكاذب مجون وفتون .

* * *



من يتصدى لجيش التنصير؟

تهب على إفريقية السوداء ، رياح فتنة عاتية ؛ تبغى زحزحتها عن عقائدها ؛ ودحرجة الإسلام عن منزلته الأولى إلى الثانية ؛ أو ما وراء ذلك حتى يتلاشى .

ومعروف أن التبشير العالمى وقّت نهاية هذا القرن لبلوغ غايته ، وأن جيشه الهاجم استطاع التغلغل فى أقطار بيضاء ؛ بعدما اجتاح الجنوب والوسط .

والمعروف أنه لا توجد تقريباً قوى مدافعة ، فليست للأزهر بعثات تقاوم ، وكذلك رابطة العالم الإسلامى ، والأهالى متروكون لأنفسهم ، وكانت هناك جمعية للدعوة إلى الإسلام تعمل فى جنوب السودان ، توقفت عن وظيفتها فى أثناء حرب الخليج .

وعلى جماهير المسلمين المعزولين أن يعتمدوا على فطرتهم السليمة وقواهم الكليلة فى مدافعة العدو الزاحف . . !!

وقرأنا أخيراً أن عدد المشتغلين بالتنصير بلغ (١٠٤٠٠٠) موظف ، وأن المعاهد التابعة للكنائس بلغت (٢٠٠٠٠) معهد ، والجامعات الخاضعة لها (٥٠٠) جامعة ، ومدارس اللاهوت التى تخرج المنصرين الأفارقة (٤٩٠) مدرسة ؛ والمدارس ورياض الأطفال التى تشرف عليها الكنائس (١٠٦٧٧) مدرسة ، وبينت إحصاءات منظمة الدعوة الإسلامية أن المستشفيات التى تملكها الكنيسة (١٠٦٠٠) مستشفى ، ودور إيواء العجزة والأرامل والأيتام (٦٨٠) داراً ؛ وعدد الطلاب المسلمين الذين يدرسون فى مدارس الكنيسة ستة ملايين طالب ، وعدد الصيدليات التى تملكها (١٠٠٥٠) صيدلية ، والمحطات الإذاعية أربع عشرة محطة .

هذا وصف موجز للجيش الذى يعمل الآن لنحت الإسلام ؛ وتعرية أصوله وفروعه ، وفض مجامعه واقتلاع أسسه ؛ وعلى من يقاوم هذا الجيش ألا ينتظر عوناً من أحد ، فلدى الأمة الكبيرة من الأزمات والآلام ما يشغلها عن نصرة مستضعف ، أو مواساة محروم . . قال لى صديق : إذا أفلح أولئك المبشرون فى تنصير الوثنيين فقد قاموا بعمل حسن ، قلت له : أنت لا تدرى المآسى التى تعانى منها هيئات التبشير ،

والانهيارات الأخلاقية التى تشيع فيها !! ألا تقرأ فى الصحف كيف انتشر الإيدز فى إفريقية حتى أصبح وباء يهدد كيانها ؟

إن هذه البلاد المنكوبة سبقت - فى استفحال العلة - البلاد التى هاجر منها الإيدز ؛ فأربت عليها فى الفساد مع فقدان الأدوية ومخففات العلة .

اسمع هذا الخبر : نشرت جريدة صحيفة الوفد فى ٩ / ٧ / ١٩٩١م « من المتوقع أن تناقش الكنيسة الأسقفية - أكبر طوائف الكنيسة البروتستانتية - الأمريكية هذا الأسبوع مبدأ القساوسة الشواذ جنسياً ؛ ومباركة الكنيسة لزواج شخصين من نفس الجنس !! . . أكد تقرير للكنيسة أن وجود الشواذ والشاذات فى سلك الكهنوت لم يعد سراً ؛ وأن الكنيسة لا يمكن أن تدافع عن حقوق الشواذ والشاذات فى المجتمع عموماً ! إذا كانت تحرم العاملين فى سلك الكهنوت هذه الحقوق نفسها » .

إن المدنية الحديثة علمانية الفكر والسيرة ؛ وصلتها بالله منقطعة ؛ وتفكيرها فى الآخرة صفر ، وقد نضح ذلك على الدين فى أوربا وأمريكا ، فهو لا يقدم للناس زاداً روحانياً هم بحاجة إليه ! كلا إنه تحول إلى خادم للاستعمار الغربى ، وتحول رجاله إلى أمساخ من الخلق تشرب الخمر وتقترف الزنا ، وأهم ما يقدمه لسادته توهين قوى الإسلام والعمل على إهانة حاضره ، وإظلام مستقبله .

على هذا النحو يعيش ، ولتلك الغاية ينطلق ، فهل نصحو نحن ؟

* * *

حقائق سبع

(١) تكتنف الإسلام أخطار مميتة ، فالمسجد الأقصى فى براثن اليهود والحملات الصليبية تسعى لجعل الإسلام ديناً ثانوياً فى إفريقية وآسيا ، وهى الآن تقلص مساحة أرضه وأعداد المنتمين إليه ، وقد قطعت شوطاً بعيداً إلى غايتها ، والمسلمون فى غيبوبة مع أن الأمر يتصل بوجودنا : أنكون أو لا نكون ؟

(٢) امتزجت القومية بالدين فى إسرائيل ، وفى جملة الدول التى تؤيدها ، أما فى العالم الإسلامى فالجهود مبذولة على الصعيدين الرسمى والشعبى لفصل القومية عن الدين ، وربط الولاء الإسلامى بأوهام شتى تحت ستار العلمانية والديموقراطية وغيرهما .

(٣) الجماعات العاملة فى الحقل الإسلامى غارقة فى الخلافات الفرعية والمجادلات المذهبية ، ناسية أن التجمع ضدها كلها قد تم لمحو الإسلام عقيدة وشريعة ، والإجهاز على تاريخه القديم والحديث ، وأنه لا يجوز أن يرتفع صوت يشغل عن هذه المعركة المصيرية .

(٤) التخلف الإسلامى فى المجال الصناعى والحضارى واضح ، والذهول عن عقباه ، طريق الموت ، ويجب توجيه الأجيال الجديدة إلى نهضة تقطع مسافة التخلف على عجل ، وإلا فالهلاك محقق .

(٥) الإسلام دين عقائد وأخلاق وتقاليد ذكية صارمة ، وقد تآمرت ظروف كثيرة على توهين العقائد ، وتخريب الأخلاق والتقاليد ، حتى أمست الأمة الإسلامية ملتقى لمفاسد مهلكة ، وتأخرت فى ميادين لا حصر لها ، ويقتضى هذا اتجاه الجهود لإصلاح الأمة أولاً قبل الاشتباك مع النظم الحاكمة ، وإثارة فتنة ضرها أكبر من نفعها .

(٦) مع أن المسلمين يملكون ثروات لا يملكها غيرهم ، فإن فقرهم ظاهر ، والتفاوت بين طبقاتهم شديد ، والفتوق الواقعة بين الشعوب الإسلامية تتسع ، وقد عالج الإسلام كل هذه القضايا ، من ناحيتى الإنتاج والتوزيع ، ولكن المسلمين غافلون .

(٧) أستطيع القول بأن شغل المسلمين بأمور أخرى من فقه المذاهب ، أو من هوى الأتباع ، أو من طلب الرياسة هو خيانة مخوفة الأثر فى هذه الأيام العصيبة ، والواجب تجميع الأمة كلها لتواجه مستقبلها ، وتكوين رأى عام واسع يوقظ الهمم إلى هذه الحقائق السبع ، ويلف حولها الجماهير .

إن أعداء الإسلام أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، ويعلم الله ما بأنفسهم من سوء وشرور ، مهما رددوا من كلمات معسولة . . .

من كان يسألنى عن أصل دينهم فإن دينهم أن يقتل العرب

وليس وراء العرب متسع للغو أو تريث ، هذا أو أن يثوب الطائش ، ويجد الكسول ، ويعظم أمر الله من يستهين بأمره ، وإذا كانت المعركة اليوم هى معركة الإسلام ، فلا يجوز أن يرتفع صوت فوق صوتها ، ولا أن يبذل جهداً إلا لكسبها . .

والله ولى التوفيق .

* * *



سقوط جديد فى الأندلس

أصابنى شىء من الفزع عندما علمت أن مؤتمر السلام بين العرب واليهود سوف ينعقد فى« مدريد » أو « مجريط » كما ينطقها عرب الأندلس ، فقد هجمت على ذكريات . . أى ذكريات . . إن هذه الأرض شهدت مصارع آبائى ، وغروب حضارتهم! كانوا حقيقة جاثمة على الثرى عرضاً وطولاً ، فأضحوا كما قيل : كان صرحاً من خيال فهوى ! . .

واليوم يقاد الأحفاد إلى أرض الأجداد ، ليحاكموا بالتهمة نفسها التى حوكم بها آباؤهم ، وأدركت سوء العقبى فقلت كما قال موسى لربه ، لما هلك قبيل من قومه : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾[1] .

وتذكرت أطفال الانتفاضة الذين يقاومون بالراح أعتى أسلحة العصر ، والقائد المشلول الذى هزم المرض فى بدنه ، وقاد إخوانه فى معركة الشرف ، وألوفاً من الرجال والنساء يستميتون فى حماية ما تبقى من الوطن المقطع ! وقلت : يا رب لا تؤاخذنا بما فعل أكابر مجرميها ، وارحم أجيالاً لا تزال تسبح بحمدك ، وتتعلق بعونك .

إن الأندلس - وهو فردوسنا المفقود - كان طرفاً فى كيان أمتنا لم تنزف كثيراً عندما بتر منها ! أما فلسطين فهى كبد الأمة المعنّاة ، إن لم تكن قبلها ، وضياعها يعنى الإتيان عليها من القواعد !

لكن سنن الله فى عباده صارمة ، ولا يجوز لعاقل أن يتعرض لها ، ثم يشكو أنها داسته فحال هشيماً ، وأضحى رميماً ! .

ماذا فعل العرب بأنفسهم ؟ ألم يقلدوا أفعال آبائهم الذين مزقوا الإسلام فمزق الله

(١) الأعراف آية : ١٥٥ .

ملكهم ؟ لقد كان عرب الأندلس يوماً ما مصابيح تضيء بعلوم الدين والدنيا ، ولم يعرف غرب أوربا حضارة إلا من تراثنا ، ولم يعرف عصر الإحياء الأوربى كيف يخطو إلا متكئاً علينا ومستهدياً بما قدمنا . .

ثم اختلف العرب وعاد الصراع بين اليمن والحجاز ، وعدنان وقحطان ، ونسيت الخلوف التائهة أن الإسلام طهرها من هذا النتن ، بيد أن الأهواء كانت أضرى ، فمزقت الأمة الواحدة ، وقبل أن تسقط غرناطة - آخر معاقلنا - كانت الخمور تشرب ، والموسيقى تصدح ، والقيان تغنى ، والشذوذ يسرى ! فقال القدر كلمته : لقد جئتم هنا بسم الله ، وتحت صيحة (الله أكبر) واستبقيتم للطاعة والمعرفة والنور والقيم الرفيعة ، أما وقد ارتددتم على أعقابكم فلتذهبوا إلى الجحيم . والغريب أن عرب اليوم الكئيب يقومون بالدور نفسه . . يقول اليهود : هذه الأرض لنا باسم التوراة ، فلا يجرؤ زعماء العرب أن يجروا على ألسنتهم ذكر القرآن !! إن الانتماء الإسلامى محظور أو محقور !!

ومع الإطار الحالك المحيط بقضايا العرب ، ترى رغبات مجنونة فى الضحك والمرح كأنهم لا يقادون إلى الذبح ، فمتى إذن تعودون إلى الجد واليقين والكدح والإنتاج ؟ ، وعندما قيل : الحكم للشعوب ، هذا عصر الديموقراطية يتكون فى الجزائر قرابة أربعين حزباً يسعى إلى الحكم !! إن الأمريكان والإنجليز يكتفون بحزبين أو ثلاثة ، أما نحن فجنون العظمة يجمح بنا يمنة ويسرة ، فنعمى حتماً عن الطريق ونبقى فى مكاننا ، بل نتقهقر إلى الوراء . .

يا عرب العصر الحاضر ، إنكم تجتمعون الان مع خصومكم فى الساحة التى شهدت عقاب آبائكم . . وأمامكم فرصة أخيرة للنجاة . . إن قبلتم الاستسلام هلكتم إلى الأبد ، وإن ثبتم إلى رشدكم ، وتبتم إلى ربكم ، واعتززتم بدينكم أمكن أن يبدأ لكم تاريخ جديد ، يديل الله لكن فيه من إخوان القرود ، ويغسل أرضكم من دنس الاحتلال ، وتبقى فلسطين كلها - لا جزء منها - للعرب ، ويبقى المسجد الأقصى ثالث المساجد بعد الحرمين ، وإلا فالويل للمفرطين والمرتدين .

* * *



صيحات الصلح .. سراب

الحركة اليهودية الحديثة تعلن منذ بدأت أنها تصل ما انقطع من تاريخ اليهود ، أو تنطلق من حيث توقف السابقون ، وأنها تريد العودة ببنى إسرائيل إلى أرض الآباء والأجداد ، ليبنوا هيكل سليمان مرة أخرى ، ويستأنفوا رسالة جنسهم قافزين على نحو عشرين قرناً من التوقف والشتات !! . .

أو بتعبير العهد القديم « سأقيم مظلة داود التى سقطت » . . وسيصحو اليهود بعد رقاد طويل ليعيشوا فى ظلال التوراة مرة أخرى . .

أما المدعو « عيسى » أو المدعو « محمد » فليس لتراثهما وزن ، ولا لأتباعهما خطر!! سيخضعون طوعاً أو كرهاً لبنى إسرائيل ، بعد أن تقوم دولتهم ، ويرتفع لواؤها . .

وقد نشط اليهود لبلوغ هدفهم ، وهم اليوم على مسافة خطوات منه ، أعانهم على ذلك أن المسلمين فى أسوأ أيامهم ، وأن العرب - الذين تلقوا الضربة الأولى - يؤثرون قوميتهم على عقيدتهم ، وأن الأوروبيين والأمريكيين مشغولون بأنفسهم ومستوياتهم العمرانية ، وأنهم لا يعرفون عن عيسى شيئاً طائلاً ، وأن المسيحية تعنى قهر الإسلام ، واستضعاف بنيه ، وهزيمة قضاياه . .

ونسمع اليوم تنادياً بسيادة السلام ، ونبذ الحروب ، حسناً ! فما أسس هذا السلام؟ لن يترك اليهود القدس ؛ لأن الخطة الموضوعة أن يبنى فيها الهيكل على أنقاض الأقصى ، ولن يتوقفوا عن إنشاء المستوطنات لأن الخطة جمع يهود الأرض فى هذه المنطقة التى يدعون ملكيتها ، وإذا توقفوا أياماً قلائل فللراحة وحسب ، ثم يستأنفون البناء ، ولن يسمحوا للعرب بوطن مستقل حتى فى جزء من الأرض التى احتلوها ، وإذا سمحوا بوجود عربى فتحت رايتهم وسلطانهم ، ليشتغل أولئك العرب خدماً وعمالاً فى بيوتهم وأراضيهم ! .

إن الغاية الدينية المرسومة لليهود وفق كتبهم ومواريثهم هى « إسرائيل من الفرات إلى النيل » وهم بالسيف حيناً وبالاحتيال ماضون فى طريقهم ، وقد وضعوا قدماً على الأرض ، ثم لحقتها الأخرى ثم بدأ السعى الحثيث لإدراك الآمال . .

والحق أن اليهود لو كانوا دون ذكائهم الملحوظ ونشاطهم الموصول لأمكنهم أن يحققوا ما حققوا فوق الأرض العربية ، فانتصارهم لا يعود إلى تفوق هائل قدر ما يعود إلى الاضطراب الهائل الذى يسود العرب ، والمحن الروحية والخلقية والسياسية التى تعم بلادهم .

العرب إلى اليوم لم يصححوا مواقفهم من الإسلام ، لا ولاء ولا انتماء ، وهم يؤثرون عليه أى شىء آخر . . وإذا كان الولاء لليهودية ظاهراً فى نشأة إسرائيل وفى مدنها وقراها ، وفى شئونها المدنية والعسكرية ، وفى أعيادها وأحفالها ، وفى علاقاتها الدولية والمحلية ، فإن العرب لا يكنّون لدينهم هذه المشاعر الحارة ، وأعنى بالعرب عدداً كبيراً من المسئولين فى الميادين الاجتماعية والسياسية ، بل إننا عندما أقمنا دورة الألعاب الرياضية جعلنا اسم « حورس » الإله الفرعونى القديم علماً على هذه الدورة !!

إن قضية فلسطين هى قضية الإسلام !! والمسجد الأقصى ليس أثراً عربياً إنما هو معلم إسلامى يعنى جميع الأجناس التى اعتنقت هذا الدين .

والأرض من الفرات إلى النيل هى الامتداد الزمانى والمكانى لجهاد السلف الأول الذى قضى على الامبراطوريات الكِسْرويّة والقيصرية ، وأقام الحنيفية السمحة فى هذه الأرجاء .

وضياع الأقطار الإسلامية من الفرات إلى النيل معناه ضرب الوسط تمهيداً للإجهاز على بقية الأطراف فى الشرق والغرب .

إن المؤامرة على الإسلام هائلة ، وإذا لم نصح من غفلتنا فستحيق بنا اللعنة . .

إن اليهود منذ جاءوا إلى فلسطين أيام الاحتلال البريطانى ، لم يفكروا فى صلح ، ولم يخطر ببالهم إلا إقامة إسرائيل الكبرى ، وقد أعنّاهم على أنفسنا بفرقتنا المؤسفة ، وتحوّل العرب والمسلمين إلى شراذم مهتمة بمآربها الصغرى ، مغطاة العين عما يراد بها .

أريد أن أقول لمن تخدعهم صيحات الصلح : إننا نؤمل فى سراب ، وإن أعداءنا ماضون حسب مخططهم الدينى المعروف .

ولن ننجو من أحابيل الخصوم الظاهرين والأخفياء إلا بعودتنا إلى الإسلام فى قوة تعادل أو تزيد على عودة خصومنا إلى مواريثهم ، واستمساكهم بدينهم ، وحماسهم لمقدساتهم .

* * *



الإسلام وحقوق الإنسان

يشتغل بحقوق الإنسان الآن نوعان من الناس : نوع يعتبر نشاطه امتداداً لحلف الفضول الذى شهده النبى - ﷺ - فى صباه ، فسره وأثنى عليه وقال : « لو دعيت به في الإسلام لأجبت » . . ونوع آخر من الساسة يتحدثون عنها فى المحافل الدولية حديثاً جديراً بالتأمل والتريث ، لأنهم يضمنون هذه الحقوق لبعض الناس ويضنّون بها على بعض آخر ، فلليهود حقوق تصان ، وللعرب حقوق تهدر ، ويزداد البون بعداً عندما نعرف أن اليهود سالبون والعرب مسلوبون ، وأن صيحة حقوق الإنسان هنا غطاء لمظالم فادحة وغبن مركب . .

على أن هناك إعلاناً عالمياً بحقوق الإنسان اعتمدته هيئة الأمم المتحدة ، ورأت أنه ذروة الحضارة العالمية التى بلغها عصرنا ، وناشدت الحكومات والشعوب أن تقوم به وتحترم مواده كلها ، وبين الحين والحين تتهم بعض الدول بأنها خرجت على هذا الميثاق ، وتطالب بالعودة إليه ، حسناً ، إلى هنا لا اعتراض لنا . .

وإنما اعتراضنا على الصلف والنفاق اللذين يصحبان هذه المطالب عندما توجه للمسلمين خاصة ، مشعرة إياهم بأنهم متخلفون عن الركب الإنسانى ، وأن المؤسسات الحديثة تعلمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم . .

منذ قرن واحد كان القانون فى انجلترا يبيح للزوج أن يبيع زوجته لمن يشاء ، لم يتدخل إلا فى تحديد السعر ، فهل - نحن المسلمين - الذين نتهم باحتقار المرأة ؟ ونطالب بالتحضر فى معاملتها ؟

وعندما كان الرومان ينشرون المسيحية فى شمال أوروبا كانوا يسلخون جلود الوثنيين ، ويستغلونها فى أغراض خسيسة ، فهل يقاس هذا التاريخ الأسود بتاريخ دين يقول لنبيه ﷺ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

(١) التوبة : آية ٦ .

ونحن نتهم بالإكراه فى الدين ، واستغلال القوة فى فتنة الآخرين ، فهل نصدق ذرة من هذا الاتهام ، وقد مات نبينا ﷺ ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى ، عاش ومات مصون الحقوق مع سوء معاملته لصاحب الرسالة ، وهو يومئذ رئيس الدولة وصاحب الكلمة الأولى فى جزيرة العرب ؟ .

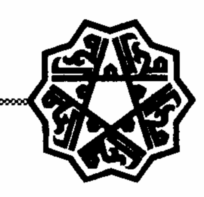
إن ديننا هو الذى اخترع الحريات والحقوق التى يتطلع إليها العانون والمعذبون فى الأرض ، ولكن المسلمين كأنما تخصصوا فى تشويه دينهم ، وطمس معالمه بأقوالهم وأفعالهم .

كان البدوى الذى يعرض الإسلام على حاشية كسرى نيّر البصيرة ، والعبارة عندما قال : جئنا لنخرج الناس من ضيق الأديان إلى سعة الإسلام . ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده !

إن هذا البدوى جاء بثمرة العقائد والعبادات عندنا ملخصة فى جملة قصيرة ، حوت ما نسميه الآن حقوق الإنسان !!

ولكن هذه القدرة لا يؤتاها إلا خبير بالكتاب والسنة ، خبير بعلل الشعوب وأدويتها ، يعرف هدفه ، ويعرف كيف يسير إليه ، فى رأيى أن هذا العصر أخصب العصور لتلقى تعاليم الإسلام ، وياله من دين لو كان له رجال . . !

* * *



إنهم يجاهرون بتوراتهم، ونستحى من قرآننا

من قرن مضى ونحن نطارد جيوش الاحتلال التى تسللت إلى أرض الإسلام فى غفلة من شعوبها وحكامها ، وطوت راية التوحيد فى أغلب الأقطار ، ما نجا إلا من عصم الله ، وقد استعر الكفاح طويلاً حتى أمكن بعد لأى أن تجلو هذه الجيوش ، وتعود من حيث جاءت ! بيد أن تطهير الأرض من الغزاة الذين احتلوها لا يغنى أبداً عن تطهير العقول التى دخلها أولئك الغزاة ، عسكروا بمبادئهم وقوانينهم وتقاليدهم !

إن العالم الإسلامى اليوم يواجه هجوماً ضارياً من أقوام عرفوا بالعلمانية ، وظيفتهم الأولى محاربة التشريع السماوى وتوهين التربية الدينية ، وهم - مثل سادتهم الأجانب - يكرهون الدين كله ويتخذون محاربة الشريعة فى ميدان المعاملات ذريعة إلى محاربة العقائد والعبادات والأخلاق الإسلامية ، ولهم مهارة فى تحريف الكلم عن مواضعه ، وقدرة على استغلال الهنات التى قد تقع من بعض الإسلاميين كى يصموا الأمة كلها بما هى منه براء ، وكى يلمزوا الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان!

وأرى أن الشر قد استفحل ، وأن هؤلاء الناس طليعة لغارة عامة تشنها الصهيونية والصليبية معاً ، سيّما بعد الاختراق اليهودى للمسيحية ونجاحه فى تسخير دول كبيرة لمعاونة إسرائيل . . !

إن اليهود كان يهمسون بأمانيهم فى ابتلاعنا ، صاروا الآن يجهرون بهذه الأمان ويرونها حقوقاً لابد من الحصول عليها !!

ويوجد بيننا من ينتمى إلى العلمانية ، أو من يرى انتشارها ببرود أقرب إلى الرضا ، ولعل أبرز مظاهر الخيانة للإسلام رفض الانتماء إليه والاستحياء من حمل شعاره . .

إننى أهيب بإخوانى فى كل قطر أن يزدادوا تشبثاً بالوحى الإلهى وبرسالة محمد ، فإن الحملة عليها تتسع ، والكيد لها يزداد !!

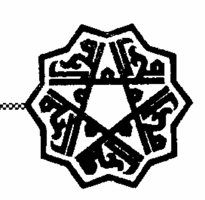
ولا يجوز أن يملأ اليهود أفواههم بالانتساب إلى إسرائيل ، على حين يخافت بعضها ، أو يأبى الانتماء إلى محمد ﷺ وتراثه ، إن أمتنا تحصد المر من تطبيق القوانين الوضعية ، ومع ذلك فإن المطالبة بالعودة إلى الشريعة مرفوضة ولو كان فى ظلها الأمان والاستقرار !

وأرى أن نكون صرحاء فى إبراز العلاقات المتينة بين العلمانية من ناحية ، وبين التنصير والتهويد من ناحية أخرى ، فحتى متى نتكتم هذه العلاقات ، وخصوم الإسلام فى الشرق والغرب لا يستحيون من المجاهرة بضرورة الإجهاز عليه والاستراحة من وجوده ؟ إن الجهاد الأدبى فى هذا المجال صنو الجهاد العسكرى .

وأثر القلم والصوت فى ميدان الإعلام لا يقل عن أثر المدفع والصاروخ فى ميدان القتال ، وأعتقد أنه يساق فى هذا المجال ما جاء عن رسول الله - ﷺ - : « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بعذاب » .

و « من مات ، ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شُعبة من النفاق » !! والغزو الآن الدفاع عن الإسلام بكل سلاح متاح ، وبكل وسيلة مستطاعة ، وإنى أعجب لأمة تقاد إلى شر مصير ، ومع ذلك يفر رجالها من مقاومة العدوان ، والجهاد فى سبيل الله .

* * *



أسباب فرقة العالم الإسلامى

تتعرض وحدة العالم الإسلامى لمزيد من العوائق والمتاعب ، وسنشرح أسباب ذلك هنا لافتين الأنظار أولاً إلى الوحدة الألمانية التى تمت أخيراً بين ألمانيا الشرقية والغربية! لقد كان يوم إعلانها عيداً في البلاد كلها ، فقد زالت الفوارق المصطنعة ، وعاد المواطنون الألمان جميعاً صفوفاً متراصة تحت راية واحدة ، وشيعت ذكريات الفرقة باللعنة والمقت !! . .

وأسأل هل وقع شىء من ذلك عندما خرجت خمس دول إسلامية من وراء الستار الحديدى لتنضم إلى العالم الإسلامى الكبير ؟ لقد فرح بعض الناس واستبشروا بمستقبل أفضلَ لإخوان العقيدة ، ولكن جماهير كبيرة كانت تسمع الأنباء وهى فى مكان بعيد ، وكأن الأمر لا يعنيها ، أو يعنيها على المجاز لا على الحقيقة .

ويرجع ذلك إلى أمور ، أولها :

نجاح السياسات الاستعمارية فى إقامة قوميات مختلفة على الصعيد الإسلامى بلغت سبعين جنسية ، تستظل كل واحدة منها بعلم خاص ، وأبناء الوطن الواحد قد يشعرون بقرابة الإيمان بينهم وبين الآخرين ، ولكنهم معنيون قبل كل شىء بإخوانهم داخل الحدود التى رسمتها السياسات العالمية ، فالمصرى يهتم بالاسكندرية أكثر مما يهتم « بيافا » والسعودى يهتم بتَبُوك أكثر مما يهتم بالخليل ، وقد استقرت الأوضاع العالمية على ذلك ، وارتضينا نحن ما كان . .

أما قول الرسول الكريم - ﷺ - : « المسلمون أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » فأملٌ لا يعرفه الواقع الأليم ، وعندما نسعى إليه نعتبر خياليين . .

والأمر الثانى أن بعض الشواذ يسلطون الخلاف فى الرأى على مبدأ الأخوة الجامعة ، فإذا كان يرى لحم الجزور ناقضاً للوضوء أو سدل اليدين ناقضاً للصلاة ، طارد مخالفيه فى الرأى ، وضيّق عليهم الخناق ليلحقهم بأهل المِلل الأخرى !!

وعندما يغلب هذا السفه فالويل لوحدة الأمة ، وأذكر شاباً جاءنى يسألنى أن أقترح له اسم كتاب يدرسه فى الفقه فذكرت له كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق ، ثم استدركت أسأله ماذا قرأت من كتب الأخلاق ؟ فسكت متحيّرا !! فقلت له : لابد أن تقرأ أولاً تعاليم الإسلام فى الصدق والأمانة والوفاء والحياء والرحمة والحب . . إلخ ، فلا قيمة لفقه بلا خلق . .

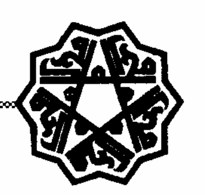
وهناك أمر ثالث : أن الغزو الثقافى يشن غارة شعواء على التقاليد الموحدة للأمة ، وقد علمنا أن التايخ الفرنجى يسبق التاريخ الهجرى ، وأن القانون يسبق الشريعة وأن الرطانات الأعجمية تسبق اللسان الفصيح .

وقد لاحظت أن اليهود حراص على عبادتهم - فى المفاوضات الأخيرة - على حين يتبجح العرب بترك الصلاة والصيام !! ويقولون عن أنفسهم : إنهم علمانيون !

لقد برزت فى أيام مشئومة عروبة عريانة عن الإسلام فماذا صنعت بالأمة الواحدة؟ أثارت البربر فى أقطار المغرب ، وأثارت الأكراد فى العراق ، وأقرّت الفواصل بين العرب والترك ، والهنود والزنوج ، وهزمت الإسلام فى ميادين كثيرة ، وأعانت الأديان الأخرى على الانطلاق وتسنّم مراكز الصدارة ! !

إن الوحدة الإسلامية تحتاج - اليوم قبل الغد - إلى أن نراجع أنفسنا وأحوالنا ، وإلا فسَيْلُ الهزائم لن يتوقف .

* * *



أرخص الدماء !

الأخبار التى تنتهى إلىّ هذه الأيام تبعث على الكآبة . . فالإسلام يضرب بقوة فى أماكن كثيرة ! ودماء المسلمين تسيل بغزارة ! والضاربون لا يخشون قصاصاً ، ولا يرهبون يوماً ولا غداً . . !! وباذلو الأموال لمحاربة الإسلام ينفقون بسخاء ، ويعدون الأجهزة الفعالة لدعم التنصير وتوسعة ميادينه ، وأمامى بيان بما أنفق العام المنصرم جاء فيه :

« أصدرت الهيئة الدولية لبحوث الإرساليات المسيحية نشرة إحصائية عن التنصير وأنشطته فى العالم لعام ١٩٩١ جاء فيه أن عدد المؤسسات التنصيرية ووكالات الخدمات المسيحية بلغ (١٢٠٨٨٠) وكالة ومؤسسة كما بلغ دخل الكنائس العاملة فى مجال التنصير (٩٣٢٠) بليون دولار ، وأنفقت (١٦٣) بليون دولار لخدمة المشاريع المسيحية ، وحققت الإرساليات الأجنبية دخلاً مقداره (٨,٩) بليون دولار .

وذكرت أنه يعمل فى مجال خدمة التنصير (٨٢) مليون جهاز كمبيوتر لحفظ ونشر المعلومات ، وأنه صدر (٨٨٦١٠) كتاب ، (٢٤٩٠٠) مجلة أسبوعية للدعوة ، وبلغ عدد الأناجيل الموزعة مجاناً (٥٣) مليون نسخة ، أما محطات الإذاعة والتلفاز المعنية بالتبشير فتبلغ (٢٣٤٠٠) محطة » .

وإذا جمعت الأرقام المنفقة فى أغراض التبشير لسنة ١٩٩١ لبلغت ١٨١ مليار دولار . . ومن حق أوربا وأمريكا واستراليا أن تنفق ما تشاء لنصرة عقائدها ولكننا نتساءل : ماذا يفعل الإسلاميون فى مواجهة هذا الزحف الذى ما خفى منه أعظم مما بدا ؟ إنهم – على فقرهم وضعفهم – يستطيعون الكثير المجدى ! بيد أن هناك ما نشكو منه !! فالعقلاء المعتدلون فى مجال الدعوة يقيد نشاطهم عمداً ، ويكادون يدورون حول أنفسهم لإنسداد الطرق أمامهم !! والمتطرفون يؤذون أنفسهم ببعض مسالكهم ، ويؤذيهم خصومهم بصنوف من البهتان ينسبونها إليهم ، هم منها أبرياء ، والأمر كما قيل : ومن دعا الناس إلى ذمة . . ذموه بالحق وبالباطل !! .

وأريد لفت أصحاب العقول والضمائر إلى خطورة هذه الأوضاع ، منذ أيام قتل خمسون مسلماً فى « سيرلانكا » بالأسلحة البيضاء ، قتلتهم عصابات التأميل شر قتلة ! ، وذهب الخبر المنشور مع الصدى ما تحرك له أحد ، وما تخلف عنه أثر !!

أنا موقن بأنه لو كان بعض هؤلاء القتلى من اليهود لزلزلت القارات الخمس ، ولأرسلت بعض الأساطيل لتعقب القتلة ! !

أعرف أن الدم الإسلامى أرخصته أحوال أمتنا ، فأصبح أهون الدماء المسفوكة ، فهل إذا تألم أصحاب الغيرة لهذه الأوضاع اعتبر ألمهم عجباً ، ونثرت حوله الإشاعات والتمست التهم ؟ ؟

أليس من حق المظلوم أن يتألم ؟ أليس من حق المسلمين أن يصرخوا إذا ضربوا ؟

إننى أطلب من العاملين فى الحقل الإسلامى أن يتبينوا مواقع أقدامهم ، فإن المتربصين كثيرون ، وأطلب منهم قبل ذلك أن يحسنوا فهم دينهم وفقه أحكامه وقضاياه حتى لا يمكنوا من أنفسهم ويجروا التهم على دينهم .

* * *



الآكلون على كل الموائد

التطرف لا يحارب بالإلحاد ، وإنما يحارب بالفهم الصحيح للإسلام ، والفقه الواعى لكتاب الله وسنة رسوله ، إن الغلو فى الدين آفة معروفة من قديم ، وقد قاومها أولو الألباب بشرح الحق واقتياد الناس إليه بلباقة وأناة .

لقد قرأنا خبر الثلاثة الذين استقلوا عبادة رسول الله ، ورأوا أن يزيدوا عليها ، فقال أحدهم : أنا أصوم ولا أفطر ، وقال الثانى : وأنا أقوم ولا أنام ، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء ، وبلغ أمرهم النبى - ﷺ - فأنكر عليهم ما قالوا ، وقال « أنا أعلمكم بالله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » ! .

إن مسلك هؤلاء النفر لا تصح به دنيا ولا يقوم به دين ، والنهج الراشد ما التزمه الرسول وصحبه ، ولا شك أن هؤلاء الثلاثة ثابوا إلى عقلهم ورجعوا إلى سيرة جماعة المسلمين كيف ؟ بالنصح لا بالعصا ! وبالأسوة الحسنة لا بالسيرة الغليظة الخشنة ! ونحن نعرف ما يقاسيه الدين الحق من تطرف الأتباع الجهال ، ومن اجتهاداتهم العوجاء ! ويزيدنا حرجاً أن أعداء الإسلام مهرة فى استغلال هؤلاء ، وتنفير الناس من الدين كله لما يؤخذ عليهم من أخطاء ويؤثر من آراء !!

أعرف أصحاب أقلام كانوا دعاة للتغريب يوم كان الالتحاق بأوربا طريق التقدم والارتقاء ، ثم تحولوا إلى دعاة للشيوعية يوم هبت ريحها وانخدع الغوغاء بها ، ثم أصبحوا اليوم دعاة للعلمانية يدقون طبولها دقاً عالياً .

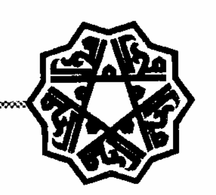
إنهم خصوم لله ورسوله ، مبغضون أشد البغض للإسلام وحده ، وكلما تمهد ميدان للعمل ضده كثروا فيه يظاهر بعضهم بعضاً ويشد أزره ، وهم الآن يحاربون الإسلام نفسه تحت عنوان محاربة التطرف ، وينتهزون الفرصة للنيل من حقائقه ؛ لأن الإسلام السياسى خطر على وحدة الأمة ! أو على التقدم الحضارى كما يزعمون .

اختلق أحدهم قصة وهمية أن ابنته جاءت من المدرسة تبكى ؟ لأن مدرس الدين قال لها : إن الجنة لا يدخلها إلا المسلمون ، وهى لها أصدقاء مسيحيون ! لماذا لا يدخلون معها ؟

ونشرت القصة فإذا كاتبة معروفة بمهاجمة المحجبات تتألم لما وقع ، وتطالب بمحاكمة مدرس الدين ! وتحرك بعض الرسميين لبحث القضية ، فإذا هى مختلقة لا وجود للقصة كلها إلا فى خيال الكاتب المتخصص فى تشويه الإسلام ، ومسالك أتباعه !! هذا الكاتب نموذج لأشباهه ممن يحاربون التطرف كما يقولون ، وهم لا يزيدون ناره إلا اشتعالاً لأنه هو وأشباهه دليل على فساد المجتمع ، وامتلائه بالماجنين والمارقين . .

إننا مع جماعة المسلمين التى لا تعرف إلا المنهج الوسط ، والتى تكره التطرف . . ولكننا نلفت النظر إلى أن الإلحاد داء لا دواء ، وأن أصحابه أخطر على الأمة من سواد المتطرفين .

* * *



أين نحن من تعاليم الإسلام

لم يدر بخلد أحد أن سقوط الخلافة منذ سبعين سنة سيعقب كل هذه المآسى التى تمر بالعالم الإسلامى .

كانت الخلافة - على ما بها من عيوب - تمثل أبوة روحية وثقافية وسياسية يشعر بها المسلمون فى المشارق والمغارب ، فلماذا اغتيلت على النحو الذى هلكت به أمست الأمة يتيمة لا كافل لها ولا حارس .

وحاول أهل الغيرة أن يستعيضوا عنها بالجامعة الإسلامية ، ولكن ذلك كان قليل الجدوى ، وهذه الجامعة رباط كريم يقوم على أخوة الدين ورباط العقيدة ووحدة المنهج والهدف .

ولكن الاستعمار الثقافى استحيا القوميات الضيقة والواسعة ، وشغل كل قبيل بمآربه الخاصة .

فإذا الأمة الواحدة تصير سبعين أمة لها سبعون راية ، وتبعت ذلك غارات عسكرية على الأطراف تارة وعلى الداخل تارة ، وكل قبيل مشغول بنفسه وقضاياه ! فنشأ عن ذلك ما نقص عليك نبأه .

فى سيرى لانكا أقلية مسلمة تبلغ مليوناً ونصف المليون من أشرف الطوائف وأنشطها وأغناها ، تزيد على عشر السكان ، وفى الحرب الدائرة الرحى بين البوذيين والتاميل الهندوك ، رأى الأخيرون أن يستولوا على الأراضى الإسلامية بعد إبادة سكانها أو إكراههم على الفرار ، وقد نشرت صحيفة الخليج هذه الأخبار الموجعة ، أذكرها كما قرأتها « تأكيد مصرع ١٣٠٠ مسلم على يد التاميل : واشنطون أ - ش - أ أكدت شبكة سى . إن . إن التليفزيونية أنه فى إطار المجازر التى تجرى للمسلمين فى سيرى لانكا قام نمور التاميل بذبح ألف وثلاثمائة مسلم دفعة واحدة » ! والمعروف أن أولئك المتمردين قاموا خلال الأسبوع الماضى بحرق ٣٠٠ مسلم فى إطار سعيهم لإقامة

دولة خاصة بهم !! وقد جن جنون المسلمين لهذه المجازر الوحشية ، وعرضوا على الدولة تجنيد عشرة آلاف شاب مسلم للاشتراك فى مقاتلة التاميل . . ورد العدوان !!

وما يقع للمسلمين فى آسيا يقع الآن مثيل له فى أوروبا ، حيث يتم تقتيل الألوف من المسلمين لتخلو الأرض منهم ، ويسكنها اليوغوسلاف !! والواقع أن القتل يستحر فى المسلمين فى مواطن كثيرة ، والعالم يستمع إلى هذه المآسى ، ويجب ألا يشغل طويلاً بها ، فلديه من قضاياه الصغرى والكبرى ما يكفيه !

والمهمة من قبل ومن بعد تقع على عواتق المسلمين أنفسهم ، وإذا لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم فلن يدافع عنهم أحد . .

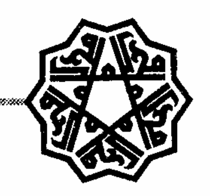
وأريد أن أتساءل : ما وقع هذه الأخبار على الأمة الإسلامية الكبرى فى أوطانها الرحبة ؟ إننى أريد أن تنطلق بها مكبرات الصوت فى كل ميدان ، وأن يذاد بها النوم عن عيون النائمين ، وأن نؤخر بها وجبة من وجبات الطعام ، وأن نخرس بها الموسيقى الخنثة فى بعض الأطفال !! إن المسلمين جسم واحد يألم كله بما يؤلم بعضه ، فأين نحن من تعاليم الإسلام ؟

إن الذاهلين سوف توقظهم آلام مشابهة ، ولن يجدوا من يرثى لهم .

* * *

القسم الثانى

الجرعات الأخيرة من الحق المر



ترتيب إلهى لحماية الحق

معروف أن نحو ثلثى القرآن الكريم نزل فى مكة المكرمة وأن بقية الأجزاء الثلاثين نزل فى المدينة المنورة .

وقد هاجر المسلمون إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة قضوها فى مكة ومع ذلك فإن ترتيب المصحف ـ وهو ترتيب تم بتوقيف إلهى ـ جعل أول ما نزل فى المدينة أول ما ثبت فى المصحف ! فكانت البقرة وآل عمران والنساء والمائدة صدر ما يطالعه القارىء ثم جاء بعدئذ ما نزل بمكة !

وقد تدبرت الحكمة فى هذا العمل فرأيت أن المسلمين بعد الهجرة اشتبك بهم أهل الكتاب وشنوا عليهم حربًا شعواء ، وكان محور هذه الحرب نفى صلة الإسلام بالسماء ، ورفض الاعتراف به جملة وتفصيلا ومخاصمة أتباعه إلى آخر رمق ، وجعل الوحى الصحيح فى مواثيهم وحدها .

واستمع إلى قولهم : ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾(١) وقولهم : ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾(٢) .

بل ضريت العداوة ضد الإسلام حتى فضّل القوم الوثنية عليه ، ورضوا بأن يعود المسلمون إلى عبادة الأصنام ! فهم كما وصف الله : ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾(٣) .

وقد عاتبهم القرآن على هذا العداء اللدود ؟ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾(٤) . والغريب أن أهل الكتاب توارثوا هذه الخصومة فالمسلمون فى القرآن الخامس عشر من تاريخهم لايرَوْن بادرة اعتراف بهم أو بدينهم أو بحقوقهم .

---

(١) البقرة : ١١١ .
(٢) البقرة : ١٣٥ .
(٣) النساء : ٤٤ .
(٤) آل عمران : ٩٩ .

وعندما ولدت هيئة الأمم المتحدة تفاءلنا خيرا وهيهات ..

فإن العمل الوحيد الذى قامت به هو إنشاء « إسرائيل » على أنقاض العروبة والإسلام واحتضان غاياتها التى لن تتم وفى الإسلام رمق ، وتشجيع الأنظمة العربية والإسلامية التى ترتد عن الإسلام فى ميدان التشريع والتربية والتقاليد الاجتماعية ومنع وجود جماعات إسلامية محافظة تتبنى الإسلام منهاجاً ودستورًا . .

هل علمت لماذا بدأ المصحف بالسور التى تدافع عن الإسلام ضد عدوان المعتدين من أهل الكتاب ؟

يبدو أن هذا الدفاع مطلوب حتى قيام الساعة . إنه ترتيب إلهى لحماية الحق .

* * *



« سلخانة » لذبح المسلمين

سمعت فى إذاعة لندن بنبأ الدكان الكبير الذى فتحه الصرب لبيع اللحم الإسلامى !

إنه ليس لحما للأكل . إنه يقدم قطع غيار مطلوبة فى جراحات شتى .. يقول طبيب : أريد كبدا سليمة بدل هذه الكبد المقروحة !

ويقول طبيب آخر : أريد كلية صحيحة بدل هذه الكلية المعطوبة !

ويقول ثالث هذه العين لمن ترى وأحتاج إلى عين سليمة القرنية ... الخ .

ويذهب المشترون إلى صربيا الكبرى !! ومعهم الأموال المغرية فإذا أصحاب فلسفة النقاء العرقى يقبضون على ألوف الشبان المسلمين بين السادسة عشرة والسادسة والعشرين .. ويقوم الأطباء بالكشف عليهم وإعدادهم لما يراد بهم !

والمعروف علميا أن القلب مثلا لايصلح للعمل إلا إذا نزع وفيه حياة ، أما إذا نزع من ميت فلا قيمة له وكذلك سائر الأعضاء الأخرى ، ولذلك يرشح المحكوم عليهم بالإعدام لهذه الخدمة .

وقد رأى الصربيون أن المسلمين يصلحون لهذا الغرض فنفذ فيهم على نطاق واسع . يجاء بالشاب فيقتل وقبل أن يسلم الروح تكون كبده أو كليتاه أو عيناه أو ما شاء الأطباء من جسمه قد انتزع وجرى تسفيره على عجل ليتحرك فى جسد آخر ، أو ليتحرك به جسد آخر !!!

إن القوم يرون أنه ليس لنا حق فى الحياة ، أو أننا ما دمنا مسلمين فلا نستحق أن نحيا ، وغيرنا أولى بقلوبنا وأبصارنا !!!

ما كنت أتصور النذالة تبلغ هذا القرار ، ولا الحقد علينا يبلغ هذا الحدّ .

وقد نبه مذيع لندن مشكورا إلى الدرك الذى بلغته هذه الخسة ، ولفت النظر إلى أن جماهير من اليهود والنصارى ترفض هذا المسلك وتستنكره ، وأنا مصدقه ولكنى أسأل الإذاعات العربية السادرة لماذا لم تكتشف هى هذه المصيبة !

أيظل أبناؤنا يذبحون سنين عددا وهم لايدرون شيئا وشغلهم الشاغل تطوير البرامج لتكون أملا بالمجون وأقدر على إضاعة الوقت ؟ ولتضم الرقص الشرقى إلى الرقص الغربى ؟ ومهازل القديم إلى مفاتن الحديث ؟

المفروض أن الإعلام ثقافة وتسلية ، ولكن الثقافة ضاقت رقعتها حتى تلاشت أو كادت .

أما التسلية فقد قتلت روح الجدّ والصدق ، وهزمت التراث والخلق .

* * *



الحمقى المدخنون..

استغرق تحريم الخمر أكثر من خمس عشرة سنة ، ولعل هذا التدرج فى التشريع كان سر نجاحه !

فإن العرب كانوا شرهين فى شرب الخمر ولو أخذوا بتركها مرة واحدة لأخذ ذلك بالدعوة الإسلامية بل لأضر ذلك بالتحريم نفسه . !

وفى هذا العصر حرمت أمريكا الخمر بتشريع مفاجىء بعد ما استيقنت من أضرارها الصحية والاجتماعية ولكن قانون التحريم فشل .

فالقلة المعارضة لم تقتنع به ، والكثرة المؤيدة لم تُضحِّ لنصرته ، وتألفت عصابات قوية لتهريب المسكرات ، وغرمت الشرطة كثيرًا فى حماية القانون دون جدوى ولذلك لم يبق أكثر من دورة برلمانية ثم أسقط فى الدورة التى تليها . .

وقد تعلمت أمريكا من ذلك درساً تطبقه الآن فى محاربة الدخان ، إنها تأكدت من أن « النيكُتين » سم ناقع ، وأنه وراء أمراض قاتلة ، وأن إقبال الناس على التدخين حماقة مهلكة ، فهل تصدر قانونا بتحريمه كما يشير الأطباء وكما فعلت من قبل مع الخمر ؟

إنها لم تنجح ولا تريد تكرار الفشل ، فقررت ألا ينشر إعلان عن السجاير إلا نشر معه تحذير طبى يمنع أولى الألباب من تناولها ، وتبعتها دول العالم فى نشر هذا التحذير .

ولما ثبت أن جار المدخن يكتوى بناره قررت عزل المدخنين فى أماكن خاصة ، ويظهر أن شركات التبغ الكبرى ضربها الكساد فى العالم الأول وتريد تعويض خسائرها فى العالم الثالث فضاعفت إنتاجها وأقبل عليها شبان يحسبون الرجولة تدخين سيجارة ! .

وما أفدح مصيبتنا فى هذا الشباب !

لقد رأيت الناس يبحثون بحماس عن مستنقع يفقدون فيه صحتهم وثروتهم ويجادلونك بغضب إذا أردت حملهم على سبيل الرشاد . . !

وأنظر إلى حاكم « روسيا » الذى أكلت الخمر عافيته وأورثته الداء العضال ، إنه لا يريد أن يتوب ، ولو ظل يعبّ الخمر حتى هلك ما أسفنا المصرعه ، ولكن أسفنا لأن مستقبل شعب إسلامىّ حُرٍّ مُناضلٍ رهن كلمة تمرق من فمه ، وما ظنك بكلمة تخرج من فم سكير ؟ يأمر بالإبادة والمصادرة والإذلال وتعذيب الأحرار . .

إن الألوف المؤلفة من المسلمين المرابطين يتعرضون فى قراهم للدبابات تقذفهم بالحمم وتحيل بيوتهم ترابا تنفيذا لأمر رجل عطشان للدم والخمر !

أمر واحد يمكن أن يقمع هذا الرجل ، أن يخاف على نفسه من الأمة الإسلامية الكبيرة ، وأن يرهب نقمتها عليه وعلى قومه فهل نستطيع ذلك اليوم ، وإذا عجزنا اليوم فهل نستطيعه غدا ؟ .

* * *



مسلمو الروس .. والمصير الكئيب

ما حدث لمسلمى شبه جزيرة القرم لايعلم به إلا قليل من الناس .

إن القيصر الأحمر « ستالين » أخرجهم من ديارهم وأموالهم وبعثرهم فى فيافى «سيبريا» ، لقد كانوا أمة متماسكة حفيظة على عقائدها وتقاليدها ، وكان من السهل تكوين دولة مسلمة فى شبه الجزيرة ، وذاك ما حفز ستالين على تشتيتهم ، والتهمة التى وجهها إليهم أن مشاعرهم كانت باردة عندما تقدم الألمان فى أعماق « روسيا » أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، ومن ثَمَّ أوقع بهم هذا العقاب الماحق !

وكما ينقل موظف من بلد إلى آخر قصىّ نقل شعب من وطنه وتراثه وذكرياته إلى حيث يفقد ماضية ومستقبله !

والحق أن مسلمى « روسيا » أصابهم حيف بالغ فى العهد الإمبراطورى والعهد الشيوعى على سواء ، وأنهم فقدوا كل ما يسمىً بحقوق الإنسان وديست شعائرهم وكراماتهم ، ومن استبطن دينه بعد ذلك عاش به معزولا حتى يوافيه أجله ! وتلك الحقيقة هى التى جعلت « الشيشان » يستميتون فى الدفاع عن استقلالهم ، ولكن هذا الدفاع كلفهم هدم مُدُنهم وقراهم ، فلا يوجد فيها الآن بنيان قائم !

إن الشعب المؤمن يريد أن يحيا بدينه حرًّا ، وبديهى أنه ليس خطرا على « روسيا » فماذا يملك « الشيشان » للدب الروسى وقنابله الذرية جريمته أمام الروس وأمام ساسة العالم أنه مُصِرٌّ على إسلامه ؟ ! ، وهذه جريمة لاتغتفرها القوى الكبرى التى تحكم الدنيا وترسم الآن مستقبلها . .

والمأساة التى تكمن وراء قضية « الشيشان » و « كشمير » و « جنوب الفلبين » و«بورما» وسائر الأقطار المحروبة أن الأمة الإسلامية الكبيرة قطعت أوصالها النزعات القومية الضيقة .

فالعرب لايهتمون إلا بعروبتهم ، وكذلك سائر الأجناس التى عاشت تاريخها فى أحضان الإسلام أمست حبيسة حدودٍ صنعها الاستعمار الحديث فهى لاتهتم بما يقع وراء هذه الحدود . .

ونتيجة هذه العزلة الرهيبة إنها ستجتث الإسلام من جذوره فى عشرات الدول الإسلامية المتفرقة ولا بقاء اليوم لكلمة التوحيد إلا بتوحيد الكلمة ، وإحساس كل شعب أن مصيره مربوط بمصاير الآخرين .

* * *



الحديث الضعيف

سألنى أحد القراء : لماذا تورد أحيانا بعض الأحاديث الضعيفة فى كتاباتك ؟ فأجبته لأن لدىّ ما يقويها من الشواهد الصحيحة وينفى عنها الضعف .

خذ مثلا حديث « **أحبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبونى بحب الله . وأحبوا آل بيتى بحبِّى** » لقد ضعفّه الألبانى ، ولم أوافقه !

فأنظر معى إلى الجملة الأولى منه . هل محبة الله موضع ريبة ؟

إن الذى يستقبل نعماء الله بالعقوق شخص خسيس ، ومن نحبّ إذا جفونا الله؟

ثم ننظر إلى محبة رسول ! ما سرّها ؟

إنه هو الذى دلّنا على الله وجلّى لنا عظمته وأحسن تمجيده وتوحيده بقوله وعمله وأنا مُستيقن أنه لم يوجد بشر فى الأولين والآخرين أبلى بلاءه فى تعريف الخلق بربهم واقتيادهم إلى سبيله !

ولذلك يقول الله سبحانه : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ... ﴾[1] .

فمحبة الرسول نابعة من محبتنا لله !

أما آل بيته فإن الناس فى المشارق والمغارب يكرمون الميت فى عقبه ، ألا ترى الحكومات كلها إذا مات موظف لديها كفلت أسرته وحمتها من المحن ؟ فنحن من أجل الرسول نحب آل بيته ونصلّى عليهم تقديرًا لجميلة فى أعناقنا !

إن فؤادى يتقطع عندما أقرأ أبيات « دعبل الخزاعى » يصف بيت رسول الله بعد موته فيقول :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العَرصَات !
بنات يزيد فى القصور مصونة وبنت رسول الله فى الفلوات !

---

(١) آل عمران : ٣١ .

لماذا أضعف هذا الحديث وأجتهد فى اتهام السند إذا كان المتن لا غبار عليه . . ؟
وخذ حديث حفظ القرآن الكريم الذى رواه ابن عباس فى شأن على بن أبى طالب ، إن الجمل الثلاث الواردة فى صدر الحديث هى عندى من آيات النبوّة . وهى « **اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدا ما أبقيتنى . وأرحمنى أن أتكلف مالا يعنينى وأرزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى** » .

إن قوة الذاكر لاتتم إلا بهذه الثلاث ، فالمعاصى تشتت العقل !

والانشغال بكل شئ يمنع التوفُّر والاستيعاب وسوء التقدير لما يرضى الله طريق الحرمان من عطائه . . .

والحديث طويل وقد جربته وأنتفعت به . ولذلك قال الرسول ﷺ لعلىّ بعدما نفذ وصاته « **مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن** » !!

والعلم الدينى لايهبه الله للمفرطين والأراذل ، إنما يوهب ويزاد لمن عمل به وأحسن صحبته أما علوم الحياة الدنيا فقد يُبرِّز فيها الخواجات . . . وما أقوله سبق به العلماء فإن الحديث القريب الضعف إذا ساندته شواهد قوية تلقيناه بالقبول .

* * *

أجمع النقاد على أن تراث محمد ﷺ وجد من الصوْن والحماية مالم يجدْه تراث بشر آخر فى الأولين والآخرين .

إن مادة الإسلام بقيت سليمة نقية تامة على امتداد الزمان والمكان لأن الله تأذن لهذا الدين بالحفظ على حين طاحت رسالات وسرى الخلل إلى أصولها وفروعها . .

ولست من علماء الجرح والتعديل وتمنيت لو كنت منهم ، فإن المرويات التى ارتبْتُ فيها تكشَّفَ لى أن أسانيدها مدخولة ، وأن الحاذقين أنكروها من قبلى !

والبلاء يجيىء من راوٍ قليل الفقه ، أو من محدث لا بصر له بعلم الأصول .

وعلوم الدين كلها يخدم بعضها بعضا ويؤيده ! ويُكمِّل أحدها قصور الآخر . قال لى أحد الناس : إن « أبا حامد الغزالى » ذكر حديثين مردودَيْن فى اختيار الزوجة ! قلت : ما هما ؟ قال حديث « **إياكم وخضراء الدمن ! قالوا : وما خضراء الدِّمَن ؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء** » والآخر « **تخيروا لنُطفِكم فإن العرق دساس** »!

قلت : قد تكون أسانيد هذه الأحاديث ضعيفة ، ولكن يشهد لها قول رسول الله فى حديث آخر لا خلاف فى صحته « **الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا** » ولذلك لا أُخطّىء « أبا حامد » فى استشهاده بهما !!

وقد روى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال « **الزبانية أسرع إلى فسقة القرآن منها إلى عبدة الأوثان ، فيقولون يُبْدَأ بنا قبل عبده الأوثان ؟ فيقال لهم ليس من يعلم كمن لايعلم** » !!

إن هذا الحديث ضعفه كثيرون ، ولكن الحافظ المنذرى قَبِلَهُ وقال : يشهد له حديث مسلم فى صحيحه عن أول ثلاثة تسعَّر بهم النار يوم القيامة ، وفيهم رجل جمع القرآن ليقال قارىء ! .

ومن لطائف المنذرى أنه فى باب الزهد روى عن سهل بن سعد قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دُلّنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال له : « **ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما بأيدى الناس يحبك الناس** » !! وقد زيف المنذرى هذا الحديث وأنكر سنده ، ثم قال : لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة » !! والزهد فى الدنيا مرفوض إذا كانت عونا على الدين وسترا للعرض وغنى عن الناس ، فلا قيام لدين لم تحرسه دنيا أما إذا جاءت الدنيا من خدمة الجوْر ونسيان الحق فلا كانت .

والعلماء المشتغلون بالدعوة يعرفون مرامَى الكلام .

فإن تحريف الكلم عن مواضعه بلاء شديد .

* * *



رؤية فى عالم البعث والجزاء

عندما شعر « فرانسوا ميتران » زعيم فرنسا الأسبق أن المرض آخذ بخناقه وأن أجله قريب تساءل فى حيرة : وماذا بعد الموت ؟

إنه لايدرى ما يعقب الوفاة ! إنه يحسّ بالانتقال إلى مجهول بعد أن ينقطع حبل حياته !

وهذا الإحساس هو ما يخامر الرجل العصرىّ فى أوروبا وأمريكا سواء كان فى عبقرية « ميتران » أو كان من عامة الناس !

أما أثر الدين فى النفس الإنسانية فمفقود أو هو أضعف من أن يملأ فراغ هذه النفس التى قطعت شوطا بعيدا فى الإرتقاء العلمى . . !!

إن الأوروبّى قد يسمع طنينا عن البعث والجزاء ، وقد يسمع حديثا عن الله ولقائه . ولكنه غارق إلى أذنيه فى حياته المادية لايعرف صلاة ولا صياما وينظر إلى رجال الدين بملابسهم المزركشة وأحاديثهم الخفيفة ثم ينصرف غير مكترث ، لأنها ما حرّكت له فكرا ولا أيقظت منه غافلاً ، فهو كما قال القرآن فى أمثاله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[1] .

إن النفس البشرية البالغة الذكاء لايستوقفها إلا القرآن الكريم ، ولا يهز أركانها إلا الوحى الصادق ، ولكن أين هذا الوحى ؟

إنه مُسْتَخفٍ وراء ركام من تخلّف المسلمين الحضارى وسقوطهم الذريع فى ميزان الفطرة والعقل .

وإذا كان أهل القرآن لايعرفونه فكيف يعرفه غيرهم ؟

---

(١) الجاثية : ٣٢ .

إن « مسيو ميتران » نموذج للإنسان الذى صَنَعتْه الحضارة الحديثة ، لقد كان فى قضية البوسنة يكره المسلمين ويظاهر عليهم الصرب ، ويوم مات اجتمعت عند قبره زوجته وعشيقته وابنته غير الشرعية - وهى فوق العشرين - إن التقاليد التى حكمته تحرم تعدد الزوجات وتتغاضى عن السفاح وتدع فتاة فى ريعان الصبا ليس لها نسب قائم !

أما الإسلام الذى يرفض هذا التناقض فهو دين مرفوض ، وأهله منبوذون مُسْتَباحُون !

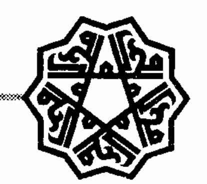
والزعيم الفرنسى لقى مسلمين كثيرين فى حياته الطويلة ، وأنا موقن بأن أحدا منهم ما حدثه عن الإسلام قط . . . !

لماذا ؟ لأن هؤلاء المسلمين لايثقون بما لديهم ، أو لا يقدرونه قدره !

وعقدة الضعف تفرض عليهم الصمت والتأدب مع أمثاله ، وسيسبقهم فى الميدان « كاردينال » يقول «لمسيو ميتران» إنى أغفر لك . . كما قيل ذلك من قبل لمستر «كندى» رئيس الولايات المتحدة !

إن حسابنا عند الله طويل .

* * *



أين القلب النابض باليقين؟

القلب الذى لا يأنس بالله ويطمئن إليه قلب خرب موحش تسكنه الهواجس والرِّيب ، كما تسكن البوم والغربان كل بيت هجره أصحابه !

إن الإيمان ليس دعوى فارغة وليس شقشقة لسان وليس معرفة نظرية ، وليس قدرة عقل ماكر ، إنه قبل كل شئ قلب سليم طهور واثق .

هذا القلب الراكن إلى الله الآوى إليه هو الذى عجز الفلاسفة عن صنعة وضلّ الماديون الطريق إليه ! ولم يعرفه إلا تلامذة الأنبياء وعشاق الوحى الإلهىِّ الحىّ .

وقد ألمح إليه « ابن تيمية » عندما تساءل ما يبلغ أعدائى منى ؟ سجنى خلوة ، ونفيى سياحة ، وقتلى شهادة !!!

من ما يخشاه الناس هو ما يرحب به الرجل ولا يضيق ذرعه به .

إن السكينة التى تغمر المؤمنين فى مواجهة المصائب النازلة هى « البنج » الذى يصحب الجراحات الخطيرة فيبطل الألم ، أو هى الإضافة التى ينصح بها « ديل كارنيجى » عندما يقول : أصنع من الليمونة المرَّة شرابا حلوا ! وقد كتب « ابن تيمية » جزء من فتاواه فى أعمال القلوب تناول التصوّف الإسلامى فيها ببصيرة مشرقة وعرض لأئمة التصوف الكبار باحترام وتأييد ، ولا غرو فالرجل الذى يقول لا يدخل جنة الآخرة من لم يدخل جنة الدنيا أهل لذلك ، وبقصد بجنة الدنيا بداهة «اليقين» الذى يستحلى المتاعب فى ذات الله ، والرجال الذين يشرفون الجهاد الإسلامى بصلابتهم وبشاشتهم فى وجه الخطوب . .

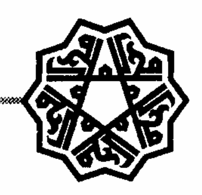
وقد انتقلت هذه النزعة منه إلى تلميذه « ابن القيم » عندما ألف كتابه الضخم « مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين » ردا على كتاب « منازل السائرين إلى رب العالمين » للهروى إمام الصوفية فى عصره ! .

لقد درست كتاب « ابن القيم » وأنا معتقل فى « الطور » بسيناء فكنت أشعر وأنا أقوم من درسه بأنى أهبط من السحاب إلى الثرى !

ألا يوجد فى عصرنا من يصلح بين القلب والعقل فى تراثنا الدينى ؟ .

إن التربية التى أراها قد تخرج « درويشا » غبيا ، وقد تخرج متفقها جلفا .

أفلا نقدر على تكوين إنسان نضير الفكر والفؤاد معا ؟



نعم المال الصالح ..

بئس السيد المال ونعم الخادم المال ، وفى الحديث « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** » !

إن الفقر نكبة تخدش الكرامة وتورث المذلّة وقد لاحظت أن الإسلام يجعل الصلاح شعبتين تساوى كلتاهما الأخرى ، فتلاوة القرآن عبادة ومواساة المحروم عبادة ، وهما سواء ! ، وفى الحديث « **لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله المال فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار** » وفى حديث آخر « **الساعى على الأرملة والمسكين كالصائم لايفطر والقائم لايَفْتُر** » !

إن العبادات الغيبية كالعبادات الاجتماعية فى إرضاء الله وزكاة النفس ، وبعض الناس يجود بالمال ، ولكنه لايدرى الطريق الصحيح لبذله .

وفى الحديث « **بئس الطعام طعام الوليمة يُدْعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء** » ! وقد شرحتْ صدرى «**موائد الرحمان**» التى تمدُّ فى أحياء القاهرة متاحة لكل وافد ، ما يزاد عنها أحد ، ولا يعرف الناس من دعاهم !

لقد اكتفى هذا الغنىّ الكريم بنظر الله إليه ، وأسعدته جموع الصائمين الفقراء وهم يتناولون الطعام فرحين حامدين ، والحق أنى رأيت هذا الصنيع عندما كنت أعمل من نصف قرن فى قرى الصعيد ، دعانى عضو مجلس النواب للإفطار معه ، وكنت أشتغل مع علماء المساجد بالدعوة إلى الله ، فظننت أنه يدعونى إلى بيته ثم رأيت بعد ذلك ما أثلج صدرى ، سرت على شاطىء ترعة تمتد الموائد فوقه تنتظر المئات من الناس ، وعرفت أنه قلما يفطر صائم فى بيته أنه إمَّا نصب مائدته أمام البيت يجلس إليها من شاء ! وإما انضمَّ إلى الحشد المجتمع على شاطىء الترعة يستقبل الغرباء والوافدين . .

إن رمضان شهر الجود ، والحق أن تقاليد الإسلام جعلت البخل من أقبح الرذائل ، هل القارات الأخرى كذلك ؟ لا !

إن الثورات الحمراء والصفراء ما أشعلها إلا الشحّ المطاع والهوى المتبع !

قال لى طالب قادم من أوروبا : كنت ضيفا عند السيدة فلانة ، ثم استدرك على عجل : أعنى استأجرت غرفة فى بيتها بمالى !

قلت : هذه هى الضيافة ؟ قال نعم هذا هو الكرم هناك . .

* * *

من المؤمنين رجال ...



يؤرقنى مستقبل الشباب المسلم الذى تطوع للدفاع عن البوسنة وحماية دينها وعرضها .

إن للصليبية العالمية ثأرا عنده فقد وقف دون امتداد أحقادها وأطماعها ، وآنس وحشة المسلمين المحروبين هناك ، وأشعرهم بأن أخوة الدين لم تمت وإن بعدتْ الشقة وضرى العدوّ . .

إننى باسم الألوف المؤلفة من المؤمنين فى أرجاء العالم أطلب من رئيس البوسنة أن يستبقى هؤلاء المجاهدين الأحرار فى أرضه ، وأن يعرض عليهم الجنسية البوسنية فمن قبلها عاش بقية حياته مع إخوان العقيدة يشاطرهم البأساء والنعماء ! .

ومن أثر العودة إلى وطنه عاد مستريح الضمير يستأنف حياته الأولى مقدورا مشكورا . . إن هؤلاء الشبان الشرفاء كانوا أهل إيمان وتقوى .

ربما فكر أمثالهم فى المتعة واللذة أما هؤلاء فقد تصدَّوْا للاستعمار السياسى والثقافى يعكرون صفوه ويتنادوْن بضرورة بقاء الإسلام فى أوطانه مكتمل التعاليم محترم التقاليد لا يُعَطِّل له تشريع ولا تُنْقَصُ منه لبنة .

والواقع أن القوى المعادية للإسلام وجهت إليه ضربة قاتلة عندما ألغت شرائع الحدود والقصاص ، وحاربت التاريخ واللغة والتراث كله وقسمت المسلمين إلى عشرات الجنسيات ، ولولا شجاعة رجل كسعد زغلول فى مصر لكانت اللغة الإنجليزية لغة الدراسة فى مراحل التعليم الأولى كما أن هذه اللغة لغة الطب وشتى العلوم فى الجامعات إلى الآن .

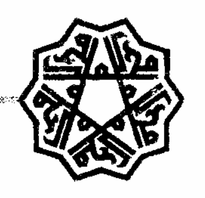
إن الحرب المعلنة على الإسلام تتحرك ببطء وثبات نحو أهدافها المرسومة ، والفئات العلمانية التى تخلفت عن الشيوعية أو التى صنعها المبشرون والمستشرقون تتعاون كلها على محاربة الكتاب والسُنَّة .

وتعتبر كل انعطاف نحو الإسلام خطرا عليها . . أنها تكره المصحف وما فيه ، وتعتبر كلمة « الإسلام هو الحل » شعارا رجعيا منكرا !!

وتتمنى لو غلقت المساجد ، بل تتعجل هذا اليوم ، فما رُئِيَ أحد منهم يدخل مسجدا للصلاة ولو خداعا !

ماذا يفعل مجاهدو البوسنة إذا عادوا ؟ خير لهم وللبوسنة أن يبقوا فيها ، فإن الأخطار على البوسنة لم تنته بعد .

* * *



سياحة فى الفضاء

أطلقت خيالى وراء القذيفة التى ذهبت لاستكشاف المشترى فأعجزه اللحاق بها ، أنها من بضع سنين تجرى بسرعة الصوت حتى بلغت هدفها أخيرا وانقطع أثرها فى الفضاء الرحب !

إنها لم تزغ ولم تتعثر بل نفذت ما كلفت به .

وأسقطت آلة حساسة حاسبة فوق سطح الكوكب الملتهب لتعرفنا بما هنالك !

إن مبلغ علمنا أن مارجاً من النيران يعصف فوق هذا الكوكب وأن حياة الإنسان فيه مستحيلة . ولو كانت ممكنة فماذا سيفعل الإنسان هناك ؟

وهل ضاقت به الأرض حتى يبحث عن مأوى آخر ؟

الإنسان ما ضاقت به الأرض ، ولكن ضاقت به نفسه وأخلاقه وأحقاده كما قال الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق !

إن الذى استوقفنى فى هذه الرحلة سعة الفضاء ، فإن أسرة الشمس ومن بينها المشترى لا تأخذ من مساحة الكون إلا ما تأخُذُه نملة فى قَبْوِ قصرٍ شاهق !!

إن الكون كبير لاتُعْرَفُ أبعاده وآماده ، ولكن خالقه أكبر منه يقينا ، سبحان ذى الملكوت والجبروت والعظمة !! ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[1] .

لنترك علماء الفلك يسبحون فى هذه الآفاق ولننتقل إلى جهة أخرى مقابلة .

إن علماء الطب يطاردون جرثومة « الإيدز » كى ينقذوا الألوف المؤلفة من غوائلها إنها جرثومة بالغة الدقة ! الملايين منها تحتويها قطرة ماء !

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

ومع ذلك تسطو هذه الجرثومة على جسد عملاق فتصرعه ! وصرعاها الآن فوق الحصر وقد فشلت الجهود للتغلب عليها ، فقد ارتدّ الذكاء البشرى مهزوما أمامها ! قلت فى نفسى من أين أسوق الشواهد على عظمة الخالق ؟ من ضآلة الذرّة أو من ضخامة المجرة ؟

كنا فى صِغرنا نسمع المثل المشهور : سبحان من كبرَّ الفيل وصغّر البعوض .

إن النواة تختفى فى الثرى لتخرج بعد حين نخلة باسقة ! والحيوان المنوى يختفى فى الرحم ليتحول بعد حين إنسانا سويا .

ثم تسمع هذا الإنسان يقول : لا إله والحياة مادة ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾[1] .

* * *

(١) النحل : ٤ .



قوم لا وزن لهم.. (١)

أرفض ميوعة المفاهيم وخلط الأوراق ! أرفض أن يقول أحد الناس : أنا مسلم لكنى غير مؤمن بسورة كذا أو آية كذا !! إما أن تؤمن بالكتاب كله أو تكفر به كله ! فإن الله قال لمن قارف هذا المسلك : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾(١) .

كتب أحد الذين اتهمتهم بالارتداد يقول : نحن لم نعطِّل القَطع والرَّجْم ، إن الزمن هو الذى عطل هذه الحدود ، فقد أنتهى أوانها .

وأقول : هل الزمن هو الاحتلال الأجنبىّ الذى كشف عن حقده الدينى القديم وأمر بإلغاء الوحى ؟ وجبنتم أنتم عن مقاومته ، فسرْتم وراءه وَحَرَّضتم على مناوأة الله ورسوله ؟ وعالنتمونا بالخصام ، وبكراهيتكم للصلاة والصيام ؟

إن الزمن فى فلسفة النسبية بُعد رابع للمادة ينضمّ إلى الطول والعرض والعمق ، ولا صلة له بتغيير العقائد وتشويه الأخلاق ، ولذلك يقول الشاعر :

أَرى حُلَلاً مَصُانُ على أناس وأخلاقًا تُهان ولا تصان !

يقولون الزمان به فساد ! وهم فسدوا وما فسد الزمان !

يوجد الآن جيل من الناس لم يشرف أمام الله بركعة ، ولم يرشح فؤاده المتحجرِّ بذرة من يقين .

انفتحت أمامه الأبواب لضرب الإسلام فهو يهاجمه لحساب سادته ، ويصفنا بأننا دعاة الظلام !

هل إشعار العالم بوحدانية الله ظلام ؟

هل إماطة اللثام عن معالم الوحى ظلام ؟

هل إشاعة العفاف وصون الأعراض ظلام ؟

---

(١) البقرة : ٨٥ .

إن الإستعمار الحاضر يكره النبوات كلها . وليست للصهيونية علاقة بموسى ولا للصليبية صلة بعيسى .

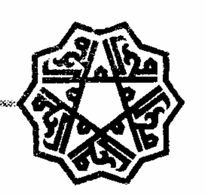
إن ميراث محمد وحده هو الذى صان التوراة والأنجيل والقرآن وعرض على أولى الألباب تعاليم السماء مبرأة نقية !

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

يبدو أن دور المبشرين والمستشرقين انتهى وحمل أعباء وظيفتهم عروبيون وقوميون يختلون الجماهير عن الإسلام عقيدة وشريعة ويعرضونه عنوانا تحته فراغ أو عماء .

* * *

(١) النحل : ٦٤ .



قوم لا وزن لهم.. (٢)

شعرت بالسآمة والغضب للخلاف الذى لاتنطفىء ناره فى بعض الأقطار الإسلامية قلت : ألا يصطلح الأفغان ؟ .

ألا يصطلح الصومال ؟ .

ألا يلتقى المتفرقون فى البلاد الأخرى ؟

كان الخلاف الفقهى قديما سعة عقل ووجهات نظر فى فروع العبادة ثم أصبح تقليدا غبيًا وفرقة شرسة .

وكان الخلاف الكلامى فلسفة عقيمة ونزاعا حاداً فإذا جئته على مر القرون تفوح منها روائح عفنة !!

وهجم الاستعمار على أرض الإسلام المترامية فإذا خلاف من نوع جديد بحسب الجهة التى نكبنا منها !!

وقد تضحك لأننا فى مصر عرفنا شيوعية « ماوتسى توتج » وشيوعية « ستالين » .

إن السيارة إذا تعطلت يمكن أن يشدها حمار ويمكن أن يشدها حصان ، وقد كان الكيان الإسلامى نافد الطاقة فاقد القوى ، فإذا استمكن من زمامه شئ ما ذهب به حيث يشاء . .

والعلمانية الآن تفرض نفسها على الفراغ الإسلامى الذى تصفر فيه الريح شرقا وغربا . . !!

وقد جرح قلبى صحفى علمانى يصفنا نحن الإسلاميين بأننا دعاة الظلام !!

قلت : إن الله عندما أنزل وحيه على محمد قال له : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾[1] .

---

(١) ابراهيم : ١ .

فهل أصبح إنكار الألوهية نورا ؟ !

وهل أصبح العيش بلا وحى نورا ؟ !

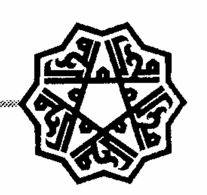
وهل أصبح التقليد الأعمى لمباذل الغرب نورا ؟ !

إن هؤلاء العلمانيين لايعرفون شيئا عن الارتقاء العلمى والتفوق الصناعى ، إنهم خدم للجانب المنحل من دنيا الناس ، وما تاحت لهم فرصة للظهور إلا عند غياب التدين الحقيقى ، وظهور بعض الأشباح فى عالم التدين تستدبر الكون وقوانينه وقواه ، ولاتعرف شيئا عن الملاحظة والتجربة والاستقرار ولا تدرى أن الوحى حياة ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[1] .

إن الصحابة والتابعين ـ وهم مثلنا الأعلى ـ وثبوا على بحر الروم فغيّروا اسمه ، سموه البحر الأبيض كانوا قبل الإسلام لايحسنون إلا قيادة القوافل أما بعدما أسلموا وارتفع بالإسلام مستواهم العقلى فقد قادوا السفن والدول والحضارات ، فهل نعود إلى كتابنا لنداوى به عللنا ونستردّ به صحتنا ووحدتنا ، ونقدمه إلى العالم كتاب حقائق تشفى وتكفى ؟ .

* * *

(١) الأنعام : ١٢٢ .



الذكاء وحده لا يكفي ..

الإيمان يقلّ ويزيد ويضعف ويقوى حسب الدلائل التى تقارنه والمقدمات التى تؤدى إليه ، والفارق كبير بين أن يكون الإيمان تقليدا ميتا وبين أن يكون بصيرة نضيرة .

إن الله أبدع العالم ليدل عليه وليكشف عن عظمته ، كذلك قال فى كتابه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾(١) .

وقد أحس بذلك صاحب القرية التى مر بها وهى بالية خربة فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ وشاء الله أن يميته ودابته قرنا كاملا ثم يردّ إليه الحياة :

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢) .

إن المشهد الذى جعل الرجل يقول : أعلم أن الله على كل شئ قدير . يقع ألوف ألوف المرات كل يوم أمام كل عين ، فمن يحول الأغذية فى كل جسد إلى لحم يكسو العظام ودم يجرى فى العروق وأعصاب تحس الحياة ؟ إنه الله !!

ولكن بعض أبناء آدم لايرى حرجا أن يحيا شبه دابة لا وعى لديها ولا استدلال ! .

قلت : إن الله أبدع العالم ليدل بإبداعه على ذاته الأقدس ولقد سأل الإنسان مرتين هل وجد ما يعيب ؟ ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(٣) .

---

(١) الطلاق : ١٢ . (٢) البقرة : ٢٥٩ .
(٣) الملك : ٣ .

الصواب لا يلد إلا الإيمان والبيئة الحرة قد يوجد بها الخطأ ولكنه يولد ليموت . ولذلك كان الإلحاد والاستبداد قرينين جميعا وفى عقائد المفكرين كان اليقين هو الأغلب . وقد يكفر بعض الناس لآفة فى عقله أو قلبه !

أذكر أنى قرأت فى صباى الباكر كتيبًا اسمه « خواطر منتحر » ذكر فيه المؤلف البائس أنه ذهب إلى مرصد يشهد فيه الأفلاك وهى تدور فى فضائحها الرحب ، فلما شاهد عظمة المجرات وسعة الملكوت خرج وهو يقول أنا كافر بالله !! .

فضحكت ساخرا وقلت : هذا الجحش الكافر ما آمن يوما ، لقد دخل المرصد وهو كافر ، وخرج كما دخل ، إنه يظن الله بقرة فى قرية هندوكية ، أو صنما فى قبيلة عربية ، وأنتظر أن يرى إلها من جِنْس ما يتصور فلما خاب حدْسه أعلن كفره ، وإلى حيث ألقت .

إن الإيمان عقل واسع الذكاء وفطرة بالغة النقاء .

الذكاء وحده لايكفى ، فإن إبليس كان ذكيا ولكن شهوته غلبته والله لايقبل أمرءا خسيسا مهما كان عقله ، والطيبة المغفلة لاتكفى فهى تهزم الحق فى أحرج المواقف ، وتجر عليه العار .

* * *



ساسة يخدعون أنفسهم

قضايا الإسلام الثقافية والسياسية تتدحرج ببطء نحو هاوية حفرها له أعداؤه وارتقبوا بصبر أن تتساقط فيها واحدة بعد أخري !

وإذا كانت بعض الدول العربية قد اعترفت بإسرائيل ، فالبعض الآخر فى طريقة إلى الاعتراف سواء كان فى هرولة أو استخذاء ! والأخطر من ذلك علاقة العرب أنفسهم بدينهم ! .

إن منظمة التحرير الفلسطينية أعلنت علمانيتها من سنوات طويلة ، وعندئذ أعترف العالم « الحرّ» بها ، وبأنها ممثلة الشعب الفلسطينى ، أما حماس مثلا فإن ارتباطها بالإسلام يجعلها جماعة خارج القانون !! .

إن أوروبا وأمريكا تكنان حقدا عميقا على الإسلام خاصة ، وإن كانت تستر ذلك بأنها ترفض الطابع الدينى فى سياستها العامة !! .

هل هذا صحيح ؟ المعروف أن التاج الانجليزى يحمى الكنيسة الإنجيلية فى إنجلترا ، وأن الأحزاب المسيحية الديمقراطية تحكم ألمانيا وإيطاليا وغيرهما ! .

إن ساسة الشرق العربى يخدعون أنفسهم عندما يحسبون العالم طلّق الإنتماء الدينى ، بل إن هذا الإنتماء يقوى ويضرى عندما يكون التعامل مع شعوب إسلامية ، عندئذ يكون المسلمون الأمة المنبوذة الحق ، الذليلة الجانب ، ويكون الرؤساء ، المفضلون فيها هم الذين لاتجرى على ألسنتهم كلمة الإسلام ، والذين لا يحلون حلاله ولايحرمون حرامه ، وهناك أحداث مائعة تمر بالشعوب فلا تومىء دلالتها إلى خير أو شر ، وهى أحداث قصيرة خفيفة الوزن . .

ولكن هناك أحداثا هى مربط الفرس كما يقول العامة ، من هذه الأحداث مستقبل القدس ، فإن اليهود فى تراثهم الدينى وفى هتافهم السياسى يكررون أن القدس لهم[1] ، وقد أفلحوا فى جعل يهود أمريكا طوائف من الإرهابيين يقامرون بمستقبل بلادهم لإنجاح المخطط الصهيونى فماذا سيفعل العرب ؟

---

(١) بعد شهور قليلة أعلن « نتنياهو » رئيس وزراء اسرائيل بناء مستوطنات لليهود بالقدس الإسلامية على مسمع من زعماء المسلمين ورؤساء العالم وابتسامات البله . . « المحقق » .

هل سيظلون يعبدون مناصبهم ويساومون على دينهم ودنياهم ويتركون القدس عاصمة لليهود ؟ !

أم يعلمون أن زمان المساومات انتهى ، وأن هناك منطقا آخر لحماية الأرض والعرض والدنيا والآخرة ؟

إن التوبة إلى الله ليست ورقة يلعب بها ، إنها إعادة بناء التاريخ !

إنها تصحيح مسار خاطىء !

إنها نهاية لتعطيل شرائع وتمويت قيم طاهرة ، إنها جعل القرآن كتابًا للأحياء لا كتابًا للموتى ، وأوامر جادّة لتنظيم الشعوب لا أنغاما خنثة لإراحة القاعدين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ ....﴾[1] .

* * *

(١) التحريم : ٨ .



لوثات المنحلين

القوى المعادية للإسلام تصوِّب سهامها للقمم والسفوح على سواء ، تريد صرف الأمة عن رسالتها وعبادتها وحشدها تحت رايات أخرى لاتمت إلى الإسلام بسبب .

وقد رأيت عمل هذه القوى بين جامعى القمامة وبين حملة الأقلام وقادة الشعوب تريد صرفهم عن المساجد فلايقيمون صلاة !

وعن الصيام فلايعرفون لرمضان حرمة وكما تعطلت شرائع الحدود والقصاص يجب أن تنسى الجماهير بيوت الله ومعالم الشهر المبارك !

فما مبلغ نجاح الاستعمار العالمى فى بلوغ غاياته تلك ؟

الواقع أن طبقات الشعب لاتزال وفيّة لدينها متشبثة بأوامر ربّها ، فالمساجد مزدحمة وعدد من الأغنياء يمدّ موائد الرحمن لإطعام الصائمين الفقراء .

إن الاستعمار نجح بين نفر من المنتمين إلى الشيوعية الذين يتسمَّوْن هذه الأيام بالعلمانيين ونفر من الرؤساء الذين لايعْنيهم أن يحيا الإسلام أو يموت .

فقد تركوه فى حياتهم الخاصة وعاشوا بُعداء عن هواه !

وسمعت أحدهم يزعم أن الصوم يعطل الإنتاج ! ! ، ولذلك أفطر وأمر العاملين بالإفطار .

أى إنتاج تعطل ؟

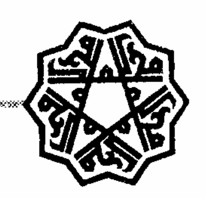
إن اليهود فى دولتهم يعطلون العمل عمدا يوم السبت ، وخلال أعيادهم الدينية كلها . . ومع ذلك لديهم مخزون من القنابل الذرية يستطيعون به إبادة العرب . وهم فى سائر الأيام يتصبَّبون عرقا لإقامة سلطانهم ودعم مستقبلهم ، فما الذى صنعه المفطرون من رؤساء العرب ؟؟ إنهم ما أجادوا فلاحة الأرض ولا حراسة المحاصيل !

وقد رأيت تمثالا للحبيب بورقيبة الذى ألغى رمضان وهو يمتطى صهوة حصان وكأنه ينهب الأرض به نهبا ، واستغربت المنظر فلا أعرف الرجل فارسا ، وإنما أعرفه مقطوع الصلة . بالإسلام وتذكرت قول المتنبى .

وإذا ما خلا الجبان بأرض　　　طلب الطعن وحده والنزالا !!

إن الصيام فريضة يستحيل أن يجحدها مسلم ، وقد يستولى الشيطان على رجل يعبد بطنه ويغريه بالإفطار ، أما إلغاء الشهر فانسلاخ من الدين وخروج من الملة ، فلنحذر على ديننا ولْنحمِه من لوثات المنحلّين .

* * *



الشرك يحفر قبره

يبدو أن الباطل يحمل جراثيم فنائه فى كيانه ، ولكن إعلان وفاته لايتم إلا عندما يستطيع الحق أن يحتل مكانه ويسد فراغه .

وهذه الجراثيم قد تكون فيما ينطوى عليه الباطل من نقائض عقلية ورذائل خلقية ، وقد تكون فيما يقوم به المبطلون أنفسهم من حماقات تدل على فقدان الرشد ، وغباوة التصرف ، ونحن نصدر هذا الحكم بعد تدبر قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1] . وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾[2] .

وعندما ننظر فى فتح مكة وسقوط دولة الوثنية نرى إن الشرك هو الذى حفر قبره وبحث عن حتفه بظلفه ! فقد كانت هناك معاهدة تضع الحرب عن الناس عشر سنين ، فما الذى جعل أهل مكة يستعجلون نقضها ؟ ويسعون إلى ذلك بنزق غريب ؟

ولماذا اعتدوا على حلفاء رسول الله دون سبب وقاتلوهم فى الحرم أو سلّطوا عليهم من يقتلهم ، والحرم يأمن فيه الحيوان والطير ؟

إن قريشًا فقدت رشدها بهذا العمل وقدمت للمسلمين العذر فى معاقبتهم ! فلما جاء شاعر خزاعة المعتدى عليها يقول للرسول :

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا !

وجعلوا لى فى كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا !

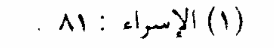
هم بَيَّتُونا بالوتير هُجَّدا وقتلونا ركّعا وسجّدا !!

قال له الرسول : نصرت يا عمرو بن سالم ، وتحرك الجيش الإسلامى إلى مكة ، وحطّم الأصنام وأدّب العابثين ووضع نهاية لطيش الوثنية .

---

(١) الإسراء : ٨١ .

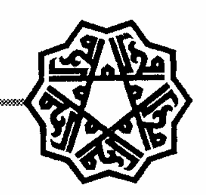
(٢) محمد : ١ .



المهم أن الحق كان أهلا للسيطرة على الموقف وفرض نفسه ومبادئه ، وكم من باطل يستحق الفناء ولكن سنن الله الكونية تركته لأن الحق لم يستكمل أهبته ، ويتهيأ لاحتلال مكانه ، لا على مستوى الأفراد بل على مستوى الجماعة كلها .

وإنى أنصح مسلمى عصرنا أن يرتفعوا إلى مستوى الأحداث وأن يسائلوا أنفسهم : هل لديهم الطاقات العلمية والخلقية والسياسية التى تجعل القدر يورثهم المشارق والمغارب ؟ إن الله ناصرهم فور استكمالهم هذه الطاقات وإلا فسيبقى الباطل يعربد فى الأرض .

* * *



... على رءوس المسلمين ..

هناك نفوس خَيِّرة تعاف الشر وتأبى الانحدار إليه وإذا رأت له أثر فى المجتمع ابتعدت عنه جهدها ، من هؤلاء « أكثم بن صيفى » رأى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرض نفسه فى المواسم أوائل البعثة فقال له : إلام تدعو الناس يا أخا العرب ؟ فتلا عليه الآيات الثلاث بدءاً من قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ . . ﴾[1] . . . إلخ .

والآيات الثلاث تضمنت وصايا عشرا وختمت جُمَلُها بهذه الكلمات « . . لعلكم تعقلون . لعلكم تذكرون . لعلكم تتقون » .

فماذا قال أكثم بعد سماعها ؟ قال والله يا أخا العرب لو لم يكن هذا دينا لكان فى خُلُق الناس حسنا !

كلمة حق من رجل منصف وهى أشرف من ردِّ قريش عند سماع القرآن :

﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[2] .

ويوجد الآن منصفون فى أقطار الغرب لايسرّهم ما هم فيه من فوضى فى ميدان التربية وما تعانيه القيم الشريفة من وحشة فى المدارس والجامعات ! !

وقد أذاع مكتب الأهرام بيننا من بضعة أيام صيحة تحذير عالية أكد فيها مسئولو التعليم فى بريطانيا أن الوضع الحالى للمدارس الانكليزية يهدد الحضارة الغربية ، وقالوا إن القيم فقدت مكانتها ، وأن التلاميذ أصبحوا لا يميزون بين السلوك الصحيح والسلوك الخاطىء .

وناشد السيد « ديرنج رئيس إدارة المناهج » المدرسين أن يعلموا الأولاد القيم الصحيحة ، وإلا فسنعود إلى « البربرية » خلال جيلين فقط !!

---

(١) الأنعام : ١٥١ .　　(٢) ص : ٤ .

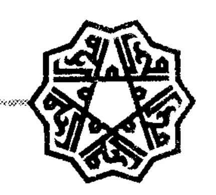
والحق أن عاطفة التدين فى أزمة شديدة ، فهى فى الغرب لا تساوق تقدمه الحضارى ، وهى فى الشرق الإسلامى تواجه مقاومة عاتية وتُعَدُّ حينا بقايا رجعية يجب أن تزول ، أو مظاهر إرهاب يجب أن يُسْحَق . .

وهناك نفر من المرتزقة وظفهم الاستعمار العالمى لهجاء الإسلام وتوهين قواه فى ميادين فكرية شتى وهم يعملون بدأب لبلوغ أهدافهم ولعل الهدف الأقرب أو الأوحد الآن ارتضاء اليهودية دينا يفرض سلطانه على القدس ، ويفرض تعاليم التوراة والتلمود على إسرائيل ! فهذه معاصرة لا تأباها الحضارة .

إن اليهودية جديدة فى كل وقت ، أما القرآن والسُنَّة فيجب وضعهما فى دور الآثار . . .

هل خصومنا ملومون ؟ أحسب أن اللوم يقع على رءوس مسلمين لايزالون يتقاتلون فى أفغانستان والصومال وبلاد أخرى لاتخطر بالبال .

* * *



أرانب غير أنهم ملوك..

معروف أن المسلمين خمس سكان العالم ، وأن هذا الخمس لايعيش فى الجانب الشرقى منه قطعة متماسكة بل ينتشر مع شرايين العمران البشرى وشواطىء البحار العظمى وأودية الأنهار الخصبة وحيث قامت الحضارات كلها فى دنيا الناس ! فهل لهذا الدين الممدود « إعلام » يمثل آماله و آلامه ؟ ويبكى هزائمه ومصائبه ؟ .

إن القوى المعادية للإسلام حريصة على أن لا تكون للإسلام وحدة جامعة ، ولا صفة خاصة ، وعلى أن تضرب عقائده وشرائعه فى صمت ، فإذا صرخ مضروب ذكر اسمه ولم تذكر صفته وتم تشخيص حالته بطريقة تزيد الأمر عماء وإبهاما !! وبهذا الأسلوب لايمكن أن تطالب بإحياء شريعة ماتت أحكامها ، ولا بإحياء تقاليد ماتت روافدها !

أعلم ويعلم عباد الله أن إريتريا دولة مسلمة نصاراها خمس السكان أو أقل ، ولم يكن بها خلاف دينى ، وكان « بأسمرة » عاصمتها معهد أزهرى تولى مشيخته بعض أصدقائى . ثم رأى الصهاينة أن يجعلوا « أسمرة » دولة مسيحية !! وتم لهم ما أرادوا ولم تتحرك القومية العربية العظمى !!

وتحولت الكثرة المسلمة إلى قلة مضطهدة وأمر المسلمون بالسكوت حماية للسلام الاجتماعى !

وبغتة هجم الأسطول الأيرترى على جزيرة « حنيش » بالبحر الأحمر وهى جزيرة يمانية واحتلها !! وانكشفت الخطة التى رسمت فى الظلام .

إن اليهود يريدون أن يحكموا شمال البحر وجنوبه ، وبدل أن يكون بحرا إسلاميا محضا ، ينتقل زمامه إلى الأيدى الأخرى ، وتتعاون إسرائيل وايرتريا على خنق الملاحة فيه ، والمهم أن هذه القضية الإسلامية لن يذكر الإسلام فيها وسوف يموت مجاهدو إيرتريا المسلمون ـ واليمانيون ـ دون أن يذكر للإسلام اسم ، أو يرفع له علم .

إن الخطة العالمية الجديدة تمويت الإسلام بأسماء مختلفة وعندما سمح بوجود لمسلمى البوسنة سمح لهم فى ظل اتحاد فيدرالى مع الكروات وهم كاثوليك - وأظن البابا قد أخذ رأيه فى هذا - شكرا له !!

إن عشرات الألوف من المذبوحين لاتصلح ثمنا لاستقلال المسلمين بأرضهم التى ورثوها عن آبائهم إن النقاء العرقى لخنازير الصرب الذين قتلوا مئات الألوف يجعلهم ملاك الأرض بل ملوكها !!

ومن المسئول عن هذه المآسى ، الساسة الذين كرهوا الإسلام وجعلوه وراءهم ظهريا وعاشوا لدنياهم وحدها . ؟ !

أرانب غير أنهم ملوك   مفتَّحةٌ عيونهم نيام

* * *



حذارى من تدين الخرافة

كانت للعرب فى جاهليتهم أوهام كثيرة لم يستخرجهم منها إلا الإسلام ، فالشعر فن من القول عرف فى أمم شتى ، وكان الشعر مفخرة للعرب خاصة .

لكن الشعراء العرب انفردوا بزعم كاذب ، أن لكل منهم شيطانا يلهمه القول !! بل استحمق أحدهم فقال ـ ولعله كان سكران .

إننى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر !!

والحمد لله الذى شرف العرب بالإسلام فأخرجهم من الظلام إلى النور ، ومن الخيال إلى الرشاد .

والقرآن كتاب علم لايعرف إلا الحقيقة ويغسل العقل الإنسانىّ من الأوهام ويحذّر النبىّ الخاتم من تدين الخرافة والأمم الكذوب : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾ [1] .

والعقل الإسلامى بطبيعته القرآنية غيور على الحق ، ومن هنا فأنا أنظر إلى جماهير من أمتنا مستوحشا لأنها تألف الخطأ ولاتستنكره ، وتنظر إلى الزور ببلادة فلا يتمعّر لها وجه ، ولا يكسف لها بال .

وقد نظرت إلى العبادات الشائعة فوجدت بعض الغيبيات وبعض الطقوس وبعض الأخلاق السلبية . .

قلت أين مجتمع الصحابة والتابعين الذى أمرنا أن نتأسى به ؟

إن السلف الأول خرج من الجزيرة فملأ العالم بالإيمان ، وكنا نحن بعض ثماره !

قال لى شخص بليد متطاول : أتريد أن نكون مثله ؟

---

(١) البقرة : ١٢٠ ،

قلت له : أأمثاله الذين أنتقلوا إلى الأمريكيتين واستراليا وتركوا تراثهم الدينى واللغوى هناك !

إن أمريكا الجنوبية تضم عشرين دولة كاثوليكية تنطق بلغة واحدة هى الأسبانية ، وأنتم والحمد لله - الذى لايحمد على مكروه سواه - تتحدثون إلى اليوم عن الجان الذى يسكن بشرا ويفعل به ويترك ، ما أظن أن الله تارككم دون أن تصيبكم قارعة إذا لم تسارعوا بتوبة !!

لقد كان نبينا يقنت فى صلواته يستغيث الله كى ينقذ أسرى المسلمين ومستضعفيهم ، وكنت أسمع أدعية المبتهلين فى إذاعتنا فلا أسمع شيئا عن أسرانا وقتلانا فى الجبهات التى نفذ منها الاستعمار إلى صميم أمتنا ! .

لماذا لم نستنزل لعنات السماء على الظالمين ، ونوقظ الوعى الجماعى فى أمتنا التى نجح الاستعمار العالمى فى تقطيعها سبعين أمة ، إن رسالتنا إيقاظ العالم ليعرف ربه ، فكيف ننسى نحن هذه الرسالة ؟ !

* * *



إنصافاً لأنفسنا..

أذكر مما شاهدت من تاريخ المسلمين القريب أن بعض مآسيهم كان ينبت فى أرضهم !

وأن ما يلعقون مرارته كان مما زرعته أيديهم ! حتى زعم الإنكليز يوما أنهم أحتلوا مصر لينقذوا الفلاحين الضعفاء من بطش ملاك الأرض !!

وما زعم أحد أن المستعمرين كانوا رسل عدالة ومرحمة ، ولا أنهم خرجوا من أرضهم ليجودوا بما ملكت أيديهم !

ولكن ماذا يقول المرء فى طيش موظف أرعن يظلم لاعب كرة ويحرمه حقًا له ويضطره إلى الإستغاثة « بالفيفا » الجهاز الرئيسى للعبة (!) فيحكم بصرف المبلغ ويهدد بمعاقبة الظالم ويقيم العدالة بالعين الحمراء !

أما كنا أولى أن نستفيد هذا المسلك من ديننا ؟

إننى أزدرى الرجل يترك الصلاة ذهولا عن نعمة الله ، وحق الخالق . .

وأزدرى الرجل تضعه الدولة فى منصب قيادى فلا يفيد منه أحدا ، وإنما يذهب بنفسه ويستفيد الخيلاء والصلف ! والتعامل مع الناس وكأنه على سطح عمارة شامخة! .

والذى يجحد حق الله فى صلاته كافر ، وشر منه الذى يجحد حق الله والناس فى منصبه وفيه يقال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[1] .

هل نخون ونظلم ثم ننتظر من أى « خواجة » فى أوروبا أو أمريكا أن يصيح فى وجوهنا : أتقوا الله !!

---

(١) الكهف : ٢٨ .

الموظف الذى يحتقر أفراد الأمة لايجوز أن يبقى فى عمله يجب تنقية الجهاز الوظائفى منه ، أما أن يتدحرج إلى فوق لأنه يجيد الملق فهذه جريمة . .

وقرأت أن النيابة العامة تحقق مع نصابين عالميين فى مبالغ ضخمة وحسنا فعلت ، فإن نبينا عليه الصلاة والسلام نبه إلى أن هلاك الأولين يعود إلى أنه إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه وإذا سرق فيهم الشريف تركوه .

واللعب بالعقوبات على هذا النحو إهدار للعدالة وإضاعة للمصلحة ، وقد فهمت أن هناك معاملات من قبيل ما يسمى غسل الأموال ! .

وخير ما نلتزمه إنصافا لأنفسنا وديننا « **الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن أتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه** » .

إذا كنا عباد الله فلرب الناس دينه الذى تسعنا حدوده . وإذا كنا مواطنين ـ كما يتنادى العلمانيون ـ فللناس ضوابط تحكم حيوانيتهم ! ثم على العرب خاصة وقد ورثوا الإسلام واجب التقيد به والالتزام لمعاملة والإنفاذ لشرائعه ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[1] .

* * *

(١) النور : ٦٣ .



فريق من الدواب ..

نظرت إلى نفسى وإلى من حولى فى مطلع السنة الفرنجية الحاضرة ثم قلت : إذا كنت من حراس التراث وحماة الأصالة فلا ريب أن الهزيمة التى لحقت بنا فادحة وأن مصابنا شديد فى وعينا الحضارى وحسّنا التاريخى .

إن الجماهير المغلوبة على أمرها فى القارات كلها تجرى فى الطرق لاتعرف لها هدفا وتبحث عن الملذات فى مظانّها تريد التشبُّع منها والبحث عن مزيد ! .

لقد نجح الاستعمار الثقافى فى فرض طابعه علينا وتعليق قلوبنا بكلمات جديدة ـ كما يقول الأستاذ « هيثم الخياط » ـ مثل التنوير ، والحداثة ، والجديد ، والمعاصرة ، والتحرر ، وثقافة العصر !! وهى كلمات تخفى وراءها نسيان الماضى الزاهر ، وتبغى إهالة التراب لا على الوحى المحمدى وحده بل على تراث النبيين أجمعين ! .

سمعت أحد الناس يقول : نحن فى عصر الفضاء والذرّة ، وهناك ناس يعيشون فى عصر الناقة والأطلال ! .

قلت : نحن لا نتكلم فى وسائل النقل ، بل نتكلم فى وظائف العقل !!

إن الذين يجحدون الوحى الأعلى هم فريق من الدوابّ وإن غطّوا أجسامهم بالمزركش من الثياب ونقلتهم الطائرات بين المشاتى والمصايف ! .

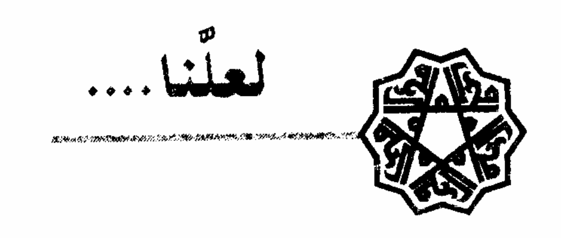
إن الاستعمار الثقافى بدأ منذ قرنين ، يوم أجلب علينا ذلك الطاغوت الماجن «نابليون» بخيله ورجله وغزا بلادنا بأساطيله وجحافله ليقضى على بوادر نهضتنا الحديثة ـ ونترك الكلام للدكتور « هيثم الخياط » ـ يحدثنا عن هذه النهضة التى حمل لواءها آنذاك « البغدادى » صاحب الخزانة ، و « الزبيدى » صاحب تاج العروس . و«الجبرتى» الكبير صاحب المخترعات الميكانيكية والصنائع الحضارية التى تعلمها منه طلاب الفرنجة وذهبوا إلى بلادهم كما يقول « الجبرتى » المؤرخ : فنقلوا إليها معارفنا !

وقد استطاع « بونابرت » أن يحقق مراده بكل شراسة فكان يأمر كل يوم بقتل خمسة أو ستة من التلامذة النابهين لهؤلاء العلماء الأعلام ، ثم كلف خليفته « كليبر » أن يجمع المئات من المصريين والمماليك وأن يسفِّرهم إلى فرنسا ليعتادوا على لغتها وتاريخها ويشهدوا تقدمها وارتقاءها ثم يعودوا إلى مصر مبشرين بحضارة الغرب .

يقول أمين سامى باشا فى كتابه « تقويم النيل » لما غادر الفرنسيون مصر صاغرين حملوا من الأوراق والكتب لا مايخصهم فقط بل كل ما رأوه نافعا . .

فهل نعرف تاريخنا . ونذكر مالنا وما علينا . . ؟ .

* * *



لعلّنا....

هناك حكم يعتمد فى صلاحيته وبقائه على أصول خاصة وأفكار معينة فهو يستمد وجاهته ومكانته من هذه الأصول والأفكار .

ولا ريب أن أى حكم إسلامى يعتمد فى وجاهته ودعم المسلمين له على صلته بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، وهذا الأساس تفاوت مع الأيام تفاوتا قريبا أو بعيدا ، ولست أنظر إلى أحوالنا فى الهجمة الاستعمارية خلال القرنين الأخيرين ، ففى هذين القرنين طاحت أصول واختفت فروض ! ! .

وإنما ألقى نظرة عامة إلى تاريخنا كله فى جزء من حساب النفس لانستغنى عنه أبدا .

ولأبدأ بحساب ضاحك حتى أخفف الوقع على القارئين . .

فى فتح عمورية أرسل قصر الخليفة المعتصم إلى المنجمِّين يسألهم : هل يصلح القتال الآن مع الروم ؟ وبماذا تشير الكواكب ؟ !

وقال المنجمون : الكلمة الآن لكوكب النحس ، وننصح بعدم خروج الجيش !

ولكن فورة الإيمان والحماس طغت ، والغضب للمسلمة التى صاحت : وامعتصماه غَّطت على هراء المنجمين فخرج الجيش الإسلامى ، وفكٌ قيود الأسيرة ، وعاد بها محررة براقة الجبين !! وأنشد أبو تمام قصيدته المشهورة .

السيف أصدق إنباء من الكتب فى حدّه الحد بين الجدّ واللعب

بيض الصحائف لا سود الصحائف فى بطونهن جلاء الشك والريب !!

والسؤال فى ظل حكم إسلامى : كيف يكون للتنجيم مكان ، وكيف يطلب له رأى ؟ ؟ !

وقرأنا فى تاريخنا أن سلطان العلماء « العز بن عبد السلام » حكم ببيع المماليك ودفع ثمنهم إلى بيت المال وهو الذى يقوم بتحرير رقابهم إذا شاء ! !

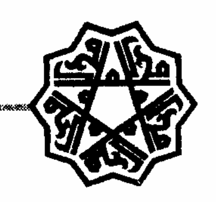
والسؤال مع احترامى العميق للعز رضى الله عنه أتساءل : هل أولئك العبيد أرقاء حقا ؟ أم هم ضحايا تجارة الرقيق التى شاعت فى كل مكان والدين منها براء ؟

إننى أقارن بين المستعصم آخر خلفاء بنى العباس وبين قطز المملوك الذى بيع بثمن بخس ، فأرى أن العبد « قطز » كان أعمق إيمانا وأغلى تضحية وأيمن نقيبة من ألف مستعصم ينتمى إلى ذؤابة قريش !

إن قطز كان حرا اختطف ثم أمكنته الأقدار أن يهب الحرية والشرف لجماهير المسلمين ، أما المستعصم فقد اختطف أمور المسلمين فما أحسن الدفاع ولا أحسن الموت ! ! فسلم بغداد للتتار وسلّم نفسه للجزار ! !

أعتقد ـ ونحن فى طريقنا لإستعادة أمجادنا ـ أننا بحاجة إلى وقفات طويلة من حساب النفس لعلّنا . . . .

* * *



عدت كاسف البال..

انتهت الحرب فى أوروبا بين العلم والدين على النحو الذى ينشده العلماء ، وعاد الكهنة إلى قواعدهم يعملون داخل الحدود التى رسمت لهم .

ولكن العلاقات بين الأديان السماوية الثلاثة حكمتها ذكريات وأطماع جعلت الإسلام - وحده - يترنح تحت ضربات شديدة فقد تيقظت اليهودية بغتة زاعمة أنها المالكة الشرعية لفلسطين وما حولها ! وعلى اليهود المبعثرين فى أنحاء العالم أن يعودوا إليها ويطردوا العرب منها ، ورأت إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الحلفاء أن يساعدوا اليهود فى بلوغ هذا الهدف إحقاقا للحق وإقرار للسلام !!

أى حق وأى سلام ؟ وعلى المسلمين إن كانوا محبين للسلام أن يذعنوا ويتركوا بيوتهم ويرحلوا . . .

ومن ثمانين سنة والمعركة دائرة الرحى ، وقد رأيت خلال هذه الحقبة الطويلة أن اليهودية كسبت جميع المعارك التى خاضتها وأن الاستعمار حالف اليهود بإخلاص .

وأن العاملين فى الحقل الإسلامى تتجمع الخسائر فى كفتهم يوما بعد يوم !

ومن أغرب ما وقع فى دنيا الناس أن يزداد اليهود إيماناً بحاضرهم ومستقبلهم وأن يقع فى العالم العربى فصل بين العروبة والإسلام .

فاليهودى الآن يجنح إلى توراته وتلموده ، أما المسلم فبينه وبين كتاب ربه وسُنَّة نبيه مسافات !

ونصارى نيويورك ينادون بأن القدس عاصمة إسرائيل ، أما العرب بين المحيط الهادر والخليج الثائر فهم يقولون : نبحث القضية ! !

وتأملت مع الثقافة التى تخدم الإسلام فى هذا العصر فضربت كفًا على كفّ ، رأيت صورة غلام فى نحو العشرين جمع شعر رأسه فوق قفاه وبدأ كأنه من فلاسفة

أوروبا فى القرون الوسطى وشرع يقول ـ فى التلفاز ـ إنه مع المبدعين من أمثاله يهتمون بالفنون وينقلونها إلى الحياة ! ! .

عدت إلى نفسى كاسف البال . .

إن الثقافة التى تتنكر للإسلام فى هذه الأيام لون من الخيانة العظمى ، لأنها صرف عن الإيمان وتمكين للإلحاد وهل تطلب الصهيونية أكثر من هذا الذى ينشره العلمانيون بيننا ؟

إنهم يربون شبابهم على خدمة دينهم ، أما نحن فنربى شبابنا على نبذ شعائرنا وتقاليدنا وتراثنا كله ، فماذا يبقى لنا ؟

وبماذا نعيش ؟ ! .

* * *



وكذلك أنزلناه حكما عربيا.

فى الحروب المعلنة على الإسلام من زمان بعيد وجدنا أن القضاء على العروبة خطوة ما منها بدّ للقضاء على الإسلام نفسه .

فالقرآن كتاب عربى اللسان فإن زالت اللغة لم يبق له كيان ، والتراجم ليست أكثر من تفاسير جزئية لبعض المعانى التى تيسرت للمترجم ويستحيل أن تسمى قرآنا أو أن تُعْصَم من الأخطاء . .

وشيئ آخر ينضم إلى النص العربىّ للقرآن الكريم هو وجود أمة تمثله فى الأرض أو تكون نموذجا للعمل به وتطبيقه فى أرجاء الحياة ، والجهود مبذولة الآن لمنع تعانق العروبة والإسلام فى نظام كالذى صنعه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد ربع قرن من الكفاح الهائل فى الجزيرة العربية تحقق فيه قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[1]

والحكم العربى هنا يستوى فيه أن يكون بمعنى الحكمة أو بمعنى السلطة ، فقد تحقّق الأمران معا فى الخلافة الراشدة ! .

والقوى المعادية للإسلام مستميتة الآن فى منع هذا النموذج من العودة ، وألفت النظر هنا إلى أن أهل الكتاب الأولين ـ وأعنى النصارى خاصة ـ كانوا الظهير الأكبر فى بناء دولة الإسلام الكبرى خلال القرن الأول ، فقد كانوا فى وادى النيل وفى دول المغرب الكبير وفى أقطار الشام والأناضول وفى العراق وخراسان واليمن والحبشة كان السواد الكثيف الذى تزاحم على الدخول فى الإسلام ! !

والغريب أن سورة الإسراء المكية هى التى تنبأت بذلك ووصفته فى مشهد عاطفى عميق الآثار .

---

(١) الرعد : ٣٧ .

قال الله لنبيه محمد ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ (1)

هؤلاء النصارى الصالحون فى مصر والشام وغيرهما الذى دخلوا فى الإسلام بحماس وتقوى وهم الذين شدّوا أزره وقوّوا ظهره وهزموا معه دولة الروم وأنزلوا رايتها إلى الأبد من أقطار فيحاء ! !

لكن دراستنا للتاريخ مؤسفة ، وحكمنا بالإسلام شابة خطأ كبير بل شابته خطايا فادحة !

وهل أعجب من أن واليا فى خراسان وآخر فى مصر استبقيا الجزية على من أسلم حتى زجرهما عمر بن عبد العزيز وأعاد إليهما صوابهما ؟ !

* * *

(1) الاسراء : ١٠٦ : ١٠٨ .

ليسوا سواء ..

الحديث عن أهل الكتاب عندنا يحتاج إلى تأمل وأناة ، فإن هناك قوما يقولون عنا لا علاقة لهم بالسماء ولا مكان فى مواريثهم لوحى !! وهم ما يحسبوننا إلا خارج القانون « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا . . . » ، ولا هدى وراء ذلك « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . . . »

أما المسلمون فلا طريق لهم إلى الجنة . . .

وجملة اليهود من هذا الصنف الذى يظن بنا السوء ، ولا يفكر فى اعتراف بنا أبدًا ! وانتظار اعتراف من هنا أو من هناك صعب وعلى صاحب الرسالة أن يؤدى واجبه بصدق وتجرد ، والمستقبل عند الله ولذلك قيل لمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿ فلذلك فادْعُ واسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ولا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ وقُلْ آمنتُ بما أنزلَ اللَّهُ من كتابٍ وأُمِرْتُ لأعدلَ بينَكُمُ اللَّهُ ربُّنا وربُّكُمْ لنا أعمالُنا ولكُمْ أعمالُكُمْ لا حُجَّةَ بينَنا وبينَكُمُ اللَّهُ يجمعُ بيننا وإليه المصير ﴾[1] عليه التشبث بتوحيد الله والإيمان بسائر كتبه و إقامة العدل بين جميع الأتباع إلى أن يجمع الكلَّ يوم الحساب ! !

وليس فى هذا اليوم ظلم .

والطريف أن الوفد الذى آمن من أهل الكتاب عبّر عنه القرآن الكريم بهذه الكلمات ﴿ . . آمنَّا به إنَّهُ الحقُّ من ربِّنا إنَّا كنَّا من قبلِه مُسْلِمين ﴾[2] كأنهم يقولون لا جديد فيما سمعنا فنحن مسلمون من قبل ! !

ويزداد هذا المعنى وضوحا فى وصف الله لأهل الكتاب ﴿ لَيْسُوا سواءً مِنْ أهلِ الكتابِ أُمَّةٌ قائمةٌ يتلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وهُمْ يسْجُدُونَ ﴾[3] إلى آخر ما وصفوا به من خلال التقى والفضل . .

(١) الشورى : ١٥ . (٢) القصص : ٥٣ . (٣) آل عمران : ١١٣ .

إننا نسجل هذه السطور لكى يعلم أهل الاعتدال والقسط إننا نفتح صدورنا لمن شاء التعاون على البر والتقوى .

فإن العالم طافح اليوم بالآثام والمظالم ، وقد استطاع الملاحدة أن يسوِّدوا صحائفه ويملؤوها بالكفر الصراح ، فهل يبقى تبادل التهم ديدن أهل الأديان ؟

وهل تبقى استباحه المسلمين وحدهم قاسما مشتركا يجمع كارهى الوحى ، والضائقين بعدالة السماء ؟

إن الفكر المادىّ يزحف ببطء ولكن بإصرار كى تختفى عقيدة الألوهية والبعث ويعيش البشر فى جاهلية حديثة !

ونحن المسلمين نشفق على الدنيا من هذا المصير ونريد للعقل الإنسانىّ الذكىّ أن يعرف ربَّه معرفة بعيدة عن الخرافة ، وأن تتعايش أجناسه تعايشا قائما على العدالة والتعاون ، وباسم الإسلام نتقدم إلى الجميع كى يرسموا للعالم مستقبلا أشرف .

* * *



... شغل رجال لا حفظ أطفال .

خطرى لى أن أفرح بالعيد كما يفعل الناس ، ولكنى عجزت فإن أعباء الرسالة التى أحملها مع غيرى من الدعاة أنقضت ظهرى وطاردت البشاشة من وجهى !

والأمر يحتاج إلى شرح . .

فإن الله عندما بعث إلينا رسله بالحق قال ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . . . ﴾[1] .

ولكن أتباع الرسل فى هذه الأيام إما فقدوا الكتاب ، وإما فقدوا الميزان ، ثم تعسفوا الطريق فى هذه الحياة فلم يستقم لهم شيىء وغلبهم من ليس لهم كتاب ولا لديهم ميزان ! ! .

كان البحر الأحمر بحيرة إسلامية من إعلاه إلى أدناه .

فأقام اليهود لهم دولة من فوق ثم أقاموا دولة مسيحية بين كثرة إسلامية كبيرة فى إيرتريا لتحرس لهم البحر من تحت !

وكذلك كان البحر الأبيض ـ على عهد الأتراك ـ ثم أصبح شاطئه الإفريقى مسلما منقسما متخلفا وشاطئه الأوروبى يمثل تقدم الغرب فى كل ناحية ، والجهود الآن تبذل لمحو الشارات الإسلامية عن هذا البحر ، وتغليب ثقافة متوسطية عليه ! ، تبدأ بإنشاء مكتبة الأسكندرية لإشاعة هذه الصبغة ! !

وتسأل : أين الجامعة العربية ؟

إن العرب إذا لم يقودوا العالم الإسلامى سياسيا فيجب أن يقودوه ثقافيا والجواب : أن العرب الذين يهرول بعضهم إلى إسرائيل ، وبعضهم إلى أوروبا وأمريكا نسوا

(١) الحديد : ٢٥ .

الحضارة الإسلامية ودوْر العرب فيها وهم الآن يريدون أن يعيشوا بتمويل يهودى - غربى ! !

وإذا غامر العرب بحركة غير محسوبة فلدى بنى إسرائيل سلاحهم الذرى يسحقون به كل معارضة !

إننى رجل مسلم أعرف رسالة محمد معرفة حسنة ، وليس الإسلام غولا تأكل الناس ، إننا نتبع دينا يقول لأتباعه « وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[1] «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ »[2]

والعالم الآن يتجه إلى نسيان الوحى ، وجحد الله ، وافتعال الأديان كما يهوى ! ويستحيل أن نكفر بالله الواحد أو تنسى هدى محمد ، و إذا كان لابد أن نفنى فى سبيل هذه الغاية فمرحبا بالموت ، فإن فناء فى الحق هو عين البقاء . . . ! .

أطالب المسلمين أن يصطلحوا مع دينهم على نحو يرتضيه أولو الألباب ، وأن يعرفوه معرفة شريفة لا غلو فيها ولا تفريط ، وأن يحترموا حقوق الإنسان أيا كان لونه ودينه ، وأن يجعلوا القرآن شغل رجال لا حفظ أطفال .

* * *

(١) الحج : ٧٧ .
(٢) آل عمران : ١٠٤ .



صفحة مطوية من التاريخ .

هذه صفحة مطْويَّة من تاريخ العلاقات بين الإسلام والنصرانية رأيت أن أذكّر بها أولى الألباب .

إن الإسلام كان حاسما فى تقرير عقيدة التوحيد فلم يوارب ولم يتجوّز وأعلن رفضه التام للتعديد والتجسيد وبيّن أن المسلمين جزء واضح من الكائنات التى أسلمت لله وأذعنت لجده وتعرضت لرفده ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١)

إلا أن الإسلام مع هذا الإيمان الخالص عامل النصارى سياسيا واجتماعيا معاملة رقيقة ورأى الاقتراب منهم والتعاون معهم . وظهر ذلك فى موطنين : عندما أمر النبىّ المستضعفين بالهجرة إلى نجاشى الحبشة ليجدوا عنده الأمان ويستريحوا من العذاب ، وعندما واسى الرومان المنهزمين أمام الفرس فى معركة فقدوا كل شيىء فيها وعادوا إلى بلادهم سود الوجوه تاركين النساء والأموال ، وفاقدين شرق امبراطوريتهم بما فيها مصر واليمن والشام . .

ولكن صوتا فريدا لا نظير له فى المشارق والمغارب كان يصيح فى مكة ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ . . ﴾(٢)

كيف قيل هذا ؟

ومَنْ يصدقه ؟

لكن القرآن قال هذا فى السنة الخامسة من البعثة تقريبا وبعد تسع سنين انتصر الرومان واستردوا كل ما خسروه ، فهل اتصلوا بصاحب النبوءة يشكرونه ؟ ويثنون على

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) الروم : ٢ ، ٣ .

صنيعه ؟ ويعجبون لأمره ؟ كلا ، بل زعم أفاك منهم أن محمدا قال ما قال لأنه يكره الفرس بعدما مزّق كسرى رسالة له يدعوه فيها إلى التوحيد !

والرسالة المذكورة صدرت من الرسول حقا ولكن بعد خمسة عشر عاما من وقوع الهزيمة الكبرى !

وصدرت معها رسائل إلى القيصر والنجاشى والمقوقس وذلك فى السنة السابعة من الهجرة ، فكيف تكون سبب النبوءة التى حلّت بالرومان ، وجعلت نهارهم ليلا ؟

إن طىّ هذه الصفحة بإصرار لها دلالة لا تسرّ ، ثم تقدم الجيش الإسلامى ، ودخل بيت المقدس ، وحانت صلاة الظهر وكان عمر يفاوض الرومان فى تسلُّم البلدة فقاله له الأسقف حين حانت الصلاة : حلٍّ مكانك فى الكنيسة . وهذا أدب مشكور ، ولكن الخليفة الراشد قال للرئيس المسيحى : لو صلّيت هنا لوثب المسلمون على المكان وحازوه قائلين : هنا صلّى عمر فلتبق الكنيسة لكم وحدكم !

ولم ير عمر حرجًا من تعدد الأديان والمعابد فى بيت المقدس فماذا كان الجزاء ؟

بعد خمسة قرون ذُبحت جماهير المسلمين فى بيت المقدس ، وخاضت سنابك الخيل فى دمائهم ، ثم استرد المسلمون القدس ، وعفوا عن جميع النصارى به فعادوا إلى بلادهم واقرين ، ومن سنين قريبة دخل « أللنبى »[1] بيت المقدس وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية فهل صدق ؟

* * *

(١) القائد الانجليزى الشهير .



عدو داخل الكيان .

عندما يكون العدو داخل الكيان فإن مكره يكون شديدًا وأذاه يكون فادحا . .

وقديما كان الكفار والمنافقون يعيشون داخل المدينة المنورة يتربصون الدوائر بالمسلمين ويلحقون بهم ما استطاعوا من خسائر ، فلما خرج الرسول وصحابته إلى عمرة الحديبية قال هؤلاء : خرجوا ولن يعودوا ، وسيبطشن بهم أهل مكة ! ! .

فلما عاد المسلمون بعد عقد المعاهدة المشهورة استقبلهم القاعدون يقولون للرسول « شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . . »[1] وكان الرد الإلهى « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا »[2]

وفى غزوة العسرة قال أعداء الإسلام : سيلقى المسلمون حتفهم على يد الروم ، ولن يرجعوا إلى المدينة أبدا . .

وعاد المسلمون منصورين وأقبل المتخلفون معتذرين عن قعودهم « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم »[3]

واليوم يعيد التاريخ نفسه فإن الاستعمار الثقافى نجح فى إغواء عدد من الناس لايخفون كراهيتهم الشريعة الله وضيقهم بالصلاة والصيام وترحيبهم بالخنا والفسوق يسلقون الدعاة بألسنة حداد ، وكلما سمعوا صيحة ضد الإسلام رددوا صداها وأعلنوا رضاهم عنها . . !

وخطر هؤلاء شديد على مناهج التربية ، فهم يعكرون تيارها يبتغون إنشاء أجيال لا عفة لها ولا يقين ، وخطرهم أشد على خطط المقاومة الدينية للغزو الهاجم علينا فهم

(١) الفتح : ١١ .
(٢) الفتح : ١٢ .
(٣) التوبة : ٩٠ .

يرحبون به ويتعاونون مع زبانيته وسماسرته حتى لايستجمع الإسلام قواه ويعود إلى ملء الفراغ الثقافى والسياسى الممتد فى بلاده .

وقد قرأت خمسة أسئلة موجهة إلى عدد من الأشخاص الذين يكرهون الإسلام والأسئلة هى :

١ ـ هل يحافظ الإسلام حتى يومنا هذا على دعوته الشاملة ؟ .

٢ ـ هل يمكن لدولة عصرية اعتماد الإسلام نظام حكم ؟ .

٣ ـ هل النظام الإسلامى للحكم مرحلة يتحتم على الشعوب العربية أن تمر بها فى معرض تطورها ؟ .

٤ ـ هل تأخذ ظاهرة اليقظة الدينية التى برزت فى السنوات الماضية منحى إيجابيا ؟

٥ ـ من هو العدو الأول للإسلام فى العصر الحالى ؟

ونحن لاننتظر من أنصار الصهاينة والصليبيين والعلمانيين أن ينصفونا .

* * *



إننى أحذر جماهير المسلمين ..

تألف بعض الأمم الآثام حتى تمسي جزءاً من كيانها تتمسك به وتدافع عنه ، وفى ذلك يقول الله سبحانه ﴿ تاللَّه لقدْ أرسلْنا إلىٰ أُممٍ مّن قبلك فزين لهمُ الشيطانُ أعمالهمْ فهو وليُّهمُ اليوم .... ﴾[1] .

ومعنى زيَّن لهم أعمالهم جعل القبيح فى عيونهم حسنا ، وجعل المرّ فى مذاقهم حلوا وكرَّه لهم الإستقامة وتراث السماء فهم لايرتضون إلا ما ابتدعوا ولايقبلون عنه بديلا .

قرأت فى الأخبار[2] تحت عنوان « أول زواج بروتستانتى للشواذ تم فى كنيسة بسويسرا » وهو عنوان كاذب فإن السفاح لايسمى نكاحا . والمنكر لايوصف بأنه عمل عادىّ .

ونحن نعلم أن الإسلام ربط بين العقيدة والشريعة وكان من أوائل ما خاصم عليه اليهود رفضهم إقامة حدِّ الزنى كما جاءت به التوراة .

كيف يصح إيمانك بالله إن رفضت حكمه ؟ وكيف تدعى الإيمان به إذا كرهت وحيه ولكن اليهود أماتوا أمر الله حتى أحياه محمد بعد ما أماتوه . وهم الآن يثأرون لأنفسهم فيعودون إلى إباحة الزنى ويضمّون إليه إباحة اللواط وينشرونهما بين الأمم النصرانية التائهة ..!! ويدعون العالم إلى الحرية الجنسية تحت علم هيئة الأمم المتحدة .

واقرأ معى هذا الخبر المقبوح .. « لأول مرة فى سويسرا تم « تزويج » شابين شاذبين جنسيا فى كنيسة انجيلية فى مدينة برن ! وقد تعاهد الشابان أمام القسيس على الحب الدائم والوفاء (!) وتبادلا خاتمى الزواج فى حضور جمع من أصدقائهما وأسرتيهما .. ومعلوم أن الزواج الآنف ممنوع قانونا فى سويسرا ولكن الحفل أقيم بشكل يتطابق مع الزواج العادى .

---

(١) النحل : ٦٣ .

(٢) تاريخ : ١٤ / ٧ / ١٩٩٥ .

وقد قال القسّ « كلاوس بوملين » يصف حفل الزواج ـ كما سماه : « إنها بادرة تعويض بسيطة حيال مثيلى الجنس الذين رفضهم الكنيسة ولاحقتهم طوال قرون » !

.

وكانت الدانمارك أول بلد فى العالم يعترف قانونا بهذا العقد .

ومنذ شهور « دعا البرلمان الأوروبى الدول الأعضاء فيه إلى منح الشواذ ـ المتزوجين ـ الحقوق والواجبات التى يتمتع بها الأزواج العاديون » ! !

إنه يحزننى أن أسجل هذا الخبر الوضيع ، بيد أننى وجل على مستقبل الإسلام فى أمته وفى العالم بعدما أنتصر الاستعمار التشريعى فى كثير من أقطارنا ، وأبطل حرمة الخمر والزنى !

كان القذر الجنسى يتم فى خفاء ، ثم صار يبدو على استحياء ، ثم تواضع عليه الرعاع ثم صار قانونا يعمل به ، ثم انعقدت مؤتمرات عالمية تدعو إليه ولا ترى فيه عوجا . . . !

إننى أحذر جماهير المسلمين من ناشئة حديثة تكره الله ورسوله ، وتنقم على الإسلام وتراثه ، وتريد باسم العلمانية والثقافية الإنسانية أن تعيدنا إلى جاهلية عمياء .

* * *

هل يعي المسلمون هذه الدروس ...

كأن المؤسسات الدولية الكبرى فى حالة احتضار فهى لم تقمع ظالما ولم تؤدب عاتيا ولم تجفف عبرة مظلوم ولم تضمّد جراح منكوب ، مع أن الأصل فى قيامها حماية الحقوق ومنع العدوان !

وإذا بقى ساسة أوروبا وأمريكا على هذا الجمود أو هذا النفاق فإن مستقبل الإنسانية كلها سيتشح بالسواد ! .

إن الجاهليات القديمة لم تخل من رجال فى شمائلهم نبل ، وفى طباعهم رحمة قرروا الوقوف مع مَنْ هضم حقه حتى يسترد هذا الحق بالسلام أو بالسلاح .

أما اليوم فالمصاب ينزف حتى يموت دون مواساة أو نجدة لاسيما إذا كان مسلما !! فإن ترك منكوبيهم حتى يهلكوا شئ لا حرج فيه ! ولعله مقصود . . .

لقد ذهبت عصبة الأمم مع شرف الدوافع التى أوحت بإقامتها ، كانت فى دماء الأمريكان بقايا من نخوة « لنكولن » محرر العبيد[1] ، وكانت فى دماء الحلفاء بقايا من كره الصلف الألمانى والأسى على ملايين الهلكى ! لكن العصبة القديمة سادها الجبن عن مواجهة الظلمة وعجزت عن مقاومة الاستعمار الإيطالى وهو يعربد فى أفريقية فانتهت .

والواقع أن مساندة الحق شرف لاتستطيعه أية دولة خصوصا من تنكرت لرسالات الله . .

ثم قامت هيئة الأمم ، وتولت الإشراف عليها دول عظمى خمس أكثرها لها تاريخ فى السلب والنهب فكيف تقوم بدور الأستاذ المؤدب أو القاضى العادل ؟ وبين هذه الدول والإسلام ضغائن لا تريد نسيانها ، ومن ثَمَّ فهى تكره شعوبه وتتآمر على حاضرها ومستقبلها .

---

(١) فى الولايات المتحدة الأمريكية .

لقد أنشأت هيئة الأمم دولة اسمها إسرائيل بَنَتْها من أنقاض فلسطين العربية ، وسلحتها بما يجعلها قادرة على أن تهزم الدول العربية جمعاء ومكنتها من القنبلة الذرية ، وحظرت على العرب والمسلمين هذا السلاح ، وعندما انهارت الشيوعية العالمية وتم تفكيك دولتها الكبرى إلى دويلات ضمنت هيئة الأمم على المسلمين أن تكون لهم دولة فى أوروبا وتركت الصرب تلتهم البوسنة وحظرت توريد السلاح على البوسنة المحروبة المنكوبة ، والمسلمون فى « يوغوسلافيا » السابقة هلكت فرادى وجماعات ، وتشرف الآن هيئة الأمم على تشتيت الضحايا وإذاقتهم الهوان .

فهل يعى المسلمون هذه الدروس ويعتبرون ؟

أم يظلون يتخذون دينهم لعبا ولهوا ؟ .

* * *



معالم وذكريات الإنهيار ..

لا أدرى لماذا يخالطنى الشعور بأنى أعيش فى القرن السابع أيام سقوط بغداد ووفاة الدولة العباسية ، أو بعد ذلك بقرنين أيام سقوط غرناطة واختفاء الإسلام من الأندلس ؟ نعم أنا أحيا فى القرن الخامس عشرة للهجرة .

والمسلمون خمس العالم وينتشرون فى كل القارات ، بيد أن هزائم ثقيلة تنزل بهم ومؤمرات لئيمة تحاك لهم وظلمات كثيفة تتجه إلى مستقبلهم ويستحيل أن يبتسم مسلم مخلص وهو يرى هذا الهوان يكتنف دينه وقومه ! !

وكيف يبتسم وهو يرى الأخطار تتجه إلى قلب أمته وأطرافها ، والأعداء وهم جادون فى الإجهاز عليها ، ومع ذلك فجماهيرنا تلهو وتلعب !

إن الذنوب التى نقارفها والتوافه التى تشغلنا هى الثغرات التى ينفذ العدو إلينا منها ، ويحكم قبضته علينا ، ولانزال نلفت الأنظار إلى مصادر الخطر على حياتنا كلها ، أنها .

أولا : مواريث الثقافة المغشوشة التى تحتضن البدع والخرافات ، ولا تعرف عادة من عبادة ولا دكنًا من نافلة من ولا دنيا من آخرة ، ولاترسم للإسلام صورة صحيحة تبرز فيها أجهزته الرئيسة وسماته التابعة ، وأهدافه الأولى ومطالبة الثانوية . . .

وثانيا : ما وفد به الاستعمار الثقافى للحضارة المنتصرة ! إنها حضارة تعبد اللذة ، وتزدرى الآخرة وتنسى الله وتجحد حقوقه وقد سخرت الأرض ـ التى خلقها الله لعباده ـ لخدمة إلحادها على حين وقف المؤمنون الذين يجهلون قواها لايحسنون دفاعا بل لا يستطيعون حراكا . . .

إن الدعاة الحقيقيين للإسلام لابد أن يكتئبوا ولايعنى ذلك تكاسلا واستسلاما ، أنهم يشهرون عن سواعدهم ويرتبون صفوفهم ويدافعون عن دينهم ، ولايزالون فى كفاح حتى يحكم الله لهم .

* * *



كثير من البصيرة فى كتب التراث .

أرمق بقلق بالغ بعض النصائح الدينية التى توجه إلى الجماهير ، فإن المادة العلمية فى بعض كتب التراث تحتاج إلى استدراك وبيان ، والغارة الثقافية على دار الإسلام تحتاج إلى مواجهة حذرة ، وأساليب جديدة .

وسلسلة الهزائم العسكرية والسياسية التى أصابت المسلمين فى العصور الأخيرة توجب تكوين دعاة من طراز خاص !

دعاة لايعمَوْن عن الواقع ولايزيدون الطين بلَّة !

سمعت خطيبا يقرأ الآية « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ »[1] ثم يُرْدِفها بحديث رواه أن الرسول قال : « لا أرضى ومن أمتى واحد فى النار » !! وضجت الدهماء من السرور وأيقنتْ بحسن الختام . .

وهذا المسلك كله عبث بالإسلام وخيانة لجماهيره و إظلام لمستقبله إن قتال حياة أو موت يدور الآن فى جبهات شتى ، والرحى الدائرة توشك أن تطحننا ، وخسائرنا تترى ، ولايجوز فى هذه الحال إلا تكرار العقْد المأخوذ على المؤمنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾[2]

هل أُلِغَى هذا العقد وأمسى تقسيم الجنة بالمجان ؟

لا طريق إلى الجنة إلا بالعمل المجهد المتتابع ، والويل لنا إذا استسلمنا للخيالات وتصبَّب أعداؤنا عرقا . . .

---

(١) الضحى : ٥ . (٢) التوبة : ١١١ .

قال صوفى طائش : إن حديث « لن يدخل أحد الجنة بعمله » يمثّل الحقيقة وإن آية « ادخُلوا الْجنّة بِما كُنتمْ تعملُون »[1] تمثل الشريعة فقاطعته على عجل : دعك من هذا الخبال .

إن أعداء الإسلام لايسرّهم شيىء كهذا اللغو .

يجب تجنيد المسلمين قاطبة لمواجهة الهجوم الذى يتعرضون له يريد استئصال شأفتهم ، أما حديث لن يدخل أحد الجنة بعمله . . فالمراد به محاربة الاغترار بالعمل والاجتراء به على الله ، ولايعنى بتة ترك العمل والإستسلام للكسل .

وقد جاء على لسان أهل الجنة « لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبّنا بالْحَقِ »[2] ثم جاء هذا النداء « ونُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنتُم تَعْمَلُونَ »[3] ! !

يؤسفنى أن كتب التراث أصبحت كالصيدليات المفتوحة دون حارس يدخلها من شاء ليأخذ منها ما شاء وقد يقع على عقار يكون فيه حتفه ! .

ربما سمعت متحدثا فى الدين لا فقه له فأذكر قول شوقى :

أخطيـــب أنـــت أم خطـــب و إن   لم تهنْ . والخطب أحيانا يهون ! !

* * *

(١) النحل : ٣٢ .
(٢) الأعراف : ٤٣ .
(٣) الأعراف : ٤٣ .



توضيح للردة ..

أنا واحد ممن يعمرون هذا الملكوت مسبحِّين بحمد ربهم ومقدسين له ، أكره الإلحاد بقدر ما أحبّ ربى ، وأحتقر الكفر بقدر ما أعلم من مجد الله وجلاله وقيام السموات والأرض به !

وقد ابتلى المسلمون عقب استعمار أوروبا لبلادهم بعصابات من الناس ترفض الإيمان وتريد أن تعيش بلا عقيدة ولا شريعة .

وظاهر أن أوروبا ـ بعد انسحابها من بلادنا ـ تعتبر هؤلاء أبناءها الأماثل وتعينهم ماديا وأدبيا سرا وعلنا .

وقد حكم القضاء النزيه على واحد من أولئك المرتدين[1] بعدما استعرض كتاباته وكشف ما بها من سموم .. وفوجىء الناس بأشخاص يشغبون على هذا الحكم ويلغطون بكلمات نابية ، خلاصتها أن حرية الكفر جزء من حرية الرأى ، وأن لمن شاء أن يدير ظهره لأحكام الإسلام[2] ! ! .

وقد قلت ومازلت أقول : إن من استبطن الكفر وخَبَأه فى أعماق نفسه أو عاش به فى قَعْر بيته فلا سلطان لنا عليه ، ولن نكشف له سوأة أو نلحق به سيئة ! ! .

أما من يريد هدم أركان الجماعة ، و إشاعة الكفر والفسوق والعصيان فيستحيل تركه واللغط الذى يفتعله الآن بعض ذوى الأقلام يجيىء أما من شيوعيين يقولون : لا إله والحياة مادة والدين أفيون الشعوب !

وإما من علمانيين يقولون ليس لله أن يحكم الناس ، ويشرع لهم فرادى أو جماعات ما يلزمهم فعله أو تركه . . .

والفريقان يمقتان أحكام القرآن والسُنَّة ، ويريدان طَبّها إلى الأبد والحكم بمالم يشرع الله . . .

---

(١) يقصد : نصر أبو زيد .

(٢) يقول الشيخ الغزالى : « إن حرية الرأى لا تعنى الخطأ أو إعطائه حق الحياة » . . أنظر كتابة الشهير : من هنا نعلم .

وقد عجبت لرجل قانون يقول ليس لكل امرىء أن يتهم الآخرين بالردّه ،لابد من لجنة علمية متخصصة .

حسنا ونحن نحترم التخصص ولكنا نسأل : ما العمل إذا جاء رجل يحمل صفة مستشار أمن الدولة [1]وصاح : ليس فى القرآن ما يفيد أن الخمر حرام ليس فى القرآن ما يفيد عقوبة ، أو حدا للشواذ ، ماذا يريد الرجل بهذا الصياح وهل القول بارتداده يحتاج إلى متخصصين ؟

إن العمال والفلاحين يكتشفون خبيئته ! والموجع أن تنفجر هذه الفتن فى بعض أقطار العرب ، ونزيف الدم الإسلامى مستمر فى أوروبا وآسيا ، ولايؤذن بجفاف أهو إلحاد أم خيانة ؟

إن كفر هؤلاء فى هذا الوقت بعينه خسّة لا تطاق .

* * *

(١) يقصد : سعيد العشماوى .



ماذا بقى للقوم من دين..؟!

الحضارة الغربية السائدة فى أوروبا وأمريكا مُجمعة على تعطيل الأحكام السماوية ، ومستريحة إلى البدائل التى حلت محلها ، وهى تريد من الآخرين أن يحذوا حذوها فيكفروا بشرائع الله ويقرُّوا مكانها قوانين الأرض !

وعجيب أن تسخط الله وتطلب من غيرك أن يسخطه !

ولو أن البوسنة ـ على نحو مًا ـ ظفرت باستقلالها لأرسلت إليها الأسرة الأوروبية خطابا صريحا باختيار أى قانون أوروبى ليحكمها ، ولتوعَّدتْها بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا هى حكمت بشرائع الإسلام !

والأوروبيون يستغلون الآن نفوذهم فى هيئة الأمم لعقد مجامع ومؤتمرات عالمية للرضا بالشذوذ بين الرجال والنساء وإدْخال تقاليده النجسة فى حياة الأمم ، وشراء ضمائر عصابات حملة الأقلام لترضيه الرأى العام بهذا السقوط !!

يبدو أن الدين فى الغرب عنوان على وهم كبير !

أو فراغ روحى رهيب ونتساءل : هل هذا الموقف جديدٌ من أحكام السماء ؟

الغريب أن اليهود فى عصر الرسالة رفضوا تحكيم التوراة فى مآسيهم الخلقية فخاصمهم نبىّ الإسلام كيما يقيموا حكم التوراة المنزلة عليهم !

قال تعالى : ﴿ وكيف يُحكِّمُونك وعندهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يتولَّوْن من بعد ذلك وما أُولئك بالْمُؤْمنين ﴾[1]

كانوا يظنون أن محمد عليه الصلاة والسلام سيؤيدهم فى إماتة التشريع الإلهى ففوجئوا به يأمر بإحيائه ويحكم بتطبيقه !

إنه لايوجد نبىّ من الأنبياء يبيح الخنا ويصالح الزناة ويقر عبثهم فى المجتمع .

---

(١) المائدة : ٤٣ .

ولا يوجد نبيّ يهدر القصاص ويعطل الحدود ويفتح الحانات والمواخير ، إن الأنبياء حماة للطهر والخير وحراس على الحق والنور وقد قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. ﴾ (١)

قال صاحب المنار (٢) المعنيُّ بالرسول هنا موسى أو عيسى فإن اليهود والنصارى خالفوهما قبل أن يخالفوا محمدا ، ولو كان أحدهما حيا بيننا لانضم إلينا في مُخاصمتهم والإنكار عليهم ، ذاك في شئون الأخلاق والمعاملات ، أما في أصول الإيمان فإن انكار الألوهية والبعْث أمر مألوف في أوروبا وأمريكا ، ماذا بقي للقوم من دين ؟!

* * *

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) الشيخ : محمد رشيد رضا .



حلال على بلابل الدوح
حرام على الطير من كل جنس ..

لم أشعر فى السنين الأخيرة أن التعصب ضد الإسلام قد تراجعت موجته أو انكسرت حدته ، بل على العكس تعددت الوسائل وتوقحت وزادت ضراوة الأعداء . ومع أن عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر هى الهدف المنشود إلا أن الهجوم يتجه إلى ما يسمَّى بالإسلام السياسى .

أو إقامة الدولة الإسلامية التى تعيد الحكم بما أنزل الله !! .

ويتساءل أعداء الإسلام : هل يمكن لدولة عصرية اعتماد الإسلام نظام حكم ؟ ونقول : لم لا ؟

ولماذا اعتمدت اليهودية نظام حكم فى إسرائيل ؟

ولماذا أقامت للفاتيكان دولة ؟

ولماذا أظلت الوثنية نظام الحكم فى الهند وحمت هدمه للمساجد ؟

هل ديننا وحده هو الذى يجب حرمانه من السلطة ؟ وتعطيل الأحكام التى جاء بها ؟ ومتى يقع هذا ؟ فى ظروف تسمح لإسرائيل بالتسلُّح الذرّى ، وتكديس قنابل تمكن اليهود من إفناء المسلمين كافة ؟

إن خطة بناء إسرائيل وضعت على أساس أن تقدر وحدها على هزيمة عشرين دولة عربية ! !

وهل يعرف العالم الموازنة السنوية للفاتيكان ؟ إن خزائنه مفعمة بالمليارات التى تنفق على خدمة الكنيسة وتوسيع رقعة التبشير فى القارات الخمس ، ولديه من الناحية الاقتصادية امكانات إحدى الدول الأولى فى العالم ، فهل الإسلام وحده هو الذى يحرم من إقامة دولة تحميه ؟ وتخدم أهدافه ؟

لقد ظل مسجد « يا برى » بضعة قرون فى الهند حتى تذكرت الوثنية بغتة أن أم إحدى الآلهة مدفونة فى ترابه ! !

فهدمته إحياء للصنم البائد ! ولم يستطع ١٥٠ مليون مسلم هناك أن يصنعوا شيئا للدفاع عن شعائرهم ، فهل التعليق على هذا أن يتنادى العلمانيون العرب بحرمان الإسلام من السلطة ومهاجمه الإسلام السياسى ؟ عجبا ، وهل تحترمون الإسلام فى ميدان العبادات أو المعاملات ؟

سمعت أحدهم يقول : يا ريس بلد النور القبلات والأحضان فى الحارات والميادين ، فى الترام وفى السيارات ، رائحة الحب فى الجوّ كلّه ، كنت أريد أن أقول له أتحب أن تكون أختك أو زوجتك فى أحضان آخر ؟ ولكنى سكت لأنى توقعت أن يقول : لا مانع من تبادل المتعة !

إن الحرب على الحكم الإسلامى يعلنها أفاكون وقوادون لايؤمنون بلقاء الله ، ولايحترمون له هداية .

❊ ❊ ❊



أيتام على مآدب اللئام

المسلمون فى المؤتمرات العالمية أضيع من الأيتام فى مآدب اللئام ، والنظر فى قضاياهم لايعرف الإنصاف ولا الرحمة .

من خمسين سنة قضيت هيئة الأمم المتحدة بانتزاع فلسطين من أهلها وجعلها وطنا قوميا لليهود ، وقادت هذه الحركة أمريكا وروسيا ، لقد اصطلح الخصمان الألّدان على رفاتنا وسكتت الدول الأذناب فالأمر لايعنيها وقد يرضيها !

وذهبت إلى قطاع غزة مندوبا من الأزهر لأعايش اللاجئين ، ماذا أرى ؟ بقايا أمة مذبوحة يتزاحم فيها المستضعفون من الرجال والنساء والولدان فى انتظار الصدقات ليحيوا ساعة بعد ساعة ، وأظن الشعب الفلسطينى من أذكى الشعوب العربية وإلاما تحمل كل هذا العذاب .

واليوم تتكرر المأساة الموجعة ، فإن قبيلة اسمها الصرب سلحتها أوروبا بأفتك الأسلحة ثم تركتها تقاتل مسلمى البوسنة لترث أرضهم وتمحو دولتهم بعدما استصدرت قرارا من مجلس الأمن بمنع السلاح عنهم !

لقد تركتهم عزلا يقاتلون الدبابات والطائرات ! ومرت على هذا القتال الذى لاتكافؤ فيه بضع سنين . والمسلمون يقاومون باستماتة ويستغيثون يطلبون النجدة ! ممن ؟ من أقرباء اللصوص الغزاة وشركائهم !

قالت فرنسا : لابد من إعداد جيش لإنهاء هذه المحنة ! وقالت انجلترا عن الاقتراح الفرنسى إنه غامض ومعقَّد !

وقالت روسيا القضية تحتاج إلى حلّ دبلوماسى !

وقالت أمريكا : طائراتنا مستعدة لنقل ممثلى هيئة الأمم المتحدة من هذه البلاد . . !

وأظن الصين لاتزال متريثة فى إعلان موقفها حتى تعرف الثمن !

إن هذه الدول الكبرى لاتتحرك إلا نحو مآربها ولا تبالى بما يصيب الضعاف لاسيما إذا كانوا مسلمين !

ونظرت إلى الأمة الإسلامية ـ وهى خمس العالم عددا ـ فماذا رأيت؟ مجاهدو الأفغان لايزالون منذ هزموا الشيوعية يقاتلون على السلطة ، ما اجتمعت لهم كلمة ، حتى الصومال لاتزال الحرب ناشبة بين طوائفها حول من يتولى الحكم .

إن شهوات الدنيا لا آخر لها فى هذا العالم المتخلف .

ورأيت نفسى فى وفد يذهب إلى البوسنة ليشاهد مآسى اللاجئين المطرودين من بيوتهم ، المصيبة التى عايشتها من نصف قرن ، قالت لى أم تحمل ولدها متى نعود إلى بيوتنا ؟ وتلعثم لسانى فى الاجابة . ماذا أقول ؟

تبكى الحنيفية السمحاء من أسف كما بكى لفراق الألف هيمان

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران

* * *



أوجاع فى القلب

أمل العلمانية فى العالم الإسلامى أن تحرز فى أقطاره ما أحرزته فى تركيا من نجاح ستختفى الشريعة كلها ، وتلحق بها العقيدة بعد حين !

ولاشك أن الإسلام أصيب بضربة موجعة فى تركيا ، وقد ظن الحمقى بعدها أن الأتراك سيطعمون السمن والعسل ! وهيهات !

لقد كانت تركيا عمدة العالم الإسلامى ، وبديهى أن للمنصب مغانمه ومغارمه ، فلما تركته فتحت دكان إسكاف فى جانب يسكنه الحفاة فهى تعيش على الطوى !!

وقد رأيت أنظمة الحكم العلمانية فى العالم العربى فوجدتها تعانى من القحط بقدر ما تبتعد عن الدين وذكرت قول تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[1] .

على أن الصراع بين الإسلام والعلمانية عليه ملاحظات شتى فى تقاليد المجتمع وفى أنظمة الحكم على سواء ، لنفرض جدلا أن المرأة تعانى من « الدونية » أو من الحبس فى البيت ! فهل علاج تلك الأوضاع إعلام يعرض الرقص الشرقى والغربى معا ؟

إن المعالجين هنا أغبى من المرضى !

وقد خبرت زعماء الديمقراطية فى الغرب ، وزعماءها لدينا فوجدت هناك رجالا يخدمون الشعوب ويتصفون بالتواضع الجمّ ، أما فى أغلب أقطارنا فحدث ولا حرج عن الغرور والاستعلاء والجوع إلى الدنيا والشهرة . . .

إن فى العالم الإسلامى أمراضا معقدة لايستأصلها إلا إيمان صحيح وتدين حقيقى .

---

(١) طه : ١٢٤ .

والإسلام ليس مرحلة إلى غاية ما ، إنه استقرار على وضع دائم ، وارتباط برسالة تجمع بين المعاش والمعاد . وقد عاش العرب قبل الإسلام بلا دين فماذا كانوا ؟

كانوا حمالين للتجارة بين الشرق والغرب ! فلما اعتنقوا الإسلام قادوا حضارة بهرت ورثة الفرس واليونان والفراعنة ! ورئى فيها الخليفة الأول يقرع أبواب بعض البيوت ليسأل النساء عن ترشيح الخليفة الثانى بعده !!

إن هذا الخبر يوضع متواريا فى تاريخ الصحابة .

أما ضرب النساء فتوضع أحاديث لجوازه بدون سؤال !!

الحقيقة أن عرضنا لديننا يحتاج إلى وعى وبصيرة ، وإذا وكل أمره إلى بعض المتخلفين عقليا فمستقبلنا فى مهبّ الرياح . . .

إن القدس الآن ليست فى سلطاننا ، ترى من سيذهب إلى تسلمها ؟ « عمر » آخر فى موكب من نافة وخادم ؟ ورجل فى لباس خشن متواضع ؟

إن الإسلام برىء من الفراعنة والقوارين ، فلنعلم ذلك إن كنا مسلمين .

❊ ❊ ❊



إن الله يحب معالى الأمور ....

أهدانى رجل طيب سبحة فاخرة لأختم بها الصلوات ، فتقبلتها منه شاكرا ثم عدت إلى بيتى وأهديتها إلى حفيدة لى .

وبعد أيام قال لى الرجل : لم أرك تستخدم السبحة المهداة !

فقلت له : إننى أقدّر جميلك ، ولكن الأذكار المطلوبة فى أعقاب الصلوات لاتستغرق غير دقيقتين أو ثلاث فأوثر استخدام أصابعى ، ولا حاجة إلى جهاز إحصاء ! .

ولقينى شاب يرقب هذه القصة الطريفة فقال لى : لماذا لم تقل له إن السبحة بدعة ؟

فأجبت لأنه لم يتخذها قانونا ملزما ، ولست ممن يشتغلون بالتوافه !

قال لى : وما رأيك فى ختم القرآن بجملة « صدق الله العظيم » ؟

قلت : أدعو لصاحبها أن يكون صادقا فى ترديدها !

قال : لا أفهم ما تعنى !

قلت : كان المؤمنون فى الأمور المهمة أو الشئون التى تبغتهم يقولون ذلك « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . . . ﴾[1] .

وفى موضع آخر « قل صدق الله . . » وأرجو أن يكون القارىء ، شاعرا بروعة القرآن وجلال هداه وقوة إعجاز فيقول الكلمة من قلبه !

فقال : ليس هناك أمر بها .

قلت : ولا نهى عنها !!

قال : إنك تستهين بالبدع .

قلت : بل أزدرى الاشتغال بالتوافه ! . . إن الرجل الذى تظنّ حوله ذبابة فيطلب النجدة لمواجهتها رجل أحمق ، ومثل هذا يفرّ إذا هاجمه غراب !

(١) الأحزاب : ٢٢ .

واستتليت أقول وأنا غاضب : فى عالم تأمر كبراؤه على اغتيال ضعفائه ، وجهاله على وأد علمائه ، وعَجَزَتُه على اغتصاب أزمَّته وامتلاك قيادته تريد شغلى بهذا الغثاء الذى ملأ أذهانكم ؟ !

إن ساسة العالم أحكموا خطتهم لخنق الإسلام ونسف ركائز الإيمان ، وقد توغلوا فى أرض الإسلام يبغون الإجهاز عليه ، وأنتم على شفا الهلاك تريدون شغل الأمة بخلاف فقهى فى فروع العبادة أو خلاف لفظى فى فهم كلمة ؟ !

ما أنتم ؟ إنكم ذرية الخوارج فى هذا الزمان الهازل !

أين معاقد الإيمان وفضائل الأخلاق وعزائم الأمور ؟ أين أولو الألباب ؟ إننى أنصح الدعاة والمربين مذكرا بالحديث « **إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها** » .

* * *



.. بعدا للسفهاء

أظن المطبخ الشرقى سينتعش طويلا فى رمضان ، وسيتأنق أكثر مما يتأنق طول العام ، لأن رمضان فى حياتنا شهر الطعام وإن سُمى شهر الصيام . . ونفقات الشهر تفزع أرباب البيوت ، وقد تكلفهم فوق ما يطيقون ولا أدرى لم هذا الإسراف كلّه والشهر المبارك شهر اقتصاد وقناعة ؟ !

إن تقاليد « إسلامية » كثيرة يجب أن تراجع ويحذف منها ما يأباه الإسلام !

ولا بأس من اختصاص الفقراء والمساكين ببعض الأطعمة التى يشتهونها فهذا من البرّ بهم والعطف عليهم . .

إن الإسلام اشترط لقبول الصيام الإيمان والاحتساب واللفظان يقتضيان تحمل التعب هنا إبتغاء ما عند الله هناك ، وليست خدمة الجسد بأطايب الطعام وإجابته إلى كل ما يشتهى من مفهوم الإيمان والاحتساب ، ولا هى الوسيلة المثلى لمضاعفة الثواب !

ما معنى روحانية الشهر إذن ؟

وفى رمضان تطيب قراءة القرآن بالليل والنهار وعن ابن عمر رضى الله عنه « من **قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لايوحى إليه ، لاينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ولا أن يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله** » !! والمعنى أن الاكتفاء الذاتى خُلُق القارىء المخلص فلا يحزن على فائت ، ولايلهث وراء مطمع ! إن ما لديه كثير ، فليعرف قدره !

وفى عصرنا هذا رأيت فى القاهرة مجالس قرآنية غريبة ، قارىء معجب بصوته تحيط به جماعة من المفتونين بالموسيقى ، يتصايحون كلما سمعوا تطريبا أو تغريدا ، ولا علاقة لهم أبدا بالمعانى والعبر .

هل هذا هو الأدب مع القرآن ؟

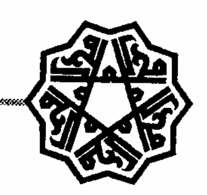
إن هذا الكتاب بنى أمة ساحقة وأقام حضارة مشرقة . فهل يسوغ أن يلتف حوله الجهلة على هذا النحو . وبانى هذه الأمة إنسان لايعرف المجون تحمَّل فى ذات الله العنت ، وسأل عرقه ودمه وهو يبنى ، ووجد من أعداء الحق ما يسوء فهل يُعامَل تراثُه بذلك التهريج ؟

روى عن سعد بن أبى وقاص أن رسول الله قال : « **إن هذا القرآن نزل بحزن ، فإذا قرأتموه فأبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا** » أى تذكّروا ملابسات نزوله وجِدَّ الرسول فى تلقّيه وتعبه فى تطبيقه والعمل به فى والمصير الأسود للمنصرفين عنه !!

أخشى أن يكون هؤلاء هم المعنيِّين بقوله تعالى : ﴿ **وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾[1] .

* * *

(١) الأنعام : ٧٠ .



الأيدى المتوضئة...

كلما جاءت ذكرى العاشر من رمضان ذكرت الخامس والعشرين منه عندما التقى المصريون والتتار فى عين جالوت قبل ثمانية قرون ! كانت الشائعات المنتشرة أن جيش التتار لايقهر ، وأن أحدا لايستطيع الوقوف أمامه حتى جاء السلطان « قطز » ففضح هذه الخرافة ، وبيّن أن الإيمان الوثيق يفعل الخوارق كذلك كان المصريون تجاه اليهود على ضفاف القناة ، فقد ذوّبوا قواهم وكسروا متنهم وأذلوا كبرياءهم وتركوهم شذر مذر !

وكنت يومئذ فى المغرب ـ إذ كانت المعركة مباغته ـ وكنت أتلهف على سماع آخر الأنباء فقال لى صديق : الإذاعات الأوروبية تقول : إن الهمجية عادت ، وإن صياح التكبير يسمع على امتداد خمسين ميلا ، ودويه يغطىٍّ على زئير المدافع فقلت هذه بشائر النصر !

إن الأوروبين يسمّون التكبير همجية ، والعلمانيين يسمونه رجعية ونحن نسميه إيمانا وتوكلا واستنادا إلى الله ، وقد ساندنا ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾[1] .

فاختفى خط بارليف ومُزّقت فرق المدفعية التى تظاهرُه ، وهرب الطيران اليهودى ، واسيقظ الإيمان المخدّر فى ضمير كل مصرى فإذا هو يَسوق الضباط اليهود أمامه أسرى!

إن الإيمان صانع العجائب ، وقد لجأ « قطز » إلى هذا الإيمان عندما قتل « مندوب » التتار الذى جاء إلى القاهرة يطلب منه التسليم . تم طلب من الجيش المصرى أن يدافع عن شرفه ودينه وبلاده . .

وعندما وقع شئ من الاهتزاز فى ناحية من الجيش صاح : واإسلاماه ! فمحت الكلمة الكبيرة كل تردد وتحول الجند إلى مَرَدَة لايثبت أمامهم شئ فإذا التتار يولون الأدبار وتملأ جثثهم الأرض الفضاء .

كان العبد قطز أشرف وأشجع من الخليفة العباسى الذى استسلم فى بغداد وترك النار والدمار يأتيان عليها . .

(١) البقرة : ١٤٣

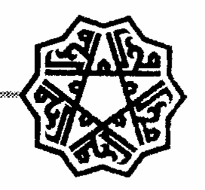
وفى العاشر من رمضان كان لفيف ضخم من علماء الأزهر يربطون على القلوب بالإيمان ويعبدون الحياة إلى صيحة التكبير التى يراد إخفاؤها !!

ورأيت الدبابات التى أعطبها فى السويس الشباب المصلى فى مسجد الشهداء ، ومعهم إمامهم حافظ سلامة ما أشجع أولئك الرجال .

ولا أنسى المهندس أحمد حمدى الذى كان يصلى معى فى مسجد المعادى ، وقتل وهو يبنى جسور العبور على شواطىء القناة رحم الله شهداءنا .

إن الأيدى المتوضئة صنعت خوارق العادات . . . .

* * *



حلوا مشكلاتكم فى صمت

مع قلة الأيام التى قضيتها فى الولايات المتحدة فقد شعرت بأن الخلاف الفقهى ترك آثارا غائرة فى نفوس العامة وربط انتباهم بالأمور السطحية والشئون التافهة ، وليتهم اهتموا بالعقائد والأخلاق وسيطرت على مسالكهم القيم الرفيعة للإسلام والظروف الحرجة التى يمر بها الآن ، إن تلاوة القرآن قبل الجمعة قضية تستحق العرض على هيئة الأمم أكثر مما تستحقّه قضية كشمير مثلا .

وقد قلت لمهتمين ذبائح أهل الكتاب وما يحرم وما يحلّ : إن اليهود يحرمون الخنزير مثلكم ، ويرفضون أنواعا شتى من الأطعمة .

وقد حلوا مشكلاتهم فى صمت وعرفوا المحال التى يستريحون إليها أو التى يعتزلونها دون لغط ، يؤسفنى أنكم هواة كلام وجدل وقد نقلتم سيئاتكم إلى مهاجركم وظننتم الإسلام يخدم بطول الحديث فى الفقه ومذاهبه !!

إننى أنصح مدرسى الفقه فى بلادنا أن يعدُّوا الخلاف واقعا لا مفر منه ، وأن يعرضوا وجهات النظر المختلفة بسماحة وهدوء . فلا عداوة بين إمام وإمام ولا معركة بين مذهب ومذهب ، وأن يعودوا بالجماهير إلى دوائر الأخلاق التى استهانوا بها ، وإلى جذور الإيمان التى نأوا عنها . . !!

إن بعض الدهماء يكنّ فى صدره غلاً لمن يصلى أو لا يصلّى تحية المسجد والإمام على المنبر ! لم هذا الغلّ ؟ وأين طاحت أخوّة الإسلام ؟

إن بعض الناس ينظر إلى شُعَب الإيمان كما ينظر الأحْوَل إلى مجموعة من السلع فيرى أشياء ويعمى عن أشياء ويمضى فى طريقه مستصحبا هذا الحوَل العجيب ، ويؤسس أحكاما مقلوبة على الأشخاص والأشياء لا صلة لها بالواقع .

وقد لاحظت أن « غاندى » فيلسوف الهند الأكبر قتله هندوكى متعصب ، وأن « رابين » الذى قاد قومه إلى نصر هائل سنة ١٩٦٧ ضاعف به مساحة إسرائيل

وأخزى به العرب قتله يهودى متطرف ! وأن « علىّ بن أبى طالب » بطل الجهاد الإسلامى قتله أحد الخوارج !!

إن هناك متدينين يفقدون روح الدين ، ويهتمون بأزيائه وشاراته ثم يجرون فى أنحاء المجتمع يحسنون الاتهام لا التبرئة والهدم لا البناء وعلينا نحن الذين يعرفون الدين ويدعون إليه أن نحسن التفقيه والتربية وأن نتعهد البواطن لا الجلود والقلوب لا الملابس .

* * *



منساقون لا سائقون

تعطيل الوحى الإلهى مألوف بين أهل الكتاب الأولين . ومن السهل أن يكون هذا الوحى حبرا على ورق ! أو زعما لا حقيقة له ، ولما كان اليهود وغيرهم يحبون أن يشيع هذا الفساد بين المسلمين فقد حذر الله أمتنا منه فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1] .

ولكن أوروبا فى زحفها الاستعمارى الأخير طلبت إلى الحكومات الإسلامية المهزومة أن تعطل كثيرا من النصوص ، وأن تتناسى تعاليم الحلال والحرام والحدود والقصاص وكان لها ما أرادت ! والغريب أن هيئة الأمم عندما نظمت مؤتمرى السكان والمرأة كانت تريد الإجهاز على ما بقى من معالم الوحى السماوى فأقرت أى علاقة بين رجل وامرأة ، أو امرأة وامرأة أو رجل ورجل .

ورفضت اعتبار ذلك جرائم زنى وسحاق ولواط !!

والحضارة الحديثة بعد انسلاخها عن الدين لاترى فى ذلك حرجا !

وفى أطوار مجتمعنا ناس يحبون ذلك ويمهدون له ويدعون إليه ، إنهم موالون للاستعمار الثقافى والاجتماعى الكاره لما أنزل الله .

وقد نبهنا القرآن إلى هؤلاء المنافقين ودسائسهم وتعاونهم مع الحاقدين على الوحى كله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[2] .

هل يلام المسلمون إذا قالوا لأهل الكتاب احترموا الوحى النازل عندنا وعندكم ؟

(١) الحديد : ١٦ .

(٢) محمد ٢٦ : ٢٨ .

وإذا كان أصحاب الكتب السماوية يهملونها ويرفضون ما بها فلم ينتمون إليها ؟

لهذا يقول الله لمن سبقونا :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[1] .

نظرت إلى مبنى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك ثم شعرت بأنه ليس لله نصيب فيه . إن الدول الكبرى المشرفة عليه لا ترجو لله وقارا ولا تثبت له حقا ! وأول وليد شرعى للهيئة الموقرة هو دولة إسرائيل !

أما العرب ورسالتهم ففى مهب الرياح ، ولقد تساءلت هل يعلم العرب أن لهم رسالة خاتمة ووحيا مهيمنا وعلاقة قائمة بالله العلى الكبير ؟

يبدو أن العرب نسوا أو تناسوا ، إنهم منفعلون لا فاعلون ومنساقون لا سائقون .

* * *

(١) المائدة : ٦٨ .



كلما عاهدوا عهدا ...

كان اليهود قد وعدوا فى اتفاقهم الأخير مع عرفات أن يطلقوا سراح السجينات الأسرى ، ولكن رئيس الحكومة رفض الوفاء بهذا العهد ، وظلت السجينات فى السجون إلى الآن !

إن الوفاء يُعتصر اعتصاراً من القوم لأنه ليس من خلائقهم وتذكرت الآية الكريمة ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(١) .

شعرت كأن الآية نزلت اليوم ، والواقع أن نكث اليهود بالعهود غريزة فيهم ، إنهم لايخافون إلا العصا حتى قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾(٢) .

وقد تتبعت الخصال التى لام الله عليهم أهل الكتاب من مئات السنين فوجدتها لا تزال فيهم إلى اليوم !

إن هيئة الأمم اقتلعت العرب من أرضهم بالسيف . وأسكنت يهود القارات الخمس فى مدنهم وقراهم فهل كان اليهود المقيمون بين ظهرانى العرب يحسون ضيقا أو يجدون حرجا ؟

كلا ، لقد هرب اليهود من وجه الزحف الصليبى على الأندلس واستقروا فى أقطار المغرب ومصر واليمن والعراق فما فكر أحد فى النيل منهم أو التضييق عليهم حتى قال التاريخ : لولا سماحة الإسلام وكرم العرب لباد اليهود فى الحرائق التى أشعلتها محاكم التفتيش !

ومن العجائب أن فى محافظة البحيرة بمصر ضريحا لحاخام يهودى يقام حفل سنوى بميلاده يحجه القرويون كأنه من أولياء الله الصالحين ! واسم هذا الحاخام « أبو حصيرة » .

---

(١) البقرة : ١٠٠ .

(٢) الأنفال : ٥٥ .

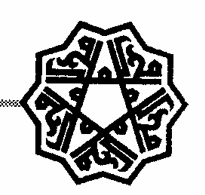
ولما كان عدد اليهود فى مصر يزيد على مائة ألف فإن « سعد زغلول » باشا عندما ألّف وزارة دستورية جعل أحد أعضائها من اليهود هو يوسف قطاوى باشا !! لقد تنوسى كل ما فعله العرب بل عوقبوا بالجرائم التى ارتكبها الألمان وسائر الأوروبيين خلال تاريخ طويل .

إن العرب الآن فى محنة نفسية وتاريخية لأن اليهود تذكروا فجأة أنهم موعدون بالأرض العربية من الفرات إلى النيل ، وأن هذا الوعد من دعائم التوراة ، ومن حقائق الدين !

والدين إذا كان يعنى اليهودية فلابد من احترام وعوده !

أما إذا كان يعنى الإسلام فإن تعطيل شرائعه مباح ، وتعذيب أتباعه مستباح ، وكما قيل : إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه !! .

* * *



تنطع يهودى..

كنت فى « نيويورك » أتحدث مع بعض الدعاة فى شئون الدعوة،فقال لى أحدهم إن حبرا يهوديا بارزا اشتبك معه فى جدال حول الجزية وعاب أمر الإسلام بها !

فقلت له : بم رددت عليه ؟

قال : شرحت له أنها تؤخذ من محاربين لكفّ عدوانهم ووقف فتنتهم وتصرف فى الدفاع عنهم إذا هوجموا وفى معونة الضعفاء والعجزة من رجالهم ونسائهم . .

قلت : حسنا وودت لو أنك أضفت إلى ما قلته ما يفعلونهم بخصومهم إذا وقعوا فى أيديهم ، لقد زعموا أن موسى أمرهم بحرب إبادة لاتبقى طفلا ولا شيخا ولا امرأة ولا وليدة بل إن حرب الاستئصال تتسع دائرتها لتشمل البقر والغنم والحمير واقرأ سفر يشوع الذى أفنى بلدا بأسره وسفرا لتثنيه الذى يقول : « **أما مدن الشعوب التى يهبها لكم الرب إلهكم فلا تستبقوا فيها نسمة حية ، بل دمروها عن بكرة أبيها . .** » .

هذا اليهودى يعيب نظام الجزية ويرى خيرا منه القتل العام ومحو المدن من الوجود وهو ما فعله بنوا إسرائيل فى تاريخهم المشئوم . . !

إن اليهود أبوا إباء تاما أن يعترفوا بالإسلام دينا : ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾(١) .

وفضلوا ـ فى حديثهم مع قريش ـ عبادة الأصنام على عبادة الله الواحد !! وتمنوا لو يعود المسلمون إلى الوثنية : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . .** ﴾(٢) .

فهل إذا هزمهم المسلمون فى معركة ، واستبقوا حياتهم وحافظوا على شعائرهم الدينية وأمنّوا لهم مصالحهم المدنية وفرضوا عليهم لقاء ذلك قروشا معدودات كان ذلك جريمة إسلامية ؟ !

---

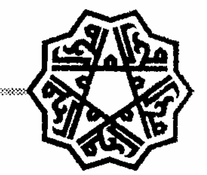
(١) البقرة : ١١١ .　　(٢) البقرة : ١٠٩ .

إن نصوص التوراة دعوة سافرة إلى الهلاك الشامل لسائر الأحياء .

أما نحن فقد قيل لنا « **لاتغدروا ولاتغلوا ولاتمثلوا ولاتقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع** » بل إن نبينا قبل موته وبعد ما خضعت له أطراف الجزيرة العربية ذهب يشترى متاعا من يهودى بالمدينة بثمن آجل ، فأبى اليهودى بكل ثقة وطمأنينة إلا أن يأخذ رهنا ، فقال الرسول للرجل إنى أمين فى الأرض والسماء ، ومادمت تريد رهنا فهذه درعى رهنا !

لو كان فى بلد آخر لقطعت رقبته وصودر ماله ولكنه فى أرض الإسلام الذى نسيت فضائله وجحدت شمائله .

* * *



رؤية جديرة بالملاحظة

جاء فى السنة : « **عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة لكم إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد** » !
وقيام جزء من الليل مستحب طول العام ، وهو سُنَّة مؤكدة خلال شهر رمضان .

وقد لوحظ أن لبعض الناس قدرة على السهر ونشاطا لا يستنفذه سعى النهار تبقى منه فضلة يمكن بها إحياء الليل بمزيد من طاعة الله وتلاوة كتابه . .

فلتكن الليلة بيضاء بالذكر والشكر ، والتدبر والتهجد . .

وقد سألنى بعض الناس هل صحيح أن الرجل يرشّ الماء على وجه امرأته لتصحو ، وأن المرأة ترش الماء على وجه زوجها ليستيقظ ، ليتعاونا على قيام الليل ؟

وقد أجبت بأن ما ورد من ذلك فى السُنَّة ليس بين كل زوجين ولا فى كل الحالات!

إنه فى زوجين ينافس أحدهما الآخر فى طاعة الله ، وقد يعاتب أحدهما صاحبه إذا تركه نائما وكذلك ليس فى كل الأحوال فقد يكون الرجل حمَّال مسئوليات ثقيلة فى أثناء النهار أو يبذل جهودًا فوق الطاقة ومن الخير أن يستجمّ بالليل ليستطيع العمل بالنهار ، وقد عذر الله هؤلاء بقوله :﴿ **عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ** ﴾[1] .

فإذا كان المسلم سليما مستريحا فالأشرف له أن يقوم من الليل ، وأن يضىء الظلام بالتسبيح والتحميد والتلاوة ، وجميل أن تشاركه فى هذا امرأته !! ولابن الرومى أبيات رائعة فى وصف هذه السويعات الغالية قال :

---

(١) المزمل : ٢٠ .

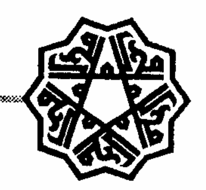
تَتَجافى جُنوبهم | عن وطيء المضاجع
تركوا لذة الكرى | للعيون الهواجع
لو تراهم إذا هموا | خطروا بالأصابع
وإذا هم تأوّلوا | عند مرّ القوارع
وإذا باشروا الثرى | بالخدود الضوارع
ودَعَوْا يا مليكنا ... | يا جميل الصنائع
اعْف عنا ذنوبنا | للعيون الدوامع
فأجيبوا إجابة | لم تقع فى المسامع ..
ليس ما تفعلونه | أوليائى بضائع
وهبوا لى نفوسكم | إنها فى ودائعى ...

نعم ، وهى فى ودائع الذى قال عن هؤلاء المتهجِّدين الشرفاء :

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

* * *

(١) السجدة : ١٧ .



من معالم العدل ..

تمتاز حضارة الغرب بامتلاك أجهزة إدارية حسنة الأداء غزيرة الإنتاج ، ويرجع ذلك إلى جملة من الأخلاق الرفيعة والنزاهة المعجبة فى اختيار العاملين فى الميادين العسكرية والمدنية على سواء ، وقد تابعت اختيار وزير الحرب الجديد فى أمريكا وبهرتنى الطبيعة التى أملتْ هذا الاختيار ، ووددت لو أننا فى العالم الإسلامى نحسن الإستفادة والاعتبار !

يقول وزير الدفاع الجديد : إنه لم يسع إلى هذا المنصب ، بل لم يكن يريده ! وإنما قبله عندما أسند له قياما بالواجب المفروض لخدمة بلاده ، وقال الوزير الذى اختاره رئيس أمريكا الجديد : إنه فى انتخابات الرياسة أعطنى صوته لمنافس الرئيس الذى لم ينجح !! أى أنه ليس تابعا للرجل الذى اختاره ، وهى كلمة واسعة الدلالة ، فهى تشير إلى أن رئيس الولايات المتحدة يبحث عن الأكفاء ولو كانوا من خصومة ، مقدِّما للمنصب أحقّ الناس به ، وهى فى الوقت نفسه تشير إلى أن ولاء الوزير المختار لوطنه أولا وآخرا . . !

لقد طالعت هذه الصورة الوضيئة لملء المناصب وتذكرت سلفنا الأول وقواعد الأخلاق التى كانوا يتبعونها . .

إن ولاية الأمور لاتساق إلى من يسعى إليها أو يحرص عليها ، فإن طالب الولاية يغلب أنه يطلبها حبا للعلو فى الأرض والصدارة بين الناس ، فعن عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « **إن شئتم أنبأتكم عن الإدارة وما هى . فناديت بأعلى صوتى وما هى يا رسول الله ؟ قال : أولها ملامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل ، وكيف يعدل مع قريبة ؟** » .

قال عمر بن الخطاب لأحد الناس : والله لا أحبك ـ وكان قد أصاب أخًا له فى الجاهلية ـ فقال له الرجل : أمانِعى ذلك حقِّى يا أمير المؤمنين ؟

فقال عمر : لا . . فقال الرجل : لا بأس إنما يأس على الحب النساء !!

إن الأعرابى يهتم بالعدل ولا يعنيه من « عمر » أن يكون محبًا أو كارها له !

فى الجوّ الإدارى النظيف يُبحث الموضوع بتجرد ، ويقول كل مشارك ما يمليه ضميره ، لا مكان لملَق ، ولا موضع لاسترضاء كبير أو صغير !

البحث عن المصلحة العامة وحدها ، والغاية إرضاء الله وحده . .

وفى الحديث « **من التمس رضا الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس . ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس** » .

إن العالم الإسلامىّ فقير إلى جوّ إدارى نقىّ لاتغيم آفاقه بالشهوات والمآرب ولا تعكره عواصف الغرض والمرض !

هل ذلك صعب؟ إنه توفر فى بلاد أخرى تشبه سيرتهم سيرة آبائنا الكبار ! نستطيع إن أردنا الانتفاع بتراثنا أو الاقتباس من المعاصرين خصوما كانوا أو أصدقاء . .

* * *



رسل الموت إلى الوادى..

رضيت كل الرضا عندما رأيت الطائرات المصرية تبيد أشجار الأفيون والحشيش التى زرعها بعض البدو فى سيناء وعجبت لقوم يزرعون الخبيث ويتركون الطيب ! لماذا لم يغرسوا قمحا أو شعيرا ؟ لماذا لم يغرسوا فواكه أو نخيلا ؟ إن سيناء من أقطار البحر المتوسط التى تجود فيها زراعة الزيتون فلماذا ماتت هذه الزراعة مع أن القرآن ذكرها منسوبة إلى منابتها ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ (1) .

إن الأجيال تتغير وإن الأراضى كذلك تتغير والذى يرى سيناء الآن يعجب للصغرة والوحشة اللتين تكسوان سطحها وآكامها . .

وذكرياتى فى سيناء بئيسة فقد اعتقلت فى الطور نحو عام ورأيت بدوها لا يكادون يفقهون قولا وشعرت بأن الحكام فى القاهرة قد جعلوا ترابها المبارك منفى لمن ينقمون منه !

قلت لنفسى وأنا فى الطور : هنا هبطت نعمة النبوة على موسى ، سمع النداء المقدس : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (2) .

لقد أمسى راعى الغنم قائد شعب كبير ، ولقد حمل الوحى وذهب إلى فرعون يقول له بأدب رقيق : ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (3) .

لكن فرعون زهد فى هذه الهداية ، إنه يريد أن يعبده الناس لا أن يعبد هو الله !

وحرّر موسى قومه من عبودية قاسية ولكن محرر العبيد لم يكن يدرى أن قومه يحملون للعالم أشد الضغائن ، وأن قلوبهم قُدَّتْ من الحجارة ، إنهم الآن يمنعون «الصليب الأحمر» من تقديم الطعام إلى ثلاثة آلاف عربى جائع فى الخليل ، فرضوا عليهم منع التجوال فهم محبوسون فى بيوتهم ليهلكوا من المسغبة !!

---

(1) المؤمنون : ٢٠ . (2) طه : ١٢ ، ١٣ . (3) النازعات : ١٨ ، ١٩ .

والمعركة اليوم محتدمة بين المستكبرين الذين يرون أنفسهم أتباع موسى وبين المستضعفين الذين يُحْسَبون أتباع محمد !!

وهم لا يربطهم برسالة محمد سبب قائم . .

وشرعت أفكر فى أمتنا وفى أوضاعنا . . .

وعدت إلى زراع المخدرات فى سيناء ، إنهم لو حصدوا ما غرسوا لأرسلوا الموت إلى الوادى وقتلوا بسمومهم ألوف الأسر ، ولكن الله سلّم . .

بيد أن هناك فى ميدان الأدب والفكر أشخاصا آخرين يكرهون الوحى ويخاصمون تراث محمد كلّه ويبذرون فى الحياة بذور الكفران بالله والدار الآخرة إن هؤلاء أضرى على الحياة العامة من ناشرى المخدرات ، ليس من الإبداع أن تحارب الصلاة والتقَوى ! وأن تحتفى بالشهوات والأهواء وأن تمنع عودة المؤمنين إلى كتاب ربهم وسُنَّة نبيهم .

إن هذا تمهيد لجاهلية حديثة ينشدها الاستعمار .

* * *



حياة عرجاء ..

إذا كانت للكرسىّ أو المنضدة أربع أرجل فانكسرت اثنتان أو ثلاث فلن يقوم الكرسى ولن يستقر عليه جالس ، ولن تقوم المنضدة ولن يكتب عليها أحد !! .

وإذا كان الجسم الإنسانى يحتاج فى تغذيته إلى بضعة عناصر فإنه يعتل ويعجز إذا فقد جملة منها ، وتسارع العلل إليه بقدر ما فقد من عناصر ! .

ونحن نعرف إن الإيمان فوق السبعين شعبة ، تتصل بالحياة العامة والخاصة وتمدّ رواقه إلى شئون النفس والمجتمع والدولة ، فما عسى أن يفعل إيمان فقد أكثر شُعَبِه وبقى شبحا متهالكا إذا قام منه جانب مال جانب آخر ؟

جاء فى الحديث أن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله ، فهل تسمع شكاة إذا الجسم مسّه الشلل ؟

أعرف رجلا أصيب بمرض ضاق به فذهب إلى الطبيب فقال له إن جسمك بحاجة إلى « فيتامين » كذا !! ولابد منه .

فقلت فى نفسى : كم من أسباب الحياة والقوة تحتاج إليها أمتنا لتعود إلى الحياة وتستأنف رسالتها ؟

إن عشرات من شُعَب الإيمان غائبة فى حياتنا ومن ثم فنحن نمشى نترنح . . !!

لقد أصلح اليهود شأنهم ثم هجموا علينا مجتمعين فلم تغن عنا فرقتنا ولاتهاوننا ، قلت لرجل قريب منى : هل قرأت مذكرات « وايزمان » ؟ .

قال : لا !

قلت : أذكر منها أن الرجل أحاط به قومه يثنون عليه ويشيدون به لأنه استصدر وعد « بالفور » بجعل فلسطين وطنا قوميا لبنى إسرائيل ، فبماذا أجاب الرجل ؟ .

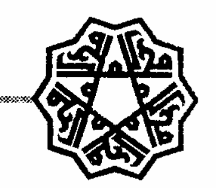
قال : إننى لم أصنع شيئا كل ما حدث أن « بالفور » كان مسيحيا تقيا يؤمن بالكتاب المقدس فتصرّف وفق إيماءات الكتاب الذى يؤمن به ، أما أنا فلم أفعل شيئا !!

انظر إلى « نكران الذات » فى سيرة هذا الزعيم الصهيونى . .

وانظر إلى ما يقابلها من « عبادة الذات » عند كثير من رجالنا ، إن اليهود يبنون دولتهم بالإيمان اليهودى فأين إيماننا بديننا ؟ وأين ابتغاؤنا لوجه الله فيما نفعل ونترك . . ؟؟ .

إن سلفنا الأول من رجال ونساء بنوا دولة الإسلام الكبرى بالإخلاص والتجرد والتضحية ، ولن تبقى هذه الدولة أو قل لن تعود إلا بهذه الأخلاق نفسها هل نبدأ من اليوم محاصرة الأماكن المعطوبة وبدء خطوات النجاة ؟

❊ ❊ ❊



من تلبيس إبليس

قد يكون إبليس أقوى بدنا من آدم ولكنه لم يدخل مع آدم فى حلبة ملاكمة يصرعه فيها وإنما لجأ إلى سلاح الخديعة والإغواء ، وانتهز فرصة غفلة من آدم ، فأخرجه من الجنة .

وهكذا تفعل ذرية إبليس إنها لاتقاتل أبناء آدم بسلاح مادى وإنما تعتمد على الإغراء والاستغفال فى دفع الناس إلى الرذيلة والعصيان !

قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ... ﴾[1] .

فالبشر يلتذُّون بالمعصية والجن يلتذّون بإيقاع الناس فيها وتزيينها لهم !

ولم يقع أن الشياطين استخدمت سلطة قاهرة لإلزام سكير بشرب الخمر ، أو إلزام ماجن باقتراف جريمة ، وسيقول الجن المرَدَة هذا الكلام للناس يوم الحساب :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي** .. ﴾[2] .

ولو كان الجان يملك أن يَحْتَلَّ جسم إنسان فكيف يزعم أنه لا سلطان له وهو قادر على سحق لبِّه وقَلبه ؟

ولا أنكر أن هناك أديانا أخرى تدعى احتلال الجن للإنس وتسخيرهم وإضرارهم ، فقد ذكر « متى » « أن عفريتا دخل جسم إنسان وآذاه فجيىء به إلى يسوع فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان ، وشفى فى تلك الساعة ، فدنا التلاميذ من يسوع وقالوا له فيما بينهم لماذا لم نستطع نحن أن نطرده ؟

---

(١) الأنعام : ١٢٨ .

(٢) إبراهيم : ٢٢ .

فقال لهم : لقلة إيمانكم . الحق أقول لكم : إن كان لكم من الإيمان قدر حبة خردل قلتم لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك ينتقل وما أعجزكم شىء ، وهذا الجنس من الشيطان لايخرج إلا بالصلاة والصوم . . » .

ولمتى أن يقول ما يشاء ولمن شاء من النصارى أن يتبعه وليس لأحد أن يلزمنا أن نسير وراء هذا الكلام ، بل إن فقهاءنا رأوا من باب سدّ الذرائع إغلاق هذا الباب .

فقد تزعم امرأة لعوب أنها متزوجة من القاضى « شمهورش » وأنه هو الذى فضّ بكارتها لا عشيق آخر من الناس !! وبذلك تنتشر الفاحشة دون نكير !!

إن نفرا من القراء فى الكتب الدينية فقدوا القدرة على الميْز بين المعروف والمنكر انتشروا بيننا الآن يتحدثون عن احتلال الجن للإنس ، وقد تحوّلوا إلى جسور لنقل الأوهام والخرافات ، ولا ندرى هل يستعينون بكهنة أديان أخرى .

أم يعتمدون على أوهامهم الخاصة ، ونحن نحذر الجماهير من هذا الهزل ونحضهم على حفظ دينهم .

* * *



رسالة بقلم الشيخ الغزالى ..[1]

الإخوة الملتقون لدراسة قضايا الإسلام وأحزانه ، كان لزاما علىّ أن أكون معكم ، ولكن السنّ والمرض أقعدانى . فأنا فى التاسعة والسبعين ، وفى جسمى جملة أمراض تجعلنى أردّد مع زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[2] .

والحق أنى لا أعيش فى هذا القرن إنى أعيش كأن التتار دخلوا اليوم بغداد ، أو أن الصليبيين دخلوا بيت المقدس !

إننى أعيش داخل الهزائم الكبرى التى بلى الإسلام بها قديما وحديثا ، وأشعر باستماتة المدافعين واستكانة اللاجئين وأطماع الذين يريدون طىّ أعلام التوحيد وجهود الذين حمدوا فى أرضهم فما وهنوا وما استكانوا وما ضعفوا ولا خانوا . . .

إننى أيها الأخوة لم أُفاجَأْ بالضغائن التى تقابل الإسلام لأنى أدرك قوله تعالى :

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[3] .

فلنثبت حتى يأتى أمر الله ولن يخلف الله وعده لعباده الصالحين ، ومما يزيدنا أملا فى النصر أن شعب البوسنة وحكومته صف واحد يواجه أعداء الله بعزم وبأس . . وهى ميزة فى الكفاح البوسنى تجعله أرضى لله وأقرب إلى الفلاح . . .

ومازلنا نؤمل الخير فى العالم الإسلامى الذى تتعرض شعوبه لمؤامرات خسيسة لاسيما فى الشيشان وفلسطين وكشمير والفلبين وغيرها .

أيها الإخوان : إننى أدعو الله لكم أن يسدد الخطا ويتقبل الجهود واعتقادى أن فجرا قريبا سوف يطلع على المجاهدين يقر عيونهم :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[4] .

---

(١) بعث الشيخ الغزالى بهذه الرسالة لأخوانه المجتمعين لبحث قضايا المسلمين . فأردنا درجها فيما كتب تعميماً للفائدة . ثم اتصل بهم تليفونياً فيما بعد وتبادلوا معه المقترحات ولما استعسر الأمر سافر بنفسه وهو عليل .

« المحقق »

(٢) مريم : ٤ .

(٣) البقرة : ٢١٧ .

(٤) يوسف : ٢١ .



آخر ما خط قلم الشيخ الغزالي..

الحاجة إلى رسالة محمد لا تزال باقية، فإن الضلال القديم لم تنحسم شروره بل اتسعت في هذا العصر دائرته وتكاثفت ظلمته، الوثنيون اشتد ساعدهم وأهل الكتاب ازدادت المسافة بينهم وبين ما لديهم من صحائف بل أهملوها كل الإهمال..!

ليس التدين علاقة موهومة بالله، فلا قيمة للتدين إذا لم يمنع الإسفاف ويدفع إلى التسامي ويقمع غرائز الاستعلاء وقهر الضعفاء.. إن الحكمة من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تزداد وضوحا في عصرنا هذا الذي تألق فيه الذكاء البشري ولكنه وقع تحت سلطة الهوى الجامح وتربع فيه أهل الكتاب على قمة القوة ولكنهم خاصموا موسى وعيسى ومحمدا وأهالوا التراب على تعاليمهم جميعا لقد قال الله لنبيه الخاتم شارحا حكمة إرساله «تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم. وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» إن أقطار الغرب نسيت الله واليوم الآخر وكرست العمر كله لإضاعة الصلاة واتباع الشهوات. وقد قرأت بغضب تصريحا لزوجة "ميتران" الرئيس الفرنسي السابق وأدركت بعد الشقة بين القوم وبين تعاليم السماء! قيل لها أكان لك ابن غير شرعي من ميتران قبل أن تتزوجيه فقالت للسائل دعك من هذا البحث فربما كشف عن خمسة وعشرين ألف حالة من هذا القبيل! ما هذا البلاء؟ هل خمد الوازع الديني فلم تعد له حركة؟ هل أظلمت الآفاق فلم تر بها إشارة من تقوى؟ يبدو أن الدين الذي يحارب الخنا لا يزال بين جوانحنا نحن! ومع ذلك فإن الغرب - الراقي جدا - عقد عدة مؤتمرات ليجعلنا نرضى بالعلاقات الوضيعة. فطلب منا في القاهرة وبكين أن نرضى بالزواج بين رجلين! وبين امرأتين! أو بين رجل وامرأة بغير عقد! فمن من أنبياء الله قبل هذا الفحش الخسيس أو سكت عنه؟ إننا نحن المسلمين المتقيدين بتراث محمد نناشد الإنسانية أن تتدبر هذا التراث بدل أن تنبذه وتحاربه..

محمد الغزالي

فهرس

رقم الصفحة

رقم الصفحة

رقم الصفحة